منهج
الجدل والمناظرة
في تقرير مسائل الاعتقاد

الدكتور عثمان علي حسن

الجزء الأول

دار إشبيليا
للنشر والتوزيع

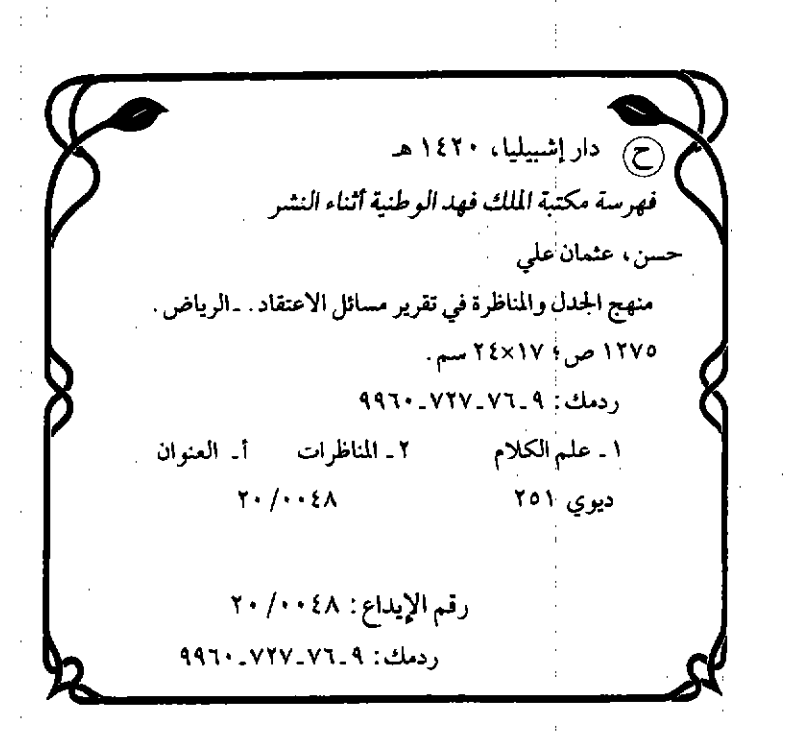
مَنهَجُ

الجدل والمناظرة

في تقرير مسائل الاعتقاد



أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين بالرياض ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد نوقشت وأجيزت من قِبل لجنة المناقشة والحكم على الرسالة المكونة من فضيلة الشيخ/ عبد الرحمن بن ناصر البراك مشرفاً ورئيساً للجنة، وعضوية كل من الدكتور/ عبد الوهاب السيد جعفر، والدكتور/ عبد الرحمن بن صالح المحمود، وقد أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الدكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة مع مرتبة الشرف الأولى، وصادق على ذلك مجلس الجامعة المنعقد في ١٩/٨/ ١٤١٧هـ الموافق ٢٩/١٢/١٩٩٦م.



ⓒ دار إشبيليا، ١٤٢٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حسن، عثمان علي

منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد. - الرياض.

١٢٧٥ ص؛ ١٧×٢٤ سم.

ردمك: ٩-٧٦-٧٢٧-٩٩٦٠

١ - علم الكلام ٢ - المناظرات أ - العنوان

ديوي ٢٥١ ٢٠/٠٠٤٨

رقم الإيداع: ٢٠/٠٠٤٨

ردمك: ٩-٧٦-٧٢٧-٩٩٦٠

حُقُوق الطّبع محفُوظة

الطّبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

دار إشبيليا للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية - ص.ب: ١٣٣٧١ - الرياض: ١١٤٩٣

هاتف: ٤٧٩٤٣٥٤ - ٤٧٤٢٤٥٨ - فاكس: ٤٧٧٣٩٥٩

مقدمة الطبعة الأولى

إذا كان كتابي الأول: "**منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة**" قد عالج أو شارك في معالجة قضية مهمة وملحة تشغل حيزاً كبيراً من تفكير الصحوة الإسلامية المباركة، ألا وهي قضية تحديد المصادر التي تُستقى منها مسائل الاعتقاد: الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، ومنهجية التعامل مع هذه المصادر، بطريقة موضوعية وسهلة بعيدة عن شقشقة أهل الفلسفة والكلام، وشطحات غلاة الصوفية. وقد لقي ذلكم العمل قبولاً واستحساناً واسعاً دل عليه نفاد الطبعات الثلاث الأول من الكتاب، والرابعة على وشك النفاد، وذلك في زمن يعد وجيزاً نسبياً، وما تفوه به كثير من طلبة العلم والأكاديميين من كلمات الثناء والإعجاب، والتي أُسمعتها أو نُقلت إليَّ، راجياً أن يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن.

أقول إذا كان هذا هو حظ "منهج الاستدلال" في تحقيق هدفه، وتلقي الكثيرين له بالقبول، فإن الكتاب الذي بين أيديكم الآن: "منهج الجدل والمناظرة" أعدَّه تكملة للعمل السابق، أو جولة ثانية تأتي متممة للجولة الأولى؛ فالكتاب الأول تقريري؛ والثاني دفاعي؛ يدافع عن عقائد أهل الحق بطريق من طرق الدفاع المتنوعة، ألا وهو الطريقة الجدلية، مدعماً ذلك بما ينبغي الالتزام به من قواعد الجدل وأحواله، والتحلي به من الآداب والأخلاق، حريصاً على جمع - أو تتبع- ما تيسر لي من المناظرات الواردة في الكتاب والسنة وعن الصحابة، وما ورد عن العلماء من كافة الطوائف إذا

كان في كلامهم نصر للحق وتأييده، فإن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها.

ولم أنس أن أقدم لذلك بمقدمات شملت: تعريف الجدل ومرادفاته في اللغة والاصطلاح، ثم بيان نشأته، وتاريخه في البشرية، وحكمه شرعاً، ثم حظ الفرق الإسلامية منه.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يجعله عملاً متقبلاً، وأن ينفع به، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

المؤلف

المقــدّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[سورة آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رقيبا﴾[سورة النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[سورة الأحزاب: ٧١].

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

فإن الله تعالى أيد دينه بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، التي لو تجرَّد كل إنسان من داعية الهوى، وسلِمت آلاته، وأنعم النظر فيها؛ لساقته إلى الإيمان سوقاً، ولدفعته إليه دفعاً، لكن لما كان في نفوس بعض المخَاطَبين قصور في الفهم، أو تلكؤ في الاستجابة، أو مكابرة وعناد : احتاجوا إلى أُسلوب آخر في الاستدلال ـ يطول أو يقصر بحسب نوع الحالة؛ استرشاداً كانت أم عناداً ـ يتضمن مجادلة ومناظرة بين الحق من جهة والباطل من الجهة

الأخرى، تثار أثناءها كوامن الحق في فطر بني آدم؛ فيزول عن القلوب رينها، وعن الأبصار غشاوتها، وعن العقول أقفالها، حتى يعود الحق واضحاً جلياً لكل ذي بصر وبصيرة، فلا يبقى أمامه إلا إعلان الإيمان، وإشهار الإذعان، أو الرضا بالفجور في الخصومة، والولوغ في اللجاجة، بعد أن تهاوى بنيانه الذي أسسه على جرف هار، فانثالت حُججه انثيال الكثيب المهيل:

حُجج تهافت كالزُجاج تخالُها حقًا وكلٌ كاسرٌ مكسور[1]

ولقد شهدت البشرية - ولا تزال - أنماطاً من الجدل والمناظرة، لكن ليست هناك حجة كحجج الله التي بعث بها رسله، في القوة والإتقان، والوضوح والرسوخ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾[سورة النساء: ١٢٢]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[سورة غافر: ٥١].

فالجدل والمناظرة ضرب من ضروب بيان الحق وتأييده، وقمع الباطل وتزهيقه، وقد استخدمه القرآن الكريم كثيراً، وعلى أساليب شتى، وفي حالات متنوعة: من تنبيه لغافل، أو إرشاد لمسترشد، أو إفحام لمعاند متلدد.

فالقرآن واجه الخصوم والمخالفين وتصدى لهم، وناظرهم فيما يعتقدونه، وقطعهم بالحجة البالغة، والسلطان القاهر، فما استطاعوا له ردا، ولا عنه

(١) هذا البيت استشهد به شيخ الإسلام ابن تيمية في درء تعارض العقل ٣١٤/٧ ، وتلميذه ابن القيم في الصواعق المرسلة ١٢٧٧/٤ ، وجلال الدين السيوطي في صون المنطق ص : ٩٩ ، ١٧٦ ولم يذكر واحد منهم أو من المحققين لهذه الكتب قائله .

حولا، حتى خَرِس منهم اللسان، وبلُد الجَنَان، وأُطفئ البيان، وذهُل العقل، وظهر العجز، فقال قائلهم فيه : إن له لحلاوة،وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يُعْلى(١).

والرسول ﷺ ـ أيضاً ـ واجه أصنافاً من الناس؛ منهم المسترشد يطلب الحق، والجاهل يبتغي العلم، والجاحد يسلك سبيل المدافعةِ والمنازعة، لكنه يخضع للحجة والبرهان، ومنهم المعاند الذي لا يلوي على شيء غيرَ الوقوف أمام كل جديد بالصد والإنكار، والتزامِ ما عليه الآباء والأجداد.

ومن هؤلاء وهؤلاء من ينتسب إلى كتاب منزل أصابه التحريف والتبديل، ومنهم من يعبد الوثن مع بقاء شيء من الحنيفية لكنه ممسوخ مغمور.

ومن أهل الكتاب والمشركين من أظهر ولاءً وأضمر عداءً، وأعلن وفاقاً وأبطن نفاقاً، وذلك بعد أن قويت شوكة الإسلام، وكثر ناصروه في دار الهجرة.

وهناك بعض حديثي العهد بالإسلام قد بقيت معه بعض الشبه والشكوك، التي تقلدها عن الجاهلية، فهي تحتاج إلى تجلية وكشف حتى يرسَخَ الإيمانُ في قلبه، وتصحح الفكرةُ في عقله.

---

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ٢/١٠٨-١١٠، ورواه الحاكم في مستدركه ٢/٥٠٧وقال على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

كل هؤلاء وهؤلاء واجههم الرسول ﷺ ، وقد وعى طريقة القرآن في بيان الحق وتثبيته، ودفع الباطل وتزهيقه، وعلِم أساليب القرآن في مجادلة الخصوم، ودفع الشبه والشكوك.

وكان لأصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم، النصيبُ الأعظم في إقامة الحجة، وإصابة الحق، فهم أعلى الناس به علماً وعملاً، ونظراً ومناظرة، وجدلاً ومجادلة، وذلك ببركة متابعتهم له ﷺ وتأسيهم به، «فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدُّهم كلاماً، وأصحهم نظرا، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدُّهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً، وهذا هو بالنسبة للمسلمين إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل ... وذلك لأن الاعتقاد الحقَ الثابتَ يقوي الإدراك ويصححه؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[سورة النساء]» (١).

ثم تعرَّض الإسلام إلى حملة شرسة من أعدائه، من أرباب الديانات المنحرفة وأساطين الفلسفات القديمة؛ حيث ذهبوا يشككون في مسلماته، ويتعرضون له بإثارة الشبهات، وبعث الوثنية من جديد، قاصدين الكيد

(١) نقض المنطق ـ ابن تيمية ص : ٨ .

لدولة الإسلام التي انداحت فشملت أصقاعهم، ونسفت ملكهم، وصدَّعت صروحهم. فانبرى لهم أهل الدين والإيمان من علماء الأمة وحرَّاس العقيدة يدفعون صولة الصائلين، وعاديةَ المعتدين، فأقيمت المناظرات، حتى ظهرت الحجة، وبانت المحجة.

ومن جانب آخر تأثر نفر من المسلمين بالثقافات الفاسدة الوافدة على بلاد الإسلام من قِبَل اليهود والنصارى والفلاسفة، فأخذوا يلوكونها بغير هدى من الله ولا كتاب منير؛ فنشأت الفرق والطوائف : يلعن بعضُها بعضاً، يحملهم الهوى، وتصل بينهم مخالفة الوحي والهُدى، فأقام أهل السنة والجماعة صُرُح الجهاد، وتنادوا من كل شِعْب ووادٍ؛ ينفون عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين .

فحماية الدين من العاديات، وكفُّ العدوان والمعتدين من أعظم وأخطر مهمات أهل العلم والإيمان وأشرفها، ولهم في ذلك القِدْح المعلّى، والحظ الأوفى، وسيرهم مملوءة بالعبر التي كثرت فيها مصارع أهل البدعة والزندقة والكفر على أيديهم؛ حتى حصحص الحق وزَهَق الباطل .

فلا أقوى من سلطان الحجة، ولا أسطعَ من نور الدليل والبرهان، وهذا من أعظم ما يمتاز به دين الله الحق؛ إذ هو حجة وبيِّنة، ودليل وآية، وبرهان ونور، وهدى وشفاء لما في الصدور.

«وقد تهزم العساكر الكبار، والحجة الصحيحة لا تغلب أبداً، فهي أدعى إلى الحق، وأنصر للدين من السلاح الشاكي، والأعداد الجمَّة ... لأن السيف مرَّة لنا ومرَّة علينا، وليس كذلك البرهان، بل هو لنا أبداً، ودامغ

لقول مخالفينا، ومزهق له أبداً، وربَّ قوةٍ باليد قد دمغت بالباطل حقـاً كثـيراً فأزهقته ... وقد قُتل أنبياء كثير وما غُلبت حجتهم قط»[(١)].

وقال الخليفة المـأمون وهـو صـاحب السـيف والسـلطان: «غلبـة الحجـة أحب إلي من غلبة القدرة؛ لأن غلبة القـدرة تـزول بزوالها، وغلبـة الحجـة لا يزيلها شيء»[(٢)].

ولأهل الإسلام مع أهل الكفر والبدع والأهواء مواقـف عليَّـة، ومشـاهد سنيَّة، تستحق أن تفرد ببيان، وتستقل بكتاب، وهو ما أريـد معالجـة جـانب من جوانبه المتعددة في موضوعي هذا، والموسوم بـــ : **منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد**

قاصدا تحقيق الآتي :

أولاً: بيان مشروعية الجدل والمناظرة لإقامـة الحـق والـذود عنـه، وأنـه مـن الأمور الجائزة شرعاً وقد يجب؛ بحسب الأحوال، وتوجيه مـا اشـتهر عن بعض السلف من كراهية الجدل والمناظرة، وبيان مقصودهم مـن ذلك .

ثانياً: إيجاد مؤلَّف يجمع بين قواعد الجدل والمنـاظرة وآدابهمـا وبـين نمـاذج من المناظرات التي دلت على التزام تلك القواعـد والآداب، سـواء مـا ورد منها في القرآن أو السنة أو كتب السير والتراجم؛ حيث إنـني لم

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/٢٤-٢٥ .

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٥٧ .

أقف على مؤَلّف بهذا الوصف. فالموجود إما كتاب متخصص في جانب معين كالجدل في القرآن الكريم على نحو ما صنع ابن الحنبلي في "استخراج الجدل من القرآن الكريم"، والدكتور زاهر عوّاض الألمعي في "مناهج الجدل في القرآن الكريم". وإما كتاب اقتصر مؤلّفه على ذكر القواعد والآداب، وهذا شأن كتب آداب البحث والمناظرة وهي كثيرة، وإما كتاب جمع بين القواعد والآداب ونماذج من المناظرات، لكنه قد غلبت عليه العبارة الأصولية والفقهية ككتاب "عَلَم الجَذَل في عِلْم الجدل" لنجم الدين الطوفي، وإما كتاب اقتصر على جمع المناظرات من الكتاب والسنة وسير أهل العلم دون تعرض للقواعد والآداب على نحو ما صنع أبو علي السكوني في "عيون المناظرات" . وهناك كتب لبعض الأصوليين والفقهاء جعلوها في الجدل الفقهي والأصولي لبيان طرق الاستدلال والاعتراضات في مجال الأحكام الشرعية، وقدموا لها بمقدمات موجزة في بيان بعض آداب البحث والنظر على نحو ما صنع أبو الوليد الباجي في "المنهاج في ترتيب الحجاج"، وأبو إسحاق الشيرازي في "المعونة في الجدل".

ثالثاً: بيان تميز النقل (الكتاب والسنة) في باب الجدل والمناظرة، وأن فيهما الغُنْية والكفاية، مبطلاً بذلك ما زعمه كثير من المتكلمين من ضعف الحجاج النقلية، وسلفهم في ذلك الفلاسفة في باب الخطاب الجمهوري؛ إلى درجة أن قال أبو الحسن الطبري المعروف بإلكيا

الهراسي : «وفي القرآن حجاج، وإن لم يكن فيه الغلبة والفلج، غير أن العامي يكتفي به ...»[١].

رابعاً: بيان الآداب العليا التي تحلّى بها أهل العلم والإيمان في مواقفهم مع المخالفين لهم، من الإنصاف، والعدل، وعدم التشفي، وقبول الحق، والرجوع إليه مهما كان قائله؛ كمشهور الشافعي رضي الله عنه: «ما كلمت أحداً قط إلا ولم أُبال بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه»[٢].

خامساً: جمع ما تناثر في بطون الكتب من عيون المناظرات وروائع المجادلات والتي برز فيها علماء الأمة وأئمتها في مواقع الدفاع عن حمى التوحيد والدين؛ حيث ضمت كتب التراجم والسير الكثير من ذلك، وقد أفردت الباب الأخير من البحث لهذا الأمر .

بيانٌ مجملٌ لخطة البحث:

البحث مشتمل على مقدمة، وتمهيد، وأربعة أبواب، وخاتمة، وفهارس.

أما المقدمة، فتضمنت بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وعرضاً مجملاً لخطة البحث.

وأما التمهيد، فيشتمل على مبحثين :

الأول : التعريف بالجدل والمناظرة في اللغة والاصطلاح

الثاني : بيان الغرض من الجدل، وفوائده، ونتائجه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية ٧/٣٦٠ .

(٢) مناقب الشافعي - البيهقي ١/١٧٤-١٧٥ .

أما **الباب الأول** فبعنوان : **نشأة الجدل**

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول: نشأة الجدل قبل الإسلام - ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: النشأة الأولى للجدل وتطوره.

المبحث الثاني: الجدل عند قدماء اليونان وعلاقته بالمنطق الأرسطي.

والفصل الثاني: نشأة الجدل عند المسلمين - ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: أسباب ظهور الجدل عند المسلمين.

المبحث الثاني: موقف الفرق الإسلامية من الجدل.

المبحث الثالث: قضايا الجدل عند أهل الكلام وخصائصه، وموقف السلف منه.

المبحث الرابع: الجدل عند أهل السنة والجماعة

أما **الباب الثاني** فبعنوان: **الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة - مشروعيته وخصائصه وتطبيقاته**

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مشروعية الجدل والمناظرة - ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول : أنواع الجدل وأحكامه.

المبحث الثاني: حكم مناظرة الكفار والمشركين .

المبحث الثالث: حكم مناظرة أهل الكتاب .

المبحث الرابع: حكم مناظرة أهل البدع .

المبحث الخامس: حكم المراء .

الفصل الثاني: الجدل والمناظرة في القرآن الكريم، خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: خصائص الجدل القرآني .

المبحث الثاني: أساليب الجدل القرآني .

المبحث الثالث: الأصناف الذين وردت مجادلتهم في القرآن الكريم .

وهم: المشركون، والمنافقون، وأهل الكتاب.

المبحث الرابع: الأصناف الذين ذكر القرآن جدلهم .

وهم: إبليس ، والأنبياء ، والمؤمنون مع الكفار ، وأهل الجنة وأهل النار.

الفصل الثالث: الجدل والمناظرة في السنة، خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: خصائص الجدل في السنة وأساليبه.

المبحث الثاني: الأصناف الذين وردت مجادلتهم في السنة.

وهم: المشركون ، والمنافقون ، واليهود والنصارى.

وأما **الباب الثالث** فبعنوان: **قواعد الجدل والمناظرة وآدابها وأحكامها**

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: قواعد الجدل والمناظرة.

الفصل الثاني: آداب الجدل والمناظرة.

الفصل الثالث: أحوال الجدل والمناظرة وأحكامها.

الفصل الرابع: إقامة الحجة : مجالاتها وشروطها.

الفصل الخامس: المباهلة: معناها، وصورتها، وحكمها، وشروطها، ومجالاتها ونماذج منها.

أما **الباب الرابع** فبعنوان : **تقرير مسائل الاعتقاد عن طريق الجدل والمناظرة عند أهل السنة.**

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الجدل والمناظرة في باب الإلهيات.

الفصل الثاني: الجدل والمناظرة في باب النبوات.

الفصل الثالث: الجدل والمناظرة في باب السمعيات.

وأما **الخاتمة** ففيها بيان أهم النتائج التي انتهى إليها الباحث.

وأما **الفهارس** فقد اقتصرت هنا على إيراد فهرسي المراجع والموضوعات فقط.

بعض الضوابط التي التزمتها في البحث:

١- التزمت الرسم العثماني في كتابة الآيات القرآنية، مع ذكر أرقام الآيات وأسماء السور في الصلب.

٢- إذا أضفت قولاً إلى طائفة ما، وأطلقت، فهذا لا يعني أن كل أفراد هذه الطائفة يقولونه ويعتقدونه، بل هو المشهور عنهم، أو أنه صار شعاراً لهم.

٣- ليس كل من ذكرت شيئاً من كلامه ـ من المتكلمة أو المتصوفة أو غيرهم ـ محتجاً به، يعني أني أوافقه في جميع ما يقوله، لا في هذا الباب، ولا في غيره، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به.

٤- كل كلام موضوع بين علامتي تنصيص فهو منقول بنصه، وإذا تصرفت في حروف يسيرة منه ـ وهذا نادر ـ أشرت إلى ذلك في الهامش عقب الإحالة بلفظة: (بتصرف) . أما إذا كان الكلام منقولاً بمعناه، أو بتصرف كثير، نحو تقديم وتأخير، وتغيير في بعض العبارات والتراكيب، لم أضعه بين علامتي التنصيص، ثم صدرت الإحالة بلفظة : انظر .

٥- إذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بتخريجه منهما، وقد أضيف مصدراً آخر للفائدة، أما إذا كان في غير الصحيحين، فقد أتوسع في تخريجه، ثم أورد كلام أهل العلم ـ قديماً أو حديثاً ـ في الحكم عليه، هذا في الغالب، وقد أفعل ذلك في الآثار أيضاً.

٦- عزو الحديث أو الأثر يكون بذكر: الجزء/الصفحة/الكتاب/الباب/رقم الحديث، وذلك في الكتب التي التزمت ذكر هذه المعلومات، وإلا ذكرت ما وقفت عليه.

٧- شرحت ما رأيت الحاجة لشرحة من الألفاظ الغريبة.

٨- قمت بضبط ما رأيت الحاجة إلى ضبطه من الكلمات.

٩- اكتفيت بذكر اسم الشهرة لبعض الكتب، مثل : تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، ونحو ذلك.

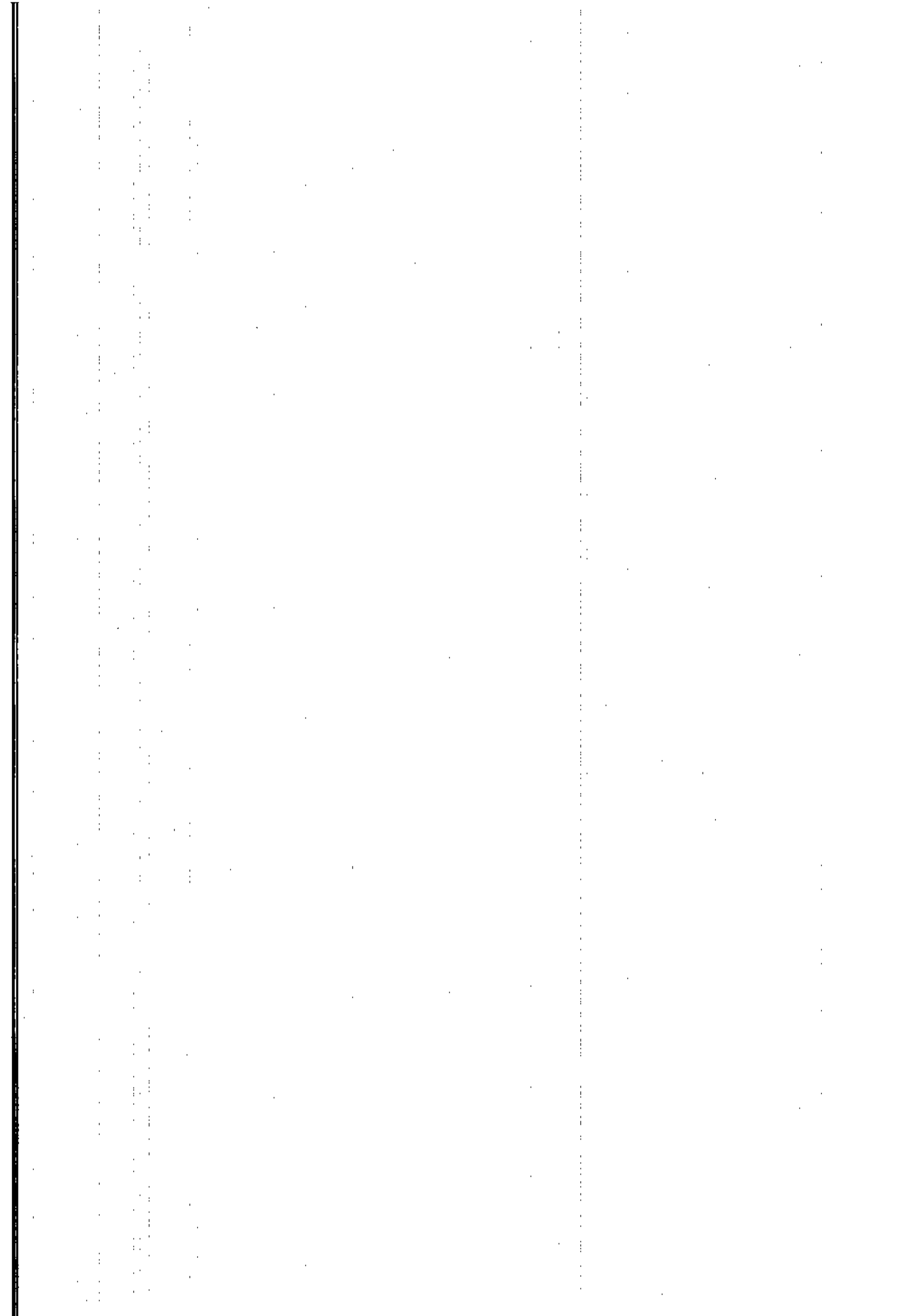
١٠- الأصل في توثيق المعلومة ذكر المرجع الأقدم (المتوفر لدي)، وقد أُقدم عليه الأحدث لسبب معتبر.

١١- تعاملت مع صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري.

١٢- تعاملت مع أكثر من طبعة لبعض الكتب، والتزمت ما يدل على التمييز، وإذا فاتني شيء، فالرجوع إلى فهرس المراجع.

وفي الختام أحمد الله تعالى، وهو للحمد أهل، أن وفقني لإنجاز هذا العمل، على ما فيه من ضعف البشر، وقصر النظر؛ فما كان فيه من صواب وتسديد فهو محض فضله تعالى، ومنته عليَّ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي وأستغفر الله. ولا عدمت أخاً ناصحاً وقف على شيء من ذلك، فنبهني إليه مشكوراً مأجوراً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

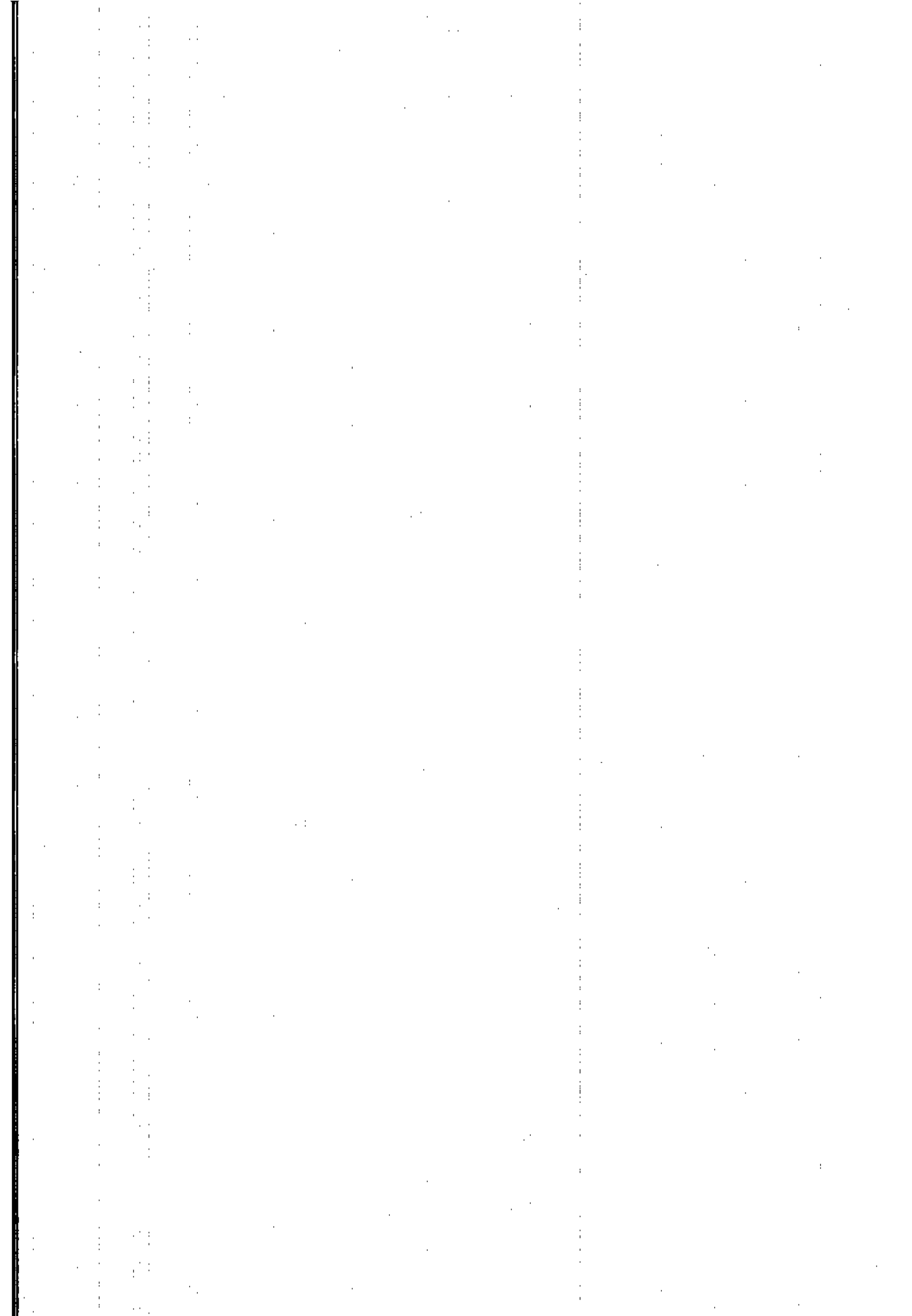


التمهيـــد

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بالجدل والمناظرة في اللغة والاصطلاح

المبحث الثاني: بيان الغرض من الجدل، وفوائده، ونتائجه



المبحث الأول

التعريف بالجدل والمناظرة في اللغة والاصطلاح

أولاً: معنى الجدل في اللغة[1]

قال ابن فارس: «الجيم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسالٍ يكون فيه، وامتداد الخصومة، ومراجعة الكلام».[2] فمادة جَدَلَ تدور حول أربعة معانٍ:

الأول: الإحكام، يقال: جَدَلَه، ويجْدِلُه إذا أحكم فتله، والجديل: الزمام المجدول من أَدَم أو شعر يكون في عنق الدابة، ومنه قول امرئ القيس[3]:

وكشحٍ لطيفٍ كالجَدِيل مُخَصَّر   وساقٍ كأُنْبُوب السَّقيِّ المذلَّل

شبَّه خصرها في لطافته ولينه بالجديل، وهو الزمام المتخذ من السيور[4].

الثاني: الشِّدة، فيقال للأرض: جَدَالة لشدتها، والأجدل: الصقر؛ لشدته.

الثالث: الصّراع، وهو إسقاط الإنسان صاحبه على الأرض، فيقال للصريع: مجدَّل ومنجدل. ومن ذلك قوله ﷺ : «إني عبد الله لخاتم النبيين

---

(١) انظر: لسان العرب١١/١٠٣-١٠٥ مادة جذل، وتاج العروس٧/٢٥٣-٢٥٤ مادة جدل، والقاموس المحيط٣/٣٥٧مادة جدل، وغريب القرآن للراغب ص : ٨٧-٨٨ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ١/٤٣٣.

(٣) ديوان امرئ القيس ص: ١٧.

(٤) المرجع السابق ص: ١٧ هامش: ٣٧.

وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته»[(١)].

الرابع: اللَّدد في الخصومة والقدرة عليها، فرجل جَدِل، ومِجْدال،ومِجْدل: شديد الجدل، وجدلتُ الرجلَ جدْلاً، أي: غلبته، والمَجْدل: الجماعة من الناس. قال ابن سيده: «أُراه؛ لأن الغالب عليهم إذا اجتمعوا أن يتجادلوا»[(٢)].

فالجدل والجدال والمجادلة بمعنى المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، ومن ذلك قوله (تعالى) :﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾[سورة الكهف: ٥٤]. وقوله (تعالى):﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]. وقوله تعالى﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة الكهف: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل:١٢٥].

ثانيا: معنى الجدل في الاصطلاح:

اختلفت عبارات العلماء في تعريف الجدل، ولعل ذلك راجع إلى نوع الفن الذي يتكلمون فيه، ونظرتهم إلى الجدل تحسيناً أو تقبيحاً، وقصد كل طائفة منه:

١ـ معنى الجدل عند الفلاسفة والمناطقة:

يقول الدكتور إمام: «كلمة الجدل لم تكن قد ظهرت عند فلاسفة اليونان الأُول؛ إذ الأرجح أن أفلاطون هو أوّل من ذكر هذه الكلمة صراحة

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٢٧/٤، ١٢٨، وانظر: صحيح ابن حبان (الإحسان) ١٠٦/٨ ح: ٦٣٧٠، ومستدرك الحاكم ٤١٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي، ودلائل النبوة للبيهقي ١٢٩/٢-١٣٠.

(٢) لسان العرب١١/١٠٥.

في محاوراته»[١] ولهذا جاء عند أفلاطون: «الجدلي هو الذي يحسن السؤال والجواب»[٢].

ولم أقف على تعريف للجدل عند أرسطو على الرغم من تصنيفه كتاباً في الجدل ذكر فيه أجزاء هذه الصناعة ومنافعها وغير ذلك[٣]. لكن أشار ابن رشد في تلخيصه لكتاب أرسطو المذكور آنفا إلى تعريف للجدل، وعزاه إلى الجمهور ـ لعلّهم جمهور الفلاسفة ـ يقول فيه: «اسم الجدل عند الجمهور إنما يدل على مخاطبة بين اثنين ، يقصد كل واحد منهما غلبة صاحبه بأي نوع اتفق من الأقاويل»[٤].

وجاء عند ابن سينا أنه: «الصناعة المعدة لإلزام الخصوم بطريق مقبول محمود بين الجمهور في أي رأي كان»[٥].

والمشهور عندهم ـ تبعاً للقياس الأرسطي ـ أنه: «القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم ، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان»[٦].

---

(١) تطور الجدل بعد هيجل ـ جدل الفكر ـ إمام عبد الفتاح ص : ٨ .

(٢) المعجم الفلسفي ـ جميل صليبا ٣٩١/١ وقارن بما في تلخيص كتاب الجدل ـ ابن رشد ص : ٣٠ .

(٣) انظر : الجزء الثاني من كتاب : منطق أرسطو ـ طوبيقا ـ بتحقيق د. بدوي ص : ٤٦٩ وما بعدها .

(٤) تلخيص كتاب الجدل ـ ابن رشد ص : ٣٠ .

(٥) الشفاء (المنطق ـ الجدل) ص : ١٧ .

(٦) انظر: الشفاء ـ المنطق ـ الجدل ص : ٢٤ وتاج العروس ٢٥٤/٧ وتعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث لأحمد مكي ص : ٣٧.

وذكر صاحب المصباح المنير تعريفاً هو أشبه بحال السوفسطائيين المتقدمين على زمن أرسطو وأفلاطون، فقال في تعريف الجدلي: «إذا خاصم بما يُشغل عن ظهور الحق، ووضوح الصواب، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها»[1].

والذي يجمع بين هذه التعريفات هو كسر الخصم وإلزامه، لا موافقة الحق والصواب.

٢ـ معنى الجدل عند الفقهاء والأصوليين:

قال القاضي أبو يعلى رحمه الله: «فهو تردد الكلام بين اثنين إذا قصد كل واحد منهما إحكام قوله ليدفع به قول صاحبه»[2] وقال صاحب المصباح المنير: «هو مقابلة الأدلة لظهور أرجحها»[3].

٣ـ معنى الجدل عند المتكلمين:

يقول الشريف الجرجاني رحمه الله في تعريفه الجدل: «دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة»[4] وقال عنه أيضاً: «عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»[5].

وذكر أبو المعالي الجويني رحمه الله عدة تعريفات للجدل، ثم كرَّ عليها

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ـ أحمد بن محمد المقري ١/١٠٢.
(٢) العدة في أصول الفقه ـ لأبي يعلى ١/١٨٤ وانظر: ترتيب المنهاج للباجي:١١.
(٣) المصباح المنير ـ للفيومي ١/١٠٢ (بتصرف).
(٤) التعريفات ـ للجرجاني ص : ٤١ ، وانظر : الكليات لأبي البقاء ص : ٢٥٨.
(٥) التعريفات ص : ٤١ .

بالإبطال، ثم ذكر تعريفاً وصححه، وهو أنه: «إظهار المتنازعَيْن مقتضى نظرتهما على التدافع، والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامهما من الإشارة والدلالة»[1].

والتعريف المختار هو تعريف المتكلمين، وتعريف الإمام الجويني أدق وأضبط؛ وذلك للأسباب التالية:

أولاً: الجدل عند الفلاسفة والمناطقة لا يراعي غير الغلبة والظهور، وهذا قصد فاسد، أساسه اللّدد واللّجاج.

ثانياً: الجدل عند الفقهاء والأصوليين لا يناسب بحثنا هذا، لأنه يتعلق بالأحكام وأدلتها، والمقصود هنا العقائد وأدلتها، والتعرض للمخالفين من أهل الملل والنحل الأخرى.

ثالثا: أبو المعالي الجويني رحمه الله عرّف الجدل وصوّره من حيث هو تدافع وتقابل بالحجج من غير تعرض لقصد الفريقين، وهذا يحتمل الجدل بنوعيه: المحمود والمذموم؛ المحمود: الذي يُطلب به الحق والصواب، والمذموم: الذي يطلب به الغلبة والفلج، فحسب.

أما الشريف الجرجاني رحمه الله، فقد اختصر على ذكر الجدل المذموم؛ ولهذا ذكر في تعريفه الأول: دفع الخصم بالشبه، وفي الثاني: سماه مراءً، والمراء أخص بالجدل المذموم، كما سيأتي بيانه.

---

(١) الكافية في الجدل ـ للجويني ص :٢١.

المناسبة بين المعنى اللغوي للجدل والمعنى الاصطلاحي:[١]

الجدل الاصطلاحي يوجد فيه معنى الإحكام ؛ إذ كل واحد من الخصمين يريد أن يكشف لصاحبه صحة كلامه بإحكامه وإتقانه، وإسقاط كلام صاحبه.

ومعنى الشدة موجود فيه؛ لأنَّ كل واحد منهما يروم تقوية حجته، وفتل صاحبه عن قوله واعتقاده إلى ما هو صائر إليه.

ومعنى الصّراع موجود فيه ـ أيضاً ـ ؛ لأنَّ كل واحد منهما يروم غلبة صاحبه، بإسقاط كلامه وتقوية كلام نفسه.

والجدل ـ أيضاً ـ مظنة اللدد في الخصومة ؛ ولهذا أُمر المؤمنون بالإحسان فيه.

ثالثاً: معنى المناظرة في اللغة[٢] :

قال ابن فارس: «النون والظاء والراء أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعاينته، ثم يستعار ويتسع فيه...»[٣] .

فمادة نَظَرَ تدور على ثلاثة معانٍ:

الأول: النظر الذي هو حس البصر ورؤيته، ومنه قوله (تعالى): ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[سورة القيامة: ٢٢، ٢٣]، قال أبو إسحاق: «نضُرت

(١) انظر : الكافية في الجدل ص : ٢١، ٢٢.

(٢) انظر : لسان العرب ٥/٢١٥-٢١٩ مادة نظر، وتاج العروس ٣/٥٧٣-٥٧٥ مادة نظر.

(٣) مقاييس اللغة ٥/٤٤٤.

بنعيم الجنة والنظر إلى ربها »[1] وقال الحسن البصري: «تنظر إلى الخالق وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق»[2] وقال أبو منصور: «ومن قال: إن معنى قوله ﴿إلى ربها ناظرة﴾ بمعنى منتظرة فقد أخطأ؛ لأن العرب لا تقول: نظرت إلى الشئ بمعنى انتظرته، إنما تقول: نظرت فلاناً: أي انتظرته»[3] .

ومن هذا المعنى: النظّارة، وهم القوم ينظرون إلى الشيء. والمنظار: المرآة، والآلة: يُنظر من خلالها فيُرى البعيد قريباً، والمنظرة: موضع يُرقب منه العدو، ومنه التناظر: وهو التقابل، تقول العرب: دورنا تناظر دوركم.

الثاني: النظر بمعنى الانتظار، يقال: نظرت فلاناً، وانتظرته ، بمعنى واحد، ومنه قوله (تعالى): ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [سورة الحديد: ١٣]. ومن ذلك النظِرة، بمعنى التأخير والإمهال كقوله (تعالى):﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [سورة البقرة:٢٨٠] وقوله : ﴿ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[سورة الأعراف: ١٤].

الثالث: النظر بمعنى التفكر في الشيء ، وتقديره وقياسه، وهو نظر القلب وتأمله، ومنه قوله (تعالى):﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٥].

ومنه ـ أيضاً ـ التناظر وهو التراوض في الأمر، ونظيرك هو الذي يراوضك وتناظره.

---

(١) لسان العرب ٢١٦/٥.

(٢) رواه الطبري في تفسيره عن البخاري ١١٩/٢٩-١٢٠ طبعة دار المعرفة وانظر : تفسير ابن كثير ٤٥١/٤.

(٣) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ٣٧١/١٤ مادة نظر .

والمناظرة: مفاعلة من النظر، وهي أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه. وتقول: ناظرت فلاناً، إذا صرت له نظيراً في المخاطبة. قال الراغب: «المناظرة: المباحثة والمباراة في النظر، واستحضارُ كلٍ ما يراه ببصيرته»[(١)].

فمعنى النظر بحسب تعديه ؛ فإن عدي بإلى فهو نظر العين، وإن عدي بنفسه فهو الانتظار، إلا ما كان منه بمعنى الإمهال، وهو الإنظار، فإنه يتعدى إلى المعمول الثاني بإلى، وإن عدي بفي فهو التفكر والتأمل.

رابعاً: معنى المناظرة في الاصطلاح:

المراد بالنظر هنا فكر القلب وتأمله في حال المنظور ليعرف حكمه : جمعاً، أو فرقاً، أوتقسيماً. وحقيقة هذا النظر: التأمل، أو التفكر ، أو الاعتبار والاستدلال.[(٢)] وعلى هذا فالمناظرة مفاعلة من النظر، وكل مناظرة تتضمن نظراً، وليس كل نظر يتضمن مناظرة؛ لأن النظر يقع من الواحد.[(٣)]

فالمناظرة في الاصطلاح هي: النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب.[(٤)] وزاد بعضهم[(٥)] عبارة: وقد يكون مع نفسه، وقد تقدم أن هذا نظر، وليس مناظرة.

---

(١) غريب القرآن ص : ٥١٨.

(٢) انظر: الكافية في الجدل ص : ١٧.

(٣) انظر: الكافية في الجدل ص : ١٩، وغريبُ القرآن ص : ٥١٨.

(٤) انظر: التعريفات ص :١٢١، والكليات لأبي البقاء ص :٦٢١، وأدب البحث لطاش زاده ص :٣١ ، وتعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث لأحمد مكي ص :١٥ وانظر : شرح الولدية ص : ٨.

(٥) انظر: كليات أبي البقاء ص :٦٢١.

وقال طاش كبري زاده:

هي النظر من جانبي خصمين معلّل وسائل اثنين
في نسبة بينهما حُكميّه ليظهر الصوابُ والخفيه[(١)]

المناسبة بين المعنى اللغوي للمناظرة والمعنى الاصطلاحي:

المناظرة بمعناها الاصطلاحي يوجد فيها معنى التناظر الذي هو التقابل، سواءً كان بين الأشخاص في المجلس الواحد، أو بين الأدلة والحجج، ويوجد فيها معنى الانتظار؛ لأن كل واحد من المتناظرين ينتظر صاحبه حتى يتم كلامه، ويوجد فيها كذلك معنى التأمل والتفكر حيث يتأمل كل منهما في كلامه وكلام مناظره حتى لا يقع في الخطأ.

الفرق بين المجادلة والمناظرة:

تقدم اختلاف الناس في تعريف الجدل، وأن طائفة منهم نظرت إلى الجدل على أنه أداة لكسر الخصم وإلزامه، دون اعتبار لموافقة الحق والصواب؛ ولهذا جاء في تعريف بعض العلماء أنه مراء ومخاصمة ولجاج، وفرقوا بينه وبين المناظرة ، قال شارح الولدية بعد أن عرَّف المناظرة، وبين أن المراد منها ظهور الحق مطلقاً، ثم قال: «وهو احتراز عن الجدل فإنه مدافعة لإسكات الخصم ؛ لأن كلاً من المجادلين يريد حفظ مقاله وهدم مقال خصمه، سواء كان حقاً أو باطلاً»[(٢)].

---

(١) مجموع المتون ص : ٤٤٤ منظومة آداب البحث والمناظرة .

(٢) شرح الولدية ص : ٨ .

وقال صاحب تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث: «والجدل والمغالطة خارجان عن المناظرة، فليس أحدهما مورداً لها؛ لأن الخصومة بهما ليست لإظهار الصواب»[١].

بينما اتفق العلماء على أن المناظرة مباحثة من أجل الوصول إلى الصواب؛ ولهذا اشترطوا فيها التقارب بين المتناظرين في العلم والفهم، وهو معنى النظير ، بحيث لايكون أحدهما في غاية العلم والكمال، والآخر في نهاية الجهل والنقصان.[٢]

وبعض العلماء لا يفرق بينهما، بل يجعلهما شيئاً واحداً،يقول الإمام الجويني رحمه الله: «لا فرق بين المناظرة والجدال والمجادلة والجدل في عرف العلماء بالأصول والفروع، وإن فُرِّق بين الجدل والمناظرة على طريقة اللغة؛ وذلك أن الجدل في اللغة مشتق من غير ما اشتق منه النظر ».[٣] **ولعلَّ هذا هو الأصح، وهو المعتمد في هذا البحث.**

وكلاهما قد يستعمل في الحق والباطل، وذلك بحسب قصد كل من المتجادلين والمتناظرين، وما يدليان به من حجج. وسيأتي مزيد بيانٍ ـ إن شاء الله ـ عند الكلام عن أنواع الجدل من حيث المدح والذم.

ألفاظ مرادفة للجدل والمناظرة:

هناك ألفاظ مرادفة في معانيها للجدل والمناظرة ، من ذلك:

---

(١) تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث ص : ٣٨.

(٢) انظر: تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث ـ مكي ص : ١٥.

(٣) الكافية في الجدل ص : ١٩.

• **المحاجة:** وهي من استعمالات القرآن الكريم ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾[سورة الأنعام: ٨٠].

• **المحاورة :** وهي المراجعة في الكلام، ومنه قوله (تعالى): ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[سورة المجادلة: ١].

• **المناقشة :** ومن ذلك قوله ﷺ : «من نوقش الحساب فقد عذب»[(١)].

• **المباحثة :** وهو استعمال معاصر، وعليه صنفت كتب آداب البحث والمناظرة .

علم الجدل والمناظرة :

لابد من التفريق بين الجدل باعتباره سجية وطبعاً، والجدل باعتباره علماً وفناً؛ فالأول لازم للخليقة منذ نشأتها الأولى؛ غير مرتبط بأمة من الأمم، أو فترة من الفترات ـ كما سيتبين ـ والثاني قد يكون لبعض الأمم فيه باع وفضل سبق.

فعلم الجدل أو علم المناظرة هو معرفة آداب الجدل والمناظرة التي تجري بين أهل المذاهب العقدية والفقهية وغيرهم ؛ قال ابن خلدون رحمه الله: «فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج،ومنه ما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأً، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ١/١٩٧ (فتح الباري) كتاب العلم ـ باب من سمع شيئاً فراجع فيه حتى يعرفه ح: ١٠٣ ومسلم في صحيحه ٤/٢٢٠٥ كتاب الجنة ـ باب إثبات الحساب يلي الحديث : ٢٨٧٦ .

المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه،كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره».[1]

نشأة علم الجدل والمناظرة والتصنيف فيه:

لما كثرت المنازعات بعد تدوين المذاهب الكلامية، وكان كل فريق ينصر مذهبه ويتعصب له، احتاج الناس إلى وضع قانون خاص بالخصومة في المطالب العلمية يبين لكل من الخصمين موقفه حيال خصمه، وحدَّه الذي لا يتعداه،حتى لا يكثر الشغب، وينتشر الكلام، ويصعب الوصول إلى الحق؛ فلذا عني العلماء بالتدوين في علم المناظرة، وأفردوه بالكتابة؛ لما له من المكانة بين العلوم المفتقرة إلى الاستدلال؛ كعلم العقائد، وعلم الكلام، وعلم أصول الفقه، ونحو ذلك.[2]

ومِنْ أول مَنْ صنف في علم الجدل : **الإمام محمد البزدوي** لكن القوانين التي وضعها كانت خاصة بالفقه،ثم رأى من بعده من العلماء أن ذلك لا يشفي العلة ولا يروي الغلة ؛ فأخذوا يضعون قواعد للمناظرة لا تختص بعلم من العلوم، أو فن من الفنون، فكان تدوينه باعتباره قواعد عامة النفع في

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص :٤٢٢ ، وانظر : الإيضاح لقوانين الاصطلاح لأبي محمد بن الجوزي ص: ٥.

(٢) انظر: رسالة الآداب لأحمد مكي ص: ٦ .

جميع المطالب في أوائل القرن السابع على يد **ركن الدين العميـدي الحنفـي**، وله في ذلك مصنفان: **الإرشاد والنفائس**، ثم تتابع على ذلـك العلمـاء مـن بعده من أمثال: **السمرقندي والرازي والنسفي** وغيرهم.[1]

ومن الكتب المختصرة في علـم الجـدل :رسـالة **لعضـد الديـن** في مقـدار عشرة أسطر ، وشرحها **لمحمد بن محمد البردعي** ، ثم **رسالة لشمس الديـن السمرقندي** وهي أشهر كتـب الفـن، وعليهـا شـروح، منهـا: **شـرح عـلاء الدين البهشتي**.

ومن الكتب المتوسطة: **النفائس للعميدي والرسائل للأرموي وتهذيـب النكت للأبهري**.

والذي يظهر لي أن أكثر هذه المصنفات مفقودة، إن لم يكن كلها.

نماذج من المصنفات الموجودة والمطبوعة:[2]

١- التقريـب لحـد المنطـق لابـن حـزم الأندلسـي (٤٥٦هـ) طبـع بتحقيـق الدكتور إحسان عباس ــ منشـورات دار مكتبـة الحيـاة ــ دار العبـاد ــ بيروت.

٢- المنهاج في ترتيب الحجاج لأبي الوليد الباجي (٤٧٤هــ) طبـع بتحقيـق

---

(١) انظر : مقدمـة ابـن خلـدون ص: ٤٢٢ وسـالة الآداب لأحمـد مكـي ص :٦ وأبجـد العلـوم ٥٦٦/٢ ومفتاح السعادة ٣٠٥/١

(٢) بعض هذه المصنفات تحدثت عن الجدل في مسائل الفقه وأصوله ، ولا شك أن هنـاك قضايـا مشتركة بين سائر أنواع العلوم في التطبيقات الجدلية .

عبد المجيد تركي ـ دار الغرب الإسلامي ـ ١٩٨٧م .
٣- المعونة في الجدل لأبي إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ) طبع بتحقيق عبد المجيد تركي ـ دار الغرب الإسلامي ـ ١٤٠٨هـ ـ بيروت .
٤- الملخص في الجدل في أصول الفقه لأبي إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ) طبع بتحقيق محمد يوسف آخندجان نيازي ــ وهو عبارة عن رسالة ماجستير في جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤٠٧هـ .
٥- الكافية في الجدل لأبي المعالي الجويني (٤٧٨هـ) طبع بتحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٩٩هـ .
٦- الجدل على طريقة الفقهاء لابن عقيل (٥١٣هـ) طبع بتحقيق جورج مقدسي ـ ونشر بمجلة المعهد الفرنسي للدراسات الاستشراقية ج ×× ص : ١٩-٢٠٦ دمشق ١٩٦٧م.
٧- الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل الأصولي الفقهي ــ لأبي محمد يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي المتوفي (٦٥٦هـ) ـ تحقيق د. فهد بن محمد السدحان ـ الناشر مكتبة العبيكان ــ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م ـ الرياض.
٨- عَلَم الجَذَل في عِلْم الجدل ــ لنجم الدين الطوفي الحنبلي المتوفى (٧١٦هـ) ـ طبع بتحقيق فولهارت ها ينرنيشس ـ دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن ــ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .
٩- علم البحث والمناظرة لطاش كبري زادة المتوفى (٩٦٨هـ) ــ بتحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل ـ مطبعة الجبلاوي ـ مصر ١٣٩٧هـ .

١٠- شرح الولدية لمحمد المرعشي الساجقلي المتوفى (١١٥٠هـ) ومعه شرح للعلامة محمد بن حسين المعروف بملا عمر زادة ـ المطبعة الجمالية بمصر .

١١- رسالة في آداب البحث لأحمد مكي .

١٢- تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث لأحمد مكي، وهي شرح للرسالة المتقدمة ـ جميعة النشر والتأليف الأزهرية ـ ١٣٥٣هـ.

١٣- رسالة الآداب لمحمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة دار السعادة ١٣٧٨هـ ـ القاهرة .

١٤- آداب البحث والمناظرة لمحمد الأمين الشنقيطي ـ وهو كتاب من جزئين ـ الناشر مكتبة ابن تيمية بالقاهرة ومكتبة العلم بجدة .

المبحث الثاني

بيان الغرض من الجدل، وفوائده، ونتائجه

تنبيـــه :[١]

إذا ترتب على فعل ما أثر فذلك من حيث هو نتيجة لذلك الفعـل وثمـرة له يسمى فائدة، ومن حيث كونه على طرف الفعل ونهايته يسمى غاية، ثـم ذلك الأثر المسمى بهذين الأمرين إن كان باعثـاً علـى ذلـك الفعـل، يسـمى بالقياس إلى فاعله غرضاً، ومقصوداً. ويسمى بالقيـاس إلى فعلـه علـة غائيـة، وإن لم يكن باعثاً للإقدام كـان فـائدة وغايـة فقـط، والغايـة أعـم مـن العلـة الغائية.

يتبين مما سبق أن بين هـذه الأمـور الثلاثـة: الغـرض والفـائدة والنتيجـة، تشابه شديد، حتى إنه يصعب ملاحظة الفـرق بينهـا، ولاسـيما بـين الفـائدة والنتيجة، ومع ذلك حاولت أن أفـرد لكـل أمـر كلامـاً يخصـه مـع ملاحظـة التداخل الاعتباري، وهو أمر لامحالة واقع.

أولاً: الغرض من الجدل:

الغرض من الجدل قسمان : صحيح وفاســد.

أما الغرض الصحيح فأنواع، منها:

١- تحقيق الحق وإظهار الصواب.[٢]

---

(١) انظر: أبجد العلوم ١/٤٩.

(٢) انظر: الكافية في الجدل ص :٢٣.

٢- تمحيق الباطل،ودفع الشبه، وإزالة الأوهام والشكوك.[١]

٣- كسر الخصم المبطل بقصد نصرة الحق، لا على عادة أهل السفسطة ونحوهم، كما سيتبين في موضعه.

٤- تصحيح مذاهب الحق ونصرتها بالذود عنها بطريق الجدال وغيره من الطرق الموصلة إلى الحق.

٥- تمحيص الأدلة وكشفها، وتمييز صحيحها من سقيمها.

٦- دفع الزلل والخطأ عن العلماء من حيث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الحق وسبله.[٢]

٧- تحصيل ملكة الهدم والإبرام[٣] وهي التي تعين صاحبها على إقامة الحق وأدلته، وتزهيق الباطل وشبهاته .

وأما الغرض الفاسد فأنواع ـ أيضاً ـ منها:

١- دحض الحق وإظهار الباطل، وهذا لا يكون إلا من كافر صريح الكفر، أو منافق عليم النفاق، أو متعصب بغيض؛ قال (تعالى): ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[سورة غافر:٥].

---

(١) انظر : المرجع السابق ص : ٢٣ .

(٢) انظر : الكافية ص:٢٤. وقال الجويني رحمه الله : «فإذا رأى العالم مثله يزل ويخطئ في شيء من الأصول والفروع وجب عليه من حيث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاؤه عن الباطل وطريقه إلى الحق وطريق الرشد والصواب فيه ، فإذا لجّ في خطابه وقوّى على المحق شبهته وجب على المصيب دفعه عن باطله والكشف له عن خطئه بما أمكنه من طريق البرهان، وحسن الجدال . فحصل ـ إذ ذاك ـ بينهما المجادلة ، من حيث لم يجدا بداً منه في تحقيق ما هو الحق ، وتمحيق ما هو الشبهة والباطل» . الكافية في الجدل ص : ٢٤ .

(٣) مفتاح السعادة ١/٣٠٥ .

٢- كسر الخصم وإفحامه بأي سبيل كان، لا لقصد الوصول إلى الحق؛ فالمقصود: الغلبة والفلج ، لا الحق والصواب، وهي طريقة أهل السفسطة ومن شابههم .

٣- طلب الشهرة بتحدي العلماء المبرزين ومعارضتهم بالمناظرة.(١)

٤- الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنفس: العجب واحتقار الغير.

ثانياً: فوائد الجدل:

أما فوائد الجدل والمناظرة فكثيرة، أختار طائفة منها:

١- فيه تحقيق لمعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما من صفات المؤمنين وواجباتهم، بل من مقتضيات الإيمان؛ قال (تعالى): ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[سورة آل عمران: ١١٠] ولهذا أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بالدعوة إلى سبيل الرب (تعالى) والمجادلة بالتي هي أحسن.(٢) قال (تعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل: ١٢٥].

٢- إحقاق الحق وإقامة الصواب، وكسر الباطل وأهله، ودفع الشبهات ورد غلواء المعتدين؛ قال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله:

---

(١) انظر : تاريخ التعليم عند المسلمين د. منير الدين أحمد ص : ٥٧ .

(٢) انظر : رسالة أدب البحث ـ لأحمد مكي ص : ٥ .

ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين ... »[(١)]
وهذا قد يكون بالجدل ، وقد يكون بغيره من طرق بيان الحق وتزهيق الباطل.

٣- تثبيت المؤمنين؛ فإن المناظر قد يكون غرضه ـ أحياناً ـ ليس هداية الخصم بالدرجة الأولى، وإنما تثبيت المؤمنين، وذلك بإظهار علوّ الإسلام، وقوة حجته، وضعف حجج خصومه، فيزداد المؤمنون إيماناً ويقيناً؛ قال (تعالى) في أهل الكتاب ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تعملون﴾ [سورة آل عمران: ٩٩] فالواجب على المناظر من أهل الحق تثبيت هؤلاء المؤمنين الذين يسعى الخصوم في ردتهم، وصدهم عن الحق. ومن وسائل التثبيت دحض حجج الخصوم، وتفنيدها، والظهور عليهم في ميادين الجدال.[(٢)]

---

(١) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح ٨٢/١ وعزاه إلى البيهقي ، وذكر الألباني أن الحديث مرسل ثم قال : لكن الحديث قد روي موصولاً من طريق جماعة من الصحابة ، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في بغية الملتمس .
وذكر الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص : ٢٩ أن مهنا بن يحيى قال : سألت أحمد ـ يعني ابن حنبل ـ عن حديث معان بن رفاعة عن إبراهيم هذا فقلت لأحمد : كأنه كلام موضوع ؟ فقال: لا، هو صحيح ، فقلت له : ممن سمعته أنت ؟ قال : من غير واحد ، قلت : من هم ؟ قال : حدثني به مسكين، إلا أنه يقول : معان عن القاسم بن عبد الرحمن. قال أحمد : معان بن رفاعة لا بأس به .
والحديث رواه البغدادي ـ أيضاً ـ في شرف أصحاب الحديث ص : ١١،٢٨ عن أبي هريرة برقم : ٥٢ وأسامة بن زيد برقم : ٥٣ وابن مسعود برقم : ٥٤ وعن معاذ برقم : ١٤.
(٢) انظر : الحوار مع أهل الكتاب ـ لخالد القاسم ص : ١١٦-١١٧ .

٤- تحصيل ملكة الجدل والمناظرة، وذلك بعد تشحيذ الأذهان، وتصقيل الخواطر بفضل المراس والمران، فيتعرف المجادل على طرق إبرام الأقوال الصحيحة، وهدم الأقوال الباطلة.[١]

٥- الوصول إلى الحقيقة والصواب بالطرق العلمية مجردة عن الأهواء، ومتابعة للدليل.

٦- تمحيص الأدلة وكشفها، والترجيح بينها في المسائل الاجتهادية.

٧- تأييد صحيح المنقول بصريح المعقول.

٨- الانتقال بالمسائل العلمية من مقام الظن إلى مقام القطع واليقين؛ لأن الظنية والقطعية من الأمور النسبية الإضافية، فما يكون مظنوناً عند شخص ما، قد يكون مقطوعاً به عند آخر، وبالمناظرة قد يستفيد صاحب الظن: القطع واليقين.

٩- تقريب المسائل البعيدة، وتسهيل المسالك الوعرة، لا سيما إذا أُلتزمت قواعد المناظرة وآدابها.

١٠- الفصل في النزاعات العلمية التي تقع بين المسلمين، كما كان يقع مثله في مجالس الخلفاء والوزراء والأعيان[٢] .

١١- ما يحصل في المجالس التي كان يعقدها العلماء من تمحيص الحق، والوقوف على دقائق العلوم، وتبادل الفوائد؛ حتى إن الأئمة الكبار كانوا يأمرون تلاميذهم بالمناظرة ويشجعونهم عليها.[٣]

---

(١) مفتاح السعادة ١/٣٠٣،٣٠٥،٣٠٦.

(٢) انظر : تاريخ التعليم ـ منير ص : ٥٧.

(٣) انظر: تاريخ التعليم ـ منير ص: ٥٦،٥٧، ومعرفة علوم الحديث للحاكم ص: ١٤٠ وما بعدها.

يقول أبو محمد بن الجوزي رحمه الله: «اعلم وفقنا الله وإياك: أن معرفة هذا العلم لا يستغني عنها ناظر، ولا يتمشى بدونها كلام مناظر؛ لأن به يتبين صحة الدليل من فساده ـ تحريراً وتقريراً ـ وتتضح الأسئلة الواردة من المردودة ـ إجمالاً وتفصيلاً ـ ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة.

ولو خُلِّيَ كل مدع ودعوى ما يرومه على الوجه الذي يختاره، ولو مُكِّن كل مانع من ممانعة ما يسمعه متى شاء: لأدى إلى الخبط وعدم الضبط.

وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل، وتميز المستقيم من السقيم، فمن لم يحط بها علما كان في مناظرته كحاطب ليل»[1].

ثالثاً: نتائج الجدل:

إذا كان قصد كل من المتناظرين ابتغاء الحق، وطلب الصواب، فسوف تنكشف هذه المناظرة: إما عن نيل المطلوب، وحصول المقصود على أحسن الوجوه وأطيبها، وإما عن بعض ذلك، فإن لم يتحقق شيء منه، فلا أقل أن تستمر هذه النية الصالحة، ولا يطرأ عليها تغيير بسبب الجدال. فما لم يتضح اليوم من المسائل العلمية قد يتضح غداً، مع بقاء النفوس على التناصح، والتواصي بالحق وبالصبر.

أما إذا كان قصد المتناظرين أو أحدهما غير ما ذكر من ابتغاء الحق، وطلب الصواب؛ فهي من سيئ القصد مراء وتشغيب وسفسطة، «يترتب عليها إضاعة الأزمان، وإتعاب الأذهان، وإيراث الوحشة، وحصول العداوة»[2].

---

(١) الإيضاح لقوانين الاصطلاح ص: ٥ .

(٢) انظر: مفتاح السعادة ١/ ٣٠٦ .

فالجدل الحق يعين على الوصول إلى الحقيقة، على سبيل التدافع الـذي لا يزيدها إلا قوة ووضوحاً؛ لأنه يتـآزر في طلبهـا أكـثر مـن عقـل وأكـثر مـن مجهود.[١] ولهذا كـان ابـن شـهاب الزهـري رحمـه الله يقـول لتلاميـذه: «لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم؛ فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمـر المعضل دعـا الفتيـان فاستشـارهم؛ يبتغـي حـدة عقولهـم».[٢] فـإذا خلصـت النوايا، واستقامت الأغراض، وسلمت الآلات فالمطلوب حاصل ـ بـإذن الله ـ إن عاجلاً وإن آجلاً.

نوع المعرفة الناتجة عن الجدل:

أطلق بعض فلاسفة[٣] اليونان ومن أبرزهم أرسطو[٤]، ووافقهـم مـن الفلاسفة الإسلاميين[٥] ابن سينا[٦]: أن الجدل لا يفيد إلا الظن، وهذا خطأ،

---

(١) انظر: مقدمة الكافية في الجدل للدكتورة فوقية ص : ٢٨ .

(٢) جامع بيان العلم ـ لابن عبد البر ١/١٠٢ باب في فضل التعلم في الصغر والحض عليه .

(٣) كلمة فلسفة تتكون من مقطعين: "فيـلا" و "سـوفيا". و"فيـلا" في اليونانيـة معناهـا : محـب، و"سوفيا" معناها: الحكمة ، فالفلسفة هي: حب الحكمة، والفيلسـوف: محـب الحكمـة. ومـن مذاهب الفلاسفة القول بقدم العالم، وأكثرهم ينكرون حشر الأجسـاد، ومـن أشـهر فلاسـفة اليونان أرسطو، وأقسام علومهم : الإلهيات، والطبيعيات، والرياضيات. انظـر: الملـل والنحـل ٢/٥٨ ، واعتقـادات فـرق المسـلمين لـلرازي ص : ١٤٥ ومـا بعدهـا، والمرشـد الأمـين ص: ١٤٥وما بعدها ، والمعجم الفسلفي ـ جميل صليبا ٢/١٦٠.

(٤) انظر: منطق أرسطو ـ طوبيقا ٢/٤٧٠.

(٥) الفلاسفة الإسلاميون هم المنتسبون إلى الإسلام ممن كان على مذهـب الفلاسـفة اليونـان مـن أمثال ابن سينا، والفارابي، والكندي، وابن رشد، والسهروردي المقتول وغيرهم من المنتسـبين إلى القرمطة والتصوف. انظر : درء تعارض العقل والنقل ٦/٢١١-٢١٢ .

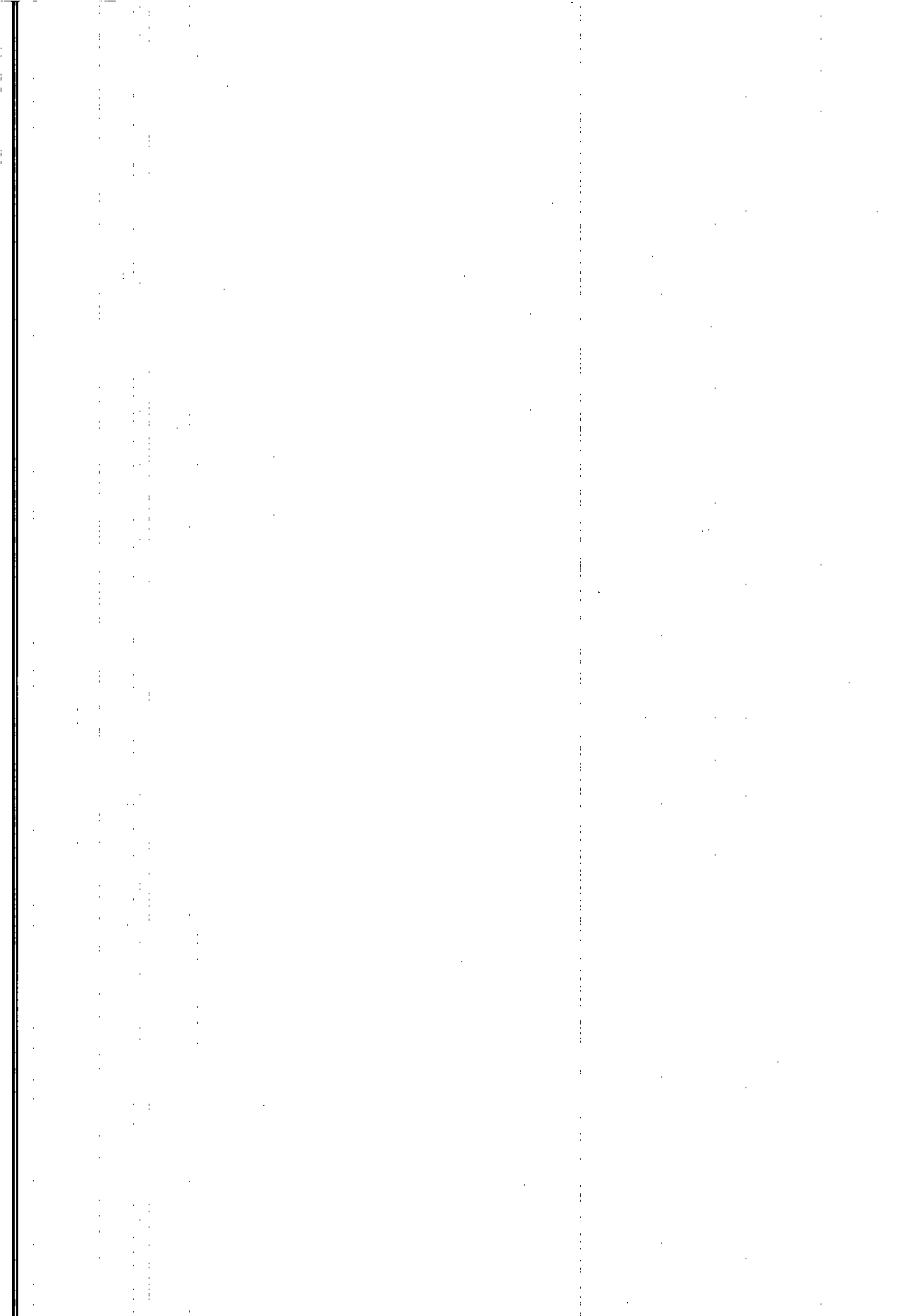
(٦) انظر : الشفاء (المنطق ـ الجدل) ص : ٢٠ ، ٣٤ .

بل قد يفيد القطع، وكما تقدم فإن القطع والظن من الأمور النسبية الإضافية، وليس صفة للدليل؛ يقول أبو المعالي الجويني رحمه الله: «فإنهم لم يجدوا في شيء من الأجناس يعقبه ضرب من الاعتقاد الذي إذا وقع على وجه كان علماً بعد طرق الضروريات، إلا الجنس الذي هو النظر والمناظرة...»[1] .

فبالنظر والمناظرة تستفيد المسائل العلمية قوة وتحققاً، فما كان مجرد وهم قد يصبح ظناً، أو ظناً غالباً، أويقيناً، وما كان ظناً قد يصبح يقيناً وقطعاً، وأيضاً فما كان مقطوعاً به عند الخصم قد ينزل إلى درجة الظن أو الشك أو الوهم.

---

(١) الكافية ص :٢٥.



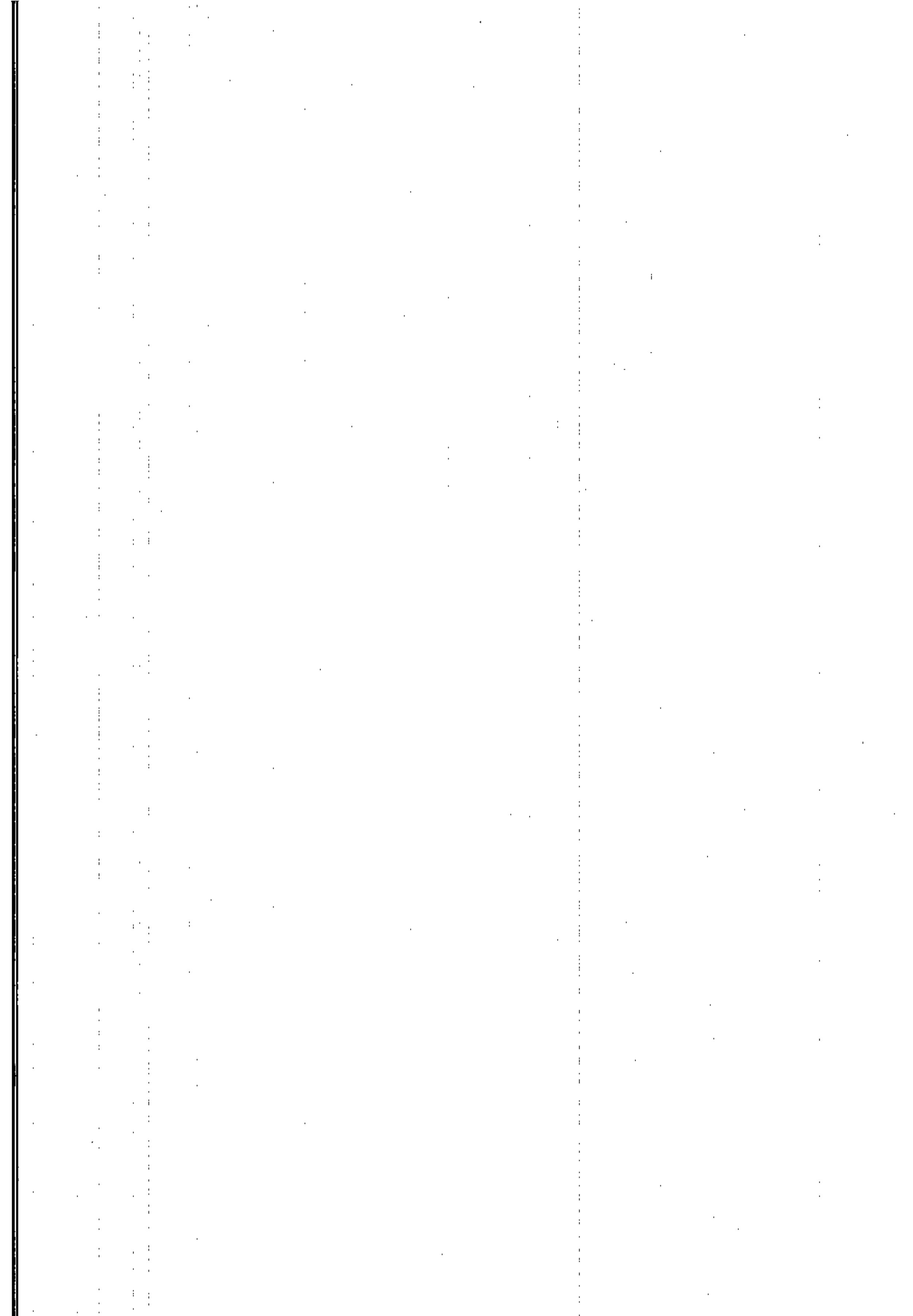
الباب الأول

نشـــأة الجـــدل

وفيه فصـلان:

الفصل الأول: نشـأة الجـدل قبل الإسـلام

الفصل الثاني: نشأة الجـدل عند المسلمين



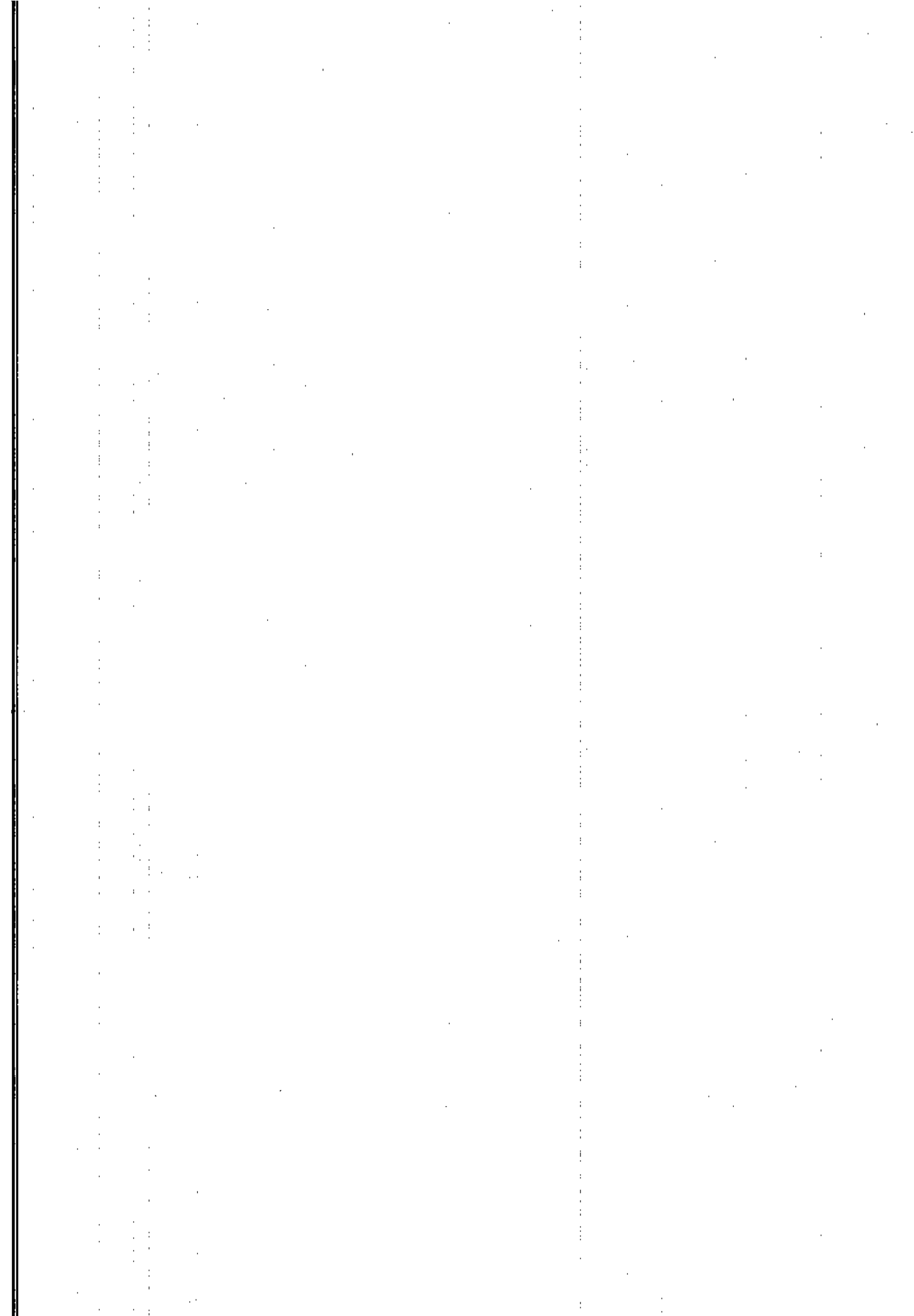
الفصل الأول

نشأة الجدل قبل الإسلام

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: النشأة الأولى للجدل وتطوره

المبحث الثاني: الجدل عند قدماء اليونان وعلاقته بالمنطق الأرسطي



المبحث الأول
النشأة الأولى للجدل وتطوره

إن الإنسان اجتماعي بطبعه، أي يميل إلى الاجتماع بغيره من بني جنسه، وهو محتاج إليه وإلى معاونته، ولا يعرف كل منهما مراد صاحبه إلا بالبيان والكلام الذي وسيلته اللسان، وهذا أمر يشارك فيه الإنسان غيره من الحيوان.

والجدل ضرب من ضروب البيان، وهو قديم في الخليقة، وسيظل باقياً إلى يوم الدين، ما دام هناك عقل، ومجتمعات، ومعتقدات، وقضايا، وتباين في الميول والأهداف...

«الجدل صناعة تكاد تكون فطرية إن لم تكن كذلك حقيقة، فإنا نرى العامة بل الصبيان تقع بينهم المناظرات على القانون الصناعي من إيراد الاستفسار؛ كقول أحدهما للآخر: أيش قلت؟ أو: كيف قلت؟ أو: أيش معنى هذا؟ والمنع هو الذي يسمونه المكابرة نحو قولهم: والله ما هو كذا، وما هو إلا كذا!، والنقض كقول بعضهم: فلان علّق على دابته عِوَذَة فما مرضت، فيقول الآخر: قد علق فلان على دابته عوذة فماتت، أو: مرضت، وهو وجود العلة بدون الحكم وهو النقض.

والصبيان ببدائهم يدركون أن المعارضة تبطل الحجة، وأنها بعد المعارضة ترجيح بلا مرجح وأنه باطل، فإذا افتخر أحدهم على باقيهم بطفر نهر أو وثوب جدار أو نحو ذلك اجتهدوا على أن يفعلوا مثل فعله، فإن صح لهم علموا أن افتخاره عليهم قد بطل، وأنه صار ترجيحاً بلا مرجح، وأن ذلك باطل، وأشباه ذلك مما يقع من العامة كثيراً.

وإنما العلماء استخرجوا لصناعة الجدل قوانين وضوابط وأسماء وألقاباً تعرف بها، وقرروا منها ما كان نظرياً لا يدرك بالبديهة، ولهذا نرى العلماء يحيطون منها ومن غيرها بما لا يحيط به غيرهم، لأن البديهي من ذلك مشترك، وزاد العلماء بالنظريات التي لا سبيل لغيرهم إليها»[(١)].

والجدل شأن اجتماعي لا يمكن أن تخلو منه أمة، وذلك لاختلاف الناس في المعتقدات والآراء، وتباينهم في الأغراض والميول؛ قال (تعالى) : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[سورة هود: ١١٨-١١٩].

ويرى كثير من العلماء والباحثين أن الجدل ظاهرة إنسانية، بل عالمية ؛ لوجودها في غير الجنس البشري ـــ كالملائكة والجن ـ ويعللون ذلك بأن النفس البشرية مجبولة على حب الدفاع عنها، وتقريب مطالبها، ولن يكتمل لها ذلك إلا باستعمالها أسلحة الجدل، وقوارع الحجج. والناظر في تاريخ البشرية يرى أن هذه الظاهرة لم يخل منها عصر من العصور، ولا جيل من الأجيال[(٢)].

يقول ابن خلدون: «وأما العلوم العقلية التي هي طبيعة للإنسان من حيث إنه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل

---

(١) عَلَم الجذل في علم الجدل ـ نجم الدين الطوفي ص : ٢٠٩-٢١٠

(٢) انظر: مقدمة شرح المقاصد ـ عبد الرحمن عميرة ص: ٥١، ومناهج الجدل ـ زاهر الألمعي ص: ٢٦-٢٧.

كلهم، ويستوون في مداركها، ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة»[١].

ويقول الدكتور زاهر الألمعي:[٢] «وقد خلق الله (تعالى) الإنسان ناطقاً مفكراً، يتوارد عليه من الخواطر والمعلومات ما يجعله مدفوعاً بالضرورة إلى الإفضاء بها والإفصاح عنها، وقد تشتد وتبرز أشد البروز في مواقف الحجاج والنقاش، وتبادل الأفكار، واحتكاك بعضها ببعض: موافقة أو مخالفة أو برهنة أو معارضة أو تعلماً أو تعليماً، إلى غير ذلك مما هو مرتكز في الفطرة الإنسانية، وما تستدعيه طبيعة النوع البشري من التعرف والتفاوت؛ إدراكاً وعلماً. فالجدال لا يمكن أن يخلو منه بشر عنده بيان يعبر به عما يختلج في نفسه من مقاصد وأغراض بصرف النظر عن كيفية هذا البيان ونوعيته.

إن النفس البشرية مجبولة على الدفاع عنها وتقرير مطالبها، وإيضاح مقاصدها، حتى في مواقف القيامة، فإنها لا تتخلى عن هذه النزعة البيانية الإنسانية كما في قوله (تعالى): ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [سورة النحل: ١١١] وكما ورد في حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان؛ فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة، فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي؛ فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[٣].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص : ٤٥١.

(٢) انظر : مقدمة كتاب استخراج الجدل ص:١٠-١١ ومناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٢٧٦-٢٧.

(٣) رواه الترمذي عن الحسن عن أبي هريرة ١٤١/٧ أبواب القيامة ـ باب ما جاء في العرض ح:٢٤٢٧ قال أبو عيسى: ولا يصح هذا الحديث من قِبَل أن الحسن لم يسمع من أبي=

فالجدال يعود بمعناه العام إلى نزعة البيان والإفصاح المودعة ـ فطرياً ـ في الإنسان، وهو بتعبير آخر وسيلة إفصاح عما يجيش في النفس من تأثرات وأحاسيس إما لإظهار مبدأ، أو نصرة حق، أو تصحيح خطأ، أو توجيه مفهوم أو غير ذلك مما جبلت عليه النفوس البشرية، وبأي دافع كان هذا الحوار الإنساني. فالجدل ضرورة حتمية، فلا يقال: إنه واجب ولا مكروه؛ لأنه طبيعة وجبلة في الفطرة الإنسانية ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٤]».

وإذا أردنا أن نعرف تأريخ الجدل ونشأته الأولى، فإن القرآن الكريم هو أصدق مرجع يروي لنا نماذج الأمم الغابرة منذ أن وجد الإنسان، بل ومن قبل وجوده كما في جدال الملائكة حول وجود آدم خليفة في الأرض، وجدال إبليس، مما يصعب معه تحديد وقت لنشأة الجدل بمعناه الفطري العام؛ لأنه وجد بوجود الإنسان، كامناً في نزعاته البيانية.[1]

= هريرة، وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال أبو عيسى : ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى ٧/١٤١-١٤٢. ورواه ابن ماجه في سننه ٢/١٤٣٠ كتاب الزهد ـ باب ذكر البعث ح : ٤٢٧٧ عن الحسن عن أبي موسى الأشعري . قال في الزوائد : رجال الإسناد ثقات إلا أنه منقطع ، والحسن لم يسمع من أبي موسى قاله علي بن المديني وأبو حاتم وأبو زرعة.

(١) انظر : مقدمة استخراج الجدل ص : ١٢ ومناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٣٠

تاريخ الجدل في القرآن الكريم

أولاً: جـدال الملائكة:

قال عبد الرحمن بن نجم الحنبلي (٦٣٤هـ) رحمه الله: «أول من سنّ الجدال: الملائكة صلوات الله عليهم حيث قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[سورة البقرة: ٣٠]»(1).

ثانياً: جـدال إبليس:

أما إبليس فهو أول من أظهر الخلاف، وركب العناد قال (تعالى): ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[سورة ص: ٧٣-٨٥] .

ثالثاً: جـدال ابني آدم :

وهو أول جدال بين الجنس البشري يسجله لنا القرآن الكريم، قال (تعالى): ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ

---

(١) استخراج الجدل ص : ٥٧ .

لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ*لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٧-٢٨].

ثـم بعد ذلك يقص علينا القرآن الكريم جدال الأنبياء مع أقوامهم في موضوعات شتى، أبرزها موضوعات التوحيد والإيمان، وسيأتي لكل ما تقدم مزيد بيان في موضعه من هذا البحث إن شاء الله (تعالى).

المبحث الثاني

الجدل عند قدماء اليونان وعلاقته بالمنطق الأرسطي

الجدل الذي هو أحد أبحاث المنطق الهامة ذو صلة وثيقة بقدماء اليونـان، حتى صار شعاراً لهم يُذكرون به، فقد كان لهم اهتمام بالغ بالجدل وأساليب الحوار؛ حيث استفرغوا جهودهم، ووجهوا شبابهم، وأوقفوا أموالهم لتعلمه وتعليمه، الأمر الذي كان له أبرز الأثر في ابتعاد اليونان عن التفكير التجريبي العملي الذي كان يمكن أن ينتفعوا به في هذه الحياة، ويبنوا عليه تقدماً مادياً، فذلك أنفع لهم من فكر لا يفيد في دين ولا دنيا. بل كان فكرهم فكراً تجريدياً موغلاً في الصورية، حتى كان يقال في منطق أرسطو ـــ وقد انتهت إليه جهود الفكر اليوناني ـ : إنه منطق صوري، يهتم بصورة الفكر دون مادته، أي بالأمور الذهنية دون العينية الموجودة في الخارج.[1]

والغاية العظمى للجدل اليوناني هي عدم الوقوع في التناقض، مع طلب الغلبة وكسر الخصم، بغض النظر عن موافقة الحق والفوز بالصواب.

وأنا ذاكر في هذا المبحث أبرز رجال الفكر اليوناني، والذين يشكلون مراحل متنوعة، وربما متباينة، في حياة الفكر اليوناني:

---

(١) انظر : المنطق الصوري والرياضي ـ بدوي ص : ٦-٩ .

أولاً: زينون الإيلي (٤٩٠-٤٣٠ق.م):

يذهب جمهرة[١] من مؤرخي الفلسفة اليونانية إلى أن زينون الإيلي هو مخترع الجدل، مشايعين في ذلك أفلاطون وأرسطو، والصحيح أن يقال: إن زينون هو أول من وضع علم الجدل في صيغة فنية، أي وضعه في أساليب معينة، صار بها علماً من العلوم الآلية في بلاد اليونان.[٢]

يقول **رسل** : «والواقع أن زينون كان أول من استخدم الحجة الجدلية بطريقة منهجية، وكان لهذه الحجة دور عظيم الأهمية في الفلسفة، وقد اقتبسها سقراط وأفلاطون من الإيليين وطوراها بطريقتهما الخاصة... »[٣].

وقد تصدى زينون للدفاع عن مذهب معلمه بارمنيدس (٥٤٠ـ ق.م) في الواحد الثابت، محاولاً إبطال القول بالكثرة والحركة، الذي هو مذهب[٤] الفيثاغوريين[٥] مستعملا في ذلك برهان الخُلْف؛ وهو أن يُسلم لهم بصحة قضاياهم، ثم يبين لهم ما يترتب على هذا التسليم من خلف وتناقض.[٦]

(١) انظر : المنهج الجدلي عند هيجل ـ د. إمام ص : ٥٢ ، والفلسفة الأغريقية ـ د. غلاب ص : ٩٥، وتاريخ الفلسفة اليونانية د. كريم متى ص : ١٠٩ ، وقصة الفلسفة اليونانية أحمد أمين ـ زكي نجيب ص: ٤٩ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٣٢ .

(٢) انظر : الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص: ٣٢، وقصة الفلسفة اليونانية ـ أحمد أمين ـ زكي نجيب ص: ٤٩.

(٣) حكمة الغرب ـ الجزء الأول ـ برتراند رسل ص : ٧٨.

(٤) انظر : الفلسفة اليونانية ـ شارل فريز ص : ٣٩ وتأريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص : ٣١ .

(٥) الفيثاغوريون : هم المنتسبون إلى فيثاغورس (٥٧٠-٤٩٧ق.م) وهو إغريقي أيوني، أسس فرقة دينية سياسية فلسفية، ويروى أنه هو الذي وضع لفظة "فلسفة"، الأشياء عندهم أعداد، والعدد شكل وليس برقم، فالواحد نقطة، والاثنان خط، والثلاثة مثلث وهكذا. ومن ثم فالأشياء أعداد أي أشكال، والعدد الكامل عندهم عشرة. انظر : الموسوعة الفلسفية ـ الحفني ص : ٣٥٣-٣٥٤ .

(٦) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص :٣١ والمنهج الجدلي عند هيجل ص : ٥٣ والفلسفة الإغريقية ـ د. غلاب ص: ٩٥-٩٦ وحكمة الغرب ٧٩/١.

وزعم زينون أنه أقام أربعة براهين في إثبات وحدة الوجود وإبطال الكثرة والتعدد، وأربعة أخرى في أثبات سكون الأشياء ونفي الحركة. وأختار هنا مثالاً واحداً لكل نوع ، مع ذكر جوابه:

مثال لإثبات وحدة الوجود وإبطال التعدد(١):

إذا أتينا (بكيلة) من القمح، ثم بذرناها، فإنها ستحدث صوتاً، ولكنا إذا بذرنا الحبة الواحدة من القمح، فإنها لا تحدث صوتاً، فكيف تسنَّى إذن أن ينتج شيء كلي -هو الصوت هنا- من أشياء لا وجود لها،معنى هذا أنه إذا كانت الأشياء متعددة، فلا يمكن أن تنتج شيئاً ما دامت الوحدات المتركبة منها لا تنتج وحدها شيئاً. وعلى هذا فالوجود ما دام لا ينتج شيئاً فإنه ليس متعدداً. إذن فالوجود واحد.

الجواب عن هذا الدليل(٢):

هذا الدليل مبني على أن الحبة الواحدة لا تحدث صوتاً عند البذر، لكنها تحدث صوتاً وإن كان ضعيفاً، وباجتماع هذه الأصوات الضعيفة لحبات القمح يتكون صوت كبير هو صوت كيلة القمح حين تبذر. ثم إنه لو سلمنا جدلاً: أن الحبة منفردة لا تحدث صوتاً، فإنه لا يمتنع في حكم العقل أن تحدث بانضمامها إلى غيرها صوتاً؛ لأن حكم الاجتماع غير حكم الانفراد.

---

(١) انظر: ربيع الفكر اليوناني ـ عبد الرحمن بدوي ص: ١٢٨ والفلسفة اليونانية ــ يوسف كرم ص: ٣١.

(٢) انظر: ربيع الفكر ـ بدوي ص : ١٣٢ .

مثال لإثبات السكون ونفي الحركة[(١)]:

سلحفاة تقدمت عشرة أمتار ثم تحرك رجل مسابقاً لها، وكانت سرعته عشرة أمثال سرعة السلحفاة، فلما بدأ وقطع العشرة أمتار التي تفصله عن السلحفاة وجد أنها قد تقدمت متراً ـ أي عشر المسافة التي قطعها هو ـ فلما قطع هذا المتر كانت السلحفاة قد تقدمت عشر المتر فإذا قطع هذا العشر تكون قد تقدمت جزءاً من مائة جزء من المتر، وهكذا إلى ما لانهاية، فلو ظلا أبد الدهر فلن يلحق الرجل بالسلحفاة.

الجواب عن هذا الدليل[(٢)]:

التقسيم في الواقع إلى ما لا نهاية له من الأجزاء ممتنع، وأيضاً القول بأن المكان ينقسم إلى ما لا نهاية له من الأقسام يستلزم القول بأن الزمن الذي يتم فيه التحرك طول هذه المسافة المكانية لا بد أن ينقسم إلى ما لا نهاية له من الأقسام. وعليه لا يصح القول بأن ما لا نهاية له من النقط يقطع في زمن نهائي. فإذا سلمنا بأن المكان ينقسم إلى ما لا نهاية له من النقط، فعلينا لزاماً أن نسلم ـ أيضاً ـ بأن الزمن ينقسم إلى ما لا نهاية له من النقط ، فما يقطع في مكان لا نهائي، فهو سيقطع في زمن لا نهائي.

ولاريب أن إنكار التعدد والحركة في الوجود مغالطة كبرى ومعاندة شنيعة؛ فإن ذلك مناقض لبدائه العقل والحس والشرع.

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية ــ أحمد أمين ص : ٤٧ ، والفلسفة الأغريقية ــ غلاب ص : ٩٧ ، وربيع الفكر ـ بدوي ص: ١٢٩، والفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص :٣١-٣٢ .

(٢) انظر : ربيع الفكر اليوناني ـ بدوي ص : ١٣٣-١٣٤ .

ثانياً: السوفسطائيون:

تعاظم التنافس بين أفراد المجتمع اليوناني بعد خروج الفرس من أراضيهم، وشيوع الحرية السياسية (الديموقراطية) فازدادت أسباب التنازع أمام المحاكم الشعبية، وشاع الجدل القضائي والدفاعي والسياسي ، فنشأت الحاجة إلى تعلم الخطابة وأساليب المحاجة واستمالة الجمهور.ووجد فريق من المثقفين المجال واسعاً لاستغلال مواهبهم، فانقلبوا معلمي بيان وخطابة وجدال ومحاجة؛ يتنقلون لتقديم دروس تعليمية على أساس احترافي يتقاضون مقابلها أجوراً. فقصدهم الشباب اليوناني من كل حدب وصوب، طالبين التمكن من القدرة على البيان والخطابة والجدال والمحاجة.

فعُرف هؤلاء المعلمون بالسوفسطائيين، وقد كان اسم (سوفيست) يدل في أصله الأول على المعلم في أي فن كان، لاسيما في البيان والفصاحة، ثم لحقه التحقير في عهد سقراط وأفلاطون؛ لأن السوفسطائيين كانوا مجادلين مغالطين متجرين بالعلم، وقد كانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على حد سواء، إذ لا يبحثون عن الحقيقة، بل عن وسائل الإقناع والتأثير الخطابي، مستعملين في ذلك الألفاظ المجازية، والعبارات المحتملة لأكثر من وجه، والخطب الرنانة، قاصدين كسر الخصم وإبطال حجته، والتفوق عليه جدالاً ومحاجة.[1]

---

(١) انظر : قصة الفلسفة اليونانية ـ أحمد أمين ـ زكي نجيب ص : ٩١-٩٥ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٤٥-٤٦ .

أسس مذهب السوفسطائيين[1]:

أولاً: الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة ولا شيء وراء ذلك.

ثانياً: الإنسان مقياس الحق والباطل، والصواب والخطأ، والفضيلة والرذيلة، والخير والشر ونحو ذلك من المتقابلات.

ثالثاً: هذه المتقابلات أمور نسبية، تختلف باختلاف الأشخاص، وباختلاف أحوال الشخص الواحد.

رابعاً: ليست هناك حقيقة مطلقة، ولا علم عام، ولا حكم شامل، ولا قانون مطرد.

والحق أن السفسطة حالة نفسية قد تعرض لبعض الناس بسبب عناده ومكابرته، وليست هي وضعاً يدوم للإنسان في كل أحواله، فإن هذا أمر لا يمكن وقوعه ولا التزامه؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن الناقلين للمقالات وأهل الجدل صاروا يعبرون باللفظة المعربة من"سوفسقيا" وهي"سوفسطا" عن هذا المعنى الذي يتضمن إنكار الحق، وتمويهه بالباطل، وظن من ظن أن هذا قول ومذهب عام لطائفة في كل حق؛ وليس الأمر كذلك؛ وإنما هو عارض لبني آدم في كثير من أمورهم، فكل من جحد حقاً معلوماً وموّه ذلك بباطل فهو مسفسط في هذا الموضع، وإن كان مقرا بأمور أخرى، وهو معاند سوفسطائي إذا علم ما أنكره، قال تعالى وتقدس:

(١) انظر : قصة الفلسفة اليونانية ـ أحمد أمين ـ زكي نجيب ص : ٩٦-٩٩ ، والفلسفة اليونانية ـ د. كريم متى ص : ١١٠-١١٢ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٤٦-٤٧ .

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[سورة النمل: ١٤] فهؤلاء سوفسطائيون في هذا الجحود، وإن كانوا مقرين بأمور أخرى، وقال تعالى وتقدس: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[سورة الأنعام: ٣٣]؛ ولهذا كان جمهور من كذب بالحق الذي بعث به رسله من ذوي [التمييز][(١)] هم من الجاحدين المعاندين، وهم شر من [السوفسطائيين][(٢)]»[(٣)].

ثالثاً: سقـــراط:

جاء سقراط فأفسد على السوفسطائيين طريقتهم في الجدل، ووضع أسساً جديدة لفن الحوار والجدل، تقوم على مناقشة المقدمات والآراء السائدة، والتي تستنبط منها النتائج، ويبحث مع محاوريه ــ دون ملل ــ عن التعريف الحقيقي للأشياء،[(٤)] أي عن التعريف الذي يعبر عن ماهية المعرَّف، وقد اعترف أرسطو لسقراط بأنه كان يبحث عن جوهر الأشياء مستخدماً القياس.[(٥)]

---

(١) في الأصل : [التميز] ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) في الأصل : [السوفسطائين] بياء واحدة ، والصواب ما أثبته .

(٣) بيان تأسيس الجهمية ١/٣٢٤ ، وانظر ١/٣٢٢ وانظر أنواع السفسطة في الصفدية ـ ابن تيمية ١/٩٧

(٤) انظر : المنطق الحديث ـ د. محمود قاسم ص : ١٤-١٥، والمنطق والفكر الإنساني ـ عبد السلام عبده ص: ١٠- ١١ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ص : ٥٢.

(٥) انظر : المنطق الحديث لمحمود قاسم ص: ١٤-١٥، وتأريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص: ٥٢-٥٣.

كان سقراط يرى أن لكل شيء طبيعة أو ماهية هي حقيقته، يكشفها العقل وراء العوارض المحسوسة، ويعبر عنها بالحد، وأن غاية العلم إدراك الماهيات، وكان يستعين بالاستقراء، ويتدرج من الجزئيات إلى الماهية المشتركة بينها، ويرد كل جدل إلى الحد والماهية، فكان يسأل ما الخير وما الشر، وما العدل وما الظلم، وهكذا...فكان يجتهد في وضع حد (تعريف) للألفاظ والمعاني بشكل جامع ومانع، ويصنف الأشياء في أجناس وأنواع حتى يمتنع الخلط بينها، في حين كان السوفسطائيون يستفيدون من الاشتراك في الألفاظ، والإيهام في المعاني، ويتهربون من الحد الذي يكشف المغالطة. وقد وضع سقراط بهذا المنهج أصلاً من أصول المعرفة في المنطق، وهو الحد[1].

منهج سقراط في الجدل:

يقوم منهج سقراط في الجدل على مرحلتين:

الأولى: مرحلة التهكم ، وفيها يتصنع سقراط الجهل، ويتظاهر بالتسليم لأقوال مخالفيه، ثم يلقي عليهم الأسئلة ويعرض الشكوك، شأن من يطلب العلم والاستفادة، ثم ينتقل من أقوالهم إلى أقوال لازمة منها، لكنهم لا يسلمونها فيوقعهم في التناقض، ويحملهم على الإقرار بالجهل؛ فساعتها يتهكم منهم ويسخر، ويبدي للناس خطأهم وتناقضهم، فيثير ثائرتهم ويخرجهم عن طورهم، فتزداد حجتهم ضعفاً، ويكثر في منطقهم الاضطراب

---

(١) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٥٢-٥٣ .

والتناقض، وحينها لا يسعهم إلا التسليم بما يقوله سقراط، فيكون قد نجح -كما يرى ـــ في انتزاع الأباطيل من نفوسهم وهي غايته من السخرية والتهكم؛ ولهذا يقول: «إن السخرية هي التي تخلصنا من الخطأ، وتعد عقولنا لقبول المعرفة، وإنها هي أمضى سلاح للقضاء على الأباطيل والأضاليل»[(١)].

الثانية: مرحلة التوليد ، وفيها يساعد مخالفيه ــ كما يزعم ــ بالأسئلة والاعتراضات مرتبة ترتيباً منطقياً للوصول إلى الحقيقة التي أقروا أنهم يجهلونها، فيصلون إليها وهم لا يشعرون، ويحسبون أنهم استكشفوها بأنفسهم. فهذا هو التوليد، وهو استخراج الحقيقة من النفس، وقد كان سقراط يقول إنه يحترف صناعة أمه، وكانت قابلة، إلا أنه يولد نفوس الرجال.[(٢)]

ومنهج سقراط هذا قد يصلح مع المعاند المتفلت بعد الإعذار له، والإياس منه، ومع من رفض الإذعان للحق والخضوع للدليل؛ لأنه لا ينبغي التهكم والسخرية من الخصم ابتداءً، بل الحق غاية شريفة، ولا يطلب إلا بأشرف الوسائل وأطيبها، على ما سأبينه في الفصل الخاص بآداب الجدل.

---

(١) انظر : الفلسفة الإغريقية ـ غلاب ص : ١٧٠ والفلسفة، كرم ص : ٥٢ والمنهج الجدلي عند هيجل ص: ٦٤، ٦٥ وقصة الفلسفة اليونانية ــ أحمد أمين ــ زكي محمود ص : ١٠٩-١١٠.

(٢) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٥٢ .

رابعاً: أفــلاطون:

طريقـة[١] أفلاطـون في الجـدل كطريقـة أستاذه سـقراط، تهـدف إلى دحض الخصم بجره إلى الوقـوع في التنـاقض[٢]. والجـدل عنـد أفلاطـون ذو علاقة وثيقة بنظريته في المثل وهي: أن الوجـود الحقيقـي يكـون لعـالم المثـل، الذي هو عبارة عن ماهيات عقلية ثابتة كاملة من كل وجه، وأن ما يقابلهـا في عالم الحس ما هو إلا أشباح ومحاكاة لها. وعليه؛ فمعرفة الأشياء كامن في النفوس، وما على الإنسان إلا محاولة التذكر، فالعلم تذكـر والجهـل نسيان، فالعلم كالإحساس الحاضر ينبـه في الذهـن مـا اقـترن بـه في المـاضي، كذِكْـر الصديق عند رؤية صورته، والتجربة الحسية ما هي إلا فرصـة ملائمـة لعـودة المعنى الكلي إلى الذهن.[٣]

والوصول إلى عالم المثل لا يمكن إلا عن طريـق الجـدل، والجـدل عنـده نوعان : **جدل صاعد** ، **وجدل هابط** :[٤]

---

(١) انظر: المنطق الحديث ـ محمود قاسم ص : ١٦

(٢) التناقض: تقابل بين الإيجاب والسلب في حدين أو قضيتين تحتويان على عنصريـن لا يجتمعـان ولا يرتفعان ولا وسط بينهما، ومثال النقيضين : الموت والحيـاة، والوجـود والعـدم . انظـر : المعجم الفلسفي (مجمع اللغة العربية) ص : ٥٥ ، والمعجم الفلسفي ـ صليبا ١/٣٤٩-٣٥١ .

(٣) انظر: تأريخ الفلسفة الغربيـة ــ رسـل ١/٢٠١ ، والفلسـفة اليونانيـة ــ كـرم ص : ٦٩ ومـا بعدها، والمنهج الجدلي عند هيجـل ــ د. إمـام ص : ٦٨ ، والمعجـم الفلسـفي ــ مجمـع اللغـة العربية ص: ١٧٠.

(٤) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص: ٦٩ وما بعدها، والمنهـج الجـدلي عنـد هيجـل ص: ٧٠ والموسوعة الفلسفية ـ عبد المنعم حفني ص: ١٥٣، والمعجـم الفلسـفي (مـجْمع اللغـة) ص: ٦٠.

أما الجدل الصاعد، فيتم بملاحظة الجزئيات، ثم الارتفاع إلى الطبيعة العقلية العامة التي تربط بينها، أي أنه يرتفع من خلال الكثرة الحسية إلى الوحدة العقلية التي تشملها وتفسرها، ومنها إلى معقولات أعلى منها، وهكذا يستمر في ارتفاعه من الأفراد إلى الأنواع إلى الأجناس حتى يصل في النهاية إلى جنس الأجناس، إلى فكرة هي أعم الأفكار جميعها، وأكثرها حقيقة، وأعلاها مقاماً، وهي مثال الخير.

وأما الجدل الهابط: فهو تكملة للعملية السابقة، بحيث يهبط فيها الفكر من الأجناس العالية إلى الأنواع التي تندرج تحتها، ثم إلى الأفراد التي يشملها كل نوع.

والجدل عند أفلاطون ـ في هذا الجانب ـ منهج يستخدم المعاني لا الحواس، فهو ينتقل من معنى إلى معنى بواسطة معنى[١]. وقد يكون بين اثنين فأكثر، وقد يكون بين الشخص ونفسه[٢].

خامساً: أرسطو:

الجدل عند أرسطو ذو علاقة وثيقة بمنطقه العام، بل هو نوع من القياس، وإن لم يكن ـ عنده ـ يقينياً، إذ أن مقدماته محتملة تعتمد الآراء الذائعة عند الجمهور أو الفلاسفة.[٣] وكتاب الجدل هو الكتاب الخامس من كتب

---

(١) انظر: المنهج الجدلي عند هيجل ص: ٧١.

(٢) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص: ٦٩.

(٣) انظر: منطق أرسطو ـ طوبيقا ـ تحقيق بدوي ٢/٤٦٩-٤٧٠، ومقدمة شرح المقاصد ـ عميرة ص: ٤٩، والمعجم الفلسفي (مجمع اللغة) ص: ٦٠ ، وتأريخ الفكر الفلسفي ـ أبو ريان ٢/٥٧، والموسوعة االفلسفية ـ الحفني ص: ١٥٣.

أرسطو المنطقية، ولما كان الاستدلال ـ عنده ـ إما برهانياً صادراً عن مبادئ كلية يقينية ومؤدياً للعلم، وإما جدلياً مركباً من مقدمات ظنية، وإما سوفسطائياً مؤلفاً من مقدمات كاذبة تحتوي على النتيجة ظاهرياً لا حقيقياً، ألف أرسطو ثلاثة كتب:

١- كتاب التحليلات الثانية، وهو يتحدث عن البرهان، أي القياس الذي ينتج اليقين، وكيف أنه يستند إلى مقدمات صادقة أولية.

٢- كتاب الجدل وهو القياس المستند إلى مقدمات محتملة.

٣- كتاب السفسطة وهو القياس المؤلف من مقدمات كاذبة، والسفسطة فاسدة عند أرسطو، لكنه ألف فيها للتحذير منها.

فالقياس الجدلي يتفق مع البرهاني في أنه استدلال صحيح، ويختلف عنه في أن مقدماته محتملة لا تفيد اليقين، ولا يتفق مع السوفسطائي في شيء؛ لأن الأخير يستند إلى قضايا مموهة[(١)].

وأرسطو لا يستعمل الجدل من أجل الوصول إلى معارف يقينية، بل المقصود منه أحد أمرين أو كلاهما[(٢)]:

الأول: إلزام الخصم وإفحامه.

الثاني: إيقاع الظن القوي في رأي قُصد تصحيحه حتى يوهم أنه يقيني؛ ولهذا أطلق المتأخرون من فلاسفة اليونان لفظ الجدل على معنيين[(٣)]:

---

(١) انظر: طوبيقا ٢/٤٧٠، والمنطق وطرائق العلم ـ صليبا ص: ٥٩ـ٦٠، ومقدمة ابن خلدون ص: ٤٦٢-٤٦٣، والفلسفة اليونانية ـ كرم ص: ١١٩.

(٢) انظر: المعجم الفلسفي ـ صليبا ١/٣٩٣، ورسالة آداب البحث ـ مكي ص: ٦

(٣) انظر : المعجم الفلسفي ـ صليبا ١/٣٩٣ ، وابن حزم ومنطق أرسطو ـ سالم يفوت ص : ٣١٧ .

الأول: القدرة على الاستدلال الصحيح، حتى قيل في الجدل: إنه إجادة السؤال والجواب، لا بلوغ المطلوب[١].

الثاني: المراء المتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والتفنن في إيراد الحجج وسوقها، وإن لم تكن صحيحة.

والقضية الجدلية عند أرسطو: تساؤل يتعلق برأيين يعطي المحاور الاختيار في الإجابة بنعم أو لا[٢].

وتقوم صناعة الجدل عند أرسطو على ثلاثة أمور[٣]:

الأول: معرفة الأقاويل التي تلتئم منها المخاطبة الجدلية، وأجزائها، وأجزاء أجزائها، إلى أبسط ما تتركب منه.

الثاني: معرفة المواضع التي تستنبط منها المقاييس في إثبات الشيء أو إبطاله في جميع المطالب .

الثالث: معرفة كيفية إيراد السؤال والجواب، وعلى كم نحو يكونان.

وكما هو حال الجدل اليوناني قاطبة، فالجدل الأرسطي يهدف إلى الحذر من الوقوع في التناقض، والدفاع عن النتيجة الموجبة أو السالبة[٤].

ولعلّ هذه الغاية هي التي تمنع صاحبها عن بلوغ الصواب وعن إصابة الحق؛

---

(١) انظر: تلخيص كتاب الجدل لأرسطو ـ ابن رشد ص: ٢٩ـ٣٠، والمعجم الفلسفي ـ صليبا ٣٩١/١.

(٢) انظر: ابن حزم ومنطق أرسطو ـ سالم يفوت ص: ٣١٧.

(٣) انظر: تلخيص كتاب الجدل لأرسطو ـ ابن رشد ص: ٣٠ .

(٤) انظر: منطق أرسطو ـ طوبيقا ٤٦٩/٢، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص: ١٣٠، وتاريخ الفكر الفلسفي ـ أبو ريان ٥٧/٢.

لأن الحذر من الوقوع في التناقض قد يؤدي إلى التزام اللوازم الفاسدة، والاسترسال في ذلك، وتغليب حظ النفس على بلوغ الحق والتزام الصواب .

فوائد الجدل عند أرسطو:

وللجدل عند أرسطو ثلاث فوائد[1]:

الأولى: كونه رياضة عقلية.

الثانية: كونه منهجاً يستطيع العالم والجاهل أن يمتحن بموجبه مدعي العلم، ويفيد في مناظرة الجمهور في العلوم النظرية، ومقابلة السوفسطائي الذي يغالط في مبادئ العلوم.

الثالث: كونه يساعد على الكشف عن المبادئ الأولية في أي علم من العلوم وذلك ببحث الآراء العامة، وآراء العلماء في موضوع ذلك العلم.

---

(١) انظر : منطق أرسطو ـ طوبيقا ٢/ ٤٧٢ ، وتلخيص كتاب الجدل لأرسطو ـ ابن رشد ص : ٣١-٣٢، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص: ١٣٠ ، وابن حزم ومنطق أرسطو ـ يفوت ص : ٣١٨ ، والموسوعة الفلسفية ـ الحفني ص : ١٥٣ ، وتأريخ الفكر الفلسفي ـ أبو ريان ٥٧/٢ .

تعريف المنطق الأرسطي وبيان موقف المسلمين منه

أولاً: تعريف المنطق الأرسطي

يزعم أصحاب المنطق أن النطق نوعان : ظاهر وباطن، والظاهر هو الألفاظ والكلام، وتقويمه إنما يكون بالنحو في النثر وبالعروض في الشعر، وأما الباطن فهو عمل العقل وفكره، وتقويمه إنما يكون بالمنطق الاصطلاحي(١).

والمشهور عندهم أنه: آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر، أو أن يزل في تفكيره(٢). وقريب من ذلك تعريف ابن سينا في كتاب النجاة(٣) وهو أنه «الآلة العاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدق به، والموصلة إلى الاعتقاد الحق بإعطاء أسبابه ونهج سبله».

ويزعمون أن هذه الآلة موجودة في العقل بالغريزة؛ ولهذا سبق استعمالُها تدوينها(٤).

---

(١) انظر: حاشية الجرجاني على تحرير القواعد المنطقية ـ محمود الرازي ص: ١٨، والمنطق المنظم في شرح الملوي على السلم ـ عبد المتعال الصعيدي ص:١١، والمنطق والفكر الإنساني ـ عبد السلام عبده ص :٥.

(٢) انظر: تحرير القواعد المنطقية للرازي ص: ١٦-١٨، والتعريفات للجرجاني ص: ١٢١، والرد على المنطقيين لابن تيمية ص: ٧ .

(٣) ص: ٣ .

(٤) انظر: تجديد علم المنطق في شرح الخبيصي ـ الصعيدي ص: ٣.

وجاء أرسطو ليتمم جهود من سبقه من الفلاسفة، لا سيما سقراط وأفلاطون فيما أسماه بالتحليلات، وهي المنطق[1] فقعّد له وحدّد مصطلحاته، ورتب مسائله وفصوله، فنسب المنطق إليه نسبة صياغة وإظهار، لا ابتداء واختراع[2] يقول ابن خلدون: «وتكلم فيه ـ أي المنطق ـ أول ما تكلموا به جملاً جملاً، ومفترقاً، ولم تهذب طرقه، ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو، فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله، وجعله أول العلوم الحِكمية وفاتحتها؛ ولذلك يسمَّى بالمعلم الأول[3]» ولهذا قالوا[4]: نسبة المنطق إلى الفكر كنسبة النحو إلى الكلام، والعروض إلى الشعر، وما مقام أرسطو إلا كمقام سيبويه(١٨٠هـ) والخليل بن أحمد (١٧٠هـ) قال صاحب السلم (٩٨٣هـ):

وبعد فالمنطق للجنان　　نسبته كالنحو للسان[5]

فـ «النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي، وجلّ نظر المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التي هي لها كالحُلل

---

(١) أول من أطلق اسم المنطق على هذا الفن هم شراح أرسطو، وليس أرسطو نفسه.انظر: المعجم الفلسفي ـ صليبا ٤٢٨/٢.

(٢) انظر : الملل والنحل ١١٩/٢ـ١٢٠، والمعجم الفلسفي ـ صليبا ٤٢٨/٢ ، تجديد علم المنطق ـ الصعيدي ص: ٣-٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص: ٤٦٢.

(٤) انظر : النجاة لابن سينا ص: ٥ ، والمقابسات لأبي حيان التوحيدي ص: ١٦٩ وما بعدها

(٥) إيضاح المبهم من معاني السلم ـ الدمنهوري ص: ٤.

والمعارض، وجلّ نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يسوغ له الإخلال بالمعاني التي هي لها كالحقائق والجواهر...[١]».

ويقال: إن المنطق الأرسطي يبحث في صورة الفكر دون مادته، وغايته معرفة تقابل الفكر مع نفسه، وخلوه من التناقض، وهي نفس غاية الجدل اليوناني، لا سيما عند سقراط وأفلاطون؛ ولهذا سمي منطق أرسطو بالمنطق الصوري، يعني أنه يهتم بصورة الفكر دون مادته، وقيل: لأنه يغلب صورة الفكر على مادته[٢].

ثانياً: موقف المسلمين من المنطق الأرسطي:

حكم الاشتغال بالمنطق:

المسائل التي لا تتمحض للصحة والفساد، بل يكون أمرها مختلطا، بحيث تشتمل على ما هو حق، و على ما هو باطل؛ فالحكم عليها: صحة أو فساداً، قبولاً أو رداً، جوازاً أو تحريماً، إنما يكون تبعاً لحكم الغالب عليها من مادة الخير أو الشر، الحق أو الباطل: فأي المادتين غلبت حكم بمقتضاها. والمنطق من هذا النوع، قد اختلط فيه الحق بالباطل، فمن رأى ما فيه من الحق حكم بجواز الاشتغال به، وقد يوجبه. ومن رأى ما فيه من الباطل حكم بتحريم الاشتغال به.

---

(١) المقابسات ـ للتوحيدي ص: ١٧٠.

(٢) انظر : التفكير المنطقي ـ العبد ص: ١٩ وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص: ٥٢ وأسس المنطق الصوري ـ د. محمد أبو ريان ص: ١١ وما بعدها ، والمنطق الصوري ـ د. بدوي ص: ٧-٩.

إذا عرف هذا، فالناس في حكم الاشتغال بالمنطق على ثلاثة مذاهب، يصورها صاحب السلم في قوله[١]:

والخلف في جواز الاشتغال ... به على ثلاثةٍ أقوال
فابن الصلاح والنواوي حرما ... وقال قوم ينبغي أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة ... جوازه لكامل القريحة
ممارس السنة والكتاب ... ليهتدي به إلى الصواب

وسأعرض المذاهب على النحو التالي:

المذهب الأول: وهو القول بوجوبه، قال بذلك من يُسَمَّوْن بالفلاسفة الإسلاميين، من أمثال: الكندي (٢٦٠هـ) والفارابي (٣٣٩هـ) وابن سينا ونحوهم؛ وهؤلاء لا منافاة عندهم بين المنطق والإسلام، وهم معدودون من أهل الزندقة والإلحاد[٢].

ويبدو أن ابن حزم الأندلسي ممن يذهب إلى القول بوجوبه، فقد ألف فيه كتابه: **التقريب لحد المنطق**[٣]، وصدره بقوله: «رأينا الناس فيها ـ أي كتب أرسطو المنطقية ـ على ضروب أربعة: الثلاثة منها خطأ بشيع، وجور شنيع، والرابع: حق مهجور، وصواب مغمور، وعلم مظلوم، ونصر المظلوم

---

(١) إيضاح المبهم في معاني السلم ص : ٥ .

(٢) انظر : فتاوى ابن الصلاح ص : ٣٤ ، ومعيد النعم ومبيد النقم ـ السبكي ص : ٧٧ ، وتجديد علم المنطق ـ الصعيدي ص : ٥-٦ .

(٣) التقريب لحد المنطق ص : ٦ .

فرض وأجر» ثم قال: «إن منفعة هذه الكتب ليست في علم واحد فقط، بل كل علم. فمنفعتها في كتاب الله عز وجل وحديث نبيه ﷺ وفي الفتيا في الحلال والحرام، والواجب والمباح من أعظم منفعة». ثم قال: «وليعلم العالمون أن من لم يفهم هذا القدر فقد بعد عن الفهم عن ربه (تعالى) وعن النبي ﷺ ولم يجز له أن يفتي بين اثنين بجهله بحدود الكلام، وبناء بعضه على بعض، وتقديم المقدمات، وإنتاجها النتائج التي يقوم بها البرهان... »[١].

وينسب ـ أيضاً ـ القول بالوجوب إلى أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ)، وذلك في المقدمة المنطقية التي ذكرها في بداية كتابه المستصفى، وذكر أنها ليست خاصة بأصول الفقه، بل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً[٢]. وبعض شراح السلم حمل عبارة الغزالي على أن مراده الاستحباب[٣] وقال الباجوري (١٢٧٧هـ) معلقاً عليها: «فمحمول على أنه لا يوثق بعلمه الوثوق التام، وهو محمول ـ أيضاً ـ على من لم يستغن عنه بجودة الذهن وصحة الطبع»[٤].

ويرى شراح السلم ـ أيضاً ـ أن علم المنطق قسمان:

---

(١) التقريب لحد المنطق ص : ٩، ١٠.

(٢) انظر : المستصفى ١/١٠ .

(٣) انظر : حاشية الباجوري ص : ٢٥-٢٦ ، وشرح الأخضري على السلم ص : ٢٣ (بذيل إيضاح المبهم).

(٤) حاشية الباجوري ص : ٢٦

أحدهما: ما هو خال عن ضلالات الفلاسفة المكفرة وغيرها، وهو الذي هذبه بعض علماء المسلمين، ومنهم صاحب السلم وشراحه، وهذا القسم لا خلاف فيه ـ عندهم ـ في جواز الاشتغال به، بل هو فرض كفاية؛ لأنه يتوقف عليه رد الشكوك في علم الكلام وهو فرض كفاية، وما يتوقف عليه فرض الكفاية يكون فرض كفاية، ويكون ذلك في حق من لم يستغن عنه بجودة الذهن وصحة الطبع، ولذلك لم يحتج إليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون وأصحابهم.

والثاني: ما ليس خالياً عن تلك الضلالات، كالمذكور في كتب المتقدمين، وهذا الذي فيه الخلاف.[1]

أما الغزالي، فقد رجع عن قوله كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[2]، وذلك في كتابه: **المنقذ من الضلال**[3] أو على الأقل رجع عن تطبيقه في الشرعيات كما هو واضح من عبارته في الكتاب المذكور، حيث يقول: «أما المنطقيات: فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه، وأن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر،

---

(١) انظر: حاشية الباجوري ص: ٢٤ـ٢٥

(٢) انظر: الرد على المنطقيين ص: ١٩٥، ١٩٨.

(٣) انظر: ص: ٩١-٩٣.

بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات؛ ومثال كلامهم فيها قولهم: إذا ثبت أن كل أ : **ب** لزم أن بعض **ب** : أ، أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان، لزم أن بعض الحيوان إنسان، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية. وأي تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر ؟! فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر، بل في دينه الذي يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار.

نعم، لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يُعلم أنها تورث اليقين لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل، وربما ينظر في المنطق ـ أيضاً ـ من يستحسنه ويراه واضحاً: فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية، فهذه آفة ـ أيضاً ـ متطرقة إليه»[1].

فواضح من كلامه أنه يرى المنطق آلة قانونية من تلك التي يتوصل بها إلى إيضاح بعض القضايا، وأنه بهذا الاعتبار علم صحيح لا ينكر مطلقاً، بل إنكاره يؤدي إلى الطعن في عقل المنكر ودينه؛ لأنه إنكار لأمور صحيحة مسلمة، لكن أهل المنطق قد ضلوا في باب الإلهيات حين بنوها على هذه

---

(١) المنقذ من الضلال ص :٩١-٩٣ .

القواعد المنطقية؛ ولهذا يقول الغزالي رحمه الله: «وأما الإلهيات ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولهذا كثر الاختلاف بينهم فيها»[١] ويقول أيضاً: «فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني وفي الإلهيات تخميني». ولهذا صنف الغزالي في تكفير الفلاسفة كتابه **تهافت الفلاسفة**[٢] وأشار إلى تكفيرهم في غيره من كتبه **كالمنقذ من الضلال**[٣] **وفيصل التفرقة**.[٤] ويلزم من كلام الغزالي عدم الإنكار على من أعرض عن المنطق مستغنياً بجودة عقله وصحة تفكيره.

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن المنطق وعمن قال: إنه فرض كفاية، مصيب أم مخطئ؟... فأجاب رحمه الله: «الحمد لله، أما المنطق فمن قال: إنه فرض كفاية وأن من ليس له به خبرة فليس له ثقة بشيء من علومه، فهذا القول في غاية الفساد من وجوه كثيرة التعداد، مشتمل على أمور فاسدة ودعاوٍ باطلة كثيرة لايتسع هذا الموضع لاستقصائها. بل الواقع قديماً وحديثاً أنك لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر في علومه به، ويناظر به إلا وهو فاسد النظر والمناظرة، كثير العجز عن تحقيق

---

(١) المنقذ من الضلال ص: ٩٤.

(٢) وكفرهم في ثلاث مسائل كبار، هي قولهم بقدم العالم، وإن الله لا يعلم الجزئيات، وإنكارهم بعث الأجساد. انظر: ص: ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٨ وما بعدها، وص: ٢٠٦ وما بعدها، وص: ٢٨٢ وما بعدها من كتاب التهافت .

(٣) انظر: ص: ٨٤ وما بعدها.

(٤) انظر: ص: ١٩١-١٩٢.

علمه وبيانه. فأحسن ما يحمل عليه كلام المتكلم في هذا : أن يكون قد كان هو وأمثاله في غاية الجهالة والضلالة، وقد فقدوا أسباب الهدى كلها، فلم يجدوا ما يردهم عن تلك الجهالات إلا بعض ما في المنطق من الأمور التي هي صحيحة؛ فإنه بسبب بعض ذلك رجع كثير من هؤلاء عن بعض باطلهم، وإن لم يحصل لهم حق ينفعهم، وإن وقعوا في باطل آخر، ومع هذا فلا يصح نسبة وجوبه إلى شريعة الإسلام بوجه من الوجوه؛ إذ مَنْ هذه حاله فإنما أُتي من نفسه بترك ما أمر الله به من الحق حتى احتاج إلى الباطل.

ومن المعلوم أن القول بوجوبه قول غلاته وجهال أصحابه، ونفس الحذاق منهم لايلتزمون قوانينه في كل علومهم بل يعرضون عنها: إما لطولها، وإما لعدم فائدتها، وإما لفسادها، وإما لعدم تميزها، وما فيها من الإجمال والاشتباه؛ فإن فيه مواضع كثيرة هي لحم جمل غث على رأس جبل وعر؛ لاسهل فيرتقى، ولاسمين فينتقل[1]».

وقال رحمه الله في موضع آخر[2]: «أما كتب المنطق فتلك لا تشتمل على علم يؤمر به شرعاً، وإن كان قد أدى اجتهاد بعض الناس إلى أنه فرض على الكفاية، وقال بعض الناس: إن العلوم لا تقوم إلا به، كما ذكر ذلك أبو حامد، فهذا غلط عظيم عقلاً وشرعاً:

أما عقلاً؛ فإن جميع عقلاء بني آدم من جميع أصناف المتكلمين في العلم حرروا علومهم بدون المنطق اليوناني.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٥-٦.

(٢) المرجع السابق ٩/٢٦٩-٢٧٠.

وأما شرعاً؛ فإنه من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الله لم يوجب تعلم هذا المنطق اليوناني على أهل العلم والإيمان.

وأما هو في نفسه؛ فبعضه حق وبعضه باطل، والحق الذي فيه كثير منه أو أكثره لا يُحتاج إليه، والقدر الذي يحتاج إليه منه فأكثر الفطر السليمة تستقل به، والبليد لا ينتفع به، والذكي لايحتاج إليه، ومضرته على من لم يكن خبيرا بعلوم الأنبياء أكثر من نفعه، فإن فيه من القواعد السلبية الفاسدة ما راجت على كثير من الفضلاء، وكانت سبب نفاقهم، وفساد علومهم.

وقول من قال: إنه كله حق كلام باطل، بل في كلامهم في الحد والصفات الذاتية والعرضية وأقسام القياس والبرهان ومواده من الفساد ما قد بيناه في غير هذا الموضع وقد بين ذلك علماء المسلمين، والله أعلم».

وابن تيمية رحمه الله يقرر في أكثر من موضع أن ما في المنطق من حق وصواب فهو قليل، وعلى قلته يمكن الاستغناء عنه بالفطرة السليمة والعلوم الشرعية الصحيحة، بل هناك كثير من العلوم التي لا تفتقر إلى القياس المنطقي، وكثير منها لا يتوصل إليها به. فهو عديم التأثير في العلوم وجوداً وعدماً، إضافة إلى أن الخائضين في العلوم من أهل المنطق هم من أكثر الناس شكاً واضطراباً وأقلهم علماً وتحقيقاً، وأبعدهم عن تحقيق علم موزون، وإن كان فيهم من قد يحقق شيئاً من العلم، فذلك لصحة المادة والأدلة التي ينظر فيها وصحة ذهنه وإدراكه، لا لأجل المنطق، بل إدخال صناعة المنطق في العلوم الصحيحة يطوِّل العبارة، ويبعد الإشارة، ويجعل القريب من العلم بعيدا، واليسير منه عسيراً، ولهذا تجد من أدخله في الخلاف والكلام وأصول الفقه وغير ذلك، لم يفد إلا كثرة الكلام ، والتشقيق مع قلة العلم

والتحقيق[١] وما يحصل بـه لبعض النـاس مـن شـحذ ذهـن، أو رجـوع عـن باطل، أو تعبير عن حق فإنما هو لكونه كان في أسوأ حال، لا لما في صناعة المنطق من الكمال، ومن المعلوم أن المشرك إذا تمجَّس، والمجوسي إذا تهوَّد حسنت حاله بالنسبة إلى ما كان فيه قبل ذلك، لكن لا يصلح أن يُجعل ذلك عمدة لأهل الحق المبين[٢].

المذهب الثاني: القول بجواز تعلمه لمن تأهل لذلك، وممن قال به عبد الوهاب السبكي(٧٧١هـ) حيث جوزه لمن استكمل معرفته بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وتمكن من فروع الفقه تمكناً يسمى معه فقيهاً يشار إليه، فإذا تيقن أنه وصل إلى هذه الرتبة بدرجة لا تزعزعها رياح الأباطيل وشبه الأضاليل وأهواء الملاحدة فله النظر فيه، واستعماله من غير أن يمزجه بعلوم الإسلام؛ وذلك لأنه حصل بهذا المزج من الضرر ما حصل.[٣]

وقال الأخضري صاحب السلم[٤]: «الصحيح جوازه لذكي القريحة، صحيح الذهن، سليم الطبع، ممارس الكتاب والسنة؛ لئلا يؤول به إلى اتباع بعض الطرق الوهمية، فيفسد المقدمات والأقيسة النظرية، فتزل قدمه في بعض الدركات السفلية، ومنه ضلت المعتزلة والقدرية وغيرهم من الطوائف البدعية، فخاضوا في ذلك حتى بدلوا وغيروا في السنة الشرعية، والملة المحمدية، فباؤوا بضلالة جلية، وجهالة غبية».

---

(١) انظر : نقض المنطق ص : ١٦٩ والرد على المنطقيين ص : ١٩٩-٢٠٠ .

(٢) انظر : نقض المنطق ص :١٧٠

(٣) انظر : معيد النعم ومبيد النقم ص : ٧٨ .

(٤) شرح الأخضري ص : ٢٣ بذيل إيضاح المبهم .

وقال الباجوري في حاشيته على متن السلم[1]: «الأصح جوازه لكامل القريحة، ممارس السنة والكتاب بخلاف غيره؛ لعدم الأمن عليه من ضلالات الفلاسفة».

إذن لماذا هذه المخاطرة ؟ وتعريض الذهن والقلب والدين للهلاك والبوار، مع غير فائدة ترجى، وقد علمت أن الصحيح منه قليل الفائدة: لا يحتاجه الذكي، ولا ينتفع به البليد، فهو كلحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل.

المذهب الثالث: القول بتحريمه، وهو المذهب الصحيح الذي عليه جماهير السلف وأهل الحديث، والمتقدمون من أهل النظر من جميع الطوائف. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمونه - أي المنطق - ويذمون أهله، وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيت للمتأخرين فتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم، فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله، حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح (٦٤٣هـ) أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي (٦٣١هـ)، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا[2] مع أن الآمدي لم يكن أحد في وقته أكثر في العلوم الكلامية والفلسفية منه، وكان من أحسنهم إسلاماً وأمثلهم اعتقاداً[3]».

---

(١) ص: ٢٥ (بتصرف).

(٢) أي من الإفرنج أيام احتلالهم بعض بلاد الشام ومصر في المائة السادسة.

(٣) نقض المنطق ص : ١٥٦

وفتوى ابن الصلاح رحمه الله في تحريمه معروفة مشهورة ، وكان قد سئل عمن اشتغل بالمنطق والفلسفة تعلماً وتعليماً، وهل المنطق مما أباح الشارع تعلمه وتعليمه؟ وهل نُقل عن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين إباحته والاشتغال به؟ وهل يجوز أن يستعمل في إثبات الأحكام الشرعية الاصطلاحات المنطقية أم لا؟...إلى آخر السؤال.

فأجاب رحمه الله بما ملخصه: الفلسفة أس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال...ثم بالغ في ذمها وازدرائها...ثم قال: «وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباح الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، والسلف الصالحين، وسائر من يقتدى به من أعلام الأمة وسادتها...» ثم ذكر رحمه الله أن استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من الأمور المستحدثة والمنكرات المستبشعة، وليس بالأحكام الشرعية ــ والحمد لله ـ افتقار إلى المنطق أصلاً...» إلى آخر الجواب[1].

فهل يقال بعد ذلك: إن الصحيح المشهور جوازه بشرط المكنة من العلوم الشرعية ، فضلاً عن جوازه مطلقاً، فضلاً عن وجوبه على الأعيان أو الكفايــــة؟ بل الصحيح منعه وتحريمه لما تقدم ولما سيأتي.

لكن قد يقال: يجوز النظر فيه ــ لا سيما غير المختلط منه بضلالات الفلاسفة ـ لبيان عواره، وإثبات فساده وعديم فائدته، وللرد على أصحابه

(١) انظر : فتاوى ابن الصلاح ص : ٣٤-٣٥.

ممن أشربوا حبه، من باب الرد على الخصم بسلاحه، ولفهم بعض المصطلحات والعبارات المنطقية المبثوثة في بعض كتب العلوم الشرعية. يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (١٣٩٣هـ) رحمه الله:"ومن المعلوم أن فن المنطق منذ ترجم من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية في أيام المأمون كانت جميع المؤلفات توجد فيها عبارات واصطلاحات منطقية لا يفهمها إلا من له إلمام به، ولايفهم الرد على المنطقيين في ما جاؤوا به من الباطل إلا من له إلمام بفن المنطق.

وقد يعين على رد الشبه التي جاء بها المتكلمون في أقيسة منطقية، فزعموا أن العقل يمنع بسببها كثيراً من صفات الله الثابتة في الكتاب والسنة؛ لأن أكبر سبب لإفحام المبطل أن تكون الحجة عليه من جنس ما يحتج به، وأن تكون مركبة من مقدمات على الهيئة التي يعترف الخصم المبطل بصحة إنتاجها.

ولا شك أن المنطق لو لم يترجم إلى العربية و لم يتعلمه المسلمون، لكان دينهم وعقيدتهم في غنى عنه كما استغنى عنه سلفهم الصالح، ولكنه لما تُرجم وتُعلِّم وصارت أقيسته هي الطريق الوحيدة لنفي بعض صفات الله الثابتة في الوحيين، كان ينبغي لعلماء المسلمين أن يتعلموه، وينظروا فيه ليردوا حجج المبطلين بجنس ما استدلوا به على نفيهم لبعض الصفات؛ لأن إفحامهم بنفس أدلتهم أدعى لانقطاعهم وإلزامهم الحق»[1].

(١) آداب البحث والمناظرة ـ الشنقيطي القسم الأول ص : ٤ـ٥ .

فواضح جداً من كلام الشنقيطي رحمه الله أن تعلم المنطق يكون لأجل رد صيال المعتدين على الشريعة، لا لفهم الشريعة أو وزن علومها به، كما يُدَّعى له ذلك من قِبَل أهله ودعاته.

ونخلص من ذلك كله إلى أن المنطق نوعان:

الأول: ما كان مختلطاً بضلالات الفلاسفة، فهذا لا شك في تحريمه؛ لما يفضي إليه من الكفر والضلال.

الثاني: وهو ما لم يختلط بتلك الضلالات، وهو عبارة عن أقيسة ومصطلحات ونحو ذلك من الأساليب التي تعارفوا عليها، وهذا نوعان: منه ما هو حق ومنه ماهو باطل، وما فيه من الحق يمكن الاستغناء عنه بالفطرة السليمة، والعلوم الصحيحة، وهذا هو الذي يمكن النظر فيه للرد على الخصوم، ودحض مفترياتهم، لا أن توزن به العلوم، أو أن يكون مقدمة لها.

أسباب رفض المسلمين المنطق الأرسطي:

قد يظن بعض الناس[1] أن المسلمين رفضوا المنطق الأرسطي لمجرد اشتغال الأمم الكافرة به، وهذا ظن خاطئ؛ لأنه يستلزم أن يرفض المسلمون كل ما يأتي من غيرهم من علوم صحيحة كالطب والحساب والهندسة ونحوها، وإنما رفض المسلمون المنطق لأسباب شرعية وأخرى عقلية، أذكر ـ هنا ـ طائفة منها:

---

(١) انظر : المنقذ من الضلال ص: ٩٠، ومناهج البحث عند مفكري الإسلام ـ النشار ص: ١٨٧-١٨٨، وحاشية الباجوري ص: ٢٥.

أولاً: الأسباب الشرعية:

١- أنه لم يؤثر عن الصدر الأول من الصحابة والتابعين التكلم بالمنطق؛ إما لكونه لم يكن موجوداً في زمانهم، أو كان موجوداً ثم أعرضوا عنه[١]، وشريعة الإسلام ليست موقوفة على شيء يُتعلَّم من غير المسلمين أصلاً وإن كان طريقاً صحيحاً[٢]، فكيف إذا كان فاسداً أو متضمناً للفساد، بل الكفر والإلحاد. ثم إن الصحابة والتابعين ذموا التكلف في الدين والخروج عن الكتاب والسنة في معرفة الهدى، فلو وقفوا على المنطق لكان حكمه ـ عندهم ـ حكم التكلف والخروج عن الكتاب والسنة؛ ولهذا رأى الجلال السيوطي رحمه الله تحريم المنطق قياساً على الكلام، فقال: «والذي يخرّج على أصول بقية أرباب المذاهب المتبوعة تحريم المنطق، فإنهم نصوا على تحريم علم الكلام، وعللوه بما هو موجود في المنطق؛ ولهذا صرح المتأخرون من أصحابهم بتحريمه تخريجاً على أصولهم»[٣].

٢- ما روي عن بعض أئمة الفقه من النهي عنه، وجعله من المحدثات، ومن أسباب الخلاف و التفرق، من ذلك:

---

(١) انظر: صون المنطق ص: ١٤، وفتاوى ابن الصلاح ص: ٣٥.

(٢) انظر: الرد على المنطقيين ص: ٢٥٨ .

(٣) انظر: صون المنطق ص : ٣٢ .

قول أبي حنيفة رحمه الله وقد سئل عما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام فقال: «مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة[١]».

وقال الشافعي رحمه الله: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس[٢]».

والمتقدمون من أهل الكلام ذموا المنطق، وذموا المشتغلين به، وصنفوا في ذلك كتبا؛ كالدقائق لأبي بكر الباقلاني (٤٠٣هـ)، والآراء والديانات لابن النوبختي الشيعي. وتشير نصوص كثيرة إلى أن أبا علي الجبائي (٣٠٣هـ) وأبا هاشم (٣٢١هـ) والقاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) من المعتزلة قد كتبوا في نقد المنطق الأرسطي.[٣] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولم يكن قدماء المتكلمين يرضون أن يخوضوا في "الحدود " على طريقة المنطقيين، كما دخل في ذلك متأخروهم الذين يظنون ذلك من التحقيق، وإنما هو زيغ عن سواء الطريق[٤]».

---

(١) صون المنطق ص : ٣٢ .

(٢) صون المنطق ص : ١٥.

(٣) انظر : الرد على المنطقيين ص : ٣٣٧ ومنهاج البحث للنشار عند مفكري الإسلام ص : ٨٢.

(٤) الرد على المنطقيين ص :٣١.

٣- كون المنطق نشأ في بيئة فلسفية كان أصحابها أهل شرك وإلحاد، بل ما عند مشركي العرب من الكفر والشرك خير مما عند الفلاسفة.[(١)] قال ابن تيمية رحمه الله في الفلاسفة: «وضلالهم في الإلهيات ظاهر لأكثر الناس، ولهذا كفرهم فيها نظار المسلمين قاطبة»[(٢)]. فلم يأخذ المسلمون بالمنطق الأرسطي لملابسته العلوم الفلسفية المباينة للعقائد الصحيحة[(٣)].

٤ - خشية اغترار بعض المسلمين بالمنطق لما يرى من صدق بعض قضاياه، فيظن أنها كلها صادقة، وأن ما يتعلق منها بالعقائد مبرهن بمثل تلك البراهين. يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله - في معرض نقده للمنطق في أواخر كتبه -[(٤)]: «وربما ينظر في المنطق ـ أيضاً ـ من يستحسنه ويراه واضحاً، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية». ويشير ابن تيمية رحمه الله إلى هذا المعنى في أول كتابه: **الرد على المنطقيين**[(٥)] فيقول: «فإني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد، ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة، لما رأيت من صدق كثير منها، ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه...

---

(١) انظر: المرجع السابق ص: ٥٣٥، و١٠١ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص: ٢٠٠.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون ص: ٤٨٢ وما بعدها، ومناهج البحث ـ النشار ص: ط تصدير الطبعة الأولى.

(٤) المنقذ من الضلال ص: ٩٣.

(٥) ص: ٣-٤.

وتبين لي أن كثيراً مما ذكروه في أصولهم في الإلهيات وفي المنطق هـو مـن أصول فساد قولهم في الإلهيات».

٥- قصور البرهان الفلسفي عن الوصول بالإنسـان إلى اليقـين، وذلـك عنـد تطبيقه في الإلهيـات، وقـد تقـدم أن القيـاس الجـدلي عندهـم لا يفيـد إلا الظن، يقول أبو حامد الغزالي: «لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهـو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يُعلم أنها تـورث اليقـين لا محالـة، لكنهـم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهـم الوفـاء بتلـك الشـروط، بـل تساهلوا غاية التساهل»[1].

٦- مـا يسببه المنطـق مـن التفـرق والاختـلاف والتنـابذ، ومـا زال أهلـه والمشتغلون به على هذه الحال، بل لا تكاد تجد اثنين منهم يتفقـان علـى مسألة، حتى التي يسمونها بدهيات أو يقينيات؛ يقول ابـن تيميـة رحمـه الله: «المشتغلون بالمنطق هم أكـثر النـاس نزاعـاً وشـكاً، وأقلهـم علمـاً وتحقيقاً، فلو كان المنطق أداة تكشف الحقيقة وتعصم الذهن لما حـدث هذا»[2] وقال أحد بطارقة الروم وهـو يهـم بإرسـال كتـب يونـان إلى يحيى بن خالد بن برمك (١٩٠هـ)، كان الأخـير قـد طلبهـا منـه: «فمـا دخلـت هـذه العلـوم علـى دولـة شـرعية إلا أفسـدتها وأوقعـت بـين علمائها»[3]. وقد كان.

---

(١) المنقذ من الضلال ص : ٩٣.

(٢) نقض المنطق ص : ١٦٩ ، وانظر : الرد على المنطقين ص : ٣٣٤ وما بعدها.

(٣) صون المنطق ص: ٩.

ثانياً: الأسباب العقلية:

١- المنطق اليوناني تجريدي لا صلة له بالواقع، فهو يبحث في عالم الكليات، وهذا العالم لا وجود له في الخارج، بل وجوده في الذهن، فالمنطق يتجاهل البحث في الجزئيات والأعيان.[١]

٢- أننا نرى كثيراً من العلوم ـ كالهندسة والطب والفلك ـ تتقدم تقدماً كبيراً دون أن يكون كبار الباحثين فيها ممن تخرجوا على المنطق اليوناني.[٢] يقول ابن تيمية رحمه الله: «لا تجد أحداً من أهل الأرض حقق علماً من العلوم وصار إماماً فيه مستعيناً بصناعة المنطق، لا من العلوم الدينية ولا غيرها، فالأطباء والحُسَّاب والكُتَّاب وغيرهم يحققون ما يحققون من علومهم وصناعاتهم بغير صناعة المنطق، وقد صُنف في الإسلام علوم النحو والعروض والفقه وأصوله والكلام وغير ذلك، وليس في أئمة هذه الفنون من كان يلتفت إلى المنطق، بل عامتهم كانوا قبل أن يعرب هذا المنطق اليوناني».[٣]

٣- أن المنطق كان له أكبر الأثر في تخلف اليونان عن ركب المدنية، حيث انزوى بالفكر والجهود العلمية نحو عالم الميتافيزيقيا (عالم ما وراء

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص: ٤٦١-٤٦٢، ٤٨٢ وما بعدها، والمنطق الحديث ـ محمود قاسم ص: ٨

(٢) انظر: المنطق الحديث ـ محمود قاسم ص: ٥-٦.

(٣) نقض المنطق ص: ١٦٨-١٦٩ .

الطبيعة) معرضاً عن الحياة المدنية والعلوم التطبيقية.[١] يقول الأستاذ علي لبن[٢]: «يكاد يتفق مؤرخو الفلسفة على أن العلم لم ينهض في مطلع العصر الأوربي الحديث إلا بعد الثورة المزدوجة على السلطة العلمية ممثلة في المنطق الأرسطي والسلطة الدينية ممثلة في رجال الكنيسة».

ولهذا كان ظهور المنطق الحديث في أوربا على يد فرانسيس بيكون (١٦٢٦م) وغيره ـ والذي استفادوه من علماء المسلمين وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ ضربة قاضية للمنطق الأرسطي في أوربا، وعاملاً كبيراً في التقدم العلمي والحضاري فيها.[٣]

٤ـ طرق هؤلاء المناطقة فيها فساد كثير من جهة المقاصد والوسائل:

أما من جهة المقاصد؛ فإن الحاصل منها بعد التعب والمشقة خير قليل، فهو كما تقدم كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل.[٤] أو كما قال ابن القيم رحمه الله[٥]:

بدا لعين الظامئ الحيران　　　فأمّه بالظن والحسبان

---

(١) انظر: بحث الترجمة ومدى تأثيرها في تحول الجدل الديني إلى اهتمام بالبحث العلمي والفلسفي ـ عبد الرحمن مرحبا ص: ٣٣٨ .

(٢) الغزو الفكري ص : ٤٢ .

(٣) انظر: مناهج البحث ـ النشار ص: ٢٣٦-٢٣٧ ، والإسلام والعلم التجريبي ـ السويدي ص: ٢١، ومحاضرات في تأريخ العلوم ـ سزكين ص : ١٩ وما بعدها.

(٤) قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح مسلم ١٨٩٦/٤ كتاب فضائل الصحابة ـ باب ذكر حديث أم زرع ح : ٢٤٤٨ .

(٥) مفتاح دار السعادة ١٥٨/١.

يرجـو الشـفاء لغلة الظمـآن فلم يجد ثَمَّ سـوى الحرمان

فـــعاد بالخـيبة والخـسران يـقرع سـن نـادم حـيران

قد ضاع منه العمر في الأماني وعـاين الخفـة في الـميزان

وأما الوسائل فطريقه كثيرة المقدمـات، طويلـة المسـالك، يتكلفـون فيهـا العبارات البعيدة، والطرق الوعرة، وليس فيهـا مـن فـائدة سـوى تضييـع الأزمان، وإتعاب الأذهان، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان...»[1].

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/٢ والرد على المنطقيين ص :٣١.

الفصل الثاني
نشأة الجدل عند المسلمين

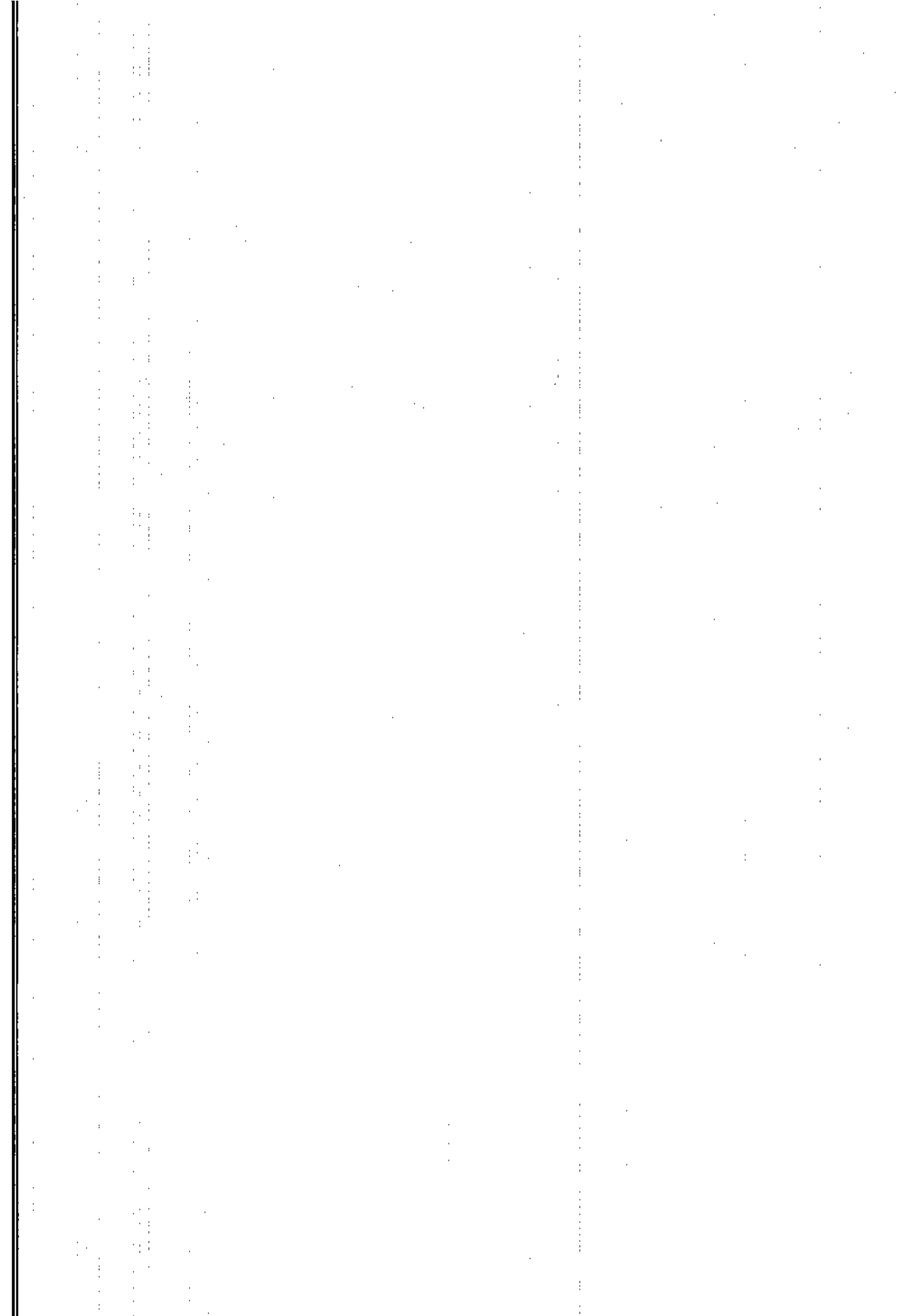
وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أسباب ظهور الجدل عند المسلمين

المبحث الثاني: موقف الفرق الإسلامية من الجدل

المبحث الثالث: قضايا الجدل عند أهل الكلام وخصائصه، وموقف السلف

المبحث الرابع: الجدل عند أهل السنة والجماعة



المبحث الأول
أسباب ظهور الجدل عند المسلمين

وقد أوردت في ذلك عشرة أسباب، هي أسباب عامة، أي بغض النظر عن موقع الجدل من المدح أو الذم، بل هي أسباب لظهور الجدل بنوعيه: المحمود والمذموم، وقد يتصل بعضها ببعض حتى إنه ليشعر بنوع من التداخل؛ وهذا لشدة ما بينها من الاتصال والارتباط.

السبب الأول: شبه أهل الشرك والنفاق:

وهو ما كان يلقيه بعض المشركين وبعض المنافقين وكذا اليهود والنصارى وغيرهم[1] من الشبهات بقصد الطعن في هذا الدين ومَنْ جاء به، والصد عن سبيل الله (تعالى)، فينزل القرآن الكريم كاشفاً لشبهاتهم، ومثبِّتاً لقلوب المؤمنين كما قال (تعالى) : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣٣].

ومن هذه الشبهات: احتجاج المشركين على شركهم بالمشيئة الإلهية العامة؛ قال (تعالى) حكاية عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٨-١٤٩]. وقال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ

---

(١) ستأتي نماذج من ذلك في الفصل الخاص بالجدل في القرآن الكريم.

مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورةالنحل: ٣٥].

السبب الثاني: الدس اليهودي:

حيث التقى المسلمون اليهود في اليمن والشام والكوفة، ودخل بعض هؤلاء في الإسلام بقصد الكيد للإسلام والمسلمين، وذلك بزرع المعتقدات المناقضة لأصول الإسلام، ومن هؤلاء اليهود: **عبد ا لله بن سبأ** الذي اتخذ من إظهار التشيع لعلي ﷺ وسيلة لتأسيس أصول غلاة الرافضة: كالإمامة والبداء والرجعة والمهدية، حتى إنه ادعى الإلهية في علي ﷺ وتبعه على ذلك كثير من جهلتهم، وهم السبئية الذين حرقهم علي ﷺ بالنار، وهذه الأصول ترجع إلى اعتقادات يهودية، كما ينسب إلى اليهود أيضاً الكلام في بدعة القدرية والجبرية والمعطلة والمشبهة[1]. فقام المسلمون وتصدوا لهم مدافعين عن دينهم وعقيدتهم، وجرت بينهم وبين اليهود المناظرات، واصطنع بعضهم النظر الذي كان سببا في نشأة علم الكلام؛ ولهذا كانت كثير من الموضوعات التي أثارها اليهود قد ظهرت في المسلمين من بعد، فكانوا يناقشون اليهود فيها أولا ثم يختلفون في مدلولاتها فيما بينهم.

السبب الثالث: الدس النصراني:

حيث أقبل كثير من المسيحيين من أهل البلاد التي دخلها المسلمون على الإسلام، فاعتنقوه بعد أن رأوا المسيح ﷺ في القرآن الكريم صورة

(١) انظر: الملل والنحل ٢١١/١-٢١٢، ١٠٦/١، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ــ النشار ٣٩/١، ٤٦ وما بعدها.

متكاملة، بعيدة عن التناقضات والاختلافات التي تعيشها المسيحية، وعند ذلك تقدم آباء الكنيسة للدفاع عن دينهم، أو بمعنى أدق عن نظرياتهم في طبيعة المسيح، فتصدى لهم علماء الإسلام، وبدأ جدال عنيف حول وحدانية الله عز وجل وصفاته، وقد اعتبر يوحنا الدمشقي الإسلام عقيدة فلسفية، فبدأ يعد العدة لمواجهتها، ويضع أصول الجدل مع هذه العقيدة، ويبين لأتباع المسيحية طريقة مناقشة العقائد الإسلامية[١]. فكان يقول: إذا قال لك العربي (المسلم): ما تقول في المسيح؟ فقل: إنه كلمة الله. ثم ليسأل النصراني المسلم: بم سمي المسيح في القرآن؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيب المسلم؛ فإنه سيضطر إلى أن يقول ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [سورة النساء: ١٧١] . فإن أجاب بذلك فاسأله: هل كلمة الله وروحه مخلوق أو غير مخلوق؟ فإذا قال مخلوق، فليرد عليه بأن الله إذن كان ولم يكن له كلمة ولا روح، فإن قلت ذلك فسيفحم العربي؛ لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين[٢]

السبب الرابع: الاختلاط بالأمم الأعجمية:

وهو ما تمخض عن الفتوحات الإسلامية من احتكاك بالشعوب الأعجمية المغلوبة، وكان من الداخلين منهم في الإسلام طائفتان:

---

(١) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ـ النشار ١/٥٤ـ٥٥.

(٢) مقدمة شرح المقاصد ـ عبد الرحمن عميرة ١/٢٧ـ٢٨ ، وانظر : أحمد بن حنبل ـ لعبد الحليم الجندي ص : ٤٠٦ .

الأولى: اختارت الإسلام عن رضا، لكنها ما زالت متأثرة بثقافتها القديمة، وهي ثقافة متأثرة بالفلسفة اليونانية القديمة، وأديانهم المنحرفة، فمن هؤلاء من لا يقبل نصوص الوحي حتى يُمرها على محك عقله هو، وقد يجد فيها ما يخالف دينه السابق، أو عادته المستحكمة، فيتردد في الأخذ بها، فيحاول البحث عما يراه حقاً، وذلك عن طريق تحريف النصوص تارة، أو ردها أخرى. فنشأت من ذلك آراء متباينة التف حول أصحابها من يشايعهم، وراح كل فريق يبحث عما يدعم مذهبه من الأدلة والشواهد.

الثانية: دخلت في الإسلام إكراهاً؛ تخلصاً من أداء الجزية؛ ومريدة الكيد للإسلام ولأهله، فأخذت تبحث عن مصدر قوة المسلمين فوجدته في اجتماعهم، وبحثت عن مصدر هذا الاجتماع، فوجدته في الدين، فعمدت إليه تلقي بالبذور الوثنية والمجوسية؛ فظهرت البدع[1] التي هي بريد الكفر والشرك؛ ولهذا كان معظم زعماء الفرق والبدع المكفرة من الأعاجم من أمثال الجعد بن درهم والجهم بن صفوان وعمرو بن عبيد وبشر المريسي.

السبب الخامس: شيوع العجمة:

ويتصل بالسبب المتقدم ؛ الذي هو الاختلاط بالأمم الأعجمية. قال الإمام الشافعي رحمه الله: «وإنما بدأت بما وصفتُ من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنه لايَعْلَمُ من إيضاح جُمَل علم الكتاب أحدٌ جهل سَعَة

---

(١) انظر: دراسات في تأريخ الفلسفة الإسلامية وآثار رجالها ـ عبده الشمالي ص: ٥١ ، والفصل ـ ابن حزم ٢/٢٧٣ـ٢٧٥

لسان العرب وكثرة وجوهه، وجماع معانيه، وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها»[١].

ولهذا كانت أول بدعة ظهرت في الإسلام من قبل العجمة؛ قال الأوزاعي رحمه الله: «أول من نطق في القدر رجل من العراق يقال له سوسن، كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد»[٢] وأخرج البخاري في تأريخه عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: إنما أهلكتهم العجمة [٣]. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاليس»[٤]. قال السيوطي رحمه الله: «وقد وجدت السلف قبل الشافعي أشاروا إلى ما أشار إليه من أن سبب الابتداع: الجهل بلسان العرب»[٥].

وقد أخرج البيهقي[٦] عن الأصمعي أنه قال: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء ـ يناظره في وجوب عذاب الفاسق ـ فقال له: يا أبا عمرو، آلله يخلف وعده؟ قال: لن يخلف الله وعده، قال عمرو: فقد قال. قال: أين؟ فذكر آية وعيد...فقال أبوعمرو: من العجمة أتيت، الوعد غير

(١) الرسالة ص: ٥٠.
(٢) شرح السنة ـ اللالكائي ٤/٧٥٠ رقم: ١٣٩٨، والشريعة ص: ٢٤٢.
(٣) التأريخ الكبير ٥/٩٣ رقم: ٢٥٩.
(٤) ذكره السيوطي في صون المنطق ص : ١٥ .
(٥) صون المنطق ص:٢٢.
(٦) الجامع لشعب الإيمان ٢/١٠٣ـ١٠٥ وانظر الكامل لابن عدي ٥/١٧٥٢ وتاريخ بغداد ١٢/١٧٥-١٧٦.

الإعياد، ثم أنشد:

وإني وإن أوعدته أو وعدته   سأخلف إيعادي وأنجز موعدي

قال أبو المظفر الإسفراييني رحمه الله: «فأراد عمرو بن عبيد القدري أن ينصر بهذا الكلام بدعته في خلود عصاة المؤمنين، فقال أبو عمرو: فأين أنت من قول العرب: إن الكريم إذا أوعد عفا، وإذا وعد وفّى»[(١)].

واستدلال أبي عمرو محمول على عذاب الفاسق؛ لأن عذابه معلق بالمشيئة الإلهية، وأما عذاب الكافر والمشرك فواقع لا محالة كما قال (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨].

السبب السادس: ظهور علم الكلام:

وذلك على أيدي المعتزلة؛ يقول طاش كبرى زاده: «اعلم أن مبدأ شيوع الكلام :كان على أيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة»[(٢)] وذكر الخياط عن المعتزلة أنهم أرباب النظر والكلام دون من سواهم[(٣)].

وعلاقة الكلام بالجدل تتضح من تعريف علم الكلام؛ يقول الإيجي في المواقف[(٤)] : «والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد

---

(١) التبصير في الدين ص:١٧٠.(بتصرف) .

(٢) انظر: مفتاح السعادة ٣٧/٢.

(٣) الانتصار ص: ٧٢.

(٤) ص: ٧.

الحجج ودفع الشبه» ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجدال بالعقل في أصول الدين يسمى كلاما.[1]

وسيأتي ذكر شيء من جهود أهل الكلام في الجدال والمناظرة في موضع آخر.

السبب السابع: الاتصال بالفلسفة اليونانية:

فقد حكي عن المأمون أنه لما هادن بعض ملوك النصارى كتب يطلب منهم خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعةً في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي فيهم، واستشارهم في ذلك، فكلهم أشار عليه بعدم تجهيزها إلى المأمون، إلا مطراناً واحداً فإنه قال : جهزها إليهم، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها.[2]

ويذكر الشهرستاني أن شيوخ المعتزلة قد طالعوا كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون وخلطوا بها مناهجهم[3] . بل ما من فرقة من الفرق الكلامية إلا ونظرت في الفلسفة اليونانية وتأثرت بها.[4]

ثم فشت الفلسفة في المتأخرين على يد النصير الطوسي حين أنشأ دار حكمة تدرس فيها الفلسفة، وجعل لكل دارس فيها ثلاثة دراهم في اليوم،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١١/٣٣٦.

(٢) انظر: شرح لامية العجم ١/٧٩.

(٣) انظر: الملل والنحل ١/٣٠ .

(٤) انظر: الخطط ـ المقريزي ٢/٣٥٨ .

بينما صرف لأهل دار الحديث لكل محدث نصف درهم، ومن ثم فشا الاشتغال بالعلوم الفلسفية وظهر[١] حتى التبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر[٢] وقال ابن تيمية رحمه الله: «ثم إنه لما عربت الكتب اليونانية في حدود المائة الثانية وقبل ذلك وبعد ذلك، وأخذها أهل الكلام وتصرفوا فيها من أنواع الباطل في الأمور الإلهية ما ضل به كثير منهم، وفيها من أمور الطب والحساب ما لا يضر كونه في ذلك» [٣].

السبب الثامن: ظهور الافتراق والابتداع:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٤]: «واعلم أن عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات في هذا القدر وغيره إنما وقع في الأمة في أواخر خلافة الخلفاء الراشدين، كما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي... [٥].

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٢٦٨/١٣ حوادث سنة ٦٧٢ وصون المنطق ص: ١٣.
(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون ص: ٤٣٠.
(٣) انظر : تلبيس الجهمية ٣٢٣/١.
(٤) مجموع الفتاوى ٣٥٤/١٠-٣٥٨ بتصرف قليل .
(٥) رواه أبو داود في سننه ١٣/٥-١٥ كتاب السنة ـ باب في لزوم السنة ح : ٤٦٠٧ والترمذي في سننه ٣١٩/٧ -٣٢٠ كتاب العلم ـ باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ح : ٢٦٧٨ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه في سننه ١٥/١-١٦ (المقدمة) باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ح: ٤٢،٤٣ . وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١٣/١ -١٤ ح٤٠-٤١ .

فلما ذهبت دولة الخلفاء الراشدين وصار ملكاً، ظهر النقص في الأمراء، فلا بد أن يظهر - أيضاً - في أهل العلم والدين، فحدث في آخر خلافة علي بدعتا الخوارج والرافضة، إذ هي متعلقة بالإمامة والخلافة، وتوابع ذلك من الأعمال والأحكام الشرعية... حدثت بعد ذلك بدعة القدرية والمرجئة، فردها بقايا الصحابة كابن عباس وابن عمر وجابر وواثلة بن الأسقع وغيرهم ﷺ مع ما كانوا يردونه هم وغيرهم من بدعة الخوارج والروافض... وصار في ولاة الأمور - أي في الدولة العباسية - كثير من الأعاجم، وخرج كثير من الأمر عن ولاية العرب، وعربت بعض الكتب العجمية من كتب الفرس والهند والروم ... وحدث التجهم وهو نفي الصفات وبإزائه التمثيل، فكان جمهور الرأي من الكوفة، إذ هو غالب على أهلها مع ما كان فيهم من التشيع الفاحش، وكثرة الكذب في الرواية، مع أن في خيار أهلها من العلم والصدق والسنة والفقه والعبادة أمر عظيم، لكن الغرض أن فيها نشأ كثرة الكذب في الرواية وكثرة الآراء في الفقه، والتشيع في الأصول، وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة؛ فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين بقليل ظهر عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ومن اتبعهما من أهل الكلام والاعتزال».

والأمة متى افترقت خالف بعضها بعضاً، ومتى اختلفت تمسكت بشبه وحجج،وناظرت كل فرقة من يخالفها، فينفتح باب الجدل، ويحتاج كل أحد أن يرجح مذهبه وقوله بحجة عقلية أو نقلية أو مركبة منهما... وأخذ أصحاب الأهواء مخالفوا السنة مقدمات عقلية من الفلاسفة، فأدخلوها في مباحثهم وفرجوا بها مضايق جدالهم، وبنوا عليها قواعد بدعهم، فاتسع الخرق على الراقع، وكاد منار الحق الواحد يشتبه بالثلاث الأثافي والرسوم

البلاقع، على أن السنة الشريفة مرفوعة المنار مأمونة الشرار، خافقة الأعـلام، راسخة الأحكام، باهرة السنا ساطعة، غضة الجنى يانعة[(١)].

السبب التاسع: الوساوس والشبـه:

من ذلك ما يلقيه الشيطان في بعض النفوس المؤمنة على ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»[(٢)] وفي رواية: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله»[(٣)].

وسأله بعض أصحابه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذاك صريح الإيمان.[(٤)]

ومن ذلك ـ أيضاً ـ ما رواه الإمام أحمد في مسنده[(٥)] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أُحب أن لي

---

(١) انظر: الغيث المسجم في شرح لامية العجم ١/٨٠ .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري) ٦/٣٣٦ كتاب بدء الخلق ـ باب صفة إبليس وجنوده ح: ٣٢٧٦ وصحيح مسلم ١/١٢٠ كتاب الإيمان ـ باب بيان الوسوسة في الإيمان ... ح: ١٣٤.

(٣) صحيح مسلم ١/١١٩ كتاب الإيمان ـ باب بيان الوسوسة في الإيمان ح: ١٣٤ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه ١/١١٩ كتاب الإيمان ـ باب بيان الوسوسة في الإيمان ح: ١٣٢ .

(٥) ٢/١٨١ وأصله في صحيح مسلم ٤/٢٠٥٣ كتاب العلم ـ باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ... ح : ٢٦٦٦.

به حمر النعم. أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة[١]؛ إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضباً قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب ويقول: مهلاً يا قوم بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض؛ إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضا،فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه.

وربما يسترسل بعض الناس مع هذه الوساوس والشبه حتى يحتاج إلى إنزال العقوبة به فيرجع إلى رشده وصوابه؛ من ذلك ما وقع لعمر بن الخطاب ﷺ مع صبيغ ابن عسل، وذلك أن صبيغاً قدم المدينة وكانت عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر ﷺ فبعث إليه وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه جلس فقال له عمر ﷺ: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر ﷺ: وأنا عبدالله عمر، ثم أهوى إليه يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي[٢].

---

(١) حجرة: ناحية، ومنه حديث : للنساء حجرتا الطريق . انظر : النهاية ـ ابن الأثير ٣٤٢/١.

(٢) انظر : الشريعة ـ الآجري ص : ٧٣ وسنن الدارمي ٥٥/١ـــ٥٦ وشرح السنة ـــ اللالكائي ٦٣٤/٤ـ٦٣٦ برقم: ١١٣٦-١١٤٠وعقيدة السلف ـ الصابوني ص :٥١ـ٥٤ برقم : ٨٣-٨٥ وصححه الحافظ في الإصابة ١٩٩/٢.

السبب العاشر: الاختلاف في الفروع:

يقول الشاطبي رحمه الله: «... إن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف [فيها][1] لكن في الفروع دون الأصول ، وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف ...» إلى أن قال: «إنا نقطع بأن الخلاف في مسائل الاجتهاد واقع ممن حصل له محض الرحمة وهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان ﷺ... ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه»[2].

ومثل هذا الاختلاف لا يوجب تكفيراً ولا تفسيقاً ما دام صاحبه بعيداً عن دواعي الهوى، بل هو معذور في خطئه، مأجور على اجتهاده.

لكن هذا الاختلاف قد اتسع في الملة اتساعاً عظيماً، حتى انتهى إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من حسن الظن بهم حتى اقتصر الناس على تقليدهم، منعوا من تقليد غيرهم[3].

---

(١) ليست موجودة في الإصل ، وأضفتها لبيان المراد .

(٢) انظر: الاعتصام ٢/١٦٨ـ١٧٠.

(٣) الاقتصار على تقليد الأئمة الأربعة والمنع من تقليد غيرهم لم يقل به أحد من الأئمة المحققين، وإنما قاله بعض المقلدين من أهل المذاهب، وهو من التعصب المذموم الذي نهى عنه الأئمة الأربعة أنفسهم، ونصوصهم في ذلك مشهورة معروفة.

المبحث الثاني
موقف الفرق الإسلامية من الجدل

تمهيد في نشأة الاختلاف والافتراق في هذه الأمة:

تقدم في المبحث السابق ـ أسباب ظهور الجدل عند المسلمين ـ بيان أن الافتراق والاختلاف من أسباب الجدل والمناظرة؛ لأن الأمة متى افترقت خالف بعضها بعضاً، ومتى اختلفت تمسكت بشبه وحجج، وناظرت كل فرقة من يخالفها، فينفتح باب الجدل، ويحتاج كل أحد أن يرجح مذهبه وقوله بحجة عقلية أو نقلية أو مركبة منهما. فالجدل من آثار الخلاف، ونتيجة طبيعية له، ومجاله: الفرق والنحل؛ لحرص كل منها إظهار ما عندها، وإبطال ما عند الآخرين.

ولقد كان المسلمون حتى وفاة النبي ﷺ وبعدها إلى أواخر عهد عثمان ﷺ على منهاج واحد، وسبيل متحد، غير من أظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً. وما وقع من خلاف أثناء ذلك لم يوجب تكفيراً ولا تفسيقاً، مع ما صحب ذلك من مجادلات ومناظرات، سببها في الغالب قصور في العلم أو الفهم، يرتفع الخلاف وتجتمع الكلمة متى برز الدليل، أو اتضحت وجوه الدلالة.

وأول ذلك كان في مرض موته ﷺ فقد روى البخاري ﷺ عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «لما حُضِر رسولُ الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت

واختصموا؛ فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك . فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: قوموا. قال عبيد الله ـ هو ابن عبد الله بن عتبة ـ: فكان يقول ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب؛ لاختلافهم ولغطهم»[(١)] وفي رواية قال رسول ﷺ: «...قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع»[(٢)].

قال ابن حجر رحمه الله: «دل أمره لهم بالقيام على أن أمره الأول كان على الاختيار؛ ولهذا عاش ﷺ بعد ذلك أياماً و لم يعاود أمرهم بذلك، ولو كان واجباً لم يتركه لاختلافهم؛ لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف، وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجزم بالأمر ، فإذا عزم امتثلوا»[(٣)] وفي الحديث دليل على وقوع الاجتهاد بحضرته ﷺ[(٤)].

ثانياً: اختلاف الناس في موته ﷺ وما وقع منهم من اضطراب رفعه الله (تعالى) بالصديق ﷺ. أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه[(٥)] عن أبي سلمة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته، قالت: «أقبل أبوبكر

---

(١) صحيح البخاري ١٣٢/٨ (الفتح) كتاب المغازي ـ باب مرض النبي ﷺ ووفاته ح: ٤٤٣٢.

(٢) صحيح البخاري (الفتح) ٢٠٨/١ كتاب العلم ـ باب كتابة العلم ح: ١١٤.

(٣) فتح الباري ٢٠٩/١.

(٤) انظر: فتح الباري ٢٠٩/١.

(٥) ١١٣/٣ (الفتح) كتاب الجنائز ح :١٢٤١،١٢٤٢.

ﷺ على فرسه من مسكنه بالسُّنْح[١] حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيمم النبي ﷺ وهو مسجّىً ببُرْد حِبَرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه فقبله، ثم بكى: فقال: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين؛ أما الموتة التي كُتِبَت عليك فقد مُتَّها.

قال أبو سلمة: فأخبرني ابن عباس ﷺ: أن أبابكر ﷺ خرج وعمر ﷺ يكلم الناس فقال: اجلس، فأبى. فقال: اجلس، فأبى. فتشهد أبوبكر ﷺ، فمال إليه الناس وتركوا عمر، فقال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله (تعالى) : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤]، فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبوبكر ﷺ فتلقاها منه الناس، فما يُسْمَعُ بشرٌ إلا يتلوها».

وفي رواية للبخاري[٢] عن عائشة رضي الله عنها: «... فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ . قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع

---

(١) السُّنْح : إحدى محال المدينة في طرف من أطرافها، كان بها منزل أبي بكر الصديق ﷺ حين تزوج مُليكة، وقيل: حبيبة، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج. انظر: معجم البلدان ٣٠١/٣ رقم : ٦٦٧٥ .

(٢) ١٩/٧ (الفتح) كتاب فضائل الصحابة ــ باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً ح : ٣٦٦٧، ٣٦٦٨.

في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم...» ثم ذكرت مجيء أبي بكر ﷺ ودخوله على النبي ﷺ ثم خروجه إلى الناس وعمر يتكلم، فقال: "أيها الحالف، على رِسْلِك، فلما تكلم أبوبكر جلس عمر" ثم ذكرت خطبة أبي بكر ﷺ على نحو ما تقدم.

وروى البخاري(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فما كان من خطبتهما ـ تعني خطبة عمر وأبي بكر رضي الله عنهما ـ من خطبة إلا نفع الله بها. لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقاً، فردهم الله بذلك. ثم لقد بصَّر أبوبكر الناس الهدى، وعرَّفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا به يتلون: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤].

ثالثاً: في موضع دفنه ﷺ ، فقال ناس يدفن في مسجده عند المنبر، وقال آخرون: يدفن مع أصحابه أي في البقيع، والفريقان اتفقوا على دفنه في المدينة إذ هي موضع هجرته ﷺ، وقال آخرون: يدفن في مكة لأنها مولده وبها قبلته، وبها مشاعر الحج، وابتدأ نزول الوحي فيها. وقال آخرون: ينقل إلى بيت المقدس حيث تربة إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فرفع هذا النزاع بالصديق ﷺ حيث روى لهم عن الرسول ﷺ قوله: «ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه» فرفعوا فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه فحفروا له ثم دفن وذلك في حجرة عائشة رضي الله عنها(٢).

---

(١) ٢٠/٧(الفتح) الكتاب والباب السابقان ح : ٣٦٦٩.

(٢) قصة الاختلاف في موضع دفنه ﷺ ذكرها أصحاب المقالات كالإسفراييني في التبصير ص:٢٥-٢٦ والشهرستاني في الملل ٢٣/١-٢٤ . وأصلها في الموطأ بلاغاً ٢٣١/١ كتاب

رابعاً: واختلفوا في الخليفة بعد رسول الله ﷺ من يكون؟ حتى قالت الأنصار للمهاجرين: منا أمير، ومنكم أمير. روى البخاري رحمه الله في صحيحه[(١)] عن عائشة رضي الله عنها وفيه: «... واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عُبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبوبكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبوبكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبوبكر، ثم تكلم أبوبكر فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حُباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب داراً، وأعربهم أحساباً، فبايعوا عمرَ أو أبا عبيدة. فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس».

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم عند حديث: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم»[(٢)] قال: «وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة، فكذلك بعدهم، ومن

= الجنائز ـ باب ما جاء في دفن الميت ح:٢٧. قال ابن عبد البر: هذا الحديث لا أعلمه يُروى على هذا النسق بوجه من الوجوه، غير بلاغ مالك هذا، ولكنه صحيح من وجوه مختلفة، وأحاديث شتى. جمعها مالك. وانظر: سنن ابن ماجه ١/٥٢٠ـ٥٢١ كتاب الجنائز ـ باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ ح: ١٦٢٨ وقال في الزوائد: إسناده فيه الحسين بن عبدالله بن عبيد الله بن عباس الهاشمي تركه أحمد بن حنبل وعلى بن المديني والنسائي. وقال البخاري: يقال: إنه كان يتهم بالزندقة. وقواه ابن عدي، وباقي رجال الإسناد ثقات.

(١) ٧/١٩ـ٢٠ كتاب فضائل الصحابة ـ باب لو كنت متخذاً خليلاً ح: ٣٦٦٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٩٩ كتاب الإمارة .

خالف فيه من أهل البدع... فهو محجوج بإجماع الصحابة والتابعين فمن بعدهم، بالأحاديث الصحيحة؛ قال القاضي (يعني عياض) اشتراط كونه قرشياً هو مذهب العلماء كافة، قال: وقد احتج به أبوبكر وعمر على الأنصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد...».[١]

خامساً: اختلافهم في قتال مانعي الزكاة ثم رفع الخلاف ببيان الصديق ﷺ وصحة فهمه. روى البخاري رحمه الله في صحيحه[٢] عن عبدالله بن عتبة أن أبا هريرة قال: «لما تُوفي النبي ﷺ واستُخْلِف أبوبكر، وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبابكر، كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله. قال أبوبكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَنَاقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق». قال المازري رحمه الله: «ظاهر السياق أن عمر كان موافقا على قتال من جحد الصلاة، فألزمه الصديق بمثله في الزكاة لورودهما في الكتاب والسنة موردا واحدا».[٣] وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: «فبان لعمر وغيره من الصحابة الذين خالفوا أبابكر في ذلك أن الحق معه فبايعوه»[٤].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/٢٠٠.

(٢) ١٢/٢٧٥(الفتح) كتاب استتابة المرتدين ـ باب قتل من أبى قبول الفرائض... ح:٦٩٢٤.

(٣) فتح الباري ١٢/٢٧٧.

(٤) جامع بيان العلم ٢/١٢٥.

قال أبو المظفر الإسفراييني رحمه الله عقب ذكر هذه الاختلافات: «هكذا جرى الأمر على السداد أيام أبي بكر وعمر وصدر من زمان عثمان، ثم اختُلِف في أمر عثمان، وخرج عليه قوم منهم، فكان من أمره ما كان. ثم بعد ذلك حدث الاختلاف في أمر علي وفي حال أصحاب الجمل وصفين، وفي حال الحكمين[1]، وظهر من ذلك خلاف الخوارج في أيام علي ﷺ...وظهر في وقته - أيضاً - خلاف السبئية من الروافض...وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية؛ وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة؛ كمعبد الجهني، وغيلان الدمشقي وجعد بن درهم[2]، وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة؛ كعبدا لله بن عمر، وعبدا لله بن عباس، وعبدا لله بن أبي أوفى، وجابر، وأنس، وأبي هريرة، وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم، وكانوا يوصون إلى أخلافهم بأن لا يسلموا عليهم، ولا يعودوهم إن مرضوا، ولا يصلوا عليهم إذا ماتوا. ثم ظهر بعدهم في زمان الحسن البصري بالبصرة خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر، وفي القول بمنزلة بين المنزلتين، ووافقه عمرو بن عبيد فيما أحدثه من البدعة، فطردهم الحسن البصري من مجلسه فاعتزلوه بأتباعهم جانباً من المسجد، فسموا

(١) هما : أبو موسى الأشعري من جهة علي، وعمرو بن العاص من جهة معاوية ﷺ.

(٢) المعروف عن الجعد إنكار الصفات لله (تعالى) وعلى ذلك ضحى به خالد القسري أمير الكوفة سنة:١٢٤هـ، فيكون ذكره مع القدرية ليس ظاهراً.

معتزلة؛ لاعتزالهم مجالس المسلمين[١] وقولهم بمنزلة بين المنزلتين، وزعمهم أن الفاسق الملي لا مؤمن ولا كافر، وأن الفساق من أهل الملة خرجوا من الإيمان ولم يبلغوا الكفر، وأنهم مع الكفار في النار خالدين مخلدين لا يجوز لله(تعالى) أن يغفر لهم، وأنه لو غفر لهم لخرج من الحكمة. ولما أظهروا هذه المقالة هجرهم المسلمون وخذلوهم، كما كان قد أوصى إليهم أسلافهم من الصحابة...»[٢].

وفي أخريات القرن الأول ظهر الجهم بن صفوان وتكلم في مسألة خلق القرآن، والجبر، وقال بفناء الجنة و النار ، وتعطيل الصفات عن الرب (تعالى) قال عنه المقريزي: «فأورد على أهل الإسلام شكوكاً أثرت في الملة الإسلامية آثاراً قبيحة، تولد عنها بلاء كبير ... فكثر أتباعه على أقواله التي تؤول إلى التعطيل، فأكبر أهل الإسلام بدعته، وتمالؤا على إنكارها، وتضليل أهلها، وحذروا من الجهمية، وعادوهم في الله، وذموا من جلس إليهم، وكتبوا في الرد عليهم ما هو معروف عند أهله».[٣]

وأخرج البخاري رحمه الله في صحيحه[٤] عن سعيد بن المسيب أنه قال:

---

(١) سبب التسمية فيه خلاف واسع ، ليس هذا مجال استيعابه. وانظر: مفتاح السعادة ١٦٢/٢-١٦٣ومجموع فتاوى ابن تيمية ١٨٢/٣-١٨٤ ، وكتب المقالات والفرق.

(٢) التبصير في الدين ص : ٢٧-٢٩ وانظر : الفرقان بين الحق والباطل - ابن تيمية ص :١٧٠وما بعدها ، والفرق للبغدادي ص : ١٤-٢٠ .

(٣) الخطط ٣٥٧/٢.

(٤) ٣٢٣/٧(الفتح) كتاب المغازي ح : ٤٠٢٤.

«وقعت الفتنة الأولى ـ يعني مقتل عثمان ـ فلم تُبْقِ من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية ـ يعني الحرة[(١)] ـ فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ» أي عقل وقوة. قال شارح الطحاوية رحمه الله معلقاً: «فالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة. فصار هؤلاء: الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، يقابلون البدعة بالبدعة، أولئك غلوا في علي، وأولئك كفروه ! وأولئك غلوا في الوعيد حتى خلدوا بعض المؤمنين، وأولئك غلوا في الوعد حتى نفوا بعض الوعيد أعني المرجئة، وأولئك غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات، وهؤلاء غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه ! وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع، ويعرضون عن الأمر المشروع، ومنهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل : اليهود والنصارى والمجوس والصابئين؛ فإنهم قرؤوا كتبهم، فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه في مسائلهم ودلائلهم، وغيروه في اللفظ تارة وفي المعنى أخرى، فلبَّسوا الحق بالباطل، وكتموا حقا جاء به نبيهم؛ فتفرقوا واختلفوا ...»[(٢)] .

---

(١) وهي حرة واقم إحدى حرتي المدينة ، وهي الشرقية، سميت برجل من العماليق اسمه واقم . وقيل : واقم اسم أُطُم من آطام المدينة إليه تضاف الحرة . وكانت فيها الوقعة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية في سنة ٦٣ هـ وأمير الجيش من قِبَل يزيد هو : مسلم بن عقبة المُرِّي، وكان مسرفاً في الدماء ، قتل الآلاف من المهاجرين والأنصار والموالي، ونهب الأموال وسبى النساء والذرية ، واستباح الفروج ، ثم أحضر الأعيان لمبايعة يزيد على أنهم عبيد له، فمن تلكأ ضربت عنقه ...

(٢) شرح الطحاوية ٧٩٩/٢ .

الفرق الإسلامية والجدل

من أبرز الفرق التي كان لها باع في الجدل والمناظرة: الخوارج والشيعة والمعتزلة ثم الأشاعرة ونحوهم من متكلمة الإثبات. وكل فرقة من هذه الفرق ـ لا سيما الثلاث الأول ـ قد مزقتها الأهواء كل ممزق، وفرقها الجدل إلى فرق ونحل فاقت كل تصور، فربما كان مجلس المناظرة ينفض عن فرقتين أو ثلاث؛ يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً، وربما وصل الأمر إلى حد الاقتتال وهدر الأموال. **وإليك نماذج من جدل هذه الفرق:**

أولاً: الجدل عند الخوارج:

قد أجاد في وصف الخوارج، ونعْت حالهم الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، وذلك في قوله: «هم أشد الفرق الإسلامية دفاعاً عن اعتقادهم، وحماسة لأفكارهم، وشدة في تدينهم، واندفاعاً وتهوراً فيما يدعون إليه، وما يفكرون فيه، وهم في اندفاعهم وتهورهم يستمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها وظنوها ديناً متبعاً لا يحيد عنه مؤمن، ولا يخالف سبيله إلا من مالت به نفسه نحو البهتان، ودفعته إلى العصيان، استرعت ألبابهم كلمة:"**لاحكم إلا لله**" فاتخذوها دينا ينادون به في وجوه مخالفيهم ويقطعون به كل حديث...

وقد استهوتهم فكرة البراء من عثمان وعلي، حيث اعتقدوا كفرهم وظلمهم، حتى احتلت أفهامهم واستولت على مداركهم استيلاءً تاماً، وسدت عليهم كل طريق للوصول إلى الحق. فمن تبرأ من عثمان وعلي

وطلحة والزبير والظالمين من بني أمية - حسب زعمهم - سلكوه في جمعهم، وأضافوه إلى عددهم، وتسامحوا معه في مبادئ أخرى من مبادئهم ربما كانت أشد أثراً، والخلاف فيها يبعده عنهم أكثر من الخلاف في هذا التبرؤ...

وكان فيهم حب الفداء والرغبة في الموت والاستهداف إلى المخاطر من غير داع قوي يدفع إلى ذلك، وكان منهم من يقاطع علياً في خطبته بل وفي صلاته، ومن يتحدى المسلمين محتسباً لله - ظناً منه أنه قربة يتقرب بها إليه - ولما قتلوا عبدا لله بن خباب وبقروا بطن جاريته قال لهم علي ﷺ ادفعوا إلينا قتلته، قالوا: كلنا قتلته»[(١)].

فمن فظائعهم إكفار علي ﷺ لزعمهم أنه ترك حكم الله وحكّم الرجال، وقيل: إن أول من تلفظ بهذا رجل من بني سعد بن زيد بن مناة بن تميم، يقال له: الحجاج بن عبيدا لله ويلقب بالبرك، وهو الذي ضرب معاوية ﷺ على أليته لما سمع بذكر الحكمين، وقال: أتُحَكّم في دين الله؟ لا حكم إلا لله، فلنحكم بما حكم الله في القرآن به، فسمعها رجل فقال: طعن والله فأنفذ...[(٢)]

لم يتفق الخوارج على مختلف فرقهم إلا على مسائل قلائل هي: إكفار

---

(١) تأريخ الجدل ص: ١٤٦-١٤٨ (بتصرف). وانظر: خبر الخوارج مع عبدا لله بن خباب في المعارف لابن قتيبة ص: ٣١٧، والفرق بين الفرق ص: ٧٦-٧٨، والإصابة - ابن حجر ٣٠٢/٢ رقم: ٤٦٤٧، وفتح الباري ٢٩٧/١٢.

(٢) انظر: الملل - الشهرستاني ١١٧/١.

علي ﷺ، وتكفير مرتكب الكبيرة، وتخليده في النار، وإن كانت فرقة النجدات[1] تخالف في الأخيرتين كما ذكر ذلك الأشعري رحمه الله[2] وما ذلك إلا لكثرة اختلافهم وشقاقهم، قال قتادة رحمه الله: «... ولعمري، لو كان أمر الخوارج هدى لاجتمع، ولكنه كان ضلالة فتفرق، وكذلك الأمر إذا كان من غير الله وجدت فيه اختلافاً كثيراً...»[3] فربما يشجر الخلاف بينهم لأصغر الأمور وأحقرها، حتى كان ذلك سبباً وراء هزائمهم على الرغم من شجاعتهم واستبسالهم؛ فقد كان المهلب بن أبي صفرة الذي كان ترساً للمسلمين منهم، يتخذ الخلاف بينهم ذريعة لتفريقهم، وكسر شوكتهم، فإذا لم يجدهم يختلفون دفع إليهم من يثير الاختلاف بينهم[4]. فيحكي ابن أبي الحديد أن المهلب دس إلى الأزارقة من الخوارج رجلاً من النصارى، وجعل له جعلاً يرغب في مثله، وقال له: إذا رأيت قطرياً ـ يعني قطري بن الفجاءة زعيم الأزارقة من الخوارج ـ فاسجد له، فإذا نهاك، فقل: إنما سجدت لك. ففعل النصراني ذلك. فقال قطري: إنما السجود لله(تعالى). فقال النصراني: ما سجدت إلا لك. فقال رجل من الخوارج: إنه قد عبدك من دون الله، وتلا قوله (تعالى): ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ

---

(١) النجدات: هم أتباع نجدة بن عامر الحنفي من الخوراج، كان مع نافع بن الأزرق ثم اختلف معه وبايعه جماعة، وأكفروا من قال بإمامة نافع، ومن قال بإكفار القعدة منهم عن الهجرة إليهم، ثم اختلف أصحاب نجدة عليه في أمور نقموها منه، فصاروا ثلاث فرق. انظر : الفرق بين الفرق ص: ٨٧ ، والملل والنحل ١/١٢٢.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ١/١٦٧-١٦٨، والملل والنحل ـ الشهرستاني ١/١١٥.

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ص: ٦٠٧-٦٠٨.

(٤) انظر: تأريخ الجدل لأبي زهرة ص :١٥٤.

جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] فقال قطري: إن النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم فما ضر عيسى ذلك شيئاً، فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر قطري ذلك عليه، وأنكر قوم من الخوارج إنكاره، وبلغ المهلب ذلك فوجه إليهم رجلاً يسألهم، فأتاهم الرجل فقال: أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين لكم، فمات أحدهما في الطريق، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يجز المحنة، ما تقولون؟ فقال بعضهم: أما الميت ففي الجنة، وأما الذي لم يجز المحنة فكافر حتى يجيز المحنة، وقال قوم آخرون: هما كافران حتى يجيزا المحنة، فكثر الاختلاف وخرج قطري إلى حدود إصْطَخْر فأقام شهراً والقوم في خلافهم واختلافهم، ثم أقبل فقال لهم صالح بن مخراق: يا قوم، إنكم قد أقررتم أعين عدوكم، وأطمعتموهم فيكم؛ لما ظهر من اختلافكم، فعودوا إلى سلامة القلوب، واجتماع الكلمة[1].

وأول من أجج الخلاف بين الخوارج نافع بن الأزرق ، والذي أحدثه البراءة من القعدة والمحنة لمن قصد عسكره وإكفار من لم يهاجر إليه، ويقال: إن المبتدع له رجل يقال له: عبد ربه الكبير، وقيل: بل ابتدعه: عبدا لله بن الوضين كان نافع قد خالفه في أول أمره وبرئ منه، فلما مات عبدا لله صار نافع إلى قوله وزعم أن الحق كان في يده ولم يُكفِّر نفسه بخلافه إياه حين خالفه، ولا أكفر الذين خالفوا عبدا لله قبل موته وأكفر من يخالفه فيما بعد[2].

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ٤٩/٢، والكامل للمبرد ٢٧٧/٢-٢٧٩ ، ورغبة الآمل للمرصفي ٩١/٨-٩٢ .

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ١٦٨/١-١٧٠، والفرق بين الفرق ص : ٨٣-٨٤ .

وكانت الأزارقة عقدت الأمر لقطري بن الفجاءة، وكان إذا خرج في السرايا استخلف رجلاً من بني تميم على العسكر وكانت فيه فظاظة، فشكت الأزارقة ذلك إليه، فقال: لستُ أستخلفه بعد، ثم إنه خرج في سرية وأصبح الناس في العسكر، فصلّى بهم ذلك الرجل الفجر، فقالوا لقطري: ألم تزعم أنك لا تستخلفه، وكان من الذين عاتبوه: عمرو القنا وعبيدة بن هلال وعبد ربه الصغير وعبد ربه الكبير، فقال لهم: جئتموني كفاراً حلالاً دماؤكم ؟ فقام صالح بن مخراق فلم يدع في القرآن موضع سجدة إلا قرأها وسجد، ثم قال : أكفاراً ترانا؟ تب مما قلت. فقال: ياهؤلاء إنما استفهمتكم، فقالوا: لابد من توبتك، فخلعوه، وصار قطري إلى طَبَرِسْتَان فغلب عليها[1].

وأخذ بعض أصحاب نجدة بن عامر عليه أشياء فاستتابوه ففعل، ثم إن طائفة منهم ندموا على استتابتهم إياه، وقالوا له: إن استتابتنا إياك خطأ؛ لأنك إمام وقد تبنا، فإن تبت من توبتك واستتبت الذين استتابوك وإلا نابذناك، فخرج إلى الناس فتاب من توبته، فاختلف أصحابه؛ فطائفة منهم أكفروه على ذلك[2].

وكانت لهم رغبة شديدة في الجدل والمناظرة ومساجلة الآراء والمذاهب حتى في ساحات القتال، فقد كانوا يتواقفون مع خصومهم ويتجادلون مع

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ١/١٧٠-١٧٣.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ١/١٧٥-١٧٦ ، والفرق بين الفرق ص : ٨٩ .

مقاتليهم، وقد ينشدون الأشعار، جاء في كتاب الأغاني[1] : كانت الشراة والمسلمون في حرب المهلب وقطري يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك على أمان وسكن فلا يهيج بعضهم بعضاً، فتواقف يوماً عبيدة بن هلال اليشكري وأبو خُرابة التميمي وهما في الحرب، فقال عبيدة: يا أبا خُرابة، إني سائلك عن أشياء أفتصدقوني في الجواب عنها ؟ قال: نعم إذا ضمنت لي مثل ذلك. قال: قد فعلت. قال: فسل عما بدا لك، قال: ما تقولون في أئمتكم؟ قال: يبيحون الدم الحرام، والمال الحرام ، والفرج الحرام. قال: ويحك، فكيف فعلهم في المال؟ قال: يجبونه من غير حله، وينفقونه في غير حقه . قال: فكيف فعلهم في اليتيم؟ قال: يظلمونه ماله، ويمنعونه حقه. قال: ويحك يا أباخُرابة، أمثل هؤلاء تتبع؟! ... إلى آخر الحكاية.

وروى أبو الفرج[2] أيضاً أن عبيدة اليشكري كان إذا تكاف الناس ناداهم: ليخرج إليَّ بعضكم، فيخرج إليه فتيان من العسكر ـ أي من عسكر المهلب بن أبي صفرة ـ فيقول لهم: أيما أحب إليكم؛ أقرأ عليكم القرآن أم أُنشدكم الشعر؟ فيقولون له: أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك، فأنشدنا. فيقول لهم : يا فسقة، وا لله قد علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن، ثم لا يزال ينشدهم ويستنشدهم حتى يملوا، ثم يفترقون .

---

(١) للأصفهاني ٦/١٤٩ .

(٢) الأغاني ٦/١٥١ .

قال أبو زهرة معلقاً: «وترى من هذا أن حب المناقشة والمناظرة قد استولى عليهم، حتى كانوا يتواقفون مع مقاتليهم ليجادلوهم ويساجلوهم الأفكار والمذاهب والأشعار»[١].

ثانياً: الجدل عند الشيعة:

وقوام مذهب الشيعة تقديس الرجال ثم تقدير آرائهم من وراء ذلك التقديس، يزنون القول بقائله؛ ولهذا قالوا بعصمة أئمتهم ، وساقوها في علي ﷺ ونسله من بعده، مع أن علياً ﷺ كان يقول: لا يعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف رجاله[٢]. بل الشيعة أنفسهم يروون عن جعفر الصادق قوله: من أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة زالت الجبال و لم يزل، وقال أيضاً: إياكم والتقليد؛ فإنه من قلد في دينه هلك[٣].

والشيعة يكثرون التحديث عن الرسول ﷺ في فضائل آل البيت، وغالب ذلك كذب وافتراء، فما في الطوائف طائفة أكذب من الشيعة، وإذا أعوزهم النص اتجهوا إلى التحريف الذي لا يعقله عقل خلا من الهوى وأدران الغرض مثل تأوليهم بعض المحرمات بأنها أبوبكر وعمر[٤].

سئل أبو عبدا لله محمد بن محمد النعمان الملقب بالمفيد عن أن المعتزلة

---

(١) تأريخ الجدل ص : ١٦٤ .

(٢) انظر: المنقذ من الضلال ص: ١٠٠ .

(٣) شرح عقائد الصدوق للشيخ المفيد وهو في ذيل أوائل المقالات له ص: ٢١٩.

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٣١-٣٢، ومنهاج السنة ١/٥٨ وما بعدها، وتأريخ الجدل ص:١٣٤.

والحشوية يزعمون أن الذي نستعمله من المناظرة شيء يخالف أصول الإمامية، ويخرج عن إجماعهم؛ لأن القوم لا يرون المناظرة ديناً، وينهون عنها، ويروون عن أئمتهم تبديع فاعلها ، وذم مستعملها فهل معك رواية عن أهل البيت في صحتها... فقال: أخطأت المعتزلة والحشوية فيما ادعوا علينا من خلاف جماعة أهل مذهبنا في استعمال المناظرة، وأخطأ من ادعى ذلك من الإمامية أيضاً، وتجاهل؛ لأن فقهاء الإمامية ورؤساءهم في علم الدين كانوا يستعملون المناظرة، ويدينون بصحتها، وتلقى ذلك عنهم الخلف ودانوا به...ثم أورد حديثا عن أبي عبدا لله الصادق جعفر بن محمد زعم أنه قال: خاصموهم وبينوا لهم الهدى الذي أنتم عليه، وبينوا لهم ضلالهم وباهلوهم في علي عليه السلام[1] . وفي كتاب المفيد هذا حكاية مناظرات لعلماء الشيعة جرت مع المعتزلة والخوارج والنصارى وغيرهم، تدور حول الإمامة والرجعة وغيرها من معتقدات الشيعة، وحول بعض الأحكام الشرعية.

وقال المفيد : «وما زالت الأئمة عليهم السلام يناظرون في دين ا لله سبحانه، ويحتجون على أعداء ا لله (تعالى) ، وكان شيوخ أصحابهم في كل عصر يستعملون النظر، ويعتمدون الحجاج، ويجادلون بالحق ويدمغون [يدفعون] الباطل بالحجج والبراهين، وكانت الأئمة عليهم السلام يحمدونهم

(١) كتاب العيون والمحاسن للشيخ المفيد ٢/١٣٣-١٣٤.

على ذلك ويمدحونهم ويثنون عليهم»[(١)] .

وزعم المفيد أن جعفر الصادق قال لبعض أصحابه: حاجوا الناس بكلامي، فإن حجوكم فأنا المحجوج، وزعم أنه قال لهشام بن الحكم: وقد سأله عن أسماء الله (تعالى) واشتقاقها، فأجابه عن ذلك، ثم قال له بعد الجواب: أفهمت ياهشام، فهماً تدفع به أعداءنا الملحدين في دين الله، وتبطل شبهاتهم، فقال هشام: نعم، فقال له: وفقك الله[(٢)] .

وقال المفيد : وأما الكلام في توحيد الله ونفي التشبيه[(٣)] عنه والتنزيه له والتقديس فمأمور به، ومُرَغَّب فيه، وقال ـ أيضاً ـ : وقد يصح النهي عن المناظرة للتقية[(٤)].

وكانوا إذا أمحلت بهم الحجة، وضعف لديهم الدليل وخشوا مجادلهم أن يسطو عليهم زعموا أنه لم يطق ما يعتقدون، ولم يدرك فكره ما وصلوا إليه وما تعمقوا فيه. جاء في العقد الفريد عن الأعمش قال : دخلت على المغيرة بن سعد ـ وقد كان رافضياً ـ فسألته عن فضائل علي، فقال : إنك لا

---

(١) عقائد الصدوق ص :٢١٧ .

(٢) انظر : شرح عقائد الصدوق ص:٢١٨.

(٣) هذا مذهب المتأخرين منهم، حينما تأثروا بالمعتزلة، وإلا فالمعروف عن الشيعة وقوعهم في التشبيه ، وهشام ابن الحكم المذكور آنفاً قد اتفق الناقلون للمقالات في الملل والنحل من جميع الطوائف حتى الشيعة على أنه يقول بالتشبيه كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. انظر : منهاج السنة ٢/٥٠١-٥٠٢ وانظر: الملل والنحل ١/١٨٤ .

(٤) شرح عقائد الصدوق ص:٢١٩.

تحتملها، قلت : بلى، فذكر آدم صلوات الله عليه، فقال: علي خير منه، ثـم ذكر مَنْ دونه من الأنبياء، فقال : علي خير منهم، حتى انتهى إلى محمـد ﷺ، فقال : علي مثله، فقلت : كذبت، عليك لعنة الله، قال : قد أعلمتـك أنـك لا تحتملها[(١)] .

وذكر الشيخ أبو زهـرة رحمـه الله أن أول مـا كـانوا يتوجهـون إليـه في دعوتهم وجدالهم أن يجيئـوا إلى المسلم على براءته وصفـاء نفسـه مـن درن المذاهب، فيذكـروا لـه بالثنـاء آل البيـت، ويعطـروا ألسـنتهم بمدحهـم، وأي مسلم لا يهتز قلبه لآل الرسـول ﷺ ولا يتقبـل بقبـول حسـن عبيـق ذكرهـم وأريج مدحهم، وهـم سـلالة النبي ﷺ وعترتـه وعصبتـه، وأقربـاؤه الأطهـار الأبرار، فإذا استدنوا سامعهم بعطر الثناء ذكروا المظـالم الواقعـة بهـم والمآثم التي ارتكبت في جانبهم، وأي امرئ لا يألم لظلم نازل بالأبرار، فإذا أحسـوا مـن سـامعهم دنـو قلبـه مـن قلوبهـم، وفكـره مـن أفكـارهم هجمـوا عليـه بترهاتهـم، وأباطيلهم وأهوائهم الفاسدة فمن عصمـه الله نجـا واكتفـى بمحبـة الطاهرين، ومن كتب الله عليه الشّقوة سقط فكان مع الآثمين[(٢)] .

وذكر القاضي أبوبكر الباقلاني[(٣)] نحواً من ذلـك في أسـلوب الباطنيـة في الدعوة، فقال رحمه الله: «قد اتفق جميـع الباطنيـة ــ وكـل مصنـف لكتـاب

---

(١) العقد الفريد ٢/٤٠٥ .

(٢) انظر: تأريخ الجدل ص: ١٣٣ .

(٣) نقل ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: منهـاج السـنة النبويـة. انظـر: ٨/٤٧٩ ومـا بعدها ، وانظر: شرح الطحاوية ٢/٧٤٠ .

ورسالة منهم في ترتيب الدعوة المضلة ـ على أن من سبيل الداعي إلى دينهم ورجسهم، المجانب لجميع أديان الرسل والشرائع ، أن يجيب الداعي إليه الناس بما يَبين وما يظهر له من أحوالهم ومذاهبهم ؛ وقالوا لكل داع لهم إلى ضلالتهم ما أنا حاك لألفاظهم وصيغة قولهم ، بغير زيادة ولا نقصان ، ليعلم بذلك كفرهم وعنادهم لسائر الرسل والملل؛ فقالوا للداعي: يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلماً أن تجعل التشيع عنده دينك وشعارك، واجعل المدخل عليه من جهة ظلم السلف لعلي، وقتلهم الحسين، وسبيهم نساءه وذريته، والتبري من تيم وعدي، ومن بني أمية، وبني العباس، وأن تكون قائلاً بالتشبيه، والتجسيم، والبداء، والتناسخ، والرجعة، والغلو، وأن عليا إله! يعلم الغيب! مفوَّض إليه خلق العالم! وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة وجهلهم، فإنهم أسرع إلى إجابتك بهذا الناموس، حتى تتمكَّن منهم مما تحتاج إليه أنت ومن بعدك ممن تثق به من أصحابك، فترقيهم إلى حقائق الأشياء حالاً فحالاً ... » إلى أن قال : «فإذا آنست من بعض الشيعة عند الدعوة إجابة ورشدا أوقفته على مثالب علي وولده ، وعرفته حقيقة الحق: لمن هو، وفيمن هو، وباطل بطلان كل ما عليه أهل ملة محمد ﷺ وغيره من الرسل ... » ثم ذكر أسلوب دعوة الباطنية في الدعوة مع الفيلسوف والثنوي .

ولهذا قيل كان الرفض باب الزندقة[1] .

ومع ذلك فالشيعة من أضعف الطوائف في المناظرة؛ لأنهم أجهل الناس

(١) انظر : شرح الطحاوية ٧٣٩/٢ .

بالمنقول والمعقول. قال ابن تيمية رحمه الله: «اتفق عقلاء المسلمين على أنه ليس في طائفة من طوائف أهل القبلة أكثر جهلاً وضلالاً وكذباً وبدعاً وأقرب إلى كل شر، وأبعد عن كل خير من طائفة الرافضة»[١].

وقال في موضع آخر: «فإن الرافضة في الأصل ليسوا أهل علم وخبرة بطريق النظر والمناظرة، ومعرفة الأدلة، وما يدخل فيها من المنع والمعارضة... »[٢].

وقد ذكر الخياط المعتزلي في كتابه: الانتصار[٣] شيئا من ذلك، حتى قال عن هشام بن الحكم الرافضي: «... وهل كان المضروب به المثل في الانقطاع عند أهل الكلام إلا هشام بن الحكم ؟! ولقد جمع بينه وبين أبي الهذيل العلاف بمكة وحضرهما الناس، فظهر من انقطاعه وفضيحته، وفساد قوله ما صار به شهرة في أهل الكلام. وهو مجلس محكي في أيدي الناس، معروف في أهل الكلام ... وكذلك كان السكاك بالأمس وهو أحد أصحاب هشام، لم يكلمه معتزلي قط إلا قطعه ...».

ولهذا فهم أجهل وأضل وأضعف من أن يناظروا علماء السنة، لكن يناظر بعضهم بعضاً[٤]، أو من هو شر منهم.

(١) منهاج السنة ٦٠٧/٢ (بتصرف).

(٢) منهاج السنة ٥٨/١.

(٣) ص: ١٤٢.

(٤) انظر: منهاج السنة ٢٣٤/٢.

ثالثا: الجدل عند المعتزلة:

يذكر الملطي أن المعتزلة من الطوائف المخالفة لأهل القبلة وهم أرباب الكلام، وأصحاب الجدل والنظر، والاحتجاج على من خالفهم، وأنواع الكلام، وهم المفرقون بين علم السمع وعلم العقل، والمنصفون في مناظرة الخصوم ... ثم ذكر أصولهم وذكر أن المعتزلة كلها متمسكون بالقول بذلك ويجادلون عليه، وقد وضعوا الكتب الكثيرة على من خالفهم، ويتبرءون ممن خالفهم فيها ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أوعشيرتهم، ثم ذكر أن منشأ الاعتزال كان في البصرة، فأول ظهوره كان هناك، ثم ببغداد ، وعدد جماعة منهم وضعوا الكتب، وصنفوا في الفقه والكلام والجدال، وردوا على جميع المخالفين لهم من أهل الصلاة وغيرهم[1] .

وقد كان منشأ الاعتزال على يد واصل بن عطاء، وهو واحد من المترددين على مجلس الحسن البصري، ووافق ذلك زمان فتنة الأزارقة، وكان الناس يومئذ مختلفين في أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرقتين: فرقة تزعم أن مرتكب الكبيرة كافر خارج عن ملة الإسلام، وإذا مات من غير توبة كان من أهل الخلود في النار، وهم الخوارج. وفرقة تزعم أنه مؤمن كامل الإيمان، لا يضره شيء من فعل المحرمات أو ترك الواجبات وهم المرجئة، وكان علماء التابعين في ذلك العصر مع أكثر الأمة يقولون: إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام: مؤمن لما فيه من الإيمان، ولكنه فاسق بكبيرته، وفسقه لا ينفي عنه مسمى الإيمان، وعلى هذا مضى سلف الأمة من الصحابة وأعلام التابعين.

---

(١) انظر : التنبيه والرد ص : ٣٥ -٣٨ .

فلما ظهرت فتنة الأزارقة من الخوارج بالبصرة والأهواز، واختلف الناس في أصحاب الذنوب ـ على ما ذكر ـ خرج واصل بن عطاء عن قول جميع الفرق، وزعم أن الفاسق في منزلة بين المنزلتين: منزلة الكفر ومنزلة الإيمان، فلما سمع الحسن منه بدعته هذه طرده من مجلسه، فاعتزل واصل عند سارية من سواري المسجد، وانضم إليه قرينه في الضلال: عمرو بن عبيد، فقال الناس يومئذ: إنهما قد اعتزلا قول الأمة، وسمي أتباعهما من ذلك الوقت: **بالمعتزلة**[١].

والأصول الخمسة التي شاعت عن المعتزلة وهي: التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي التي تضافروا على تأييدها ، وتآزروا على نصرها،وعقدوا المناظرات والمجادلات لتقريرها والرد على من خالفهم فيها.

وكانت المعتزلة من أكثر الفرق نشاطاً في الجدل، وقد عاونهم على ذلك عدة أمور؛ من أهمها:

١- ما امتاز به شيوخهم من البراعة في اللسان والغزارة في العلوم لا سيما العقلية، والقدرة على الجدل والمناظرة، وسرعة البديهة في استحضار الدليل:

قال أبو حنيفة رحمه الله: «لم يكن في طبقات أهل الأهواء أحد أجدل من المعتزلة؛ لأن ظاهر كلامهم مموه تقبله القلوب»[٢].

(١) انظر: الفرق ـ البغدادي ص: ١١٧-١١٨، والتبصير ص: ٦٤-٦٥، والملل ـ الشهرستاني ٤٦/١، ٤٨، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧/١٣-٣٨.

(٢) مفتاح السعادة ١٥٤/٢.

وقيل في واصل إنه كان من أعلم الناس بكلام غالية الشيعة، ومارقة الخوارج، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين، والرد عليهم[(١)].

وسئلت عنه زوجته، فقالت: كان واصل إذا جنه الليل صف قدميه يصلي ولوح ودواة موضوعان، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها، ثم عاد في صلاته[(٢)].

وفي كتاب طبقات المعتزلة[(٣)]: أن الجهم استعان بواصل في الرد على السمنية، وأن السمنية خرجوا إلى واصل وقابلوه وأجابوه إلى الإسلام. وفيه أيضاً أن واصلا أرسل داعيته حفص بن سالم إلى خراسان، ويبدو أن الغاية من ذلك هداية السمنية من ناحية، ومن ناحية أخرى نشر المذهب الاعتزالي، وأنه التقى جهما واختلفا، فتناظرا في مسجد تِرْمِذ، وأن حفصاً ظهر عليه، فرجع جهم عن قوله، فلما عاد حفص إلى البصرة رجع جهم إلى قوله الأول[(٤)].

وقال الملطي في أبي الهذيل العلاف: "وأبو الهذيل هذا لم يُدرك في أهل الجدل مثله، وهو أبوهم وأستاذهم"[(٥)].

---

(١) انظر: فرق وطبقات المعتزلة ص: ٤٢-٤٣، والمنية والأمل ص: ٣٤.

(٢) فرق وطبقات المعتزلة ص: ٤٤ والمنية والأمل ص: ٣٤.

(٣) انظر: فرق وطبقات المعتزلة ص: ٤٦-٤٧.

(٤) انظر: فرق وطبقات المعتزلة ص: ٤٤.

(٥) التنبه والرد ص: ٣٩.

وقال المبرد: ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ، وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته في مجلس وقد استشهد في جملة كلامه بثلاثمائة بيت[١]. وقال الشهرستاني عن أبي الهذيل: جرت بينه وبين هشام بن الحكم مناظرات في أحكام التشبيه[٢]. وقد تقدم كلام الخياط عنه: وأنه جُمع بينه وبين هشام بن الحكم بمكة وحضرها الناس فظهر من انقطاع هشام وفضيحته وفساد قوله ما صار به شهرة في أهل الكلام[٣]. وقال عنه القاضي عبد الجبار: ومناظراته مع المجوس والثنوية وغيرهم طويلة ممدودة، وكان يقطع الخصم بأقل كلام، يقال إنه أسلم على يديه زيادة على ثلاثة آلاف رجل[٤].

ولأبي الهذيل مع صالح بن عبد القدوس الفيلسوف الذي كان على رأي الثنوية مناظرات، كان الفلج فيها حليف أبي الهذيل، منها ما جرى بينهما حين مات لصالح ولد، فذهب إليه أبو الهذيل معزياً ومعه النظام و هو غلام حدث، فلما رآه حزيناً قال له: لا أعرف لجزعك وجهاً إلا إذا كان الإنسان عندك كالزرع[٥]، فقال: إنما أجزع؛ لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك، قال: وما كتاب الشكوك، قال: كتاب وضعته، من قرأ فيه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان. قال أبو

(١) التنبيه والرد ص : ٥٦.

(٢) الملل والنحل ١/٣٠ .

(٣) الانتصار ص: ١٤٢.

(٤) طبقات المعتزلة ص: ٥٦ .

(٥) هذا مذهب الدهرية، حيث إنهم يقولون: ما الناس إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، لا خالق ولا مدبر، ولا بعث ولا نشور ولا حساب، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الهذيل: فشك أنت في موت ابنك، واعمل على أنه لم يمت وإن كان قد مات، وشك أنه قد قرأ الكتاب وإن كان لم يقرأه، فلم يحر صالح جواباً[١].

ومن المعتزلة: عباد بن سليمان الذي ملأ الأرض كتباً وخلافاً، وخرج عن حد الاعتزال ـ كما يقول صاحب التنبيه- إلى الكفر والزندقة؛ لحدة نظره وكثرة تفتيشه[٢]. ومنهم: أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي الذي سهّل الجدال على الناس، ثم خرج ابنه: أبو هاشم، فوضع مائة وستين كتاباً في الجدل في أيام قلائل[٣].

٢- اتصالهم بالخلفاء والأمراء وتأثيرهم فيهم، وتبنيهم المنازل المرموقة، حتى استعدوهم على خصومهم: فعمرو بن عبيد كان صفياً لأبي جعفر المنصور وصديقاً له. وأبو الهذيل العلاف كان أستاذاً للمأمون؛ يقول كمال الدين الدميري: «وعقد المأمون المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات، وكان أستاذه فيها أبا الهذيل العلاف»[٤].

ويحكى عن يحيى بن أكثم المعتزلي أن المامون كان إذا دخل عليه هشام بن عمرو الفوطي المعتزلي يتحرك له حتى يكاد يقوم[٥].

وقيل: إن ثمامة بن أشرس الثميري هو الذي أغوى المأمون بأن دعاه إلى الاعتزال[٦].

---

(١) فرق وطبقات المعتزلة ص: ٥٨، والمنية ص: ٤٦، ولامية العجم ١/٨١ .

(٢) انظر: التنبيه والرد ـ الملطي ص: ٣٩، وانظر فرق وطبقات المعتزلة ص: ٨٣.

(٣) انظر: التنبيه والراد ـ الملطي ص: ٣٩-٤٠، ولا يخفى عليك ما في هذا الكلام من المبالغة.

(٤) انظر: حياة الحيوان الكبرى ـ الدميري ١/٧٨ بتصرف.

(٥) انظر: فرق وطبقات المعتزلة ص: ٦٩.

(٦) انظر: الفرق بين الفرق ص: ١٧٣.

ومحنة القول بخلق القرآن مشهورة ومعروفة، وفيها تبنى المأمون القول بخلق القرآن: وحاول أن يحمل الأمة عليه، ثم استمرت تلك الفتنة مدة خلافة المعتصم والواثق لوصية المأمون بذلك، وأضاف الواثق إلى ذلك نفي الرؤية، حتى جاء المتوكل فرفع الله به هذه المحنة عن الناس[(١)].

٣- اختلاطهم بالفلاسفة وغيرهم من الملاحدة؛ فالنظام كان في شبابه قد عاشر قوماً من الثنوية، وقوماً من السمنية وخالط بعد كبره قوماً من ملاحدة الفلاسفة، ثم خالط هشام بن الحكم الرافضي، فتأثر بهؤلاء جميعاً في مقالاته المخالفة[(٢)].

ومر بنا أن شيوخ المعتزلة قد طالعوا كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون وخلطوا بها مناهجهم وسموا ذلك باسم الكلام.[(٣)] فعلق بنفوس هؤلاء النظار ـ المعتزلة ـ ما لا يستهان به من أمراض عقلية عدت عليهم من مناظريهم[(٤)].

ومع ذلك فقد شارك المعتزلة في التصدي للمجوس والثنوية واليهود والنصارى والرافضة وغيرهم من ملل الكفر والانحراف العقدي ممن هم شر من المعتزلة، وجرت لهم مع هؤلاء مناظرات كان الفلج فيها والغلبة مع المعتزلة، وهكذا كل من كان إلى الحق أقرب كان لخصمه أقطع، وإن كان

---

(١) انظر: مقدمة تبيين كذب المفتري ص: ١٣-١٤.

(٢) انظر: الفرق بين الفرق ص: ١٣١، والملل للشهرستاني ١/٥٣، ٥٤.

(٣) انظر: الملل للشهرستاني ١/٣٠.

(٤) انظر: مقدمة تبيين كذب المفتري ص: ١٣.

المعتزلة قد التزموا أشياء مخالفة للحق والسنة تقلدوها من خصومهم في مضايق المناظرات، وبعضها هي من لوازم مذاهبهم الفاسدة.

ومن طرائف هذه المناظرات[(١)] ما وقع بحضرة المأمون حين دخل عليه رجل من الحسبانية، فقال لثمامة بن أشرس كلمه، فقال له: ما تقول؟ وما مذهبك؟ فقال: أقول: إن الأشياء كلها على التوهم والحسبان، وإنما يدرك الناس منها على قدر عقولهم، ولا حق في الحقيقة. فقام إليه ثمامة فلطمه لطمة سودت وجهه. فقال: يا أمير المؤمنين، يفعل بي مثل هذا في مجلسك، فقال له ثمامة : وما فعلت بك؟ قال: لطمتني. قال: ولعل إنما دهنتك بالبان[(٢)]، ثم أنشأ يقول:

ولعل آدم أمنا ... والأب حواء في الحساب

ولعل ما أبصرت من بيض ... الطيور هو الغراب

وعساك حين قعدت قمت ... وحين جئت هو الذهاب

وعسى البنفسج زئبقا ... وعسى البهار هو السَّذاب[(٣)]

وعسى تأكل من خراك ... وأنت تحسبه الكباب

وتعصب المعتزلة لخلافاتهم تعصباً شديداً حتى تفرقوا، وتجاوزت فرقهم العشرين فرقة، كما انقسموا إقليمياً إلى قسمين عظيمين: مدرسة بغداد

---

(١) العقد الفريد ٢/٤٠٧-٤٠٨.

(٢) هو الشجر المعروف، ورقه شديد الخضرة، له حب يُستخرج منه دهن البان. انظر : لسان العرب ١٣/٧٠.

(٣) السذاب نوع من البقول.

ومدرسة البصرة، واشتد الجدال بين رجال المدرستين حتى كفر بعضهم بعضاً، بل إن أصحاب المدرسة الواحدة يقع بينهم التكفير[(١)].

يقول عبد القاهر البغدادي رحمه الله :«والبصريون من المعتزلة يكفرون البغداديين منهم، والبغداديون يكفرون البصريين، وكلا الفريقين صادق في تكفير الفريق الآخر»[(٢)] وقال الملطي رحمه الله: «واعلم أن للمعتزلة من الكلام ما لا أستجيز ذكره؛ لأنهم قد خرجوا عن أصول الإسلام إلى فروع الكفر»[(٣)].

ومما قوى الروح الجدلية عند المعتزلة ما ذكره الإسفرائيني في كتابه: التبصير في الدين[(٤)]: أن مما اتفق عليه المعتزلة: أن العبد لا يحصل له صفة الإيمان حتى يعلم جميع ما هو شرط في اعتقادهم، ويبلغ في معرفته درجة علمائهم كأبي الهذيل والنظام وغيرهما، ويقدر فيه على تقدير الدلالة، ويتمكن من المناظرة والمجادلة، ومن لم يبلغ تلك الدرجة كان كافراً لا يحكم له بالإيمان؛ ولهذا حكموا بالكفر على جميع عوام المسلمين.

يقول أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله وهو يتكلم في ذم أهل الكلام: «ومن قبيح ما يلزمهم في اعتقادهم، أنا إذا بينا الحق على ما قالوه، وأوجبنا

---

(١) انظر : الفرق ص : ١٢٢، ١٣٢،١٥٦،١٦٥-١٦٦، والتنبيه والرد ص :٤٠

(٢) الفرق بين الفرق ص : ١٨٢ .

(٣) التنبيه والرد ص : ٤١.

(٤) ص : ٦٣ وانظر : فيصل التفرقة ـ الغزالي ص : ٢٠٢ ، والمفهم ـ القرطبي ص : ١١١-١١٢ باب كراهة الخصومة في الدين...(مخطوط) .

طلب الدين بالطريق الذي ذكروه، وجب من ذلك تكفير العوام بأجمعهم؛ لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد، ولو عرض عليهم طريق المتكلمين في معرفة الله تعالى ما فهمه أكثرهم؛ فضلاً من أن يصير فيه صاحب استدلال وحجاج، وإنما غاية توحيدهم التزام ما وجدوا عليه سلفهم، وأئمتهم في عقائد الدين، والعض عليها بالنواجد، والمواظبة على وظائف العبادات، وملازمة الأذكار بقلوب سليمة طاهرة عن الشبهات والشكوك، تراهم لا يحيدون عما اعتقدوه، وإن قطعوا إرباً إرباً.

فهنيئا لهم هذا اليقين، وطوبى لهم هذه السلامة، فإذا كفروا هؤلاء وهم السواد الأعظم وجمهور الأمة، فما هذا إلا طي بساط الإسلام، وهدم منار الدين وأركان الشريعة، وإلحاق هذه الدار بدار الكفر، وجعل أهليهما بمنزلة واحدة، ومتى يوجد في الألوف من المسلمين على الشرط الذي يراعونه بتصحيح معرفة الله تعالى؟ أو لا [يوجد][1] مسلم ألمَّ هذه المقالة القبيحة الشنيعة؟ والله تعالى يكفي أهل السنة الجماعة شرهم ويرد كيدهم في نحرهم، ويلحق بهم عاقبة مكرهم»[2].

رابعاً: الجدل عند الأشاعرة ونحوهم من متكلمة الإثبات:

إمام الأشاعرة: أبو الحسن الأشعري رحمه الله الذي عاش في الاعتزال أربعين سنة، وتتلمذ على أبي علي الجبائي المعتزلي، وكان يكثر من مناظرته،

---

(١) في الأصل : [يجد] ولعل الصحيح ما أثبته .

(٢) الحجة في بيان المحجة ـ لأبي القاسم الأصبهاني ٢/١٤٥-١٤٦ .

وله في الظهور عليه مجالس[١]، من أشهرها مناظرة وقعت بينهما في بعض مسائل التحسين والتقبيح، ألزم الأشعري أستاذه أموراً لم يخرج عنها بجواب، فأعرض عنه أبو الحسن، وأعلن توبته مما كان عليه، وانحاز لنصرة مذهب أهل السنة، لكن على قاعدة كلامية، وهو ما يعرف بمذهب الأشعرية[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأبو الحسن الأشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة، سلك طريقة ابن كُلاب، ومال إلى أهل السنة والحديث، وانتسب إلى الإمام أحمد كما قد ذَكَرَ ذلك في كتبه كلها؛ كالإبانة والموجز والمقالات وغيرها، وكان مختلطاً بأهل السنة والحديث كاختلاط المتكلم بهم، بمنزلة ابن عقيل عند متأخريهم، لكن الأشعري وأئمة أصحابه أتبع لأصول الإمام أحمد وأمثاله من أئمة السنة من مثل ابن عقيل في كثير من أحواله، وممن اتبع ابن عقيل كأبي الفرج في كثير من كتبه، وكان القدماء من أصحاب أحمد كأبي بكر عبد العزيز وأبي الحسن التميمي وأمثالهما يذكرونه في كتبهم على طريق ذكر الموافق للسنة في الجملة، ويذكرون ما ذكره من تناقض المعتزلة»[٣] وقال رحمه الله في موضع آخر: «فإنه ــ أي الأشعري ـ بيَّن من فضائح المعتزلة وتناقض أقوالهم وفسادها ما لم يبينه غيره؛ لأنه كان منهم، وكان قد درس الكلام على أبي علي الجبائي أربعين سنة، وكان ذكياً، ثم إنه رجع عنهم، وصنف في الرد عليهم، ونصر في الصفات

---

(١) انظر: عيون المناظرات ص: ٢٢٨-٢٣٠.

(٢) انظر: الملل ـ الشهرستاني ٣٢/١، وتبيين كذب المفتري ص: ٣٩، وعيون المناظرات ص: ٢٢٦-٢٢٧، وشرح لامية العجم ٨١/١.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ١٦/٢.

طريقة ابن كلاب؛ لأنها أقرب إلى الحق والسنة من قولهم، و لم يعرف غيرها، فإنه لم يكن خبيراً بالسنة والحديث وأقوال الصحابة والتابعين وغيرهم»[(١)].

وللأشعري رحمه الله جهود في الرد على الطوائف الضالة من القدرية ونحوهم، وكان يقصد أهل الاعتزال وفرق الضلال بنفسه ويناظرهم؛ فقيل له: قد أمرت بهجرانهم. فقال: هم أولو رئاسة؛ منهم الوالي، والقاضي، فلا ينزلون إلي، فإذا لم أسر إليهم كيف يظهر الحق، ويعلمون أن له ناصراً لحجته[(٢)].

وقال فيه أبوبكر الصيرفي الشافعي رحمه الله: كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم، حتى أظهر الله أبا الحسن الأشعري، فحجزهم في أقماع السمسم»[(٣)] ونحو هذه العبارة ذكرها ابن تيمية[(٤)]، وبين رحمه الله سبب ذلك وهو أن الأشعري ـ كما تقدم ـ كان من المعتزلة وبقي على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على الجبائي، فلما انتقل عنهم، كان خبيراً بأصولهم وبالرد عليهم وببيان تناقضهم[(٥)].

وللأشعري رحمه الله ـ أيضاً ـ جهود في رد صيال الفلاسفة والملاحدة؛ فقد روي أن نصرانياً متفلسفاً ورد من بلاده على الخليفة ببغداد يطلب

---

(١) منهاج السنة ٥/٢٧٦-٢٧٧ .

(٢) انظر: عيون المناظرات ص :٢٢٦.

(٣) لامية العجم ١/ ٨٠ ، والسير ١٥/ ٨٦ ، والخطط للمقريزي ٢/ ٣٥٩.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى ٥/ ٥٥٦.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى ١٣/ ٩٩.

المناظرة لعلماء المسلمين على قدم العالم، والتزم - إن قامت عليه الحجة - أن يرجع إلى الإسلام، فرأى الخليفة أن يجمع له علماء العصر من أصول الدين؛ فبعث إلى الصالحي من خراسان، والجبائي وهما من شيوخ المعتزلة، والأشعري من البصرة، والكعبي المعتزلي من بغداد، وجمعهم للكلام مع الرجل في مسألة حدوث العالم والرد عليه، فلما اجتمعوا للمناظرة قدموا الصالحي لكبر سنه فلم يقطع الرجل، ثم جاء غيره، وغيره حتى صارت النوبة للأشعري فقطعه، ودخل هو وقومه الإسلام.[١]

تقدم أن الأشعري تأثر بطريقة ابن كلاب؛ وذلك أنه لما ترك الاعتزال مال إلى طريقة ابن كلاب وتأثر بها، وابن كلاب كان شديداً على المخالفين، واسمه يشير إلى ذلك؛ فقد لقب به لأنه كان لقوته في المناظرة يجذب من يناظره كما يجذب الكلاب الشيء[٢]. ويذكر السبكي[٣] أنه رأى الإمام ضياء الدين الخطيب والد الفخر الرازي قد ذكر في آخر كتابه: غاية المرام في علم الكلام، فقال: ومن متكلمي أهل السنة في أيام المأمون: عبدا لله بن سعيد التميمي، الذي دمَّر المعتزلة في مجلس المأمون، وفضحهم ببيانه. ويذكر ابن تيمية رحمه الله أن ابن كلاب وأضرابه كالقلانسي والمحاسبي والأشعري حاولوا الرد على المعتزلة من طريق العقل[٤].

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) انظر : طبقات الشافعية - السبكي ٢/٢٩٩.

(٣) انظر : طبقات الشافعية ٢/٣٠٠ .

(٤) موافقة صريح المعقول ٢/٤٦ .

وقد أدى هذا إلى حقد المعتزلة على ابن كلاب حقداً مريراً؛ فهذا ابن النديم المعتزلي يؤرخ له بقوله: «ابن كلاب من نابتة الحشوية... وله مع عباد بن سليمان مناظرات. وكان يقول: إن كلام الله هو الله. وكان عباد يقول: إنه نصراني بهذا القول»[١] وذكروا أنه أخذ هذا القول عن النصارى عن رجل يدعى: فيثون، في دار الروم[٢].

ولهذا يذكر ابن تيمية رحمه الله أن الجهمية افترت على المثبتة وشيخهم الكبير ابن كلاب لإثباته الصفات ولتصنيفه الكتب في الرد على النفاة، فقالوا: إنه كان نصرانياً ثم أسلم لإفساد دين المسلمين، ويبين ابن تيمية : أن مقصود الجهمية بهذا أن يصلوا بين قول ابن كلاب في إثبات الصفات وقول النصارى في إثبات الأقانيم، وأن ابن كلاب أخذ مذهبه عنهم، وأخذ هذه الحكاية بعض السالمية وبعض أهل الحديث والسنة يذم بها ابن كلاب لما أحدث من القول في مسألة خلق القرآن، و لم يعلم أن الذي عابه بها هم أبعد عن الحق في مسألة القرآن وغيرها[٣].

ومن المعاصرين للأشعري: أبو المنصور الماتريدي رحمه الله، وله جهود في الرد على المعتزلة والقرامطة والرافضة[٤]. وكان بين الماتريدية والأشعري

(١) الفهرست ـ ابن النديم ص: ٢٣٠ .

(٢) انظر: المرجع السابق ص: ٢٣٠.

(٣) انظر: منهاج السنة ٢/٤٩٨، ودرء تعارض العقل والنقل ٦/١٥٥.

(٤) انظر: مفتاح السعادة ٢/١٥١-١٥٢.

اختلاف في بضع عشرة مسألة، كان بسببها في أول الأمر تباين وتنافر، إلا أن الأمر آل أخيراً إلى الإغضاء [١].

وقرر طريقة الأشعري جماعة منهم: أبوبكر الباقلاني، وأبوإسحاق الإسفرائيني، ومن المتأخرين: الفخر الرازي (رحمهم الله)، ولهؤلاء وغيرهم جهود في المناظرة اشتهروا بها. ويعترف الصاحب بن عباد المعتزلي بمهارة أئمة الأشاعرة في المناظرة ، كما حكى عنه ابن عساكر، فقال : «حكى لي من أثق به أن الصاحب ابن عباد كان إذا انتهى إلى ذكر الباقلاني وابن فورك والإسفرائيني ـ وكانوا متعاصرين من أصحاب الأشعري ـ قال لأصحابه: ابن الباقلاني بحر مغرق، وابن فورك صلٌّ مطرق[٢]، والإسفرائيني نار تحرق»[٣].

وجاء في ترجمة الباقلاني عند القاضي عياض[٤] : لسان الأمة ، المتكلم على مذهب المثبتة وأهل الحديث، وطريقة أبي الحسن الأشعري ... وكان حسن الفقه، عظيم الجدل... وأن سائر الفرق رضيت بالقاضي أبي بكر في

---

(١) انظر : الخطط المقريزية ٣٥٩/٢ . وألّف في هذه المسائل: عبدالرحيم بن علي الشهير بشيخ زاده، كتاب نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية في العقائد، مع ذكر أدلة الفريقين . وقد أوصلها إلى أربعين مسألة.

(٢) الصِّلُّ: الحية التي تقتل من ساعتها، وقيل: هي التي لا تنفع فيها الرقية. وقيل: هو الداهية الشديد في الخصومة وغيرها. انظر: لسان العرب ٣٨٥/١١ مادة صلل. المطْرق : من الطرق وهو سرعة المشي، والطرق هو الضرب كما في حديث: ومن طوارق الليل والنهار. انظر: لسان العرب ٢١٧/١٠ مادة طرق.

(٣) تبيين كذب المفتري ص: ٢٤٤، وانظر: طبقات الشافعية ـ السبكي ٢٥٧/٤.

(٤) انظر: ترتيب المدارك ٥٨٥/٤-٥٨٦.

الحكم بين المتناظرين... وما سر أهل البدع بشيء كسرورهم بموته...

ومما جاء في مآثر الباقلاني رحمه الله: أن الملك أبا شجاع عضد الدولة كان محباً للعلوم، راغباً في مناظرة العلماء في مجلسه، فصنع لذلك إيواناً، فجمع فيه الفرق وأصحاب النحل والملل، فقال يوما لقاضيه: بشر بن الحسين، وكان معتزلياً: مجلسنا هذا عامر بالعلماء، ولا أرى فيه أحداً من أهل الإثبات ... فقال له قاضيه: هم أصحاب تقليد ورواية، ولا أرى أحداً منهم يقوم بهذا ـ يعني المناظرة ـ فقال له الملك: محال، مذهب طبق الأرض أن يخلو عن ناصر، فانظر أي موضع ظننتم فيه مناظراً اكتب إليه يحضر مجلسنا. فقال له بشر: أُخبرت أن بالبصرة رجلين : شيخ وشاب؛ الشيخ يعرف بابن المجاهد، والشاب يعرف بابن الباقلاني، فكتب الملك إلى عامله بالبصرة، وأطلق مالاً لذلك ... فوصل الكتاب، فتورع ابن المجاهد عن الذهاب. وقال: هؤلاء قوم لا يحل لي أن أطأ بساطهم؛ غرضهم أن يقال: مجلسهم مشتمل على أصحاب المحابر كلها، ولو كان ذلك لله كانت أمورهم جارية على سداد، وأنا لا أحضر عند قوم هذا وصفهم.

قال القاضي أبوبكر : فقلت له : كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن كان في عصرهم من المتكلمين: إن المأمون لا يُحضر مجلسه ، حتى ساق ابن حنبل إلى طَرَسُوس، فلما مات المأمون رُد إلى المعتصم فضربه، فهؤلاء أسلموه، ولو مرُّوا وناظروا لكَفَوْه، وكذلك أنت أيها الشيخ، تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على ابن حنبل. وها أنا خارج إن لم تخرج، فخرجت عوضاً عنه...

وقد حضر المجلس من معتزلة البصرة خلق كثير، وكان في المجلس

الأحدب رئيس معتزلة بغداد، وجرت المناظرة في مسائل التكليف بما لا يطاق والرؤية، وأجاب القاضي بمذهب الأشاعرة وقطعهم في ذلك كله[١].

وجرى له ـ أي الباقلاني ـ في هذا المجلس كلام كثير أُعجب به الملك، ولم يزل يحلو له كلامه، ويزحف عن سريره حتى نزل عنه... ثم أقبل على قاضي القضاة، فقال له: ألم أقل لك: مذهب طبق الأرض لا بد له من ناصر[٢].

وذكر بعض العلماء في هذه المناظرة أن القاضي الباقلاني لما دخل المجلس اضطربت المعتزلة يناجي بعضهم بعضاً في أمره، فسمع القاضي واحداً منهم يناجي صاحبه على بعد وهو يقول له: إني لأرى هذا الشاب حديد الذهن، يتوقد ذكاء، فقال الآخر: ما هو إلا شيطان. فرفع القاضي صوته يقرأ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [سورة مريم: ٨٣] فأُسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد رموا منه بداهية[٣].

وأما أبوإسحاق الإسفرائيني رحمه الله فمن مواقفه: المناظرة المشهورة بينه وبين القاضي عبدالجبار الهمداني، وذلك أن أبا إسحاق حضر في دار الصاحب إسماعيل بن عباد، فدخل القاضي عبد الجبار وكان رئيس المعتزلة، فلما رأى أبا إسحاق قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء. فقال أبو إسحاق

---

(١) انظر: المدارك ٤/٥٩٠-٥٩٣، وتبيين كذب المفتري ص: ١١٨-١٢٠، وعيون المناظرات ص: ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٤/٥٩٣.

(٣) انظر: عيون المناظرات ص: ٢٤٤، ونحوه في تأريخ بغداد ٥/٣٧٩، وترتيب المدارك ٤/٥٨٩.

في الحال: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء. قال بعض العلماء: تأملوا هاتين الكلمتين، فإن كل واحد منهما جمع دلائل مذهبه في كلمته.

وتمام المناظرة: أن عبدالجبار قال: أفيريد ربنا أن يعصى؟ فقال له أبو إسحاق: أفيعصى ربنا قهراً؟ فقال عبدالجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى، فقد أحسن إلي أم أساء ؟! فقال له الأستاذ : إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له، فيختص برحمته من يشاء(١).

وأما الفخر الرازي، فقد لاقى في حياته متاعب كثيرة بسبب مجادلاته ومناظراته مع الفرق والطوائف، ومن أشهرها: المعتزلة والكرامية، وكم من مرة أخرج من بلد لهياج الفتنة بعد خطبة منه، أو مناظرة شديدة مع معتزلي أو شيخ من شيوخ الكرامية؛ ففي خوارزم ـ حيث كان كثير من المعتزلة ـ ناظر الرازي شيوخ المعتزلة، محاولاً إبطال مذهبهم، فضيقوا عليه الخناق حتى خرج من مدينتهم(٢).

وقال الرازي في كتابه المناظرات(٣): «لما دخلت بلاد ما وراء النهر وصلت أولاً إلى بلدة بخارى، ثم إلى سمرقند، ثم انتقلت منها إلى خُجَنْد ثم انتقلت إلى المسماة بنَاكِت، واتفقت لي في كل واحدة من هذه البلاد مناظرات ومجادلات مع من كان فيها من الأفاضل والأعيان» ثم ذكر الرازي نماذج من مناظراته في هذا الكتاب، وبعض هذه المناظرات في مسائل الفقه وأصوله. ولما قدم طوس أنزلوه في صومعة الغزالي، واجتمعوا عنده

---

(١) انظر: عيون المناظرات ص : ٢٥٥-٢٥٦، وطبقات الشافعية ـ السبكي ٢٦١/٤-٢٦٢.

(٢) انظر: طبقات الشافعية ـ السبكي ٨٦/٨ ، وفخر الدين الرازي ـ للزركان ص: ٢٢.

(٣) ص: ٢.

للمناظرة[1].

وللرازي مناظرة في الرد على النصارى، أشار إليها في تفسيره[2]، وطبعت كاملة ومستقلة[3].

فهذا جانب من جهود الأشاعرة في الجدل والمناظرة، ومغالبة الخصوم ممن هم دونهم، ولا يخفى ما علق بكلامهم من الأقوال الفاسدة التي سرت إليهم من خصومهم، أو التزموها في مضايق المناظرات، لكن مع ذلك يُنتفع بكلامهم وردودهم على أهل البدع الكبار من المعتزلة والرافضة ونحوهم. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر بعض أعيان الأشاعرة من أمثال الباقلاني وأبي ذر الهروي وأبي الوليد الباجي والقاضي أبي بكر بن العربي وأبي المعالي الجويني وغيرهم ، قال رحمه الله: «ثم إنه ما من هؤلاء إلا مَنْ له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف. لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة ـ وهم فضلاء

---

(١) انظر : المناظرات ـ الرازي ص : ٢٨ .

(٢) أشار الرازي إلى هذه المناظرة في موضعين من تفسيره الكبير الأول ٧٨/٨ ، والثاني ٢١٢/٢١.

(٣) بتحقيق الدكتور عبدالمجيد النجار ـ نشر دار الغرب الإسلامي . وذكر طرفاً منها صاحب عيون المناظرات ص: ٢٨٣-٢٨٧ .

عقلاء ـ احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين وصار الناس بسبب ذلك منهم من يعظمهم لما هم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها»[1].

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢/١٠١-١٠٢.

المبحث الثالث

قضايا الجدل عند أهل الكلام وخصائصه وموقف السلف منه

وفيه خمسة مطالب:

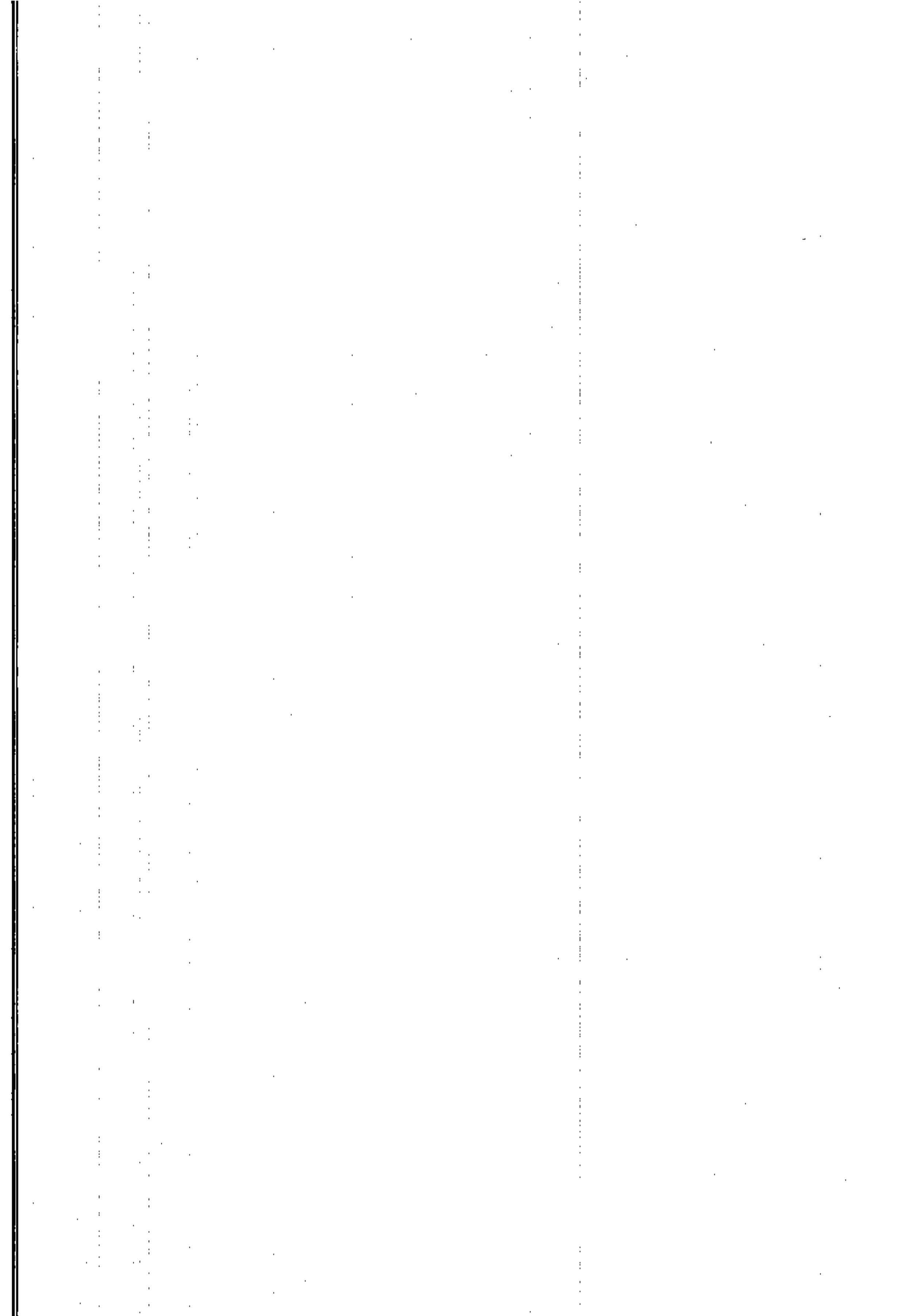
المطلب الأول: التعريف بعلم الكلام

المطلب الثاني: نشأة علم الكلام وسبب تسميته بذلك

المطلب الثالث: المسائل التي وقع الجدل فيها بين المتكلمين

المطلب الرابع: خصائص الجدل عند المتكلمين

المطلب الخامس: حكم الاشتغال بعلم الكلام



المطلب الأول
التعريف بعلـــم الكـلام

يقول الإيجي في المواقف[1] : «الكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه، والمراد بالعقائد: ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية: المنسوبة إلى دين محمد ﷺ فإن الخصم وإن خطّأناه لا نخرجه من علماء الكلام».

وقال ابن خلدون في تعريفه: «هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية، بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة».[2]

والذي يبدو من التعريف أن علم الكلام علم ممدوح لا مذموم، في حين أن السلف رحمهم الله قد اشتهر عنهم الذم له، وتشديد النكير على أهله والمشتغلين به - كما سيتبين لاحقاً - ولعل هذا الالتباس هو نتيجة إطلاق اسم علم الكلام على علم التوحيد، وعلم أصول الدين كما قال ابن تيمية رحمه الله: «... إن طائفة من أهل الكلام يُسمِّي ما وضعه "أصول الدين" وهذا اسم عظيم، والمسمَّى به فيه من فساد الدين ما الله به عليم. فإذا أنكر أهل الحق والسنة ذلك، قال المبطل: قد أنكروا أصول الدين. وهم لم ينكروا

---

(١) ص : ٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص :٤٢٣.

ما يستحق أن يسمَّى أصول الدين، وإنما أنكروا ما سماه هـذا أصول الدين، وهي أسماء سمَّوْها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان»[(١)].

والحق أن العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم كما قاله أبو يوسف رحمه الله[(٢)].

أما أنه يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية، ودفع الشبه عنها، فالواقع أنه يزعزع العقائد الإيمانية، وحسبك أنه قد أدى بأهله إلى الشكوك والإلحاد أو التوقف والحيرة، وقد قال ابن تيمية رحمه الله في معرض رده على من يقول: إن منفعة علم الكلام حراسة عقيدة العوام، فيقول رحمه الله: «وحفظ مثل هذا الكلام لاعتقاد العوام كدفع المظلمة عنهم بعقوبات فيها عدوان... لابد أن يكون المحروس هو نفس ما ثبت عن الرسول ﷺ أنه أخبر به لأمته، فأما إذا كان المحروس فيه ما يوافق خبر الرسول، وفيه ما يخالفه، كان تمييزه قبل حراسته أولى من الذب عما يناقض خبر الرسول ﷺ...»[(٣)].

أما أنه يستعمل في الرد على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف، فالحال أنه قد أدخل على أهل الإسلام من البدع ما الله به عليم، مع أن لأهل الكلام ــ كما تقدم ــ مساعي مشكورة في الرد على الفلاسفة وأصناف المشركين من اليهود والنصارى وغيرهم، وإن كان في طريقتهم قصور وضعف، مع تضمنها لبعض البدع والضلالات.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٥٦.

(٢) انظر: الإبانة ـ ابن بطة ١/ ٤١٩ رقم: ٣٣٩ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٧/١٧٩،١٨٢.

المطلب الثاني
نشأة علم الكلام وسبب تسميته بذلك

أولاً: نشأة علم الكلام:

تقدم أن الكلام نشأ مع المعتزلة فهم أربابه وأصحابه، وتقدم - أيضاً - قول طاش زادة: إن مبدأ شيوع الكلام كان على أيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة(١). وقول ابن الخياط المعتزلي: عن المعتزلة إنهم أرباب النظر دون جميع الناس، وأن الكلام لهم دون من سواهم(٢).

ثم دخل في الكلام طوائف غير المعتزلة؛ كالكرامية والكلابية والماتريدية والأشعرية وغيرهم. ويجمع هؤلاء اعتماد العقل في تقرير المطالب الدينية دون الشرع، فالعقل عمدة والشرع تابع؛ ولهذا فهم المعارضون بين الشرع والعقل، ويقدمون العقل على الشرع عند التعارض - بزعمهم - بحجة أن العقل قطعي والشرع ظني، والواجب تقديم ما هو قطعي على ما هو ظني(٣).

---

(١) انظر : مفتاح السعادة ١٦٦/٢ .

(٢) الانتصار ص : ٧٢ .

(٣) انظر : كتب الفخر الرازي مثل : أساس التقديس ص : ٢١٠-٢١١ ، ومحصل أفكار المتقدمين ص : ٥١، وأصول الدين ص : ٢٤ ، وكتاب الأربعين ص : ٤٣٣-٤٣٦ ، والمطالب العالية ١١٣/٩ . وانظر: الإرشاد للجويني ص : ٣٥٩-٣٦٠ ، والمستصفى للغزالي ١٣٧/٢-١٣٨ ، وقانون التأويل للغزالي ص : ١٠ ، وقد رد على الرازي وعلى غيره من المتكلمين شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب: نقض تأسيس الجهمية، وكتاب: درء تعارض العقل والنقل. وكذلك تلميذه ابن القيم في كتاب: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

ثانياً: سبب التسمية:

اختُلِف في سبب تسمية هذا الفن بعلم الكلام على أقوال أشهرها:[(١)]

١- أن عنوان مباحثه كان قولهم : الكلام في كذا وكذا.

٢- أن مسألة كلام الله (تعالى) كانت أشهر مباحثه، وقد كثر فيها النزاع والجدال؛ بل التناحر وسفك الدماء[(٢)].

٣- أنه يُورِثُ قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم، كالمنطق للفلاسفة؛ فالكلام والمنطق مترادفان.

٤- أنه إنما يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين، وغيره قد يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب.

٥- أنه أكثر العلوم خلافاً ونزاعاً فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم.

ولا يمنع أن تجتمع هذه الأسباب وغيرها في تسمية هذا الفن بعلم الكلام؛ إذ كل ذلك حاصل فيه، لكن النزاع قد يكون في المفاضلة بين هذه الأسباب، وتقديم بعضها على بعض، وكونه أقرب وأليق في التسمية به.

---

(١) انظر : شرح العقائد النسفية ص : ١٤-١٥، والمواقف ص : ٨-٩ ، والملل — الشهرستاني ١/٣٠ ، ومقدمة ابن خلدون ص : ٤٣٤ .

(٢) انظر : المواقف ص : ٩ .

المطلب الثالث
المسائل التي وقع الجدل فيها بين المتكلمين

لا تكاد تجد باباً من أبواب الاعتقاد إلا وللمتكلمين فيه نزاع واختلاف وجدل. إلا أن أشهر ما تجادل فيه أهل الكلام مسائل الإيمان والقدر والصفات وكلام الله (تعالى)، وسأذكر ذلك على نحوٍ من التفصيل:

أولاً : مسألة الإيمان

المعروف عند الصحابة والسلف وجماهير أهل السنة أن الإيمان: قول وعمل واعتقاد، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[١].

وخالف في ذلك الخوارج والمعتزلة والمرجئة بجميع أصنافهم من جهمية وكرامية وغيرهم. يقول ابن تيمية رحمه الله: «أول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة؛ حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فعاقب الطائفتين...»[٢]، وأجمعت هذه الطوائف المخالفة لأهل السنة على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وقالت طوائف المرجئة بعدم دخول الأعمال في مسمى الإيمان.

أما الخوارج، فقد تناظروا في جواز التحكيم، ثم أخذت المجادلة والمناظرة طوراً آخر في شأن مرتكب الكبيرة،[٣] فقالوا بتكفيره وخروجه من الإيمان ثم خلوده في النار إن مات من غير توبة[٤].

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ١٣/٥٠-٥١.
(٢) مجموعة الرسائل والمسائل - ابن تيمية ٥/١٩٨.
(٣) انظر : تأريخ الجدل - أبو زهرة ص : ١٠٢- ١٠٣.
(٤) انظر : مقالات الإسلاميين - الأشعري ١/١٦٨ ، ٢٠٤ ، الملل والنحل - الشهرستاني ١/١١٥، والفرق - البغدادي ص : ٧٣-٧٤ وقد استثنى الأشعري النجدات من التكفير بالكبيرة ، ثم عمَّم في نهاية الكلام عن الخوارج.

وبدعتهم إنما كانت من سوء فهمهم للقرآن، لم يقصدوا معارضته، لكنهم فهموا منه ما لم يدل عليه، فظنوا أنه يوجب التكفير بالذنوب؛ إذ كان المؤمن هو البر التقي، قالوا: فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر مخلد في النار، ثم قالوا: وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله[(١)].

والمعتزلة شاركوا الخوارج في حكم الآخرة، وقالوا بخلود مرتكب الكبيرة في النار، وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين في حكم الدنيا[(٢)].

أما المرجئة، فقد قيل إن أول من تكلم فيه ـ أي الإرجاء ـ : الحسن بن محمد بن الحنفية وله فيه تصنيف[(٣)]. ويذكر ابن سعد في طبقاته[(٤)] في ترجمة الحسن أن زاذان وميسرة دخلا عليه، فلاماه على الكتاب الذي وضع في الإرجاء، فقال لزاذان: يا أبا عمر لوددت أني كنت مت و لم أكتبه.

والإرجاء المنسوب إلى الحسن هذا إنما كان في أمر المشتركين في الفتنة التي حدثت بعد خلافة الشيخين؛ يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «المراد بالإرجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء الذي يعيبه أهل السنة المتعلق بالإيمان؛ وذلك أني وقفت على كتاب الحسن بن محمد المذكور، أخرجه ابن أبي عمر العدني في كتاب الإيمان له في آخره...ثم قال في آخره:

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٠-٣١.

(٢) انظر: انظر: مقالات الإسلاميين ٢٠٤/١، والفرق بين الفرق ص: ١١٥، والملل والنحل ـ الشهرستاني ٤٥/١، ٤٨، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧/١٣-٣٨.

(٣) انظر: مفتاح السعادة ١٦٣/٢.

(٤) ٣٢٨/٥. وانظر: السنة لعبد الله بن أحمد ص: ٨٩ رقم: ٤٨٥، والإبانة لابن بطة ٩٠٤/٢ رقم: ١٢٦٨، ومنهاج السنة النبوية ٧/٨-٨ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٣٢٠/٢.

ونوالي أبابكر وعمر رضي الله عنهما ونجاهد فيهما؛ لأنهما لم تقتتل عليهما الأمة و لم تشك في أمرهما، ونرجئ من بعدهما ممن دخل في الفتنة فنكل أمرهم إلى الله، إلى آخر الكلام، فالمعنى الذي تكلم فيه الحسن أنه كان يرى عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين في الفتنة بكونه مخطئاً أو مصيباً، وكان يرى أنه يرجئ الأمر فيهما ، وأما الإرجاء الذي يتعلق بالإيمان، فلم يعرِّج عليه فلا يلحقه بذلك [عيب][1] والله أعلم»[2] .

أما الجهمية من المرجئة، فالإيمان عندهم مجرد معرفة القلب[3] ، وهذا القول نصره الأشعري وأكثر أصحابه، لكنهم يقولون: الإيمان تصديق القلب، وأن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره، واستدللنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة[4] .

والكرامية من المرجئة يقولون: الإيمان قول باللسان فقط، فمن تكلم به فهو كامل الإيمان، فإن كان مقراً بقلبه فهو من أهل الجنة وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً من أهل النار، قال ابن تيمية رحمه الله: «وهذا القول هو الذي اختصت به الكرامية وابتدعته، و لم يسبقها أحد إلى هذا القول، وهو آخر ما أُحدِث من الأقوال في الإيمان»[5] .

---

(١) في الأصل عاب ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) تهذيب التهذيب ٣٢١/٢.

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ٢١٣/١-٢١٤ .

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٧/١٣.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٦/١٣ .

ويقول الأشعري رحمه الله عن الكرامية: «يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ كانوا مؤمنين على الحقيقة، وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان»[(١)].

ومن المرجئة مرجئة الفقهاء ـ وكان أكثرهم من أهل الكوفة كحماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما ـ الذين يقولون : الأعمال ليست من الإيمان ولكنهم مع سائر أهل السنة على أن الله يعذّب من يعذّبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك؛ ولهذا قيل: النزاع بينهم وبين أهل السنة المحضة نزاع لفظي[(٢)]. وقال شارح الطحاوية رحمه الله: «وإذا كان النزاع في هذه المسألة بين أهل السنة نزاعاً لفظياً، فلا محذور فيه سوى ما يحصل من عدوان إحدى الطائفتين على الأخرى والافتراق بسبب ذلك، وأن يصير ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء ونحوهم، وإلى ظهور الفسق والمعاصي...»[(٣)].

والصواب أن الخلاف ليس لفظياً بالمعنى المعروف في الخلاف اللفظي؛ لأنه لا يترتب عليه شيء، والمخالفان متفقان من حيث المعنى، ومثل هذا لا ينبغي الوقوف معه ولا اعتباره خلافاً.

---

(١) مقالات الإسلاميين ١/٢٢٣ .

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٣٨.

(٣) شرح الطحاوية: ٢/٤٧٠ .

وممـا يـدل علـى أن الخـلاف مـع مرجئـة الفقهـاء ليـس لفظيـاً بـالمعنى المعروف: أن الأئمة شددوا النكير على من أخرج الأعمال عن مسمى الإيمان، وذكروا الأدلة الدالة على أن الإيمان قول وعمل، وصنّفوا في ذلك المصنفات، لكن من قال: إن الخلاف لفظي لعلّه يريد أنه خلاف يتعلق بالألفاظ وهي الأسماء الدينية كالمؤمن والكافر والمنافق. ثم إن قول المرجئة يؤدي إلى الإرجاء المحض، ويفتح الباب أمام الفساق للتهاون بأمور الشريعة.

وفي كـل طائفة من طوائف أهل الكلام المتقدمة نزاع في هذه المسألة ـ مسألة الإيمان ـ وتفرق واختلاف، فضلاً عن نزاعهم واختلافهـم مـع غيرهم من الطوائف.

ثانياً: مسألة القـدر:

وهي المسألة التي شغلت أذهـان أصحـاب الديانـات القديمـة وسَـرَت إلى المشركين حيث كانوا يحتجون أحياناً بالقدر كمـا في قولـه (تعـالى) : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة النحل: ٣٥] ثم إلى المنـافقين كما في قوله (تعالى) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦] وكمـا في قولـه (تعـالى): ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٨] ففي اعتراض المنافقين هذا نفي للقدر[١].

وخاض بعض الصحابة رضي الله عنهم في مسألة القدر فنهاهم النبي ﷺ

---

(١) انظر : الملل والنحل ـ الشهرستاني ١/٢١-٢٢ ، وتأريخ الجدل ص : ١٠٤.

وزجرهم عنه، وبيَّن لهم أنه سبب لاختلاف الأمم السابقة وهلاكها، فانتهى الصحابة ولم يعودوا لمثله: روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حبُّ الرمان من الغضب. قال: فقال لهم: ما لكم تضربون كتاب الله بعضَه ببعض؟! بهذا هلك من كان قبلكم. قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده[(١)]. وفي رواية أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر هذا ينزع آية، وهذا ينزع آية، فذكر الحديث[(٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن بني إسرائيل كانوا على شريعة ومنهاج ظاهرين على من ناوأهم حتى تنازعوا في القدر، فلما تنازعوا اختلفوا وتباغضوا وتلاعنوا، واستحل بعضهم حرمات بعض، فسُلِّط عليهم عدوُّهُم فمزقهم كل ممزق»[(٣)].

ثم ظهر الخوض في القدر بالباطل في أواخر عهد الصحابة، وكثر الكلام فيه بسبب غلو القدرية النفاة، قال الإسفرائيني في التبصير: «وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة؛ كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي... وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة كعبدالله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن

(١) مسند الإمام أحمد ٢٠٠/١٠-٢٠١ برقم: ٦٦٦٨ قال أحمد شاكر: إسناده صحيح وتكرر برقم: ٦٧٠٢ وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح ٣٦/١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٨٢/١١ برقم: ٦٨٤٦ وصححه أحمد شاكر.

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ص: ٦٣٣ برقم: ١١٣٣.

أبي أوفى وجابر وأنس وأبي هريرة وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم، وكانوا يوصون إلى أخلافهم بأن لا يُسلِّمُوا عليهم، ولا يعودوهم إن مرضوا ولا يُصَلُّو عليهم إذا ماتوا»[(١)].

فكان أول ظهور إنكار القدر على يد معبد الجهني، فقد روى مسلم في صحيحه[(٢)] عن يحيى بن يَعْمُر أنه قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني» وقد أخذ معبد هذه المقالة عن رجل نصراني يقال له سوسن؛ قال الأوزاعي رحمه الله: «أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن، كان نصرانيا فأسلم، ثمَّ تَنَصَّر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد »[(٣)].

وقال ابن عون (١٥١هـ) : «أدركت الناس وما يتكلمون إلا في علي وعثمان، حتى نشأ هاهنا حقير يقال له: سنسويه البقال، قال: فكان أول من تكلم في القدر. قال حماد ـ وهو حماد بن زيد، راوي الخبر عن ابن عون ـ: ما ظنكم برجل يقول له ابن عون هو حقير»[(٤)].

والمتكلمون بالباطل في القدر صنفان: مكذبون ومثبتون مع غلو فيه.

---

(١) التبصير في الدين ص: ٢٧-٢٩.

(٢) صحيح مسلم ٣٦/١ كتاب الإيمان ـ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... ح: ٨ وانظر: الفرق ـ البغدادي ص: ١٧، ٧٠، ٢٢٠ والملل والنحل ٦٢/١والتبصير في الدين ص: ١٣، ٤٠.

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ٧٥٠/٤ رقم: ١٣٩٨، وانظر: الشريعة ص: ٢٤٢ .

(٤) شرح السنة ـ اللالكائي ٧٤٩/٤ برقم: ١٣٩٦.

والمكذبون هم نفاة القدر الذين هم القدرية، والمثبتون الذين غلوا فيه هم الجبرية النافون لفعل العبد واختياره[(١)].

والنفاة نوعان: أحدهما من ينكر علم الله السابق. والثاني من ينكر قدرة الله على خلق أفعال العباد مع إقراره بالعلم السابق[(٢)]. ولهذا قال الشافعي رحمه الله: «ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا وإن أنكروا كفروا»[(٣)] يريد الغلاة منهم.

وهؤلاء - أي نفاة العلم السابق - قد انقرضوا والحمد لله؛ يقول القرطبي رضي الله عنه: «قد انقرض هذا المذهب ولا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين ، قال: والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الاستقلال، وهو -مع كونه مذهباً باطلاً- أخف من المذهب الأول»[(٤)].

ونفاة العلم السابق هم الذين كانوا في زمن ابن عمر رضي الله عنه ورد عليهم، وتبرأ منهم كما في صحيح مسلم[(٥)] عن يحيى بن يَعْمُر قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحُمَيْد بن

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧/١٣.

(٢) انظر: المرجع السابق ٤٢٩/٨.

(٣) شرح الطحاوية ٣٥٤/٢، وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٣٠/٨ .

(٤) فتح الباري ١١٩/١، وحكى معناه النووي في شرح مسلم ١٥٤/١ عن أصحاب المقالات، وانظر: جامع العلوم والحكم ص : ٢٤-٢٥ .

(٥) ٣٦/١-٣٨ كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... ح : ٨ .

عبدالرحمن الحِمْيَري حاجَّيْن أو معتمرين، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر. فَوُفِّقَ لنا عبدُا لله بن عمر ابن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي؛ أحدُنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سَيَكِلُ الكلام إلي فقلت: أبا عبدالرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويَتَقَفَّرُون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أُنُف . قال : فإذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم بُرآء مني، والذي يحلف به عبدا لله بن عمر، لو أن لأحدهم مثلَ أحد ذهباً، فأنفقه ما قبل ا لله منه حتى يؤمن بالقدر ...» ثم ساق حديث جبريل الذي فيه جواب النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة.

ويقول ابن تيمية رضي ا لله عنه: «ثم كثر الخوض في القدر. وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه في المدينة، فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق، وبالكتاب المتقدم، وصار نزاع الناس في الإرادة وخلق أفعال العباد»[١].

وكان تعلل الناس في المعصية بالقدر هو الذي دفع معبداً ونحوه إلى نفي القدر، وكونه سالباً للاختيار[٢]. ولهذا روي أن معبداً الجهني وعطاء بن يسار كانا يأتيان الحسن البصري ويسألانه ويقولان : يا أبا سعيد، إن هؤلاء

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٣٦-٣٧.

(٢) انظر : تبيين كذب المفتري ص :١١.

الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون الأموال، ويفعلون ويفعلون، ويقولون إنما تجري أعمالنا على قدر الله، فقال الحسن: كذب أعداء الله[(١)].

ونُسب إلى الحسن أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان رسالة على مذهب القدرية، لكن قال الشهرستاني رحمه الله - وكان قد اطلع عليها -: «ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره وشرَّه من الله (تعالى)، فإنَّ هذه الكلمات كالمجمع عليها عندهم»[(٢)].

ثم خاض المعتزلة في القدر، وتبنوا مذهب القدرية النفاة، حتى نُسب إليهم، وصار من أصولهم المجمع عليها عندهم، كما يذكره أصحاب المقالات[(٣)].

وقابل القدرية النفاة الجبرية المغالون في الإثبات مع سلب إرادة الإنسان واختياره وفعله[(٤)]. وأول من قال بذلك: الجهم بن صفوان، وذلك أن غيلان الدمشقي أخذ بمذهب معبد الجهني في نفي القدر، وذهب يذيعه في الناس فتصدى له جهم فالتزم جهم الجبر، ونشأ عن ذلك مذهب الجبرية[(٥)] بسبب هذه المناظرات والالتزامات الفاسدة.

---

(١) انظر : المعارف - ابن قتيبة ص : ٤٤١ .

(٢) الملل والنحل ١/٤٧.

(٣) انظر : الفرق بين الفرق ص: ١١٤-١١٥ ، والملل والنحل ١/٤٥.

(٤) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٣٧ ، والملل والنحل ١/ ٨٥،٨٧ ، والفرق بين الفرق ص : ٢١١ .

(٥) انظر : مقدمة تبيين كذب المفتري ص : ١١ .

ومن طوائف الجبرية[(١)]: النجارية أصحاب الحسين بن محمد النجار، والضرارية أصحاب ضرار بن عمرو، وممن قال بالجبر: حفص الفرد، وكثير من المتأخرين من أهل الكلام ومن وافقهم سلكوا مسلك جهم في كثير من مسائل هذا الباب، وإن خالفوه في بعض ذلك: إما نزاعاً لفظياً، وإما نزاعاً لا يعقل، وإما نزاعاً معنوياً؛ وذلك كقول من زعم أن العبد كاسب ليس بفاعل حقيقة، وجعل الكسب مقدوراً للعبد، وأثبت له قدرة لا تأثير لها في المقدور. وممن يقول بذلك أبو الحسن الأشعري، وأتباعه[(٢)] ومن وافقهم من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد. ولهذا قال جمهور العقلاء: إن هذا كلام متناقض غير معقول؛ فإن القدرة إذا لم يكن لها تأثير في الفعل، كان وجودها كعدمها، ولم تكن قدرة[(٣)].

وقد أنكر سلف الأمة وأئمتها قول من يقول الناس مجبورون على أفعالهم وذموه، وإن قصد به الرد على القدرية... وقالوا: هذا رَدٌّ بدعة ببدعة، وقابل الفساد بالفساد، والباطل بالباطل[(٤)]. بل أنكر الأئمة ـ أيضاً ـ كالثوري والأوزاعي والزبيدي وابن حنبل وغيرهم استعمال مصطلح الجبر، وقالوا: الجبر لا يكون إلا من عاجز، كما يجبر الأب ابنته على خلاف

---

(١) انظر: الملل والنحل ١/٨٨-٩١ .

(٢) يقول ابن تيمية رحمه الله: «استطال المعتزلة على الأشاعرة في مسألة القدر واضطروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلا لله رب العالمين دون العبد، ثم أثبتوا كسبا لا حقيقة له» مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/١٢٨ (بتصرف قليل) .

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/٤٦٦-٤٦٨ ، ومنهاج السنة ٢/٣٠١.

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٣٢٢.

مرادها[١].

وقال الخلال (٣١١هـ) في كتاب السنة[٢]: «أخبرنا أبوبكر المروذي (٢٧٥هـ)، قال: كتب إلي عبد الوهاب في أمر حسين بن خلف البحتري العكبري، وقال: إنه قد تنزه عن ميراث أبيه، فقال رجل قدري: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي، فرد عليه أحمد بن رجاء فقال: إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر. فوضع أحمد بن علي كتاباً يحتج فيه، فأدخلته على أبي عبدالله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ فأخبرته بالقصة، فقال: ويضع كتاباً؟ وأنكر أبوعبدالله عليهما جميعاً: على ابن رجاء حين قال: جبر العباد، وعلى القدري الذي قال: لم يجبر العباد، وأنكر على أحمد بن علي وَضْعَه الكتاب واحتجاجه، وأمر بهجرانه بوضعه الكتاب، وقال لي: يجب على ابن رجاء أن يستغفر ربه لما قال: جبر العباد، فقلت لأبي عبدالله: فما الجواب في هذه المسألة؟ قال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر: ٨].

والحق في مسألة القدر هو ما عليه السلف وأهل السنة والجماعة، فهم متفقون على الإيمان بالقدر، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء؛ أفعال العباد وغيرها، وهم متفقون على إثبات أمره ونهيه ووعده ووعيده، وأنه لا حجة لأحد على الله في ترك مأمور، أو فعل محظور، وهم متفقون ـ أيضاً ـ على أن الله حكيم رحيم، وأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين[٣].

(١) انظر: منهاج السنة ٣/٣٦.
(٢) كتاب السنة ص: ٥٥٢ برقم: ٩٢٥.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/٤٦٦.

ثالثاً: مسألة صفات ا لله (تعالى):

من المسائل المجمع عليها بين سلف الأمة وأئمتها من أهل السنة والجماعة وصف ا لله (تعالى) بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ ؛ فيثبتون له ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله: إثباتاً بلا تمثيل ولا تكييف، ونفياً بلا تعطيل ولا تحريف[(١)].

ولم يكن في عصر الصحابة وكبار التابعين من يعارض النصوص بالعقليات؛ فالخوارج والشيعة حدثوا في آخر خلافة علي رحمه ا لله عنه والمرجئة والقدرية حدثوا في أواخر عصر الصحابة، وهؤلاء كانوا ينتحلون النصوص، حتى ظهرت الجهمية في أواخر عهد التابعين وعارضوا النصوص بعقولهم وآرائهم، وأظهروا القول بنفي الصفات عن ا لله (تعالى)، وأولهم الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبدا لله القسري (١٢٦هـ) الذي خطب الناس يوم الأضحى، وقال: أيها الناس، ضحوا تقبل ا لله ضحاياكم، إني مضح بالجعد بن درهم؛ إنه يزعم أن ا لله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يُكَلِّم موسى تكليماً، تعالى ا لله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه. وشكر له علماء المسلمين ما فعله، كالحسن البصري وغيره[(٢)].

والجعد هذا كان يختلف إلى وهب بن منبه (١١٠ أو ١١٤هـ)، وكان كثير السؤال عن صفات ا لله عز وجل حتى قال له وهب يوماً: ويلك ياجعد، اقصر المسألة عن ذلك، إني لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا ا لله في

---

(١) انظر: الفتوى الحموية ص: ٣١-٣٢.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٥/٢٤٤-٢٤٥، والفرقان بين الحق والباطل ص: ١٤٤.

كتابه أن له يداً ما قلنا ذلك، وأن له عيناً ما قلنا ذلك...وذكر طائفة من الصفات كالعلم والكلام وغير ذلك[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضُلال الصابئين؛ فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام ـ أعني أن الله (سبحانه وتعالى) ليس على العرش حقيقة وإنما استوى بمعنى استولى ونحو ذلك ـ أول ما ظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم ابن صفوان وأظهرها، فنسبت مقالة الجهمية إليه، وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان من طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ . وكان الجعد بن درهم هذا ـ فيما قيل ـ من أرض حرَّان، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ... ولما كان في حدود المائة الثالثة انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته. وكلام الأئمة مثل مالك وسفيان بن عيينة وابن المبارك وأبي يوسف والشافعي وأحمد وإسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافي (٢٢٧هـ) وغيرهم كثير في ذمهم وتضليلهم...»[٢].

وبشر المريسي هذا قال عنه الحافظ الذهبي رحمه الله: «تفقه على أبي

---

(١) انظر : البداية والنهاية ٩/٣٥٠ .

(٢) الفتوى الحموية ص : ٢٤-٢٦.

يوسف، فبرع وأتقن علم الكلام ثم جرَّد القول بخلق القرآن وناظر عليه، ولم يدرك الجهم بن صفوان، إنما أخذ مقالته واحتج لها ودعا إليها »[١].

ونفي الصفات عن الله(تعالى) في الجملة هو قول الجهمية والمعتزلة، وقابلهم أهل الإثبات من الصفاتية كالكلابية والأشعرية والكرامية وجمهور الصوفية وأتباع الأئمة الأربعة، وإن كان بين هؤلاء تفاوت في الإثبات كما بين الجهمية والمعتزلة على مختلف طوائفهم تفاوت في النفي، وهناك طوائف زادوا في الإثبات إلى حد التمثيل كالكرامية والرافضة ونحوهم[٢].

ونسب إلى مقاتل بن سليمان المفسر ـ أيضاً ـ القول بالتشبيه، قال الذهبي رحمه الله: «وظهر بخراسان الجهم بن صفوان ودعا إلى تعطيل الرب عز وجل وخلق القرآن، وظهر بخراسان في قبالته مقاتل بن سليمان المفسر، وبالغ في إثبات الصفات حتى جَسَّم»[٣]. ونقل الذهبي عن ابن حبان أنه قال في مقاتل: «كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان يُشَبِّه الرب بالمخلوقات،وكان يَكْذِبُ في الحديث »[٤] وقال أبو حنيفة رحمه الله: «أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل، ومقاتل مشبِّه»[٥].

---

(١) ميزان الاعتدال ٣٢٢/١ .

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٥١/٦، الفرق بين الفرق ص: ٢١٥ وما بعدها.

(٣) تذكرة الحفاظ ١٥٩/١ـ١٦٠، وانظر: مقالات الإسلاميين ٢٨٣/١ .

(٤) ميزان الاعتدال ١٧٥/٤.

(٥) تأريخ بغداد ١٦٤/١٣، وتهذيب التهذيب ٢٨١/١٠.

وبين جميع هذه الطوائف المخالفة لأهل السنة والجماعة اختلافات ومنازعات وتشقيقات ومجادلات مظانها كتب الفرق والمقالات، وقد يتسلط بعضهم على بعض حتى يقول فيما أثبته من الصفات مثل قوله فيما نفاه، فينفي الجميع فراراً من التناقض، كما قد يُلْزِم المعتزلي الأشعري حتى يقول الأشعري بنفي الصفات جميعها، إذ مخرج الجميع واحد، ويلزم الجهمي المعتزلي حتى يقول بنفي الصفات والأسماء، ثم قد يتسلط على الجميع القرامطة والباطنية الملاحدة حتى يلزموهم بنفي حقائق اليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب، بل ومسائل الأحكام من الصلاة والصيام والحج وغير ذلك؛ حتى قال ابن تيمية رحمه الله: «وبهذه الطريقة: أفسدت الملاحدة على طوائف الناس عقلهم ودينهم حتى أخرجوهم إلى أعظم الكفر والجهالة، وأبلغ الغي والضلالة»[1].

ويقول رحمه الله في موضع آخر مخاطباً نفاة بعض الصفات : «ومن هنا تسلّط عليكم القرامطة والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم من النفاة، وكلام أئمتكم معهم كلام قاصر، يظهر قصوره لمن كان خبيراً بالعقليات، وسبب ذلك تقصيرهم في مناظرتهم حيث سلموا لهم مقدمات عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة، فاحتاجوا إلى إثبات لوازمها، فاضطرهم إما إلى موافقتهم على الباطل، وإما إلى التناقض الذي يظهر به فساد قولهم، وإما إلى العجز الذي يظهر به قصورهم وانقطاعهم، ثم أخذوا يناظرون أهل الإثبات للعلو ونحوه

---

(١) الرسالة التدمرية ص : ٢٧ .

بما به ناظرهم أولئك، ويتسلطون على العاجز عن مناظرتهم من المثبتين كما تسلّط عليهم أولئك، فصاروا بمنزلة من قصَّروا في جهاد من يليهم من الكفار حتى غلبوهم وهزموهم، فقاموا يقاتلون من يليهم من المسلمين كما قاتلهم أولئك الكفار؛ حتى ظهر الباطل والكفر والضلال بتفريطهم أولاً في جهاد من يليهم من الكفار، وعدوانهم ثانياً على من يليهم من المسلمين»[١].

رابعاً: مسألة خلق القرآن:

أول من قال بخلق القرآن: الجعد بن درهم، إلى جانب نفيه للصفات ـ كما تقدم ـ بل هو من فروع نفي الصفات، وتقلّد عنه الجهم هذه المقالة؛ يقول ابن كثير رحمه الله: «وأما الجعد، فإنه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلّد هذا القول عنه»[٢].

ويقول اللالكائي (٤١٨هـ) رحمه الله: «ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال: القرآن مخلوق جعد بن درهم في سني نيف وعشرين [ومائة][٣] ثم جهم بن صفوان»[٤].

والجهم إنما أظهر هذه المقالة لما تسلّط عليه قوم من السُّمنِيَّة، فالتزم نفي الصفات عن الله (تعالى) ومنها صفة الكلام. يقول الإمام أحمد رحمه الله:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٣٧/٧-١٣٨.

(٢) انظر : البداية والنهاية ٩/٣٥٠ .

(٣) هذه الزيادة لا بد منها كما نبه على ذلك المحقق .

(٤) شرح السنة ١/ ٣١٢ .

«فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو ا لله، أنه كان من أهل خراسان من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات وكلام، وكان أكثر كلامه في ا لله (تعالى)، فلقي أناساً من المشركين يقال لهم السُمَنِيَّة فعرفوا الجهم، فقال له: نكلمك، فإن ظهرت حجتُنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتُك علينا دخلنا في دينك، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألستَ تزعم أنَّ لك إلها؟ قال الجهم: نعم. فقالوا له: فهل رأيتَ إلهك؟ قال: لا. قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال:لا. قالوا: فشممت له رائحة؟ قال: لا. قالوا: فوجدت له حساً؟ قال:لا. قالوا: فوجدت له مجسًّا؟ قال: لا. قالوا: فما يدريك أنه إله؟ قال: فتحير الجهم فلم يدر من يعبد أربعين يوماً[1]. ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى، وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح ا لله من ذات ا لله، فإذا أراد أن يُحدث أمراً دخل في بعض خلقه، فتكلَّم على لسان خلقه فيأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء، وهو روح غائبة عن الأبصار. فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة، فقال للسمني : ألست تزعم أن فيك روحاً؟ قال: نعم. فقال: هل رأيت روحك؟ قال: لا. قال: فسمعت كلامه؟ قال: لا. قال: فوجدت له حساً؟ قال: لا. قال: فكذلك ا لله لايرى له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا يشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان، ووجد ثلاث آيات من المتشابه؛ قوله: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١] ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي

---

(١) وذكر اللالكائي عن ابن شوذب أنه قال : ترك ـ يعني الجهم ـ الصلاة أربعين يوماً على وجه الشك...وقد رآه ابن شوذب. شرح السنة ١/٣٧٨-٣٧٩ برقم: ٦٣٠ .

السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾[سورة الأنعام: ٣] ، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[سورة الأنعام: ١٠٣] فبنى أصل كلامه على هذه الآيات، وتأول القرآن على غير تأويله، وكذّب بأحاديث رسول الله ﷺ، وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدّث عنه رسوله كان كافراً، وكان من المشبهة، فأضل بكلامه بشراً كثيراً، وتبعه على قوله رجال من أصحاب أبي حنيفة[1] وأصحاب عمرو بن عبيد بالبصرة، ووضع دين الجهمية»[2].

ثم تبنى المعتزلة القول بخلق القرآن وبثوه في الأمة، وأغروا به الخلفاء: كالمأمون ومن بعده المعتصم، والواثق حتى امتحنوا الناس به وحملوهم عليه، فقُتِل من قُتِل، وضُرِب من ضُرِب، حتى رفع الله هذه المحنة بالمتوكل.

وقد اختلف أهل الفرق في كلام الله وفي القرآن الكريم ــ أي في كونه مخلوقاً اختلافاً واسعاً، وأشهر ذلك ما يلي[3]:

١– مذهب الاتحادية القائلين بوحدة الوجود؛ يقولون: كل كلام في الوجود هو عين كلام الله: نظمه ونثره وحقه وباطله، سحره وكفره، حتى قال عارفهم[4]:

---

(١) لعل المراد : أصحاب أبي حذيفة، وهو واصل بن عطاء، وهذه كنيته، وذلك لعدة أمور منها: ١– أن أبا حنيفة رحمه الله لم يكن في ذلك الوقت. ٢– وأن السياق جمع بينه وبين عمرو ابن عبيد وهو صاحب واصل في الضلال لا أبو حنيفة .

(٢) الرد على الجهمية ص: ١٠٢–١٠٥، وانظر: مختصر العلو ص: ١٦٣ رقم: ١٧١ وصحح إسناده الألباني.

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة ٢٨٦/٢ وما بعدها، ومقالات الإسلاميين٢٥٦/٢ وما بعدها، والإبانة للأشعري ص: ٦٣ وما بعدها، ومجموع فتاوى ابن تيمية٥٢١/٦ ومابعدها، ومنهاج السنة ٣٥٨/٢ .

(٤) هو ابن عربي، والبيت في الفتوحات المكية له ١٤١/٤ لكن بلفظ :

ألا كل قول في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه

وانظر: جامع الرسائل لابن تيمية ـ المجموعة الأولى ص: ١٥٧.

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهذا المذهب مبني على أصلهم الفاسد، وهو أن الله سبحانه وتعالى هو عين هذا الوجود، فصفاته هي صفات الله (تعالى) ، وكلامه هو كلام الله (تعالى).

٢- مذهب الفلاسفة المتأخرين أتباع أرسطو ، والمنتسبين إلى الإسلام؛ كابن سينا، والفارابي وغيرهم، وهو أن كلام الله فيض فاض من العقل الفعَّال على النفوس الفاضلة الزكية، بحسب استعدادها، فأوجب لها ذلك الفيض تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته منه، والأصل الذي قادهم إلى هذا هو عدم إقرارهم بالرب (سبحانه وتعالى) الذي عرفت به الرسل، ودعت إليه، وهو القائم بنفسه، المباين لخلقه، العالي فوق سمواته وفوق عرشه، الفعال لما يريد، العالم بجميع المعلومات، القادر على كل شيء، فهم أنكروا ذلك كله.

٣- مذهب الجهمية النفاة لصفات الرب (تعالى)، ومنهم المعتزلة، أن كلام الله مخلوق، ومن بعض مخلوقاته، فلم يقم بذاته سبحانه. واتفقوا على هذا الأصل، واختلفوا في فروعه؛ قال الأشعري رحمه الله: «اختلفت المعتزلة في كلام الله سبحانه هل هو جسم أم ليس بجسم، وفي خلقه على ستة أقاويل»[١] ثم سردها. قال ابن القيم رحمه الله: «فلمَّا أصَّلُوا أنه لا يقوم به وصف، ولا فعل كان من فروع هذا الأصل أنه لم يتكلم

---

(١) مقالات الإسلاميين ١/٢٦٧ .

بالقرآن ولا بغيره، وأن القرآن مخلوق، وطرد ذلك إنكار ربوبيته وإلهيته...»[1].

٤- مذهب الكلابية: أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة، وأنه لازم لذات الرب كلزوم الحياة والعلم، وأنه لايُسمع على الحقيقة، والحروف والأصوات حكاية له، دالة عليه، وهي مخلوقة. وهو أربع معان في نفسه: الأمر والنهي والخبر والاستفهام، والمعنى المتلو المقروء غير مخلوق، والأصوات والحروف التي يؤدى بها ذلك المعنى وهي تلاوة العباد مخلوقة، وهذا مبني على أن الكلام لابد أن يقوم بالمتكلم، والحروف الأصوات حادثة فلا يمكن أن تقوم بذات الرب (تعالى) ؛ لأنه ليس محلا للحوادث، فهي مخلوقة منفصلة عن الرب، والقرآن اسم لذلك المعنى وهو غير مخلوق.

٥- مذهب الأشعري ومن وافقه: أنه معنى واحد قائم بذات الرب وهو صفة أزلية، ليس بحرف ولا صوت، ولا ينقسم، ولا له أبعاض ولا أجزاء، وهو عين الأمر وعين النهي، وعين الخبر وعين الاستخبار، وهو عين التوراة والإنجيل والقرآن والزبور، وكونه أمراً ونهياً وخبراً واستخباراً صفات لذلك المعنى الواحد، لا أنواع له. وكونه قرآناً وتوراة وإنجيلاً إنما هو تقسيم للعبارات عنه لا لذاته، بل إذا عُبِّر عن ذلك المعنى بالعربية كان قرآناً، وإن عُبِّر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عُبِّر عنه بالسريانية كان إنجيلاً. فالمعنى واحد وهذه الألفاظ عبارة عنه،

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ٢/٢٩٠.

وهي خلق من المخلوقات. قال ابن القيم رحمه الله: «وجمهور العقلاء يقولون: إن تصور هذا المذهب كاف في الجزم [ببطلانه][1]، وهو لا يتصور إلا كما تتصور المستحيلات الممتنعات»[2].

٦- مذهب الكرامية: أن كلام الله متعلق بالمشيئة والقدرة، قائم بذات الرب (تعالى) وهو حروف وأصوات مسموعة، وهو حادث بعد أن لم يكن، أي أن الله (تعالى) صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما.

٧- مذهب السالمية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث: أن الكلام صفة قديمة قائمة بذات الرب (تعالى) لم يزل ولا يزال، لايتعلق بقدرته ومشيئته، ومع ذلك هو حروف وأصوات وسور وآيات؛ سمعه جبريل من الرب عز وجل، وسمعه موسى بلا واسطة، ويُسمعه سبحانه من يشاء. وإسماعه نوعان: بواسطة وبغير واسطة، ومع ذلك فحروفه وكلماته لا يسبق بعضها بعضا، بل هي مقترنة: الباء مع السين مع الميم في آن واحد، ولم تكن معدومة في وقت من الأوقات، ولا تُعْدُم، بل لم تزل قائمة بذاته (سبحانه وتعالى) قيام صفة الحياة والسمع والبصر. وجمهور العقلاء قالوا: تصور هذا المذهب كاف في الجزم ببطلانه.

والبراهين العقلية والأدلة القطعية شاهدة ببطلان هذه المذاهب كلها، وأنها مخالفة لصريح العقل وصحيح النقل .

هذا أشهر ما قيل في المسألة، وكل طائفة من هذه الطوائف بين أهلها

---

(١) في الأصل في [بطلانه] ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة ٢/٢٩٢ .

خلاف ونزاع وخصام، فضلاً عما يكون بينها وبين نظيراتها من الطوائف، هذا إذا تذكرنا أن الخوض في هذه المسألة هو ـ كما تقدم ـ سبب من أسباب تسمية هذا الفن بعلم الكلام.

والقول الحق في هذه المسألة قول أتباع الرسل، حيث أثبتوا لله (تعالى) صفة الكلام كما أثبتوا له سائر الصفات، وأنه يتكلم إذا شاء بما شاء، وأن كلام الله مسموع مقروء متلو، والقرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلامه حقاً، لا تأليف ملك ولا بشر، وأن القرآن جميعه حروفه ومعانيه نفس كلام الله الذي تكلم به ليس بمخلوق، ولا بعضه قديماً وهو المعنى، وبعضه مخلوقاً وهو الكلمات والحروف، ولابعضه كلامه، وبعضه كلام غيره، ولا ألفاظ القرآن وحروفه ترجمة ترجم بها جبريل أو محمد عليهما السلام عما قام بالرب من المعنى من غير أن يتكلم الله به، بل القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه، تكلم الله بها حقيقة. والقرآن اسم لهذا النظم العربي الذي بلغه الرسول ﷺ عن جبريل عن رب العالمين؛ فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء، لا الوضع والإنشاء كما يقول أهل الزيغ والاعتداء.[1]

---

(١) انظر : مختصر الصواعق ٢/٢٩٤ .

المطلب الرابع
خصائص الجدل عند المتكلمين

للجدل عند المتكلمين خصائص يخالف بها الجدل عند أهل السنة والجماعة، أذكر طائفة منها:

أولاً: قلة العلم بالشرع:

قال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولايعدون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم»[(١)].

فهم أضعف الناس علماً ويقيناً وفهماً، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ويشهده الناس منهم، وشواهده كثيرة، وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل، ومعلوم أن هذا ليس بعلم، ولا فيه منفعة، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامي، وإنما العلم في جواب المسألة[(٢)].

ويذكر أبو العباس القرطبي (٦٥٦هـ) رحمه الله وهو يصف حال المتكلمين ـ بأنهم معرضون عن الكتاب والسنة إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة، وقوانين جدلية وأمور صناعية مدار أكثرها على آراء

(١) جامع بيان العلم ١١٧/٢.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٧/٤-٢٨.

سوفسطائية، أو مناقضات لفظية ينشأ بسببها على الآخذ شبه ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبه لا يقوى على حلها، وكم من منفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها[1].

ثانياً: الجدل الكلامي لا علم فيه ولا يحمل على العمل:

فهو ثرثرة وتشدق وسفسطة، قال الإمام مالك رحمه الله: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله وفي الله عز وجل فالسكوت أحب إلي؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل »[2]. قال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله: «...والذي قاله مالك رحمه الله عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديما وحديثا من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع: المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة فعلى ما قال مالك رحمه الله، إلا أن يضطر أحد إلى الكلام، فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل، وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشي ضلالة عامة أو نحو ذلك»[3].

وقال ابن قتيبة رحمه الله: «وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون في معادلة الصبر بالشكر، وفي تفضيل أحدهما على الآخر، وفي الوساوس

(١) انظر: المفهم ـ كتاب العلم ـ باب كراهة الخصومة في الدين... ص : ١١١-١١٢ (مخطوط).

(٢) جامع بيان العلم ١١٦/٢.

(٣) المرجع السابق ١١٦/٢.

والخطرات ومجاهدة النفس، وقمع الهوى. فقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر[(١)] فهم دائبون يخبطون في العشوات، قد تشعبت بهم الطرق، وقادهم الهوى بزمام الردى»[(٢)].

ثالثاً: عدم الجزم واليقين فيما يعتقدونه ويقولونه:

تحدث أبوحامد الغزالي رحمه الله عن مضرة الكلام ـ والجدل منه ـ فقال: «أما مضرته فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، فذلك مما يحصل في الابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص. فهذا ضرره في الاعتقاد الحق. وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد [المبتدعة][(٣)] للبدعة، وتثبيته في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم، ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ...»[(٤)].

ويقول ابن تيمية رحمه الله: «إنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزما بالقول في موضع، وجزماً بنقيضه، وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين... ولهذا قال بعض السلف ـ عمر بن عبدالعزيز أو غيره ـ: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»[(٥)].

---

(١) هذه الألفاظ دارجة على ألسنة المتكلمين ، وحافلة بها مصنفاتهم .

(٢) اختلاف اللفظ ص : ٩ .

(٣) في الأصل [المبدعة] والصواب ما أثبته .

(٤) إحياء علوم الدين ١/٩٧ .

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٥٠.

رابعاً: كثرة الاختلاف والتنازع:

من السمات البارزة لأهل الكلام: الاختلاف والتنازع؛ حتى بين أهل الطائفة الواحدة والمذهب الواحد، ولا تكاد تجد اثنين منهم على وفاق تام في غالب مسائلهم؛ فهذا أبو هاشم خالف أباه في تسع وعشرين مسألة، وكان أبوه يخالف أبا الهذيل في تسع عشرة مسألة. وبين معتزلة بغداد ومعتزلة البصرة اختلاف كثير وفاحش؛ يُكفِّر بعضهم بعضاً، وذُكر أن الاختلاف بينهم في أكثر من ألف مسألة[1]. قال مطرف بن الشخير (٩٥هـ) رحمه الله: «لو كانت هذه الأهواء كلها هوى واحداً لقلنا: الحق فيه، فلما تشعَّبت واختلفت، عرف كل ذي عقل أن الحق لايتفرق»[2].

وقول ابن قتيبة رحمه الله: «وقد كان يجب ـ مع ما يدعونه من معرفة القياس، وإعداد آلات النظر ـ أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحُسَّاب والمُسَّاح والمهندسون؛ لأن آلاتهم لاتدل إلا على عدد واحد، وإلا على شكل واحد، وكما لا يختلف حذاق الأطباء في الماء، وفي نبض العروق؛ لأن الأوائل قد وقفوهم من ذلك على أمر واحد، فما بالهم أكثر الناس اختلافاً لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين...ولو كان اختلافهم في الفروع والسنن لاتسع لهم العذر عندنا ، وإن كان لا عذر لهم مع ما يدعونه لأنفسهم، كما اتسع لأهل الفقه ووقعت لهم الأسوة بهم، ولكن اختلافهم في التوحيد وفي صفات الله (تعالى)، وفي قدرته، وفي نعيم أهل الجنة وعذاب

---

(١) انظر : التنبيه والرد ـ الملطي ص : ٤٠ .

(٢) شرح السنة ـ اللالكائي ١/١٤٩ برقم : ٣١٢ .

أهل النار، وعذاب البرزخ، وفي اللوح وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله (تعالى) ...

ولو أردنا ـ رحمك الله ـ أن ننتقل عن أصحاب الحديث، ونرغب عنهم إلى أصحاب الكلام ونرغب فيهم، لخرجنا من اجتماع إلى تشتت، وعن نظام إلى تفرق، وعن أنس إلى وحشة، وعن اتفاق إلى اختلاف...» [(١)].

خامساً: التفريق بين النصوص الشرعية في الإيمان بها:

وهو إيمانهم ببعض النصوص دون بعض، وذلك نتيجة اعتمادهم العقل ـ أعني عقولهم هم، وإلا فالعقل الصريح لا يعارض الشرع الصحيح ـ فما عرفوه بعقولهم هو العمدة، وإذا وجدوا في الشرع ما يَسْلَم ـ بزعمهم ـ من قوادح العقل احتجوا به معضدين لا معتمدين؛ ولهذا اختلفت عليهم نصوص الكتاب والسنة، فما وافق أصولهم العقلية فهو ـ عندهم ـ المحكم، وما خالفها فهو المتشابه، ولهم معه أحد أمرين: تأويله، إن أمكن ذلك. أو تفويض العلم به إلى الله (تعالى) ، وإن كان أخبار آحاد، فردها بالتضعيف هو أيسر السبل عندهم.

فنفاة الصفات كلها أو بعضها لا يلتفتون إلى نصوص الإثبات على كثرتها وتنوعها، وغلاة الصفاتية من المشبهة لا يلتفتون إلى نصوص التنزيه ونفي المماثلة على وضوحها وإحكامها.

ومثل هذا يقال في القدرية والجبرية، حيث احتجت القدرية، نفاة القدر،

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص: ١٤-١٦.

بالنصوص التي فيها إثبات المشيئة والاختيار للمخلوق، ولم تلتفت إلى النصوص التي فيها عموم مشيئة الرب (تعالى) وقدرته، وعكسهم الجبرية.

ومثله يقال في المرجئة والوعيدية في باب الأسماء والأحكام، حيث احتجت المرجئة بنصوص الوعد دون نصوص الوعيد، وعكسهم الوعيدية الذين احتجوا بنصوص الوعيد دون نصوص الوعد.

يقول محمد بن كعب القرظي رحمه الله: «لا تخاصموا هؤلاء القدرية ولا تجالسوهم... والذي نفس محمد بيده لوددت أن يميني هذه تقطع على كبر سني، وأنهم أتموا آية من كتاب الله عز وجل، ولكنهم يأخذون بأولها ويتركون آخرها، ويأخذون بآخرها ويتركون أولها، والذي نفسي بيده لأبليس أعلم بالله عز وجل منهم يعلم من أغواه، وهم يزعمون أنهم يغوون أنفسهم ويرشدونها»[1].

وقال الدارمي (٢٨٠هـ) رحمه الله: «وبلغنا أن بعض أصحاب المريسي قال له: كيف تصنع بهذه الأسانيد الجياد التي يحتجون بها علينا في رد مذاهبنا مما لا يمكن التكذيب بها...فقال المريسي: لا تردوه تفتضحوا، ولكن غالطوهم بالتأويل، فتكونوا قد رددتموها بلطف، إذ لم يمكنكم ردها بعنف»[2].

وهذا التفريق بين النصوص في الإيمان والاعتماد والاحتجاج هو من

---

(١) الشريعة ـ الآجري ص : ٢٢٢ .

(٢) رد الدارمي على بشر المريسي ص : ٢٠٠-٢٠١ .

أسباب كثرة الاختلاف والتفرق، بل هو ـ أيضاً ـ من أسباب انكسار أهل الكلام أمام خصومهم في المناظرة ونحوها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لأن الرد على أهل الباطل لا يكون مستوعباً إلا إذا اتُّبِعَت السنة من كل الوجوه، وإلا فمن وافق السنة من وجه وخالفها من وجه طمع فيه خصومه من الوجه الذي خالف فيه السنة، واحتجوا عليه بما وافقهم عليه من تلك المقدمات المخالفة للسنة. وقد تدبرت عامة ما يحتج به أهل الباطل على من هو أقرب إلى الحق منهم فوجدته إنما تكون حجة الباطل قوية لما تركوه من الحق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه، فيكون ما تركوه من ذلك الحق من أعظم حجة المبطل عليهم...»[1].

سادساً: التزام اللوازم الفاسدة:

وذلك فراراً من الوقوع في التناقض ـ بزعمهم ـ لكن التناقض لازم لهم فيما فروا إليه غالباً:

فمنكر بعض الصفات بحجة تعدد القدماء، يلزمه التناقض فيما أثبته، فإن نفاها جميعاً، فهو لازم له فيما أثبته من الأسماء، فإن نفى الأسماء والصفات فهو لازم له في صفة الوجود، فإن نفاها يكون قد نفى وجود مَنْ وجوده أظهر من كل موجود، والكفر لازم له لا محالة. يقول ابن تيمية رحمه الله: «استطالت الفلاسفة الدهرية على المتكلمين بالتزامهم الأقوال الفاسدة؛ فلا للإسلام نصروا، ولا لعدوه كسروا، بل قد خالفوا السلف والأئمة وخالفوا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٦/٢١٠-٢١١.

العقل والشرع، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم من الفلاسفة الدهرية والملاحدة»[١].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «المتكلمون قد يعتقدون شيئاً يرونه صحيحاً، فيلتزم أحدهم لوازم مخالفة للشرع والعقل كما فعل طوائف من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية وغيرهم، فيجيء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ما التزمه، ويلتزم هو لوازم أخر لطردها، فيقع ـ أيضاً ـ في مخالفة الشرع والعقل»[٢]. وذكر رحمه الله عن المعتزلة أنهم احتجوا بحجج عقلية ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، أو تَلَقَّوْها عَمَّن احتج بها من غير أهل الإسلام، فاحتاجوا أن يطردوا أصول أقوالهم التي احتجوا بها لتسلم عن النقض والفساد، فوقعوا في أنواع من رد معاني الأخبار الإلهية، وتكذيب الأحاديث النبوية[٣].

وذكر شيخ الإسلام في موضع آخر استدلال المتكلمين على حدوث العالم بحدوث الأعراض، وهي صفات الأجسام القائمة بها وامتناع خلو الجسم عن الصفات، وأن ما لا يخلو عنها فهو محدث، وعلى هذا نفوا الصفات عن الله (تعالى)؛ لأن إثباتها يستلزم الجسمية على حد زعمهم، ثم ذكر رحمه الله أن من اعتمد على هذه الطريقة في أصل دينه فأحد الأمرين

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/١٥٧ (بتصرف).
(٢) النبوات ص: ٤١ (بتصرف).
(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٧/١٠٦.

لازم له : إما أن يطلع على ضعفها، وإما أن يلتزم لأجلها لوازم معلومة الفساد في الشرع والعقل؛ كما التزم الجهم لأجلها فناء الجنة والنار، والتزم أبو الهذيل لأجلها انقطاع حركات أهل الجنة، والتزم قوم لأجلها ــ كالأشعري وغيره ـ أن الماء والهواء له طعم ولون ورائحة ونحو ذلك، والتزم قوم لأجلها وأجل غيرها: أن جميع الأعراض كالطعم واللون وغيرهما لا يجوز بقاؤها بحال، والتزم طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم نفي صفات الرب مطلقاً، أو نفي بعضها؛ ولهذا التزموا القول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله (تعالى) في الآخرة، وعلوه على عرشه إلى أمثال ذلك من اللوازم التي التزمها من طرد مقدمات هذه الحجة التي جعلها المعتزلة ومن اتبعهم أصل دينهم[1].

ومن أمثلة ما يلتزمه بعض المبتدعة عند مضايق المناظرات من اللوازم الفاسدة ما قاله هشام بن الحكم الرافضي حين قال له رجل : أترى الله عز وجل في فضله وكرمه وعدله كلفنا ما لا نطيق ثم يعذبنا ؟ فقال هشام : قد والله فعل! ولكننا لا نستطيع أن نتكلم[2].

سابعاً: اعتمادهم الدليل العقلي:

وذلك بإعراضهم عن الدليل الشرعي؛ بحجة أن العقلي قطعي وأن الشرعي ظني، ومع ذلك فاختلافهم في العقل واسع لا يكاد ينحصر؛ ولهذا لا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٣٠٣-٣٠٥ .

(٢) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ٢/١٤٢ .

تجد لأحدهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل أو يوجبه، بل منهم من يزعم أن العقل جَوَّز وأوجب ما يدعي الآخر أن العقل أحاله، فياليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة، فرضي الله عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء[1].

يقول ابن قتيبة رحمه الله: «وقد تدبرتُ ـ رحمك الله ـ مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون ما لا يعلمون، ويفتنون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل ولا يتهمون آراءهم في التأويل، ومعاني الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر والكيفية والأينية[2]، ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما لوضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة، وحب الأتباع، واعتقاد الإخوان بالمقالات، والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضاً، ولو وجد لهم من يدعي النبوة أو الربوبية لوجد على ذلك أتباعاً وأشياعاً، وقد كان يجب مع ما يدعونه من معرفة القياس، وإعداد آلات النظر أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحُسَّاب والمُسَّاح والمهندسون، فما بالهم أكثر الناس اختلافاً، ليس منهم واحد إلا وله مذهب في الدين يدان برأيه وله عليه

---

(١) انظر : الحجة للأصبهاني ٢/٤٥٥ برقم : ٤٧٦ ، وشرح السنة ١/١٤٤ برقم : ٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) هذه من ألفاظ المتكلمين جارية على ألسنتهم ، ومذكورة في كتبهم .

تبع»[١].

ثامناً: رد البدعة ببدعة أخرى:

وهذا غالب عليهم وظاهر فيهم، وسبب ذلك إعراضهم عن الشرع المنزل، وإقبالهم على الأوهام والظنون التي يسمونها عقليات: فتعمق قوم منهم في النظر وزعموا أنهم يريدون تصحيح التوحيد، وذلك بنفي التشبيه عن الخالق، فأبطلوا الصفات، وهم في ذلك على تفاوت، فلما رأى قوم إفراط هؤلاء في النفي، عارضوهم بالإفراط في التمثيل فقالوا بالتشبيه المحض[٢].

وقال قوم منهم بنفي القدر وقدرة الله (تعالى) على أفعال المكلفين، حتى جعلوهم فاعلين لما لا يشاء الله (تعالى)، وقادرين على مالا يريد. فعارضهم قوم من أهل الإثبات للقدر وقابلوا غلوهم بغلو، فقالوا بالجبر المحض، وجعلوا العبد المأمور المنهي المكلّف لا يستطيع من الخير والشر شيئاً، ولا يفعل على الحقيقة[٣].

ولما أفرط المعتزلة في إثبات الحسن والقبح العقليين، وقالوا بوجوب فعل الأصلح على الله (تعالى)، قابلهم الأشاعرة بنفي ذلك مطلقاً، وإنكار أن

(١) تأويل مختلف الحديث ص : ١٣-١٤ .

(٢) انظر : اختلاف اللفظ ـ ابن قتيبة ص : ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص : ١٩-٢٠ .

يكون في الأشياء حُسْن وقُبْح يعرفان بالعقل، بل الحَسَن ما حسَّنه الشرع والقَبيح ما قبَّحه الشرع[(١)].

وهؤلاء الوعيدية من الخوارج والمعتزلة أفرطوا في باب الإيمان وجعلوا الأعمال شرط صحة فيه، فقالوا بكفر مرتكب الكبيرة أو خروجه من الإيمان، وعدم دخوله الكفر كما قالته المعتزلة، وبتخليده في النار إن مات من غير توبة، فقابلهم المرجئة، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، وإن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان مستحق لدخول الجنة ابتداء. إلى غير ذلك من البدع التي ظهرت نتيجة الرد على بدع أخرى. قال ابن تيمية رحمه الله: «واكثر المتكلمين يردون باطلا بباطل، وبدعة ببدعة»[(٢)].

وقد يغلو بعض أهل الحق في إنكار بعض البدع، فيقع في التزام بدعة جديدة، كما قيل في تعليل موقف أبي حنيفة وبعض الفقهاء (رحمهم الله) في باب الإيمان، وقولهم بشيء من الإرجاء، إن ذلك كان في مقابل الرد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة .

وكما يروى عن مسلم بن أبي مريم أنه كان شديداً على القدرية، عائباً لهم ولكلامهم، فانكسرت رجله، فتركها و لم يجبرها، فكُلِّم في ذلك، فقال : يكسرها هو وأجبرها أنا، لقد عاندته إذاً[(٣)].

(١) انظر : الرد على المنطقيين ص : ٤٢٠-٤٢١ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٧/١٣.

(٣) انظر : عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ١٤١/٢-١٤٢ .

تاسعاً: استعمالهم المصطلحات المبتدعة:

وهي المأخوذة عن فلاسفة اليونان وأصحاب الديانات الأخرى، وتركوا المصطلحات الشرعية، مما أوقعهم في الإجمال والإيهام، كألفاظ: الجسم والحيز والمكان والجهة ونحوها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض إنكاره لفظ الجبر: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على إنكار ذلك وذم من يطلقه وإن قصد به الرد على القدرية ... وقالوا: هذا ردَّ بدعة ببدعة، وقابَلَ الفاسد بالفاسد، والباطل بالباطل»[1]؛ ولهذا أنكر الأئمة ـ كالثوري والأوزاعي والزبيدي وأحمد بن حنبل وغيرهم ـ على من قال: جَبَرَ الله العباد، وقالوا: الجبر لا يكون إلا من عاجز كما يجبر الأب ابنته على خلاف مرادها[2].

فالأئمة إذا ذكرت لهم هذه الألفاظ المجملة لم يوافقوا عليها: لا إثباتاً ولا نفياً، بعكس أهل البدع الذين ابتدعوها وجعلوها هي الأصل المعتمد والمحكم الذي يجب اعتقاده والبناء عليه، ثم نظروا في الكتاب والسنة: فما أمكنهم أن يتأوَّلوه على قولهم تأوَّلوه، وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة: فجعلوا بدعهم أصلاً محكماً وما جاء به الرسول ﷺ فرعاً لما أسَّسُوه من معقولاتهم، ومشكلاً إذا لم يوافقه. وهذا هو أصل دين الجهمية والقدرية وأمثالهم، وهو أصل دين الملاحدة من الفلاسفة الباطنية. والواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلاً في جميع هذه الأمور، ثم يرد ما تكلم الناس فيه إلى ذلك، ويبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٣٢٢.

(٢) انظر: منهاج السنة ٣/٣٦.

الموافقة للكتاب والسنة فتقبل، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فترد.[١]

عاشراً: تعصب المتكلمين لمذاهبهم وعدم رجوعهم إلى الحق:

وذلك اتباعاً لأهوائهم، وهو الغالب عليهم، لا سيما في حال الصحة والأمن، بل تجدهم ينافحون عن مذاهبهم ، ويناظرون عليها، طالبين تقريرها وإشاعتها، والظهور على غيرهم؛ ولهذا فرجوعهم عنها عزيز.

يقول أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله: «قال علماء السلف ما وجدنا أحداً من المتكلمين في ماضي الأزمان إلى يومنا هذا رجع إلى قول خصمه، ولا انتقل عن مذهبه إلى مذهب مناظره، فدل على أنهم اشتغلوا بما تركه خير من الاشتغال به...».[٢]

وقال رجل لأيوب بن أبي تميمة العنزي (١٣١هـ): يا أبابكر، إن عمرو بن عبيد قد رجع عن قوله. قال سلام ـ أحد الرواة ـ : وكان الناس قد قالوا ذلك تلك الأيام إنه قد رجع ، قال أيوب: إنه لم يرجع. قال: بلى، إنه قد رجع. قال أيوب: إنه لم يرجع، قالها غير مرة، ثم قال أيوب : أما سمعت إلى قوله ـ يعني في الحديث ـ : «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، ثم لا يعودون فيه حتى يرجع السهم إلى فُوقه[٣] إنه لا يرجع أبدا»[٤].

---

(١) تفسير سورة الإخلاص ـ ابن تيمية ص : ١٢١-١٢٢ .

(٢) الحجة في بيان المحجة ١/١٠٠-١٠١.

(٣) الفُوق من السهم موضع الوتر . انظر : لسان العرب ٣١٩/١٠ مادة فوق .

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد ص : ١٥١ ح : ٨١٢ ، وانظر : شرح السنة ــ اللالكائي ١٤١/١ برقم : ٢٨٦. والحديث المذكور موجود في كتب السنة بعدة روايات، وهذه الرواية في صحيح البخاري ٥٣٥/١٣-٥٣٦ (فتح الباري) كتاب التوحيد ـ باب قراءة الفاجر والمنافق ...ح : ٧٥٦٢.

وقد يصل التعصب ببعضهم إلى أبشع صوره، كما في كلام لعمرو بن عبيد المعتزلي الذي رواه عنه الخطيب البغدادي رحمه الله، وقد سمع عمرو حديثاً يخالف مذهبه، فقال: «لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعت زيد بن وهب (٨٣هـ) يقول هذا ما أجبته، ولو سمعت عبدالله بن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله (تعالى) يقول هذا لقلت له: ليس على هذا أخذت ميثاقنا»[١].

حادي عشر: إحراج الخصم بالمغاليط وادعاء محاصرته:

وذلك بأن يجعلوه بين خيارين ـ كما في زعمهم ـ إما أن يختار قولهم ويقر به، ويخضع له، وإما أن يختار قولاً يجتمع هو وهم على إنكاره، فإذا اختاره جعلوه سبيلاً للتشنيع به عليه، والتشهير به، ونسبته إلى أبطل الباطل. يقول الإمام أحمد رحمه الله وهو يناقش مذهب الجهم في نفي الصفات وادعائه خلق القرآن: «ثم إن الجهم ادعى أمراً آخر وهو من المحال، فقال: أخبرونا عن القرآن: أهو الله أو غير الله؟ فادعى في القرآن أمراً يوهم الناس، فإذا سئل الجاهل عن القرآن هو الله أو غير الله، فلا بد له من أن يقول بأحد القولين، فإن قال : هو الله قال له الجهمي: كفرت. وإن قال هو غير الله. قال: صدقت، فلم لا يكون غير الله مخلوقاً، فيقع في نفس الجاهل من ذلك ما يميل به إلى قول الجهمي. وهذه المسألة من الجهمي من المغاليط.

(١) تأريخ بغداد ١٢/١٧٢ ، ونحوه في السنة لعبد الله بن أحمد ص: ١٥٣ ح: ٨٢٨، وانظر: ميزان الاعتدال ٣/٢٧٨ ، والتنكيل للمعلمي ١/٢٦ .

فالجواب للجهمي إذا سأل فقال: أخبرونا عن القرآن هو الله أو غير الله؟ قيل له: وإن الله جل ثناؤه لم يقل في القرآن: إن القرآن أنا، ولم يقل غيري، وقال هو كلامي، فسمَّيْنَاه باسم سمَّاه الله به، فقلنا كلام الله. فمن سمَّى القرآن باسم سمَّاه الله به كان من المهتدين، ومن سماه باسم غيره كان من الضالين»[١].

وقال بشر المريسي لعبد العزيز الكناني في مناظرتهما المشهورة: «تقول: إن القرآن شيء أم غير شيء، فإن قلت: إنه شيء، فقد أقررت أنه مخلوق إذ كانت الأشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل، وإن قلت إنه ليس بشيء فقد كفرت لأنك تزعم أنه حجة الله على خلقه وأن حجة الله ليست بشيء» فقال عبدالعزيز في الجواب: «ما رأيت أعجب منك! تسألني وتجيب نفسك عني، وتكفرني ولم تسمع كلامي ولا قولي... فإني أحسن أن أعبر عن نفسي، وأحتج لمقالتي ومذهبي...» ثم بيَّن رحمه الله أنه إن كان المراد بالشيء إثبات الوجود ونفي العدم فالقرآن شيء، وإن كان المراد بالشيء أنه اسم للقرآن وأنه كالأشياء المخلوقة، فالقرآن ليس كذلك. ثم استدل لمذهبه - وهو الحق - بما بينه وأظهره على مقالة بشر حتى انقطع عن الجواب، وشهد بذلك أمير المؤمنين والحاضرون[٢].

---

(١) الرد على الجهمية ص : ١١٠ .

(٢) انظر : الحيدة ص : ٢٨ فما بعدها .

ثاني عشر: ضعف المتكلمين في المناظرة:

وذلك عند مناظرتهم لأهل الديانات الأخرى أو ممن هو أسوأ حالاً منهم؛ كما روى عمرو بن الهيثم قال: «خرجنا في سفينة وصحبنا فيها قدري ومجوسي فقال القدري للمجوسي: أسلم. قال المجوسي: حتى يريد الله. فقال القدري: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد. قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان، هذا شيطان قوي» وفي رواية: فأنا مع أقواهما[١].

ويذكر ابن تيمية رحمه الله أن ردود المتكلمين على أهل الديانات الأخرى غير كافية، وهو يلومهم على عدم عنايتهم العناية اللائقة بهذا الهدف ويقول رحمه الله: «وكثير من المصنفين في الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون: إنه يعلم بالعقل؛ مثل تثليث النصارى، ومثل تكذيب محمد، ولا يناظرونهم في غير هذا من أصول الدين، وهذا تقصير منهم ومخالفة لطريقة القرآن، فإن الله يبين في القرآن ما خالفوا به الأنبياء، ويذمهم على ذلك، والقرآن مملوء من ذلك، إذ كان الكفر والإيمان يتعلق بالرسالة والنبوة، فإذا تبين ما خالفوا فيه الأنبياء ظهر كفرهم»[٢].

ويبين رحمه الله في موضع آخر قصور مناظرة أهل الكلام للفلاسفة المشركين، فيقول: «ولهذا كانت مناظرة كثير من أهل الكلام لهم مناظرة قاصرة، حيث لم يعرف أولئك حقيقة ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه

---

(١) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ١٤٢/٢ ، وحز الغلاصم ص : ٣١ ، وشرح الطحاوية ٣٢٣/١ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨٨/١٩.

وما ذمَّه من الشرك. ثم يكشفون بنور النبوة ما عند هؤلاء من الضلال؛ كما ناظرهم الشهرستاني في كتاب الملل والنحل[(١)] لما ذكر فصلاً في المناظرة بين الحنفاء، وبين الصابئة المشركين، فإن الحنفاء يقولون بتوسط البشر، وأولئك يقولون بتوسط العلويات. فأخذ يبين أن القول بتوسط البشر أولى من القول بتوسط العلويات. ومعلوم أنه إذا أخذ التوسط على ما يعتقدونه في العلويات كان قولهم أظهر. فكان الرد عليهم ضعيفاً لضعف العلم بحقيقة دين الإسلام؛ فإن الحنفاء ليس فيهم من يقول بإثبات البشر وسائط في الخلق والتدبير والرزق والإحياء والإماتة، وسماع الدعاء وإجابة الداعي؛ بل الرسل كلهم وأتباع الرسل متفقون على أنه لا يعبد إلا الله وحده فهو الذي يُسأل ويُعبد، وله يُصلى ويُسجد، وهو الذي يجيب دعاء المضطرين، ويكشف الضر عن المضرورين، ويغيث عباده المستغيثين...»[(٢)].

ثالث عشر: اشتماله على ما أوجب تسلطهم وتسلط خصومهم عليهم:

ويتبين ذلك فيما يلي:

١- مخالفتهم الطرق الشرعية والعقلية الصحيحة كانت سبباً في تسلط الفلاسفة والملاحدة عليهم حيث ألزموهم باللوازم الفاسدة؛ حتى أخرجوهم إلى أنواع البدع والضلالات. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وصف المتكلمين: «وهم وإن كان لهم من نصر بعض

---

(١) ٢/٩ وما بعدها من كتاب الملل والنحل للشهرستاني .

(٢) الرد على المنطقيين ص : ٥٣٦-٥٣٧.

الإسلام أقوال صحيحة، فهم فيما خالفوا فيه السنة سلّطوا عليهم وعلى المسلمين أعداء الإسلام، فلا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا»[١].

ويقول رحمه الله مخاطباً نفاة بعض الصفات لله (تعالى): «ومن هنا تسلّط عليكم القرامطة والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم من النفاة، وكلام أئمتكم معهم كلام قاصر يظهر قصوره لمن كان خبيراً بالعقليات؛ وسبب ذلك تقصيرهم في مناظرتهم حيث سلّموا لهم مقدمات عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة، فاحتاجوا إلى إثبات لوازمها فاضطروهم إما إلى موافقتهم على الباطل، وإما إلى التناقض الذي يظهر به فساد قولهم، وإما إلى العجز الذي يظهر به قصورهم وانقطاعهم»[٢].

ولهذا لما ناظر السمنية جهماً في ذات الله (تعالى) ولم يكن جهم يعرف الطرق الشرعية والعقلية الصحيحة التزم نفي الصفات عن الله (تعالى) النفي المطلق الذي يستلزم تعطيل الرب (تعالى) عن صفاته كلها بل عن وجوده في الحقيقة؛ ولهذا قال علي بن عاصم (٢٠١هـ): «ناظرت جهمياً فتبين من كلامه أنه لا يرى أن في السماء رباً»[٣]، ومر بنا ما رواه عمرو بن الهيثم حين قال: خرجنا في سفينة وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: أسلم. قال المجوسي حتى يريد الله. فقال القدري: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد. قال المجوسي: أراد

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٠٧/٧.
(٢) المرجع السابق ١٣٧/٧.
(٣) المرجع السابق ٢٦١/٦.

ا لله وأراد الشيطان فكان ما أراد الشيطان، هذا شيطان قوي. وفي رواية: فأنا مع أقواهما[(١)].

٢- عدم إيمانهم بالكتاب كله كان سبباً في تسلُّط المتكلمين بعضهم على بعض، كتسلُّط نفاة نصوص المعاد والأسماء والصفات على نفاة الأسماء والصفات دون المعاد. وتسلُّط نفاة الأسماء والصفات على نفاة الصفات دون الأسماء، وتسلُّط نفاة الصفات دون الأسماء على نفاة بعض الصفات. وذلك لبطلان حجة كل فريق في التفريق بين ما أثبته وبين ما نفاه، إذ التفريق بين المتماثلات ممتنع في العقل وباطل في الشرع.

يقول ابن تيمية رحمه ا لله: «وافق الأشاعرة المعتزلة في قولهم إن الشرع لا يعتمد عليه في إثبات الصفات، وإنما المعتمد العقل؛ ولهذا طمع فيهم المعتزلة وطمعت الفلاسفة في الطائفتين بإعراض قلوبهم عما جاء به الرسول، وعن طلب الهدى من جهته، وجعل هؤلاء يعارضون بين العقل والشرع كفعل المعتزلة والفلاسفة، و لم يكن الأشعري وأئمة أصحابه على هذا»[(٢)].

ويقول جمال الدين القاسمي (١٣٣٢هـ) رحمه ا لله: «إن المتكلمين المتأخرين المنسوبين للأشعرية يرجع كثير من مسائلهم إلى مذهب

---

(١) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ١٤٢/٢، وحز الغلاصم ص : ٣١ ، والدليل القويم للعبدري ص : ٦٢ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١٣/٢ بتصرف.

الجهمية كما يدريه المتبحر في الكلام، والموازن بين أقوال هؤلاء وأقوال السلف»[(١)].

ومن أمثلة ذلك ما قاله ابن تيمية رحمه الله وهو يصور موقف ابن كلاب والأشعري ونحوهما من كلام الله (تعالى)، فقال رحمه الله: «فلما نبغ ابن كلاب وأضرابه ـ يعني القلانسي والمحاسبي والأشعري ونحوهم ـ وحاولوا الرد على المعتزلة من طريق العقل، وهم لا يخبرون أصول السنة، ولا ما كان عليه السلف ولا يحتجون بالأخبار الواردة في ذلك زعماً منهم أنها أخبار آحاد وهي لا توجب علماً، وألزمتهم المعتزلة بأن الكلام حرف وصوت يدخله التعاقب والتأليف، وهو مُكوَّن من أجزاء وأبعاض، وما كان كذلك لا يجوز أن يكون من صفات الله فالتزموا ما قالته المعتزلة، وركبوا مكابرة العيان، وخرقوا الإجماع المنعقد بين الكافة: الكافر والمسلم، وقالوا للمعتزلة: الذي ذكرتموه ليس بحقيقة الكلام، وإنما سمي كلاماً على المجاز؛ لكونه حكاية أو عبارة عنه، وحقيقة الكلام معنى قائم بذات المتكلم»[(٢)].

٣- تسلطهم على ضعفاء المسلمين وعوامهم وصيالهم عليهم؛ وذلك لما عجزوا عن كسر الفلاسفة ونحوهم من صنوف الملاحدة. فكانوا كما وصفهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «... بمنزلة من قصَّروا في جهاد من يليهم من الكفار حتى غلبوهم وهزموهم، فقاموا يقاتلون من

---

(١) تأريخ الجهمية ص: ٩.

(٢) موافقة صحيح المنقول ٢/٤٥-٤٦ (بتصرف).

يليهم من المسلمين كما قاتلهم أولئك الكفار حتى ظهر الباطل والكفر والضلال؛ بتفريطهم أولاً في جهاد من يليهم من الكفار وعدوانهم ثانياً على من يليهم من المسلمين»[(١)].

ويقول أبو العباس القرطبي رحمه الله وهو يعدد شناعات المتكلمين: «ثانيتهما: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله(تعالى) بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرروها، فلا يصح إيمانه، وهو كافر، فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأول من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه، وقد أُورد على بعضهم هذا، فقال لا تشنّع عليَّ بكثرة أهل النار»[(٢)].

رابع عشر: اشتماله على ردهم لعلوم صحيحة تتعلق بالطبيعيات ونحوها تكون عند بعض خصومهم من الفلاسفة ونحوهم، فيكون ذلك سبباً في أمور من أهمها:

١- تنفير الخصم عن الإسلام .

٢- تسلط الملاحدة على الإسلام والمسلمين.

٣- نزع الثقة في الإسلام من قلوب ضعاف الإيمان.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٣٨/٧.

(٢) المفهم ص : ١١٣ (مخطوط) ، وانظر : فتح الباري ٣٥٠/١٣.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله وهو يتحدث عن علوم الفلاسفة ومنها: الرياضيات والطبيعيات، معددا آفاتها، فقال: «الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم؛ فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمْع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك في برهانه، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفسلفة حباً وللإسلام بغضاً، ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية»[١].

ويؤكد ابن تيمية رحمه الله هذه المعنى في قوله: «وهؤلاء ـ يعني الفلاسفة ـ عندهم أمور معلومة من الحسابيات؛ مثل وقت الكسوف والخسوف، ومثل كرية الأفلاك ووجود السحاب من البخار ونحو ذلك من الأمور الطبيعية والرياضية، فيحتجون بها على من يظن أنه من أهل الشرع، فيسرع ذلك المنتسب إلى الشرع برد ما يقولونه بجهله؛ فيكون ردُّ ما قالوه من الحق سبباً لتنفيرهم عما جاء به الرسول من الحق بسبب مناظرة هذا الجاهل»[٢]. وقال رحمه الله في موضع آخر[٣]: «وكذلك ما يعلم

(١) المنقذ من الضلال ص: ٩٠.

(٢) الرد على المنطقيين ص: ٢٧٤.

(٣) المرجع السابق ص: ٢٦٠.

بالمشاهدة والحساب الصحيح من أحوال الفلك علم صحيح لا يُدفع، والأفلاك مستديرة ليست مضلّعة، ومن قال إنها مضلّعة، أو جوَّز ذلك من أهل الكلام فهو وأمثاله ممن يرد على الفلاسفة وغيرهم ما قالوه من علم صحيح معقول مع كونه موافقاً للمشروع، وهذا من بدع أهل الكلام الذي ذمَّه السلف وعابوه...وكان ذلك من أسباب ضلال كثير من الناس؛ حيث ظنوا أن ما يقوله هؤلاء المبتدعون هو الشرع المأخوذ عن الرسول، وليس الأمر كذلك، بل كل ما علم بالعقل الصريح فلا يوجد عن الرسول إلا ما يوافقه ويصدقه».

وقال ـ أيضاً ـ: «فإن غلط هؤلاء ـ يعني المتكلمين ـ مما سلط أولئك المتفلسفة وظنوا أن ما يقول هؤلاء وأمثالهم هو دين المسلمين أو قول الرسول وأصحابه»[1].

ومن غريب أمر المتكلمين أنهم قد يخالفون الفلاسفة في أمور صحيحة كما تقدم في مسائل الرياضيات والطبيعيات ونحوها، كما أنهم قد يوافقونهم في أمور باطلة، كما في باب الإلهيات، ولهذا كانت المناظرات بينهم دولاً، وإن كان المتكلمون أصح مطلقاً في العقليات الإلهية، كما أنهم أقرب إلى الشرعيات من الفلاسفة، وكلام الفلاسفة في الأمور الحسية الطبيعية، وفي كلياتها غالبه جيد[2].

---

(١) المرجع السابق ص: ٣١١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/٣٣٤-٣٣٥ ، والرد على المنطقيين ص :٣١١.

هــذا ما تيسر ذكره من خصائص الجدل عند المتكلمين، ومع ذلك فأهل العلم من أهل السنة والجماعة يعترفون لأهل الكلام بجهودهم في الرد على البدع الكبار كبدعة الرفض والتجهم، وبجهودهم في الرد على اليهود والنصارى والمشركين والفلاسفة الملحدين ونحوهم. ولهذا شكرهم المسلمون على هذا، واستحمدوا مواقفهم التي فيها النصرة لدين الله (تعالى). يقول ابن تيمية رحمه الله: «وكذلك متكلمة أهل الإثبات مثل الكُلابيَّة والكراميَّة والأشعريَّة إنما قُبلوا واتبعوا استُحْمِدُوا إلى عموم الأمة بما أثبتوه من أصول الإيمان؛ من إثبات الصانع وصفاته وإثبات النبوة، والرد على الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وبيان تناقض حججهم، وكذلك استحمدوا بما ردوه على الجهمية والمعتزلة والرافضة والقدرية من أنواع المقالات التي يخالفون فيها أهل السنة والجماعة»[1].

ويقول رحمه الله في باب المفاضلة بين طوائف المثبتة من الكلابية والأشعرية ونحوهم، وطوائف النفاة من المعتزلة والجهمية ونحوهم: «وإن كان في كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف، فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم»[2].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/١٢-١٣ ، وانظر : الرد على المنطقيين ص : ١٤٢-١٤٣ .
(٢) نقض تأسيس الجهمية ٢/٨٧ .

هذا مع ما قد يكون في بعض أدلتهم من القصور أو الفساد، لكن فسادهم أقل من فساد غيرهم من الطوائف؛ قال ابن تيمية رحمه الله: «قال ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم»[1] وهذا كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي، فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل، ويُقوَّى بها قلوب كثير من أهل الحق، وإن كانت في نفسها باطلة، فغيرها أبطل منها، والخير والشر درجات، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه.

وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين: «من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين وهو خير من أن يكونوا كفاراً...وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل، وبدعة ببدعة؛ لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة»[2].

فهذا يبين أن كلام أهل الإسلام في نفسه متفاضل، وكذلك كلام أهل الإسلام أفضل من كلام الفلاسفة والملاحدة ونحوهم. يقول شيخ الإسلام

---

(١) هذه العبارة ـ عدا قوله: وبأقوام لا خلاق لهم فإني لم أقف عليها فيما بين يدي من كتب السنة ـ قطعة من حديث طويل عند البخاري ٤٧١/٧ (فتح الباري) كتاب المغازي ـ باب غزوة خيبر ح: ٤٢٠٣ و٤٩٨/١١-٤٩٩ (فتح الباري) كتاب القدر ـ باب العمل بالخواتيم ح: ٦٦٠٦ ، وصحيح مسلم ١٠٥/١-١٠٦ كتاب الإيمان ـ باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ... ح : ١١١ وغيرهما من كتب السنة.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٥/١٣-٩٧.

رحمه الله: «مع أنه يمكن بيان أن قول الأشعري أقرب إلى صريح المعقول من قول المعتزلة، كما يمكن أن يُبيَّن أن قول المعتزلة أقرب إلى صريح المعقول من قول الفلاسفة، لكن هذا يفيد أن هذا القول أقرب إلى المعقول وإلى الحق، لا يفيد أنه هو الحق في نفس الأمر، فهذا ينتفع به من ناظر الطاعن على الأشعرية من المعتزلة والطاعن على المعتزلة من الفلاسفة، فتُبيِّن له أن قول هؤلاء خير من قول أصحابك؛ فإنه كما أن كل من كان أقرب إلى السنة، فقوله أقرب إلى الأدلة الشرعية، فكذلك قوله أقرب إلى الأدلة العقلية...»[(١)].

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/٢٣٨.

المطلب الخامس
حكم الاشتغال بعلم الكلام

المشهور عن السلف والأئمة ذم الكلام وذم أهله، وهم لا يذمون إلا ما هو باطل وحرام، ونصوصهم في ذلك بلغت حدا من الكثرة والتواتر ماجعل ذلك شعارا لهم يتميزون به عن غيرهم، كما سيتبين ذلك لاحقا.

ثم ظهر في المتأخرين من يقسم الكلام إلى نوعين: محمود ومذموم، والمذموم هو كلام أهل الاعتزال والرفض ونحوهم من فرق الضلال. والمحمود هو كلام الأشاعرة ونحوهم [١].

قال البيهقي (٤٥٨هـ) رحمه الله عقب إيراده مشهور كلام الإمام الشافعي [٢] رحمه الله في ذم الكلام وأهله، قال: «إنما أراد الشافعي رحمه الله بهذا الكلام حفصاً وأمثاله من أهل البدع، وهذا مراده بكل ما حكي عنه في ذم الكلام وذم أهله» [٣].

وقد يكون مقصود البيهقي بالكلام: الجدل والمناظرة في نصرة الباطل، ولهذا قال بعد كلامه الأول: «وكيف يكون كلام أهل السنة والجماعة مذموماً عنده ـ أي الشافعي ـ وقد تكلم فيه، وناظر من ناظره فيه، وكشف

---

(١) انظر: تبيين كذب المفتري ص: ٣٣٣ وما بعدها، وإشارات المرام ص: ٤٧-٤٨، ٣٤-٣٧.

(٢) ستأتي نصوص الإمام الشافعي قريبا.

(٣) مناقب الشافعي ـ للبيهقي ١/٤٥٤.

عن تمويه من ألقى إلى سمع بعض أصحابه من أهل الأهواء شيئاً مما هم فيه»[1].

وحمل ـ أيضاً ـ ابن عساكر (٥٧١هـ) رحمه الله ما ورد عن الشافعي من ذم الكلام وأهله على كلام أهل البدع كالقدرية، وكلام حفص الفرد وأمثاله[2].

ويقول ابن حجر الهيتمي (٩٧٤هـ) رحمه الله: «محل الذم البليغ، والزجر الأكيد ما يؤدي الخوض فيه إلى زيغ أو ارتكاب شبهة لا مخلص له منها، وغير ذلك من المفاسد التي كانت من أهله في زمن أولئك الأئمة، وأما بعدهم فقد تميز أهل السنة من أهل البدع، وحرروا كتبهم فيه، واجتهدوا في قمع البدع، فلا مساغ في ذمه، بل هو آكد فروض الكفايات»[3]. ويقول طاش زادة: «ولا يخفى أن إنكار السلف لا ينبغي أن يكون على كلام الأشاعرة والماتريدية[4] بل على كلام الفلسفة وأهل الاعتزال، وعلى كلام أهل الجدال بالباطل إذ الكلام الشائع في زمان الأئمة المجتهدين هو كلام

---

(١) المرجع السابق ١/٤٥٤-٤٥٥.

(٢) انظر: تبيين كذب المفتري ص: ٣٣٦-٣٣٧ .

(٣) إشارات المرام ص: ٤٨.

(٤) الماتريدية : هم أتباع أبي منصور، محمد بن محمد الماتريدي، الملقب بإمام الهدى، من مذاهبهم قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، والتأويل والتفويض، وأن المسموع من كلام الله إنما هو عبارة عنه، وأصولهم قريبة من أصول الأشاعرة، انظر : كلاما مفصلا وجيدا عنهم في كتاب الماتريدية دراسة وتقويما لأحمد عوض الله الحربي.

الاعتزال والإرجاء وأمثالهما، وأما كلام أهل السنة والجماعة فقد حدث بعد انقراضهم بزمان كثير»[١].

فهذه محاولة للتفريق بين كلام أهل الاعتزال والفلسفة، وكلام المنتسبين إلى السنة من الأشاعرة والماتريدية ونحوهم، وجعْل الذم الوارد عن السلف والأئمة ينال كلام الفلاسفة والمعتزلة دون الأشاعرة ونحوهم، لكن ما ذكر من الآفات التي لأجلها ذم السلف الصالح والأئمة الكلام موجودة في كلام الأشاعرة ونحوهم، فيكون حكمه حكم كلام أهل الفلسفة والاعتزال. فهذا أبوعمر بن عبدالبر رحمه الله ينقل عن ابن خويز منداد المالكي قوله: «لا تجوز الإجارات في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجيم» وذكر كتبا، ثم قال: «وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم...» وقال رحمه الله في موضع آخر عند شرح قول مالك: "لا تجوز شهادة أهل البدع وأهل الأهواء" قال: «أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً، ويُهْجر ويُؤَدَّب على بدعته، فإن تمادى عليها اُسْتُتِيبَ منها»[٢].

فالمقصود أن الذم والتحريم يقع على كل كلام يتضمن الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة، ويتضمن القول على الله بلا علم، إضافة إلى

---

(١) مفتاح السعادة ١٦١/٢.

(٢) جامع بيان العلم ١١٧/٢.

التعصب والحميَّة دون طلب الحق والالتزام بـه، فهـذا إن وجـد في أي كـلام فهو كلام مذموم محرَّم بغض النظر عن المتكلم به.

يقول ابن تيميــة رحمـه الله: «... الأصـل في ذم السـلف للكـلام هـو اشتماله على القضايا الكاذبة والمقدمات الفاسدة المتضمنـة للافـتراء علـى الله (تعالى) وكتابه ورسوله ودينه، فهذا هو الكلام المذموم بالذات وهــو الكـلام الكاذب الباطل ، وأما الكلام الذي هو حق وصدق فهـذا لا يـذم وإنمـا يـذم المتكلّم به أحيانا لاشتمال ذلك على مضرة عارضة مثل ما يحرم القذف، وإن كان القاذف صادقـا، إذا لم يكـن لـه أربعـة شـهداء، ومثـل مـا تحـرم الغيبـة والنميمة ونحو ذلك مما هو صدق لكن فيه ظلم للغير»[(١)].

نصوص السلف والأئمة في ذم الكلام وأهله:

وهي كثيرة ومتنوعة، أختار في هذا المقام قطوفا منها:

١- قيل لأبي حنيفة رحمــه الله: مـا تقـول فيمـا أحـدث النـاس مـن الكـلام والأعراض والأجسام، فقال: «مقالات الفلاسفة، عليـك بـالأثر وطريقـة السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة»[(٢)].

٢- وقال أبو يوسف رحمه الله لبشر المريسـي: «مـن طلـب الديـن بـالكلام تزندق»[(٣)] وقــال أيضاً: «العلم بالكلام هو الجهل والجهل بـالكلام هـو

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٧٧/٧ .

(٢) الحجة في بيان المحجة ١٠٥/١ .

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ١٤٧/١ برقم: ٣٠٥ ، والحجة ـ الأصبهاني ١٠٥/١-١٠٦.

العلم، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل: زنديق»[١].

٣- وقال محمد بن شجاع البلخي: سمعت الحسن بن زياد اللؤلؤي وقد قال له رجل في زفر بن الهذيل: أكان ينظر في الكلام؟ فقال: «سبحان الله، ما أحمقك، ما أدركت مشيختنا: زفر وأبا يوسف وأبا حنيفة ومن جالسنا وأخذنا عنه يهمهم غير الفقه والاقتداء بمن تقدمهم»[٢].

٤- وقال مالك رحمه الله: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم والقدر وكل ما أشبه ذلك...فأما الكلام في دين الله وفي الله عز وجل فالسكوت أحبُّ إلي؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل» قال أبوعمر رحمه الله بعد أن نقل هذا الكلام عن مالك: «والذي قاله مالك رحمه الله عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديماً وحديثاً من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة فعلى ما قال مالك رحمه الله»[٣].

٥- وقال الشافعي رحمه الله: «ما تردى أحد بالكلام فأفلح»[٤]، وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول وناظره رجل من أهل العراق، فخرج إلى

---

(١) شرح الطحاوية ١/١٧ .

(٢) جامع بيان العلم ٢/١١٧.

(٣) جامع بيان العلم ٢/١١٦ ، وانظر : ١/١٤٨-١٤٩ .

(٤) شرح السنة ـ اللالكائي ١/١٤٦ برقم : ٣٠٣ .

شيء من الكلام، فقال: هذا من الكلام، دعه[(١)]. واشتهر عنه أنه قال يوم ناظره حفص الفرد: «لأن يلقى الله عز وجل العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الكلام...لقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه»[(٢)]. ومن المشهور عنه أيضاً قوله: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام»[(٣)].

٦- وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إنه لا يفلح صاحب كلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل»[(٤)].

٧- وقال أبو عمر رحمه الله: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء...»[(٥)].

---

(١) شرح السنة – اللالكائي ١٤٥/١ برقم: ٢٩٩، والحجة ١٠٦/١، وكذب المفتري ص:٣٣٨.

(٢) جامع بيان العلم ١١٦/٢، والحجة ١٠٤/١، وشرح السنة ١٤٦/١ برقم: ٣٠٠، وتبيين كذب المفتري ص: ٣٣٥.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص: ١٦٨، مناقب الشافعي – البيهقي ٤٦٢/١، وانظر: شرح الطحاوية ١٧/١-١٨.

(٤) جامع بيان العلم ١١٦/٢.

(٥) جامع بيان العلم ١١٧/٢.

٨- وقال الذهبي رحمه الله: «وصح عن الدارقطني أنه قال ما شيء أبغض إلي من علم الكلام ـ قال الذهبي ـ: لم يدخل الرجل أبداً في علم الكلام ولا الجدال، ولا خاض في ذلك، بل كان سلفياً»[1].

٩-وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله بعد أن ساق أقوال العلماء والأئمة في ذم الكلام والجدل[2] واعتراض المعترضين وأدلتهم، قال: «ونقول: إن فيه منفعة وفيه مضرة، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام.

أما مضرته: فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم، فذلك مما يحصل في الابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره في اعتقاد الحق. وله ضرر آخر في تأكيد [المبتدعة][3] للبدعة وتثبيته في صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثورمن الجدل...فهذا ضرره.

وأما منفعته، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ماهي عليه، وهيهات، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٤٥٧ ترجمة رقم: ٣٣٢.

(٢) ساق الغزالي الحديث عن الكلام والجدل سوقاً واحداً، مع أن بينهما فرقاً، إذ الجدل منه المحمود ومنه المذموم ـ كما سيتبين ذلك ـ وأما الكلام فكله مذموم، وهو المعني بالبحث هنا.

(٣) في الأصل: [المبدعة]، ولعل الصواب ما أثبته.

محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خَبرَ الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود. ولعمري، لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور... بل منفعته شيء واحد وهو: حراسة العقيدة[1] التي ترجمناها على العوام، وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل، فإن العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع، وإن كان فاسداً، ومعارضة

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن نقل كلام أبي حامد المذكور وغيره : «وحفظ مثل هذا الكلام لاعتقاد العوام كدفع المظلمة عنهم بعقوبات فيها عدوان... وأما حراسة عقيدة العوام: فيقال: أولاً: لا بد أن يكون المحروس هو نفس ما ثبت عن الرسول ﷺ أنه أخبر به لأمته، فأما إذا كان المحروس فيه ما يوافق خبر الرسول وفيه ما يخالفه، كان تمييزه قبل حراسته أولى من الذب عما يناقض خبر الرسول ﷺ ، فإن حاجة المؤمنين إلى معرفة ما قاله الرسول وأخبرهم به ليصدقوا به، ويكذبوا بنقيضه، ويعتقدوا موجبه، قبل حاجتهم إلى الذب عن ذلك، والرد على من يخالفه، فإذا كان المتكلم الذي يقول إنه يذبُّ عن السنة قد كذَّب هو بكثير مما أخبر به الرسول ﷺ واعتقد نقيضه، كان مبتدعاً مبطلاً متكلماً بالباطل فيما خالف فيه خبر الرسول ﷺ كما أن ما وافق فيه خبر الرسول فهو فيه متبع للسنة، محق يتكلم بالحق. وأهل الكلام الذين ذمهم السلف لا يخلو كلام أحد منهم عن مخالفة السنة، ورد لبعض ما أخبر به الرسول، كالجهمية والمشبهة، والخوارج والروافض، والقدرية والمرجئة.

ويقال بأنها لا بد أن تحرس السنة بالحق والصدق والعدل، لا تحرس بكذب ولا ظلم، فإذا رد الإنسان باطلا بباطل، وقابل بدعة ببدعة، كان هذا مما ذمه السلف والأئمة » درء تعارض العقل والنقل ١٧٩/٧، ١٨٢ .

الفاسد بالفاسد تدفعه»[(١)].

١٠-وصنف كثير من أهل العلم في ذم الكلام وأهله وبيان عواره، من ذلك: كتاب ذم الكلام للهروي، ونقد العلم والعلماء (تلبيس إبليس) لابن الجوزي، وجامع بيان العلم لابن عبد البر، وتحريم النظر لابن قدامة، وصون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام لجلال الدين السيوطي، وغير ذلك كثير.

تعليل ذم السلف والأئمة للكلام:

قد يظن بعض الناس أن السلف والأئمة ذموا الكلام وأهله لمجرد اشتماله على المصطلحات المحدثة كلفظ: الجوهر والعرض و الحيز والجهة ونحو ذلك، ومثل هذا لا يقتضي بمجرده الذم كما لو أحدث الناس آنية يحتاجون إليها، أو سلاحاً يحتاجون إليه لمقاتلة العدو، بل ذم السلف وأهل العلم للكلام كان لفساد معناه أعظم من ذمهم لمجرد هذه الألفاظ المحدثة، فذموه لاشتماله على معان باطلة مخالفة للكتاب والسنة ومخالفة للعقل الصريح[(٢)].

فالسلف لم يذموا جنس الكلام فإن كل آدمي يتكلم، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله، والاستدلال بما بينه الله ورسوله. بل ولا ذموا كلاماً هو حق، بل ذموا الكلام الباطل وهو المخالف للكتاب والسنة والعقل الصريح[(٣)].

---

(١) إحياء علوم الدين ٩٧/١ .

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٢٣٢/١-٢٣٣.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤٧/١٣.

وعامة الكلام الذي ذمه السلف تشتمل مسائله على كذب وفرية وقول على الله بلا علم[(١)]. أما ذمهم للمصطلحات المحدثة، لا لكونها محدثة بل لما تضمنته من الباطل، أو لكونها ألفاظاً مجملة في النفي والإثبات تحتمل الحق وتحتمل الباطل، كما قال الإمام أحمد رحمه الله في وصفه لأهل البدع:"... يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يُشَبِّهُون عليهم"[(٢)] بل مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم ليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة؛ كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم؛ فإن هذا جائز حسن للحاجة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يُحتج إليه[(٣)].

ومن أعظم الأدلة على بطلان طريقة المتكلمين وفسادها وقصورها، بل ذمها وتحريمها: ما ثبت عن كثير منهم من ذم الكلام، وبيان فساده وقصوره وعدم جدواه، ثم رجوع بعضهم عنه، وتوبتهم منه، ووصيتهم لأتباعهم وتلاميذهم بترك الكلام، والميل لطريقة أهل السنة والحديث؛ وإليك أمثلة من ذلك:

١- روى ابن الجوزي بسنده إلى أحمد بن سنان أنه قال: «كان الوليد بن أبان الكرابيسي (٢١٤هـ)، خالي، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٧٨/٧ ، وتفسير سورة الإخلاص ص :١٢٠ .

(٢) الرد على الجهمية ص : ٨٥ .

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٤٣/١، ٤٤.

أحداً أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا. قال: فتتهموني؟ قالوا: لا. قال: فإني أوصيكم، أتقبلون؟ قالوا: نعم. قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث، فإني رأيت الحق معهم»[١].

٢- وكان أبو المعالي الجويني يقول: «لقد جلت أهل الإسلام جولة، وعلومهم، وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق وهرباً من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف برِّه فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص فالويل لابن الجويني، وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به»[٢].

٣- وقال الشهرستاني[٣]: إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، وأنشد:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وقد أجاب الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني على البيتين بالبيتين التاليين:[٤]

---

(١) تلبيس إبليس ص: ١٠٤.

(٢) تلبيس إبليس ص: ١٠٤-١٠٥ ، وانظر: طبقات الشافعية ـ السبكي ١٩١/٥، وانظره مختصراً في مختصر العلو ص:٢٧٥ برقم: ٣٣٥ .

(٣) نهاية الإقدام ص: ٣.

(٤) ديوان الصنعاني ص : ٣٤٥ .

لعلك أهملت الطواف بمعـــهد الـ الرسول ومن والاه من كل عالم

فما حار من يُهــدى بهــدي محمد ولستَ تـراه قـارعاً سـن نــادم

٤- وقال أبوالوفاء بن عقيل لبعض أصحابه: «أنـا أقطـع أن الصحابـة مـاتوا وما عرفوا الجوهر والعـرض، فـإن رضيـت أن تكـون مثلهـم فكـن، وإن رأيت أن طريقـة المتكلمـين أولى مـن طريقـة أبـي بكـر وعمـر فبئـس مـا رأيت. قال: وقـد أفضـى الكـلام بأهلـه إلى الشـكوك، وكثـير منهـم إلى الإلحاد، تشم رائحة الإلحاد من فلتات كلام المتكلمـين...وقـد بـالغت في الأول طول عمري ثم عدت القهقرى إلى مذهب الكتب»[1].

٥- قال أبوعبدا لله الرازي: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمنـاهج الفلسـفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيـت أقـرب الطـرق طريقـة القرآن؛ أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر: ١٠] وأقرأ في النفي: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سـورة الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٠] قال: ومـــن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[2].

وقال الرازي أيضاً[3]:

(١) تلبيس إبليس ص: ١٠٥.

(٢) قال ذلك في كتابه أقسام اللذات كما ذكره عنه ابن تيمية. انظر: درء تعارض العقـل والنقـل ١/١٦٠. وذكر الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله أن هـذا الكتـاب مخطـوط بـالهند، ولم يذكره بروكلمان ضمن مؤلفات الرازي.

(٣) طبقات الشافعية ـ السبكي ٨/٩٦، ودرء تعارض العقل والنقل ١/١٦٠.

نـهاية إقـدام الـعقول عـقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في غفلة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال

و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

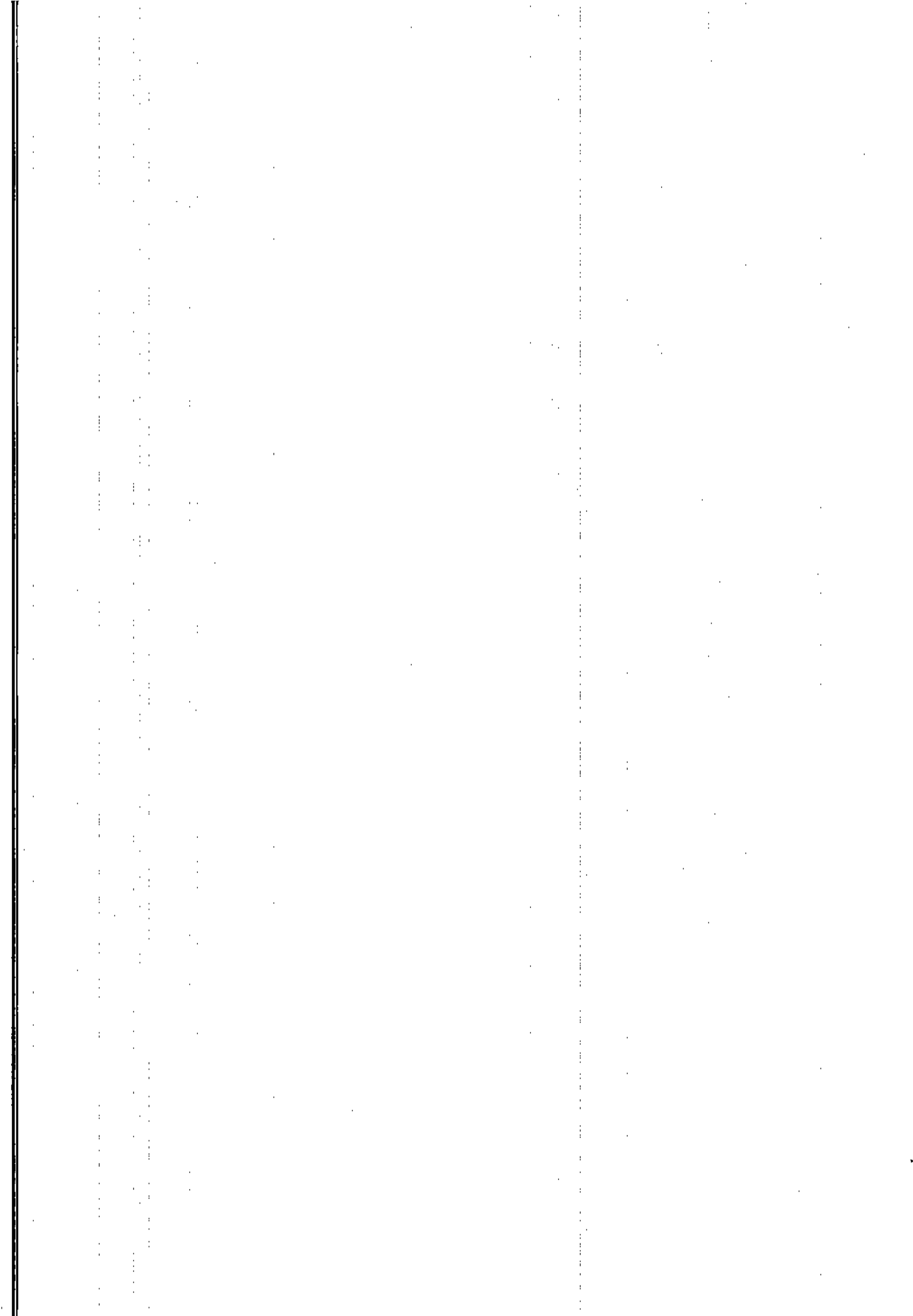
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال

وكم رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعا مُزْعَجين وزالوا

٦- ومن المتأخرين: محمد بن علي الشوكاني رحمه الله يخبر عن حاله فيقول: «وها أنا أخبرك عن نفسي، وأوضح لك ما وقعت فيه في أمسي، فإني في أيام الطلب [وعنفوان][1] الشباب شُغِلتُ بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام، وتارة علم التوحيد، وتارة علم أصول الدين وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم، ورُمْتُ الرجوع بفائدة، والعود بعائدة، فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة، وكان ذلك من الأسباب التي حببت إلي مذهب السلف»[2].

(١) في الأصل: [عنوان]، ولعل الصحيح ما أثبته.

(٢) التحف في مذهب السلف ص: ١٣-١٤.



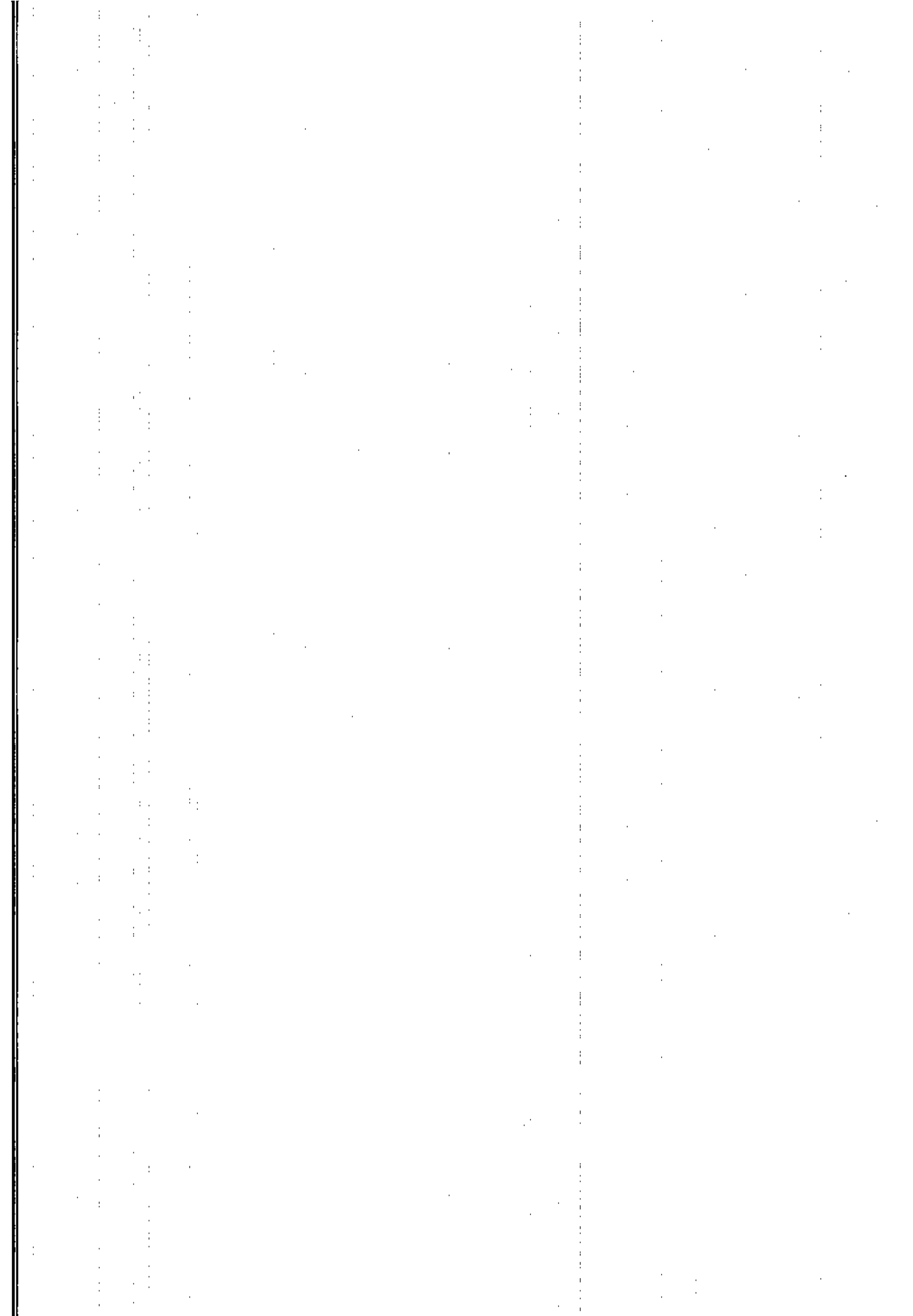
المبحث الرابع
الجدل عند أهل السنة والجماعة

وفيه مطالب:

المطلب الأول: التعريف بأهل السنة والجماعة

المطلب الثاني: موقف أهل السنة والجماعة من الجدل والمناظرة

المطلب الثالث: نماذج من مواقف أهل السنة في الجدل والمناظرة



المطلب الأول

التعريف بأهل السنة والجماعة

نشأ مصطلح أهل والسنة والجماعة ـ لا سيما بعد ظهور البدع والفرق ـ استناداً إلى الأحاديث والآثار الداعية إلى الارتباط بالجماعة، التمسك بالسنة، والمحذرة من الفرقة والاختلاف في الدين والابتداع فيه:

من ذلك قوله ﷺ : «...فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية»[1]. وقوله ﷺ : «... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين؛ تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة »[2]. وقوله ﷺ : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مسكتم بهما: كتابَ الله وسنةَ نبيِّه»[3].

معنى السنة في اللغة:

السنة في اللغة: الطريقة والسيرة؛ حسنة كانت أم سيئة. قال خالد بن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٥/١٣ (فتح الباري) كتاب الفتن ـ باب قول النبي ﷺ ستروت بعدي أموراً تنكرونها ... ح: ٧٠٥٤.

(٢) رواه أبوداود في سننه ٥/١٣-١٥ كتاب السنة ـ باب لزوم السنة ح: ٤٦٠٧، وانظر: سنن الترمذي٧/٣١٩-٣٢٠ أبوب العلم ـ باب ما جاء في الأخذ في السنة ... ح: ٢٦٧٨ وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح. وسنن ابن ماجه ١/١٥-١٦(المقدمة) باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ح :٤٢،٤٣ ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/١٣-١٤ ح: ٤٠-٤١.

(٣) رواه مالك ـ بلاغاً ـ في الموطأ ٢/٨٩٩ كتاب القدر ـ باب النهي عن القول بالقدر ح: ٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣/٣٩ ح: ٢٩٣٤.

عتبة الهذلي[١]:

فلا تجزعن من سيرة أنت سِرْتَها فأول راضٍ سنةً من يسيرها

وفي الحديث: «...من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٢].

معنى السنة في الاصطلاح:

ذكر العلماء تعريفات للسنة؛ كل بحسب ما يشتغل به من العلم، فللأصوليين تعريف، والمحدثون لهم تعريف، وكذا الفقهاء... والذي يهمنا في هذ الموضع معرفة معنى السنة عند المشتغلين بتقرير مذهب السلف في الاعتقاد:

فالسنة عندهم: هي ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من الاعتقادات والأقوال والأعمال والأحوال[٣].

---

(١) هكذا ذكره صاحب لسان العرب، والصحيح أنه: خالد بن زهير الهذلي،وهو ابن عم وابن أخت خويلد بن خالد الهذلي، والبيت المذكور كما في لسان العرب١٣/٢٢٥ ولفظه في شرح أشعار الهذليين:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راضي سنةٍ من يسيرها

٢١٣/١ من شعر أبي ذؤيب الهذلي .

(٢) صحيح مسلم ٢/٧٠٥ الزكاة ـ باب الحث على الصدقة ... ح : ١٠١٧.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي ص : ٢٤٩ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/٣٠٦-٣٠٧.

ومصطلح أهل السنة له إطلاقان: عام وخاص:

أما الإطلاق العام: فالمراد به مايكون في مقابل الشيعة، فتدخل جميع الطوائف المنتسبة إلى الإسلام ـ عدا الشيعة ـ في مفهوم أهل السنة.

وأما الإطلاق الخاص: فالمراد به ما يكون في مقابل أهل البدع والمقالات المحدثة؛ كالشيعة والخوارج والمرجئة والجهمية والمعتزلة ونحوهم من أهل البدع، فهؤلاء لا يدخلون في مفهوم أهل السنة بالإطلاق الخاص: قال ابن تيمية رحمه الله: «فلفظ السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة... وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من أثبت الصفات لله (تعالى) ويقول: إن القرآن غير مخلوق، وإن الله يُرى في الآخرة، ويثبت القدر وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة»[1].

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢/٢٢١.

معنى الجماعة الواردة في مصطلح أهل السنة والجماعة

معنى الجماعة في اللغة:

من جمع، يقال: جمع المتفرق، والجماعة ضد الفرقة [١].

معنى الجماعة في الاصطلاح:

ورد لفظ " الجماعة " في بعض الأحاديث؛ كحديث: «يد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ إلى النار» [٢] وحديث التَفَرُّق وفيه: «كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة» [٣].

وقد اختلف أهل العلم في المراد بالجماعة في هذه الأحاديث ونحوها على أقوال، أهمها خمسة: أذكرها في إيجاز [٤].

١- أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام،ويدخل فيهم أهل العلم والاجتهاد دخولاً أولياً.

---

(١) انظر: لسان العرب ٥٣/٨ مادة جمع.

(٢) رواه الترمذي في سننه ٣٣٤/٦ أبواب الفتن ـ باب ما جاء في لزوم الجماعة ح: ٢١٦٨ وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». ورواه الحاكم في مستدركه بطرق متعددة ١١٥/١-١١٦ كتاب العلم، وقال: «وقد روي... هذا الحديث بأسانيد يصح بمثلها الحديث فلا بد أن يكون له أصل بأحد هذه الأسانيد».

(٣) رواه الحاكم في مستدركه١٢٨/١ كتاب العلم وقال: « هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث» وانظر: سنن أبي داود ٥/٥-٦ كتاب السنة ـ باب شرح السنة ح: ٤٥٩٧، وسنن ابن ماجه٣٦٤/٢(صحيح ابن ماجه للألباني)الفتن ح: ٣٩٩٢، ٣٩٩٣ وصححهما الألباني. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ الألباني حديث رقم: ٢٠٤.

(٤) انظر: الاعتصام ـ الشاطبي ٢٦٠/٢-٢٦٥. وفتح الباري ٣٧/١٣.

٢-أنها جماعة المجتهدين دون غيرهم من الناس، وهو اختيار البخاري[(١)] والترمذي[(٢)] رحمهما الله.

٣- أنها جماعة الصحابة على وجه الخصوص.

٤- أنها جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمر ما، وهو الإجماع.

٥- أنها جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، فلا يجوز الخروج عليهم فيه. وهو اختيار أبي جعفر الطبري رحمه الله[(٣)].

وهذه الأقوال لا تعارض بينها ـ بحمد الله ـ إذ الكل متفقون على تقديم أهل العلم والاجتهاد، فلا يقال: الواجب متابعة جمهور العوام ولو خالفوا أهل العلم. بل الجماعة موافقة الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى: جماعة الصحابة ﷺ وهوما عليه أهل العلم والفقه في الدين في كل زمان، وكل من خالفهم فهو من أهل الشذوذ والفرقة. قال أبو شامة (٦٦٥هـ) رحمه الله: «وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً، والمخالف كثيراً؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، ولا ينظر إلى كثرة أهل الباطل بعده» ثم ذكر كلام ابن مسعود ﷺ: «إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك»[(٤)].

---

(١) انظر: صحيح البخاري١٣/٣١٦ (فتح الباري).

(٢) انظر: سنن الترمذي ٦/٣٣٥ كتاب الفتن .

(٣) انظر: فتح الباري ١٣/٣٧ .

(٤) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص : ٢٢ ، وانظر كلام ابن مسعود في إعلام الموقعين ٣/٣٩٧، وذكره الألباني بهامش مشكاة المصابيح ١/٦١ هامش رقم : ٥ وصححه.

المطلب الثاني
موقف أهل السنة والجماعة من الجدل والمناظرة

تقدم أن السلف ذموا علم الكلام وأهله، وهذا لا يعني أنهم ذموا جنس الكلام والنظر والمناظرة، بل هذا إذا كان حقاً يكون مأموراً به تارة، ومنهياً عنه أخرى كغيره من أنواع الكلام الصدق، فقد ينهى عن الكلام الذي لا يفهمه المستمع كما روى البخاري في صحيحه[(١)] عن علي ﷺ أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبُّون أن يُكذَّب الله ورسولُهُ». أو الذي يضر المستمع كما روى مسلم في صحيحه[(٢)] عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم». وقد ينهى عن المناظرات التي تورث شبهات وأهواء، لا تفيد علماً ولا ديناً[(٣)] كقول عمر بن عبدالعزيز ﷺ: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»[(٤)]. وكقول مالك رحمه الله: «أوكلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل ﷺ إلى محمد ﷺ»[(٥)].

---

(١) ٢٢٥/١ كتاب العلم ـ باب من خص بالعلم قوماً دون آخرين كراهية أن لا يفهموا ...

(٢) ١١/١ المقدمة ـ باب النهي عن الحديث بكل ما سمع .

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٨٤/٧.

(٤) جامع بيان العلم ١١٣/٢ .

(٥) الحجة للأصبهاني ٤٥٥/٢ برقم: ٤٧٦ وانظر: شرح السنة للالكائي ١٤٤/١ برقم: ٢٩٤،٢٩٣، وصححه الألباني في مختصر العلو ص: ١٤٠.

أما نهي السلف عن الجدال في الاعتقاد، نحو الجدال في صفات الله (تعالى) وأسمائه فالمراد به الجدال على طريقة أهل البدع الخائضين في دين الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ولأن المناظرة والمجادلة في الأمور الغيبية مؤذنة بعدم الإيمان بها والخضوع لها، إذ طريق معرفة أمور الغيب: الوحي فقط، لا النظر ولا القياس، وهما غالب مادة الجدل، ولهذا قال أبوعمر بن عبد البر رحمه الله: «ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه»[1].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «وتناظر القوم ـ يعني السلف ـ وتجادلوا في الفقه، ونهوا عن الجدال في الاعتقاد؛ لأنه يؤول إلى الانسلاخ من الدين، ألا ترى إلى مناظرة بشر في قوله جل وعز ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: ٧] حين قال هو بذاته في كل مكان. فقال له خصمه: هو في قلنسوتك، وفي حشك، وفي جوف حمارك. تعالى الله عما يقولون. حكى ذلك وكيع رحمه الله، وأنا والله، أكره أن أحكي كلامهم قبحهم الله، فمن هذا وشبهه نهى العلماء»[2].

ويقول أبوسليمان الخطابي (٣٨٨هـ) رحمه الله: «واعلم أن الأئمة الماضين والسلف المتقدمين لم يتركوا هذا النمط من الكلام وهذا النوع

---

(١) جامع بيان العلم ٢/١١٧- ١١٨ .

(٢) المرجع السابق ٢/١١٩-١٢٠.

من النظر عجزاً عنه، ولا انقطاعاً دونه، وقد كانوا ذوي عقول وافرة وأفهام ثاقبة...وإنما تركوا هذه الطريقة وأضربوا عنها لما تخوفوه من فتنتها، وحذروه من سوء مغبتها، وقد كانو على بينة من أمرهم وعلى بصيرة من دينهم؛ لما هداهم الله به من توفيقه، وشرح به صدورهم من نور معرفته، ورأوا أن فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته، وتوقيف السنة وبيانها غنى ومندوحة عما سواهما، وأن [الحاجة](1) دفعت بهما، العلة أزيحت بمكانهما...» إلى أن قال رحمه الله: «إنا لا ننكر أدلة العقول والتوصل بها إلى المعارف، ولكنا لا نذهب في استعمالها إلى الطريقة التي سلكتموها في الاستدلال بالأعراض، وتعلقها بالجواهر، وانقلابها فيها، على حدوث العالم وإثبات الصانع، ونرغب عنها إلى ما هو أوضح بياناً وأصح برهاناً...»(2).

وهذا الإمام أحمد إمام أهل السنة الذي اشتهر عنه النهي عن الكلام وذمه يجيز إعمال العقل والرد على الخصم بما يفحمه،وبيان الأغاليط، وتقريب الأمور بالأمثلة العقلية. ومراد الإمام أحمد بالكلام المنهي عنه هو كلام الخصوم، وهو الكلام الباطل والجدل الفاسد، والأغاليط وسوء

---

(١) في الأصل: [الحجة] ولعل الصحيح ما أثبته.

(٢) ذكره الأصبهاني في كتاب الحجة ١/٣٧٣-٣٧٤، وانظره في صون المنطق للسيوطي ص: ٩٣-٩٤ وانظر : تعليق ابن تيمية على هذا الكلام بعد أن نقله في درء التعارض ٢٨٧/٧ وما بعدها .

التأويل الذي يستخدمونه، لا يعني به الأدلة العقلية الصحيحة[١]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن أحمد لم ينه عن نظر في دليل عقلي صحيح يفضي إلى المطلوب، بل في كلامه في أصول الدين في الرد على الجهمية وغيرهم من الاحتجاج بالأدلة العقلية على فساد قول المخالفين للسنة ما هو معروف في كتبه وعند أصحابه...

وأحمد أشهر وأكثر كلاماً في أصول الدين بالأدلة العقلية : نقلها وعقلها من سائر الأئمة؛ لأنه ابتلي بمخالفي السنة، فاحتاج إلى ذلك. والموجود في كلامه من الاحتجاج بالأدلة العقلية على ما يوافق السنة لم يوجد مثله في كلام سائر الأئمة»[٢].

أما ما يشاع عن السلف وأهل السنة من قِبَل أهل الكلام الباطل أنهم لا خبرة لهم بطرق الجدل، بل هم أعداء للعقل ونتائجه، وأنهم أصحاب دفاتر ومحابر، لا طاقة لهم بمواجهة الخصوم[٣] ولا يستدلون إلا بالخبر المجرد الذي لا يصلح حجة إلا على المؤمنين، وقد يعتذرون لهم بأنهم لم يتفرغوا لهذه العلوم، حيث كانوا منشغلين بالجهاد وفتح البلاد، حتى تفرغ لذلك الخلف من أهل الكلام المذموم، وربما فضلوا طريقتهم على طريقة السلف وساقوا قولتهم المشهورة: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أحكم وأعلم[٤].

---

(١) انظر: مقدمة كتاب الإبانة (الأشعري) لفوقية حسين ص: ١٠٣-١٠٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١٥٣/٧-١٥٤ ، وانظر: ١٤٩/٧.

(٣) انظر: كذب المفتري ص: ١١٦.

(٤) انظر: الكافية في الجدل ص: ٣٤٦-٣٤٧ ، وأساس التقديس ص : ٢٢٢وما بعدها، وشرح البيجوري على الجوهرة ص: ١٠٠ ، وشرح الطحاوية١٩/١ .

فهذا ظن خاطئ، وادعاء كاذب ، بل الإنصاف ما ذكره شارح الطحاوية رحمه الله بقوله: «فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف وعمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم. وتالله، ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء، فالمتأخرون في شأن والقوم في شأن آخر، وقد جعل الله لكل قدراً».(١)

وهذا أبو الفضل العلثي (٦٣٤هـ) يكتب إلى ابن الجوزي (رحمهما الله) وينكر عليه أشياء ومن جملتها التأويل، وزعمه أن جماعة من السلف فوضوا. فقال: «وزعمت أن طائفة من أهل السنة الأخيار تلقوها ـــ يعني نصوص الصفات ـ وما فهموا، وحاشاهم من ذلك، بل كفوا عن الثرثرة والتشدق: لا عجزاً ـ بحمد الله ـ عن الجدال والخصام، ولا جهلاً بطرق الكلام، وإنما أمسكوا عن الخوض في ذلك عن علم ودراية، لا عن جهل وعماية ...».(٢)

ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كيف أن طريق السلف وأهل السنة أعلم وأحكم من طريقة غيرهم، وذلك أن السلف وأهل السنة والحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال،

---

(١) شرح الطحاوية ١/١٩-٢٠ .

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٢٠٧ .

ويمتازون عنهم بما ليس عندهم، فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقاً أخرى مثل: المعقول والقياس والرأي والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة، أو المكاشفة والمخاطبة والوجد والذوق ونحو ذلك. ثم قال رحمه الله: «وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها، فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدهم كلاماً، وأصحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل... وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد: ١٧] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا*وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا*وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٦ - ٦٨]»[1].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «ومن ظن أن الخلف أعلم بالحق وأدلته أو المناظرة فيه من السلف، فهو بمنزلة من زعم أنهم أقوم بالعلم والجهاد وفتح البلاد منهم، وكلا الظنين طريق من لم يعرف حقيقة الدين ولا حال السلف السابقين»[2].

---

(١) نقض المنطق ص : ٧-٨ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١٧٩/٧ .

والسلف وأهل السنة لا يرفضون استعمال العقل والنظر في المعقولات، وإنما يرفضون العقل الفاسد والنظر السقيم، وإلا فإمام السنة أحمد بن حنبل رحمه الله يستعمل المثال العقلي لتقريب المعنى إلى الأذهان، فقال رحمه الله في معرض مناظرته لمنكر استواء الله (تعالى) على عرشه،وذلك بعد أن أورد النصوص الشرعية المبينة للمسألة المتنازع عليها، ثم أتبع ذلك بالتمثيل العقلي، فقال رحمه الله : «ومن الاعتبار في ذلك : لو أن رجلاً كان في يديه قدح من قوارير صاف، وفيه شراب صاف كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون في شيء من خلقه. وخصلة أخرى: لو أن رجلا بنى داراً بجميع مرافقها ثم أغلق بابها وخرج منها، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت في داره، وكم سعة كل بيت من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار، فالله ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه، وعلم كيف هو، وماهو من غير أن يكون في شيء مما خلق»[(١)].

والسلف ـ أيضاً ـ لم يمنعوا من مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم الخاص ولغتهم، فهذا ليس بمكروه عند الحاجة، وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم من الروم والفرس وغيرهم بلغتهم وعرفهم في الخطاب؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة؛ لأن أباها كان من المهاجرين إليها، فقال

---

(١) الرد على الجهمية ص : ١٣٧ .

لها: يا أم خالد، هذا سنا. والسنا بلسان الحبشة: الحسن. لأنها كانت من أهل هذه اللغة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ويترجمها بالعربية كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك حيث لم يأمن اليهود عليه.(١)

إلى غير ذلك مما يحتاجه المناظر من الوسائل المعينة على بيان الحق ودفع الباطل وكسر المبطلين والمعاندين.

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٠٦/٣ . وحديث أم خالد رواه البخاري في صحيحه ٣٠٣/١٠ (فتح الباري) كتاب اللباس ــ باب ما يُدعى لمن لبس ثوباً جديداً ح : ٥٨٤٥.

وأما حديث زيد بن ثابت في تعلم الكتابة فرواه ـ أيضاً ــ البخاري تعليقاً ١٣/١٨٥-١٨٦ (فتح الباري) كتاب الأحكام ـ باب ترجمة الحكام ... ح : ٧١٩٥ ، والترمذي في سننه ٣٤٧/٧ أبواب الاستئذان ـ باب ما جاء في تعلم السريانية ح: ٢٧١٦ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وأبو داود في سننه ٦٠/٤ كتاب العلم ـ باب رواية حديث أهل الكتاب ح : ٣٦٤٥ .

المطلب الثالث

نماذج من مواقف أهل السنة في الجدل والمناظرة

أولاً: مناظرة أهل السنة للخوارج:

روى ابن عبدالبر بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لما اجتمعت الحرورية يخرجون على علي، قال: جعل يأتيه الرجل، فيقول: يا أمير المؤمنين، القوم خارجون عليك. قال: دعوهم حتى يخرجوا، فلما كان ذات يوم قلت: يا أمير المؤمنين، أبرد بالصلاة فلا تفتني حتى آتي القوم. قال: فدخل عليهم وهم قائلون، فإذا هم مسهمة[1] وجوههم من السهر، وقد أثر السجود في جباههم، كأن أيديهم ثَفِن[2] الإبل، عليهم قمص مُرَحَّضَة.[3] فقالوا: ما جاء بك يا ابن عباس، وما هذه الحلة عليك؟ قال: قلت: ما تعيبون مني فلقد رأيت رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من [الثياب][4] اليمنية، قال: ثم قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢] فقالوا: ما جاء

---

(١) مسهمة: متغيرة عن حالها لعارض. انظر: النهاية لابن الأثير ٢/٤٢٩.

(٢) الثفن: جمع ثفنة، وهي ما ولي الأرض من كل ذات أربع إذا بركت كالركبتين وغيرهما، فيحصل فيها غلظ من أثر البروك. انظر: النهاية لابن الأثير ١/٢١٥-٢١٦.

(٣) مرحضة: أي مغسولة. انظر: النهاية لابن الأثير ١/٢٠٨.

(٤) في الأصل [ثياب] ولعل الصواب ما أثبته.

بك؟ فقال: جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله، جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم. قال بعضهم: لا تخاصموا قريشاً؛ فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨] فقال بعضهم: فلنكلمنه. قال: فكلمني منهم رجلان أوثلاثة. قال: قلت: ماذا نقمتم عليه؟ قالوا: ثلاثا. قلت: ما هن؟ قالوا: حكَّم الرجال في أمر الله، وقال الله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[سورة يوسف: ٦٧] قال: قلت: هذه واحدة، وماذا أيضاً؟ قال: فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم؛ فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم، ولئن كانوا كافرين لقد حل قتالهم وسبيهم. قال: قلت: وماذا أيضاً؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. قال: قلت: أرأيتكم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ما ينقض قولكم هذا أترجعون؟ قالوا: وما لنا لا نرجع! قال: قلت: أما حكَّم الرجال في أمر الله، فإن الله قال في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٩٥] وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء: ٣٥] فصيَّر الله ذلك إلى حكم الرجال، فنشدتكم الله، أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين وإصلاح ذات بينهم أفضل، أو في حكم أرنب ثمنها ربع درهم، وفي بُضْع امرأة؟ قالوا: بلى هذا أفضل. قال: أَخَرَجْتُ من هذه؟ قالوا: نعم. قال:

فأما قولكم: قاتل فلم يسب و لم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة؟ فإن قلتم: نسبيها، فنستحل منها ما نستحل من غيرها، فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا فقد كفرتم، فأنتم تردّدون بين ضلالتين. أخرجتُ من هذه؟ قالوا: بلى. قال: وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين، فأنا آتيكم بمن ترضون؛ إن نبي الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو قال رسول الله ﷺ: اكتب يا علي، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ . فقال أبوسفيان وسهيل بن عمرو: ما نعلم أنك رسول الله، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، قال رسول الله ﷺ : اللهم إنك تعلم أني رسولك، أمْحُ يا علي، واكتب : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو . قال: فرجع منهم ألفان، وبقي بقيتهم فخرجوا فقتلوا أجمعين»[1].

وممن ناظر الخوارج أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ﷺ حتى قطعهم وألزمهم الحجة[2].

وممن ناظرهم ــ أيضاً ــ الإمام أبوحنيفة رحمه الله ، حيث أبطل مذهبهم في التحكيم، وذلك أن أحد الخوارج استغلب على الكوفة فدخلها، فأحضر أبا حنيفة وأمر بقتله، فقال له : و لم ؟ فقال : لأنك أجزت التحكيم. قال له: أناظرك عليه، فإن غلبتني قتلتني. قال: نعم. قال:

---

(١) جامع بيان العلم ٢/١٢٦-١٢٨ .

(٢) انظر : جامع بيان العلم ٢/١٢٨-١٣٠ .

فمن يحضر؟ يعني أقوالنا. قال: أحضر من يشهد على قولينا. فقال أبوحنيفة : قد حكّمتَ. فرجع عن قوله وقَتْلِهِ؛ إذ دحضت حجته[١] .

ثانياً: مناظرة أهل السنة للجهمية والمعتزلة:

نشأت بدعة الجهمية بالمشرق وهي القول بنفي الصفات عن ا لله (تعالى)، ودعوى أن كلام ا لله مخلوق؛ ولهذا كان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قول الجهمية من غيرهم من علماء الحجاز والشام والعراق، ويوجد لعبدا لله بن المبارك وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام في الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم. مع أن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم وردوا عليهم، لكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق، لكن قوي أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه المأمون الخلافة وتلقى عن الجهمية ما تلقاه، حتى دعا إلى قولهم حتى كتب إلى نائبه ببغداد: إسحاق بن إبراهيم بن مصعب (٢٣٥هـ) كتاباً يدعو الناس فيه إلى القول بخلق القرآن، فلم يجبه أحد، ثم كتب كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه، فأجاب أكثرهم، ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا، فأجاب منهم خمسة بعد القيد، وبقي اثنان لم يجيبا: **الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح** (٢٢١هـ). فأرسلوهما إليه. فمات قبل أن يصلا إليه، ثم أوصى إلى أخيه أبي إسحاق المعتصم، وكان هذا سنة ثمان عشرة ومائتين. وبقي أحمد في الحبس إلى

(١) عيون المناظرات ص : ٢١٤-٢١٥ .

سنة عشرين، فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه، وظهر مذهب النفاة الجهمية وامتحنوا الناس، فصار من أجابهم أعطوه، وإلا منعوه العطاء، وعزلوه من الولايات ولم يقبلوا شهادته، وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير، فإن أجابهم افتدوه وإلا لم يفتدوه. وكتب قاضيهم: أحمد بن أبي دؤاد (٢٤٠هـ) على ستارة الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، لم يكتب وهو السميع البصير، ثم وليَ الواثق واشتد الأمر إلى أن ولي المتوكل فرفع المحنة، وظهرت حينئذ السنة[(١)].

وذكر الإمام أحمد رحمه الله أنه كان في دار إسحاق بن إبراهيم نائب المأمون يوجه إليه كل يوم برجلين يناظرانه ويكلمانه، حتى إنه قال لأحدهما وهو يناظره: ما تقول في علم الله؟ فقال: علم الله مخلوق. فقال الإمام أحمد: ياكافر، كفرت. قال أحمد: فقال لي الرسول الذي كان يحضر معهم من قِبَل إسحاق: هذا رسول أمير المؤمنين، قال: فقلت: إن هذا قد كفر، وكان صاحبه الذي يجيء معه خارج، فلما دخل قلت: إن هذا زعم أن علم الله مخلوق فنظر إليه كالمنكر عليه، قال: ثم انصرف[(٢)].

وكان ممن ناظرهم الإمام أحمد: عبدالرحمن بن إسحاق وأحمد بن أبي دؤاد وغيرهما، وكان يقول لهم: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة

---

(١) انظر: الفرقان بين الحق والباطل ص: ١٤٩-١٥٠.

(٢) سيرة الإمام أحمد ـ لابنه صالح ص: ٥٣.

رسوله، أقول به ذلك، أي القول بخلق القرآن، وكان كلما انقطع رجل منهم في المناظرة تصدى له ابن أبي دؤاد حتى إذا انقطعوا وعجزوا عنه ردوه إلى الحبس[(١)].

قال الإمام أحمد رحمه الله: «فلما كان في اليوم الثاني أُدخلت عليه ـ أي على المعتصم ـ فقال: ناظروه كلموه. قال: فجعلوا يتكلمون هذا من هاهنا، وهذا من هاهنا، فأرد على هذا وهذا، فإذا جاءوا بشيء من الكلام مما ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا فيه خبر ولا أثر، قلت: ما أدري ما هذا. فيقولون: يا أمير المؤمنين، إذا توجهت له الحجة علينا وثب. وإذا كلمناه بشيء يقول: لا أدري ما هذا. قال: فيقول: ناظروه»[(٢)].

وناظروه في اليوم الثالث. قال أحمد رحمه الله: «فجعلوا يناظروني، ويتكلم هذا فأرد عليه، ويتكلم هذا فأرد عليه، وجعل صوتي يعلو أصواتهم»[(٣)] وكان إذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبي دؤاد، فيقول: يا أمير المؤمنين، والله لئن أجابك لهو أحب إلي من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار، فيعد من ذلك ما شاء الله أن يعد[(٤)].

(١) انظر: سيرة الإمام أحمد ـ لابنه صالح ص: ٥٦، ٥٨، ٥٩ .
(٢) سيرة الإمام أحمد ـ لابنه صالح ص: ٦٠-٦١، وانظر: ترجمة الإمام أحمد ـ للذهبي ص: ٤٦-٤٧.
(٣) ترجمة الإمام أحمد ـ للذهبي ص: ٤٧.
(٤) انظر: سيرة الإمام أحمد ـ لابنه صالح ص: ٦١، وترجمة الإمام أحمد ـ للذهبي ص: ٤٥ .

ثم ضربوه رحمه الله مرة بعد مرة وهو ثابت على قوله لا يتزحزح عنه، حتى مات المعتصم ثم جاء الواثق ثم المتوكل، فرفع الله به المحنة وثبت به السنة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأحمد بن حنبل، وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر في المحنة، فليس ذلك لأنه انفرد بقول، أو ابتدع قولاً، بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها، وصبر على من امتحنه ليفارقها، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة، فلما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات في المائة الثالثة على عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله (تعالى)، وهو المذهب الذي ذهب إليه متأخروا الرافضة، وكانوا قد أدخلوا معهم من أدخلوا من ولاة الأمور، فلم يوافقهم أهل السنة والجماعة حتى تهددوا بعضهم بالقتل، وقيدوا بعضهم، وعاقبوهم وأخذوهم بالرهبة والرغبة، وثبت الإمام أحمد بن حنبل على ذلك الأمر حتى حبسوه مدة، ثم طلبوا أصحابهم لمناظرته فانقطعوا معه في المناظرة يوما بعد يوم، ولم يأتوا بما يوجب موافقته لهم، بل بين خطأهم فيما ذكروه من الأدلة، وكانوا قد طلبوا له أئمة الكلام من أهل البصرة وغيرهم... ولم تكن المناظرة مع المعتزلة فقط، بل كانت مع جنس الجهمية من المعتزلة والنجارية والضرارية وأنواع المرجئة...وظهر للخليفة المعتصم أمرهم وعزم على رفع المحنة، حتى ألحَّ عليه ابن أبي دؤاد يشير عليه: إنك إن لم تضربه، وإلا انكسر ناموس الخلافة. فضربه، فعظمت الشناعة من العامة والخاصة، فأطلقوه...

ورفع الله قدر هذا الإمام، فصار إماماً من أئمة السنة وعلَمَاً من أعلامها؛ لقيامه بإعلامها وإظهارها واطّلاعه على نصوصها وآثارها، وبيانه لخفي أسرارها، لا لأنه أحدث مقالة، أو ابتدع رأياً. ولهذا قال بعض شيوخ المغرب: المذهب لمالك والشافعي، والظهور لأحمد، يعني أن مذاهب الأئمة في الأصول مذهب واحد وهو كما قال»[(١)].

ولهذا صار كل منتسب إلى السنة لا بد أن يواليه ويوافقه في جمل الاعتقاد[(٢)]. كما قال أبوالحسن الأشعري رحمه الله في كتابه "الإبانة"[(٣)]: «قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد ﷺ وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبوعبدالله أحمد ابن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدَّم، وجليل معظَّم، وكبير مفهَّم».

ومناظرة أهل السنة للمعتزلة والجهمية كثيرة ومتنوعة، ولهم في الظهور عليهم وكسرهم مجالس مشهورة؛ من أشهر ذلك: مناظرة

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢/٦٠١-٦٠٦ ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل ٢/٣٠٨، ٥/٥.

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٥/٥.

(٣) ص : ٢٠-٢١ .

عبدالعزيز بن يحيى الكناني المكي (٢٤٠هـ) رحمه الله لبشر بن غياث المريسي بحضرة أمير المؤمنين المأمون. وقد ضمنها كتابه: **الحيدة**، وهي من نوادر المناظرات التي تدل على قوة أهل السنة في الاستدلال والاحتجاج، وسعة علومهم، وصحة فهومهم، ورباطة جأشهم. وحري بالمستزيد من هذا الفن أن يطالعها، ويقف على أسرارها. وسأقتصر هنا على ذكر التحضير لهذه المناظرة واستعداد الكناني لها، وتصوير الموقف الذي تمت فيه. قال عبدالعزيز: «اتصل بي وأنا بمكة ما قد أظهره بشر بن غياث المريسي ببغداد من القول بخلق القرآن، ودعائه الناس إلى موافقته على قوله ومذهبه، وتشبيهه على أمير المؤمنين المأمون وعامة الناس، وما قد دفع إليه الناس من المحنة، والأخذ في دخول هذا الكفر والضلال، ورهبة الناس، وفزعهم من مناظرته، وإحجامهم عن الرد عليه بما يكسرون به قوله، ويدحضون به حجته، ويبطلون به مذهبه، واستتار المسلمين في بيوتهم، وانقطاعهم عن الجمعة والجماعات، وهربهم من بلد إلى بلد خوفاً على أنفسهم وأديانهم، وكثرة موافقة الجهال والرعاع من الناس بِشْراً على كفره وضلاله، والدخول في بدعته، والانتحال لمذهبه، رغبة في الدنيا، أو رهبة من العقاب، ثم ذكر من قلقه وانزعاجه من هذا الأمر ما جعله يرحل إلى بغداد لإظهار السنة على رؤوس الخلائق في المسجد الجامع، متوسلاً بذلك إلى عقد المناظرة بينه وبين أعيان الجهمية، وعلى رأسهم: بشر المريسي، وإعلان الحق، والدعاء إليه، وتزهيق الباطل وكبت أهله بدحض حججهم، ودفع شبههم، وفي ذلك رفع منار السنة، بعد أن كادت معالمها أن تندرس، بسبب منع الفقهاء والمحدثين من القعود

في المساجد للتدريس والتعليم، وتمكين أهل البدع من إشاعة الباطل، وهو: القول بخلق القرآن.

قال عبدالعزيز: فلما كان يوم الجمعة الذي عزمت فيه على إظهار أمري، وإشهار قولي واعتقادي، صليت الجمعة في المسجد الجامع بالرصافة من الجانب الشرقي حيال القبلة والمنبر، في أول صف من صفوف العامة، فلما سلَّم الإمام من صلاة الجمعة، وثبت قائماً على رجلي؛ ليراني الناس، ويسمعوا كلامي، ولا تخفى عليهم مقالتي، وناديت بأعلى صوتي مخاطباً ابني، وكنت قد أقمته بحيالي عند الأسطوانة الأخرى، فقلت له: يا بني، ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق.

قال عبدالعزيز : فلما سمع الناس كلامي ومسألتي لابني، وجوابه لي، هربوا على وجوههم خارجين من المسجد إلا يسيراً من الناس، خوفاً على أنفسهم، وذلك أنهم سمعوا ما لم يكونوا يسمعون، وظهر لهم ما كانوا يخفون ويكتمون، فلم يستتم ابني الجواب حتى أتاني أصحاب السلطان، فاحتملوني وابني وأوقفوني بين يدي عمرو بن مسعدة (٢١٧هـ)... فقال لي: أمجنون أنت؟ قلت: لا. قال: أَفَمُوَسْوَسٌ أنت؟ قلت: لا. قال: أفمعتوه أنت؟ قلت: لا، إني صحيح العقل، جيد الفهم، ثابت المعرفة، والحمد لله كثيراً. قال: أفمظلوم أنت؟ قلت: لا. فقال لأصحابه ورجاله: مُرُّوا بهما سحباً إلى منزلي. ففعلوا ، حتى صارا بين يديه. فقال لعبدالعزيز: من أين أنت؟ قال: قلت: من أهل مكة، فقال: ماحملك على ما فعلت بنفسك؟ قلت: طلب القربة إلى الله عز وجل ورجاء الزلفة

لديه، قال: فهلا فعلت ذلك سراً من غير نداء، ولا إظهار لمخالفة أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه)؟ ولكنك أردت الشهرة والرياء والتسوُّق لتأخذ أموال الناس. فقلت: ما أردت من هذا شيئاً، ولا أردت إلا الوصول إلى أمير المؤمنين، والمناظرة بين يديه، لا غير ذلك. فقال: أو تفعل ذلك؟ قلت: نعم، ولذلك قصدت، وبلغت بنفسي ما ترى، بعد خروجي من بلدي وتغريري بنفسي، مع سلوكي البراري، أنا وولدي؛ رجاء تأدية حق الله فيما استودعني من الفهم والعلم، وما أخذ علي وعلى العلماء من البيان، فقال: إن كنتَ إنما جعلت هذا سبباً لغيره إذا وصلت إلى أمير المؤمنين، فقد حل دمك. فقلت له: إن تكلمت في شيء غير هذا، أو جعلت هذا ذريعة إلى غيره، فدمي حلال لأمير المؤمنين، وهو في حل منه.

ثم أمر به عمرو إلى دار أمير المؤمنين، فأخرج على نفس الهيئة الأولى، فدخل عمرو على أمير المؤمنين يستأذنه في أمر عبدالعزيز، فأذن له في الجمع بينه وبين مناظريه بين يديه، ويكون أمير المؤمنين هو الحاكم بينهم، فَسُرَّ الكناني بهذا الإذن سروراً بالغاً، وأظهر الشكر والدعاء لأمير المؤمنين.

فقال له عمرو: أعطنا كفيلاً بنفسك حتى تحضر معهم في يوم الاثنين - وهو موعد المناظرة - وليس بنا حاجة إلى حبسك، فقال الكناني له: أعزك الله، أنا رجل غريب، ولست أعرف في هذا البلد أحداً، ولا يعرفني من أهله أحد، فمن أين لي من يكفلني، وخاصة مع إظهاري مقالتي؟ لو

كان الخلق يعرفوني لتبرؤوا مني، وهربوا من قربي، وأنكروا معرفتي. فقال عمرو: فنوكل بك من يكون معك، حتى يحضرك في ذلك اليوم، وتنصرف فتصلح من شأنك، وتفكر في أمرك، فلعلك أن ترجع عن غيك، وتتوب من فعلك، فيصفح أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) عن جرمك.

فلما كان يوم الاثنين حمل الكناني - مكرماً - إلى دار أمير المؤمنين، ودخل - أولاً - على عمرو بن مسعدة، فسأله: أنت مقيم على ما كنت عليه، أم رجعت عنه؟ فقلت: بل مقيم على ما كنت عليه، وقد ازددت بتوفيق الله إياي بصيرة في أمري. فقال عمرو: أيها الرجل، قد حملت نفسك على أمر عظيم، وبلغت الغاية في مكروهها، وتعرضت لما لا قوام لك به من مخالفة أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) وادعيت ما لا تثبت لك به حجة على مخالفيك، وليس وراءك بعد الحجة إلا السيف، فانظر لنفسك، وبادر أمرك قبل أن تقع المناظرة، وتظهر عليك الحجة، فلا تنفعك الندامة، ولا تقبل لك معذرة، ولا تقال لك عثرة، وقد رحمتك، وأشفقت عليك مما هو نازل بك، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين(أطال الله بقاءه) وأسأله الصفح عن جرمك، وعظيم ما كان منك، إن أظهرت الرجوع عنه، والندم على ما كان منك، وآخذ لك الأمان منه (أيده الله) والجائزة، وإن كانت لك ظُلامة أزلتها عنك، وإن كانت لك حاجة قضيتها لك، فإنما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أقمت

على ما أنت عليه، ورجوت أن يخلصك الله (تعالى) على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه. فقال الكناني: ما ندمت(أعزك الله) ولا رجعت، ولا خرجت من بلدي، وغررت بنفسي، إلا في طلب هذا اليوم، وهذا المجلس، رجاء أن يبلغني الله ما أؤمل من إقامة الحق، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وهو حسبي ونعم الوكيل. فقام عمرو على رجليه،وقال: قد حرصت على خلاصك جهدي، وأنت حريص مجتهد في سفك دمك، وقتل نفسك. فقال عبدالعزيز: معونة الله أعظم، والله عز وجل ألطف من أن يسلمني، أو يكلني إلى نفسي، وعدل أمير المؤمنين(أطال الله بقاءه) أوسع من أن يقصر عني، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم أمر بالكناني، فأدخل إلى الدهليز ومعه جماعة موكلون به، وقد حضر القضاة والفقهاء الموافقون لمذهب الجهمية، وسائر المتكلمين والمناظرين، وأمر القواد والأمراء والأولياء أن يركبوا بالسلاح، كل ذلك ليبعثوا الرعب والخوف في نفس الكناني، ومُنع الناس من الانصراف إلى أن ينقضي المجلس، فلما اجتمع الناس وتكاملوا ولم يتخلف منهم أحد ممن يعرف بالكلام والجدل، أذن له بالدخول، فلم يزل ينتقل من دهليز إلى دهليز، حتى صار إلى الحاجب صاحب الستر، الذي على باب الصحن، قال عبدالعزيز: فلما رآني أمر بي، فأدخلت إلى حجرته، ودخل معي، فقال لي: إن احتجت أن تجدد طهراً فافعل، فقلت: لا حاجة لي إلى ذلك،

فقال لي: صل ركعتين قبل دخولك، فصليت أربع ركعات، ودعوت الله عز وجل وتضرعت إليه، فلما فرغت أمر من كان بحضرته فخرج من الحجرة، ثم تقدم إلي فقال لي وهو يسارني: يا هذا، إن أمير المؤمنين بشر مثلك من ولد آدم، وكذلك كل من يناظرك بحضرته فهو مثلك بشر، فلا تتهيبهم، واجمع فهمك وعقلك لمناظرتهم، وإياك والجزع، واعلم علماً يقيناً أنه إن ظهرت حجتك عليهم انكسروا، وانقطع كلامهم عنك، وأذللتهم وغلبتهم، ولم يقدروا لك على مضرة، ولا مكروه، وصار أمير المؤمنين والرعية معك عليهم، وإن ظهرت حجتهم عليك أذلوك، وقتلوك، وشهروك، وجعلوك للخلق عبرة، فاجمع همتك ومعرفتك، ولا تدع شيئاً مما تحسنه، أو تحتاج أن تتكلم به، خوفاً من أمير المؤمنين، أو من أحد غيره، وتوكل على الله واستخر الله، وقم وادخل. فقلت: جزاك الله خيراً، فقد أديتَ النصيحة، وسكّنتَ الروعة، وآنست الوحشة، وخرج، وخرجت معه إلى باب الصحن.

ودخل الكناني إلى الصحن، فكاد عقله أن يتغير لعظم ما رأى فيه من السلاح والرجال، فقربوه حتى انتهى إلى الموضع الذي يجلس فيه المتناظرون بين يدي أمير المؤمنين. قال الكناني: فسمعت رجلاً من جلسائه يقول: وقد دخلت من باب الإيوان، يا أمير المؤمنين (أطال الله بقاءك) يكفيك من هذا قبح وجهه، لا والله، ما رأيت خلقاً لله قط أقبح وجهاً منه. سمعته يقول هذا، وفهمت كلامه كله، ورأيت شخصه على ما بي من الرعدة والجزع.

قال الكناني: وتبين أمير المؤمنين ما أنا فيه، وما قد نزل بي من الجزع والخوف، فجعل ينظر إلي وأنا أرتعد وأنتفض، فأحب أن يؤنسني، وأن يسكّن عني بعض ما قد لحقني، وأن يبسطني، فجعل يكثر كلام جلسائه، ويكلم خليفته عمرو بن مسعدة، ويتكلم بأشياء كثيرة مما لا يحتاج أن يتكلم بها؛ يريد بذلك كله إيناسي، وجعل يطيل النظر إلى الإيوان، ويدير طرفه فيه، فوقعت عينه على موضع من نقش الجص قد انتفخ، فقال: يا عمرو، أما ترى هذا الذي قد انتفخ من النقش في الجص، وسيقع، فبادره في يومنا هذا، فقال عمرو: قطع الله يدي صانعه، فإنه قد استحق العقوبة على عمله هذا.

وأقبل أمير المؤمنين على الكناني يسأله عن اسمه وقبيلته وموطنه وعن جماعة من بني هاشم بمكة، كل ذلك يريد إيناسه، وتسكين روعه وجزعه، حتى ذهب ما كان يجده من ذلك. ثم أخبره أنه قد جمع بينه وبين مخالفيه للمناظرة بين يديه، وأن يكون هو الحاكم بينهم، ثم قال المأمون: فإن تكن لك الحجة عليهم والحق معك تبعناك، وإن تكن الحجة لهم عليك والحق معهم عاقبناك أو استتبناك. ثم أقبل المأمون على بشر المريسي، فقال: يا بشر، قم إلى صاحبك فناظره وأنصفه. قال عبدالعزيز: فوثب بشر إلي من موضعه الذي كان فيه كالأسد إلى فريسته، فجاء فانحط علي، فوضع فخذه اليسرى على فخذي اليمنى، فكاد أن يحطمها، واعتمد علي بقوته كلها، فقلت له: مهلاً، فإن أمير المؤمنين(أطال الله

بقاءه) لم يأمرك بقتلي ولا بظلمي، وإنما أمرك بمناظرتي وإنصافي، فصاح به المأمون: تنحَّ عنه، وكرَّر ذلك عليه مراراً، حتى باعده عني.

قال عبدالعزيز: ثم أقبل علي المأمون، فقال: يا عبدالعزيز: ناظره على ما تريد، واحتج عليه، ويحتج عليك، وسله ويسألك، وتناصفا في كلامكما، وتحفظا ألفاظكما، فإني مستمع لكما، ومتحفظ ألفاظكما.

قال عبد العزيز: فقلت: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين، ولكني أقول شيئاً، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيه فعلت. فقال: قل ما تريد، فقلت: يا أمير المؤمنين (أطال الله بقاءك) إني رجل عربي، وفي كلامي دقة و لم يسمع أمير المؤمنين من كلامي قبل هذا الوقت شيئاً، فجليل كلامي في سمع أمير المؤمنين دقيق، وبشر يا أمير المؤمنين، رجل قد كثر سماع أمير المؤمنين لكلامه، فصار دقيق كلامه في سمع أمير المؤمنين جليلاً، فإن رأى أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) أن يأذن لي، فأقدم شيئاً من كلامي في هذا المجلس؛ ليقيس ما يدق بعده من كلامي على ما يتقدم، ويعرف مذهبي في كلامي، ثم يجمعني ومَنْ أحب للمناظرة بعد هذا اليوم في أي وقت شاء. قال المأمون: أنا مشغول عن هذا بما يلزمني من أمر المسلمين، وإنما جمعتك ومخالفيك، لما أظهرت من مخالفتك إياهم، وذمك لمذهبهم، وادعائك الرد عليهم، ومسألتك الجمع بينك وبينهم، ولست أجمعك وإياهم بعد هذا المجلس إلا لاستتمام ما بقي عليكم من المناظرة.

قال عبدالعزيز: فقلت في نفسي هذا الذي سألت الله عز وجل أن يبلغنيه،

وعاهدته لئن بلغنيه لأقومن بحقه، ولأَذُبَّنَّ عن دينه بما يُلْهِمُنِي من توفيقه صابراً محتسباً، ولو عُرِضْتُ على السيف والقتل، حتى إذا بلغني الله ما أمَّلْتُه، وأعطاني ما سألته، وأيدني بالمعونة، وكفاني المؤونة، عطف بقلوب عباده علي، وصرف عني ما كنت أُحاذر من سوء بادرة تكون قبل قيامي بحق الله، أأنقض عهده، وأُخلف وعده، وأَكْفُر نعمه، فيسخط علي ويخذلني ويكلني إلى نفسي؟! والله، والله لا فعلت، ولو تَلِفَت نفسي.

قال عبدالعزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، إني لم أتهيَّب المناظرة، ولم أعجز عنها، وإنما أحببت أن أقدم في هذا المجلس شيئاً من كلامي ليقف من بحضرة أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) ومن في مجلسه، على معنى كلامي ودقته، فلا يخفى عليهم بعض ما يجري بيننا. فقال المأمون لبشر: ناظر صاحبك على ما يريد.

قال عبدالعزيز: فقلت يا أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) إن رأيت أن تأذن لي فأتكلم بشيء قد شغل قلبي قبل مناظرتي لبشر، فقال لي: تكلم بما شئت، فقد أذنت لك، فقلت: أسألك بالله يا أمير المؤمنين، من بلغك أنه كان أجمل البشر من ولد آدم عليه السلام؟ قال، فأطرق مليًّا ثم رفع رأسه، فقال: يوسف عليه السلام. فقلت: صدقت يا أمير المؤمنين، فوالله ما أعطي يوسف على حسن وجهه حبتين، ولقد سُجِن وضُيِّقَ عليه من أجل حسن وجهه، بعد أن وُقِفَ على براءته بالشاهد الذي أنطقه الله عز وجل بتصديقه، وبعد إقرار امرأة العزيز أنها هي التي راودته عن نفسه،

فاستعصم، فحبس بعد ذلك كله لحسن وجهه، قال ا لله عـز وجـل: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [سورة يوسف: ٣٥] فـدلَّ بقولـه علـى أنه سجن بغير ذنب لعلة حسن وجهه، وليغيبوه عنها وعن غيرهـا، فطـال في السجن حبسه حتى إذا عبَّر الرؤيا، ووقف الملك على علمـه ومعرفتـه، اشتاق إليه، ورَغِبَ صحبته، فقال عـز وجـل ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [سورة يوسف: ٥٤] وكـان هـذا القـول مـن الملـك بعـد تعبـير يوسـف الرؤيا، ووقوف الملك على علم يوسف، ومعرفته قبـل أن يسـمع كلامـه، فلما دخل عليه وسمع كلامه وحسن عبارته، صيَّره علـى خزائـن الأرض، وفوَّض إليه الأمور كلها، وتبرَّأ منها، وصار كأنـه مـن تحـت يـده، فكـان هذا الذي بلغه يوسف عليه السلام بكلامه وعلمه لا بحسنه ولا بجماله، قـال ا لله عز وجل: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٥٥] و لم يقل إني حسن جميل، وقال ا لله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [سورة يوسـف: ٥٦] فـوا لله يـا أمير المؤمنين، ما أبالي أن وجهي أقبـح ممـا هـو، وإنـي أُحْسِـن مـن الفهـم والعلم أكثر مما أُحْسِن.

قال عبدالعزيز: فقال لي المأمون: وأي شيء أردتَ بهذا القـول، ومـا الذي دعاك إلى ذكر هذا؟ فقلت: سمعـت بعـض مـن هاهنـا يقـول لأمـير المؤمنين: يكفيك من كلامه قبح وجهه، فما يضرني قبح وجهي مع ما قد رزقني ا لله عز وجل من فهم كلامه والعمل بسـنة نبيـه ﷺ. قـال: فتبسـم

المأمون حتى وضع يده على فيه، ثم قلت: يا أمير المؤمنين (أطال الله بقاءك) قد رأيتك تنظر إلى هذا النقش في الحائط وتنكر انتفاخ الجص، وسمعت عمراً يعيب ذلك، ويدعو على صانعه، ولا يعيب الجص، ولا يدعو عليه، فقال المأمون: العيب لا يقع على الشيء المصنوع، وإنما يقع على الصانع. قال: قلت: صدقتَ يا أمير المؤمنين، وقلتَ الحق، فهذا يعيب ربي لم خلقني قبيحاً، فازداد تبسمه حتى ظهرت ثناياه.

ثم جرت المناظرة، وكان موضوعها: دعوى بشر ومن شايعه من القول بخلق القرآن، حتى قطعه المكي، وأظهر الله من كسر قول بشر، ودحض حجته وبطلان مذهبه، ووقوف المأمون وسائر الأولياء وأهل القرآن والفقه، ومن كان ببغداد من سائر الناس على ذلك، ما أعزَّ الله به الإسلام وأهله، وأضلَّ به أهل الضلالة والردى، والدعاة إلى مخالفة الإسلام ونقض أخبار القرآن، والتلبيس على عباده، فقويت قلوب المؤمنين، وظهر سرورهم، وعلا الحق وجُهِرَ به القول، وأُمْحِقَ الباطل واسْتُخفي به الصوت، وكبت الله أعداءه، وأقام منار الإسلام والسنة، والحمد لله رب العالمين.

ومن عيون المناظرات التي تمت أيام المحنة بين شيوخ السنة والقائلين بخلق القرآن من المعتزلة والجهمية، ما ذكره أبوبكر الآجري رحمه الله في كتاب الشريعة[(١)] حيث قال: «بلغني عن المهتدي رحمه الله أنه قال: ما

---

(١) ص :٦٢-٦٤، وانظر : تاريخ بغداد ٤/١٥٢، ومروج الذهب ٤/١٠٤-١٠٦، ومناقب الإمام أحمد ـ ابن الجوزي ص : ٤٣١- ٤٣٧، ومحنة الإمام أحمد ــ عبد الغني المقدسي ص : ١٦٧-١٧٥.

قطع أبي - يعني الواثق - إلا شيخ [(١)] جيء به من المصِّيصَة، فمكث في السجن مدة، ثم إن أبي ذكره يوماً، فقال علي بالشيخ فأتي به مقيداً، فلما وقف بين يديه سلَّم عليه، فلم يرد عليه السلام. فقال له الشيخ: يا أمير المؤمنين، ما استعملت معي أدب الله عز وجل، ولا أدب رسوله ﷺ؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [سورة النساء: ٨٦] وأمر النبي ﷺ برد السلام. فقال له: وعليك السلام، ثم قال لابن أبي دؤاد سله، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا محبوس مقيد أصلي في الحبس بتيمم، مُنِعْتُ الماء، فمُرْ بقيودي تُحَل، ومُرْ لي بماء أتطهر وأصلي، ثم سلني. فأمر فحل قيده، وأمر له بماء فتوضأ وصلَّى لله. ثم قال لابن أبي دؤاد: سله، فقال الشيخ: المسألة لي [(٢)]، فأْمُرْه أن يجيبني. فقال: سل، فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد يسأله، فقال: خبِّرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه، أشيء دعا إليه رسول الله ﷺ ؟ قال: لا. قال: فشيء دعا إليه أبوبكر الصديق ﷺ بعده؟ - ثم ذكر عمر وعثمان وعلياً، وفي كل مرة يقول ابن أبي دؤاد: لا. قال الشيخ: فشيء لم يدع إليه رسول

---

(١) جاء في بعض الروايات أن اسمه: أبوعبدالرحمن بن محمد بن إسحاق الأذرمي. انظر : سير أعلام النبلاء ٣١٢/١١ وما بعدها .

(٢) وجاء في رواية أن الواثق قال للشيخ: أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد عما يسألك عنه، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أحمد يقِلُّ ويضعف عن المناظرة. قال المهتدي: فرأيت الواثق قد صار مكان الرقة والرحمة له غضباً. فقال له: أبو عبد الله يضعف عن المناظرة؟! فقال له: هوِّن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه، فأذن له ، فكلمه حتى قطعه . مروج الذهب ١٠٤/٤.

الله ﷺ ولا أبوبكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ﷺ تدعو إليه أنت الناس؟ ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه. فإن قلت: علموه وسكتوا عنه، وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم. فإن قلت جهلوه وعلمته أنت، فيا لكع ابن لكع يجهل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم شيئاً وتعلمه أنت وأصحابك. قال المهتدي: فرأيت أبي وثب قائماً ودخل الحيرى، وجعل ثوبه في فيه، فضحك، ثم جعل يقول: صدق، ليس يخلو من أن تقول: علموه أو جهلوه، فإن قلت: علموه وسكتوا عنه وسعنا من السكوت ما وسع القوم، وإن قلنا: جهلوه وعلمته أنت، فيا لكع ابن لكع، يجهل النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم شيئاً تعلمه أنت وأصحابك؟ ثم قال: يا أحمد. فقلت: لبيك، فقال: لست أعنيك، إنما أعني ابن أبي دؤاد، فوثب إليه، فقال: أعط هذا الشيخ نفقته وأخرجه عن بلدنا».

وجاء في سياق هذه القصة عند ابن الجوزي[1] أن المهتدي لما أمر الواثق بقطع قيد الشيخ ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه، فجاذب الحداد عليه، فقال الواثق: دع الشيخ يأخذه، فأخذه فوضعه في كمه، فقال له الواثق: يا شيخ، لم جاذبت الحداد عليه؟ قال: لأني نويت أن أتقدم إلى من أوصي إليه إذا أنا متُّ أن يجعله بيني وبين كفني، حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، وأقول: يا رب، سل عبدك هذا لم قيدني، وروّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك علي؟

(١) مناقب الإمام أحمد ص: ٤٣٥-٤٣٦.

وبكى الشيخ وبكى الواثق وبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل وسعة مما ناله، فقال الشيخ: وا لله يا أمير المؤمنين، لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم إكراماً لرسول ا لله ﷺ إذ كنت رجلاً من أهله. فقال الواثق: لي إليك حاجة. فقال الشيخ: إن كانت ممكنة فعلتُ. فقال له الواثق: تقيم قبلنا ننتفع بك وينتفع بك فتياننا. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إنّ ردّك إياي إلى الموضع الذي أخرجني عنه هذا الظالم أنفع لك من مقامي عليك، وأخبرك بذلك: أصير إلى أهلي وولدي فأكف دعاءهم عليك، فقد خلفتهم على ذلك، ثم أذن له الواثق أن يخرج إلى الثغر الذي جيء به منه.

وقال المهتدي: وسقط من عينه ـ يعني الواثق ـ ابن أبي دؤاد، و لم يمتحن بعد ذلك أحداً"[1]. وجاء ـ أيضاً ـ أن المهتدي قال: رجعت عن هذه المقالة، وأظن أن الواثق رجع عنها منذ ذلك الوقت.[2]

ومن مناظرات متأخري أهل السنة ما وقع لشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره مع أهل البدع والإلحاد، وأذكر ـ هنا ـ على سبيل المثال المناظرة الموسومة بمناظرة الواسطية، والواسطية هي عقيدة أملاها الشيخ لأحد قضاة واسط، لتكون عمدة له ولأهل بيته. قال الشيخ رحمه ا لله: "فقد سُئلتُ غير مرة أن أكتب ما حضرني ذكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة في أمر الاعتقاد بمقتضى ما ورد به كتاب السلطان من

(١) انظر : المرجع السابق ص : ٤٣٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص : ٤٣٦ .

الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد، لمَّا سعى قوم من الجهمية والاتحادية[1] والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد.

فأمر الأمير بجمع القضاة الأربعة: قضاة المذاهب الأربعة، وغيرهم من نوابهم، والمفتين والمشائخ، ممن له حرمة وبه اعتداد، وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة.

فقال لي: هذا المجلس عقد لك، فقد ورد مرسوم السلطان بأن أسألك عن اعتقادك، وعما كتبت به إلى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس إلى الاعتقاد، وأظنه قال: وأن أجمع القضاة والفقهاء، وتتباحثون في ذلك. فقلت: أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني، ولا عمن هو أكبر مني، بل يؤخذ عن الله ورسوله ﷺ وما أجمع عليه سلف الأمة، فما كان في القرآن وجب اعتقاده، وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم... وكان يرد علي من مصر وغيرها من يسألني

---

(١) الاتحادية : الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ألفاظ متقاربة، وقد يكون هناك نوع تفريق بينها؛ كأن يكون في الاتحاد والحلول الاعتراف بالاثنينية : وجود الخالق ووجود المخلوق، ثم حدث الامتزاج؛ إما بارتفاع المخلوق ليتحد بالخالق، أو أن ينزل الخالق ليحل في المخلوق. أما وحدة الوجود، ففيها نفي الاثنينية، فما ثم إلا شيء واحد؛ إما أن يسمى الخالق أو المخلوق. وهذه الاصطلاحات شاعت في غلاة الرافضة والمتصوفة من أمثال السبئية والحلمانية والحلاجية ونحوها من فرق الغلاة. انظر: الفرق بين الفرق ص: ٢٥٤، واعتقادات فرق المسلمين ص: ١١٦، والمعجم الفلسفي (مجمع اللغة) ص: ٢، ٢٠٩، والموسوعة الميسرة ـ غربال ص: ٤٥.

عن مسائل في الاعتقاد وغيره فأجيبه بالكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة. فقال: نريد أن تكتب لنا عقيدتك. فقلت: اكتبوا. فأمر الشيخ كمال الدين (٧٢٧هـ) أن يكتب، فكتب له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات والقدر، ومسائل الإيمان والوعيد والإمامة والتفضيل... ثم قلت للأمير والحاضرين: أنا أعلم أن أقواماً يكذبون علي كما قد كذبوا علي غير مرة، وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون: كتم بعضه، أو داهن وداري، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين، قبل مجيء التتر إلى الشام ... فحضرت العقيدة الواسطية... فأشار الأمير بأن لا أقرأها أنا لرفع الريبة، وأعطاها لكاتبه الشيخ كمال الدين، فقرأها على الحاضرين حرفاً حرفاً، والجماعة الحاضرون يسمعونها، ويورد المورد منهم ما شاء، ويعارض فيما شاء، والأمير ـ أيضاً ـ يسأل عن مواضع فيها، وقد علم الناس ما كان في نفوس طائفة من الحاضرين من الخلاف والهوى، ما قد علم الناس بعضه، وبعضه بسبب الاعتقاد، وبعضه بغير ذلك.

ولا يمكن ذكر ما جرى من الكلام والمناظرات في هذه المجالس، فإنه كثير لا ينضبط، لكن أكتب ملخص ما حضرني من ذلك، مع بعد العهد بذلك، ومع أنه كان يجري رفع أصوات ولغط لا ينضبط».

وجاء فيما كتبه الشيخ عما جرى في هذه المجالس أنه كان يجيب على اعتراضات الحاضرين ويبين مواضع الإشكال، ويستدل بالكتاب والسنة وأحوال السلف، ويبين أنه استعمل الاصطلاح القرآني السني السلفي

متجنباً اصطلاحات المتأخرين. ثم قال رحمه الله: «وقلت مرات: قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين، فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة ـ التي أثنى عليها النبي ﷺ حيث قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" يخالف ما ذكرته، فأنا أرجع عن ذلك، وعلي أن آتي بنقول جميع الطوائف ـ عن القرون الثلاثة توافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم». ثم ذكر الشيخ أنه جرى الكلام بينه وبين بعض من في المجلس في مسائل؛ منها: مسألة الحرف والصوت، وكان قد أشيع أن الإمام أحمد وأصحابه يقولون بقدم صوت القارئ ومداد المصاحف، وكان بعض الحاضرين يتربص بالشيخ في هذه المسألة. وهو إما أن يجيب الشيخ بما في ظنهم أن أهل السنة يقولونه فيحصل مقصودهم من الشناعة، أو يجيب بما يقولونه هم فيحصل مقصودهم من الموافقة. فلما أجابهم الشيخ بالفرقان الذي عليه أهل السنة، وليس هو ما يقوله هؤلاء المخالفون، ولا ما ينقلونه عن أهل السنة، بهتوا بذلك. ثم جرى الكلام في مسألة القرآن، وبيَّن الشيخ أن القرآن كلام الله حقيقة، وأنه إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا من قاله مبلغاً. فاستحسنوا ذلك الكلام وعظموه، حتى أكبر خصوم الشيخ أخذ يظهر تعظيم هذا الكلام كابن الوكيل (٧١٦هـ) وغيره، وأظهر الفرح، وقال: «إنك قد أزلت عنا هذه الشبهة، وشفيت الصدور».

ثم جرى كلام في تصحيح بعض الأحاديث التي وردت في الواسطية، وأنكروا على الشيخ تصحيحه إياها، فبيَّن حجته، وأجاب على اعتراضهم، حتى وافقوه على ذلك، وذكروه بالمدح والثناء.

وهكذا، حتى أظهر الله من قيام الحجة وبيان المحجة ما أعز الله به السنة والجماعة، وأرغم به أهل البدعة والضلالة[1].

ثالثاً: مناظرة أهل السنة للشيعة:

وهي مناظرات كثيرة، لكني أذكر هنا واحدة منها، هي من أعظمها بركة على الإسلام وأهله، قد سطرها من قام بها وأشرف عليها وهو العلامة عبدالله بن الحسين السويدي (١١٧٤هـ) رحمه الله، وعرفت بمؤتمر النجف[2]، وكان ذلك سنة ست وخمسين ومائة وألف للهجرة حين أرسله الوزير أحمد باشا (١٧٧٣م) إلى الشاه نادر (١١٤٧هـ)، إذ طلب الأخير عالماً يبحث مع علماء العجم في شأن مذهب الشيعة، ويقيم الدلائل على بطلانه، وكان الشيخ عبدالله السويدي قد هاب الأمر أولاً، فقال لرسول الوزير: أنت تعلم أن الروافض أهل عناد ومكابرة، فكيف يسلمون لما أقول؟! لا سيما وهم في شوكتهم وكثرة عددهم، وهذا الشاه ظالم غشوم، فكيف أتجاسر على إقامة الدليل على بطلان مذهبه وتسفيه رأيه؟! وكيف تحصل المباحثة معهم وهم ينكرون كل حديث عندنا، فلا يقولون بصحة الكتب الستة ولا غيرها، وكل آية أحتج بها يؤولونها

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/١٦٠-٢٠١.

(٢) انظر: النفحة المسكية في الرحلة المكية ص: ١٢-٢٧ (مخطوط)، ونشرها محب الدين الخطيب مطبوعة مع كتابه الخطوط العريضة باسم: مؤتمر النجف. انظر: ٦٤ وما بعدها.

ويقولون: الدليل إذا تطرقه الاحتمال يبطل به الاستدلال، كما أنهم يقولون: شرط الدليل أن يتفق عليه الخصمان، فكيف أثبت لهم جواز المسح على الخفين وهو قد ثبت بالسنة، فإن قلت: روى حديث المسح على الخفين نحو سبعين صحابياً، منهم الإمام علي، قالوا: عندنا ثبت عدم جواز المسح برواية أكثر من مائة صحابي منهم: أبوبكر وعمر، فإن قلت: إن هذه الأحاديث التي توردونها في عدم صحة المسح موضوعة مفتراة، قالوا: كذلك الأحاديث التي توردونها في صحة المسح موضوعة، فما هو جوابهم هو جوابنا. فكيف يلزموننا بهذه الأحاديث. فأرجو من جناب الوزير أن يرفع هذه المحنة عني، وليرسل المفتي الحنفي أو المفتي الشافعي، فإنهما الأنسب في مثل هذه الحادثة.

فقال رسول الوزير: هذا أمر لا يمكن، وجناب الباشا اختارك لذلك، فما يسعك سوى الامتثال، فلا تحرك لسانك بخلاف مراده.

ثم اجتمع السويدي بالوزير وتباحثا في هذا الأمر، ثم دعا له الوزير بأن يقوي الله حجته، ويطلق بالصواب لسانه، ثم ذكر له أنه مخير بين المباحثة مع العجم وتركها، لكنه إن رأى الإنصاف منهم، وإرادة الصواب فليبحث معهم.

ثم خرج السويدي رحمه الله يطلب النَجَف، وهو في الطريق يصور في نفسه الدلائل من الطرفين، واعتراضاتها، وأجوبة تلك الاعتراضات. قال السويدي: ولم يزل هذا دأبي وديدني، لا فكر لي إلا في تصوير

الدلائل، ودفع الشبه، حتى أني صورت أكثر من مائة دليل، وعلى كل دليل جعلت جواباً، أو جوابين أو ثلاثة على حسب الشبه ومظنتها.

وأخبره بعض أهل السنة في الطريق أن الشاه جمع لهذه المسألة كل مفت في بلاده، وأنهم بلغوا الآن سبعين مفتياً،كلهم روافض، قال السويدي: فلما طرق سمعي ذلك، حوقلت واسترجعت.

فلما وصل السويدي النجف طلبه الشاه قبل أن ينزل ويستريح، فأدخل ذلك في نفسه الخوف. قال السويدي: وقلت في نفسي: ما طلبك الشاه مستعجلاً إلا ليلجئك على الإقرار والتصديق بمذهب الإمامية؛ فأولاً يرغبك في الأموال، فإن أجبته، وإلا أكرهك على ذلك، فما رأيك؟ فخرجت على أني أقول الحق ولو كان فيه تلف نفسي، ولا يميلني ترغيب، ولا يزعجني ترهيب. ثم ذكر موقف أبي بكر الصديق ﷺ في حروب الردة، وموقف أحمد بن حنبل رحمه الله في المحنة، فقويت نفسه بذلك، ووطنها على الموت حتى استسهلته.

ثم لقي السويدي الشاه الذي أخبره أن بمملكته فرقتين: تركستان وأفغان، يقولون للإيرانيين: أنتم كفار، والكفر قبيح، ولا يليق أن يكون في مملكتي قوم يكفر بعضهم بعضاً. ثم قال له: فالآن أنت وكيل من قبلي، ترفع جميع المكفرات، وتشهد على الفرقة الثالثة بما يلتزمونه...ثم رخص لي بالخروج. قال السويدي: فخرجت وأنا في غاية الفرح والسرور؛ لأن حكم العجم صار بيدي.

وأمر الشاه أن يجتمع السويدي مع الملا باشا علي أكبر، وهو من علماء الشيعة، وفي الطريق إليه نصح مفتي الأفغان السويدي بأن لا يغتر بقول الشاه الذي فيه توكيله برفع المكفرات، وذلك أن الشاه إنما أرسل السويدي إلى الملا باشا للمباحثة، فليكن منه على حذر.

ثم جرت المباحثة بين السويدي والملا في مسألة أحقية علي ﷺ بالخلافة، وفي قوله ﷺ لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.[(١)] واستدلال الشيعة به على خلافة علي ﷺ، فناظره السويدي في ذلك بوجوه من الردود بليغة، ومفحمة، حتى قطعه. وحتى قال بعض الحاضرين من الشيعة مخاطباً الملا باشا: اترك المباحثة مع هذا، فإنه شيطان مجسِّم، وكلما زدت في الدلائل وأجابك عنها انحطت منزلتُك.

ثم جرت المناظرة في الموضوع نفسه لكن على منحى آخر، بيَّن فيه السويدي كيف أن علياً ﷺ زوج ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب رضي الله عن الجميع، وأن اعتذار الشيعي بأن علياً كان مكرهاً على التزويج منقصة في علي أضافوها إليه، لا يرضى بها أدنى العرب، فضلاً عن بني هاشم الذين هم سادات العرب وأكرمها أرومة، وذلك أن أدنى العرب يبذل نفسه دون عرضه، ويُقتل دون حرمه، فكيف يضيفون ذلك لعلي وهو الشجاع، ليث بني غالب، وفارس المشارق والمغارب.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٧/٧١ كتاب فضائل الصحابة ــ باب مناقب علي بن أبي طالب ﷺ ح: ٣٧٠٦ ، ومسلم في صحيحه ٤/١٨٧١ كتاب فضائل الصحابة ــ باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ ح : ٢٤٠٤.

فانتقل الشيعي إلى شبهة أخرى يتعلق بها، وهي أنه ربما زفت لعمر جنيَّة[1] في صورة أم كلثوم، فبين له السويدي أن هذا أشنع، وأنه لو فتح هذا الباب لانسدت أبواب الشريعة؛ لأن باب الاحتمالات والتجويزات لا نهاية له، ولا ضابط له.

ثم قال السويدي: ثم قلت له: ما حكم أفعال الخليفة الجائر؟ هل هي نافذة عند الشيعة؟

فقال: لا تصح، ولا تنفذ.

فقلت: أنشدك الله، أي عشيرة محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ؟

فقال: من بني حنيفة.

فقلت: من سبى بني حنيفة؟

قال: لا أدري. وهو كاذب.

فقال بعض الحاضرين من علمائهم: سباهم أبوبكر ﷺ.

فقلت: كيف ساغ لعلي أن يأخذ جارية من السبي ويتولدها، والإمام ـ على زعمكم ـ لا تنفذ أحكامه لجوره، والاحتياط في الفروج أمر مقرر.

فقال: لعله استوهبها من أهلها، يعني زوجوه بها.

قلت: يحتاج هذا إلى دليل. فانقطع، والحمد لله.

ثم قال السويدي رحمه الله للشيعي: إنما لم آتك بحديث أو آية؛ لأني مهما بالغت في صحة الحديث، أقول رواه أهل الكتب الستة وغيرهم، فتقول: أنا لا أقول بصحتها، وشرط الدليل أن يتفق عليه الخصمان.

---

(١) انظر هذه الفرية والجواب عليها ـ أيضاً ـ في العثمانية ـ للجاحظ ص : ٢٤٢ .

ولو أتيتك بآية وقلت: أجمع أهل التفسير على أن حكمها كذا، وأنها نزلت في شأن أبي بكر. قلت: إجماع أهل التفسير لا يكون حجة علي، وتذكر تأويلاً بعيداً، وتقول: الدليل إذا تطرقه الاحتمال بطل به الاستدلال.فهذا الذي دعاني إلى ترك الاستدلال بالآية أو الحديث.

قال السويدي:ثم إن الشاه أُخبِر بهذه المباحثة طبق ما وقع، فأمر أن يجتمع علماء إيران وعلماء الأفغان وعلماء ما وراء النهر، ويرفعوا المكفرات، ويكون السويدي ناظراً عليهم، ووكيلاً عن الشاه، وشاهداً على الفرق الثلاث بما يتفقون عليه.

لعل هذه المباحثة التي جرت بين السويدي والملا من باب اختبار قدرة السويدي في تقرير مذهبه، مما يطمع الشيعة في الوصول معه إلى أكبر مستوى ممكن من التنازلات، وعلى ضوئها يتم جمع الطوائف، أي على معتقد يكون أقرب إلى الشيعة منه إلى السنة.

ثم قال السويدي: فخرجنا نشق الخيام ـ معسكر الشاه ـ والأفغان والأزبك والعجم يشيرون إلي بالأصابع، وكان يوماً مشهوداً.

ثم اجتمع علماء إيران وكانوا نحو سبعين، كلهم شيعة غير مفتي أردلان. وعلماء الأفغان، وكانوا سبعة. وعلماء ما وراء النهر وهم ـ أيضاً ـ سبعة. واتفقوا جميعا بحضور الشيخ السويدي على رفع المكفرات، وهي:

سب الشيخين أبي بكر وعمر، وتضليل الصحابة حتى شهدوا بعدالتهم جميعاً. وحل المتعة، وتفضيل علي على أبي بكر، وكونه الخليفة الحق بعد رسول الله ﷺ . ثم شرط علماء السنة على الشيعة ألا يحلوا حراماً معلوماً من الدين بالضرورة، وحرمته مجمعاً عليها، ولا يحرموا حلالاً مجمعاً عليه معلوماً حله بالضرورة، وبذلك جعلوهم داخلين في الفرق الإسلامية إن هم التزموا ذلك وعملوا به.

ثم أمرهم الشاه أن يكتبوا جميع ماقرروه والتزموه في رقعة، ويضع كل منهم خاتمه تحت اسمه، ثم يكتب الشيخ السويدي شهادته على صدر الرقعة، ويضع خاتمه. وقد فعلوا جميع ذلك، وكان نصراً عظيماً للسنة وأهلها، وظهوراً للحق وأنصاره، والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: مناظرة أهل السنة لأهل الملل الكافرة:

وهي ـ أيضاً ـ كثيرة ومتنوعة لا يخلو منها زمان، وقد أشارت إلى ذلك كتب التأريخ، لكن من أعجب ذلك وألطفه ما وقع في العصر الحديث من مناظرتين كانتا بين بعض علماء الإسلام وبعض قساوسة النصارى:

الأولى وقعت في الديار الهندية، والثانية في الديار السودانية، ظهر فيهما الحق، وعلا صوت الإيمان والتوحيد، وانقمع أهل الزيغ والتثليث.

والذي دعاني لاختيار هاتين المناظرتين في هذا الموضع أمران:

أحدهما: كونهما وقعتا في العصر الحديث كما تقدم. والثاني: وجودهما في صورة كاملة، وفي مؤلَّفين موثقين[1]، وبأسلوب معاصر يؤكد على قدرة علماء الإسلام على مواجهة خصوم الإسلام في كل زمان ومكان.

فالمناظرة الأولى تمت لما رأى الشيخ رحمت الله[2] الهندي اشتداد الحملات التنصيرية، وأن كثيرين من شباب المسلمين أصبحوا حيارى في أمر دينهم، وبخاصة في أكرا المدينة الهندية التي تعد عاصمة التنصير، وفيها يسكن زعيم المنصرين فندر، وأن المسلمين المخلصين راغبون في حصول مناظرة علنية لكسر شوكة المنصرين، فقرر الشيخ رحمت الله دخول هذه المناظرة مع القس فندر، فأخذ الشيخ يراسل القس مؤمِّلاً أن يوافق على حصول المناظرة بينهما، ووصل عدد الرسائل بينهما إلى تسع رسائل من كل جانب، حرص الشيخ فيها على تحريض القس على المناظرة، وقبوله إياها، ودخوله فيها[3]، بل تجده ـ أحياناً ـ ينعت القس بمثل قوله: «ولكم همة عالية... وحصل لكم الامتياز عن جميع القسس...» وكان القس يضع للمناظرة شروطاً صعبة بغية الهروب منها وتثبيط عزم الشيخ عنها،

---

(١) الأول: المناظرة الكبرى لرحمت الله الهندي، والثاني: مناظرة بين الإسلام والنصرانية.

(٢) هو: رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي، نزيل الحرمين، باحث، عالم بالدين والمناظرة، جاور مكة وتوفي بها سنة ١٣٠٦هـ.من مصنفاته إظهار الحق. انظر: هدية العارفين ١/٣٦٦، والأعلام ٣/١٨.

(٣) المناظرة الكبرى ص: ١٦٥-١٦٦.

فكان الشيخ يقبل بعضها، ويتلطف في رد البعض الآخر، كل ذلك رجاء دفع القس إلى المناظرة[١]. وقد تم له ذلك بحمدا لله وتوفيقه، وزاد من أهميتها التزام كل طرف الدخول في دين الغالب منهما[٢] فكانت المناظرة صباح الاثنين الحادي عشر من رجب سنة سبعين ومائتين وألف للهجرة، واستمرت لمدة يومين، واتفق الطرفان أن تكون المباحثة في الموضوعات التالية:

النسخ والتحريف ـ ألوهية المسيح ـ التثليث ـ نبوة محمد ﷺ ـ حقيقة القرآن الكريم[٣].

اعترف القس فندر في يومي المناظرة بوقوع النسخ والتحريف في كتب العهدين؛ القديم والجديد: التوراة والإنجيل، ثم أغلق باب المناظرة في بقية الموضوعات حتى لا تتوالى عليه الهزائم[٤]. وكان على رأس الحضور أمراء المسلمين والهندوس والحكام الإنجليز وأعيان البلد والوجهاء وكبار والموظفين المدنيين والعسكريين من الإنجليز والهنود، كما حضرها القضاة والعلماء المسلمون والقساوسة والمنصرون ومراسلو الصحف،وقد زاد عدد الحضور في اليوم الأول على خمسائة نفس، فلما تناقل الناس خبر المناظرة في اليوم الأول، وعرف الناس هزيمة فندر واعترافه بوقوع

---

(١) المرجع السابق ص: ١٩٣-١٩٤.

(٢) المرجع السابق ص: ٣٣٦.

(٣) المرجع السابق ص: ٢١٠-٢١١.

(٤) المرجع السابق ص: ٣٦٤-٣٦٨.

التحريف في كتب العهدين تضاعف عدد الحاضرين في اليوم التالي وزاد على ألف نسمة من جميع الأطراف[1].

وكان لهذه المناظرة أثرها الحسن في نفوس المسلمين برفع روحهم المعنوية وتثبيت المتحيرين والمتشككين منهم، وعدوا ذلك انتصاراً للإسلام على النصرانية، وللمسلمين على الإنجليز والمنصرين، مما دفعهم إلى استعجال الثورة على الإنجليز طلباً للخلاص منهم ومن شرورهم[2].

وفي المقابل كان للمناظرة ونتائجها ردة فعل عنيفة لدى النصارى والمنصرين، وأخذ الإنجليز ينظرون إلى القس فندر نظرة احتقار واتهام بأنه جر على الكنيسة خزياً وعاراً، فلم يستطع فندر البقاء في الهند حتى رحل عنها إلى بلاد الغرب، ثم إلى تركيا، ليباشر مرحلة جديدة من التنصير في مقر الخلافة الإسلامية. فلما علم بذلك أمير مكة ـ وكان الشيخ رحمت الله وقتئذ بمكة ـ أمر بإرسال الشيخ إلى تركيا،فلما حلَّ الشيخ بها فرَّ القس فندر هارباً منها، وذلك خوفاً من ملاقاة الشيخ[3].

وأما المناظرة الثانية، فعقدت في الخرطوم في الفترة ما بين الثالث والعشرين من محرم إلى التاسع والعشرين منه من سنة إحدى وأربعمائة وألف للهجرة، وكانت بين مجموعتين من رجال الفكر في الديانتين: الإسلامية والنصرانية.

---

(١) المناظرة الكبرى ص: ٢٠١-٢٠٣ .

(٢) انظر: المرجع السابق ص: ٣٧٩-٣٨٠ .

(٣) انظر: المرجع السابق ص: ٣٧٤-٣٧٦.

يمثل الجانب الإسلامي: الدكتور محمد جميل غازي رحمه الله، واللواء المهندس أحمد عبدالوهاب، والأستاذ إبراهيم خليل أحمد، وكان قسيساً ومبشراً، ثم أعلن إسلامه سنة ١٩٥٩م بعد دراسة مقارنة متأنية، وله جهود في الدعوة إلى الله (تعالى) ، ومؤلفات كثيرة في نصرة الإسلام.

ويمثل الجانب النصراني: البشير جيمس بخيت سليمان، والأستاذ تيخا رمضان، وغيرهما من شباب النصارى.

وقد تم هذا اللقاء بناء على طلب من الجانب النصراني توجهوا به إلى رئيس وأعضاء هيئة النشاط الإسلامي بالسودان، والملحق الديني بسفارة المملكة العربية السعودية بالخرطوم.

أما موضوع المناظرة فكان يدور حول قضايا كثيرة؛ من أهمها:

* المسيح والإنجيل في القرآن الكريم.
* الصلب وموقف القرآن منه.
* النسخ والتحريف في الإنجيل.
* موقف القرآن من نبوة عيسى عليه السلام.
* موقف المسلمين من مريم.
* محمد ﷺ : حياته ونزول القرآن عليه.
* ختم النبوة.
* مسائل منها: الجهاد في سبيل الله، وتعدد الزوجات، وتحريم الخمر، وأكل لحم الخنزير، ومنع السلطات السعودية دخول غير المسلمين إلى الأماكن المقدسة.

وبعد حوار ونقاش هادئ انكشفت الجلسات الست عن إعلان رئيس الجانب النصراني دخوله ومن معه في الإسلام، ومما جاء في كلامه قوله: «... لا شك أنكم تتوقعون منا في هذه اللحظة أن ندخل في حوار معكم للرد على إجابتكم وتفصيلاتكم للعقيدتين: الإسلامية والمسيحية، ولكننا نقول أمام الله ونحن صادقون: إننا لا نملك أي رد غير إعلان الإسلام ديناً لنا، والتمسك بكل قيمه ومثله؛ لأنه الحق والنور لخير الأمم في الدنيا والآخرة...

سادتي: من هذا المنطلق الروحي الهادف علينا أن نعلن أن هناك مسئوليات عديدة تنتظرنا، ليس تجاه هؤلاء الإخوان الذين أسلموا فقط، وإنما هناك ـ أيضاً ـ قساوسة وقادة مسيحيون ومسيحيات في حاجة لمعرفة ما خرجنا به في الحوار الذي دار بيننا، وهذا لا شك جزء من مهمتنا الأساسية التي يجب أن نتعاون فيها ونحن صادقون، لا لأجل شيئ وإنما لإبلاغ الجميع مسلمين كانوا أو مسيحين بكل الحقائق التي أوحى بها سبحانه وتعالى إلى خير خلقه سيدنا محمد ﷺ»[1].

---

(١) انظر: مناظرة بين الإسلام والنصرانية ص: ٤٨٢ - ٤٨٣.

ما يجب فعله مع من لم يرجع عن باطله بالمناظرة

أهل السنة يحرصون على هداية الخلق، ويسعون إلى ذلك بضروب من الوسائل، منها: الوعظ والإرشاد، والجدال والمناظرة وإقامة الحجة، وتبديد الشبهات، وإزالة الإشكالات، ويبذلون لذلك كل غال ونفيس، لكن يبقى هناك نوع من الناس لا يستجيب لوعظ، ولا يلتزم بما تنكشف عنه مجالس المناظرة وإقامة الحجة من الحق الواضح، والدليل الساطع، بل يتمادى في غيه، ويضرب عن الحق صفحاً، ثم يبذل جهده ليغمس الناس في ضلالته، ويحشرهم في نحلته، وذلك بالتزيين وإلقاء الشبهات، فمثل هذا لا بد من إنزال العقوبة به، عساه أن يتوب، أو يكفَّ شره عن الأبرياء، والتغرير بالضعفاء، وربما كان الأنفع للمسلمين أن يقتل فتحسم مادته، ويعتبر به غيره. ولذلك نماذج في تأريخ المسلمين، من أبرزها:

١- تأديب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لصَبِيغ بن عِسْل بأن ضربه على رأسه بعراجين النخل وكان صبيغ يتطلب السؤال عن متشابه القرآن، وقد مر خبره، وفيه أن عمر بن الخطاب أرسله إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة، وكتب إليه: أن حرِّم عليه مجالسة الناس، فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجده شيئاً، فكتب إلى عمر ﷺ يخبره، فكتب إليه: ما أخاله إلا قد صدق، خل بينه وبين مجالسة الناس، وفي رواية عن رجل يدعى زرعة قال: لقد رأيت صبيغ بن عسل بالبصرة كأنه بعير أجرب،

يجيء إلى الحلق، فكلما جلس إلى قوم لا يعرفونه ناداهم أهل الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين[١]. وقال الزهري: لما خرجت الحرورية قيل لصبيغ: قد خرج قوم يقولون كذا وكذا، قال: هيهات، قد نفعني الله بموعظة الرجل الصالح[٢].

٢- تحريق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه للزنادقة الذين كانوا يقولون بإلهيته وهم أصحاب عبدالله بن سبأ اليهودي. قال أبو الحسين الملطي رحمه الله[٣]: «... الفرقة الغالية من السبئية وغيرهم وهم أصحاب عبدالله بن سبأ، قالوا لعلي عليه السلام: أنت أنت. قال: ومن أنا؟ قالوا: الخالق البارئ، فاستتابهم، فلم يرجعوا فأوقد لهم ناراً ضخمة وأحرقهم، وقال مرتجزاً:

لما رأيت الأمر أمراً منكــــراً   أججت ناري ودعوت قنبرا

وخبر تحريق علي رضي الله عنه الزنادقة رواه البخاري عن عكرمة قال: «أتي علي رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم ...»[٤].

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة ١/١٩٤-١٩٥، والإبانة لابن بطة ١/٤١٤-٤١٥ برقم: ٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) التنبيه والرد ـ للملطي ص: ١٨١، وانظر: الإبانة لابن بطة ١/٤١٧ برقم: ٣٣٢.

(٣) التنبيه والرد ـ الملطي ص: ١٨، وانظر: الرد على الجهمية ـ للدارمي ص: ٢٠٠-٢٠١.

(٤) صحيح البخاري ١٢/٢٦٧(فتح الباري) كتاب استتابة المرتدين ـ باب حكم المرتد والمرتدة ... ح: ٦٩٢٢.

وقال الحافظ ابن حجر[١] : «روينا في الجزء الثالث من حديث أبي طاهر المخلص من طريق عبدالله بن شريك العامري عن أبيه قال: قيل لعلي: إن هنا قوما على باب المسجد يدعون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا. فقال: ويلكم، إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا، فأبوا، فلما كان الغد، غدوا عليه. فجاء قنبر فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام، فقال: أدخلهم. فقالوا كذلك، فلما كان الثالث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قِتْلة، فأبوا إلا ذلك، فقال: يا قنبر، ائتني بفَعَلَةٍ معهم مَرورهم[٢]، فخد لهم أخدوداً بين المسجد والقصر، وقال: احفروا فأبعدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود. وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا، فأبوا أن يرجعوا فقذف بهم فيها حتى إذا احترقوا قال:

إني إذا رأيت أمراً منكرا ... أوقدت ناري ودعوت قنبرا»

٣- قتال علي رضي الله عنه ومن معه من المسلمين الخوارج المارقين وذلك بعد مناظرتهم، وإقامة الحجة عليهم ورجوع طائفة منهم إلى الحق، وكانوا

---

(١) فتح الباري ١٢/٢٧٠ وقال الحافظ: وهذا سند حسن .

(٢) مَرور: جمع مَر، وهو المسحاة، وكذلك هو من المحراث. انظر: لسان العرب ٥/١٧٠ مادة مر .

قد خرجوا عن طاعة الإمام بحجة أنـه كفـر، وقـالوا بتكفـير مرتكـب الكبيرة وتخليده في النار مع أشياء أخرى منكـرة، وعقـد البخـاري في صحيحه باب قتل الخوارج والملحدين بعـد إقامـة الحجـة عليهـم، ثـم ساق بسنده إلى سويد بن غَفَلَة قال: قال علي ﷺ: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثا فوالله لأن أخرَّ مـن السـماء أحـبُّ إلي مـن أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خُدعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: سـيخرج قـوم في آخـر الزمـان أحـداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، لايجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كمـا يمـرق السـهم مـن الرميـة، فأينمـا لقيتموهم فاقتلوهم، فـإن في قتلهـم أجـراً لمـن قتلهـم يـوم القيامـة»[1] وكان ﷺ قد قال هذا الكلام حال قتاله إياهم، مستدلاً بحكـم النبي ﷺ فيهم[2].

٤- وقتل هشام بن عبد الملك غيلان الدمشقي، وكان قد تكلم في القـدر على مذهب القدرية النفاة، فناظره عمر بن عبدالعزيز ﷺ، فأقام عليه الحجة حتى قـال غيـلان: والله يـا أمـير المؤمنـين، لقـد جئتـك ضـالاً فهديتني، وأعمى فبصرتني، وجاهلاً فعلمتني، والله لا أتكلـم في شـيء

(١) صحيح البخـاري ٢٨٣/١٢ (فتـح البـاري) كتـاب اسـتتابة المرتديـن والمعـاندين ... ح: ٦٩٣٠.

(٢) انظر: فتح الباري ٢٨٦/١٢-٢٨٧.

من هذا الأمر أبداً. فقال عمر: وا لله، لئن بلغني أنك تكلمت في شيء منه لأجعلنك للناس، أو للعالمين نكالاً، فلم يتكلم في شيء منه حتى مات عمر، فلما مات سال فيه سيل الماء[١]. حتى أمر هشام بن عبدالملك بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه[٢].

٥- وقتل خالد بن عبدا لله القسري الجعد بن درهم وهو أول من أظهر في الإسلام مقالة التعطيل[٣]. وروى البخاري رحمه ا لله في كتاب أفعال العباد[٤] بسنده عن عبدالرحمن بن محمد بن حبيب بن أبي حبيب عن أبيه عن جده قال: «شهدت خالد بن عبدا لله القسري بواسط في يوم أضحى، وقال: ارجعوا فضحوا تقبل ا لله منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، زعم أن ا لله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى ا لله علواً كبيراً عما يقول ابن درهم، ثم نزل فذبحه».

إلى غير ذلك من المواقف المشكورة لأهل السنة في قمع رؤوس المبتدعة بعد استتابتهم وإقامة الحجة عليهم، وفي ذلك منفعة عظيمة لدين ا لله أن يتبدل، ولعباد ا لله أن ينحرفوا. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه

(١) انظر: التنبيه والرد ـ الملطي ص: ١٦٨.

(٢) انظر: تأريخ الأمم والملوك للطبري٢٠٣/٧، والكامل لابن الأثير ٢٦٣/٥، والشريعة للآجري ص: ٢٢٨.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧٧/١٣.

(٤) ص: ٨ برقم: ٣، وذكره في التاريخ الكبير ٦٤/١ ترجمة رقم: ١٤٣، وانظر: رد الدارمي على بشر المريسي ص: ١١٨، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٢٠٥/١٠-٢٠٦ كتاب الشهادات ـ باب ما ترد به شهادة أهل الأهواء . وانظر: العلو للذهبي ص: ٧٨.

الله: «فإن الحق إذا كان ظاهرا قد عرفه المسلمون وأراد بعض المبتدعة أن يدعو إلى بدعته، فإنه يجب منعه من ذلك، فإذا هُجرَ وعُزِّرَ كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بصبيغ بن عِسْل التميمي، وكما كان المسلمون يفعلونه، أو قُتِل كما قَتَل المسلمون الجعد بن درهم وغيلان القدري وغيرهما، كان ذلك هو المصلحة، بخلاف ما إذا ترك داعياً، وهو لا يقبل الحق: إما لهواه، وإما لفساد إدراكه، فإنه ليس في مخاطبته إلا مفسدة وضرر عليه[1] وعلى المسلمين...

والمقصود أن الحق إذا ظهر وعرف، وكان مقصود الداعي إلى البدعة إضرار الناس قوبل بالعقوبة. قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[سورة الشورى:٢٦][2].

---

(١) لأن مخاطبته والجلوس إليه وترك عقوبته بالزجر، أو ما هو أبلغ كالقتل، يفسده، وذلك بتعميق البدعة في نفسه واغتراره بذلك فيزداد ضلالاً، وإثماً وخسارة في العاقبة .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١٧٢/٧-١٧٣.

الباب الثاني

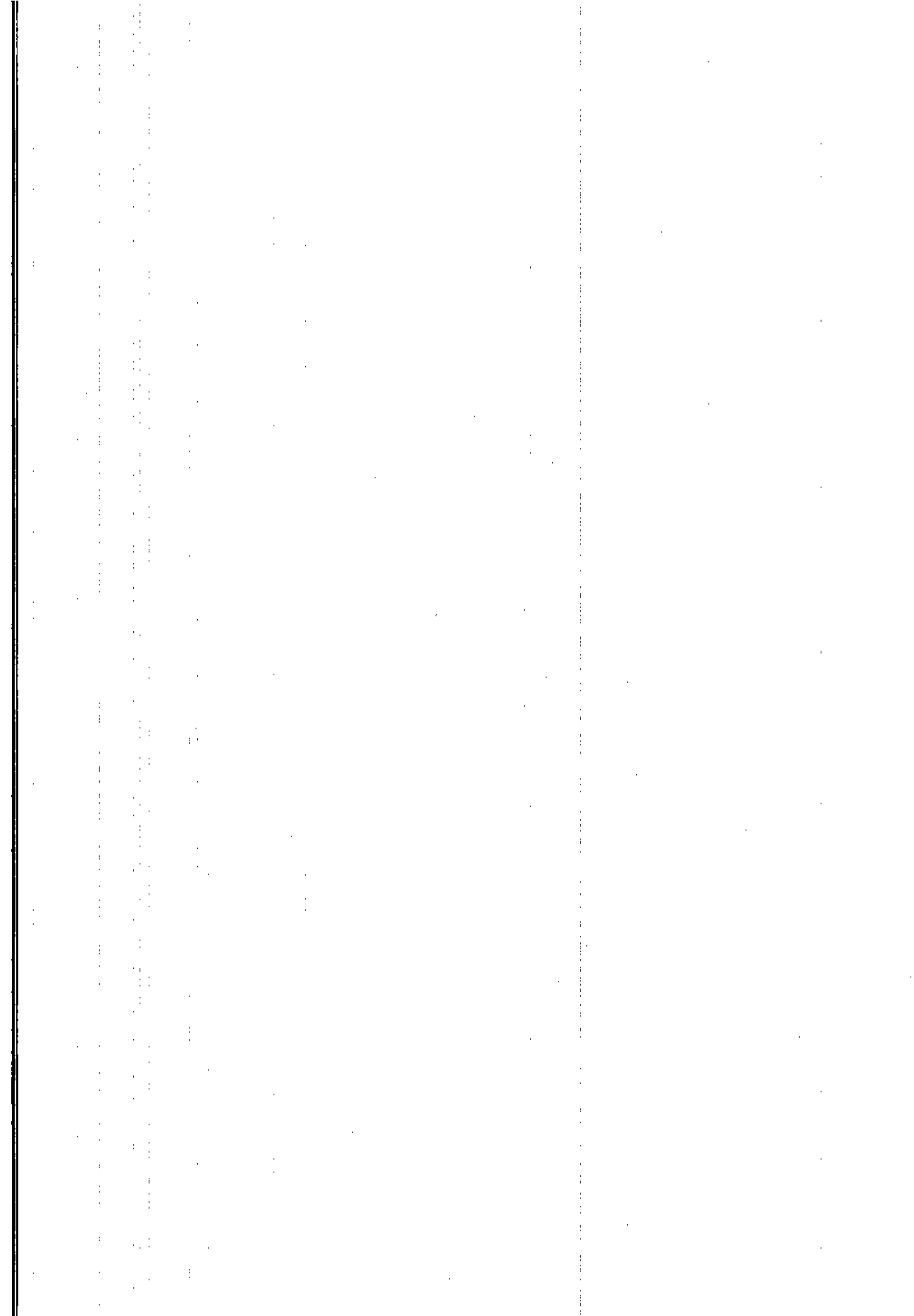
الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة مشروعيته وخصائصه وتطبيقاته

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مشروعية الجدل والمناظرة

الفصل الثاني: الجدل والمناظرة في القرآن الكريم: خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته

الفصل الثالث: الجدل والمناظرة في السنة: خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته



الفصل الأول
مشروعية الجدل والمناظرة

وفيه خمسة مباحث:

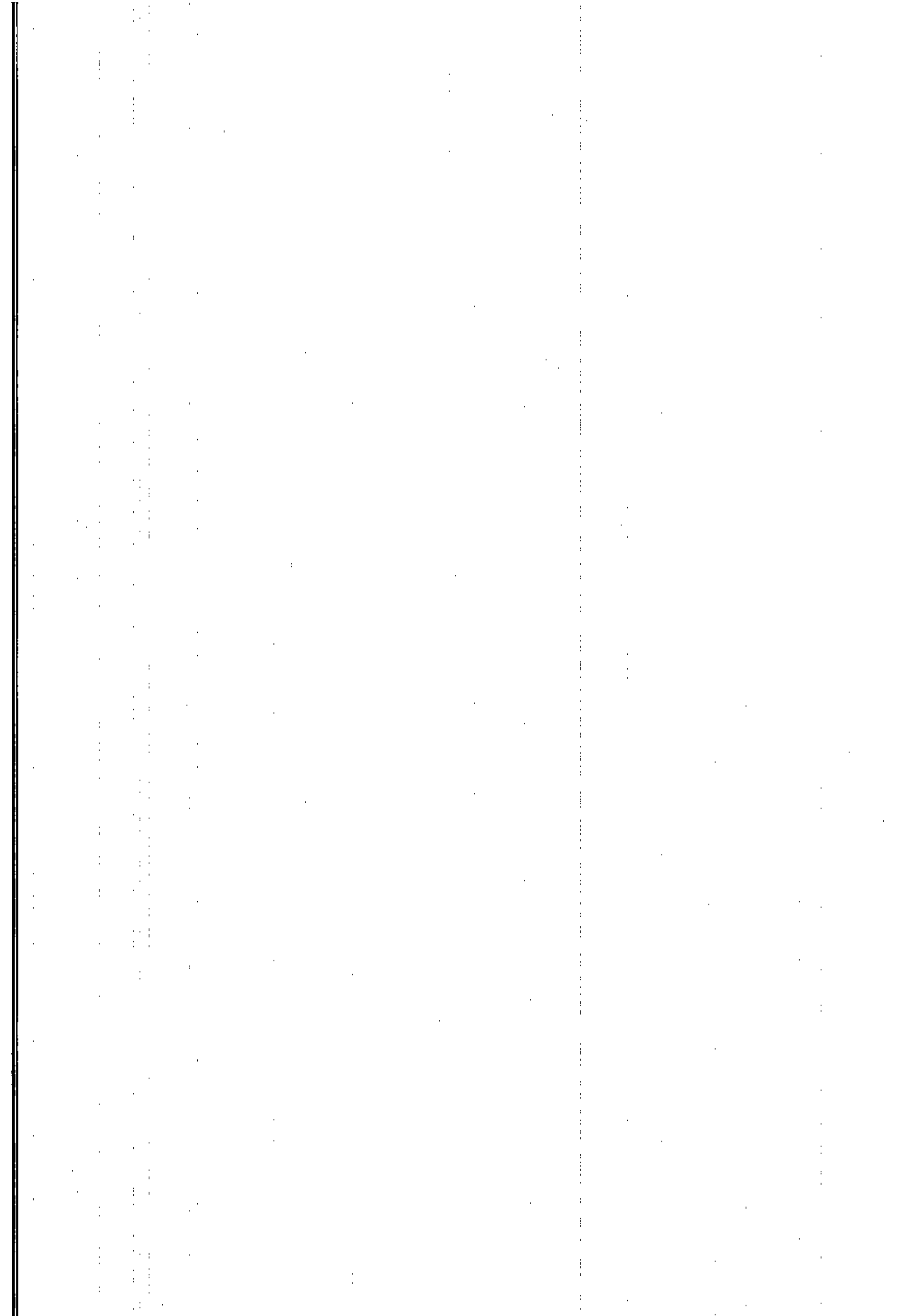
المبحث الأول: أنواع الجدل وأحكامه

المبحث الثاني: حكم مناظرة الكفار والمشركين

المبحث الثالث: حكم مناظرة أهل الكتاب

المبحث الرابع: حكم مناظرة أهل البدع

المبحث الخامس: حكم المراء



المبحث الأول
أنواع الجـــدل وأحكامه

الناظر في نصوص الشريعة التي ورد فيها ذكر الجدال والمجادلة يجدها على ضربين:

الأول: فيه الأمر بالجدال والحث عليه، والإخبار بأنه طريقة للأنبياء في تبليغ الدعوة والدفاع عنها.

والثاني: فيه النهي عن الجدال والتحذير منه، والإخبار بأنه طريقة للكفار والمعاندين يريدون به دحض الحق وتقرير الباطل.

وقد نظر المحققون من أهل العلم إلى هذه النصوص مجتمعة: النصوص التي أمرت بالجدال وحثت عليه، والنصوص التي نهت عنه وحذرت منه، فعلموا أنها كلها حق وصدق، ولا تعارض بينها، فعلموا يقيناً أن الجدال المأمور به غير الجدال المنهي عنه، فقالوا: الجدل نوعان: محمود ومذموم. وعلى ذلك تتنزل نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف وعلماء الأمة، ويزول ما قد يشتبه على بعض الناس من أقوال بعض السلف التي فيها النهي عن الجدال والتحذير منه، ويتبين مقصودهم بذلك على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

المطلب الأول

النصوص والآثار التي فيها الأمر بالجدال والحث عليه وبيان أنه طريقة الأنبياء وأتباعهم

أولاً: نصوص القرآن الكريم:

١– قوله (تعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] وفي المراد بالضمير المنصوب في " وجادلهم " - في المشار إليهم - قولان[1] : أحدهما: أنهم أهل مكة. والثاني: أنهم أهل الكتاب. قال الشوكاني رحمه الله: «الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل: ١٢٥] أي بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً»[2].

٢– قوله (تعالى) :﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] قال مجاهد رحمه الله : «هي محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة»[3].

---

(١) انظر : زاد المسير - ابن الجوزي ٤/٥٠٦ .

(٢) فتح القدير ٣/٢٠٣ .

(٣) تفسير القرطبي ١٣/٣٥٠ .

٣- قوله (تعالى): ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: ٦٨] قال أهل التفسير: من حجة، والسلطان: الحجة. حكاه عنهم أبوعمر بن عبدالبر رحمه الله[(١)] وقال (تعالى): ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٩].

٤- قوله (تعالى) حكاية عن قوم نوح: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة هود: ٣٢]. وكان نوح قد دعاهم إلى عبادة الله وحده، وخوَّفهم من عذابه الأليم، فاعترضوا عليه بكونه بشراً، وأن أتباعه من أراذل القوم ـ بزعمهم ـ فأجابهم نوح ﷺ بجواب قاطع وبيان ساطع، لم يجدوا معه رداً غير استعجال عذاب الله (تعالى) ونقمته.

٥- مجادلات إبراهيم ﷺ مع الملك الظالم وقومه والملائكة:

أ- مجادلة إبراهيم ﷺ للملك الظالم كما في قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨] قال أبوعمر ابن عبدالبر رحمه الله: «فانقطع ـ أي الملك ـ وخُصِمَ ولحقه البهت عند أخذ الحجة [عليه][(٢)] »[(٣)].

(١) انظر: جامع بيان العلم ١٢٢/٢.

(٢) في الأصل: [له] ولعل الصحيح ما أثبته.

(٣) جامع بيان العلم ١٢٢/٢.

ب- مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه كما في قوله (تعالى) : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٧٦-٨٣] .

ج- مجادلة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة عليهم السلام، وذلك كما في قوله (تعالى) : ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [سورة هود: ٧٤-٧٦] وكما في قوله (تعالى): ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ(٣١)قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٣١ - ٣٢] .

وجاء في تفسير آية هود المتقدمة عن سعيد بن جبير رحمه الله أنه قال: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له : إنا مهلكوا أهل هذه القرية.

قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال : أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً، قالوا: لا. قال: ثلاثون، قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: إن فيها لوطاً. قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته... الآية . فسكت عنهم واطمأنت نفسه.[1]

٦- المجادلة التي وقعت بين الملائكة والرب جل جلاله في شأن آدم عليه السلام، كما في قوله (تعالى):﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢)قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠-٣٣].

والملائكة قالوا ذلك استيضاحاً للحكمة من استخلاف آدم، لا ممانعة للحق، كيف وهم القائلون: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٢٧][2] .

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٤٨/١٢-٤٩ ط. شاكر ، وتفسير القرطبي ٧٢/٩، وتفسير ابن كثير ٤٥٢/٢ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٦٩/١ .

ثانياً: نصوص السنة النبوية:

١-روى مسلم في صحيحه[(١)] عن عبدالله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريُّون وأصحابٌ يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». ولا شك أن مجادلة المشركين والمخالفين عموماً ومقارعتهم بالحجة، ودفع صيالهم عن الإسلام وأهله ضرب من ضروب الجهاد باللسان.

٢-وروى أبو داود في سننه[(٢)] عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم». قال ابن حزم رحمه الله: «وهذا حديث في غاية الصحة، وفيه الأمر بالمناظرة، وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله»[(٣)]. قال الصنعاني (١١٨٢هـ)

---

(١) ٧٠/١ كتاب الإيمان ـ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ح: ٥٠ .

(٢) ٢٢/٣-٢٣ كتاب جهاد ـ باب كراهية ترك الغزو ح: ٢٥٠٤ ، وانظر: سنن النسائي ٧/٦ كتاب الجهاد ـ باب وجوب الجهاد ح: ٣٠٩٨، ومسند الإمام أحمد ١٢٤/٣، ١٥٣، ٢٥١ وقوّى إسناده الخطابي في هامش سنن أبي داود ٢٣/٣، وانظر صحيح ابن حبان(كما في الإحسان) ١٠٤/٧ كتاب الجهاد ـ باب فرض الجهاد ح: ٤٦٨٨، ومستدرك الحاكم ٨١/٢ وقال هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصحّح النووي إسناد أبي داود في رياض الصالحين ص: ٤٠٢ كتاب الجهاد ح: ١٣٤٩، وصحّح الألباني إسناده في مشكاة المصابيح ٣٥٥/٢ برقم: ٣٨٢١ هامش رقم: ١.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ٢٥/١.

رحمه الله: «الحديث دليل على وجوب الجهاد بالنفس وهو بالخروج والمباشرة للكفار، وبالمال وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه...والجهاد باللسان بإقامة الحجة عليهم ودعائهم إلى الله(تعالى)، وبالأصوات عند اللقاء والزجر ونحوه من كل ما فيه نكاية للعدو...»[١].

٣- وروى مسلم في صحيحه[٢] عن أنس بن مالك ﷺ قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فضحك. فقال: هل تدرون مم أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربه. يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال يقول: بلى. قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال فيختم على فيه. فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل» أي أدافع وأجادل، وقد أورد ابن عبدالبر رحمه الله هذا الحديث محتجاً به على إثبات المناظرة والجدل[٣].

٤- وروى البخاري في صحيحه[٤] عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

---

(١) سبل السلام ٤/٨٢ .
(٢) ٤/٢٢٨٠-٢٢٨١ كتاب الزهد والرقائق ح :٢٩٦٩ .
(٣) انظر : جامع بيان العلم ٢/١٢٢.
(٤) ٨/٤٣٤-٤٣٥(فتح الباري) كتاب التفسير ـ باب ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾[طه:١١٧] ح: ٤٨٣٨، وانظر ٨/٤٣٤ كتاب التفسير ـ باب ﴿واصطنعتك لنفسي﴾[طه:٤١] ح: ٤٧٣٦ و١١/٥٠٥ كتاب القدر ـ باب تحاج آدم وموسى عند الله ح: ٦٦١٤، و١٣/٤٧٧ كتاب التوحيد ـ باب ما جاء في قوله عز وجل ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾[النساء:١٦٤] ح: ٧٥١٥، وانظر صحيح مسلم ٤/٢٠٤٢-٢٠٤٤ ح: ٢٦٥٢ والتي بعده.

«حاجَّ موسى آدمَ، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم، قال: قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ فحج آدمُ موسى».

ثالثاً: أحوال الصحابة في الجدل والمناظرة:

فقد كانوا أحياناً يناظرون النبي ﷺ مناظرة استرشاد واستيضاح، من ذلك ما وقع لعمر رضي الله عنه في صلح الحُدَيْبِيَّة، وذلك بعد توقيع الصلح مع المشركين وكتابة الكتاب، فجاء عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال له: ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قال: قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به. قال: فأتيتُ أبابكر، فقلت: يا أبابكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال الزهري: قال عمر:

فعملت لذلك أعمالاً[(١)] ، أي لأجل الذهاب والمجيء والسؤال والجواب، و لم يكن ذلك شكاً منه ﷺ بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار لما عرف من قوته في نصرة الدين[(٢)] .

أما مناظرة الصحابة فيما بينهم أو مع غيرهم من المارقين والمبتدعة، فأكثر من أن تحصى، وقد سبق لذلك أمثلة، منها: مناظرتهم رضي الله عنهم في وفاته ﷺ ، وفي موقع دفنه، ثم مناظرة المهاجرين والأنصار يوم السقيفة في الخليفة بعد رسول الله ﷺ، وفي قتال مانعي الزكاة، وأيضاً مناظرة علي وابن عباس للخوارج، وغير ذلك من مواقفهم المشهودة ومناظراتهم المحمودة؛ لأن ماكان منها بينهم إنما كان لطلب الحق وكشف اللبس، وما كان منها بينهم وبين غيرهم من أهل البدع فإنما لقمع الباطل وإقامة الحق، وقد كان الفلج وظهور الحق على أيديهم (رضي الله عنهم وأرضاهم) .

رابعاً: أحوال الأئمة وسلف الأمة ممن هم دون الصحابة في الجدل والمناظرة:

ولذلك أمثلة مرت بنا في الباب الأول، منها: مناظرة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله للخوارج، وكذلك مناظرة أبي حنيفة رحمه الله لهم، ومناظرة الشافعي رحمه الله لحفص الفرد، ومناظرة أحمد بن حنبل رحمه الله للجهمية

(١) صحيح البخاري ٥/٣٣١-٣٣٢ كتاب الشروط ح: ٢٧٣١، ٢٧٣٢، وصحيح مسلم ٣/١٤١١-١٤١٢ كتاب الجهاد ـ باب صلح الحديبية ح: ١٧٨٥.

(٢) انظر: فتح الباري ٥/٣٤٦.

في خلافة المأمون وأخيه المعتصم، مما كان له أعظم الأثر في إقامة السنة ونشرها، وقمع البدع وتبديدها.

قال ابن عبد الحكم (٢٦٨هـ): «ما رأيت الشافعي يناظر أحداً إلا رحمته، ولو رأيت الشافعي يناظرك لظننت أنه سبع يأكلك، وهو الذي علم الناس الحجج»[١].

وتناظر أهل العلم فيما بينهم طلباً لبلوغ الحق، واستكشاف الأدلة، وإزاحة الشبه، من ذلك ما وقع بين الإمامين المتحابين أحمد بن حنبل وعلي بن المديني رحمهما الله: ساق ابن عبدالبر رحمه الله بسنده إلى عبدالعظيم العنبري قال: كنت عند أحمد ابن حنبل وجاءه علي بن المديني (٢٣٤هـ) راكباً على دابة، قال: فتناظرا في الشهادة[٢]، وارتفعت أصواتهما، حتى خفت أن يقع بينهما جفاء، وكان أحمد يرى الشهادة وعلي يأبى ويدفع، فلما أراد علي الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه، وسمعت أحمد في ذلك المجلس يقول: لا ننظر بين أصحاب محمد ﷺ فيما شجر بينهم ونكل أمرهم إلى الله، والحجة في ذلك حديث[٣] حاطب»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٤٩-٥٠ .

(٢) لعلها الشهادة على أحد بدخول الجنة أو النار .

(٣) لعله حديث: "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" في قصة حاطب المشهورة . انظر : صحيح مسلم ٤/١٩٤١-١٩٤٢ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة ح: ٢٤٩٤.

(٤) جامع بيان العلم ٢/١٣٠.

فهذا وغيره كثير مما يبين مشروعية الجدل والمناظرة، وأن الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل العلم والإيمان قد طرقوا هذا السبيل في الدعوة إلى الله، ودفع حجج المبطلين، وكشف الحق وبيان أدلته.

وقال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله: «وأما تناظر العلماء وتجادلهم في مسائل الأحكام من الصحابة والتابعين ومن بعدهم فأكثر من أن تحصى»[١]. ثم ذكر طائفة من ذلك يستدل بها.

خامساً: أقوال الأئمة والعلماء في مشروعية الجدل والمناظرة:

١- ذكر أبوبكر بن الطيب الباقلاني رحمه الله في كتابه الهداية له ما يدل على وجوب النظر والاحتجاج المأمور به شرعاً، واستدل على ذلك بما وقع بين الصحابة من المناظرات على نحو ما تقدم ذكره[٢].

٢- وقال أبو محمد بن حزم رحمه الله في كتاب الإحكام[٣] ما نصه: «وقد أمرنا (تعالى) في نص القرآن باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وخبّرنا (تعالى) أن من ملة إبراهيم المحاجة والمناظرة ـ فمرَّة للملك ومرَّة لقومه ـ والاستدلال كما أخبرنا (تعالى) عنه، ففرض علينا اتباع المناظرة لنصرف أهل الباطل إلى الحق، وأن نطلب الصواب بالاستدلال فيما اختلف فيه المختلفون؛ قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ

---

(١) جامع بيان العلم ٢/١٣١.

(٢) انظر : عيون المناظرات ص:١٥٧-١٦٢.

(٣) ١/٢١-٢٦.

وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨] فنحن المتّبعون لإبراهيم عليه السلام في المحاجة والمناظرة فنحن أولى الناس به، وسائر الناس مأمورون بذلك. قال الله (تعالى) : ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٥] ومن ملته المناظرة، كما ذكرنا، فمن نهى عن المناظرة والحجة، فليعلم أنه عاص لله عز وجل، ومخالف لملة إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما...

وقال (تعالى): ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠] ولا غيظ أغيظ على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصادعة، وقد تهزم العساكر الكبار، والحجة الصحيحة لا تغلب أبداً؛ فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي، والأعداد الجمة... لأن السيف مرة لنا، ومرة علينا، وليس كذلك البرهان بل هو لنا أبداً، ودامغ لقول مخالفينا، ومزهق له أبداً، وربَّ قوة باليد قد دمغت بالباطل حقاً كثيراً فأزهقته؛ منها: يوم الحرة، ويوم قتل عثمان رضي الله عنه، ويوم قتل الحسين وابن الزبير رضي الله عنهما... وقُتِل أنبياءُ كثيرون وما غُلِبت حجتهم قط...» إلى أن قال رحمه الله: «وبالجملة فلا أضعف ممن يروم إبطال الجدال بالجدال، ويريد هدم جميع الاحتجاج بالاحتجاج، ويتكلف فساد المناظرة بالمناظرة؛ لأنه مقر على نفسه أنه يأتي بالباطل؛ لأن حجته هي بعض الحجج التي يريد إبطال جملتها، وهذه طريق لا يركبها إلا جاهل ضعيف، أو معاند سخيف».

٣- وعقد أبوعمر بن عبدالبر رحمه الله في كتابه: جامع بيان العلم وفضله[1]

---

(١) ٢/١٢٢.

باباً بعنوان : **إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة** ثم ساق الأدلة على ذلك من القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأحوال الأنبياء مع أممهم، ومجادلات الصحابة رضي الله عنهم التي كانت فيما بينهم، أو بينهم وبين غيرهم من ملل الكفر وأهل البدع، وكذلك مجادلات أهل العلم من بعد الصحابة رضي الله عنهم، وقال في أثناء كلامه: «فهذا كله تعليم من الله للسؤال والجواب والمجادلة»[(١)] .

٤- وقسم أبو المعالي الجويني رحمه الله الجدل إلى محمود ومذموم، واستدل على النوعين بنصوص الكتاب والسنة، ثم قال عقب استدلاله على النوع المحمود: «وهذه الألفاظ عموم في التوحيد والشريعة، وهي أيضاً ـ سيرة الرسل عليهم السلام مع أممهم وسيرة رسولنا ﷺ، وسيرة علماء الصحابة رضي الله عنهم بعده، وَمَنْ بعدهم من التابعين وأتباعهم، إلى يومنا هذا، وعليه عادة العقلاء في أديانهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم، ويفزع العقلاء إلى النظر والمناظرة فيما غاب عن حواسهم، فعُلِمَ صِحَّةُ النظر وكونُه طريقاً إلى العلم فيما لا يكون الحس وخبر التواتر طريقاً له[(٢)] ... حتى إن

(١) جامع بيان العلم ١٢٣/٢.

(٢) هذه من طوام المتكلمين وهي قصر إفادة العلم على الحس وخبر التواتر دون خبر الآحاد؛ لأنه ـ يفيد عندهم ـ الظن مطلقًا، فلا يعتمدونه في مسائل الاعتقاد، ومنهم من لا يعتمده مطلقاً ـ في الاعتقاد والأحكام ـ ومنهم ـ كالرازي وغيره ـ من لا يعتمد الخبر مطلقاً ـ المتواتر والآحاد ـ بل حتى نصوص القرآن الكريم؛ لأنها -كما يزعمون- أدلة لفظية لا تفيد اليقين، فلا يجعلونها عمدة في استدلالتهم، ويقدمون عليها عقلياتهم عند التعارض. وهذه البدعة لا سلف

=

من أنكر صحة النظر والمناظرة لجأ إلى النظر فيما يروم فيه بيان فساد النظر، إذ لا يجد طريقاً إلى فساده من جهة الحس والبديهة وخبر التواتر، لاشتراك العقلاء في طرق الضرورات والبدائه.

ومما يدل على حسن الجدال، بل على وجوبه من طريق المعنى: ما ثبت من وجوب معرفة الشريعة على الجملة، فرضاً على الكافة، وتفاصيلها فرضاً على الكفاية...» ثم قال رحمه الله: «فإذا رأى العالم مثله يزل ويخطئ في شيء من الأصول والفروع وجب عليه من حيث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاؤه عن الباطل وطريقه، إلى الحق وطريقه، وطريق الرشد والصواب فيه، فإذا لجَّ في خطابه، وقوَّى على الحق شبهته، وجب على المصيب دفعه عن باطله، والكشف له عن خطئه بما أمكنه من طريق البرهان وحسن الجدال، فحصل ـ إذ ذاك ـ بينهما المجادلة، من حيث لم يجدا بداً منه في تحقيق ماهو الحق، وتمحيق ما هو الشبهة والباطل.

وصار ـ إذ ذاك ـ بهذا المعنى الجدال من آكد الواجبات، والنظر من أولى المهمات، وذلك يعم أحكام التوحيد والشريعة»[1].

= فيها من الصحابة والتابعين وأئمة الدين المهديين. وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم: درء تعارض العقل والنقل، وتلميذه ابن القيم في كتابه : الصواعق المرسلة ، وفي مواضع من كتبهما الأخرى.

والصحيح أن خبر الواحد المحتف بالقرائن يفيد العلم النظري الاستدلالي، ولا شك أنه دون المتواتر، ولكنه يحتج به في العقائد والأحكام، والتفريق بينهما لا دليل عليه.

(١) الكافية في الجدل ص:٢٣-٢٤.

٥–وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «السلف لم يحرموا معرفة الدليل على الخالق وصفاته وأفعاله، بل كانوا أعلم الناس بذلك، وأعرفهم بأدلة ذلك، ولا حرموا نظراً صحيحاً في دليل صحيح يفضي إلى علم نافع، ولا مناظرة في ذلك نافعة: إما لهدي مسترشد، أو لإعانة مستنجد، وإما لقطع مبطل متلدد، بل هم أكمل الناس نظراً واستدلالاً واعتباراً»[١].

وقال رحمه الله في موضع آخر[٢]: «وأما جنس المناظرة بالحق، فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى».

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٦٦/٧ بتصرف قليل .

(٢) المرجع السابق١٧٤/٧.

المطلب الثاني

النصوص والآثار التي فيها النهي عن الجدل والتحذير منه وبيان أنه طريقة للكفار والمعاندين

أولاً: نصوص القرآن الكريم:

ونصوص القرآن الكريم التي ورد فيها ذم الجدل كثيرة جداً؛ قال عبدالرحمن ابن نجم الحنبلي رحمه الله: «فأما الجدل فهو مذموم في كل موضع ذكر إلا ثلاثة مواضع»[1] وهي التي في سورة النحل [آية:١٢٥] والعنكبوت [آية:٤٦] والمجادلة [آية: ١]، وقصده بهذا كل موضع ذكر فيه لفظ الجدل، وإلا فقد ورد معناه بألفاظ أخرى بعضها محمود والآخر مذموم.

والجدل المذموم في القرآن نوعان: جدل الكفار وجدل المسلمين:

الأول: جدل الكفار وهو ما كان في آيات الله (تعالى)، أو لدحض الحق، أوكان بغير حجة وبرهان، أو كان لتقرير الباطل والدفاع عنه، والدعوة إلى عودة الجاهلية. ومن أمثلة ذلك:

قوله (تعالى): ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر: ٤] أي ما يدفع الحق، ويجادل فيه بعد بيانه وظهور دليله إلا الذين كفروا، أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه[2].

---

(١) استخراج الجدل من القرآن الكريم ص :٥١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٧٢/٤.

وقال (تعالى): ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة غافر: ٥] قال ابن كثير رحمه الله: «أي ماحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي»[١].

وقال (تعالى): ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧-٥٨]. وذلك أن قريشاً اعترضت على قوله (تعالى): ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] بأن اليهود يعبدون عزيراً والنصارى يعبدون المسيح، واعتراضهم مجرد مماراة، لأنهم يعلمون أن الآية لما لا يعقل: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ وهي ــ أيضاً ــ خطاب لقريش وقد كانوا يعبدون الأصنام والأنداد لم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوا هذا الاعتراض، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدونها[٢].

وقال (تعالى) :﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة الشورى:١٦] قال مجاهد: هم المشركون طمعوا أن تعود الجاهلية بعد إجابة الناس إلى الإسلام، فخصومتهم باطلة[٣].

وقال (تعالى): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [سورة الحج: ٨]. وقال (تعالى): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير ٧٢/٤ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٣٣/٤-١٣٤ .

(٣) انظر : زاد المسير ٢٧٩/٧-٢٨٠ .

إلى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سورة لقمان: ٢٠-٢١] فهؤلاء ليس معهم نقل صحيح ولا عقل صريح، ولا اقتداء بالمهديين، بل بمجرد الهوى: استكباراً عن الحق ومتابعته، وتقليداً لآبائهم الضالين.قال ابن تيمية رحمه الله: «كل من جادل في الله بغير هدى ولا كتاب منير فقد جادل بغير علم ـ أيضاً ـ فنفي العلم يقتضي نفي كل ما يكون علماً بأي طريق حصل، وذلك ينفي أن يكون مجادلاً بهدى أو كتاب منير، لكن هذه حال الضال المتبع لمن يضله...وهي حال مقلد أئمة الضلال من أهل الكتاب وأهل البدع، فإنهم يجادلون في الله بغير علم ويتبعون من شياطين الجن والإنس من يضلهم»[1].

وقال (تعالى): ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة غافر: ٣٥]. فالجدال بغير حجة وصف لازم لكل من يعارض الحق؛ لأن الحق لا يعارضه شيء: لا شرعي ولا عقلي ولا حسي[2].

وقال (تعالى): ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [سورة الأعراف: ٧١] وهم إنما جادلوا دفاعاً عن الأصنام التي عبدوها وآباؤهم من دون الله (تعالى)، مع أنها لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لهم على عبادتها حجة ولا دليلاً[3].

الثاني: جدل المسلمين، ولذلك أمثلة، منها:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٥/٢٦٥ (بتصرف) .
(٢) تفسير السعدي ٤/٣٦٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢١٥.

قوله (تعالى): ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٠٧-١٠٩] وذكر في سبب نزولها أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ فسرقت درع لأحدهم، فاتهموا بها رجلاً من الأنصار، وبلغ خبره النبي ﷺ، فلما علم الأنصاري ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل بريء، وجاءت عشيرته إلى النبي ﷺ يجادلون عن صاحبهم، ويطلبون من النبي ﷺ أن يجادل عنه ويعذره على رؤوس الناس، ففعل، فنزلت الآية[١].

وقال (تعالى): ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٥-٦]. فيها قولان: أحدهما: قول ابن عباس والجمهور، وهو أن الآية نزلت في طائفة من المسلمين أخذوا يجادلون طلباً للرخصة في ترك القتال؛ إذ أنهم لم يكونوا قد خرجوا للقاء العدو. والثاني: أن الآية في المشركين، وجدالهم إنما في التوحيد لا في القتال[٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٥٢٢/١ ، وزاد المسير ١٩٣/٢.

(٢) انظر: زاد المسير ٣٢٣/٣ .

وقال (تعالى) : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [سور البقرة: ١٩٧]. وفي تفسيرها قولان(١):

أحدهما: المراد أنه لا جدال في وقت الحج ومناسكه بعد أن بينها الله (تعالى) أتم البيان. قاله مجاهد وغيره. قال مالك بن أنس رضي الله عنه: «والجدال في الحج أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة بقُزَح وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة، فكانوا يتجادلون؛ يقول هؤلاء: نحن أصوب، ويقول هؤلاء: نحن أصوب، فقال الله (تعالى): ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ*وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الحج: ٦٧-٦٨] فهذا الجدال فيما نرى والله أعلم، وقد سمعت ذلك من أهل العلم»(٢).

الثاني: الجدال بمعنى مخاصمة الأخ لأخيه في الحج ومماراته حتى يغضبه. قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما.

ثانياً: نصوص السنة النبوية

١- عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ :﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨]»(٣).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢٢٦/١ والقرطبي ٤١٠/٢.

(٢) الموطأ ٣٨٩/١.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢٥٦،٢٥٢/٥ وانظر: سنن ابن ماجه ١٩/١ المقدمة ح : ٤٨. وسنن الترمذي ٦/٩-٧ أبواب التفسير - تفسير سورة الزخرف ح : ٣٢٥٠ وقال : هذا حديث حسن صحيح، إنما نعرفه من حديث حجاج بن دينار، وحجاج ثقة مقارب الحديث ... وحسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه ١٥/١ ح: ٤٥ .

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: ٧] فقال: يا عائشة، إذا رأيتم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عناهم الله فاحذروهم»[(١)].

٣- وروى أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جدال في القرآن كفر»[(٢)]. ولعل هذا هو الذي جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إنه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»[(٣)].

---

(١) سنن ابن ماجه ١/١٨-١٩ ح: ٤٧ المقدمة، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه١/١٤-١٥ وهذه الرواية هي التي جاء فيها لفظ الجدال. وانظر : صحيح البخاري ٨/٢٠٩ (فتح الباري) كتاب التفسير ـ باب ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ...﴾[آل عمران:٧] ح: ٤٥٤٧، وصحيح مسلم ٤/٢٠٥٣ كتاب العلم ـ باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ... ح: ٢٦٦٥، وسنن أبي داود ٥/٦ كتاب السنة ـ باب النهي عن الجدال واتباع المتشابه من القرآن ح : ٤٥٩٨ ، وسنن الترمذي ٨/١٧٧-١٧٨ أبواب التفسير ـ سورة آل عمران ح : ٢٩٩٦ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٢٥٨، ٤٧٨، ٤٩٤.

(٣) سنن الدارمي ١/٤٩ المقدمة .

٤- وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ترفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[١] قال البخاري: الألد الخصم: وهو الدائم في الخصومة، لُدًّا: عوجا، أَلَدُّ: أعوج. وقال الحافظ ابن حجر: يحتمل أن يكون المراد: الشديد الخصومة[٢] وقال محمد بن كعب: الألد: الكذاب. قال ابن حجر: وكأنّه أراد أن من يكثر المخاصمة يقع في الكذب كثيراً[٣].

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[٤].

ثالثاً: نصوص أهل العلم في النهي عن الجدال

١- عن فاطمة بنت الحسين عن علي رضي عنهم قال: «إياكم والخصومة، فإنها تمحق الدين»[٥].

---

(١) صحيح البخاري ١٨٨/٨ (فتح الباري) كتاب التفسير ــ باب ﴿وهو ألد الخصام﴾[البقرة:٢٠٤] ح: ٤٥٢٣، و ١٣/١٨٠ كتاب الأحكام ـ باب الألد الخصم ح: ٧١٨٨، وصحيح مسلم ٢٠٥٤/٤ كتاب العلم ـ باب في الألد الخصم ٢٦٦٨.

(٢) فتح الباري١٣/١٨٠، وانظر النهاية لابن الأثير ٤/٢٤٤.

(٣) فتح الباري ١٣/١٨١.

(٤) صحيح البخاري١٣/٢٥١ (فتح الباري) كتاب الاعتصام ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ح: ٧٢٨٨.

(٥) شرح السنة ـ اللالكائي ١/١٢٧ برقم: ٢١١.

٢- قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم بما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات»[١]. وقال - أيضاً-: «ما اجتمع رجلان يختصمان فافترقا حتى يفتريان على الله عز وجل»[٢].

٣- وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه: «لا تنقضي الدنيا حتى تكون خصومات الناس في ربهم»[٣].

٤- وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»[٤].

٥-وجاء رجل إلى الحسن البصري رحمه الله فقال: «يا أبا سعيد، تعال أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه»[٥].

٦-وقال أبو العالية (٩٠أو٩٣هـ) رحمه الله: «آيتان في كتاب الله ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر: ٤]، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة البقرة: ١٧٦]»[٦].

---

(١) شرح السنة - اللالكائي ١/١٢٧ برقم : ٢١٢ .
(٢) الإبانة - ابن بطة ٢/٥١٩ برقم : ٦١٣ .
(٣) شرح السنة ١/١٢٧ برقم : ٢١٣ والإبانة - ابن بطة ٢/٥٢١ وجامع بيان العلم ٢/١١٤.
(٤) الشريعة - الآجري ص : ٥٦ . وجامع بيان العلم ٢/١١٣. والإبانة ٢/٥٠٣ برقم : ٥٦٥ وسنن الدارمي ١/٩١ باب من قال العلم الخشية وتقوى الله، والحجة ٢/٤٥٥برقم : ٤٧٧ وشرح السنة ١/١٢٨ برقم: ٢١٦ .
(٥) الشريعة - الآجري ص : ٥٧ ، والإبانة - ابن بطة ٢/٥٠٩، وشرح السنة ١/١٢٨ برقم : ٢١٥ .
(٦) الإبانة - ابن بطة ٢/ ٤٩٤، والدر المنثور ١/١٦٩.

٧-وقال جابر: قال لي أبو جعفر الباقر (١١٤هـ): يا جابر، لا تخاصم، فإن الخصومة تكذب القرآن[١].

٨-وقال العوام بن حوشب: سمعت إبراهيم النخعي يقول في قوله عز وجل: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [سورة المائدة: ١٤] قال: أغرى بعضهم ببعض في الخصومات والجدال في الدين[٢].

٩-وقال أبوالزناد (١٣١هـ): «وهل هلك أهل الأهواء وخالفوا الحق إلا بأخذهم بالجدل والتفكير في دينهم، فهم كل يوم على دين ضلال وشبهة جديدة، لا يقيمون على دين، وإن أعجبهم، إلا نقلهم الجدل والتفكير إلى دين سواه، ولو لزموا السنن وأمر المسلمين وتركوا الجدل لقطعوا عنهم الشك»[٣].

١٠-وقال الأوزاعي رحمه الله: «بلغني أن الله إذا أراد بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل». وروي مثله عن بكر بن نصر، ونحوه عن معروف[٤].

١١-وقيل لمالك بن أنس رحمه الله: يا أبا عبدالله، الرجل يكون عالماً بالسنة، أيجادل عنها؟ قال: لا ولكن يخبر بالسنة، فإن قبلت منه، وإلا

---

(١) الإبانة - ابن بطة ٢/٤٩٥ رقم: ٥٤٢.

(٢) الإبانة - ابن بطة ٢/٥٠٠، ٥٠١ رقم: ٥٥٨، ٥٥٩، وجامع بيان العلم ٢/١١٤.

(٣) الحجة - الأصبهاني ١/٢٨٣-٢٨٤ وانظر: الإبانة - ابن بطة ٢/٥٣٢ برقم: ٦٥٨.

(٤) انظر: الإبانة - ابن بطة ٢/٥١٠ تر: ٥٨٩، والحجة ٢/٤٥٥.

سكت[1]. وذكر رحمه الله الجدال في الدين فأنكره ونهى عنه، وقال: «أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ»[2].

١٢- قال محمد بن الحسين الآجري رحمه الله بعد أن ساق طائفة من النصوص التي فيها النهي عن الجدال والمراء في الدين، قال: «لما سمع هذا أهل العلم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين لم يتماروا في الدين، ولم يجادلوا، وحذروا المسلمين المراء والجدل، وأمروهم بالأخذ بالسنن، وبما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهذا طريق أهل الحق ممن وفقه الله عز وجل»[3].

(١) جامع بيان العلم ٢/١١٥، وانظر: رسالة السجزي إلى أهل زبيد ص: ٢٣٥.

(٢) الحجة ٢/٤٥٤-٤٥٥ برقم: ٤٧٦.

(٣) الشريعة ص: ٥٥-٥٦ .

المطلب الثالث
التحقيق في المسألـة

تقدم أن الجدل نوعان: محمود ومذموم، وعليـه فـالنصوص والآثـار الـتي ورد فيها الأمر بالجدل والحث عليه تحمل على النوع المحمود. وأما النصـوص والآثار التي ورد فيها النهي عن الجـدل وذمـه والتحذيـر منـه، فتحمـل علـى النوع المذموم، وعندئذ نكون آمنا بالكتاب كله، وأعملنا الأدلـة جميعهـا، إذ لا تعارض بين نصوص الكتاب والسنة، ولهذا من تأمل نصوص النهـي وجـد علة النهي بارزة:

أما نصوص القرآن الكريم فقـد ذمـت جـدل الكفـار وأهـل الضـلال في آيات الله، أو الجدل لدحض الحق، أو بغير حجة ولا علم، أو لتقريـر الديـن الباطل والدفاع عنه، أو الجدل بعد بيان الحق وظهوره.

أما نصوص السنة؛ فقد ذمت الجدل الذي يكون سبباً في تحـول المؤمنـين إلى الضلال بعد الهدى، أو الجدل الذي يُتتبع به الآيات المتشابهات ومعارضة المحكمات بها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها على غير مراد الشارع، ممـا يقتضـي التكذيب ببعض النصوص، ونهت عن الجدل الـذي يكـون ممـاراة وخصومـة شديدة في وجه أهل الحق، أو سبباً للفرقة والاختلاف والتنازع المذموم.

وعلى هذا ونحوه يتنزل ما ورد عن السلف والأئمة من الذم والنهي عن الجدل؛ فمقصودهم: ذم الجدل على طريقة أهل الأهواء، وما كان سبباً لإثارة العصبية والفرقة بين المؤمنين، ثم التكفير والاقتتال؛ لأن في ذلك هلاك الأمة كما هلكت الأمم قبلها. ونهوا عن الجدل الذي يشكك في الثوابت، ويدعو للتنقل بين الأهواء والبدع طلباً ـ فيما يزعم المجادل ـ للحق، لكنه لا يستقر على شيء، بل هو كل يوم على دين جديد، ولو جادله نصراني أو يهودي فقطعه لتحول إلى دينه؛ لأن الحق عنده مع من غلب، أي كان شديد الخصومة، ونهوا عن الجدل الذي يؤدي إلى التكذيب بالقرآن وأحكامه؛ لأنه ما ابتدع أحد بدعة إلا كذّب ببعض النصوص التي لا توافقه، فسائر البدع تقوم على التفريق بين النصوص في الإيمان بها والإذعان لها، ونهوا عن الجدل على سبيل التعمق والتنقير والأغاليط والمماراة لأهل العلم. يقول ابن بطة رحمه الله عن الجدل المذموم: «إنما هو لهو يُتعلّم، ودراية يُتفكّه بها، ولذة يُستراح إليها، ومهارشة العقول، وتذريب اللسان بمحق الأديان، وضرواة على التغالب واستمتاع بظهور حجة المخاصم، وقصد إلى قهر المناظر، والمغالطة في القياس، وبهت في المقاولة، وتكذيب الآثار، وتسفيه الأحلام الأبرار، ومكابرة لنص التنزيل، وتهاون بما قاله الرسول، ونقض لعقدة الإجماع، وتشتيت الألفة، وتفريق لأهل الملة، وشكوك تدخل على الأمة، وضراوة السلاطة، وتوغير القلب، وتوليد للشحناء في النفوس، عصمنا الله وإياكم من ذلك، وأعاذنا من مجالسة أهله»[1].

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٣١-٥٣٢.

وعلى كل حال، فالسلف والأئمة نهوا عن الجدل بين المسلمين على طريقة أهل الأهواء والبدع، وهذا يدخل ضمن معاملة السلف والأئمة لأهل البدع من الهجر والزجر وترك مفاتحتهم ومجالستهم ومجادلتهم، على ما سيأتي بيانه عند الحديث عن حكم مناظرة أهل البدع، إن شاء الله.

نصوص العلماء المحققين في هذه المسألة:

١- قول أبي محمد بن حزم رحمه الله، وذلك عند قوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة الشورى: ١٥-١٦] قال: «وهذه الآية مبينة وجه الجدال المذموم، وهو قوله (تعالى) فيمن يحاج بعد ظهور الحق، وهذه صفة المعاند للحق، الآبي من قبول الحجة بعد ظهورها، وهذا مذموم عند كل ذي عقل، ومنها قوله (تعالى): ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨].

قال أبو محمد: وإنما ذم (تعالى) في هذه الآية من خاصم وجادل في الباطل وعارض الآلهة التي كانوا يعبدون من حجارة لا تعقل بعيسى النبي العبد المؤيَّد بالمعجزات من إحياء الموتى وغير ذلك. ومنها قوله (تعالى): ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [سورة الشورى: ٣٥] ومنها قوله (تعالى): ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠].

قال أبو محمد: قال (تعالى): ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

[سورة النساء: ٨٢] فصح بهذه الآية أن كلام الله (تعالى) لا يتعارض ولا يختلف، فوجدناه (تعالى) أثنى على الجدال بالحق، وأمر به، فعلمنا يقيناً أن الذي أمر به (تعالى) هو غير الذي نهى عنه بلا شك، فنظرنا في ذلك لنعلم وجه الجدال المنهي عنه المذموم، ووجه الجدال المأمور به المحمود؛ لأنا قد وجدناه (تعالى) قد قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سورة فصلت: ٣٣] ووجدناه (تعالى) قد قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]. فكان (تعالى) قد أوجب الجدال في هذه الآية، وعلّم فيها (تعالى) جميع آداب الجدال كلها من الرفق والبيان، والتزام الحق، والرجوع إلى ما أوجبته الحجة القاطعة...» ثم ذكر رحمه الله الآيات التي فيها الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام واتباع ملته، وأن من ملته المناظرة والمحاجة. ثم قال رحمه الله: «فلما وجدنا الله (تعالى) أمر في الآيات ـ التي ذكرنا ـ بالحجاج والمناظرة، ولم يوجب قبول شيء إلا ببرهان، وجب علينا تطلب الحجاج المذموم على ما قدمنا، فوجدناه قد قال: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة الكهف: ٥٦] فذم (تعالى) -كما ترى- الجدال بغير حجة والجدال في الباطل... وقال (تعالى): ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: ٣٥] فقد جمعت هذه

الآيات بين الجدال المذموم والجدال المحمود الواجب، فالواجب هو الذي يجادل متوليه في إظهار الحق، والمذموم وجهان بنص الآيات التي ذكرنا: أحدهما من جادل بغير علم. والثاني: من جادل ناصراً للباطل بشغب وتمويه بعد ظهور الحق إليه...»[1].

٢- قول الخطيب البغدادي رحمه الله، وذلك بعد أن أورد حجج من ذهب إلى إبطال الجدل، فقال رحمه الله: «فنظرنا في كتاب الله (تعالى) وإذا فيه ما يدل على الجدال والحجاج؛ فمن ذلك قوله (تبارك وتعالى):﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] فأمر الله رسوله في هذه الآية بالجدال، وعلمه منها جميع آدابه؛ من الرفق والبيان والتزام الحق والرجوع إلى ما أوجبته الحجة». ثم ذكر رحمه الله طائفة من الآيات التي فيها الأمر بالجدال، وحكاية الاحتجاج على نحو ما تقدم عن ابن حزم رحمه الله، ثم قال: «وكتاب الله تعالى لا يتعارض، ولا يختلف؛ فتضمن الكتاب ذم الجدال والأمر به، فعلمنا علماً يقيناً أن الذي ذمّه غير الذي أمر به، وأن من الجدال ما هو محمود مأمور به، ومنه ما هو مذموم منهي عنه، فطلبنا البيان لكل واحد من الأمرين، فوجدناه (تعالى) قد قال:﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة الكهف: ٥٦] وقال: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة غافر: ٣٥] فبين الله في هاتين الآيتين الجدال المذموم،

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/١٩-٢٣.

وأعلمنا أنه الجدال بغير حجة، والجدال في الباطل. فالجدال المذموم وجهان: أحدهما: الجدال بغير علم، والثاني : الجدال بالشغب والتمويه نصرةً للباطل بعد ظهور الحق وبيانه؛ قال الله تعالى:﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [سورة غافر: ٥].

أما جدال المحقين فمن النصيحة في الدين، ألا ترى إلى قوم نوح الطَّيْلا حيث قالوا :﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جدالنا﴾ [سورة هود: ٣٢] وجوابه لهم: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [سورة هود: ٣٤] وعلى هذا جرت سنة رسول الله ﷺ ...». ثم ساق طائفة من الأحاديث في بيان مشروعية الجدال، ثم أردف ذلك ببعض أقوال الصحابة وأحوالهم في ذلك، ثم قال رحمه الله: «وما أنكر أحد من الصحابة قط الجدال في طلب الحق، وأما التابعون ومن بعدهم فتوسعوا في ذلك، وثبت أن الجدال المحمود هو طلب الحق ونصره، وإظهار الباطل وبيان فساده، وأن الخصام بالباطل هو اللدد ...»[(١)].

٣- قول أبي الوليد الباجي، قال رحمه الله: «وقد نطق الكتاب بالمنع من الجدل لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده، فقال (تعالى): ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ علم﴾ [سورة آل عمران: ٦٦] وقد ورد الأمر به لمن علم وأتقن، فقال (تعالى): ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٤][(٢)].

(١) الفقيه والمتفقه ١/٢٣٠-٢٣٥ .

(٢) المنهاج في ترتيب الحجاج ص : ٨.

٤- قول أبي المعالي الجويني. قال رحمه الله: «ثم من الجدل ما يكون محموداً مرضياً، ومنه ما يكون مذموماً محرماً؛ فالمذموم منه ما يكون لدفع الحق، أو تحقيق العناد، أو ليُلْبِس الحق بالباطل، أو لما لا يطلب به تعرُّف ولا تقرُّب، أو للمماراة وطلب الجاه والتقدم، إلى غير ذلك من الوجوه المنهي عنها، وهي التي نص الله (سبحانه)في كتابه على تحريمها فقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨] وقال (تعالى): ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٤] وغيرهما من الآيات، وفي مثله قال ﷺ: «دع المراء وإن كنت محقاً» (١) وهذا فيمن خرج عن أدب الجدل، أو لم يقطع اللحاج بعد ظهور الحق كدأب الكفار مع الرسل.

وأما الجدال المحمود والمدعو إليه، فهو الذي يحقق الحق ويكشف عن الباطل، ويهدف إلى الرشد مع من يرجى رجوعه عن الباطل إلى الحق، وفيه قال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

(١) الحديث في سنن الترمذي ٢٠٧/٦-٢٠٨ أبواب البر والصلة- باب ما جاء في المراء عن أنس بن مالك بلفظ : " من ترك الكذب وهو باطل بني له في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها..." ح : ١٩٩٤ قال أبو عيسى : وهذا الحديث حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان عن أنس بن مالك. وفي سنن أبي داود ١٥٠/٥ كتاب الأدب باب في حسن الخلق ح : ٤٨٠٠ عن أبي أمامة بلفظ " أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً..." وفي سنن أبي ماجة ١٩/١-٢٠ المقدمة رقم : ٥١ من حديث أنس بنحو رواية الترمذي .

أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] وقال لرسوله: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١١١] وقال ﷺ : " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين،وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[1] »[2].

٥- قول ابن عقيل، قال رحمه الله: «وكل جدل لم يكن الغرض فيه نصرة الحق، فإنه وبال على صاحبه، والمضرة فيه أكثر من المنفعة؛ لأن المخالفة توحش، ولولا ما يلزم من إنكار الباطل، واستنقاذ الهالك بالاجتهاد في رده عن ضلالته، لما حسنت المجادلة للإيحاش فيها غالباً، ولكن فيها أعظم المنفعة إذا قصد بها نصرة الحق والتقوي على الاجتهاد؛ ونعوذ بالله من قصد المغالبة وبيان الفراهة»[3].

٦- قول أبي عبدالله القرطبي، قال رحمه الله وذلك عند تفسير قوله (تعالى): ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة ٣٧/١، وابن عساكر في تاريخه ٤٦٣/٢-٤٦٤، والعقيلي في الضعفاء الكبير ٩/١-١٠، وابن عبد البر في التمهيد ٥٩/١، وابن عدي في الكامل ١٥٢/١-١٥٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٤٠/١ ونسبه إلى البزار، وفيه عمرو بن خالد القرشي، كذبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الوضع. ورواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص : ٢٨-٢٩ برقم : ٥٢-٥٥ وروى الخطيب عن ابن يحيى قال : سألت أحمد ـ يعني ابن حنبل ـ عن حديث معان بن رفاعة : يحمل هذا العلم... الحديث فقلت لأحمد: كأنه كلام موضوع. قال : لا، هو صحيح. فقلت : ممن سمعته أنت؟ قال : من غير واحد. قلت : من هم . قال : حدثني به مسكين، إلا أنه يقول معان عن القاسم بن عبد الرحمن قال أحمد : معان بن رفاعة لا بأس به .انظر ص : ٢٩ من شرف أصحاب الحديث .

(٢) الكافية في الجدل ص :٢٢-٢٣ .

(٣) انظر : شرح الكوكب المنير ص : ٣٧٢ .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تعلمون﴾ [سورة آل عمران: ٦٦]: «في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده، فقال عز وجل: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٦٦]. وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن، فقال (تعالى): ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] وروي عن النبي ﷺ أنه أتاه رجل أنكر ولده، فقال:" يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاما أسود. فقال رسول الله ﷺ : هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال: حُمْرٌ. قال: هل فيها من أَوْرَق؟ قال: نعم. قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعل عرقاً نزعه. فقال رسول ﷺ: وهذا الغلام لعل عرقاً نزعه"[1] وهذا حقيقة الجدال ونهايةٌ في تبيين الاستدلال من رسول الله ﷺ»[2].

٧-قول أبي عبدالله الفخر الرازي، قال رحمه الله عند قوله (تعالى): ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر:٤] : «الجدال نوعان: جدال في تقرير الحق، وجدال في تقرير الباطل، أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام قال (تعالى) لمحمد ﷺ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

---

(١) بنحوه في صحيح البخاري ٤٤٢/٩ (فتح الباري) كتاب الطلاق ـ باب إذا عرّض بنفي الولد ح : ٥٣٠٥ و١٧٥/١٢ كتاب الحدود ـ باب ما جاء في التعريض ح : ٦٨٤٧ ، و٢٩٦/١٣ كتاب الاعتصام ـ باب من شبّه أصلا معلوما بأصل مبين ... ح : ٧٣١٤ . وصحيح مسلم ١١٣٧/٢ كتاب اللعان ح : ١٥٠٠ وما يليه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠٨/٤-١٠٩ .

[سورة النحل: ١٢٥] وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح الطَّيْلاً: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [سورة هود: ٣٢] .

وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية» ثم ساق آيات أخرى في نفس المعنى، ثم قال رحمه الله: «واعلم أن لفظ الجدال في الشيء مشعر بالجدال الباطل، ولفظ الجدال عن الشيء مشعر بالجدال لأجل تقريره والذب عنه». وقال ـ أيضاً ـ عند تفسير قوله (تعالى): ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [سورة الزخرف: ٥٨]: «القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية، إلا أنا قد ذكرنا في تفسير قوله (تعالى): ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر: ٤] أن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء. وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل»[١] .

٨- قول أبي العباس أحمد بن تيمية، قال رحمه الله: «أما جنس النظر والمناظرة، فهذا لم ينه السلف عنه مطلقاً، بل هذا ـ إذا كان حقاً ـ يكون مأموراً به تارة ومنهياً عنه أخرى، كغيره من أنواع الكلام الصدق، فقد ينهى عن الكلام الذي لا يفهمه المستمع، أو الذي يضر المستمع، وعن المناظرات التي تُورث شبهات وأهواء، فلا تفيد علماً ولا ديناً»[٢] .

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/٢٧، ٢٢٢.

(٢) درء تعارض العقل والنقل٧/١٨٤.

٩- قول محمد بن علي الشوكاني، قال رحمه الله عند تفسير قوله (تعالى): ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر: ٤]: «قال: أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد الجدال بالباطل والقصد إلى دحض الحق كما في قوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة غافر: ٥] فأما الجدال لاستيضاح الحق ورفع اللبس والبحث عن الراجح والمرجوح وعن المحكم والمتشابه ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم، فهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون...»[1].

(١) فتح القدير ٤/٤٨١ .

المبحث الثاني
حكم مناظرة الكفار والمشركين

إن الله (تعالى) أرسل رسله لهداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ووسيلة ذلك أن يخاطب كلُّ رسول قومه بما يحسنونه من لغة التخاطب؛ قال (تعالى): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ٤].

وهذا الخطاب يتم بطرق ثلاث ذكرها الله (تعالى) في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

فالدعوة بالحكمة تقتضي الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبدء بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الذهن والفهم، وبما يكون قبوله أتم وأكمل، وبالرفق واللين، كما قال(تعالى) لموسى (عليه السلام) في خطابه لفرعون﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [سورة طه: ٤٤].

فإذا انقاد المدعو بالحكمة، وإلا يُنتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقترن بالترغيب والترهيب؛ إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وبما تشتمل عليه النواهي من المضار، وإما بذكر ما أكرم الله به المستجيبين لدين الله (تعالى) وأهان به المعرضين عنه، وإما بذكر ما أعده الله (تعالى) للطائعين من الثواب وما أعده للعاصين من العقاب.

فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطريق التي تكون أدعى لاستجابته نقلاً

وعقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي يُسلِّم بها؛ فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها[1].

فاستعمال الجدل والمناظرة في دعوة الكفار والمشركين أمر مهم، لا سيما إذا عرفنا أن الإنسان مجبول على الجدال والمخاصمة والمدافعة كما قال (تعالى): ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٤] فكثير من الناس قد لا ينقاد بمجرد الموعظة البليغة والدعوة الحكيمة، بل يحتاج إلى جدال ومناظرة لنزع ما في نفسه من موروث التبعية والتقليد للآباء والإعجاب بالقديم العتيق، كما قال (تعالى): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [سورة لقمان: ٢٠- ٢١] .

وربما يظن بعضهم في نفسه معرفة بالمقاييس العقلية والمنطلقات العلمية، فيزعم أن اعتقاده مؤسس على علم وفهم، ثم ما يلبث أن يكتشف أنه مجرد ظنون وأوهام؛ قال (تعالى) ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة الجاثية: ٢٤]. إلى غير ذلك من الدوافع التي تقدم ذكرها في أنواع الجدل المذموم.

فاحتاج الرسل في دعوتهم الكفار والمشركين إلى الجدل إما لإرشاد ضال، أو تثبيت متردد، أو إلزام منكر، أو قطع معاند، أو إفحام مبطل

---

(١) انظر : تفسير السعدي ٣/٩٢-٩٣ .

متلدد. فهو أحد طرق الرسل في الدعوة إلى الله (تعالى)، والقرآن الكريم حافل بمجادلات الأنبياء لأقوامهم. وستأتي نماذج من ذلك في هذا الباب إن شاء الله.

فجدال الكفار والمشركين أمر مشروع وهو يتردد بين الاستحباب والوجوب بحسب الحال وقيام المقتضي؛ قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما جنس المناظرة بالحق، فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى»[1].

وأدلة كون الجدل أحد طرق الرسل والأنبياء في إقامة الحجة على الكفار والمشركين كثيرة جداً، وقد تقدم طرف منها، وإليك نماذج أخرى:

أولاً: قوله (تعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] في المشار إليهم في هذه الآية قولان: أحدهما: أنهم أهل مكة من الكفار والمشركين. والثاني: أنهم أهل الكتاب[2].

وقوله: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فيه ثلاثة أقوال[3]:

١- جادلهم بالقرآن. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

٢- جادلهم بلا إله إلا الله. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

٣- جادلهم غير فظ ولا غليظ، وأَلِنْ لهم جانبك، قاله الزجاج.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٧٤/٧ .

(٢) زاد المسير ٥٠٦/٤.

(٣) المرجع السابق.

وقال عبدالرحمن بن نجم الحنبلي رحمه الله في هذه الآية: «فيحتمل أن يكون المراد بالأحسن الأظهر من الأدلة، ويحتمل بالتعجيز عن الإتيان بمثل القرآن؛ لأنه أحسن الأدلة نظاماً وبياناً، وأكملها حسناً وإحساناً... ويحتمل بالإصغاء إلى شبههم، والرفق بهم في حلّها ودحضها، ويحتمل بترك الغلظة عليهم في حال جدالهم، لتكون الحجة عليهم أظهر والجحد منهم أنكد، وهي سنة الأنبياء عليهم السلام مع الأمم عند الدعوة والمجادلة، من ذلك لمَّا قالوا لمحمد ﷺ مجنون. قال ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾[الأعراف:١٨٨] أي جنون، من غير أن يقابلهم على ذلك بقول خشن مع النخوة العربية والعزة الهاشمية...» ثم ذكر نماذج من ذلك لنوح وصالح وهود عليهم السلام ثم قال: «فلو قابلهم الأنبياء بغلظة لنفرت طباعهم وانصرفت عقولهم عن التدبر لما قالوا، والتدبر لما جاءوا به من البينات، فلم تتضح لهم المحجة، ولم تقم عليهم الحجة. وشاهد هذه الحالة قوله (تعالى):﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٦]»[١].

وذكر بعض العلماء من المفسرين[٢] أن الأمر بمجادلة الكفار والمشركين وأهل الكتاب منسوخ بآية السيف، وقد أجاب على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في قوله: «فإن من الناس من

---

(١) استخراج الجدل ص:٥٢-٥٥.

(٢) انظر : تفسير القرطبي١٠/٢٠٠ ، ١٣/٣٥٠-٣٥١ ، وتفسير ابن كثير ٣/٤٠١ .

يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف، لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة وهذا غلط...» ثم أفاض رحمه الله في بيان الجواب، بما ملخصه(١):

أن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام، فأما قوله (تعالى): ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] فهذا لا يناقضه الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم، ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاقتصار على المجادلة. فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به، فلا منافاة بينهما، ومن ثم لم يجز الحكم بالنسخ، ومعلوم أن كلاً منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، ويتبين ذلك من وجوه:

١- أن من كان من أهل الذمة والعهد والأمان لا يجاهد بالقتال، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن.

٢- أنه (تعالى) قال: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ فالظالم لم يؤمر بجداله بالتي هي أحسن، فمن كان ظالماً مستحقاً للقتال غير طالب للعلم والدين، فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يُجَادَلون بالتي هي أحسن، بخلاف غيره.

(١) انظر: الجواب الصحيح - ابن تيمية ٢١٨/١ وما بعدها.

٣- أنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [سورة التوبة: ٦] فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب، أمر الله بإجارته حتى تقوم عليه حجة الله، ثم يبلغ مأمنه، قال رحمه الله : «وإذا كان النبي ﷺ يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال، وقد أمره الله (تعالى) أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه، والمراد بذلك [تبليغه][1] رسالات الله وإقامة الحجة عليه، وذلك قد لايتم إلا بتفسيره له، الذي تقوم به الحجة، ويجاب به عن المعارضة، وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب، علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ للأمر بالمجادلة مطلقاً»[2].

٤- أن يقال: إن المنسوخ هو الاقتصار على الجدال؛ لأنه ﷺ كان أول الأمر مأموراً بالجهاد باللسان فقط، والكف عن القتال حتى تمكن فأذن له فيه، ثم أوجب الله ذلك، أما مجاهدة الكفار باللسان، فما زال مشروعاً من أول الأمر إلى آخره.

٥- أنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة، فلو آمن الناس بالبرهان والآيات، لما احتيج إلى قتالهم، فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقاً وجوباً أصلياً، وأما الجهاد فمشروع للضرورة، فكيف يكون هذا مانعاً من هذا.

---

(١) في الأصل: [تبليغ] وما أثبته موجود في إحدى نسخ الكتاب كما أشار إليه المحقق، ولعله الصحيح .

(٢) الجواب الصحيح ١/٢٣١-٢٣٢ .

٦- أن القتال لايكون إلا لظالم، كمن قاتل المسلمين، أو قامت عليه الحجة فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى. وأما المجادلة فقد تكون لظالم كالطاعن في الدين، والممتنع عن قبول الحجة الظاهرة عليه، وقد تكون لمسترشد طالب حق لم يبلغه. فإذا كان القتال الذي لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعاً، فالمجادلة التي تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه، وانتفاع غيره مشروعة بطريق الأولى.

٧- أن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً ﷺ وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة قيل لهم: ليس لكم جواب إلا السيف، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسول من عندا لله، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف.

ثانياً: قوله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[(١)].

قال ابن حزم رحمه ا لله: «وهذا حديث في غاية الصحة، وفيه الأمر بالمناظرة وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل ا لله»[(٢)] وقال الأمير الصنعاني رحمه ا لله: «الحديث دليل على وجوب الجهاد بالنفس وهو بالخروج والمباشرة للكفار، وبالمال وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه... والجهاد باللسان بإقامة الحجة عليهم

---

(١) تقدم تخريجه ص: .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ٢٥/١.

ودعائهم إلى الله (تعالى) ، وبالأصوات عند اللقاء والزجر ونحوه من كل ما فيه نكاية للعدو...»[(١)].

ثالثاً: لأبي محمد بن حزم رحمه الله استدلالات لطيفة على مشروعية المناظرة، ومنها مناظرة الكفار والمشركين، من ذلك قوله رحمه الله: «وقد أمرنا تعالى في نص القرآن باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وخبّرنا (تعالى) أن من ملة إبراهيم المحاجة والمناظرة ـ فمرّة للملك ومرّة لقومه ـ والاستدلال كما أخبرنا (تعالى) عنه، ففرض علينا اتباع المناظرة لنصرف أهل الباطل إلى الحق، وأن نطلب الصواب بالاستدلال فيما اختلف فيه المختلفون، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨] فنحن المتبعون لإبراهيم عليه السلام في المحاجة والمناظرة؛ فنحن أولى الناس به، وسائر الناس مأمورون بذلك، قال الله (تعالى) ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٥] ومن ملته المناظرة، كما ذكرنا...»[(٢)].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «وقال (تعالى): ﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠]. ولا غيظ أغيظ على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصادعة، وقد تهزم العساكر الكبار، والحجة الصحيحة لا تغلب أبداً،

---

(١) سبل السلام ٨٢/٤ .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ٢١/١ .

فهي أدعى إلى الحق، وأنصر للدين من السلاح الشاكي والأعداد الجمَّة، وأفاضل الصحابة الذين لا نظير لهم إنما أسلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد ﷺ عندهم، فكانوا أفضل ممن أسلم بالغلبة بلا خلاف من أحد من المسلمين، وأول ما أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يدعو له الناس بالحجة البالغة بلا قتال، فلما قامت الحجة وعاندوا الحق أطلق الله (تعالى) عليهم السيف حينئذ، وقال (تعالى) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٩] وقال (تعالى): ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [سورة الأنبياء: ١٨]. ولا شك في أن هذا إنما هو بالحجة؛ لأن السيف مرة لنا ومرة علينا، وليس كذلك البرهان بل هو لنا أبداً، ودامغ لقول مخالفينا، ومزهق له أبداً، ورب قوة باليد قد دمغت بالباطل حقاً كثيراً فأزهقته، منها يوم الحرَّة، ويوم قتل عثمان ﷺ ويوم قتل الحسن وابن الزبير رضي الله عنهم ... وقد قتل أنبياء كثير وما غلبت حجتهم قط»[(١)].

رابعاً: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[(٢)].

---

(١) المرجع السابق ١/٢٤-٢٥ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/٣٥٧ .

المبحث الثالث
حكم مناظــرة أهل الكتــاب

لأهل الكتاب في الإسلام وضع خاص يتميزون به عن سائر الكفرة والمشركين، فهم يشتركون مع المسلمين في جنس الكتاب المنزل - مع ما أصاب كتبهم من التحريف والتبديل والضياع - وفي الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام مع أن أولى الناس به هو محمد ﷺ وأتباعه؛ لأن انتسابهم إليه عن متابعة وتأسٍ قال (تعالى): ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨]، أما انتساب اليهود والنصارى إليه فهو مجرد دعوى لا حقيقة لها، أكذبهم الله فيها كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٧] ثم قال بعدها: ﴿إن أولى الناس﴾ ...الآية.

ويشترك أهل الكتاب - أيضاً - مع المسلمين في الإيمان - في الجملة - بالقضايا الكبرى؛ كالتوحيد وجنس النبوات مع ما فيهم من مخالفات واعتقادات فاسدة.

ولهذا كانت العلاقة مع أهل الكتاب أخص منها مع الكفار والمشركين، حيث جعلهم الله (تعالى) أمام خيارات ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو السيف، ثم أحل الله (تعالى) للمسلمين أكل طعامهم ونكاح المحصنات من نسائهم.

وقد أمر الله (تعالى) في أكثر من آية بدعوة أهل الكتاب إلى التوحيد الخالص وصدق المتابعة لأنبيائهم والتي تقتضي التصديق بالرسول محمد ﷺ، من ذلك قوله (تعالى): ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مسلمون﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]. وقال (تعالى): ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٦٨].

والقرآن الكريم أمر بمجادلة أهل الكتاب، لكن بالتي هي أحسن؛ قال (تعالى): ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]. قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف.

وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه. قال ابن كثير رحمه الله: وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد[١].

وذكر القرطبي أنها محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاط والمخاشنة[٢]. وهذا هو الصحيح،

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤٠١/٣ وتفسير الطبري ٣/٢١ ط. دار المعرفة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٥٠/١٣.

ويؤكده ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيما يتعلق بمجادلة الكفار على ما مرَّ ذكره.

ويقول السعدي رحمه الله: «ينهى (تعالى) عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت على غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف، ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة، والمغالبة، وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق»[(١)].

ومن الإحسان في مجادلة أهل الكتاب عدم تكذيب ما عندهم تكذيباً عاماً لمجرد كونه من كتبهم، بل ينبغي السكوت عن ذلك؛ فلا يصدقون ولا يكذبون؛ وذلك خشية أن نصدق بباطل أو نكذب بحق، فإن صدقنا بباطلهم نكون قد وافقناهم فيه فيستطيلون به علينا. وإن كذبنا بالحق الذي معهم أسأنا إليهم، بل الواجب السكوت عما سكت عنه شرعنا. فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] الآية»[(٢)] قال الحافظ ابن حجر رحمه

(١) تفسير السعدي ٤/٦٤.

(٢) صحيح البخاري ٨/١٧٠ كتاب التفسير ـ باب ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [سورة البقرة: ١٣٦] ح:٤٤٨٥، و ١٣/٣٣٣ كتاب الاعتصام ـ باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ح:٧٣٦٢.

الله: «أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه، أو كذباً فتصدقوه، فتقعوا في الحرج. ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه. نبه على ذلك الشافعي رحمه الله»[(١)].

ومن الإحسان في مجادلة أهل الكتاب عدم تفضيل نبينا محمد ﷺ على أنبيائهم على وجه الحميَّة والتنقص؛ فقد روى البخاري رحمه الله في صحيحه[(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «استب رجلان: رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين. قال: فغضب المسلم عند ذلك، فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فقال رسول الله ﷺ : لا تُخَيِّروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صُعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله». وفي رواية[(٣)] قال أبو هريرة: «بينما يهودي يعرض سلعته أُعطي بها شيئاً كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول والذي اصطفى

---

(١) فتح الباري ٨/١٧٠ .

(٢) ١١/٣٦٧ كتاب الرقاق ـ باب نفخ الصور ...ح : ٦٥١٧، والحديث في مواضع أخرى من صحيح البخاري، وفي صحيح مسلم وغيره .

(٣) صحيح البخاري ٦/٤٥٠-٤٥١ كتاب الأنبياء ـ باب قول الله تعالى : ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ [سورة يونس: ١٣٩] ح : ٣٤١٤ .

موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا، فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إنَّ لي ذمَّةً وعهداً، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: لم لطمت وجهه؟ فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رؤي في وجهه، ثم قال: لاتُفَضِّلُوا بين أولياء الله...» إلى تمام الحديث.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال العلماء في نهيه ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء: إنما نهى عن ذلك من يقوله برأيه لا من يقول بدليل، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يُترك للمفضول فضيلة...» ثم قال رحمه الله: «وقال الحليمي (٤٠٣هـ): الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل الكتاب، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة؛ لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يُؤْمَن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان، فلا يدخل في النهي»(١).

وقال شارح الطحاوية رحمه الله: «التفضيل إذا كان على وجه الحميَّة والعصبيَّة وهوى النفس كان مذموماً، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموماً، فإن الله حرَّم الفخر، وقد قال (تعالى) ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [سورة الأسراء: ٥٥] وقال (تعالى): ﴿ تلك الرسل فَضَّلْنَا

---

(١) فتح الباري ٦/٤٤٦.

بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣] فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول»[1].

وأما قوله (تعالى): ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] ففيها قولان: أحدهما: الذين أقاموا على كفرهم. الثاني: الذين رفضوا أداء الجزية ونصبوا لذلك حرباً. قاله مجاهد وسعيد بن جبير واختاره ابن جرير رضي الله عنهم[2].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «أي حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح الحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ يُنتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم».[3] وقال السعدي (١٣٧٦هـ) رحمه الله: «﴿إلا الذين ظلموا﴾ من أهل الكتاب بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله؛ لأن المقصود منها ضائع[4].

وقوله (تعالى):﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]. أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على

(١) شرح الطحاوية ١/١٥٩ .

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢١/٢،٣ ط. دار المعرفة ، والجامع لأحكام القرآن ١٣/٣٥٠-٣٥١.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٠١ .

(٤) تفسير السعدي ٤/٦٤.

الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى الإله الواحد، ولاتكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم يقدح في جميع ما معهم من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله ولو كان كافراً[(١)]. وقد تقدم حديث أبي هريرة الذي يؤكد هذا المعنى.

فهذا حكم مناظرة أهل الكتاب، وهي مناظرة مشروعة تدور بين الاستحباب والوجوب. قال ابن القيم رحمه الله وهو يعدد الفوائد التي اشتملت عليها قصة وفد نصارى نجران قال: «ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليؤد ذلك إلى أهله، وليُخَلِّ بَيْنَ المَطِيِّ وحَادِيها والقوس وبَارِيهَا»[(٢)].

وقال الحافظ ابن حجر في سياق فوائد القصة نفسها: «وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحته»[(٣)].

---

(١) انظر : المرجع السابق٤/٦٤-٦٥.

(٢) زاد المعاد ٣/٦٣٩ .

(٣) فتح الباري ٨/٩٥ .

المبحث الرابع
حكم منـــاظرة أهل البدع

اشتهر عن السلف والأئمة (رحمهم الله) نهيهم عن مجالسة أهل البدع ومناظرتهم، والمتأمل في أقوالهم يجدها تندرج تحت أصل عام وهو معاقبة المبتدعة وزجرهم بالهجر، وترك مجالستهم ومكالمتهم ومعاشرتهم رجاء أن يرتدعوا ويتوبوا إلى الله (تعالى) من بدعتهم، ويرجعوا إلى جماعة المسلمين، أو يكفوا شرهم عن المسلمين، فلا تعلق بقلوب الضعفاء منهم بعض بدعتهم، ولأن في مجالسة المبتدعة ومكالمتهم ومناظرتهم إذاعة للبدعة ورواجاً لها بين المسلمين، وفيها خطر على كثير ممن لا يقوى على دفع شبهاتهم من عوام المسلمين؛ فالسلف والأئمة كانوا يراعون المصلحة في ذلك:

فلا ينهون عن مجالسة المبتدعة ومحادثتهم إذا كانت في ذلك مصلحة، نحو إرشاد مسترشد، أو قطع معاند وكشف زيفه وتلبيسه للناس؛ لئلا يغتر به أحد من المسلمين، لا السلاطين ولا العامة، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من ذلك، وسأشير إلى بعضها في موضع لاحق بإذن الله (تعالى).

أما هنا فسأذكر طائفة من أقوال السلف والأئمة في النهي عن مجالسة أهل البدع ومكالمتهم، وهي على نوعين:

النوع الأول: أقوال مطلقة في النهي عن مجالسة أهل البدع ومكالمتهم ومعاشرتهم، وقد تقدم أنها تدخل ضمن أمر السلف والأئمة بهجر أهل البدع.

النوع الثاني: أقوال تنهى عن مناظرة أهل البدع ومجادلتهم في أحوال معينة، وهي بمثابة التقييد للإطلاق في النوع الأول، وبه يتبين لنا أن نهي السلف عن مناظرة المبتدعة منوط بالمصلحة الشرعية؛ ولهذا ثبت عنهم أنهم تصدوا للمبتدعة والزنادقة - في كل عصر ومصر - بالرد والمناظرة والمجادلة حتى كشفوا زيفهم، وقطعوا حجتهم، وأدخلوهم في أقماع السمسم.

أمثلة من النوع الأول: وهو النهي المطلق عن مجالسة المبتدعة ومجادلتهم.

استدل بعض أهل العلم على هجر المبتدعة بمثل :

١- قوله (تعالى): ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [سورة النساء: ١٤٠] وقوله (تعالى): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٦٨]. قال مجاهد: «نهي محمد ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسى فإذا ذكر فليقم»[١].

وقال قتادة: «نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله، يكذبون بها، وإن نسي فلا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين»[٢].

(١) الإبانة - ابن بطة ٢/٤٣٠ برقم: ٣٥١ .

(٢) المرجع السابق ٢/٤٣١ برقم: ٣٥٢.

وقال محمد بن سيرين: «كنا نعدهم أصحاب الأهواء»[(١)].

٢-وقوله ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل»[(٢)] فمن خالط أهل الأهواء والبدع فهو منهم.

٣-وموقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع صبيغ بن عسل وهو رجل من بني يربوع كان يسأل عن متشابه القرآن، فسأل عمر عن الذاريات والنازعات والمرسلات، أو عن إحداهن فقال له عمر: ضع عن رأسك، فوضع عن رأسه فإذا له وفيرة، فقال: لو وجدتك محلوقاً لضربت الذي فيه عيناك. وفي رواية: أن عمر قام إليه وحسَّر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته... ثم كتب إلى أهل البصرة أن لا تجالسوه قال - الراوي - فلو جلس إلينا ونحن مائة لتفرقنا عنه[(٣)].

٤- وقال عطاء: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام لا تجالس أهل الأهواء، فإنهم يحدثون في قلبك ما لم يكن فيه»[(٤)].

٥- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: « لا تجالس أهل الأهواء، فإن

---

(١) المرجع السابق ٤٩٦/٢ برقم: ٥٤٥.

(٢) سنن الترمذي ١١٠/٧-١١١ ديوان الزهد - باب الرجل على دين خليله ح: ٢٣٧٩ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب ، وسنن أبي داود ١٦٨/٥ كتاب الأدب - باب من يؤمر أن يجلس ح: ٤٨٣٣.

(٣) مرَّ ذكره. وانظر : سنن الدارمي ٥٥/١-٥٦ ، والإبانة - ابن بطة ٤١٤/١.

(٤) الإبانة - ابن بطة ٤٣٣/٢ برقم: ٣٥٨، وانظر: ٤٣٤/٢ برقم: ٣٥٩-٣٦٢ ، والشريعة ص: ٥٧.

مجالستهم ممرضة للقلوب »[١]. وروي مثله عن الحسن[٢]

٦- وقال محمد بن الحنفية رحمه الله: «لا تجالسوا أصحاب الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله»[٣].

٧- وقال مجاهد رحمه الله: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإن لهم عُرَّة[٤] كعرَّة الجرب»[٥]

٨- وقال الحسن وابن سيرين (رحمهما الله): «لا تجالسوا أصحاب الأهواء، ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم»[٦].

٩- وكان الحسن رحمه الله ينهى عن مجالسة معبد الجهني ويقول: لا تجالسوه فإنه ضال مضل[٧].

١٠- ودخل رجلان من أهل الأهواء على محمد بن سيرين، فقالا: «يا

(١) الشريعة ص: ٦١. والإبانة - ابن بطة ٢/٤٣٨ برقم: ٣٧١.

(٢) الإبانة ٢/٤٣٨ برقم: ٣٧٣.

(٣) المرجع السابق ٢/٤٤١ برقم : ٣٨٣،٣٨٤ .

(٤) عُرَّة : العُرَّة : القذر، وعذِرَة الناس. انظر: لسان العرب ٤/٥٥٨ مادة عرر.

(٥) المرجع السابق ٢/٤٤٣ برقم: ٣٨٩.

(٦) سنن الدارمي ١/١١٠ باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة، وجامع بيان العلم ٢/١١٨ ، وشرح السنة - اللالكائي ١/ ١٣٣ برقم: ٢٤٠، والإبانة - ابن بطة ٢/٤٤٤، ٤٦٤ برقم: ٣٩٥، ٤٥٨.

(٧) السنة لعبدالله بن أحمد ص: ١٢٣ برقم: ٦٨٢، والشريعة - الآجري ص: ٢٤١، وشرح السنة ٤/٦٣٧ برقم: ١١٤٢.

أبا بكر، نحدثك بحديث. قال: لا. قالا : فنقرأ عليك آية من كتاب ا لله؟ قال: لا، لتقومان عني، أو لأقومن، قال فخرجا. فقال بعض القوم : يا أبا بكر، وما كان عليك أن يُقرأ عليك آية من كتاب ا لله (تعالى) ؟! قال: إني خشيت أن يقرآ علي آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي»(١).

١١- وقال عبدا لله بن البسري: «ليس السنة عندنا أن ترد على أهل الأهواء، ولكن السنة عندنا أن لا نكلم أحدا منهم»(٢).

١٢- وكان طاوس (١٠٦هـ) جالساً هو وطلق بن حبيب (توفي قبل المائة) فجاءهما رجل من أهل الأهواء، فقال: «أتأذن لي أن أجلس؟ فقال له طاوس: إن جلست قمنا، فقال: يغفر ا لله لك أبا عبدالرحمن! فقال: هو ذاك، إن جلست وا لله قمنا، فانصرف الرجل»(٣).

١٣- وقال محمد بن واسع (١٢٣هـ): «رأيت صفوان بن محرز المازني وأشار بيده إلى ناحية من المسجد وشببة قريب منه يتجادلون، فرأيته ينفض ثوبه وقام، وقال: إنما أنتم جرب»(٤).

---

(١) سنن الدارمي ١٠٩/١ باب اجتناب أهل الأهواء... ، والشريعة ـــ الآجري ص : ٥٧.وترجمة الإمام أحمد ـ الذهبي ص: ٧٣-٧٤ شرح السنة ـــ اللالكائي ١٣٣/١ رقم : ٢٤٢ والشريعة ـ الآجري ص : ٥٧.

(٢) الإبانة ٤٧١/٢ برقم : ٤٧٨ .

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ٤٤٧/٢ برقم : ٤٠٣ .

(٤) الشريعة ـ الآجري ص : ٥٨ والإبانة ٥١٣/٢ -٥١٤ برقم : ٥٩٥-٥٩٨ والحجة ـ الأصبهاني ٤٥٥/٢-٤٥٦ برقم: ٤٧٧ .

١٤- وقال رجل من أصحاب الأهواء لأيوب السختياني: «يا أبا بكر، أسألك عن كلمة، فولّى أيوب وجعل يشير بأصبعه، ولا نصف كلمة»[(١)].

١٥- وقال أيوب رحمه الله: «لستُ براد عليهم بشيء أشدّ من السكوت»[(٢)].

١٦- وقال عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: «وايم الله، إن كنا لنلتقط السنن من أهل الفقه والثقة، ونتعلمها شبيهاً بتعلمنا آي القرآن، وما برح من أدركنا من أهل الفقه والفضل من خيار أولية الناس يعيبون أهل الجدل والتنقيب والأخذ بالرأي، وينهون عن لقائهم ومجالستهم ويحذرون مقاربتهم أشد التحذير، ويخبرون أنهم أهل ضلال وتحريف لتأويل كتاب الله وسنن رسول الله ﷺ...»[(٣)].

١٧- وكان ابن طاوس (١٣٢هـ) رحمه الله جالساً فجاء رجل من المعتزلة فجعل يتكلم، فأدخل ابن طاوس أصبعيه في أذنيه، وقال لابنه: أي بني أدخل أصبعيك في أذنيك واشدد، ولاتسمع من كلامه شيئاً. قال الراوي - معمر - يعني أن القلب ضعيف[(٤)].

---

(١) سنن الدارمي ١/١٠٩ باب اجتناب أهل الأهواء ....، وترجمة الإمام أحمد – الذهبي ص: ٧٤ والشريعة - الآجري ص: ٥٧ والإبانة - ابن بطة ٢/ ٤٧٢،٤٤٧ رقم: ٤٨٢،٤٠٢.

(٢) الشريعة - الآجري ص: ٦١ ، والإبانة ٢/٤٧١ رقم : ٤٧٩.

(٣) جامع بيان العلم ٢/١٢٠ والحجة - الأصبهاني ١/٢٨٣.

(٤) الإبانة - ابن بطة ٢/٤٤٦ برقم : ٤٠٠ وترجمة الإمام أحمد – الذهبي ص : ٧٤ وشرح السنة - اللالكائي ١/١٣٥ برقم : ٢٤٨ .

١٨- وقال يحيى بن كثير (١٢٩هـ): «إذا لقيت صاحب بدعة في طريق فخذ في غيره»[١]. وروي نحوه عن الفضيل بن عياض[٢].

١٩- وروى أبو عمر بن عبدالبر[٣] بسنده إلى أحمد بن زهير قال: قال لي مصعب بن عبدا لله (٢٣٦هـ أو ٢٣٣هـ): ناظرني إسحاق بن أبي إسرائيل (٢٤٥هـ) فقال: لا أقول كذا، ولا أقول غيره، يعني في القرآن، فناظرته، فقال: لم أقف على الشك، ولكني أقول كما قال [القوم][٤]، أسكت كما سكت القوم، قال: فأنشدته هذا الشعر فأعجبه وكتبه، وهو شعر قيل منذ أكثر من عشرين سنة:

أأقعد بعدما رجفت عظامي ... وكان الموت أقرب ما يليني
أجادل كل معترض خصيم ... وأجعل دينه غرضاً لديني
فأترك ما علمت لرأي غيري ... وليس الرأي كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهي لَبْس ... تصرف في الشمال وفي اليمين
وقد سُنت لنا سنن قِوام ... يَلُحْنَ بكل فج أو وجين
وكان الحق ليس له خفاء ... أغر كغرة الفلق المبين
وما عوض لنا منهاج جهم ... بمنهاج ابن آمنة الأمين
فأما ما علمت فقد كفاني ... وأما ما جهلت فجنبوني

(١) الشريعة ـ الآجري ص : ٦٤ والإبانة ـ ابن بطة ٢/٤٧٤،٤٧٥ برقم : ٤٩٠-٤٩٢ .

(٢) الإبانة ٢/٤٧٥ برقم : ٤٩٣ .

(٣) جامع بيان العلم ٢/١١٥-١١٦ وذكر أنه لأبي مصعب الزبيري وانظر : شرح السنة ـ اللالكائي ١/١٤٨ برقم: ٣٠٨.

(٤) [القوم] ليست في الأصل، ولكني أضفتها لتمام المعنى.

فلست مكفراً أحـــداً يصلي وما أحرمكم أن تكفـــــروني

وكنا إخوة نرمـــــي جميعًا فنرمي كـــــــل مرتاب ظنين

فما بـــرح التكلف أن رمينا بشأن واحــــد فوق الشؤون

فأوشك أن يخر عمـــاد بيت وينقطع القرين عــــن القرين

٢٠- وقال أبو الحارث: «سألت أبا عبدا لله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ فقلت: إن ههنا رجلاً يناظر الجهمية ويُبيِّـن خطأهم ، ويدقق عليهم المسائل، فما ترى؟ قال: لست أرى الكلام في شيء من هذه الأهواء، ولا أرى لأحد أن يناظرهم، أليس قال معاوية بن قُرَّة (١١٣هـ): الخصومة تحبط الأعمال، والكلام الرديء لا يدعو إلى خير، لا يفلح صاحب كلام، تجنبوا أصحاب الجدال والكلام، عليكم بالسنن، وما كان عليه أهل العلم قبلكم؛ فإنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض في أهل البدع والجلوس معهم، وإنما السلامة في ترك هذا، لم نؤمر بالجدال والخصومات مع أهل الضلال، فإنه سلامة له منه»[(١)].

٢١-وقال أبوبكر الآجري رحمه الله : «ولا نناظر ولا نجادل ولا نخاصم، وإذا لقي صاحبَ بدعة في طريق أخذ في غيره، وإن حضر مجلساً هو فيه قام عنه، هكذا أدبنا من مضى من سلفنا»[(٢)]. وقال

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٣٩-٥٤٠ برقم : ٦٧٧ .

(٢) الشريعة ـ الآجري ص :٦٤.

رحمه الله في موضع آخر: «سكوتك عنهم وهجرتك لما تكلموا به أشد عليهم من مناظرتك لهم»[(١)].

٢٢–وقال أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله: «ترك مجالسة أهل البدع، ومعاشرتهم سنة؛ لئلا تعلق بقلوب ضعفاء المسلمين بعض بدعتهم، وحتى يعلم الناس أنهم أهل البدعة، ولئلا [تكون][(٢)] مجالستهم ذريعة إلى ظهور بدعتهم، والخوض[(٣)] في الكلام المذموم ومجانبة أهله محمود ليعلم أنهم ناكبون عن طريق الصحابة رضي الله عنهم»[(٤)].

النوع الثاني: وهو أقوال السلف والأئمة في النهي عن مجادلة المبتدعة ومناظرتهم في أحوال معينة، وهي ـ كما تقدم ـ تفسير لما ورد عنهم من النهي المطلق. فمن ذلك:

١–المبتدع يعارض بين نصوص الشرع مما قد يوقع الشك في نفسه تجاه بعض هذه النصوص التي لا تعارض بينها، وهو داء يذهب بالإيمان بنصوص الكتاب والسنة. قال (تعالى): ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [سورة النساء: ٨٢]. فنهى السلف عن مناظرة هذا المتشكك لاحتمال توريث شكه هذا لسليم معافى. قال عبدالله بن

---

(١) المرجع السابق ص :٦١.

(٢) في الأصل : يكون ، ولعل ما أثبته هو الأصح .

(٣) المراد : ترك الخوض؛ عطفاً على أول كلام الأصبهاني رحمه الله.

(٤) الحجة ٢/٥٠٩ .

عباس رضي الله عنهما: «لاتضربوا كتاب الله بعضه ببعض؛ فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم»[(١)].

وجاء رجل إلى الحسن البصري رحمه الله فقال: «يا أبا سعيد تعال أخاصمك في الدين. فقال الحسن أما أنا، فقد أبصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه »[(٢)].

وقال ابن وهب (١٩٧هـ): «سمعت مالكاً يقول: كان ذلك الرجل إذا جاءه بعض هؤلاء ـ يعني أصحاب الأهواء ـ يسأله، قال: أما أنا فعلى بينة من ربي، وأما أنت فشاك، فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه، وقال ذلك الرجل: يُلَبِّسُونَ على أنفسهم ثم يطلبون من يعرفهم»[(٣)].

٢–والمبتدع الذي يعارض بين نصوص الشرع قد توقعه هذه المعارضه ـ وهو الغالب ـ في التكذيب ببعض النصوص؛ إما التكذيب بألفاظها كأخبار الآحاد، أو التكذيب بمعانيها كالأخبار المتواترة من الكتاب والسنة؛ ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله: «فإذا كانت المناظرة تتضمن أن كل واحد من المتناظرين يُكَذِّبُ ببعض الحق نهي عنها لذلك،

(١) ترجمة الإمام أحمد ـ الذهبي ص : ٧٢ .

(٢) الشريعة ـ الآجري ص : ٥٧ والحجة ـ الأصبهاني ١/٢٨٠-٢٨١ وشرح السنة ١/١٢٨ برقم : ٢١٥ والإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٠٩ برقم : ٥٨٦ .

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ١/٤٠٤ برقم: ٣٠٧، وانظر: مختصر العلو ص: ١٤٢ برقم: ١٣٣.

وأكثر الاختلاف بين ذوي الأهواء من هذا الباب»[(١)].

فالسلف والأئمة نهوا عن مثل هذه المجادلة والمناظرة: قال جابر: «قال لي محمد بن علي الحسين، أبو جعفر الباقر: يا جابر، لا تخاصم، فإن الخصومة تكذب القرآن»[(٢)].

وقال عون بن عبدالله رحمه الله: «لا تفاتح أصحاب الأهواء في شيء، فإنهم يضربون القرآن بعضه ببعض»[(٣)].

وكان مالك بن أنس رحمه الله يعيب الجدال في الدين ويقول: «كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أردنا أن نرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ»[(٤)].

٣- الغالب على المبتدعة وأهل الأهواء التنقل بين الأهواء والبدع، وذلك متابعة منهم لما تقتضيه نتائج الجدل والمناظرات، فالدين عندهم مع من غلب، وهذا أمر لا يكاد ينتهي، كما قال الخليل بن أحمد رحمه الله: «ما كان جدل إلا أتى بعده جدل يبطله».[(٥)] فالسلف والأئمة نهوا عن مثل هذا الجدل:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/١٨٤-١٨٥.

(٢) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٤٩٥ برقم: ٥٤٢.

(٣) المرجع السابق ٢/٥٢٢ برقم: ٦٢٥.

(٤) المرجع السابق ٢/٥٠٧ برقم : ٥٨٢ ، وشرح السنة ١/١٤٤ رقم :٢٩٣ ، والفقيه والمتفقه ـ ١/٢٣١ .

(٥) شرح السنة ١/١٢٨ برقم : ٢١٧ .

قال حذيفة ﷺ: «إن الضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف، وإياك والتلوُّنَ في الدين».[(١)]

واشتهر عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله قوله: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل».[(٢)]

وقال سعيد بن جبير لذر الهمداني[(٣)]: ياذر، مالي أراك كل يوم تُجَدِّدُ ديننا[(٤)].

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: «كانوا يرون التلون في الدين من شك القلوب في الله»[(٥)].

وقال معن بن عيسى: «انصرف مالك بن أنس ﷺ يوماً من المسجد وهو متكئ على يدي فلحقه رجل يقال له: أبو الحورية[(٦)] كان يُتَّهَمُ

---

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٥٠٥/٢ برقم : ٥٧٣ وجامع بيان العلم ١١٤/٢.

(٢) وسنن الدارمي ٩١/١ باب من قال العلم الخشية وتقوى الله، والشريعة ـ الآجري ص: ٥٦، وجامع بيان العلم ١١٣/٢، والإبانة ٥٠٣/٢ برقم : ٥٦٨-٥٦٩ ، والحجة٤٥٥/٢ رقم : ٤٧٧، وشرح السنة ١٢٨/١ رقم : ٢١٦ ، وترجمة الإمام أحمد ـ الذهبي ص :٧٤.

(٣) هو : أبو عمر، ذر بن عبد الله بن زرارة المرهبي الهمداني، الكوفي، روى عن سعيد بن جبير وعبد الله بن شداد، وعنه عطاء بن السائب وجماعة، كان على معتقد المرجئة، هجره النخعي وسعيد بن جبير لذلك، وكان من عباد أهل الكوفة . انظر : تهذيب التهذيب ٢١٨/٣ برقم : ٤١٦ .

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد ص :٩٠ برقم : ٤٩٢ وشرح السنة ٩٩٠/٥ برقم : ١٨١١ .

(٥) الإبانة ـ ابن بطة ٥٠٥/٢ برقم : ٥٧٥ .

(٦) أبو الحورية، ويقال : أبو الجويرية، عبد الله بن عمران، كوفي، روى عن حماد بن أبي سليمان، وعنه حماد ابن خالد ومعن بن عيسى القزاز، ونزل بالمدينة . انظر : التهذيب ٦٢/١٢ تر : ٢٤٨ .

بالإرجاء، فقال: يا أبا عبدا لله، اسمع مني شيئاً أكلمك بـه، وأحـاجك وأخبرك برأي. قال مالك: فإن غلبتني؟ قال: إن غلبتـك اتبعـني. قـال: فإن جاء رجل آخر فكلمنا فغلبنا؟ قال: نتبعه، فقال: مالك رحمه ا لله: يا عبدا لله، بعث ا لله عز وجل محمـدا ﷺ بديـن واحـد، وأراك تنتقـل من دين إلى ديـن، قـال عمـر بـن عبدالعزيـز: مـن جعـل دينـه غرضـاً للخصومات أكثر التنقل»[1].

٤- والسلف والأئمة نهوا الضعيف عن منـاظرة المبتدعـة، والضعـف هـو الغالب على جمهور المسلمين، فمنعهـم مـن التصـدى لمنـاظرة المبتدعـة أنفع لهم في دينهـم وآخرتهـم، وسـبق كـلام ابـن تيميـة رحمـه ا لله أن السلف قد ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المنـاظر ضعيـف العلـم بالحجة وجواب الشبهة، فيخاف عليه أن يفسـده ذلـك المضـل، كمـا يُنهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفـار، فـإن ذلك يضر المسلمين بلا منفعة.[2] قـال عبـدا لله بـن عبـاس رضـي ا لله عنهما: «باب شـرك فتـح علـى أهـل الصـلاة التكذيـب بـالقدر، فـلا تجادلوهم فيجري شركهم على أيديكم »[3]. وروي نحـوه عـن جبـير ابن نفير[4].

(١) الشريعة ـ الآجري ص : ٥٦-٥٧ والإبانة ـ ابن بطة ٥٠٨/٢ برقم : ٥٨٣ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١٧٣/٧.

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ٦٣٠/٤ رقم : ١٢٦ والشريعة ص : ٢١٥ .

(٤) الإبانة ـ ابن بطة ٥٢٣/٢ برقم : ٦٢٧ .

وقال أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي (١٠٤هـ) رحمه الله: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يُلَبِّسُوا عليكم في الدين بعض ما لُبِّس عليهم»[١].

وقال عبدالرزاق الصنعاني (٢١١هـ): «قال لي إبراهيم بن أبي يحيى (١٨٤هـ): إني أرى المعتزلة عندكم كثيرا، قلت: نعم، وهم يزعمون أنك منهم قال: أفلا تدخل معي هذا الحانوت حتى أكلمك، قلت لا، قال: لم؟ قلت: لأن القلب ضعيف، والدين ليس لمن غلب»[٢].

٥- ونهى السلف والأئمة عن مجادلة المبتدعة إذا كان المجادل يرغب في رجوعهم وتوبتهم؛ لأن ذلك لا يقع منهم إلا على الندور، فإن المبتدع يعتقد أنه على الحق وغيره على الباطل، فتوبة مثل هذا عزيزة بخلاف العاصي؛ ولهذا لما قال رجل لأيوب: يا أبا بكر، إن عمرو بن عبيد قد رجع عن رأيه، فقال: إنه لم يرجع. قال الرجل: بلى يا أبابكر، إنه قد رجع. قال أيوب: إنه لم يرجع - ثلاث مرات - أما إنه لم يرجع، أما سمعت إلى قوله - يعني ﷺ في الحديث - يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، ثم لا يعودون فيه حتى يرجع السهم إلى فُوْقه[٣].

---

(١) الشريعة ص :٥٦ والإبانة - ابن بطة ٢/٤٣٥،٤٣٧ برقم : ٣٦٤،٣٦٧ شرح السنة ١٣٤/١ برقم : ٢٤٤ وترجمة الإمام أحمد - للذهبي ص : ٧٣.

(٢) الإبانة ٢/٤٤٦-٤٤٧ برقم: ٤٠١ ، وشرح السنة ١/١٣٥ برقم: ٢٤٩ .

(٣) شرح السنة ١/١٤١ برقم: ٢٨٦ وتقدم. والحديث في الصحاح والسنن، وهذا اللفظ للبخاري ١٣/٥٣٥-٥٣٦(فتح الباري) كتاب التوحيد - باب قراءة الفاجر والمنافق برقم: ٧٥٦٢. وفُوْقُ السهم موضع الوتر منه. انظر: لسان العرب ١٠/٣١٩-٣٢١ مادة فوق.

وهذا الحديث وإن كان في الخوارج، لكنه يعم كل مبتدع بحكم الجامع، وهو أن المبتدع يتدين ببدعته، ويعتقد أنها الحق، فرجوعه عزيز، والمناظرة معه مضيعة للأزمان، لاسيما إذا كان من أهل العناد، بل السلامة في تركه والابتعاد عنه.

قال أبو علي حنبل بن إسحاق بن حنبل (٢٧٣هـ) كتب رجل إلى أبي عبدالله رحمه الله كتاباً يستأذنه فيه أن يضع كتاباً يشرح فيه الرد على أهل البدع، وأن يحضر مع أهل الكلام فيناظرهم، ويحتج عليهم، فكتب إليه أبو عبدالله: بسم الله الرحمن الرحيم، أحسن الله عاقبتك، ودفع عنك كل مكروه ومحذور. الذي كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمور في التسليم، والانتهاء إلى ما كان في كتاب الله أو سنة رسول الله، لا في الجلوس مع أهل البدع والزيغ لترد عليهم، فإنهم يُلَبِّسُون عليك، وهم لا يرجعون. فالسلامة ـ إن شاء الله ـ في ترك مجالستهم والخوض معهم في بدعتهم وضلالتهم، فليتق الله امرؤ، وليصر إلى ما يعود عليه نفعه غداً من عمل صالح يقدمه لنفسه...» إلى آخر ما قال رحمه الله[1].

٦-ونهوا عن الجدل إذا كان سبباً لترك الاشتغال بالأعمال ووظائف العبادات مع ما يصحبه من قساوة القلوب ووحشة النفوس.

---

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٤٧١-٤٧٢ برقم: ٤٨١ ونحوه في ترجمة الإمام أحمد ــ للذهبي ص: ٣٦.

قال الأوزاعي رحمه الله: «إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل»[١]. وروي مثله عن بكر بن نصر[٢].

وقال أبو العباس القرطبي رحمه الله: «وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك، وببعضهم إلى الإلحاد، وببعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات...»[٣].

وقال جعفر بن محمد : إياكم والخصومة في الدين، فإنها تشغل القلب وتورث النفاق[٤].

٧- ونهى السلف والأئمة عن مجالسة المبتدع ومجادلته هجراً وزجراً، عساه أن يتوب ويرجع إلى رشده، ويلتزم الجماعة.

قال إسحاق بن هانئ رحمه الله: «سألت أبا عبدا لله ـ أي الإمام أحمد ـ عن رجل مبتدع داعية يدعو إلى بدعته يُجالس ؟ قال أبو عبدا لله: لا يُجالس، ولا يُكلم؛ لعله يتوب»[٥].

وغالب ما روي عن السلف والأئمة من النهي المطلق عن مجالسة المبتدعة ومجادلتهم فمحمول على هذا القصد، وهو هجرهم وزجرهم ابتغاء توبتهم ورجوعهم، أو قطع شرهم عن المسلمين.

---

(١) شرح السنة ١/١٤٥ برقم: ٢٩٦، وجامع بيان العلم ٢/١١٤.

(٢) انظر: جامع بيان العلم ٢/١١٤.

(٣) فتح الباري ١٣/٣٥٠، ونحوه في المفهم كتاب العلم ـ باب كراهة الخصومة في الدين (مخطوط).

(٤) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٢٦ رقم: ٦٣٥.

(٥) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٤٧٥ برقم: ٤٩٤.

٨- ونهوا عن مجادلة المبتدعة إذا كان المجادل لهم يسلك سبيل التكلف، لا سبيل العلم، فيكون قصده كسرهم بأي سبيل كان، فيضطره ذلك إلى الخروج عن السنة أحياناً، أو عدم إنصافهم. قال الإمام أحمد رحمه الله في كتابه الذي وجهه إلى من استأذنه في الرد على أهل البدع بالمناظرة والتأليف.فقال رحمه الله فيما قال: «ولا يكن ممن يحدث أمراً، فإذا هو خرج منه أراد الحجة، فيحمل نفسه على المحال فيه، وطلب الحجة لِمَا خرج منه بحق أو بباطل، ليزين به بدعته، وما أحدث، وأشد من ذلك أن يكون قد وضعه في كتاب قد حُمِل عنه، فهو يريد أن يزين ذلك بالحق والباطل، وإن وضح له الحق في غيره...»[1].

٩- ونهى السلف والأئمة عن الجدال في دين الله على طريقة المبتدعة؛ لأنه يقود إلى الاختلاف والتكفير والاقتتال؛ لأن كل طائفة لا تقر بالحق الذي مع الطائفة الأخرى: إما بسبب نقصان العلم أو الفهم أو الجحود مطلقاً، وهذا ما خافه ابن عباس رضي الله عنهما من مسارعة الناس في عهد عمر بن الخطاب ﷺ في الأخذ بالقرآن من غير فهم ولا إحاطة بعلم نزوله وتفسيره، فقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس أنه قال: «قدم على عمر بن الخطاب رجل فجعل يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا، قال ابن عباس: فقلت: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه

---

(١) الإبانة ٤٧٢/٢ برقم: ٤٨١ .

المسارعة، قال: فزبرني عمر ثم قال: مه، فانطلقت إلى منزلي كئيباً حزيناً، فبينا أنا كذلك إذا أتاني رجل، فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرني، فأخذ بيدي، فخلا بي فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفاً؟ قلت: يا أمير المؤمنين، متى ما تسارعوا هذه المسارعة يَحْتَقُّوا[1] ومتى ما يَحْتَقُّوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا، قال لله أبوك، إن كنتُ لأكتمها الناس حتى جئت بها»[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن بني إسرائيل كانوا على شريعة ومنهاج ظاهرين على من ناوأهم حتى تنازعوا في القدر، فلما تنازعوا اختلفوا وتباغضوا وتلاعنوا، واستحلوا بعضهم حرمات بعض، فسُلِّط عليهم عدوهم فمزقهم كل ممزق»[3].

وقال الحسن بن عبدالعزيز الجروي: كان الشافعي ينهى النهي الشديد عن الكلام في الأهواء، ويقول أحدهم إذا خالفه أخوه قد كفرت، والعلم إنما يقال فيه أخطأت[4]. ولهذا فأهل السنة أهل علم ورحمة

---

(١) أي يقول كل منهم: الحق في يدي ومعي.

(٢) السنة لعبد الله بن أحمد ص: ٢٢-٢٣ ح: ٨٨، ونحوه في مصنف عبد الرزاق ٢١٧/١١-٢١٨ برقم: ٢٠٣٦٨، وذكره الذهبي في ترجمة الإمام أحمد ص: ٧٢-٧٣، وانظر: سير أعلام النبلاء ٣٤٨/٣-٣٤٩.

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ٦٣٣/٤ برقم: ١١٣٣.

(٤) الإبانة ـ ٥٤٥/٢ برقم: ٦٨٨، وشرح السنة ١٤٦/١ برقم: ٣٠٢، ومناقب الشافعي للبيهقي ٤٥٩/١.

يعلمون الحق ويرحمون الخلق، فلا يكفرون ولا يبدعون بمجرد الاختلاف، بخلاف أهل البدع، فلا يعلمون الحق ولا يرحمون الخلق فلا علم ولا رحمة.

١٠-ونهوا رحمهم الله عن الجدل والمناظرة إذا كانت على سبيل الامتحان والتعمق كما قال ابن سيرين رحمه الله: «سؤال الرجل أخاه: أمؤمن أنت؟ محنةٌ بدعةٌ، كما يمتحن الخوارج»[1].

وقال الأوزاعي رحمه الله وقد سئل أمؤمن أنت حقاً؟ فقال: «إن المسألة عما سئل من ذلك بدعة، والشهادة عليه تعمق لم نكلفه في ديننا، ولم يشرعه نبينا، ليس لمن سأل ذلك فيه إمام إلا مثله القول به جدل، والمنازعة فيه حدث، ولعمري ما شهادتك لنفسك بالتي توجب لك تلك الحقيقة إن لم تكن كذلك، ولا تركك الشهادة لنفسك بها بالذي يخرجك من الإيمان إن كنت كذلك، وإن الذي يسألك عن إيمانك ليس يشك في ذلك منك، ولكنه يريد أن ينازع الله علمه في ذلك، حين يزعم أن علمه وعلم الله في ذلك سواء، فاصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم»[2].

(١) شرح السنة ٩٨٨/٥ برقم: ١٨٠٤.

(٢) الإبانة ٨٨١/٢ برقم: ١٢١٦، وانظر: والشريعة ص: ١٤٢ .

ومما يدل على أن السلف والأئمة لا يكرهون الجدل والمناظرة لأهل البدع مطلقاً وفي كل حال: ما ثبت عنهم من مناظرتهم لصنوف أهل البدع والأهواء في كل عصر، وقد تقدم ذكر نماذج من ذلك؛ كمناظرة علي وابن عباس وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم للخوارج، وكذا مناظرة أبي حنيفة رحمه الله لهم، ومناظرة الصحابة كابن عمر وجابر وغيرهما رضي الله عنهم للقدرية، ومناظرة الأئمة كأحمد وغيره للجهمية والمعتزلة، وغير ذلك كثير، وسيأتي ذكر طوائف منها في الباب الأخير إن شاء الله.

وقال الشافعي رحمه الله : «ما ناظرت أحداً أحببت أن يخطئ، إلا صاحب بدعة؛ فإني أحب أن ينكشف أمره للناس...»[١].

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله: «وإنما سَمَّى أبو الحسن رحمه الله مناظرة المعتزلة بدعة وكرهها؛ لأن السلف كانوا يرون مكالمة أهل البدع ومناظرتهم خطأ وسفهاً... » ثم قال رحمه الله: «فلما ظهرت فيما بعد أقوال أهل البدع، واشتهرت، وعظمت البلوى بفتنتهم على أهل السنة وانتشرت، وانتدب للرد عليهم ومناظرتهم أئمة أهل السنة لما خافوا على العوام من الابتداع والفتنة كفعل أبي الحسن رحمه الله وأشباهه خوفاً من التباس الحق على الخلق واشتباهه»[٢].

---

(١) تبيين كذب المفتري ص : ٣٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص : ٩٩ .

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «السلف لم يحرموا معرفة الدليل على الخالق وصفاته وأفعاله بل كانوا أعلم الناس بذلك وأعرفهم بأدلة ذلك، ولا حرموا نظراً صحيحاً في دليل صحيح يفضي إلى علم نافع، ولا مناظرة في ذلك نافعة إما لهدي مسترشد، وإما لإعانة مستنجد، وإما لقطع مبطل متلدد، بل هم أكمل الناس نظراً واستدلالاً واعتباراً»(١).

وقال رحمه الله في موضع آخر: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»(٢).

فهذا وغيره يدل على أن السلف والأئمة كانوا يناظرون أهل البدع، وما ورد عنهم من النهي والتحذير من الجدل والمناظرة، فإنما كان في أحوال مخصوصة؛ ولهذا قال ابن عون: سمعت محمد بن سيرين ــ وهو ممن روي عنه النهي عن الجدل كما تقدم ـ ينهى عن الجدال إلا رجلاً إن كلمته طمعت في رجوعه(٣).

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٦٦/٧ (بتصرف قليل).

(٢) المرجع السابق ٣٥٧/١.

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ٥٤١/٢ برقم : ٦٨١ .

بل عمر بن عبدالعزيز الذي اشتهر عنه النهي عن الجدل والتحذير منه، وجعله سبباً من أسباب التنقل بين الأديان والأهواء، ثبت عنه ـ كما تقدم ـ أنه ناظر الخوارج والقدرية، ومنهم غيلان الدمشقي[(١)].

وسئل بشر بن الحارث الحافي عن الرجل يكون مع هؤلاء أهل الأهواء في موضع جنازة أو مقبرة، فيتكلمون ويعرضون، فترى لنا أن نجيبهم؟ فقال: إن كان معك من لا يعلم، فردوا عليه؛ لئلا يرى أولئك أن القول كما يقولون، وإن كنتم أنتم وهم، فلا تكلموهم ولا تجيبوهم[(٢)].

والأئمة الذين رووا عمن تقدمهم ذم وكراهة مناظرة أهل البدع، خصوا الكراهة بوقت الاختيار لا الحاجة والاضطرار؛ ولهذا يرى أبوبكر الآجري رحمه الله المناظرة لأهل الزيغ إذا احتيج إليها في وقت من الأوقات ليدفع المناظر بالحق باطل المخالف والخارج عن الجماعة، فتكون غلبته لأهل الزيغ عائدة بالبركة على المسلمين[(٣)].

وقال رحمه الله في كتاب الشريعة[(٤)] وذلك بعد أن أورد نصوص النهي عن مناظرة المبتدعة: "وإن كان رجل قد علّمه الله عز وجل

---

(١) انظر : الشريعة ـ الآجري ص : ٢٨٨ وما بعدها .

(٢) الإبانة ـ ابن بطة ٥٤٢/٢ رقم : ٦٨٣ .

(٣) انظر : من أخلاق العلماء للآجري، وهو ملخص في مقدمة كتاب من أخلاق العلماء لأحد المعاصرين ـ لم يظهر اسمه على الغلاف ـ ص : ١٦ .

(٤) ص : ٦١-٦٢ .

علماً فجاءه رجل يسأله عن مسألة في الدين؛ ينازعه ويخاصمه، ترى له أن يناظره حتى تثبت عليه الحجة، ويرد عليه قوله؟ قيل له: هذا الذي نُهينا عنه، وهو الذي حذرناه من تقدم من أئمة المسلمين. فإن قال قائل: فماذا نصنع؟ قيل له: إن كان الذي يسألك مسألته، مسألة مسترشد إلى طريق الحق، لامناظرة، فأرشده بأرشد مايكون من البيان بالعلم، من الكتاب والسنة وقول الصحابة وقول أئمة المسلمين، وإن كان يريد مناظرتك ومجادلتك فهذا الذي كره لك العلماء، فلا تناظره، واحذره على دينك، كما قال من تقدم من أئمة المسلمين إن كنت لهم متبعاً. فإن قال: ندعهم يتكلمون بالباطل ونسكت عنهم؟ قيل له: سكوتك عنهم وهجرتك لما تكلموا به أشد عليهم من مناظرتك لهم، كذا قال من تقدم من السلف الصالح من علماء المسلمين ..." ثم قال رحمه الله: "فمن اقتدى بهؤلاء الأئمة سَلِمَ له دينُه إن شاء الله (تعالى) . فإن قال قائل: فإن اضطر في الأمر وقتاً من الأوقات إلى مناظرتهم وإثبات الحجة عليهم ألا يناظرهم؟ قيل: الاضطرار إنما يكون مع إمام له مذهب سوء، فيمتحن الناس ويدعوهم إلى مذهبه، كفعل من مضى في وقت أحمد بن حنبل رحمه الله: ثلاثة خلفاء امتحنوا الناس ودعوهم إلى مذهبهم السوء، فلم يجد العلماء بداً من الذب عن الدين، وأرادوا بذلك معرفة العامة الحق من الباطل، فناظروهم ضرورة لا اختياراً، فأثبت الله عز وجل الحق مع أحمد ومن كان على طريقته، وأذلَّ الله العظيم المعتزلة وفضحهم، وعرفت العامة أن الحق ما كان عليه أحمد بن حنبل ومن تابعه إلى يوم القيامة، وأرجو أن يعيذ الله الكريم أهل العلم من أهل السنة

والجماعة من محنة تكون أبداً».

وأبو عبدا لله بن بطة العكبري - وهو أيضاً ممن ساق نصوص الأئمة في النهي عن الجدل والمناظرة للمبتدعة - يقول: «فإن قال قائل: قد حذرتنا الخصومة والمراء والجدال والمناظرة، وقد علمنا أن هذا هو الحق، وأن هذه سبيل العلماء وطريق الصحابة والعقلاء من المؤمنين والعلماء المستبصرين، فإن جاءني رجل يسألني عن شيء من هذه الأهواء التي قد ظهرت، والمذاهب القبيحة التي قد انتشرت، ويخاطبني منها بأشياء يلتمس مني الجواب عليها، وأنا ممن قد وهب ا لله الكريم علماً بها وبصراً نافذاً في كشفها، أفأتركه يتكلم بما يريد ولا أجيبه، وأُخَلّيه وهواه وبدعته، ولا أردُّ عليه قبيح مقالته؟

فإني أقول له: اعلم يا أخي، رحمك ا لله، أن الذي تبلى به من أهل هذا الشأن لن يخلو أن يكون واحداً من ثلاثة: إما رجلاً قد عرفتَ حسن طريقته، وجميل مذهبه، ومحبته للسلامة، وقصده طريق الاستقامة، وإنما قد طرق سمعه من كلام هؤلاء الذين قد سكنت الشياطين قلوبهم، فهي تنطق بأنواع الكفر على ألسنتهم، وليس يعرف وجه المخرج مما قد بلي به، فسؤاله سؤال مسترشد يلتمس المخرج مما بُلي والشفاء مما أُوذي... وأنت قد إستشعرت طاعته وأمنت مخالفته، فهذا الذي قد اُفترض عليك توفيقه وإرشاده من حبائل كيد الشياطين، وليكن ما ترشده به، وتوقفه عليه من الكتاب والسنة والآثار الصحيحة من علماء الأمة من الصحابة والتابعين، وكل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، وإياك والتكلف لما لا تعرف، وتمحُّل الرأي، والغوص على دقيق الكلام؛ فإن ذلك من فعلك بدعة،

وإن كنت تريد به السنة، فإن إرادتك للحق من غير طريق الحق باطل، وكلامك على السنة من غير السنة بدعة، ولا تلتمس لصاحبك الشفاء بسقم نفسك، ولا تطلب صلاحه بفسادك... فهذا أحد الثلاثة.

ورجل آخر يحضر في مجلس أنت فيه حاضر، تأمن فيه على نفسك، ويكثر ناصروك ومعينوك، فيتكلم بكلام فيه فتنة، وبليَّةٌ على قلوب مستمعيه ليوقع الشك في القلوب؛ لأنه هو ممن في قلبه زيغ، يتبع المتشابه ابتغاء الفتنة والبدعة، وقد حضر معك من إخوانك، وأهل مذهبك من يسمع كلامه إلا أنه لا حجة عندهم على مقابلته، ولا علم لهم بقبيح ما يأتي به، فإن سكتَّ عنه لم تأمن فتنته بأن يفسد بها قلوب المستمعين، وإدخال الشك على المستبصرين، فهذا أيضاً مما تردُّ عليه بدعته، وخبيث مقالته، وتنشر ما علمك الله من العلم والحكمة، ولا يكن قصدك في الكلام خصومته، ولا مناظرته، وليكن قصدك بكلامه خلاص إخوانك من شبكته؛ فإن خبثاء الملاحدة إنما يبسطون شباك الشياطين ليصيدوا بها المؤمنين، فليكن إقبالك بكلامه، ونشر علمك وحكمتك، وبشر وجهك، وفصيح منطقك على إخوانك، ومن قد حضر معك، لا عليه؛ حتى تقطع أولئك عنه، وتحول بينهم وبين استماع كلامه، بل إن قدرت أن تقطع عليه كلامه بنوع من العلم تحوِّل به وجوه الناس عنه فافعل».

ثم قال رحمه الله: «وثالث مشئوم، قد زاغ قلبه، وزلت عن سبيل الرشاد قدمه، فعشيت بصيرته، واستحكمت للبدعة نصرته،

[يجتهد][١] أن يشككك في اليقين، ويفسد عليك صحيح الدين، فجميع الذي رويناه، وكلما حكيناه في هذا الباب لأجله، وبسببه؛ فإنك لن تستطيع رد كيده بشيء أبلغ من الإمساك عن جوابه، والإعراض عن خطابه؛ لأن غرضه من مناظرتك أن يفتنك فتتبعه، أو يملّك وييأس منك، فيشفي غيظه بأن يسمعك في دينك ما تكرهه، فاخسئه بالإمساك عنه، وأذِلّه بالقطيعة له»[٢].

وقال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله بعد أن ساق نصوص الأئمة في النهي عن مناظرة أهل البدع: قال: «إلا أن يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل، وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشي ضلالة عامة أو نحو هذا »[٣] ثم ساق نماذج من مناظرات الأئمة للمبتدعة، بل عقد بابا لذلك، وعنونه بـ: **باب إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة** .

---

(١) في الأصل : [يجهده] ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٤٠-٥٤٣ (بتصرف قليل) .

(٣) جامع بيان العلم ٢/١١٦ .

المبحث الخامس
حكـم المـــــراء

* معنى المراء في اللغة[1]:

ماريت الرجل أماريه مراءً: إذا جادلته. والمِرْية والمُرْية بالكسر والضم: الشك والجدل. وقال الراغب: «المرية: الـتردد في الأمـر وهـو أخـص مـن الشك...والامـتراء والممـاراة : المحاجـة فيمـا فيـه مريـة» والمراء: الممـاراة والجدل، وهو أيضاً من الامتراء والشك.

والتماري والمماراة: المجادلة على جهة الشك والريبة. قال في المصباح: ولا يكون المراء إلا اعتراضاً، بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداء واعتراضاً.

والذي يظهر لي أن المراء يـأتي بمعنـى الشـك كمـا في قولـه (تعـالى): ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾[سورة هود: ١٠٩]. ويأتي بمعنى الجـدال والمحاجـة لكن على جهة الشك كمـا في قولـه (تعـالى): ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [سورة مريم: ٣٤].

* معنى المراء في الشرع:

جاء لفظ المراء ومشتقاته في القرآن الكريم في نحـو عشـرين موضعـاً، كلها بمعنى الريبـة والشـك، أو الجـدال المذمـوم، و لم يـأت بمعنـى الجـدال الحسـن إلا في موضـع واحـد، وهـو قولـه (تعـالى) :﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً

---

(١) انظـر : لسـان العـرب ١٥/٢٧٧-٢٧٨ مـادة مـرا ، والصحـاح ٦/٢٤٩١ مـادة مـرا ، والمفردات للراغب ص: ٤٦٧.

ظَاهِرًا﴾ [سورة الكهف: ٢٢] وهو هنا على المشاكلة، فضلاً عن القيد "ظاهراً" الذي صاحب الكلمة مما يؤكد المعنى[1].

يقول الغزالي رحمه الله: «واحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم...»[2].

* حكم المراء:

أولاً: ذكر المراء في نصوص القرآن الكريم:

لقد تقدم أن المراء جاء في القرآن الكريم بمعنى الريبة والشك أو الجدال المذموم، وهذا هو الغالب ـ عدا موضع واحد وهو آية الكهف وسيأتي الكلام فيها ـ مما يدل على أن المراء جاء في القرآن الكريم مذموماً منهياً عنه، ولذلك أمثلة.

أ- المراء بمعنى الريبة والشك:

١ - قال (تعالى): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[سورة الأنعام:٢] أي: تشكون في أمر الساعة . قاله السدي وغيره[3] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٨٤/١٠ ، وأدب الحوار ـ جريشة ص : ٢٧ .

(٢) إحياء علوم الدين ١١٧/٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ١١٧/٢.

٢- وقال (تعالى): ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ [سورة الحج: ٥٥] أي: في شك من هذا القرآن[١].

ب- المراء بمعنى الجدال المذموم:

١- قال (تعالى): ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة الشورى: ١٨] أي: يجادلون في وجودها، ويدفعون وقوعها[٢].

٢- وقال (تعالى): ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [سورة النجم: ١٢] أي: أتجادلونه، وقرئت: "أفتمرونه" معناها: أفتجحدونه[٣].

الكلام في آية الكهف:

وهي قوله (تعالى): ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [سورة الكهف: ٢٢]، فهذه الآية هي الوحيدة التي ينسب فيها المراء إلى النبي ﷺ ويؤذن له فيه، وهو المراء الظاهر، فما معنى المراء في هذه الآية؟

إن الموضوع الذي وقع فيه المراء هو عدة أصحاب الكهف، فقد قال (تعالى) قبل هذه الآية: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: ٢٢]، فالرسول ﷺ في هذه الآية نهي عن مراء، وأذن له في مراء، فأما المراء الذي نهي عنه، فهو

---

(١) المرجع السابق ٣/٢٢٤ .

(٢) المرجع السابق ٤/١١٢ .

(٣) زاد المسير ٨/٦٨.

ماكان على جهة الشك والرجم بالغيب، وأما المراء الذي أذن له فيه فهـو ما كان ظاهراً، أي سهلاً هيناً مبنياً على العلـم واليقـين ممـا علمـه الله (تعالى)؛ ولهذا روي عن ابن عباس وقتادة والضحاك قولهم في تفسـيرها : حسبك ماقصصت عليك فلا تمار فيهم[١]. وقال مجاهد: إلا بما قد أظهرنـا لك من أمرهم[٢]. وقال ابن زيد: أن يقول لهم: ليس كما تقولـون، ليس تعلمون عدتهم، إن قالوا كذا وكذا فقل: ليس كذلك، فإنهم لا يعلمـون عدتهـم[٣]. وقيـل (إلا مـراء ظـاهراً) أي: بحجـة واضحـة[٤]. وقـال ابـن الأنباري: معنى الآية: لاتجادل إلا جدال متيقن عالم بحقيقـة الخـبر، إذ الله (تعالى) ألقى إليك ما لا يشوبه بـاطل[٥]. هـذا إذا علمنـا أن الخـائضين في عدة أصحاب الكهف هم من أهل الكتاب، وقد جاءوا يسألون النـبي ﷺ عـن قصتهـم امتحانـاً، فـأمر النبي ألا يخوض في أصحـاب الكهـف كمـا يخوض أهل الكتاب الـذي يعتمـدون في ذلـك علـى كتبهـم وقـد أصابهـا التحريف والتبديل، فيرجمون بالغيب، ولكـن يقـول في ذلـك قـولاً ظـاهراً مبنياً على العلم الذي أنزله الله عليه.

ثم إن هذه المسألة ـ وهي عدة أصحاب الكهف ـ لا طائل تحتهـا ولا

---

(١) انظر : تفسير الطبري ١٥/١٥٠ ط. المعرفة.

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٥/١٥٠ ط. المعرفة .

(٣) انظر : المرجع السابق .

(٤) انظر : زاد المسير ٥/١٢٧.

(٥) زاد المسير ٥/١٢٧.

فائدة من ورائها، فالمصيب والمخطئ فيها سيان، غير ما يحدث بين الخائضين من الشحناء والبغضاء، قال الألوسي رحمه الله: «﴿ إلا مراء ظاهراً﴾: غير متعمق فيه، وذلك بالاقتصار على ما تعرَّض له الوحي المبين، من غير تجهيل لجميعهم؛ فإن فيهم مصيباً وإن قل، ولا تفضيح وتعنيف للجاهل فإن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التي بعثت لإتمامها»[(١)] .

وقال السعدي رحمه الله: «﴿ إلا مراء ظاهراً﴾: أي مبنياً على العلم واليقين ويكون أيضاً فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فيها فائدة دينية بمعرفتها كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعاً للزمان، وتأثيراً في مودة القلوب بغير فائدة»[(٢)]. ولهذا جاء في معنى المراء: استخراج غضب المجادل من قولهم: مريت الشاة: إذا استخرجت لبنها[(٣)].

ثانياً: ذكر المراء في نصوص السنة النبوية:

والغالب على نصوص السنة النبوية النهي عن المراء، ولذلك أمثلة، منها:

١- عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربض

---

(١) روح المعاني ٢٤٧/١٥/٨.

(٢) تفسير السعدي ١٥٠/٣-١٥١ ، وانظر للفائدة: في ظلال القرآن ــ سيد قطب ٨٧/١٥/٥ .

(٣) زاد المسير ١٢٧/٥.

الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً...»[(١)]. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك الكذب وهو باطل بُني له في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بُني له في وسطها، ومن حسَّن خلقه بُني له في أعلاها»[(٢)].

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تَعِدْهُ موعدة فتخلفه»[(٣)].

٣- وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تَعَلَّمُوا العلم لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السفهاء، ولاتخيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[(٤)].

---

(١) تقدم تخريجه. وانظر: سنن أبي داود ٥/١٥٠ كتاب ـ باب في حسن الخلق ح: ٤٨٠٠. ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٥٧ عن معاذ بن جبل، وعزاه إلى الطبراني في معاجمه الثلاثة وحسَّن إسناده.

(٢) سنن الترمذي ٦/٢٠٧-٢٠٨ أبواب البر والصلة ـ باب ما جاء في المراء ح: ١٩٩٤ قال الترمذي: وهذا الحديث حديث حسن لانعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان عن أنس بن مالك. وفي تحفة الأحوذي أن الترمذي حسَّن الحديث لشواهده ٦/١٣٠ ، وانظر: سنن ابن ماجة ١/١٩-٢٠ المقدمة ـ باب اجتناب البدع والجدل ح: ٥١.

(٣) سنن الترمذي ٦/٢٠٨-٢٠٩ أبواب البر والصلة ـ باب ماجاء في المراء ح: ١٩٩٦ وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) سنن ابن ماجه ١/٩٣ ح:٢٥٤ قال في الزوائد: رجال إسناده ثقات، ورواه ابن حبان في صحيحه ١/١٤٧ برقم: ٧٧ والحاكم في المستدرك ١/٨٦ كتاب العلم عن جابر، وابن جريج، وكعب بن مالك، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/٤٨ ح: ٢٠٦ وفي الباب عن حذيفة وأبي هريرة وحسنها الألباني. وعن كعب بن مالك عند الترمذي ٧/٣٠٥ أبواب العلم ـ باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا ح : ٢٦٥٦ وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم، تُكُلِّمَ فيه من قِبَلِ حفظه.

٤- وعن السائب بن يزيد بن سعيد بن ثمامة قال للنبي ﷺ : «كنت شريكي في الجاهلية، فكنت خير شريك، كنت لا تداريني، ولا تماريني»[(١)].

ثالثاً: ذكر المراء في أقوال السلف:

قال أبوبكر الآجري رحمه الله بعد أن ساق نصوص الكتاب والسنة في النهي عن المراء والجدل: «لما سمع هذا أهل العلم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين لم يتماروا في الدين، ولم يجادلوا، وحذروا المسلمين المراء والجدال، وأمروهم بالأخذ بالسنن وبما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وهذا طريق أهل الحق ممن وفقه الله عز وجل»[(٢)]. وإليك بعضاً من أقوالهم في هذا المجال:

١- قال مهدي بن ميمون الأزدي: «سمعت محمد بن سيرين وماراه رجل، ففطن له، فقال: إني أعلم بما تريد، إني لو أردت أن أماريك كنت عالما بأبواب المراء» وفي لفظ: «إني قد أعلم ما تريد، وأنا أعلم بالمراء منك، ولكني لا أماريك »[(٣)].

٢-وقال عبدا لله بن الحسين القاضي: « المراء يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة»[(٤)].

---

(١) سنن ابن ماجه ٧٦٨/٢ كتاب التجارات ـ باب الشركة والمضاربة ح: ٢٢٨٧ وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة ٢٩/٢ ح: ١٨٥٣، وهو في سنن أبي داود ١٧٠/٥-١٧١ كتاب الأدب ـ باب في كراهية المراء ح: ٤٨٣٦، ومسند الإمام أحمد ٤٢٥/٣ .

(٢) الشريعة الآجري ص: ٥٥-٥٦.

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ٥٢٢/٢ برقم :٦٢٢،٦٢٣ ، والشريعة ص : ٦١-٦٢.

(٤) الإبانة ٥٣٠/٢-٥٣١ برقم : ٦٥٥ ، وجامع بيان العلم ١٢١/٢.

٣- وقال مسلم بن يسار (١٠٠هـ): «إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته».[1]

٤- وقال وهب (١١٠ أو ١١٣هـ): «دع المراء والجدال عن أمرك، فإنك لا تعجز أحد رجلين: رجل هو أعلم منك فكيف تماري وتجادل من هو أعلم منك؟ ورجل أنت أعلم منه فكيف تماري وتجادل من أنت أعلم منه، ولا يطيعك، فاقطع ذلك عنك».[2]

٥- وقال الأوزاعي: «سمعت بلال بن سعد يقول: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً، يعجب برأيه فقد تمت خسارته».[3]

٦- وقال سفيان بن عيينة: «سمعت رجلاً من أهل البصرة يذكر عن الحسن قال: ما أدركت فقيهاً قط يماري ولا يداري، ينشر حِكَمَ الله فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله».[4]

٧- وقال مالك بن أنس: «المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغن».[5]

وبعد هذه النصوص من الكتاب والسنة وأقوال العلماء من سلف الأمة يتبين لنا أن المراء كله مذموم، وليس فيه ما يحمد، إلا ما كان منه

(١) الشريعة ـ الآجري ص :٥٦ والإبانة ٤٩٦-٤٩٧ برقم ٥٤٧،٥٤٨ وسنن الدارمي ١٠٩/١ باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة .

(٢) الشريعة ـ الآجري ص :٦٠ ، والإبانة ٥٢٦/٢ برقم : ٦٣٨ .

(٣) الإبانة ٥١٠/٢-٥١١ برقم : ٥٩١ .

(٤) المرجع السابق ٥١٨/٢-٥١٩ برقم : ٦١١.

(٥) المرجع السابق ٥٣٠/٢ برقم : ٦٥٣ .

ظاهراً سهلاً مبنياً على العلم، كما تقدم في آية الكهف؛ إذ لا فائدة ترجى من ورائه غير قساوة القلوب، وفسادها، وما يكون من القطيعة والمدابرة بين المسلمين، ودفع الحق بالباطل، فإذا خرجت المناظرة عن الحسن في الجدال، والوصول إلى الحق بأقرب طريق، وقبول الحجة بعد وضوحها فإنما هي مراء لا خير فيه، فعلى من نصح نفسه أن يمسك عنه ولو كان الحق في جهته حفاظاً على المودة بين المسلمين، أو صيانة للوقت من سفه المعاندين.

حكم المراء في القرآن:

لقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «مراء في القرآن كفر».[1] وقد اختلف أهل العلم في المراد بالمراء في القرآن الذي هو كفر على أقوال، أهمها:[2]

١- أنه الشك في القرآن، أي في كونه من عندالله كقوله (تعالى) ﴿فَلَا

---

(١) رواه الحاكم عن أبي هريرة ٢٢٣/٢ كتاب التفسير ـ وصححه وسكت عنه الذهبي، وفي رواية: الجدال في القرآن كفر، ورواه أحمد في مسنده ٢٤٠/٤ وصحح إسناده أحمد شاكر ح: ٧٨٣٥ وروي بلفظ: جدال في القرآن كفر ح: ٧٤٩٩ وصحح إسناده أحمد شاكر، ورواه أبو داود ٩/٥ كتاب السنة ـ باب النهي عن الجدال في القرآن ح: ٤٦٠٣ وابن عبدالبر في جامع بيان العلم ١١٣/٢ وقال: لا يصح عن النبي ﷺ فيه غير هذا بوجه من الوجوه، ورواه الطيالسي في مسنده ص: ٣٠٢، والسجزي كما في الجامع الصغير للسيوطي ٧٣٠/٢، وانظر: مشكاة المصابيح ٢٣٧/١ كتاب العلم ح: ٢٣٦ قال الألباني: وإسناده حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو صحيح باعتبار أن له شواهد صحيحة .... وانظر: سلسلة الصحيحة للألباني ٥٤٥/٥.

(٢) معالم السنن ـ الخطابي ٢٩٧/٤، وجامع بيان العلم ١١٣/٢، والشريعة ص: ٦٩-٧١، والإبانة ٦١٣/٢ وما بعدها

تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنهُ﴾ [سورة هود: ١٧] أي في شك، فالمراد هنا هو الجدال المشكك فيه.

٢- أنه الاختلاف في ألفاظه، بأن يتمارى اثنان في آية أو سورة: يجحدها أحدهما ويدفعها، أو يصير فيها إلى الشك، فيقول: ليس هكذا القرآن، أو ليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ ، ومثل هذا وقع في عهده ﷺ حيث كان القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فنهاهم وزجرهم عن المراء في القرآن، والاختلاف في ألفاظه. ووقع في عهد الصحابة والتابعين، فرفع هذا الاختلاف بجمع عثمان رضي الله عنه المصحف على حرف واحد، وحرق بقية الأحرف.

أما ما وقع في عهده ﷺ فقد أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سمعتُ رجلا قرأ آية وسمعتُ النبي ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به للنبي ﷺ فأخبرتُه،فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: كلاكما محسن، ولا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[(١)].

وروى البخاري ـ أيضاً ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبَّرت حتى سلّم، فلببتُه بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول

---

(١) صحيح البخاري ٦/٥١٣-٥١٤ (فتح الباري) كتاب الأنبياء ح : ٣٤٧٦

الله ﷺ ، فقلت: كذبت[1] فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأتَ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ : أرسله، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»[2] .

وأما ما وقع في عهد الصحابة رضي الله عنهم: فقد أخرج ـ أيضاً ـ البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن حذيفة بن اليمان أنه قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أَرْمِينِيَة وأَذْرَبيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فيه إطلاق ذلك على غلبة الظن، أو المراد بقوله: كذبت، أي أخطأت؛ لأن أهل الحجاز يطلقون الكذب في موضع الخطأ» فتح الباري ٢٥/٩.وعليه يتنزل ما ورد عن بعض الصحابة كعائشة وغيرها من إطلاق الكذب في مثل هذه المواطن.

(٢) صحيح البخاري ٢٣/٩ كتاب فضائل القرآن ــ باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ح:٤٩٩٢.

عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.(١)

وجاء في بعض الروايات: أنهم تذاكروا القرآن فاختلفوا فيه حتى كاد يكون بينهم فتنة، وفي رواية: «فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة عبدالله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضاً»(٢).

فهذا المراء في القرآن منهي عنه، وإطلاق اسم الكفر عليه من حيث إنه يؤدي إلى الكفر؛ لأنه يؤدي إلى التكذيب ببعض القرآن، وجاء في بعض روايات(٣) حديث الباب: «أن رجلين اختلفا في آية من القرآن، فقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ، وقال الآخر: تلقيتها من رسول الله ﷺ، فسألا النبي ﷺ، فقال: القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فلا تماروا في القرآن، فإن مراء في القرآن كفر».

---

(١) صحيح البخاري ٩/١١ (فتح الباري) كتاب فضائل القرآن ـ باب جمع القرآن ح: ٤٩٨٧.

(٢) فتح الباري ٩/١٨.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٦٩-١٧٠ ط. دار صادر.

ويلحق بهذا الاختلافُ في القراءات لا سيما المتواترة، فإن كان الاختلاف في الأحرف قد رفع بالرسم العثماني، فلا ينبغي الاختلاف ـ على جهة الإنكار والجحود ـ في القراءات؛ لأنها كلها حق، ينبغي التصديق والتسليم لكل من قرأ بها أو ببعضها.

٣- الاختلاف في معنى القرآن، وهو الاختلاف الذي يقتضي ضرب الكتاب بعضه ببعض، والتكذيب ببعض معاني القرآن وأحكامه، على مذاهب أهل الأهواء والابتداع، وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك أشد التحذير؛ فقد روى الأمام أحمد في مسنده من حديث عبدا الله بن عمرو بن العاص قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أُحب أنَّ لي به حُمْرَ النَّعَم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول ا لله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرِّق بينهم، فجلسنا حَجْرَةً[1]، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول ا لله ﷺ مُغْضَبًا، قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول مهلا ياقوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكُتُب بعضَها ببعض، إن القرآن لم ينزل يُكذِّب بعضُه بعضًا، بل يصدِّق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»[2].

---

(١) حَجْرَة : ناحية، أي جلسنا ناحية. انظر : لسان العرب ١٦٨/٤ مادة حجر .

(٢) المسند ٢٢٨/١٠-٢٣٠ ح:٦٧٠٢ وصحح أحمد شاكر إسناده، ونحوه عند البخاري في خلق أفعال العباد ص : ٦٢ برقم : ١٦٥ ، وانظر نحوه في مصنف عبد الرزاق ٢١٦/١١-٢١٧ برقم : ٢٠٣٦٧ باب الخصومة في القرآن . وانظر : شرح السنة للبغوي ٢٦٠/١ برقم : ١٢١ باب الخصومة في القرآن . وابن ماجه ٣٣/١ المقدمة برقم: ٨٥ باب في القدر . قال في الزوائد : هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات .

وجاء في رواية: أنهم كانوا يتنازعون في القدر، هـذا ينزع آية وهـذا ينزع آية.[١] وفي رواية: فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، فذكر الحديث[٢].

ويدخل في هذا الباب ما وقع ويقع بين أهل الأهواء من ضرب النصوص بعضها ببعض، والإيمان ببعضها وجحد البعض الآخر؛ كما تفعله الوعيدية والمرجئة في نصوص الوعد والوعيد، وما تفعله القدرية والجبرية في نصوص القدر وأفعال العباد، وما تفعله المعطلة النفاة والمشبهة في نصوص الأسماء والصفات.[٣]

ويدخل فيه ـ أيضاً ـ من عارض النصوص بعقله ورأيه مما يوجب وقوع الشك والريبة في كلام الله ورسوله، وقد قال رسول الله ﷺ : «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». وفي رواية : «من قال في القرآن برأيه»[٤].

ويدخل في هذا الباب الجدال في تأويل متشابه القرآن، وهو ما اختص الله (تعالى) بعلمه؛ مثل كيفية صفات الله تعالى وأسمائه، وحقائق اليوم الآخر، وأحوال البرزخ، ونحو ذلك مما علمنا معناه بمقتضى لغة

---

(١) مسند الإمام أحمد ٨٢/١١ ح : ٦٨٤٦ قال أحمد شاكر: صحيح الإسناد .

(٢) المسند ٨٢/١١ ح : ٦٨٤٥ قال أحمد شاكر : صحيح الإسناد .

(٣) انظر : الإبانة ـ ابن بطة ٦١٨/٢ وما بعدها.

(٤) سنن الترمذي ١٤٦/٨-١٤٧ أبواب التفسير ـ باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ـ برقم ٢٩٥١،٢٩٥٢ وحسنهما الترمذي .

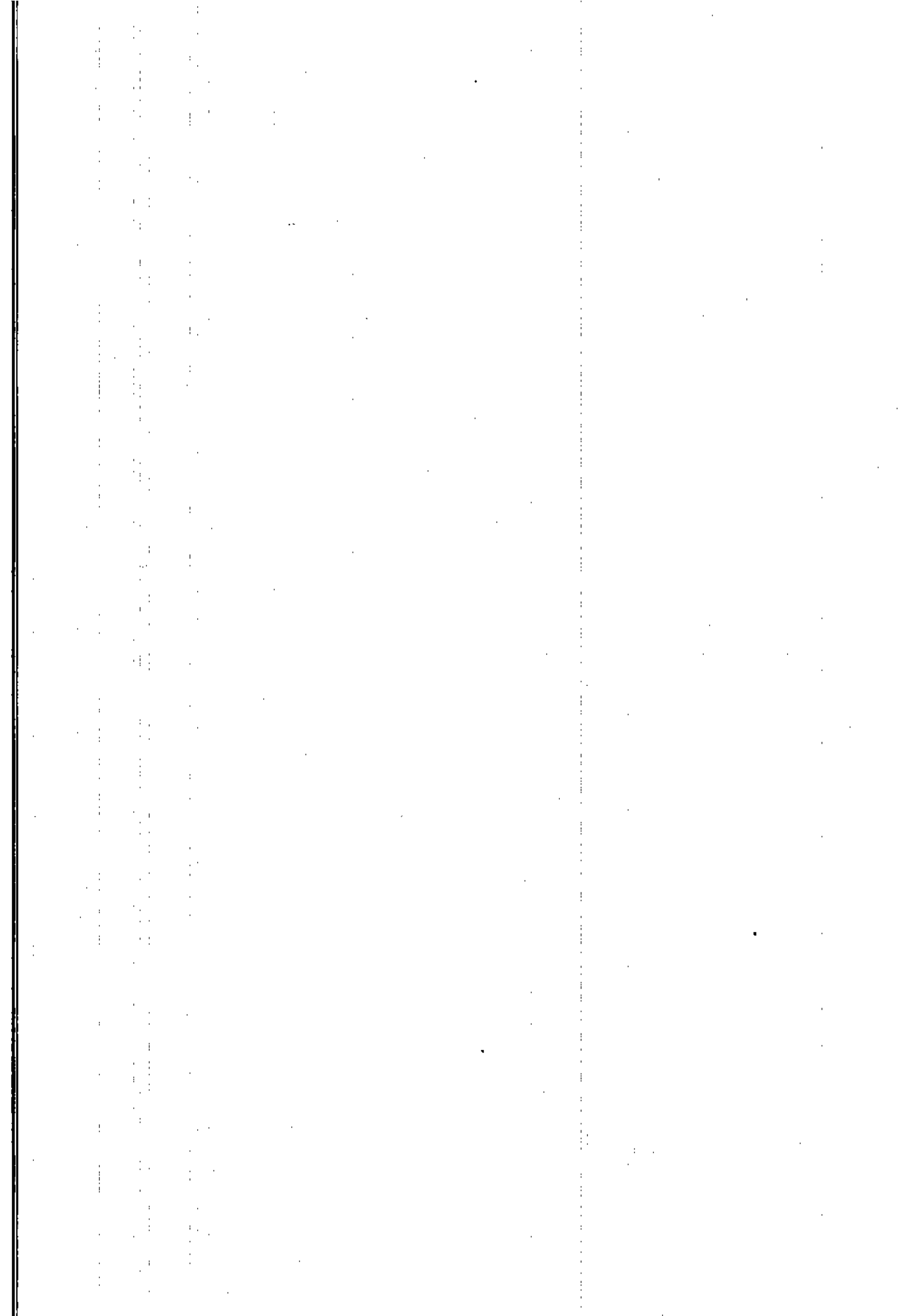
التخاطب، وجهلنا كيفيته، فالجدال فيه ابتغاء معرفته جدال في القرآن بالباطل، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: ٧] فقال: يا عائشة إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله، فاحذروهم»(١).

ولا يدخل في هذا الباب ما يقع بين أهل العلم من التنازع في معاني القرآن وأحكامه على جهة البيان والنصيحة، لمعرفة الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والمقيد من المطلق، وما اختلف معناه، وطلب الترجيح لبعض المعاني ونحو ذلك، لا على جهة المماراة والمغالبة، ولا ابتغاء تخطئة الخصم والاستظهار عليه(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: الشريعة الآجري ص: ٧١.



الفصل الثاني

الجدل والمناظرة في القرآن الكريم

خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته

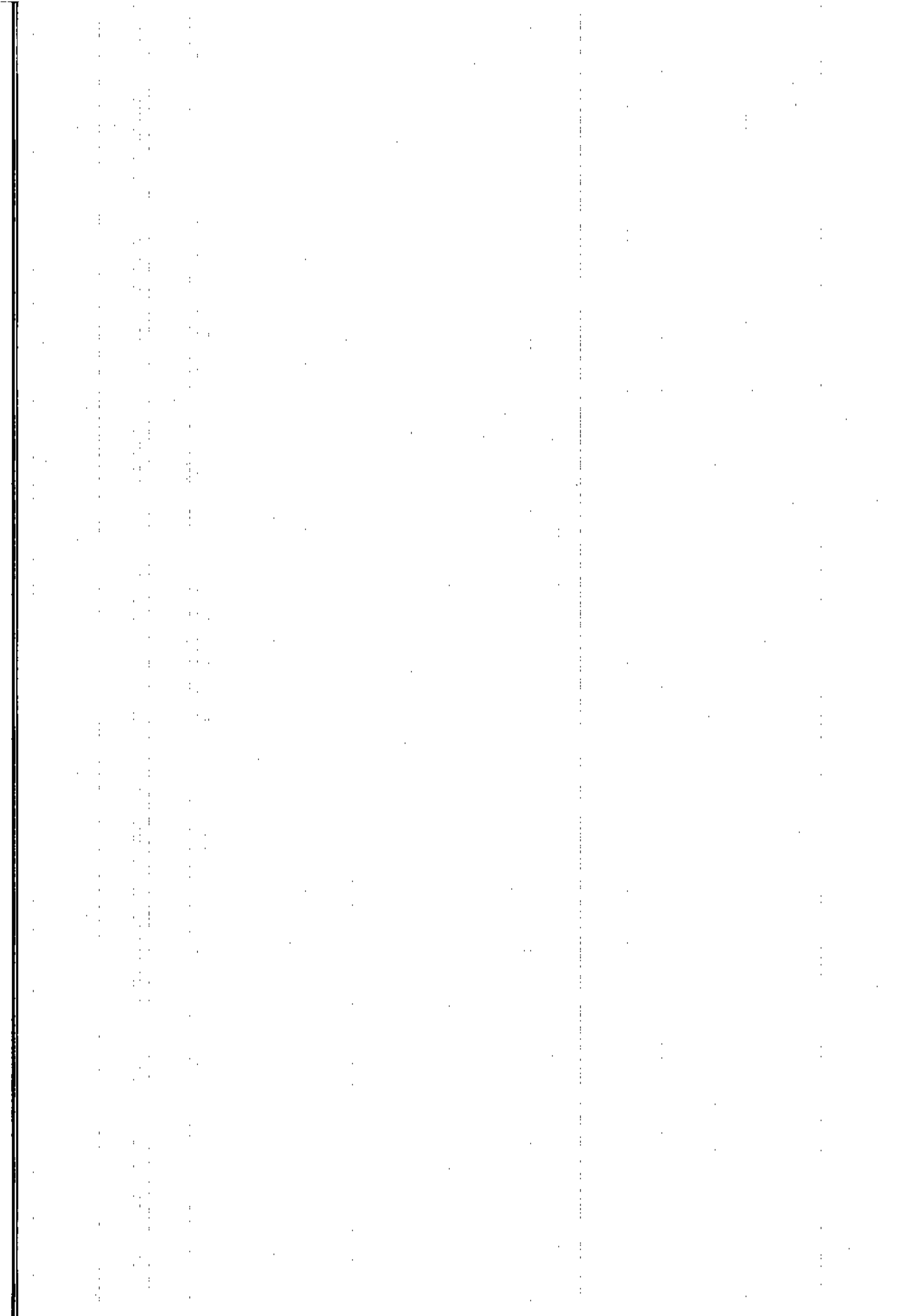
وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: خصائص الجدل القرآني

المبحث الثاني: أساليب الجدل القرآني

المبحث الثالث: الأصناف الذين وردت مجادلتهم في القرآن الكريم

المبحث الرابع: الأصناف الذين ذكر القرآن جدلهم



المبحث الأول
خصائص الجدل القرآني

خصائص الجدل القرآني كثيرة ومتنوعة، لكني أذكر هنا أظهر ما وقفت عليه.

أولاً: القرآن كل مافيه معجز: فإيجازه معجز، وإطنابه معجز، وألفاظه معجزة، وأساليبه معجزة، ونظمه معجز، كل هذا معجز، وكذا استدلاله وجدله وبيانه لا يصل إلى درجته نوع من الكلام... والفرق بين القرآن وكلام أعلى أئمة البيان يجعل الموازنة غير مستقيمة، فالفرق بينه وبين القرآن هو كالفرق بين الخالق والمخلوق؛ لأنه فرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق[1].

فالجدل القرآني معجز إعجاز القرآن، بمعنى أنه يستمد إعجازه من إعجاز القرآن، والقرآن معجز في كل مواد الجدل من : بلاغة، وفصاحة، وأدلة، وبراهين وغير ذلك. ومحال أن يعارض أحد القرآن في جداله، فيأتي بما يناقض القرآن، أو يعارضه، أو يماثله في صدق المعنى وصحة العبارة، وجودة الأسلوب، وبلوغ الهدف والغاية.

يقول أبوبكر الباقلاني رحمه الله وهو يتحدث عن وجوه الإعجاز في القرآن: «إن المعاني التي تضمنها ــ أي القرآن ــ في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على

---

(١) انظر : المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص :٣٤٣.

الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع»[(١)].

القرآن أثار في العرب دافع التحدي، وباعث المواجهة وهو سجية فيهم، ثم إنه نزل بلغتهم، وتحداهم في أعلى ما يفاخرون به، وهذا غاية التحدي، وحَفَّزهم على ذلك في أكثر من موضع، وتدرج معهم في التحدي ـ على سبيل التنزل ـ فتحداهم أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور منه، ثم بسورة منه ولو من أصغر سوره، فما استطاعوا، ولو كان بعضهم لبعضهم ظهيراً[(٢)].

فالقرآن واجه المشركين، وتصدى لهم، وناظرهم فيما يعتقدونه، وقطعهم بالحجة البالغة والسلطان القاهر، فما استطاعوا له رداً، ولا عنه حولاً. قال الزركشي في قصة الوليد بن المغيرة وإيفاد قريش له إلى النبي ﷺ بغية أن يقطعه ويكفَّه عنهم، قال رحمه الله: إن الوليد بن المغيرة (لعنه الله) كان سيد قريش، وأحد فصحائهم، لما سمعه ــ أي القرآن ـ أُخرس لسانه، وبَلُد جنانُه، وأُطفئ بيانُه، وقُطعت حجتُه، وقُصم ظهرُه، وظَهَرَ عَجْزُهُ، وذَهلَ عقلُهُ[(٣)]، حتى قال قوله المشهور، وهو: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يُعلى[(٤)].

---

(١) كتاب الإعجاز ص : ٤٢.

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ٢/١٠٨-١١٠.

(٣) انظر : البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ٢/١١٠ .

(٤) انظر : البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ٢/١١٠-١١١ .

فللقرآن الكريم قوة تأثير عظيمة على النفوس، حتى جعلت أهل الكفر والإلحاد يصفونه بالسحر وما هو بسحر، وجعلتهم يتناهون عن الاستماع إليه؛ قال (تعالى): ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت: ٢٦]. ونطق بعض هؤلاء بالحق كُرْهاً مثلما كان من أمر الوليد وغيره.

وقال (تعالى) في شأن بعض النصارى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة المائدة: ٨٢-٨٣].

وقال (تعالى) في شأن بعض الجن: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مستقيم﴾ [سورة الأحقاف: ٢٩-٣٠].

إن بقاء حجة القرآن ودوامها في صدقها وقوتها وحجيتها وشمولها، فحجته باقية ما بقيت السموات والأرض، وعامة لكل الناس على مختلف أزمانهم، ومواقعهم، ومراتبهم في الفهم والإدراك، وهذا البقاء والشمول مستمدان من بقاء الرسالة وشمولها:

قال (تعالى): ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨]، وقال (تعالى): ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة سبأ: ٢٨]. وقال ﷺ: «مامن الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه

البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[١].

فلا يتصور أن أحداً ـ في أي وقت أو أي موقع ـ يجرؤ على معارضة حجة القرآن بما يقطعها، أو يشكك في مصداقيتها، على ما يكون من حجج بعض الناس التي قد تكون قاطعة لبعضهم، وفي وقت من الأوقات، ثم لا تلبث أن يعرف بعض الناس بطلانها أو ضعفها؛ فالقائلون ـ مثلاً ـ بعدم بقاء العرض زمانين، وبنوا على ذلك نفي الصفات عن الله (تعالى) ، قد عرف أهل العلم والإيمان بطلان حجتهم في ذلك الوقت[٢]، وتبين لغيرهم ممن تأخر زمانهم بطلانها بدليل الحس، وذلك بعد ظهور الأجهزة التي تعنى بحفظ الأصوات والصور ونحوها من الأعراض.

أما حجة القرآن الكريم فتبقى قاطعة لكل حجة، لا يُغيِّر من ذلك زمان ولامكان ولا إنسان.

ثانياً[٣]: ومن خصائص الجدل القرآني: أنه يخاطب العقل والوجدان جميعاً، فيأتي بالفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً وعلى مستوى واحد، مما لا يوجد مثله عند أي إنسان عالماً كان أو حكيماً أو

---

(١) صحيح البخاري ٩/٣ (فتح الباري) كتاب فضائل القرآن ـ باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ح: ٤٩٨١.

(٢) ولابن حزم كلام جيد في مناقشة هذه الشبهة وتفنيدها . انظر : الفصل ٥/٢٣٧-٢٣٨.

(٣) انظر : النبأ العظيم ــ دراز ص : ١٠٧-١١٠ ، ومناهل العرفان ٢/٢٠٩-٢١١، وخصائص القرآن الكريم ــ فهد الرومي ص :٣٥-٣٨ ، ومناهج الجدل في القرآن الكريم ـ الألمعي ص :٤٢٢.

شاعراً، يستطيع أن يمسك بالأمر من طرفيه، فيأتي بكلام واحد فيه قوة الحجة العقلية وجمال العبارة، ولو وجدا عنده فلا يعملان إلا مناوبة، كلما قويت واحدة اضمحلت الأخرى، وكاد أن ينمحي أثرها، وكلنا يحس من نفسه تناقص قوة الوجدان عند استيلاء قوة التفكير، والعكس بالعكس.

فمن نظر في كلام الناس من الفلاسفة والحكماء، وكلام الشعراء والأدباء، لم يجد إلا غلواً في جانب وقصوراً في الجانب الآخر. فالحكماء ـ مثلاً ـ يقدمون لك ثمار عقولهم، وعصارة أفكارهم غذاء لعقلك من غير أن تتطلع نفوسهم إلى إشباع عاطفتك وإرواء وجدانك.

وأما الشعراء فيقصدون إلى استثارة وجدانك، وتهييج عاطفتك، ولا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشداً، أو حقيقة أو خيالاً، وتراهم جادين وهم هازلون؛ يستبكون وإن كانوا لايبكون، ويَطْرَبُون وإن كانوا لا يُطْرِبُون، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. . .﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

ولهذا لا تكاد تجد بشراً وفّى بحق العقل إلا وبخس بحق الوجدان، أو وفّى بحق الوجدان إلا وبخس بحق العاطفة. أما القرآن الكريم، فقد جمع الله (تعالى) فيه بين القوتين: قوة الحجة العقلية البرهانية حتى إنه ليقنع، أويقطع أرباب المعارف العقلية والفلسفية، وقوة المتعة

الوجدانية والعاطفية حتى إنه ليرضي ويشبع فحول الأدباء والشعراء، فهو كلام الله عز شأنه، لا يشغله شأن عن شأن، فهو القادر على مخاطبة العقل والقلب معاً وبلسان واحد، وأن يمزج بين الحق والجمال.

انظر - مثلاً - إلى قوله (تعالى): ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢] وتأمل وتدبر كيف اجتمع في كلمات سبع عمق المقدمات اليقينية، ووضوحها، ودقة تصوير ما يعقب التنازع من الفساد الرهيب؛ مما لو ابتغى تقرير مثله فلاسفة العصور كلها لما استطاعوا إلا بعبارة طويلة جافة، كما هو واضح في دليل التمانع الذي صوره المتكلمون، وجعلوا هذه الآية دليلاً عليه، فأخطأوا.

وانظر - أيضاً - إلى هذه الآية من قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[سورة يوسف: ٢٣] كيف تخرج من خلالها البراهين الساطعة والعظات البالغة، فتأمل كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث: الحسب، وتغليق الأبواب، وكونه أجيراً عند امرأة العزيز. بدواعي العفاف الثلاث: الاعتصام بالله، والأمانة، وعدم الظلم. مقابلة صوَّرت من هذه القصة الممتعة جدالاً عنيفاً بين جند الرحمن وجند الشيطان، ووضعته أمام صاحب العقل المنصف في كفتي ميزان لينتصر اختيار الصِّدِّيق، ويخسر اختيار الشيطان.

ثالثاً: ومن خصائص الجدل في القرآن الكريم أن أدلته لها من القطعية في الثبوت مثلما للقرآن الكريم من ذلك، إذ نصوصه وردت بطريق التواتر الذي يفيد العلم اليقيني الاضطراري؛ فلا شك ولا ظن في ثبوت أدلته، كما لاشك ولا ظن في ثبوت نصوصه، هذا من جهة الورود، وكذلك من جهة المعاني والدلالات فأدلة الجدل قطعية؛ لأن المراد بها تقرير القواعد الاعتقادية، وإقامة الأدلة والبراهين على قضايا الاعتقاد، والرد على الخصوم، وهذا من أعظم ما جاء القرآن لتقريره، فلا بد أن يكون في وضوح معانيه، وقوة دلالته، ودقة مقاصده ما يجعله هداية للضالين، وقطعا للمعاندين، وحجة على الخلق أجمعين. فلا تناقض بين أدلته وبراهينه كما قال (تعالى) ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢].

ولا ضعف في قوة حجة القرآن ووضوح محجته، كما قال (تعالى): ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: ٤١-٤٢]. فلا أحد في قديم الزمن ولا في حديثه يُعرف أنه أقام دليلاً صحيحاً وحجة قاطعة يعارض بها أدلة القرآن الكريم وحججه، بل لم يذكروا إلا ما يدل على عجزهم وانقطاعهم، وذلك حين وصفوا القرآن بالسحر والشعر وهم أول من يعرف براءته من ذلك؛ كما كان من أمر الوليد بن المغيره المتقدم ذكره.

بل هؤلاء الذين أخبر القرآن أنهم صالوا النار ـ كأبي لهب والوليد ـ لم يجرؤ أحدهم على تكذيب القرآن بإبطال حجته، وإظهار تناقضه ـ مع حرصهم على معارضته ـ فيعلن إسلامه، ولو على سبيل المعارضة، فلله الحجة البالغة أبداً.

ولهذا قال أبو عبدا لله الرازي ـ مع خبرته في الكلام ـ في آخر عمره: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن؛ أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر: ١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٠] ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»(١).

رابعاً: تميُّز الجدل القرآني عن الجدل اليوناني والكلامي، وذلك من وجوه كثيرة، أهمها:

١ ـ القرآن نزل لهداية الناس كافة، وما فيه من الاستدلال والجدل إنما هو لمخاطبة الناس جميعاً، وعلى مختلف مستوياتهم العقلية والعاطفية، بعكس طريقة المناطقة والمتكلمين في الجدل والاستدلال، فلا يفهمها إلا طائفة خاصة من الناس؛ وذلك لما فيها من الغموض، والإلغاز في الاستدلال، والتطويل في العبارات(٢).

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٠، والرد على المنطقيين ص: ٣٢١.

(٢) انظر: من أسرار البلاغة ـ محمود شيخون ص: ٢٢٣.

٢-القرآن الكريم لم يلتزم طريقة المناطقة والمتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول[(١)]، أو الاستدلال بأحد الجزئين على الآخر في قياس التمثيل[(٢)]، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء[(٣)]، وذلك[(٤)]:

أ-لأن القرآن جاء بلسان العرب، وطريقتهم في التخاطب، فطريقته تجمع بين عمق المعنى ودقة التصوير، ووضوح التعبير، وسلامة التركيب دون إخلال بالصورة البيانية التي تثير الضمير وتوقظ المدارك النفسية، وتدفع بالعقول إلى النظر دون ارتباط بالاصطلاحات المنطقية الفلسفية المعقدة[(٥)]. «فطريق القرآن الكريم في الاستدلال وتوجيه العقول

---

(١) قياس الشمول : اشتراك الأفراد في حكم عام وشموله لها . انظر : الرد على المنطقيين ص: ٣٦٤ .

(٢) قياس التمثيل : إثبات حكم في أمر لثبوته في آخر لعلة مشتركة بينهما، ويسمى المحكوم عليه فرعاً، والشيء المنقول منه الحكم أصلاً، أو مثالاً، والعلة المشتركة بينهما جامعة. وهو قياس الأصوليين، ويسمى الشرعي. انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ٥/١١٩٣-١١٩٤، والمعجم الفلسفي (مجمع اللغة العربية) ص: ٥٥

(٣) الاستقراء : هو الحكم على الكلي لثبوت ذلك الحكم في جزئياته أو أفراده، إما كلها وهو الاستقراء التام، وإما أكثرها وهو الاستقراء المشهور، معتمداً على مبدأ الحتمية، كقولنا : لكل طائر جناحان . انظر : المعجم الفلسفي (مجمع اللغة العربية) ص : ١٢ ، والمعجم الفلسفي ـ صليبا ١/٧١-٧٢ .

(٤) انظر : مباحث في علوم القرآن ـ القطان ص :٢٩٩-٣٠٠.

(٥) انظر : منهاج الجدل ـ الألمعي ص : ٤١٦-٤١٧ .

والمشاعر لإدراك أعمق الحقائق أيسر وأشمل وأقوم... فعلى الناظرين في القرآن الكريم والداعين إلى نشر قضاياه ومبادئه أن يعملوا على إشاعة الأسلوب القرآني، وتقريبه بما يرفع الحجب الاصطلاحية عن وجهه الجميل، حتى لا تغرق معانيه في خضم الاصطلاحات المنطقية والفلسفية»(١).

ب-ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فُطِرَت عليه النفس من الإيمان بما تشاهده وتحس به دون عمل فكري معقد أقوى أثراً وأبلغ حجة.

ج- ولأن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والإلغاز لايفهمه إلا الخاصة، وينافي قصد الشارع من هداية الناس وبيان الحق لهم.

يقول الزركشي رحمه الله: «اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله (تعالى) قد نطق به، لكن أورده (تعالى) على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ٤].

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجَّة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون

(١) القرآن العظيم ـ عرجون ص : ٢٨٣-٢٨٤ بتصرف .

لم يتخطَّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، و لم يكن مُلْغِزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلِّ صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يُقنعهم ويُلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء ...»[1].

٣- الجدل القرآني يدل على الحقائق في ذاتها، فبراهين القرآن وحججه دالة على الأمور المعيَّنة، كأسماء الله وصفاته، والملائكة، والرسل، والكتب، والعرش، والكرسي، والجنة والنار، وما وقع للأنبياء مع أقوامهم من قصص وأحداث معيَّنة، وكذلك ما أخبر به الله (تعالى) ورسوله ﷺ من الأمور المستقبلية وغير ذلك، كلها أمور معينة ليست من نوع القضايا الكلية التي لا تكون إلا في الذهن، ولا تمنع من وقوع الشركة فيها؛ كما هو حال كلام المناطقة وجدلهم، فأقيستهم التي هي عندهم برهانية لا تفيد إلا أموراً كلية، لا تدل على شيء معين.

٤-«إن أسلوب القرآن أسمى من الخطابة وأسمى من منطق أرسطو ومن لفَّ لفه، تراه قد اعتمد في مسالكه على الأمر المحسوس أو الأمور البدهية التي لا يمتري فيها عاقل، وليس فيه قيد من قيود الأشكال المنطقية، من غير أن يخل بدقة التصوير، وقوة الاستدلال، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات ونتائج في أحكام العقل، وإنك لترى بعض أوصاف الأسلوب الخطابي قد أتى فيها بالمثل الكامل فيه، وهو أعلى من أن يوصف بأنه جاء على منهاج من مناهج الخطابة...

(١) البرهان ص : ٢٤ وانظر : معترك الأقران ـ السيوطي ٤٥٦/١.

ومهما يكن من قول في استدلالات القرآن الكريم، فإن له مناهج في الاستدلال تعلو على براهين المناطقة، والأخيلة المثيرة للإقناع، والأدلة الخطابية»[١].

وبهذا يُعلم بطلان ما يزعمه المعظّمون للمنطق من أن القرآن جاء بالطرق البرهانية والخطابية والجدلية، وهذا يعني أن القرآن قد جاء بما عند المناطقة من طرق الاستدلال، واستدلوا على ذلك بقوله (تعالى): ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

وقد ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه الفرية بقوله: «إن ما يجعلونه من القرآن مطابقاً لأصولهم ليس كما يقولون، فإن قيل: لا ريب أن ما جاء به الرسول من الحكمة والموعظة الحسنة والجدل يخالف أقوال هؤلاء الفلاسفة أعظم من مخالفته لأقوال اليهود والنصارى. لكن المقصود أن الثلاثة المذكورة في القرآن هي: البرهان الصحيح والخطابة الصحيحة والجدل الصحيح، وإن لم تكن هي عين ما ذكره اليونان، إذ المنطق لا يتعرض لشيء من المواد، وإنما الغرض أن هذه الثلاثة هي جنس هذه الثلاثة.

قيل: وهذا ـ أيضاً ـ باطل، فإن الخطابة عندهم ما كان مقدماته مشهورة، سواء كانت علماً مجرداً أو علماً يقينياً، والوعظ في القرآن

(١) المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص: ٣٧٢-٣٧٣ .

هو الأمر والنهي والترغيب والترهيب؛ كقوله (تعالى): ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٦-٦٨] فقوله ﴿ ما يوعظون به﴾ أي ما يؤمرون به. وقال: ﴿يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور: ١٧] أي ينهاكم عن ذلك.

وأيضاً ـ فالقرآن ليس فيه أنه قال: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل، بل قال: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ﴾ وذلك لأن الإنسان له ثلاثة أحوال: إما أن يعرف الحق ويعمل به، وإما أن يعرفه ولا يعمل به، وإما أن يجحده.

فأفضلها أن يعرف الحق ويعمل به. والثاني: أن يعرفه ولكن نفسه تخالفه فلا توافقه على العمل به. والثالث: من لا يعرفه بل يعارضه. فصاحب الحال الأول هو الذي يُدعى بالحكمة، فإن الحكمة هي العلم بالحق والعمل به، فالنوع الأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به، فيُدعون بالحكمة. والثاني: من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه، فهذا يوعظ بالموعظة الحسنة. فهاتان هما الطريقان: الحكمة، والموعظة، وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا، فإن النفس لها أهواء تدعوها إلى خلاف الحق وإن عرفته، فالناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة فلا بد من الدعوة بهذا وبهذا.

وأما الجدل فلا يدعى به، بل هو من باب دفع الصائل، فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن؛ ولهذا قال: ﴿وجادلهم﴾ فجعله

فعلاً مأموراً بـه مع قولـه ﴿ادع﴾ فـأمره بـالدعوة بالحكمـة والموعظـة الحسنة، وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن، وقال في الجدال: ﴿بالتي هي أحسن﴾ ولم يقل "بالحسنة" كما قال في الموعظة؛ لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة، فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة. والموعظة لا تُدافع كما يُدافع المجادل. فما دام الرجل قابلاً للحكمة أو الموعظة الحسنة، أو لهما جميعاً لم يحتج إلى مجادلة، فإذا مانع جودل بالتي هي أحسن...»[(١)].

٥- والقرآن لا يحتجُّ في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها كما هي الطريقة الجدلية عند أهل المنطق وغيرهم، بل بالقضايا والمقدمات التي يسلمها الناس، وهي برهانية. وإن كان بعضهم يسلمها، وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها كقوله (تعالى): ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [سورة الأنعام: ٩١] فإن الخطاب لما كان مع من يُقِرُّ بنبوة موسى من أهل الكتاب ومع من ينكرها من المشركين، ذكر ذلك بقوله (تعالى): ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [سورة الأنعام: ٩١]. وقد بين البراهين الدالة على صدق موسى في غير موضع[(٢)].

---

(١) الرد على المنطقيين ص : ٤٦٧-٤٦٨.

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ١٩/١٦٥-١٦٦.

خامساً: ومن خصائص الجدل القرآني أنه إذا أراد إلزام الخصوم وإفحامهم، فعل ذلك بأقرب الطرق وأقواها إلزاماً وإفحاماً، فلا يجد الخصم لنفسه ملاذاً، ولا فكاكاً غير التسليم والإذعان، من ذلك ما حكاه الله (تعالى) عن إبراهيم عليه السلام في مجادلة مدعي الربوبية، قال (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

ووسائل أخذ الخصم وإلزامه وإفحامه بأقرب الطرق كثيرة في القرآن الكريم، من ذلك:

١- التحدي، كما تحدى الله (تعالى) كفار قريش بأن يأتوا بمثل القرآن، ثم بعشر سور مفتريات، ثم بسورة واحدة.

٢- أخذ الخصم بموجب كلامه، وإثبات أنه عليه وليس له، من ذلك قول المنافقين كما في قوله (تعالى): ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [سورة المنافقون: ٨] فقال (تعالى) راداً عليهم: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المنافقون: ٨] فسلّم لهم أن الأعز يُخرج الأذل، ولكن من هو الأعز؟! فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

٣- مجاراة الخصم؛ وهو موافقته فيما يقول في بعض المقدمات، ثم التعقيب عليه بما يقلب عليه نتائج قوله، ويبطل دعواه. من ذلك قوله (تعالى) حكاية عن الرسل مع أقوامهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ١١]. فالرسل سلّموا بالمقدمة التي بنى عليها أقوامهم إنكارهم، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم: ﴿ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده﴾.(١)

سادساً: ومن خصائص الجدل القرآني أنه يعرض القضية الواحدة المراد إيضاحها وتقريرها في أكثر من أسلوب(٢). فمثلاً: قضية البعث بعد الموت مرة يذكرها بصيغة الخبر المؤكّد بالقسم، كما في قوله (تعالى): ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن: ٧].

ومرة يذكرها بالخبر عن قصة واقعية؛ كما في قوله (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

---

(١) انظر : المعجزة الكبرى ص : ٣٨٥-٣٨٦ .

(٢) انظر: منهج الحوار في القرآن ـ عبدالحليم حفني ص:١٨ مقال بمجلة الهداية ـ العدد ١٠٠ السنة التاسعة ـ جمادى الثانية ١٤٠٦هـ.

ومرة ثالثة يعرضها بذكر جدال مع منكري البعث؛ كما في قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس: ٧٧-٨٣].

وهكذا فتنوع عرض القضية الواحدة يزيد في سبل الإقناع وضروب الهداية، حتى يوافق مشارب الناس، على تباين مقاصدهم، وتفاوت مداركهم، فتجد كلُّ طائفة منهم في القرآن ما يقنعها أو يرشدها أو يقطعها.

سابعاً: ومن خصائص الجدل القرآني؛ أنه يرشد مخاصميه إلى العقل الصريح، والعقل هو أغلى ما يفاخر به المخاصم، والقرآن لا يخاف نتائج العقل؛ لأنها دائماً ـ إذا كانت صحيحة صريحة ـ لا تتعارض مع الحقائق الإيمانية، بل القرآن يأمر بإعمال الفكر والنظر، واستخدام العقل إلى الغاية الممكنة. قال (تعالى): ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة سبأ: ٤٦] وقال (تعالى): ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة يونس: ١٠١] .

وهناك قوانين عقلية لا يمكن الاختلاف والتنازع فيها، كوجوب الجمع بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، وإلحاق الشيء بنظيره، وإعطاء الفرع حكم أصله، ونحو ذلك. ولهذا ذم الله (تعالى) الذين يجادلون في الله بغير حجة: لا من كتاب ناطق، ولا من عقل صادق. فقال (تعالى): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [سورة الحج: ٨].

ونجد آيات كثيرة فيها المطالبة بالتزام ما يقتضيه العقل، والإذعان إلى حكمه - وهو موافق لا محالة لحكم الشرع - فمن ذلك قوله (تعالى) مخاطباً أهل الكتاب: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٤] ويقول لهم في شأن انتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران ٦٥-٦٨].

وسفّه الخليل عليه السلام مَنْ عَبَدَ من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، وطالبه أن يُحكّم عقله، قال (تعالى): ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٦-٦٧].

واشتمال الجدل القرآني على القوانين العقلية الصريحة يجعله حجة على كل الناس، لاسيما الذين غلبت عليهم الدراسات العقلية والفلسفية، أو الذين لهم مذاهب دينية سابقة يتعصبون لها، ولا ينقلبون عنها إلا بقناعات جديدة، وهذا ما يضمنه الجدل القرآني لهؤلاء الأصناف من البشر، إذا تخلوا عن التعصب والعناد.

ثامناً: ومن خصائص الجدل القرآني أن المقصود به في المقام الأول هداية الخلق، وهو أحرص ما يكون عليها، فهذه غايته وهدفه، بعكس المجادل من البشر فقد تكون له غايات فاسدة من حبِّ العلوِّ في الأرض، والإفساد فيها وغير ذلك على ما مر بيانه في الجدل الباطل.

فلهذا تجد القرآن الكريم يقر ـ في أدب رفيع وإنصاف بليغ ـ للخصم ما معه من الحق؛ كما في قوله (تعالى) لما قالت ملكة سبأ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [سورة النحل الآية ٣٤] فلما كان هذا هو الغالب على الملوك قال ا لله (تعالى): ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(١) [سورة النمل: ٣٤] .

وفي جدال القرآن أسلوب التنزل مع الخصم إلى درجة أن يساوي بين المحق والمبطل أمام القضية المراد المناظرة فيها، قال (تعالى): ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة سبأ: ٢٤] إلى غير ذلك مما يستنكف كثير من الناس أن يخضعوا له.

---

(١) هذا على أحد القولين في تفسير الآية، والثاني أنه من كلام بلقيس تأكيداً للمعنى. انظر : تفسير القرطبي١٣/١٩٥.

فجدل القرآن الكريم لا يتجه إلى مجرد الإفحام والإلزام، بل يتجه في الكثير الغالب إلى إرشاد الخلق المخاصمين، والأخذ بأيديهم إلى الحق، وتوجيه النظر إلى الحقائق وما في الكون من دلائل الحق والإيمان[(١)].

ولهذا كان جدال القرآن بالتي هي أحسن، وأَمَرَ الله المؤمنين أن يجادلوا بالتي هي أحسن، وإذا جاء في جدال القرآن الشدة والتعنيف على الخصم، فهذا لا يرجع إلى أسلوب الدعوة والطريقة العامة التي يسلكها القرآن في جداله، ولكنه يرجع إلى أمور ذاتية تتعلق بالخصم المجادل؛ لأنه لم يصغ للحق على الرغم من وضوحه، ولم يستخدم عقله فيما يلقى إليه من بيان معزز بالبراهين والحجج الواضحة، ونحو ذلك من صنوف العناد، ولعلَّ ذلك يفهم من الاستثناء الوارد في قوله (تعالى): ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]. بل الأصل في جدال القرآن أنه هداية للضال، وتنبيه للغافل، وتعليم للجاهل، وإرشاد للمسترشد، ثم قطع للمعاند لدفع صياله، وحسم شرِّه المتعدي للغير.

ولهذا فجدال القرآن مع المشركين كثيراً ما يكون جدال هداية ودلالة، مع اشتماله على تخطئة مزاعمهم وإبطالها، بينما يكون جدال القرآن مع أهل الكتاب جدال تخطئة وإلزام؛ لأنهم على علم كتموه وأخفوه، أما جدال القرآن مع المنافقين، فتبدو عليه سمات الشدة والتعنيف، مصحوباً بالتهديد والوعيد. وهذه نماذج لما تقدم ذكره:

---

(١) انظر : المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص :٣٨١ .

١-مجادلة القرآن للمشركين: قال (تعالى):﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ* إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٤-١٩٨]. فهذه مجادلة هادئة على الرغم من اشتمالها على أسلوب التحدي والإفحام والتخطئة.

٢-مجادلة القرآن لأهل الكتاب: قال (تعالى): ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٥-٦٧]. وهنا نلاحظ أسلوب التخطئة والإلزام لأهل الكتاب إذ أنهم على علم، لكنهم تواطئوا على كتمانه.

٣-مجادلة القرآن للمنافقين: قال (تعالى): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨-١٦]. فمجادلة المنافقين تبدو عليها سمات الشِّدَّة والتعنيف؛ لأنهم كفروا بقلوبهم، مع إعلانهم الإيمان بألسنتهم، مخادعة، وخوفا من سيف الشرع.

تاسعاً: ومن خصائص الجدل القرآني أنه قد يأتي في صورة قصة تجذب أنظار المخاصمين وتستدعي انتباههم، لا سيما إذا كان موضوع القصة رسولاً يعرفونه ويدَّعون متابعته، فتأتي الحجة على لسانه، فيكون ذلك أقوى تأثيراً وأشدَّ إلزاماً وإفحاماً للمخاصمين.

فمجيء الدليل أو الحجة على لسان رسول يُقرُّ المخاصمون بفضله؛ كإبراهيم عليه السلام عند العرب وبني إسرائيل، وموسى عليه السلام عند بني إسرائيل يعطي الدليل قوة فوق قوته الذاتية، فالحجة تقوم عليهم من جهتين: من جهة قوة الدليل الذاتية، ومن جهة أن الذي قاله رسول أمين يعرفونه، ويُقرُّون له بالفضل، ويدَّعون متابعته والاقتداء به[(١)].

مثال ذلك قوله (تعالى): ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٦-٢٨].

وقد تأتي القصة في صورة وصية يوصي بها الرسول أمته وذريته، فيعرف المخاصم أنه خان الرسول ـ الذي يدعي متابعته ـ في وصيته،

(١) انظر: المعجزة الكبرى ص: ٣٧٤-٣٧٥ .

و لم يقم بواجبها، قال (تعالى): ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٠-١٣٣].

وقد يجيء الدليل أحياناً في قصص القرآن على لسان حيوان، فيكون لذلك غرابة تثير الانتباه، وتملأ النفس إيماناً بالحقيقة التي قد يجحدها من كرّمه الله بنعمة العقل. مثال ذلك ما جاء على لسان هدهد سليمان عليه السلام قال (تعالى): ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: ٢٠-٢٦] (١).

عاشراً: ومن خصائص الجدل القرآني أنه قد تتكرر المجادلة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، لكنه تكرار فيه تنوع لا تماثل؛ ولهذا لو

(١) انظر : المعجزة الكبرى ص : ٣٧٥-٣٧٦ .

أعمل الناظر فهمه وقارن بدقة بين المجادلتين والمناظرتين، لوجدهما مختلفتين في طريقة العرض والأداء، وذلك لخدمة أغراض مختلفة تناسب الموضوع الذي سيقت لأجله المجادلة، ويتضح ذلك في المجادلات الواقعة بين الأنبياء وأقوامهم، فليس في القرآن تكرار أصلاً، بمعنى أن يتكرر الموضوع عرضاً وأداء وغاية وأشخاصاً، أي يتماثل تماماً، هذا لا يكون أبداً، بل يكون في كل موضع من الاعتبار والاستدلال غير ما يكون في الموضع الآخر، فهذا كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة، كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر، فليس في هذا تكرار، بل فيه تنويع الآيات، فالله (تعالى) سمى نفسه: الملك، والقدوس، والسلام، والمؤمن، والمهيمن، والعزيز، والجبار، والمتكبر، والخالق، والمصور، إلى غير ذلك من الأسماء، وسمى رسوله: محمداً، وأحمد، والحاشر، والعاقب، والمقفى. وسمّى كتابه: القرآن، والفرقان، وبياناً، وهدىً، وشفاءً، ونوراً، وروحاً، ونحو ذلك، وكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الذي في الاسم الآخر مع كون الذات واحدة.[1] وهذا يقال ـ أيضاً ـ في المجادلات والمناظرات التي يتكرر ورودها في القرآن الكريم، فمع اتفاق الأشخاص الذين تدور بينهم المناظرة لكن تختلف المناظرة ـ كما تقدم ـ عرضاً وأداء وهدفاً؛ وذلك لاختلاف الاعتبار والاستدلال الذي سيقت المناظرة لأجله. فهذه من أعظم خصائص الجدل القرآني إذ هو كلام العليم الخبير.

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦٧/١٩-١٦٨.

حادي عشر: عادة المجادلة تحريك النفوس بالغضب والشحناء، وحملها على الاختلاف والاعتداء، فيختل توازن العقل، ويهتز ضبط الفكر مما يجعل الإنسان عيا في المناظرة، مترقباً للانكسار في كل لحظة، ولهذا يقول النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1].

لكن القرآن الكريم في مجادلاته كلها، سواء المجادلة التي تكون على لسان ولي من أولياء الله (تعالى): ملكاً كان أو نبياً أو أحد عباد الله الصالحين، أو تلك التي يتولى الله (تعالى) فيها مجادلة الخصوم وإلزامهم بالحجة الدامغة، بريء من العوامل التي تؤدي إلى تشويش الفكر واهتزاز العقل مما يؤدي إلى ضعف المناظر، وحمله على الاختلاق والاعتداء. فالله (تعالى) هو الذي يؤيد أولياءه بالقول الثابت، وينصرهم بالحق الراسخ، ويثبت قلوبهم، ويشرح صدورهم، فتنطق ألسنتهم بالحجة الدامغة، والمحجة الواضحة. قال (تعالى) في حق نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [سورة النجم: ٣-٤] وقال (تعالى): ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [سورة غافر: ٥١] ومِنْ نصرهم تثبيت قلوبهم، وتأييدهم، وتقوية حجتهم، وإظهارهم على من خالفهم.

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢٠١٤ كتاب البر والصلة ـ باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ... ح: ٢٦٠٩.

أما إذا كان أحد طرفي المناظرة هو الله (تعالى) فكفى بالله شهيداً، وكفى به وكيلاً، وكفى به حسيباً: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سورة غافر: ١٩] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٢٢] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: ٨٧]، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[سورة الأحزاب: ٦٢]، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: ٤٣]، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة غافر: ٨٥].

المبحث الثاني
أساليب الجـــدل القرآني

إن القرآن الكريم خاطب الناس كل الناس في الأرض كل الأرض، على مختلف معتقداتهم، ومذاهبهم الدينية، ومستوياتهم العقلية، فهو حجة الله (تعالى) على العالمين، وهو كذلك الرسالة الخاتمة والخالدة إلى قيام الساعة، فلهذا كان لجدله أساليب شتى تناسب أوضاع الناس المختلفة؛ باختلاف الزمان، والمكان، والمذهب الديني والعقلي. وقد عدد بعض أهل العلم ضروباً من أساليب الجدل القرآني، أختار نماذج منها في هذا المبحث:

١- **قياس الخُلْف**[(١)] : وهو إثبات الأمر بإبطال نقيضه، وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ كالمقابلة بين الحياة والموت، والوجود والعدم، ونحو ذلك. فدليل الخلف أن يُبطل النقيض ليثبت الحق، وقياس الخلف في القرآن: إبطال الباطل الذي هو نقيض الحق لإثبات الحق؛ كالاستدلال على التوحيد بإبطال الشرك. كما في قوله (تعالى): ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة المومنون: ٩١]. فإذا ثبت بالحسّ أن الكوْن في غاية إتقان الصنعة، وإحكام النظام دلَّ هذا على أن

---

(١) انظر : المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص : ٣٧٦-٣٧٧ ، ومناهج الجدل ــ الألمعي ص : ٧١-٧٢ .

خالقه واحد لا شريك له، لا معاونةً ولا منازعةً، وهو ما يسمَّى بدليل التمانع في الخلق والإيجاد؛ أي إذا امتنع بالحسِّ اختلال نظام الكون، وثبت بالحسِّ دقة صنعه، امتنع أن يكون له أكثر من خالق. ويماثل هذا دليل آخر وهو قوله (تعالى): ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢]. فإذا كان الدليل الأول دليل الامتناع في الخلق والإيجاد، فهذا دليل الامتناع في العبادة والقصد؛ وذلك أنه لا صلاح لأمر السموات والأرض إلا بأن يكون المعبود فيهما واحداً وهو الله (تعالى)[١].

ومن قياس الخلف إثبات أن القرآن من عند الله (تعالى) بإبطال أن يكون من عند غيره، وذلك لانتفاء الاختلاف عنه؛ كما في قوله (تعالى): ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢] فإذا ثبت أنه لا اختلاف فيه ولا تضارب ولا تناقض، بطل أن يكون من عند غير الله (تعالى)، فلزم أن يكون من عنده سبحانه وعزَّ شأنه[٢].

٢- **السبر والتقسيم**[٣]: وهو أن تذكر أقسام موضوع المجادلة، ويبين المجادل أنه ليس في أحد هذه الأقسام خاصية تُسوِّغ قبول دعوى الخصم فيه، فتبطل دعواه. ومن أمثلته في القرآن الكريم ما ذكره

---

(١) انظر : شرح الطحاوية ٣٩/١-٤٠ .

(٢) المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص : ٣٧٧ .

(٣) المعجزة الكبرى : ص : ٣٧٨ ، ومناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٦٨ .

السيوطي رحمه الله من قوله (تعالى) :﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٣- ١٤٤] قال السيوطي رحمه الله: «فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة، وإناثها أخرى ردَّ (تعالى) ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم، فقال: إن الخلق لله (تعالى) خلق من كل زوج مما ذكر: ذكراً وأنثى، فممَّ جاء تحريم ما ذكرتم، أي ما علته؟! لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدرى له علة، وهو التعبدي؛ بأن أخذ ذلك عن الله (تعالى)، والأخذ عن الله (تعالى) إما بوحي وإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها: والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً. والثاني: يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً. والثالث: يلزم عليه تحريم الصنفين معاً. فبطل ما فعلوه من تحريم بعضٍ في حالة، وبعضٍ في حالة؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل، ولم يدَّعوه، وبواسطة رسول كذلك؛ لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ، وإذا

بطل جميع ذلك ثبت المدَّعى، وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال»[(١)].

٣- قياس التمثيل[(٢)]: وهو أن يقيس المستدل الأمر الذي يدَّعيه على أمر معروف عند من يخاطبه، أو على أمر بدهي لا تنكره العقول وتُقر به الأفهام، ويبين الجهة الجامعة بينهما.

وكثير من أدلة البعث في القرآن تقوم على قياس التمثيل ومنه قياس الغائب على الشاهد بالمماثلة بينهما. من ذلك قوله (تعالى): ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس: ٧٨-٨١].

ومن ذلك أيضاً قوله (تعالى):﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/١٣٦-١٣٧ وانظر : معترك الأقران ١/٤٦٠-٤٦١.

(٢) انظر : المعجزة الكبرى ص : ٣٨٠ مناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٧٢ .

الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [سورة الحج ٥-٧].

٤- القول بالموجَب[١]: وهو رد كلام الخصم من فحوى كلامه ـ أي بموجَب كلامه ـ وقيل هو قسمان:

أحدهما: أن تقع صفة في كلام الخصم كناية عن شيء أثبت له حكم، فيثبتها لغير ذلك الشيء، كقوله (تعالى): ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المنافقون: ٨] فالأعزُّ وقعت في كلام المنافقين كنايةً عن فريقهم، والأذلُّ عن فريق المؤمنين، فأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فردَّ الله (تعالى) ذلك عليهم، بأن أثبت صفة العزة لغير فريقهم، يعني أنها ثابتة لله ورسوله والمؤمنين، فكأنَّه قيل: صحيح ذلك، ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ، لكنْ همُ الأذلُّ المخرَج، والله ورسوله والمؤمنون هم الأعزُّ المخرِج.

والثاني: حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه. قال السيوطي رحمه الله[٢]: «ولم أر من أورد له مثالاً من القرآن، وقد ظفرتُ بآية منه وهي قوله (تعالى): ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [سورة التوبة: ٦١]».

---

(١) انظر: معترك الأقران ١/٤٦١-٤٦٢، والإتقان في علوم القرآن ٢/١٣٧، واستخراج الجدل ص: ١١٥-١١٦.

(٢) الإتقان ٢/١٣٧.

٥- **التسليم**[(١)]: وهو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع ليكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلّم وقوع ذلك تسليماً جدلياً، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه. مثال ذلك: قوله (تعالى): ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ... ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١] المعنى ليس مع الله من إله، ولو سُلّم أن معه سبحانه إلهاً، لزم من ذلك التسليم ذهابُ كل إله بما خلق، وعلوٌّ بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله. والواقع خلاف ذلك، فوجود إلهين فصاعداً محال، لما يلزم منه المحال[(٢)]. وهذا النوع قريب من قياس الخلف المتقدم ذكره، إلا أنه ينفرد عنه بالتسليم الجدلي الوارد في الخيال لا في الواقع .

٦- **الانتقال**[(٣)]: وهو أن ينتقل المستدل إلى دليل آخر لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الدليل الأول، أو فهمها لكنه قصد المعاندة والمغالطة، فيأتيه المستدل بدليل آخر لا يملك أمامه إلا الإذعان أو الانقطاع. من أمثلة ذلك: ما جاء في مناظرة إبراهيم الخليل للذي حاجَّه في ربه؛ قال (تعالى): ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ

---

(١) انظر : الإتقان ـ السيوطي ١٣٧/٢ ومعترك الأقران ـ السيوطي ٤٦٢/١ .

(٢) انظر: معترك الأقران ٤٦٢/١، والإتقان ١٣٧/٢.

(٣) الإتقان ـ السيوطي ١٣٧/٢، معترك الأقران ـ السيوطي ٤٦٢/١-٤٦٣.

الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

قال ابن الحنبلي رحمه الله: «فلا يخلو حال نمرود إما أن يكون ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة، أو فهم إلا أنه قصد المصادمة والمباهتة، وكلاهما يوجب العدول إلى دليل يفضح معارضته ويقطع حجاجه، ومتى كان الخصم بهذه الصفة جاز لخصمه الانتقال إلى دليل آخر أقرب إلى الفهم، وأفلج للحجة».[1] وسيأتي بيان وجه القصة في موضع آخر .

٧- **المناقضة:** كما في قوله (تعالى): ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٣] معناه: أن العلة التي توجب ـ عندكم ـ الإيمان بالرسل قد وُجدت ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ فدلَّ على أن التعليل بما ذكرتم غير صحيح، وهذا النقض وارد على معنى كلامهم، فدلَّ على جواز إيراد ما يهدم كلام الخصم على أي وجه كان.[2]

ومن ذلك ـ أيضاً ـ قوله (تعالى) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا

---

(١) استخراج الجدل ص : ٦٧-٦٨.

(٢) انظر : استخراج الجدل ص : ١١٤.

بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [سورة القصص: ٤٨].

٨- مجاراة الخصم[١]: وذلك لتتبين عثرته بأن تُسلِّم له بعض مقدماته مع الإشارة إلى أنها لا تنتج ما يريده هو، بل هي مساعدة على إنتاج ما يريده المستدل. مثاله: قوله (تعالى): ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠-١١]. فقولهم: إن نحن إلا بشر مثلكم فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين على البشرية، فكأنَّهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، وليس هذا مرادهم، بل هو من مجاراة الخصم ليعثر، وذلك بتسليم دليله، لكن مع منع الدلالة، وذلك ببيان أن البشرية لا تنافي الرسالة؛ فكأنهم قالوا: ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره، ولكن هذا لا ينافي أن يمنَّ الله (تعالى) علينا بالرسالة. وكون الرسل بشراً هو سنة الله في خلقه، حيث يكون الرسول من جنس من أرسل إليهم، كما قال (تعالى) :﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٥-٩٦].

٩- إظهارتشهي الخصم وتحكمه[٢]: وهو أن لايكون للخصم حجة سوى مجرد التشهي والتحكم، فإن جاءه ما يوافق هواه قبله وإلا رده

---

(١) انظر : معترك الأقران ٤٦٣/١ ، والإتقان ١٣٧/٢ ، ومناهج الجدل ـ الألمعي ص :٧٧.

(٢) انظر : مناهج الجدل ص :٧٨.

ودفعه. مثال ذلك: قوله (تعالى): ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٧].

وقوله (تعالى): ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ. . . ﴾ [سورة البقرة: ٨٥] إذ الأخذ ببعض الكتاب موجب الأخذ بجميعه، فهو كله من عند الله، وما يكون من عند الله حق يجب الإيمان به جميعاً، فلا يجوز التفريق بين أجزائه في الإيمان والإذعان على عادة الذين جعلوا القرآن عضين.

قال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره للآيتين السابقتين: «فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء: التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان القول موافقاً لما تهواه وتشتهيه؛ إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم، لا جواب له عليهما البتة. فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات، إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى والشهوة، لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعاً له: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]»[١].

(١) بدائع الفوائد ٤/١٤٤ .

١٠- التحدي(١): وذلك إظهاراً لعجز الخصم، ولبيان أن ما يدعيه مجرد مكابرة ولدد، لا يملك عليه حجة ولا برهاناً، وظهر ذلك جلياً في معارضة المشركين للقرآن الكريم، ونسبتهم إياه إلى قول البشر، كما في قوله (تعالى): ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [سورة المدثر: ٢٥]، وقوله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٣] فتحداهم الله (تعالى) ـ وهم أرباب البلاغة وملوك البيان ـ أن يأتوا بمثله، إن كان القرآن ـ كما يدعون ـ من صنع البشر، بل جاء التنزل معهم في التحدي مبالغةً في أظهار عجزهم، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ثم بسورة واحدة من مثله، ثم تحدى الثقلين جميعا: الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٨].

فلما عجزوا عن الإتيان بمثله، أو بمثل بعضه ـ ومنهم أرباب البلاغة وملوك البيان ـ بطلت دعواهم أن القرآن من كلام البشر.

وقد يترقى الأمر إلى المباهلة لا سيما مع الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، مثال ذلك دعوة القرآن بعض النصارى إلى المباهلة في شأن عيسى ﷺ قال (تعالى): ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦١] فلم يفعلوا خوفا من الافتضاح والتعرض للعنة الماحقة.

(١) مناهج الجدل ص : ٨١-٨٣.

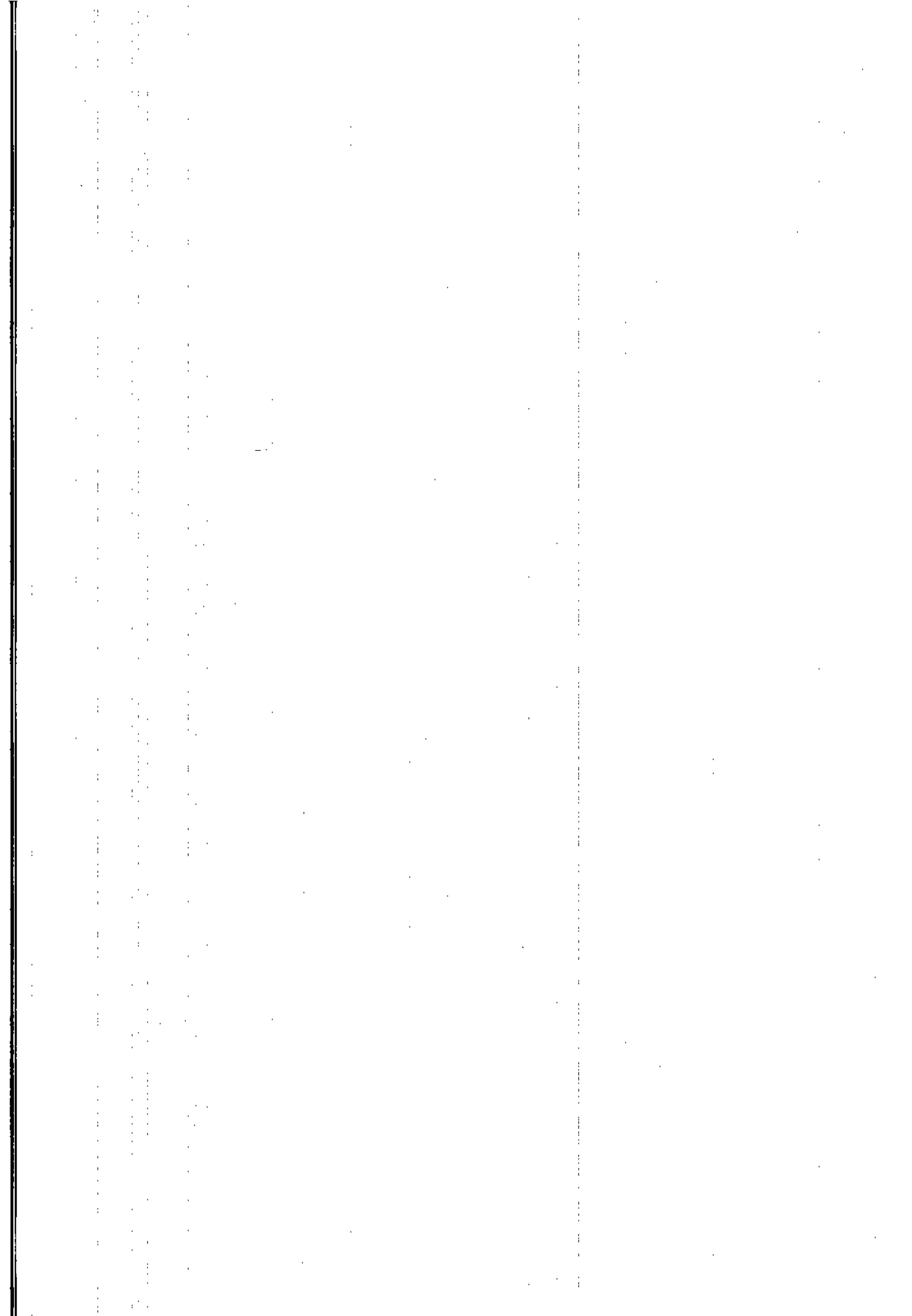
المبحث الثالث
الأصناف الذين وردت مجادلتهم في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: جدل القرآن مع المشركين

المطلب الثاني: جدل القرآن مع المنافقين

المطلب الثالث: جدل القرآن مع أهل الكتاب



المبحث الثالث

الأصناف الذين وردت مجادلتهم في القرآن الكريم

في هذا المبحث ذكر وبيان من تصدى لهم القرآن الكريم من أصناف المخالفين بالإنكار عليهم، ومجادلتهم، وتفنييد مزاعمهم، وإعلان فضائحهم، كل ذلك بغية هدايتهم واستجابتهم للحق، أو قطعهم وقمع حجتهم حمايةً للمؤمنين من شرِّهم، وذوداً عن جناب الحق بدحض مفترياتهم.

ولعلَّ أشهر من تصدى لهم القرآن الكريم بالمجادلة والإنكار عليهم هم: المشركون، والمنافقون، وأهل الكتاب. وسأذكر في هذا المبحث كل صنف على حده، مع بيان أهم وأبرز القضايا التي جادلهم فيها القرآن الكريم.

المطلب الأول
جـدل القرآن مع المشركين

وأهـم القضايا الـتي جـادل فيهـا القـرآن الكريـم المشـركين:التوحيـد والقدر والنبوات والبعـث، وسـأختار نمـاذج مـن القـرآن تبـين طريقتـه في معالجة هذه القضايا الكبرى.

القضية الأولى: تقرير توحيد الألوهية

المشرك هو مـن يقـر بوجـود الله (تعـالى) وربوبيتـه في الجملـة، وإنمـا ينازع في توحيد الله (تعالى)، وإفراده بالعبادة، وهذه هي الغاية التي أرسل الله من أجلها الرسل وأنـزل الكتـب: إفـراد الله (تعـالى) بالعبـادة؛ ولهـذا فالقرآن الكريم يجادل المشركين ويحاكمهم إلى هذا الإقرار العام ـ الإقـرار بوجود الله وبربوبيته ـ مبيناً لهم أن من لا يخلق ولا يرزق ونحو ذلـك مـن صفات الربوبية لا يستحق أن يكون إلهاً يعبد بأي نوع من أنواع العبـادة؛ كالدعاء والمحبة والخوف والرجاء وغـير ذلـك، فإمـا أن يعـود المشـرك إلى صوابه فيعبد الخالق الرازق، وإما أن يبقى في التناقض الذي هو لازم لكـل من عبد غير الله (تعالى). فالقرآن الكريم لم يتعرض لتقرير توحيد الربوبية إلا لبيان لازمه، وهو توحيد الإلهية.

والقرآن الكريم سلك في تقرير توحيد الإلهية (العبادة) وإبطال مزاعـم المشركين مسالك عدة منها:

١- محاصرة المشرك:

قال (تعالى): ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٨] إلى أن قال: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الطور: ٤٣].

ففي هذه الآيات من أنواع الدلالات ما يبطل دعاوى المشركين باتخاذهم الأنداد من دون الله (تعالى)، فمن ذلك:

أ- محاصرة المشرك بين قولين باطلين لا يستطيع أن يختار واحداً منهما، وهما: إما أن يكون الإنسان قد خُلق من غير خالق، أو أنه خَلَقَ نفسه وأوجدها، وكلا الأمرين ظاهر البطلان، لا يقول به عاقل يتصور ما يقول، فلم يبق إلا القول بأن الله هو الذي خلق الإنسان وخلق كل شيء.

وهذه الآية من أقوى الآيات في بيان توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد الألوهية ولهذا كان وقعها على المشركين كبيراً، كما روى البخاري في صحيحه[١] عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير». قال ابن كثير رحمه الله:

---

(١) ٦٠٣/٨ (فتح الباري) كتاب التفسير - ح :٤٨٥٤.

«وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك»[1].

ب- فلما ظهر بطلان خلقهم أنفسهم، فظهور بطلان خلقهم السموات والأرض - مع عظمها - من باب أولى، وكذلك بطلان تصرفهم في ملكوت الله (تعالى)[2].

ج- بيان أن المشركين ليست معهم حجة تصحح أفعالهم وأقوالهم، فليس معهم إلا الهوى واتباع الظن.

د- مطالبتهم بالإتيان بتوحيد الإلهية حيث إنه من لازم الإقرار بالربوبية، ولهذا قال (تعالى): ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الطور: ٤٣].

٢- الاستدلال بنظام الكون ودقة صنعه على أن مدبره واحد وهو الله (تعالى)، وعليه فلا ينبغي عبادة غيره معه. من ذلك:

أ- قوله (تعالى): ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣١ - ٣٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٤٥.

(٢) انظر : فتح الباري ٨/٦٠٣.

فبين لهم أن وجود أكثر من إله يؤدي إلى فساد العالم، وطالبهم بالدليل على صحة قولهم، وأنّى لهم مع مخالفته لما جاء به رسل الله (تعالى).

ب- وقال (تعالى): ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١-٩٢].

وهذه الآية حجة لدليل التمانع الذي يقرره المتكلمون[1] ويستدلون له خطأ بقوله (تعالى): ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢] ودليل التمانع هو: أنه لو فُرض وجود صانعين متكافئين في الصفات وفي الأفعال، فعند اختلاف إرادتهما، كأن يريد أحدهما تحريك جسم ويريد الآخر سكونه، فإما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو جمع بين النقيضين، وهو باطل، وإما أن لا يحصل مراد واحد منهما، وهو رفع للنقيضين، وهو ـ أيضاً ـ باطل مع نسبة العجز لكل واحد منهما، وإما أن يحصل مراد واحد منهما دون الآخر فيكون هو الرب الحق،

---

(١) انظر دليل التمانع عند الباقلاني في كتابه : التمهيد ص: ٤٦، وكتابه الإنصاف ص: ٣٤، وانظر مناقشة ابن رشد لهذا الدليل في كتابه : مناهج الأدلة ص : ١٥٥ وما بعدها. ومناقشة ابن تيمية لكلام ابن رشد في كتابه : درء التعارض ٩/٣٣٦ وما بعدها . ومما جاء أثناء كلامه وصفه دليل التمانع بأنه برهان صحيح عقلي كما قرره فحول النظار . انظر: الدرء ٩/٣٥٤-٣٥٥ ، وانظر : حز الغلاصم ص: ٣١ ، والداعي إلى الإسلام ص: ٢٢٣-٢٢٦ .

والآخر عاجزاً لا يصلح للربوبية. ونظام الكون ودقة صنعه يدل على أن خالقه ومدبره واحد لا شريك له وهو الله (تعالى).

ج- وقال (تعالى): ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الاسراء: ٤٢-٤٣]. فالمعنى: أنه على فرض وجود آلهة مع الله (تعالى) - كما يزعم المشركون - فهذه الآلهة تعبد الإله الحق وتتقرب إليه وتبتغي إليه الوسيلة والقربى، فإذا كان هذا شأن آلهتكم التي تعبدونها، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونهم من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه[1] كما قال (تعالى): ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦].

ومما يلفت الانتباه وجود لفظة " سبحان " في الآيات الثلاث المتقدمة، ومعناها التنزيه، وذلك إظهاراً لشناعة دعوى المشركين، وعظم افترائهم على الله (تعالى).

٣- بيان نعم الله وآلائه على خلقه وآثار قدرته التي لا يملكون ردها ولا إنكارها، وهو يسفه عقول المشركين وطريقة تفكيرهم التي لا تقودهم - مع ظهور الآيات الدالة على عظمة الخالق - إلى الإيمان بالله (تعالى) والاستجابة لرسله، ويطالبهم بالبرهان على صحة ما يدعونه وأنّى لهم.

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤١/٣.

من ذلك قولـــه (تعالى): ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

[سورة النمل: ٥٩-٦٤].

فها هي نعم الله تعالى تترا على خلقه وعباده، وها هي آياته في الأنفس والكون ظاهرة لكل ذي بصر، فهل هناك أحد يستحق ـ مع هذا كله ـ العبادة سواه ؟! **أإله مع الله، أإله مع الله، أإله مع الله!!**

٤- تقرير المشركين بتوحيد الربوبية ثم مطالبتهم بلازمه وهو توحيد الإلهية، وإلا وقعوا في التناقض الذي هو دليل سفاهة عقولهم وسذاجة تفكيرهم.

قال الله (تعالى): ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٤- ٩٠].

وقال (تعالى): ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة يونس: ٣١-٣٦].

فواضح جداً أن تفريقهم بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية باطل، بل ظاهر البطلان في العقل وفي الشرع، وأنه ليس معهم إلا التكذيب، ومتابعة الظنون التي لا تغني من الحق شيئاً.

ومن الآيات ـ أيضاً ـ التي في هذا المعنى قوله (تعالى): ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦١]. وقال (تعالى): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٣] وقال (تعالى): ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٨٧].

ولهذا يدعوهم الله (تعالى) إلى عبادته وحده لا شريك معه، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٠١-١٠٢].

٥- بيان عجز آلهة المشركين مما يبين بطلان ما يُدَّعى لها من الألوهية، ولذلك أمثلة كثيرة في القرآن، أختار منها:

أ- قال (تعالى): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ٤-٦]. والآية الأخيرة مثل قوله (تعالى): ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [سورة مريم: ٨١-٨٢]، وكقوله (تعالى): ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [سورة يونس: ٢٨-٢٩].

ب- وقال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج: ٧٣-٧٤]. وفي صحيح البخاري[(١)] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا

---

(١) ١٣/٥٢٨ (فتح الباري) كتاب التوحيد ـ باب قول الله: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [سورة الصافات]... ح: ٧٥٥٩.

حبة، أو شعيرة» وفي رواية في مسند الإمام أحمد[1]: «فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة أو حبة». وقال السُّدي في قوله: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ كانوا يجعلون للأصنام طعاماً فيقع عليه الذباب فيأكله.[2] وقوله (تعالى): ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب، وقيل الطالب: عابد الصنم، والمطلوب: الصنم. ورجح ابن جرير رحمه الله الأول، ثم قال: «وإنما أخبر جل ثناؤه عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها تقريعاً منه بذلك عبدتها من مشركي قريش؛ يقول (تعالى) ذكره: كيف يُجعل لي مثل في العبادة، ويُشرك فيها معي مالا قدرة له على خلق ذباب، وإن أخذله الذباب فسلبه شيئاً عليه لم يقدر أن يمتنع منه ولا ينتصر، وأنا خالق ما في السموات والأرض، ومالك جميع ذلك... إن فاعل ذلك لا شك أنه في غاية الجهل»[3].

ج- وقال (تعالى): ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ

(١) ٣٩١/٢.
(٢) تفسير القرطبي ٩٧/١٢.
(٣) تفسير الطبري ١٤١/١٧ ط. دار المعرفة .

يُنصَرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٩-١٩٨].

فبيَّن سبحانه في هذه الآيات أن آلهة المشركين لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة مربوبة، وأنها لا تنصر عابديها، بل لا تنصر نفسها إن أصابها سوء، وأنها لا تسمع دعاء من يدعوها ولا تراه، فضلاً عن أن تستجيب له.

ومن الآيات التي تبيِّن عجز آلهة المشركين قوله (تعالى): ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة الزمر: ٣٨]، وقوله (تعالى): ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ١٧] وقوله (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة النحل: ٢٠-٢١] وقوله (تعالى): ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة لقمان:١١] إلى غير ذلك من الآيات.

٦-إبطال ما عليه المشركون بالأمثال: ولذلك نماذج كثيرة، منها:

أ- قوله (تعالى): ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الروم: ٢٨]. فهذا مثل ضربه الله (تعالى) للمشركين العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له كما كانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فضرب لهم هذا المثل من أنفسهم: يشهدونه ويفهمونه، وهو أنه هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء، فما دام أنه لا يرضى ذلك، بل يأنف أن يشاركه عبده ماله، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه وعبيده، وتعتقدون فيهم أنهم شركاء لله مع أنهم من خلقه وعبيده، تعتقدون فيهم أنهم شركاء لله مع أنهم مخلوقون مربوبون له، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً[(١)].

ب-وقال (تعالى): ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الزمر: ٢٩]. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص[(٢)]، وهو: هل يستوي العبد الذي يكون لأكثر من سيد يتنازعون فيه مع العبد الواحد لسيد واحد، وعليه فكيف يستوي المشرك الذي يعبد أكثر من إله: ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ . . .﴾[سورة الأنعام:

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٤١٦.

(٢) المرجع السابق ٤/٥٣.

[٧١]. مع المخلص الذي لا يعبد إلا الله (تعالى) لا شريك له، فأين هذا من هذا؟ ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً. قال:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

٧–بيان أن آلهة المشركين مع عابديها في النار، فلو كانوا آلهة حقيقة ما دخلوها. قال (تعالى): ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨-١٠٣]. فالله (تعالى) بيَّن أن دخول آلهة المشركين النار ينفي عنها الإلهية المزعومة لها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «جاء عبدالله بن الزِّبَعْرِي إلى النبي ﷺ فقال: أتزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ فقال ابن الزبعري: قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا، فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧-٥٨] ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾». وروي عن ابن عباس أن المشركين هم الذين قالوا هذه المقالة[2].

(١) انظر : المرجع السابق ٤/٥٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/١٩٣ .

القضية الثانية: دعوى المشركين نسبة الولد إلى ا لله (تعالى):

وهي أن الملائكة - في زعمهم - إناث، وهم بنات ا لله، تعالى ا لله عما يقولون علواً كبيراً، وقد أبطل ا لله (تعالى) هذه الفرية من عدة وجوه، وفي مواضع شتى من القرآن الكريم، أذكر نماذج منها مراعياً ترتيبها في المصحف، ثم أردفها باستخراج الحجج الربانية التي تضمنتها هذه الآيات:

قال (تعالى) في سورة النحل: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[النحل: ٥٧-٥٩] ثم قال بعدها بقليل ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

وقال (تعالى):﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.[الإسراء: ٤٠].

وقال (تعالى) في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.[مريم: ٨٨-٩٥]

وقال (تعالى): ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[الصافات: ١٤٩-١٦٠].

وقال (تعالى): ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[الزخرف: ١٥-١٩]

وقال (تعالى): ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى* إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[النجم: ١٩-٢٨].

بيان الحُجج الربانية التي تضمنتها الآيات السابقة:

أذكر هنا ما تيسر لي الوقوف عليه من الحجج التي أبطل الله بها دعوى المشركين نسبة الولد إلى الله (تعالى) :

١- إن الملائكة عباد لله (تعالى) يدخلون تحت ربوبيته، ويدينون له بالعبادة، كما في قوله (تعالى): ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [سورة الزخرف: ١٥] وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [سورة الزخرف: ١٩] ،

وقوله (تعالى): ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [سورة النجم: ٢٦] وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٥٨] قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله (تعالى) فقال أبوبكر ﷺ: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا ذكر قتادة وابن زيد[١].

وقوله ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ قيل: إن الجن ستحضر للحساب. قال مجاهد، وقيل: إن قائلي هذا القول سيحضرون العذاب في النار. قاله السُّدي ورجحه الطبري رحمهما الله[٢].

٢- أن المشركين يختارون لأنفسهم ما يشتهونه، ثم يتحكمون في اختيار الله (تعالى)، فيجعلون له ما يتأففون عنه. قال (تعالى): ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سورة النحل: ٥٧] ولهذا قال (تعالى) في الآيات التي بعدها ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[سورة النحل: ٥٩]، وقال في سورة الصافات: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، وقال في سورة النجم: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.

٣- أن فعلهم هذا يدور بين أمرين:

أحدهما: أنهم تحكموا في الاختيار، فجعلوا لأنفسهم ما يشتهون وجعلوا لله (تعالى) أدنى القسمين وقد تقدم بطلانه.

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٦٩/٢٣ ط دار المعرفة، وتفسير ابن كثير ٢٤/٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٦٩/٢٣ ط دار المعرفة .

الثاني: أن الله (تعالى) اختار لنفسه أدنى القسمين وأصفاهم بالبنين، وبطلانه أظهر من الأول؛ لأنه يقتضي أن الله فضل خلقه عليه، والعلم بأن الله أفضل من خلقه في كل شيء ضروري عليه دلائل الكتاب والسنة والعقل الصريح. قال (تعالى): ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الإسراء: ٤٠]، وقال: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [سورة الصفات: ١٥٣-١٥٤]، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [سورة الزخرف: ١٦].

٤- ليس كل ما يتمناه المرء هو لاقيه، بل لله الأمر من قبل ومن بعد. قال (تعالى): ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [سورة النجم: ٢٤-٢٥].

٥- أنهم جعلوا لله (تعالى) أدنى القسمين مع أنهم لا يرضونه لأنفسهم، بل إذا ابتلي أحدهم بالبنت كان بين أمرين: إما أن يئدها حيةً، وإما أن تبقى عنده مهانة ذليلة، فكيف يجعلون لله (تعالى) ما يكرهون. قال (تعالى): ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(٥٨)يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة النحل: ٥٨-٥٩] ، ثم قال بعدها: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾[سورة النحل: ٦٢] ، وقال (تعالى): ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

[سورة الزخرف: ١٧].

ثم إن المرأة ناقصة ولهذا تكمل نقصانها بلبس الحلي، وإذا خاصمت كانت ضعيفة المنطق والحجة قال (تعالى) بعد الآية التي سبقت: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الزخرف: ١٨].

٦- بيان أنه لا ينبغي أن يكون لله (تعالى) ولد؛ لأنه الأحد الذي لم يلد ولم يولد، بل ما في السموات وما في الأرض خلقه وعبيده. قال (تعالى): ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [سورة مريم: ٩٢-٩٥]. وقال (تعالى): ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [سورة النجم: ٢٥-٢٦].

٧- أن هذه الدعوى لا يملكون عليها برهاناً ولا دليلاً؛ لا حسياً ولا عقلياً ولا نقلياً، بل محض الكذب والافتراء، ومتابعة الهوى والظن. قال (تعالى): ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٥٠-١٥٢] ثم قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٥٥-١٥٧] ، وقال (تعالى): ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [سورة الزخرف: ١٩]، وقال (تعالى): ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ [سورة النجم: ٢٣-٢٤] ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [سورة النجم: ٢٨].

وقال (تعالى): ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ [سورة النحل: ٦٢] وقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٥١-١٥٢].

٨- أن دعواهم هذه إفك عظيم وقول بَشِع كما قال (تعالى): ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٠] وقال: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [سورة مريم: ٩١].

٩- تنزيه الله (تعالى) عن هذه الفرية العظيمة؛ قال (تعالى): ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ [سورة النحل: ٥٧] وقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الصفات: ١٥٩-١٦٠] أي أن عباد الله المخلصين ينزهونه ـ أيضاً ـ عن هذه الفرية.

القضية الثالثة: احتجاج المشركين على أفعالهم بالقدر:

قال (تعالى): ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[سورة الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

فتعلق المشركين بالقدر باطل من عدة وجوه تبينها هذه الآيات:

١- أن هذا تكذيب لدعوة الرسل.

٢- أنها الحجة نفسها التي تعلق بها السابقون فما منعت لحوق بأس الله بهم من النكال والعذاب، فلو كانت حجة صحيحة، لحالت بينهم وبين عقاب الله (تعالى).

٣- ليس معهم علم صحيح؛ لا نقلي ولا عقلي يؤيد هذه الحجة الواهية، كما قال (تعالى): ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٠-٢١]. وقال (تعالى): ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾[سورة الروم: ٣٥].

٤- أن ذلك متابعة منهم للظنون الفاسدة.

٥- أنه مجرد تخرص منهم، أي كذب على الله (تعالى) ومحض افتراء، وكون الشرك واقعاً بمشيئة الله لا يدل على رضاء الله به، فليس كل ما هو واقع كوناً وقدراً يكون من محبوبات الله تعالى.

٦- لله الحجة البالغة والحكمة التامة في هداية من هدى وإضلال من أضل، وحجة الله على خلقه شرعُه ودينُه ورسلُه، وقد قامت وظهرت.

٧- أن هدايتهم بقدرته تعالى ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، ويأمر بالإيمان ويرضاه، وينهى عن الكفر ولا يرضاه. كما قال (تعالى): ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [سورة الزمر: ٧].

وقال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [سورة النحل: ٣٥-٣٧].

فهنا ـ أيضاً ـ يتعلق المشركون بالقدر ويحتجون به على أفعالهم الفاسدة من الشرك وغيره، فيرد الله عليهم هذه الحجة بأنواع من الحجج الدامغة منها:

١- أن حجة الله على خلقه في إرساله الرسل كما قال (تعالى): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥] فلا عذر لأحد في فعل محرم أو ترك واجب بعد البلاغ من الله ورسوله.

٢- أن كل رسول دعا إلى عبادة الله وتوحيده، ونبذ الشرك والكفر بالطاغوت كما قال (تعالى): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥].

٣- أن هداية الله (تعالى) لبعض خلقه أو إضلالهم تابع لمشيئته وإرادته، وهو مقتضى حكمته وعدله وفضله،أما الحجة على الخلق فبالشرع لا غير: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

٤- أن سنة ا لله في المكذبين عقابهم وهلاكهم، مما يدل على أن أعمالهم غير مرضية لله (تعالى) .

٥- أن الهداية بيد ا لله وحده، ومن أضله ا لله لا أحد يهديه، كما قال (تعالى): ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[سورة الأعراف: ١٨٦].

القضية الرابعة: الاعتراض على شخصية الرسول ﷺ:

وذلك من عدة جهات كلها تدل على عنادهم واستكبارهم، فتارة يعترضون ببشرية الرسول، وتارة يعترضون على تخصيص محمد بن عبد ا لله بالرسالة، فيقولون هل كان غيره؛ من مكة أو الطائف. وتارة يقترحون نزول مَلَك معه، أو أن يأتيهم بآيات حسية تشهد بصحة رسالته.

أولاً: اعتراض المشركين ببشرية الرسول ﷺ:

أما الاعتراض على الرسل بأنهم بشر فقد حكاه ا لله عن سائر الأمم المكذبين بالرسل؛ كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠-١١] .

وقال (تعالى) : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٤]. فردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾[سورة الإسراء: ٩٥] فهذا من لطف الله (تعالى) ورحمته بعباده أن أرسل إليهم الرسول من جنسهم وبلسانهم ليفقهوا عنه، ويفهموا منه؛ لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، كما قال (تعالى): ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٤] (١).

بل ذهب المشركون إلى أبعد من ذلك، فنفوا أن يكون الله (تعالى) أنزل على بشر من شيء؛ قال (تعالى): ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩١-٩٢].

وفي هذه الآيات أنواع عدة من الردود، منها:

أ- أن السلب العام، وهو قولهم: ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ مُنتَقض بإثبات قضية جزئية موجبة، وهي إنزال التوراة على موسى، وهم

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٦٣.

يعترفون بذلك، بدليل أنهم يجعلونه قراطيس أي قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم، ويحرفون منها ما يحرفون.

ولعل هذه الآية ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ..... ﴾ هي حجة من قال: إن الآية نزلت في طائفة من اليهود، لكن الصحيح -وهو اختيار ابن جرير[(١)] وابن كثير[(٢)] وهو، قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما- أنها نزلت في قريش؛ لأن الآية مكية؛ ولأن اليهود لا ينكرون إنزال جنس الكتاب من السماء، أما قريش والعرب فهم الذين كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ ؛ بحجة أنه من البشر[(٣)].

ب- قوله (تعالى): ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُم ﴾ أي: ومن أنزل القرآن الذي علّمكم الله فيه خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي، مالم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا آباؤكم[(٤)]. فهي دليل على أن القرآن من عند الله، وأنه منزّل من عنده (تعالى) على محمد ﷺ، فما كان له أن يخبر عن هذه الأمور من تلقاء نفسه.

ج- قوله (تعالى) : ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ أي أن الذي أنزله هو الله (تعالى).

د- قوله (تعالى): ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ تأكيد على أن القرآن من عند الله (تعالى).

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٥٢٤/١١ ط. شاكر .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٤٨/٢ .

(٣) انظر : المرجع ١٤٨/٢.

(٤) انظر : المرجع السابق ١٤٨/٢.

هـ- قوله (تعالى): ﴿ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مما يدل على كونه من عند الله أنه يصدق ما جاء في الكتب المتقدمة عليه في زمن النزول كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

و- أن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بهذه الحقيقة وبكل ما أخبر الله به ورسوله، لكن المشركين لا يؤمنون بالآخرة فلا يؤمنون بإنزال الكتاب من عند الله (تعالى).

والرسول ﷺ أمر أن يؤكد حقيقة بشريته، وكونه بشراً لا ينفي عنه الرسالة والنبوة، كما قال (تعالى): ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [سورة الكهف: ١١٠]. بل كل رسل الله إلى البشر من جنس البشر كما قال (تعالى): ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠-١١].

ففي هذه الآيات اعتراضان للمكذبين لدعوة الرسل؛ أحدهما: كون الرسل بشراً. والثاني: طلبهم أمراً خارقاً للعادة يدل على صحة رسالتهم.

وقد أبطل الله الاعتراضين بحجتين ساقهما على ألسنة رسله: الأولى: تأكيد أن الرسل بشر، لكن هذا لا يمنع من إرسالهم رسلاً إلى بشر مثلهم. الثانية: أن السلطان إنما يكون بإذن الله، كالرسالة تماما، فالرسالة بإذن الله، وكذا السلطان إنما يكون بإذن الله (تعالى).

ثانياً: الاعتراض على صاحب الرسالة بأنه يحتاج في أمر الدنيا كسائر الناس مما يقدح - في زعمهم - في دعوى صلته با لله (تعالى).

قال (تعالى) في حكاية اعتراضهم: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٧-٨].

فتعللوا في دعواهم بحاجة الرسول ﷺ إلى الطعام والسعي طلباً للتكسب، فلو كان رسولاً لأنزل ا لله معه ملكاً يشهد بصدقه، أو يغنيه ا لله عن هذا الاحتياج بكنز ينفق منه، أو جنة تسير معه ليأكل منها[(١)].

فرد ا لله دعواهم بقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٩-١١]. ثم قال بعدها بآيات: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [سورة الفرقان: ٢٠].

فجاء الرد في ثلاثة مقامات:

الأول: أن ما قالوه مجرد محاولة يائسة منهم ليتوصلوا بها إلى الطعن في النبوة والرسالة وما هم بمستطيعين، فمقام النبوة والرسالة أجل

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٣٠٠.

من أن يطالهما أحد.

الثاني: أن الله (جلَّ شأنه) قادر على فعل ما ذكروه ـ إن كان مفيداً ـ وأعظم، لكنه يخلق ما يشاء ويختار.

الثالث:أن السعي في طلب الرزق وأكل الطعام هو سيرة الأنبياء جميعاً، فما كان رسول الله ﷺ بدعاً من الرسل، ثم إن ذلك لا يخالف قضية الرسالة.

ثالثاً: اعتراضهم على تعيين محمد ﷺ بالرسالة:

وذلك فيما حكى الله عنهم بقوله:﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزخرف: ٣١]. أرادوا بالقريتين: مكة والطائف، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقال غير واحد: إنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي؛ الأول من مكة، والثاني من الطائف[1]. فرد الله (تعالى) مقالتهم واعتراضهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٣٢]. أي أن النبوة والرسالة ليس الأمر فيها إليهم، بل إلى الله (تعالى)، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه (تعالى) يختار لها من هو أزكى الناس قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً، ثم بين سبحانه لهم أن الذي فاوت بينهم في الأرزاق والمعايش فاوت بينهم في الحظوظ[2]. والنبوة من أعظم

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٩/٤ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/٤.

الحظوظ ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة: ١٠٥].

ثم إن السعة في الدنيا والبسط في الرزق لا يدلان على إكرام الله (تعالى)، كما أن التقتير فيهما لا يدل على إهانة الله (تعالى) كما قال (تعالى): ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾ [سورة الفجر: ١٥-١٧] أي ليس الأمر كما زعمتم، لا في هذا ولا في هذا(١). قال قتادة رحمه الله: «تلقاه ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيي اللسان، وهو مبسوط له، وتلقاه شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مقتّر عليه»(٢).

ولهذا قال (تعالى) بعد آيات الزخرف المتقدمة: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف: ٣٣-٣٥].

ومن أقوال المشركين التي في معنى الاعتراض على نبوة محمد ﷺ ما حكاه الله عنهم: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤] أي: لن نؤمن حتى نكون أنبياء، فنؤتى مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات، ونظيرها قوله (تعالى): ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ [سورة المدثر: ٥٢]؛ ولهذا قال الوليد بن المغيرة للنبي ﷺ: لو

---

(١) انظر : تفسير كثير ٤/٥١٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/٨٣.

كانت النبوة حقاً لكنتُ أولى بها منك؛ لأني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً. وقال أبو جهل: وا لله لا نرضى به ولانتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه. فنزلت الآية. فرد ا لله عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤] أي أن ا لله (تعالى) أعلم بمن هو أهل لرسالته.[1] فأمر الرسالة والنبوة متروك لأمر ا لله وعلمه وحكمته.

رابعاً: مطالبتهم الرسولَ ﷺ بالآيات تعجيزاً له على حد زعمهم:

قال (تعالى): ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٠-٩٣].

هذا كله من باب التعنت والعناد؛ ولهذا جاء الجواب بتنزيه ا لله (تعالى) عن أن يعجزه شيء، أو أن يُعترض عليه في فعل شيء، وقيل: هذا تعجب من فرط كفرهم واقتراحاتهم. ثم أثبت النبي ﷺ لنفسه البشرية العاجزة والرسالة المتَّبعَة، فهو ببشريته لا يستطيع إجابتهم إلى ما طلبوا، وبرسالته إنما يتبع ما يوحى إليه، وليس له أن يتخير على ربه سبحانه، فكان أبلغ جواب وأقطعه لعنادهم واستكبارهم[2]؛ ولهذا قال (تعالى)

---

(١) انظر : المرجع السابق ٧/٧٩-٨٠.

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١٠/٣٣١.

في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٢١] .

وقال (تعالى) في الرد على طلبهم نزول الكتاب والملائكة في: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٧-٩].

فموقفهم ليس موقف المسترشد الطالب للحق، بل موقف المتعنت المستكبر، وإلا فالقرآن من أعظم الآيات التي نزلت حيث أعجز بلغاءهم وأخرس فصحاءهم؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ* لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [سورة الحجر: ١٤-١٥]. ثم أخبرهم (تعالى) في موضع آخر أن الإيمان محض مِنّته وفضله، وليس موقوفاً على ظهور الآيات؛ كما قال (تعالى): ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٩-١١١].

أما طلبهم نزول الملائكة، فهم لا يستطيعون رؤية الملك على صورته، فلو جاءهم على صورته لما أَنِسُوا به ولداخلهم من الرعب من كلامه

ومعاشرته ما يكفُّهم عن الانتفاع به، ولو جاءهم على صورة بشر لقالوا له: لست ملكاً، وإنما أنت بشر[١]. فعاد الاعتراض جذعاً، وقال (تعالى): ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٥] وربما اعترضوا ـ بعد إيمانهم ـ بأنهم ليسوا في هيئته فلا يطيقون من الأعمال ما تطيقه الملائكة؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

ثم إن نزول الملائكة مؤذن بالهلاك؛ لأنه جرت سنة الله (تعالى) بأن من طلب آية فأُظهرت له فلم يؤمن أهلكه الله (تعالى) في الحال، كما قال (تعالى): ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[سورة الأنعام: ٨][٢].

أو أن نزول الملائكة مؤذن بقيام الساعة حيث لا توبة ولا رجوع، كما قال (تعالى): ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٢]. قال ابن كثير رحمه الله: «أي هم لا يرون الملائكة في يومٍ هو خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار، ويَصْدُق على يوم القيامة حين تخبرهم بالخيبة والخسران ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي: وتقول الملائكة للكافرين: حرام عليكم الفلاح اليوم»[٣].

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٦/٣٩٣-٣٩٤.

(٢) انظر : المرجع السابق ٦/٣٩٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٣. بتصرف .

القضية الخامسة: إنكار نسبة القرآن إلى الله (تعالى):

اضطربت عبارات المشركين في وصف القرآن الكريم تشكيكاً منهم في إضافته إلى الله عز وجل، وتشكيكاً منهم - أيضاً - في كون محمد ﷺ رسول الله (تعالى). فتارة يصفون القرآن بأنه إفك مفترى، وتارة يصفونه بأنه أساطير الأولين، وتارة يضيفونه إلى النبي ﷺ باعتباره - بزعمهم - شاعراً، أو مجنوناً أو ساحراً أوكاهناً، وغير ذلك من العبارات التي تدل على محاولاتهم اليائسة لتكذيب القرآن ومن أنزل عليه. وهذا الاضطراب والاختلاف في العبارات وعدم اتفاق كلمتهم على تهمة واحدة دليل افترائهم وجحودهم للحق الذي بان لهم، وعجزوا عن معارضته والإتيان بمثله، أو رده بطريق علمي لهم معتبر. قال (تعالى): ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٣]، وقال (تعالى) مخاطباً الكفار: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٨-١٠].

وسأعرض هنا نماذج لجدل القرآن الكريم مع المشركين في هذه القضية، وكيفية رد القرآن لمفترياتهم وأكاذيبهم.

١-دعوى المشركين أن القرآن إفك مفترى:

قال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٤]. يقول ابن كثير رحمه الله: «أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٩٩ .

ويقرر الفخر الرازي رحمه الله أن هذا القدر يكفي جواباً على هذه الفرية المذكورة؛ لأنه قد علم كل عاقل أنه عليه الصلاة والسلام تحداهم بالقرآن، وهم في النهاية في الفصاحة والبيان مع شدة حرصهم على إبطال أمره، فلو أمكنهم أن يعارضوه لفعلوا، ولكان ذلك أقرب إلى بلوغ مرادهم فيه، مما أوردوه في هذه الآية وفي غيرها، ولو استعان محمد ﷺ في ذلك بغيره لأمكنهم الاستعانة بغيرهم، فمحمد ﷺ كأولئك المنكرين في اللغة والمكنة والاستعانة، فلما لم يفعلوا ذلك ـ مع حرصهم على إبطال أمره ـ عُلِم أن هذا القرآن قد بلغ النهاية في الفصاحة وانتهى إلى حد الإعجاز، فهو من عند الله (تعالى)[1].

وقد تحداهم الله (تعالى) ـ إن كان القرآن مفترى من قبل محمد ﷺ ـ أن يأتوا بمثله في الافتراء، كما قال (تعالى): ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[سورة هود: ١٣]. فدعاهم إلى المعارضة بمثله، بل والاستعانة بغيرهم على ذلك، ولو كان من الجن الذي ينسبون إليه هذا القرآن أحياناً؛ ولهذا قال (تعالى) في موضع آخر: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٨] . فإذا بان عجزهم، وظهر انقطاعهم: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مسلمون﴾ [سورة هود: ١٤].

---

(١) انظر : التفسير الكبير ـ الرازي ٢٤/٥٠ .

وقال (تعالى): ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأحقاف:٧- ١٢].

فاتهام القرآن بالافتراء افتراء رده الله (تعالى) في هذه الآيات من عدة وجوه:

أحدها: قوله (تعالى): ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبتُ عليه وزعمتُ أنه أرسلني - وليس كذلك - لعاقبني أشدَّ العقوبة، و لم يقدر أحد من أهل الأرض -لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [سورة الجن: ٢٢-٢٣] وقوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [سورة الحاقة: ٤٤-٤٧].[١]

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٥٧/٤.

الثاني: قولــه (تعالى): ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فا لله (تعالى) أعلم بما تخوضون فيه من التكذيب للقرآن، والقول بأنه سحر وكهانة وشعر وغير ذلك، وهو شهيد لي بأن القرآن من عنده، وأني قد بلغتكم إياه، ويشهد عليكم بالتكذيب والجحود.

الثالث: قوله (تعالى): ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ﴾ أي شأني شأن الرسل في كونهم من عند الله وما جاءوا به الحق، وفي كونهم كُذبوا وأوذوا؛ فمنهم من قُتل، ومنهم من أُخرج، ومنهم من أهلك الله أقوامهم بضرب من ضروب الإهلاك، وعجَّل عقوبتهم؛ ولهذا قال بعدها: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلَ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .

الرابع: قوله (تعالى): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندَ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـلِمِينَ﴾. أي ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب من عند الله وكفرتم به، وقد شهد بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء السابقين، حيث بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر القرآن به، فآمن هذا الشاهد من بني إسرائيل بعد أن وقف على صحة القرآن وصدقه وكونه من عند الله، واستكبرتم أنتم عن اتباعه. وقال مسروق: فآمن الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـلِمِينَ﴾[1] .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/١٥٨.

الخامس: قوله (تعالى): ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وهذا محض تحكم وتشهٍ، بل الله يختص برحمته من يشاء، كما في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٣].

السادس: قوله (تعالى): ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وهذا إظهار لكبرهم وصلفهم واستنكافهم عن متابعة الحق الذي آمن وسعد به من في نظرهم من الضعفاء، وهذا ماصرح به زعيم الكفر أبو جهل حين قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا بالركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه[(١)].

السابع: قوله (تعالى): ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يونس: ١٥-١٦]. قال ابن كثير رحمه الله: «الدليل على أني لست أتقوَّله من عندي، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٣/٢ .

منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل لا تنتقدون علي شيئا تغمصوني به... أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل»[1].

٢- دعوى المشركين أن القرآن أساطير الأولين:

من ذلك قولهم فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٢٥]. وقال (تعالى): ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣١]. وقال (تعالى): ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الفرقان: ٥-٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه ونزاهته، وبرّه وأمانته، وبُعْدَه عن الكذب والفجور، وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بعث الأمين، لما يعلمون من صدقه وبرّه، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٩٢/٢.

عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذّاب. وقال الله (تعالى): ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٨]. وقال (تعالى) في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا : ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً»(١).

٣-إضافة القرآن إلى الجنون والسحر والكهانة والشعر وغير ذلك:

قال (تعالى): ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الحجر: ٦] وقال: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [سورة الصافات: ٣٦] وقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان:١٤].

وقد رد الله (تعالى) هذه التهمة بمثل قوله، وذلك عقب قولهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [سورة الصافات: ٣٦] قال (تعالى): ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الصافات: ٣٧] وبمثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٤]. وقوله (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة سبأ: ٤٦] يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد؛ مثنى وفرادى، أي مجتمعين ومتفرقين، ثم تتفكروا في هذا الذي

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٩٩.

جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً»[1].

وقال (تعالى): ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة سبأ: ٤٣] فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سورة سبأ: ٤٤] أي: ليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه، ولا شبهة يتشبثون بها أي فمن أين كذبوك؟ و لم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذي فعلوه.

ثم قال بعدها: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ...﴾ [سورة سبأ: ٤٥] أي أن أهل مكة من مشركي قريش وغيرهم من العرب على ما آتيناهم من القوة وكثرة المال لم يبلغوا عشر ما آتينا مَنْ قبلهم من ذلك فأهلكهم الله (تعالى). وقيل المعشار: عشرُ العشر، ثم قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة سبأ: ٤٥-٤٦].

أما وصف القرآن بالكهانة والشعر فقد نفاه الله (تعالى) في مثل قوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [سورة الطور: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الحاقة: ٤٢]. وقال (تعالى): ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [سورة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٩.

الطور: ٣٠ - ٣٤]، وقال: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يس: ٦٩].

ونفى الله أن يكون القرآن من كلام الشياطين في مثل قوله (تعالى): ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، وقوله (تعالى): ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة التكوير: ١٩-٢٧].

وأخبر (تعالى) عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [سورة الجن: ٨-٩] وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٩-٣٠].

أما الشياطين فإنما تتنزل على أوليائهم من الأفاكين الكذابين؛ قال (تعالى): ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]. قال ابن كثير رحمه الله: «فهذا هو الذي تَنَزَّل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة»[١].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٤١/٣.

القضية السادسة: إنكار المشركين البعث والمعاد:

إن المشركين والكفار الذين أنكروا البعث، وهو إعادة الحياة للأموات وخروجهم من قبورهم ليوم الحساب إنما بنوا أمر هذا الإنكار ــ مستعملين عقولهم المدخولة ـ على مجرد استبعاد وقوعه، وتعجبهم من ذلك؛ كما حكى الله (تعالى) مقالتهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ منها: قوله (تعالى): ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [سورة ق: ٢-٣]. وقال (تعالى): ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[سورة المؤمنون: ٣٥-٣٦]. وجعلوا ذلك من الأساطير التي لا حقيقة لها، ولهذا ربما اتهموا قائلها بالكذب والافتراء على الله (تعالى)، أو بالجنون. قال (تعالى) حكاية عنهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[سورة المؤمنون: ٨٣]. وقال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾[سورة سبأ: ٧-٨].

وقد رد الله عليهم في إنكار البعث بأنواع من الردود منها:[١]

أولاً: الاستدلال على إمكان البعث بأمثلة واقعية:

من ذلك ما فعله الله (تعالى) في دار الدنيا ببعض خلقه من الإماتة والإحياء، وله أمثلة قصَّها الله (تعالى) في القرآن الكريم، أذكر خمسة منها كلها في سورة البقرة، وهي:

---

(١) انظر : معترك الأقران ـ السيوطي ١/٤٥٨-٤٥٩ ، ومناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٣٠٥ وما بعدها

أ- ما حكاه (تعالى) عن بعض قوم موسى بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٥٥-٥٦] قال الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال فسمعوا صوتاً فصُعِقوا، وقال الربيع: كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة[١].

ب- قوله (تعالى) في أصحاب البقرة: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٢-٧٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني، ثم قُبض....[٢].

ج- قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٨٩-٩٠.

(٢) المرجع السابق ١/١٠٨.

بموضع كذا وكذا قال الله لهم موتوا فماتوا، فمرَّ عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم[1].

د- قوله (تعالى): ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٩]. وهذا الذي مرَّ هو عزير عليه السلام على المشهور، كما نبه عليه ابن كثير رحمه الله[2].

هـ- وقوله (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فصرهن إليك: أوثقهن. قال ابن كثير رحمه الله: فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً؛ فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطَّعهن، ونتف ريشهن ومزَّقهن، وخلط بعضهن ببعض، ثم جزَّأهن أجزاءً، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل، وقيل: سبعة، قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما

---

(١) المرجع السابق ٢٨٢/١.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢٩٧/١.

أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدَّم له غير رأسه يأباه، فإذا قدَّم له رأسه تركَّب مع بقية جسده بحول الله وقوته...»[1].

ثانياً: الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى:

وهو الاستدلال بدلالة الواقع المشاهد الذي لا يمكن إنكاره على المتوقع الغائب.[2] ولذلك أمثلة كثيرة، أختار نماذج منها:

١- قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [سورة الحج: ٥-٧]. وهذه الآية فيها دليلان على إمكان البعث[3]: أحدهما: في الأنفس، وهو ما اشتمل عليه صدر الآية، وهو متعلق بالنشأة الأولى،

---

(١) المرجع السابق ١/٢٩٨.

(٢) معترك الأقران ١/٤٥٨.

(٣) انظر : مناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٣٠٨.

والثاني: في الآفاق،وهو قوله (تعالى): ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ وسيأتي الكلام فيه.

والمقصود هنا ذكر الدليل الأول: دليل النفس، وهو الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، وإن كانت النتائج الخمس المذكورة في الآية تترتب على الدليلين، وهي:

أ- وجود الخالق سبحانه، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحكمته.

ب- أنه يحيي الموتى.

ج- إثبات عموم قدرته على كل شيء.

د- إثبات مجيء الساعة وأنه لا ريب فيها.

هـ- أنه سبحانه يخرج الموتى من القبور كما أخرج الخلق من التراب في النشأة الأولى، وكما أخرج النبات من الأرض. يقول ابن القيم رحمه الله في معرض استدلاله بهذه الآية على قضية البعث: «يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها»[1].

---

(١) إعلام الموقعين ١/١٤٠

٢- قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يس: ٧٧-٧٩]. قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: نعم يميتك الله (تعالى)، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار، ونزلت هذه الآيات من آخر يس...[(١)]. وروي نحوه عن ابن عباس وغيره أن السائل هو العاص بن وائل[(٢)]، والآيات عامة في كل من أنكر البعث، وقد تضمنت عشرة من الأدلة على إمكان البعث، والتي فيها الرد على المنكرين[(٣)].

أحدها: تذكير المنكر بمبدأ خلقه، وهو كونه من نطفة ليدله به على النشأة الثانية.

الثاني: أن هذا المنكر لو ذكر خلقه لما ضرب هذا المثل، بل لـمَّا نسي خلقه ضرب المثل.

الثالث: الإجابة عن سؤال المنكر بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده، فقال: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾. قال ابن الحنبلي رحمه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٨.

(٢) انظر : المرجع السابق ٣/٥٥٨-٥٥٩ ، وانظر : تفسير الطبري ٢٣/٢٠-٢١ ط. دار المعرفة .

(٣) انظر : إعلام الموقعين ١/١٤١-١٤٣، واستخراج الجدل ص :٩١-٩٣.

الله: «فإن إيجاد المبادئ أصعب في مطرد العرف وحكم العقل، من رد شيء كان إلى ما كان على ما لا يخفى»[١].

الرابع: الإخبار بعموم علم الله (تعالى) لجميع خلقه، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور في علمه أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل شيء عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السموات والأرض، وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء؛ ومن ذلك قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [سورة ق: ٤].

الخامس: إرشاد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بألطف الوجوه وأبينها وأقربها إلى العقل. فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [سورة يس: ٨٠] . فهذا دليل على تمام قدرته، وإخراج الأموات من قبورهم، كما أخرج النار من الشجر الأخضر. وفي هذا جواب عن شبهة من قال من منكري البعث: إن الموت بارد يابس، والحياة طبعها الرطوبة والحرارة، فإذا حلَّ الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما، فيقال لهم: إن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد ليلزم ما قالوه، بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

---

(١) استخراج الجدل ص : ٩٢.

السادس: ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السموات والأرض مع عظمهما وسعتهما، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما، فمن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كما قال (تعالى): ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: ٥٧] كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم.

السابع: تقرير المعنى السابق بذكر وصفين من أوصافه (تعالى) مستلزمين لما أخبر به، فقال: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس: ٨١] فكونه خلاقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق.

الثامن: بيان عموم إرادته وشمولها، بحيث لا يقصر عنها شيء، ولا يستعصي عليه شيء، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته، فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

التاسع: تنزيه الله (تعالى) نفسه عما نطق به أعداؤه منكرو المعاد: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة يس: ٨٣] يتصرف تصرف المالك الحق.

العاشر: ختم السورة بقوله: ... ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس: ٨٣] أي كما ابتدأوا منه فكذلك مرجعهم إليه، فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [سورة النجم: ٤٢].

٣- قوله (تعالى): ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾

[سورة الإسراء: ٤٩-٥١].

لما استعظموا أن يعيدهم الله خلقاً جديداً بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً قيل لهم: ﴿كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾ كالسماء والأرض والجبال ونحوهما[(١)]. ومضمون الدليل أنكم مربوبون مخلوقون مقهورون على ما يشاء خالقكم، وأنتم لا تقدرون تغيير أحوالكم من خلقة إلى خلقة لا تقبل الاضمحلال كالحجارة والحديد، ومع ذلك فلو كنتم على هذه الخلقة من القوة والشدة لنفذت أحكامي فيكم وقدرتي ومشيئتي، ولم تسبقوني ولم تفوتوني كما يقول القائل لمن هو في قبضته: اصعد إلى السماء فإني لاحقك. أي لو صعدت إلى السماء لحقتك[(٢)]. وأيضاً ـ فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظام والرفاة وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان موصوفاً بالحياة ثم عادت إليه، بخلاف الحجارة والحديد، فلم تكن لهما حياة، فكيف لا يقدر على ذلك في العظام والرفات[(٣)].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٤٤.
(٢) انظر : إعلام الموقعين ١/١٤٣.
(٣) انظر : مناهج الجدل ـ الألمعي ص :٣١٤.

ثم قال (تعالى): ﴿فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾ أي الذي خلقكم و لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه سبحانه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال.[1] فهو استدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية.

ثم انتقلوا إلى سؤال آخر: ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾ أي: فحركوا رؤوسهم استهزاءً بعد أن لزمتهم الحجة، وتلاشت شبهتهم. فانتقلوا إلى سؤال لا تعلّق له بالشبهة التي أثاروها، فكان جوابهم: ﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾؛ لأن كل ما هو آت آت. ومن ذلك قوله (تعالى): ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [سورة النمل: ٧١-٧٢].

٤- قوله (تعالى): ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الروم: ٢٧]. قال ابن الحنبلي رحمه الله: «وإنما قال سبحانه: ﴿وهو أهون عليه﴾ ضَرْبُ مثلٍ؛ لأن المقدورات عندنا نحن متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا، ولما كان إيجاد شيء لا من شيء مستحيلاً منا، وإيجاد شيء من شيء ممكناً، فاستعار له كلمة أفعل، ضرب ذلك مثلاً، ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيء لا من

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٤٤.

شيء قال: ﴿وله المثل الأعلى﴾ وذلك مطرد في سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة والرحمة والرضا والغضب...»[(١)].

ومن الآيات التي في معنى الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة العنكبوت: ١٩-٢٠].

ومنها ـ أيضاً ـ قوله (تعالى): ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[سورة الواقعة: ٥٧-٦٢].

ومنها قوله (تعالى): ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[سورة مريم: ٦٦-٦٧].

ومنها قوله (تعالى): ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[سورة القيامة: ٣٦-٤٠].

ومنها قوله (تعالى): ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[سورة ق: ١٥].

---

(١) استخراج الجدل ص : ٩٤ .

ثالثاً: الاستدلال على إمكان البعث بخلق السماوات والأرض:

وذلك لأن خلقها أعظم من خلق الإنسان، وأبلغ في القدرة منه، ولقد مرَّ بنا قوله (تعالى): ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس: ٨١].

ومن ذلك قوله (تعالى) : ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٨-٩٩].

ومنه قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى...﴾ [سورة الأحقاف: ٣٣]. قال ابن القيم رحمه الله: «والمقصود أنه دلَّهم سبحانه بخلق السموات والأرض على الإعادة والبعث، وأكَّد هذا القياس بضربٍ من الأولى، وهو أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم، وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسله وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القصور، والقدح في حكمته؛ ولهذا يخبر سبحانه عمن أنكر ذلك بأنه كافر بربه، جاحد له، لم يقر برب العالمين فاطر السموات والأرض كما قال (تعالى): ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ...﴾ [سورة الرعد: ٥]. وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [سورة

الكهف: ٣٦-٣٧]. فمنكر المعاد كافر برب العالمين، وإن زعم أنه مقر به»[1].

رابعاً: الاستدلال على إمكان البعث بإحياء الأرض الميتة، وإخراج النبات منها:

من ذلك:

١- قوله (تعالى): ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [سورة الحج: ٥-٧].

٢-وقوله (تعالى): ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٧].

٣-وقوله (تعالى): ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الروم: ٥٠].

٤-وقوله (تعالى): ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [سورة فاطر: ٩].

٥-وقوله (تعالى): ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾

[سورة ق: ٩-١١].

---

(١) إعلام الموقعين ١/١٤٧.

٦- وقوله (تعالى): ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة فصلت: ٣٩].

فجعل الله (تعالى) إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراج الأموات من قبورهم، فدل بالنظير على نظيره[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مراراً لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرة وذكرى، كما قال (تعالى): ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سورة ق: ٧-٨].

خامساً: الاستدلال على البعث والإعادة بإخراج الشيء من ضده:

وذلك كإخراج الموت من الحياة، والحياة من الموت، وإخراج النار من الشجر الأخضر. وفي ذلك بيان كمال قدرته وأنه لا يعجزه شيء. ولذلك أمثلة في القرآن الكريم؛ منها:

١- قوله (تعالى): ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [سورة الروم: ١٩]. فدل بالنظير على النظير؛ وقرّب أحدهما من الآخر جداً بلفظ الإخراج، أي يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي[2].

---

(١) انظر : إعلام الموقعين ١/١٤٤.

(٢) انظر : إعلام الموقعين ١/١٣٩.

٢- قوله (تعالى): ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [سورة يس: ٨٠] وقد مرَّ الكلام في شرحها، وقال ابن كثير رحمه الله: «الذي أخرج هذه النار من الشجر قادر على أن يبعثه، وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار، ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء. وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما»(١).

٣- وقوله (تعالى): ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [سورة الواقعة: ٧١-٧٣]، وكان قد قال قبلها: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[سورة الواقعة: ٦٢] قال ابن الحنبلي: «ووجه دلالة النار على البعث أن النار تكمن في الشجر والحجر ثم تظهر بالقدح، وتشب بالنفخ، فالحجر والشجر كالقبر، والقدح كالنفخ في الصور»(٢).

سادساً: الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله تقتضيان البعث والجزاء:

وكما دلَّ القرآن على إمكان البعث ـ على ما تقدم بيانه ـ وبطلان دعوى المنكرين، فقد دلَّ على أنه واقع لا محالة، وأن حكمة الرب تعالى وعدله ورحمته بخلقه تقتضي وقوعه:

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٥٩/٣.

(٢) استخراج الجدل ص :٩٦.

قال (تعالى): ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [سورة القيامة: ٣٦]، وقال (تعالى): ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[سورة المؤمنون: ١١٥].
فعدل الله (تعالى) وحكمته، ومحبته للحق، وبغضه للباطل، والتمييز بين الخبيث والطيب، والمسيء والمحسن، كل ذلك يأبى إلا أن يكون هناك يوم آخر بعد نهاية الدنيا ينال فيه كل إنسان جزاءه، وما يستحقه من الثواب والعقاب على ما قدَّم من خير أو شر.

فإننا نرى أُناساً يفارقون الدنيا وهم ظَلَمَة لغيرهم، لم يُقتصَّ منهم، وآخرين يفارقونها مظلومين لم تُرد إليهم مظلمتهم، ونرى أشراراً فيها منعمين، وأخياراً فيها معذبين، فإذا ذهب كل إنسان بما فعل ظالماً كان أو مظلوماً، محظوظاً كان أو مهضوماً، من غير انتصاف للمظلوم من الظالم، ومن دون تمييز للمحسن على المسيء، كان ذلك قدحاً في عدل الرب وحكمته، فكان لا بد من يوم يحضر فيه الجميع بين يدي الملك الديان (سبحانه وتعالى)، ليقتص للمظلوم من ظالمه، ولينال كل محسن ومسيء جزاءه؛ قال (تعالى): ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٧-٢٨]

وقال (تعالى): ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة الجاثية: ٢١].

قال ابن الحنبلي رحمه الله: «وقد قال بعض الحكماء: ثبت أن الله عز وجل حكيم، والحكيم لا ينقض ما بنى إلا لحكمة أتمّ من حكمة النقض، ولا يجوز أن تكون أنقص ولا مماثلة على مالا يخفى»[(١)].

سابعاً: الرد عليهم ببيان أن مستند دعواهم مجرد الظن:

قال (تعالى): ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الجاثية: ٢٤-٢٦].

وقال (تعالى): ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [سورة الجاثية: ٣٢].

وحكى الله مقالتهم في: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ٣٧] فبين الله (تعالى) أن دعواهم مبنية على غير علم بل على مجرد الظن، والظن لا يدفع به اليقين، واليقين أن الله قد أخرجكم من العدم وتلك حياة، ثم يميتكم ، ثم يحييكم مرة أخرى كما قال (تعالى): ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨].

---

(١) استخراج الجدل ص:٩٨.

المطلب الثاني
جـدل القرآن مع المنافقين

إن الجدل مع المنافقين كان يتركز على كشــف خفاياهم الفاسدة، وفضح نواياهم الحاقدة، والرد على ما يثيرونه من شبهات وشكوك، فقد كانوا يظهرون للمؤمنين خلاف ما يبطنون، كما أخبر الله (تعالى) عنهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٧] وكانوا يثيرون الشبهات والشكوك حول بعض مسائل الاعتقاد، ويسيئون إلى النبي ﷺ وأصحابه الأطهار بما هم منه براء، وكان القرآن يتصدى لهذه الشبهات والشكوك والإساءات بالإبطال والدفع وإظهار الحق وكسر شوكة المنافقين، ولقد كان المنافقون يخافون القرآن ويتحاشون أن يكشف أمرهم ويفضح كيدهم، كما قال (تعالى): ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٦٤]. قال السدي في تفسير هذه الآية: قال بعض المنافقين: والله وددتُ لو أنّي قُدمتُ فجلدتُ مائةً، ولاينزل فينا شيء يفضحنا فنزلت الآية.[١] وقال (تعالى): ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة المجادلة: ٨].

---

(١) تفسير القرطبي ٨/١٩٥.

ولهذا جاء في أسماء سورة براءة أنها الفاضحة. قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس رحمه الله عنهما عن سورة براءة، فقال: تلك الفاضحة، مازال ينزل: ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألا تدع أحداً. وتسمى ـ أيضاً ـ البحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين، وتسمى المبعثرة[(١)].

وفي هذا الموضع أسوق نماذج لما ذكرته آنفا من مواقف القرآن الكريم مع المنافقين:

الأول: قال الله (تعالى): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨-١٦].

فقد أبطل سبحانه في هذه الآيات بعض دعاوى المنافقين، من ذلك:

١- دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر: فبين سبحانه أن هذه الدعوى لا حقيقة لها، بل هي مجرد مخادعة منهم لله والذين آمنوا، بدليل أنهم إذا لقوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان المزيف، وإذا خلوا إلى أمثالهم في

(١) انظر: تفسير القرطبي ٦١/٨.

الكفر كاشفوهم بحقيقة أمرهم التي هي الكفر والعداء للذين آمنوا، فبين الله (تعالى) أن هذا منهم خداع لأنفسهم، لا كما يظنونه خداعاً لله وللمؤمنين؛ كما قال (تعالى): ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [سورة النساء: ١٤٢].

وفي هذا المعنى قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٦-٧٧]، وقال (تعالى): ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٩].

٢- دعواهم الصلاح والإصلاح، فبين سبحانه أنهم هم المفسدون حقاً، لكن من جهلهم لا يشعرون أنهم هم المفسدون.

٣- وصفهم أهل الإيمان بالسفه، فرد الله عليهم هذا الوصف؛ لأنهم أهله وأحق به، لكنهم لا يعلمون، وذلك لفرط جهلهم .

الثاني: قال (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ

عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٠-٦٥].

ففي هذه الآيات كشف الله (تعالى) حال المنافقين الذين يزعمون الإيمان بالرسالات، ولكن أحوالهم وأفعالهم تكذب هذا الإيمان المزعوم فهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عن حكم الله ورسوله بعد ما دُعوا إليه، ثم يبين سبحانه أن الإيمان الحقيقي يستلزم تحكيم الله ورسوله في كل أمر، تحكيماً ظاهراً وباطناً من غير حرج ولا منازعة نفس، بل مع التسليم التام لما قضاه الله ورسوله من الأحكام.

وفي هذا المعنى قوله (تعالى): ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة النور: ٤٧-٥٤].

فبين سبحانه في هذه الآيات ما عليه المنافقون من تكذيب أفعالهم أقوالَهم، وفي أعظم مسألة ألا وهي مسألة الإيمان، وبيان إعراضهم عن التحاكم إلى الله ورسوله، لا سيما إذا كانت الحكومة عليهم، أما إذا كانت الحكومة لهم جاءوا إلى الرسول ﷺ سامعين مطيعين، مما يدلُّ على مرض قلوبهم، أو شكهم في دين الله، أو سوء ظنهم بالله ورسوله، بل هم الظالمون، ثم بين سبحانه ما عليه المؤمنون من الاستجابة لله والرسول سمعا وطاعة، والخشية من الله (تعالى) وتحقيق تقواه، وأولئك هم المفلحون الفائزون.

ثم بين سبحانه ـ مرة أخرى ـ أن طاعة المنافقين مجرد قول باللسان وإن صاحبه قسم؛ ولهذا فهم كثيرو الحلف بالله، وقد تكرر ذكر ذلك في سورة التوبة. وقال (تعالى) عنهم في: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [سورة المنافقون: ٢] أي: اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلف الآثمة.[1] فقال (تعالى): ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ [سورة النور: ٥٣] قيل معناها: طاعتكم طاعة معروفة، أي إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم. كما قال (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٣٦٨.

لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ [سورة الحشر: ١١-١٢].

ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، وبين أن الهداية معقودة في ذلك: وإنما على الرسول البلاغ، وعليكم القبول وتعظيم أمره والقيام بمقتضاه(١).

الثالث: قال (تعالى): ﴿وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما * فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ [سورة النساء: ٧٢-٧٤]. فبين سبحانه في هذه الآيات أن علاقة المنافقين ـ قبحهم الله ـ مع المؤمنين علاقة تدور مع المصلحة؛ فهم لا يشاركون المؤمنين في الجهاد والقتال، ويريدون أن يشاركوهم في الغنيمة وحظوظ الدنيا؛ فهم يَعُدُّون عدم حضورهم القتال والشهادة من نعم الله عليهم، ولم يدروا ما فاتهم من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتلوا، لكنهم يتطلعون إلى نصيبهم في الغنيمة المترتبة على النصر والظفر، إذ هي أكبر قصودهم وغاية مرادهم(٢). فبين الله (تعالى) أن القتال إنما هو لإعلاء كلمة الله، لا للمغنم ونحوه من أعراض الدنيا.

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢٨٩/٣

(٢) انظر : المرجع السابق ٤٩٧/١ .

ومن الآيات التي في هذه المعنى قوله (تعالى): ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٤١]. قيل في المراد بالسبيل أن ذلك يوم القيامة؛ بدليل قوله: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾. وقيل: بأن يُسلَّطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، فإن العاقبة للمتقين. وعلى هذا فيكون رداً على المنافقين فيما أمَّلوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال (تعالى): ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[1] [سورة المائدة: ٥٢]. وقيل في السبيل: إنه الحجة: شرعية أو عقلية، وقيل غير ذلك[2].

ومن الآيات التي في هذا المعنى قوله (تعالى): ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٥٣٧.

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٥/٤١٩-٤٢٠.

فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥٠-٥٢]. الحسنة: الغنيمة والظفر. والمصيبة: الانهزام. أخذنا أمرنا من قبل: احترزنا، واحتطنا لأنفسنا فلم نخرج للقتال. فأمر الله (تعالى) رسوله ﷺ أن يرد عليهم بالقدر الكوني الذي يكون باعثاً على التوكل على (تعالى)؛ لعلم المؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. والمؤمن لا ينتظر من جهاده سوى الشهادة أو الظفر، بينما ينتظر المؤمن للمنافق أن يهلكه الله بعذاب من عنده، أو يأذن له في قتاله وسبيه[1].

وفي معنى هذه الآيات قوله (تعالى): ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٠]. وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى فرح المنافقين بما يسوء المؤمنين، وحزنهم بما يسر المؤمنين.

الرابع: قوله (تعالى): ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٣٤٦-٣٤٧ وتفسير القرطبي ٨/١٥٩-١٦٠.

فهذه طائفة المنافقين لا يغشاها النعاس الذي أصاب طائفة المؤمنين؛ لما هم فيه من القلق والجزع والخوف ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ كما قال (تعالى) في: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [سورة الفتح: ١٢]. وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصل، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة، فقالوا وهم في تلك الحال: ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾، فقال (تعالى): ﴿قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ فرد الله عليهم بقوله: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم...﴾ أن هذا الأمر قَدَر قدَّره الله (تعالى) وحُكْمٌ حَتْمٌ لا محيد عنه ولا مناص منه، وحكمة الله فيه اختيار النفوس وتمييز الصفوف: ﴿والله عليم بذات الصدور﴾[1]. وقال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ يعني التكذيب بالقدر. وذلك أنهم تكلموا فيه فقال الله (تعالى): ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ يعني القدر خيره وشره من الله[2].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٣٩٥.

(٢) تفسير القرطبي ٤/٢٤٢.

ومن الآيات التي في هذا المعنى: قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥-١٦٨].

وهذه الآيات نزلت مخرج النبي ﷺ إلى أحد حتى إذا كان بين أحد والمدينة انحاز عنه عبدا لله بن أبي بن سلول بثلث الناس، فقال: أطاعهم فخرج وعصاني، ووا لله ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق والريْب، واتبعهم عبدا لله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم ا لله، أن لا تخذلوا نبيكم وقومكم عند مَنْ حضر مِنْ عدوكم. قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم ا لله، أعداء ا لله، فسيغني ا لله عنكم، ومضى رسول ا لله ﷺ[1].

قوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمن﴾ أي بينوا حالهم، وهتكوا

---

(١) انظر : سيرة ابن إسحاق ص : ٣٢٤-٣٢٥، والسيرة النبوية ـ ابن هشام ٣/٩٢-٩٣، وتفسير الطبري ٧/٣٧٨-٣٧٩ ط. شاكر ، وتفسير ابن كثير ١/٤٠٢.

أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن بهم الإسلام، فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق[1].

وقوله: ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾ وهم الشهداء المقتولون من الخزرج، الذين تربط بينهم وبين هؤلاء أخوة النسب والمجاورة، لا أخوة الدين، فقالوا في شأن هؤلاء الشهداء : لو قعدوا بالمدينة ما قتلوا.[2] فرد الله مقالتهم بقوله: ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آتٍ إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة[3]. وقيل: مات يوم قيل هذا سبعون نفسا من المنافقين[4].

الخامس: قوله (تعالى): ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٦١].

فقد كان في المنافقين من يبسط لسانه بالوقيعة في أذية النبي ﷺ، ويقول: إن عاتبني حلفت له بأني ما قلت هذا، فيقبله فإنه أذن

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٤/٢٦٧.

(٢) انظر : المرجع السابق ٤/٢٦٧.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١/٤٠٢.

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٤/٢٦٧.

سامعة[١]. فرد الله مقالتهم بقوله: ﴿قل أذن خير لكم...﴾ أي: هو أذن خير لا أذن شر، أي يصدق المؤمنين، وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾[٢].

السادس: قوله (تعالى): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ٦٥-٦٦].

عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسولَ الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ـ إلى قوله ـ مجرمين. وإن رجليه لتنسفان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بِنِسْعَة[٣] رسول الله ﷺ[٤].

وروى الطبري رحمه الله عن قتادة في قوله (تعالى): ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ قال: بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته

---

(١) انظر: المرجع السابق ١٩٢/٨.
(٢) انظر: المرجع السابق ١٩٢/٨، وتفسير ابن كثير ٣٥٠/٢.
(٣) النِسْعة: سير مضفور، يجعل زماماً للبعير وغيره، وقد تنسج عريضة؛ تجعل على صدر البعير والجمع نُسْع، ونِسَع، وأنساع. انظر: النهاية ـ ابن الأثير ٤٨/٥.
(٤) تفسير الطبري ٣٣٥/١٤ ط. شاكر، وتفسير ابن كثير ٣٥١/٢.

إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: احبسوا علي الركب، فأتاهم فقال: قلتم كذا، قلتم كذا، قالوا: يانبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون[1].

السابع: قوله (تعالى): ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا

(١) تفسير الطبري ١٤/٣٣٤.

قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ١٢-٢٠].

إن جماعة من المنافقين قالوا يوم الخندق: كيف يعدنا ـ أي النبي ﷺ ـ كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز[1]. وطائفة قالت: لا موضع لكم تقيمون فيه فارجعوا إلى منازلكم، أي: أمروهم بالهروب من عسكر النبي ﷺ. وقال ابن عباس: قالت اليهود لعبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه، فارجعوا إلى المدينة، فإنا مع القوم، فأنتم آمنون[2]. وطائفة استأذنت في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أي مكشوفة للسُّرَّاق أو العدو، فنفى الله (تعالى) ما ادعوه، وأثبت لهم إرادة الفرار والهرب من الزحف، ثم إنَّ هؤلاء المستأذنين لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة أو البيوت ثم سئلوا الفتنة، وهي الشرك، وقيل: القتال في العصبية لأجابوا مسرعين ﴿وما تلبثوا بها﴾ أي بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يُهلكوا. وقيل: وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً ولأجابوا بالشرك مسرعين؛ وذلك لضعف إيمانهم ولفرط نفاقهم. فلو اختلطت بهم الاحزاب لأظهروا الكفر[3]. ثم ذكَّرهم الله (تعالى) بما أعطوه من العهود والمواثيق بعدم الفرار من الزحف، ثم بين لهم (تعالى) أن الفرار من

(١) انظر : تفسير القرطبي ١٤/١٤٧.

(٢) انظر : المرجع السابق ١٤/١٤٨.

(٣) انظر : المرجع السابق ١٤/١٤٨-١٥٠ ، وتفسير ابن كثير ٣/٤٥٦.

الزحف لايؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة؛ ولهذا قال: ﴿وإذا لا تمتعون إلا قليلا﴾ ثم بين لهم أنه لا عاصم لهم من الله ولا مجير ولا مغيث، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً[1].

ثم أخبر (تعالى) عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لأصحابهم وخلطائهم: ﴿هلم إلينا﴾ قيل: إنهم المنافقون قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، وهو هالك ومن معه، فهلمَّ إلينا. وقيل إنهم اليهود من بني قريظة قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلم إلينا، وفارِقُوا محمدا فإنه هالك، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحداً. وقال ابن زيد: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بين الرماح والسيوف، فقال أخوه ـ وكان من أمه وأبيه ـ هلمَّ إلي، قد تُبِع بك وبصاحبك، أي قد أحيط بك وبصاحبك، فقال له كذبت والله لأخبرنه بأمرك، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله (تعالى): ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا﴾[2].

وقوله (تعالى): ﴿ولايأتون البأس إلا قليلا﴾ أي خوفاً من الموت، وقيل: لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة[3].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤٥٦/٣.

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١٥٢/١٤.

(٣) انظر : المرجع السابق ١٥٢/١٤.

ثم وصفهم الله (تعالى) بـأنهم أشـحة أي بخـلاء عليكـم؛ قيـل: في حفر الخندق، وقيل: بالنفقة في سبيل الله، وقيـل: بالقتـال معكـم، وقيل: بالغنائم إذا أصابوها[1].

ثم وصفهم بالجبن عند مجيء الخوف ﴿تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ فـإذا ذهـب الخـوف بسـطوا ألسـنتهم بـالكلام، وادعـوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم كاذبون. قـال قتادة: «أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأ مقاسمة : أعطونا أعطونـا قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق»[2].

ومن علامات جبنهـم ظنهـم بقـاء الأحـزاب للقتـال مـع أنهـم قـد انصرفوا، ويتمنون إذا جاءت الأحزاب للقتال أن يكونوا بعيداً مـع الأعراب حذراً من القتل، وتربصاً للدوائر. ولو كانوا حاضرين لمـا قاتلوا إلا رمياً بالنبل والحجارة عن طريق الرياء والسمعة، ولو كان ذلك لله لكان قليله كثيراً[3].

(١) انظر : المرجع السابق ١٤/١٥٢-١٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٥٦ ، وانظر : تفسير القرطبي ١٤/١٥٣-١٥٤ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ١٤/١٥٤-١٥٥، وتفسير ابن كثير ٣/٤٥٧.

المطلب الثالث
جدل القرآن مع أهل الكتاب

جادل القرآن الكريم أهل الكتاب بطائفتيهم: اليهود والنصارى في قضايا كثيرة ومتنوعة، لكنها تدور في معظمها حول محورين أساسين: التوحيد والنبوة.

الأول: التوحيد:

والقضايا التي تعرَّض لها القرآن الكريم مع أهل الكتاب مما لها تعلق بالتوحيد كثيرة ومتشعبة، لكني سأقتصر هنا على ذكر أهمها وأخطرها، من ذلك:

- دعوى أهل الكتاب نسبة الولد لله سبحانه وتعالى:

فاليهود يزعمون أن عزيراً ابن لله (تعالى) ، وكذا النصارى يزعمون هذه الفرية ويضيفونها إلى عيسى ﷺ، فيقولون المسيح ابن ا لله. فتصدى القرآن الكريم للطائفتين في هذه القضية مبيناً ضلالهم وكفرهم. فقال (تعالى): ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٠] وقال (تعالى): ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[سورة البقرة: ١١٦-١١٧].

واليهود لم يجتمعوا على هذه المقالة، بل هو مذهب طائفة منهم، وقد خرج الخبر مخرج العموم المراد به الخصوص، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣] ولم يقل ذلك كل الناس[(١)]، ولهذا لم يَرِد قولهم الشنيع هذا إلا في هذا الموضع، بعكس النصارى، فقد كان مذهباً لعامتهم؛ ولهذا جاء ذمهم وتكذيبهم في مواضع شتى من القرآن الكريم.

والنصارى يستندون في دعواهم بنوّة المسيح إلى ولادته من غير أب، فرد الله (تعالى) عليهم فريتهم وحجتهم الباطلة كما في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩-٦٠]. فآدم ـ أيضاً ـ مخلوق من غير أب، بل ومن غير أم، فإن كان عيسى ابناً لله؛ لأنه خلق من غير أب، فآدم أولى منه؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم .

٢- دعوى النصارى إلهية عيسى عليه السلام وأمه:

ومستند دعواهم هذه : هي أن عيسى ولد من غير أب، وأنه أتى بالخوارق من إحياء الموتى، وشفاء المرضى. وقد أبطل الله (تعالى) هذه الفرية من عدة وجوه، من أهمها:

أ- ما تقدم من تشبيه عيسى بآدم عليه السلام في كونه مخلوقاً لله (تعالى).

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٨/١١٦-١١٧ ، وتفسير السعدي ٢/٢٣٩ .

ب-إضافة عيسى عليه السلام إلى أمه من حيث هي الرحم التي حملته، وإلى كلمة الله التي بها يقول للشيء كن فيكون، وإلى الله (تعالى) الذي خلقه وأمر بالنفخ في مريم ليكون عيسى بأمر الله وكلمته من غير أب. قال (تعالى): ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا منسيا﴾ [سورة مريم: ٢٢-٢٣]، وقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ...﴾ [سورة مريم: ٢٧]، وقوله على لسان عيسى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي..﴾[سورة مريم: ٣٢] وقوله على لسان مريم: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[سورة آل عمران: ٤٧].

وقال (تعالى): ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وكيلا﴾ [سورة النساء: ١٧١].

فعيسى بالكلمة كان و لم يكن هو الكلمة.[١] كما قال (تعالى) لمريم: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: ٤٧]

والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه.[٢] وقيل: "كلمته": بشارة الله (تعالى) مريم، ورسالته إليها على لسان جبريل

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥٥٩/١.

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٢/٦.

ﷺ كما في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مريم﴾ [سورة آل عمران: ٤٥].[1]

وقوله: ﴿وروح منه﴾ الإضافة هنا إلى الله (تعالى) إضافة تشريف؛ لأنها من باب إضافة الأعيان كبيت الله وناقة الله ورسول الله، فهذه إضافة تشريف، ولو كان كل ما يضاف إلى الله يكون جزءاً منه لقيل ذلك في البيت والناقة والرسول، بل كل ما في السموات والأرض؛ لأن الله (تعالى) يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[سورة الجاثية: ١٣]. وهذا لا يقوله عاقل يتصور ما يقول، و"من" في قوله ﴿وروح منه﴾ ليست للتبعيض كما تدعيه النصارى، بل لابتداء الغاية[2].

جاء في كتاب الداعي إلى الإسلام[3]: «فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿فنفخنا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [سورة الأنبياء: ٩١] وقوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ [سورة النساء: ١٧١].

قلنا: أما قوله: ﴿فنفخنا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [سورة الأنبياء: ٩١] أراد بالروح جبريل، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣]، فإن خلق عيسى عليه السلام إنما كان من نفخة جبريل التراب في درع مريم بإذن الله تعالى وأمره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فنفخنا فِيهَا مِنْ

---

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٥٥٩/١ .

(٣) ص: ٣٧٤-٣٧٧ .

رُوحِنا﴾ [سورة الأنبياء: ٩١] الآية ، فأضاف الفعل إليه، لأنه سبحانه هو الآمِر، والفعل يضاف إلى الآمِر، كما يضاف إلى المباشر، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نُنفَخُ[(١)] فِي الصُّورِ...﴾ [سورة طه: ١٠٢] والله تعالى لا ينفخ في الصور، وإنما إسرافيل هو الذي ينفخ في الصور، إلا أنه لما كان عن أمره أضاف الفعل إليه، فقال: ﴿ننفخ﴾، فكذلك لما كان نفخ جبريل بإذن الله تعالى أضاف الفعل إليه فقال: ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ فكان جبريل عليه السلام سبباً في خلق عيسى في حال صغره، ومقوماً له في حال كبره، وإضافة جبريل إلى الله تعالى في قوله: ﴿من روحنا﴾ إضافة تشريف وتكريم، كقوله تعالى في حق آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [سورة الحجر: ٢٩] على ما قد قدمنا .

وأما قوله تعالى: ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾، ففيه وجهان :

أحدهما: أن يكون المراد بالكلمة: الآية، كقوله تعالى: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [سورة لقمان: ٢٧] أي: آياته، وبدائع مقدوراته، وهذه الآية يترجمها قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩١].

والوجه الآخر: أن يكون المعني بإلقاء الكلمة إلى مريم تكوينه سبحانه ابنها بقدرته عند قوله ﴿كن﴾ كما كان ذلك في حق آدم، قال الله

---

(١) هذه قراءة أبي عمرو، وقراءة الجمهور : ﴿ينفخ﴾ بالياء . انظر : النشر لابن الجزري ٣٢٢/٢

تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩] ولا تمسك للنصارى بلفظ "الكلمة" لأنهم لا يريدون بها "الكلام"، وإنما يريدون بها " العلم "، ولا يسمون العلم قبل الاتحاد بالمسيح ابناً، بل المسيح مع ما تدرَّع به ابن، وقد قدمنا فساد ما ادعوه من الاتحاد.

ومن أشنع ما جرّهم إليه ـ دعوى الاتحاد ـ وأقبحه أنهم يزعمون : أن كل أقنوم من الأقانيم الثلاثة إله، والثلاثة الأقانيم ـ التي كل واحد منها إله ـ واحد، وهذا مكابرة لبدائه العقليات، ومناكرة للضروريات، فإنهم أثبتوا آلهة ثلاثة، ثم جعلوا الآلهة الثلاثة واحداً، ومن جعل الثلاثة واحداً فقد خرج عن حد المعقول، وباهت ضرورات المعقول، أعاذنا الله وإياكم من عدم العقل، وحفظنا من فضيحة الغباوة والجهل، إنه ولي الطول والفضل».

ج- إثبات أن عيسى عبد لله ورسوله لا إله ولا ابن إله كما تدعيه النصارى. قال (تعالى): ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٠] وقال (تعالى): ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [سورة النساء: ١٧١].

د- إقرار عيسى عليه السلام بربوبية الله له، قال (تعالى) عنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٥١].

هـ- إقراره عليه السلام بعبوديته لله (تعالى)، قال (تعالى) عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٠]. وقال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: ٣١] وقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [سورة النساء: ١٧١] وقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ [سورة النساء: ١٧٢].

و- أن عيسى وغيره من أنبياء الله لم يأمر الناس بعبادة نفسه، وما كان له ذلك وهو عبد الله ورسوله. قال (تعالى): ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩].

ز- جريان أحكام البشرية عليه؛ من الأكل والشرب والولادة والموت والبعث ونحو ذلك، قال (تعالى): ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة: ١٧]. وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٣]. وقال (تعالى): ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة المائدة: ٧٥].

ح- ما وقع من عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه وغيره إنما كان بإذن الله (تعالى) آية من الله لنبيه. ومثله تفعله بعض رسل الله (تعالى) من الملائكة والنبيين، فلم تدعي النصارى في واحد منهم أنه إله أو ابن إله؛ قال (تعالى): ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ

لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٩].

ط- براءة عيسى عليه السلام من فعل ضلال النصارى قال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ. . . ﴾ [سورة المائدة: ١١٦-١١٩].

٣- دعوى التثليث عند النصارى:

النصارى يقولون: إنَّ الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم، فيجعلون كل أقنوم إلهاً، ويعنون بالأقانيم: الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، ولهم في ذلك خبط وافتراق واسع.[1] فرد الله مقالتهم وأكفرهم بها؛ قال (تعالى): ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٦/٢٣.

فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٧١] وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٧٣].

٤- نسبة صفات النقص إلى الله (تعالى):

حيث وصف اليهود (عليهم لعنة الله) الله (تعالى) بالبخل والفقر؛ قال (تعالى): ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [سورة المائدة: ٦٤].

٥- نسبتهم أنفسهم إلى الله (تعالى) نسبة البنوّة:

حيث زعمت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه مثلما ادعوه في عزير والمسيح؛ قال (تعالى): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [سورة المائدة: ١٨].

٦- اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله:

وذلك بطاعتهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله قال (تعالى): ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣١] رُوي عن عدي

بن حاتم ﷺ أنه قال: «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح هذا الوثن، وسمعته يقرأ في ســورة بـراءة: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبنهم أربابا من دون الله﴾. قال: أما إنهـم لم يكونـوا يعبدونهـم، ولكنهـم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»[(١)].

وفي رواية للطبري في تفسيره[(٢)] أن عدياً قال: «يـا رسـول الله، إنـا لسـنا نعبدهم. فقال : أليس يحرمون ما أحـل الله فتحرمونـه، ويحلـون مـا حـرم الله فتحلونه؟ قال : قلت : بلى. قال: فتلك عبادتهم».

هذا ما تيسر ذكره من القضايـا المتعلقـة بـالتوحيد والـتي جـادل فيهـا القرآن الكريم أهل الكتاب، وقد أمر الله (تعـالى) رسـوله أن يدعـو أهـل الكتاب إلى كلمة التوحيد قال (تعالى) :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مسلمون﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٢٤٨/٨ أبواب التفسير ـ سورة براءة ح : ٣٠٩٤ وقـال : هـذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيـف بـن أعين ليس بمعروف في الحديث . وذكر السيوطي هذه الرواية في الـدر المنثـور ٢٣٠/٣ وعزاهـا إلى ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابـن مردويـه والبيهقي في السنن. وذكـر الشيخ أحمـد شـاكر أنـه لم يجدهـا في سـنن البيهقـي ولا في طبقات ابن سعد . انظر : هامش تفسير الطبري ٢١٠/١٤ ط. شاكر .

(٢) ٢١٠/١٤ برقم : ١٦٦٣٢ ط. شاكر.

ثانياً: النبـــوة:

والقضايا التي جادل فيها القـرآن الكريـم أهـل الكتـاب ممـا لـه تعلـق بالنبوة - أيضاً - كثيرة، سأقتصر على أبرزها مما له تعلق بمبـاحث العقيـدة. من ذلك:

١- دعا القرآن الكريم أهــل الكتـاب إلى الإيمـان بمحمـد ﷺ وبالكتـاب الذي أنزل إليه، وذلك من عدة طرق:

أ- أنه هو الرسول المبشَّر به، وهو الذي بشَّرت به كتبهم: قـال (تعـالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة المائدة: ١٩].

وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [سورة الصف: ٦].

ب- مطالبتهم بالإيمان بما جاء به الرسول ﷺ قـال (تعـالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [سورة النساء: ٤٧].

يُروى أن كعب الأحبار أبطأ في دخوله الإسلام، حتى سمـع تـال يقـرأ هذه الآية، قال كعب: فبادرت إلى الماء فاغتسلتُ، وإني لأمسُّ وجهي مخافة أن أُطمس، ثم أسلمت. وقيل: إنه رجع إلى أهله في اليمــن فـأتى بهم مسلمين(١).

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٨١ .

ج- مطالبتهم بالتحاكم إلى التوراة والإنجيل وصحة العمل بهما لأنهما ــ وعلى الرغم من التحريف الـذي أصابهمـا ــ تناديـان بنبـوة محمـد ﷺ ورسالته للناس كافة قال (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ ربكم﴾ [سورة المائدة: ٦٨] وقـال (تعـالى): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [سورة البقرة: ١٢١]. قال ابن كثير رحمه الله: «أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حـق إقامته آمن بما أرسلتك به يا محمد»[(١)].

د- بيان أن نبوة محمد ﷺ ثابتة فيما عندهم من الكتب، لكنهم يكتمونها ويجحدونها كفراً وحسداً. قال (تعـالى): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦].

هـ- بيان أن أهل الكتاب كتموا الحـق الثـابت عندهـم مـع أخـذ الميثـاق عليهم أن يبينوه للناس، فاستحقوا لعنة الله (تعالى). قال (تعالى): ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[سـورة آل عمـران: ١٨٧]. وقـال (تعـالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٧٤]. قال ابـن كثـير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يعني اليهود الذين كتمـوا صفـة محمـد

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٥٦.

ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك؛ لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم فكتموا ذلك...»[1].

وقال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٩]. قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «يعني ... علماء اليهود وأحبارها، وعلماء النصارى لكتمانهم الناس أمر محمد ﷺ، وتركهم اتباعه، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل»[2].

و- اتفاق الرسالات والكتب المنزلة على توحيد الله وعبادته، ومن ثم فلا يجوز التفريق بين رسل الله وكتبه: قال (تعالى) مخاطباً المسلمين: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦].

وقال (تعالى) مبكتاً على أهل الكتاب ومكفراً لهم لتفريقهم بين الرسل في الإيمان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا

(١) المرجع السابق ١/١٩٦.

(٢) تفسير الطبري ٣/٢٤٩ ط. شاكر.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [سورة النساء: ١٥٠-١٥١]. ولهذا قال (تعالى) مخاطباً لهم ومبيناً تناقضهم في التفريق بين المتماثلات: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: ٨٥].

ز- ما جاء به محمد ﷺ تصديقٌ لما في التوراة والإنجيل، فلا ينبغي تكذيبه والكفر بما جاء به. قال (تعالى): ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [سورة البقرة: ٤٠-٤١]. وقال (تعالى): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨٩].

٢-ومن القضايا التي تعرض لها القرآن الكريم قضية تحريف أهل الكتاب لكتبهم، حيث جعلوا التوحيد شركاً، والمتابعة مشاقة، وأخفوا كل ما يشير إلى نبوة محمد ﷺ، وتحريفهم لكتبهم شمل الزيادة والنقصان والتبديل والإخفاء والكتمان:

قال (تعالى): ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [سورة النساء: ٤٦]. وقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٥] وقال (تعالى): ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [سورة البقرة: ٧٩]. وقال

(تعالى): ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٨]. وقال (تعالى): ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦]. وقال (تعالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سورة المائدة: ١٥].

٣-دعوى انتسابهم إلى الله عز وجل وأنهم أولى الناس به، وأن لهم عنده الأجر العظيم في الآخرة، وعلى فرض دخولهم النار فلن يمكثوا فيها إلا قليلاً.

قال (تعالى): ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٩]. قال السعدي رحمه الله: «فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحداً ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وأنتم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص. فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد

لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين»[(١)].

وقال (تعالى): ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٩٤-٩٦]؛ ولهذا قال لهم في آيـــــة أخرى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة الجمعة: ٦-٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما. «لو تمنى يهود الموت لماتوا» وفي رواية: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه».[(٢)] قال السكوني رحمه الله: «فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله ﷺ لتمنوا ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم

---

(١) تفسير السعدي ١/١٠٢-١٠٣.

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد ٥١/٤ ح : ٢٢٢٥ وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح. وانظر: فتح الباري ٧٢٤/٨ وهو من زيادات الإسماعيلي. قاله ابن حجر. وتفسير الطبري ٣٦٣/٢ برقم : ١٥٦٧وقال أحمد شاكر : إسناده منقطع،وبرقم: ١٥٦٨ وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح وظاهره هنا أنه موقوف على ابن عباس، لكنه مرفوع بالروايات الأخر . وانظر : تفسير ابن كثير ١٢١/١ وقال ابن كثير: وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس .

ولحقهم الوعيد فما تمالك أحد منهم أن يتمنى ذلك، وكانت هذه إحدى معجزات نبينا ﷺ»[1].

وزعم أهل الكتاب أن الجنة لهم من دون الناس، وأنهم على فرض دخولهم النار فلن يمكثوا فيها إلا قليلاً. فأبطل الله زعمهم، وأضل أمانيهم، فقال (تعالى): ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ١١١-١١٢].

وقال (تعالى): ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٠-٨١].

٤- دعوى كل طائفة الانتساب إلى إبراهيم وذريته عليهم السلام، وبيّن القرآن أن حقيقة الانتساب إليه هو الانتساب إلى ملته، وهي الحنيفية السمحة الخالية من الشرك، وهي التي عليها محمد ﷺ وأتباعه الكرام.

قال (تعالى): ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٠]. قال السعدي رحمه الله: «وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل

(١) عيون المناظرات ص: ١٢٩.

المذكورين من المسلمين. فرد الله عليهم بقوله: ﴿ءأنتم أعلم أم الله﴾؟ فالله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٧]. وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً، فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله (تعالى) هو الصادق العالم بذلك؟! فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان ـ حتى إنه من وضوحه ـ لم يحتج أن يقول: بل الله أعلم، وهو أصدق، ونحو ذلك؛ لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك. وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾»[1].

وقال (تعالى): ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ

---

(١) تفسير السعدي ١/١٠٣.

آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٦-٦٨].

بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [سورة البقرة: ١٣٥]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٥]، وملة إبراهيم هي التوحيد الخالص من الشرك، وهي التي أوصى بها بنيه وذريته، قال (تعالى): ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٠-١٣٣].

وعلى هذا فأولى الناس بإبراهيم هو النبي محمد ﷺ وأتباعه، لا اليهود ولا النصارى: قال (تعالى): ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة آل عمران: ٦٨].

٥-دعوى اليهود ـ عليهم لعائن الله- على مريم الطاهرة أنها ولدت عيسى عليه السلام من الزنا، وهذه القضية -على الرغم من خطورتها- لم يحفل بها النصارى، و لم يعيروها انتباههم، ولا اهتمامهم؛ حتى جاء القرآن الكريم فطهرها من هذه الفرية العظيمة ودافع عن عرض مريم، وشهد لها بإحصان فرجها، وعن منبت عيسى عليه السلام. وقد تقدم بيان مولد عيسى عليه السلام وأن شأنه شأن آدم، بل خلق آدم أبلغ

في الإعجاز من خلق عيسى. فعيسى آية من آيات الله (تعالى) كما قال (تعالى): ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [سورة المؤمنون: ٥٠].

أما طهارة مريم وعفتها، فقد أعلنها القرآن الكريم في مثل قوله (تعالى): ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [سورة التحريم: ١٢]، وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٢-٤٣].

وقد أكفر الله اليهود ولعنهم بسبب هذه المقالة وغيرها؛ حيث قال (تعالى): ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٥-١٥٦].

٦-دعوى أهل الكتاب قتل المسيح وصلبه، فاليهود يزعمون أنهم قتلوه وصلبوه، والنصارى يوافقون على هذا الزعم الفاسد، ويضيفون إليه ضلالاً آخر، وهو زعمهم أن المسيح مكّن أعداءه من نفسه ليفدي البشرية، ويخلصهم من خطيئة أبيهم آدم ـ على حد زعمهم ـ فأكذب الله الفريقين:

قال (تعالى): ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٧-١٥٨]. وقال (تعالى) في آية أخرى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة آل عمران: ٥٥].

أساليب القرآن الكريم في الجدل مع أهل الكتاب

تقدم بيان الأساليب العامة للجدل في القرآن الكريم، لكن للجدل مع أهل الكتاب أساليب خاصة، وإن كان بعضها قد يدخل في الأساليب العامة. والخصوصية إنما جاءت من حيث إن أهل الكتاب ينتسبون إلى جنس الرسالة الإلهية، فكانت أساليب الجدل معهم تناسب هذا الوضع الخاص، وأنا ذاكر هنا ما وقفت عليه من هذه الأساليب[1]:

١- **أسلوب التحدي**: وذلك لإظهار كذبهم في دعاويهم، كما جاء ذلك في قوله (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة الجمعة: ٦-٧] فتحداهم بتمني الموت ـ وذلك حين زعموا أنهم أولياء الله وأحباؤه ـ لملاقاة محبوبهم إن كانوا صادقين.

وتحداهم ـ أيضاً ـ بتمني الموت حين زعموا أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس؛ للتنعم بما أعده الله لأوليائه إن كانوا صادقين. قال (تعالى): ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٤-٩٥]، وكيف يتمنونه وهم أحرص الناس على حياة.

---

(١) انظر : الحوار مع أهل الكتاب ـ القاسم ص : ١٨٣ وما بعدها .

٢- أسلوب التهديد والتخويف: وذلك لأن أهل الكتاب يعلمون الحق - لا سيما اليهود منهم - ومع ذلك يكتمونه، فيُستعمل معهم أسلوب التهديد والتخويف. من ذلك قوله (تعالى): ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٩]. وقوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [سورة النساء: ٤٧].

٣-إظهار تناقضهم، من ذلك: إيمانهم ببعض الكتاب المنزل وكفرانهم بالبعض الآخر؛ كما قال (تعالى): ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: ٨٥]، وقال (تعالى): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩١].

ومن ذلك أمرهم الناس بالمعروف مع عدم التزامهم بذلك، وهم أحق لو كانوا يعقلون؛ قال (تعالى): ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٤].

٤- إظهار أن دعواهم مبنية على التحكم والتشهي؛ كما في قوله (تعالى): ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٧]. قال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية: «فهذا

هو الذي تسميه النظار والفقهاء التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاء ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان موافقاً لما تهواه وتشتهيه - إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده - قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج مفحم للخصم، لا جواب عليه البتة»[(١)].

عن سعيد بن جبير قال : «جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوارة على موسى، أما تجد في التوارة أن الله يبغض الحبر السمين؟[(٢)] وكان حبراً سميناً، فغضب، فقال: والله، ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه الذين معه: ويحك! ولا موسى! فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء! فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [سورة

(١) بدائع الفوائد ٤/١٤٤.

(٢) هذه اللفظة على فرض صحتها، لعلَّ المقصود : أنها موجودة في التوراة التي بين أيدي اليهود، ولا يعني أنه كلام شرعي صحيح، وهو من باب الاحتجاج على الخصم بما في يده، مما يعتقد هو صحته، وإن لم يكن كذلك في نفس الأمر. أو أن الله تعالى يبغض الحبر السمين، بمعنى أن الحبر أصاب السمن بأسباب مكروهة، أو محرمة، من الإسراف في المطعومات، والإخلاد إلى الراحة، وترك العبادات. إذ السمن والهزال المجردان لا يشملهما بغض ولا رضى . والله أعلم .

الأنعام: ٩١]»[1]. فتبين تناقضه، وظهر انقطاعه؛ لأن التوراة شيء وموسى بشر، بل من أفضل البشر، والحبر يخاصم النبي ﷺ عن اليهودية، فإذا أنكر التوراة أن تكون كتاباً منزلاً، سقط ما بيده، وبطلت خصومته، وإن أقر بها بطل قوله: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ فهو منقطع من كل وجه.

وروي أن قومه قالوا له: ويلك، ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: إنه أغضبني، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف[2].

٥- الاستدلال عليهم بما في أيديهم من الكتاب، من ذلك: الاستدلال على نبوة محمد ﷺ بوجود ذكره وصفته في التوراة والإنجيل الموجودين لدى أهل الكتاب. قال (تعالى): ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ومن ذلك ـ أيضاً ـ قوله (تعالى): ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ*

---

(١) تفسير الطبري ٥٢١/١١-٥٢٢ ط. شاكر برقم: ١٣٥٣٥، وانظر: عيون المناظرات ـ السكوني ص: ١٤٨-١٤٩.

(٢) عيون المناظرات ص: ١٤٨-١٤٩.

فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٣-٩٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإذا أراد المجادل منهم ـ أي من أهل الكتاب ـ أن يذكر ما يطعن في القرآن بنقل أو عقل، مثل أن ينقل عما في كتبهم عن الأنبياء ما يخالف ما جاء به محمد ﷺ أو خلاف ما ذكره الله في كتبهم، كزعمهم للنبي ﷺ أن الله أمرهم بتحميم الزاني دون رجمه، أمكن للنبي ﷺ والمؤمنين أن يطلبوا التوراة ومن يقرؤها بالعربية ويترجمها من ثقات التراجمة، كعبد الله بن سلام ونحوه لما قال لحبرهم: ارفع يدك عن آية الرجم، فإذا هي تلوح[1]، ورجم النبي ﷺ الزانين منهم بعد أن أقام عليهم الحجة من كتابهم»[2].

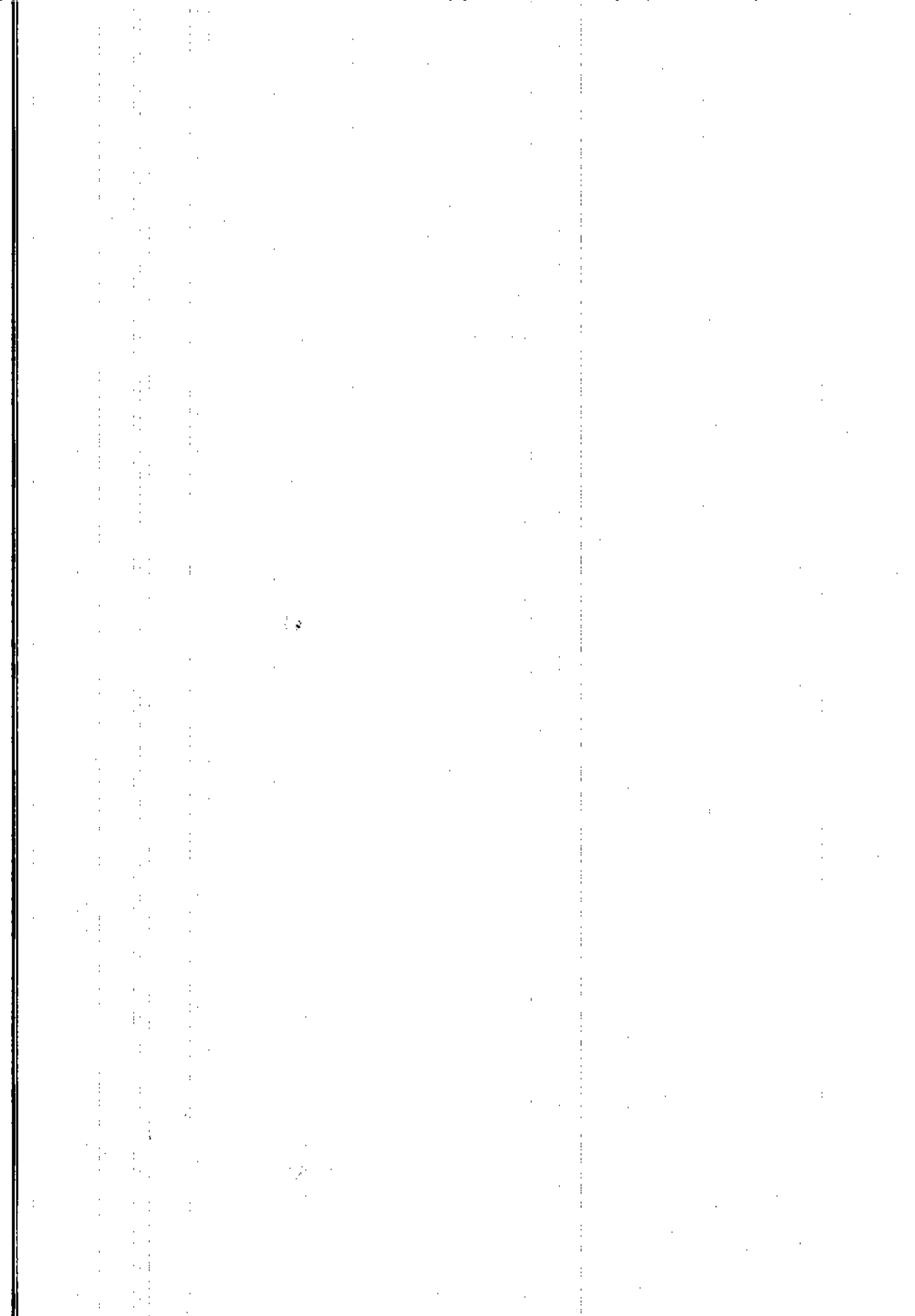
٦- الاحتجاج عليهم بمخالفتهم لصريح العقل، وذلك بعد أن خالفوا الشرع المنزل، فجمعوا بين مخالفة النقل الصحيح والعقل الصريح، من ذلك تفريقهم بين المتماثلات، حيث فرقوا في الإيمان بين رسل الله وكتبه كما قال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ١٢٨/١٢ كتاب حدود ـ باب الرجم في البلاط ح: ٦٨١٩، و ٥١٦/١٣ كتاب التوحيد ـ باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها ... ومسلم في صحيحه ١٣٢٦/٣ كتاب الحدود ـ باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا ح: ١٦٩٩، وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد.

(٢) مجموع الفتاوى ١١٠/٤.

اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [سورة النساء: ١٥٠-١٥١] ومن ذلك - أيضاً - دعواهم أن إبراهيم الخليل منهم مع الفارق الكبير بين زمن الخليل وزمن بني إسرائيل؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تعقلون﴾ [سورة آل عمران: ٦٥].



المبحث الرابع
الأصناف الذين ذكر القرآن جدلهم

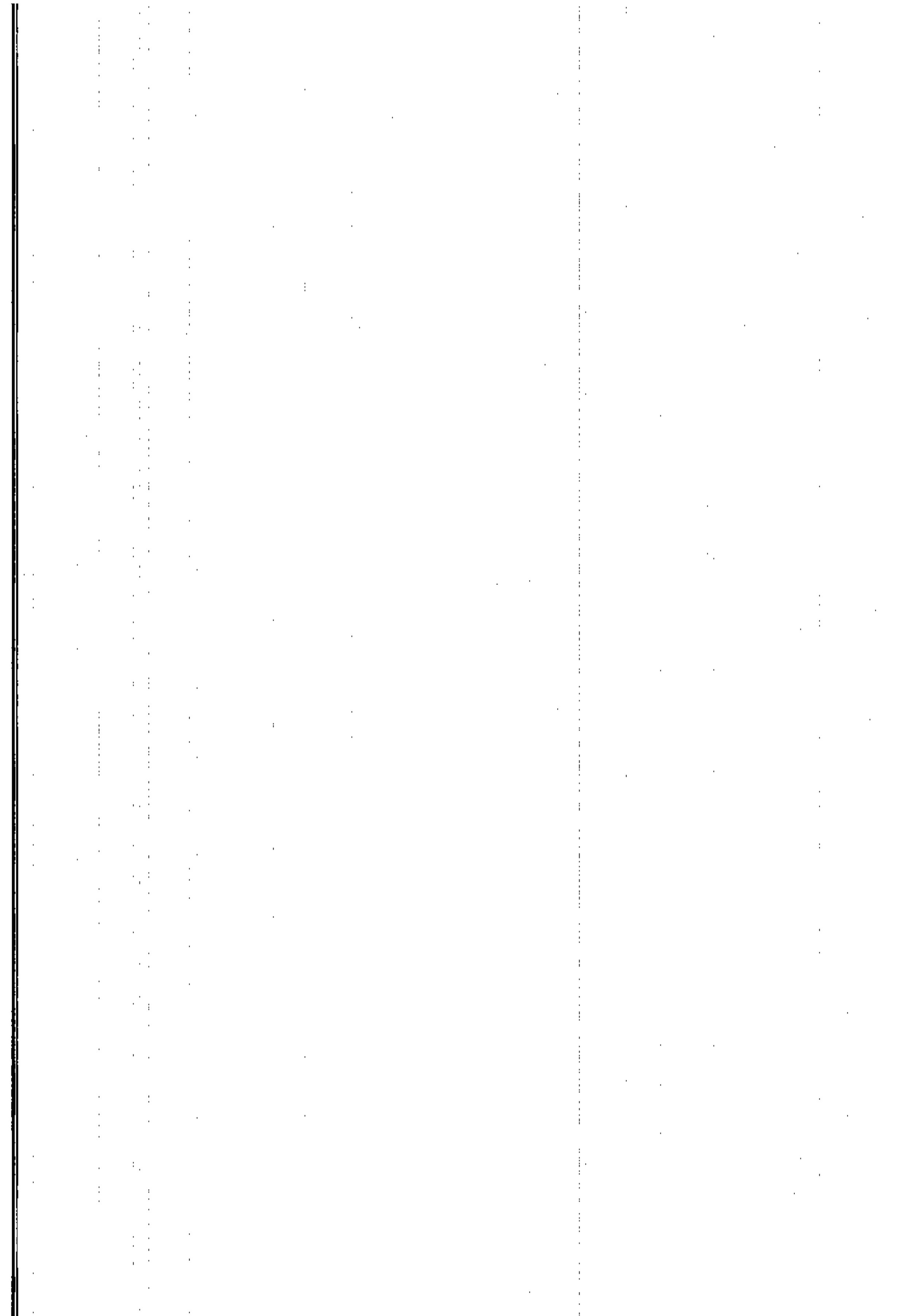
وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: جدل إبليس اللعين

المطلب الثاني: جدل الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم

المطلب الثالث: جدل المؤمنين مع الكافرين

المطلب الرابع: جدل أهل الجنة وأهل النار



المطلب الأول

جــدل إبليس اللعين

وهو ما قصه الله (تعالى) في كتابه من شأن معارضة إبليس أمره بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام، وتفضيل نفسه عليه، وقد ذكرها الله (تعالى) في مواضع من كتابه، ولعلها أول مناظرة - على وجه المدافعة والاعتراض - يذكرها القرآن ويدونها لنا التأريخ؛ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : «قاس إبليس، وهو أول من قاس»[1]. وقال محمد بن سيرين رحمه الله: «أول من قاس إبليس»[2]. ومقصودهما القياس الفاسد، لا القياس الصحيح، كما قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «كان الحسن وابن سيرين يقولان: أول من قاس إبليس، يعنيان بذلك القياس الخطأ »[3]. وإليك نماذج من مناظرة إبليس لعنه الله:

قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ١٢/٣٢٨ برقم : ١٤٣٥٦ ط. شاكر . وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره ٢/١٩٤ .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ١٢/٣٢٨ برقم : ١٤٣٥٥ ط. شاكر. وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره ٢/١٩٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٢/٣٢٧ ط. شاكر .

* قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١١-١٨].

وقال (تعالى): ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر: ٢٨-٤٣]

وقال (تعالى): ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٦١-٦٥]

وقال (تعالى): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص: ٧١-٨٥]

فالحجة الإبليسية التي اعتمدها اللعين في الامتناع عن السجود لآدم تقوم على مقدمات، وصورت في قياسين متداخلين:(١)

أحدهما: أن إبليس مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين.

والثاني: أن إبليس خير من آدم، وخير المخلوقين لا يسجد لمن هو دونه.

فتكون نتيجة القياس الأول: أنا خير منه. وتكون نتيجة القياس الثاني: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من حمأ مسنون.

لكن حجة إبليس فاسدة من عدة وجوه:

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة ٣/٩٩٩.

١- أن سجود الملائكة كان طاعة لله (تعالى) وإكراماً لآدم وإعظاماً واحتراماً وسلاماً[(١)]. فلم يكن سجودهم عبادة لآدم، فالعبادة لا تكون إلا لله (تعالى)، لكنه كان من جهة طاعة لله، ومن جهة إكراماً لآدم. فخالف إبليس اللعين الأمرين، والله (تعالى) يأمر عباده بما شاء، ولهذا قال (تعالى) لإبليس لعنه الله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ...﴾ [سورة الأعراف: ١٢].

٢- أن اعتراض إبليس من باب معارضة النص بالرأي والوحي بالهوى، ولهذا قال الشهرستاني رحمه الله: «اعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس لعنه الله، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة آدم عليه السلام وهي الطين»[(٢)].

والأصل أن يكون الوحي حاكماً والنص قاطعاً عند من كان عبداً لله (تعالى)، مربوباً له. ولهذا كان اعتراف إبليس بربوبية الله (تعالى) كما في قوله: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ [سورة الحجر: ٣٦] وقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ...﴾ [سورة ص: ٨٢] ملزماً له بطاعة الله وإنفاذ أمره، لكنه: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/٧٥.

(٢) الملل والنحل ١/١٦.

٣- أن فضل آدم على إبليس بين واضح، ولا يحتاج إلى إعمال نظر حيث خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته؛ قال (تعالى): ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٧٢]؛ ولهذا قال (تعالى) لإبليس بعد امتناعه عن السجود لآدم: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: ٧٥]. وعلمه الأسماء كلها، كما قال (تعالى): ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ [سورة البقرة: ٣١] .

٤- أن تفضيل إبليس لعنصره -وهو النار- على عنصر آدم- وهو الطين والتراب- فاسد من عدة وجوه ذكرها أهل التفسير، واستوعبها الحافظ ابن القيم رحمه الله وزاد عليها، من ذلك:[1]

أ- أن التراب طبعه السكون والرزانة والنار بخلافه، وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: «فجهل عدو الله وجه الحق وأخطأ سبيل الصواب، إذ كان معلوماً أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث ـ بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق ـ على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطب والهلاك، وكان معلوماً أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبُّت، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك كان

(١) انظر : الصواعق المرسلة ٣/١٠٠٤-١٠٠٧ ، وتفسير الطبري ١٢/٣٢٦-٣٢٧ ط. شاكر ، وتفسير ابن كثير ٢/١٩٤.

الداعي لآدم ـ بعد السعادة التي كانت سبقت له مـن ربـه في الكتـاب السابق ـ إلى التوبة من خطيئته ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة ».[(١)]

ب– أن التراب مادة الحيوان والنبات والأقوات، والنار بخلافه. قال (تعالى): ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [سورة طه: ٥٣-٥٤].

ج– أن التراب والماء والطين لا يمكن لأحد أن يعيش بدونه وبدون ما خلق منه البتة، ويمكنه أن يعيش برهة بلا نار؛ قالت عائشة رضي الله عنها لعروة ﷺ: «ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: ما كان يُعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء...».[(٢)]

د– أن الأرض تؤدي إليك بما فيها من البركة أضعاف أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، وتربيه لك، وتغذيه وتنميه، والنار تفسده عليك، وتمحق بركته.

هـ– أن النار طبعها العلو والفساد، وأن الله لا يحب المستكبرين ولا يحب المفسدين، والأرض طبعها الخشوع والإخبات، والله يحب المخبتين الخاشعين.

---

(١) تفسير الطبري١٢/٣٢٧ . ط. شاكر .

(٢) صحيح البخاري ١١/٢٨٣ (فتح الباري) كتاب الرقاق ـ باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه ... ح : ٦٤٥٩.

و- أن النار لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من محل تقوم به لا تستغني عنه، وهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها وتأثيرها، والأرض قائمة بنفسها، لا تحتاج إلى محل تقوم به، ولا يفتقر قوامها ونفعها إلى النار.

ز- أن التراب يفسد صورة النار، ويبطلها ويقهرها، وإن علت عليه.

٥- قال ابن القيم رحمه الله: «إن قوله: ﴿أنا خير منه﴾ كذب، ومستنده في ذلك باطل، فإنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة، تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى، فإن الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته سبحانه، ولهذا كان محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح والرسل أفضل من الملائكة، ومذهب أهل السنة أن صالحي البشر أفضل من الملائكة[1]، وإن كانت مادتهم نوراً، ومادة البشر تراباً، فالتفضيل ليس بالمواد والأصول، ولهذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خيراً وأفضل عند الله ممن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم»[2].

ثم بعد أن عصى إبليس ربه استكباراً وعلواً، طرده الله (تعالى) من رحمته ولعنه وجعله من الكافرين، فطلب اللعين أن يُنظر إلى يوم القيامة،

---

(١) هذه مسألة خلافية، انظر: شرح الطحاوية ٢/٤١٠ وما بعدها، والحبائك في أخبار الملائك للسيوطي ص: ١٥٦ وما بعدها.

(٢) الصواعق المرسلة ٣/١٠٠٢-١٠٠٣.

فأجابه الله (تعالى) لكن إلى يوم الوقت المعلوم كما قال (تعالى): ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [سورة الحجر: ٣٤-٣٨].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله عند قوله (تعالى): ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤-١٥] قال رحمه الله: «وهذه - أيضاً - جهلة أخرى من جَهَلاته الخبيثة، سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه، وذلك أنه سأل النَظِرَة إلى قيام الساعة، وذلك هو يومٌ يبعث فيه الخلق، ولو أعطي ما سأل من النظرة كان قد أعطي الخلود، وبقاءً لا فناء معه، وذلك أنه لاموت بعد البعث، فقال جل ثناؤه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [سورة الحجر: ٣٧-٣٨] وذلك إلى اليوم الذي قد كتب الله عليه فيه الهلاك والموت والفناء؛ لأنه لا شيء يبقى، فلا يفنى غير ربنا الحي الذي لا يموت»[١].

فلما استوثق إبليس اللعين من الإنظار، أخذ في المعاندة والتمرد بدل الإنابة والتوبة[٢]، فقال: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف:

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٣٣٠ ط. شاكر .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢/١٩٥.

١٦-١٧] فقــال الله له: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٨].

وقال له: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر: ٤١-٤٣]. وقال (تعالى): ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٦٣-٦٥]

حكاية مناظرة بين إبليس والملائكة:

ذكر الشهرستاني[1] رحمه الله أن شبهة إبليس لعنه الله التي مصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها على مادة آدم عليه السلام. أن هذه الشبهة تشعبت منها سبع شبهات سارت في الخليقة، وسرت في أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلالة، ثم قال: «وتلك الشبهات مسطورة في شرح الأناجيل الأربعة: إنجيل لوقا، ومارقوس، ويوحنا، ومتى، ومذكورة في التوراة متفرقة على شكل مناظرات بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود، والامتناع منه.

(١) انظر: الملل والنحل ١/١٦-١٨.

قال كما نقل عنه: إني سلمت أن الباري (تعالى) إلهي وإله الخلق، عالم قادر، ولا يسأل عن قدرته ومشيئته، وأنه مهما أراد شيئاً قال له كن فيكون، وهو حكيم إلا أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة: قالت الملائكة: ما هي، وكم هي؟ قال لعنه الله: سبعة.

الأول منها: أنه قد علم قبل خلقي أي شيء يصدر عني ويحصل مني، فلم خلقني أولاً؟ وما الحكمة في خلقه إياي.

والثاني: إذ خلقني على ما مقتضى إرادته ومشيئته، فلم كلفني بمعرفته وطاعته؟ وما الحكمة في هذا التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية؟.

والثالث: إذ خلقني وكلفني فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة فعرفت وأطعت، فلم كلفني بطاعة آدم والسجود له؟ وما الحكمة في هذا التكليف على الخصوص بعد أن لا يزيد ذلك في معرفتي وطاعتي إياه؟.

والرابع: إذ خلقني وكلفني على الإطلاق، وكلفني بهذا التكليف على الخصوص، فإذا لم أسجد لآدم، فلم لعنني وأخرجني من الجنة؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحاً إلا قولي: لا أسجد إلا لك؟.

والخامس: إذ خلقني وكلفني مطلقاً وخصوصاً، فلم أُطع فلعنني وطردني، فلم طرّقني إلى آدم حتى دخلت الجنة ثانياً، وغررته بوسوسي؛ فأكل من الشجرة المنهي عنها، وأخرجه من الجنة معي؟ وما الحكمة في

ذلك بعد أن لو منعني من دخول الجنة لاستراح مني آدم وبقي خالداً فيها؟.

والسادس: إذ خلقني وكلفني عموماً، وخصوصاً، ولعني، ثم طرقني إلى الجنة، وكانت الخصومة بيني وبين آدم، فلم سلطني على أولاده حتى أراهم من حيث لا يرونني، وتؤثر فيهم وسوستي، ولا يؤثر في حولهم وقوتهم وقدرتهم واستطاعتهم؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يجتالهم عنها فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين، كان أحرى بهم وأليق بالحكمة؟.

والسابع: سلمت هذا كله: خلقني وكلفني مطلقاً وقصداً، وإذ لم أطع لعنني وطردني، وإذ أردت دخول الجنة مكنني وطرقني، وإذ عملت عملي أخرجني ثم سلطني على بني آدم، فلم إذ استمهلته أمهلني، فقلت: ﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤] قال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [سورة الحجر: ٣٧-٣٨] وما الحكمة في ذلك بعد أن لو أهلكني في الحال استراح آدم والخلق مني، وما بقي شر ما في العالم؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير خيراً من امتزاجه بالشر؟.

قال هذه حجتي على ما ادعيته في كل مسألة.

قال شارح الإنجيل: فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام: قولوا له: إنك في تسليمك الأول أني إلهك وإله الخلق غير صادق، ولا مخلص، إذ لو صدقت أني إله العالمين، ما احتكمت علي بلم، فأنا الله الذي لا إله إلا أنا، لا أسأل عما أفعل، والخلق مسئولون.

قال الشهرستاني رحمه الله: وهذا الذي ذكرته مذكور في التوراة ومسطور في الإنجيل على الوجه الذي ذكرته.

ونقل ابن القيم رحمه الله[1] هذه الحكاية عن كتاب الملل للشهرستاني، ثم قال بعد ذلك[2]: «فهذه القصة والمناظرة هي من نقل أهل الكتاب، ونحن لا نصدقها ولا نكذبها، وكأنها - والله أعلم - مناظرة وضعت على لسان إبليس. وعلى كل حال فلا بد من الجواب عنها، سواء صدرت منه، أو قيلت على لسانه، فلا ريب أنها من كيده، وقد أخبر الله سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: ٧٦] » ثم ساق رحمه الله وجوهاً من الردود على شبه إبليس المتقدمة، أختار بعضاً منها في هذا الموضع:

الوجه الأول[3]: وهو شبيه برد الملائكة على شبه إبليس، وهو أن نقول لعدو الله: قد ناقضت في أسئلتك ما اعترفت به وسلمته غاية المناقضة، وجعلت ما أسلفته من التسليم والاعتراف مبطلاً لجميع أسئلتك، متضمناً للجواب عنها قبل ذكره، وذلك أنك قلت: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي...﴾ [سورة الحجر: ٣٩]. وقلت: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٢] وقلت: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: ٨٢-٨٣]. فاعترفت بأنه ربك وخالقك ومالكك، وأنك مخلوق له مربوب تحت أوامره ونواهيه، إنما شأنك أن تتصرف في نفسك تصرف العبد المأمور

---

(١) انظر : الصواعق المرسلة ٤/١٥٣٨-١٥٤١.

(٢) المرجع السابق ٤/١٥٤٥.

(٣) المرجع السابق ٤/١٥٥١-١٥٥٢.

المنهي، المستعد لأوامر سيده ونواهيه، وهذه هي الغاية التي خلقت لها، وهي غاية الخلق وكمال سعادتهم وصلاحهم.

وهذا الاعتراف منك بربوبيته وقدرته وعزته يتضمن إقرارك بكمال علمه وحكمته وغناه، وأنه في كل ما أمر به عليم حكيم لم يأمر عبده بحاجة منه إلى أمره به، ولم ينهه بخلاً بما نهاه عنه، بل أمره رحمة منه به، وأحساناً إليه، بما فيه صلاحه في معاشه ومعاده...

الوجه الثاني[١]: أن نقول لعدو الله: إما أن تسلم حكمة الله في خلقه وأمره، وإما أن تجحدها وتنكرها، فإن سلمتها وأنه سبحانه حكيم في خلقه وفي أمرك بالسجود بطلت الأسئلة، وإن رجعت عن الإقرار له — سبحانه ـ بالحكمة وقلت: إنه لا يفعل لحكمة البتة، بل لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فما وجه إيراد هذه الأسئلة على من لم يفعل بحكمة، ولا يسأل عما يفعل. والواقع أنك أوردت أسئلتك على من لا يسأل عما يفعل، وطعنت في حكمة من كل أفعاله حكمة ومصلحة وعدل وخير بمعقولك الفاسد، وعقلك الصغير الذي آثرت به داعي الكبر والكفر على داعي العبودية والإيمان.

والوجه الثالث[٢]: أن مثل هذا النمط من الاعتراضات والأسئلة فاسد عند جميع أهل الأرض؛ فإنه يتضمن اعتراض الجاهل على أحذق

---

(١) المرجع السابق ٤/١٥٥٤-١٥٥٥.

(٢) المرجع السابق ٤/١٥٥٨-١٥٥٩.

الناس صناعة، قد أحكم آلاتها وأسبابها، وقدَّرها على أكمل الوجوه وأحسنها وأوفقها لما يقصد منها، فجاء رجل جاهل لا مناسبة بينه وبين ذلك الحاذق بوجه ما، فأخذ يعترض عليه في أجزاء تلك الصناعة وآلاتها وأشكالها ومقاديرها، وغير ذلك مما يسخر منه العقلاء، ويعدون صاحبه في زمرة السفهاء - مع أنه يمكن المعترض مشاركة ذلك الأستاذ الحاذق في صناعته، ومساواته فيها، وتقدمه عليه فيها - فإذا كان اعتراضه عليه مدفوعا عند كل عاقل، فما الظن بالاعتراض على من لا شريك له في حكمته، ولاشبيه له فيها، وكذا في علمه وقدرته وغناه وسائر صفاته.

الوجه الرابع[1]: أن يقال لعدو الله: إيرادك هذه الأسئلة إما أن تكون على وجه الطعن في الرب (تعالى) ، وأنه فعل ما لا ينبغي له فعله، أو على وجه الاسترشاد وطلب الهداية. فإن كان على وجه الطعن والقدح، فكيف تجامع اعترافك بربوبيته وملكه وخلقه، وإقرارك بعزته وحكمته ثم تقدح فيه؟!

وإن كان على وجه الاسترشاد وطلب الحكمة، فذلك فرع عن التسليم لأمره، والإذعان لعبوديته، والانقياد لحكمته، فلا يجتمع مع تصريحك بالعداوة والكفر والاستكبار عن طاعته.

الوجه الخامس[2]: أن الرب سبحانه له الكمال المطلق الذي يستحق عليه الحمد، وسبحانه لا يصدر منه إلا ما يُحمد عليه، وحمد الله على

---

(١) المرجع السابق ١٥٥٩/٤.

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ٣٠٩/١-٣١٠.

نوعين: حمد يستحقه لذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وحمد يستحقه على أفعاله التي مدارها على الحكمة والمصلحة والعدل والإحسان والرحمة.

فإذا كان الله محموداً على أفعاله كلها لم يكن فيها مناف للحكمة، إذ لو كان فيها ما هو كذلك، لم يكن محموداً عليه، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، فحمده شامل لما شمله ملكه، ولا يخرج شيء عن حمده، كما لا يخرج شيء عن ملكه.

إلى غير ذلك من الوجوه التي وصلت إلى ثلاثة وعشرين وجهاً، في بعضها إجابة عن أعيان الأسئلة التي أثارها اللعين، فليراجعها من أراد الوقوف عليها[1].

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة ١٥٣٨/٤-١٥٧٥، ٩٩٨/٣-١٠٠٨، ومختصر الصواعق المرسلة ٣٠٣/١-٣٨٠، وقد جمعها أبو أسامة سليم الهلالي في رسالة لطيفة بعنوان: حجة إبليس.

المطلب الثاني

جدل الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم

أولاً: جدل نوح عليه السلام مع قومه:

لقد جاء نوح عليه السلام إلى قومه بدعوة التوحيد، وإفراد الله (تعالى) بالعبادة ونبذ الشركاء، وبذل في ذلك كل وسعه، واستفرغ كل جهده، وأتاهم من كل سبيل يدعوهم إلى الحق والرشاد، فلم يجد منهم إلا كل صدود ونفور، وقد صوَّر ذلك القرآن الكريم على لسان نوح فقال (تعالى): ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [سورة نوح: ٥-٢٠]. فها هو عليه السلام يستخدم معهم كل طرائق الدعوة جهاراً وإسراراً، وفي كل وقت: ليلاً ونهاراً، ترغيباً وترهيباً، واستدلالاً بآلاء الله وعظيم قدرته، وغير ذلك من الطرق الأخاذة بمعاقد العقول، ومجامع القلوب، لكنه قال بعد ذلك: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي

وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [سورة نوح: ٢١-٢٧]. قال ابن كثير رحمه الله: «وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً»[(١)].

ولاشك أن هذه الدعوة الحثيثة من نوح لقومه كانت تتخللها مناظرات ومجادلات، وهو ما حكاه القرآن الكريم في مواضع عدة، أختار منها ما جاء في سورة هود، وهو قوله (تعالى): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [سورة هود: ٢٥-٢٧].

فهذه خمس اعتراضات أثارها الملأ الذين كفروا ــ وهم الرؤساء والسادة والكبراء من قوم نوح ـ في وجه نوح عليه السلام، وهي[(٢)]:

١- الزعم بأن بشرية نوح تمنع أن يكون رسولاً من عند الله، فكيف اختاره الله من بينهم لرسالته. وقد حكى الله اعتراضهم هذا في سورة

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٢٨.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٢٤، وتفسير السعدي ٢/٣٦٢.

المؤمنون، قال (تعالى): ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ٢٤].

٢- الزعم بأن أتباعه من الضعفاء والفقراء وأصحاب الحرف؛ فلو كان ما جاء به نوح حقاً لاتبعه علية القوم وأشرافهم، فلما اتبعه الأراذل دل على أنه ليس بحق كما قال الله (تعالى) عن مشركي قريش: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ...﴾ [سورة الأحقاف: ١١].

٣- الزعم بأن أتباع نوح لم يتبعوه عن ترو منهم وفكر وعمق نظر، وهذا دليل سذاجتهم وقصر نظرهم.

٤- الزعم بأن نوحاً وأتباعه ليس لهم من فضيلة على قومهم في خلْق، ولا في رزق، ولا تغيَّر حالُهم بعد أن دخلوا هذا الدين الجديد.

٥-الزعم بأن دعوى نوح الرسالة كاذبة.

فأجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود: ٢٨-٣١].

وقد تضمن جواب نوح الرد على اعتراضات قومه وزيادة؛ فمن ذلك:

١- بيان أنه رسول من عند الله، وأنه على يقين من ذلك وأن دعوته حق، ولا يشكك فيها خفاؤها على قومه؛ ولهذا فهو يدعوهم ولا يكرههم إذ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦] .

٢- أنه بشر ليس بملك، وهذا لا ينفي عنه صفة الرسالة، بل هذا من رحمة الله بهم أن أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه ويعرفهم، ويتمكنون من تكليمه ومراجعته ومعايشته، وكونه اختصه الله من بينهم بالرسالة، فهذا محض فضل من الله ورحمة من عنده والله يختص برحمته من يشاء.

٣- ومما يدل على بشريته أنه لا يملك خزائن الله (تعالى)، ولا يعلم الغيب، وليس بملَك، بل هو بشر، لكنه يوحى إليه من عند الله.

٤- أن نوحاً ـ كسائر الرسل ـ لا يبتغي من وراء دعوته مالاً ولا أجراً، بل هو يدعو إلى الله ويبتغي الأجر منه، وذلك قطعاً لظنهم به أنه إنما يريد بذلك جاهاً أو مالاً.

٥- أما هؤلاء الذين استجابوا لدعوته وآمنوا برسالته فليس بطاردهم، وكأنهم طلبوا منه ذلك احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد جماعة من الضعفاء، ويجلس معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله (تعالى): ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ

﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٢]. ولهذا قال نوح هنا: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود: ٣١]، ثم قال (تعالى): ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٣].

ثم إن الحالة المادية للشخص ليست دليلاً على هدايته أو ضلاله، ولا دليلاً على كرامته عند الله أو شقاوته؛ كما قال (تعالى): ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا...﴾ [سورة الفجر:١٥- ١٧] أي ليس الأمر كذلك. ولهذا قال نوح هنا: ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا﴾. فليست حالتهم الظاهرة دليلاً على حرمانهم مما عند الله من الأجر والثواب، بل الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كان باطنهم من الإيمان موافقاً لما ظهر منهم من الاستجابة لله ولرسوله، فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحدٌ بشرٍ بعدما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به[1].

٦-وصفهم بالجهل إذ ردوا الحق وكذبوا به لأجل أنه بشر، وأن أتباعه من الضعفاء المفضولين، بل طلبوا منه أن يطردهم.

فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٤٢٥.

الصادقين﴾ [سورة هود: ٣٢] استعجلوا عقاب الله (تعالى)، وهذا من فرط جهلهم وعظيم ضلالهم، وقد قال أمثالهم من مشركي العرب: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأنفال: ٣٢]. قال ابن كثير رحمه الله: «هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة، كقوله (تعالى): ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٣]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ١٦]»[(١)].

فقال نوح عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة هود: ٣٣-٣٤]. فالله (تعالى) وحده هو الذي يعاقبكم ويعجله لكم متى شاء ولا يعجزه شيء، ولا يجدي إنذاري إياكم ونصحي لكم إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، فهو المالك لأزمّة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور...[(٢)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٩١.

(٢) انظر: المرجع السابق ٢/٤٢٥.

ثم قال (تعالى): ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [سورة هود: ٣٥]. ذكر ابن كثير وغيره أن هذا كلام معترض في وسط القصة مؤكد لها ومقرر لها، وموجه إلى النبي ﷺ [1]. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى نوح.[2] وعلى كل حال، فالمقصود أن كل واحد عليه وزره لا يتعداه إلى غيره، وقد قال (تعالى): ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة يونس: ٤١].

فلما استعصوا عليه، وأبوا دعوته، وأعرضوا عن سماعه، بل هددوه إن لم يكف عنهم: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١١٦-١١٨]. استعجلوا عذاب الله وعقابه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة هود: ٣٢] فكان ما طلبوه واستعجلوه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ

---

(١) انظر : المرجع السابق ٢/٤٢٥.

(٢) انظر : تفسير السعدي ٢/٣٦٥.

ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة هود: ٣٦-٤٨].

ثانياً: جدل هود عليه السلام مع قومه:

قال (تعالى): ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٦٥-٦٩].

فلما دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده اتهموه بالسفه والكذب، فنفى عن نفسه أن يكون كذلك، وبين لهم أنه رسول رب

العالمين، ومن صفاته ـ كما هي صفات كل الرسل ـ البلاغ والنصح والأمانة. وأمرهم بترك العجب من بعث الله (تعالى) لهم رسولاً من عند أنفسهم، وذكرهم بما يمن الله عليهم من النعم؛ ومن ذلك: أن جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح الذي أهلك الله أهل الأرض لمَّا خالفوه وكذبوه، وفي ذلك أعظم عبرة لهم، وأكبر تحذير لهم، ومنها ـ أيضاً ـ زيادتكم في الطول[1]. وغير ذلك من نعم الله وأفضاله عليهم، ولكنهم كانوا يستعملون هذه النعم في اللهو العبث والتعدي على الآخرين، كما قال (تعالى) عنهم في آيات أخر: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [سورة فصلت: ١٥]. ومنها قوله (تعالى): ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ١٢٨-١٣٥].

فبعد أن دعاهم هود إلى عبادة الله وحده، وذكَّرهم بنعمه عليهم، وأمرهم بطاعته، والانقياد لأمره الله، وخوَّفهم من عذاب الله بسبب المخالفة والإعراض: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٧٠].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٢١٥ .

وقال (تعالى) في سورة هود: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سورة هود: ٥٣-٥٧].

وقال (تعالى): ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي أن ما هم عليه هو دين الآباء والأجداد: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سورة الشعراء: ١٣٦-١٣٨]

فلما كذبوه واستعجلوا عذاب الله قال لهم هود ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾: [سورة الأعراف: ٧١] : أي وجب عليكم بمقالتكم هذه: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٧١-٧٢].

وقال (تعالى): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء: ١٣٩-١٤٠]. وكان قد أهلكهم الله بالريح العقيم، كما قال (تعالى): ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا

يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٤-٢٥]. وقال (تعالى): ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [سورة الحاقة: ٦-٨].

ثالثاً: جدل صالح عليه السلام مع قومه:

قال (تعالى): ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: ٧٣].

وكانوا قد طلبوا منه آية على صدقه كما: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ١٥٣-١٥٦].

فصالح عليه السلام - كغيره من الرسل - دعا قومه إلى التوحيد وعبادة الله وحده، فأنكر عليه قومه ذلك؛ كما في قوله (تعالى): ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [سورة هود: ٦٢-٦٣] فقومه في شك من أمره لكنه على يقين جازم، وأنه رسول الله، ولا يملك أن يخالف ربه، إذ في مخالفته خسارة وأي خسارة، لا يملك أحد دفعها عنه. ثم ذكّرهم بنعم الله عليهم؛ حيث قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ

مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٧٤] وقال (تعالى): ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [سورة الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

لكن لم يُجْدِ معهم الوعظ ولا التخويف ولا التذكير بنعم ا لله، بل كذبوا صالحاً، وكفروا بالذي جاء به من الحق كما قال (تعالى): ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٧٥-٧٦].

ثم لجوا في طغيانهم وعتوهم، فعقروا ناقة ا لله التي كانوا قد طلبوها آيةً على صدق صالح عليه السلام ،واستعجلوا عذاب ا لله وأليم عقابه. قال (تعالى): ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٧٧-٧٨]. وقال (تعالى): ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [سورة هود: ٦٥-٦٨] .

رابعاً: جدل شعيب عليه السلام مع قومه:

قال (تعالى): ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٥-٨٧].

فشعيب عليه السلام كغيره من الأنبياء دعا قومه إلى عبادة الله وحده، وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ولفصاحة عبارته، وجزالة موعظته[1]. وكان قومه أهل كفر بالله وبخس للمكيال والميزان[2]. وبين لهم أن الله أقام الحجج والبينات على صدق ما جاءهم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس في المكيال والميزان وعدم ضيافتهم بعضهم بعضاً، ودعاهم إلى الكف عن الإفساد في الأرض ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾. وفي سورة هود قال شعيب لهم: ﴿بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ ». قال ابن جرير رحمه الله: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿بقيت الله خير لكم﴾ ما أبقاه الله لكم بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٢٤٨/٧، وتفسير ابن كثير ٢٢٢/٢.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٢٤٨/٧.

بالقسط، فأحلّه لكم، خير لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم الناس من حقوقهم بالمكيال والميزان».[(١)] ثم قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [سورة الأعراف: ٨٨-٨٩] أي: اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعدما نجانا الله منها، وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد[(٢)]. وهذا تجرد وصدق وإخلاص من أنبياء الله (تعالى) ومحصله أن الحق ثابت، وإن تحول عنه أهله وأصحابه، وإن كان يعز على أمثالهم أن يفعلوا ذلك عن اختيار منهم، ولهذا قال شعيب بعدها: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [سورة الأعراف: ٨٩] .

فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة:

من جهة أنه ومن معه كارهون لها، مبغضون لما عليه قومه من الشرك، ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون، ومنها: اعترافه ومن معه بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

---

(١) تفسير الطبري ٤٤٧/١٥ ط. شاكر .

(٢) انظر : تفسير السعدي٢/١٣٤-١٣٥ .

ومنها: أن عودتهم فيها ـ بعدما هداهم الله ـ من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله (تعالى) والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأمحل المحال. وحيث أن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال. وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب، وتوافقت القوى، فإنهم لايحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه؛ ولهذا استثنى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [سورة الأعراف: ٨٩].

ثم نهاهم عن القعود على الطرق المفضية إلى شعيب، وصد من أراد المجيء إليه، وتوعده بالقتل ونحوه[١]. ثم ذكرهم بنعم الله عليهم إذ كانوا قليلاً فكثرهم، إما بالعدد أو بالغنى بعد الفقر، ومثله قول شعيب لهم كما: ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [سورة هود: ٨٤].

ثم وجههم إلى النظر إلى حال الأمم السابقة، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال بسبب اجترائهم على معاصي الله (تعالى) وتكذيب رسله[٢]. ثم أمرهم بالصبر وبالانتظار حتى يحكم الله بينه وبين خصومه المكذبين بدعوته، وأن عادة الله أن يجعل العاقبة للمتقين[٣]. ثم قال

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٧/٢٤٨-٢٤٩.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٢٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق ٢/٢٢٢ .

(تعالى) مبينا ما رد به أصحاب مدين على شعيب ﷺ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[سورة الأعراف: ٨٨]. وهذه هي حيلة العاجز المبطل، عجز عن إقامة الحجة أو تصحيح ما هو عليه، فلجأ إلى البطش والقهر، وهي سنة المستكبرين في كل مكان وزمان، كما قال (تعالى) عن أهل مكة مع النبي ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠]. وحكى (تعالى) مقالة قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة النمل: ٥٦].

فقال شعيب راداً عليهم مكرهم وكيدهم: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٨] أي أأتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها، لعلمنا ببطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها.[1] ثم قال: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٩]. فهذا اعتماد من شعيب وأتباعه على الله (تعالى)، وتوكل عليه وتفويض الأمر إليه، وهو العالم بكل شيء ماضياً ومستقبلاً، وسؤالهم إياه أن يفتح بينهم وبين قومهم المكذبين، وفتح الله لعباده نوعان: فتح العلم بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال،

---

(١) انظر : تفسير السعدي ١٣٤/٢ .

وفتح الجزاء بإيقاع العقوبة على الظالمين والنجاة والإكرام للمؤمنين الصالحين[(١)].

ثم قال (تعالى): ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٠]. هذا على عادتهم في التخويف والتهديد، لكن هذه المرة مع نوع من القسم والتأكيد بأن متابعة شعيب تحقق الخسارة، وما علموا أن الخسارة صفة أهل الكذب والبهتان: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٩١-٩٣].

خامساً: جدل إبراهيم عليه السلام مع قومه:

لإبراهيم عليه السلام مواقف عظيمة سجلها له القرآن الكريم جادل فيها أباه وقومه والملك الطاغية، أقام فيها الحجة وأبان المحجة، ودفع الباطل وبُهت القوم الظالمون:

١-جدل الخليل مع أبيه:

قال (تعالى): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ

---

(١) انظر: المرجع السابق ١٣٥/٢.

فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤١-٤٥].

فهذا إبراهيم عليه السلام يدعو أباه إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة ويبطل ما عليه أبوه من عبادة الأصنام، ويستدل على بطلان إلهيتها بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تجلب نفعاً لصاحبها، ولا تدفع عنه ضرراً. وما كان هذا شأنه فلا يستحق العبادة، ولا يُخاف ولا يُرجى. ودليل الخليل فيما جاء به من الحق أنه وحي أوحاه الله إليه، ولا غرابة أن يخص الله إبراهيم دون أبيه بهذه الرحمة، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عبادة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فمع إبراهيم علم صحيح ثابت لم يكن مع أبيه، فلا يمنع صغر سنه وكونه من صلب أبيه أن يستجيب له أبوه، فمن علم حجة على من لم يعلم. ثم دعا أباه إلى متابعة الهدى والصراط المستقيم ونهاه عن عبادة الشيطان، ثم خوفه من عذاب الله إن هو مات على هذه الحال فيكون قريناً للشيطان في النار[1]. كل هذا بأسلوب لطيف رقيق يمتلأ شفقة وحرصا وبراً، رجاء أن ينقذ أباه من الضلال إلى الهدى، ومن الظلام إلى النور. لكنه قوبل من أبيه بقسوة لا تليق بالآباء، وشدة لا تعرف الحنان والعطف، قال (تعالى) في حكاية ردّ أبي إبراهيم عليه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [سورة مريم: ٤٦] أي إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، وترغب عنها لغيرها، فانته عن سبِّها وشتمها، فإنك

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ١١/١١١.

إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك، وشتمتك وسببتك[(١)]. وهو قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤٧]. قال الضحاك: الرجم بالقول وهو الشتم، وقال الحسن: بالحجارة[(٢)]. ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: دهراً، وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً. وقال السدي: أبداً، وقال ابن عباس: سوياً سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة، وكذا قال الضحاك وغيره[(٣)]، وهو اختيار ابن جرير الطبري (رحمهم الله)[(٤)].

فعند ذلك قال إبراهم لأبيه: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤٧-٤٨]. فإبراهيم لم يعارض أباه بسوء الرد، إذ لم يؤمر بقتاله على كفره، والجمهور على أن المراد بسلامه هنا المسالمة التي هي المتاركة لا التحية.[(٥)] قال الطبري رحمه الله: معناه أمنةً مني لك[(٦)]. قال النقاش: حليم خاطب سفيهاً، كما قال (تعالى): ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/١٢١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١١/١١١.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٣/١٢١.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١٦/٦٩.

(٥) انظر: تفسير القرطبي ١١/١١١.

(٦) تفسير الطبري ١٦/٧٠.

[سورة الفرقان: ٦٣][1]. وقال ابن كثير رحمه الله: يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة[2].

أما استغفار إبراهيم لأبيه، فكان مدّة ثم أقلع عنه، كما قال (تعالى): ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١١٤].

٢-جدل إبراهيم الخليل مع قومه في عبادتهم الأصنام:

قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥١-٥٣]. وهذه هي حجة المشركين على مرِّ الدهور: التقليد للآباء، أي مجرد التقليد من غير حجة ولا علم ولا هدى؛ ولهذا قال الله (تعالى) في غير هذا الموضع: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ...﴾ [سورة الزخرف: ٢١-٢٥].

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ١١١/١١.

(٢) تفسير ابن كثير ١٢١/٣ .

وقال إبراهيم الخليل: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٤]. قال ابن كثير رحمه الله: أي الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال، على غير الطريق المستقيم، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٥]. يقولون هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محقاً فيه، فإنا لم نسمع به من قبلك؟![1] فردَّ إبراهيم عليهم: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٦]. فالخالق للسموات والأرض هو خالق الجميع، وهو أولى بالعبادة والإخبات.

ثم انتقل معهم إلى مرحلة جديدة فيها التحدي لبيان عجز آلهتهم وأنها لا تنفع أحداً ولا تضره؛ فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٧]. قال ابن كثر رحمه الله: ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين، أي إلى عيدهم وكان لهم عيد يخرجون إليه. قال السدي رحمه الله: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه. يابني، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون: مَهْ، فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿وَتَاللَّهِ

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/١٧٧-١٧٨.

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ فسمعه أولئك[1]. وقد قال (تعالى) في سورة الصافات عن إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [سورة الصافات: ٨٨-٩٠] ثم قال (تعالى): ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٨]. أي: حطمهم جميعاً، عدا عظيمهم في الخلْق، فإنه لم يكسره عسى أن يرجع قومه عن دينهم الباطل إلى الدين الحق الذي عليه إبراهيم، وقيل: لعلهم يُرجِعون التكسير إلى الصنم الأكبر[2].

وقال (تعالى) في سورة الصافات: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [سورة الصافات: ٩١]. وكانوا قد وضعوا للأصنام طعاماً لتبارك لهم فيه، فقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [سورة الصافات: ٩٢-٩٣]. فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا أصنامهم على هذه الحال من التكسير والإهانة: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٩-٦٣]. فهذه حجة قوية أقامها الخليل على بطلان هذه الآلهة إذ أضاف إلى كبيرهم فعل التكسير، وطلب من قومه سؤال الأصنام إن كانوا ينطقون، ففي ذلك بيان أن مَنْ لا يفعل ولا يسمع ولايتكلم لا يستحق أن يكون إلها، بل هذه مخلوقات مربوبات لله (تعالى)؛ ولهذا قال إبراهيم لأبيه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/١٧٨.

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١١/٢٩٨ ، وتفسير ابن كثير ٣/١٧٨.

وقومه كما: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ١٦-١٧] وكما: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [سورة الشعراء: ٧٢]. وفي ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: ٩٥-٩٦].

ثم قال (تعالى): ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٤] أي: رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته، المتفطن لصحة حجة خصمه: ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٤]. أي: بعبادة من لا ينطق بلفظة، ولا يملك لنفسه نفعاً، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس من لا يرد عن رأسه الفأس. ثم قال (تعالى): ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٥] أي: عادوا إلى جهلهم وعنادهم، فلما اعترفوا بعدم قدرة الأصنام على النطق قال الخليل: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١) [سورة الأنبياء: ٦٦-٦٧].

فلما دحضت حجتهم وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى سلاح العجز، وحيلة الضعف: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٣٠٢/١١.

[سورة الأنبياء: ٦٨-٧٠] وقال (تعالى) في: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [سورة الصافات: ٩٧-٩٨]

٣-جدال إبراهيم الخليل مع قومه في عبادة الكواكب:

قال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٧٤-٨٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لئن لم يهدني ربي﴾ الآية...» ثم قال رحمه الله: «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين لهم في المقام الأول مع أبيه

خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية...وبين لهم في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ فإنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام، خلقها الله منيرة؛ لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع: ﴿قال يقوم إني بريء مما تشركون﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه»[1].

الأدلة على أن إبراهيم الخليل كان مناظراً لا ناظراً:

وهي كثيرة بحمد الله، وهذه جملة منها:

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/١٤٣-١٤٤.

١- أن إبراهيم كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة؛ لقوله لأبيه آزر قبل ذلك: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [1] [الأنعام: ٧٤].

٢- قول الله (تعالى): ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿فلما جن عليه الليل...﴾ والفاء تقتضي الترتيب، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من المؤمنين الموقنين؛ فكيف يُتهم بعد ذلك بقوله بربوبية النجم؟! [2].

٣- قول الله (تعالى) في نهاية القصة: ﴿وتلك حجتنا ءاتيناها إبراهيم على قومه﴾ و لم يقل على نفيسه.

٤- أنه جاء في المناظرة قول إبراهيم: ﴿ياقوم إني بريء مما تشركون﴾ وهذا إنما يناسب في مقام المناظرة لقومه، لا النظر منه. ولأنه لم يقل إني بريء من الشرك الذي وقعت فيه [3].

٥- قوله (تعالى) عقب المناظرة: ﴿وحاجّه قومه قال أتحاجُّوني في الله وقد هدان﴾ يؤكد أن المناظرة كانت مع قومه، لا مع نفسه. [4]

٦- وصف الله (تعالى) لإبراهيم أنه لم يسبق له أن كان من المشركين، كما جاء ذلك في مواضع كثيرة من القرآن؛ منها: قوله (تعالى): ﴿إِنَّ

---

(١) انظر : التفسير الكبير ـ الرازي ١٣/٤٧

(٢) انظر : المرجع السابق ١٣/٤٨ .

(٣) انظر : مناهج الجدل ـ الألمعي ص : ١٧٥.

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٢/١٤٤ .

إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النحل: ١٢٠-١٢١] ، وقوله (تعالى): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥١]. وقد استدل الحافظ ابن كثير رحمه الله بهذه الآيات ونحوها على أن إبراهيم الخليل كان مناظراً لقومه، وكذا بحديث: «كل مولود يولد على الفطرة»[١] وحديث: «خلقت عبادي حنفاء»[٢] وقوله الله (تعالى): ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [سورة الروم: ٣٠]، وقوله (تعالى): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢]. وقال رحمه الله: ومعناه على أحد القولين كقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٠]. ثم قال: «فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتا لله حنيفا و لم يك من المشركين ناظراً في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب»[٣].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٣/٢٤٥-٢٤٦ (فتح الباري) كتاب الجنائز - باب ما قيل في أولاد المشركين ح: ١٣٨٥ وهو في مواضع كثيرة من صحيح البخاري وكذا في صحيح مسلم وغيره من كتب السنن.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث طويل ٤/٢١٩٧-٢١٩٨ كتاب الجنة وصفة نعيمها... - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ... ح : ٢٨٦٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/١٤٤ .

وأيضاً ـ جاء في صفة الخليل: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الصافات: ٨٤] وأقل مراتب القلب السليم أن يكون سليما من الكفر. وقال الزجاج في تفسيرها: أي لم يُشرك به قط[١].

٧- أن إبراهيم الخليل قصد إبطال مذاهب عبدة الكواكب ببيان عدم صلاحيتها لأن تكون آلهة بأنه يطرأ عليها الأفول «فساق الإلزام على أصحاب الهياكل مساق الموافقة في المبدأ، والمخالفة في النهاية، ليكون الإلزام أبلغ، والإفحام أقوى. وإلا فإبراهيم الخليل لم يكن في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٧٦] مشركاً كما لم يكن في قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[سورة الأنبياء: ٦٣] كاذباً، وسوق الكلام على جهة الإلزام غير سوقه على جهة الالتزام»[٢].

وقال الألوسي رحمه الله في قوله ﴿قال هذا ربي﴾: «استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام السابق، وهذا منه ﷺ على سبيل الفرض، وإرخاء العنان، مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قول يحكيه ثم يكر عليه بالإبطال، وهذا هو الحق الحقيق بالقبول»[٣].

(١) تفسير القرطبي ٢٦/٧.

(٢) انظر: الملل والنحل ٢٣٢/١ .

(٣) انظر: تفسيرالألوسي ١٩٨/٧ .

٨- قول إبراهيم: ﴿هذا ربي﴾ أي: على قولكم؛ لأنهم كانوا يعبدون الكواكب، ونظيره قوله (تعالى): ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [سورة النحل: ٢٧] وهو جلَّ وعلا واحد لا شريك له، والمعنى: أين شركائي على قولكم[(١)].

٩- أما ما ذكره ابن جرير رحمه الله في تفسيره ورجحه من أن إبراهيم الخليل كان ناظراً، واحتج له بروايتين معلولتين كما سيتبين، وبظاهر قول إبراهيم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[(٢)] [سورة الأنعام: ٧٧].

وقد تقدم ما يفيد أن هذا الكلام ونحوه من الخليل كان منه على سبيل التنزل مع الخصم والافتراض، لا على سبيل الاعتقاد والجزم.

أما الروايتان؛ فالأولى رواها ابن جرير رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جرير حدثني به المثنى قال: حدثنا أبوصالح، قال: حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ومحصلها أن إبراهيم عبد الكوكب حتى غاب، ثم عبد القمر حتى غاب، ثم الشمس حتى غابت فلما غابت قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[(٣)] [سورة الأنعام: ٧٨].

فسند هذه الرواية فيه علتان: الأولى من جهة معاوية بن صالح؛ فقد تكلم فيه جماعة، قال ابن معين: كان يحيى بن سعيد لا يرضاه، وقال

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٢٦/٧.

(٢) انظر : تفسير الطبري ٤٨٥/١١ ط. شاكر.

(٣) انظر : المرجع السابق ٤٨٠/١١.

فيه ابن معين: صالح. وقال الدوري عن ابن معين: ليس بمرضي، وقال ابن معين: كان ابن مهدي إذا تحدَّث بحديث معاوية بن صالح زبره يحيى بن سعيد، وقال: إيش هذه الأحاديث؟! وقال أبوإسحاق الفزاري: ما كان بأهل أن يروى عنه، وقال يعقوب بن شيبة: قد حمل الناس عنه، ومنهم من يرى أنه وسط ليس بالثبت ولا بالضعيف، ومنهم من يضعفه. وقال ابن خراش: صدوق. وقال ابن عمَّار: وزعموا أنه لم يكن يدري أي شيء في الحديث. وإن كان قد وثقه جماعة؛ منهم العجلي وابن حبان وعبدالرحمن بن مهدي وغيرهم[1].

وأما العلة الثانية، فمن جهة علي بن أبي طلحة، قال فيه الحافظ ابن حجر رحمه الله: روى عن ابن عباس ولم يسمع منه. ونقل عن أحمد ابن حنبل أنه قال فيه: له أشياء منكرات. وقال عنه دحيم: لم يسمع التفسير من ابن عباس. وقال فيه يعقوب بن سفيان: ضعيف الحديث منكر، ليس محمود المذهب. وقال في موضع: آخر ليس هو بمتروك ولا هو حجة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: روى عن ابن عباس ولم يره[2].

قال الحافظ ابن حجر: «ونقل البخاري من تفسيره رواية معاوية بن صالح عنه عن ابن عباس شيئاً كثيراً في التراجم وغيرها، ولكنه لا يسميه، يقول قال ابن عباس أو يذكر عن ابن عباس»[3].

---

(١) انظر : تهذيب التهذيب ١٠/٢١٠-٢١١.
(٢) انظر : المرجع السابق ٧/٣٣٩-٣٤٠.
(٣) تهذيب التهذيب ٧/٣٤٠.

وعليه، فأقل ما يقال في هذه الرواية أنها منقطعة، إضافة إلى ما قيل في معاوية ابن صالح.

وأما الرواية الثانية، فقد رواها ابن جرير عن محمد بن حميد، قال: حدثنا بن الفضل قال: حدثني محمد بن إسحاق فيما ذُكر لنا والله أعلم، ثم ساقها. وملخصها أن أم إبراهيم ولدته في مغارة خوفاً عليه من النمرود الذي أخبره المنجمون بمولد غلام في هذا الوقت يفارق دينكم ويكسر أوثانكم، فلما بلغ إبراهيم خمسة عشر شهراً أخرجته أمه عشاءً، فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض، وقال مقالته المذكورة في الآيات السابقة الذكر[1].

وهذه الرواية يتوجه عليها أمور منها:

أ- أنها ليست مسندة إلى النبي ﷺ ولا إلى أحد من الصحابة، مع ما فيها من صيغة التمريض المشعرة بالتضعيف.

ب- أنها قد تكون من الإسرائيليات، فقد كان ابن إسحاق يروي عن أهل الكتاب، قال ابن المديني فيه: لم يضعه عندي إلا روايته عن أهل الكتاب[2].

ج- أن إبراهيم عليه السلام ـ كما في الرواية ـ قال ذلك وعمره خمسة عشر شهراً، فلا يتصور ممن كان في هذه السن نظر ولا فكر.

---

(١) تفسير الطبري ١١/٤٨٠-٤٨٢ ط. شاكر.

(٢) انظر: التهذيب ـ ابن حجر ٩/٤٥.

د- إذا صحت الرواية، فقد كان ذلك من الخليل في حال طفولته وقبل قيام الحجة عليه، وتلك حال لا يكون فيها كفر ولا إيمان[١].

هـ- أنه جاء في الرواية قول إبراهيم الخليل بعد أن غابت الشمس: ﴿ياقوم إني بريء مما تشركون﴾ وهذا لا يعقل إلا إذا كان مناظراً لقومه كما تقدم.

١٠- أن المحققين من أهل العلم وجهوا هذه الآيات عدة توجيهات منها[٢]:

أ- أنه قال ذلك مناظرة لقومه، لكن على سبيل التنزل معهم كما تقدم تقريره.

ب- أنه قاله مستفهماً على سبيل الإنكار والتوبيخ، أي: أهذا ربي؟!

ج- أنه قاله في حال طفولته وقبل قيام الحجة عليه، وتلك حال لايكون فيها كفر ولا إيمان كما تقدم.

٤- مناظرة إبراهيم الخليل للملك:

وهو نمرود بن كنعان ملك بابل. قال (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٤٨٤/١١ ط. شاكر .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٤٨٣/١١-٤٨٥ ط. شاكر ، وزاد المسير ـ ابن الجوزي ٧٤/٣-٧٥ ، وتفسير القرطبي ٢٥/٧-٢٧.

فالنمرود جادل إبراهيم ﷺ في وجود الله إذ كان ينكره، والذي دعاه لذلك ما هو عليه من الملك والسيادة، فأنكر أن يكون ثمَّ إله غيره[١]. وكان ذلك منه على سبيل العناد والمكابرة كما سيتضح. فطلب النمرود من الخليل دليلاً على وجود الخالق سبحانه الذي يدعو إليه، فقال الخليل: ﴿ربي الذي يحي ويميت﴾ أي أن الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. وهذا الدليل على وجود الفاعل المختار ضروري؛ لأن هذه الأشياء لم تحدث بنفسها[٢]، ولم تحدث من غير مُحْدِث لها؛ كما قال (تعالى): ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥].

وعلى الرغم من وضوح هذا الدليل وقوته، إلا أن النمرود كابر وعاند وادعى أنه يفعل مثل ذلك. ذكر قتادة وغير واحد أن النمرود فسَّر الإحياء والإماتة بقوله: إني أوتى برجلين استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل[٣]. قال ابن كثير رحمه الله: «والظاهر - والله أعلم - أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم، ولا في معناه؛ لأنه [غير][٤] مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أنه

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٢٩٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق .

(٣) انظر : المرجع السابق .

(٤) ساقطة من الأصل، لكنها موجودة في بعض النسخ الأخرى .

يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت»[١].

وقال ابن الحنبلي رحمه الله: «فلا يخلو حال نمرود؛ إما أن يكون ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة، أو فهم إلا أنه قصد المصادمة والمباهتة، وكلاهما يوجب العدول إلى دليل يفضح معارضته ويقطع حجاجه، ومتى كان الخصم بهذه الصفة، جاز لخصمه الانتقال إلى دليل آخر أقرب إلى الفهم وأفلج للحجة»[٢].

فلما وجد إبراهيم عليه السلام خصمه مكابراً ومعانداً، انتقل معه إلى دليل آخر لا يجد عنه محيصاً وهو قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨] أي فإذا كنت ـ كما تدعي ـ تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود: في خلق ذواته وتسخير كواكبه، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً ـ كما ادعيت تحيي وتميت ـ فأت بها من المغرب، فلما علم النمرود عجزه، وبان انقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذه المقام بهت وأخرس وانقطع، وقامت عليه الحجة[٣] ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

---

(١) المرجع السابق .

(٢) استخراج الجدل ص : ٦٧-٦٨.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٢٩٦/١ .

سادساً: جدل موسى عليه السلام مع فرعون لعنه الله:

إن الله (تعالى) اختار موسى عليه السلام ليرسله إلى طاغية عصره فرعون، فيُذَكِّره، ويُنْذِره عذاب الله، وليستخلص بني إسرائيل من طغيانه وجبروته، فإن أبى كان هلاك فرعون وزوال ملكه على يدي نبي الله موسى عليه السلام.

وفرعون كان يدعي الربوبية والألوهية لنفسه؛ حيث قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [سورة النازعات: ٢٤] وقال: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [سورة الزخرف: ٥١]. وقال لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٩]. وقال لبني إسرائيل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: ٣٨]. وكان مع ذلك ظالماً جباراً، قد استعبد بني إسرائيل وسامهم سوء العذاب؛ يقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم للخدمة ونحوها، متخوفاً من ظهور ولد ـ أُخبر عنه ـ يكون زوال ملكه على يديه، لكن الله الذي لا يرد له قضاء، ولا يعقب أحد على حكمه، قضى أن يكون أمْن موسى في بيت فرعون، وأن تكون نشأته الأولى هناك تحت رعايته، وقريباً منه، كما قال (تعالى) ممتناً على موسى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [سورة طه: ٣٨-٣٩].

فاختار الله عبده موسى ليكون رسولاً إلى بني إسرائيل وإلى فرعون: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [سورة طه: ٢٤] إنها مهمة صعبة، وتكليف شاق؛ أن يواجه أحد من الناس فرعون الطاغية، لا سيما أن موسى قد فرَّ منهم بعد أن قتل منهم نفساً، لكن هذا التكليف يهون مع اختيار الله واصطفائه، وتربيته لموسى، وإعانته على مهمته، وكان قد قضى جزءاً من حياته في بيت نبي من أنبياء الله وهو شعيب، وتزوج من إحدى ابنتيه، إضافة إلى أن قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [سورة طه: ٢٥-٣٦]. وقال في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [سورة الشعراء: ١٠-١٥].

وفي ظل هذه الرعاية الربانية والعناية الإلهية، سار موسى إلى فرعون ـ ومعه آيات من ربه على صدقه ـ يدعوه إلى التوحيد، وأن يخرج بني إسرائيل من الرق والإهانة؛ قال (تعالى): ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [سورة طه: ٤٧-٤٨]. وكان فرعون قد طلب

منهما آية على صحة ما يدعون إليه؛ كما في سورة الأعراف وغيرها: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٦-١٠٨]. فقال فرعون منكراً وجود الخالق إله كل شيء ومليكه: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [سورة طه: ٤٩]، فقال موسى راداً عليه إنكاره، وقاطعا لتشغيبه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: ٥٠] كقوله (تعالى): ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [سورة الأعلى:٣] وفيه بطلان دعوى فرعون الربوبية والإلهية إذ أن من يخلق يتصرف في خلقه ويقدِّره كيف شاء، وفرعون لم يخلق شيئاً، فهو ليس برب، وإذا انتفت عنه الربوبية انتفت عنه الإلهية لزوماً.

فلما عجز فرعون عن معارضة هذه الحجة الدامغة عَدَل إلى التشغيب وحاد عن المقصود: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [سورة طه: ٥١] أي: ما حال وما خبر الذين سبقونا إلى الكفر والإنكار؟ فكان الجواب: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [سورة طه: ٥٢] أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر وكتبها عنده في اللوح المحفوظ، وأحاط بها علماً وخُبْراً، لايشذ عنه شيء، ولا ينسى شيئاً سبحانه وتعالى. قال السعدي رحمه الله: «ومضمون ذلك أنهم قَدِمُوا إلى ما قَدَّمُوه، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد

خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك والآيات التي أريناكها قد تحققتَ صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانفذ إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستيقنة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فردَّ الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلاً ما دام الملوان. كيف وقد أخبر الله عنه أنه جحدها مع استيقانها كما قال (تعالى): ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]، وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢]. فعُلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض»[1].

ثم استطرد موسى ﷺ في الدليل كاشفاً عن آلاء الله ونعمه الظاهرة القاهرة، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [سورة طه: ٥٣-٥٥].

ثم قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [سورة طه: ٥٦]. يعني أن فرعون قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفراً وعناداً وبغياً، كما قال (تعالى): ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]. وقال (تعالى) في سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا

---

(١) تفسير السعدي ٣/٢٣٦ .

وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٦-١٨] أي: الجاحدين للإحسان، وقيل: في قتله القبطي، وقيل: ﴿من الكافرين﴾ في أني إلهك. وقيل ﴿من الكافرين﴾ با لله؛ لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعيبه[١]. وفيه إقرار فرعون على نفسه بالكفر. وقال موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٠] أي من الجاهلين، فنفى عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل بأن الوكزة تبلغ القتل، وفي مصحف ابن مسعود ﷺ: «من الجاهلين» ويقال لمن جهل شيئاً: ضل عنه، فبين بهذا أن التربية فيهم لا تنافي النبوة والحلم على الناس، وأن القتل خطأً، أو في وقت لم يكن فيه شرع، لا ينافي النبوة[٢].

ثم قال موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١] وذلك لما خرج خائفاً إلى مدين، ثم آتاه الله النبوة وجعله من المرسلين، فقد انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فكان كما قيل: ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضي.

ثم قال موسى ﷺ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١] اختلف الناس في المراد بهذا الكلام[٣]: فقال السدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى ﷺ على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٣/٩٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ١٣/٩٥.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٩/٤٢-٤٣ط. دار المعرفة، وتفسير القرطبي ١٣/٩٥-٩٦.

يقول: نعم، وتربيتك نعمة علي من حيث عبَّدت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي.

وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار، أي أتمنَّ عليَّ بأن ربيتني وليداً وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟ أي ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي، فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص، قال معناه قتادة وغيره.

وقيل إن الكلام خرج مخرج التبكيت، بمعنى لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي، فأي نعمة لك علي، فأنت تمنُّ عليَّ بما لا يجب أن تمنَّ به.

وقيل معناه: كيف تمنُّ علي بالتربية وقد أهنت قومي؟ ومن أهين قومه ذلَّ.

ولا يخفى عليك أن المعاني الثلاثة الأخيرة متقاربة.

ثم قال (تعالى): ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٣-٢٨]. فموسى عليه السلام يواجه السخرية والتهكم والسباب بالحجج الدامغة والأدلة الظاهرة والبينات القاهرة، فلم يكن أمام الطاغية العاجز عن مقارعة الحجة بالحجة،والدليل بالدليل إلا اللجوء إلى التهديد والبطش: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ

بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ٢٩-٣٧] وقال (تعالى) في: ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [سورة الإسراء: ١٠١-١٠٢] أي هالكاً مغلوباً(١).

وقال (تعالى) في: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [سورة غافر: ٢٥-٢٧]

وبعد أن عجز فرعون وملؤه عن كسر حجة موسى عليه السلام البيانية والعقلية، و لم يُجْدِ التهكم والسخرية، لجأ إلى السَّحرة وطلبهم من كل حدب وصوب، ووعدهم بكل ما يتمناه أمثالهم من الجاه والرياسة، فلنرجع إلى سورة طه لنرى صورة من صور هذا المشهد العظيم؛ قال (تعالى): ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٦٦.

[سورة طه: ٥٧-٦٣] أي ويستبدا بهذه الطريقة وهـي السحر ـ في زعمهم ـ فإنهم كانوا معظَّمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهم الرياسة دونكم[1]. ثم قال: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [سورة طه: ٦٤-٧٠]. فهذا كيد فرعون ومكره يتبدد ويتلاشى، وتظهر آية موسى عليه السلام فينتصر في مقام التحدي ـ أيضاً ـ كما انتصر ـ قبلُ ـ في مقام البيان والجدال والحجة، فيرجع فرعون مرة ثانية إلى ما يبين عجزه وإنكساره، فيواجه المؤمنين الجُدُد: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [سورة طه: ٧١]. أي: أنا أم رب موسى[2]. ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٥٣/٣ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٢٤/١١.

وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سورة طه: ٧٢-٧٣]. وهذا جواب قول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (١) [سورة طه: ٧١].

ثم انظر كيف ينطق الإيمان على لسان صاحبه: قوة بالحجة، وصحة في الرأي، وثباتاً على الحق، واستعداداً للتضحية ومواجهة الصعاب، وتعلقاً بما عند الله (تعالى) مما أعده لأهل كرامته، والله خير وأبقى.

وقال (تعالى) في سورة الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٩-١٢٦]. وفي سورة الشعراء قالوا له: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٥٠-٥١].

---

(١) انظر: المرجع السابق ١١/٢٢٦.

ثم سعى فرعون لتحقيق ما توعدهم به، وأخرج آخر ما في كنانته، وكانت العاقبة للمتقين: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء: ٥٣-٦٨]. أما فرعون فقد قال الله في شأنه: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [سورة يونس: ٩٠-٩٢].

سابعاً: جدل موسى عليه السلام مع بني إسرائيل:

لقد جُبل بنو إسرئيل على العناد والتلكؤ في الاستجابة لرسل الله، على الرغم من عظيم النعم التي أفاضها الله عليهم، ومن أعظمها نجاتهم من آل فرعون، وإهلاك عدوهم وهم ينظرون. لكنهم لم يقابلوا هذه النعم وغيرها بالشكر الذي من علاماته الاستجابة لله ولرسوله، بل أرهقوا أنبياءهم بالتعنت والمجادلة بالباطل، والمحاولات المتكررة للتفلت من أحكام الشرع، فضلاً عن قتلهم الأنبياء، وسبهم أياهم.

وأختار في هذا المقام صورتين من صور الجدال الذي وقع بين موسى ﷺ وبني إسرائيل؛ لنرى كيف كانت النفسية اليهودية، وهي تجادل أنبياء الله وتحاول الصد عن سبيل الله.

الصورة الأولى:

قال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: ٦٧]. وذلك أن رجلاً من بني إسرائيل لم يكن له ولد، وكان غنياً، وكان له قريب، أو أقارب يرثونه، فقتلوه لأجل ذلك، ثم ألقوه على مجمع الطريق، وقيل: أمام بعض أبيات بني إسرائيل، وأتوا موسى ﷺ يطلبون معرفة القاتل . وفي رواية أن بني إسرائيل تبادلوا التهم، حتى تسلّحوا، وركب بعضهم على بعض. وذلك قوله (تعالى): ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٢] فقال ذوو الرأي منهم : علام يقتل بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى، فذكروا ذلك له. فدعا موسى ربه أن يدلهم على القاتل. فجاء الأمر الإلهي بذبح بقرة، ولو ذبحوا أي بقرة لوافقوا المطلوب[١]، ولكنهم تعنتوا، وشدّدوا على أنفسهم، فشُدِّد عليهم:

قال (تعالى) مصوِّرا هذا التعنّت والتفلّت من أوامر الله: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: ٦٧]، فإن الجاهل هو الذي

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/١٠٣-١٠٤ .

يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فُضِّل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده[1].

واستمر بنو إسرائيل في التعنت الذي يحكيه الله (تعالى) بقوله: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٦٨] هل فعلوا؟! لا والله، ولكنهم: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٦٩-٧٢] . قيل: ولولا أنهم استثنوا لما اهتدوا إلى البقرة، وقد وجدوها بعد مشقة عند امرأة عجوز تقوم على يتامى، فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرُها، أضعفت عليهم الثمن، فاشتروها وذبحوها، فأمرهم موسى عليه السلام أن يضربوا القتيل بعظم منها[2]؛ كما قال (تعالى): ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٣] فقام الميت أحيا ما كان قط، وأشار إلى قتلته، ثم مال ميتاً كما كان، فقالوا: والله، ما

---

(١) انظر : تفسير السعدي ١/٩٥ ط. الرئاسة .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١/٤٥٢، وتفسير ابن كثير ١/١٠٤،١٠٦ .

قتلناه، وكذّبوه، فكذّبوا بالحق بعد أن رأوه، فذلك قوله (تعالى): ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٤] [(١)].

الصورة االثانية:

قال (تعالى): ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [سورة طه: ٨٣-٨٦] لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور.[(٢)] ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [سورة طه: ٨٧] أي بطاقتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ [سورة طه: ٨٧]. فأخبروه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر[(٣)]. وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل، وسميت أوزاراً بسبب أنها كانت آثاماً، أي لم يحل لهم أخذها، إذ لم تحل لهم الغنائم[(٤)]. ﴿فقذفناها﴾ أي في

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٤٦٢/١ ، تفسير ابن كثير ١٠٨/١ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٣٤/١١.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١٥٨/٣ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢٣٥/١١.

النار ليذوب، وقيل طرحناها إلى السامري حتى يرجع موسى ويرى فيها رأيه[(١)] : ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [سورة طه: ٨٧-٨٨] قال قتادة: إن السامري قال لهم حين استبطأ القوم موسى: إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلي، فجمعوه ودفعوه إلى السامري، فرمى به في النار، وصاغ لهم منه عجلاً ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل (عليه السلام) ... فلما ألقى عليه القبضة صار عجلاً جسداً له خوار[(٢)]. ثم قال السامري ومن مال إليه: هذا هو إله موسى الذي ذهب يطلبه، فموسى تركه هنا، ثم نسي فخرج يطلبه.[(٣)] فقال الله (تعالى) مبيناً بطلان إلهية العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [سورة طه: ٨٩] وفي سورة الأعراف: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٨]. فانظر إلى سخافة عقولهم وسذاجة تفكيرهم أنهم تنزهوا عن حلي القبط ووقعوا في الكفر با لله (تعالى)، تورعوا عن الأمر الحقير وباشروا الأمر الكبير. ثم قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [سورة طه: ٩٠-٩٤]. شرع موسى يلوم أخاه هارون إذ لم يخبره بهذا الأمر أول وقوعه، وكان قد قال

---

(١) انظر : المرجع السابق ٢٣٥/١١.
(٢) تفسير القرطبي ٢٣٥/١١.
(٣) انظر : المرجع السابق ٢٣٦/١١.

له: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٢]، فأدلى هارون بحجته التي يعتذر بها، وصدرها بقوله: ﴿يابنؤم﴾، وهذا ترقق منه لموسى مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم أرق وأبلغ في الحنو والعطف، واعتذاره بأنه خشي إذا لحق بموسى ليخبره أن يقول له: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم،﴿ولم ترقب قولي﴾ أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان هارون هائباً مطيعاً له[(١)].

ثم قال (تعالى) حاكياً جدال موسى مع السامري: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [سورة طه: ٩٥-٩٧]: أي: لا يخالط مدة حياته، ولهذا نفاه موسى عن قومه، وأمر بني إسرائيل بهجرانه[(٢)]. ثم قال موسى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة طه: ٩٧-٩٨].

---

(١) تفسير ابن كثير ١٥٩/٣ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٤٠/١١-٢٤١ .

المطلب الثالث

جدل المؤمنين مع الكافرين

وهم المؤمنون أتباع الأنبياء الذائدون عن دينهم بالحجة الصحيحة، والبرهان القاطع، وفي القرآن نماذج من هذا النوع من الجدل، وأنا أختار نموذجاً واحداً منها، وهو الجدل الذي باشره مؤمن آل فرعون في مواجهة قومه.

قال (تعالى): ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [سورة غافر: ٢٨].

هذه الحجج الباهرة ساقها هذا الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه - ليعارض - بها موقف فرعون وملئه من دعوة موسى عليه السلام وعزم فرعون قتل موسى كما قال (تعالى) قبل ذلك: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ....﴾ [سورة غافر: ٢٦-٢٨].

فأنكر هذا المؤمن على فرعون وملئه هذا العزم على قتل موسى، وعلَّل إنكاره بحجج قوية، وهي:

١- أن كل جريرة موسى أنه يقول ربي الله، ومن كان هذا شأنه، فلا يستحق القتل.

٢- ثم إن دعواه هذه لم تكن خلية عن البرهان والدليل، بل جاءكم بالبينات الدالة على صدقه ما قد شاهدتم وعجزتم عن معارضتها وإبطالها، فمع الرجل دليل صدقه. قال السعدي رحمه الله في شرح هذه الآية: «فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي»[1].

٣- ثم جاء بحجة عقلية تقنع كل عاقل، وعلى كل تقدير، وهي قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [سورة غافر: ٢٨] فموسى بين أمرين: إما أن يكون كاذباً في دعواه أو صادقاً فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مختص به، ولا يلحقكم من ذلك شيء، حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه. وإن كان صادقاً ـ وقد جاءكم بالبينات ولم تجيبوه ـ أصابكم بعض ما وعدكم به، وقد توعدكم بعذاب الله في الدنيا والآخرة «وهذا من حُسْن عقله، ولُطْف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر

(١) تفسير السعدي ٥٢٣/٦ ط. الرئاسة العامة.

دائراً بين تينك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم»[(١)].

٤- قوله: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [سورة غافر: ٢٨]. أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله (تعالى) أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً، ومنهجه مستقيماً ولوكان من المسرفين الكذّابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله[(٢)].

ثم أخذ يعظهم ويذكرهم بما هم فيه من الظهور والتمكين في الأرض الذي لا يغني من بأس الله - إن جاء - شيئاً. قال (تعالى) على لسانه: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [سورة غافر: ٢٩]. وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم؛ ليُفهِمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه[(٣)].

فذكّر وحذّر، فعلم فرعون ظهور حجته، وقوة برهانه، فقال - معترضاً بلا دليل، ومخاصماً بلا حجة، بل بمحض العلو في الأرض ومحبة الإفساد-: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

---

(١) انظر: تفسير السعدي ٦/٥٢٣-٥٢٤ ط. الرئاسة العامة، وتفسير القرطبي ١٥/٣٠٧-٣٠٨، وتفسير ابن كثير ٤/٧٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٨٠ .

(٣) انظر: تفسير السعدي ٦/٥٢٥ ط. الرئاسة العامة .

[سورة غافر: ٢٩] قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: « ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسي: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرَّشاد﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي» (١).

وقد كَذَبَ فرعون في الأمرين؛ فهو يعلم صدق موسى ﷺ كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاء إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ...﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢] ولكنه الجحود والعناد، كما قال (تعالى) عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾ [سورة النمل: ١٤]. بل صحة الرأي وسبيل الرشاد مع موسى نبي الله ورسوله. أما فرعون فلا صحة لرأيه كما قال (تعالى) عنه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [سورة طه: ٧٩]. ولا رشاد في سعيه كما قال (تعالى) عنه: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [سورة هود: ٩٧].

ثم قال (تعالى): ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة غافر: ٣٠-٣٣].

جعل الرجل يكرر موعظته المرَّة بعد المرة غير آيس من هدايتهم، يحذّرهم من بأس الله (تعالى) في الدنيا والآخرة، ويذّكرهم بما حدث

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥/٣١٠.

للمكذبين من قبلهم من الأمم الماضية، والتي لا يجهلون أخبارها وأخبار ما وقع بها من نكال الله وأليم عقابه جزاءً بما كانوا يكسبون: ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ ثم وعظهم وخوفهم بيوم القيامة، حيث لا ينفعهم ما هم فيه من الملك والسلطان والبسطة، بل لا ينفع أحداً إلا ما كسبته يداه، وإن الهدى هدى الله، ومن أضله فما له من هاد؛ لا فرعون ولا غيره. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [سورة غافر: ٣٤] فذكرهم بما كان من أمر يوسف عليه السلام، وتكذيب أسلافهم له على الرغم من مجيئه بالبينات ـ كما هو حال موسى ـ فلما مات يوسف طمع أهل مصر أن لا يبعث الله رسولاً من بعده، وذلك لكفرهم وتكذيبهم، وكذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب.

ثم قال (تعالى): ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [سورة غافر: ٣٥]: أي بغير حجة ودليل كحال فرعون وغيره من الكفار الجاحدين: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة غافر: ٣٥]. فالله يبغض من هذه حاله وكذا المؤمنون يبغضونه[1]: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: ٣٥] متكبر في نفسه عن قبول الحق، ومتكبر على الخلق باحتقارهم، وجبار بكثرة ظلمه وعدوانه[2].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٨١.

(٢) انظر: تفسير السعدي ٦/٥٢٩ ط. الرئاسة العامة.

لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، خاف فرعون أن يتمكن كلامه من قلوب العامة، فأوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من الحق، فإن بان له صوابه لم يخفه عنهم، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم.[١] ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ...﴾ [سورة غافر: ٣٦-٣٧] أي: كاذباً في ادعائه إلهاً من دوني، وإنما فعل ما فعل لإزاحة العلة، وهذا يوجب شك فرعون في أمر الله. وقيل: إن الظن بمعنى اليقين؛ أي: وأنا أتيقن أنه كاذب، وإنما أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عمن لم يتيقن ما تيقنته[٢]. وكل هذا من فرعون إظهار خلاف ما يعتقد كما تقدمت الإشارة إليه؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [سورة غافر: ٣٧]. فلم يزل الشيطان يزينه له ويحسنه في نظره حتى دعا إليه وناظر عليه مناظرة المحقين وهو من أعظم المفسدين[٣]. ثم قال (تعالى): ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [سورة غافر: ٣٧] أي: خسران وضلال[٤].

ثم قال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[سورة غافر: ٣٨] وهذا في معارضة قول فرعون المتقدم: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الآخرة

(١) انظر : تفسير القرطبي ١٥/٣١٤.

(٢) انظر : المرجع السابق ١٥/٣١٥.

(٣) انظر : تفسير السعدي ٦/٥٣٠ ط. الرئاسة العامة .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ١٥/٣١٥.

وغرتهم وصدتهم عن الصراط المستقيم، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة غافر: ٣٩-٤٠].

ثم قال لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤١] والنجاة في تصديق موسى ﷺ ومتابعته، واستحقاق النار يكون بتكذيبه وعصيانه. ثم قال مفسراً ذلك: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤٢] فدعوتهم قد اجتمع لها أمران: كونها كفراً وشركاً، وخلوها من الدليل والبرهان، أما دعوته فإلى الله الواحد الأحد الذي بث أدلة وجوده ووحدانيته في الكون والأنفس:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد[1]

إضافةً إلى إرساله الرسل وإنزاله الكتب. ثم بيَّن حقارة ما يدعونه إليه: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤٣] ليس له دعوة توجب له الألوهية لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقيل: ليس له شفاعة لا في الدنيا ولا في الآخرة[2]: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ

---

(١) هذا البيت نسبه صاحب وفيات الأعيان ١٣٨/٧ إلى أبي نواس، ونسبه مع ثلاثة أبيات أخرى صاحب الأغاني ٣٥/٤ إلى أبي العتاهية، ولم أجده في ديوانه .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٣١٧/١٥.

أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤٣]. فلما نصحهم وحذّرهم وأنذرهم ولم يطيعوه، ولا وافقوه، قال لهم[1]. ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة غافر: ٤٤]. فالرجل بالغ في نصحهم، وأطال النفس في إرشادهم وتحذيرهم، وأظهر لهم موافقته التامة لموسى، ودعاهم إلى ما دعا إليه، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة - إذ ذاك - وقد أغضبهم، فأرادوا به كيداً: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [سورة غافر: ٤٥-٤٦].

---

(١) انظر : تفسير السعدي ٥٣٢/٦ ط. الرئاسة العامة .

المطلب الرابع
جدل أهل الجنة وأهل النار

وهو يشتمل على جدل أهل النار فيما بينهم، وعلى جدل أهل النار مع أهل الجنة، وسأبدأ بالنوع الأول وهو جدل أهل النار:

أما الجدل بين أهل النار فيقوم على التلاوم وتبادل التهم بين المستكبرين والمستضعفين، بين التابعين والمتبوعين، ويكون فيه الملاعنة، ويتبرأ بعضهم من بعض؛ كما قال (تعالى) مخاطباً طائفة من أهل النار: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٨-٣٩].

وقال (تعالى): ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال (تعالى): ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ *

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [سورة ص: ٥٥-٦٤].

تفقد أهل النار ـ قبحهم الله ـ المؤمنين، هل يرونهم في النار؟ ﴿أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار﴾ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين: إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم. وهذا هو الواقع؛ كما قال (تعالى) لأهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٩-١١٠].

أو لعلَّ أبصارنا قد زاغت عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون، ولكن تجاوزتهم أبصارنا(١): ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [سورة ص: ٦٤].

ومن الصور التي ذكرها الله (تعالى) للجدل بين أهل النار ما جاء في [سورة سبأ: ٣١-٣٣].

قال (تعالى): ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة سبأ: ٣١] أي: لولا صدكم إيانا عن متابعة الرسل والإيمان بما جاءوا به لكنا مؤمنين ومن أهل

---

(١) انظر: تفسير السعدي ٦/٤٣٤-٤٣٥ ط. الرئاسة العامة.

الجنة. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾: أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أن دعوناكم فاستجبتم لنا من غير دليل ولا برهان، وخالفتهم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك(١). وكما قال الشيطان يوم القيامة لأتباعه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٢].

فردَّ المستضعفون؛ كما قال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سورة سبأ: ٣٣] أي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغرونا وتمنونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين(٢). ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ...﴾ [سورة سبأ: ٣٣] أي الجميع من الضعفاء والكبراء كل ندم على ما سلف منه(٣). ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ...﴾[سورة سبأ: ٣٣].

ومن صور ذلك ـ أيضاً ـ ما ذكره الله في سورة غافر [٤٧-٥٠].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥١٨/٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ٥١٨/٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق .

قال (تعالى): ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤٧] أي: أنا أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، فهل تتحملون عنا قسطاً من النار والعذاب هنا في هذا الدار(١). ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [سورة غافر: ٤٨]. أي: لا نتحمل عنكم شيئاً، كفى بنا ما نحن فيه من العذاب والنكال، ثم إن الله قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا(٢).

فلما أَيسَ الضعفاء من المستكبرين أن يتحملوا عنهم شيئاً من العذاب. توجهوا إلى خزنة النار من الملائكة. قال الله (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [سورة غافر: ٤٩]. وكان قد سألوا الله عز وجل الخروج من النار كما قال (تعالى) حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٧-١٠٨] ثم سألوا مالكاً: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٧٧]. فسألوا الموت والفناء، فأجيبوا بضد مطلبوهم وهو الخلود والبقاء في النار والعذاب. وهنا سألوا التخفيف، فقالت لهم الخزنة: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي

---

(١) انظر: المرجع السابق ٤/٨٤.

(٢) انظر: المرجع السابق.

ضَلَالٍ﴾ [سورة غافر: ٥٠]. فلما أقروا أن الرسل جاءتهم بالبينات التي لو اتبعوها لكانت حاجزاً لهم من النار، قالت لهم الخزنة: ادعوا أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعوا لكم، ولا نسمع منكم، ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء، ثم إننا نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم: ﴿وما دعاؤا الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: في ذهاب، لا يقبل ولا يستجاب[1].

جدل أهل الجنة مع أهل النار

قال (تعالى): ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [سورة الأعراف: ٤٤] يخبر (تعالى) بما يخاطب به أهل الجنة أهل النار على وجه التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم، وقد وجد كل فريق ما وعد به حقاً، فالمؤمنون وعدوا بالجنة وقد وجدوها، والكفار وعدوا بالنار وقد وجدوها؛ ولهذا ﴿قالوا نعم﴾ إذ هو يوم اليقين كما قال (تعالى): ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٧]. وقد حكى الله (تعالى) عن أهل الجنة بقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة الصافات: ٥٠-٦٠]. فأنكر عليه مقالته التي قالها في الدنيا، وقرّعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] [سورة الطور: ١٤-١٦].

---

(١) انظر : ابن كثير ٢/٢٠٦.

وكذلك قرَّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر، كما في حديث أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: يا أباجهل بن هشام، يا أُمية بن خلف، يا عُتبة بن ربيعة، ياشيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربُكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً. فسمع عمرُ قولَ النبي ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يسمعوا[1] وأنَّى يجيبوا[2] وقد جَيَّفُوا؟! قال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر»[3].

ثم قال (تعالى): ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٤] أي نادى ملك من الملائكة وصوَّت بأن لعنة الله مستقرة على الظالمين.[4] ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٥] أي جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر وما يتركون من

---

(١) هكذا من غير نون، وهي لغة صحيحة وإن كانت قليلة الاستعمال، وهي هكذا في جميع النسخ المعتمدة. قاله فؤاد عبد الباقي في حاشية صحيح مسلم ٢٢٠٣/٤ هامش: ٣.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) صحيح مسلم ٢٢٠٣/٤ كتاب الجنة... ـ باب عرض مقعد الميت... ح: ٢٨٧٤، ومسند الإمام أحمد ٢١٩/٣-٢٢٠، ٢٨٧.

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢٠٩/٧، وتفسير ابن كثير ٢٠٦/٢.

معروف. ثم قال (تعالى): ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [سورة الأعراف: ٤٦] والأعراف سور بين الجنة والنار كما قال (تعالى): ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [سورة الحديد: ١٣] (١).

وفي أصحاب الأعراف قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله» (٢).

وأصحاب الأعراف يعْرفون أصحاب الجنة وأصحاب النار بعلاماتهم، وهي بياض وجوه أهل الجنة وحسنها، وسواد وجوه أهل النار وقبحها (٣).

ثم قال (تعالى): ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٦] أي: لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة بعد، وهم يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته (٤).

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٢١١/٧، وتفسير ابن كثير ٢٠٧/٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٧/٢.
(٣) انظر : تفسير القرطبي ٢١٢/٧.
(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢١٣/٧ ، وتفسير ابن كثير ٢٠٨/٢ ، وتفسير السعدي ١١٤/٢.

ثم قال (تعالى): ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٧]، فأصحاب الأعراف يسألون الله (تعالى) أن لا يجعلهم مع الظالمين في النار.

ثم قال (تعالى): ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [سورة الأعراف: ٤٨] أي من أهل النار: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٨] أي: ما أغنى جمعكم في الدنيا الذي كنتم تستدفعون به المكاره، وتتوسلون به إلى نيل مطالبكم، فها هو اليوم قد اضمحل و لم يغن عنكم شيئاً، وكذلك أي شيء نفعكم استكباركم على الحق، وعلى ما جاء به رسل الله؟!

ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار.[1] فقالوا: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم﴾ أي: في الدنيا ﴿لا ينالهم الله﴾ أي: في الآخرة﴿برحمة﴾ يوبخهم بذلك، ثم زيدوا غماً وحسرة بأن قيل للمؤمنين: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٩][2].

ثم قال (تعالى): ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٠] يخبر (تعالى) عن ذلة أهل النار وسؤالهم

(١) انظر : تفسير السعدي ٢/١١٥ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٧/٢١٤.

أهل الجنة من شرابهم وطعامهم. قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم[1]. فكان جوابهم: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٠]. أي: طعام الجنة وشرابها حرام على الكافرين. ثم يأتي وصفهم، أي وصف أصحاب النار: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥١]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر[2] وهو النار. وسبب نسيانهم في النار كان بسبب تركهم الاستعداد للقاء الله (تعالى)، وجحودهم بآياته، مع وصولها لهم، ووضوحها أمامهم؛ كما قال (تعالى) في الآية التي بعدها: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3] [سورة الأعراف: ٥٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٢٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢١٠.

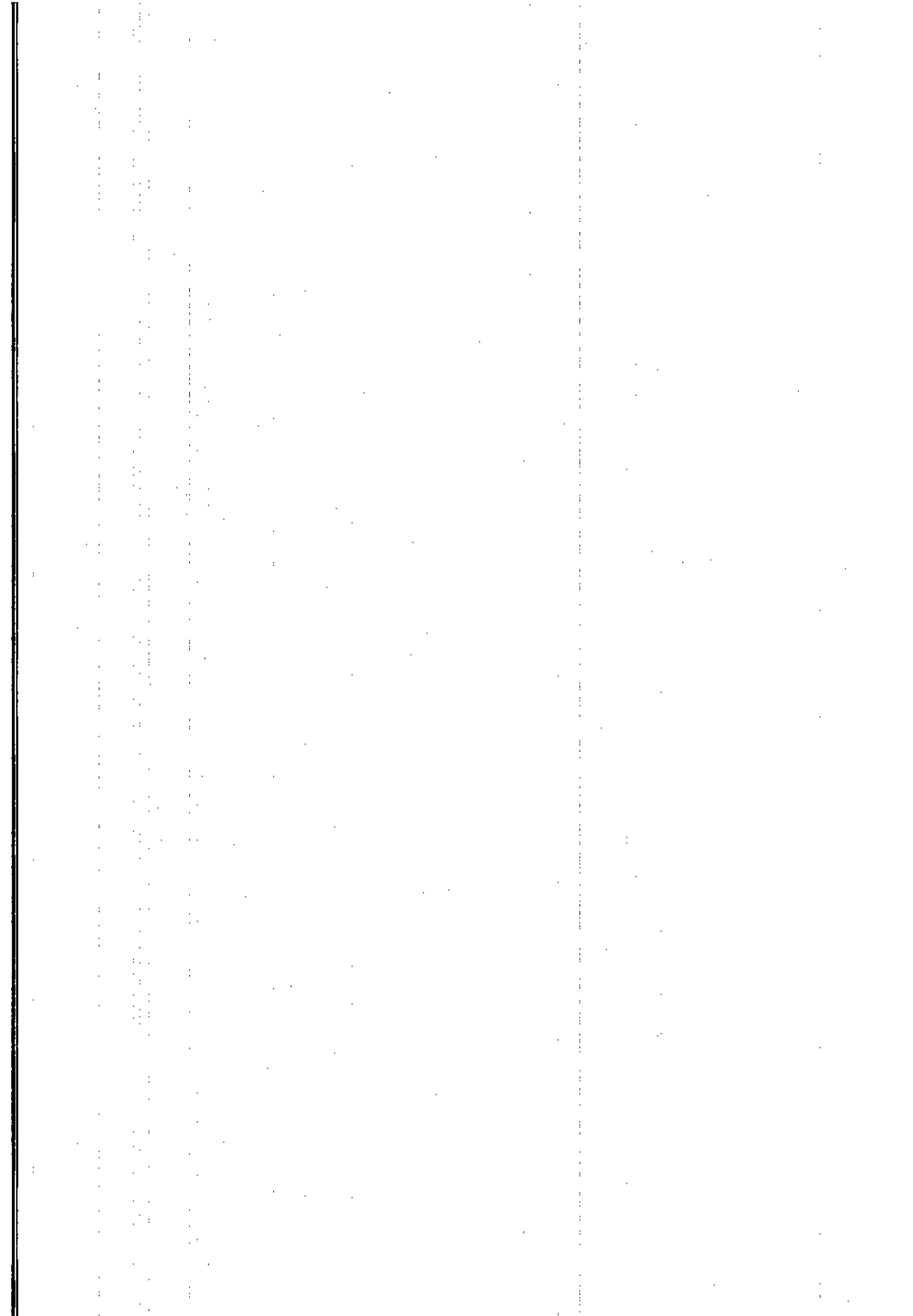
(٣) انظر: تفسير السعدي ٢/١١٦.

الفصل الثالث
الجـدل والمناظرة في السنة
خصائصه، وأسـاليبه، وتـطبيقاتـه

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: خصائص الجدل في السنة وأساليبه

المبحث الثاني: الأصناف الذين وردت مجادلتهم في السنة



تمهيد:

تقدم بيان منهج القرآن الكريم في مجادلة أصناف المخالفين، وتقدم عرض نماذج من تلك المجادلات، ولا يخفى أن هذا القرآن هو كتاب الله (تعالى) الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ليبلغه للناس كافة، وهو ﷺ المبيِّن لكتاب الله: بأقواله وأفعاله وأحواله، فقد كان خلقه القرآن. وقد واجه ﷺ الناس على اختلاف معتقداتهم؛ ومواقفهم من دعوة الحق التي جاءهم بها ؛فمن هؤلاء: المسترشد الذي يطلب الحق ليلتزم به، ومنهم الجاهل الذي يبتغي العلم فيستنير به، ومنهم الجاحد الذي يسلك سبيل المدافعة والمنازعة بغية تثبيت ما عنده وتزهيق ما عند غيره، لكنه قد يستسلم لما تنتج عنه المدافعة والمنازعة وظهور الحجة وبيان المحجة.

ومنهم المعاند المتلدد الذي لا يلوي على شيء غير الوقوف أمام كل جديد بالصد والإنكار، بدعوى التزام ما كان عليه الأولون من الآباء والأجداد.

ومن هؤلاء وهؤلاء من ينتسب إلى كتاب منزل أصابه من التحريف والتبديل ما جعله يخلط حقاً بباطل ورشاداً بغي، وصدقاً بكذب وهم اليهود والنصارى.

ومنهم من يعبد الوثن من الحجر والشجر، ويذبح على النصب ويستقسم بالأزلام مع بقاء شيء من دين الحنيفية على تحريف وتبديل ووثنية.

ومن المشركين وأهل الكتاب من أظهر ولاء وأضمر عداء، وأعلن وفاقاً وأبطن نفاقاً، وذلك بعد أن قويت شوكة الإسلام، وكثر ناصروه في دار الهجرة.

وهناك بعض حديثي العهد بالإسلام قد بقيت معهم بعض الشبه والشكوك التي تحملوها عن الجاهلية، فهي تحتاج إلى تجلية وتوضيح حتى يرسخ الإيمان في قلوبهم، وتصحح الفكرة في عقولهم.

كل هؤلاء وهؤلاء واجههم النبي ﷺ وقد وعى طريقة القرآن في بيان الحق وتثبيته، ودفع الباطل وتزهيقه، وعَلِمَ أساليب القرآن في مجادلة الخصوم ودفع الشبه والشكوك. فكانت العلاقة وثيقة جداً بين الجدل في القرآن والجدل في السنة، بل هما وحدة متماسكة لا انفصام لها، حتى ظهرت آثار الجدل القرآني واضحة جلية في التوجيه والجدال الذي كان يقوم به رسول الله ﷺ في تبليغ رسالة الله (تعالى) لا سيما عندما تدعو الحاجة إلى استخدام هذا النوع من أنواع البيان المحكم، فرسول الله ﷺ هو المفسر والمبيِّن لمقاصد الوحي وأحكامه، متلو كان أو غير متلو.[1]

والمقصود بالجدل في السنة في هذا الفصل هو ذاك الجدل الذي حدث في عهده ﷺ سواء كان أحد طرفي المجادلة هو الرسول ﷺ أو أحد أصحابه أو غيرهم كهرقل ملك الروم، ممن كان في جدلهم نصر للحق وأهله، ودفع للباطل وسدنته.

---

(١) انظر : مناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٤٢٦-٤٢٧ .

المبحث الأول
خصائص الجدل في السنة وأساليبه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: خصائص الجدل في السنة

المطلب الثاني: أساليب الجدل في السنة

المطلب الأول
خصائص الجدل في السنة

الخصائص المذكورة في هذا الموضع متعلقة بشخص الرسول ﷺ مما كان لها الأثر في جدله ومجادلته لخصومه، من حيث القوة والإحكام والفلج، وبعض هذه الخصائص لا يشاركه فيها أحد من الناس غير نبي، وبعضها يحتمل المشاركة، لكن كان لرسولنا ﷺ قطب رحاها وذروة سنامها.

وأنا ذاكر في هذا الموضع نماذج من النوعين:

١ – فمن أعظم خصائصه ﷺ أنه نبي الله (تعالى) ورسوله إلى خلقه؛ ليبلغ رسالة ربه، فالله مؤيده وناصره في مقام الحجة أبداً، فهو معصوم عن الخطأ في أداء الرسالة وتبليغ الوحي، ويدخل في ذلك حججه وبراهينه التي يستدل بها على صدق دعوته، سواء على خصومه أو على موافقيه، فحجته ﷺ هي الحجة القوية التي لا تنكسر، والبرهان الساطع الذي لا يُدفع، والدليل الحاسم الذي لا يعارض، تأييداً من الله (تعالى) وتسديداً وتوفيقاً.

قال (تعالى) : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٦٢]، وقال (تعالى): ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [سورة النجم: ٣-٤].

وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص وقد نهته قريش أن يكتب عن رسول الله ﷺ بحجة أن رسول الله ﷺ بشر يقول في الرضا والغضب، فقال له ﷺ: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»، وأومأ بأصبعه إلى فيه [(١)].

فمجادلته ومناظرته ﷺ سنة، والسنة من الوحي، والوحي معصوم؛ لأنه من الله (تعالى) ، قال أبو محمد بن حزم رحمه الله: «فصح أن كلام رسول الله ﷺ كله في الدين وحي من عند الله تعالى لا شك في ذلك» [(٢)].

ولهذا ـ كما سيتبين ـ كان ﷺ يستدل في جدله بآيات القرآن، أو ينتظر حتى يأتيه الجواب من ربه.

فبذلك يتبين أن الحجج والأدلة التي وردت في السنة على لسان النبي ﷺ تكون في قوة ودقة الحجج والأدلة القرآنية سواء بسواء.

٢- ومن خصائصه ﷺ: وفور عقله وفصاحة لسانه، وهما أمران لا بد للمناظر منهما: وفور العقل لإحكام النظر والمناظرة، وفهم كلام الخصم، وفصاحة اللسان لحسن التعبير عما في نفسه، ومخاطبة كل

---

(١) سنن أبي داود ٤/٦٠-٦١ كتاب العلم ـ باب في كتاب العلم ح : ٣٦٤٦ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/١٠٤-١٠٥ كتاب العلم وصححه، ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر: ولهذا ـ أي الحديث المذكور ـ طرق أخرى عن عبدالله بن عمرو يقوي بعضها بعضاً.فتح الباري ١/٢٠٧.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ١/١٠٩.

أحد بما يناسبه، وكلا الأمرين قد برز فيه النبي ﷺ ووصل إلى مرتبة لا مطمع لبشر فيها:

أما وفور عقله وذكاء لبه، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم[(١)].

قال القاضي عياض رحمه الله: «ومن تأمل تدبيره أَمْر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرَّرَه من الشرع، دون تعلُّم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا لا يُحتاج إلى تقريره لتحققه»[(٢)].

وقال وهب بن منبه: «قرأت في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً»[(٣)].

وأعظم من ذلك قول الله (تعالى) في شأنه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ١١٣].

وأما فصاحة لسانه ﷺ وبلاغة قوله فقد كان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل، سلاسةُ طبع، وبراعةُ مَنْزَع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف. أُوتي جوامع

---

(١) انظر : الشفا ـ عياض ١/١٦١.

(٢) الشفا ١/١٦١-١٦٢.

(٣) المرجع السابق ١/١٦٢ وانظر : حلية الأولياء ٤/٢٦، والخصائص الكبرى ـ السيوطي ١/١٦٥-١٦٦.

الكلم[١] وخُص ببدائع الحِكَم، وعُلّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها[٢]، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله[٣]. أخرج ابن عساكر عن محمد بن عبدالرحمن الزهري عن أبيه عن جده قال: «قال رجل: يا رسول الله، أيدالك الرجل امرأته؟ قال: نعم إذا كان مفلجاً. فقال أبوبكر: يا رسول الله، ما قال لك وقلت له؟ قال: إنه قال: أيماطل الرجل أهله؟ قلت له: نعم، إذا كان مفلساً. قال أبوبكر: يا رسول الله، لقد طفتُ في العرب، وسمعتُ فصحاءهم، فما سمعتُ أفصح منك. قال: أدبني ربي، ونشأت في بني سعد بن بكر»[٤].

---

(١) لحديث : بعثت بجوامع الكلم. انظر : صحيح البخاري ٢٤٧/١٣ (فتح الباري) باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم ح : ٧٢٧٣ ، وصحيح مسلم ٣٧١/١ كتاب المساجد ح : يلي ٥٢٣ .

(٢) واتخذ لغير العرب ترجماناً ليفهم عنهم، ويبلغهم خطابه ومراده، كما روى البخاري عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتبتُ للنبي ﷺ كُتُبَه، وأقرأته كُتُبَهُم إذا كتبوا إليه. فتح الباري ١٨٥/١٣-١٨٦ كتاب الأحكام ـ باب ترجمة الحكام وهل يجوز ترجمان واحد ح :٧١٩٥ ورواه أبو داود في سننه ٦٠/٤ كتاب العلم ـ باب رواية حديث أهل الكتاب ح : ٣٦٤٥ وفيه قال ﷺ: " فإني والله ما آمن يهود على كتابي، قال زيد بن ثابت : فتعلمته، فلم يمرَّ بي إلا نصف شهر حتى حذقته... " ورواه الترمذي في سننه ٢٤٧/٧ أبواب الاستئذان ـ باب ما جاء في تعليم السريانية ح : ٢٧١٦ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) انظر : الشفا ١٦٧/١.

(٤) قوله: أدبني ربي. قال الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص : ٣٢٧ لا يعرف له إسناد ثابت. وروى الحديث السيوطي في الخصائص الكبرى ١٥٨/١ عن ابن عساكر.

وذكر القاضي عياض في الشفا[1] نماذج من مخاطباته ﷺ قبائل العرب، كل قبيلة بلسانها.

٣- أن القصد من مجادلة الرسول ﷺ للناس هدايتهم، وتوقيفهم على صدق نبوته وصحة رسالته، ولقد اتصف رسول الله ﷺ بأحوال من الصدق والأمانة وموافقة الظاهر للباطن، وحسن الخلق والشهامة والمروءة وغير ذلك مما يعرف صاحب القريحة الفطن أن من كانت هذه أوصافه وأحواله لم يكن ليكذب على الله (تعالى).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو يتحدث عن إيمان السابقين بالرسول ﷺ: «وإيمان خديجة وأبي بكر وغيرهما من السابقين كان قبل انشقاق القمر، وقبل إخباره بالغيوب، وقبل تحديه بالقرآن، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذي هو نفسه آية مستلزمة لصدقه، ونفس كلامه وإخباره بأني رسول الله مع ما يعرف من أحواله مستلزم لصدقه إلى غير ذلك من آيات الصدق وبراهينه، بل خديجة قالت له[2]: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُقْري الضيف، وتُكْسِب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره وتلاعب الشيطان به»[3].

---

(١) ١/١٦٧-١٧٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ١/٢٢ كتاب بدء الوحي ح: ٣، ومسلم في صحيحه ١/١٤١ كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحي ... ح : ١٦٠.

(٣) وانظر : منهاج السنة النبوية ٢/٤٢٠.

وأبوبكر كان من أعقل الناس وأخيرهم، وكان معظَّماً في قريش لعلمه وإحسانه وعقله، فلما تبين له حاله، علم علماً ضرورياً أنه نبي صادق وكان أكمل أهل الأرض يقيناً: علماً وحالاً»[1]. وسيأتي استدلال هرقل بأحواله ﷺ على صحة نبوته.

٤- ومن خصائصه ﷺ تخلقه بأعلى مقامات الأدب والسجايا الفاضلة من حسن المخاطبة، والصبر والحِلْم والعفو، وغير ذلك مما يجعله ـ عند مباشرة المناظرة والمجادلة ـ أملك الناس لجماح نفسه أن تستثيرها سوء أخلاق الخصم، فيخرج عن مقام الثبات والرسوخ، فيتشتت فكره، ويذْهل عقله، فلا يعي ما يقول، ولا يضبط ما يسمع، فتكون فرصةً لخصمه أن يظهر عليه، ويحقق مراده في إعلاء الباطل ودحض الحق.

فكان ﷺ لا ينتقم لنفسه قط، بل يعفو ويحتسب؛ كما في قول عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها»[2].

وكان ﷺ أحلم الناس وأملكهم لغضبه، فهو القائل: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[3].

---

(١) الجواب الصحيح ٦/٥١١-٥١٢ .

(٢) صحيح البخاري ٦/٥٦٦ (فتح الباري) كتاب المناقب ـ باب صلة النبي ﷺ ح: ٣٥٦٠، وصحيح مسلم ٤/١٨١٣ كتاب الفضائل ـ باب مباعدته ﷺ للآثام ...ح: ٢٣٢٧ وما يليه.

(٣) صحيح البخاري ١٠/٥١٨ (فتح الباري) كتاب الأدب ـ باب الحذر من الغضب ... ح: ٦١١٤

وقال أنس بن مالك ﷺ: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فَجَبَذَ بردائه جَبْذَةً شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثَّرت فيها حاشيةُ الرداء من شدَّة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»[(١)]. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي الحديث بيان حلمه ﷺ وصبره على الأذى في النفس والمال، والتجاوز [عن][(٢)] جفاء من يريد تألُّفَه على الإسلام، وليتأسى به الولاة بعده في خلقه الجميل، من الصفح والإغضاء والدفع بالتي هي أحسن»[(٣)].

وكان ﷺ أحسن الناس تعليماً وتوجيهاً لأصحابه، يمتلأ رحمة وشفقة وحرصاً على هداية الخلق. روى مسلم في صحيحه[(٤)] بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي قال: «بينا أنا أصلي مع رسول الله إذ عَطَسَ رجل من القوم فقلت: يرحمُك الله! فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثُكْل أُمِّياه، ما شأنُكم؟! تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم يُصَمِّتُونني، لكني سكتُ، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً

---

(١) صحيح البخاري ١٠/٥٠٣-٥٠٤ (فتح الباري) كتاب الأدب ـ باب التبسم والضحك ح : ٦٠٨.

(٢) في الأصل [على]، ولعل الصحيح ما أثبته.

(٣) فتح الباري ١٠/٥٠٦.

(٤) ١/٣٨١-٣٨٢ كتاب المساجد ـ باب تحريم الكلام في الصلاة ح : ٥٣٧.

منه، فوا لله ما كَهَرَني ولا ضربني ولا شتمني. قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن...».

وكان ﷺ يحب الرفق في شأنه كله، حتى في مواقف الإساءة، وتحريك الشحناء؛ فقد روى البخاري[1] بسنده عن عروة بن الزبير: «أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السامُ عليكم. قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السامُ واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟! قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم».

وكان ﷺ يلتزم الصدق في أمره كله، ولا يحمله حرج الموقف على التقول على الله، أو الخوض فيما لا علم له به، تخلصاً من العجز، وطلباً لكسر خصمه ولو بالباطل على عادة الذين يريدون العلو في الأرض والفساد، بل كان ﷺ وقّافا عند حدود الله (تعالى) ، ينتظر الجواب من ربه على سؤال يسأله، أو دفع إشكال لم يقف على وجهه، كما سيتبين ذلك قريباً بإذن الله.

وكان ﷺ يحسن الاستماع إلى خصمه، ولو كان من أعظم السفهاء، حتى يتم حديثه، ولا يقطعه عليه، كما فعل ذلك مع عتبة بن ربيعة

---

(١) ١٠/٤٤٩ (فتح الباري) كتاب الأدب ـ باب الرفق في الأمر كله ح:٦٠٢٤.

الذي جاء إليه يكلمه عساه أن يكفَّ عنهم ويَدَعَهم وشأنهم، فاستمع إليه النبي ﷺ حتى فرغ من حديثه كله، ثم أجابه النبي ﷺ بجواب أسكت به لسانه، وأسقط حجته، وأثر في نفسه حتى قالت له قريش حين رجع إليها: سحرك والله يا أبا الوليد، بلسانه[1].

وقد قيل: من لم يحسن الاستماع لم يحسن الجواب[2].

وبسبب هذه الأخلاق الرفيعة، والقيم السامية وغيرها من شمائله ﷺ اهتدى كثير من خصومه ومخالفيه الذين حفلت بذكرهم كتب السنن والسير، فكم من مناظرة بين الرسول ﷺ ومخالف له من أهل الملل الكافرة قد انكشف عن هداية المخالف وموافقته للحق، وإقراره للرسول ﷺ لما رأى من صدق المنطق، وصحة الحجة، وقوة البرهان، مع حسن الخلق، ولين الجانب، وبذل المعروف. وقد قال (تعالى): ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة فصلت: ٣٣-٣٥]. قال مقاتل في قوله: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ قال: «نزلت في أبي سفيان بن حرب كان مؤذياً للنبي ﷺ فصار له ولياً بعد أن كان

---

(١) انظر: السير والمغازي - ابن إسحاق ص: ٢٠٧-٢٠٨ وسيأتي تخريجه بأوسع من هذا قريباً.

(٢) أصول الحوار ص : ٢٧.

عدواً، بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ ثم أسلم فصار ولياً في الإسلام حميماً بالقرابة»[١].

وقد أمره الله (تعالى) أن يلتزم أحسن الطرق في الجدال، كما في قوله (تعالى): ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] فامتثل ذلك في جداله وفي أمره كله مما يتعلق بدعوة الناس وهدايتهم حتى وصفه ربه في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤] وقال (تعالى): ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

قال ابن الحنبلي رحمه الله في تفسير قوله (تعالى): ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] : «فيحتمل أن يكون المراد بالأحسن: الأظهر من الأدلة، ويحتمل بالتعجيز عن الإتيان بمثل القرآن؛لأنه أحسن الأدلة نظاماً وبياناً، وأكملها حسناً وإحساناً، وأرجحها من الثواب ميزاناً، وأوضحها على اختلاف مدلولاتها كشفاً وبرهاناً، ويحتمل بالإصغاء إلى شبههم والرفق بهم في حلها ودحضها، ويحتمل بترك الغلظة عليهم في حال جدالهم لتكون الحجة عليهم أظهر، والجحد منهم أنكد، وهي سنة الأنبياء عليهم السلام مع الأمم عند الدعوة والمجادلة، من ذلك لما قالوا لمحمد ﷺ: مجنون. قال: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ...﴾ [سورة الأعراف: ١٨٨] أي جنون. من غير أن يقابلهم على ذلك بقول خشن، مع النخوة العربية والعزة الهاشمية...» ثم ذكر رحمه الله نماذج من

(١) تفسير القرطبي ١٥/٣٦٢.

ذلك وقعت للأنبياء مع أممهم ثم قال: «فلو قابلهم الأنبياء بغلظة لنفرت طباعهم، وانصرفت عقولهم عن التدبر لما قالوا، والتدبر لما جاءوا به من البينات، فلم تتضح لهم المحجة، و لم تقم عليهم الحجة، وشاهد هذه الحالة قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٦] »[(١)].

بعض ما تقدم ذكره من الخصائص المحمدية، كان للصحابة رضي الله عنهم منها القِدْح المُعَلَّى، والحظ الأوفى، وذلك لحسن متابعتهم، وصدق تأسيهم به ﷺ، فهم أعلى الناس به شبها في العلم والعمل والنظر والمناظرة، والجدل والمجادلة، وإقامة الحجة، وإصابة الحق. وكل ذلك وزيادة حصل لهم ببركة متابعتهم له ﷺ وتأسيهم به، وبفضيلة الصحبة التي لا تعدلها فضيلة، فضلاً عن أن تفوقها فضيلة أخرى عند غيرهم من الناس؛ فكانوا كما وصفهم عبد الله بن مسعود ﷺ: «... أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[(٢)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وصف أهل السنة والحديث،ومنهم الصحابة الذين هم ساداتهم وأئمتهم: «فهم أكمل

---

(١) استخراج الجدل ص: ٥٢-٥٥.

(٢) جامع بيان العلم ١١٩/٢، ونحوه في مشكاة المصابيح ٦٧/١-٦٨ برقم: ١٩٣ قال الألباني: منقطع، وانظر: الموافقات ٧٩/٤، وإعلام الموقعين ١٣٩/٤.

الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدهم كلاماً، وأصحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل... وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد: ١٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٦-٦٨] »[1].

---

(١) نقض المنطق ص : ٨ .

المطلب الثاني
أساليب الجدل في السنة

إن النبي ﷺ تأثر جداً بأسلوب القرآن الكريم في الجدل، وهذا شيء طبيعي، فهو الذي أنزل عليه القرآن، وكان خلقه القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، ويتأدب بآدابه، ويلتزم أحكامه في شأنه كله، ومن ذلك الدعوة والمجادلة ونحوهما؛ ولهذا اختلطت طريقته ﷺ في المجادلة بطريقة القرآن وتأثرت بها، وستأتي النماذج التي توضح هذا الأمر، ومع ذلك سأذكر بعض الأساليب التي كان ﷺ يستخدمها في مجادلة خصومه:

١- فمن ذلك الاستدلال بقدرة الله تعالى على كل شيء، وأنه تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه تعالى يأتي بما تحار العقول فيه، وإن كانت لا تحيله، وذلك لقصورها وضعفها. ففي الصحيح(١) من طريق أنس أن رجلاً قال: «يا نبي الله، يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟! قال : أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة». قال قتادة ـ راوي الحديث عن أنس ـ: «بلى وعزة ربنا».

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٤٩٢/٨ كتاب التفسير ـ باب ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الفرقان: ٣٤] ح : ٤٧٦٠ ، ومسلم في صحيحه ٢١٦١/٤ كتاب صفات المنافقين ـ باب يحشر الكافر على وجهه ح : ٢٨٠٦

٢- ومن ذلك ضرب الأمثال لتقريب المعاني وتجسيدها في صورة قريبة يسهل فهمها وإدراكها. فمن ذلك: ما رواه أبو داود الطيالسي[١] عن أبي رزين العقيلي ﷺ قال: «قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضراً؟ قال: بلى. قال: فكذلك النشور. أو قال: كذلك يحي الله الموتى».

ومن ذلك - أيضاً - ما رواه البخاري[٢] عن أبي هريرة ﷺ:أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: إن امرأتي وَلَدَت غلاماً أسود وإني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال فما ألوانها؟ قال: حُمْرٌ. قال: هل فيها من أورق؟ قال: إن فيها لورقاً. قال: فأنّى ترى ذلك جاءها؟ قال: يارسول الله، عِرْق نَزَعَهَا. قال: ولعل هذا عرق نَزَعَهُ...».

وقد ترجم الإمام البخاري ﷺ هذا الحديث في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة[٣] بقوله: «باب من شبَّه أصلاً معلوماً بأصل مبين، وقد بين النبي ﷺ حكمهما ليفهم السائل».

وقال الحافظ ابن حجر: «وأورده النسائي بلفظ: من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبهم، قد بين حكمهما ليفهم السائل، قال: وهذا أوضح في المراد»[٤].

---

(١) مسند الطيالسي ص : ١٤٧، وذكره ابن كثير في تفسيره ١/١٠٧-١٠٨.

(٢) ٢٩٦/١٣ (فتح الباري) كتاب الاعتصام ح : ٧٣١٤

(٣) ٢٩٦/١٣ (فتح الباري) .

(٤) فتح الباري ٢٩٦/١٣-٢٩٧.

٣- ومن أساليبه: أنه ﷺ ربما يستحلف خصمه بقسم يعظمه، ويأخذ عليه العهود والمواثيق أن يلتزم الحق متى بان له، وهذا الأسلوب يناسب استعماله مع أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم أصحاب رسالة سماوية، وصلة بالأنبياء، وقد عرفوا صدق الرسول ﷺ، ونبوته كما يعرفون أبناءهم، لكن منعهم الحسد والبغي أن يقروا له بذلك، فيكون هذا الأسلوب أنجع معهم، وإن كانوا لا يوفون بعهد، ولا يعظمون ميثاقاً، لكن ينتفع بذلك الأتباع بظهور كذب الأحبار والرهبان وخِدَاعهم، فتخبو جذوة الإيمان بهم، والثقة فيهم، والاطمئنان إليهم، وستأتي مجادلة النبي ﷺ لبعض اليهود، وقوله لهم في بداية الكلام: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه، لئن حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام. قالوا: فذلك لك، وأخذ ﷺ يذكرهم بذلك في كل مرحلة من مراحل الجدال، مرة بعد مرة، ويستشهد عليهم في كل مرة.

واستعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الأسلوب النبوي مع اليهود ـ كما سيأتي ـ فقال لهم مرة: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه، أتعلمون أنه رسول الله؟ حتى إذا سكتوا وكتموا، تصدى لهم رجل منهم، فقال: أخبروا الرجل، لتُخبِرُنّه أو لأخبرنه.

٤- أنه ﷺ ربما يستخدم غيره ليقوم مقامه في الرد على الخصوم، ودحض شبهاتهم، وهذا التفويض منه ﷺ يعبر عن رضاه بما يقوم به هذا

الصحابي أو ذاك من إيراد الحجج، ودفع الشبه، وإقامة الحق، ودمغ الباطل؛ فمن ذلك قول النبي ﷺ لمسيلمة الكذاب وقد جاء مع بعض قومه، وكلمه ﷺ وهدده، ثم قال له: وهذا ثابت يجيبك عني، ثم انصرف[1] وثابت هو ثابت بن شمّاس ﷺ.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ قوله ﷺ لحسان بن ثابت في هجاء المشركين ورد كيدهم: «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس»[2].

وقال البراء بن عازب: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: اهجهم، أو هاجهم وجبريل معك»[3].

وقالت عائشة رضي الله عنها في حسان: «كان ينافح عن رسول الله ﷺ»[4]. وعنها رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ قال: اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشقٍ بالنبل، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: اهجهم. فهجاهم، فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن

---

(١) انظر : صحيح البخاري ٨٩/٨ (فتح الباري) كتاب المغازي ـ باب وفد بني حنيفة ... ح: ٤٣٧٣

(٢) صحيح البخاري ٣٠٤/٦ (فتح الباري) كتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ح : ٣٢١٢ ، وصحيح مسلم ١٩٣٢/٤-١٩٣٣ كتاب فضائل الصحابة ح : ٢٤٨٥.

(٣) صحيح البخاري ٣٠٤/٦ (فتح الباري) بدء الخلق ح:٣٢١٣ وصحيح مسلم ١٩٣٣/٤ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل حسان بن ثابت ﷺ ح : ٢٤٨٦.

(٤) صحيح مسلم ١٩٣٣/٤ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل حسان بن ثابت ﷺ ح: ٢٤٨٧

مالك، ثم أرسل إلى حسَّان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسَّان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأَسَد الضارب بِذَنَبِه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينَّهم بلساني فري الأديم[(١)]، فقال رسول الله ﷺ: لا تعجلْ، فإن أبابكر أعلم قريشٍ بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، حتى يُلَخِّصَ لك نسبي، فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يارسول الله، قد لَخَّصَ لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأَسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين.

قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هَاجَهُم حسان فشَفَى واشتفى...»[(٢)].

هذا إضافة إلى من يرسله النبي ﷺ من الرسل إلى الأمصار والآفاق يبلغون دعوة الله (تعالى) ويجيبون عن أسئلة الناس، وشبه الخصوم.

٥- ومن أساليبه ﷺ في المجادلة أن يقيم الحجة على خصمه من دليل يقر به الخصم، ولا يستطيع رده، فمن ذلك طلبه من اليهود أن يأتوا بالتوراة ليبين لهم بها ما أنكروه من حكم رجم المحصن، وأنهم يكتمون الحق، ولا يقيمون التوراة التي يدَّعون الانتساب لها؛ روى

---

(١) أي أمزقهم تمزيق الجلد .

(٢) صحيح مسلم ٤/١٩٣٥-١٩٣٦ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل حسان بن ثابت ح : ٢٤٩٠

مسلم في صحيحه[(١)] عن نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهم أن عبدالله بن عمر أخبره: «أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا: نسوِّد وجوههما، ونحمِّلُهُما، ونخالف بين وجوههما، ويطاف بهما. قال: فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين، فجاءوا بها فقرأوها، حتى إذا مرُّوا بآية الرجم، وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله ابن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ : مُرْهُ فليرفع يده فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما».

٦- ومن أساليبه ﷺ: بيان تناقض خصمه وأنه لا يعتمد في حجته إلا التشهي والتحكم، لا الدليل والبرهان:

روى البخاري في صحيحه[(٢)] عن أنس ﷺ قال: «بلغ عبدَ الله بن سلام مقدمُ النبي ﷺ المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبي. قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع

---

(١) ١٣٢٦/٣ كتاب الحدود ـ باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا ح : ١٦٩٩ ، وانظر : صحيح البخاري ٢٢٤/٨ كتاب التفسير ـ باب ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٣] ح:٤٥٥٦.

(٢) ٣٦٢/٦-٣٦٣ (فتح الباري) كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب خلق آدم وذريته ح : ٣٣٢٩

إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: خبَّرني بهن آنفاً جبريل. قال فقال: عبدا لله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشراط الساعة فنار تحشُرُ الناسَ من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشَّبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشَّبه لها. قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يارسول الله، إن اليهود قوم بُهُتٌ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبدا لله البيت، فقال رسول الله ﷺ : أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعلمُنا وابنُ أعلمِنا، وأخبرُنا وابن أخبرِنا. فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدا لله إليهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه».وفي رواية[1] أن النبي ﷺ قال لليهود حين دخلوا إليه: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوا لله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، فأسلموا. قالوا: ما نعلمه ــ قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرار ـ قال: فأي رجل فيكم عبدا لله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالو: حاشا لله ما كان ليُسْلِمِ. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليُسْلِمَ قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما

(١) صحيح البخاري ٧/ ٢٥٠ كتاب مناقب الأنصار ــ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ح : ٣٩١١.

كان لِيُسْلِمَ. قال: يا ابن سلام، اخرج عليهم. فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ»، وفي رواية قال عبدالله ـ بعد أن سبَّه اليهود ـ: «هذا كنت أخاف يا رسول الله»[1]، أي فتبين بهتهم وعدم إقامتهم على الحق، اتباعاً لأهوائهم.

٧- ومن أساليبه ﷺ في الجدل: أنه يستعمل مع كل قوم ما يناسبهم في الخطاب، فإذا خاطب المشركين ركز على متابعة إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان المشركون يزعمون أنهم ينتسبون إليه، فيريد منهم أن يصدقوا في هذا الانتساب بأن يكون انتساباً إلى ملته الحنيفية السمحة البعيدة عن الشرك وعبادة الوثن.

وقد أمره الله عز وجل أن يعلن انتسابه إلى ملة إبراهيم الخليل كما في قوله (تعالى): ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦١]. وقال (تعالى): ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨]. فاجتمعت لنبينا محمد ﷺ ولاية النسب والمتابعة.

وأما إذا كان المخاطب من أهل الكتاب، عظم النبي ﷺ أمر أنبيائهم كموسى وعيسى وما أنزل عليهم من الكتاب، وطالب خصومه أن

---

(١) المرجع السابق ٢٧٢/٧ كتاب مناقب الأنصار ح : ٣٩٣٨ .

يخلصوا في متابعتهم، ويؤمنوا بالكتاب كله، ولا يحرفوه، ولا يكتموا بعضه، فهذا حري بهم أن يقروا لرسول الله ﷺ بالنبوة، ويذعنوا له بالمتابعة؛ لأن في ذلك تصديقاً لأنبيائهم ومتابعة لهم. وهذا التزام منه ﷺ بالتوجيه الرباني كما في قوله (تعالى): ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] وقوله (تعالى): ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦-١٣٧].

المبحث الثاني
الأصناف الذين وردت مجادلتهم في السنة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الجدل مع المشركين

المطلب الثاني: الجدل مع المنافقين

المطلب الثالث: الجدل مع اليهود

المطلب الرابع: الجدل مع النصارى

المطلب الأول
الجدل مع المشركين

بُعث النبي ﷺ في قوم مشركين يعبدون الأوثان، ويتقربون إليها، فدعاهم إلى كلمة التوحيد الخالص. وطَرَق لذلك كل سبيل علّه يدخل إلى قلوبهم، ويغير مما هم عليه من الشرك والكفر، فدعاهم بالحسنى، وذكّرهم وخوّفهم ورغّبهم، وجادلهم بالتي هي أحسن، وكان له معهم في مقام المجادلة مواقف مشهورة معروفة، أختار في هذا الموضع نماذج منها:

١- جاء في السير والمغازي[1] لابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث أخا بني عبدالدار وغيرهم من رجال قريش، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تُعْذَرُوا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا

---

(١) ص: ١٩٧-١٩٩. وذكرها عن ابن إسحاق ابن هشام في السيرة النبوية ١/٣٦٤-٣٦٨، وانظر تفسير الطبري ١٥/١١٠-١١١ ط. دار المعرفة ، وتفسير البغوي ٣/١٣٦-١٣٧ وأسباب النزول للواحدي ص: ١٩٨-١٩٩، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠٢-٢٠٣ إلى ابن أبي حاتم ، وانظر : الروض الأنف ٢/٣٦-٣٧ .

إليك لِنُعْذَرَ فيك، وإنا وا لله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، ولقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفّهت الأحلام وشتمت الآلهة، وفرَّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك به رئيٌ تراه قد غلب عليك، وكانوا [يسمون][1] التابع من الجن [رئياً][2]، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نُعذر فيك، فقال لهم رسول ا لله ﷺ: ما أدري ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنَّ ا لله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا علي أصبر لأمر ا لله حتى يحكم ا لله بيني وبينكم، أو كما قال رسول ا لله ﷺ.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل ماءً، ولا أشد

(١) في الأصل : [يسمعون] ولعل الصحيح ما أثبته .

(٢) في الأصل : [رئي] والصحيح ما أثبته .

عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فلْيُسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجري فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا فيهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، نسلهم عما تقول أحق هو أم باطل، فإن صنعت لنا ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

فقالوا: فإن لم تفعل لنا هذا، فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث معك ملَكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، وحتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يَسَل ربه هذا، ولا بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله ﷺ: ذلك إليه، إن شاء فعل

ذلك بكم؛ قالوا: يا محمد، فأعلم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى تَهْلَكَ أو تُهْلِكَنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهن بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً. فلما قالوا له ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته، ابن عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد، عَرَضَ عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثم أن تُعَجِّلَ لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمَا ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك منشور ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول، وايم الله، أنك لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان فيه يطمع من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه...

وقال ابن إسحاق[1]: وأنزل الله (تعالى) عليه فيما سأله قومُه لأنفسهم من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض وبعث من مضى من

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٨١-٣٨٢ .

آبائهم من الموتى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد: ٣١]. أي لا أصنع من ذلك إلا ما شئت.

وأنزل عليه في قولهم: خذ لنفسك، ما سألوه أن يأخذ لنفسه، أن يجعل له جناناً وقصوراً وكنوزاً، ويبعث معه مَلَكاً يصدقه بما يقول، ويردَّ عنه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٧-١٠] أي من أن تمشي في الأسواق وتلتمس المعاش: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ [سورة الفرقان: ١٠].

وأنزل عليه في ذلك من قولهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٠] أي جعلتُ بعضَكم لبعض بلاء لتصبروا، ولو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يُخالفوا لفعلت.

وأنزل الله فيما قال عبدا لله بن أمية: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ

مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٠-٩٣].

٢- وروى ابن إسحاق[١] عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثتُ أنَّ عُتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً، قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسولُ الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأُكَلِّمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفَّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة[٢] في العشيرة، والمكان

(١) انظر : السير والمغازي ص : ٢٠٦-٢٠٧ (وبعض المواضع أصلحتها من السيرة النبوية ـ ابن هشام ١/٣٦٢-٣٦٤) . وانظر مصنف ابن أبي شيبة ١٤/٢٩٥-٢٩٧ كتاب المغازي برقم : ١٨٤٠٩ من غير طريق ابن إسحاق، وفيه الأجلح وفيه كلام، ورواه البيهقي في الدلائل بمثل رواية ابن أبي شيبة ١/٤٥٠-٤٥٢ ، ورواه أبو نعيم في الدلائل١/٣٠٤-٣٠٥ برقم : ١٨٥ بمثل رواية ابن أبي شيبة، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٩-٢٠ وعزاه إلى أبي يعلى، وفيه الأجلح الكندي وثّقه ابن معين وغيره وضعَّفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات . وقال محمد ناصر الدين الألباني في هامش فقه السيرة للغزالي ص : ١١٣ : هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى من طريق أخرى من حديث جابر ﷺ كما في تفسير ابن كثير ٤/٩٣ وسنده حسن إن شاء الله .

(٢) السِّطة : الشرف ، وانظر : النهاية لابن الأثير ٢/٣٦٦ .

في النسب، وإنك قد أتيت قومك بـأمر عظيـم؛ فرقـت بـه جمـاعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّـرت مـن مضـى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظـر فيهـا لعلـك أن تقبـل منها بعضها. فقال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بمـا جئـت بـه مـن هذا القول مالاً جمعنا لك من أموالنـا حتـى تكـون أكثرنـا مـالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً شرفناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع أن ترده عن نفسك، طلبنـا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنـه ربمـا غلـب التـابع على الرجل حتى يداوى منه، ولعل هذا الذي تأتي به شعر جـاش بـه صدرك، فإنكم لعمري يا بني عبـد المطلـب تقـدرون منـه علـى مـا لا يقدر عليه أحد. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال رسول الله ﷺ: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم؛ قال: فاستمع مني. قال: أفعل. فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حم * تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [سورة فصلت: ١-٥] فمضـى رسـول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلـف ظهـره معتمداً عليهما يستمع منه؛ حتـى انتهـى رسـول الله ﷺ إلى السـجدة منها، فسجد فيها، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد مـا سمعـت، فـأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف با لله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني وا لله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، وا لله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوا لله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك وا لله يا أبا الوليد بلسانه؛ فقال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.

٣- بعث أهل مكة النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، قال: فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول ا لله ﷺ ووصفوا لهم أمره، وأخبروهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة، فقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل، فرَوَا ـ أي اعملوا فيه رأيكم ـ فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان

من أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان بناؤه، وسلوه عن الروح ما هو، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فهو رجل متقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا. فسألوه عما أمروهم به. فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم عما سألتم عنه غداً، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحْدِث الله (تعالى) إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة، وقد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، حتى أحزن رسولَ الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوَّاف، يقول الله (تعالى): ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٥] [(١)].

---

(١) انظر: السير والمغازي ص: ٢٠١-٢٠٢، والسيرة النبوية لابن هشام ١/٣٧١ وما بعدها.

قال ابن إسحاق: فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدْقه فيما حدَّث، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتّباعه وتصديقه، فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت: ٢٦]، أي: اجعلوه لغواً وباطلا، واتخذوه هزوا لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم...

فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي، استرق السمع دونهم فَرَقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئاً من قراءته، وسمع هو شيئاً دونهم أصاخ له يستمع منه[1].

٤- أخرج البخاري[2] رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمدٌ الأمرَ من بعده تبعتُه، وقَدِمَهَا في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شمّاس وفي يد رسول

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٨٦-٣٨٧.

(٢) ٨/٨٩ (فتح الباري) كتاب المغازي - باب بني حنيفة ... ح: ٤٣٧٣، ٤٣٧٤.

الله قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت لَيَعْقِرَنَّك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيتُ، وهذا ثابت يجيبك عني، ثم انصرف عنه. قال ابن عباس فسألتُ عن قول رسول الله ﷺ: إنك أرى الذي أريتُ فيه ما رأيتُ، فأخبرني أبوهريرة أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمَّني شأنهما، فأُوحي إلي في المنام أنِ انفُخْهُما، فنفختُهما فطارا، فأولتهما: كذابين يخرجان بعدي: أحدهما العنسي والآخر مسيلمة». وفي رواية أن مسيلمة قال للرسول ﷺ : إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ثم جعلته لنا بعدك، فقال النبي ﷺ لو سألتني...الحديث[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في قوله ﷺ : «وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني»: «أي لأنه كان خطيب الأنصار، وكان النبي ﷺ قد أعطي جوامع الكلم، فاكتفى بما قاله لمسيلمة، وأعلمه أنه إن كان يريد الإسهاب في الخطاب فهذا الخطيب يقوم عني في ذلك. ويؤخذ منه استعانة الإمام بأهل البلاغة في جواب أهل العناد ونحو ذلك»[2].

---

(١) المرجع السابق ٨/٩١-٩٢ كتاب المغازي ـ باب قصة الأسود العنسي ح : ٩٣٧٨.

(٢) فتح الباري ٨/٩٠.

٥- وروى البخاري في صحيحه [١] عن أسامة بن زيد رضي ا لله عنهما أن رسول ا لله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فَدَكية، وأردف أسامة ابن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر. قال: حتى مرَّ بمجلس فيه عبدا لله بن أبي بن سلول وذلك قبل أن يسلم عبدا لله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبدا لله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمَّر عبدا لله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلَّم رسول ا لله ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى ا لله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدا لله بن أبي بن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً، فلا تؤذينا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبدا لله بن رواحة: بلى يا رسول ا لله، فاغشنا به، وائتنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك.

فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يُخفِّضُهُم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ : يا سعدُ، ألم تسمع ما قال أبوحباب ـ يريد عبدا لله بن أبي ـ قال كذا وكذا. قال سعد بن عبادة: يا رسول ا لله، اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك

---

(١) صحيح البخاري ٨/٢٣٠-٢٣١ (فتح الباري) كتاب التفسير ـ باب ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . . . الآية﴾ ح : ٤٥٦٦ ، وانظر صحيح مسلم ٣/١٤٢٢-١٤٢٣ كتاب الجهاد ـ باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين ح : ١٧٩٨.

الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصِّبونه بالعِصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شَرِق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصطبرون على الأذى -قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [سورة آل عمران: ١٨٦] الآية. وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩] إلى آخر الآية. وكان النبي ﷺ يتأوَّل العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله به صناديد كفَّار قريش، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذه أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ، فأسلموا».

وفي رواية[1] عن أنس ﷺ قال: «قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبدَ الله ابن أُبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه - وهي أرض سبخة - فلما أتاه النبي قال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك. فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتما، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال ...».

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢٩٧ (فتح الباري) كتاب الصلح - باب ما جاء في الإصلاح بين الناس ... ح: ٢٦٩١، وصحيح مسلم ٣/١٤٢٤ كتاب الجهاد - باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين ح: ١٨٠٠.

٦- وروى مسلم في صحيحه[١] بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه، قال: انطلقت في المدة[٢] التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل، يعني عظيم الروم. قال: وكان دِحْيةُ الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بُصْرى، فدفعه عظيم بُصْرى إلى هرقل. فقال هرقل: هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم. قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه. فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا[٣] فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي[٤] ثم دعا بِتَرْجُمَانِه، فقال له: قل لهم: إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذّبني فكذِّبوه. قال: فقال أبو سفيان: وايم الله! لولا مخافة أن يؤثر عليَّ الكذب لَكَذَبْتُ[٥] ثم قال

(١) ٣/١٣٩٣-١٣٩٧ كتاب الجهاد والسير ـ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ح:١٧٧٣، وانظر : صحيح البخاري ١/٣١-٣٣ (فتح الباري) كتاب بدء الوحي ح : ٧ و٦/١٠٩-١١٠ كتاب الجهاد ـ باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة ح :٢٩٤١.

(٢) هي مدة صلح الحديبية انظر : فتح الباري ١/٣٤.

(٣) وفي صحيح البخاري ٦/١٠٩ قال هرقل: " ما قرابة ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عم، وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري ". وإنما خص هرقل الأقرب؛ لأنه أحرى بالاطلاع على أموره ظاهراً وباطناً أكثر من غيره؛ ولأن الأبعد لا يُؤْمن أن يقدح في نسبه بخلاف الأقرب، وظهر ذلك في سؤاله بعد ذلك: كيف نسبه فيكم؟ انظر : فتح الباري ١/٣٥.

(٤) أي لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب.انظر : فتح الباري ١/٣٥

(٥) في صحيح البخاري ٦/١٠٩ قال أبو سفيان :" والله! لولا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يأثروا الكذب عني فَصَدَقْتُه " .

لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب. قال: فهل كان من آبائه مَلِك؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: ومن يتبعه؟ أشراف[1] الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قال: قلت: لا، بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سَخْطَةً له؟ قال: قلت: لا. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً، يصيب منا ونصيب منه. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: فوا لله ما أمكنني من كلمة أُدْخِلُ فيها شيئاً غير هذه. قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قال: قلت : لا.

قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه، فزعمتَ أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها. وسألتك: هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان من آبائه ملك، قلت: رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه، أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على ا لله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يزيدون أم

---

(١) المراد أهل النخوة والتكبر، لا كل شريف، حتى لا يرد مثل أبي بكر وعمر وأمثالهما ممن أسلم قبل هذا السؤال. انظر : فتح الباري ١/٣٥.

ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمَّ. وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر. وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله، قلت رجل ائتم بقول قيل قبله. قال: ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.(١) قال: إن يكن ما تقول فيه حقاً فإنه نبي، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه، لأحببت لقاءه(٢)، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه(٣)، وليبلغن ملكه ما تحت

---

(١) في صحيح البخاري ٦/١١٠ قال أبو سفيان : " يأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة " .

(٢) في صحيح البخاري ٦/١١٠ قال : " ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه " . قال الحافظ : وللطبراني من طريق ضعيف قال: أعرف أنه كذلك، ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلتُ ذهب ملكي وقتلني الروم. قال الحافظ: لكن لو تفطن هرقل لقوله ﷺ في الكتاب الذي أرسل إليه: " أسلم تسلم" وحمل الجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة لسلم - لو أسلم - من كل ما يخافه، لكن التوفيق بيد الله (تعالى). فتح الباري ١/٣٧.

ومما يدل على أن هرقل آثر ملكه على الإيمان واستمر على الضلال أنه حارب المسلمين في غزوة مؤتة سنة ثمان بعد هذه القصة. انظر : فتح الباري ١/٣٧ . وفي كتاب الأموال لأبي عبيد ص: ٣٤٥ برقم: ٦٢٩ بسند صحيح من مرسل بكر بن عبدالله المزني، ولفظه :" كذب عدو الله ليس بمسلم، ولكنه على النصرانية " وصحح إسناده الألباني في هامش فقه السيرة للغزالي ص : ٣٨٦ وقال لكنه مرسل. وانظر : فتح الباري ١/٣٧. وموارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص : ٣٩٢-٣٩٣ ح : ١٦٢٨ .

(٣) مبالغة في العبودية له والخدمة، وفيه إشارة أنه - إن وصل إليه سالماً - لا يطلب منه ولاية ولا منصباً. انظر فتح الباري١/٣٧.

قدمي. قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تَوَلَّيْتَ فإن عليك إثم الأريسيين[1]، و: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤] فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأَمَرَ بنا فأُخرجنا. قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِرَ[2] أَمْرُ ابن أبي كبشة[3]، إنه ليخافه ملك بني الأصفر. قال: فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام».

٧- وكان للشعر نوبته في الجدل والرد على المشركين وفلِّ حجتهم، فهذا حسَّان بن ثابت ﷺ يمدح رسول الله ﷺ ويصد عنه هجاء المشركين من أمثال أبي سفيان وغيره، ففي صحيح مسلم[4] عن عائشة قالت : قال حسَّان: «يا رسول الله، ائذن لي في أبي سفيان.

---

(١) هم الفلاحون، والمراد الضعفاء، أي عليك مع إثمك إثم الضعفاء الذين تحول بينهم وبين وصول الدعوة إليهم. انظر : فتح الباري ١/٣٩.

(٢) أي عَظُمَ. انظر : فتح الباري ١/٤٠.

(٣) أراد به النبي ﷺ لأن أبا كبشة أحد أجداده، وعادة العرب إذا انتقصت نسبت إلى جد غامض. انظر : فتح الباري ١/٤٠.

(٤) ٤/١٩٣٤ ح : ٢٤٨٩.

قال: كيف بقرابتي منه؟ قال: والـذي أكرمـك، لأسلّنك منهـم كمـا تسلُّ الشعرة من الخمير[(١)] ... وكان ذلك قبل فتح مكة».

يقول حسان ﷺ[(٢)]:

لنا في كل يوم من مَعَـــدٌ ... سباب أو قتـال أو هجـاء[(٣)]

فَنُحْكِمُ بالقوافي من هجانـا ... ونضرب حين تختلط الدمـاء

ألا أبلغ أبـا سفيـان عنـي ... فأنت مجوَّف نَخِبٌ هـواء[(٤)]

بأن سيـوفنا تركتك عبـداً ... وعبد الدار سادتها الإمـاء[(٥)]

هجوت محمداً فأجبت عنـه ... وعند الله في ذاك الجـزاء

أتهجوه ولست لـه بكُـفْءٍ ... فشركما لخيركما الفـداء[(٦)]

هـجوتَ مباركا بـرّاً حنيـفا ... أمين الله شيمته الوفـاء

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سـواء[(٧)]

---

(١) الخمير : العجين إذا ترك استعماله حتى يجود . انظر : لسان العرب ٢٥٦/٤ مادة خمر .

(٢) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ـ إعداد: عبد الرحمن البرقوقي ص:٦٢-٦٦ .

(٣) معد : يريد قريشاً لأنهم عدنانيون.

(٤) مجوَّف : أي جبان لا قلب له، ومثله النخب.

(٥) عبد الدار : بطن من قريش، كان لهم اللواء والسقاية والحجابة والرفادة، ويوم أحد قتل جمع منهم ممن حمل اللواء حتى صار إلى امرأة، فاجتمعوا حولها، فلعل حسان يشير إلى هذا.

(٦) هذا من الإنصاف عند المجادلة، وفيه دلالة غير خفية على تخصيص محمد ﷺ بالخير والفضل والثناء؛ لما تقدم من كلام حسان.

(٧) فهو غني عن مدحكم ونصركم إياه، كما لا يضره هجاؤكم ونحوه من الأذى.

فإن أبي ووالــده وعرضـــي لعرض محمد منكم وقـــاء
فـــإما تَـثْـقَفَنَّ بنـــو لُـؤيٍّ جُـذَيْمةَ إن قتـلهم شفــاء(١)
أولئـك معشر نــصروا علـينا ففــي أظفارنا منهم دمـاء(٢)
وحِلْف الحَارْث بن أبي ضرارٍ وحلفُ قريظةٍ منا بـــراء(٣)
لسـاني صـــارم لا عيب فيه وبــحري لا تُكــدِّره الدلاء

(١) بنو لؤي فاعل تثقفن، وجذيمة مفعوله، وجذيمة هم الذين أوقع بهم الرسول ﷺ يوم المريسيع، والمعنى أن بني لؤي إذا وجدوا هذا الحي حي جذيمة فإن قتلهم إياهم شفاء لما في الصدور.

(٢) وذلك أن جذيمة نصروا قريشا على المسلمين، وعليه سننتقم منهم ونبطش بهم، ونفترسهم افتراس السباع الضارية ففي أظفارنا منهم دماء.

(٣) فالشاعر والمسلمون براء من هذه الأحلاف الفاجرة؛ حلف الحارث بن أبي ضرار، وحلف قريظة، فالحارث كان يقود بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين يوم أحد، وقريظة حي من أحياء اليهود وكانوا مظاهرين ـ أيضاً ـ للمشركين.

المطلب الثاني
الجــدل مــع المنافقين

إن الجدال في السنة مع المنافقين كالجدال معهم في القرآن الكريم، يركز على فضحهم وكشف نواياهم وهتك أستارهم، ثم تهديدهم وتوعدهم بما أعده الله لهم من الخزي والنكال في الدارين، فلم تكن المناظرة تُجْدِي مع من انتكست فطرته، وفسدت طبيعته، ومرضت نفسه، يُظهر الولاء وقد أبطن العداء، ويعلن الوفاق وقد أضمر الخلاف، يَظْهَرُ ذلك على فلتات ألسنتهم، وعند مواقف الشدة والتمحيص؛ ولهذا كثيراً ما كان الصحابة يلتمسون من رسول الله ﷺ أن يمكنهم من قتل من أظهر نفاقه، لكنه ﷺ كان يترك ذلك اتقاء مفسدة هي أعلى من كيدهم ومكرهم، وهي سوء نظرة العرب إليه، أنه يقتل أصحابه، فيكون ذلك صاداً لهم عن الإيمان، ومانعاً لجماعتهم من الدخول في الإسلام.

وإني ذاكر في هذا الموضع نماذج من الجدل الذي وقع مع المنافقين:

١-جاء عند ابن إسحاق[(١)] في خروج النبي ﷺ إلى بني المصطلق، وكانوا قد جمعوا له، فلقيهم على ماء يقال له: المُرَيْسيع، من ناحية قديد إلى

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣/٤٠٢-٤٠٥، والمغازي للواقدي ٢/٤١٥-٤٢١، وتاريخ الطبري ٢/٦٠٦. وانظر الخبر مختصراً في صحيح البخاري ٨/٦٤٤-٦٤٩ كتاب التفسير ح: ٤٩٠٠-٤٩٠٥، وصحيح مسلم ٤/١٩٩٨-١٩٩٩ كتاب البر والصلة ـ باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ح : يلي ٢٥٨٤، وسنن الترمذي ٩/٥٠-٥٣ أبواب التفسير ـ سورة المنافقون ح : ٣٣٠٩-٣٣١٢ قال أبو عيسى عقب كل واحد منها : هذا حديث حسن صحيح .

الساحل، فهزمهم الله عز وجل. فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له: جَهْجَاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسِنان بن وَبَر الجهني، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم: زيد ابن أرقم غلام حَدَث. فقال: أَوَقَدْ فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أُعِدُّنا وجلابيب[1] قريش إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد ابن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوِّه فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عبَّاد بن بشر فليقتله. فقال له رسول الله ﷺ : فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن آذن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

---

(١) هذا لقب أطلقه المشركون على من أسلم من المهاجرين، واحدها جلباب، وهو الإزار الغليظ، وكانوا يلتحفون بها، فلقبوا بذلك . انظر : تفسير الطبري ٧٤/٢٨ ط. دار المعرفة .

وقد مشى عبدا لله بن أبي بن سلول إلى رسول ا لله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغَه ما سمع منه، فحلف با لله: ما قلتُ ما قال، ولا تكلمت به ـ وكان في قومه شريفاً عظيماً ـ فقال من حضر رسولَ ا لله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول ا لله ﷺ ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدباً على ابن أبي بن سلول، ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق: فلما استقل رسول ا لله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبي ا لله، وا لله لقد رُحْتَ في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول ا لله ﷺ : أَوَ مَا بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول ا لله؟ قال: عبدا لله بن أبي. قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال: فأنت يا رسول ا لله، وا لله تخرجه منها إن شئت. هو وا لله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول ا لله ارفق به، فوا لله لقد جاءنا ا لله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً... ونزلت السورة التي ذكر ا لله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول ا لله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هذا الذي أوفى لله بأذنه.

وبلغ عبدا لله بن أبي الذي كان من أمر أبيه.

قال ابن إسحاق[(١)] : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن عبدا لله أتى رسول ا لله ﷺ فقال: يا رسول ا لله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد ا لله ابن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فَمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوا لله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدا لله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول ا لله ﷺ : بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا.

قال ابن كثير رحمه ا لله[(٢)] : «وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد ا لله بن عبد ا لله هذا على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبدا لله بن أبي قال له ابنه: وراءك. فقال: مالك ويلك؟ فقال: وا لله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول ا لله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول ا لله ﷺ وكان إنما يسير ساقة، فشكا إليه

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣/٤٠٥-٤٠٦، وانظر: الإصابة لابن حجر ٣/٣٣٦ ترجمة رقم: ٤٧٨٤، وعزاه إلى ابن مندة من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، والطبراني من طريق عروة عن عبد ا لله بن عبد ا لله بن أبي. وعزاه الهيثمي في مجمع الزائد ٩/٣١٨ إلى الطبراني وقال : رجاله رجال الصحيح إلا أن عروة بن الزبير لم يدرك عبد ا لله بن أبي. ورواه الطبري في تأريخه ٢/٦٠٨ من طريق ابن إسحاق .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٧٢ ، وانظر : تفسير الطبري ٢٨/٧٣،٧٤ ط. دار المعرفة .

عبدالله بـن أبـي ابنـه، فقـال ابنـه عبـد الله: والله، يـا رسـول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ فقـال: أما إذا أذن لـك رسول الله ﷺ فجز الآن».

وفي مسند الحميدي[1]: قال عبدالله بن عبـدالله بـن أبـي بـن سـلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنـا الأذل....

٢- قال ابن كثير رحمه الله: قال الأمـوي في مغازيـه: حدثنـا محمـد بـن إسحاق عن الزهري عن عبدالرحمن بن عبدالله بـن كعـب بـن مـالك عن أبيه عن جده، وفيه قال كعب ﷺ: وكان ممن تخلف من المنـافقين ونزل فيه القرآن؛ منهم ـ ممن كان مع النبي ﷺ ـ الجُلاس بن سويد بـن الصامت وكان على أم عُمَير بن سعد، وكان عمـير في حجـره، فلمـا نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين، قـال الجـلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقـول لنحـن شـر مـن الحمـير، فسمعها عمير بن سعد، فقال: والله يا جُلاس إنك لأحب الناس إلي، وأحسنهم عندي بلاء، وأعزهم علـي أن يصلـه شـيء يكرهـه، ولقـد قلـت مقالـة لئـن ذكرتهـا [لأفضحنّـك][2] ولئـن كتمتهـا لتهلكـني، ولإحداها أهون علي من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له

(١) ٢/٥٢٠ برقم: ١٢٤٠، وفي سنن الترمذي قال له ابنه عبد الله: والله لا تنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول الله ﷺ العزيز ففعل . ٩/٥٣ أبواب التفسير ـ سورة المنـافقون ح : ٣٣١٢ .

(٢) في الأصل: [لتفضحني] ولعل الصواب ما أثبته، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٩٠

ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب علي. فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٧٤] فوقفه رسول الله ﷺ عليها، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته، ونزع فأحسن النزوع. قال ابن كثير: هكذا جاء هذا مدرجاً في الحديث متصلاً به، وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه، لا من كلام كعب بن مالك(١).

٣- روى البخاري في صحيحه(٢) بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ــ وهو يَقْسِمُ قسماً ــ إذ أتاه ذو الخويصرة؛ وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل. فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبتَ وخسرتَ(٣) إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة...الحديث.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٥٥-٣٥٦ ، وانظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٨٩-١٩٠ ، وتفسير الطبري ١٤/٣٦١-٣٦٢ برقم : ١٦٩٦٧-١٦٩٦٩ ط. شاكر .

(٢) صحيح البخاري ٦/٦١٧-٦١٨ كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام ح : ٣٦١٠ ، وصحيح مسلم ٢/٧٤٤ كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم ح : يلي ١٠٦٤.

(٣) الأشهر فتح اللفظتين. انظر: شرح النووي على مسلم ٧/١٥٩

وفي رواية أخرى[١] عن أبي سعيد، قال: «فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين، ناشز[٢] الجبهة، كثُّ اللحية، محلوق الرأس مُشَمَّر الإزار، فقال: يارسول الله، اتق الله، فقال: ويلك، أَوَلستُ أحقَّ أهل الأرض أن يتقيَ الله؟ قال: ثمَّ ولَّى الرجل، فقال خالد بن الوليد[٣]: يارسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: لا، لعلَّه أن يكون يصلي، فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله ﷺ: إني لم أؤمر أن أَنْقُبَ عن قلوب الناس، ولا أَشُقَّ بطونهم. قال: ثم نظر إليه وهو مُقَفٍّ[٤] فقال: إنه يخرج من ضئضئ[٥] هذا قوم يتلون كتاب الله رَطْبا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، قال: أظنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنَّهم قتل ثمود».

فهذا السائل المعترض من المنافقين[٦] الذين كفَّ النبي ﷺ عن قتلهم حتى لا تقول العرب إن محمداً يقتل أصحابه كما جاء مصرحاً بذلك في رواية جابر بن عبدا لله في صحيح مسلم[٧] لما استأذن عمر بن

---

(١) صحيح مسلم ٧٤٢/٢ كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم. ح يلي : ١٠٦٤ .

(٢) أي: مرتفع الجبهة.

(٣) المستأذن هنا خالد وهناك عمر ولا تنافي؛ لاحتمال أن يكون كل منهما سأل ذلك. انظر: الفتح ٦٩/٨ ، وشرح النووي ١٥٨/٧.

(٤) أي: مُوَلٍّ .

(٥) أي: أصله ، انظر : النهاية لابن الأثير ٦٩/٣ .

(٦) انظر : فتح الباري ٢٩٠/١٢-٢٩١ .

(٧) ٧٤٠/٢ كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم ح : ١٠٦٣.

الخطاب في قتله، فقال: دعني يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق، فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي...

وقال الإمام النووي رحمه الله: «فهذه هي العلة، وسلك معه مسلكه مع غيره من المنافقين الذين آذوه، وسمع منهم في غير موطن ما كرهه، لكنه صبر استبقاءً لانقيادهم، وتأليفاً لغيرهم، لئلا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه، فينفروا. وقد رأى الناس هذا الصنف في جماعتهم، وعدوه من جملتهم»[(١)].

والرسول ﷺ استدل على هذا المعترض من جهة الرسالة والنبوة؛ بمعنى أنه إذا لم يكن رسول الله ونبيه عادلاً فمن من الناس يكون كذلك، وأن الخسارة والخيبة لازمتان لمن يكون تابعاً لنبي لا يعدل ولا يقيم شرع الله، فأي خير يرجى من أمة هذا وصف خيارها.

٤- قال ابن إسحاق: إن أبا عامر ـ وهو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ابن النعمان بن ضُبيعة بن زيد، وكان يقال: له الراهب ـ أتى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة، قبل أن يخرج إلى مكة، فقال: ما هذا الدين الذي جئتَ به؟ فقال: جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم. قال: فأنا عليها. فقال له رسول الله ﷺ : إنك لست عليها. قال: بلى، قال: إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال: ما فعلتُ، ولكني جئتُ بها بيضاء نقية. قال: الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً ـ يُعَرِّضُ برسول الله ﷺ ـ أي أنك جئت بها كذلك. قال رسول الله ﷺ : أجل، فمن كذب ففعل الله ذلك به، فكان هو ذلك عدو الله،

---

(١) شرح مسلم ١٥٨/٧-١٥٩.

خرج إلى مكة، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، فمات بها طريداً غريباً وحيداً[(١)].

وانتهت هذه المجادلة إلى مباهلة، وهي مناسبة لمن لم يقر بالحق، ويذعن للبرهان، وينته عند إقامة الحجة عليه.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦٨ ، وهو في دلائل النبوة لأبي نعيم ١/٩٣-٩٤ برقم : ٤١ من طريق ابن إسحاق .

المطلب الثالث

الجـدل مـــع اليهود

لم تُظهر كتب السنن والسير وقوع شيء من الجدل بين النبي ﷺ واليهود في مكة المكرمة، حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فلقي هناك اليهود، فدعاهم في جملة من دعاهم إلى الإسلام، وكان المتوقع أن يجيبوا إلى دعايته ﷺ إذ كانوا من قبل يستفتحون على الكفار بنبي قد أظلَّ زمانه، وأنهم سيظهرون به على من عاداهم. كما قال (تعالى) مبكتاً لهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨٩].

لكنهم أعرضوا ولاحَوْا النبي ﷺ حسداً وبغياً، فاندفعوا إلى الإنكار والمكابرة والمهاترة، وجرت بينهم وبين النبي ﷺ مجادلات سمتها الغالبة: الاستهزاء والسخرية والعناد والتعجيز من جانب اليهود[١].

وأنا ذاكر في هذا المقام نماذج من تلك المجادلات:

١- روى الإمام أحمد في مسنده[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حضرت عِصابة من اليهود نبيَّ الله ﷺ يوماً، فقالوا: يا أبا

---

(١) انظر : تأريخ الجدل لأبي زهرة ص : ٤٩.

(٢) ٤/١٧٦-١٧٧ ح : ٢٥١٤ قال أحمد شاكر : إسناده صحيح. وانظر :ح:٢٤٧١، ٢٤٨٣ وصحح إسناديهما أحمد شاكر. وانظر : تفسير الطبري ٢/٣٧٧-٣٧٨ ح : ١٦٠٥ ط. شاكر . وصحح إسناده أحمد شاكر . وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٤١-٢٤٢ الرواية رقم : ٢٤٨٣ ، وأشار إلى ما في الرواية رقم : ٢٥١٤ من الزيادة، وقال : رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات .

القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي. قال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه: لئن حدثتكم شيئاً فعرفتموه لَتُتَابِعُنِّي على الإسلام. قالوا: فذلك لك. قال: فسلوني عما شئتم. قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ قال: فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟ قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. قال: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً، وطال سقمه، فنذر لله نذراً لئن شفاه الله (تعالى) من سقمه ليُحرِّمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد عليهم. فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد. قالوا: وأنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: فإن وليي جبريل عليه السلام ولم يبعث

ا لله نبياً قط إلا هو وليُّه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك. قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا[1]. قال: فعند ذلك قال ا لله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٩٧] إلى قوله عز وجل: ﴿كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٠١] فعند ذلك: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [سورة البقرة: ٩٠].

وهذه المجادلة تبين صلف اليهود وعنادهم، وأن قصدهم التعجيز وإبطال الحق، وقد خبر الرسول ﷺ طبيعة اليهود، وعرف نواياهم؛ ولهذا أخذ عليهم ـ في هذه المناظرة ـ العهود والمواثيق، لئن هو أجابهم أن يتابعوه ويصدقوه، ولكنهم غلبت عليهم شقوتهم، وطغت عليهم طبيعتهم الفاسدة في نقض العهود والمواثيق: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٠٠]. ولهذا كان النبي ﷺ يُصَدِّر كل جواب بقوله: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام. وهذا فيه عدة إلزامات منها:

أ- بيان أن ا لله رب الجميع وخالقهم، فيجب عليهم أن يستجيبوا له ويؤمنوا به، وأنه مما يجب طاعة الرب فيه الإيمان بهذا النبي الأمي.

---

(١) وفي رواية: قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان ... انظر: مسند الإمام أحمد ١٦٢/٤ ح: ٢٤٨٣ ط. أحمد شاكر.

ب- أن اليهود يؤمنون بموسى ﷺ وبالتوراة الذي أُنزل عليه، وهذا لا يضير المسلمين، بل هم أيضاً يؤمنون بذلك، بل يطالبون غيرهم من اليهود أن يُحَكِّمُوا التوراة ويحسنوا متابعة موسى عليه السلام لأن في ذلك تحقيقاً للإيمان بالرسول محمد ﷺ ، والإيمان بما جاء به؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يقول لهم في صدر كل جواب: هل تعلمون...وهو استظهار لما عندهم من العلم الذي قد يكتمون بعضه.

ثم يُشهد النبي ﷺ عليهم الله عز وجل في كل مرة أجابوه فيها بنعم. كل ذلك خوفاً من تفلتهم ونكولهم عما قطعوه على أنفسهم من العهود والمواثيق، لكن غلبت عليهم الشقاوة، وأبت عليهم أنفسهم المريضة، وقلوبهم النجسة إلا التأبي والمعاندة، فعلّقوا متابعتهم وتصديقهم النبي ﷺعلى جواب السؤال الأخير بعد أن رأوا تقاطر الأجوبة السابقة في سهولة ويسر، فخافوا على أنفسهم من الانصياع والانقياد للنبي الأمي، فعلقوا متابعتهم وتصديقهم على جواب هذا السؤال الأخير، مع أنه أسهل الأسئلة وأيسرها؛ إذ يعلم الجميع ـ كما قال النبي ﷺ ـ أن جبريل ﷺ هو أمين الله على وحيه، بل هو الواسطة بين الله وبين أنبياء بني إسرائيل على كثرتهم، واليهود يعلمون ذلك، لكنه العناد الذي أوجب غضب الرب (تعالى) عليهم: ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [سورة البقرة: ٩٠].

والآيات التي نزلت جواباً لليهود هي قوله (تعالى): ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ

كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٧-٩٨] قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم»(١).

وهذه الآيات تبين أن معاداة رسول من رسل الله ـ ملكاً كان أو بشراً ـ هي معاداة لجميع الرسل، بل هي معاداة لله (تعالى) الذي أرسلهم، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، فكذلك من كفر بواحد منهم، فإنه يلزمه الكفر بالجميع كما قال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٠-١٥٢].

وكذلك من عادى جبريل، فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال (تعالى) مخبراً عن ملائكته: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [سورة مريم: ٦٤]. ومن كان عدواً لله فإن الله عدو للكافرين.

وقوله (تعالى): ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [سورة البقرة: ٩٨] إفراداً بالذكر مع دخولهما في عموم قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [سورة البقرة: ٩٨]

---

(١) تفسير الطبري ٣٧٧/٢ ط. شاكر.

وهو من باب عطف الخاص على العام لأن السياق في الانتصار لجبريل، وقرن معه ميكائيل في اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكائيل وليُّهم، فأعلمهم الله (تعالى) أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر، وعادى الله أيضاً[(١)].

٢- روى أبوجعفر الطبري[(٢)] رحمه الله بسنده إلى الشعبي أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنت أشهد اليهود يوم مِدْراسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان، ومن الفرقان كيف تصدق التوراة، فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك. قلت: و لم ذاك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا. قال: قلت: إني آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان! وفي رواية: فقالوا: يا عمر ما في أصحاب محمد ﷺ أحد أحب إلينا منك، إنهم يمرون بنا فيؤذوننا، وتمر بنا فلا تؤذينا، وإنا لنطمع فيك.

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/١٢٦ .

(٢) تفسير الطبري ٢/٣٨١-٣٨٢، ٣٨٤-٣٨٥ رقم : ١٦٠٨،١٦١٣ ط. شاكر . وذكر ابن كثير في تفسيره ١/١٢٥ هذه الرواية عن الطبري ورواية أخرى عن ابن أبي حاتم، ثم قال: وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدَّث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر؛ فإنه لم يدرك زمانه والله أعلم. وقال السيوطي في الدر المنثور ١/٩٠ : صحيح الإسناد ولكن الشعبي لم يدرك عمر. وقال أبو عمر بن عبد البر ـ بعد أن أورد هذا الخبر وغيره ـ : وتركنا إسناد هذا الخبر وسائر ما أوردنا من الأخبار في هذا الباب والباب الذي قبله وبعده لشهرتها في التفاسير والمصنفات. جامع بيان العلم ٢/١٢٤.

قال: ومرَّ رسول الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبك فالحق به. قال: فقلت لهم عند ذلك: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه أتعلمون أنه رسول الله؟ فسكتوا. وفي الرواية الأخرى: فقال لهم عمر: أي يمين فيكم أعظم؟ قالوا : الرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء. فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، أتجدون محمدا ﷺ عندكم، فَأَسْكَتُوا. فقال: تكلموا، ما شأنكم؟ فوالله ما سألتكم وأنا شاك في شيء من ديني. فنظر بعضهم إلى بعض، فقام رجل منهم، فقال: أخبروا الرجل، لَتُخْبِرُنَّه أو لأخبرنه. وفي الرواية الأولى: قال: فقال عالمهم وكبيرهم: إنه قد عظَّم عليكم، فأجيبوه. قالوا: أنت عالمنا وسيدنا، فأجبه أنت. قال: أَمَا إذ نشدتنا به، فإنا نعلم أنه رسول الله. قال: قلت: ويحكم! إذاً هلكتم. قالوا: إنا لم نهلك. قال: قلت: كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ﷺ، ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إنَّ لنا عدواً من الملائكة وسِلماً من الملائكة، وإنه قُرِنَ به عدوُّنا من الملائكة. قال: قلت: ومن عدوكم؟ ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قال: قلت: وفيم عاديتم جبريل؟ وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا.

قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال: قلت: فوا لله الذي لا إله إلا هو، إنهما والذي بينهم لعدو لمن عاداهما، وسلم لمن سالمهما، ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل، ولا لميكائيل أن يسالم عدو جبريل! وفي الرواية الأخرى: قال عمر: فأشهدكم أن الذي هو عدو للذي عن يمينه عدو للذي هو عن يساره، والذي هو عدو للذي هو عن يساره عدو للذي هو عن يمينه؛ وأنه من كان عدوهما فإنه عدو لله.

قال: ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من مِخْرَفة لبني فلان فقال لي: يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن؟ فقرأ علي: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سورة البقرة: ٩٧] حتى قرأ الآيات. قال: قلت: بأبي أنت وأمي يارسول الله، والذي بعثك بالحق لقد جئتُ وأنا أريد أن أخبرك الخبر، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر.

قال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله بعد أن ساق هذه القصة: «فهذا مما صدَّق الله فيه قول عمر واحتجاجه، وهو باب من الاحتجاج لطيف مسلوك عند أهل النظر»[1].

فعمر ﷺ استدل على اليهود بحجة قاطعة، تقريرها: أنه لا ينبغي التفريق بين المتماثلين، كجبريل وميكائيل ونحوهما من ملائكة الله

---

(١) جامع بيان العلم ١٢٤/٢.

(تعالى) ، فكلهم عباد لله مكرمون: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦]

٣- وروى ابن جرير الطبري [(١)] رحمه الله بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء رسولَ الله ﷺ رافعُ بن حارثة، وسلام بن مِشْكم ومالك بن الصيف ورافع بن حريملة، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنّك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله ﷺ : بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أُخِذَ عليكم من الميثاق، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تُبَيِّنُوه للناس، وأنا بريء من أحداثكم! قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الحق والهدى، ولا نؤمن بك، ولا نتبعك! فأنزل الله (تعالى) ذكره: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٦٨] ».

فهذا تكذيب من الله (تعالى) لهم، إذ لو أنهم أقاموا التوراة حق إقامتها لآمنوا بمحمد ﷺ.

---

(١) تفسير الطبري ٤٧٣/١٠-٤٧٤ ح : ١٢٢٨٤ ط. شاكر ، وهو في السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٩/٢ ، ورواه السيوطي في الدر المنثور ٢٩٩/٢ ، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وغيرهم .

المطلب الرابع
الجـدل مـــع النصارى

أما جدله ﷺ مع النصارى، فقد كان قليلاً لبعدهم عنـه، إلا مـا كـان من جدل مـع بعـض الوفـود كوفـد نجـران، ومـا كـان مـن جـدل لبعـض أصحابه معهم في الحبشة وفي مصر.

وإليك نماذج من ذلك كله:

١ – قال ابن القيم[1] وروينا عن أبـي عبـدا لله الحـاكم أن رسـول ا لله ﷺ كتب إلى أهل نجران باسم إله إبراهيم وإسـحاق ويعقـوب: أمـا بعـد، فإني أدعوكم إلى عبادة ا لله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية ا لله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزيـة، فـإن أبيتـم فقـد آذنتكـم بحـرب. والسلام.

فلما أتى الأسقفَ الكتابُ فقـرأه فَظِـع بـه، وذَعُـر بـه ذعـراً شـديداً، فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شـرحبيل بـن وداعـة، وكـان من همدان، ولم يكن أحد يُدعى إذا نزلت معضلة قبله، لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب[2] فدفع الأسقف كتابَ رسول ا لله ﷺ إليـه، فقـرأه

---

(١) زاد المعاد ٦٣١/٣-٦٣٦ ، وانظـر : السـيرة النبويـة لابـن هشـام ٢٥٤/٢ ومـا بعدهـا ، والسيرة النبوية لابن كثير ١٠١/٤ وما بعدها .

(٢) هؤلاء من أشرافهم ممن يؤول إليهم أمرهم، والعاقب اسمه: عبد المسيح وهـو أمـير القـوم، والأيهم والسيد اسمان لشخص واحد، السيد لقبه والأيهـم اسمـه، وهـو صـاحب رحلهـم ومجتمعهم. انظر : زاد المعاد ٦٢٩/٤، والسيرة النبوية لابن هشام ٢٥٥/٢.

فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يُؤْمَن أن يكون هذا هو ذلك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، لو كان من أمر الدنيا أشرتُ عليك فيه برأي، وجهدتُ لك فيه. فقال الأسقف: تنحَّ فاجلس. فتنحَّى شرحبيل، فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له عبدا لله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف تنحَّ فاجلس، فتنحَّى، فجلس ناحية. فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً، أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت المسوح في الصوامع... فاجتمع أهل الوادي أعلاه وأسفله، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتابَ رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأيُ أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبدا لله بن شرحبيل، وجبار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ فانطلق الوفد، حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حُللاً لهم يجرونها من الحَبِرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلَّموا عليه، فلم يردَّ عليهم السلام، وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان ابن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وكانا معروفين (معرفةً) لهم...

فوجدوهما في ناس من الأنصار والمهاجرين في مجلس، فقالوا: يا عثمان، ويا عبدالرحمن، إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه، فلم يرد علينا سلامنا، وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما، أنعود ؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان وعبدالرحمن رضي الله عنهما: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ثم يأتوا إليه، ففعل الوفد ذلك، فوضعوا حللهم وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه فردَّ سلامهم، ثم سألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى عليه السلام؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى فيسرنا إن كنت نبياً أن نعلم ما تقول فيه. فقال رسول الله ﷺ: ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى عليه السلام ؛ فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩-٦١]».

فتأمل كيف كان الجواب ملزماً لهم؛ لأنه على طرد الدليل يلزمهم أن يعبدوا آدم عليه السلام إذ ولد من غير أب ولا أم، فكان أولى بالعبادة على مجرد دليلهم، وكذلك إن جعلوا معتمدهم ملزوم الإلهية؛ لأن الملزوم يدل على اللازم ولا ينعكس إذا لم تكن الملازمة من الطرفين، وإلا

فمجرد التحكم غير مقبول، لكنهم مقرون بنفي الإلهية عن آدم مع الوصف المذكور ـ وهو وجوده من غير أب ولا أم ـ فيلزمهم ذلك في حق عيسى ﷺ لأن الدليل يطرد ولا ينعكس، فلما انعكس لم يكن دليلاً.

فلما عجزوا في مقام المعقول وانقطعوا، ثم لم يؤمنوا، عَدَلَ معهم إلى ما هو أجلى عندهم في مشاهدة الحس فدعاهم إلى المباهلة[1].

«فأبوا أن يقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملاً على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له، وفاطمة رضي الله عنها تمشي عند ظهره للمباهلة، وله يومئذ عدة نسوة. فقال شرحبيل لصاحبيه: يا عبدالله بن شرحبيل ويا جبار بن فيض، قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا، ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمراً مقبلاً، وأرى والله إن كان هذا الرجل مَلِكاً مبعوثاً، فكنا أول العرب طَعَنَ في عينه، وردَّ عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره، ولا من صدور قومه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا أدنى العرب منهم جواراً، وإن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، فقال له صاحباه: فما الرأي فقد وضعتك الأمور على ذراع، فهات رأيك؟ فقال: رأيي أنْ أُحكِّمَه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً، فقالا له: أنت وذاك.

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ١٢٧-١٢٨.

فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك. فقال: وما هو؟ قال شرحبيل: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز. فقال رسول الله ﷺ : لعل وراءك أحداً يثرِّب عليك. فقال له شرحبيل: سل صاحبي، فسألهما. فقالا: ما يرد الوادي، ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل. فقال رسول الله ﷺ: كافر، أو قال: جاحد مُوَفَّق.

فرجع رسول الله ﷺ ولم يلاعنهم، حتى إذا كان من الغد أَتَوْه، فكتب لهم الكتاب وهو كتاب صلح. حتى إذا قبضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران، فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة، ومع الأسقف أخ له من أُمِّه وهو ابن عمه من النسب يقال له: بشر بن معاوية، فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف فقرأه، فلحق بشر برسول الله ﷺ فأسلم ولم يزل معه حتى استشهد في إحدى المعارك.

وفي صحيح البخاري[1] عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبُنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا

(١) ٩٣/٨-٩٤ كتاب المغازي ـ قصة أهل نجران ح : ٤٣٨٠ وانظر ح :٤٣٨١ ، ورواه مسلم مختصراً في صحيحه ١٨٨٢/٤ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح، ح : ٢٤٢٠ .

تبعث معنا إلا أميناً. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أمينا حقَّ أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة.

وفي صحيح مسلم(١) من حديث المغيرة بن شعبة قال: «لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرأون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [سورة مريم: ٢٨] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: إنهم كانوا يُسمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم».

وجاء عند ابن إسحاق أن حَبْرَيْن من نصارى نجران كَلَّما النبي ﷺ فقال لهما: أسلما. قالا: قد أسلمنا. قال: إنكما لم تسلما فأسلما. قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالا: فمن أبوه(٢) يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يجبهما. فأنزل الله (تعالى) في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، من ذلك قوله (تعالى): ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ

---

(١) ٣/١٦٨٥ كتاب الآداب ـ باب النهي عن التكني بأبي القاسم ... ح: ٢١٣٥

(٢) أي: عيسى عليه السلام.

يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨-٢٠]. ثم ذكر سبحانه وتعالى ولادة عيسى عليه السلام وحقيقة نشأته، وأنه عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل وما خصه الله به من المعجزات والآيات، ثم رفع عيسى إليه بعد أن أبطل الله مكر أعدائه ثم قال (تعالى): ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٨-٦٠]. ثم دعاهم إلى المباهلة في أمر عيسى إن هم كذّبوا بذلك ثم ختم ذلك بالدعوة إلى كلمة سواء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

قال ابن إسحاق: فلما أتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من الله عنه، والفصلُ من القضاء بينه وبينهم، وأُمِرَ بما أُمِرَ به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا له: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَوْا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعَنَ قوم نبياً قط

فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا إلى بلادكم. فَأَتَوْا رسول الله ﷺ فقال : يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضا[1]. فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح ﷺ على ما مرَّ خبره.

٢- قال ابن عبد البرِّ رحمه الله : روى عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم عن أبيه قال: حدثني يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب عن أبيه عن جده حاطب بن أبي بلتعة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الأسكندرية، فجئته بكتاب رسول الله ﷺ فأنزلني في منزله، وأقمت عنده ليالي، ثم بعث إلي وقد جمع بطارقته. فقال: إني سأُكلمك بكلام أُحب أن تفهمه مني، قال: قلت: هَلُمَّ. قال: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبياً؟ قلت: بلى، هو رسول الله. قال: فما له ـ حيث كان هكذا ـ لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلدته إلى غيرها؟! فقلت له: فعيسى ابن مريم، أتشهد أنه رسول الله؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا صلبه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٧-٢٦٦.

الله، حتى رفعه الله إليه في سماء الدنيا؟! قال: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم[1].

ثم قال حاطب بعد ذلك للمقوقس: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى يعني فرعون، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك، إن هذا النبي ﷺ دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليه السلام إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به. فقال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب [فيه][2] ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، ووجدتُ معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى[3] وسأنظر، وأخذ كتاب رسول الله ﷺ وجعله في حُق عاج، وختم عليه ودفعه إلى جارية له، ثم كتب إلى النبي ﷺ وأخبره بوصول كتابه إليه وأنه أكرم رسوله، ثم بعث إليه بهدايا[4].

---

(١) انظر : الاستيعاب ٣١٥/١ ، وأسد الغابة ٣٦٢/١ ، والسيرة الحلبية ٢٤٩/٣-٢٥٠

(٢) في الأصل [عنه] ولعل ما أثبته هو الصحيح.

(٣) الشيء المستور، يعني المغيبات وذلك بإخبار الله له.

(٤) انظر : السيرة الحلبية ٢٥٠/٣.

وورد[١] أن حاطب بن أبي بلتعة ﷺ لما دخل على المقوقس النصراني يدعوه إلى الإسلام بكتاب النبي ﷺ ، سأله المقوقس عن الحرب بين النبي ﷺ وبين قومه، فأخبره أنها بينهم سجال. فقال المقوقس: يخاطب ابن أبي بلتعة: أَنَبِيُّ الله يُغلب؟! فقال له حاطب: أَوَلَدُ الله يُصلب؟!.

قال صاحب عيون المناظرات أبو علي عمر السكوني (٧١٧هـ)[٢]:

«فكان هذا الجواب قطعاً للنصراني بما يعتقده في حق عيسى عليه السلام، وكما أن موت النبي ﷺ ومرضه لا يقدح في نبوته، إذ النبوة غير ذلك وخلافه، وإنما يرفعها ضدها، فكذلك لا يقدح [فيها][٣] جرحه وقتله؛ لأن هذا لا يناقض الصدق على الله (تعالى) وتبليغ ما أمر بتبليغه، وإنما وجبت عصمتهم عما يقدح في النبوة، ويحط المنزلة، لا ما يرفعها».

ومع ذلك لم يُسلم المقوقس؛ ولهذا ذكر ابن سعد في طبقاته[٤] أن رسول الله ﷺ قال لما وصله كتاب المقوقس: ضنَّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه.

وفي طريقة مخاطبة حاطب ﷺ المقوقس وقفات يحسن التنبيه إليها، منها:

---

(١) ذكرها صاحب عيون المناظرات ص : ١٨٥

(٢) عيون المناظرات ص : ١٨٥.

(٣) ليست في الأصل ، وإنما أضفتها لإقامة المعنى .

(٤) ١/٢٦٠-٢٦١.

أ- أنه أجاب المقوقس حين سأله عن رسول الله ﷺ أليس هو نبياً؟ فقال: بلى، هو رسول الله. فأجابه بوصف الرسالة الذي هو أعم من وصف النبوة، فهذه دعوة للمقوقس أن يدخل في دين هذا الرسول الخاتم.

ب- أنه احتج على المقوقس بأحوال عيسى عليه السلام الذي يزعم المقوقس متابعته، وتمام المعرفة به. وهو أيضاً من باب الجمع بين المتماثلات، أي: إن كان تصرف عيسى مع خصومه صحيحاً مع بقاء وصف الرسالة له، فكذلك محمد ﷺ ولا ينفي عنه ذلك أن يكون رسول الله.

ج- أنه ﷺ أظهر معتقده الصحيح في شأن عيسى عليه السلام على خلاف ما يزعم النصارى، وفي موقف أشد ما يكون فيه إلى استمالة الخصم إلى سماع كلامه، ولهذا أظهر ذلك بحسن عبارة، ودقة تصرف، فقال: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا صلبه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه في سماء الدنيا! فلم يقر لهم بدعوى الصلب، ولا أنه مات كما يموت الناس، بل رفعه الله إليه.

د- أنه أمر المقوقس باتباع دين المسيح، لكن الاتباع الصحيح، ولو فعل ذلك كل نصراني لقاده إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، فالنقل الصحيح والعقل الصريح يقودان إلى الإيمان بالرسالة الخاتمة، وكفى بذلك حجة وبرهاناً.

هـ- أنه ﷺ كان يخلط البرهان الصحيح بالموعظة الحسنة، يخاطب العقل والوجدان في وقت واحد، وقل من يتقن هذا النمط من الحجة، إلا من أشرب من معين القرآن الكريم والسنة المطهرة. وهذا الأسلوب الرفيع لم يملك المقوقس ـ مع ما في الملوك من عزة الرياسة، وأنفة السلطان ـ أمامه إلا التسليم والتقرير، مع حسن الأدب والملاطفة.

٣- ذكر ابن إسحاق[(١)] رحمه الله أنه لما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم أرسلت قريش في طلبهم عمرو بن العاص وعبدا لله بن أبي ربيعة، فجمعوا للنجاشي ملك الحبشة وبطارقته هدايا، فلم يَدَعوا منهم رجلاً إلا هيأوا له هدية، وقالت قريش لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تَكَلَّموا فيهم، ثم ادفعوا إليه هداياه، وإن استطعتم أن يردهم عليكما قبل أن يكلمهم فافعلا.

---

(١) السير والمغازي ص: ٢١٣-٢١٦. وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ٤١٣/١-٤١٧. ورواه أحمد في المسند ١٨٠/٣-١٨٥ برقم ١٧٤٠ وصحح إسناده أحمد شاكر، وانظر: المسند ٢٩٠/٥-٢٩٢ ط. صادر، من طريق ابن إسحاق، وانظر مجمع الزوائد ٢٤/٦-٢٧ وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرَّح بالسماع. وانظر: ٢٧/٦-٣٢ من مجمع الزوائد. ومسند الطيالسي (منحة المعبود) ٨٩/٢-٩٠ باب الهجرة إلى الحبشة ح: ٢٣٢٥، ومستدرك الحاكم ٣٠٩/٢-٣١٠ كتاب التفسير وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وانظر: سنن أبي داود ٥٤٣/٣ كتاب الجنائز ـ باب في الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك ح: ٣٢٠٥.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فقدما عليه، فلم يبق بطريق من بطارقته إلا قدَّموا له هديته، وكلموه وقالوا له: إنا قدمنا على هذا الملك في سفهاء من سفهائنا فارقوا أقوامهم في دينهم، و لم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم فيهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل. فقالوا: نفعل. ثم قدما إلى النجاشي هداياه، وكان أحب ما يهدى إليه من مكة الأَدَم[1]، فلما أدخلوا عليه هداياه قالوا له: أيها الملك، إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم، و لم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا تعرفه[2]، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم: آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً. فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك لو رددتهم عليهم كانوا هم أعلى بهم عيناً، فإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك، فغضب ثم قال: لا لعمر الله، لا أردهم عليهم حتى أدعوهم وأكلمهم وأنظر ما أَمْرُهُم، قوم لجأوا إلى بلادي، واختاروا جواري على جوار غيري فإن كانوا كما يقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم و لم أُخْلِ بينهم وبينهم، و لم أُنْعِمْهُم عيناً.

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم و لم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم، فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم، فقالوا: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا

(١) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ .

(٢) وفي السير النبوية ٤١٤/١ لا نعرفه نحن ولا أنت.

نقول، نقول والله ما نعرف، وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا كائن في ذلك ما كان، فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب. فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه، فارقتم دين قومكم، ولا تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟ فقال جعفر: أيها الملك، كنا قوماً على الشرك: نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم؛ بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم، ولا نعبد غيره، فقال: هل معك شيء مما جاء به ـ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله ـ فقال جعفر: نعم. قال: هلم فاتل علي ما جاء به، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص)، فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى[1]، انطلقوا راشدين لا والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عيناً، فخرجا من عنده وكان أتقى الرجلين فينا عبدالله بن أبي ربيعة، فقال له عمرو ابن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم، لأخبرنَّه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد ـ عيسى ابن مريم ـ عبد،

---

(١) في السيرة النبوية ١/٤١٦ عيسى.

فقال له عبد الله ابن ربيعة: لا تفعل، إنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً ولهم حقاً، فقال: والله لأفعلن.

فلما كان الغد دخل عليه فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه، فبعث إليهم ولم ينزل بنا مثلها، فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقالوا: نقول والله الذي قاله[1] فيه، والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه، فدخلوا عليه، وعنده بطارقته، فقال: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر: نقول: هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فدلّى النجاشي يده إلى الأرض فأخذ عويداً بين أصبعيه، فقال: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته. فقال: وإن تناخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي، والشيوم: الآمنون، ومن سبَّكم غُرِّم، ومن سبَّكم غُرِّم، ومن سبَّكم غُرِّم، ثلاثاً، ما أحب أن لي دبيراً، وأني آذيت رجلاً منكم، والدبير بلسانهم الذهب، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس فيَّ فأطيع الناس فيه[2]، ردوا

---

(١) في السيرة النبوية ٤١٦/١ نقول والله ما قال عز وجل.

(٢) روى ابن إسحاق عن الزهري قوله: فحدثت بهذا الحديث عروة بن الزبير عن سلمة، فقال عروة: هل تدري ما قوله: ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه؟ فقال الزهري: لا، ما حدثني ذلك أبوبكر بن عبدالرحمن بن الحارث عن أم سلمة، فقال عروة: فإن عائشة حدثتني ثم ساق =

عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بهـا، واخرجا من بلادي، فخرجا مقبوحين [مردوداً][1] عليهما ما جاءا به، فأقمنا مع خير جار في خير دار...

= قصة مفادها: أن والد النجاشي كان ملكاً على الحبشة وله أخ من صلبه اثنا عشر رجلاً، ولم يكن لوالد النجاشي ولد غير النجاشي، فأدارت الحبشة رأيها، واجتمعوا على قتل الملك والد النجاشي، ونصبوا أخاه مكانه حتى يظل الملك فيه وفي أبنائه من بعده، لكنهم رأوا بعد ذلك أن النجاشي دخل على عمه وغلب عليه فلا يدير أمره غيره، إذ كان لبيباً فخشوا أن يتولى الملك من بعد عمه فيقتلهم ثأراً لأبيه، فرأوا أن يخرجوه من أرضهم، فباعوه إلى تاجر فقذفه في سفينة وانطلق به، فلما كان العشي مات عمه الملك بصاعقة أصابته، ففزع القوم إلى ولده، فإذا هم حمقى ليس فيهم من يصلح للملك، فقال بعضهم لبعض: تعلمن والله، إن ملككم الذي لا يُصلح أمركم غيره للذي بعتم الغداة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه قبل أن يذهب، فخرجوا في طلبه حتى ردوه، فعقدوا عليه التاج، وأجلسوه على سرير الملك، فقال التاجر: ردوا علي مالي إذ أخذتم مني غلامي فأبوا عليه، فقال: إذاً والله أكلمه، فقالوا: وإن. فمشى إليه فقال: أيها الملك إني ابتعت غلاماً فقبض مني الذين باعوه ثمنه، ثم عدوا على غلامي فنزعوه من يدي ولم يردوا علي مالي، فكان أول ما اختبر من صلابة حكمه وعدله أن قال: لتردُّن عليه ماله أو ليجعلنَّ غلامه يده في يده فليذهبنَّ به حيث شاء. فقال: بل نعطه ماله، فأعطوه إياه فلذلك يقول: ما أخذ الله مني رشوة فآخذ الرشوة فيه حين رد إلي ملكي، ولا أطاع الناس في فأطيعهم فيه. السير والمغازي ص:٢١٦-٢١٧ وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٤١٨-٤٢٠.

(١) في الأصل [مردود] بالرفع، والصحيح ما أثبته، وهو هكذا في السيرة النبوية ـ لابن هشام ١/٤١٧.

منهج
الجدل والمناظرة
في تقرير مسائل الاعتقاد

الدكتور عثمان علي حسن

الجزء الثاني

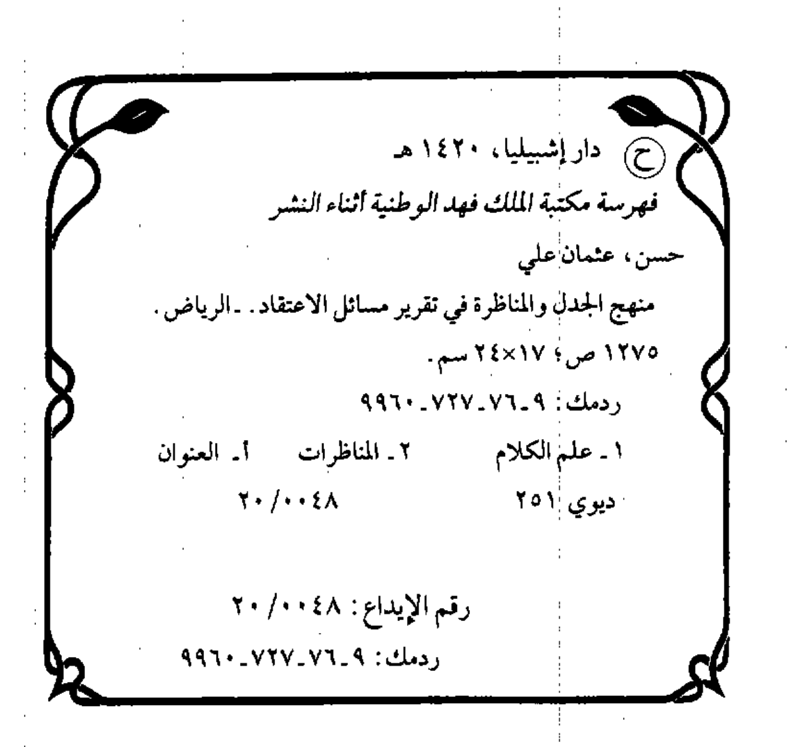
دار إشبيليا
للنشر والتوزيع

منهج

الجدل والمناظرة

في تقرير مسائل الاعتقاد





ⓒ دار إشبيليا، ١٤٢٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حسن، عثمان علي

منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد. ـ الرياض.

١٢٧٥ ص؛ ١٧×٢٤ سم.

ردمك: ٩ـ٧٦ـ٧٢٧ـ٩٩٦٠

١ ـ علم الكلام ٢ ـ المناظرات أ ـ العنوان

ديوي ٢٥١ ٢٠/٠٠٤٨

رقم الإيداع: ٢٠/٠٠٤٨

ردمك: ٩ـ٧٦ـ٧٢٧ـ٩٩٦٠

حُقُوق الطّبع مَحفُوظَة

الطّبعَة الأولى

١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م

دار إشبيليا للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية ـ ص.ب: ١٣٣٧١ ـ الرياض: ١١٤٩٣

هاتف: ٤٧٩٤٣٥٤ ـ ٤٧٤٢٤٥٨ ـ فاكس: ٤٧٧٣٩٥٩

الباب الثالث

قواعد الجدل والمناظرة وآدابها وأحكامها

وفيه خمسة فصول:

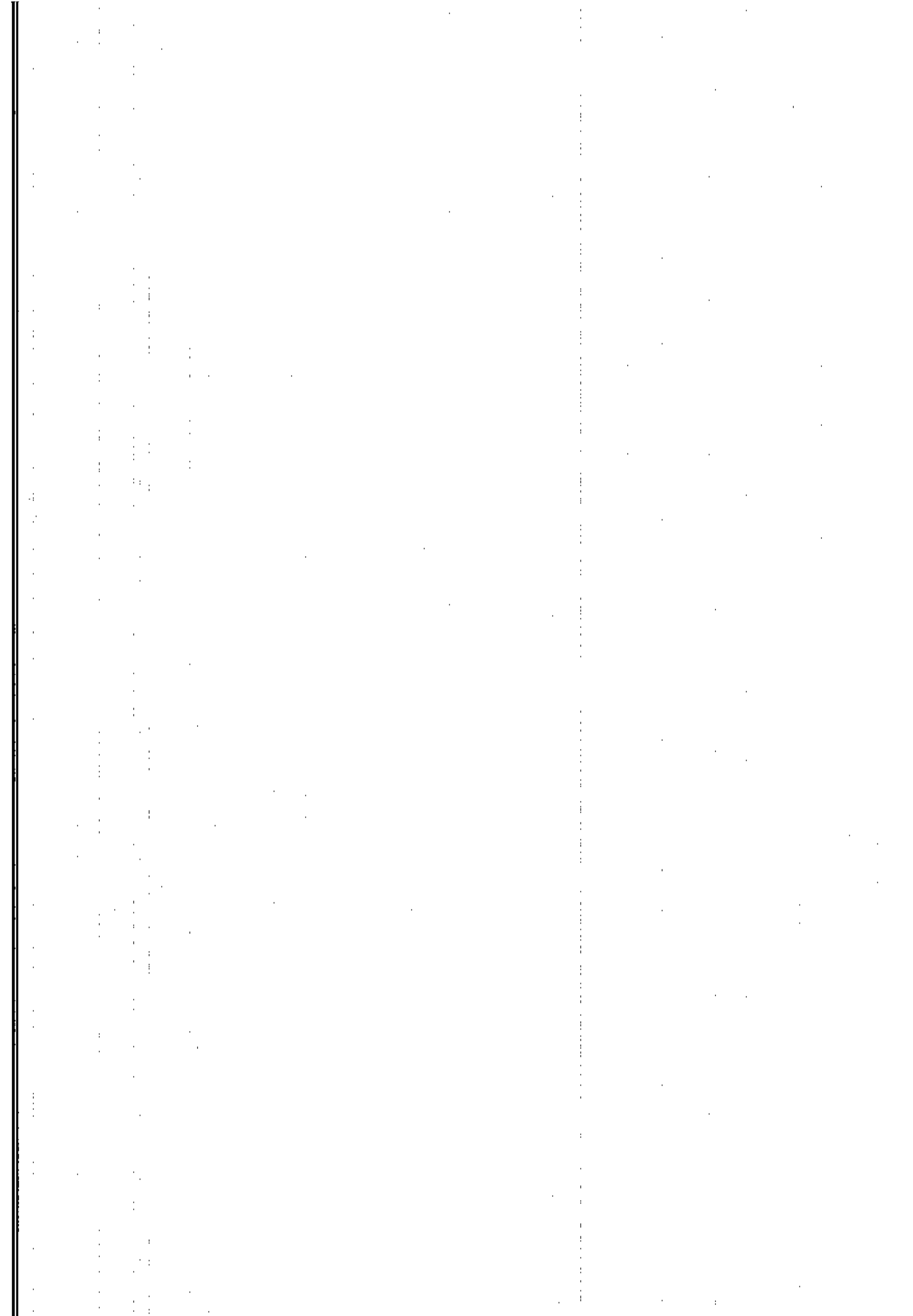
الفصل الأول: قواعد الجدل والمناظرة

الفصل الثاني: آداب الجدل والمناظرة

الفصل الثالث: أحوال الجدل والمناظرة

الفصل الرابع: إقامة الحجة: مجالاتها وشروطها

الفصل الخامس: المباهلة: معناها وصورتها وحكمها وشروطها ومجالاتها



مـــدخل:

هذا الباب وضع للكلام عن قواعد المناظرة وبيان آدابهـا وأحكامهـا، وهو ما يسمَّى بآداب البحث، أو علم المناظرة، أو علم الجدل، ومقصوده العصمة من الخطـأ في المنـاظرات، وسـهولة الخـوض في منـاظرة الخصـوم، ومعرفة صحيحها من فاسدها، فالمناظرة بدون مراعاة قواعدهـا وقوانينهـا وآدابها وأحوالها تكون مجرد تصادم بـين الخصـوم لا يوصـل إلى صـواب، ولا يكون فيه مقنع[1].

قال ابن خلـدون[2]: «فإنـه لمـا كـان بـاب المنـاظرة في الـرد والقبـول متسعاً، وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجـواب يرسـل عنانـه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودهـا في الـرد والقبـول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً، ومحل اعتراضه أو معارضتـه، وأيـن يجـب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال.

ولذلك قيل فيه ـ أي علم الجدل ــ إنـه معرفـة بـالقواعد مـن الحـدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمـه، كـــان ذلك الرأي من الفقه أو غيره».

---

(١) انظر : رسالة آداب البحث ـ أحمد مكي ص : ١٩ .

(٢) المقدمة ص : ٤٢٢

وقال أبو محمد بن الجوزي (٦٥٦هـ) في الإيضاح[1]: «اعلم (وفقنا الله وإياك) أن معرفة هذا العلم لا يستغني عنها ناظر، ولا يتمشى بدونها كلام مناظر؛ لأن به تتبين صحة الدليل من فساده، تحريراً وتقريراً، وتصح الأسئلة الواردة من المردودة إجمالاً وتفصيلاً، ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة، ولو خُلِّي كل مدعٍ ومدعىً ما يرومه على الوجه الذي يختار، ولو مكّن كل مانع من ممانعة ما يسمعه متى شاء: لأدى إلى الخبط وعدم الضبط، وإنما المراسم الجدليه تفصل بين الحق والباطل، وتبين المستقيم من السقيم، فمن لم يحط بها علماً كان في مناظرته كحاطب ليل».

وقد اعتنى بهذا العلم كثير من العلماء والمصنفين؛ فمن المتقدمين: الإمام أبو محمد علي بن حزم في التقريب لحد المنطق، والخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) في الفقيه والمتفقه، وأبو الوليد الباجي (٤٧٤هـ) في المنهاج في ترتيب الحجاج، والإمام أبو المعالي الجويني في الكفاية في الجدل، وغيرهم. ومن المحدثين: الشيخ طاش كبري زاده في آداب البحث والمناظرة، والشيخ محمد المرعشي في شرح الولدية، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي في آداب البحث والمناظرة، وغيرهم[2].

لكن هؤلاء جميعاً وغيرهم - ممن وقفت على مصنفاتهم - وجدتهم قد

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير ص: ٣٧٠.

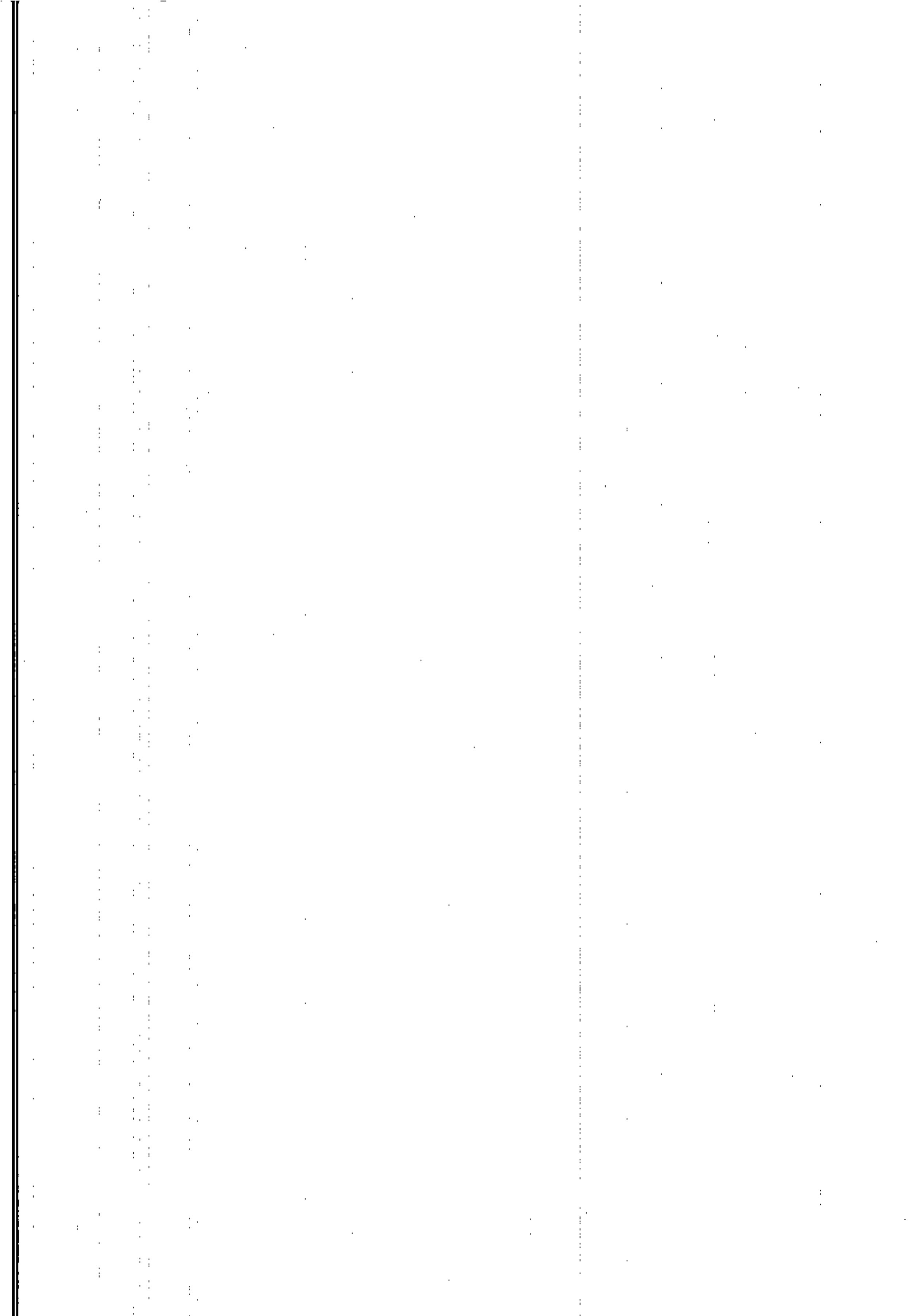
(٢) وقد تقدم ذكر قائمة بهذه المؤلفات وغيرها، انظر: ص: ١٣-١٤.

خلطوا بين ما يمكن أن نسميه قواعد لهذا الفن وبين آدابه وأحواله. ولهذا آليت على نفسي أن أُمَيِّزَ في هذا الباب بين هذه المسائل، لا سيما وقد وجدت من الباحثين المعاصرين[1] من أشار إلى شيء من هذا.

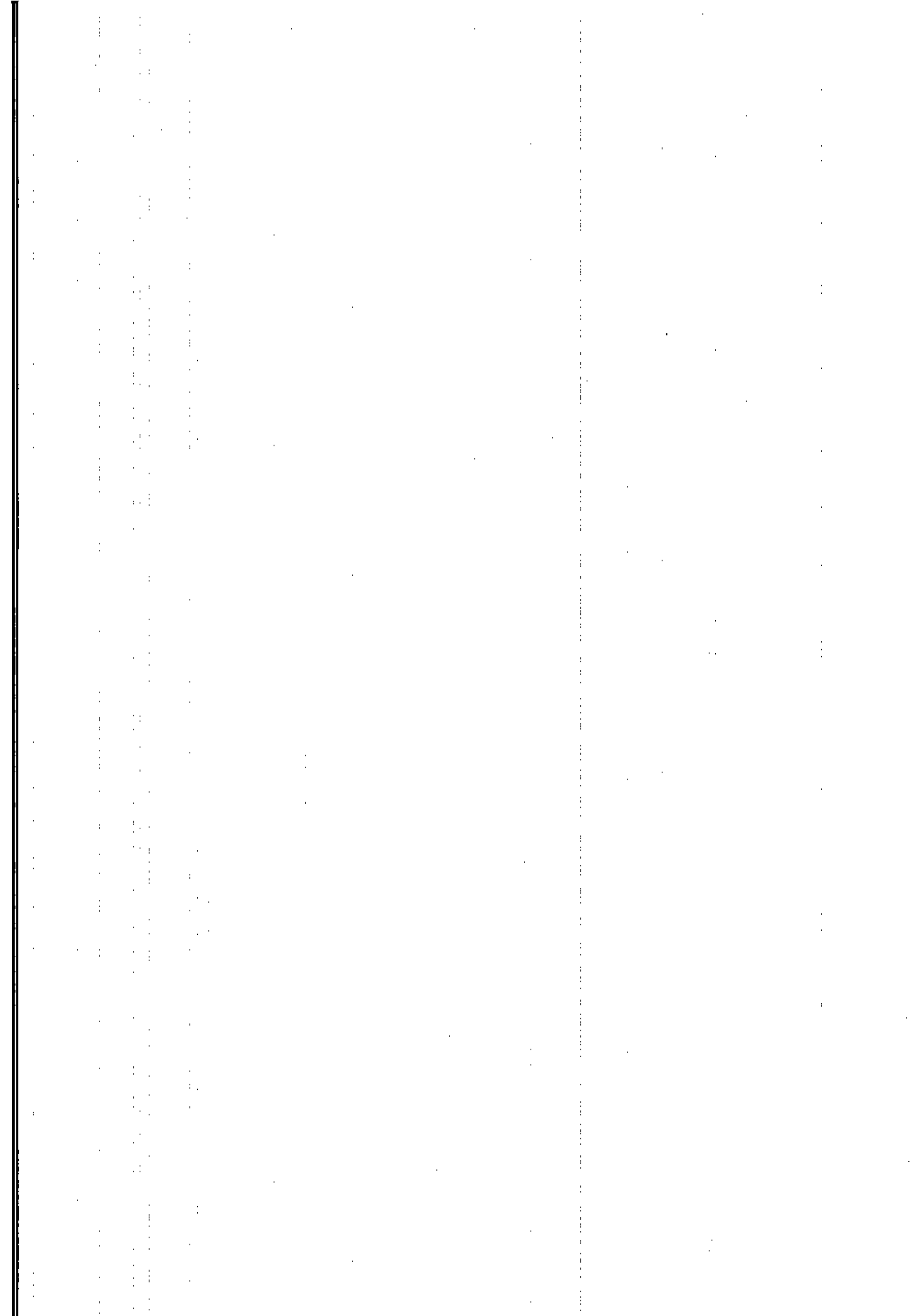
ثم أضفت إلى هذه المسائل مسائل أخرى أراها ذات صلة وثيقة بموضوع الباب، بل وموضوع البحث؛ وهي: إقامة الحجة، والمباهلة. وستتضح هذه الصلة أثناء تناول هذه الموضوعات بالتفصيل إن شاء الله.

---

(١) انظر مثلاً: آداب الحوار والمناظرة - د. علي جريشة ص : ٦٥ وما بعدها ، وضوابط المعرفة - حبنكة الميداني ص : ٣٧٣ وما بعدها .



الفصل الأول
قـــواعد الجـــدل والمناظـرة



تنبيــه:

هذه القواعد وقفتُ على بعضها في المصنفات التي عُنيت بآداب البحث والمناظرة، وهي التي مرَّ ذكر طائفة منها، والبعض الآخر استخرجتُه من ثنايا المصنفات العامة لبعض أهل العلم. ولا أدعي فيها الاستيعاب ولا الإحاطة، وإنما هو مبلغ طاقتي، وفوق كل ذي علم عليم.

القاعدة الأولى

إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل

النقل هو أن تذكر كلاماً لغيرك مع بيانك إسناده لمن نقلته عنه؛ كقولك: قال ﷺ ، أو قال أبوبكر ﷺ، أو مالك رحمه الله، أو نحو ذلك، فإن التزم الناقل صحة ما نقل، كأن يقول: وما نقلته صحيح، فهو مدَّعٍ، وهذا الذي قاله دعوى، تحتمل أن تكون صدقاً، وتحتمل أن تكون كذباً، وإن كان لم يلتزم صحة ما نقل؛ فإن كان بديهياً أو مسلَّماً عند الخصم أو معتبراً من ضروريات مذهبه لم يتوجه إليه شيء من الاعتراضات، ولزم خصمه القبول والتسليم، وإن كان ليس كذلك، فلا يتوجه إليه إلا المطالبة بتصحيح النقل بطريق يثبت بها صحة ذلك النقل، وقد يسمى طلب تصحيح النقل منع الدعوى. والصواب مطالبته بتصحيح النقل، خلافاً لمن زعم أن النقل ليس محلاً للمناظرة أصلاً. واختلف أهل هذا الفن في تصحيح النقل على القول به، هل هو واجب أو مستحسن؛ فقيل: يجب، وقيل: يستحسن، وقيل: إن كان السائل جاهلاً بصحة النقل

وجب طلب تصحيحه، وإن كان عالماً بأن النقل صحيح وأن الناقل صادق في نقله لم يجز له طلب التصحيح.[١] وتصحيح النقل هو بيان صدق نسبته إلى المنقول عنه.[٢] فيطالب الناقل بتصحيح النقل: لفظه أو معناه أو هما معاً، خاصة إذا لم تكن صحته بديهية ـ كما تقدم ـ أو معلومة أو مسلمة عند الخصم، أو من ضروريات مذهبه. ويمكن إثبات صحة النقل بإحضار الكتاب الذي نقل منه الناقل،[٣] إذا كانت الصحة تتوقف على إحضار الكتاب؛ كما في قوله (تعالى): ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٣].

فكل دعوى ـ يُنازع فيها ـ لا بد من إقامة الدليل عليها، وإلا كانت مجرد دعوى خلية عن البرهان، والدليل إما أن يكون نقلياً أو عقلياً، والمطلوب في النقلي تحرير صحته، وفي العقلي إظهار صراحته وبيان حجته:

قال (تعالى) :﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١١١] فهذا عام في كل دعوى، لا بد من تصديقها بالدليل.

وقال (تعالى) :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة

---

(١) انظر : آداب البحث والمناظرة الشنقيطي القسم الثاني ص : ٨٤ .
(٢) انظر : رسالة آداب البحث ـ مكي ص :٢٢.
(٣) انظر : شرح الولدية ـ المرعشي ص:١٤٣.

الأحقاف: ٤] فطالبهم أولاً بالطريق العقلي، وثانياً بالطريق السمعي[1]. قال ابن تيمية رحمه الله: «فالكتاب هو الكتاب ـ أي جنس الكتب المنزلة من عند الله ـ والأثارة كما قال من قال من السلف: هي الرواية والإسناد. وقالوا: هي الخط أيضاً، إذ الرواية والإسناد يكتب بالخط، وذلك لأن الأثارة من الأثر، فالعلم الذي يقوله من يُقبل قوله يُؤْثَر بالإسناد ويُقيِّد ذلك بالخط، فيكون ذلك كله من آثاره»[2].

ومن هنا قال علماء أدب البحث والمناظرة: **إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل**[3].

ولهذا تجد كثيراً من أهل البدع يستدل على بدعته بنقل ضعيف أو موضوع، أو دلالة ضعيفة، أو بعقل فاسد:

فالشيعة ـ مثلاً ـ يكثر عندهم الاستدلال بالنقول الموضوعة والضعيفة، وكذلك الدلالة الضعيفة، ويشاركهم في ذلك طوائف من المتصوفة.

أما أهل الفلسفة والكلام، فيكثر عندهم الاستدلال بالأقيسة العقلية الفاسدة، أو الاحتمالات والتجويزات[4] في مقام القطعيات واليقينيات.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٣٩٥/٧.

(٢) المرجع السابق ٥٧/١-٥٨، وانظر: تفسير ابن كثير ١٥٦/٤.

(٣) انظر: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة لعبد الرحمن حبنكة ص: ٣٧٩، ٣٩١-٣٩٢، وشرح الولدية ص: ١٤٣، وعلم البحث والمناظرة ـ طاش زاده ـ بتحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل ص: ٣٣.

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٢/١، ٢٩، وتحريم النظر لابن قدامة ص: ٣٠-٣١، وشرف أصحاب الحديث للبغدادي ص: ٥٥ رقم: ١١٠، ص: ٧٨ رقم: ١٦٧.

القاعـدة الثانية

موافقة النصوص الشرعية لفظاً ومعنى أولى من موافقتها في المعنى دون اللفظ

وذلك أن متابعة الكتـاب والسـنة في اللفـظ والمعنـى أكمـل وأتم مـن متابعتهمـا في المعنـى دون اللفـظ؛ فالرسـول ﷺ علّـم الـبراء بـــن عـــازب كلمات يقولهن إذا أخذ مضجعه وفيها: «... آمنت بكتابك الذي أنزلـت وبنبيك الذي أرسلت» قال البراء: «فرددتهن لأستذكرهن، فقلت: آمنـت برسولك الذي أرسلت. قال ـ أي النبي ﷺ ـ قـل: آمنـت بنبيِّـك الـذي أرسلت»[1] تحقيقاً لكمال الموافقة في اللفظ والمعنى.

ولهذا منع جمع من العلمـاء نقـل حديـث الرسـول ﷺ بـالمعنى، ومـن أجازه اشترط أن يكون الناقل عالمـاً بمـا يحيـل المعنـى مـن اللفـظ، مدركـاً لأساليب العرب حتى يستبين الفروق[2].

فالناس في موافقة نصوص الكتاب والسنة أقسام:

أحدها: من يوافقها لفظاً ومعنى، وهذا أسعد الناس بالحق.

الثاني: من يوافقها في المعنى دون اللفظ، كمن يتكلم في المعـاني الشـرعية الصحيحة بألفاظ غير شرعية؛ وهذا كالألفاظ المجملة والتي تحتمل حقاً

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢٠٨١-٢٠٨٢ كتـاب الذكـر والدعـاء ـ بـاب مـا يقـول عنـد النوم...ح: ٢٧١٠.

(٢) نظر : الرسالة ـ الشافعي ص : ٣٧٠-٣٧١.

وباطلاً، كمن يتكلم في نفي الجهة عن الله (تعالى) قاصداً نفي الجهة المخلوقة، أو ينفي الحيز والمكان المخلوقين، وكبعض اصطلاحات المتصوفة؛ كالفناء والشهود والغيبة، وغير ذلك من الألفاظ التي لم ترد لا في الكتاب ولا في السنة ولا عن سلف الأمة، بل تحتمل معاني صحيحة وأخرى فاسدة، فإذا عرف مراد صاحبها وكان موافقاً للمعنى الصحيح قُبِلَ مراده، لكن يُمْنَع من التكلم باللفظ المجمل، لئلا يُوقع في الإيهام، ويُعلَّم الألفاظ الشرعية في ذلك. وكذلك يدخل فيهم من نفى ظاهر نصوص الصفات قاصداً نفي المعنى الظاهر المختص بالمخلوق، فنفيه صحيح، لكن ظاهر النصوص لم يدل على باطل، حتى يحوجنا إلى هذا النفي، وإنما نفى هذا ما توهمه أنه ظاهر النص، وإن لم يكن كذلك في نفس الأمر.

الثالث: من يوافق نصوص الكتاب والسنة في اللفظ دون المعنى، وهؤلاء كطوائف الباطنية وغيرهم ممن يعبرون عن عقائدهم الفاسدة بألفاظ شرعية؛ فالصلاة عندهم كشف أسرارهم، والصيام كتمانها، والحج القصد إلى شيوخهم، ونحو ذلك[1].

الرابع: من يخالف نصوص الكتاب والسنة لفظاً ومعنى، وهؤلاء أشقى الطوائف، وهم من الكفرة والملاحدة ونحوهم.

القاعدة الثالثة

لا ينبغي بتر الدليل والاستدلال بجزئه

وهذا شأن أهل الابتداع حتى يجدوا من الكلمات الشرعية ما يسوِّغ

---

(١) انظر : الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام ـ العلوي ص:٧١ وما بعدها.

لهم بدعتهم ويجعلها تروج عند ضعفاء المسلمين:

قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله في الرد على القدرية: «...والذي نفس محمد بيده، لوددت أن يميني هذه تقطع على كبر سني، وأنهم أتموا آية من كتاب الله عز وجل، ولكنهم يأخذون بأولها ويتركون آخرها، ويأخذون بآخرها ويتركون أولها، والذي نفسي بيده لإبليس أعلم بالله عز وجل منهم، يعلم من أغواه[1]، وهم يزعمون أنهم يُغوون أنفسهم ويُرشدونها»[2].

ولما احتج غيلان الدمشقي أمام عمر بن عبد العزيز على مقالته في القدر بقوله (تعالى) :﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: ٢-٣] قال له عمر: « اقرأ آخر السورة:﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة الإنسان: ٣٠-٣١] ثم قال عمر: ما تقول يا غيلان، قال: أقول: قد كنتُ أعمى فبصرتني، وأصم فأسمعتني، وضالاً فهديتني...» فأظهر توبته، ثم رجع إلى مقالته في عهد هشام بن عبد الملك؛ فصلبه[3].

---

(١) إشارة إلى قوله (تعالى) : ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم﴾ [سورة الحجر: ٣٩].
(٢) الشريعة ـ الآجري ص : ٢٢٢.
(٣) الشريعة ص : ٢٢٨.

القاعـدة الرابعة

الحـق يُقبل من أي جهة جـاء

الحق يقبل لكونـه موافقـاً للدليـل، فـلا أثـر للمتكلـم بـه في قبولـه أو رفضه؛ ولهذا كان أهل السنة يقبلون مـا عنـد جميـع الطوائـف مـن الحـق، ويردون ما عندها من الباطل، بغض النظر عن الموالي منها أو المعادي:

قال (تعالى): ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة: ٢١٣] وفي دعاء النبي ﷺ: «... اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١]. قال ابن القيم رحمه الله: «فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان ومع من كان، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان ولو كان مع من يحبه ويواليه، فهو ممن هدى الله لما اُختُلِف فيه من الحق»[٢].

وقال (تعالى):﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة: ٨]. ومن العدل فيهم قبول ما عندهم من الحق.

وهكذا أدبنا القرآن الكريم حين ساق كلام بلقيس ـ وقت كفرها ـ ثم وافقها عليه؛ قال (تعالى) ـ حكاية عنها ـ :﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً

---

(١) صحيح مسلم ٥٣٤/١ كتاب صلاة المسافرين ـ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ح: ٧٧٠.

(٢) الصواعق المرسلة ٥١٦/٢.

أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ قال الله (تعالى): ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[سورة النمل: ٣٤].

ولما دلَّ الشيطان أبا هريرة ﷺ إلى آية الكرسي لتكون له حرزاً من الشيطان، وذلك مقابل فكِّه من الأسر، قال له النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب»[(١)].

وكان معاذ بن جبل ﷺ يقول: «اقبلوا الحق من كل من جاء به، وإن كان كافراً ـ أو قال فاجراً ـ واحذروا زيغة الحكيم، قالوا : كيف نعلم أن الكافر يقول كلمة الحق؟ قال: إن على الحق نوراً»[(٢)].

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ مبيناً منهجه في التعامل مع مخالفيه من أهل الكلام وغيرهم ـ: «وليس كل من ذكرنا شيئاً من قوله ـ من المتكلمين وغيرهم ـ يقول بجميع ما نقوله في هذا الباب وغيره، ولكن الحق يقبل من كل من تكلَّم به»[(٣)].

القاعدة الخامسة

الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف رجاله

---

(١) صحيح البخاري ٤٨٧/٤ (فتح الباري) كتاب الوكالة ــ باب وكالة المرأة الإمام في النكاح ح :٢٣١١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠١/٥-١٠٢ ، وانظر : سنن أبي داود ١٧/٥-١٨ كتاب السنة ـ باب لزوم السنة ح : ٤٦١١ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠١/٥.

الحق ما وافق الدليل من غير التفات إلى كثرة المقبلين، أو قلتهم، فالحق لا يوزن بالرجال، وإنما يوزن الرجال بالحق، ومجرد نفور النافرين، أو محبة الموافقين لا يدل على صحة قول أو فساده، بل كل قول يحتج له، خلا قول النبي ﷺ فإنه يحتج به:[1]

ومن المعلوم أنه لا يوجد أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً، يعتمد مخالفة النبي ﷺ في شيء من سنته، لا دقيق ولا جليل، بل هم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب متابعته، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويرد، إلا الرسول ﷺ[2]. وذلك لأجل ثبوت العصمة للرسول ﷺ، وحاجة غيره للإجازة والتزكية.

يقول ابن حزم[3] رحمه الله: «ولا تستوحش مع الحق إلى أحد، فمن كان معه الحق فالخالق (تعالى) معه، ولا تبال بكثرة خصومك، ولا بقدم أزمانهم، ولا بتعظيم الناس إياهم، ولا بعدتهم، فالحق أكثر منهم، وأقدم وأعز وأعظم عند كل أحد، وأولى بالتعظيم.

وإذا شئت أن تتيقن فساد مراعاة ما ذكرنا، فتأمل أهل كل ملة، وكل أمة، فإنك تجدهم مطبقين على تعظيم أسلافهم وصفتهم بكل فضيلة وبكل خير، وذم أسلاف من خالفهم. وتأمل كل قول يقال، فقد كان القائلون به في أول أمره قليلاً، وأكثر ذلك يرجع إلى واحد ثم كثر

---

(١) انظر : نقض المنطق ص : ١٥٤ ، والقواعد المثلى ـ العثيمين ص:٨٦.

(٢) انظر : رفع الملام ص : ٤.

(٣) التقريب لحد المنطق ص : ١٩٣-١٩٥.

أتباعه. وفتّش كل قول قديم تجده قد كان ابن ساعة بعد أن لم يكن، ثم مرَّت عليه الأيام والشهور والسنون والدهور.

واعلم أن مراعاة هذه الأمور من ضعف العقل أو قلة العلم، ولا تبال أيضاً وإن كانوا فضلاء على الحقيقة، فقد يخطئ الفاضل ما لم يكن معصوماً. ولو أن ذلك الفاضل لاح له ما لاح لك لرجع إليك، ولو لم يفعل لكان غير فاضل...».

إلى أن قال: «وإياك والالتفات إلى من يتبجح بقدرته في الجدل، فيبلغ به الجهل إلى أن يقول: إني قادر على أن أجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً. فلا تصدق مثل هؤلاء الكذابين، فإنهم سفلة أراذل أهل كذب وشر ومَخْرَقة...».

إلى أن قال: «وإياك والاغترار بكثرة صواب الواحد فتقبل له قولة واحدة بلا برهان، فقد تخطر في خلال صوابه بما هو أبين وأوضح من كثير مما أصاب فيه».

القاعدة السادسة

الحق واحد لا يختلف

الحق عند الله (تعالى) وفي نفس الأمر واحد لا يختلف ولا يتعارض، لكنه قد يتنوع، فيكون جنساً واحداً له أنواع، كلها ترجع إلى جنس واحد، كما قيل في صيغ التشهدات والأذان والإقامة ونحو ذلك مما قد شرع جميعه.

أما أن يُثبت أحد المتناظرين شيئاً وينفيه الآخر، أو يوجبه ويمنعه خصمه، ويكون كلاهما محقاً، فهذا لا يكون أبداً.

ولهذا لا يمكن أن يكون دليلان قطعيان متعارضين، سواء كانا من المنقول أو من المعقول، أوكان أحدهما نقلياً والآخر عقلياً. فالله (تعالى) أنزل الكتاب وأنزل الميزان ـ وقياس العقل منه ـ فهما في الإنزال أخوان، وفي معرفة الأحكام شقيقان، فالنقل الصحيح لا يتعارض في نفسه لقوله (تعالى) : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢] وكذلك العقل الصريح لا يتعارض في نفسه، وأيضاً لا يتعارض الشرع الصحيح مع العقل الصريح، فلا تجد نصاً شرعياً صحيحاً في ثبوته صريحاً في دلالته معارضاً لدليل عقلي صحيح صريح، هذا لا يمكن بحال، بل الشرع الصحيح والعقل الصريح متصادقان، متعاضدان، متناصران، يصدق أحدهما الآخر، ويشهد أحدهما بصحة الآخر[(١)].

لكن قد يحار العقل في بعض ما جاءت به الشريعة، وهذا من العقل حيرة لا إحالة، وإنما ذلك لكمال الشريعة وتفوقها، فهي تأتي بمحارات العقول لا بمحالاتها، فتأتي بما لا يعلمه العقل، وبما يعجز العقل عن معرفته، أما أن تأتي بما يُعلم بصريح العقل انتفاؤه وامتناعه، فلا[(٢)].

ولهذا فإن كل ما قد يسمى تعارضاً بين بعض الأدلة الشرعية والعقلية فهو بسبب أن أحد الدليلين غير صحيح أو غير صريح، أما مع الصحة والصراحة فلا تعارض. ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومتى تعارض في ظنِّ الظان الكتاب والميزان ـ النص والقياس الشرعي أو العقلي

---

(١) انظر : إعلام الموقعين ١/٣٣١-٣٣٢.

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٢/٣١٤.

ـ فأحد الأمرين لازم: إما فساد دلالة ما احتج به من النص: بأن لا يكون ثابتاً عن المعصوم، أو لا يكون دالاً على ما ظنه، أو فساد دلالة ما احتج به من القياس ـ سواءً كان شرعياً أو عقلياً ـ بفساد بعض مقدماته أو كلها، لما يقع في الأقيسة من الألفاظ المجملة المشتبهة»[1].

وعليه فلا تعارض بين الأدلة الصحيحة الصريحة سواء كانت شرعية أو عقلية، وعليه فالأمور التي تدور بين الإثبات والنفي، والتحريم والتحليل لا بد وأن يكون الحق فيها عند أحد جانبي المناظرة، لا الاثنين معا. ولهذا قال أبو محمد بن حزم رحمه الله: «لا يتعارض البرهان، وإذا أقمناه فقد أمنا أن يقيمه خصمنا»[2].

القاعدة السابعة

التقديم حق الدليل القطعي

هذه القاعدة هي نقيض ما أسسه المتكلمون فيما أسموه بقانون التأويل، وملخصه: أنه إذا تعارض النقل والعقل فإما أن يجمع بينهما وهو محال؛ لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن يردا جميعاً وهو ـ أيضاً ـ محال؛ لأنه رفع للنقيضين، وإما أن يقدم السمع وهو محال؛ لأن العقل أصل النقل، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحاً في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح

(١) الرد على المنطقيين ص: ٣٧٣. وانظر: أعلام الموقعين ٢/٣-٤.

(٢) التقريب لحد المنطق ص : ١٩٣.

في أصل الشيء قدح فيه، فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً، فوجب تقديم العقل، ثم النقل إما أن يُتأول وإما أن يُفوض[١].

وهذا المذهب مبني على أن الأدلة الشرعية لا تفيد ـ عندهم ـ اليقين؛ لأن الاستدلال بها موقوف على مقدمات كلها ظنية[٢].

فقانون التأويل مبني على مقدمات ثلاث:

أحدها: ثبوت تعارض الدليلين النقلي والعقلي.

الثانية: انحصار التقسيم فيما ذكروه من الأقسام الأربعة.

الثالثة: بطلان الأقسام الثلاثة، وتعيُّن القسم الرابع، وهو تقديم الدليل العقلي.

والمقدمات الثلاث باطلة، وبيان ذلك أن يقال: إذا تعارض دليلان؛ سواء كانا سمعيين أو عقليين، أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً، فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين، أو ظنيين، أو يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً.

أما القطعيان فلا يجوز تعارضهما ـ كما تقدم ـ سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً، وهذا متفق عليه بين العقلاء؛ لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله، فلا يمكن أن تكون دلالته باطلة.

---

(١) انظر : أساس التقديس ـ الرازي ص : ٢١٠-٢١١ ، ودرء تعارض العقل والنقل ٤/١.

(٢) انظر : الرد على هذه الفرية في الصواعق المرسلة ـ ابن القيم ٦٣٤/٢ وما بعدها.

وعليه، فلو تعارض دليلان قطعيان، وكـان أحدهمـا ينـاقض مدلـول الآخر، للزم الجمع بين النقيضين وهو محال. بل كل ما يعتقد فيه التعارض من الدلائل الـتي يعتقـد أنهـا قطعيـة، فـلا بـد مـن أن يكـون الدليـلان أو أحدهما غير قطعي، أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين، فأمـا مـع عـدم تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين.

أما إن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً، والآخر ظنياً؛ فإنـه يجـب تقديم القطعي باتفاق العقلاء، سواء كان هو النقلي أو العقلي.

وأما إن كانا جميعاً ظنيـين: فإنـه يصـار إلى طلـب الـترجيح، فأيهمـا ترجح كان هو المقدَّم، سواء كان عقلياً أو نقلياً.

ولا جواب لهم على هذا، إلا أن يقال: الدليل النقلي لا يكون قطعياً، وحينئذ يقال لهم: هذا ـ مع كونه باطلاً ـ لا يفيد؛ لأنه على هـذا التقديـر يجب تقديم القطعي لكونه قطعياً، لا لكونه عقلياً، ولا لكونه أصلاً للنقل.

أما حصرهـم القسمة في أربعة أقسام، ثـم إبطـال ثلاثـة منهـا وتعيـين الرابع، فلا يُسَلَّم لهم ذلـك، إذ مـن الممكـن أن يقـال: يقـدم العقلـي تـارة والسمعي أخرى، فأيهما كان قطعيا قُدِّم، وإن كانا جميعـاً قطعيـين امتنـع التعارض، وإن كانا ظنيين فالراجح هو المقـدَّم، فهـذا القسـم لم يذكـروه، وهو الحق الذي لا ريب فيه.[1]

وعلى هذا يتبين أن التقديم حق القطعي، سواء كان نقلياً أو عقلياً.

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/٧٨ وما بعدها.

القاعـدة الثامنة

وجوب عرض أقوال الناس على الشرع

ما يقوله سائر الناس من الكلام في المطالب الشرعية لا بد من عرضه على الكتاب والسنة، فإن وافق الكتاب والسنة فهو حق يُقبل، وإن خالفها فهو باطل يُرد، وإن احتمل الجهتين:

فإما أن يُعرف مراد المتكلِّم، فيُحكم له أو عليه بحسب المراد، وإما أن لا يعرف مراده، فينظر في سيرته ـ سيرة المتكلم ـ فإن كانت حسنة حُمِل كلامه على الوجه الحسن، وإن كانت سيرته سيئة حمل كلامه على الوجه السيِّئ : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [سورة الأعراف: ٥٨].

أما إذا عرف مراده لكن لم يعرف: هل جاء الشرع بتصديقه أو تكذيبه؛ فإنه يُمسك عنه ولا يُتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول ﷺ[1].

واعتصاماً بهذه القاعدة شرح ابن القيم رحمه الله كتاب منازل السائرين للشيخ الهروي في كتابه القيم: مدارج السالكين، فقبل من كلام الشيخ ما أسنده الدليل، ورد منه ما خالفه الدليل، وحمل على أحسن المحامل ما احتمل وجوهاً، إحساناً للظن بشيخ الإسلام الهروي رحمه الله[2].

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/١٤٥-١٤٦، ١٧/٣٥٥ ، وشرح الطحاوية ١/٢٣٠

(٢) انظر : مقدمة مدارج السالكين ـ محمد حامد الفقي ص : ت-ث .

القاعدة التاسعة

السكوت عما سكت الله عنه ورسوله

كل مسألة من مسائل الشريعة ـ ولا سيما مسائل الاعتقاد ـ لا يحكم فيها نفياً أو إثباتاً إلا بدليل، فما ورد الدليل بإثباته أثبتناه، وما ورد بنفيه نفيناه، وما لم يرد بإثباته ولا بنفيه دليل توقفنا، ولم نحكم فيه بشيء؛ لا إثباتاً ولا نفياً، ولا يعني هذا أن المسألة خلية عن الدليل، بل قد يكون عليها دليل، لكن لا نعلمه، فالواجب علينا التوقف: إما مطلقاً أو لحين وجدان الدليل:

قال (تعالى): ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٦]. قال قتادة: «لا تقل: رأيتُ ولم تر، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم، فإن الله (تعالى) سائلك عن ذلك كله»[(١)].

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرَّم حرمات فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الأقسام ثلاثة: ما عُلم ثبوته أُثبت، وما علم انتفاؤه نُفي، وما لم يعلم نفيه ولا إثباته سُكت عنه، هذا هو الواجب، والسكوت عن الشيء غيرُ الجزم بنفيه أو ثبوته»[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٩/٣ .

(٢) رواه الدارقطني في سننه ١٨٤/٤ كتاب الرضاع ح : ٤٢، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ١٠٠/٢ وصححه .

(٣) مجموعة تفسير ابن تيمية ص : ٣٥١-٣٥٢.

وقال ابن حزم رحمه الله: «وإنما يجب على العاقل أن يثبت ما أثبت البرهان، ويبطل ما أبطل البرهان، ويقف فيما لم يثبته ولا يبطله برهان، حتى يلوح له الحق»[(١)].

القاعدة العاشرة

الامتناع عن مناظرة أهل السفسطة

إذا وضح الحق وبان لم يبق للمعارضة العلمية ولا العملية محل، فإن الأمم كلهم متفقون على أن المناظرة إذا انتهت إلى مقدمات معروفة، بينة بنفسها ضرورية، وجحدها الخصم كان سوفسطائياً؛ فلا ينبغي مناظرته بعد ذلك، قال (تعالى) :﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩]. وقال (تعالى) :﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [سورة الأنفال: ٦]. فكل من جادل في الحق بعد وضوحه وبيانه، فقد غالط شرعاً وعقلاً[(٢)]. قال المزني (٢٦٤هـ) رحمه الله: «وحق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل، وأن يقبل منها ما يتبين»[(٣)].

ولهذا كان من الأسئلة ما ليس له جواب غير السكوت والانتهاء، كما قال النبي ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من

---

(١) التقريب لحد المنطق ص : ١٩٣.

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٧٤/٧ ، والقواعد الحسان ـ السعدي ص : ١٥٨-١٥٩.

(٣) جامع بيان العلم ١٣٢/٢ .

خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ با لله ولينتـه»[١].
فإنَّ كل نظر لا بد له من ضرورة يستند إليها، فإذا احتاجت الضرورة إلى استدلال ونظر، أدى ذلك إلى التسلسل وهو باطل.

القاعـدة الحادية عشرة

الباطل لا يرد بالباطل، بل بالحق

السلف والأئمة يذمون ما كـان مـن الكـلام والعقليـات بـاطلاً، وإن قصد به نصر الكتاب والسـنة، فيذمـون مـن قـابل بدعـة ببدعـة، وفاسـداً بفاسد.[٢] فالباطل يرد بالحق المحض، والبدعة ترد بالسنة الصحيحة:

قال الخلال[٣]: «أخبرنا أبوبكر المروذي: قال: كتب إلي عبد الوهـاب في أمر حسين بن خلف البختري العكبري، وقال: إنه قد تنزَّه عن مـيراث أبيه، فقال رجل قدري: إن ا لله لم يجـبر العبـاد على المعـاصي، فـرد عليـه أحمد بن رجاء، فقال: إن ا لله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر. فوضع أحمد بن علي كتاباً يحتج فيه. فأدخلته على أبي عبدا لله، فأخبرته بالقصـة، فقال: ويضع كتاباً؟ وأنكر أبو عبـد ا لله عليهمـا جميعـاً: على ابـن رجـاء حين قال: جبر العباد، وعلى القدري الـذي قـال: لم يجـبر العبـاد، وأنكـر

---

(١) صحيح البخاري ٣٣٦/٦ كتاب بدء الخلق ـ باب صفة إبليس وجنوده ح : ٣٢٧٦.
(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٦٥/٧.
(٣) السنة ص :٥٥٢ برقم : ٩٢٥ .

على أحمد بن علي وضعه الكتاب واحتجاجه، وأمر بهجرانه لوضعه الكتاب، وقال لي: يجب على ابن رجاء أن يستغفر ربه لما قال: جبر العباد، فقلت لأبي عبدالله: فما الجواب في هذه المسألة؟ قال: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر: ٨]».

وهذا الفخر الرازي يرد على النصارى قولهم في إلهية عيسى بأن الإله لا يكون جسماً ولا متحيزاً ولا عرضاً[(١)]. ومعلوم أن هذه الألفاظ لم ترد لا في الكتاب ولا في السنة، ولا في كلام سلف الأمة وأئمتها، بل هي ألفاظ محدثة مبتدعة، فيكون قد رد باطلهم بباطل آخر.

وفي باب الصفات رقى المعتزلة ونحوهم ـ للرد على المشبهة ـ سُلَّم النفي والتعطيل. قال ابن قتيبة (٢٧٦هـ) رحمه الله: «وتعمَّق آخرون في النظر، وزعموا أنهم يريدون تصحيح التوحيد بنفي التشبيه عن الخالق، فأبطلوا الصفات مثل: الحلم والقدرة والجلال والعفو وأشباه ذلك...»[(٢)].

وأراد بعض مثبتة القدر الرد على نفاته، فأنكروا فعل العبد واختياره. والشيعة أرادوا الإنكار على الخوارج الذين كفروا علياً رضي الله عنه فوقعوا في سائر الصحابة ـ عدا آل البيت ـ تكفيراً وتفسيقاً، وقالوا: لا ولاء إلا ببراء.

---

(١) انظر: مناظرة في الرد على النصارى للرازي ص: ٢٢.

(٢) اختلاف اللفظ ص: ٢٣.

وهكذا، فمن لم يعتصم بالكتاب والسنة في مناظراته لم يسلم من مثل هذه البدع.

القاعدة الثانية عشرة
الإنكار لا يعارض بالإنكار

فمن الخطأ معارضة الإنكار بالإنكار في المناظرة؛ مثل أن يقول السائل للمسئول: أنت تقول كذا، أو لِمَ تقول كذا ؟ فيقول المسئول: وأنت أيضاً تقول كذا، أو لأنك أنت - أيضاً - تقول كذا، فيأتيه بمثل ما أنكره عليه، أو أشنع. فهذا كله خطأ فاحش وعار عظيم، واقتداء بالخطأ، وهروب من الإقرار بالحق .

لكن قد يجوز ذلك في موضعين:

أحدهما: أن يكون القول الذي اعترض به المجيب قولاً صحيحاً ينتج ما يقوله هو، فهذا وجه فاضل، وقطع للسائل؛ وذلك كمعتزلي قال لآخر: لم قلت: إن الله (تعالى) خالق الشر؟ فقال: لأنك تقول معي إنه (تعالى) خالق كل شيء، فخلق جميع العالم من جواهره وأعراضه، والشر عرض، فالله (تعالى) خالق الشر، فهذه معارضة صحيحة، إلا أن ظاهر لفظها غير محكم؛ لأنّه في الظاهر إنما جعل علةَ قوله ما يقولُهُ خصمُهُ، فلزمه أنه لولا قول خصمه بذلك لم يقل هو بما قال وهذا خطأ. وإنما الصواب أن يقول: لقيام البرهان على أن الله (تعالى) خالق كل شيء، ومن ذلك الجوهر والعرض، ثم يمضي في مسألته.

والوجه الثاني: هو أن يكون السائل مشغباً يقصد التشنيع والإغراء والتوبيخ، ولا يقصد طلب حقيقة، فهذا واجب أن يكسر غربه، ويردع عيبه بمثل هذا فقط، ولا يناظر بأكثر من ذلك، إذ الغرض كف ضرره فقط، ولا يُكفُّ ضرره بمناظرة صحيحة أصلاً، فلا شيء أكف لضرره مما ذُكر[١].

القاعدة الثالثة عشرة

عدم العلم بالدليل ليس علماً بالعدم

كثير من المتناظرين قد يجعل عمدته في نفي وجود أمر ما، عدم علمه بالدليل على وجوده، والأصل أن عدم العلم ليس علماً بالعدم، وعدم الوجدان ليس نفياً للوجود؛ فكما أن الإثبات يحتاج إلى دليل، فكذلك النفي يحتاج إلى دليل، وإلا فما لم يعلم وجوده بدليل معين، قد يكون معلوماً بأدلة أخرى.

فمثلاً: عدم الدليل العقلي على وجود أمر ما لا يعني عدم وجوده؛ لأنه قد يكون ثابتاً بالدليل السمعي، أو غيره.

فالدليل يجب فيه الطرد لا العكس، بمعنى أنه يلزم من وجوده الوجود، ولا يلزم من عدمه العدم، أي عدم المدلول عليه، قال (تعالى):

(١) انظر : التقريب لحد المنطق ـ ابن حزم ص : ١٩٠-١٩١.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [سورة يونس: ٣٩] فهذا نعي على كل من كذَّب بما قَصُرَ عنه علمه.

فلو قال المجيب : لا أجد فرقاً بين هاتين المسألتين، يمكن للسائل أن يقول: ليس كل ما لم تجده يكون باطلاً.[1]

فمن نفى كثيراً من الغيبيات كالصفات والقدر والملائكة والجن وأحوال البرزخ والمعاد؛ لعدم قيام دليل الحس والمشاهدة، أو دليل العقل ـ كما يزعم النفاة ـ كان غالطاً؛ لأنه أخبر عن نفسه، وعن مبلغه من العلم، ولا يمنع أن يكون غيره قد قام عنده دليل العقل، أو دليل السمع، أو دليل المشاهدة؛ كما وقع ذلك للرسول ﷺ في مشاهدة الملائكة والجن وأحوال البرزخ والمعاد[2].

وقد رد الفخر الرازي على النصارى دعواهم إلهية عيسى عليه السلام لظهور الخوارق على يديه، بأن ذلك يقتضي تجويز إلهية غيره؛ لأن عدم ظهور هذه الخوارق في حق غيره لا يلزم منه عدم إلهية ذلك الغير، بل غاية ما هناك أنه لم يوجد هذا الدليل المعين، وعليه، فيجوز ـ كما هو لازم قولهم ـ حلول الله (تعالى) في كل مخلوق من مخلوقاته، إذ لا دليل

---

(١) شرح الكوكب المنير ص : ٣٧٤.

(٢) انظر : مجموعة تفسير ابن تيمية ص : ٣٥٠-٣٥١، والرد على المنطقيين ص : ١٠٠ ورفع الملام ص : ٧٣.

على اختصاص عيسى عليه السلام بذلك؛ لأنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول[1].

ويستثنى من هذا القاعدة ما إذا كان وجود المدلول عليه مستلزماً لوجود الدليل، وقد علم عدم الدليل، فيقع العلم بعدم المدلول عليه المستلزم لدليله؛ لأن عدم اللازم دليل على عدم الملزوم؛ **مثاله:**

قد ثبت توافر الدواعي على نقل كتاب الله (تعالى) ودينه، فإنه لا يجوز على الأمة كتمان ما يحتاج الناس إلى نقله، فلما لم يُنْقل ما يحتاجون إليه في أمر دينهم نقلاً عاماً، علمنا يقيناً عدم ذلك، نحو سورة زائدة، أو صلاة سادسة ونحو ذلك[2].

وكذلك ما تتوافر الهمم على نقله، يدل عدم نقله على عدم وقوعه كالأمور العظام؛ كموت مَلِك، وتبدل مُلك، وبناء مدينة ظاهرة، وحدوث حادث عظيم في المسجد أو البلد أو نحو ذلك مما يشترك الناس فيه وفي نقله إذا وقع، فإذا لم ينقل نقلاً عاماً بل نقله واحد عُلِم أنه كذب[3].

القاعدة الرابعة عشرة

ليس من شرط الدليل الاستدلال به

فالدليل الدال على المدلول عليه ليس من شرط دلالته استدلال أحد

---

(1) انظر : مناظرة في الرد على النصارى ص : ٢٦-٢٧.

(2) انظر : رفع الملام ص : ٧٣-٧٤.

(3) انظر : النبوات ـ ابن تيمية ص : ١٧٥-١٧٦.

به، بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلاً إلى علم فهو دليل، وإن لم يستدل به أحد. فالآيات التي يجريها الله (تعالى) على يد النبي أدلة وبراهين تدل على الحق؛ سواء استدل بها النبي أو لم يستدل، وما لا يدل إذا لم يُستدل به لا يدل إذا اُستُدِل به، ولا ينقلب ما ليس بدليل دليلاً إذا اسْتَدَلَّ به مدعٍ لدلالته، مثال ذلك:

ما وقع للنبي ﷺ من آيات كتكثير الطعام، ونبع الماء، فهذا دليل، وإن لم يستدل به، أو لم يتحدَّ به فلم يكن يظهرها للاستدلال بها، ولا يتحدى بالإتيان بمثلها، بل لحاجة المسلمين إليها. وكذلك إخبار من تقدم بنبوته فإنه دليل على صدقه ﷺ، وإن كان هو لم يعلم بما أخبروا به، ولا يستدل به.

فآيات الأنبياء ليس من شرطها استدلال النبي بها، ولا تحديه بالإتيان بمثلها، بل هي دليل على نبوته وإن خلت عن هذين القيدين.

وفي المقابل: ما استدل به الكذابون كمسيلمة، والأسود العنسي وغيرهما لا يكون دليلاً وإن استدلوا به، فما لا يكون دليلاً لا ينقلب إلى دليل باستدلال مستدل به.[1]

القاعدة الخامسة عشرة

في لازم المذهب

أولاً: ينبغي أن يعلم أن اللازم من قول الله (تعالى) وقول رسوله ﷺ إذا صح أن يكون لازماً فهو حق، يُثبت ويُحكم به؛ لأن كلام الله

---

(١) انظر : النبوات - ابن تيمية ص: ١٠٦.

ورسوله حق، ولازم الحق حق؛ ولأن الله (تعالى) عالم بما يكون لازماً من كلامه وكلام رسوله، فيكون مراداً[١].

وكذلك قول الإنسان إما أن يكون موافقاً للكتاب والسنة، فيكون حقاً، ولازمه حقاً، وإما أن يكون مخالفاً للكتاب والسنة، فيكون باطلاً ولازمه باطلا[٢].

ثانياً: اللازم من قول العالم له ثلاث حالات:[٣]

الحالة الأولى: أن يذكر له لازم قوله فيلتزمه، مثل: أن يقال لمن يثبت وزن الأعمال في الآخرة: يلزمك القول بجواز وزن الأعراض. فيقول المثبت: نعم ألتزم به، لأن أحوال الآخرة تختلف عن أحوال الدنيا، والله (تعالى) على كل شيء قدير، ثم إنه قد وجد في زماننا هذا موازين للحرارة والبرودة والرطوبة والإضاءة والضغط ونحو ذلك من الأعراض.

وهذا اللازم يجوز إضافته إليه إذا عُلم منه أنه لا يمنعه.

---

(١) انظر : القواعد المثلى ـ العثيمين ص:١١-١٢.

(٢) انظر : القواعد النورانية ـ ابن تيمية ص : ١٢٨ .

(٣) انظر : القواعد النورانية ص : ١٢٨-١٢٩، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٢١٧/٢٠، ٢٨٨/٣٥، وطريق الهجرتين ـ ابن القيم ص : ٢٣٧-٢٣٨ ، والقواعد المثلى ص : ١٢-١٣.

الحالة الثانية: أن يُذكر له لازم قوله، فيمنع التلازم بينه وبين قوله، مثل أن يقول نافي الصفات لمن يثبتها: يلزمك أن يكون الله (تعالى) مشابهاً للخلق في صفاته، فيقول المثبت: لا يلزم ذلك؛ لأننا عندما أضفنا الصفات إلى الخالق سبحانه قطعنا توهم الاشتراك والمشابهة، كما أنك أيها النافي للصفات، تثبت ذاتاً لله (تعالى) وتمنع أن يكون الله مشابهاً للخلق في ذاته، فقل ذلك ـ أيضاً ـ في الصفات إذ لا فرق بينهما.

وهذا اللازم لا يجوز إضافته إليه بعد أن بين هو وجه امتناع التلازم بين قوله وبين ما أضيف إليه.

الحالة الثالثة : أن يكون اللازم مسكوتاً عنه فلا يُذكر بالتزام ولا منع، فهذا حكمه أن لا ينسب إليه؛ لأنه إذا ذُكر له اللازم: فقد يلتزمه، وقد يمنع التلازم، وقد يتبين له وجه الحق فيرجع عن اللازم والملزوم جميعاً.

ولأجل هذه الاحتمالات، فلا ينبغي إضافة اللازم إليه، ولا سيما أن الإنسان بشر وتعتريه حالات نفسية وخارجية توجب له الذهول عن اللازم، فقد يغفل، أو يسهو، أو ينغلق فكره، أو يقول القول في مضايق المناظرات من غير تدبر في لوازمه، ونحو ذلك.

قال ابن تيمية رحمه الله: «ولو كان لازم المذهب مذهباً، للزم تكفير كل من قال عن الاستواء أو غيره من الصفات إنه مجاز ليس

بحقيقة؛ فإن لازم هذا القول يقتضي أن لا يكون شيء من أسمائه أو صفاته حقيقة»[1].

لكن قد تذكر اللوازم الباطلة ـ لا سيما عند المناظرة ـ لإظهار شناعة المذهب الباطل (الملزوم)؛ لأن العاقل إذا نبه إلى ما يلزم قوله من اللوازم الفاسدة قد ينتبه ويرجع عن قوله الباطل.

وهناك فائدة أخرى وهي: حماية السامع من تطرق المذاهب الباطلة إلى نفسه حينما يقف على لوازمها الفاسدة.

لكن أهل البدع ـ لاضطرابهم وتناقضهم ـ قد يفر الواحد منهم من اللازم الحق ليقع في اللازم الباطل، وهو يظن في ذلك السلامة: كالقدري يفر من لازم كون الله يضل من يشاء، فيقع في لازم كونه يقع في ملكه ما لا يشاء. وكذلك منكر الصفات يفر من التشبيه ـ بزعمه ـ فيقع في التعطيل، بل قد يقع في التعطيل التام فلا يعرف إلهاً موجوداً معبوداً !!

القاعدة السادسة عشرة

الاستدلال على المسألة المتنازع فيها إنما يكون بالدليل المتفق عليه

الخصمان إما أن يتفقا على أصل يرجعان إليه أم لا، فإن لم يتفقا على شيء لم تقع بمناظرتهما فائدة، وإذا كانت الدعوى لا بد لها من دليل، وكان الدليل عند أحد الخصمين متنازعاً فيه، ليس عنده بدليل، صار الإتيان به عبثاً لا يفيد فائدة ولا يحصل مقصوداً، إذ المقصود من المناظرة

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/٢١٧.

ردُّ الخصم إلى الصواب بطريق يعرفه، فلا بد من الرجوع إلى دليل يعرفه الخصم السائل معرفة الخصم المستدل:

ولهذا كان الرجوع عند المسلمين إلى الكتاب والسنة، لاتفاقهم عليهما، فقد طلب عبد العزيز المكي ـ عند مناظرته لبشر المريسي ـ من المأمون أن يؤصل هو ومناظره أصلاً يرجعان إليه عند التنازع والاختلاف في شيء من الفروع، إذ التناظر من غير أصل يُرْجَعُ إليه كالسائر على غير الطريق، وصاحبه لا يعرف الطريق فيتبعها، ولا يعرف الموضع الذي يريده فيقصده، وهو لا يدري من أين جاء فيرجع؛ فيطلب الطريق، فهو على ضلال أبداً. قال عبدالعزيز المكي: «فإذا اختلفنا في شيء من الفروع رددناه إلى الأصل إن وجدناه فيه، وإلا رميناه، ولم نلتفت إليه». والأصل الذي يرجع إليه هو ما علَّمه الله (تعالى) لعباده المؤمنين وأدبهم به، واختاره لهم، وهو الرجوع إلى الكتاب والسنة؛ قال (تعالى): ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ الرسول﴾ [سورة النساء: ٥٩][(١)].

أما المرجوع إليه عند التنازع مع غير المسلمين فهو ما يسلم به الكفار من الحق، كما قال (تعالى) ـ في محاجة الكفار ـ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا

---

(١) انظر الحيدة ص: ٢٤-٢٥.

يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٤-٩٠] [(١)].

القاعدة السابعة عشرة

الجمع بين المتماثلات والتفريق بين المختلفات

وهي خاصة العقل الصحيح وصفة الفطرة السليمة، وعليها قامت أحكام الشرع، فالشيء يعطى حكم نظيره، وينفى عنه حكم مخالفه، ولا يجوز العكس بحال: وهو أن يفرق بين متماثلين، أو يجمع بين مختلفين:

قال الله (تعالى) في ذم اليهود: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: ٨٥] وذلك أنهم أغفلوا حكم التوراة في سفك الدماء وإخراج أنفسهم من ديارهم، وأقاموه ـ أي حكم التوراة ـ في مفاداة الأسرى[(٢)] وكان الواجب عليهم إقامته في شأنهم كله.

وقال (تعالى) في شأنهم ـ أيضاً ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [سورة البقرة: ٩١] فكفروا برسالة محمد ﷺ مع ما فيها من التصديق لما معهم من التوراة والإنجيل، والجميع يخرج من مشكاة واحدة؛ فكان الكفر ببعض ذلك كفراً بالجميع وجحداً له[(٣)].

---

(١) انظر: الموافقات ٤/٣٣٥.

(٢) انظر: بدائع الفوائد ـ ابن القيم ٤/١٤٣-١٤٤، وتفسير ابن كثير ١/١١٦.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/١٢٠.

هذا في جانب التفريق بين المتماثلات، أما في جانب الجمع بين المختلفات، فقد قاس اليهود الرب جل جلاله على المخلوق الضعيف القاصر، فوصفوه (تعالى) بصفات المخلوقين، فقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [سورة المائدة: ٦٤] وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [سورة آل عمران: ١٨١] وقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٣٠] وفيه إضافة الولد، بل والصاحبة، إلى الله (تعالى)، وذلك من صفات المخلوقات، ويشركهم في ذلك النصارى القائلون: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٣٠].

فكل من فرَّق بين متماثلين أو جمع بين مختلفين من مبتدعة المسلمين يكون فيه شبه من اليهود والنصارى، وهم إمامه وسلفه في ذلك:

فنفاة الصفات: بعضها أو جميعها، أو الصفات دون الأسماء، أو الصفات والأسماء جميعاً، فرَّقوا بين المتماثلات؛ إذ القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر نفياً وإثباتاً، وكذلك القول في الصفات كالقول في الأسماء، وكذلك القول في الصفات والأسماء فرع عن القول في الذات[1].

وهم ـ أيضاً ـ قد جمعوا بين المختلفات؛ لأنهم لم يعتقدوا التعطيل إلا بعد أن قامت عندهم شبهة التشبيه؛ ولهذا كان كل معطل مشبهاً.

ونفاة القدر فرَّقوا بين المتشابهات والمتماثلات من وجه؛ حيث اعتمدوا النصوص التي تثبت قدرة العبد ومشيئته، وأنكروا النصوص التي

---

(١) انظر في ذلك: الرسالة التدمرية ص: ٢١ وما بعدها.

تثبت قدرة الخالق ومشيئته وخلقه وسابق علمه، وجمعوا بين المختلفات من وجه؛ حيث قاسوا الخالق على المخلوق، وجعلوهما سواء فيما يجوز ويجب ويمتنع. قال ابن قتيبة[1] رحمه الله: «ألا ترى أن أهل القدر حين نظروا في قدر الله الذي هو سره بآرائهم وحملوه على مقاييسهم؛ أرتهم أنفسهم قياساً على ما جُعل في تركيب المخلوق من معرفة العدل من الخلق على الخلق، أن يجعلوا ذلك حَكَمَاً بين الله وبين العبد، فقالوا بالتخلية والإهمال، وجعلوا العباد فاعلين لما لا يشاء وقادرين على ما لا يريد، كأنهم لم يسمعوا بإجماع الناس على: ما يشاء الله كان وما لا يشاء لا يكون».

والوعيدية من الخوارج والمعتزلة فرَّقوا بين نصوص الوعد والوعيد، فآمنوا بنصوص الوعيد دون نصوص الوعد، والجميع يخرج من مشكاة واحدة، وفي المقابل المرجئة آمنوا بنصوص الوعد دون نصوص الوعيد.

والشيعة فرَّقوا بين الصحابة ﷺ، فتولوا آل البيت منهم وعادوا غيرهم، والواجب موالاتهم جميعاً. وجمعوا بين الرسول ﷺ وبين غيره في إثبات العصمة، حيث ساقوها في أئمتهم، والواجب التفريق في ذلك بين الرسل وغيرهم من الناس.

وممن خالف هذه القاعدة ـ أيضاً ـ منْ فرَّق بين الكتاب والسنة، فاعتمد الكتاب دون السنة، وكذلك منْ فرَّق بين نصوص الأحكام فاعتمدها، وبين نصوص العقائد فأعرض عنها بتأويل أو تفويض، أو

(١) اختلاف اللفظ ص:١٢-١٣.

تكذيب إن كانت أحاديث آحاد، وكذلك منْ فـرَّق بـين السنة المتواتـرة وسنة الآحاد في باب العقائد أو الأحكام.

فكل هؤلاء واقعون في التناقض والاضطراب، والواجب عليهم الجمع بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات حتى يسلموا مما هم فيه.

القاعـدة الثامنة عشرة

المعارضة الصحيحة هي التي يمكن طردها

قال (تعالى) : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

فلمّا سوَّى الملحد نفسـه بـا لله (تعـالى) في ادعائـه الإحيـاء والإماتـة، طالبه إبراهيم الخليل بطرد المساواة، وهي أن من حقوق الربوبية التصـرف في الكون، وفي كواكبه وأجرامه، ومن ذلك أن ا لله (تعالى) يُسيِّر الشمس من المشرق إلى المغرب، فإن كنت صادقاً في ادعاء المساواة لله (تعـالى) في الإحياء والإماتة، فاعكس حركة هذه الشمس، واجعلها تسير من المغـرب إلى المشرق : ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨][1] .

وكذلك يقال ـ مثلاً ـ لنفاة بعـض الصفـات بقصـد التنزيـه: اطـردوا حجتكم وانفوا سائر الصفات، بل وسـائر الأسمـاء، حتـى صفـة الوجـود؛ لأن المخلوق يتصف بها، فمن طرد منهم لم يبق عنـد إلـه يعبـد، ولا رب

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢٩٦/١ ، ومختصر الصواعق المرسلة ١٠٩/١.

يصلي له ويسجد، ومن فرق بقي في التناقض، والسعيد من أثبت الصفات جميعاً مع نفي التشبيه والمماثلة بين الخالق والمخلوق في شيء منها.

القاعدة التاسعة عشرة

في مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم الخاص

قد يتكلّم المخالف باصطلاحه الخاص الذي اصطلحه مخالفاً به ما عليه الشرع من الألفاظ؛ فقد يعبر عن المعاني التي أثبتها الشرع بعبارات أخرى ليست فيه، أو أنها فيه لكن جاءت بمعان أخر، بل قد يكون معناها المعروف في لغة العرب التي نزل بها القرآن منتفياً باطلاً نفاه الشرع والعقل.[1] كلفظ التوحيد عند الطوائف المنحرفة:

فالتوحيد عند الفلاسفة يعنون به إثبات الوجود المطلق، مجرداً عن الماهية والصفة.

وعند الاتحادية وأصحاب وحدة الوجود: التوحيد هو أن الرب (تعالى) عين كل موجود.

وعند الجهمية: التوحيد هو إنكار صفة العلو لله (تعالى) والكلام والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات التي ثبتت بالسمع، ودل عليها العقل.

وعند القدرية: التوحيد هو إنكار قدرة الله وعموم مشيئته في الكائنات وقدرته عليها.

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٢٢٣/١.

ويدخل في ذلك ـ أيضاً ـ نحو التكلُّم بالألفاظ المجملة كلفظ الجهة، والحيز والمكان والجسم وغير ذلك.

فيبقى المخاطِب لهم والراد عليهم متردداً بين أمور:

الأول : أن يخاطبهم بغير اصطلاحهم، بل بالألفاظ والمعاني الشرعية، فحينئذ قد يقولون: إنا لا نفهم ما قيل لنا، أو أن المخاطِب لنا والراد علينا لم يفهم قولنا ومرادنا، ويلبسون على الناس ، بأن الذي عنيناه بكلامنا حق معلوم بالعقل أو بالذوق، وأنه موافق للشرع.

الثاني : أن يخاطبهم بلغتهم واصطلاحهم ـ وقد يكون ذلك مخالفاً لألفاظ القرآن في الظاهر ـ فحينئذ قد ينسبون المخاطب لهم إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقاً وباطلاً، وأوهموا الجهال باصطلاحهم الخاص.

الثالث : أن يمتنع عن موافقتهم في التكلم بها نفياً وإثباتاً، بل يستفصل عن مرادهم: فإن أرادوا بهذه الألفاظ حقاً قبل، وإن أرادوا باطلاً رد، وهنا قد ينسبونه إلى العجز والانقطاع.[(١)]

فحينئذ تختلف المصلحة؛ فيختار المخاطب لهم الأسلوب الأمثل في مخاطبتهم والرد عليهم، وذلك بحسب ما يقتضيه المقام.[(٢)]

فإن كانوا في مقام دعوة الناس إلى قولهم وإلزامهم به، أمكن أن يقال لهم: لا يجب على أحد أن يجيب داعياً إلا إلى ما دعا إليه رسول الله

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٢٢٣/١، ٢٢٩.

(٢) انظر : المرجع السابق ٢٢٩/١ وما بعدها .

ﷺ فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه، لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه، ولا له دعوة الناس إلى ذلك.

ومثل هذا فعله شيوخ السنة بين يدي ولاة الأمور في مناظراتهم لرؤوس المعتزلة والجهمية[1].

أما إن كان المخالف معارضاً للشرع بما يذكره، أو كان غير ملتزم بالشريعة: فهؤلاء لا بد في مخاطبتهم من الكلام على المعاني التي يدعونها: إما بألفاظهم، وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم ، وإن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسناً، وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم، فبيان ضلالهم، ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم، أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ:

قال الخطيب البغدادي[2] رحمه الله: «قد يعبر السائل عن المسألة بالاسم الذي تعرف به المسألة، ولا يكون ذلك تسليماً منه للاسم فيها... وقد ورد القرآن بذلك؛ قال (تعالى) مخبراً عن فرعون أنه قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الشعراء: ٢٧] فلم يقل له موسى: قد اعترفت بأني رسول إليهم وادعيت أني مجنون، فلا يقبل ذلك

(١) انظر مثلا : كتاب الحيدة ، والشريعة للآجري ص : ٦٢-٦٤ ، ومناظرة الإمام أحمد. وقد مرَّ ذكرها

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٥٢.

منك، وقد سقط عني قيام الدلالة على رسالتي [بتسليمك][١] أني رسول إليهم».

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك، وكانت المعاني صحيحة، كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة...»[٢].

فمخاطبة أهل الاصطلاح بلغتهم واصطلاحهم يفيد من وجوه:

الأول: أنهم يفهمون الحجة.

الثاني: أن ذلك يكون أبلغ في الرد عليهم، وكسرهم.

الثالث: بيان تمكن أهل الحق من معاني مسائلهم وعرضها بأي أسلوب يقتضيه الموقف.

وقد استعمل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الأسلوب في كثير من مصنفاته التي فيها الرد على أهل الكلام والفلسفة، مثل كتاب درء تعارض العقل والنقل، والرد على المنطقيين، وكذلك رأيتُ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله يصنع ذلك حين يستخدم المنطق في الرد على من يؤمنون به[٣].

---

(١) في الأصل : [بتسميتك] ، ولعل ما أثبته هو الصواب، كما نبه إليه محقق الكتاب .
(٢) درء تعارض العقل والنقل ٤٣/١ .
(٣) انظر : أضواء البيان ١٤٨/٤-١٥٠.

القاعدة العشرون

التوقف عند الإيهام والاستفصال عند الإجمال

إذا أورد المنازع لفظاً مجملاً يحتمل حقاً وباطلاً، لم يكن لنا إثبات اللفظ أو نفيه، بل الواجب التوقف، وليس ذلك لخلوٍّ النقيضين عن الحق، ولا لقصور أو تقصير في بيان الحق، ولكن لأن اللفظ مجمل، والعبارة موهمة مشتملة على الحق والباطل، ففي إثباتها إثبات الحق والباطل، وفي نفيها نفي الحق والباطل، فالواجب الامتناع عن كلا الإطلاقين، ثم الاستفسار عن مراد صاحبها بها، فإن أراد بها حقا قُبِل، وإن أراد بها باطلاً رُدَّ[1].

وبعد اختيار المعنى الصحيح المراد من العبارة الموهمة، يمتنع من إطلاقها، ويركب للمعنى لفظه الشرعي، حتى ينتفي عنه الإيهام والإجمال. مثال ذلك:

لفظ الجهة لله (تعالى)[2]: فلو سأل سائل: هل تثبتون لله (تعالى) الجهة؟

الجواب: لفظ الجهة لم يرد في الكتاب ولا في السنة، لا إثباتاً ولا نفياً، وهو مجمل محتمل، ويغني عنه ما ثبت في الكتاب والسنة من أن الله (تعالى) في السماء. أما الجهة، فقد يراد بها جهة سفل، أو جهة علو تحيط بالله (تعالى)، أو جهة علو لا تحيط به:

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٧٦/١ ومجموعة تفسير ابن تيمية ص : ٣٥٢

(٢) انظر : القواعد المثلى ـ العثيمين ص : ٣١.

أما المعنى الأول فباطل؛ لمنافاته العلو لله (تعالى) الثابت بالكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

وأما الثاني فباطل ـ أيضاً ـ لأن الله (تعالى) أعظم من أن يحيط به شيء من خلقه.

وأما المعنى الثالث: فحق يجب إثباته وقبوله؛ لأن الله (تعالى) هو العلي الأعلى، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

يقول طاش كبرى زاده في أصول المناظرة:[1]

وليُجْتَنَب فيها عن الإطناب ثم عن الإيجاز والخطاب

إلى رفيع القدر والمهابـة وعن كلام شابه الغرابة

ومجمل من غير أن يُفصَّلا كذا تعرضٌ لما لا مدخلا

ولهذا يوجد كثيراً في كلام السلف النهي عن إطلاق النفي أو الإثبات في مثل هذه المواطن:

قال الإمام أحمد[2] رحمه الله: «... فالجواب للجهمي إذا سأل فقال: أخبرونا عن القرآن، هو الله أو غير الله؟ قيل له: وإن الله جل ثناؤه لم يقل في القرآن: إن القرآن أنا ولم يقل: غيري، وقال: هو كلامي، فسميناه باسم سماه الله به، فقلنا: كلام الله، فمن سمى القرآن باسم سماه الله به كان من المهتدين، ومن سماه باسم غيره كان من الضالين».

---

(١) منظومة آداب البحث والمناظرة ضمن مجموع المتون ص : ٤٤٦ .

(٢) الرد على الجهمية ص : ٧٢.

وفي كتاب السنة[1] للخلال: سئل الزبيدي(١٤٦هـ) والأوزاعي (١٥٧هـ) عن الجبر، فقال الزبيدي: «أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن يقضي ويقدر ويخلق عبده على ما أحبه».

وقال الأوزاعي: «ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن ولا السنة، فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء والقدر والخلْق والجبْل، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ».

قال ابن تيمية[2]: «فهذان الجوابان اللذان ذكرهما هذان الإمامان في عصر تابعي التابعين من أحسن الأجوبة... وجواب الأوزاعي أقوم من جواب الزبيدي، لأن الزبيدي نفى الجبر، والأوزاعي منع إطلاقه، إذ هذا اللفظ قد يحتمل معنى صحيحاً، فنفيه قد يقتضي نفي الحق والباطل». وكذلك إثباته يقتضي إثبات الحق والباطل، والصواب الإعراض عنه، أو التفصيل في الجواب.

وأورد الذهبي رحمه الله في كتابه: العلو[3] من كلام أبي بكر محمد ابن الحسن الحصري القيرواني والذي ساق أقوال جماعة من العلماء في مسألة الاستواء، ثم قال: «وهذا هو الصحيح الذي أقول به من غير تحديد

---

(١) ص : ٥٥٥ برقم : ٩٣٢ ، ونقل هذا النص ابن تيمية في درء التعارض ٦٦/١ ، ومجموع الفتاوى ٤٣٠/٥-٤٣١، ١٠٤/٨-١٠٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٦٧/١، ٦٩.

(٣) ص : ١٥٨.

ولا تمكن في مكان ولا كون فيه ولا مماسة». قال الذهبي معلقاً: «سلب هذه الأشياء وإثباتها مداره على النقل، فلو ورد شيء بذلك لنطقنا به، وإلا فالسكوت والكف أشبه بشمائل السلف».

«فإن المناظرة بالألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة المحتملة للحق والباطل إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر، كان كلاهما مخطئاً، وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وفي ذلك من فساد العقل والدين ما لا يعلمه إلا الله، فإذا ردَّ الناس ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة، فالمعاني الصحيحة ثابتة فيهما، والمحق يمكنه بيان ما يقوله من الحق بالكتاب والسنة ولو كان الناس محتاجين في أصول دينهم إلى ما لم يبينه الله ورسوله لم يكن الله قد أكمل للأمة دينهم، ولا أتم عليهم نعمته»[1].

القاعدة الحادية والعشرون

القطع والظن من الأمور النسبية الإضافية

كون العلم ـ أو الدليل ـ بديهياً أو نظرياً، قطعياً أو ظنياً، هو من الأمور النسبية الإضافية التي تختلف باختلاف المدرك المستدل؛ فقد يكون قطعياً عند زيد، ما لا يعرفه غيره إلا بالنظر، ومن اعتقد أن القطع والظن صفة لازمة للدليل بحيث يشترك في ذلك جميع الناس فقد غلط وخالف

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/٢٣٣.

الواقع والحس[١].

وعليه، فمن أنكر بعض الأحاديث بحجة أنها ظنية، فهذا إخبار منه عن حاله، إذ لم يحصل له من الطرق ما يفيده العلم والقطع، ولا يلزم من ذلك النفي النفي العام، حتى يكون غيره من أهل الحديث والسنة لم يحصل له العلم والقطع بمدلول تلك الأحاديث:

فيقال للمنكر: اصرف عنايتك إلى ما جاء به الرسول، واحرص عليه وتتبعه واجمعه، واجعل ذلك غاية طلبك ونهاية قصدك، حتى يحصل لك من العلم اليقيني ما حصل لغيرك، أما مع إعراضك عنه وعن طلبه، فلو قلت: إنه لا يفيدك ظناً فضلاً عن اليقين، كنت صادقاً في الإخبار عن نفسك، وعن حظك ونصيبك منها[٢].

وما يذكره كثير من أهل الكلام من وجوب القطع في المسائل الخبرية والتي قد يسمونها مسائل الأصول، وقد يوجبون القطع فيها على كل أحد، فهذا الإطلاق والتعميم ليس بصحيح، بل هو خطأ مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، بل ما أوجب الله فيه العلم واليقين وجب فيه ذلك، كما في قوله (تعالى) : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٩٨] وقوله (تعالى) : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [سورة محمد: ١٩] وأما ما تنازع فيه الناس من المسائل الدقيقة والتي قد

(١) انظر : الرد على المنطقيين ص : ١٣ ، ومختصر الصواعق ٢/٤٣٢

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ٢/٤٣٢-٤٣٣.

تكون عند كثير منهم، لا يقدر الواحد منهم فيها على دليل يفيد اليقين، لا شرعي ولا غيره، لم يجب على مثل هذا في ذلك ما لا يقدر عليه، وليس عليه أن يترك ما يقدر عليه من اعتقاد قول غالب على ظنه، لعجزه عن تمام اليقين، بل ذلك هو الذي يقدر عليه، ولا سيما إذا كان موافقاً للحق، فالاعتقاد المطابق للحق ينفع صاحبه ويثاب عليه، ويسقط به الفرض، إذا لم يقدر على أكثر منه.

ثم إن هؤلاء المتكلمين من أبعد الناس عما أوجبوه، بل تجدهم يحتجون بما هو أقرب إلى الأغلوطات منه إلى الظنيات فضلاً عن القطعيات، بل تجد الواحد منهم كثيراً ما يقطع بصحة حجة في موضع، ويقطع ببطلانها في موضع آخر، بل منهم من عامة كلامه كذلك[1].

القاعدة الثانية والعشرون

هل على النافي دليل؟[2]

إذا سأل المناظر خصمه عن شيء فأجابه ثم سأله عن دليله، فقال: لا دليل على خلاف ما قلت، فمن ادعى خلافه فعليه الدليل. أو قال: خلاف ما قلت لا يصح، وأنا ناف، وليس على النافي دليل. أو لم يقم دليل على خلاف ما قلت، فمن ادعاه فعليه الدليل.

فهل يكون مَنْ هذا وصفه مقيماً للحجة، يلزم الخصم الكلام عليه؟

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/٥٢-٥٣.

(٢) انظر : الكافية في الجدل ص : ٣٨٦ وما بعدها ، وشرح الكوكب المنير ص : ٤٠٨.

جمهور العلماء على أنه لا يكون مقيماً للحجة، فإن أصرَّ عليه أُعْرِض عن مناظرته. وخالف قوم فقالوا: يكون مقيماً للحجة.

ومن أدلة صحة مذهب الجمهور، وضعف مذهب مخالفيهم:

١- أن يقال للنافي: أنفيت ما نفيت بحجة؟ أم لا بحجة؟ فإن قال: لا بحجة. أُمسك عنه. وإن قال: بحجةٍ نفيتُ، طُولب بإيرادها. ووقع فيما أنكر وناقض نفسه، وخالف مذهبه.

٢- يصح ـ على مذهبهم ـ أن يقول مدعي الرسالة: خلاف ما ادعيت لا يصح، وأنا ناف، وليس علي البرهان. فلا يطالب به. وهو ظاهر الفساد.

٣- أن النافي ينفي ما ينفي ليثبت نقيضه وعكسه، فقد ادعى الإثبات بنفي الحجة، وذلك نقض قوله.

٤- يلزم على مذهبهم أن يكون نافي الخالق والصفات والرسل وتحريم الفواحش غير مطالب بإقامة الدليل، بل يصوَّب في جميعها؛ لأنه أقام الدليل بقوله: أن لا دليل.

٥-قول النافي: لا دليل علي، إما أن يريد به على المسألة دليل، لكن لا يجب عليه إيراده. فإن قال: لا دليل على النفي أصلاً، ولا هو معلوم ضرورة، استحال النفي ووجب الإثبات. وإن قال عليه دليل ولا يلزمني إيراده؛ لأني ناف. قيل له: وعلى إثبات ما نفيت دليل، وليس

يجب إيراده. فلا يجد عنه فصلاً، وسقط في الحال في مناظرته، ومؤونة كلامه بأول وهلة.

القاعدة الثالثة والعشرون

الحجة الصحيحة لا يقدح فيها عجز صاحبها عن تقريرها

قال أبو محمد بن حزم[1] رحمه الله: «والفلج في المناظرة هو ظهور البرهان الحقيقي فقط، وليس انقطاع الخصم فلجاً، فقد ينقطع جهلاً أو خوفاً أو لشغل بال طرقه، وكل ذلك ليس قطعاً للحق إن كان بيده، وليست شهادة الحاضرين بالغلبة لأحدهما شيئاً، إذ قد يكونون موافقين في رأيهم لرأيه الذي شهدوا له، فسبيلهم وسبيله واحد، والإنصاف في الناس قليل. وقد يكونون غير محصلين ما يقولون ولا فهماء بما يسمعون وهذا كثير جداً. وأما من انقطع عن معارضة خصمه عجزاً عن الجواب لا لخوف مانع فهو المغلوب لا قوله، وإن كان ذلك عن حقيقة برهان فهو مغلوب وقوله معاً، ولا يضر ما صح من البرهان عجز معتقده عن نصره، ولا يقوى ما لم يصح ببرهان لتمويه من مموه في نصره بالسفسطة. والبرهان لا يتعارض أبداً، فما صحَّ ببرهان فلا يبطله برهان آخر أبداً، إلا أن يكون مما يستحيل، كبرهان صحَّ بحياة زيد أمس ثم صحَّ آخر بموته اليوم. وهكذا كل ما يمكن تنقله لا ينتقل بشيء مما ذكرنا مما صحَّ ببرهان إلا ببرهان آخر، وإلا فحكم البرهان الأول باق. ولا ينتقل الشيء عن

(١) التقريب لحد المنطق ص : ١٨٨ (بتصرف) .

الإمكان إلى الوجوب إلا ببرهان، ولا ينتقل بعد الوجوب إلى الإمكان إلا ببرهان، والمعاندة والمكابرة عار وإثم وسخف».

وقال رحمه الله [١] في موضع آخر: «إن قصَّر مقصِّر عن إقامة البرهان على حق يعتقده، فذلك لا يضر الحق شيئاً. ولا يفرح بهذا من خصمه إلا الذي يفرح بالأماني، وهو الأحمق المضروب به المثل... ».

القاعدة الرابعة والعشرون

لا يقدح في البرهان العجز عن الإتيان بما لا يكون في المُكنة البشرية

ليس على المرء أكثر من نصر الحق وتبيينه، ثم ليس عليه أن يصور للحواس أو في النفوس ما لا سبيل إلى تصويره، ولا ما لا صورة له أصلاً [٢]، ومن ذلك عناد الكفار حين يطالبون رسلهم بخرق العادة، وإتيانهم بما لا يكون في مقدور البشر، وقد حكى الله (تعالى) ذلك عن مشركي قريش، كما في قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٠-٩٣].

---

(١) التقريب لحد المنطق ص : ١٩٣.

(٢) انظر : المرجع السابق ص : ١٩٢.

قال أبو محمد بن حزم[1] رحمه الله: «ولقد امتحنت مرة ببعض أصدقائنا، فإنه سامنا أن نريه العرض منخزلاً عن الجوهر قائماً بنفسه، وقال لي: إن لم تُرني ذلك، فإني لا أصدق بالعرض. فلست أحصي كم مثَّلْتُ له تربيع الطين ثم تدويره، وذهاب التربيع وبقاء الطين بحسبه، وحركات المرء من قيامه وقعوده، وحمرة الثوب بعد بياضه، فأبى كل ذلك إلا أن أريه العرض مُزالاً عن الجوهر باقياً بحسبه يراه في غير جوهر، فلا أحصي كم قلت له: إن العرض لو قام بنفسه، وكان كما تريد مني لم يكن عرضاً، وإنما هو عرض لأنه بخلاف ما تريد، فَلَجَّ. فعدت إلى أن قلت له مهازلاً: لو أمكنك إخراجي عن كرة العالم، فربما كان يمكن حينئذ لو أمكن انخزال العرض عن الجوهر، ولا سبيل إلى كل ذلك أن تراه في غير جوهر؛ فأما والعالم كله كرة مصمتة وجوهرة متصلة، متجاورة الأجزاء، لا تخلخل فيها ولا خلل، فحتى لو انفصل العرض من جوهر ما، وجاز أن يبقى بعد انفصاله عنه، لما صار إلا في جوهر آخر. فما ردعه هذا الهزء عما هجس في نفسه، وفارقته آبياً، فما أدري أوفق بعدي لرفض هذا المراء الهائج أم لا».

ثم قال رحمه الله: «فليس مثل هذا التكليف الفاسد وكون المرء لا تتشكل له الحقائق بقادح في البرهان، ولا بمُلتَفَتٍ إليه. وكفى من ذلك وحسبنا قيام صحة ذلك في النفس بدلالة العقل على أنه حق فقط، ولو

---

(١) التقريب لحد المنطق ص: ١٩٢-١٩٣.

جاز لكل من لا يتشكل في نفسه شيء أن ينكره لجاز للأخشم أن ينكر الروائح، والذي وُلد أعمى أن ينكر الألوان، ولنا أن ننكر الفيل والزرافة وكل هذا باطل».

القاعدة الخامسة والعشرون

هل الحلف على المسألة يُعَدُّ حجة مستقلة ؟

قد يحتاج المناظر ـ في حال الكلام واشتداد الخاطر إذا وثق بما يقول ـ أن يقول: وا لله إنه لصحيح. فيقول له الخصم: ليس في يدك حجة، وهذا شيء لا يجيء بالأيمان، وخصمك ـ أيضاً ـ يحلف على ضد ما تقول.

وهذا صحيح. إلا أنه يستطيع أن يعتذر عن ذلك بقوله: ما حلفت ليلزمك يميني حجة، ولا أردت ذلك ، ولكن أردت أن أعلمك ثقتي بما أقوله، وسكون نفسي إليه، وتصوري له على حد التصديق. وليس ذلك بمنكر؛ قال (تعالى) :﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [سورة الذاريات: ٢٣] وقال:﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر: ٩٢] ولا يجوز أن يقال: هذا القَسَم من ا لله لا فائدة فيه؛ لأن اليمين في ذلك ـ وإن كان لا يُخصم بها الملحد ـ فإنها تضعف نفسه، وتقوي نفس الموافق. وقد جاء مثله عن علي ابن أبي طالب ﷺ حيث قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي

الأمي ﷺ إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق».[(١)]

يقول ابن القيم رحمه الله: «يجوز للمفتي والمناظر أن يحلف على ثبوت الحكم عنده، وإن لم يكن حلفه موجباً لثبوته عند السائل والمنازع؛ ليُشعر السائلَ والمنازعَ له أنه على ثقة ويقين مما قال له، وأنه غير شاك فيه، فقد تناظر رجلان في مسألة فحلف أحدهما على ما يعتقده، فقال له منازعه: لا يثبت الحكم بحلفك. فقال: إني لم أحلف ليثبت الحكم عندك، ولكن لأعلمك أني على يقين وبصيرة من قولي، وأن شبهتك لا تغير عندي في وجه يقيني بما أنا جازم به.

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يحلف على ثبوت الحق الذي جاء به في ثلاثة مواضع من كتابه:

أحدهما : قوله (تعالى): ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [سورة يونس: ٥٣].

والثاني : قوله (تعالى) :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ [سورة سبإ: ٣].

والثالث : قوله (تعالى) :﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [سورة التغابن: ٧].

---

(١) انظر : الفقيه والمتفقه ٥٤/٢ ، والحديث رواه مسلم في صحيحه ٨٦/١ كتاب الإيمان ـ باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي ﷺ من الإيمان ... ح : ٨٧ ، وانظر : الرياض النضرة في مناقب العشرة مج٢ ص ١٦٦ .

وقد أقسم النبي ﷺ على ما أخبر به من الحق في أكثر من ثمانين موضعاً، وهي موجودة في الصحاح والمسانيد»[١].

القاعدة السادسة والعشرون

الاصطلاحات الحادثة لا تُغيِّر من الحقائق شيئاً

قد يستخدم المبتدعة بعض الألفاظ الحسنة يصفون بها ما هم عليه من العقائد الفاسدة، رجاء قبولها عند ضعفاء الناس وشيوعها بينهم، ويستخدمون في حق منازعيهم من أهل السنة الألفاظ الذميمة والألقاب الشنيعة تنفيراً منهم، وتحقيراً لعلومهم:[٢]

فأهل الكلام يسمون ما عندهم من الكلام عقليات وقطعيات ويقينيات، ويسمون ما عند غيرهم من العلوم: ظواهر وظنيات.

ومحرفوا الكلم عن مواضعه يسمون تحريفهم تأويلاً ليروج ويقبل، ومن المعلوم أن التأويل في استعمال القرآن هو العاقبة التي يؤول إليها الأمر، وفي عرف السلف: تفسير الكلام وشرح معناه.

والمعطلة للصفات يسمون نفي الصفات تنزيهاً وتقديساً وتوحيداً، ويسمون إثباتها: تجسيماً وتشبيهاً وحشواً، ويلقبون مثبتيها بالمجسمة والمشبهة والحشوية.

---

(١) إعلام الموقعين ٤/١٦٥.

(٢) انظر : مختصر الصواعق ١/٨٧-٨٩ ، والغنية لعبد القادر الجيلاني ١/٧١.

والمتصوفة يسمون خيالاتهم الشيطانية: حقائق ومعارف يقينية، وقد يسمونها توحيداً، ويسمون ما عند أهل السنة: ظواهر ورسوماً وعوائق وحجباً. **وكل هذه الاصطلاحات لا ينبغي أن تغيِّر من الحقائق شيئاً.**

القاعدة السابعة والعشرون

في من يبدأ بالكلام؟

إذا تنازع الخصمان الكلام أو التكليم، مثل أن يقول كل واحد منهما : أنا أسأل، أو يقول كل واحد منهما للآخر: أنت السائل. فهذا عجز من كليهما وقلة ثقة، إما بالقدرة على نصر القول الذي يريد بيانه، وإما بصحة القول نفسه، فإن كان من قلة ثقته بقدرته على نصر قوله فليتسع في العلم، ولا يتعرض للمناظرة، حتى يقوى، وهو كالجبان لا يحضر القتال فيوهن طائفته، وأما إن كان من قلة ثقته بصحة قوله، فهذا ملوم جداً في الإقامة على قول لا يثق بصحته. وواجب عليهما بالجملة الاتفاق على أمر يفتتحان به الكلام[1].

طريقة ابن حزم في ابتداء الكلام :

قال أبو محمد رحمه الله: «وأما نحن فطريقنا في ذلك تخيير الخصم أن يكون سائلاً أو مسئولاً، فأيهما تخير أجبناه، فإن رد الخيار إلينا، اخترنا بأن يكون هو السائل؛ لأن هذا العمل هو أكثر قصد الضعفاء، وعمدة

---

(١) انظر : التقريب لحد المنطق ص : ١٨٧.

مرغوبهم، وهم يضعفون إذا سئلوا، فنختار حسم أعذارهم، وتوفيتهم أقصى مطالبهم التي يظنون أنهم فيها أقوى، ليكون ذلك أقوى في قطع معالقهم، ثم إنه إن بدا له في ذلك واختار أن يسأل أجبناه إلى ذلك أيضاً، إذا أننا لا نقضي بذلك على غيرنا؛ لأنه ليس واجباً. فمن تخير أن يكون سائلاً وأذن له خصمه من ذلك فله أن يسأل، وليس له أن يتحكم فيترك ذلك وينتقل إلى أن يكون مسئولاً، فإن فعل فهذا عجز وخرق في حكم المناظرة، ونحن نختار للفاضل أن لا يضايق في ذلك رغبة منا في إظهار الحق، وقلة سرور بالغلبة...

ومن أَذِنَ لخصمه في أن يكون السائل، فواجب عليه في حكم المناظرة أن يجيب، فإن لم يفعل فعن ظلم أو جهل، إلا أن يكون هناك أمير مخوف، يمنع من البوح بالجواب، فلسنا نتكلم مع المخاوف، وإنما المناظرة مع الأمن، إلا من بذل نفسه لله (تعالى) وعرف ما يَطْلُبُ وما يَبْذُلُ من ذلك، فله الفوز إن أراد نصر الإسلام أو الحق...»[١].

القاعدة الثامنة والعشرون

في السؤال والجواب

السؤال على أربعة أضرب، يقابل كل ضرب منها ضرب من الجواب من جهة المسئول:[٢]

---

(١) التقريب لحد المنطق ص : ١٨٧.

(٢) انظر : الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/٤٠ وما بعدها. وهي خمسة في شرح الكوكب المنير ص : ٣٧٤ .

١- السؤال عن المذهب. صورته: ما تقول في كذا. وجوابه من جهة المسئول أن يقول: قولي أو مذهبي كذا.

فإذا سأل سائل عن حكم مطلق، نظر المسئول فيما سأله عنه، فإن كان مذهبه موافقاً لما سأله عنه من غير تفصيل أطلق الجواب عنه. وإن كان عنده فيه تفصيل، كان الخيار بين أن يفصله في جوابه وبين أن يقول للسائل هذا مختلف عندي فمنه كذا، ومنه كذا، فعن أيهما تسأل؟ فإذا ذكر أحدهما أجاب عنه، وإن أطلق الجواب عنه كان مخطئاً. فإذا قال النصراني للمسلم: هل عيسى روح الله؟ قال المسلم: عيسى روح من الله، والروح هنا مخلوقة، خلقها الله بالكلمة، وإضافتها إلى الله إضافة تشريف، لا إضافة الصفة إلى موصوفها، بل إضافتها إليه كإضافة البيت والناقة والرسول، في قولنا: بيت الله، وناقة الله، ورسول الله.

٢- السؤال عن الدليل، وصورته: ما دليلك على هذه المسألة؟ ويكون الجواب من المسئول: دليلي كذا.

فإذا ذكر المسئول الدليل، وكان السائل يعتقد أن ما ذكره ليس بدليل، مثل أن يكون قد احتج بالقياس، والسائل ظاهري لا يقول بالقياس. فقال للمسئول: هذا ليس بدليل. فإن المسئول يقول له: هذا دليل عندي، وأنت بالخيار بين أن تسلمه وبين أن تنقل الكلام إليه فأدل على صحته. فإن قال السائل: لا أسلم لك ما احتججت به ولا أنقل الكلام إلى الأصل، كان متعنتاً مطالباً للمسئول بما لا يجب عليه،

وإنما كان كذلك لأن المسئول لا يلزمه أن يثبت مذهبه إلا بما هو دليل عنده، ومن نازعه في دليله دله على صحته، وقام بنصرته، فإذا فعل ذلك فقد قام بما يجب عليه فيه، وإن عَدَلَ إلى دليل غيره لم يكن منقطعاً؛ لأن ذلك لعجز السائل عن الاعتراض على ما احتج به وقصوره عن القدح فيه.

٣- السؤال عن وجه الدليل، فيبينه المسئول. فإن كان الدليل غامضاً يحتاج إلى بيان طولب بذلك، فإن تجاوزه إلى غيره كان مخطئاً؛ لأنه لا يجوز تسليمه إلا بعد أن ينكشف وجه الدليل من جهة المسئول على ما سأله عنه، وإن كان الدليل ظاهراً جلياً لم يجز هذا السؤال، وكان السائل عنه متعنتاً أو جاهلاً.

٤- السؤال على سبيل الاعتراض عليه والطعن فيه. فيجيب المسئول عنه ويبين بطلان اعتراضه وصحة ماذكره من وجه دليله. والاعتراض يكون بحسب نوع الدليل.

فمن الاعتراضات التي توجه على الدليل من القرآن: المنازعة في كونه محكماً، وفي دلالته على المعنى المطلوب تقريره، وأن يعارضه بغيره سواء من القرآن أو من غيره كالسنة.

ومن الاعتراضات التي توجه على الدليل من السنة: المطالبة بالإسناد، والقدح في صحة الإسناد، والقدح في صحة المتن، وادعاء النسخ، والمعارضة بخبر آخر.

ومن الاعتراضات على الدليل من الإجماع: ادعاء عدم الاتفاق على المسألة.

ومن الاعتراضات على الدليل من المعقول: كونه غير صريح، وكونه ظنياً.

القاعدة التاسعة والعشرون
في أنواع الجواب من قِبَل المسئول

إذا قال السائل لخصمه: ما قولك في كذا؟ فالجواب مفوَّض إلى المسئول يجيب بما يشاء.

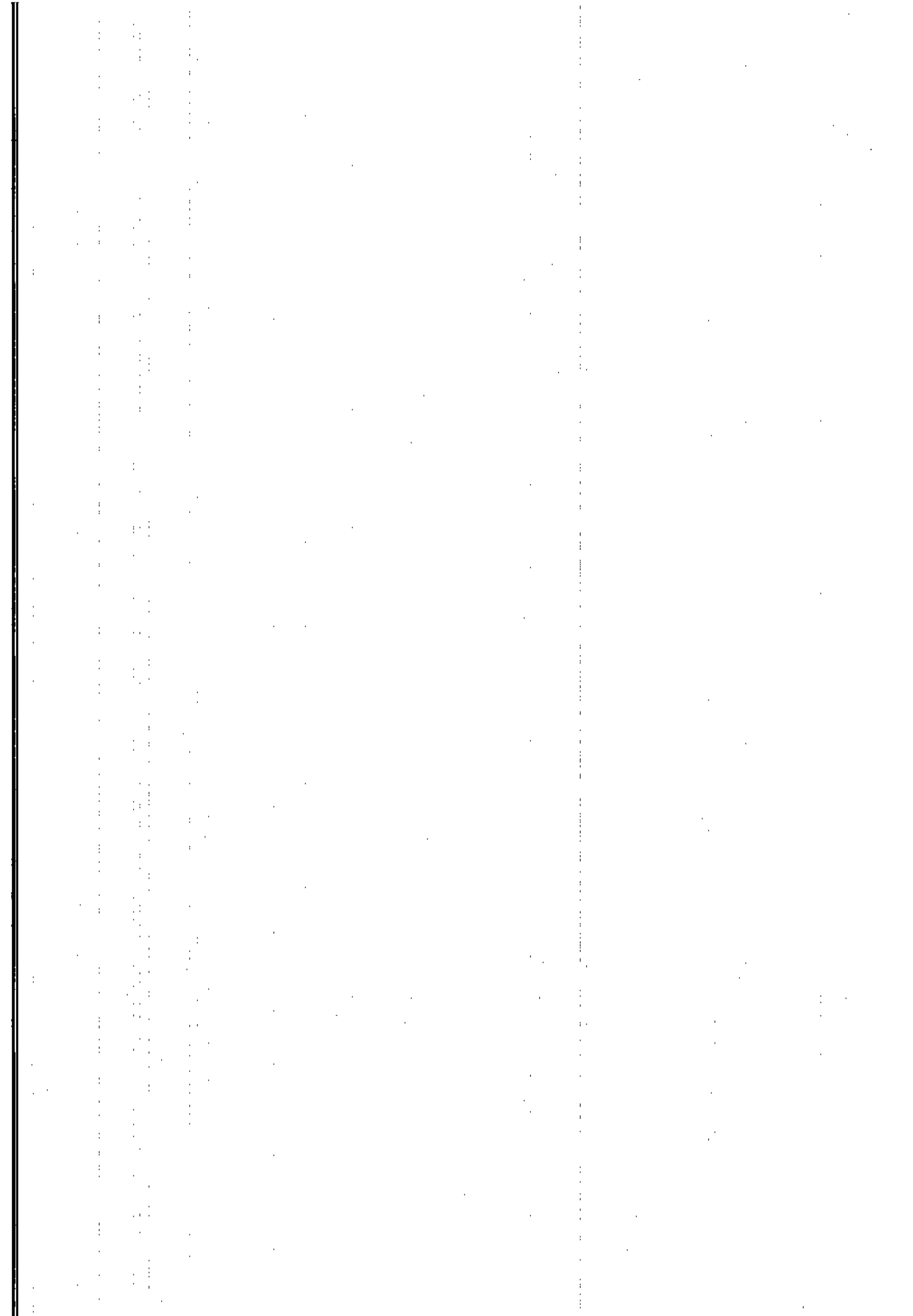
أما إذا قال له: أمر كذا، أحق هو؟ فلا بد بأن يجيب: إما بنعم أو لا، كسائل يسأل فقال: ما تقول في الأرض: كرية أم لا؟ فلا بد له من نعم أو لا، وإن كان لا يعلم، فإنه يقول: لا أدري، فلا يُطالب بما لا علم له به.

وكذلك إذا سأل السائل بتقسيم فقال: ما قولك في كذا وكذا: أكذا وكذا، مثل قوله: ما تقول في الجنة أموجودة هي الآن أم لا؟ فإن كانت الأقسام مستوفاة، فلا بد للمسئول من التزام أحد تلك الأقسام، فإن لم يفعل فهو منقطع بالحقيقة، وإن كانت الأقسام غير مستوفاة فالسائل جاهل أو معاند كأن يقول: ما قولك في الإيمان أهو قول وعمل أم قول واعتقاد؛ لأن ثمة أقسام أخرى، لم تذكر في السؤال.

أما إذا استوفى الخصم الأقسام لكن زاد فيها قسماً فاسداً فليس على صاحبه أن يدع ما هما فيه من المناظرة، ويأخذ في الاحتجاج في بيان

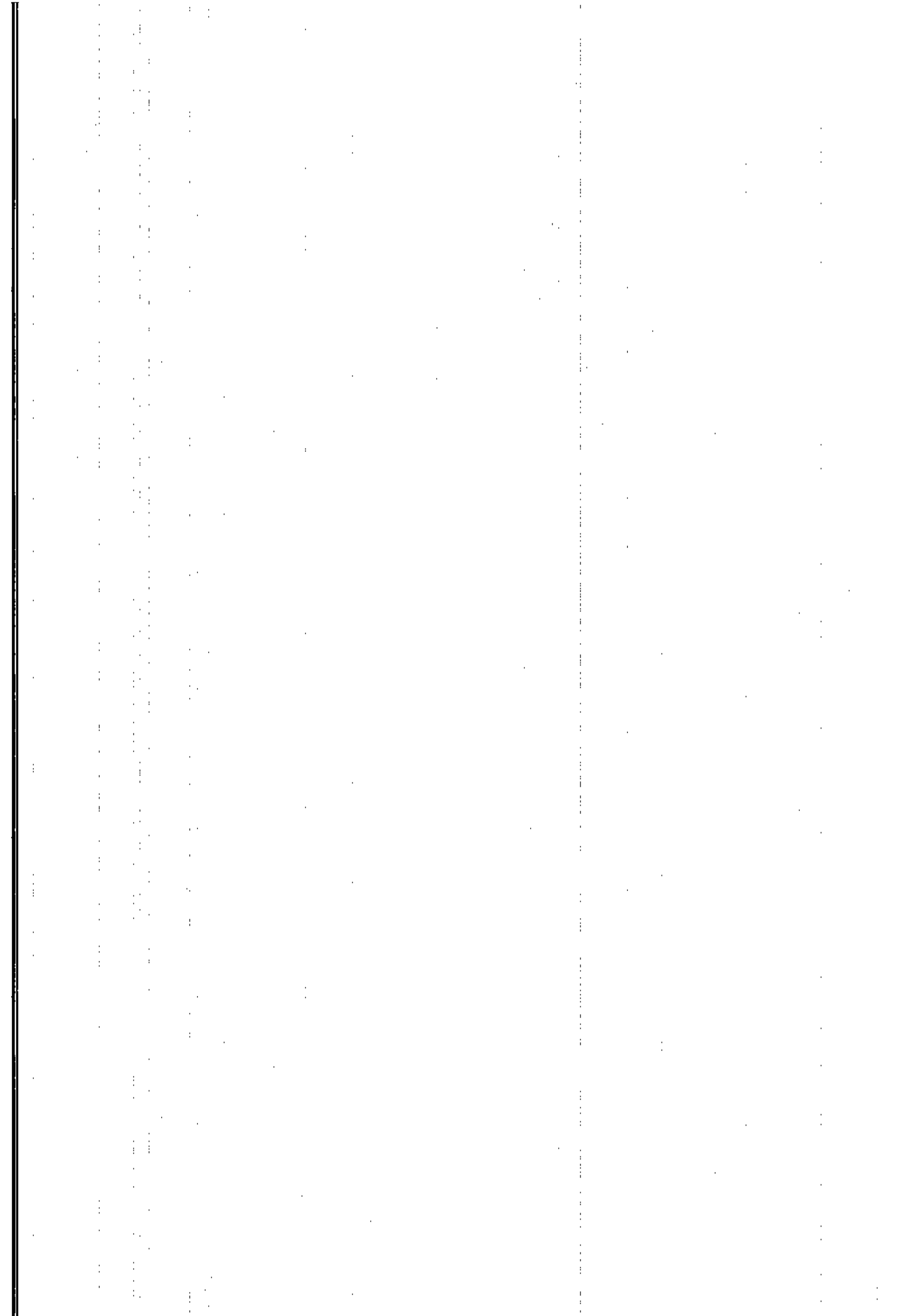
القسم الزائد الذي زاده خصمه، لكن يقول له: زدت قسماً فاسداً وهو كذا، وإنما ذكرته لك لئلا تجور علي، فيكون سكوتي عنه ـ عند من لا ينصف ـ مثل إقراري به، فأستضر بذلك[1].

(١) التقريب لحد المنطق ص: ١٨٨-١٨٩.



الفصل الثاني

آداب الجدل والمناظرة



مـــدخـــل:

هذا الفصل يجمع بعض ما تيسر الوقوف عليه من آداب الجدل والمناظرة، وهي آداب معتبرة شرعاً وعقلاً. والالتزام بها يوفر حالة من الطمأنينة تضمن استمرار المناظرة، وتقود إلى الوصول إلى الحق والقبول له، وانشراح الصدر به.

قال أبو الوليد الباجي رحمه الله بعد أن أورد طرفاً من آداب المناظرة: «ومتى أخذ المناظر نفسه بما وصفناه، وتأدب بما ذكرناه، انتفع بجدله، وبورك له في نظره إن شاء الله عز وجل»[1].

الأدب الأول

إخلاص النية لله (تعالى)

يقول أبو الوليد الباجي رحمه الله: «ينبغي للمناظر أن يقدم على جدله تقوى الله عز وجل، ليزكوَ نظره، ويحمد الله عز وجل، ويصلي على رسوله ﷺ كثيراً؛ لتكثر بركاته وتعظم فوائده، ثم يسأله المعونة والتوفيق لنفسه على طلب الحق وتوفيقه لإدراكه، ويقصد بنظره طلب الحق والوكالة عليه؛ ليدرك مقصوده، ويحوز أجره، ولا يقصد به المباهاة والمفاخرة؛ فيذهب مقصوده، ويكتسب إثمه ووزره»[2].

فالمناظرة لإقامة الحق عبادة، والعبادة لا تقبل إن خلت من الإخلاص،

---

(١) المنهاج في ترتيب الحجاج ص : ١٠.

(٢) المنهاج في ترتيب الحجاج ص : ٩ ، وانظر : الكافية في الجدل للجويني ص : ٥٢٩

وهو إرادة الله (تعالى) بها وطلب ثوابه ومرضاته. قال المزني: «وحق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل»[١]. ذكر الخطيب البغدادي[٢] رحمه الله: أنه ينبغي للمجادل أن يقدم على جداله تقوى الله (تعالى) ... ويخلص النية في جداله بأن يبتغي به وجه الله (تعالى) ... وليكن قصده في نظره إيضاح الحق وتثبيته دون المغالبة للخصم، وذكر عن أبي يوسف أنه قال: يا قوم، أريدوا بعلمكم الله عز وجل، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح.

وجاء في شرح الكوكب المنير[٣] : «ول ما تجب البداءة به : حسن القصد في إظهار الحق طلباً لما عند الله، فإن آنس من نفسه الحيْد عن الغرض الصحيح، فليكفها بجهده فإن ملكها، وإلا فليترك المناظرة في ذلك المجلس».

ومن علامات الإخلاص أن لا يقنع بغفلة خصمه عن دلالة صحيحة لدليل أورده، وقد تنبه هو لها، بل ينبغي أن ينقاد لها، وإن غفل عنها خصمه[٤]. فكل جدل لم يكن الغرض فيه نصرة الحق، فإنه وبال على

---

(١) جامع بيان العلم ١٣٢/٢.

(٢) انظر : الفقيه والمتفقه ٢٥/٢-٢٦ .

(٣) ص: ٣٧٠.

(٤) انظر: التقريب لحد المنطق ص :١٩٣.

صاحبه، والمضرة فيه أكثر من المنفعة[١].

ومن إخلاص النية لله (تعالى) أن لا يعجب بكلامه، ويفتتن بجداله، فإن الإعجاب ضد الصواب، ومنه تقع العصبية، وهو رأس كل بلية. قال مسروق: بحسب امرئ من العلم أن يخشى الله، وبحسب امرئ من الجهل أن يعجب بعلمه[٢].

الأدب الثاني

البدء بذكر الله (تعالى)

تقدم كلام أبي الوليد الباجي رحمه الله فيما ينبغي للمناظر أن يبدأ به من حمد الله (تعالى) والصلاة على رسول الله ﷺ. وجاء في شرح الكوكب المنير[٣]: «ويبدأ كل منهما ـ أي من المتجادلين ـ قبل الشروع في الجدال بحمد الله (تعالى) والثناء عليه ...» وقال ابن عقيل رحمه الله[٤]: «ومن أدب الجدال أن يجعل السائل والمسئول مبدأ كلامهما حمد الله (تعالى)، والثناء عليه، فإن كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر»[٥].

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير ص :٣٧٢ .

(٢) انظر: الفقيه والمتفقه ٢/٣٠.

(٣) ص : ٣٧٢-٣٧٣.

(٤) المرجع السابق .

(٥) رواه أحمد في المسند ٢/٣٥٩ من حديث أبي هريرة ولفظه : كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله تعالى فهو أبتر، أو قال: أقطع ، وصحَّح إسناده أحمد شاكر انظر: =

وقال الجويني رحمه الله: «وإن كان لا يتفق له ذكره باللسان، فيقوله في نفسه سراً »[(١)].

الأدب الثالث

التأدُّب في الجلوس

ينبغي للمناظر أن يستشعر في مجلسه الوقار، ويستعمل الهدي وحسن السمت، وطول الصمت إلا عند الحاجة إلى الكلام. قال عبدالله بن المعتز: «إذا تم العقل نقص الكلام»[(٢)].

وقال أبوالوليد الباجي رحمه الله: «ويتوقر في جلوسه، ولا ينزعج من مكانه فينسب إلى الركة والخرق، ولا يعبث بيده ولحيته، فإن ذلك يَذْهَبُ بالوقار... ويُقبل على خصمه فإنه أحسن في الأدب، ويحسن الاستماع إلى كلامه فإنه ربما بان له في كلامه، ما [دلّه][(٣)] على فساده فيكون له عوناً على نظره...»[(٤)].

=المسند ٢٩٠/١٦ ح : ٨٦٩٧ ، وأورده السيوطي في الجامع الصغير ٢٧٧/٢ بلفظ: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع " ح: ٦٢٨٣ ، وحسّنه، وبلفظ " كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع " ح : ٦٢٨٤ وضعّفه . وبلفظ "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة علي فهو أقطع، أبتر، ممحوق من كل بركة " ح : ٦٢٨٥ وسكت عنه . أما الألباني فقد ضعف جميع روايات السيوطي المتقدمة. انظر: ضعيف الجامع الصغير ١٤٧/٤-١٤٨ ح : ٤٢٢١-٤٢٢٣ .

(١) الكافيه في الجدل ص : ٥٢٩.

(٢) الفقيه والمتفقه ٢٧/٢.

(٣) في الأصل : [ما رآه] ولعل الأصح والأوضح ما أثبته .

(٤) ترتيب الحجاج ص : ٩ .

وعلى كل واحد منهما أن يُقبِل على خصمه الذي يكلمه بوجهه، فإن التفت أو أعرض عنه في الاستماع أو الخطاب وعظه، فإن لم يقبل قطع مناظرته معه؛ لأن ترك الإقبال وحسن الاستماع يشغل قلب المتكلم والمستمع، فتنقطع عليه مادة الفهم والخاطر[1].

الأدب الرابع

اجتناب الهوى

وهو التجرد من حظ النفس، فينبغي للمجادل أن يُغلِّب متابعة الحق على حظ النفس والانتصار لها ولكبريائها، ومن علامات ذلك:[2]

١- عدم التفريق بين أن ينكشف الحق على لسانه أو على لسان خصمه.

٢- أن يكون البحث في الخلوة أحب إليه من أن يكون في الملأ.

يقول الشيخ عبدالرحمن المعلمي (١٣٨٦هـ) رحمه الله مبيناً ما يعانيه المرء من مدافعة الهوى: «فمسالك الهوى أكثر من أن تحصى، وقد جربتُ نفسي أنني ربما أنظر في القضية زاعماً أنه لا هوى لي، فيلوح لي فيها معنى، فأقرره تقريراً يعجبني، ثم يلوح لي ما يخدش في ذاك المعنى، فأجدني أتبرم بذلك الخادش، وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا لأني لما قررت ذاك المعنى

---

(١) انظر : الكافية في الجدل ص : ٥٣٤ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ـ الغزالي ٤٤/١ ، وأيها الولد ـ الغزالي ص :١٣٦ ، وآداب البحث ـ الشنقيطي ـ القسم الثاني ص : ٩١.

أولاً تقريراً أعجبني صرت أهوى صحته، هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكنَّ رجلاً آخر اعترض عليَّ به؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه؟»[١].

ولهذا كان من الهوى عدم الرجوع إلى الحق الذي مع الخصم، أو الضجر من ظهور الحق على لسانه، وربما اجتهد في رده مع علمه أنه الحق، وهذا من أقبح القبيح لأن المناظرة إنما وضعت لبيان الحق. قال الشافعي رحمه الله: «ما ناظرت أحداً فأنكر الحجة، إلا سقط من عيني، ولا قبلها إلا هبته»[٢].

ومن الهوى ـ أيضاً ـ أنه إذا رأى المناظر في كلامه ضعفاً يوجب قهر خصمه له خرج إلى المكابرة، فإن رأى خصمه قد ظهر عليه، صار إلى السب والطعن والفخر ونحو ذلك[٣].

ومن الهوى ما ذكره ابن قتيبة[٤] رحمه الله وهو يصنّف الناس تجاه قبول الحق بقوله: «وسيوافق قولي هذا من الناس ثلاثة: رجلاً منقاداً سمع قوماً يقولون، فقال كما قالوا فهو لا يرعوي، ولا يرجع؛ لأنه لم يعتقد

---

(١) التنكليل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ٢/١٩٧-١٩٨.

(٢) انظر : تلبيس إبليس ص : ١٤٧.

(٣) انظر : المرجع السابق ص : ١٤٧.

(٤) اختلاف اللفظ ص : ١٢.

الأمر بنظر فيرجع عنه بنظر، ورجلاً تطمح به عزة الرياسة، وطاعة الإخوان، وحب الشهرة، فليس يرد عزته ولا يثني عنانه إلا الذي خلقه إن شاء؛ لأن في رجوعه إقراره بالغلط، واعترافه بالجهل، وتأبى عليه الأنفة، وفي ذلك - أيضاً - تشتت جمع، وانقطاع نظام، واختلاف إخوان عقدتهم له النحلة، والنفوس لا تطيب بذلك، إلا من عصمه الله ونجاه. ورجلاً مسترشداً يريد الله بعلمه لا تأخذه فيه لومه لائم، ولا تدخله من مفارق وحشة، ولا تلفته عن الحق أنفة، فإلى هذا بالقول قصدنا، وإياه أردنا».

ولقد ضرب لنا سلفنا الصالح أمثلة مشرقة في مدافعة الهوى، والتجرد من حظ النفس، فمن ذلك:

١- ما ساقه أبو عمر بن عبد البر بسنده إلى محمد بن كعب القرظي قال: سأل رجل علياً عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا فقال ﷺ: أصبتَ وأخطأتُ: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٧٦][1].

٢- وروى سفيان بن عيينة عن ابن أبي حسين قال: «اختلف ابن عباس وزيد في الحائض تنفر، فقال زيد: لا تنفر حتى يكون آخر عهدها الطواف بالبيت. فقال ابن عباس لزيد: سل نُسَيَّاتك؛ أم سليمان وصويحباتها، فذهب زيد فسألهن، ثم جاء وهو يضحك. فقال: القول ما قلت»[2].

---

(١) جامع بيان العلم ١/١٥٩.

(٢) جامع بيان العلم ١/١٥٩-١٦٠.

٣- وروي أن أبا حنيفة نهى ابنه حماداً عن الكلام، فقال: «رأيتك وأنت تتكلم، فما بالك تنهاني؟ فقال: يا بني، كنا نتكلم وكل واحد منا كأن الطير على رأسه؛ مخافة أن يزل صاحبه، وأنتم اليوم تتكلمون؛ كل واحد يريد أن يزل صاحبه، ومن أراد أن يزل صاحبه فكأنه أراد أن يكفر، ومن أراد أن يكفر صاحبه، فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه»(١).

٤- واشتهر عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله: «ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة، وما ناظرت أحداً ما فأحببت أن يخطئ».(٢) وقال ـ أيضاً ـ: «وددت أن كل علم أعلمه تعلَّمه الناس، أُؤجر عليه ولا يحمدوني»(٣).

الأدب الخامس
الرجوع إلى الحق متى ما تبيَّن

واجب على كل مسلم أن يرجع إلى الحق، وينقاد له، ويلتزم به، ويفرح به، بل هذا من لوازم الإيمان؛ قال (تعالى): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[سورة النساء: ٦٥].

---

(١) مفتاح السعادة ٢/١٥٣-١٥٤.

(٢) مناقب الشافعي ـ لابن أبي حاتم ص : ٩٢-٩٣ ، والإبانة ــ ابن بطة ٢/٥٤٧-٥٤٨ برقم : ٦٩٠، والفقيه والمتفقه ٢/٢٦-٢٧.

(٣) مناقب الشافعي ـ ابن أبي حاتم ص :٩١-٩٢ ، والإبانة ٢/٥٤٧ برقم: ٦٨٩.

وقد ذم الله (تعالى) الذين يجادلون في الحق بعدما تبين ووضح؛ قال (تعالى): ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٦]. قال الحافظ أبوبكر الخطيب البغدادي رحمه الله: «فينبغي لمن لزمته الحجة، ووضحت له الدلالة أن ينقاد لها، ويصير إلى موجَباتها؛ لأن المقصود من النظر والجدل طلب الحق واتباع تكاليف الشرع؛ قال الله (تعالى): ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: ١٨] »[1].

وأمثلة هذا الأدب من حياة سلفنا الصالح أكثر من أن تحصى، وهي معروفة مشهورة ـ فهو من لوازم مجانبة الهوى المتقدم ذكره ـ وقد مرت طائفة منها في المبحث المتعلق بنشأة الجدل عند المسلمين، وكيف أن الخلاف كان يرتفع عن الصحابة بمجرد سوق الدليل وظهوره وبيان الحق فيه. وروى الخطيب البغدادي بسنده عن عبد الواحد بن زياد (١٧٧ أو ١٧٩هـ) قال: قلت لزفر (١٥٨هـ): صرتم حديثاً في الناس وضُحْكَة. قال: وما ذاك؟ قلت: تقولون في الأشياء كلها: ادرؤوا الحدود بالشبهات، ادرؤوا الحدود بالشبهات، فصرتم إلى أعظم الحدود، فقلتم: يقام بالشبهات. قال: وما ذاك؟ قلت: قال رسول الله ﷺ: لا يقتل مؤمن بكافر[2]، وقلتم يقتل به، قال: إني أشهدك أني قد رجعت عنه الساعة. قال الحافظ البغدادي: كان زفر بن الهذيل من أفاضل أصحاب أبي

---

(١) الفقيه والمتفقه ٢/٥٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ١٢/٢٦٠ (فتح الباري) كتاب الديات ـ باب لا يقتل المسلم بالكافر ح : ٦٩١٥ .

حنيفة، فلما حاجَّه عبدالواحد في مناظرته، وفَتَّ في عَضُدِه بحجته، أشهده على رجعته، خيفة من مدع يدعي ثباته على قوله الذي سبق منه بعد أن تبين له أنه زلة وخطأ، فكذلك يجب على كل من احْتُج عليه بالحق أن يقبله، ويُسلّم له، ولا يحمله اللجاج والمراء على التقحم في الباطل مع علمه به، ثم ذكر عن المأمون قوله: إذا وضحت الحجة ثقل على الأسماع استماع المنازعة فيها[1].

الأدب السادس

التحلي بالحلم والصبر

إذ المجادلة مظنة المشاحنة، وتحريك النفوس بالبغضاء، فتتفلت الألفاظ بالأذى والإيذاء، قال (تعالى): ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٣]، وقال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»[2].

وقال عطاء بن يسار (١٠٣هـ): «لم يأو شيء إلى شيء أزين من حِلْم إلى عِلْم»[3].

وقال محمد بن عجلان (١٤٨هـ) وإبراهيم بن أدهم (١٦٢هـ): «ما من شيء أشد على الشيطان من عالم حليم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: انظروا إليه، كلامه أشدُّ عليَّ من

---

(١) انظر : الفقيه والمتفقه ٢/٥٧-٥٨.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) جامع بيان العلم ١/١٥٢.

سكوته»[١].

وفي شرح الكوكب المنير[٢]: «وقدِّر في نفسك الصبر و[الحلم][٣] لئلا تستفزك لفتات الإغضاب، فلو لم يكن في الحلم خاصة تجتلب، لكانت معونة على المناظرة توجب إضافته إليها».

ومن الحلم أنه إذا أخطأ أحدهما وأراد الإقالة، فعلى خصمه أن يقيله، لأن المرء ليس قوله جزءاً منه، لكنه واجب عليه ترك الخطأ إذا عرف أنه خطأ فالمانع من الإقالة ظالم مشغب جاهل[٤].

ومن الحلم أنه إذا بدرت من خصمه في جداله كلمة كرهها أغضى عليها، ولم يقابله بمثلها؛ فإن الله (تعالى) يقول: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٩٦].[٥]

الأدب السابع

التريث

وهو أن يمهل المناظر خصمه، ويفسح له حتى يُتمَّ كلامه، ويُبيِّن حجته، ويورد أدلته، ولا يقطع عليه شيئاً من ذلك[٦].

---

(١) جامع بيان العلم ١/١٥٢.

(٢) ص: ٣٧٨.

(٣) في الأصل: [الحكم]، ولعل الصواب ما أثبته.

(٤) انظر: التقريب لحد المنطق ص: ١٨٦.

(٥) انظر: الفقيه والمتفقه ٢/٢٧.

(٦) انظر: التقريب لحد المنطق ص: ١٨٦، والكافية في الجدل ص: ٥٣٣، وآداب البحث ـ الشنقيطي القسم الثاني ص: ٩١.

يقول الجويني رحمه الله: «وعليهما جميعاً أن يصبر كل واحد منهما لصاحبه في نوبته، وإن كان ما يسمعه منه شبه الوساوس؛ لأنهما متساويان في حق المناوبة، فمن لم يصبر منهما لصاحبه، فقد قطع عليه حقه.

ولأن ما يظنه السامع وسواساً ربما يكون هو موضع الالتباس والشبهة عنده، فلا بد من الصبر على سماعه ليصير عنده معلوم الأول والآخر، ثم يتكلم فيه بعده على حقه ...»[(1)].

فإذا وقع له في أول كلام خصمه، فلا يعجل بالحكم به، فربما كان في آخره ما يبين أن الغرض بخلاف الواقع له، فينبغي له أن يتريث إلى أن ينقضي الكلام، وبهذا أدَّب الله (تعالى) نبيه ﷺ في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤]... فلا يعجل إلى جواب، ولا يهجم على سؤال، ويحفظ لسانه من إطلاقه بما لا يعلم، ومن مناظرته فيما لا يفهمه، فربما أخرجه ذلك إلى الخجل والانقطاع، فكان فيه نقصه وسقوط منزلته عند من كان ينظر إليه بعين العلم والفضل، ويجدره بالمعرفة والعقل، والعرب تقول: عيي صامت خير من غبي ناطق[(2)].

---

(١) الكافية في الجدل ص: ٥٣٣ .

(٢) انظر: الفقيه والمتفقه ٢/٣١.

وفي التريث فائدة للسائل والمجيب على السواء[1]: أما السائل: فربما يخطئ بالاستعجال فيظهر جهله، وقد يذكر المجيب بعد إقامة دليله ما يظهر به ما خفي على السائل، فيكفيه مؤونة البحث.

وأما المجيب: فربما غيَّر دليله الذي استدل به، أو زاد عليه بما يدفع به الاعتراض، أو يحذف منه ما يوجب الخلل، أو يستدل على مقدمة نظرية، أو ينبه على مسألة خفية فيسلم من مناقشة خصمه والاعتراض عليه.

الأدب الثامن

التزام الصدق

فلا تحملنه شدة المقام والرغبة في الغلبة، والظهور على خصمه على الكذب؛ فإن الكذب مذموم في كل حال ـ إلا ما استثناه الشارع كما في الحرب والإصلاح بين الناس ـ فإذا كان الكذب مطية لضياع الحق، ونصرة الباطل فهو أشد؛ لأن فساده يتعدى إلى أديان الناس وعقائدهم.

ولهذا إذا سئل المناظر عن شيء لا يعلمه، فليقل: لا أعلم. وليتأدب بالهدي القرآني حيث يقول الله (تعالى): ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٦]، وليكن له في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة؛ فكم من مرة يُسأل فيها رسول الله ﷺ عن شيء لا يعرفه، فلا يتقدم بالجواب حتى يأتيه به الوحي من ربه، وقد مرَّ بنا شيء من هذا في الفصل الخاص بالجدل في السنة.

---

(١) انظر: رسالة في آداب البحث ـ مكي ص: ١٧٠.

وقال أبو الوليد الباجي رحمه الله: «ولا يتكلم على ما لم يقع له العلم به من جهته...»[1].

ومن الصدق أن يتجنب التقوُّل على خصمه بما لم يقله[2].

الأدب التاسع

الترفق بالخصم

وذلك بمساعدته على الوصول إلى الحق، وذلك بتجنب ما ينفره ويصده عن قبول الحق متى ما تبيَّن له؛ يقول سيد قطب رحمه الله عند تفسير قوله (تعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]: «...وبالجدل بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له، وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف

---

(١) المنهاج في ترتيب الحجاج ص : ١٠.

(٢) انظر : التقريب لحد المنطق ص : ١٩٦.

الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته، ونصرة رأيه، وهزيمة الرأي الآخر»[١].

وجاء في شرح الكوكب المنير[٢]: «وإن زل خصمه فليوقفه على زلله، غير مخجل له بالتشنيع عليه، فإن أصر أمسك، إلا أن يكون ذلك الزلل مما يحاذر استقراره عند السامعين، فينبهه على الصواب فيه بألطف الوجوه جمعاً بين المصلحتين».

وهذا الإمام الجويني يطلب من المناظر الترفق بخصمه كما في قوله: «تُعاملُ المبتدئَ المسترشدَ الذي قصده التبيين، والتعرف للحق، حتى لا تدع من التلطف والتساهل والكشف والبيان والتقريب شيئاً إلا وتأتي به؛ لأنه كلما بالغت في المساهلة معه ازداد طمعاً في تفهم الحق، وازداد حرصاً ومواظبة عليه، إلى أن يوفقه الله سبحانه للهداية»[٣].

ومن الترفق بالخصم أنه إذا أخطأ وأراد الإقالة وجب على صاحبه أن يقيله؛ لأن المرء ليس قوله جزءاً منه، لكنه واجب عليه ترك الخطأ إذا عرف أنه خطأ، فالمانع من الإقالة ظالم مشغب جاهل، وكذلك إذا رأى أن حجته فاسدة أو ضعيفة فأراد تركها وأخذ غيرها، فذلك له، وهو محسن في ذلك كله، وليس ذلك انقطاعاً منه، والمانع من ذلك جاهل ضيق الباع من العلم، وذلك قبيح منه جداً[٤].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٠٢/١٤.

(٢) ص: ٣٧٠.

(٣) الكافية في الجدل ص: ٥٣٢.

(٤) انظر: التقريب لحد المنطق ص: ١٨٦-١٨٧.

الأدب العاشر

حسن الاستماع لكلام الخصم

ينبغي أن يكون كل واحد من المتناظرين مقبلاً على صاحبه بوجهه في حال مناظرته، مستمعاً كلامه إلى أن ينهيه؛ فإن ذلك طريق معرفته، والوقوف على حقيقته، وربما كان في كلامه ما يدلُّه على فساده وينبهه على عواره، فيكون ذلك معونة له على جوابه[١].

قال إبراهيم بن الجنيد: قال حكيم من الحكماء لابنه: «يا بُنيَّ تعلَّم حسن الاستماع كما تعلَّم حسن الكلام؛ فإن حسن الاستماع إمهالك المتكلم حتى يفضي إليك بحديثه، والإقبال بالوجه، والنظر، وترك المشاركة في حديث أنت تعرفه»[٢].

ولو لم يكن لحسن الاستماع فائدة إلا الوقوف على فهم حجة صاحبه لكفت، كيف وقد يدلُّه سماع كلامه على بطلانه كما قال عبد الله بن المعتز (٢٩٦هـ): «ربما دلت الدعوى على بطلانها، والتزيد فيها قبل امتحانها، وكذبت نفسها بلسانها»[٣] فيكفى المناظر مؤونة الرد وتكلف الجواب.

---

(١) انظر : الفقيه والمتفقه ٢/٣٢.

(٢) المرجع السابق ٢/٣٣.

(٣) الفقيه والمتفقه ٢/٣٣.

الأدب الحادي عشر
الإنصـــــــاف

فمن آداب الجدل والمناظرة إنصـاف الخصـم، وممارسـة العـدل معـه، والآيات القرآنية التي تأمر بذلك، أو تشير إليه كثيرة؛ منها:

قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تعلمون﴾[سورة المائدة: ٨]. قـال الحـافظ ابـن كثـير رحمـه الله عنـد تفسـير هــذه الآيـة: «أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العـدل فيهـم، بـل اسـتعملوا العـدل في كـل أحد؛ صديقاً كان أو عدواً»[1].

ومنها قوله (تعالى): ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص: ٤٩-٥٠]. قال أبو محمد بن حــزم رحمه الله: «ولم يأمر الله عز وجـل رسـوله ﷺ أن يقـول ذلـك شـكاً في صدق ما يدعو إليه، ولكن قطعاً لحجتهم، وحسماً لدعواهم، وإلزاماً لهم، مثل ما التزم لهم من رجوعه إلى الأهدى، واتباعه الأمر الأصوب، وإعلاماً لنا أن من لم يأت بحجة على قوله يصير بها أهدى من قول خصمه، ويبين أن الذي يأتي به هو من عند الله عز وجل، فليس صادقاً، وإنما هــو متبـع لهواه...» إلى أن قال رحمــه الله: «ووجدنـاه (تعـالى) قـد علمنـا في هـذه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٠.

الآيات وجوه الإنصاف الذي هو غاية العدل في المناظرة، وهو أنه من أتى ببرهان ظاهر وجب الانصراف إلى قوله»[١].

وروى أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله عن مالك بن أنس رحمه الله قال: لما حجَّ أبو جعفر المنصور دعاني فدخلت عليه، فحدثني، وسألني فأجبته، فقال: إني عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها ـ يعني الموطأ ـ فتنسخ نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، لا يتعدوها إلى غيرها، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث، فإني رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا به، من اختلاف الناس أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردَّهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار كل بلد لأنفسهم، فقال: لعمري، لو طاوعني على ذلك لأمرت به. قال أبو عمر: هذا غاية في الإنصاف لمن فهم»[٢].

أي أن مالكاً رحمه الله أقر لمن خالفه من أهل العلم بما وصل إليهم وأفتوا به، ولم يحمله الخلاف على جحد ما عندهم من العلم والفتيا.

ومن علامات الإنصاف قبول ما يظهره الخصم من الحق والفرح به، وإذاعة ذلك، وإشاعته. قال عبد الرحمن بن مهدي (٢٩٨هـ) رحمه الله: «ذاكرت عبيد الله بن الحسن القاضي بحديث، وهو يومئذ قاض فخالفني

---

(١) الإحكام ١/٢٠.

(٢) انظر: جامع بيان العلم ١/١٦٠.

فيه، فدخلت عليه وعنده الناس سماطَيْن[1]، فقال لي: ذلك الحديث كما قلتَ أنتَ، وأرجعُ أنا صاغراً»[2] وفي رواية قال: «لأن أكون ذنباً في الحق أحب ألي من أن أكون رأساً في الباطل»[3].

وذكر أبو محمد بن حزم رحمه الله قصة في ذلك وقعت له، فقال: «إني ناظرت رجلاً من أصحابنا في مسألة فعلوته فيها لبكوء[4] كان في لسانه، وانفض المجلس على أني ظاهر، فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء، فتطلبتها في بعض الكتب، فوجدت برهاناً صحيحاً يبين بطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس فعرفته بذلك، ثم إني قد علّمتُ على المكان من الكتاب، فقال لي ما تريد؟ فقلت: حملَ هذا الكتاب وعرضَه على فلان، وإعلامه بأنه المحق، وأني كنت المبطل، وأني راجع إلى قوله، فهجم عليه من ذلك أمر مبهت، وقال لي: وتسمح نفسك بهذا؟ فقلت له نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا ما أخرته إلى غد»[5].

وذكر ابن تيمية رحمه الله جماعة من المتكلمين منهم: الباقلاني وابن العربي والجويني وغيرهم ثم قال: «ثم ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام

---

(١) سماطَيْن: أي صفين، فكل صف من الرجال سماط . انظر : لسان العرب ٣٢٥/٧ مادة سمط.
(٢) جامع بيان العلم ١٦١/١.
(٣) تهذيب الكمال ٣٥/١٩ .
(٤) البكوء: الانقطاع، وقلة الكلام خِلقةً. انظر: لسان العرب ٣٤/١-٣٥ مادة بكأ .
(٥) التقريب لحد المنطق ص: ١٩٤.

مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عَرَفَ أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين، وصار الناس بسبب ذلك: منهم من يعظمهم؛ لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم؛ لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها.

وهذا ليس مخصوصاً بهؤلاء، بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين، والله (تعالى) يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات ويتجاوز لهم عن السيئات: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحشر: ١٠].

ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول ﷺ، وأخطأ في بعض ذلك فالله يغفر له خطأه، تحقيقاً للدعاء الذي استجابه الله لنبيه وللمؤمنين حيث قالوا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

ومن اتبع ظنّه وهواه، فأخذ يُشنّع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صواباً بعد اجتهاده، وهو من البدع المخالفة للسنة، فإنه يلزمه

نظير ذلك أو أعظم أو أصغر فيمن يعظمه هو من أصحابه، فَقَلَّ مَنْ يسلم من مثل ذلك في المتأخرين، لكثرة الاشتباه والاضطراب، وبُعْد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة الذي به يحصل الهدى والصواب، ويزول عن القلوب الشك والارتياب...»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله في النونية[٢] ينصح المجادل بالتزام الإنصاف:

وتحلَّ بالإنصاف أفخر حلة زُينت بها الأعطاف والكتفان

الأدب الثاني عشر

إصلاح المنطق وتهذيبه

وذلك بأن يكون كلامه يسيراً جامعاً بليغاً، ففيه التحفظ من الزلل مع الإقلال دون الإكثار، مع ما قد يكون في الإكثار من خفاء الفائدة، وضياع المقصود، ثم إنه يورث الحاضرين الملل[٣].

فلا يطول الكلام بينهما بما لا فائدة فيه، وأن يفضيا إلى الاختصار الذي لا يقصر عن البيان الموعب[٤].

ومن إصلاح المنطق تجنب اللحن في كلامه، والإفصاح عن بيانه، فإن ذلك عون له في مناظرته، ألا ترى إلى استعانة موسى كليم الله بأخيه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢/١٠٢-١٠٣.

(٢) ص : ١٩ .

(٣) انظر : الفقيه والمتفقه ٢/٢٨.

(٤) انظر : التقريب ـ ابن حزم ص :١٨٦.

هارون عليه السلام حيث قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾[سورة طه: ٢٧-٣٠] وقال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾(١) [سورة القصص: ٣٤].

وكذلك لا يرفع صوته عالياً حتى يشق حلقه، ويحمي صدره، فذلك من دواعي الغضب(٢)، ولا يضيف إلى الحجة قوة، بل يورث البلادة، وإن كان يتوهمه جلادة، ويقطع مادة الفهم والخاطر(٣) : يُحكى أن رجلاً من بني هاشم اسمه عبد الصمد تكلم عند المأمون فرفع صوته، فقال له المأمون: لا ترفع صوتك يا عبد الصمد، إن الصواب في الأسدِّ لا الأشدِّ. ولا يخفي صوته إخفاء لا يسمعه الحاضرون، فلا يفيدهم بشيء، بل يكون بين ذلك قواماً(٤).

وينبغي له أن يواظب على مطالعة كتبه عند وحدته، ورياضة نفسه في خلوته، بذكر السؤال والجواب، وحكاية الخطأ والصواب؛ لئلا ينحصر في مجالس النظر إذا رمقته الأبصار. قيل للشافعي: من أقدر الناس على المناظرة؟ فقال: من عوَّد لسانه الركض في ميدان الألفاظ، ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالألحاظ(٥).

ومن إصلاح المنطق ـ أيضاً ـ: أن لا يستدل إلا بدليل قد وقف عليه،

---

(١) انظر : الفقيه والمتفقه ٢٨/٢.
(٢) انظر: الكافية في الجدل ص: ٥٢٩.
(٣) انظر: الكافية في الجدل ص: ٥٢٩ .
(٤) انظر: الفقيه والمتفقه ٢٨/٢، والمنهاج في ترتيب الحجاج ص :٩.
(٥) انظر: الفقيه والمتفقه ٢٩/٢.

وخبره، وامتحنه قبل ذلك، وعرف صحته وسلامته؛ لأنه ربما يستدل بما لم يمعن في تأمله ولا تصحيحه، فيظفر به خصمه ويَبين انقطاعه[١].

ومن إصلاح المنطق: الإيجاز في السؤال والجواب، فيختصر الكلام ما استطاع من غير تقصير، ويبين - إذا احتاج - من غير هذر ولا تكدير[٢].

وسئل الأحنف[٣] عن البلاغة، فقال: ما البلاغة؟ فقال: صواب الكلام واستحكام الحجة، والاستغناء عن الإكثار[٤].

ومن لوازم ذلك أن يتجنب التقعير في الكلام، والوحشي من الألفاظ؛ فإنه مناف للبلاغة، بعيد من الحلاوة[٥].

الأدب الثالث عشر
تجنُّب المماراة

وقد تقدم تعريفها وحكمها، وبينت أنها مذمومة في كل حال إلا ما كان مراء ظاهراً. فالمماري لا يطلب الحق، بل المغالبة ومعارضة الخصم وكسره أبداً وهذا ليس من شيم أهل الحق. ومن صور ذلك: أن كل واحد من الخصمين المماريين لا يريد الرجوع عن مذهبه واعتقاده، بل

(١) انظر: المنهاج في ترتيب الحجاج ص: ١٠.
(٢) انظر : الفقيه والمتفقه ٢/٣٣، ٣٤.
(٣) هكذا أورده الخطيب في كتابه الفقيه، والسائل هو المبرِّد، ولم أعثر ــ بعد البحث والسؤال ــ على رجل بهذا الاسم في معاصري المبرد، ولعله تصحيف في الاسم، كالأخفش مثلاً . والله أعلم .
(٤) انظر: الفقيه والمتفقه ٢/٣٤.
(٥) انظر: المرجع السابق ٢/٣٧.

يريد أن يخطئ صاحبه، ويظهر عليه. ولا يُؤْمَن أن يحتج المناظر بحديث رسول الله ﷺ فيقول له خصمه: هذا حديث ضعيف، أو موضوع يريد المغالبة، ورد قول خصمه واحتجاجه[(١)]، فهذا من المراء الذي نهينا عنه.

قال ميمون بن مهران(١١٧هـ): لا تمار من هو أعلم منك، فإذا فعلت ذلك خزن عنك علمه، ولا تضره شيئاً[(٢)].

وقال الزهري: كان أبو سلمة (٩٤هـ) يماري ابن عباس فحُرم بذلك علماً كثيراً[(٣)]. ولهذا قال أبو سلمة: لو رفقت بابن عباس لاستخرجت منه علماً كثيراً[(٤)].

وقال ابن جريج (١٥٠هـ): لم أستخرج الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به[(٥)].

وفي شرح الكوكب المنير[(٦)]: في المراء غلق باب الفائدة وفي المجادلة للمناصحة فتحه.

ولهذا فالخروج من المراء إنما يكون بالمناصحة، ومن صورها: أن يقول المناظر لخصمه: هذه المسألة قد اختلف فيها من تقدم من الشيوخ،

---

(١) انظر: الشريعة ص: ٦٦، وشرح الكوكب المنير ص: ٣٧١.

(٢) جامع بيان العلم ١/١٥٦.

(٣) جامع بيان العلم ١/١٥٦، وانظر: سير أعلام النبلاء ٤/٢٨٩ .

(٤) جامع بيان العلم ١/١٥٧، وانظر: سير أعلام النبلاء ٤/٢٨٨.

(٥) جامع بيان العلم ١/١٥٦.

(٦) ص: ٣٧١.

فتعال حتى نتناظر فيها مناصحةً لا مغالبةً، فإن يكن الحق فيها معك اتبعتك وتركت قولي، وإن يكن الحق معي اتبعتني وتركت قولك، لا أريد أن تخطئ ولا أغالبك، ولا تريد أن أخطئ ولا تغالبني، فإن جرى الأمر على هذا فهو حسن جميل، وما أعزَّه في الناس[١].

الأدب الرابع عشر

المناظرة المفيدة إنما تكون بين النظراء في العلم

ولهذا قالوا: لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونا متقاربين، أو متساويين في مرتبة واحدة من الدين والفهم والعقل والإنصاف، وإلا فهو مراء ومكابرة[٢].

ومن فوائد ذلك تدريب الـمَلَكَة في النظر والمناظرة؛ قال عمر بن عبد العزيز ومالك (رحمهما الله): ما رأيت أحداً لاحى الرجال إلا أخذ بجوامع الكلم. وقال عمر بن عبد العزيز: رأيت ملاحاة الرجال تلقيحاً لألبابهم. قال يحيى بن مزين: يريد بالملاحاة هنا المخاوضة والمراجعة على وجه التعليم والتفهم والمدارسة[٣].

وذكر صاحب عيون المناظرات[٤]: أنه ينبغي ألا يُناظر إلا أهلَ التقدم في العلوم؛ إذ أن من ناظر من ليس بشيء كان خاسراً على كل تقدير: لأنه إن ظهر لم يظهر على شيء، وإن ظُهِرَ عليه فقد ظُهِرَ عليه لا بشيء.

(١) انظر: الشريعة ص:٦٦.
(٢) انظر : جامع بيان العلم ١٣٢/٢.
(٣) انظر : المرجع السابق ١٣٢/٢.
(٤) ص : ٢٧٩.

وذُكر أن إمام الحرمين أبا المعالي الجويني رحمه الله لما أُسْتُدعي إلى بغداد وقدم عليها للتدريس، خرج أهل العلم إلى لقائه، فابتدروه بالامتحان بمسائل أعدوها له، فلما استشعر منهم ذلك، قال لهم: ما الفرق بين الضحى والضحاء؟[١] فلم يكن فيهم من يعرف ذلك. فقال لهم: إذا كان مقامكم في هذه المسألة هذا فما ظنكم بدقائق العلوم.

وقال الجويني رحمه الله: «وعليك بالمحافظة على قدرك وقدر خصمك، وإنزال كل أحد في وجه كلامك معه: درجته ومنزلته، فتميز بين النظير وبين المسترشد، وبين الأستاذ ومن يصلح لك. ولا تناظر النظير مناظرة المبتدئ والمسترشد، ولا تناظر أستاذينك مناظرة الأكفاء والنظراء، بل تناظر كلاً على حقه، وتحفظ كلاً على رتبته»[٢].

الأدب الخامس عشر

اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية

المفترض في كل متناظرين أنهما طالبا حق، لكن قد يخفى الحق عليهما أو على أحدهما، والخفاء قد يكون سببه خفاء الدليل أو الدلالة، فيختلفان فتقع بينهما المناظرة، وقد تنكشف المناظرة ولا يتفقان على قول واحد، لكنهما مستصحبان للنية الأولى وهي طلب الحق. فهذا الاختلاف لا يقطع حبل المودة بينهما، ولا يعكر على القلوب صفاءها، فضلاً عن التنابذ والتدابر ونحو ذلك.

---

(١) قال السكوني : والضحى فويق ارتفاع النهار، والضحاء إذا امتد النهار وابتدأت شدة حر الشمس. عيون المناظرات ص: ٢٧٩.

(٢) الكافية في الجدل ص : ٥٣١.

ولقد ضرب لنا سلفنا الصالح أمثلة شامخة في هذا الباب، من ذلك:

١- ما قاله يونس الصدفي (٢٦٤هـ) قال: ما رأيت أعقل من الشافعي؛ ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً، وإن لم نتفق في مسألة؟!.[1]

٢- ما رواه ابن عبد البر[2] عن العباس بن عبد العظيم العنبري قال: كنت عند أحمد بن حنبل وجاءه علي بن المديني راكباً على دابة، قال: فتناظرا في الشهادة، وارتفعت أصواتهما حتى خفت أن يقع بينهما جفاء، وكان أحمد يرى الشهادة، وعلي يأبى ويدفع، فلما أراد علي الانصراف، قام أحمد فأخذ بركابه.

٣- وقال الإمام أحمد بن حنبل عن إسحاق بن راهويه: «لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً»[3].

الأدب السادس عشر

تجنب الإساءة إلى الخصم

وذلك بترك مقاطعته، والصياح في وجهه، والحدة عليه ودفعه للضجر، والإخراج له عما هو عليه، واستصغاره واحتقاره، والتشغيب عليه. ونحو ذلك مما يسيء إلى خصمه[4].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ١٦/١٠ .

(٢) جامع بيان العلم: ١٣٠/٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٧٠/١١-٣٧١ .

(٤) انظر : شرح الكوكب المنير ص : ٣٧٧.

قال أبو الوليد الباجي رحمه الله: «ولا يداخله في نوبته، ويصبر له حتى يفرغ من كلامه، فإن المداخلة تذهب بالفائدة، وتدعو إلى الوحشة، ويجتنب إظهار العجب من كلام خصمه، والتشنيع عليه في جداله، فإن ذلك يفعله الضعفاء ومن لا إنصاف عنده»[١].

وفي استصغار الخصم مفسدتان: إحداهما: الإساءة إليه. والثانية: اغترار المناظر له، وعدم تحرزه فيكون ذلك سبباً في ظهور خصمه عليه. يقول أبو محمد بن حزم رحمه الله: «ولا تحقر أحداً حتى تعرف ما عنده، فربما فجأك منه ما لم تحتسب، وليس ذلك إلا من فعل أهل النُّوك[٢] الذين لا يحصِّلون»[٣].

وذكر الخطيب البغدادي أن استصغار الخصم يؤدي إلى ضعف المستصغِر وانقطاعه[٤]. وقال الجويني رحمه الله: «وإياك واستصغار من تناظره والاستهزاء به كائناً ما كان؛ لأن خصمك إن كان ممن المفترض عليك في الدين مناظرتُه فهو نظيرك، ولا يجمل بك إلا مناظرة النظير للنظير، وإن يك من تكلمه غير أهل لأن تناظره كان الواجب ألا تفاتحه بالكلام، فإذا فاتحته ثم استصغرته، واستخففت به لم يجتمع ذهنك، ولا

---

(١) المنهاج في ترتيب الحجاج ص: ١٠.
(٢) النُّوك: بالضم والفتح، الحُمْق. انظر: القاموس المحيط ص: ١٢٣٤ باب الكاف ـ فصل النون
(٣) التقريب لحد المنطق ص: ١٩٦.
(٤) انظر: الفقيه والمتفقه ٢/٣٠، وانظر: أدب البحث ـ الشنقيطي القسم الثاني ص: ٩١

صفاء قريحتك، ولا اشتد خاطرك، فربما يتفق له لشؤم حالك عليك ما لا قِبَل لك به»[١].

ويتحدث ابن بطة رحمه الله عن أهل زمانه في المناظرة، فيقول: «إنهم يناظرون مغالبة لا مناظرة، ومكايدة لا مناصحة، ولربما ظهر من أفعالهم ما قد كثر وانتشر في كثير من البلدان، فمما يظهر من قبيح أفعالهم، وما يبلغ بهم حب الغلبة ونصرة الخطأ أن تحمر وجوههم، وتدر عروقهم، وتنتفخ أوداجهم، ويسيل لعابهم، ويزحف بعضهم إلى بعض، حتى ربما لعن بعضهم بعضاً، وربما بزق بعضهم على بعضهم، وربما مد أحدهم يده إلى لحية صاحبه، ولقد شهدت حلقة بعض المتصدرين في جامع المنصور فتناظر أهل مجلسه بحضرته فأخرجهم غيظ المناظرة، وحمية المخالفة إلى أن قذف بعضهم زوجة صاحبه ووالدته، فحسبك بهذه الحال بشاعة وشناعة على [سفلة][٢] الناس وجهالهم»[٣].

الأدب السابع عشر
تجنب ما يُذْهل العقل ويُشَوِّش الفكر

من ذلك تجنب مجالس الخوف، أو التي لا إنصاف فيها، أو أن يكون المناظر في حال جوع أو عطش ونحو ذلك، مما يذهب العقل ويشغل الخاطر.

---

(١) الكافية في الجدل ص: ٥٣١.

(٢) في الأصل: [سفه] ولعل ما أثبته هو الصواب .

(٣) الإبانة ٢/٥٤٨.

قال ابن عقيل[1] : «فصل: قال العلماء: احذر الكلام في مجالس الخوف؛ فإن الخوف يذهل العقل الذي منه يستمد المناظر حجته، ويستقي منه الرأي في دفع شبهات الخصم، وإنما يذهله ويشغله بطلبه حراسة نفسه، التي هي أهم من مذهبه، ودليل مذهبه، فاجتنب مكالمة من تخاف، فإنها مميتة للخواطر، مانعة من التثبيت، واحذر مكالمة من اشتد بغضك إياه، فإنها داعية إلى الضجر والغضب من قلة ما يكون منه الضجر، والغضب مضيق للصدر، ومضعف لقوى العقل، واحذر المحافل التي لا إنصاف فيها في التسوية بينك وبين خصمك في الإقبال والاستماع، ولا أدب لهم يمنعهم من الشرع إلى الحكم عليك، ومن إظهار العصبية لخصمك».

وقال الجويني رحمه الله: «وإياك والكلام في مجالس الخوف والهيبة؛ فإنك عند ذلك في حراسة الروح على شغل من حراسة المذهب ونصرة الدين»[2].

ومما يشوش الفكر: مكالمة أهل الهيبة والمهابة؛ قال الشنقيطي رحمه الله: «ومنها أن يجتنب المناظرة مع من هو من أهل المهابة العظيمة والاحترام العظيم؛ كيلا تدهشه وتذهله جلالة خصمه عن القيام بحجته كما ينبغي»[3].

---

(١) شرح الكوكب المنير ص : ٣٧٨.

(٢) الكافية في الجدل ص :٥٣٠.

(٣) آدب البحث القسم الثاني ص : ٩١.

وقال ابن حزم رحمه الله: «فلسنا نتكلم مع المخاوف، وإنما المناظرة مع الأمن، إلا من بذل نفسه لله (تعالى) وعرف ما يَطْلُبُ وما يَبْذُل من ذلك، فله الفوز إن أراد نصر الإسلام أو الحق فيما اختلف فيه المسلمون فقط، ولا أرى أن ينزل المسلم العاقل عن نفسه، فلا شيء موجود في وقته من الخلق أعز عليه منها، ولا أوجب حرمة إلا فيما فيه فوزها الأبدي فقط، فالعاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة»[1].

ومما يشوش الفكر ـ أيضاً ـ مكابدة الجوع والعطش ونحوهما؛ قال أبو الوليد الباجي رحمه الله: «ولا يناظر في حال الجوع والعطش، ولا في حال الخوف والغضب، ولا في حال يتغير فيها عن طبعه، ولا يتكلم في مجلس تأخذه فيه هيبة ... لأن ذلك كله يشغل الخاطر ويقطع المادة...»[2].

ومن الأسباب الجالبة للغضب المشوشة للفكر: مجادلة قليل الفهم ضعيف الرأي؛ فمجادلة مثل هذا تبعث على الضجر ـ غالباً ـ إلا أن يكون المجادل له صاحب نفس ثابتة، أو يستطيع كبح جماحها، أو أن يكون مراد خصمه الاسترشاد لا المغالبة والمدافعة، فهذا حري بأن يُعَلَّم ويُرشد، وليس بخصم يجادل وينازع[3].

---

(١) التقريب لحد المنطق ص : ١٨٧.

(٢) المنهاج في ترتيب الحجاج ص: ١٠.

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير ص: ٣٧٨.

وعموماً ينبغي للمجادل أن يقدر في نفسه الصبر والثبات، ويروضها على ذلك لئلا تستفزها لفتات الإغضاب[1]. وقال عبد الله بن المعتز: «شدة الغضب تعثر المنطق، وتقطع مادة الحجة، وتفرق الهم»[2].

الأدب الثامن عشر

تجنُّب الحيل في المناظرة[3]

استعمال الحيل لأجل قطع الخصم محظور، يجب اجتنابه، فهو من دأب أهل الفسوق في المناظرة، ومِنْ عَمَل مَنْ قصده بالمناظرة المماراة، وهو مجانب لطريق أهل الديانة والنصيحة، بعيد عن سلوك سبيل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن عرف من خصمه الاعتماد على الحيل، قطع مكالمته، إلا إذا لم يكن له بد من مناظرته، فعندئذ عليه بالحذر والاحتراز عن السقوط من حيث لا يعلم.

وأذكر هنا مثالاً من أمثلة الحيل وكيفية دفعها:

أن يحتال الخصم على مناظره بالتعمق في العبارات حتى لا يفهم عنه؛ لكثرة ما يكون في كلامه من الغموض والإجمال وغريب اللغة، فإذا أراد المناظر له أن يتكلم على كلامه، أو يحكم شيئاً منه لنقده وبيان فساده، قال الخصم: لم أقله هكذا، و لم أرد ما تحكيه. أو يقول: لم تفهم ما قلت.

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير ص: ٣٧٨.

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٣٦.

(٣) انظر: الكافية في الجدل ص: ٥٤٢-٥٤٣ .

فإذا استعاده أعاده بمثل الأول من الغموض والإجمال حتى أنه يقول في نوبته: لم يفهم كلامي، يري الحاضرين حذاقته وبراعته، وتقصير مناظره في الفهم والتحصيل.

فالوجه في دفع هذه الحيلة، أن لا يُمَكِّنه من التعمق، فإن تعمق استكشفه حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة.

الأدب التاسع عشر
نصب الحاكم بين المتخاصمين

قد يحتاج المتخاصمان إلى نصب حاكم متفق عليه بينهما، يقطع الشجار، غير متهم بشيء من الجهل والهوى والاستكبار، مع أنه قد يقوم الوُدُّ والعدل والتناصف والعقل إذا صفت مواردها عن الأكدار، وأُشرب الخصمان حب هذه الأوصاف، مقام الحاكم العادل الجامع الكامل[1].

وقد كان الولاة والأمراء يحكمون بين المتناظرين ويحفظون عليهم كلامهم، ويرجحون ما تسنده الحجة والبرهان، ويمنعون تشغيب العاجزين عن إقامة الدليل.

الأدب العشرون
استعمال الأمثال والحكم في المناظرة

قد يضطر المناظر ـ أحياناً ـ إلى ضرب الأمثال وسوق الحكم، لا سيما إذا رأى من خصمه عناداً وتشغيباً؛ كأن لا يقصد بالمناظرة طلب الحق، وابتغاء الرشد، أو يقصد التلهي والمباهاة، فإذا أورد المناظر شيئاً من

---

(١) انظر: ترجيح أساليب القرآن ص: ٦٥-٦٦.

الأمثال والحكم، ربما كان أنفع في قطعه أو تهذيبه، وللمناظر أن لا يقابل خصمه بشيء من ذلك، بل يختار السكوت والإعراض عن مناظرته، فكل ذلك خير إن شاء الله (تعالى)[1].

نماذج من الأمثال والحكم[2]:

١- أن يقول المناظر عند إرعاد الخصم وإبراقه، ومدح مذهبه واستحسانه في تعظيم ما يورده من دلائل؛ مثل ما قال الله (تعالى): ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٨].

ومثل قول الراجز[3]:

عند الرهان يُعرف المضمار ويعرف السابق والخوّار

٢- أن يقول عند وهاء ما ادعاه الخصم حجة، مثل قوله (تعالى): ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤١].

أو مثل قوله (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [سورة النور: ٣٩].

---

(١) انظر: الكافية في الجدل ص: ٥٦٠، ٥٦٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ص: ٥٦٠ وما بعدها.

(٣) لم أقف على اسم الراجز في المظان المتوفرة لدي .

٣- إذا رأى خصمه لا يمكنه الإفصاح عما يختلج في صدره من المعاني، قال ما قال الله (تعالى): ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٨].

٤- وإذا رأى نفسه منفرداً بين خصوم كثيرين كلهم يخالفونه، ويريدون كسره، والظهور عليه بكثرتهم، استظهر عليهم بقوله (تعالى): ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

٥- وإذا رأى خصمه يتعاظم بسَمْتِه وحسن لباسه، تمثل بقوله (تعالى): ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الزخرف: ١٨].

٦- وإذا رأى من يعيب كلامه تمثل بقول المتنبي[1]:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الجهل السقيم

٧- وإذا رآه لا ينقاد للحق على الرغم من ظهوره دعاه بقول الله (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾[سورة الزمر: ١٧-١٨].

---

(١) من قصيدة مطلعها :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

شرح ديوان المتنبي ٤/٢٤٦

٨- وإذا رآه يغالب بعد ظهور الحق، أو يستهزئ تمثل بقول الله (تعالى): ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٦].

إلى غير ذلك من الأمثال التي تناسب كل مقام بحسبه.

الأدب الواحد والعشرون

أصناف ينبغي تجنب مناظرتهم

١- جاهل لا يقر بجهله.

٢- مسفسط متعنت.

٣- معتد لا يحب النصفة.

٤- من عادته التسفه في الكلام.

٥- ولا يناظر بحضرة من يشهد لخصمه بالزور، أو عند من إذا وضحت لديه الحجة دفنها، ولم يتمكن من إقامتها، فإنه لا يقدر على نصرة الحق إلا مع الإنصاف، وترك العنت والإجحاف[1].

فإذا بان للمناظر من خصمه شيء من ذلك نهاه عنه بلطف ورفق، فإن التلطف أنفع، والرفق أنجع، فإن لم ينته عن ذلك أعرض عن كلامه، ولم يقابله في أفعاله[2]. وقال (تعالى) في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٣].

---

(١) انظر : الفقيه والمتفقه ٢/٢٧-٢٨.

(٢) انظر : المنهاج في ترتيب الحجاج ص : ١٠.

وقال ابن حزم[١] رحمه الله: «واحذر مكالمة من ليس مذهبه إلا المضادة والمخالفة أو الصياح والمغالبة، فلا تتعنَّ به، ولو أمكنك صرفه عن ضلاله بالوعظ لكان حسناً، فإن لم يكن فبالزجر والقدع[٢]؛ فإن كان ممتنع الجانب فليجتنب كما يجتنب المجنون، فأذاه أكثر من أذى المجانين».

وقال الجويني رحمه الله: «وعليك أن لا تفاتح بالمناظرة من تعلمه متعنتاً؛ لأن كلام المتعنت ومن لا يقصد مرضاة الله في تعرُّف الحق والحقيقة بما تقوله، يورث المباهاة، والضجر، وحزن القلب، وتعدي حدود الله سبحانه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن لم تعلمه كذلك حتى فاتحته بالكلام ثم علمته عليه: وجب عليك الإمساك عن مناظرته، فإن رأيت نصرة دين الله سبحانه في الإمساك عنه، زدت في الحد وبالغت في التحرُّز عنه».[٣]

تذييـــــل:

نظم بعض علماء[٤] البحث والمناظرة ما تقدم ذكره من القواعد والآداب في قصائد لهم، ولعله يكون مناسباً أن أورد في ختام هذه القواعد

---

(١) التقريب لحد المنطق ص : ١٩٦.

(٢) القدع : الكفُّ والمنع . انظر : القاموس المحيط ص : ٩٦٧ باب العين ـ فصل القاف.

(٣) الكافية في الجدل ص : ٥٣٢.

(٤) مثل: الشيخ زين الدين المرصفي في منظومته: آداب البحث والمناظرة، وطاش كبري زاده في منظومته: آداب البحث والمناظرة. انظر: مجموع المتون ص: ٤٤٣-٤٤٦ .

والآداب شيئاً من ذلك، وأجدُ أن ما ضمنه القحطاني[١] نونيتَه[٢] من ذلك أحلى وأعذب، فهو يقول:

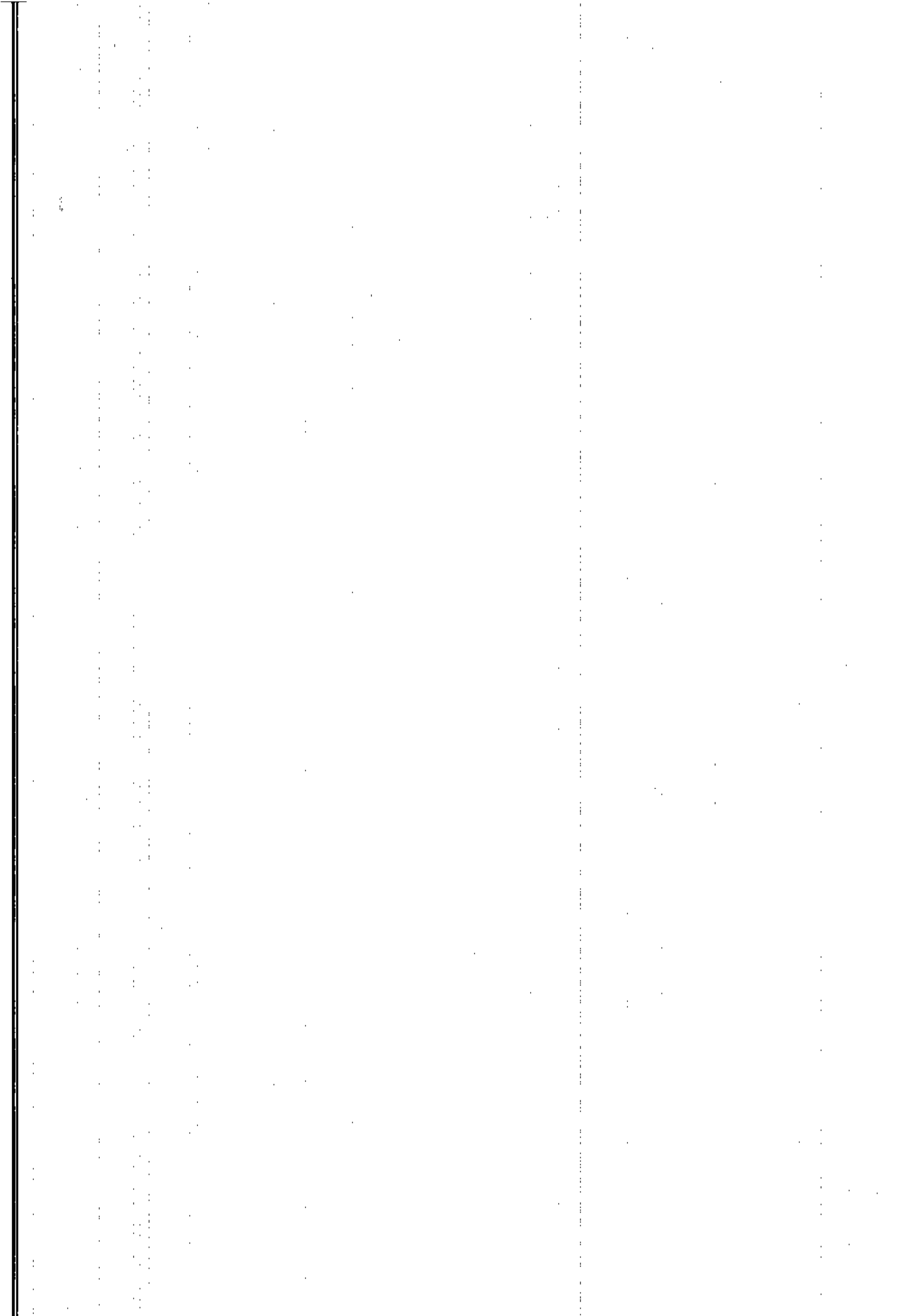
لا تُفن عمرك في الجدال مخاصماً ... إن الجدال يُخِلُّ بالأديان
واحذر مجادلة الرجال فإنها ... تدعو إلى الشحناء والشنآن
وإذا اضطررت إلى الجدال و لم تجد ... لك مهرباً وتلاقتِ الصَّفّان
فاجعل كتاب الله دِرْعاً سابغاً ... والشرعَ سيفك وابدُ في الميدان
والسنة البيضاء دونك جُنَّةً ... واركب جواد العزم في الجولان
واثبت بصبرك تحت ألوية الهُدى ... فالصبر أوثق عُدَّةِ الإنسان
واطعن برمح الحقِّ كل معاند ... لله درُّ الفارس الطعان
واحمل بسيف الصدق حملة مخلص ... متجرد لله غير جبان
واحذر بجهدك مكر خصمك إنه ... كالثعلب البرِّيِّ في الرَّوغان
أصل الجدال من السؤال وفرعُهُ ... حسنُ الجواب بأحسن التبيان
لا تلتفت عند السؤال ولا تُعِد ... لفظ السؤال كلاهما عيبان
وإذا غلبت الخصم لا تهزأ به ... فالعُجب يُخمد جمرة الإحسان
فلربما انهزم المحارب عامداً ... ثم انثنى قسطاً على الفرسان
واستكت إذا وقع الخصوم وقعقعوا ... فلربما ألقوْك في بحران
ولربما ضحك الخصوم لدهشة ... فاثبت ولا تنكل عن البرهان
فإذا أطالوا في الكلام فقل لهم ... إن البلاغة لجمت ببيان

---

(١) هو : أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني، و لم أجد له ترجمة. ونسب بعضهم القصيدة إلى أبي عبد الله، محمد بن صالح القحطاني المعافري الأندلسي المالكي.
انظر : هامش نونية القحطاني ص: ٧-٨.

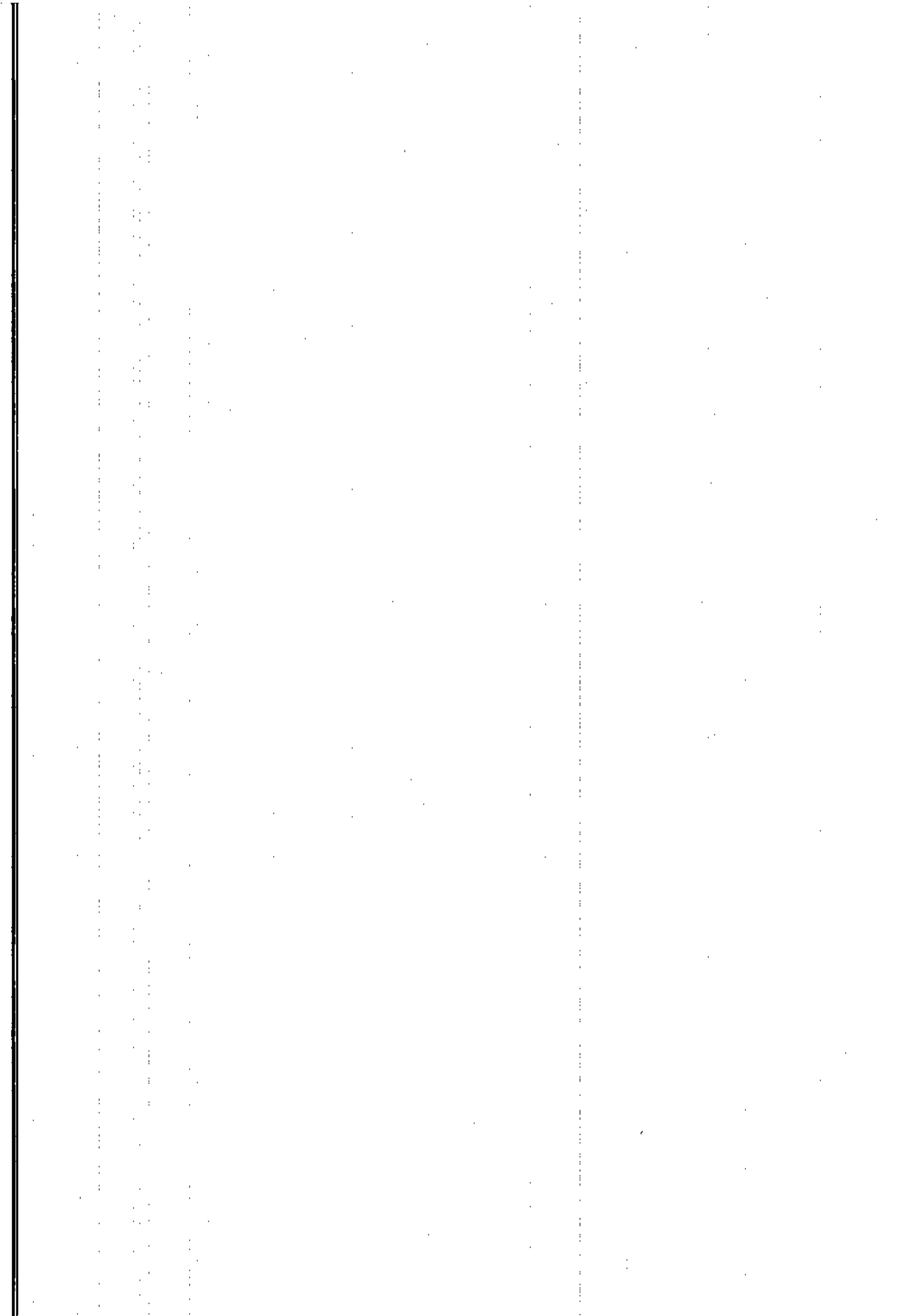
(٢) نونية القحطاني ص : ٣٩-٤٠ .

لا تغضبن إذا سئلت ولا تصـــح فكلاهمـــا خُلُقـــان مذمومـــان
واحـذر مناظـــرة بمجلس خِيفةٍ حتـــى تبـــدل خيفـة بأمـــان
ناظـــر أديبـــاً منصفاً لك عاقـــلاً وانصفـــه أنت بحسْب ما تريـــان
ويكون بينكمـــا حكيم حاكمـــاً عـــدلاً إذا جئتـــاه تحتكمـــان



الفصل الثالث

أحوال الجدل والمناظرة وأحكامها



تنبيـــــــه:

في هـذا الفصـل أذكـر بعـض مـا وقفـت عليـه مـن أحـوال المنـــاظرة وأحكامها، وهي ما يعترض المناظرة من أوضاع أو تنتهي إليـه مـن نتـائج تُعبِّر عن قوة أحد المناظرين أو ضعفه.

الحالة الأولى

الإفحـــام

الإفحام هو علـو المنـاظر للمعلـل (المسئول ـ المجيـب) بالحجـة حتـى يعجـزه فيسـكت، فهـو عجـز المعلّـل، وانقطاعـه كمـا إذا ناقضـه السـائل فكبت[1].

وقال طاش زادة: « أن يعجز المعلل عن إقامة الدليل على [مُدَّعـاه][2] ويسكت، وذلك هو الإفحام »[3].

الحالة الثانية

الإلـــزام

والإلزام هو عجز السائل؛ كأن يمنع الســائل دليـل المعلـل، فيجيبـه المعلل، فيسكت السائل. فذلك إلزام للسائل وهو عجز منه[4].

---

(١) انظر : رسالة آداب البحث ـ مكي ص : ٤٢.

(٢) في الأصل : [المدعاة] ولعل الصحيح ما أثبته، كما نبه إليه المحقق .

(٣) علم البحث والمناظرة ص : ٣٣.

(٤) انظر : رسالة آداب البحث ـ مكي ص : ٤٢.

وقال طاش زاده : « أو يعجز السائل عن التعرض له: بأن ينتهي دليل المعلل إلى مقدمة ضرورية القبول، أو مسلمة عند السائل... وذلك هو الألزام»[(١)] .

الحالة الثالثة

المصادرة

والمصادرة وهي في الأصل مأخوذة من الصدر، وهي : أن يجعل نتيجة الدليل هي إحدى مقدمات الدليل، بتغيير في اللفظ يكون سبباً لتوهم المغايرة بين النتيجة والمقدمة.

مثالها: أن يقال: هذا أسد وكل أسد ليث، ينتج هذا ليث. فهذه النتيجة هي المقدمة الصغرى نفسها التي هي: هذا أسد، إذ لا فرق بين: هذا أسد وهذا ليث؛ لترادف الليث والأسد.

وهذا المصادرة ينبغي تجنبها في المناظرة لما فيها من الإيهام[(٢)] .

الحالة الرابعة

الغصب

جاء في شرح الولدية[(٣)] : «الغصب في عرفهم: استدلال السائل على بطلان ما صح منعه». ومعنى ذلك أن كل ما صح للسائل أن يمنعه ــ أي

(١) علم البحث والمناظرة ص : ٣٣.

(٢) انظر : آداب البحث والمناظرة ــ الشنقيطي ــ القسم الثاني ص : ٨٨ ، ورسالة آداب البحث ـ مكي ص : ٣٨-٣٩.

(٣) ص: ١٠٠.

يطلب من المعلل إقامة الدليل عليه ـ فإن استدلاله على بطلانه من الغصب، فإذا ذكر المعلل دعوى لم يُقم عليها دليلاً، أو مقدمة لم يُقم عليها دليلاً جاز للسائل أن يمنع ذلك، ويطلب الدليل على صحتهما، فإن أقام السائل دليلاً على بطلان واحد منهما قبل أن يقيم المعلل عليه دليلاً فهو غاصب.

فالاستدلال منصب المعلل لا السائل، فإذا أخذه السائل كان غاصباً[1].

والغصب وظيفة غير مقبولة عند جماهير أهل هذا الفن[2]. وهذا يقتضي أن المقدمة التي أقام المعلل عليها دليلاً، أو تنبيهاً إن كانت خفية، أو ادعى ظهورها، إذا استدل السائل على بطلانها لا يعد غصباً[3].

ومع ذلك، فهل يجب على المعلل أن يتعرض لدليل السائل، أو يقتصر على إثبات مقدمته أي مسألته؟ قيل: إنه يخير بين إثبات مقدمته مع التعرض لدليل السائل، وبين الاقتصار على إثبات المقدمة بدون التفات إلى دليل السائل، وهو مقتضى عرف النظار في أن الغصب غير مسموع، أي غير مقبول.

---

(١) انظر: شرح الولدية ص :٩٧ ، وآداب البحث ـ الشنقيطي ـ القسم الثاني ص : ٦٣ ، وضوابط المعرفة ـ حبنكة ص : ٤٦٧ .

(٢) انظر: آداب البحث والمناظرة ـ الشنقيطي ـ القسم الثاني ص : ٦٣.

(٣) انظر: رسالة أدب البحث ـ مكي ص : ١٣٦.

وقيل: بل يلزم المعلل التعرض لدليل السائل مع إثبات مقدمة دليل نفسه، ورجح ذلك الشيخ أحمد مكي بأنه هو الذي ينقدح ويستضيء له الذهن لأنه معارضة لدليل إثبات المقدمة[1].

الحالة الخامسة

المكابرة

المكابرة هي منازعة الخصم لصاحبه مع علمه بفساد كلامه وصحة كلام خصمه[2]. وغرضه من ذلك إظهار الغلبة والفضل لا الصواب والحق: ولهذا قال أحمد مكي في تعريف المكابرة: وهي المنازعة لا لإظهار الصواب، ولا لإلزام الخصم، بل لإسكاته[3].

ومن أمثلة المكابرة:[4]

١- منع البدهيات من الأمور الحسية والضرورات العقلية؛ كقولنا: السماء فوقنا والأرض تحتنا، والواحد نصف الاثنين؛ ونحو ذلك.

٢- منع الأمور المعلومة من الدين بالضرورة كالتوحيد، ووجوب الصلوات، وتحريم الزنا والخمر، ونحو ذلك.

---

(١) انظر: رسالة أدب البحث ـ مكي ص :١٦٠-١٦١.

(٢) انظر: الكليات لأبي البقاء ص :٦٢١.

(٣) انظر: رسالة في أدب البحث ـ مكي ص :٣٩.

(٤) انظر: رسالة آدب البحث ـ مكي ص :٣٩-٤٠ ، وآداب البحث ـ الشنقيطي ـ القسم الثاني ص: ٦٣-٦٤.

٣- منع الدليل الصحيح الذي يستدل به الخصم بغير حجة من المانع.

والمكابرة وظيفة مردودة غير مسموعة، فهي غير مقبولة كما لا يخفى[(١)]. وهي سبيل أهل العجز والإفلاس.

الحالة السادسة

السفسطة

السفسطة هي «اسم المهنة التي بها يقدر الإنسان على المغالطة والتمويه والتلبيس بالقول والإيهام، إما في نفسه أنه ذو حكمة وعلم وفضل، أو في غيره أنه ذو نقص، من غير أن يكون كذلك في الحقيقة، وإما في رأي حق أنه ليس بحق، وفيما ليس بحق أنه حق... وكل من له قدرة على التمويه والمغالطة بالقول في أي شيء كان، سمي بهذا الاسم، وقيل: إنه سوفسطائي»[(٢)].

فالحق إذا وضح وبان لم يبق للمناظرة العلمية ولا العملية محل؛ فإن الأمم كلهم متفقون على أن المناظرة إذا انتهت إلى مقدمات معروفة، بينة بنفسها، ضرورية وجحدها الخصم كان سوفسطائياً، فلا ينبغي أن يناظر بعد ذلك. قال (تعالى) : ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩]، وقال (تعالى) : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [سورة الأنفال: ٦]. فكل من جادل في الحق بعد وضوحه وبيانه فقد غالط شرعاً وعقلاً[(٣)].

(١) انظر : آداب البحث ـ الشنقيطي ـ القسم الثاني ص : ٦٣.

(٢) إحصاء الغلوم ص : ٨١ .

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٧٤/٧ ، والقواعد الحسان للسعدي ص :١٥٨-١٥٩.

ولهذا كان من الأسئلة ما ليس له جواب غير السكوت والانتهاء والكف عن الاسترسال في الكلام أو النظر؛ كما قال النبي ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ با لله ولينته»[(١)]. فإن كل نظر لا بد له من ضرورة يستند إليها، فإذا احتاجت الضرورة إلى استدلال ونظر، أدى ذلك إلى التسلسل الباطل.

والسفسطة تكون عادة في الأمور العقلية، وقد تكون في الحسية ـ أيضاً ـ ونظيرها القرمطة، وهي في الأمور السمعية التي مستندها الشرع، ومعناها: تحريف نصوص الشرع على نحو ما يفعله القرامطة الباطنية، وكلاهما منكر شرعاً وعقلاً، ومصير كل من خالف نصوص الكتاب والسنة أن يسفسط في العقليات، ويقرمط في السمعيات[(٢)].

الحالة السابعة

الحيـــــدة

الحيدة هي جواب السائل بغير ما سأل عنه؛ كأن يقول لك قائل: من أين جئت؟ فتقول له: حضرت الآن. فهذا ليس جوابه.

وسبب الحيدة أن يجد الخصم نفسه بين جوابين لا يرتضيهما خوفاً من لوازمهما، فيذكر جواباً آخر لا تعلق له بالسؤال.

---

(١) صحيح البخاري ٦/٣٣٦ (فتح الباري) كتاب بدء الخلق ـ باب صفة إبليس وجنوده ح: ٣٢٧٦.

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٢/١٥.

قال ابن عقيل[١] : « ينبغي للسائل أن ينظر إلى المعنى المطلوب في السؤال، فإن عدل المجيب لم يرض منه إلا بالرجوع إلى جواب ما سأل عنه. مثاله: أن يقول السائل: هل يحرم النبيذ؟ فيقول المجيب: قد حرمه قوم من العلماء، هذا عند أهل الجدل ليس بجواب، وللسائل أن يضايقه في ذلك بأن يقول : لم أسألك عن هذا، ولا بان من سؤالي إياك جهلي بأن قوماً حرموه، ولا سألتك عن مذهب الناس فيه، بل سألتك أحرام هو؟ فجوابي أن تقول: حرام هو، أو ليس بحرام، أو لا أعلم، فإذا ضايقه ألجأه إلى الجواب، أو بان جهله بتحقيق الجواب، وليس له الجواب إلا بالإفصاح» .

ومن أمثلة الحيدة ما صنعه بشر المريسي مع عبد العزيز المكي رحمه الله حين سأله المكي: هل لله علم؟ فقال بشر: الله لا يجهل[٢] . وذلك أن بشراً قد أدرك أنه إن أجاب بالإثبات، فقد أبطل مذهبه في كون القرآن مخلوقاً؛ لأنه لا يستطيع أن يقول: علم الله مخلوق والقرآن من علم الله. وإن أجاب بالنفي، كان ذلك منه تكذيباً صريحاً لنصوص التنزيل المثبتة لعلم الله (تعالى) ، وذلك كفر وعناد؛ فلهذا حاد عن الجواب، فشهد عليه المأمون بالانقطاع.

وقد سأل المأمون عبد العزيز: هل تجد الحيدة في كتاب الله؟ فقال عبدالعزيز: قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وفي سنة المسلمين، وفي لغة العرب.

---

(١) انظر : شرح الكوكب المنير ص : ٣٧٣.

(٢) انظر : الحيدة ص : ٥٢.

فقال: وأين هي من كتاب الله؟ فقلت: قال الله عز وجل في قصة إبراهيم حين قال لقومه: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [سورة الشعراء: ٧٢-٧٣] وإنما قال لهم إبراهيم هذا ليكذبهم ويعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، فعرفوا ما أراد، وأنهم بين أمرين: إما أن يقولوا: نعم يسمعوننا حين ندعو، وينفعوننا ويضروننا، فيشهد عليهم بلغة قومهم أنهم قد كذبوا، وإما أن يقولوا: لا يسمعوننا حين ندعوا ولا يضروننا، فينفوا عن آلهتهم القدرة، وعلموا أن الحجة لإبراهيم في أي القولين عليهم قائمة، فحادوا عن جوابه، واجتلبوا كلاماً غير الذي سألهم عنه، فقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٧٤]. ولم يكن هذا جواباً لمسألة إبراهيم.

وأما الحيدة في سنة المسلمين فمثالها: ذكر نومة الضحى: يُروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وقد قدم عليه فرآه يكاد يتفقأ شحماً، فقال: يا معاوية ما هذه الشحمة؟ لعلها من نومة الضحى، ورد الخصوم. فقال له معاوية: يا أمير المؤمنين رحمك الله، علمني وفهمني.[1] ولم يكن هذا جواباً لقول عمر. وإنما حاد عن جوابه، لعلمه بما فيه، واجتلب كلاماً غيره، فأجاب به.

فأما الحيدة في اللغة فقول امرئ القيس:[2]

---

(١) انظر خبره في البداية والنهاية ٨/١٢٤ .

(٢) ديوان امرئ القيس ص : ٣٤-٣٥ .

تقول وقد مال الغبيط[1] بنا معا عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزلِ
فقلتُ لها سيري وأرخي زمامه ولا تُبعديني من جناك المعللِ

ولم يكن هذا جواباً لقولها، وإنما حاد عن جوابها، واجتلب كلاماً غيره[2].

الحالة الثامنة

النقض والمناقضة

النقض هو دعوى السائل بطلان دليل المعلل[3].

والنقض أنواع: فهو بحسب ما يضاف إليه؛ فإن أضيف إلى التعريف، كأن يقال: هذا تعريف منقوض، فمعناه إبطاله بكونه غير جامع، أو غير مانع، أو مستلزماً للمحال.

وأما إن أُضيف إلى مقدمة معينة من مقدمات دليل المعلل قُيِّد بالتفصيلي، فيقال: النقض التفصيلي، وقد يسمَّى منعا أو ممانعة أو مناقضة، وهو طلب الدليل على مقدمة دليل المعلل، فكأن السائل يمنع هذه المقدمة المعينة من مقدمات الدليل: إما قبل تمامه أو بعده.

وإن أضيف النقض إلى الدليل فمعناه إبطاله؛ وذلك إما بتخلف المدلول عن الدليل، بمعنى أن الدليل يكون جارياً في غير الدعوى التي

---

(١) الغبيط: ضرب من الرحال، وقيل: بل ضرب من الهوادج. انظر: ديوان امرئ القيس ص: ٣٤ هـ: ٢

(٢) الحيدة ص: ٥٢-٥٤.

(٣) انظر: شرح الولدية ص: ١٢٦، وكليات أبي البقاء ص: ٦٢١-٦٢٢، ورسالة آدب البحث ـ مكي ص: ٣٠ ، وآداب البحث ـ الشنقيطي ـ القسم الثاني ص: ٦٥-٦٦.

أرادها المعلل، أو باستلزامه محالاً كاجتماع النقيضين، أو الدور، أو التسلسل، ويسمى هذا النوع بالنقض الإجمالي.

والنقض لا يُقبل إلا مقترناً بالشاهد، والمراد بالشاهد المذكور: هو الدليل على صحة النقض، فإن لم يذكر السائل مع النقض شاهداً، لم يقبل منه، وقد عرفت مما سبق أن الشاهد نوعان: أحدهما : تخلف المدلول عن الدليل. الثاني : استلزام الدليل المحال.

ومثال الأول: أن يقول المعلل المعتقد مذهب الفلاسفة في قدم العالم: العالم قديم، ودليله ـ كما يزعم ـ لأنه أثر القديم، وكل ما هو أثر القديم فهو قديم، ينتج العالم قديم.

فيقول السائل: هذا الدليل باطل؛ لأنه يوجد مع عدم وجود مدلوله، وقد يوجد مع مدعى آخر مقطوع به. لكنه هنا لا يستقيم؛ وذلك لأنه منقوض بهذه الحوادث اليومية المتجددة، إذ يلزم من دليلك أنها ـ أيضاً ـ قديمة، وهذا باطل، إذ تجددها ينفي قدمها، وهي مع ذلك أثر القديم، لكنها ليست بقديمة. ولا يكون تخلف المدلول عن دليله إلا لفساد فيه.

ومثال الثاني: وهو استلزام الدليل المحال؛ كأن يستدل نافي الأسماء والصفات عن الله (تعالى) بقوله (تعالى):﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[سورة الشورى: ١١] فيقال له هذا الاستدلال يلزم منه أن يكون موجود مجرداً عن الصفات حتى صفة الوجود، وهذا لا يتصور وجوده في العيان، بل هو من الممتنعات. أما الدليل الذي أوردته، فهو يدل على نفي المماثلة بين الخالق

والمخلوق فيما هو من خصائصهما، لا يدل على نفي الصفات التي هي من خصائص الرب سبحانه.

أقسام النقض:[(١)]

النقض ينقسم إلى قسمين: حقيقي وشبيهي، والأول الذي هو النقض الحقيقي ينقسم إلى قسمين: مشهور ومكسور، فتكون أقسام النقض ثلاثة:

أحدهما: النقض الحقيقي المشهور.

الثاني: النقض الحقيقي المكسور.

الثالث: النقض الشبيهي.

أما النقض الحقيقي المشهور، فضابطه أن السائل إذا أراد الاعتراض على دليل المعلل بالنقض جاء بدليل المعلل على نفس الهيئة التي أوردها عليها صاحبه و لم يحذف منه شيئاً.

فإن حذف بعض الأوصاف وأجرى النقض على دليل المعلل في حال كونه حاذفاً بعض أوصافه، فهو النقض المكسور.

فإذا كان الوصف المحذوف له فائدة، بحيث إنه لو لم يحذفه لما صح له النقض ولا استقام، كان هذا النقض مردوداً غير مقبول، فلا يجوز ارتكابه في المناظرة، لكن السائل إذا ارتكبه أجاب عنه المعلل ببيان ما تركه

(١) انظر : شرح الولدية ص :١٣١-١٣٣ ، ورسالة آداب البحث ـ مكي ص :١١١-١١٤، وآداب البحث ـ الشنقيطي ـ القسم الثاني ص : ٦٧-٦٨.

السائل، وأنه لو لم يتركه لما صح توجه نقضه إلى المعلل، أما إذا كان الوصف المحذوف لا فائدة فيه ووجوده كعدمه بالنسبة إلى صحة النقض وعدمها، فحذفه لا بأس به، ولا يؤثر في توجه النقض.

وأما النقض الشبيهي فضابطه إبطال الدعوى بشهادة فساد مخصوص؛ ككونها مخالفة لإجماع العلماء، أو منافية لمذهب المعلل كاستدلال منكر السنة بالحديث، أو استدلال المتكلم بخبر الواحد في مسائل العقيدة.

الحالة التاسعة

المعارضة

المعارضة هي إقامة الدليل على خلاف ما أقام الخصم عليه الدليل، والمقصود بـ "خلاف": نقيضه، أو ما يستلزم نقيضه[(١)].

فالمناظر بين أمور ثلاثة لإبطال دعوى خصمه:[(٢)]

١- إما أن يثبت نقيض دعواه.

٢- أو ما يساوي نقيضها.

٣- أو أخص من نقيضها.

كل ذلك بدليل يستدل به، فتبطل الدعوى لاستحالة اجتماع النقيضين، واستحالة اجتماع الشيء ومساوي نقيضه، واستحالة اجتماع الشيء والأخص من نقيضه.

---

(١) انظر: رسالة آداب البحث ـ مكي ص : ٣١.

(٢) انظر: آداب البحث ـ الشنقيطي ـ القسم الثاني ص : ٧١-٧٢.

مثال المعارضة بإثبات النقيض:(١)

أن يقول معتقد مذهب الفلاسفة الباطل في قدم العالم: العالم قديم، ثم يقيم الدليل ـ في زعمه الباطل ـ على دعواه، فيقول: لأنه أثر القديم، وكل ما هو أثر القديم فهو قديم، فهذا دليله على دعواه الباطلة.

فيقول الراد عليه: العالم غير قديم، ثم يقيم الدليل على ذلك، فيقول: لأنه متغير بالانعدام ونحوه من أنواع التغير، وكل ما هو كذلك فليس بقديم، فينتج أن العالم ليس بقديم، وهذه النتيجة عين نقيض دعوى المستدل على قدم العالم؛ لأن نقيض القديم: ليس بقديم.

مثال المعارضة بإثبات ما يساوي نقيض الدعوى:(٢)

أن يقول نافي القدم عن العالم ــ في المثال المتقدم ــ: العالم متغير بالانعدام ونحوه من أنواع التغير، وكل ما هو كذلك فهو حادث، ينتج أن العالم حادث، والحادث مساو لنقيض القديم؛ لأن نقيض القديم ليس بقديم، والحادث مساو لليس بقديم كما لا يخفى.

مثال المعارضة بإثبات ما هو أخص من نقيض الدعوى:(٣)

أن يقول المعتزلي النافي لرؤية الله (تعالى) بالأبصار يوم القيامة: رؤية الله (تعالى) بالأبصار يلزمها كثير من أنواع مشابهة الخلق، وكل ما هو

(١) انظر : آداب البحث ـ الشنقيطي ـ القسم الثاني ص : ٧٢.
(٢) انظر : المرجع السابق.
(٣) انظر : المرجع السابق.

كذلك فهو مستحيل في حقه (تعالى) ، فينتج هذا الدليل الباطل باطلاً، وهو قوله: رؤية الله بالأبصار مستحيلة، يعني لا تمكن عقلاً.

فيقول الراد عليه، وهو المثبت للرؤية: رؤية الله (تعالى) بالأبصار ثابتة بنصوص الكتاب والسنة، فهي واقعة فعلاً؛ لأن كل ما يثبت بالكتاب والسنة حق صحيح يجب اعتقاد وقوعه، فهذه النتيجة التي هي وقوع الرؤية بالفعل أخص من إمكانها الذي هو نقيض دعوى الخصم وهو استحالتها.

الحالة العاشرة

الانتقــــال

الانتقال هو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذاً فيه، إما لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول أو لعناده ومكابرته[(١)].

والانتقال نوعان[(٢)]: محمود ومذموم. والمحمود لا يعد انقطاعاً، بينما يعد المذموم انقطاعاً.

أما الانتقال المحمود الذي ليس بانقطاع فهو على وجوه، منها:

١- أن يُطالب المستدل بتصحيح شيء تعلق به، فبناه على ما يصح بناؤه عليه، وانتقل إلى تصحيحه ليبني عليه ما وقعت فيه المطالبة، فهذا في

---

(١) انظر : الإتقان ـ السيوطي ١٣٧/٢، ومقال بعنوان: علوم القرآن ـ علم الجدل ـ حسن حسين ـ مجلة الأزهر ص : ٢٦٧ العدد : ٦ بتأريخ جمادى الآخرة ١٣٦٤هـ .

(٢) انظر : الكافية في الجدل ص : ٥٥١ وما بعدها.

الصورة انتقال، ولا يعد في الحقيقة كذلك؛ لأنه لم يترك ما ابتدأ بنصرته، بل هو في صميم ذلك غير خارج عنه.

٢- إذا عجز الخصم عن إدراك دليل المستدل، وعلم المستدل أنه يشكل عليه الإصرار على هذا الدليل، ويطول الكلام، جاز له الانتقال إلى دليل أوضح من الأول، وذلك لقصور في الخصم لا في المستدل، فلا يعد انتقالاً مذموماً، وقد مثلوا له بقصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود، وسيأتي الكلام عليها مفصلاً.

وأما الانتقال المذموم فلا يكون إلا انقطاعاً، ومثاله:

هل كان إبراهيم الخليل في مناظرته مع النمرود منتقلاً من دليل إلى دليل؟

وذلك في قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

فإن الكافر قد اعترض على دليل الخليل: ربي الذي يحيي ويميت بقوله: أنا أحيي وأميت. فأورد الخليل دليلاً آخر أعجز به الكافر وظهر انقطاعه. فهل هذا يعد من الخليل انتقالاً أم لا؟.

هذه مسألة تنازع العلماء في توجيهها، فمنهم من يعده انتقالاً من الخليل، لكنه من النوع المحمود، وذلك مشروط بكون الخصم لم يفهم

الحجة، فينتقل المستدل إلى دليل أوضح من الأول بالنسبة للخصم، لا بالنسبة للدليل، أو أن يكون الخصم معانداً مكابراً فينتقل المستدل إلى دليل يقطع به معاندة الخصم ومكابرته، وعلى الاحتمالين وجهوا صنيع الخليل عليه السلام .

ومنهم من يرى أن صنيع الخليل ليس من الانتقال في شيء، وذلك لأن أساس الانتقال أن تكون الحجة الأولى غير ملزمة، فيتركها المستدل إلى حجة أخرى ملزمة، وهذا لا يليق بمعصوم يدعو الناس إلى التوحيد، ويعزز دعوته بالمعجزة والحجة القاطعة.

وقرر الحافظ ابن كثير[1] رحمه الله بأن إبراهيم الخليل قال للملك : إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود؛ في خلق ذراته، وخلق كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما تدعي : تحيي وتميت، فأت بها من المغرب، فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بُهت أي أُخرس، فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة، ثم قال رحمه الله: «وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المصنفين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارةً تُرْديه، وليس

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٢٩٦ .

كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، ويبين بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني».

ومنهم من يرى أن الآية كلها حجة واحدة، وإنما الانتقال في المثال، لا في الدليل كأنه قال: ربي الذي يوجد الممكنات ويعدمها، وأتى بالإحياء والإماتة مثالاً، فلما اعترض عليه، جاء بمثال أجلى دفعاً للمشاغبة[(١)].

وعلى كل فرض، إذا كان صنيع الخليل انتقالاً فهو ــ بدون شك ــ من باب الانتقال المحمود، سواء كان في الدليل أو في المثال، فلم يكن انتقاله عليه السلام عن عجز وضعف، بل أراد أن يقطع على خصمه عناده وتشغيبه من أقرب طريق وأيسره.

الحالة الحادية عشرة

الانقطاع

قال ابن عقيل رحمه الله[(٢)]: «اعلم أن الانقطاع هو العجز عن إقامة الحجة من الوجه الذي ابتدأ منه المقالة. والانقطاع في الأصل: هو الانتفاء للشيء عن الشيء، وذلك أنه لا بد من أن يكون انقطاع شيء عن شيء، وهو على ضربين:

---

(١) انظر : روح المعاني للألوسي ٣/١٧-١٩، والإتقان للسيوطي ٢/١٣٧ ، ومقال : علوم القرآن ـ علم الجدل ـ حسن حسين بمجلة الأزهر ص : ٢٧٦-٢٦٩ ــ العدد ٦ تأريخ جمادى الآخرة ١٣٦٤هـ والعدد ٩ ص : ٣٩٣-٣٩٥ بتأريخ رمضان ١٣٦٤هـ .

(٢) شرح الكوكب المنير ص :٣٧٥.

أحدهما: تباعد شيء عن شيء؛ كانقطاع طرف الحبل عن جملته، وانقطاع الماء عن مجراه.

والآخر: عدم شيء عن شيء؛ كانقطاع ثاني الكلام عن ماضيه.

وتقدير الانقطاع في الجدل على أنه انقطاع عن النصرة للمذهب الذي شرع في نصرته».

وسمي الانقطاع في الجدل انقطاعاً؛ لأنه عجز عن بلوغ المقصود، كما يقال للمسافر منقطع، إذا صار عاجزاً عن بلوغ مقصوده بسفره، كذلك إذا صار عاجزاً عن إقامة دلالة أو حجة سمي منقطعاً، وحاله: انقطاعاً.[١]

وترجع أسباب الانقطاع إلى أمور منها:[٢]

نقصان علم المنقطع برسوم الجدل وأصوله؛ بأن لا يعرف كيفية وضع الأدلة مواضعها، وكيفية حفظها، أو كيفية ترتيبها، أو كيفية ما يرد عليه من وجوه الإلزامات.

وقد يكون المنقطع بارعاً في رسوم الجدل، غير أنه يكون ناقص العلم بوجوه الأدلة وأقيستها، فينقطع لقلة علمه بالأدلة.

وقد يكون كاملاً في رسوم الجدل والأدلة، فينقطع لفساد يرجع إلى نفس المقالة التي يريد نصرتها.

---

(١) انظر: الكافية في الجدل ص:٥٥٦.

(٢) انظر: الكافية في الجدل ص: ٥٥٦-٥٥٧.

بعض صور الانقطاع:[1]

١- ينقطع السائل بعجزه عن بيان السؤال وبيان الدليل، وبيان وجهه، وبعجزه عن الطعن في دليل المستدل، أومعارضته له، وبانتقاله إلى دليل آخر أو إلى مسألة قبل تمام الأولى.

٢- وينقطع المعلل (المسئول) بعجزه عن الجواب، ومنه أن يُسأل عن الشيء فيجيب عن غيره، وهو الحيدة. وينقطع ـ أيضاً ـ بعجزه عن إقامة الدليل، وعن تقوية وجهه، وبعجزه عن دفع الاعتراض الوارد عليه.

٣- وينقطع كل من السائل والمسئول بجحد ما عرف أنه من مذهبه، أو ما ثبت بالنص أو بالإجماع. وبعجزه عن إتمام ما شرع فيه، وإذا خلط كلامه على وجه لا يفهم، أو سكت على وجه الحيرة، ولم يكن له عذر في ذلك، وإذا تشاغل بما لا تعلق له بالموضوع، وبالغضب الشديد المخرج عن حد الاتزان، وبقيامه من مكانه، وسفهه على خصمه، وبالمكابرة، أو المناقضة، أو الانتقال، أو المشاغبة، أو الرجوع إلى التسليم، أو جحد المذهب، أو قال قولاً ولايلتزم بلوازمه ولا يأتي بالفصل.

---

(١) انظر: الكافية في الجدل ص: ٥٥١ وما بعدها، والفقيه والمتفقه ٢/٥٧، وشرح الكوكب المنير ص: ٣٧٥-٣٧٦

٤- ومن صور الانقطاع: أن يطالب أحد المتناظرين خصمه بما لا سبيل إليه؛ كأن يصيّر الحكم معلوماً على الاضطرار في موضع يكون طريقه الاستدلال، أو يطالبه بالدليل في موضع لا يلزمه فيه الدليل، أو يطالبه بجواب: بلا أو نعم، ولا يكون ذلك موضعه، أو ينتهي الكلام إلى حد يلزمه فيه دفع المعلوم ضرورة، أو إثبات ما يستحيل كونه.

قال ابن عقيل[(١)]: «اعلم أن الانقطاع بالمشاغبة عجز عن الاستتمام لما تضمن من نصرة المقال إلى الممانعة بالإيهام من غير حجة ولا شبهة، وحق مثل هذا إذا وقع: أن يفصح فيه بأنه شغب، وأن المشغب لا يستحق زيادة؛ فإن كان المشغب مسئولاً قيل له: إن أجبت عن المسألة وإلا زدنا عليك، وإن لم تجب عنها أمسكنا عنك، وإن كان سائلاً قيل له: إن حصلت سؤالاً سمعت جواباً، وإلا فلا. فإن المشغب لا يستحق جواباً. فإن لج وتمادى في غيه أعرض عنه؛ لأن أهل العلم إنما يتكلمون على ما فيه حجة أو شبهة، فإذا عري الجدل عن الأمرين إلى الشغب لم يكن فيه فائدة، وكان الأولى بذي الرأي الأصيل والعقل الرصين: أن يصون نفسه، ويرغب بوقته عن التضييع معه، ولا سيما إذا كان الاشتغال به مما يوهم الحاضرين أن صاحبه سالك لطريق الحجة، وربما كان ذلك بما يرى منه من حسن العبارة، والاغترار باتكال خصمه عليه [في المناظرة][(٢)]، فحق مثل هذا أن يبين له: أنه على جهة المشاغبة على طريق الحجة أو الشبهة».

---

(١) شرح الكوكب المنير ص : ٣٧٦ .

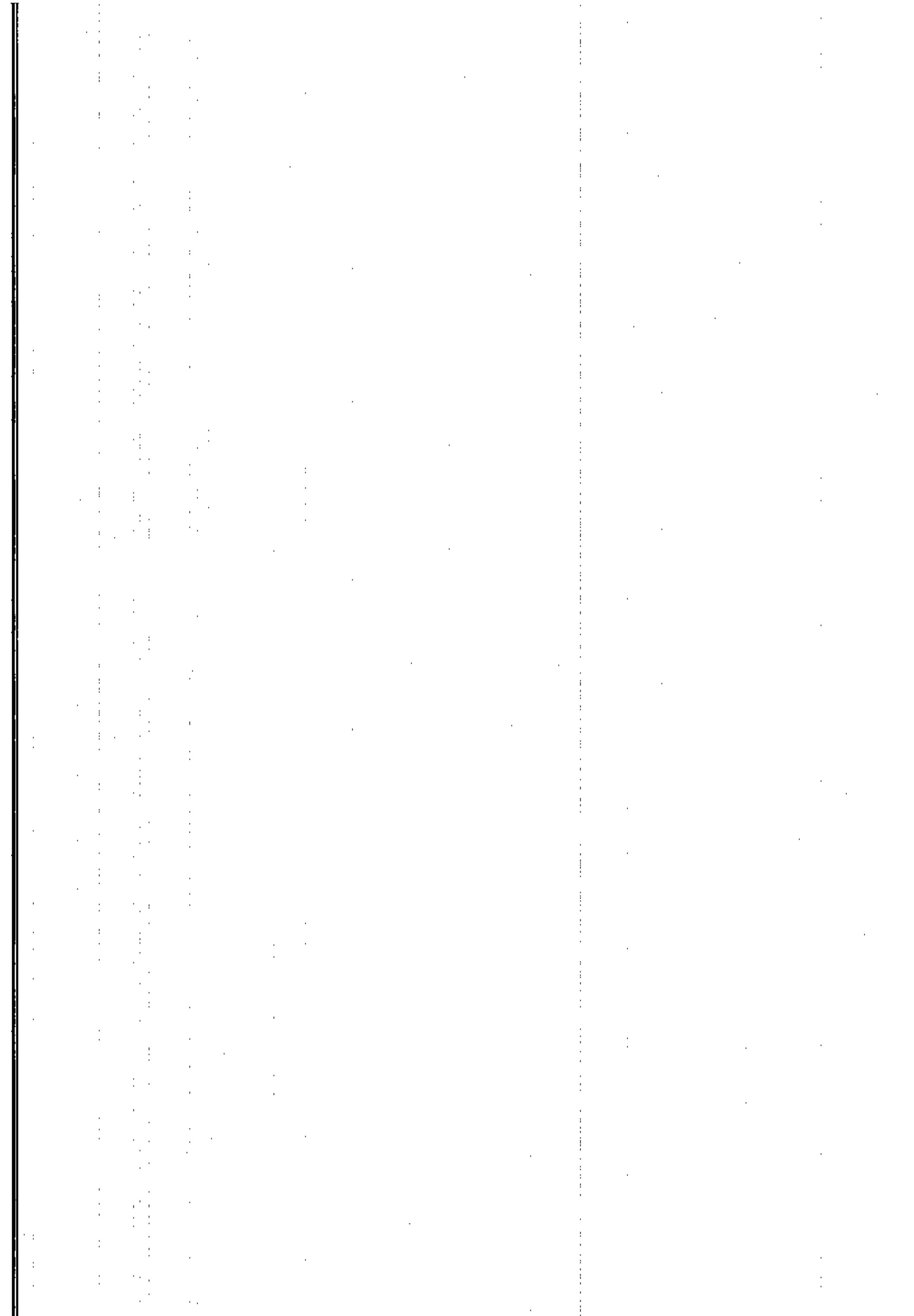
(٢) في الأصل : [بالمناظرة] ولعل الصحيح ما أثبته .

هل على المناظر بيان الحق بعد انقطاع خصمه ؟:

إذا ظهر انقطاع أحد المتناظرين وبان عجزه، فهل على خصمه بيان الحق في المسألة التي وقع فيها الجدال؟ ذكر أبو محمد بن حزم رحمه الله أن المتقدمين[1] يقولون ليس عليه بيان الحقيقة. ثم قال رحمه الله: «وأما نحن فنقول: إن ذلك عليه، ومن أبطل حكماً ما، فعليه أن يبين قوله، فإما أن يدخل في مثل ما أبطل، وإما أن يجلي الحيرة، وبيان الحقائق فرض، وقد أخذ الله (تعالى) ميثاق العلماء أن يبينوا ما علموه، ولا يكتمونه»[2].

(١) لعلهم المناطقة والفلاسفة ومن على شاكلتهم فهو الأشبه بهم، إذ قصدهم الغلبة والفلج وكسر الخصم، لا إصابة الحق وإذاعته بين الناس.

(٢) التقريب لحد المنطق ص : ١٨٩.



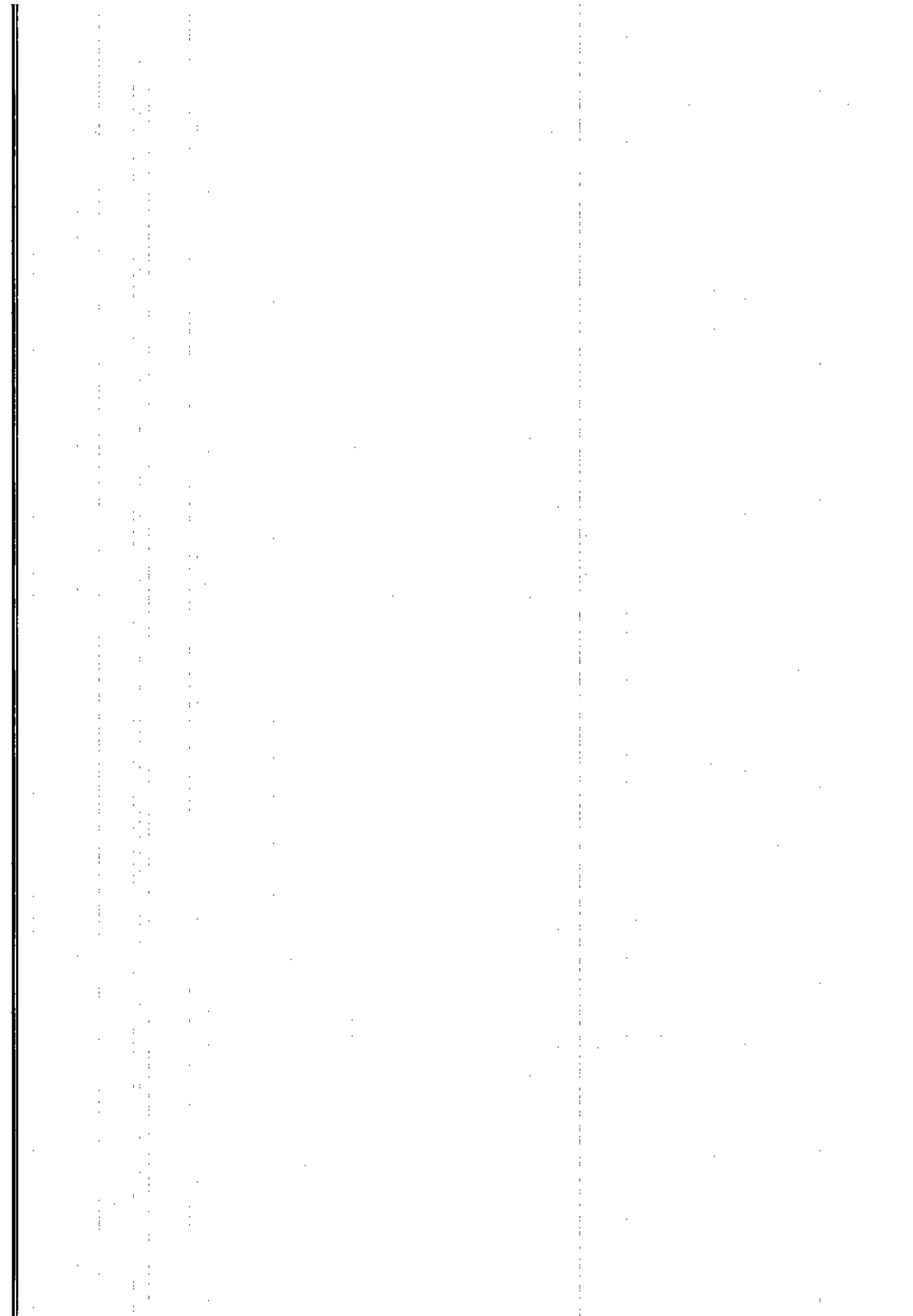
الفصل الرابع

إقامة الحجة: مجالاتها وشروطها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مجالات إقامة الحجة

المبحث الثاني: شروط إقامة الحجة



المبحث الأول
مجالات إقامة الحجة

حجة الله (تعالى) على خلقه قامت بإرساله الرسل وإنزاله الكتب، وهي حجة قاطعة لكل عذر، ومزيحة لكل علة كما قال (تعالى): ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: ١٦٥]. هذا من حيث الجملة، أما من حيث آحاد الناس فتكون قيام الحجة بحسب أحوالهم ومقاماتهم؛ ولهذا ينبغي التفريق في إقامة الحجة بين المسلم الذي خفيت عليه بعض أمور الشريعة؛ إما لخفائها في أنفسها أو لقصور علمه هو أو فهمه، وبين الكافر الذي قد يعلم بأدلة الرسالة وقد لا يعلمها.

وفي المسلمين من هو مسالم منقاد للشرع وللإمام، ومنهم من هو خارج على الإمام، وناد عن بعض الشرع، وغير ذلك من اختلاف الأحوال.

والحجة إذا قامت على الشخص لم يعذر بعدها، لا في الدنيا ولا في الآخرة، إلا إذا كان فعله مما يدخل تحت المشيئة، لكنه على كل حال معرض للوعيد.

ولقيام الحجة مجالات شتى، من أهمها:

أولاً: تكفير المعيَّن أو تبديعه أو تفسيقه:

فالشخص المعين لا ينبغي تكفيره أو تبديعه أو تفسيقه حتى تقام عليه الحجة، فلعل له شبهة تحتاج إلى تعرية وكشف، أو اعتراضاً يحتاج إلى

جواب، أو نحو ذلك. يقول ابن تيمية رحمه الله: «ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة... كمن جحد وجوب الصلاة والزكاة واستحل الزنا والخمر وتأول»[1]. وقال رحمه الله في مناظرة العقيدة الواسطية[2]: «... مع أني دائماً ومن جالسني يعلم ذلك مني: أني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية إلا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها: وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية».

قاعـــدة:

يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين في التكفير؛ لأنه قد يشكل ما نقل عن بعض السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا، أو يفعل كذا وكذا، فهذا القول منهم يقع على الإطلاق لا على التعيين، وهو كنصوص الوعيد التي وردت في القرآن مطلقة كقوله (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٠] وكذلك ما ورد فيمن فعل كذا فله كذا، فإن هذه مطلقة عامة. وهي بمنزلة من قال من السلف: من قال كذا فهو كذا، ثم الشخص المعين قد ينتفي حكم الوعيد في حقه، بتوبة أو حسنات ماحيات أو مصائب

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/٦١٩.

(٢) المرجع السابق ٣/٢٢٩ .

مكفرة أو شفاعة مقبولة ونحو ذلك من مسقطات العقوبة الأخروية، والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول ﷺ لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع النصوص، أو سمعها و لم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئاً»[(١)].

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «لله تعالى أسماء وصفات لا يسع أحداً قامت عليه الحجة ردها، فإن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالروية والفكر ...»[(٢)].

ومع أن الإمام أحمد رحمه الله اشتهر عنه قوله: من قال بخلق القرآن فقد كفر، لكنه لم يكفر أعيان الجهمية، ولا كل من قال إنه جهمي، ولا كل من وافق الجهمية في بعض بدعهم، بل صلّى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة، و لم يكفرهم أحمد وأمثاله من الأئمة، بل كان يعتقد إيمانهم وإمامتهم ويدعو لهم، ويرى الائتمام بهم في الصلوات خلفهم، والحج الغزو معهم، والمنع من الخروج عليهم، ما يراه لأمثالهم من الأئمة، وينكر ما أحدثوا

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٢٣٠-٢٣١.

(٢) مختصر العلو ـ للذهبي ص: ١٧٧ رقم: ٢٠٢ .

من القول الباطل الذي هو كفر عظيم، وإن لم يعلموا هم أنه كفر، وكان ينكره ويجاهدهم على رده بحسب الإمكان؛ فيجمع بين طاعة الله ورسوله في إظهار السنة والدين، وإنكار بدع الجهمية الملحدين، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة وإن كانوا جهالاً مبتدعين وظلمة فاسقين[1].

ولهذا فالمعين لا يكفر إلا بعد تحقق شروط وانتفاء موانع:

فمن الشروط:[2]

١- أن يكون القول أو الفعل في نفسه كفراً، ويأتيه عن اختيار وتسليم.

٢- أن يكون لازم قوله الكفر، وعُرِض عليه فالتزمه، أما إذا لم يلتزمه بل رده وأنكره فليس بكافر.

٣- أن تقوم عليه الحجة الرسالية؛ لقوله (تعالى): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥].

وأما الموانع؛ فمنها:[3]

١- أن يكون حديث عهد بالإسلام.

٢- أن يكون قد نشأ بادية بعيدة، ويدخل في حكمه من لم يجد إلا علماء الابتداع والضلال يستفتيهم ويقتدي بهم.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٠٨/٧.

(٢) انظر: فتح المغيث - السخاوي ٣٣٤/١، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٥٠٠/١٢-٥٠١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧٩/٣، ٢٣١، ٣٤٥/٢٣-٣٤٦، ٢١٧/٧-٢١٨، وطريق الهجرتين - ابن القيم ص: ٤١٢-٤١٣.

٣- أن يكون مغيَّب العقل بجنون وما في حكمه.

٤- أن لا تبلغه النصوص، أو بلغته و لم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها.

٥- بلغته النصوص، وثبتت عنده، وفهمها لكن قام عنده معارض من رأي ونحوه أوجب تأويلها، وإن كان في ذلك مخطئاً.

ثانياً: استتابة المرتد والزنديق ونحوهما:

وهذا النوع قد يكون له نوع تعلق بما قبله، لكن المراد بالنوع الأول من كان مسلماً في الأصل، ثم قال قولاً أو فعلاً يحتمل وجوها من الكفر، فلا يكفر حتى تقام عليه الحجة، أما المرتد فهو من اختار الخروج عن الإسلام وأعلن ذلك، وكذلك الزنديق خرج عن الإسلام بباطنه، وإن كان يتعلق في ظاهره ببعض الإسلام.

١- استتابة المرتد:

المرتد هو من قطع الإسلام بنية كفر أو قول كفر أو فعل كفر، سواء قال ذلك استهزاءً أو عناداً أو اعتقاداً.[(١)] واستتابته تعني: طلب التوبة منه، وذلك قد يكون بمناظرته، وإزالة ما قد يتعلق به من الشبه.

وهناك أمور تتعلق باستتابة المرتد، منها:

---

(١) انظر : منهاج الطالبين ـ النووي ص : ١٢٠ .

أ- ثبوت الردة:

والردة تثبت إما بإقرار المرتد، أو بشهادة اثنين من العدول في قول أكثر أهل العلم، وهو قول مالك والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي. وقال ابن المنذر: ولا نعلم أحداً خالفهم إلا الحسن قال: لا يقبل في القتل إلا أربعة؛ لأنها شهادة بما يوجب القتل، فلم يُقبل فيها إلا أربعة، قياساً على الزنا[(١)].

ب- تفسير الشهادة:

أي لا تقبل الشهادة المجملة حتى تفصّل وتفسّر، جاء في منح الجليل[(٢)]: «... الشهادة فيه ـ أي كفر المسلم ـ ؛ لأنه يترتب عليه سفك دم، وقطع عصمة، وحجر مال، ومنع وارث وغيرها، فلا يكتفي القاضي بقول العدل: أشهد أنه كفر أو ارتد، حتى يبين وجهه؛ لاختلاف الناس فيما يكفر به، وقد يرى الشاهد تكفيره فيما ليس كفراً، وظاهر كلامه التفصيل ونحوه في التوضيح: ابن شاس: لا ينبغي أن تُقبل الشهادة على الردة دون تفصيل؛ لاختلاف المذاهب في التكفير، ابن عرفة : هذا حسن...».

ج- حكم إنكار المتهم بالردة:

إذا أنكر المتهم بالردة ما شُهِد به عليه من الردة، فالقول قوله وهو مسلم، نص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وعزاه إلى أبي حنيفة والشافعي وأحمد[(٣)].

---

(١) انظر: المغني ـ ابن قدامة ٢٨٧/١٢ .

(٢) شرح منح الجليل ـ عليش ٤٦٥/٤، وانظر: الخرشي على مختصر خليل ٦٥/٨.

(٣) الاختيارات الفقهية ص: ٣٠٧، وانظر: الفروع لابن مفلح ١٧٢/٦-١٧٣.

حكم استتابة المرتد :

اختلفوا في حكم استتابة المرتد على مذهبين:

الأول: أنه يستتاب إما وجوباً أو استحباباً، وهو قول الجمهور.

الثاني: أنه لا يستتاب، وإليه ذهب الحسن وطاوس وأهل الظاهر، لكن هؤلاء قالوا: يجب أن يفرق بين من خرج عن الإسلام عن بصيرة فلا يستتاب، وبين من خرج لا عن بصيرة فإنه يستتاب، وقالوا: لكن إن جاء مبادراً بالتوبة خلي سبيله، ووكل أمره إلى الله (تعالى).

واستدل القائلون بمشروعية الاستتابة برواية أبي داود[(١)] عن طلحة بن يحيى وبريد بن عبد الله بن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن ثم أتبعه بمعاذ، فقدم عليه معاذ وإذا رجل كان يهودياً فأسلم فارتد عن الإسلام، فقال معاذ: لا أنزل عن دابتي حتى يقتل، فقتل. قال أحدهما: وكان قد استتيب قبل ذلك. وفي رواية: فأتي أبو موسى برجل قد ارتد عن الإسلام، فدعاه عشرين ليلة أو قريباً منها، فجاء معاذ فدعاه فأبى، فضرب عنقه[(٢)].

وأصل القصة في الصحيحين، ولم تذكر فيها الاستتابة[(٣)]. قال الحافظ

---

(١) سنن أبي داود ٥٢٥/٤ كتاب الحدود ـ باب الحكم فيمن ارتد ح: ٤٣٥٥.

(٢) المرجع السابق ٥٢٦/٤ كتاب الحدود ـ باب الحكم فيمن ارتد ح: ٤٣٥٦.

(٣) انظر: صحيح البخاري ٢٦٨/١٢ (فتح الباري) كتاب استتابة المرتدين ـ باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم... ح:٦٩٢٣، وصحيح مسلم ١٤٥٧/٣ ـ كتاب الإمارة ـ باب النهي عن طلب الإمارة... ح: ١٧٣٣.

ابن حجر رحمه الله: «وقال أبو داود: رواه عبد الملك بن عميرة عن أبي بردة فلم يذكر الاستتابة، وكذا ابن فضيل عن الشيباني. وقال المسعودي عن القاسم -يعني ابن عبد الرحمن- في هذا القصة: فلم ينزل حتى ضرب عنقه، وما استتابه. قال الحافظ: وهذا يعارضه الرواية المثْبِتة؛ لأن معاذاً استتابه، وهي أقوى من الروايات الساكتة عنه لا تعارضها، وعلى تقدير ترجيح رواية المسعودي، فلا حجة فيه لمن قال بقتل المرتد بلا استتابة؛ لأن معاذاً يكون اكتفى بما تقدم من استتابة أبي موسى، وقد ذكرت قريباً أن معاذاً روى الأمر باستتابة المرتد والمرتدة»[1]. ومقصوده قول النبي ﷺ لمعاذ: «أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه، فإن عاد وإلا ضربت عنقه، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها، فإن عادت وإلا فاضرب عنقها»[2].

وقال الحافظ[3]: «واستدل ابن القصّار (٣٩٨هـ) لقول الجمهور بالإجماع، يعني: السكوتي، لأن عمر كتب في أمر المرتد: "هلا حبستموه ثلاثة أيام، وأطعمتموه في كل يوم رغيفاً، لعله يتوب، فيتوب الله عليه" قال: ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة، كأنهم فهموا من قوله ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه"[4]: أي إن لم يرجع، وقد قال (تعالى): ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا

(١) فتح الباري ١٢/٢٧٥.
(٢) فتح الباري ١٢/٢٧٢ وقال الحافظ: وسنده حسن.
(٣) فتح الباري ١٢/٢٦٩.
(٤) رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ١٢/٢٦٧ (فتح الباري) كتاب استتابة المرتدين ... - باب حكم المرتد والمرتدة. ح: ٦٩٢٢.

الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٥]».

واستدل المانعون بحديث: "من بدل دينه فاقتلوه"[1]. وقد تقدم قريباً توجيهه. وعلى المنع يدل صنيع البخاري كما قال الحافظ ابن حجر: «فإنه استظهر بالآيات التي لا ذكر فيها للاستتابة، والتي فيها أن التوبة لا تنفع، وبعموم قوله: من بدل دينه فاقتلوه، وبقصة معاذ التي بعدها، و لم يذكر غير ذلك»[2].

ثم اختلف القائلون بالاستتابة: هل يكتفى بالمرة الواحدة، أم لا بد من ثلاث،وهل الثلاث في مجلس، أو في يوم، أو في ثلاثة أيام.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ : يستتاب شهراً، وتقدم أن أبا موسى استتاب المرتد عشرين ليلة، وعن النخعي يستتاب أبداً. قال الحافظ ابن حجر: «كذا نقل عنه مطلقاً، والتحقيق أنه في من تكررت منه الردة»[3]. لأنه يلزم منه أنه لا يقتل، وأنه يستمر في ردته، وهو فاسد، ويحتمل أن يكون مراده: أنه يستتاب قولاً واحداً، كأنه لم يعبأ بالمخالف. ويحمل ابن تيمية رحمه الله هذا القول على من رجيت توبته، فإنه يؤجل ما رجيت توبته، وهو مذهب الثوري رحمه الله[4].

وقال السرخسي (٤٨٣هـ): «إذا طلب التأجيل أُجِّل ثلاثة أيام؛ لأن

---

(١) انظر : سبل السلام ٣/٥٣٥.

(٢) فتح الباري ١٢/٢٦٩ .

(٣) فتح الباري١٢/٢٦٩-٢٧٠.

(٤) انظر : الصارم المسلول ص : ٣٢١.

الظاهر أنه دخل عليه شبهة ارتد لأجلها، فعلينا إزالة تلك الشبهة، أو هو يحتاج إلى التفكر ليتبين له الحق، فلا يكون ذلك إلا بمهلة، فإن استمهل، كان على الإمام أن يمهله»[١].

الترجيح: والذي يبدو لي أن القول بالاستتابة الذي هو قول الجمهور أرجح، وكذا تكرارها بحيث لا تقل عن ثلاث، وأن ذلك منوط بمصلحة الإسلام وأهله؛ فإن كان في رجوع المرتد عن ردته إلى الإسلام إبقاء على دمه ودينه، وقوة للمسلمين، كان هذا هو الأفضل، وإن كان في قبول توبته بعد استتابته إضعاف للإسلام بحيث لا يطمئن إلى رجوعه، أو يكون ذلك فتحاً لباب الاستهتار بالدين وحرمته، كان الأفضل قتله من غير استتابة.

وكذلك إن تأكد لدى الإمام أن ردته إنما كانت بسبب شبهة طرأت عليه، سعى في إزالتها بكل سبيل، وعلى هذا يتنزل قول من قال: يستتاب أبداً.

٢- استتابة الزنديق:

والزنديق هو من أظهر الإسلام وأبطن الكفر، شبيه بالمنافق، وإن كان أصل الزندقة: القول بقدم النور والظلمة، وأصحابه هم الثنوية، وقيل هو: القول بدوام الدهر، وأصحابه هم الدهرية، وقيل: غير ذلك[٢].

---

(١) المبسوط ١٠/٩٨-٩٩.

(٢) انظر: فتح الباري ١٢/٢٧٠-٢٧١.

وقال مالك رحمه الله: الزندقة ما كان عليه المنافقون، قال الحافظ ابن حجر: «وكذا أطلق جماعة من الفقهاء الشافعية وغيرهم أن الزنديق هو الذي يظهر الإسلام، ويخفي الكفر»[1]. ولا يلزم منه اتحاد الزنديق والمنافق، بل كل زنديق منافق من غير عكس[2].

ومن الزنادقة في الإسلام الباطنية والقرامطة، وأمثال جهم والجعد والحلاج، ونحوهم ممن قتل على الزندقة.

حكم استتابة الزنديق:

فيها مذاهب[3]:

الأول: استتابته مطلقاً، قال الشافعي: يستتاب الزنديق كما يستتاب المرتد، وهو المشهور عند المالكية .

الثاني: عدم استتابته، وهو رواية عند أحمد وأبي حنيفة.

الثالث: لا تقبل توبته مع التكرار، أي: إذا تكرر منه لم تقبل توبته، وهو رواية عن أبي حنيفة وأحمد.

الرابع: وحكي عن مالك: إن جاء تائباً يقبل منه، وإلا فلا. وبه قال أبو يوسف، واختاره أبو إسحاق الإسفرائيني، وأبو منصور البغدادي.

---

(١) انظر : فتح الباري ٢٧١/١٢.

(٢) انظر : المرجع السابق ٢٧١/١٢.

(٣) انظر : الرد على الجهمية ـ الدارمي ص : ١١٢ وما بعدها، وفتح الباري ٢٧٢/١٢-٢٧٣.

الخـامس: يفرق بين الداعية فلا يقبل منه، وتقبل توبة غير الداعية.

السادس: وأفتى ابن الصلاح بأن الزنديق إذا تاب تقبل توبته، ويُعزَّر، فإن عاد، بادرناه بضرب عنقه و لم يمهل.

واستدل من منع استتابة الزنديق بقوله (تعالى): ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ [سورة البقرة: ١٦٠] فقال: الزنديق لا يطلع على صلاحه؛ لأن الفساد إنما أتى مما أسره، فإذا اطلع عليه وأظهر الإقلاع عنه لم يزد على ما كان عليه، وبقوله (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٣٧] وأجيب بأن المراد من مات منهم على ذلك كما فسَّره ابن عباس فيما أخرجه ابن أبي حاتم[(١)] وغيره، واستدل لمالك بأن توبة الزنديق لا تعرف، قال: وإنما لم يقتل النبي ﷺ المنافقين للتألف؛ ولأنه لو قتلهم لقتلهم بعلمه، فلا يُؤْمَن أن يقول قائل: إنما قتلهم لمعنى آخر.

واستدل بعضهم بخبر علي في قتل الزنادقة من غير استتابة، وتُعُقِّبَ بأنه وقع في بعض طرقه أنه استتابهم،كما في رواية ابن شريك العامري عن أبيه، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر[(٢)] .

ومن أدلة من جوَّز الاستتابة، قوله (تعالى): ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [سورة المنافقين: ٢] فدلَّ على أن إظهار الإيمان يحصن من القتل، وكلهم أجمعوا على

---

(١) انظر: الدر المنثور ـ السيوطي ٢/٢٣٥ .

(٢) انظر: فتح الباري ١٢/٢٧٠.

أن أحكام الدنيا تجري على الظاهر والله يتولى السرائر، وقد قال ﷺ لأسامة: هلا شققت عن قلبه، وذلك حين قتل رجلاً بعد أن قال: لا إله إلا الله، ثم تعلّل أسامة بأنه إنما قالها خوفاً من السيف[1]. وقال للذي سارَّه في قتل رجل: أليس يصلي؟ قال: نعم. قال: أولئك الذين نهيت عن قتلهم[2]. وفي حديث خالد بن الوليد[3] لما استأذن النبي ﷺ في قتل من أنكر قسمته، وقوله: كم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه! فقال النبي ﷺ: إني لم أومر أن أَنْقُبَ عن قلوب الناس[4].

وعقد الحافظ أبو سعيد الدارمي رحمه الله في كتابه الرد على الجهمية[5] باباً بعنوان: **قتل الزنادقة والجهمية واستتابتهم من كفرهم**، ثم استدل على ذلك بفعل علي ﷺ مع السبئية، ثم قال: «فالجهمية عندنا زنادقة من أخبث الزنادقة، نرى أن يستتابوا من كفرهم، فإن أظهروا التوبة تركوا، وإن لم يظهروها [لم يتركوا][6]، وإن شهدت عليهم بذلك شهود فأنكروا و لم يتوبوا قتلوا، كذلك بلغنا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سنَّ في الزنادقة» ثم ذكر بسنده ما وقع لعلي مع الزنادقة، وذكر صنيع خالد القسري مع الجعد. ثم قال:

---

(١) انظر: صحيح مسلم ٩٦/١ كتاب الإيمان ـ تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله ح: ٩٦

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد ٤٣٢/٥-٤٣٣ .

(٣) تقدم تخريجه

(٤) انظر: فتح الباري ٢٧٣/١٢.

(٥) ص: ١١٢-١١٥.

(٦) في الأصل: [تركوا]، من غير أداة النفي، ولعل الصحيح ما أثبته .

حدثنا موسى بن إسماعيل قال: قلت لإبراهيم بن سعد: ما تقول في الزنادقة ترى أن نستتيبهم؟ قال: لا، قلت: فبم تقول ذلك؟ قال: كان علينا والٍ بالمدينة، فقتل منهم رجلاً ولم يستتبه، فسقط في يده، فبعث إلى أبي، فقال له أبي: لا يهدينك، فإنه قول الله عز وجل: ﴿فلمّا رأوا بأسنا﴾ قال: السيف: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [سورة غافر: ٨٤- ٨٥] قال: السيف. فقال: سنته القتل. وسمعت الربيع بن نافع أبا توبة الحلبي (٢٤١هـ) يقول: ناظرت أحمد بن حنبل رحمه الله في قتل هؤلاء الجهمية، فقال: يستتابون. فقلت له: أما خطباؤهم فلا يستتابون، وتضرب أعناقهم.

قال أبو سعيد الدارمي : لأن الخطباء اعتقدوه ديناً في أنفسهم على بصر منهم بسوء مذاهبهم، وأظهروا الإسلام تعوذاً وجنة من القتل، ولا تكاد ترى البصير منهم بمذهبه يرجع عن رأيه.

ثم قال أبو سعيد : حدثنا يحيى بن بكير المصري ثنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم أن النبي ﷺ قال: من غير دينه فاضربوا عنقه، قال مالك معنى حديث النبي ﷺ فيما نرى ـ والله أعلم ـ أنه من خرج من الإسلام إلى غيره؛ مثل الزنادقة وأشباههم، فإن أولئك يقتلون ولا يستتابون؛ لأنه لا تعرف توبتهم، وأنهم قد كانوا يسرون الكفر ويعلنون بالإسلام، فلا أرى أن يستتاب هؤلاء، ولا يقبل قولهم، وأما من خرج من الإسلام إلى غيره، وأظهر ذلك، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل...

وقال الجويني رحمه الله: «وقد ذهبت طوائف من سلف هذه الأمة إلى أنه لا تقبل توبته بعدما ظهرت زندقته...» ثم قال: «وهذا خارج عندي عن قاعدة الشريعة؛ فإني لا أعرف خلافاً أن عسكراً من عساكر الإسلام إذا أناخوا بساحة الكفار، فلما أظلتهم السيوف وعاينوا مخايل الحتوف نطقوا بكلمتي الشهادة فيحكم بإسلامهم، وإن تحققنا أنهم لم يلهموا الهداية لدين الحق الآن. وكان رسول الله ﷺ يداري المنافقين مع القطع وتواتر الوحي بنفاقهم وشقاقهم وهو القدوة والأسوة»[(١)].

وكذلك يستتاب من جحد شيئاً من أركان الإسلام، أو تحريم شيء من محرماته، فإن تاب وإلا قتل؛ لأنه قد تكون عنده شبهة دفعته إلى جحود ما جحده. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما الفرائض الأربع، فإذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة فهو كافر، وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها؛ كالفواحش والظلم والكذب والخمر ونحو ذلك، وأما من لم تقم عليه الحجة مثل أن يكون حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه فيها شرائع الإسلام ونحو ذلك، أو غلط فظن أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستثنون من تحريم الخمر، كما غلط في ذلك الذين استتابهم عمر. وأمثال ذلك، فإنهم يستتابون وتقام الحجة عليهم، فإن أصروا

---

(١) غياث الأمم في التياث الظلم ص: ٢٣٠-٢٣١.

كفروا حينئذ ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك، كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة ابن مظعون وأصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل»[(١)].

وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أن الإجماع استقر في حق من جحد شيئاً من الفرائض بشبهة أن يطالب بالرجوع، فإن نصب القتال قوتل وأقيمت عليه الحجة، فإن رجع وإلا عومل معاملة الكافر حينئذ[(٢)].

ثالثاً: عند قتال الإمام المخالفين:

المخالفون لأهل الإسلام أصناف:

١- أهل الكفر والشرك، فهؤلاء يدعوهم الإمام إلى الدخول في الإسلام، ويقيم عليهم الحجة قبل نصب القتال معهم، فقد تكون لهم شبهات وإشكالات تحتاج إلى كشف وتبيين، وقد تعرَّض القرآن الكريم لشبهات المشركين ونحوهم، وكشفها بالرد والإيضاح؛ قال (تعالى): ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣٣]. قال العماد ابن كثير: «﴿لا يأتونك بمثل﴾ أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم»[(٣)].

٢- أهل الكتاب، وهؤلاء ـ أيضاً ـ يخيرهم الإمام بين الدخول في الإسلام وبين البقاء على مللهم مع دفع الجزية فإن أبوا فالسيف. وذكر ابن

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/٦٠٩-٦١٠.

(٢) فتح الباري ١٢/٢٨٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٧ .

تيمية رحمه الله أن كثيراً من أهل الكتاب يبلغهم الإسلام، ولكن يمنعهم من الإيمان شبهات يحتاجون إلى أجوبة عليها.[١]

٣- أهل البغي من الخوارج ونحوهم، يدعوهم الإمام إلى الدخول في الطاعة، والالتزام بالجماعة، فإن أجابوا وإلا دفعهم بالسيف. عقد البخاري رحمه الله في صحيحه[٢] **باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم**، ثم استدل بقوله (تعالى): ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [سورة التوبة: ١١٥] وببعض الأخبار الواردة في قتال الخوارج. يقول العيني رحمه الله عند شرحه لهذا الباب: «يشير البخاري بذلك إلى أنه لا يجب قتال خارجي ولا غيره إلا بعد الإعذار عليه، ودعوته إلى الحق، وتبيين ما التبس عليه، فإن أبى عن الرجوع إلى الحق وجب قتاله بدليل الآية التي ذكرها»[٣].

ونسب ابن حجر رحمه الله إلى الطبري قوله إنه: «لا يجوز قتال الخوارج وقتلهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم بدعائهم إلى الرجوع إلى الحق، والإعذار إليهم»[٤].

وقال الصنعاني رحمه الله: «واعلم أنه يتعين أولاً قبل قتالهم ـ يعني أهل البغي ـ دعاؤهم إلى الرجوع، وتكرير الدعاء، كما فعل علي رضي الله عنه

---

(١) انظر : الجواب الصحيح ١/٢٣٩-٢٤٠.

(٢) ١٢/٢٨٢.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ـ العيني ٢٤/٨٤.

(٤) فتح الباري ١٢/٢٩٩.

في الخوارج، فإنهم لما فارقوه أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع منهم أربعة آلاف وكانوا ثمانية آلاف، وبقي أربعة آلاف أَبَوْا أن يرجعوا وأصروا على فراقه فأرسل إليهم: كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً، ولا تقطعوا سبيلاً، ولا تظلموا أحداً، فقتلوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ ثم بقروا بطن سُرِّيته وهي حبلى، وأخرجوا ما في بطنها، فبلغ علياً كرم الله وجهه، فكتب إليهم: أقيدونا بقاتل عبد الله بن خباب، فقالوا: كلنا قتله، فأذن حينئذ في قتالهم وهي روايات ثابتة ساقها المصنِّف[1] في فتح الباري»[2].

وكذلك أهل البدع إذا كثروا ونصبوا قتالاً يدعوهم الإمام أولاً، ويقيم عليهم الحجة، فإن أبوا آذنهم بحرب. قال الجويني رحمه الله: «القول في أهل البدع إذا كثروا، فيدعوهم الإمام إلى الحق فإن أَبَوْا زجرهم ونهاهم عن إظهار البدع، فإن أصروا، سطا بهم عند امتناعهم عن قبول الطاعة، وقاتلهم مقاتلة البغاة، وهذا يطرد في كل جمع يعتزون إلى أهل الإسلام إذا سلوا أيديهم عن ربقة الطاعة»[3].

---

(١) يعني الحافظ ابن حجر رحمه الله.

(٢) سبل السلام ٥٢٥/٣، وانظر غياث الأمم ص: ٢١٤.

(٣) غياث الأمم ص: ٢١٥.

المبحث الثاني
شروط إقامة الحجة

لقيام الحجة شروط لا تعتبر إلا مع تحققها، وهي:

الشرط الأول: العلم بالحجة:

أي علم المكلَّف بالحجة؛ لأن الجاهل بها لا يؤاخذ، بل هو معذور على تفصيل سيأتي بيانه، وهذا يقتضي البلاغ من المخاطِب. ولهذا قطع الله (تعالى) الأعذار وأزاح العلل، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب:

قال (تعالى): ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

وقال (تعالى): ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [سورة طه: ١٣٤].

وقال (تعالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [سورة المائدة: ١٩].

وفي الحديث: «لا أحد أحب إليه العذر من الله»[(١)].

ولهذا لا يعذب الله (تعالى) أحداً في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد قيام الحجة الرسالية عليه؛ قال (تعالى): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة

(١) انظر: صحيح البخاري ١٣/٣٩٩ (فتح الباري) كتاب التوحيد ـ باب قول النبي ﷺ لا شخص أغير من الله ح: ٧٤١٦، وصحيح مسلم ٤/٢١١٤ كتاب التوبة ـ باب غيرة الله تعالى... ح: يلي ٢٧٦٠.

[الإسراء: ١٥] يقول أبو جعفر الطبري رحمه الله: «يقول (تعالى ذكره): وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم». ثم روى عن قتادة قوله في تفسيرها: «إن الله تبارك وتعالى ليس يعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر، أو يأتيه من الله بينة، وليس معذبا أحداً إلا بذنبه»[١].

وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت و لم يؤمن بالذي أرسلتُ به، إلا كان من أصحاب النار»[٢]. قال النووي رحمه الله في شرحه: «... وفي مفهومه دلالة على أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، وهذا جار على ما تقدم في الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح»[٣]. أي فيه رد على القائلين بالوجوب العقلي من المعتزلة.

وقال (تعالى): ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [سورة التوبة: ١١٥] روي أنه لما نزل تحريم الخمر وشُدِّد فيها، سألوا النبي ﷺ عمن مات وهو يشربها فأنزل الله الآية[٤]. وقال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به وبرسوله،

---

(١) تفيسر الطبري ٤١/١٥. ط. دار المعرفة.

(٢) صحيح مسلم ١٣٤/١ كتاب الإيمان ـ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس... ح : ١٥٣.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٨٨/٢.

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢٧٧/٨.

حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه، فتتركوا الانتهاء عنه، فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال؛ لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، فأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يُؤْمر به ولم يُنه عنه»[(١)].

وعليه فكل من لم تبلغه حجة الله (تعالى) الرسالية لا يؤاخذ إلا بعد قيامها عليه؛ ولهذا كان حكم من مات في الفترة والمعتوه والأصم وأطفال المشركين ومن في حكم هؤلاء أنهم يمتحنون يوم القيامة على الصحيح من أقوال أهل العلم، واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ : «أربعة يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة، فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري ٥٣٦/١٤ ط. شاكر.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢٤/٤ من حديث الأسود بن سريع ، والبيهقي في كتاب الاعتقاد ص: ١٦٩ وصحح إسناده، وأورده ابن كثير في تفسيره ٢٩/٣ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٦/٧ ، وعزاه إلى أحمد والبزار، وقال عن رجالهما : إنهم رجال الصحيح، وانظر : طريق الهجرتين ـ ابن القيم ص: ٣٩٧.

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود والمعتوه ومن مات في الفترة والشيخ الفاني، ألهم كلهم بحجته؛ فيقول الرب (تبارك وتعالى) لعنق من النار: أبرز، ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم. ادخلوا هذه. قال: فيقول: من كتب عليه الشقاء: يارب، أنّى ندخلها، ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعاً، قال: فيقول الله (تعالى): أنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار»[(١)].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد حكاية المذاهب في هذه المسألة، وترجيحه المذهب الذي ذكرته آنفاً: «وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة[(٢)]، وهو الذي نصره الحافظ أبوبكر البيهقي في كتاب الاعتقاد[(٣)] وكذلك غيره من محققي العلماء، والحفاظ النقاد.

---

(١) رواه البيهقي في كتاب الاعتقاد ص: ١٦٩-١٧٠، وأبو يعلى في مسنده ١٩٢/٤-١٩٣ ح: ٤٢٠٩ من حديث أنس بن مالك، والطبراني في المعجم الكبير ٨٣/٢٠-٨٤ ح: ١٥٨ عن معاذ بن جبل، وفي مجمع الزوائد ٢١٦/٧ عن أبي سعيد الخدري بنحوه، وقال: رواه البزار، وفيه عطية وهو ضعيف، وبنحوه عن معاذ بن جبل قال رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه عمرو بن واقد، وهو متروك عند البخاري وغيره، ورمي بالكذب، وقال محمد بن المبارك الصوري: كان يتبع السلطان، وكان صدوقاً، وبقية رجال الكبير رجال الصحيح.

(٢) لم أقف عليه في مظانه من كتب أبي الحسن الأشعري المتوفرة لدي .

(٣) انظر : ص : ١٦٨-١٧٠ .

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري[(١)] بعض ما تقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء، فكيف يُكَلَّفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها، وأما قوله إن الدار الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال، وقد قال (تعالى): ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [سورة القلم: ٤٢] الآية، وقد ثبت في الصحاح[(٢)] وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك، ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خر لقفاه...» ثم قال رحمه الله: «وأما قوله: فكيف

---

(١) انظر نحوه في تجريد التمهيد له ص : ٣٢٦ .

(٢) انظر : صحيح البخاري ٨/٦٦٤ (فتح الباري) كتاب التفسير ـ باب ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ ح : ٤٩١٩.

يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك في وسعهم، فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن الله يأمر عباده يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحدُّ من السيف، وأدق من الشَّعْر، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار[(١)]، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم ـ وأيضاً ـ فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار[(٢)]، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك...»[(٣)].

وهذا الذي عليه أهل السنة من أن الحجة تقوم على المكلف بعد العلم بها، خلاف ما عليه المعتزلة القائلون بالتحسين والتقبيح العقليين، وأن العقل يوجب ويحظر ويبيح قبل ورود الشرع؛ فهذا مخالف لنصوص الكتاب والسنة المتقدمة وغيرها.

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٤٢١/١٣ (فتح الباري) كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى:﴿وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة﴾[القيامة:٢٢-٢٣] ح: ٧٤٣٩، ومسند أحمد ٢٥/٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) انظر: صحيح البخاري ٤٩٤/٦ كتاب الأنبياء ـ باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح: ٣٤٥٠، وصحيح مسلم ٢٢٤٩/٤-٢٢٥٠ كتاب الفتن ـ باب ذكر الدجال وصفته... ح: ٢٩٣٤-٢٩٣٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٠/٣-٣١ ، وانظر : طريق الهجرتين ـ ابن القيم ص :٣٩٦ وما بعدها.

تنبيـــه:[1]

تقدمت الإشارة إلى أن الجهل عذر، أي أنه يحول دون لحوق العذاب بصاحبه، وهذا الأمر ليس على إطلاقه، بل فيه تفصيل. وبيانه: أنه يقال: لا بد من التفريق بين جاهل تمكّن من العلم ومعرفة الحق ثم أعرض عنه، وجاهل لم يتمكّن من ذلك بوجه:

فالمتمكّن المعرض مفرِّط تارك للواجب عليه، لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم ولا يتمكن منه بوجه، فهو قسمان:

الأول: مريد للهدى، مؤثر له، محب له، لكنه غير قادر عليه وعلى طلبه، وذلك لعدم وجود من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات ومن لم تبلغه الدعوة، وقد تقدم بيان حالهم وحكمهم.

الثاني : معرض لا إرادة له، لكنه لا يحدث نفسه بغير ما هو عليه.

فالأول: يقول: يارب لو أعلم لك ديناً خيراً مما أنا عليه لدنتُ به، وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه، ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راض بما هو عليه، لا يؤثر عليه، ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، فهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق:

---

(١) انظر : طريق الهجرتين ص:٤١٢-٤١٣، ومجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/٢٢، واقتضاء الصراط المستقيم ٢/٥٨٠.

فالأول: كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه ـ بعد استفراغ الوسع في طلبه ـ عجزاً وجهلاً.

والثاني: كمن لم يطلبه، بل مات على شركه وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض.

الشرط الثاني: فهم الحجة:

فقد تبلغ المكلف الحجة، ويعلم بها، لكنه لا يفهمها فهماً تقوم به الحجة عليه، كأن لا يفهم معنى ما خوطب به، أو كانت المسألة من دقائق العلم وخفاياه، التي لا يقف عليه إلا أهل العلم المتعمقون فيه، أو قد يقوم عنده معارض يمنعه من فهم مراد الشارع كالشبه التي ترد على بعض الناس، أو الأدلة المتعارضة ونحو ذلك. فهذا ينبغي أن يفهم الحجة، وأن يزال عنه ما يمنعه من فهمها وإدراكها، وهذا يقتضي البيان والإيضاح من المخاطِب؛ ولهذا أرسل الله (تعالى) كل رسول بلسان قومه، كما قال (تعالى): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ٤]، قال ابن كثير رحمه الله[١]: «هذا من لطفه (تعالى) بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم» ثم استدل بحديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه»[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٤.

(٢) انظر مسند أحمد ٥/١٥٨

ولهذا قال (تعالى) بعدها: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة إبراهيم: ٤] قال ابن كثير: «أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق» (١).

وقال القرطبي رحمه الله عند تفسير هذه الآية: «ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من تُرجم له ما جاء به النبي ﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة» (٢).

فحجة الله لا تقوم على خلقه إلا بالبيان من الرسول والفهم من المكلف؛ ولهذا قال موسى عليه السلام في تعليل سؤاله الله (تعالى) أن يرسل معه أخاه هارون وزيراً: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [سورة القصص: ٣٤] .

فلو أن الله (تعالى) خاطب أمة بغير لسانها لما فهمت خطابه لها، فلا تقوم عليها الحجة بذلك الخطاب؛ قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «...كان معلوماً أنه غير جائز أن يخاطب الله (جل ذكره) أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطَب، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسَل إليه؛ لأن المخاطَب والمرسَل إليه إن لم يفهم ما خوطب به وأُرسل به إليه فحاله قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة وبعده سواء، إذ لم يُفِدْه الخطابُ والرسالةُ شيئا كان به قبل ذلك جاهلاً» (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٤.

(٢) تفسير القرطبي ٩/٣٤٠.

(٣) تفسير الطبري ١/١١ (المقدمة) ط. شاكر .

وقال (تعالى): ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٦] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعاً يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى، فلو كان غير عربي وجب أن يترجم له ما يقوم به عليه الحجة، ولو كان عربياً وفي القرآن ألفاظ غريبة ليست من لغته وجب أن يُبيَّن له معناها، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس، و لم يفقه المعنى وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه فعلينا ذلك، وإن سألنا عن سؤال يقدح في القرآن أجبناه عنه كما كان النبي ﷺ إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالاً يوردونه على القرآن، فإنه كان يجيبهم عنه...»[١].

ومما يبين أن فهم الحجة أمر مهم في إقامتها ما وقع في عهد عمر بن الخطاب ﷺ من شرب الخمر من بعض الناس على سبيل التأويل، فقد روى ابن أبي شيبة (٢٣٥هـ) في مصنفه[٢] عن علي ﷺ قال: «شرب قوم من أهل الشام الخمر وعليهم يزيد بن أبي سفيان، وقالوا: هي لنا حلال، وتأوّلوا هذا الآية: ﴿ لَيسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [سورة المائدة: ٩٣] قال : وكتب فيهم إلى عمر، فكتب أن ابعث بهم إلي قبل أن يُفسدوا مَنْ قِبَلك، فلما قدموا على عمر استشار فيهم الناس

---

(١) الجواب الصحيح ٢٢٢/١ .

(٢) ٥٤٦/٩ برقم : ٨٤٥٨ ، وانظر مصنف عبد الرزاق ٢٤٠/٩-٢٤٢ كتاب الأشربة ــ باب من حد من أصحاب النبي ﷺ ح : ١٧٠٧٥، وانظر : فتح الباري ٧٠/١٢ .

فقالوا: يا أمير المؤمنين، نرى أنهم قد كذبوا على الله، وشرعوا في دينهم مالم يأذن به الله فاضرب رقابهم، وعلي ساكت، فقال: ما تقول يا أبا الحسن فيهم؟ قال: أرى أن تستتيبهم، فإن تابوا جلدتهم ثمانين لشرب الخمر، وإن لم يتوبوا ضربت رقابهم، قد كذبوا على الله وشرعوا في دينهم مالم يأذن به الله. فاستتابهم فتابوا، فضربهم ثمانين ثمانين».

وعند البيهقي أن الشارب هو قدامة بن مظعون، وأنه احتج بهذه الآية، فقال له عمر رضي الله عنه: أخطأت التأويل، إن اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله عليك[1].

وفي رواية عن ابن عباس أن عمر أُتي برجل من المهاجرين الأولين وقد شرب الخمر، فأمر به أن يجلد، فقال: لم تجلدني، بيني وبينك كتاب الله، قال: وفي أي كتاب الله تجد أن لا أجلدك؟ قال: إن الله (تعالى) يقول في كتابه: ﴿لَيسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [سورة المائدة: ٩٣] شهدتُ مع رسول الله ﷺ بدراً وأحداً والخندق والمشاهد، فقال عمر رضي الله عنه: ألا تردون عليه ما يقول؟ فقال ابن عباس: إن هؤلاء الآيات نزلت عذراً للماضين وحجة على الباقين، فعذر الماضين لأنهم لقوا الله عز وجل قبل أن تحرم عليهم الخمر[2]، وحجة على الباقين لأن الله (تعالى)

(١) انظر : السنن الكبرى للبيهقي ٨/٣١٥-٣١٦ كتاب الأشربة ـ باب ما جاء في عدد حد الخمر .

(٢) في مناسبة نزول الآية انظر : صحيح البخاري ٥/١١٢ كتاب المظالم ـ باب صب الخمر في الطريق ح : ٢٤٦٤ و٨/٢٧٨ كتاب التفسير ـ باب ﴿ليس على الذين ءامنوا وعملوا الصالحات جناح ...﴾ الآية ح:٤٦٢٠ ، وسنن الترمذي ٨/٢١٨-٢١٩ أبواب التفسير ـ سورة المائدة ح : ٣٠٥٤-٣٠٥٥ وقال في كلٍ منهما : هذا حديث حسن صحيح ومسند الإمام أحمد ١/٢٩٥ ، ٣/٢٢٧ .

يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ الأَزْلامُ﴾ [سورة المائدة: ٩٠] الآية، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا، فإن الله قد نهى أن تُشْرَبَ الخمر. قال عمر ﷺ: فماذا ترون؟ قال علي بن أبي طالب ﷺ: نرى أنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة، فأمر عمر فجلد ثمانين»[1].

هذا يعني أنه لم يستحل الخمر إلا تأوّلاً، فلما انتفت عنه الشبهة التي بنى عليها الاستحلال، ووضح له الحق رجع عن اعتقاده؛ ولهذا أقيم عليه حد الخمر، لا حد الردة.

وهذا من أعظم فوائد الاستتابة؛ لأنه قد يسيء الرجل فهم بعض النصوص، فيبني على ذلك أحكاماً فاسدة، وباستتابته ومناظرته تظهر الحجة وتتضح المحجة، فإما أن يقيم على اعتقاده الأول فتنزل عليه العقوبة المناسبة، أو يرجع فيدرأ عن نفسه ما كان قد يحل به.

ولهذا ندم أولئك النفر الذين استحلوا شرب الخمر، وعلموا أنهم قد أخطأوا، حتى أيسوا من التوبة لعظم ما وقعوا فيه، فكتب عمر ﷺ لقُدامة، يقول له: ﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [سورة غافر: ١-٣] ما أدري أي ذنبيك أعظم؟ استحلالك المحرم أولاً، أم يأسك من رحمة الله ثانياً؟![2].

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٨/٣٢٠-٣٢١ كتاب الأشربة ـ باب ما جاء في عدد حد الخمر.

(٢) شرح الطحاوية ٢/٤٤٨.

وعدم فهم الحجة نوعان:[(١)]

أحدهما: أن لا يفهمها مطلقاً، أي لا يدرك المقصود منها أصلاً، ودليله حديث[(٢)]: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر» وفي رواية: «وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق»[(٣)]. وهؤلاء فاقدون لعقل التكليف، فلا يفهمون ما خوطبوا به أصلاً.

الثاني: أن يفهم الحجة على خلاف المقصود منها، ودليل ذلك حديث قدامة بن مظعون المتقدم، وأيضاً ـ حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه حيث قال: «لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧] عمدتُ إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار»[(٤)].

---

(١) انظر: موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع ـ د. إبراهيم بن عامر الرحيلي ٢٠٨/١-٢٠٩

(٢) سنن أبي داود ٥٥٨/٤ كتاب الحدود ـ باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً ح: ٤٣٩٨.

(٣) سنن ابن ماجه ٦٥٨/١ كتاب الطلاق ـ باب طلاق المعتوه والصغير والنائم ح: ٢٠٤١، والحاكم في مستدركه ٥٩/٢ كتاب البيوع، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٣٤٧/١ ح: ١٦٦٠، وانظر: صحيح ابن حبان ١٧٨/١ ح: ١٤٢.

(٤) صحيح البخاري ١٣٢/٤ كتاب الصوم ـ باب قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ...﴾[البقرة:١٨٧] الآية ح : ١٩١٦، وصحيح مسلم ٧٦١/٢-٧٦١ كتاب الصيام ـ باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر ... ح : ١٠٩٠.

وإذا قيل: فهم الحجة شرط في إقامتها، فليس المقصود أن يفهمها كما كان يفهمها أبوبكر وعمر وخيار الصحابة رضي الله عنهم، بل المقصود أن يفهمها فهماً يصير به عاقلاً لمعناه، مدركاً لمقتضياتها، قال الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله: «... فإذا كان المعين يكفر إذا قامت عليه الحجة، فمن المعلوم أن قيامها ليس معناه أن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر ﷺ، بل إذا بلغه كلام الله ورسوله وخلا من شيء يعذر به فهو كافر، كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن مع قول الله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [سورة الأنعام: ٢٥] وقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٢].[١]

فالآيات التي استدل بها الشيخ رحمه الله تدل على أن الله نفى عن المشركين سمع وعقل الهداية والتوفيق، لا عقل التكليف؛ لأنه (تعالى) لا يؤاخذ من كان فاقداً لعقل التكليف، بل لا فائدة في خطابه أصلاً. يقول الإمام الشوكاني رحمه الله عند تفسير قوله (تعالى): ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [سورة الفرقان: ٤٤]: «أي: ما هم في الانتفاع بما يسمعونه إلا كالبهائم التي هي مسلوبة الفهم والعقل، فلا تطمع فيهم، فإن فائدة السمع والعقل مفقودة، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم، ويعقلون ما يتلى عليهم، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له»[٢].

---

(١) رسالة جوابية للشيخ محمد بن عبد الوهاب أرسلها إلى رجل من أهل الحسا، وهي ضمن مؤلفات الشيخ ـ القسم الخامس ـ الرسائل الشخصية ص : ٢٢٠-٢٢١ .

(٢) فتح القدير ٤/٧٨.

ومما يدل على أن الكفار يفهمون معنى ما خوطبوا به: قولـه (تعـالى) في أهل الكتاب: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦] وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [سورة البقرة: ٨٩] مـع قولـه في اليهـود: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [سورة الجمعة: ٥].

فتبين أن المقصود هنا نفي فهم الهداية والتوفيق والانتفـاع، لا فهـم مجرد الخطاب.

وأختم هذه المسألة ببعض النصوص لشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم (رحمهما الله).

أولاً: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقـد يكـون قد عرضت له شبهات يعـذره الله بهـا. فمـن كـان مـن المؤمنـين مجتهداً في طلب الحق، وأخطأ، فإن الله تعالى يغفر له خطأه، كائناً ما كان، سواء كـان في المسـائل النظريـة، أو العمليـة، هـذا الـذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أئمة الإسلام»[1].

وقال ـ أيضاً ـ رحمه الله: « ... ولهذا كنـتُ أقـول للجهميـة مـن الحلولية والنفاة، الذيـن نفـوا أن الله (تعـالى) فـوق العـرش، لـمَّـا وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنتُ كافراً؛ لأني أعلم أن قولكم

(١) فتح القدير ٧٨/٤.

كفر، وأنتم عندي لا تكفرون؛ لأنكم جهال. وكان هـذا خطاباً لعلمائهم، وقضاتهم، وشيوخهم، وأمرائهم ...»[(١)].

ثانياً: قال الإمام ابن القيم: «إن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص؛ فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه؛ كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له، فهذا بمنزلة الأصم الذي لايسمع شيئاً، ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون بالحجة يوم القيامة»[(٢)].

الشرط الثالث: التمكن من التزام الحجة، والقيام بمقتضياتها:

لا يعاقب كل من لم يلتزم بما علمه واعتقده حتى يتمكن من فعل ما أمر به، أو ترك ما نهي عنه؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «...الأصل الذي عليه السلف والجمهور أن الله (تعالى) لا يكلف نفساً إلا وسعها، فالوجوب مشروط بالقدرة، والعقوبة لا تكون إلا على ترك مأمور أو فعل محظور بعد قيام الحجة »[(٣)].

ويقول رحمه الله في موضع آخر[(٤)] مبيناً هذا الأصل: «... وكذلك الكفار: من بلغته دعوة النبي ﷺ في دار الكفر، وعلم أنه رسول الله فآمن

---

(١) الرد على البكري ـ لابن تيمية ص : ٢٦٠ .

(٢) طريق الهجرتين ص :٤١٤.

(٣) منهاج السنة ١٢٥/٥.

(٤) منهاج السنة ١١١/٥-١١٤.

به، وآمن بما أنزل عليه، واتقى الله ما استطاع، كما فعل النجاشي وغيره، ولم يمكنه الهجرة إلى دار الإسلام، ولا التزام جميع شرائع الإسلام؛ لكونه ممنوعاً من الهجرة، وممنوعاً من إظهار دينه، وليس عنده من يُعلِّمه جميع شرائع الإسلام، فهذا مؤمن من أهل الجنة، كما كان مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وكما كانت امرأة فرعون، بل وكما كان يوسف الصديق عليه السلام مع أهل مصر، فإنهم كانوا كفاراً، ولم يكن يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام، فإنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه، قال (تعالى) عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [سورة غافر: ٣٤] وكذلك النجاشي هو وإن كان ملك النصارى، فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، بل إنما دخل معه نفر منهم، ولهذا لما مات لم يكن هناك من يصلي عليه، فصلّى عليه النبي ﷺ بالمدينة: خرج بالمسلمين إلى المصلّى فصفهم صفوفاً وصلّى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات، وقال: إن أخاً لكم صالحاً من أهل الحبشة مات[1].

وكثير من شرائع الإسلام ـ أو أكثرها ـ لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر ولم يجاهد ولا حج البيت، بل قد روي أنه لم يكن يصلي الصلوات الخمس، ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدي الزكاة

(١) الحديث في صحيح البخاري ١٩١/٧ كتاب مناقب الأنصار ـ باب موت النجاشي ح: ٣٨٧٧-٣٨٨١، وانظر صحيح مسلم ٦٥٦/٢-٦٥٨ كتاب الجنائز ـ باب في التكبير على الجنازة ح: ٩٥١-٩٥٣.

الشرعية؛ لأن ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم. ونحن نعلم قطعاً أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن... ».

ثم قال رحمه الله: «والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن، فإن قومه لا يقرونه على ذلك، وكثيراً ما يتولّى الرجل بين المسلمين والتتار قاضياً ـ بل وإماماً ـ وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها، فلا يمكنه ذلك، بل هناك من يمنعه ذلك، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وعمر بن عبد العزيز عودي وأوذي على بعض ما أقامه من العدل، وقيل: إنه سُمَّ على ذلك.

فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة، وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها...».

ثم قال رحمه الله في موضع آخر: «وبالجملة لا خلاف بين المسلمين أن من كان في دار الكفر، وقد آمن وهو عاجز عن الهجرة، لا يجب عليه من الشرائع ما يعجز عنها، بل الوجوب بحسب الإمكان»[1].

---

(١) منهاج السنة ١٢٢/٥.

الفصل الخامس
المباهلة: معناها، وصورتها، وحكمها، وشروطها، ومجالاتها، ونماذج منها

وفيه خمسة مباحث:

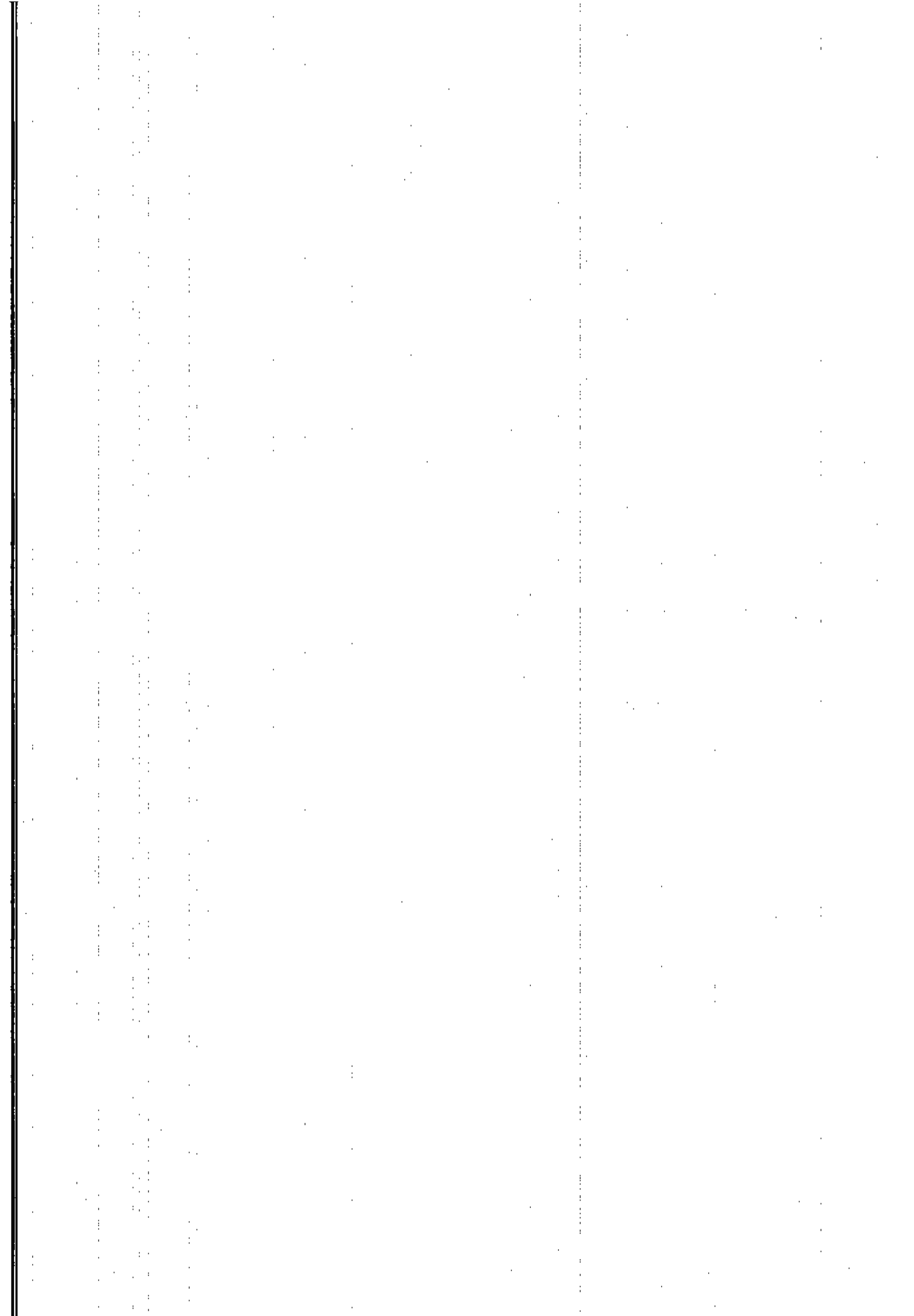
المبحث الأول: معنى المباهلة وصورتها

المبحث الثاني: حكم المباهلة

المبحث الثالث: شروط المباهلة وآدابها

المبحث الرابع: مجالات المباهلة

المبحث الخامس: نماذج من المباهلة



المبحث الأول

معنى المباهلة وصورتها

قال ابن فارس: البـاء والهـاء والـلام أصـول ثلاثـة: أحدهـا: التخليـة، والثاني: جنس من الدعاء، والثالث: قلة في الماء[1].

والذي يهمنا في هذا الباب المعنى الثاني، وهو الدعاء.

والبَهْل معناه: اللعن، بهله الله بهـلاً: أي لعنـه، وعليـه بهلـة الله، أي لعنته. وباهل القوم بعضهم بعضاً، وتباهلوا إذا تلاعنوا. والمباهلة: الملاعنة. ومـن ذلـك قولـه (تعـالى): ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سـورة آل عمران: ٦١]. أي نخلص في الدعاء، ويجتهد كـل منـا في الدعـاء واللعـن علـى الكاذب منا. ولهذا قال أبو عبيدة والكسائي في قوله (تعـالى): ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ [سورة آل عمران: ٦١]: أي نلتعن[2].

وقال ابن هشام: قال أبو عبيدة: نبتهل: ندعو باللعنة، قال أعشى بـني قيس بن ثعلبة:

لا تَقْعُدنَّ وقد أَكَّلْتَها حَطَبَاً   نعوذ من شرها يوماً ونَبْتَهِلِ[3]

يقول: ندعو باللعنة[4].

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣١٠/١ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١٠٤/٤.

(٣) ديوان الأعشى ص : ١٤٨ من قصيدة مطلعها :

ودِّع هريرة إن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(٤) سيرة ابن هشام ٢٦٥/٢.

وصورة المباهلة : أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء، فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا[1].

وعلاقتها بالجدل والمناظرة أنها مرحلة متأخرة، ينتهي عندها أحد الخصمين إلى العناد، والمكابرة وشدة الخصومة، على الرغم من ظهور الحق له ولكل من حضر، وظهور باطله، وبيان عواره، وانقطاعه، لكنه يرضى لنفسه بالتأبي عن قبول الحق، والتمنع للانقياد للحجة الظاهرة، فيدعوه خصمه إلى المباهلة قطعاً لعناده، وكسراً لباطله، فتحصل بينهما المباهلة إن استجاب المبطل، أو يمتنع فله بعد ذلك حالان:

إما أن يدخل في دين المحق، ومذهبه ويسلم له، وإما أن يبقى في عناده واستكباره ولجحه، فيظهر انقطاعه، ويتضح أنه ليس على شيء.

(١) انظر : لسان العرب ١١/٧٢.

المبحث الثاني
حكم المباهلة

حكم المباهلة الجواز وذلك عند ظهور الحجة على الخصم، وبطلان دعواه، فإذا لم يقر ويتابع، جاز دعاؤه إلى المباهلة.

ومما يبين مشروعية المباهلة دعوة النبي ﷺ مخالفيه من اليهود والنصارى لها، كما سيأتي، وأيضاً دعوة بعض الصحابة، وبعض أهل العلم مخالفيهم لها. من ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليتق الله زيد! أيجعل ولد الولد بمنزلة الولد؟، لا يجعل أب الأب بمنزلة الأب، إن شاء باهلته عند الحجر الأسود.

وعنه ـ أيضاً ـ قال: من شاء باهلته أن الظهار ليس من الأمَة، إنما قال الله: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [سورة المجادلة: ٢].[1]

وروى الخطيب البغدادي بسنده إلى ابن عباس قال: وددت أن هؤلاء الذين يخالفوني في الفريضة نجتمع فنضع أيدينا على الركن، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين[2].

وفي رواية: قال: فإن شاءوا فلندع أبناءنا وأبناءهم، ونساءنا ونساءهم، وأنفسنا وأنفسهم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين[3].

---

(١) انظر : جامع بيان العلم ٢/١٣١

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٦٣.

(٣) المرجع السابق ٢/٦٤.

وطلب الأوزاعي من الثوري الملاعنة عند الركن: أينا على الحق، في شأن الاستدلال على بعض مسائل الفروع، كرفع اليدين في الركوع والرفع منه، وذلك في مسجد الخيف[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله وهو يعدد فوائد قصة وفد نجران : «ومنها أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، ولم يرجعوا، بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله، ولم يقل : إن ذلك ليس لأمتك من بعدك، ودعا إليه ابن عمه عبد الله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم يُنكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعي سفيان الثوري في مسألة رفع اليدين، ولم يُنكر عليه ذلك، وهذا من تمام الحجة»[(٢)].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فوائد القصة نفسها: «وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة، وقد دعا ابن عباس إلى ذلك، ثم الأوزاعي، ووقع ذلك لجماعة من العلماء، ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة، ووقع لي ذلك مع شخص كان يتعصب لبعض الملاحدة، فلم يقم بعدها غير شهرين»[(٣)].

(١) انظر: محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي ص : ٦٩-٧٢ .
(٢) زاد المعاد ٦٤٣/٣.
(٣) فتح الباري ٩٥/٨.

المبحث الثالث

شروط المباهلة وآدابها

للمباهلة شروط وآداب وقفت عليها بالاستقراء والتأمل، منها:

١- لا تصح المباهلة إلا بعد ظهور الحجة من المحق، وظهور العناد واللجاج من الخصم المبطل، فالمباهلة تظهر ما يبطنه المبطل، وتقطع عليه عناده وتلاعبه، وتختصر الطريق إلى بيان الحق وظهوره.

٢- أن يكون صاحب الحق على يقين من حجته، وصحة أمره، وعلى يقين من فساد قول خصمه، وبطلان أمره، وإلا فلا يعرض نفسه للتلف، ودينه للطعن.

٣- أن يشترط المحق على المبطل متابعته على الحق، متى ظهر ذلك بالمباهلة، لا سيما إذا لم تكن المباهلة بالموت؛ لأنه إذا مات المبطل، فلا معنى لاشتراط دخوله في دين المحق، لكن قد يشترط ذلك على أتباعه وقومه ونحوهم.

٤- يجوز أن يشترط المحق ما يفسد الحيل التي قد يستعملها المبطل، على نحو ما فعل شيخ الإسلام مع طائفة البطائحية، كما سيأتي ذكرها.

المبحث الرابع
مجالات المباهلة

الذي يبدو لي أن المباهلة يجوز أن تكون في كل المسائل المختلف فيها، سواء كان منها ما يتعلق بالعقائد صغيرها وكبيرها، أو ما يتعلق بالأحكام الفقهية، والذي يدل على ذلك ما تقدم من صنيع ابن عباس والأوزاعي رضي الله عنهما.

أما هل تكون المباهلة مع الكفار الملحدين أو مع أصحاب الأديان سواء كانوا من أهل الكتاب أو من مبتدعة أهل الإسلام؟ الذي يظهر جوازها في الكل؛ لأن مشركي مكة أبدوا استعدادهم للمباهلة كما في قوله (تعالى): ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأنفال: ٣٢] (١).

لكن قد يقال: إنها تكون أنفع وأجدى مع أهل الأديان، لأن صاحب الدين يقر بجنس النبوة والمعاد مما يجعله لا يخاطر في هذا الأمر، فيعرض نفسه للهلكة، ويفوت عليه حظ الدنيا والآخرة، فالعاقل منهم يمسك عن المباهلة، وبعد ذلك إما أن يدخل في الدين الحق، أو يكتفي بالعناد والمكابرة.

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٩١-٢٩٢ .

ولهذا جرت المباهلة مع اليهود والنصارى ومبتدعة أهل الإسلام، وكان لها أثرها الطيب في غالب الأحوال، حيث رجع كثير منهم عن غيه وضلاله.

ولا يخاطر مبطل بالدخول في المباهلة إلا أن يكون مغروراً، أو جاهلاً بعواقب الأمور، كما وقع ذلك من بعض الجهمية المعتزلة على ما ذكره عبد القاهر البغدادي في كتابه: الفرق[١] أن ثمامة بن أشرس سعى إلى الواثق بأحمد بن نصر المروزي (٢٣١هـ)، وذكر له أنه يكفّر من ينكر رؤية الله (تعالى)، ومن يقول بخلق القرآن، فقتله المعتصم، ثم ندم على قتله، وعاتب ثمامة وابن أبي دؤاد وابن الزيات (٢٣٣هـ) في ذلك، وكانوا أشاروا عليه بقتله، فقال له ابن الزيات: وإن لم يكن قتله صواباً فقتلني الله (تعالى) بين الماء والنار، وقال ابن أبي دؤاد: حبسني الله في جلدي إن لم يكن قتله صواباً، وقال ثمامة: سلّط الله علي السيوف إن لم يكن قتله صواباً، فاستجاب الله (تعالى) دعاء كل واحد منهم في نفسه: أما ابن الزيات، فإنه دخل في الحمّام وسقط في أتونه فمات بين الماء والنار، وأما ابن أبي دؤاد فإن المتوكل رحمه الله حبسه فأصابه في حبسه الفالج[٢]، فبقي كذلك إلى أن مات، وأما ثمامة فإنه خرج إلى مكة فرآه الخزاعيون

---

(١) انظر: ص:١٧٤-١٧٥.

(٢) الفالج: قال في لسان العرب ٣٤٦/٢ مادة "فلج" : " ريح يأخذ الإنسان فيذهب بشقه ". ولعله الشلل .

بين الصفا والمروة فنادى رجل منهم فقال: ياآل خزاعة، هذا الذي سعى بصاحبكم أحمد بن نصر، وسعى في دمه، فاجتمع عليه بنو خزاعة بسيوفهم حتى قتلوه، ثم أخرجوا جيفته من الحرم، فأكلته السباع خارجاً من الحرم».

وهذا من علامات إكرام الله (تعالى) لأهل السنة أحياء وبعد مماتهم، ومما يؤيدهم به من الحجج والآيات.

المبحث الخامس

نماذج من المباهلة

أولاً: مباهلة الرسول ﷺ لليهود:

وذلك كما في قوله (تعالى): ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٤-٩٥].

وقوله (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة الجمعة: ٦-٧].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله تعالى :﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٤] « أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فَأَبَوْا ذلك على رسول الله ﷺ يقول الله لنبيه ﷺ :﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة البقرة: ٩٥] أي بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك». وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: «ولو تمنّوه يوم قال ذلك لهم ما بقي على ظهر الأرض يهودي إلا مات»[١]. وعنه أيضاً قال: «لو تمنّوا الموت لشرق أحدهم بريقه»[٢].

---

(١) تفسير الطبري ٣٦٢/٢ برقم : ١٥٧ ، وصحح إسناده أحمد شاكر .

(٢) انظر: تفسير الطبري٣٦٣/٢ ط. شاكر ، وقد تقدم تخريجه.

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره [(١)] : « فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً».

قال ابن كثير رحمه الله: « هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب، منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة » [(٢)] .

فاليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة ـ لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأولياؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، دُعوا إلى المباهلة، والدعاء على أكذب الطائفتين، منهم أو من المسلمين، فلما نكلوا عن ذلك، علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تقاعسوا عُلِم كذبهم [(٣)] .

وذهب بعض العلماء إلى وجه آخر في تفسير هذه الآيات، وهو أن الله تحدى اليهود إن كانوا صادقين في دعواهم بتمني الموت، لا على وجه المباهلة بينهم وبين المسلمين، وقد نسب هذا الوجه ابن كثير إلى طائفة من المتكلمين، وقال: ومال إليه ابن جرير بعدما قارب القول الأول [(٤)] . يقول

---

(١) ٣٦٢/٢ ط. شاكر . وقد تقدم تخريجه.

(٢) تفسير ابن كثير ١٢٢/١.

(٣) المرجع السابق ١٢٢/١.

(٤) المرجع السابق ١٢٢/١. وانظر : التفسير الكبير ـ للرازي ١٨٩/٣ وما بعدها .

ابن جرير رحمه الله: «وهذه الآية مما احتج الله بها لنبيه محمد ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مُهاجَره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم، وذلك أن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى ـ إذ خالفوه في عيسى صلوات الله عليه وجادلوا فيه ـ إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة، وقال لفريق اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضاركم، إن كنتم محقين فيما تدَّعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل إن أُعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جناته إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا، وإن لم تُعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم، فامتنعت اليهود من إجابة النبي ﷺ إلى ذلك، لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكت فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها... »[1].

قال ابن كثير رحمه الله : «فهذا الكلام منه أوله حسن وآخره فيه نظر، وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت، وكم من صالح لا يتمنى

(١) تفسير الطبري ٢/٣٦١-٣٦٢ ط. شاكر .

الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً، وترتفع درجته في الجنة كما جاء في الحديث: "خيركم من طال عمره وحسن عمله"[١]، ولهم مع ذلك أن يقولوا: على هذا فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شيء من ذلك... »[٢].

وإنما سميت هذه المباهلة تمنيا؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره[٣].

وقال صاحب عيون المناظرات[٤]: «فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله ﷺ لتمنوا الموت، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى ذلك وكانت هذه إحدى معجزات نبينا ﷺ ».

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة بلفظ : " خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالاً " ٢/٢٣٥ ط. المكتب الإسلامي، وصحح إسناده أحمد شاكر في المسند ١٢/١٩٩ ط. شاكر. وفي رواية: " أحسنكم أخلاقاً " ٢/٤٠٣ط. المكتب الإسلامي، وانظر : ٥/٢٦٧ من مسند أحمد ط. المكتب الإسلامي، من حديث أبي أمامة، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٠٣ وعزاه إلى أحمد، وقال : رجاله رجال الصحيح. وروى نحوه أبو يعلى في مسنده عن أنس بن مالك ٣/٤٠٨ ح: ٣٤٨٣، وحسَّن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٠٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٢٢.

(٣) انظر : المرجع السابق ١/١٢٢.

(٤) ص : ١٢٩.

ثانياً: مباهلة الرسول ﷺ للنصارى:

وذلك عند قدوم وفد نصارى نجران على النبي ﷺ ، وقد ساءلهم وساءلوه، فلم تزل بهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، يسرنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه.

فقال رسول الله ﷺ : ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى.

فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩-٦١] فأبوا أن يقروا بذلك.

فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة، وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبيه ـ وهم من رؤوس الوفد ـ: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يَصْدروا إلا عن رأيي، وإني والله، أرى أمراً ثقيلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكاً متقوياً، فكنا أول العرب طَعَنَ في عينه ورَدَّ عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا أدنى العرب منهم جوارا، ولئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعناه، لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك.

فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؟ فقال: رأيي أن أحكمه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً، فقالا له: أنت وذاك.

فتلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك، فقال: وما هو؟ قال: حكْمك اليوم إلى الليل، وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز. فقال رسول الله ﷺ : لعل وراءك أحداً يثّرب عليك! فقال شرحبيل: سل صاحبي. فقالا: ما يرد الوادي ولا يَصْدر إلا عن رأي شرحبيل.

فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم الكتاب. وقد تقدم ذكر القصة[1].

وفي صحيح البخاري[2] عن حذيفة قال: «جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوا لله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أمينا، فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة».

---

(١) وانظر: السيرة النبوية ـ ابن كثير ٤/١٠٣-١٠٤، وانظر: وزاد المعاد ٣/٦٣٣ وما بعدها، والسيرة النبوية ـ ابن هشام ٢/٢٦٥-٢٦٦.

(٢) ٨/٩٣ كتاب المغازي ح: ٤٣٨.

وجاء في قصة هذا الوفد أنه ﷺ قال: «لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملاعنة، حتى الطير على الشجر، أو العصفور على الشجر، ولما غدا إليهم رسول الله ﷺ أخذ بيد حسن وحسين وكانت فاطمة تمشي خلفه» وعلي خلفها، وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمنوا، فقال أسقفهم: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيلوا جبلاً من جباله لأزاله، فلا تباهلوا فَتُهْلَكُوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم ـ أي عيسى عليه السلام ـ فوالله ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، فإن أبيتم إلا دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا، فقالوا: يا أبا القاسم، لا نلاعنك. فقال: فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم. فأبوا. قال: فإني أنذركم. قالوا: ما لنا بحرب العرب من طاقة، ولكنا نصالحك، فصالحهم، وقال: والذي نفسي بيده أن العذاب تدلى على أهل نجران، ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر...[1]

واستدل الفخر الرازي رحمه الله بهذه المباهلة على صحة نبوته ﷺ من وجهين:

---

(١) انظر : دلائل النبوة للبيهقي ٣٨٨/٥ وما بعدها، وأخبار المدينة لابن شبة (ضمن مجموعة عبد الله الدويش) ١٦١/٢/٦-١٦٣، وفتح الباري ٩٤/٨ وعزاه إلى الشعبي ، ووفود الإسلام لأبي تراب ص : ٥٧-٥٨.

أحدهما: وهو أنه ﷺ خوفهم بنزول العذاب عليهم، ولو لم يكن واثقاً بذلك لكان ذلك منه سعيا في إظهار كذب نفسه؛ لأنه بتقدير أن يرغبوا في مباهلته، ثم لا ينزل العذاب فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر، ومعلوم أن محمداً ﷺ كان من أعقل الناس، فلا يليق أن يعمل عملاً يفضي إلى ظهور كذبه، فلما أصر على ذلك، علمنا إنما صر عليه لكونه واثقاً بنزول العذاب عليهم.

وثانيهما: أن القوم لما تركوا المباهلة فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته، وإلا لما أحجموا عن مباهلته.[1] بل ودفعوا إليه المال الوفير وصرحوا بتصديقه.

ثالثًا: مباهلة بين سني ومعتزلي:

قال الفقيه أبو بكر الأبهري (٣٧٥هـ): «تناظر رجل جَلْد من أهل السنة مع رجل جلد من المعتزلة حتى غابت الشمس من غير ظفر من أحدهما بصاحبه، فقال أحدهما: هذا مجلس لا يغتاض منه، ومجلس قد جمع قوماً صالحين، فهلُـمّ فلنخلص الدعاء إلى الله (تعالى) على أن من كان منا على حق أن يثبت الله القرآن في صدره، ومن كان منا مبطلاً أن ينسيه القرآن [بدعوة][2] الله، فأُنسي الله المعتزلي القرآن.

قال أبوبكر الأبهري: فكنت ألقاه في أيام فأسأله، فيقول: كأني ما قرأت القرآن قط».

---

(١) التفسير الكبير ـ الرازي ٨/٨٢-٨٣ .

(٢) في الأصل : [بدعوى] ولعل الصحيح ما أثبته .

قال صاحب عيون المناظرات بعد إيراده لهذه الحكاية: «فتحصل من هذه المناظرة الشهادة بخرق العادة لصحة ما عليه أهل السنة رضي الله عنهم، وذلك من جنس كرامات الأولياء رضي الله عنهم»[(١)].

رابعاً: مباهلة ابن تيمية رحمه الله لدجاجلة البطائحية (الرفاعية):

تدعي طائفة البطائحية (الرفاعية)[(٢)] جواز مخالفة الشرع بما تأتيه من بعض الخوارق ـ على زعمهم ـ فتطالب من رأى منهم مخالفة للشرع أن يُسلِّم لهم حالهم.

وهذه المباهلة جرت بين شيخ الإسلام ابن تيمية وهذه الطائفة بقصر الإمارة وبحضرة خلق من الأمراء والكتاب والعلماء والعامة، وكان ذلك في يوم السبت تاسع من جمادى الأولى سنة خمس وسبعمائة، حيث أظهر الله (تعالى) من عز الدين، وظهور الحق وعلو كلمته، وقهر الناس على متابعة الكتاب والسنة، وظهور زيف مَنْ خرج عن ذلك من أهل البدع المضلَّة، والأحوال الفاسدة، والتلبيس على المسلمين، ما كان نصراً للإسلام، وأهله على يد شيخ الإسلام رحمه الله.

---

(١) عيون المناظرات ص : ٢٩١ .

(٢) البطائحية (الرفاعية) : فرقة صوفية أسسها أبو العباس، أحمد بن علي الرفاعي الحسيني (٥١٢ـ٥٧٨هـ) الذي نشأ في البصرة، وكان يسكن في قرية أم عبيد بالبطائح بين واسط والبصرة، وأسس هذه الطريقة في العراق، واشتهرت بالقبض على الثعابين، ومن عقائدهم عدم إيذاء الحيوان أو قتله. انظر : الأعلام ١/١٧٤.

قال شيخ الإسلام وهو يصف حاله مع هذه الطائفة: «وقد تقدمت لي معهم وقائع متعددة، بينت فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل، وأحوالهم التي يسمونها الإشارات وتاب منهم جماعة، وأُدِّب منهم جماعة من شيوخهم.

وبينتُ صورة ما يظهرونه من المخاريق، مثل ملابسة النار والحيات وإظهار الدم واللاذن[1]، والزعفران، وماء الورد، والعسل، والسكر، وغير ذلك، وأن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة.

وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك، فلما رأوا معارضتي لهم رجعوا ودخلوا، على أن أسترهم، فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة». ثم ذكر رحمه الله أنه اجتمع بهم في مجلس عام، وفي جماعة كثيرة ببعض البساتين، وأنه عارضهم بأنه يدخل معهم النار بعد أن يغتسل الجميع بما يُذهب الحيلة، ومن احترق كان مغلوباً، فلما رأوا الصدق في كلامه أمسكوا عن ذلك.

وكان شيخ الإسلام يتعهدهم بالنصح والوعظ، ويطالبهم بترك الابتداع وملازمة الاتباع، ويقيم عليهم الحجة في ذلك، ولكنهم لا يدومون على الالتزام حتى شكوه إلى الأمير، وادعوا أنه يعتدي عليهم، فقال لهم الأمير: فهذا الذي يقوله: يعني الشيخ ـ من عنده؟ أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ؟

---

(١) اللاذن: واللاذنة: من العلوك، وقيل: هو دواء بالفارسية. انظر : لسان العرب ٣٨٥/١٣ مادة لذن.

فقالوا: بل يقوله عن الله ورسوله ﷺ . قال: فأي شيء يقال له؟ قالوا: نحن لنا أحوال، وطريق يُسلَّم إلينا. قال: فنسمع كلامه، فمن كان الحق معه نصرناه. قالوا: نريد أن تشد منا. قال: لا، ولكن أشد من الحق، سواء كان معكم أو معه. قالوا: ولا بد من حضوره. قال: نعم. فكرروا ذلك فأمر بإخراجهم، وأرسل إلى الشيخ.

قال الشيخ رحمه الله: « فلما علمت ذلك ألقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين وكشف حال أهل النفاق المبتدعين؛ لانتشارهم في أقطار الأرضين».

ثم قال رحمه الله: « فاستخرت الله (تعالى) في تلك الليلة، واستعنته واستنصرته، واستهديته، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك حتى ألقي في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك، وأنها تكون برداً وسلاماً على من اتبع ملة الخليل، وأنها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن السبيل».

ثم إن البطائحية قد طافوا على عدد من أكابر الأمراء يستحثونهم على الوقوف بجانبهم، زاعمين أن لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء، ولهم طريقاً لا يعرفها أحد من العلماء، وأن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة، وأن المنكر عليهم هو آخذ بالشرع الظاهر، غير واصل للحقائق والسرائر، إلى غير ذلك من الأوهام التي غرروا بها الأمراء الأكابر، فضلاً عن العوام والدهماء، حتى غدا أولئك الأمراء الأكابر وخاطبوا فيهم نائب السلطان لتعظيم أمرهم.

ثم عقد المجلس وجمع الأمير بين الشيخ وشيوخ البطائحية، وكان مما قاله الشيخ في ذلك المجلس مخاطباً الأمير في شأنهم: «... هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار، وأن أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك، ويقولون: لنا هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم أن يعترضوا علينا، بل يُسلم إلينا ما نحن عليه ـ سواء وافق الشرع أو خالفه ـ وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم، ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله، وكان مغلوباً، وذلك بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار.

فقال الأمير: ولم ذاك؟ قلت: لأنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع، وباطن قشر النارنج[1] وحجر الطلق[2]، وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم، وأنا لا أطلي جلدي بشيء، فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق، فاستعظم الأمير هجومي على النار، وقال: أتفعل؟ فقلت: له: نعم! قد استخرت الله في ذلك، وألقى في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء، فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد ﷺ المتبعين له باطناً وظاهراً لحجة أو حاجة، فالحجة: لإقامة دين الله، والحاجة لما لا بد منه من النصر

---

(١) النارنج : شجر مثمر، تستعمل ثماره وقشورها في التداوي. انظر : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١٧٤/٤، وقاموس الغذاء والتداوي بالنبات ص: ٧٢٥ .

(٢) حجر الطلق: حجر معروف، قال الرازي: ويطلى بالطلق المواضع التي تُدنى من النار؛ كي لا تعمل النار فيها. انظر: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١٠٣/٣ .

والرزق الذي به يقوم دين ا لله، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين ا لله وشرعه وجب علينا أن ننصر ا لله ورسوله ﷺ ،ونقوم في نصر دين ا لله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا ا لله به من الآيات. وليُعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة لما أظهروا سحرهم، أيَّد ا لله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم، فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السماط بذلك وفرح بذلك».

وذكر الشيخ رحمه ا لله أن الأمير أمر ببساط يبسط في الميدان، وقدم البطائحية وهم جماعة كثيرون، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء، وحركة الرؤوس والأعضاء، والطفر والحبو والتقلُّب، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات والحركات الخارجة عن العادات المخالفة لما أمر به لقمان ابنه كما في قوله: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [سورة لقمان: ١٩].

ثم بدأت مناظرة بينهم وبين الشيخ في شأن أطواق الحديد التي يلبسونها، وبيَّن الشيخ أن هذا بدعة ومنكر لا يجوز فعله، فتعللوا بأحوالهم الشيطانية، وطلبوا أن تسلم لهم هذه الأحوال وإن خالفت الشرع، فرد عليهم الشيخ أن الأحوال يجب أن تحتكم إلى الشرع، وأنه ليس لأحد الخروج عن الكتاب والسنة، لا من المشايخ والفقراء، ولا من الملوك والأمراء، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم.

فقال شيخهم ـ الذي كان يخاطب ابن تيمية ـ رافعاً صوته: نحن لنا الأحوال، وكذا، وكذا، وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها، واختصاصهم بها، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها.

فقال ابن تيمية رحمه الله: « فقلت ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ أنا أخاطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها، أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترق فهو مغلوب، وربما قلت: فعليه لعنة الله، ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار ».

فضج الناس بذلك، فأخذ شيخهم يظهر القدرة على ذلك، فقال لابن تيمية: أنا وأنت نلف في بارية بعد أن تُطلى جسومنا بالكبريت. قال ابن تيمية: فقلت: فقم، وأخذت أكرر عليه في القيام إلى ذلك، فمد يده يظهر خلع القميص. فقلت: لا، حتى تغتسل في الماء الحار والخل، فأظهر الوهم على عادتهم. فقال: من كان يحب الأمير فليحضر خشباً، أو قال: حزمة حطب. فقلت: هذا تطويل وتفريق للجمع، ولا يحصل به مقصود، بل قنديل يوقد، وأدخل إصبعي وإصبعك فيه بعد الغسل، ومن احترقت إصبعه فعليه لعنة الله، أو قلت: فهو مغلوب، فلما قلت ذلك تغيَّر وذلَّ، وذُكر لي أن وجهه اصفر. ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار، وخرجتم منها سالمين حقيقة، ولو طرتم في الهواء، ومشيتم على الماء، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع، ولا على إبطال الشرع، فإن الدجال الأكبر يقول للسماء أمطري فتمطر، وللأرض: أنبتي فتنبت، وللخربة: أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها تتبعه، ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقيه، ثم يقول له قم فيقوم، ومع هذا

فهو دجال كذاب ملعون لعنه الله، ورفعت صوتي بذلك، فكان لذلك وقع عظيم في القلوب.

ثم ذكر ابن تيمية رحمه الله أن مشايخهم الكبار أخذوا يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح، وجعل هو يلح عليهم في إظهار ما ادعوه من النار، مرة بعد مرة، وهم لا يجيبون. حتى انقطعوا وتبين للناس وللأمراء والأكابر عجزهم، وبطلان أحوالهم الشيطانية، وكان فيما قال الشيخ أن قال لهم: « أنا كافر بكم وبأحوالكم».

ثم طلبوا التوبة عما مضى، وأبدوا التزامهم بالكتاب والسنة، ورفع جميع البدع والمنكرات، وأجاب الشيخ على ما يتعلقون به من الشبه والأباطيل، حتى اتفق الجميع على أن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه، والحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده [(١)].

خامسا : مباهلة الحافظ ابن حجر لبعض المحبين لابن عربي:

ذكر العلامة البقاعي رحمه الله حكاية عن الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله قال فيها: «كان في أيام الظاهر برقوق (٨٠١هـ) شخص يقال له: ابن الأمين، شديد التعصب لابن عربي (٦٣٨هـ) صاحب الفصوص، وكنت أنا كثير البيان لعواره، والإظهار لعاره وعثاره، وكان بمصر شيخ يقال له : الشيخ صفا، وكان مقرّبا عند الظاهر، فهددني المذكور بأنه يعرِّفه بي، ليذكر للسلطان أن بمصر جماعة ـ أنا منهم

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/٤٤٥-٤٧٥ وقد طبعت هذه المباهلة مستقلة بعنوان: مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية ـ تقديم وتعليق عبد الرحمن دمشقية ـ دار طيبة ـ الرياض.

ـ يذكرون الصالحين بالسوء، ونحو ذلك. وكانت تلك الأيام شديدة المظالم والمصائب والمغارم، وكنت ذا [مال][١] فخفت عاقبته، وخشيت غائلته، فقلت : إن هنا ما هو أقرب مما تريد، وهو أن بعض الحفاظ قال: إنه وقع الاستقراء بأنه ما تباهل اثنان على شيء، فحال الحول على المُبْطِل منهما، فهلُمَّ، فلنتباهل، ليُعلم المحق منا من المبطل، فتباهلتُ أنا وهو، فقلت له: قل: اللهم إن كان ابن عربي على ضلال، فالعني بلعنتك، فقاله، فقلت أنا: اللهم إن كان ابن عربي على هدى فالعني بلعنتك، وافترقنا، وكان يسكن الروضة، فاستضافه شخص من أبناء الجند جميل الصورة، ثم بدا له أن يتركهم، فخرج في أول الليل، فخرجوا يشيعونه، فأحس بشيء مرّ على رجله، فقال لأصحابه : مرّ على [رجلي][٢] شيء ناعم، فانظروا ما هو ؟ فنظروا فلم يجدوا شيئاً، فذهب، فما وصل إلى منزله إلا وقد عمي، ولم يصبح إلا وهو ميت، وكان ذلك في ذي القعدة سنة سبع وتسعين وسبعمائة، وكانت المباهلة في رمضان منها، قال: وكنت عند وقوع المباهلة عرّفت من حضر أن من كان مُبْطِلاً في المباهلة لا تمضي عليه السنة، فكان ولله الحمد ذلك، واسترحت من شره، وأَمِنْتُ من عاقبة مكره».[٣] وقد أشار الحافظ إلى هذه المباهلة في فتح الباري[٤] كما تقدم.

(١) في الأصل: [مأل] ولعل الصحيح ما أثبته، كما نبه إليه المحقق .
(٢) في الأصل : [رجله] ولعل الصحيح ما أثبته، كما نبه إليه المحقق .
(٣) مصرع التصوف ـ للبقاعي ص : ١٤٩-١٥٠ ، وذكرها الألوسي في غاية الأماني ٣٧٤/٢
(٤) ٩٥/٨.

الباب الرابع

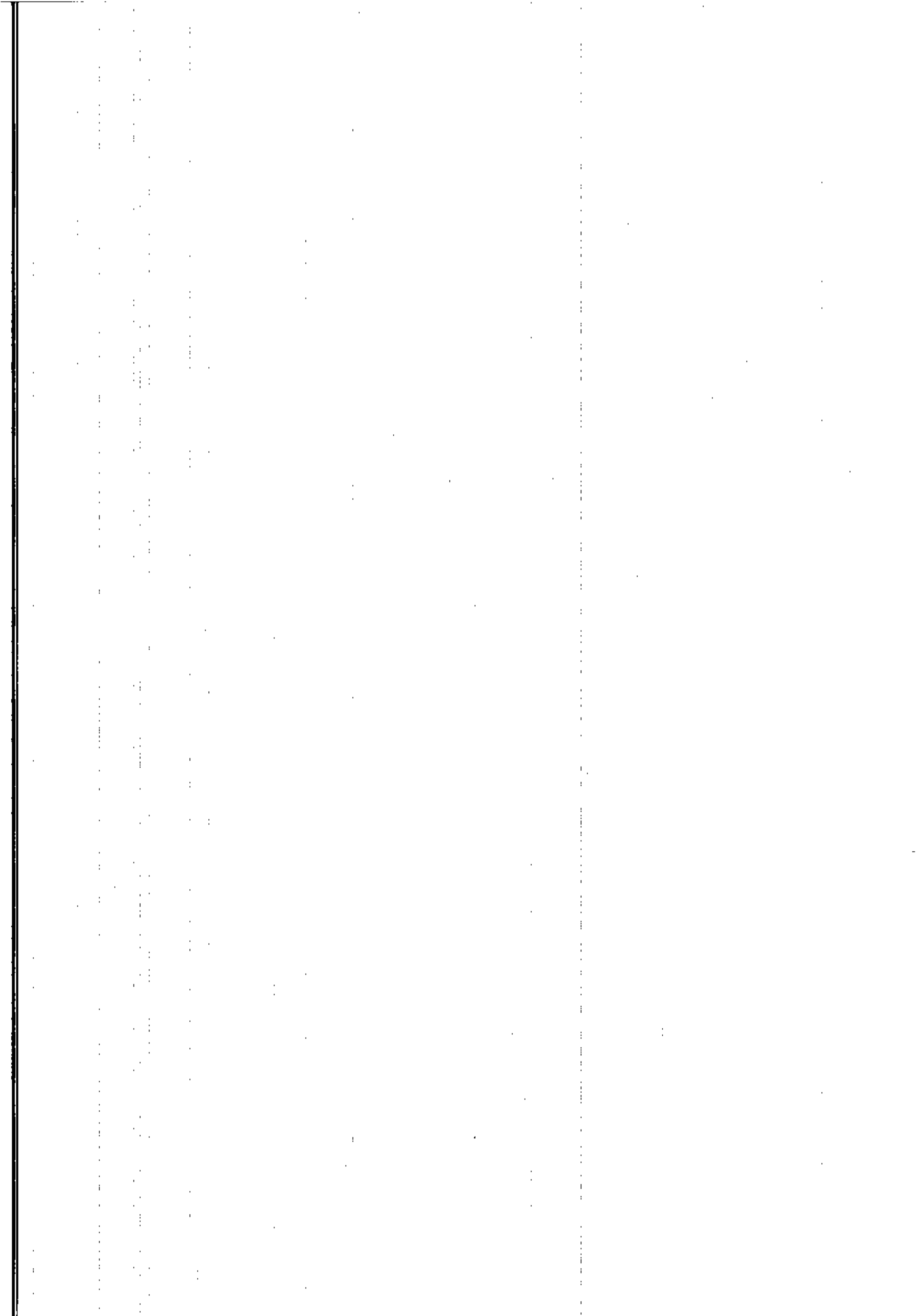
تقرير مسائل الاعتقاد عن طريق الجدل والمناظرة عند أهل السنة

وفيه مقدمة وثلاثة فصول:

الفصل الأول: الجدل والمناظرة في باب الإلهيات

الفصل الثاني: الجدل والمناظرة في باب النبوات

الفصل الثالث: الجدل والمناظرة في باب السمعيات



مدخــل:

أحب في هذا الموضع أن أنبه إلى أربعة أمور:

الأول: أن هذا الباب مسـوق لذكـر وبيـان المجـادلات والمنـاظرات الـتي وردت على ألسنة الناس مما كان فيـه نصـر للسـنة والإيمـان، مـن غير التزام بأن يكون صاحب المناظرة من أهل السنة المحضة، وإنما التزم أن تكون مناظرته فيها تقريـر للسـنة المحضـة، وانتصـار لهـا، ولأهلها، فإن الحق يقبل من كل من تكلم به .

الثاني: اعتمادي في هذا البــاب اصطـلاحَ المتكلمـين في تقسـيم مسـائل التوحيد والأصول إلى : إلهيات ونبوات وسمعيات، هو موافقـة في الناحية الشكلية والفنية فحسب، اقتضتهـا طبيعـة المـادة العلميـة، ولست ملتزماً ولا مقراً بما يترتب على هذا التقسيم الكلامــي ممـا هو معروف في موضوع علم الكلام .

الثالث: المجادلات والمنـاظرات في هـذا البـاب علـى نوعـين : نـوع وقـع حقيقة بين المتناظرين، وآخر سيق حكاية على سـبيل افـتراض أن الخصم يقول كذا وكذا، أويعترض بكذا وكذا، وفي كلا النوعين تعليم ودُربة على ممارسة الجدل والمناظرة؛ لإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

الرابع: قد يُلفت نظرَ القـارئ الكريـم عـدمُ تضمـن هـذه البـاب لبعـض المناظرات المعاصرة والمشهورة مــن نـوع مـا قـام ــ ويقـوم ــ بـه

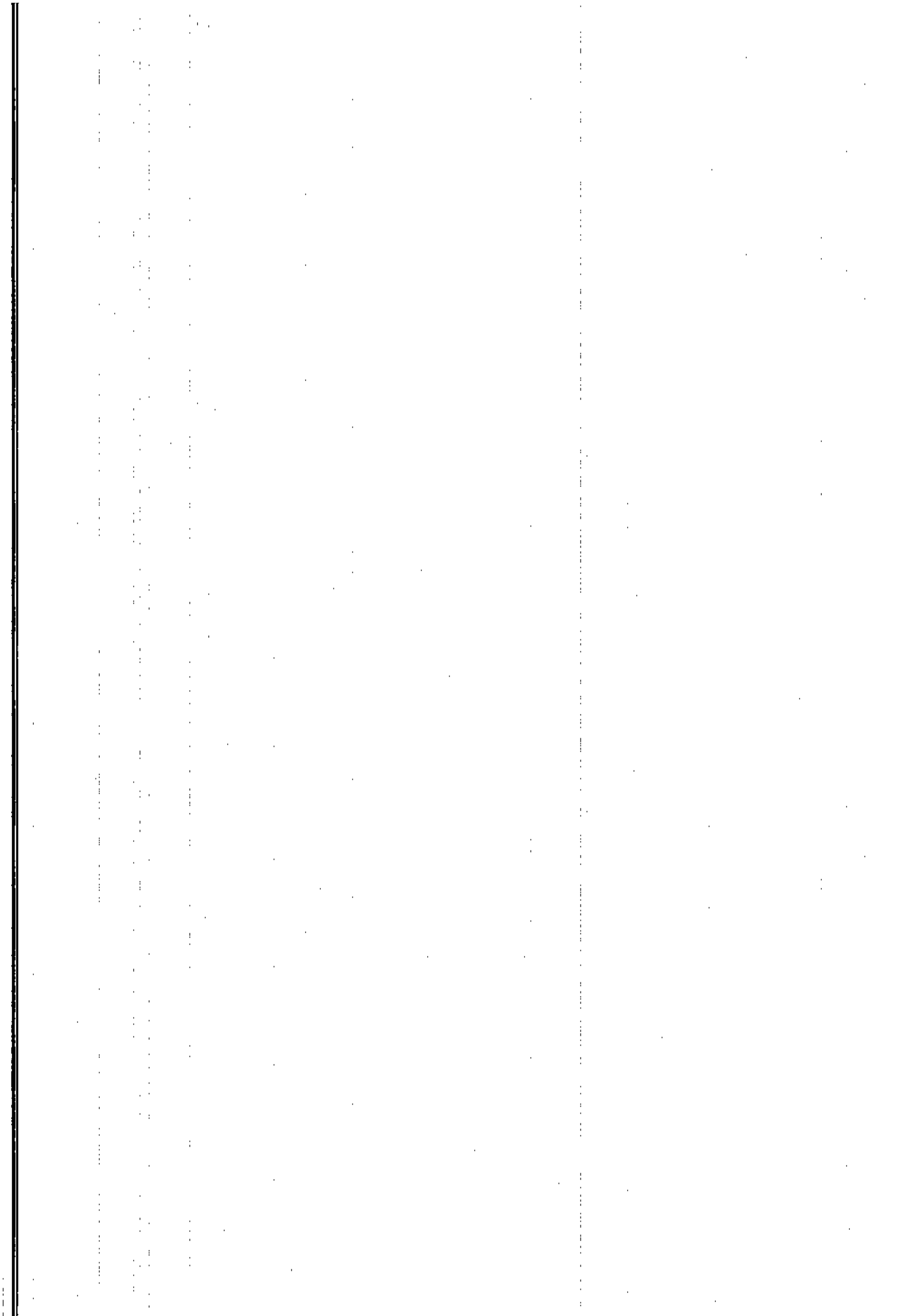
الأستاذ/ أحمد ديدات (حفظه الله) في مواجهاته الجادة والمثيرة للنصرانية في معاقلها، وكذلك ما قام به بعض العلماء من أمثال الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله، والدكتور/ يوسف القرضاوي في مواجهة الفكر العلماني والإلحادي، إلى غير ذلك من جهود علمائنا الأفذاذ.

وعذري في ذلك أن هذه المناظرات وأمثالها تجري على غير الصورة المعهودة من السؤال والجواب، والإيراد والاعتراض المباشر، وإنما هي مناظرات غلب عليها الطابع الغربي؛ حيث يُعطى كل متحدث مدة زمنية محددة، يتكلّم فيها عن المسألة المطروحة للحوار، ثم يعود مرة أخرى ليعقّب على كلام مناظره في فترة أخرى محددة أيضاً.

فمثل هذه المناظرات تحتاج إلى عناية في تلخيصها، واستخراج فوائدها، وإبراز مواضع الإفحام أو الدفع فيها. وهو موضوع الدراسات التحليلية على نحو ما صنع الأستاذ إبراهيم بن صالح الحميدان في أطروحته للدكتوراه في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والتي كانت بعنوان: أسلوب المناظرة في دعوة النصارى إلى الإسلام.

الفصل الأول

الجدل والمناظرة في باب الإلهيات



المناظرة في حكم الاستدلال في حق المكلف

اختلف الناس في أصل المعرفة بالخالق هل هي فطرية أم نظرية؟ والصحيح الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، وجمهور العلماء من المتكلمين وغيرهم أنها فطرية، وخالف في ذلك الجهمية ومن شايعهم من المعتزلة والمتكلمين[1].

وترتب على مذهب القائلين بنظرية المعرفة اختلاف آخر، وهو: هل النظر واجب أم لا ؟ على أقوال:[2]

الأول: أن النظر واجب، والمعرفة بالخالق موقوفة عليه، وهو قول الجهمية وطوائف من المتكلمين، كأبي المعالي الجويني، وحكى الإيجي في المواقف الإجماع عليه، وهو المشهور عند المعتزلة .

الثاني: يمكن حصول المعرفة بدون النظر، لكنه طريق صحيح، وهو قول أبي سليمان الخطابي، وأبي جعفر السمناني.

الثالث: ليس بواجب مطلقاً، وهو قول آخر لأبي جعفر السمناني، وعليه أبو محمد بن حزم، وقد شدد في ذلك. ومن عبارته[3]: "فلقد بقينا

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣٠/١٦ ، ومجموعة الرسائل الكبرى ٢/ ٢٤٠-٢٤١، والمعتمد في أصول الدين ص: ٣٠، والمواقف للإيجي ص: ٢٨ ، ودلائل التوحيد للقاسمي ص: ١٢-١٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣٠/١٦-٣٣١، والإنصاف للباقلاني ص: ٢٢، والشامل للجويني ص: ١١٥ وما بعدها ، والمواقف للإيجي ص: ٢٨.

(٣) الفصل في الملل ٧١/٤.

سنين كثيرة ولا نعرف الاستدلال ولا وجوهه، ونحن و لله الحمد في غاية اليقين بدين الإسلام، وكل ما جاء به محمد ﷺ نجد أنفسنا في غاية السكون إليه، وفي غاية النفار عن كل ما يتعرض فيه بشك".

الرابع : هو واجب في الجملة، وهو قول الخطابي وأبي الفرج المقدسي.

والموجبون للنظر يقولون: هو أول الواجبات، ومنهم من يقول: بل القصد إلى النظر هو أول الواجبات، وقال أبو هاشم الجبائي: الشك أول الواجبات(١).

وكل هذا غلط مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة، بل باطل في العقل أيضاً(٢).

وقال بعض العلماء: يجب النظر في حال دون حال، وعلى شخص دون شخص، فوجوبه من العوارض التي تجب على بعض الناس في بعض الأحوال، لا من اللوازم العامة، فيقال: كل علم وجب و لم يحصل إلا بالنظر وجب فيه النظر، وأما إذا حصل ضرورة أو حصل العلم بدون النظر، أو لم يكن العلم واجباً، لم يكن النظر واجباً، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا أعدل الأقوال، وكلام الأئمة والسلف إنما يدل عليه(٣).

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣١/١٦، والمعتمد لأبي يعلى ص: ٢١،٢٤، والشامل للجويني ص: ١٢١، والمواقف للإيجي ص: ٣٢.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣٢/١٦.

(٣) انظر: مجموعة الرسائل الكبرى ٣٤٧/٢-٣٤٨ .

وكذلك فالسلف متفقون على أن أول ما يجب على المكلـف الإقـرار بالشهادتين[(١)].

المناظـــــرة:

قال أبو محمد بن حزم رحمه الله: يقال لمن قال: لا يكـون مسـلماً إلا من استدل، أَخْبِرْنا متى يجب عليه فرض الاستدلال، أقبل البلوغ أم بعده؟ ولا بد من أحد الأمرين، فأما الطبري، فإنه أجاب بأنَّ ذلـك واجـب قبـل البلوغ.

قال أبو محمد: وهذا خطأ؛ لأن من لم يبلغ ليس مكلفاً ولا مخاطباً، وقـد قـال رسـول الله ﷺ: رفـع القلـم عـن ثلاثـة، فذكـر الصغير حتـى يحتلم[(٢)]. فبطل جواب الطبري رحمه الله.

وأما الأشعرية، فإنهم أَتَوْا بما يمـلأ الفـم، وتقشـعر منهـا جلـود أهـل الإسلام، وتصطك منها المسامع، ويقطع ما بين قائلها وما بين الله تعـالى، وهي أنهم قالوا: لا يلزم طلـب الأدلـة إلا بعـد البلـوغ، ولم يَقْنَعُوا بهـذه

---

(١) انظر : شرح الطحاوية ٢٣/١ .

(٢) رواه البخاري معلقاً موقوفاً على علي بن أبي طالب . صحيح البخاري ٣٨٨/٩ كتاب الطلاق ـ باب الطلاق في الإغلاق والكره... وانظر : ١٢٠/١٢ كتاب الحدود ــ بـاب لا يرجم المجنون... ورواه أبوداود في سننه ٥٨٨/٤ كتـاب الحـدود ـ بـاب في المجنـون يسرق أو يصيب حداً ح : ٤٣٩٨ عن عائشة مرفوعاً، وانظر : سنن ابن ماجه ٦٥٨/١ كتاب الطلاق ـ باب طلاق المعتـوه... ح : ٢٠٤١ وصححه الألبـاني في صحيـح ابـن ماجه ٣٤٧/١ ح : ١٦٦٠ .

الجملة حتى كفونا المؤونة، وصرحوا بما كنا نريد أن نلزمهم، فقالوا غير مساترين: لا يصح إسلام أحد حتى يكون بعد بلوغه شاكاً غير مصدق...

قال أبو محمد: ثم نقول لهم: أخبرونا عن هذا الذي أوجبتم عليه الشك في الله فرضاً، والشك في صحة النبوة والرسالة، كم تكون هذه المدة التي أوجبتم عليه في البقاء شاكاً مستدلاً طالباً للدلائل؟ وكيف إن لم يجد في قريته أو مدينته، ولا في إقليمه محسناً للدلائل، فرحل طالباً للدلائل فاعترضته أهوال ومخاوف، وتعذر بحر أو برد أو مرض، فاتصل له ذلك ساعات وأياماً وجُمُعاً وشهوراً وسنين. ما قولكم في ذلك؟ فإن حدوا في المدة يوماً أو يومين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك، كانوا متحكمين بلا دليل، وقائلين بلا هدى من الله (تعالى) ، ولم يعجز أحد عن أن يقول في تحديد تلك المدة بزيادة أو نقصان، ومن بلغ هاهنا فقد ظهر فساد قوله.

وإن قالوا: لا نجد في ذلك حدًّا، قلنا لهم: فإن امتد كذلك حتى يموت، أو مات في مدة استدلاله التي حددتم له، وهو شاك في الله (تعالى) وفي النبوة، أيموت مؤمناً وتجب له الجنة، أم يموت كافراً وتجب له النار؟

فإن قالوا : بل يموت مؤمناً تجب له الجنة، أتوا بأعظم الطوام، وجعلوا الشكاك في الله الذين هم عندهم شكاك مؤمنين من أهل الجنة، وهذا كفر محض، وتناقض لا خفاء به، وكانوا مع ذلك قد سمحوا في أن يبقى المرء دهره كله شاكاً في الله عز وجل، وفي النبوة والرسالة.

فإن قالوا: بل يموت كافراً تجب له النار. قلنا لهم: لقد أمرتموه بما فيه هلاكه، وأوجبتم عليه ما فيه دماره، وما يفعل الشيطان إلا هذا في أمره بما يؤدي إلى الخلود في النار.

وإن قالوا: بل هو في حكم أهل الفترة. قلنا لهم: هذا باطل؛ لأن أهل الفترة لم تأتهم النذارة، ولا بلغ إليهم خبر النبوة، والنص إنما جاء في أهل الفترة، ومن زاد في الخبر ما ليس فيه فقد كذب على الله عز وجل.

ثم نقول لهم وبالله التوفيق: ما حد الاستدلال الموجب لاسم الإيمان عندكم؟ وقد يسمع دليلاً عليه اعتراض، أيجزيه ذلك الدليل أم لا؟ فإن قالوا: يجزيه. قلنا لهم: ومن أين وجب أن يجزيه، وهو دليل معترض فيه؟ وليس هذه الصفة من الدلائل مخرجةً عن الجهل إلى العلم، بل هي مؤدية إلى الشك الذي كان عليه قبل الاستدلال.

فإن قالوا: بل لا يجزيه حتى يوقن أنه قد وقع على دليل لا يمكن الاعتراض فيه، كلفوا الناس ما ليس في وسع أكثرهم، وما لا يبلغه إلا قليل من الناس، في طويل من الدهر وكثير من البحث.

ثم استطرد أبو محمد رحمه الله مبيناً البرهان الموضح لبطلان هذه المقالة؛ وهو علم الخاصة والعامة وسائر أهل الأرض من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من ملل أهل الأرض أن الرسول ﷺ كان يحكم بإسلام من أسلم من الناس وفيهم المرأة البدوية، والراعي والراعية، والغلام الصحراوي، والزنجي المسبي، والزنجية المجلوبة، والرومي والرومية، والأغبر الجاهل، والضعيف الفهم، فما منهم أحد ولا من غيرهم قال له

رسول الله ﷺ: إني لا أقبل إسلامك، ولا يصح لك دين حتى تستدل على صحة ما أدعوك إليه.

وقال أبو محمد: ويلزم أهل هذه المقالة أن جميع أهل الأرض كفار إلا الأقل، وقد قال بعضهم: إنهم مستدلون... وهذه مجاهرة هو يدري أنه فيها كاذب، وكل من سمعه يدري أنه فيها كاذب؛ لأن أكثر العامة من حاضرة وبادية لا يدري معنى الاستدلال فكيف أن يستعمله؟! ...

وقال أبو محمد: ويلزم من قال بهذه المقالة أن لا يأكل من اللحم إلا ما ذبحه هو أو من يدري أنه مستدل، وأن لا يطأ إلا زوجة يدري أنها مستدلة، ويلزمه أن يشهد على نفسه بالكفر ضرورة قبل استدلاله ومدة استدلاله، وأن يفارق امرأته التي تزوج في تلك المدة، وأن لا يرث أخاه ولا أباه ولا أُمَّه، إلا أن يكونوا مستدلين، وأن يعمل عمل الخوارج الذين يقتلون غيلة، وعمل المغيرية(١) والمنصورية(٢) في خنق كل من أمكنهم

---

(١) المغيرية: من فرق الشيعة، وهم أصحاب المغيرة بن سعيد العجلي، ادعى الإمامة في محمد النفس الزكية، وزعم أنه حي لم يمت، وكان المغيرة مولى لخالد القسري، وادعى الإمامة لنفسه بعد محمد النفس الزكية، ثم ادعى النبوة، واستحل المحارم وغلا في علي رضي الله عنه، وقال بأحكام التشبيه في حق الله تعالى. ولما قتل المغيرة ـ قتله خالد القسري سنة ١١٩هـ ـ اختلف أصحابه؛ فمنهم من قال بانتظاره ورجعته، ومنهم من قال بانتظار محمد النفس الزكية فقط. انظر : مقالات الإسلاميين ١/٦٩، والملل والنحل ١/١٧٦-١٧٨.

(٢) المنصورية : هم أصحاب أبي منصور العجلي، عزا نفسه أول أمره إلى أبي جعفر محمد ابن علي الباقر، فلما تبرأ منه الباقر وطرده زعم أنه هو الإمام . أخذه والي العراق يوسف ابن عمر الثقفي وصلبه. من مزاعمه دعواه أن علياً هو الكسف الساقط من السماء، ودعواه بعدم انقطاع الرسالة، وتأول المحرمات كلها على أسماء رجال، وكذا الجنة والنار، إلى غير ذلك من مخازيه. انظر : الفرق بين الفرق ص : ٢٤٣ وما بعدها، والملل والنحل ١/١٧٨-١٧٩ .

وقتله، وأن يستحلوا أموال أهل الأرض، بل لا يحل لهم الكف عن شيء من هذا كله؛ لأن جهاد الكفار فرض، وهذا كله إن التزموه طردوا أصولهم وكفونا أنفسهم، وإن لم يقولوا بذلك تناقضوا...

ثم قال رحمه الله: وأيضاً فنقول لهم: هل استدل من مخالفيكم في أقوالكم التي تدينون بها أحد أم لم يستدل قط أحد غيركم؟ فلا بد من إقرارهم بأن مخالفيهم أيضاً قد استدلوا، وهم عندكم مخطئون كمن لم يستدل ولا فرق، وأنتم أيضاً عندهم مخطئون.

فإن قالوا: إن الأدلة أمنتنا من أن نكون مخطئين. قلنا لهم: وهذا نفسه هو قول خصوكم؛ فإنهم يدعون أن أدلتهم دلّتهم على صواب قولهم وخطأ قولكم ولا فرق. ما زالوا على هذه الدعوى مذ كانوا إلى يومنا هذا، فما نراكم حصلتم من استدلالكم إلا على ما حصل عليه من لم يستدل سواء بسواء ولا فرق.

فإن قالوا: فعلى قولكم هذا يبطل الاستدلال جملة وتبطل الدلائل كافة. قلنا: معاذ الله من هذا، لكن أريناك أنه قد يستدل من يخطئ، وقد يستدل من يصيب بتوفيق الله (تعالى) فقط. وقد لا يستدل من يخطئ، وقد لا يستدل من يصيب بتوفيق الله (تعالى)، وكل ميسر لما خلق له...

فمن وُفّق للحق الذي قامت عند غيره البراهين الصحاح بصحته فهو مصيب محق مؤمن، استدل أو لم يستدل. ومن يُسِّر للباطل الذي قام البرهان عند غيره ببطلانه فهو مبطل مخطئ، أو كافر، سواء استدل أو لم يستدل، وهذا هو الذي قامت البراهين بصحته[1].

---

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/٧٣-٧٨.

مناظرة السوفسطائية

مرَّ الكلام عن السفسطة والسوفسطائية، وذكر بعض المتكلمين أن السوفسطائية ثلاثة أصناف: أحدها: ينفي الحقائق جملة، والثاني: يشككون فيها. والثالث: يقولون: هي حق عند من هي عنده حق، وهي باطل عند من هي عنده باطل[1].

وذكر أبو محمد ابن حزم رحمه الله كيفية مناظرة كل صنف على حدة:[2]

أما الأول: وهم النافون للحقائق،فيقال لهم: قولكم: إنه لا حقيقة للأشياء، أحق هو أم باطل؟ فإن قالوا: هو حق، أثبتوا حقيقة ما، وإن قالوا: ليس هو حقاً، أقروا ببطلان قولهم، وكفوا خصومهم أمرهم.

أما الثاني: وهم الشكاك، فيقال لهم: أشكُّكُم موجود صحيح منكم أم غير صحيح ولا موجود؟ فإن قالوا: هو موجود صحيح منّا، أثبتوا أيضاً حقيقة ما، وإن قالوا: هو غير موجود، نفوا الشك وأبطلوه.

وأما الثالث: وهم القائلون بالحق النسبي الإضافي، فيقال لهم: إن الشيء لايكون حقاً باعتقاد من اعتقد أنه حق، كما أنه لا يبطل باعتقاد من اعتقد أنه باطل، وإنما يكون الشيء حقاً بكونه موجوداً ثابتاً، سواء اعْتُقد أنه حق، أو اُعْتُقد أنه باطل، ولو كان غير هذا، لكان معدوماً موجوداً في حال واحدة في ذاته، وهذا عين المحال.

---

(١) انظر : الفصل ١/٤٣.

(٢) الفصل ـ ابن حزم ١/٤٤-٤٥ ، وانظر : الموجز لأبي عمار الأباضي ١/٢٨٠-٢٨١

وقال أبو محمد بن حزم: «مع أن هذه الأقوال لا سبيل إلى أن يعتقدها ذو عقل البتة، إذ حسه يشهد بخلافها، وإنما يمكن أن يلجأ إليها بعض المتنطعين على سبيل الشغب»(١).

مناظرة الإمام الباقلاني للسوفسطائية:

ذُكر أن قوماً من السوفسطائية وصلوا إلى موضع أملاه القاضي الباقلاني رحمه الله لمناظرته، وكانوا على مطايا، فلما نزلوا ودخلوا عليه أمر القاضي رحمه الله مَنْ أخذ المطايا من أيدي خدمهم وبدَّلها بقردة.

فلما فرغوا من الكلام مع القاضي خرجوا، فوجدوا قردة بدلاً من مطاياهم، فضجوا في طلب المطايا، فقال لهم: ما هي إلا مطاياكم، وإنما تخيل لكم أنها قردة وأنتم لا تثبتون حقيقة، فأُفحموا بالحجة، وعلموا أن ذلك لقطع ما بأيديهم.(٢) وتُروى نحو هذه القصة عن الكعبي من المعتزلة(٣).

وذكر أبو عيسى الورَّاق المعتزلي (٢٤٧هـ) أن رجلاً من السوفسطائية أتى على بغلة له إلى رجل ليناظره على السفسطة، فعمد مناظروه إلى البغلة فغيبوها، فلما أحبَّ الانصراف دعا بالبغلة، فقيل له: لم تأت إلينا بالبغلة، فقال لهم: بل أتيتكم بها، فقالوا: بل لم تأتنا بها، فقال:

---

(١) الفصل - ابن حزم ٤٥/١ ، وانظر : الأصول والفروع ص : ٣٢٨ .

(٢) عيون المناظرات ص : ٢٤٩.

(٣) انظر : فرق وطبقات المعتزلة ص : ٩٤ .

بل أتيتكم بها، فقيل له: تثبَّت فيما قلت، لعلك أيها الرجل لم تـأت علـى بغلة، فقال لهم: قد تثبَّتُ، وعلمتُ أني أتيتُ على بغلة بلا شك ولا مِرية. فقيل له: أعلى الحقيقة كان ذلك أم علـى غـير الحقيقـة؟ فقـال: بـل علـى الحقيقة. فقالوا: أفيكون شيء ويثبت على الحقيقة. قال أبـو عيسـى: فـأقرَّ عند ذلك بالحقائق، ورجع عن القول بالسفسطة[1].

ومن السفسطة قول السيالية: وهو أن الإنسان ــ وسـائر الأجسـام ــ يتجدد في كل زمن فرد، وأنه ليس هو الذي كان موجوداً قبل هذا الزمان الذي هو فيه، ولا هو الذي يكون موجوداً في الزمان الذي يليه مـن بعـده بل غيره، فناظر سني سيالياً يعتقد هذا الاعتقاد الفاسد، فأخذ السـني نعلـه وضرب وجه السـيالي ضربـة شـديدة. فقـال السيالي: مـا هـذا؟ قـال: لا تنكره، فإن الذي ضربته قد انعدم، وأنت آخر غيره، وهذا هـو مذهبـك. فانقطع السيالي بإنكاره[2]. ويمكن السني أن يضيف إلى حجته قولـه: وأن الذي ضربك قد انعدم وأنا شخص غـيره، فيكـون قـد حـاصره مـن كـل جانب.

---

(١) الموجز لأبي عمار الأباضي ١/٢٨١-٢٨٣.

(٢) انظر : عيون المناظرات ص : ٢١٩.

مناظرة منكري الأعراض

الأعراض: جمع عرض، وهو ما يكون بالأجسام من الألوان، والطعوم، والروائح، ونحو ذلك من كل ما لا يقوم بنفسه، بل يقوم بغيره.

فيحكى عن أبي الهذيل العلاف أنه ناظر بعض منكري الأعراض، فقال له في بعض مناظرته: كم حد القذف؟ فقال: ثمانون جلدة، فقال له: فكم حد الزنا؟ فقال: مائة جلدة، فقال له: ما الجلد، أهو الآلة، أو معنى زائد، أو أي شيء هو؟ فقال: هو لا شيء. فقال له أبو الهذيل: بكم حد الزنا أكثر من حد القذف؟ فقال: بعشرين، فقال له أبو الهذيل: فإذن لا شيء أكثر من لا شيء بعشرين، فانقطع[1].

المناظرة في حدوث العالم

اتفق أهل الملل والأديان وكل عاقل على أن العالم مخلوق، حادث بعد أن لم يكن، وخالف في ذلك الملاحدة القائلون بقدم العالم من الفلاسفة والدهرية ونحوهم.

قال بعض الملحدين لبعض أصحاب الكلام: هل من دليل على حدوث العالم؟ قال: الحركة والسكون. فقال: الحركة والسكون من العالم، فكأنك إذاً قلت: الدليل على حدوث العالم العالِمُ؛ فقال له: وسؤالك إياي من العالم، فإذا جئت بمسئلة من غير العالم جئتك بدليل من غير العالم[2].

---

(١) الداعي إلى الإسلام - لأبي البركات الأنباري ص: ١٢٥-١٢٦.

(٢) عيون الأخبار ١٥٢/٢.

المناظرة في أن الله ليس قبله شيء

من اعتقاد أهل السنة أن الله (تعالى) هو الأول ليس قبله شيء، وهو الآخر ليس بعده شيء، وهو الظاهر ليس فوقه شيء، وهو الباطن ليس دونه شيء. والدليل على ذلك قوله ﷺ في الدعاء: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»(١).

ودليل ذلك من العقل ما جرى في هذه المناظرة بين سني وبعض المبتدعة حين سألوه: ما دليل من قال: إن الله سبحانه ليس قبله شيء؟ قال السني: عُدُّوا هذه الحصاة، فبدأ العاد، فقال: واحد. قال السني: ارجع إلى واحد. فقال: واحد. قال السني: هل قبل الواحد شيء؟ قالوا: لا. قال: فكذلك ليس قبل الباري (تعالى) شيء، إذ هو واحد(٢).

المناظرة في تعطيل الصانع

إنكار وجود الصانع (الخالق) أمر يكاد يكون من الممتنعات؛ إذا كان على سبيل الجزم والاعتقاد، لكن قد يفعله بعض الناس على سبيل الجحود والعناد؛ وذلك لأن الإقرار بوجوده أمر مركوز في فطر بني آدم، قال (تعالى): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ٤/٢٠٨٤ كتاب الذكر والدعاء... باب ما يقول عند النوم... ح: ٢٧١٣

(٢) انظر: عيون المناظرات ص: ٢٩٢.

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢] وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١).

ولهذا لم تعرف في المجموعة البشرية طائفة أنكرت وجود الصانع على سبيل الجزم والاعتقاد، بل كل من أثر عنه ذلك فهو على سبيل الجحود والعناد، ومن أمثلة هؤلاء: **الدهرية والمجوس والثنوية والملاحدة الشيوعيون** ونحوهم، لكن أشهر من عرف عنه هذا التعطيل فرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [سورة النازعات: ٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غيري﴾ [سورة القصص: ٣٨] وقال لموسى وهارون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا موسى﴾ [سورة طه: ٤٩] على سبيل المنكر الجاحد، وقال لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٩] لكن كل هذا كان على سبيل الجحود والعناد؛ ولهذا قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢] وقال (تعالى) عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤].

مناظرة الدهرية

كان بعض الملوك ممن تقدَّم معطِّلا، وكان له وزير عاقل عالم، وكان من عادة الوزير أن يتخذ للملك نزهة في كل سنة، فأمر الوزير في بعض

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٣/٢١٩ كتاب الجنائز ـ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه...؟ ح : ١٣٥٨ ، ومسلم في صحيحه ٤/٢٠٤٧ كتاب القدر ـ باب معنى كل مولود على الفطرة ... ح : ٢٦٥٨.

المفاوز بإجراء الأنهار، وغرس الأشجار، وبناء القصور. ثم أحضر الملك في ذلك الموضع، فلما رأى كل عجب قال للوزير: كيف عَمُرَت هذه المفاوز القفرة؟ قال له الوزير: ما عمرت، بل كانت قفراء إلى هذه المدة القريبة، ثم لما عدنا إليها وجدناها قد حدث فيها ما تراه من تلقاء أنفسها، من غير مصلح ولا صانع، فاشتد غضب الملك وقال للوزير: أتهزأ بي؟ قال له الوزير: إذا كان حدوث هذا القدر ممتنعاً من غير معمِّر، فحدوث العالم الأعلى والأسفل أولى وأحرى. فانتبه الملك من غفلته وعاد إلى دين الحق[١].

مناظرة أبي حنيفة للدهرية:

كان أبو حنيفة رحمه الله سيفاً على الدهرية، وكانوا ينتهزون الفرصة في قتله، فبينما هو يوماً في موضع وحده هجموا عليه بسيوفهم وهمَّوا بقتله، فقال لهم: أجيبوا عن المسألة، وافعلوا ما شئتم. قالوا: هات. قال: ما تقولون عمَّن قال لكم: رأيت سفينة مملوءة من الأثقال احتوشتها في لُجَّة البحر أمواج ورياح مختلفة، وهي تجري مستوية ليس لها رائس ولا مدبر، هل يجوز ذلك؟

قالوا: هذا لا يعقله عاقل. قال أبوحنيفة: يا سبحان الله، إذا لم يجز هذا، فكيف قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها، وَسَعَة أطرافها وتباين أكنانها، من غير صانع ولا حافظ؟! فبكوا واعترفوا بالحق[٢].

---

(١) عيون المناظرات ص : ٢٢٠-٢٢١.

(٢) المرجع السابق ص : ٢١٤ ، وانظر : عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان ص : ٢٨٣

قال صاحب عيون المناظرات[(١)]: «وهذه الدلالة مأخوذة من قوله (تعالى): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة الروم: ٢٥]».

وتحكى هذه القصة عن أبي حنيفة بوجه آخر؛ وهو أن قوماً من أهل الكلام[(٢)] أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم: أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة، تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسي بنفسها، وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد؟ فقالوا: هذا محال لا يمكن أبداً! فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله!! وتحكى عن غير أبي حنيفة أيضاً[(٣)].

مناظرة ابن حزم للدهرية:

ومن حجج الدهرية قولهم: لم نر شيئاً حدث إلا من شيء أو في شيء، فمن ادعى غير ذلك، فقد ادعى ما لا يُشاهَد ولم يُشاهِد[(٤)].

فبيَّن ابن حزم رحمه الله طريقة مناظرتهم بما مفاده[(٥)]: أن يقال لهم: هل تُدرك حقيقة شيء عندكم من غير طريق الرؤية والمشاهدة، أو لا يدرك شيء من الحقائق إلا من طريق الرؤية فقط؟

---

(١) ص: ٢١٤.

(٢) هكذا سماهم شارح الطحاوية، وهو بعيد؛ لأن المعروف عن أهل الكلام إفناء أعمارهم ومحابرهم في تقرير توحيد الربوبية، إذ هو غاية مقصودهم، ونهاية مطلوبهم، والأليق أن يكون المناظر لأبي حنيفة هم الدهرية.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ١/٣٥-٣٦.

(٤) انظر: الفصل - ابن حزم ١/٤٨.

(٥) انظر: المرجع السابق ١/٥٠-٥١.

فإن قالوا: إنه قد تدرك حقائق من غير طريق الرؤية والمشاهدة، تركوا استدلالهم وأفسدوه، إذ قد أوجبوا وجود أشياء من غير طريق الرؤية والمشاهدة، وقد نفوا ذلك قبل هذا.

فإن قالوا: لا يدرك شيء إلا من طريق الرؤية والمشاهدة، قيل لهم: فهل شاهدتم شيئاً قط لم يَزَل؟

فلا بد لهم من نعم أو لا، فإن قالوا: لا، صدقوا وأبطلوا استدلالهم. وإن قالوا: نعم، كابروا، وادعوا ما لا سبيل إلى مشاهدته، إذ مشاهدة قائل هذا القول للأشياء هي ذات أوَّل بلا شك، وذو الأول هو غير الذي لم يزل؛ لأن الذي لم يزل هو الذي لا أول له، ولا سبيل أن يشاهد ما له أول ما لا أول له مشاهدة متصلة، فبطل هذا الاستدلال على كل وجه. والحمد لله رب العالمين.

مناظرة الثنوية والمجوس

الثنوية من المجوس، وهم القائلون بالأصلين: النور والظلمة، والنور ـ عندهم ـ هو مصدر كل خير، والظلمة مصدر كل شر.

فيقال لهم: أخبرونا عن رجل قتل رجلاً من القاتل؟ فإن قالوا: النور، تركوا قولهم، وزعموا أن النور يفعل الشر. فإن قالوا: الظلمة قتلته، قيل لهم: فإن هو جاء فاعترف بأنه قتله وتاب عن قتله، من المقر التائب؟ فإن قالوا: الظلمة، قيل لهم: فقد صدقت وأحسنت، والصدق خير وهذا فساد المذهب. وإن قالوا: المقر التائب هو النور، قيل لهم: أَوَكَان النور فعل شيئاً

فيقر به؟ فإن قالوا: لم يقتل وإنما أقرَّ أنه قتل، قيل لهم: فقد كذب وظلم نفسه، والكذب شر، وليس ذلك من فعل النور ـ على زعمكم ـ فلا بد لهم من أحد أمرين: إما أن تقر الظلمة بالقتل وتعترف بأنها قد قتلت فتصدق، والصدق خير، والخير لا يكون منها، وإما أن يقر النور بأنه قتل وهو لم يفعل، فهذا كذب، والكذب شر، وليس هو من فعله(١).

مناظرة أبي العباس السَّفّاح للثنوية:

روي أن أبا العباس السفاح(١٣٦هـ) أُتي برجل ثنوي على مذهب المجوس، فجمع له العلماء، وقال: بما ترون؟ قالوا: السيف يا أمير المؤمنين، فقال: نعم السيف، لكن بعد إقامة الحجة عليه.

ثم أقبل على الرجل وقال له: صف لي شبهتك. فقال: رأيت خيراً وشراً، وعزاً وذلاً، وموتاً وحياة، فقلت: هذا ليس من واحد، بل من اثنين؛ واحد للخير وآخر للشر. فأطرق السفاح مليًّا، ثم رفع رأسه، وقال له: أخبرني عن الذي يخلق الخير: أيقدر على خلق مقدور الآخر؟ فقال: لا. قال: والذي يقدر على الشر أيقدر على مقدور الآخر؟ قال لا. قال: ويحك، فاتخذت إلهين عاجزين قاصرين، ومن لا يقدر إلا على بعض المقدورات دون بعض فعاجز عن البعض. فبُهت الرجل، فقال: أبقيت لك حجة؟ قال: لا. قال: الآن فاضربوا عنقه، فقال له ابن شبرمة: الحمد لله الذي هدى بأولكم أولنا وبآخركم آخرنا.

---

(١) الموجز لأبي عمار الأباضي ١/٢٨٨-٢٨٩.

وقد زاد بعض الأئمة هذه المناظرة بياناً بأن قال: لو قُدِّر فراره عن أن يقول: لا يقدر، إلى أن يقول: يقدر، لكن لا يريد. لقيل له: أبطلت ما بيدك؛ إذ يلزمك أن يكون فاعل الخير هو فاعل الشر، وفاعل الشر هو فاعل الخير، فلا تعدد؛ لأن موجب العدد على زعمك قد بطل[1].

مناظرة المأمون للثنوية:

حكي أن المأمون ناظر ثنوياً فقال له: أسألك عن حرفين: هل ندم مسيء قط على إساءته؟ قال الثنوي: نعم. فقال له المأمون: فالندم على الإساءة إساءة أم إحسان؟ قال: بل هو إحسان. فقال له المأمون: فالذي ندم هو الذي أساء أم غيره؟ قال: بل هو الذي أساء. قال: فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر، وقد بطل قولكم: إن الذي ينسب إليه الخير غير الذي ينسب إليه الشر.

فرجع الثنوي، فقال: أنا أزعم أن الذي أساء غير الذي ندم، فقال له المأمون: فندم على شيء كان من غيره أو كان منه؟ فسكت الثنوي، وعجز، وبطل مذهبه[2].

مناظرة هشام بن الحكم للثنوية:

جاء رجل ملحد إلى هشام بن الحكم، فقال له: أنا أقول بالاثنين، وقد عرفت إنصافك فلست أخاف مشاغبتك، فقال هشام وهو مشغول بثوب ينشره و لم يُقبل عليه: حَفِظك الله، هل يقدر أحدهما أن يخلق شيئاً

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) انظر : عيون الأخبار لابن قتيبة ١٥٢/٢ ، وعيون المناظرات ص : ٢١٢-٢١٣.

لا يستعين بصاحبه عليه؟ قال: نعم. قال هشام: فما ترجو من اثنين! واحد خلق كل شيء أصح لك. فقال: لم يكلمني بهذا أحد قبلك[١].

مناظـــرة الشيوعيين

ذكر أبو عبد الكريم المعصومي[٢] وذلك بعد الانقلاب الشيوعي الذي حدث في روسيا على يد لينين، أنه نُشر في الجرائد أن في طاشقند يُعقد مجلس لأجل المناظرة في إثبات وجود الله، فكل من يريد ذلك فليحضر المجلس في الوقت المحدد، فقام أبو عبد الكريم المعصومي من مقامه وركب القطار، وحضر إلى طاشقند في الوقت المشار إليه، وكان هناك جمع عظيم من المسلمين والنصارى والشيوعيين الدهريين وغيرهم، أكثر من عشرة آلاف نفس.

فقام زعيم الشيوعيين وخطب وتكلم وهذى، إلى أن قال: إن الناس يقولون: إن الله موجود وهو الذي أوجد العالم ورباه ويربيه، وقولهم هذا خرافة؛ لأنه لو كان موجوداً لرأيناه كما نرى الشمس والقمر وغيرهما، وهم يصفونه بأنه كبير وعظيم وجليل كما في القرآن والتوراة والإنجيل، ونحن الآن نرى أدق الأشياء وأصغرها بآلة الرصد (الميكرسكوب

---

(١) عيون الأخبار ١٥٤/٢

(٢) هو: محمد سلطان المعصومي، الخجندي، الحنفي، السلفي، كان مدرساً بمدرسة دار الحديث المكية، والمسجد الحرام، وله كتب منها: هدية السلطان إلى مسلمي بلاد جابان، والمشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية. كان حياً حتى عام ١٣٥٨هـ. أخذت الترجمة من جلدة بعض كتبه.

والتليسكوب) الآلات المقربة والمكبرة، وقد دققنا وفتشنا فلم نره، ولم يره أحد، بل ولا أخبر أحد أنه رآه، فهو معدوم وليس بموجود، والأشياء تولدها الطبيعة حسب مقتضى المادة، إلى آخر ما طغى وغوى وبغى.

قال أبو عبد الكريم: فقمتُ ـ هذا الفقير ـ من مقامي وصعدت المنبر، وحمدتُ الله (تعالى) وصليت على رسوله سيدنا محمد ﷺ فقلت بعد تمهيد المقدمات والاستدلال لوجود الله (تعالى) بهذه الكائنات: إن الزعيم المنكر لوجود ربه وخالقه (جل سلطانه) بنى إنكاره على أنه لم يره، فأنا سائله: هل له روح في جسده وعقل في مخه؟ فلا بد أنه يقول: نعم، إن له روحاً في بدنه وعقلاً في مخه، فإن كان هكذا، فهل رأى روحه وعقله، ما هو وكيف هو؟ فهذا قد أقر بوجود مالم يره، واعترف بثبوت ما لم يشاهد، وإنما أقر واعترف بوجود الروح والعقل لظهور أثرهما، فإن كان هكذا فليقر وليعترف بوجود الله الذي كل هذا المخلوقات من آثار قدرته، ودلائل علمه وحكمته، وهذا الإنسان الجاهل المنكر إذا لم يستطع رؤية روحه الذي هو في نفسه، كيف يستطيع رؤية رب العالمين الذي الروح أمر من أمره، والخالق الجليل الذي لا شبه له ولا نظير له وهو سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

قال أبو عبد الكريم: فالمسلمون كبروا الله وسبحوه وصفقوا وسروا واستبشروا، وأما المنكرون الضالون فخجلوا وخابوا . وقال ـ أي الزعيم ـ إن لنا أستاذاً في موسكو نخبره بالواقعة فهو يجيب، فرجعنا إلى وطننا غالبين ومنصورين.

وقد هجم الروس على دار المعصومي وأخذوا كل ما فيها مما له قيمة، ثم حكموا عليه بالإعدام رميا بالرصاص، لكن الله (تعالى) نجاه من شرهم وكيدهم في قصة عجيبة مذكورة في موضعها[١].

مناظرة في الضر والنفع

روي أن عمر بن الخطاب ﷺ استلم الحجر الأسود، ثم قال: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

وروي أن علي بن أبي طالب ﷺ قال: بل ينفع ويضر.

قال صاحب عيون المناظرات: فصارت هذه المقابلة في صورة مناظرة، وكلام كل واحد من هذين الإمامين الجليلين صحيح؛ لأن كلام عمر ﷺ معناه لا خالق إلا الله، وكلام علي ﷺ معناه: ينفع بما يحصل من الأجر على امتثال الشرع في استلامه[٢].

المناظرة في التنجيم

التنجيم نوعان : أحدهما: شرك، وهو: إسناد الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية، وهو اعتقاد الصابئة قوم إبراهيم عليه السلام ، وهو ما يسمى بعلم التأثير. والثاني: مشروع وهو: الاستدلال بحركة الكواكب على مثل القبلة، والاتجاهات كما في قوله (تعالى): ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النحل: ١٦]، وهو ما يسمَّى بعلم التسيير.

---

(١) انظر: حكم الله الصمد في حكم الطالب من الميت المدد لأبي عبد الكريم المعصومي ص: ٦٥-٦٧

(٢) انظر: عيون المناظرات ص : ١٦٢-١٦٣ (بتصرف).

كسر الفاروق لطاغوت التنجيم:

روي أن عمر بن الخطاب ﷺ أراد أن يخرج إلى غزوة، فقال له قائل: يا أمير المؤمنين، اصبر حتى يطلع لنا القمر، يشير القائل إلى السعد بطلوع القمر، فقال له عمر ﷺ: وقمرهم. فبين ﷺ أن القمر يطلع على العدو كما يطلع عليهم، فليس بعض الخلق بالنسبة إلى طلوعه بالسعد أولى من بعض[(١)].

وهذه الحقيقة التي ذكرها الفاروق ﷺ هي عين التحقيق في هذه المسألة؛ لأن الكواكب حوادث لا تحدث شيئاً، فليس لها تأثير في الكائنات، ولا رابطة من الروابط العقلية بين حركة جرم الفلك وحدوث حادث آخر، لا في العلويات ولا في السفليات، بل كل ذلك صادر بمشيئة الله (تعالى) مبدع الأعيان والذوات[(٢)].

مناظرة الثوري للمنجمين:

روي أن سفيان الثوري لقي ما شاء الله(٢٠٠هـ)، فقال له: أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل، وأنت ترجو المشتري وأنا أرجو رب المشتري، وأنت تغدو بالاستشارة، وأنا أغدو بالاستخارة، فكم بيننا؟ فقال له ما شاء الله: كثير ما بيننا، حالك أرجى، وأمرك أنجح وأحجى[(٣)].

---

(١) انظر: عيون المناظرات ص : ١٦٥.

(٢) انظر: عيون المناظرات ص:١٦٥.

(٣) المقابسات ـ لأبي حيان التوحيدي ص : ١٢٣.

مناظـــرة أخرى لأهل التنجيم:

قال موحِّد لمنجِّم مدعي علم ما يكون: قد أمسكت لك هـذا الخـاتم في يدي، وانظر ما تدلُّك عليـه النجـوم، فـإن قلـت: دلـت علـى إمسـاكه رميته، وإن قلت: دلت على سقوطه أمسكته، فكيف ما زعمت خالفتك، وظهرت فضيحتك. فانقطع المنجم[1].

مناظــرة الباقلاني لأهل التنجيم:

هذه مناظرة جرت في مجلس وزير عضد الدولة حين همَّ بإرسال أبـي بكر الباقلاني في بعض سفرائه إلى ملك الروم، واختصه بذلك ليظهر رفعة الإسلام ويغض من النصرانية، فلما تهيأ للخروج، قال وزير عضد الدولـة للقاضي: الطالع خروجك. فسأله القاضي أبوبكر عن ذلك، فلما فسر لـه مراده، قال القـاضي: لا أقـول بهـذا؛ لأن السـعد والنحـس كلـه، والشـر والخير كله بيد الله عز وجل، وليـس للكواكـب هـا هنـا مثقـال ذرة مـن القدرة، وإنما وضعت كتب المنجمين ليتمعّش بهـا الجـاهلون بـين العامـة، ولا حقيقة لها، فقال الوزير: أحضروا لي ابن الصوفي، ليست المنـاظرة مـن شأني، ولا أنا قائم بها، وإنما أنا أحفظ علم النجوم، وأقول: إذا كان مـن النجوم كذا كان كذا، وأمـا تعليلـه فهـو مـن علـم المنطـق، فأُحضر ابـن الصوفي، وأُمـر بمكالمـة القـاضي، فقـال لـه أبـو سـليمان (٣٨٠هـ): هـذا القاضي يقول: إن البارئ سبحانه قادر علـى أن يُركِّـب عشـرة أنفـس في ذلك المركـب الذي في دجلة، فإذا وصلوا إلى الجانب الآخر يكون الله قـد

(١) عيون المناظرات ص : ٢٢١ .

زاد فيهم آخر، فيكونون أحد عشر، ويكون الحادي عشر قد خلقه الله في ذلك الوقت، ولو قلت أنا: لا يقدر على ذلك، أو هو محال قطعوا لساني وقتلوني، وإن أحسنوا إلي كتفوني، ورموني في دجلة، وإذا كان الأمر كما ذكرتُ لم يكن لمناظرتي معه معنى. فالتفت الوزير إلى القاضي، وقال: ما تقول أيها القاضي؟ قال القاضي: فقلت: ليس كلامنا ها هنا في قدرة الباري (تعالى) ، والباري (تعالى) قادر على كل شيء، وإن جحده هذا الجاهل، وإنما كلامنا في تأثيرات هذه الكواكب، فانتقل إلى ما ذكر لعجزه وقلة معرفته، وإلا فأي تعلق للكلام في قدرة الباري عز وجل في مسألتنا؟ وأنا وإن قلت: إن القديم (تعالى) قادر على ذلك، ما أقول: إنه يخرق العادة ويفعل هذا؛ لأنه لا يجوز عندنا أن يُخلق اليوم إنسان من غير أبوين؟ فإذا كان كذلك فقد علم الوزير أنَّ هذا فرار من الزحف. فقال: هو كما ذكرت. فقال المنطقي: المناظرات دربة وتجربة، وأنا لا أعرف مناظرات هؤلاء القوم، وهم لا يعرفون مواضعاتنا وعباراتنا، ولا تحمل المناظرة بين قوم هذا حالهم. فقال له الوزير: قبلنا اعتذارك والحق أبلج، قال القاضي: ومال إلي وقال: سر في رعاية الله.

فهذه شهادة من الجميع أن القول بتأثير النجوم لا يستند إلى عقل، ولا حس ولا شرع، وإنما هو كما قال الباقلاني: وإنما وضعت كتب المنجمين ليتمعش بها الجاهلون من العامة، ولا حقيقة لها[1].

---

(١) انظر : ترتيب المدارك للقاضي عياض ٥٩٤/٤-٥٩٥ ، وعيون المناظرات ص : ٢٤٤-٢٤٦.

مناظرة النصارى في الأقانيم

الأقانيم عند النصارى مختلف في تحديدها، هل هي صفات؟ أم هي ذوات؟ أم هي خواص؟ لكنهم اتفقوا على أنها ثلاثة، وهي: الأب والابن وروح القدس، وأنها لم تزل، أي: أنها قديمة، ويقولون: إن الابن كلمة الأب الأزلي، وإن الأب إنما يعلم الأشياء بكلمته، وإن روح القدس هو الحياة التي من أجلها وجب أن يكون الأب حياً[(١)].

فيقال لأهل التثليث: أخبرونا عن هذه الأقانيم الثلاثة، أكل واحد منها غير الآخر، أم كل واحد منها هو الآخر؟ فإن قالوا: كل واحد منها هو الآخر. قيل لهم: فلم جعلتموها ثلاثة، و لم تقولوا فيما بينها بالمغايرة؟ وهل العدد نفسه إلا المغايرة؟ أو هل المغايرة معناها إلا العدد؟ فقد أثبتم بكلامكم ما نفيتم، ونفيتم ما أثبتم.

وإن قالوا: إن كل واحد من الأقانيم غير الآخر. قيل لهم: فهل تميزون كل واحد منها عن صاحبه بصفة أو لا تميزونه بصفة؟ فإن قالوا: لا نميز كل واحد من الأقانيم عن صاحبه بصفة، عاد عليهم الكلام الأول بأن الأقانيم الثلاثة واحد، وإنما عبروا بلفظ الثلاثة وهي في الحقيقة واحد، ولا فائدة ها هنا في ذكر الثلاثة[(٢)].

---

(١) انظر: الموجز لأبي عمار الأباضي ١/٣٤٥-٣٤٦، وانظر: شرح الطحاوية ١/٢٧.

(٢) انظر: الموجز لأبي عمار الأباضي ١/٣٤٥-٣٤٧.

مناظرة النصارى في التثليث:

النصارى الذين قالوا: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، وزعموا أن القديم ثلاثة أقانيم في جوهر واحد، يقال لهم: إذا زعمتم أن المسيح ابن الله، وأن الكلمة قد اتحدت به، وليست البنوة والاتحاد أمراً شاهدتموه فيمكنكم فيه ادعاء البيان، ولا متوهماً يعلم بضرورات العقول، فإن الأب لم يثبت العلم به ضرورة فكيف تدعونه في الابن؟ وما لا يدرك بالعيان ولا يعلم بالضرورة، لم يكن إلى إثباته سبيل إلا أن يقوم عليه دليل، فما دليلكم على إثبات ما ادعيتموه من ذلك؟

ثم يقال لهم: إذا اعتقدتم أن القديم ثلاثة أقانيم في جوهر واحد لا يخلو قولكم: إما أن تكونوا أخذتموه من طريق التوقيف والسماع، أو من طريق المعقول والقياس.

فإن قلتم: أخذناه من التوقيف من نص الأناجيل؛ فكان يلزم أن لا يختلفوا في ذلك؛ لأن النصوص لا يختلف أحد فيها، ممن يعتقد ذلك المذهب. وقد خالفكم في ذلك آريوس، وزعم أن ما قلتموه من التثليث مستحيل في المعقول.

وإن قلتم: أخذناه من طريق المعقول والقياس، فما الذي يوجب أن يكون الباري جل جلاله ثلاثة أقانيم دون أن يكون أكثر من ذلك؟ وما الموجب لحصره في ثلاثة؟ وهل علمتم هذا الحصر بضرورة العقل أم بنظر العقل؟

فإن قلتم: بضرورة العقل، فيلزم أن لا يختلف فيه العقلاء. بل قولكم مناقض لضرورة العقل فإنكم تجعلون الثلاثة واحداً.

وإن قلتم: أخذناه بنظر العقل: فأي دليل يرشد إليه؟! وأي برهان يقوم عليه؟!. ينحصر الواحد في ثلاث، أو الثلاث في واحد. بل الواحد يناقض التعدد.

فما أجهلكم بطريق الحساب، ومن غلط في أول مرتبة من الحساب، فلأن يغلط فيما زاد عليها أولى[1].

مناظـرة أخـرى:

يقال لأهل التثليث: أخالق العالم ـ عندكم ـ خالق واحد وهو إله واحد، أم للعالم ثلاثة آلهة خالقون؟

فإن قالوا: إن الخالق واحد، وهم ثلاثة آلهة خالقون، كما أنهم في كثير من كلامهم يصرحون بثلاثة آلهة، وثلاثة خالقين، ثم يقولون: إله واحد، وخالق واحد.

فيقال لهم: وهذا تناقض ظاهر، فإما هذا، وإما هذا.

فإذا قالوا: الخالق واحد، له ثلاث صفات.

قيل لهم: لم ننازعكم في أن الخالق له صفات، لكن لا يختص بثلاثة.

فإن قالوا بثلاثة آلهة خالقين، كما قد كثر منهم في كثير من كلامهم، بان كفرُهم وعظُم شركهم، وبان أن شركهم أعظم من كل

---

(١) انظر : أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ص : ٩٢-٩٣.

شرك في العالم؛ فغاية المجوس الثنوية: إثبات اثنين، نور وظلمة، وهؤلاء يثبتون ثلاثة.[(١)]

مناظرة النصارى في كون عيسى جزءاً من الله (تعالى)

روي أن هارون الرشيد كان له علج طبيب له فطنة وأدب، فودَّ الرشيد أن لو أسلم، فقال له يوماً: ما يمنعك عن الإسلام؟ فقال: آية في كتابكم حجة على ما أنتحله. قال: وما هي؟ قال قوله (تعالى) عن عيسى عليه السلام: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [سورة النساء: ١٧١] وهو الذي نحن عليه. فعظم ذلك على الرشيد وجمع له العلماء، فلم يحضرهم جواب ذلك، حتى ورد قوم من خراسان فيهم علي بن واقد من أهل العلم بالقرآن، فأخبره الرشيد بالمسألة، فاستعجم عليه الجواب، ثم خلا بنفسه، وقال: ما أجد المطلوب إلا في كتاب الله، فابتدأ القرآن من أوله، وقرأ حتى بلغ سورة الجاثية إلى قوله (تعالى): ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: ١٣] فخرج إلى الرشيد وأحضر العلج، فقرأها عليه، وقال له: إن كان ﴿وروحٌ مِّنه﴾ يوجب أن يكون عيسى بعضاً منه (تعالى) وجب ذلك في السموات والأرض، فانقطع النصراني، و لم يجد جواباً، فأسلم النصراني وسُرَّ الرشيد بذلك، وأجزل صلة ابن واقد، فلما رجع ابن واقد إلى بلده، صنف كتاب النظائر في القرآن[(٢)].

---

(١) انظر : الجواب الصحيح ٤/٢٧١.

(٢) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٠٧-٢٠٨. وذُكرت هذه القصة عن علي بن الحسين الواقدي، وأنه هو الذي ناظر الطبيب النصراني. انظر : تفسير الألوسي ٦/٢٥.

مناظرة الباقلاني النصارى في نسبة الولد إلى ا لله (تعالى):

في سفارة الباقلاني ـ المتقدم ذكرها ـ إلى ملك الروم دخل القاضي مرة على الملك، فرأى عنده بعض بطارقته ورهبانيته، فقال مستهزئاً به: كيف أنت وكيف الأهل والأولاد؟ فتعجب الرومي منه. وقال له: ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة: أنك لسان أهل الأرض ومتقدِّم على علماء الأمة، أَمَا علمت أنا نُنزِّه هؤلاء عن الأهل والأولاد؟! فقال القاضي أبو بكر: أنتم لا تنزهون ا لله سبحانه عن الأهل والأولاد وتنزهونهم[1].

مناظرة النصارى في كون عيسى ﷺ كلمة ا لله الخالقة:

يقال للنصارى: قولكم: كلمة ا لله الخالقة، أهي كلام ا لله كله، أم هي بعض كلام ا لله، أم هي المعنى القائم بالذات القديم الأزلي، الذي يثبته ابن كلاب، أم حروف وأصوات قديمة كما يقوله بعض الناس، أم هي الذات المتكلمة؟

فإن كانت هي الذات المتكلمة، فهي الأب والرب، وتكون هي الموصوفة بالحياة، فلا يكون هناك كلام مولود، ولا كلمة أرسلت ولا غير ذلك مما ذكروه، وهذا خلاف قولهم كلهم، فإن الكلمة المتحدة بالمسيح ليست هي الأب عندهم.

وإن قالوا: بل هي كلام ا لله كله، قيل لهم: فيكون المسيح هو التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كلام ا لله، وهذا لا يقولونه، ولم يقله أحد ولا يقوله عاقل.

---

(١) انظر : تبيين كذب المفتري ص : ٢١٨-٢١٩ ، وعيون المناظرات ص : ٢٤٨

وإن قالوا: إنها هي المعنى الواحد القديم الأزلي، أو الحروف والأصوات القديمة الأزلية. قيل لهم: هذان القولان، وإن كانا باطلين، فإن قلتم بهما لزمكم أن يكون المسيح هو كلام الله كله، فإن هذين ـ عند من يقول بهما ـ هما جميع كلام الله. والتوراة والإنجيل وسائر كلام الله عبارة عن ذلك المعنى القائم بذات الله وهو الحروف والأصوات القديمة القائمة بالذات عند من يقول بهذين.

وإن قلتم: إن المسيح بعض كلمات الله: فحينئذ كلمات الله شيء آخر غير المسيح، فاجعلوا كل كلمة خالقاً، كما جعلتم الكلمة المتحدة بالمسيح خالقاً، إذ كنتم تقولون: الكلمة هي الخالقة، وهي المخلوق بها، فقولوا عن سائر كلمات الله: إنها خالقة مخلوق بها، وحينئذ فيتعدد الخالق بتعدد كلمات الله. وإذا كانت كلمات الله لا نهاية لها، كان للخلق خالقون لا نهاية لهم، وهذا غاية الباطل والكفر.

وبالجملة أي شيء فسروا به الكلمة تبين به فساد قولهم، ولكنهم يتكلمون بما لا يفهمونه، ويقولون الكذب والكفر المتناقض. وإنما عندهم تقليد من أضلهم، كما قال (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السبيل﴾[1] [سورة المائدة: ٧٧].

(١) انظر : الجواب الصحيح ٤/٢٧٢-٢٧٤ .

مناظرة النصارى في أسطورة التجسد

التجسد هو قولهم: إن الله لما رحِم عباده وأشفق عليهم ألقى كلمته إلى مريم البتول، فتجسدت الكلمة في جوفها، فخرج منها إله تام من إله تام، نور من نور[١].

فيقال لهم: الكلمة ـ عندكم ـ أهي نفس الجوهر أم زائدة عليه؟ فإن قلتم: هي الجوهر بلا مزيد، فقولوا: ألقى نفسه إلى مريم البتول، ولا تقولوا كلمته؛ لأن ليس عندكم إلا الجوهر بلا مزيد، وهذا يؤدي إلى التغير والحدوث، والقديم يستحيل عليه التغير والحدوث[٢]، فأنتم من طرفي نقيض، إما أن يقولوا: كل متغير حادث وكل منتقل من حال إلى حال حادث، أو يقولوا: إن التغير والانتقال من حال إلى حال لا يدلان على الحدوث. فإن قلتم الأول لزمكم حدوث القديم، وإن قلتم الثاني لزمكم قدم العالم، وكلا القولين محال.

وإن قلتم: هي زائدة على الجوهر فنقول لكم: هل فارقت الجوهر أو لم تفارقه؟ فإن قلتم: فارقته لزمكم تغير الجوهر؛ لأنها إذا فارقته لم يتصف بأقنوم العلم بعدما كان متصفاً.

وإن قلتم: لم تفارقه استحال أن تحل في مريم مع اختصاصها به؛ لأن الواحد لا يحل في اثنين. فإذا كان ذلك يستحيل في الصفة الموجودة

---

(١) انظر : أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ـ أحمد بن إدريس القرافي ص : ٦٥.

(٢) هذه من عبارات المتكلمين، وهي من الألفاظ المجملة التي تحتمل حقاً وباطلاً، وتكون باطلاً إذا قُصد بها نفي الصفات الاختيارية عن الله تعالى؛ كالاستواء والمجيء والضحك ونحوها، وهذا مذهب فاسد ومتناقض، وتكون حقاً إذا قُصد بها نفي التغير والحدوث المخلوقين، أي ما يعتري المخلوق من ذلك، والتزام الألفاظ الشرعية أسلم وأحكم وأعلم.

القائمة بالموصوف، فلأن يستحيل ذلك في الكلمة التي هي أقنوم العلم وهي خاصية الجواهر أولى من غير مزيد.

وأما قولكم: تجسدت في جوفها، فنقول لكم: تجسدت لساعتها، أو تجسدت لتوليد يوم بعد يوم، وساعة بعد ساعة، فأيهما قلتم بطلت حجتكم. فإن قلتم: تجسدت لساعتها فهو خلاف الناسوت، فإن الإنسان التام ليس له ذلك، ولا يتصور في العادة استواء الجنين في بطن أمه لساعته، فما كان إنساناً تاماً بل كان مخالفاً للإنسان؛ لأن الإنسان الذي يقع عليه هذا الاسم ينمو، أو يزيد في كل شهر من التسعة أشهر، وإن قلتم: لا بل زاد ونَمَا شيئاً بعد شيء، فليس بإله تام، إذ من المحال أن يجوز على الإله النمو والزيادة.

فإذا قلتم: تجسدت في بطن امرأة، فقد صارت متجسدة بعدما لم تكن متجسدة، وهذا بعينه هو التغيير وهو دليل الحدوث. ويؤدي أيضاً إلى محال آخر: إذ المعنى لا يصير جسداً؛ لأنه يؤدي إلى انقلاب الحقائق بأن يرجع غير القائم بنفسه قائماً بنفسه وهذا محال، فإذا كان ذلك يستحيل في المعنى الموجود، فلأن يستحيل في الأقنوم الذي هو خاصية الجوهر أولى.

وقولكم: إله تام من إله تام لا يستقيم؛ لأنه لا يخلو قولكم من أمرين: إما أن تقولوا بحلول الإلهية فيه بعد ثلاثين سنة، وإما أن تقولوا: خرج من بطن إمه إلها تاماً.

فإن قلتم: إنما حلت الإلهية فيه بعد ثلاثين سنة: فما خرج من بطنها إله تام ولا هو إله تام.

وقولكم: نور من نور، فالنور عرض من الأعراض[١] لا يقوم بنفسه، والباري (تعالى) قائم بنفسه منزه عن الأعراض[٢].

مناظرة النصارى في عقيدة الفداء

يعتقد النصارى أن الرب (تعالى) تجسد في عيسى لينقذ البشرية من خطيئة أبيهم آدم، وهي الأكل من الشجرة، والتي توارثتها الأجيال، وفيهم الأنبياء والصالحون، بل فيهم عيسى عليه السلام نفسه قبل الصلب، قالوا: فأسلم عيسى نفسه للقتل والصلب؛ حتى يطهر البشرية من هذه الخطيئة المتوارثة.

فيقال لهم: من العجب أن هذا الإله بعد أن فعل بنفسه من الذل والهوان ما وصفتم في إرادة خلاصكم من آفات الدنيا، فما نراه خلصكم، بل أنتم باقون على ما كنتم عليه من طبع البشر: تحيون وتموتون وتُقتلون بكل واد، ويجري عليكم ما يجري على جميع بني آدم، فإن كان أراد خلاصكم من التكاليف والمطالبات بالعبادات، فأبحتم المحرمات لدفع الآثام

(١) نعم، النور لا يقوم بنفسه، وكل صفة كذلك، لكنه صفة ذاتية ثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة، لا يجوز نفي عن الله تعالى بحجة أنها عرض، ويحمل كلام صاحب أدلة الوحدانية هنا على أن ما ثبت لعيسى عليه السلام من النورانية هو غير ما يثبت لله تعالى من ذلك.

(٢) انظر : أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ص : ٦٥-٦٧. واعلم أن النور من أسماء الله تعالى وصفة له، وليس بمخلوق، أما الأنوار المخلوقة فليست حالة بالله تعالى .

عنكم فما نراه أيضاً جُعل له ذلك، بل أنتم بإقراركم باقون على أحكام التكليف مؤاخذون بجملة أفعالكم، ولولا ذلك لكان ينبغي أن يكون الذين قتلوا إلهكم - على زعمكم - وقتلوا حوارييه، وأحرقوا أسفاره غير خاطئين، ولا آثمين؛ لأن إلهكم حمل عنهم خطاياهم؛ لأنهم من جملة الناس، وقد قلتم: إنه نزل من أجلنا يا معشر الناس، وكذلك من قتل منكم وسرق وزنا وفسق وركب سائر الذنوب يجب على هذا القول أن لا يكون مؤاخذاً بخطيئته ولا مأثوماً على فعله، وإن كان أراد خلاصكم من عذاب الآخرة وما يجري على العباد يوم القيامة، فإنجيلكم يكذب هذا القول، ويخبر أن الخلائق بعد المسيح موقوفون يوم القيامة مسؤولون عن أعمالهم، مؤاخذون بجرائر أفعالهم، وذلك أنكم حكيتم عن المسيح أنه قال: إني جامع الناس يوم القيامة عن ميمنتي وعلى ميسرتي، فأقول لأهل الميسرة: إني جعت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، وكنت غريباً فلم تروني، ومحبوساً فلم تزوروني، ومريضاً فلم تعودوني، فاذهبوا إلى النار المعدَّة لكم قبل تأسيس الدنيا .

وأقول لأهل الميمنة: فعلتم بي هذه الأشياء فاذهبوا إلى النعيم المعدِّ لكم قبل تأسيس الدنيا. فمن قال: إن الخطيئة بطلت بنزول المسيح، فقد كذّب قول المسيح هذا.

ويقال لكم: يا معشر النصارى: إذا لم يحصل لكم بنزول المسيح خلاصكم من آلام الدنيا وعذابها، ولا من مطالبة الآخرة وعقابها، ولا من مشقة التكاليف بإلزام العبادات واجتناب المحرمات، فأي خلاص

لكم؟ وإنما هما داران لا ثالث لهما: دنيا وأخرى، فإذا لم تتخلصوا فيهما، فأين ترجون الخلاص الذي نزل إلهكم لأجله، وفعل بنفسه ما فعل، ثم لم يتم له ما أراد من ذلك[(١)].

مناظرة الباطنية في عقيدة تأليه البشر

قال عبد القاهر البغدادي رحمه الله : «حكى لي بعضُ من كان دخل في دعوة الباطنية، ثم وفَّقه الله (تعالى) لرشده وهداه إلى حلِّ أيمانهم، أنهم لَمَّا وَثِقُوا منه بإيمانه، قالوا له: إن المسلمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبُّوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرنجات[(٢)]، واستعبدوهم بشرائعهم.

قال هذا الحاكي لي: ثم ناقض الذي كشف لي هذا السر بأن قال له: ينبغي أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذي نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [سورة طه: ١٢] قال: فقلت: سَخِنَتْ عينُك، تدعوني إلى الكفر بالرب القديم الخالق للعالم، ثم تدعوني مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلهاً مرسِلاً لموسى؟! فإن كان موسى عندك مخرقاً فالذي زعمت أنه أرسله أكذب، فقال لي: إنك لا تفلح أبداً، وندم على إفشاء أسراره إلي، وتبت من بدعتهم»[(٣)].

---

(١) انظر: أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ص: ١٠١-١٠٢.

(٢) النيرنجات: أفعال كالسحر . انظر : القاموس المحيط ص: ٢٦٥.

(٣) الفرق بين الفرق ص : ٣٠٢-٣٠٣.

مناظـــرة الحلوليـــة

من فرق الحلولية : الحلمانيـة المنسـوبون إلى أبـي حلمـان الدمشـقي، وكانوا يقولون بحلول الإله في الأشخاص الحسنة، وكـانوا إذا رأوا صـورة حسنة سجدوا لها يوهمون أن الإله قد حلَّ فيها(١).

قال عبد القاهر البغدادي رحمه الله: «رأيـتُ بعـض هـؤلاء الحلمانيـة يستدل على جواز حلول الإله في الأجساد بقول الله (تعالى) للملائكة في آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: ٢٩] وكـان يزعم أن الإله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم؛ لأنه كان قـد حـلَّ في آدم، وإنما حلَّه لأنه خَلَقَـه في أحسـن تقويـم؛ ولهـذا قـال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: ٤] فقلت له: أخبرني عن الآية التي اسـتدللت بهـا في أمر الله للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، والآية الناطقة بأن الإنسان مخلوق في أحسن تقويم، هل أريد بهما جميع النـاس علـى العمـوم أم أريـد بهمـا إنسان بعينه؟ فقال: ما الذي يلزمني على كل واحد مـن القولـين إن قلـت به؟ فقلت: إن قلت: إن المـراد بهمـا كـل النـاس علـى العمـوم لزمـك أن تسجد لكل الناس، وإن كان قبيح الصورة لدعواك أن الإله حل في جميـع الناس، وإن قلت: إن المراد به إنسان بعينه وهو آدم عليه السلام دون غيره، فَلِـمَ تسـجد لغيره مـن أصحـاب الصـور الحسـنة، ولم تسـجد للفـرس الرائـع

---

(١) انظر : الفرق بين الفرق ص : ٢٥٩ .

والشجرة المثمرة، وذوات الصور الحسنة من الطيور والبهائم؟ وربما كان لَهَبُ النار في صورة رائعة، فإن استجزت السجود له فقد جمعت بين ضلالة الحلولية وضلالة عابدي النار، وإذا لم تسجد للنار ولا للماء ولا للهواء ولا للسماء مع حسن صور هذه الأشياء في بعض الأحوال فلا تسجد للأشخاص الحسنة الصور.

وقلت له ـ أيضاً ـ: إن الصور الحسنة في العالم كثيرة، وليس بعضها بحلول الإله فيه أولى من بعض، وإن زعمت أن الإله حال في جميع الصور الحسنة، فهل ذلك الحلول على طريق قيام العرض بالجسم، أو على طريق كون الجسم في مكانه؟ ويستحيل حلول عرض واحد في محال كثيرة، ويستحيل كون شيء واحد في أمكنة كثيرة، وإذا استحال هذا استحال ما يؤدي إليه»[1].

المناظرة في باب الأسماء والصفات

مذهب أهل السنة والجماعة في باب أسماء الرب (تعالى) وصفاته: إثبات ما أثبته الله (تعالى) لنفسه، وأثبته له رسوله، من الأسماء والصفات، ونفي ما نفاه عن نفسه، ونفاه عنه رسوله، إثباتاً من غير تمثيل ولا تكييف، ونفياً من غير إلحاد ولا تعطيل.

الكلام في الصفات بغير علم مزلة قدم وهلكة عقل:

روى الطبري عن عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول لفتى من ولد جعفر بن سليمان: مكانك، فقعد

---

(١) الفرق بين الفرق ص: ٢٥٩-٢٦٠.

حتى تفرَّق الناس. ثم قال: تعرف ما هذه الكُورة[1] من الأهواء والاختلاف، وكل ذلك يجري مني على بال رضى، إلا أمرك وما بلغني، فإن الأمر لا يزال هيناً ما لم يصر إليكم يعني السلطان، فإذا صار إليكم جلَّ وعظُم.

فقال: يا أبا سعيد، وما ذاك؟! قال: بلغني أنك تتكلم في الرب تبارك وتعالى وتصفه وتشبهه. فقال الغلام: نعم، فأخذ يتكلم في الصفة.

فقال: رويدك يا بني، حتى نتكلم أولَ شيء في المخلوق، فإذا عجزنا عن المخلوقات فنحن عن الخالق أعجز وأعجز: أخبرني عن حديث حدثنيه شعبة عن الشيباني قال: سمعت زِرّاً قال: قال عبد الله في قوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [سورة النجم: ١٨] قال رأى جبريل له ستمائة جناح[2].

قال: نعم، فعرف الحديث. فقال عبد الرحمن: صف لي خلقاً من خلق الله له ستمائة جناح. فبقي الغلام ينظر إليه. فقال عبد الرحمن: يا بني، فإني أُهَوِّن عليك المسألة وأضع عنك خمسمائة وسبعة وتسعين، صف لي خلقاً بثلاثة أجنحة، ركب الجناح الثالث منه موضعاً غير الموضعين اللذين ركبهما الله حتى أعلم.

---

(١) الكورة : المدينة، والصُّقْع. لسان العرب ١٥٦/٥ مادة كور .

(٢) انظر : صحيح البخاري ٣١٣/٦ كتاب بدء الخلق ـ باب إذا قال أحدكم آمين...ح: ٣٢٣٢ ، وصحيح مسلم ١٥٨/١ كتاب الإيمان ـ باب في ذكر سدرة المنتهى ح : ١٧٤، أما إسناد الراوية المذكورة، ففي صحيح مسلم بعد الرقم: ١٧٤ .

فقال: يا أبا سعيد، نحن قد عجزنا عن صفة المخلوق، ونحن عن صفة الخالق أعجز وأعجز، فأشهدك أني قد رجعت عن ذلك، وأستغفر الله[١].

أسماء الله (تعالى) وصفاته توقيفية:

بمعنى أن الأصل في الأسماء والصفات متابعة النصوص من كتاب أو سنة، لا يجوز فيها الاجتهاد بالقياس ونحوه، فما جاءت به النصوص نطقنا به، وما سكتت عنه سكتنا عنه، لا ندخل في ذلك بآرائنا وأهوائنا .

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله : أتى رجل إلى الجبائي وأنا عنده فقال: لم منعت أن يتسمَّى الباري (تعالى) عاقلاً؟ فقال الجبائي: لأن العاقل في اللغة مأخوذ من العقال، وهو المانع، فلما استحال المنع على الله (تعالى) لم نسمِّه عاقلاً. قال أبو الحسن: فقلت له: إن كانت العلة هذه، فلا يُسمَّى الباري (تعالى) حَكَمَاً؛ لأن الحكمة في أصل اللغة مشتقة من حَكَمَة اللِّجام، وهي الحديدة التي في فم الدابة تمنعها من السير[٢]، ومنه سُمِّي الحاكم حاكماً لمنعه من الظلم.

قال جرير:[٣]

[أبني][٤] حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

(١) شرح السنة ـ اللالكائي ٣/٥٣٠-٥٣١ برقم : ٩٣٢ ، وانظر : سير أعلام النبلاء ٩/١٩٦-١٩٧

(٢) انظر : القاموس المحيط ص: ١٤١٥ .

(٣) ديوان جرير ص: ٤٧ .

(٤) في الأصل: [أبي] والصحيح ما أثبته، كما هو في ديوان جرير .

أي امنعو.

وقال حسان بن ثابت:[١]

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

ومثل هذا كثير، قال الشيخ أبو الحسن: فقال ـ أي الجبائي ـ: فَلِمَ امتنعت أن تُسمي الباري (تعالى) عاقلاً؟ فقلت له: من أجل أن التوقيف لم يرد به، وإنما أُخذت أسماؤه (تعالى) توقيفاً، فلو ورد لم أمنعه؛ إذا العقل ضرب من العلم، وليس تستحيل التسمية به على وجه من الوجوه. قال: فسكت الجبائي، و لم يرد علي جواباً[٢].

مناظرة نفاة بعض الصفات:

من قواعد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر إثباتاً ونفياً[٣].

فإن كان المخاطَب ممن يثبت لله (تعالى) بعض الصفات كالحياة والعلم والسمع والبصر والكلام والإرادة والقدرة، وينازع في المحبة والرضا والغضب ونحوها فيجعلها مجازاً، ويفسرها إما بالإرادة، وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات.

---

(١) شرح ديوان حسان ـ البرقوني ص : ٥٩.

(٢) انظر: عيون المناظرات ص : ٢٢٨-٢٢٩ ، وطبقات الشافعية ـ السبكي ٣/٣٥٧-٣٥٨.

(٣) انظر : الرسالة التدمرية ص : ٢١ .

فيقال له: لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر. فإن قال: إن له إرادة تليق به، كما أن للمخلوق إرادة تليق به. قيل له: وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبة تليق به، وله رضاً وغضب يليق به، وللمخلوق رضاً وغضب يليق به.

فإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام. فيقال: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة، أو دفع مضرة. فإن قال: هذه إرادة المخلوق. قيل له: وهذا غضب المخلوق، وهذا لازم ـ أيضاً ـ في كلامه وسمعه، وبصره وعلمه وقدرته، وجميع ما يثبته من الصفات.

فإن قال: إنه لا حقيقة لهذه الصفات إلا ما يختص بالمخلوقين فيجب نفيها عنه. قيل له: وهكذا السمع والبصر والكلام والعلم والقدرة، فكل ما تحتج به فيما نفيته نحتج عليك به فيما أثبته. فإن قال: تلك الصفات أثبتها بالعقل؛ لأن العقل الحادث دلَّ على القدرة والتخصيص دلَّ على الإرادة، والإحكام دلَّ على العلم، وهذه الصفات مستلزمة للحياة، والحي لا يخلو عن السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك.

قيل له: لك جوابان:

أحدهما: أن يقال لك: عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول المعين، فهب أن ما سلكت من الدليل للعقلي لا يثبت ذلك، فإنه لا ينفيه. وليس لك أن تنفيه بغير دليل؛ لأن النافي عليه الدليل كما على المثبت، والسمع قد دلَّ عليه، و لم يعارض ذلك معارض عقلي ولا سمعي، فيجب إثبات ما أثبته الدليل السالم عن المعارض المقاوم.

الثاني: أن يقال له: يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبتّ به تلك من العقليات؛ فيقال: نفع العباد بالإحسان إليهم يدلُّ على الرحمة، كدلالة التخصيص على المشيئة، وإكرام الطائعين يدلُّ على محبتهم، وعقاب الكافرين يدل على بغضهم، كما قد ثبت بالمشاهدة والخبر من إكرام أوليائه وعقاب أعدائه، والغايات المحمودة في مفعولاته ومأموراته ــ وهي ما تنتهي إليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة ـ تدل على حكمته البالغة، كما يدل التخصيص على المشيئة وأولى؛ لقوة العلة الغائية؛ ولهذا كان ما في القرآن من بيان ما في مخلوقاته من النعم والحكم: أعظم مما في القرآن من بيان ما فيها من الدلالة على محض المشيئة.

فإن كان المخاطَب ممن ينكر الصفات دون الأسماء كالمعتزلي الذي يقول في الله (تعالى) : إنه حي عليم قدير، وينكر أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة، فيقال له: لا فرق بين إثبات الأسماء وإثبات الصفات، فإن قال: إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي تشبيهاً أو تجسيماً؛ لأنا لا نجد في الشاهد متصفاً بالصفات إلا ما هو جسم.

قيل له: ولا نجد في الشاهد ما هو مسمًّى حي عليم قدير إلا ما هو جسم، فإن نفيت ما نفيت لكونك لم تجده في الشاهد إلا للجسم فانف الأسماء، بل وكل شيء لأنك لا تجده في الشاهد إلا للجسم.

فكل ما يحتج به مَنْ نفى الصفات يحتج به نافي الأسماء الحسنى، فما كان جواباً لذلك كان جواباً لمثبتي الصفات[1].

---

(١) انظر : الرسالة التدمرية ـ ابن تيمية ص : ٢١-٢٤ .

مناظرة نفاة الأسماء والصفات:

فإن كان المخاطَب من الغلاة نفاة الأسماء والصفات وقال: لا أقول: هو موجود ولا حي ولا عليم ولا قدير، بل هذه الأسماء لمخلوقاته، إذ هي مجاز؛ لأن ذلك يستلزم التشبيه بالموجود الحي العليم.

قيل له: وكذلك إذا قلت: ليس بموجود ولا حي ولا عليم ولا قدير، كان ذلك تشبيهاً بالمعدومات وذلك أقبح من التشبيه بالموجودات.

فإن قال: أنا أنفي النفي والإثبات. قيل له: فيلزمك التشبيه بما اجتمع فيه النقيضان من الممتنعات، فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجوداً معدوماً، أو لا موجوداً ولا معدوماً، ويمتنع أن يكون موصوفاً باجتماع الوجود والعدم أو الحياة والموت، أو العلم والجهل، أو يوصف بنفي الوجود والعدم، ونفي الحياة والموت، ونفي العلم والجهل.

فإن قال: إنما يمتنع نفي النقيضين عما يكون قابلاً لهما، وهذان يتقابلان تقابل العدم والملكة، لا تقابل السلب والإيجاب؛ فإن الجدار لا يقال له: أعمى ولا بصير، ولا حي ولا ميت، إذ ليس بقابل لهما.

قيل له: أولاً: هذا لا يصح في الوجود والعدم، فإنهما متقابلان تقابل السلب والإيجاب باتفاق العقلاء، فيلزم من رفع أحدهما ثبوت الآخر، وأما ما ذكرته من الحياة والموت، والعلم والجهل، فهذا اصطلاح اصطلحت عليه المتفلسفة المشاءون، والاصطلاحات اللفظية ليست دليلاً على نفي الحقائق العقلية، وقد قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ* أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة النحل: ٢٠-٢١] فسمَّى الجماد ميتاً، وهذا مشهور في لغة العرب وغيرهم.

وقيل لك ثانياً: فما لا يقبل الاتصاف بالحياة والموت والعمى والبصر ونحو ذلك من المتقابلات أنقص مما يقبل ذلك؛ فالأعمى الذي يقبل الاتصاف بالبصر أكمل من الجماد الذي لا يقبل واحداً منهما، فأنت فررت من تشبيه الخالق بالحيوانات القابلة لصفات الكمال، ووصفته بصفات الجمادات التي لا تقبل ذلك.

وأيضاً ـ فما لا يقبل الوجود والعدم أعظم امتناعاً من القابل للوجود والعدم، بل ومن اجتماع الوجود والعدم، ونفيهما جميعاً، فما نفيت عنه قبول الوجود والعدم كان أعظم امتناعاً مما نفيت عنه الوجود والعدم، وإذا كان هذا ممتنعاً في صرائح العقول فذاك أعظم امتناعاً، فجعلت الوجود الواجب الذي لا يقبل العدم هو أعظم الممتنعات، وهذا غاية التناقض والفساد.

وهذا باب مطرد، فإن كل واحد من النفاة لِمَا أخبر به الرسولُ من الصفات: لا ينفي شيئاً فراراً مما هو محذور ـ عنده ـ إلا وقد أثبت ما يلزمه فيه نظير ما فرَّ منه، بل شر منه، فلا بد في آخر الأمر من أن يثبت موجوداً واجباً قديماً متصفاً بصفات تميزه عن غيره، ولا يكون فيها مماثلاً لخلقه[(١)].

طريقة أخرى في مناظرة نفاة بعض الصفات:

من نفى بعض الصفات؛ كالرضا والغضب والمحبة والبغض ونحو ذلك من الصفات الاختيارية، زاعماً أن إثباتها يستلزم التشبيه والتجسيم.

---

(١) انظر: الرسالة التدمرية ص: ٢٤ وما بعدها .

يقال له: فأنت تثبت له الأرادة والكلام والسمع والبصر مع أن ما تثبته ليس مثل صفات المخلوقين، فقل فيما أثبتّه مثل قولك فيما نفيته وأثبته الله ورسوله؛ إذ لا فرق بينهما.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً من الصفات. قيل له: فأنت تثبت له الأسماء الحسنى؛ مثل: حي وعليم وقدير. والعبد يسمَّى بهذه الأسماء، وليس ما تُثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما تُثبت للعبد، فقل في صفاته نظير قولك ذلك في مسمَّى أسمائه.

فإن قال: وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى، بل أقول: هي مجاز، أو هي أسماء لبعض مبتدعاته؛ كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة.

قيل له: فلا بد أن تعتقد أنه حق قائم بنفسه، والجسم موجود قائم بنفسه وليس هو مماثلاً له.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً بل أنكر وجود الواجب. قيل له: معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه، وإما غير واجب بنفسه، وإما قديم أزلي وإما حادث كائن بعد أن لم يكن، وإما مخلوق مفتقر إلى خالق، وإما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق، وإما فقير إلى ما سواه، وإما غني عما سواه.

وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه، والحادث لا يكون إلا بقديم، والمخلوق لا يكون إلا بخالق، والفقير لا يكون إلا بغني، فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلي خالق غني عما سواه، وما سواه بخلاف ذلك.

وقد عُلم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن، والحادث لا يكون واجباً بنفسه، ولا قديماً أزلياً، ولا خالقاً لما سواه، ولا غنياً عما سواه، فثبت بالضرورة وجود موجودين أحدهما غني والآخر فقير، وأحدهما خالق والآخر مخلوق، وهما متفقان في كون كل منهما شيئاً موجوداً ثابتاً...

ومن المعلوم ـ أيضاً ـ أن أحدهما ليس مماثلاً للآخر في حقيقته، إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع، ولزم ـ أيضاً ـ أن يكون كل منهما واجب القِدَم ليس بواجب القدم، موجوداً بنفسه ليس بموجود بنفسه، غنياً عما سواه ليس بغني عما سواه، خالقاً ليس بخالق، فيلزم اجتماع النقيضين على تقدير تماثلهما وهو منتف بصريح العقل، كما هو منتف بنصوص الشرع، وهذا لا يمنع اتفاقهما في أشياء أخرى كمسمى الوجود.

فعلم بهذه البراهين البينة اتفاقهما من وجه، واختلافهما من وجه، فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلاً قائلاً للباطل، ومن جعلهما متماثلين كان مشبهاً قائلاً للباطل[١].

مناظرة الكرامية في باب الأسماء:

قال عبد القاهر البغدادي رحمه الله: «وكان في عصرنا شيخ للكرامية يعرف بإبراهيم بن مهاجر[٢]، اخترع ضلالة لم يُسبق إليها، فزعم

---

(١) انظر : منهاج السنة النبوية ٢/١١٥-١١٧.

(٢) إبراهيم بن مهاجر عاش في زمن ناصر الدولة أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور صاحب جيش السامانية. انظر بعض مذاهبه في الفرق بين الفرق ص : ٢٢٤ ، والتبصير في الدين ص : ١٠٠، ١٠٤ .

أن أسماء الله (تعالى) كلها أعراض فيه، وكذلك اسم كل مسمى عرض فيه، فزعم أن الله (تعالى) عرض حال في جسم قديم، والرحمن عرض آخر، والرحيم عرض ثالث، والخالق عرض رابع، وكذلك كل اسم لله (تعالى) عرض غير الآخر، فالله (تعالى) عنده غير الرحمن، والرحمن غير الرحيم، والخالق غير الرازق، وزعم ـ أيضاً ـ أن الزاني عرض في الجسم الذي يضاف إليه الزنا، والسارق عرض في الذي تضاف إليه السرقة، وليس الجسم زانياً ولا سارقاً، فالمجلود والمقطوع عنده غير الزاني والسارق، وزعم ـ أيضاً ـ أن الحركة والمتحرك عرضان في الجسم، وكذلك السواد والأسود عرضان في الجسم...» إلى أن قال عبد القاهر رحمه الله: «ناظرت ابن مهاجر هذا في مجلس ناصر الدولة أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور صاحب جيش السامانية في سنة سبعين وثلاثمائة في هذه المسألة، وألزمته فيها أن يكون المحدود في الزنا غير الزاني، والمقطوع في السرقة غير السارق، فالتزم ذلك، فألزمته أن يكون معبوده عرضاً؛ لأن المعبود عنده اسم، وأسماء الله (تعالى) ـ عنده ـ أعراض حالة في جسم قديم. فقال: المعبود عرض في جسم القديم، وأنا أعبد الجسم دون العرض. فقلت له: أنت إذن لا تعبد الله عز وجل، لأن الله (تعالى) عندك عرض، وقد زعمت أنك تعبد الجسم دون العرض»[1].

القول في الصفات فرع عن القول في الذات:

من قواعد أهل السنة في باب الأسماء والصفات: القول في الصفات كالقول في الذات:

---

(١) الفرق بين الفرق ص: ٢٢٤-٢٢٥.

فإذا قال السائل: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا، قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته. قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره، وتكليمه واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته[1].

مناظرة المعتزلة في أسماء الله (تعالى):

يرى المعتزلة أن أسماء الله ترجع إلى معنى واحد، وأنها أعلام محضة. فسُئل معتزلي عن العلم، فقيل له: أتقول إن سميعاً في معنى عليم؟ قال: نعم. قال: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [سورة آل عمران:١٨١] هل: سمعه حين قالوه؟ قال: نعم. قال: فهل سمعه قبل أن يقولوا؟ قال: لا. قال: فهل علمه قبل أن يقولوه؟ قال: نعم. قال له: فأرى في سميع معنى غير معنى عليم. فلم يجب[2].

مناظرة الجهمية في صفة النزول:

النزول من الصفات الاختيارية التي تتعلق بمشيئته سبحانه، وهي تليق بجلاله، ولا يحتاج في إثباتها إلى تكلف التأويل والتحريف، ولقد تواتر السلف والأئمة وأهل السنة وتعاقبوا على إثباتها، وغيرها من الصفات الاختيارية :

---

(١) انظر : الرسالة التدمرية ص : ٢٩ .

(٢) انظر : تأويل مختلف الحديث ص: ٦٤-٦٥.

قال البخاري رحمه الله: وقال الفضيل بن عياض (١٨٧هـ): إذا قال لك الجهمي: أنا كافر برب يزول عن مكانه، فقل: أنا أومن برب يفعل ما يشاء[(١)]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقاً: «أراد الفضيل ابن عياض رحمه الله مخالفة الجهمي الذي يقول: إنه لا تقوم به الأفعال الاختيارية؛ فلا يتصور منه إتيان ولا مجيء ولا نزول ولا استواء ولا غير ذلك من الأفعال الاختيارية القائمة به»[(٢)].

وقال أبو عثمان الصابوني: سمعت الحاكم أبا عبد الله رحمه الله يقول: سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبري يقول: سمعت إبراهيم بن أبي طالب يقول: سمعت أحمد بن سعيد بن إبراهيم أبا عبد الله الرباطي يقول: حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر(٢٣٠هـ) ذات يوم، وحضر إسحاق بن إبراهيم - يعني ابن راهويه (٢٣٨هـ) - فسُئل عن حديث النزول، أصحيح هو؟ قال: نعم. فقال له بعض قوَّاد عبد الله، يا أبا يعقوب، أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟ قال: نعم. قال: كيف ينزل؟ قال له إسحاق: أَثْبِتْهُ فَوْق حتى أصف لك النزول. فقال الرجل: أَثْبَتُّهُ فَوْق. فقال إسحاق: قال الله عز وجل: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [سورة

---

(١) انظر : خلق أفعال ص: ١٧ ح: ٤٦ ، وروي نحوه عن يحيى بن معين في شرح السنة ٤٥٣/٣ برقم: ٧٧٦، وعن الفضيل في ٤٥٢/٣ برقم : ٧٥٥. وانظر : موافقة صحيح المنقول ١٥/٢.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧٧/٥.

الفجر: ٢٢] فقال الأمير عبد الله بن طاهر: يا أبا يعقوب هذا يوم القيامة، فقال إسحاق: أعزَّ الله الأمير! ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟![1].

وروى البيهقي عن أحمد بن سلمة يقول: سمعتُ إسحاق بن إبراهيم الحنظلي[2] يقول: جمعني وهذا المبتدع - يعني إبراهيم بن أبي صالح[3] - مجلسُ الأمير عبد الله بن طاهر، فسألني الأمير عن أخبار النزول فسردتها عليه، فقال إبراهيم: كفرتُ برب ينزل من سماء إلى سماء، فقلت: آمنت برب يفعل ما يشاء، قال: فرضي عبدُ الله كلامي، وأنكر على إبراهيم[4].

وقال محمد بن سلام: سألت عبد الله بن المبارك عن نزوله ليلة النصف من شعبان[5]، فقال عبد الله: يا ضعيف، ليلة النصف ينزل؟ في

---

(١) عقيدة السلف للصابوني ص :٢٦-٢٧ ط. السبكي، وانظر : الحجة للأصبهاني ١٢٥/٢-١٢٦ رقم : ٧٣ ، وموافقة المنقول ١٦/٢ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧٥/٥، ومختصر الصواعق المرسلة ٢٥٢/٢ ومختصر العلو للذهبي ١٩٣ برقم : ٢٣٧ وصححه الألباني.

(٢) هو : إسحاق بن راهويه.

(٣) إبراهيم بن أبي صالح ، نقل الحافظ الذهبي عن الإمام مسلم قوله فيه : جهمي لا يكتب حديثه. وقال الذهبي: وقد كذبه إسحاق بن راهويه في مجلس عبد الله بن طاهر . واسم أبي صالح هاشم قاله الحاكم . انظر : لسان الميزان ٦٩/١ تر : ١٧٩ .

(٤) انظر : الأسماء والصفات للبيهقي ص : ٤٥٢ ، وموافقة صحيح المنقول ١٧/٢-١٨، وصححه الذهبي في مختصر العلو ص : ١٩١-١٩٢، وكذلك الألباني .

(٥) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ٢٢٢/١ وما بعدها ح : ٥٠٩ وما بعده . وصححه الألباني

كل ليلة ينزل. فقال الرجل: يا أبا عبد الرحمن كيف ينزل؟! أليس يخلو ذلك المكان منه؟ فقال عبد الله بن المبارك: بالفارسية: (كذ حذائي خويس كن)، ينزل كيف يشاء[(١)].

المناظرة في التحيُّز:

التحيز من الألفاظ المجملة التي لم يرد بها النص: لا إثباتاً ولا نفياً، ولهذا كان نفيها يحتمل معنى صحيحاً وهو نفي الحيز المخلوق الذي تحويه ست جهات، ويحتمل معنى باطلاً وهو نفي جهة العلو لله (تعالى) وهو غالب مراد أهل البدع، فيقولون: إنه لا يوصف الله (تعالى) بالعلو؛ لأن الإشارة إلى جهة العلو يقتضي التحيز وهو منفي عن الله.

فيقال لمن قال هذا: من الناس من ينازعك في هذا ويقول: إنه سبحانه فوق العالم ويشار إليه، وليس بمتحيز.

فإن قال: هذا فساده معلوم بالضرورة. **قيل له:** ليس هذا بأبعد من قولك: إنه موجود قائم بنفسه، متصف بالصفات، مرئي بالأبصار، وهو مع هذا لا يشار إليه، وليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا مباين له ولا مداخل له.

فإن قال: إحالة هذا من حكم الوهم. **قيل له:** وإحالة موجود قائم بنفسه، يشار إليه ولا يكون متحيزاً من حكم الوهم، بل تصديق العقول

---

(١) انظر: الحجة ـ الأصبهاني ٢/١٢٥ ح: ٧٣، والأسماء والصفات ـ البيهقي ص: ٤٥٣، وعقيدة السلف ـ الصابوني ص: ٢٦ ط. السبكي.

بموجود يشار إليه ولا يكون متحيزاً أعظم من تصديقها بموجود قائم بنفسه، متصف بالصفات، لا يشار إليه، وليس بداخل العالم ولا خارجه.

ثم يقال له ثانياً: لم قلت: إنه يمتنع أن يكون متحيزاً؟ **فيقول**: لأنه إما أن يكون متحركاً أو ساكناً. **فيقال له**: فَلِمَ لا يجوز أن لا يكون قابلاً للحركة والسكون، وثبوت أحدهما فرع قبوله له؟

فإن قال: كل متحيز فهو قابل لهما. **قيل له**: عِلْمُنا بهذا كعلمنا بأن كل موجود قائم بنفسه موصوف بالصفات إما مباين لغيره، وإما محايث له. فإن جوزت موجوداً قائماً بنفسه، لا مباين ولا محايث، فجوِّز وجود موجود ليس بمتحرك ولا ساكن.

فإن قال: المتحيز إما أن يكون منتقلاً عن حيزه أو لا يكون منتقلاً عنه، والأول هو الحركة، والثاني هو السكون. **قيل له**: ليس كل متحيز أمراً وجودياً، فإن العالم متحيز وليس له حيز وجودي، **ومن قال**: إن البارئ وحده فوق العالم، أو سلَّم لك إنه متحيز لم يقل إنه في حيز وجودي، وحينئذ فالحيز أمر عدمي، فقولك: إما أن يكون منتقلاً بنفسه أو لا، وهو معنى قولك: إما أن يكون متحركاً أو ساكناً، وهذا إثبات الشيء بنفسه.

فإن قال: هذا بيِّن مستقر في الفطرة، والعلمُ به بديهي. **قيل له**: ليس هذا بأبين من قول القائل: إما أن يكون صانع العالم حيِّث العالم، وإما أن لايكون حيِّث العالم، والأول هو المحايثة والدخول فيه. الثاني: هو المباينة والخروج عنه.

فإن قال: يمكن أن لا يكون داخلاً فيه ولا خارجاً عنه. **قيل له:** ويمكن أن لا يكون المتحيز منتقلاً ولا يكون ساكناً، كما تقوله أنت فيما تقول: إنه قائم بنفسه لا منتقل ولا ساكن.

فإن قال: أنا أعقل هذا فيما ليس بمتحيز، ولا أعقله في المتحيز. **قيل له:** وكيف عقلت أولاً ثبوت ما ليس بمتحيز بهذا التفسير؟ والمنازع يقول: أنا لا أعقل إلا ما هو داخل أو خارج.

فإذا قال: هذا فرع ثبوت قبول ذلك، وقابل ذلك هو المتحيز، فما لا يكون كذلك لا يكون قابلاً للمباينة والمحايثة، والدخول والخروج. **قيل له:** نحن لا نعقل موجوداً إلا هذا. **فإن قال:** بل هذا ممكن في العقل وثابت أيضاً. **قيل له:** وكذلك متحيز لا يقبل الحركة والسكون هو أيضاً ممكن في العقل وثابت. **فإن قال:** الفطرة تدفع هذا. **قيل له:** وهي لدفع ذاك أعظم. **فإن قال:** ذاك حكم الوهم. **قيل:** وهذا حكم الوهم. **فإن قال:** العقل أثبت موجوداً ليس بمتحيز. **قيل له:** إنما أثبت ذاك بمثل هذه الأدلة التي تتلكم على مقدماتها، فإن أثبتَّ مقدمات النتيجة بالنتيجة، كنت مصادراً على المطلوب. فأنت لا يمكنك إثبات موجود ليس بمتحيز إلا بمثل هذا الدليل، وهذا الدليل لا يثبت إلا ببيان إمكان وجود موجود ليس بمتحيز، فلا يجوز أن تجعله مقدمة حجة في إثبات نفسه[1].

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٤/١٥٥-١٥٨.

المناظرة في صفة الاستواء:

من مذهب أهل السنة أن الله (تعالى) استوى على غرشه كما أخبرت النصوص استواءً يليق بجلاله، ليس كاستواء المخلوقات في شيء[(١)]. وخالف في ذلك أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، حيث أولوا الاستواء وفسروه بالاستيلاء فراراً من التشبيه على حد زعمهم، وقد وقعوا في شر مما فروا منه؛ لأن الاستيلاء لا يكون إلا عن مغالبة ومدافعة، وذلك مما لا يليق وصف الرب (تعالى) به.

مناظرة لابن الأعرابي في الاستواء:

قال نفطويه[(٢)]: حدثني أبو سليمان داود بن علي قال: كنا عند ابن الأعرابي (٢٣١هـ) فأتاه رجل، فقال له: ما معنى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: ٥] ؟ فقال: هو على عرشه كما أخبر عز وجل. فقال الرجل: يا أبا عبد الله، ليس هذا معناه، إنما معناه: استولى. فقال ابن الأعرابي: اسكت، ما أنت وهذا؟ لا يقال: استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد، فإن غلب أحدهما قيل: استولى، أما سمعت النابغة:[(٣)]

---

(١) العلو ـ الذهبي ص: ٨٢ .

(٢) انظر: شرح السنة ـ اللالكائي ٣٩٩/٣ برقم: ٦٦٦، وصحح إسناده الألباني في مختصر العلو ص: ١٩٦، وانظر فتح الباري ٤٠٦/١٣ ، ولسان العرب ٤١٤/١٤ مادة سوا.

(٣) ديوان النابغة ص : ٣٣ من قصيدة مطلعها :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

مناظرة للإمام مالك في الاستواء:

جاء رجل إلى الإمام مالك رحمه الله فقال: يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[سورة طه:٥] كيف استوى؟ قال - يعني الراوي -: فما رأيت مالكاً وجد من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرحضاء، وأطرق القوم، فسري عن مالك وقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالاً، وأمر به فأخرج.[1]

مناظرة الإمام أحمد الجهمية في الاستواء:

قال الإمام أحمد رحمه الله: فقلنا: لما أنكرتم أن يكون الله على العرش، وقد قال الله (تعالى): ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه: ٥]. وقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة الحديد: ٤].

فقالوا: هو تحت الأرض السابعة، كما هو على العرش، فهو على العرش وفي السموات وفي الأرض وفي كل مكان، ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، وتلوا آية من القرآن: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: ٣].

---

(١) قال الذهبي : هذا ثابت عن مالك، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك ص :١٤١ برقم : ١٣٢ من مختصر العلو، وانظر: الرد على الجهمية للدارمي ص : ٣٣ ، وشرح السنة ٣٩٨/٣ برقم : ٦٦٤ .

فقلنا: قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة الرب شيء. فقالوا: أي مكان؟ فقلنا: أجسامكم وأجوافكم وأجواف الخنازير والحشوش، والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب شيء.

وقد أخبرنا أنه في السماء، فقال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [سورة الملك: ١٦]، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [سورة الملك: ١٧] وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[سورة فاطر: ١٠]، وقال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [سورة آل عمران: ٥٥]. وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [سورة النساء: ١٥٨] وقال: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ﴾ [سورة الأنبياء: ١٩] وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [سورة النحل: ٥٠]، وقال: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [سورة المعارج: ٣] وقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] وقال:﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]. فهذا خبر الله أخبرنا أنه في السماء، ووجدنا كل شيء أسفل منه مذموماً؛ يقول الله (جلَّ ثناؤه): ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [سورة النساء: ١٤٥] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [سورة فصلت: ٢٩].

وقلنا لهم: أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه والشياطين مكانهم فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس في مكان واحد، وإنما معنى قول الله (جل ثناؤه): ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: ٣].

يقول: هو إله من في السموات وإله من في الأرض، وهو على العرش

وقد أحاط علمه بما دون العرش، ولا يخلو من علم الله مكان، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان، فذلك قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: ١٢] .

ومن الاعتبار في ذلك؛ لو أن رجلاً كان في يديه قدح من قوارير صاف، وفيه شراب صاف، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله -وله المثل الأعلى- قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون في شيء من خلقه...[1] .

المناظرة في العرش:

عرش الرحمن في معتقد أهل السنة أعظم المخلوقات، وهو سرير ذو قوائم، تحمله الملائكة، كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات، والله تعالى مستوٍ عليه[2] .

وروى الذهبي رحمه الله عن أحمد بن علي الأبار قال: حدثنا محمد ابن عبد الرحمن البلخي، قال مكي بن إبراهيم (٢١٤هـ): دخلت امرأة جهم على زوجتي، فقالت: يا أم إبراهيم، هذا زوجك الذي يُحدِّث عن العرش، من نجره؟ قالت: نجره الذي نجر أسنانك، قال: وكانت بادية الأسنان[3] .

---

(١) انظر : الرد على الجهمية والزنادقة ص : ١٣٥-١٣٧.

(٢) انظر : شرح الطحاوية ٢/٣٦٦-٣٦٧ .

(٣) مختصر العلو ص : ١٨٧ برقم : ٢٢١ ووثّق رجاله الألباني، وقال في البلخي: كذا في المطبوعة والمخطوطة وأظنه خطأ، والصواب محمد بن عمرو البلخي، فإنهم ذكروه في الرواة عن مكي بن إبراهيم.

والجهمية ينكرون أن يكون الله (تعالى) مستوياً على العرش، بل عندهم أنه بذاته في كل مكان لا يخلو منه شيء، وإنكارهم العرش فرع عن إنكارهم الاستواء والعلو.

المناظرة في العلو

من مذهب أهل السنة أن الله (تعالى) عال فوق خلقه، غير متصل بهم علو ذات ومكانة وشرف وقهر، وهو من الصفات اللازمة له (تعالى شأنه)، ثبتت بالسمع، وتعرف بالعقل الصحيح، وتدرك بالفطرة السليمة.(١)

مناظرة الإمام أحمد للجهمية في العلو:

قال الإمام أحمد رحمه الله: «قالوا: إن الله معنا وفينا. فقلنا: الله جل ثناؤه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة المجادلة: ٧]. ثم قال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: ٧] يعني الله بعلمه ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ﴾ : يعني الله بعلمه ﴿سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعني بعلمه فيهم: ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: ٧]. يفتح الخبر بعلمه ويختم الخبر بعلمه.

ويقال للجهمي: إن الله إذا كان معنا بعظمة نفسه، فقل له: هل يغفر الله لكم فيما بينه وبين خلقه؟ فإن قال: نعم، فقد زعم أن الله بائن

---

(١) انظر : شرح الطحاوية ٢/٣٨٠ .

من خلقه دونه، وإن قال: لا، كفر. وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله حين زعم أن الله في كل مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، فقل: أليس الله كان ولا شيء؟ فيقول: نعم. فقل له: حين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجاً من نفسه؟ فإنه يصير إلى ثلاثة أقوال، لا بد له من واحد منها:

إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه كفر، حين زعم أن الجن والإنس والشياطين في نفسه.

وإن قال: خلقهم خارجاً من نفسه ثم دخل فيهم كان هذا كفراً أيضاً.

ثم بيَّن أحمد رحمه الله وجوه معية الله لخلقه كما وردت في القرآن، فمن ذلك:

قال الله (جلَّ ثناؤه) لموسى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ [سورة طه: ٤٦] يقول: في الدفع عنكما. وقال: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: ٤٠] يقول: في الدفع عنا. وقال: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩] يقول:﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٥] يقول: في النصر لكم على عدوكم. وقال:﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [سورة النساء: ١٠٨] يقول: بعلمه فيهم. وقال: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [سورة الشعراء: ٦١-٦٢] يقول: في العون على [فرعون][(١)].

(١) في الأصل [قريش] وصححتها من طبعة الإفتاء، وهو مقتضى السياق.

فلما ظهرت الحجة على الجهمي بما ادعى على الله أنه مع خلقه، قال: هو في كل شيء غير مماس لشيء ولا مباين منه، فقلنا: إذا كان غير مباين أليس هو مماس؟ قال: لا. قلنا: فكيف يكون في كل شيء غير مماس لشيء ولا مباين؟ فلم يُحسن الجواب. فقال: بلا كيف [فيخدع][1] جهال الناس بهذه الكلمة وموّه عليهم.

فقلنا: أليس إذا كان يوم القيامة، أليس إنما هو في الجنة والنار والعرش والهواء.. قال: بلى. فقلنا: فأين يكون ربنا؟ فقال: يكون في كل شيء. حين زعم أنه دخل في مكان وحُشٌ قذر رديء.

وإن قال: خلقهم خارجاً من نفسه ثم لم يدخل فيهم، رجع عن قوله أجمع، وهو قول أهل السنة.

إذا أردت أن تعلم أن الجهمي لا يقر بعلم الله، فقل له: الله يقول: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [سورة النساء: ١٦٦] وقال: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [سورة هود: ١٤] وقال: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [سورة فصلت: ٤٧].

فيقال له: تقر بعلم الله هذا الذي أوقفك عليه بالأعلام والدلالات أم لا؟ فإن قال: ليس له علم، كَفَرَ. وإن قال: لله علم محدث، كَفَرَ، حين

---

(١) في بعض النسخ [فخدع] كما نبه إليه المحقق، وكلتاهما صحيحة.

زعم أن الله قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى أحدث لـه علماً فعلم. فإن قال: لله علم وليس مخلوقاً ولا محدثاً، رجع عن قوله كله، وقال بقول أهل السنة. كما كان حين في الدنيا في كل شيء. فقلنا: فإن مذهبكم أن ما كان من الله على العرش فهو على العرش، وما كان من الله في الجنة فهو في الجنة، وما كان من الله في النار فهو في النار، وما كان من الله في الهواء فهو في الهواء. فعند ذلك تبين كذبهم على الله جل ثناؤه »[1].

مناظرة الجهمية في إبطال قولهم إن الله في كل مكان:

قال الإمام أحمد رحمه الله: «وقلنا للجهمية حين زعموا أن الله في كل مكان لا يخلو منه مكان فقلنا: أخبرونا عن قول الله جل ثناؤه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٣] لم يتجلَّ للجبل إن كان فيه بزعمهم؟ فلو كان فيه كما تزعمون لم يكن يتجلى لشيء هو فيه، ولكن الله جل ثناؤه على العرش وتجلى لشيء لم يكن فيه، ورأى الجبل شيئاً لم يكن رآه قبل ذلك.

وقلنا للجهم: فالله نور؟ فقال: هو نور كله. فقلنا: فالله قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر: ٦٩] فقد أخبر الله جل ثناؤه أن له نوراً. فقلنا: أخبرونا حين زعمتم أن الله في كل مكان وهو نور، فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذي هو فيه إن زعمتم أن الله في كل

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص : ١٣٨-١٤٢ .

مكان؟ وما بال السراج إن أدخل البيت يضيء؟! فعند ذلك تبين للناس كذبهم على الله (تعالى) . فرحم الله من عقل عن الله ورجع عن القول الذي يخالف الكتاب والسنة، وقال بقول العلماء، وهو قول المهاجرين والأنصار، وترك دين الشيطان، ودين جهم وشيعته»[(١)].

مناظـــرة أبي جعفر الهمذاني لأبي المعالي الجويني في العلو:

ساق الذهبي بسنده إلى أبي جعفر بن أبي علي الهمذاني الحافظ(٥٣١هـ) قال: سمعتُ أبا المعالي الجويني، وقد سئل عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه: ٥]، فقال: كان الله ولا عرش، وجعل يتخبط في الكلام، فقلت: قد علمنا ما أشرت إليه، فهل عندك للضرورات من حيلة؟ فقال: ما تريد بهذا القول؟ وما تعني بهذه الإشارة؟ فقلت: ما قال عارف قط: يا رباه، إلا قبل أن يتحرك لسانه، قام من باطنه قَصْدٌ لا يلتفت يمنة ولا يسرة يقصد الفوق، فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة؟ فنبئنا نتخلص من الفوق والتحت، وبكيت وبكى الخلق، فضرب الأستاذ بكمِّه على السرير، وصاح: يا للحيرة! وخرَّق ما كان عليه، وانخلع، وصارت قيامة في المسجد، ونزل، و لم يجبني إلا: يا حبيبي الحيرة الحيرة، والدهشة الدهشة، قال: فسمعت بعد ذلك أصحابه يقولون: سمعناه يقول: حيرني الهمذاني[(٢)].

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص : ١٤٨-١٤٩

(٢) مختصر العلو ص : ٢٧٦-٢٧٧ برقم : ٣٣٧ وصحَّح إسناده الألباني.

المناظرة في كلام الله (تعالى)

كلام الله (تعالى) عند أهل السنة متعلق بمشيئته، يتكلّم سبحانه متى شاء كيف شاء، وأنه يتكلم بحرف وصوت، وأن بعض عباده يسمعونه منه، كما سمعه موسى عليه السلام. وخالف أهلَ السنة في ذلك كثير من طوائف الأمة، على ما مرَّ ذكره[١].

مناظرة في معنى حدوث الكلام:

قال محمد بن خلف الخرَّاز: سمعت هشام بن عبيد الله الرازي[٢] يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، فقال له رجل: أليس الله يقول: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾[سورة الأنبياء: ٢] فقال: محدث إلينا، وليس عند الله بمحدث. قال الذهبي: لأنه من علم الله، وعلم الله لا يوصف بالحدث.[٣]

مناظرة في التفريق بين الخلق والأمر:

ذكر صالح بن أحمد أن إسحاق بن إبراهيم قال لأحمد بن حنبل: من أين قلت: إنه غير مخلوق؟ فقلت: قال الله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤] ففرَّق بين الخلق والأمر. فقال إسحاق: الأمر مخلوق. فقال: يا سبحان الله، أمخلوق يخلق خلقاً؟! قال الإمام الذهبي: يعني: إنما خلق الكائنات بأمره، وهو قوله : ﴿كُنْ﴾[٤] [سورة الأنعام: ٧٣].

---

(١) وانظر : شرح الطحاوية ١٧٢/١ وما بعدها .

(٢) السني الفقيه، أحد أئمة السنة، حدث عن مالك بن أنس وجماعة. انظر : السير ٤٤٦/١٠ .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٤٧/١٠ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٦٦/١١.

مناظرة الإمام أحمد للجهمية في صفات الله (تعالى) وفي كلامه:

وذلك في كتابه الرد على الجهمية والزنادقة[1]، حيث ذكر رحمه الله الجهم وأتباعه من أصحاب واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ووضعهم لدين الجهمية، ثم قال رحمه الله: «فإذا سألهم الناس عن قول الله: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١] يقولون: ليس كمثله شيء من الأشياء، وهو تحت الأرضين السبع، كما هو على العرش، ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، ولم يتكلم، ولا ينظر إليه أحد في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف بصفة، ولا يفعل، ولا له غاية ، ولا له منتهى، ولا يدرك بعقل، وهو وجه كله، وهو علم كله، وهو سمع كله، وهو بصر كله، وهو نور كله، وهو قدرة كله، ولا يكون فيه شيئان، ولا يوصف بوصفين مختلفين، وليس له أعلى ولا أسفل، ولا نواحي ولا جوانب، ولا يمين ولا شمال، ولا هو خفيف ولا ثقيل، ولا له لون، ولا له جسم، وليس هو بمعلوم ولا معقول، وكلما خطر على قلبك أنه شيء تعرفه فهو على خلافه.

قال أحمد: وقلنا: هو شيء. فقالوا: هو شيء لا كالأشياء. فقلنا: إن الشيء الذي لا كالأشياء قد عرف أهل العقل أنه لا شيء. فعند ذلك تبين للناس أنهم لا يؤمنون بشيء، ولكن يدفعون عن أنفسهم الشُّنعة بما يُقرون من العلانية.

---

(١) انظر : ص : ١٠٥-١١١ .

فإذا قيل لهم: فمن تعبدون؟ قالوا: نعبد من يدبر أمر هذا الخلق. فقلنا: هذا الذي يدبر أمر هذا الخلق هو مجهول لا يعرف بصفة؟ قالوا: نعم. فقلنا: قد عرف المسلمون أنكم لا تؤمنون بشيء، إنما تدفعون عن أنفسكم الشُّنعة بما تظهرونه، فقلنا لهم: هذا الذي يدبر هو الذي كلّم موسى. قالوا: لم يتكلم ولا يُكلِّم؛ لأن الكلام لا يكون إلا بجارحة والجوارح منفية.

فإذا سمع الجاهل قولهم يظن أنهم من أشدِّ الناس تعظيماً لله، ولا يعلم أنهم إنما يعود قولهم إلى ضلالة وكفر، ولا يشعر أنهم لا يقولون قولهم إلا فرية في الله.

فمما يسأل عنه يقال له: تجد في كتاب الله آية تخبر عن القرآن أنه مخلوق؟ فلا يجد. فيقال له: فتجده في سنة رسول الله ﷺ أنه قال: إن القرآن مخلوق، فلا يجد. فيقال له: فمن أين قلت؟ فيقول: من قول الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[سورة الزخرف: ٣].

وزعم أن "جعل" بمعنى "خلق"، فكل مجعول هو مخلوق، فادعى كلمة من الكلام المتشابه يحتج بها من أراد أن يلحد في تنزيله، ويبتغي الفتنة في تأويلها، وذلك أن "جعل" في القرآن من المخلوقين على وجهين: على معنى التسمية، وعلى معنى فعل من أفعالهم. وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [سورة الحجر: ٩١] .

قالوا: هو شعر وأنباء الأولين، وأضغاث أحلام، فهذا على معنى التسمية. قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [سورة الزخرف: ١٩] يعني: سموهم إناثاً.

ثم ذكر "جعل" على معنى التسمية، فقال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [سورة البقرة: ١٩] فهذا على معنى فعل من أفعالهم. وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [سورة الكهف: ٩٦] هذا على معنى فعل، فهذا جعل المخلوقين.

ثم جعل من أمر الله على معنى غير خلق، لا يكون إلا خلق، ولا يقوم إلا مقام خَلَقَ خلقاً، لا يزول عنه المعنى، وإذا قال الله "جعل" على غير معنى خلق، لا يكون خلق، ولا يقوم مقام خلق، ولا يزول عنه المعنى.

فمما قال الله "جعل" على معنى (خلق) قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [سورة الأنعام: ١] يعني: وخلق الظلمات والنور. وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [سورة النحل: ٧٨] يقول: وخلق لكم السمع والأبصار. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [سورة الإسراء: ١٢] ويقول: وخلقنا الليل والنهار آيتين. وقال: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [سورة نوح: ١٦] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٨٩] يقول: خلق منها زوجها، يقول: وخلق من آدم حواء. وقال: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ [سورة النمل: ٦١] يقول: وخلق لها رواسي، ومثله في القرآن كثير. فهذا وما كان مثله لا يكون إلا على معنى خلق.

ثم ذكر "جعل" على غير معنى خلق، قوله : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ [سورة المائدة: ١٠٣] لا يعني: ما خلق الله من بحيرة ولا سائبة. وقال

ا لله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [سورة البقرة: ١٢٣] لا يعني إني خالقك للناس إماماً؛ لأن خلق إبراهيم كان متقدماً. وقال إبراهيم : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [سورة إبراهيم: ٣٥] وقال إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٠] لا يعني اخلقني مقيم الصلاة.

وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٦] وقال لأم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص: ٧] لا يعني: وخالقوه من المرسلين؛ لأن ا لله وعد أم موسى أن يرده إليها ثم يجعله بعد ذلك رسولاً.

وقال: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٧] وقال: ﴿اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة القصص: ٥] وقال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [سورة الأعراف: ١٤٣] لا يعني وخلقه دكاً.

ومثله في القرآن كثير، فهذا وما كان على مثاله لا يكون على معنى خلق، فإذا قال ا لله:(جعل) على معنى خلق، وقال:"جعل" على غير معنى خلق، فبأي حجة قال الجهمي: "جعل" على معنى "خلق"؟ فإن ردَّ الجهمي الجعل إلى المعنى الذي وصفه ا لله فيه، وإلا كان من الذين: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٥] .

فلما قال ا لله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٣] وقال:﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٤-١٩٥] وقال:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [سورة مريم: ٩٧] فلما جعل الله القرآن عربياً ويسره بلسان نبيه ﷺ كان ذلك فعلاً من أفعال الله تبارك وتعالى). جعل القرآن به عربياً يعني هذا بيان لمن أراد هداه الله مبيناً، وليس كما زعموا معناه أنزلناه بلسان العرب، وقيل بيناه.

ثم إن الجهم ادعى أمراً آخر، وهو من المحال، فقال: أخبرونا عن القرآن أهو الله، أو غير الله؟ فادعى في القرآن أمراً يوهم الناس. فإذا سئل الجاهل عن القرآن، هو الله أو غير الله؟ فلا بد له من أن يقول بأحد القولين. فإن قال: هو الله. قال الجهمي: كفرت. وإن قال: هو غير الله. قال: صدقت، فلم لا يكون غير الله مخلوقاً؟ فيقع في نفس الجاهل من ذلك ما يميل به إلى قول الجهمي. وهذه المسألة من الجهمي من المغاليط.

فالجواب للجهمي إذا سأل، فقال: أخبرونا عن القرآن هو الله أو غير الله؟ قيل له: وإن الله جل ثناؤه لم يقل في القرآن إن القرآن أنا، ولم يقل غيري، وقال: هو كلامي فسمَّيناه باسم سمَّاه الله به، فقلنا: كلام الله، فمن سمَّى القرآن باسم سمَّاه الله به كان من المهتدين، ومن سمَّاه باسم غيره كان من الضالين.

وقد فصل الله بين قوله وبين خلقه ولم يسمِّه قولاً، فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤] . فلمَّا قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ لم يبق شيء مخلوق إلا كان داخلاً في ذلك. ثم ذكر ما ليس بخلق فقال: والأمر. فأمره هو قوله: تبارك رب العالمين أن يكون قوله خلقاً.

وقـال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: ٣-٤] ثم قال القرآن: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ [سورة الدخان: ٥] وقال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[سورة الروم: ٤] يقول: لله القول من قبل الخلق، ومن بعد الخلق، فا لله يخلق ويأمر وقوله غير خلقه. وقـال: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [سورة الطلاق: ٥] وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [سورة هود: ٤٠]...».

ثم قال الإمام أحمد[1] رحمـه ا لله: «ثـم إن الجهـم ادعـى أمـراً آخـر، فقال: أخبرونا عن القرآن، هو شيء؟ فقلنا: نعم هو شيء. فقـال: إن ا لله خلق كل شيء، فلم لا يكون القرآن مع الأشياء المخلوقة وقد أقـررتم أنـه شيء؟

فلعمري لقد ادعى أمراً أمكنه فيـه الدعـوى، ولبَّـس علـى النـاس بمـا ادعى. فقلنا: إن ا لله في القرآن لم يسمِّ كلامه شيئاً، إنما سمَّـى شيئاً الـذي كان بقوله: ألم تسمع إلى قوله تبارك وتعالى): ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ [سورة النحل: ٤٠] فالشيء ليس قوله، إنما الشيء الذي كان بقوله.

وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ [سورة يس: ٨٢] فالشيء ليس هـو أمره، إنما الشيء الذي كان بأمره.

ومن الأعلام والدلالات أنه لا يعني كلامه مع الأشياء المخلوقة، قـال ا لله للريح التي أرسلها على عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [سـورة الأحقـاف: ٢٥] وقد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها، منازلهم ومسـاكنهم، والجبـال

(١) الرد على الجهمية والزنادقة، ص: ١١٥-١١٦ .

التي بحضرتهـم، فـأتت عليهـا تلـك الريـح و لم تدمرهـا. وقـال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾. فكذلك إذا قال: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٢] لا يعـني نفسـه، ولا علمه، ولا كلامه، مع الأشياء المخلوقة.

وقال لملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل: ٢٣] وقد كـان مُلْـكُ سليمان شيئاً و لم تُؤْتَه، وكذلك إذا قال: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يعـني كلامـه مع الأشياء المخلوقة.

وقـال ا لله لموسـى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [سورة طـه: ٤١]، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [سورة آل عمران: ٢٨] وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [سـورة الأنعـام: ٥٤] وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نفسك﴾ [سورة المائدة: ١١٦].

ثـم قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٥] فقد عرف من عقل عن ا لله أنه لا يعني نفسه مع الأنفـس الـتي تـذوق المـوت، وقـد ذكـر ا لله (تعالى) كل نفس، فكذلك إذا قال: ﴿خالق كل شيء﴾ لا يعـني نفسـه، ولا علمه، ولا كلامه، مع الأشياء المخلوقة.

ففي هذا دلالة وبيان لمن عقل عن ا لله، فرحم ا لله من فكّـر، ورجـع عن القول الذي يخالف الكتاب والسنة، و لم يقل على ا لله إلا الحق... ».

ثم قال أحمد[١] رحمه ا لله: ثم إن الجهم ادعى أمـراً آخـر، فقـال: أنـا أجد آية في كتاب ا لله تبارك وتعالى تدل على أن القرآن مخلوق. فقلنا: في

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص : ١٢٠-١٢٥ .

أي آية؟ فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ محدث﴾ [سورة الأنبياء: ٢] فزعم أن الله قال: القرآن محدث وكل محدث مخلوق.

فلعمري، لقد شبَّه على الناس بهذا. وهي آية من المتشابه، فقلنا في ذلك قولاً واستعنا بالله، ونظرنا في كتاب الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال أحمد رحمه الله: اعلم أن الشيئين إذا اجتمعا في اسم يجمعهما، فكان أحدهما أعلى من الآخر، ثم جرى عليهما اسم مدح، فكان أعلاهما أولى بالمدح وأغلب عليه، وإن جرى عليه اسم ذم فأدناهما أولى به، ومن ذلك قول الله (تعالى) في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحج: ٦٥]، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [سورة الإنسان: ٦] يعني الأبرار دون الفجار، فإذا اجتمعوا في اسم الإنسان واسم العباد فالمعنى في قول الله (جل ثناؤه) : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [سورة الإنسان: ٦] يعني الأبرار دون الفجار؛ لقوله إذا انفرد الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [سورة الانفطار: ١٣] وإذا انفرد الفجار: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [سورة الانفطار: ١٤].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [سورة الحج: ٦٥] فالمؤمن أولى به وإن اجتمعا في اسم الناس؛ لأن المؤمن إذا انفرد أعطي المدحة؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحج: ٦٥]، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣].

وإذا انفرد الكفار جرى عليهم الذم في قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود: ١٨] وقال: ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [سورة المائدة: ٨٠]. فهؤلاء لا يدخلون في الرحمة، وفي قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى: ٢٧].

فاجتمع الكافر والمؤمن في اسم العبد، والكافر أولى بالبغي من المؤمنين؛ لأن المؤمنين انفردوا ومدحوا فيما بسط لهم من الرزق، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [سورة الفرقان: ٦٧] وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣] وقد بسط الرزق لسليمان بن داود، ولذي القرنين، وأبي بكر، وعمر، ومن كان على مثالهم ممن بسط له فلم يبغ.

وإذا انفرد الكافر وقع عليه اسم البغي في قوله لقارون: ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [سورة القصص: ٧٦] ونمرود بن كنعان حين آتاه الله الملك فحاج في ربه، وفرعون حين قال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: ٨٨] فلما اجتمعوا في الاسم الواحد، فجرى عليهم اسم البغي، كان الكفار أولى به، كما أن المؤمن أولى بالمدح.

فلما قال الله (تعالى): ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: ٢] فجمع بين ذِكْرين: ذكر الله، وذكر نبيه، فأما ذكر الله إذا انفرد لم يجر عليه اسم الحدث، ألم تسمع إلى قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥]، ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٠].

وإذا انفرد ذكر النبي ﷺ فإنه جرى عليه اسم الحدث، ألم تسمع إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: ٩٦]. فذكر النبي ﷺ له عمل، والله له خالق محدث، والدلالة على أنه جمع بين ذكرين لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: ٢] فأوقع عليه الحدث عنه إتيانه إيانا، وأنت تعلم أنه لا يأتينا بالأنباء إلا مبلّغ ومذكّر، وقال الله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة الذاريات: ٥٥] ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [سورة الأعلى: ٩]، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [سورة الغاشية: ٢١].

فلما اجتمعوا في اسم الذكر جرى عليهم اسم الحدث، وذكر النبي إذا انفرد وقع عليه اسم الخلق، وكان أولى بالحدث من ذكر الله الذي إذا انفرد لم يقع عليه اسم خلق، ولا حدث، فوجدنا دلالة من قول الله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [سورة الأنبياء: ٢] إلى النبي ﷺ لأن النبي ﷺ كان لا يعلم فعلمه الله، فلما علمه الله كان ذلك محدثاً إلى النبي ﷺ .

ثم قال أحمد رحمه الله: ثم إن الجهم ادعى أمراً آخر، فقال: إنا وجدنا آية في كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق. فقلنا: أي آية؟ فقال: قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ [سورة النساء: ١٧١]. وعيسى مخلوق.

فقلنا: إن الله منعك الفهم في القرآن، عيسى تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن؛ لأنه يسميه مولوداً وطفلاً، وصبياً وغلاماً يأكل

ويشرب، وهو مخاطب بالأمر والنهي، يجري عليه اسم الخطاب والوعد والوعيد، ثم هو من ذرية نوح، ومن ذرية إبراهيم، ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى. هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى؟ ولكن المعنى من قول الله (جلَّ ثناؤه): ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء] فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: (كن) فكان عيسى (بكن) وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان، فالكن من الله قول، وليس الكن مخلوقاً.

وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته؛ لأن الكلمة مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمته من ذات الله. كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب، وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة.

وأما قول الله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [سورة النساء: ١٧١] يقول: من أمره كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [سورة الجاثية: ١٣] يقول: من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقها الله، كما يقال: عبد الله وسماء الله وأرض الله.

مناظرة الإمام أحمد الجهمية في تكليم الله (تعالى) موسى عليه السلام:

قال رحمه الله: فقلنا: لم أنكرتم ذلك؟ قالوا: إن الله لم يتكلم ولا يتكلم، إنما كوَّن شيئاً فعبَّر عن الله، وخلق صوتاً فأسمع، وزعموا أن

الكلام لا يكون إلا من جوف ولسان وشفتين. فقلنا: هل يجوز لمكوَّن أو غير الله أن يقول: ﴿يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [سورة طه: ١١-١٢]. أو يقول: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [سورة طه: ١٤] فمن زعم ذلك، فقد زعم أن غير الله ادعى الربوبية، كما زعم الجهم أن الله كوَّن شيئاً كان يقول ذلك المكوَّن: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة القصص: ٣٠] وقد قال (جلَّ ثناؤه): ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٦٤] وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٣] وقال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾ [سورة الأعراف: ١٤٤].

فهذا منصوص القرآن، فأما ما قالوا: إن الله لا يتكلم، فكيف يصنعون بحديث الأعمش عن خيثمة عن عدي بن حاتم الطائي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ما بينه وبينه ترجمان»[1].

وأما قولهم: إن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين ولسان، أليس الله قال للسموات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١] أتراها أنها قالت بجوف وفم وشفتين ولسان وأدوات؟ وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٩]. أتراها سبحت بجوف وفم

---

(١) رواه بهذا الإسناد البخاري في صحيحه ٤٢٣/١٣ كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ ح: ٧٤٤٣، وهو في مواضع أخرى ، وفي صحيح مسلم ٧٠٣/٢ كتاب الزكاة ـ باب الحث على الصدقة... يلي الحديث ١٠١٦.

ولسان وشفتين؟ والجوارح إذ شهدت على الكافر، فقالوا: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة فصلت: ٢١]. أتراها أنها نطقت بجوف وفم ولسان؟ ولكن الله أنطقها كيف شاء.

وكذلك الله تكلّم كيف شاء من غير أن يقول بجوف ولا فم ولا شفتين ولا لسان.

قال أحمد رضي الله عنه: فلما خنقته [الحجج][1] قال: إن الله كلّم موسى إلا أن كلامه غيره. فقلنا: وغيره مخلوق؟ قال: نعم. فقلنا: هذا مثل قولكم الأول، إلا أنكم تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون».

ثم قال رحمه الله:«وقلنا للجهمية: من القائل يوم القيامة: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة المائدة: ١١٦]. أليس هو القائل؟ قالوا: فيكوّن الله شيئاً فيعبّر عن الله، كما كوّن شيئاً فعبر لموسى. قلنا فمن القائل: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [سورة الأعراف: ٧] أليس الله هو الذي يسأل؟ قالوا: هذا كله إنما يكوّن شيئاً فيعبّر عن الله، قلنا: قد أعظمتم على الله الفرية، حين زعمتم أنه لا يتكلم فشبهوه بالأصنام التي تعبد من دون الله؛ لأن الأصنام لا تتكلم، ولا تتحرك ولا تزول من مكان إلى مكان.

فلما ظهرت عليه الحجة قال: إن الله يتكلم، ولكن كلامه مخلوق. قلنا: وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق، فقد شبهتم الله بخلقه حين زعمتم

(١) في الأصل [الحج] ولعل الصحيح ما أثبته، ويحتمل أن تكون: الحجة

أن كلامه مخلوق، ففي مذهبكم قد كان في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم، وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلاماً، وقد جمعتم بين كفر وتشبيه، وتعالى الله عن هذه الصفة، بل نقول: إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ولا نقول: إنه كان ولا يتكلم حتى خلق الكلام. ولا نقول: إنه قد كان لا يعلم حتى خلق علماً فعلم، ولا نقول إنه قد كان ولا قدرة له حتى خلق لنفسه القدرة، ولا نقول: إنه قد كان ولا نور له حتى خلق لنفسه نوراً، ولا نقول: إنه قد كان ولا عظمة له حتى خلق لنفسه عظمة.

فقالت الجهمية: لما وصفنا الله بهذه الصفات، إن زعمتم أن الله ونوره، والله وقدرته، والله وعظمته، فقد قلتم بقول النصارى حين زعموا أن الله لم يزل ونوره، ولم يزل وقدرته. قلنا: لا نقول: إن الله لم يزل وقدرته، ولم يزل ونوره، ولكن نقول: لم يزل بقدرته ونوره، لا متى قدَّر ولا كيف قدَّر.

فقالوا: لا تكونوا موحدين أبداً حتى تقولوا: قد كان الله ولا شيء. فقلنا: نحن نقول: قد كان الله ولا شيء، ولكن إذا قلنا: إن الله لم يزل بصفاته كلها، أليس إنما نصف إلهاً واحداً بجميع صفاته؟ وضربنا لهم في ذلك مثلاً:

فقلنا: أخبرونا عن هذه النخلة، أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجُمَّار؟ واسمها شيء واحد؟ وسميت نخلة بجميع

صفاتها؟ فكذلك الله، وله المثل الأعلى، بجميع صفاته إله واحد، لا نقول: إنه قد كان في وقت من الأوقات ولا يقدر حتى خلق له قدرة، والذي ليس له قدرة هو عاجز، ولا نقول: قد كان في وقت من الأوقات ولا يعلم حتى خلق له علماً فعلم، والذي لا يعلم هو جاهل. ولكن نقول: لم يزل الله عالماً قادراً، لا متى ولا كيف، وقد سمَّى الله رجلاً كافراً اسمه الوليد بن المغيرة المخزومي، فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [سورة المدثر: ١١] وقد كان هذا الذي سماه الله: ﴿وحيدا﴾ له عينان وأذنان ولسان وشفتان ويدان، ورجلان، وجوارح كثيرة، فقد سماه الله: ﴿وحيدا﴾ بجميع صفاته، فكذلك الله، وله المثل الأعلى، هو بجميع صفاته إله واحد[1].

مناظرة محمد بن سحنون المالكي للجهمية:

جاء في رياض النفوس[2]: وحضر محمد بن سحنون (٢٥٦هـ) يوماً عند علي بن حميد الوزير، وكان علي يبغيه، وكان يجل محمداً ويعظمه ويُكْبِرُهُ، وكان في مجلسه جماعة ممن يحسنون المناظرة، وأحضر معهم شيخاً قدم من المشرق، يقال له: أبو سليمان النحوي، صاحب الكسائي الصغير، وكان يقول بخلق القرآن، ويذهب إلى الاعتزال، فقال علي بن حميد الوزير لمحمد: يا أبا عبد الله، إن هذا الشيخ وصل إلينا من المشرق،

---

(١) انظر : الرد على الجهمية والزنادقة ص : ١٣٠-١٣٤

(٢) ١/٣٥٠-٣٥١ ، وانظرها : مختصرة في سير أعلام النبلاء ٦٢/١٣ .

وقد تناظر معه هؤلاء، فناظره أنت. فقال محمد: تقول أيها الشيخ أو تسمع؟ فقال له الشيخ: قل يا بني. فقال محمد: أرأيت كل مخلوق هل يذل لخالقه؟ فسكت الشيخ، ولم يحر جواباً، ومضى وقت طويل، وانحصر ولم يأت بشيء. فقال له محمد: كم سنة أتت عليك أيها الشيخ؟ فقال له: ثمانون سنة. فقال ابن سحنون للوزير ابن حميد: قد اختلف أهل العلم في الصلاة على الميت بعد سنة من يوم موته، فقال بعضهم: يصلى عليه، وأجمعوا أنه إذا جاوز السنة لا يصلى عليه. وهذا الشيخ له ثمانون سنة ميت، في عداد الموتى، فقد سقطت الصلاة عليه بإجماع. ثم قام. فسُرَّ بذلك علي بن حميد وأهل المجلس.

فسئل ابن سحنون: أن يبين لهم معنى سؤاله هذا. فقال: إن قال: إن كل مخلوق يذل لخالقه، فقد كفر؛ لأنه جعل القرآن ذليلاً؛ لأنه يذهب إلى أنه مخلوق، وقال: قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: ٤٢] وإن قال: إنه لا يذل، فقد رجع إلى مذهب أهل السنة؛ لأنه لا يذهب في هذه الحالة إلى أنه مخلوق الذي هو صفة من صفاته.

مناظرة عبد العزيز الكناني لبشر المريسي في مسألة القرآن:

ومن ذلك ـ أيضاً ـ مناظرة عبد العزيز الكناني لبشر المريسي في مجلس المأمون، وقد تقدم ذكر التحضير لمجلس هذه المناظرة، لكني أذكر هنا عين المناظرة مع حذف بعض الاستطرادات:[1]

(١) انظر: الحيدة ص: ٢٨ وما بعدها.

وكان عبد العزيز وبشر قد اتفقا على الاحتكام في المناظرة إلى نص التنزيل، والرجوع إليه دون التأويل والتفسير، وشهد عليهما المأمون بذلك، حيث كان الحاكم بينهما، والحافظ عليهما.

قال عبد العزيز: ثم أقبلت على بشر، فقلت: يا بشر ما حجتك أن القرآن مخلوق؟ انظر إلى أحد سهم في كنانتك وارمني به، ولا تحتج إلى معاودتي بغيره.

فقال لي بشر: تقول: إن القرآن شيء أم غير شيء، فإن قلت: إنه شيء، فقد أقررت أنه مخلوق إذ كانت الأشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل، وإن قلت: إنه ليس بشيء فقد كفرت؛ لأنك تزعم أنه حجة الله على خلقه، وأن حجة الله ليست بشيء.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر ما رأيت أعجب منك، تسألني وتجيب نفسك عني، وتكفرني ولم تسمع كلامي، ولا قولي، فإن كنت سألت لأجيبك فاسمع مني، فإني أحسن أن أعبر عن نفسي، وأحتج لمقالتي ومذهبي، وإن كنت إنما تريد أن تخطب وتتكلم لتدهشني وتنسيني حجتي فلن أزداد بتوفيق الله إلا بصيرة وفهماً، وما أحسبك يا بشر إلا قد تعلمت شيئاً، أو سمعت قائلاً يقول هذه المقالة التي قلتها، أو قرأتها في كتاب، فأنت تكره أن تقطعها حتى تأتي على آخرها.

قال عبد العزيز: فأقبل المأمون على بشر، وقال: صدق عبد العزيز، اسمع منه جوابه، ورد عليه بعد ذلك بما شئت من الكلام، ثم قال لي:

تكلم يا عبد العزيز، وأجبه عما سألك. **فقلت لبشر**: سألت عن القرآن: أهو شيء أم غير شيء، فإن كنت تريد أنه شيء إثباتاً للوجود ونفياً للعدم، فنعم هو شيء، وإن كنت تريد أن الشيء اسم له وأنه كالأشياء، فلا. **فقال بشر**: ما أدري ما تقول، ولا أفهمه، ولا أعقله ولا أسمعه، ولا بد من جواب يفهم ويعقل، أنه شيء أو غير شيء.

قال عبد العزيز: صدقت أنك لا تفهم، ولا تعقل، ولا تسمع ما أقول، ولقد وصفت نفسك بأقبح الصفات، واخترت لها أذم الاختيارات، ولقد ذم الله عز وجل في كتابه من قال مثل ما قلت، أو كان بمثل ما وصفت به نفسك، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٢-٢٤] وقال لنبيه ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الزخرف: ٤٠]...

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون: دع هذا يا عبد العزيز، وارجع إلى ما كنت فيه، وبينه، واشرحه، واحتج لنفسك. **فقلت**: يا أمير المؤمنين، إن الله (تعالى) أجرى على كلامه ما أجراه على نفسه، فلم يتسم بالشيء، و لم يجعل الشيء اسماً من أسمائه، ولكنه دل على نفسه أنه أكبر الأشياء، إثباتاً للوجود، ونفياً للعدم، وتكذيباً منه للزنادقة والدهرية، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته، وأنكر ربوبيته من سائر الأمم، فقال عز وجل لنبيه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٩] فدلَّ

على نفسه أنه شيء لا كالأشياء، وأنزل في ذلك خبراً خاصاً مفرداً، لعلمه السابق أن جهماً وبشراً ومن قال بقولهما سيلحدون في أسمائه، ويشبهون على خلقه، ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة، فقال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١] فأخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر، تكذيباً لمن ألحد في كتابه وافترى عليه، وشبَّهَهُ بخلقه، وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠] ثم عدد أسماءه في كتابه، فلم يتسمَّ بالشيء، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه، ثم قال النبي ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»[١]، ثم عدَّدها[٢]، فلم نجده جعل الشيء اسماً له (تعالى)، فقلت كما قال الله،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٢١٤/١١ كتاب الدعوات ـ باب لله مائة اسم غير واحدة ح: ٦٤١٠ ، ومسلم في صحيحه ٢٠٦٢/٤ كتاب الذكر والدعاء ... باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها ح: ٢٦٧٧ وما يليه ، والترمذي في سننه ١٧٢/٩ أبواب الدعوات ـ باب لله تسعة وتسعون اسماً ح : ٣٥٠١ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة .

(٢) سرد الأسماء الحسنى رواه الترمذي في سننه ١٧٣/٩-١٧٤ أبواب الدعوات ـ باب أسماء الله الحسنى بالتفصيل ح : ٣٥٠٢ وقال أبو عيسى : " هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث. وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ لا نعلم في كبير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح ". =

وتأدبتُ بما أدبني الله به ثم ذكر (تعالى) كلامه كما ذكر نفسه، ودل عليه بمثل ما دل به على نفسه، ليعلم الخلق أنه من ذاته، وأنه صفة من صفاته، فقال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [سورة الأنعام:٩١] ... ودلَّ بذلك على أن كلامه شيء لا كالأشياء، كما دلَّ على نفسه بأنه شيء ليس كالأشياء، ثم قال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الأنعام: ٩٣] فدلَّ بهذا الكلام أيضاً على أن الوحي شيء بالمعنى، وذم من جحد أن كلامه شيء، فلما أظهر الله عز وجل كلامه لم يظهره باسم الشيء، فيلحد الملحدون في ذلك، ويدخلونه في جملة الأشياء، ولكنه أظهره عز وجل باسم الكتاب، والنور والهدى، ولم يقل: قل من أنزل الشيء الذي جاء به موسى، فيجعل الشيء اسماً لكلامه، وكذلك سمى (تعالى) كلامه بأسماء ظاهرة يعرف بها - كما سمَّى نفسه - نوراً، وهدى وشفاء ورحمة، وحقاً وقرآناً وفرقاناً،

= ورواه ابن ماجه في سننه ٢/١٢٦٩-١٢٧٠ كتاب الدعاء - باب أسماء الله عز وجل ح: ٣٨٦١ قال في الزوائد: " لم يخرج أحد من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنى من هذا الوجه ولا من غيره غير ابن ماجه والترمذي، مع تقديم وتأخير. وطريق الترمذي أصح شيء في الباب. قال وإسناد طريق ابن ماجه ضعيف؛ لضعف عبد الملك بن محمد. ولهذا اختلف العلماء في سرد هذه الأسماء: هل هو مرفوع أو مدرج في الخبر من بعض الرواة، لخلو أكثر الروايات عنه، نقل ذلك عن كثير من العلماء. انظر تحرير هذه المسألة في فتح الباري ١١/٢١٥ وما بعدها.

وأشباه ذلك، لعلمه السابق في جهم وبشر ومن يقول بقولهما أنهم سيلحدون في كلامه، وصفاته التي هي من ذاته، وسيدخلونها في الأشياء المخلوقة.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، قد أقرَّ عبدالعزيز بأن القرآن شيء وادعى أنه ليس كالأشياء فليأت بنص التنزيل كما أخذ علي وعلى نفسه أنه ليس كالأشياء، وإلا فقد بطل ما ادعاه، وصح قولي أنه مخلوق، إذ كنا جميعاً قد أجمعنا واتفقنا على أنه شيء، وقلت أنا إنه شيء كالأشياء، وداخل في الأشياء، وقال هو إنه ليس كالأشياء، وأنه غير داخل في الأشياء، فليأت بنص التنزيل على ما ادعاه، وإلا فقد ثبتت الحجة عليه بخلقه؛ إذ كان الله (تعالى) قد أخبرنا بنص التنزيل أنه خالق كل شيء.

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون هذا يلزمك يا عبد العزيز، وجعل محمد بن الجهم وغيره يضحجون ويقولون: ظهر أمر الله وهم كارهون، جاء الحق وزهق الباطل، وطمعوا في قتلي، وجثا بشر على ركبتيه، وجعل يقول: أقرَّ والله يا أمير المؤمنين، بخلق القرآن، وأمسكت فلم أتكلم، حتى قال لي المأمون: ما لك لا تتكلم يا عبد العزيز؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال بقاك، قد تكلم بشر وطالبني بنص التنزيل على ما قلت، وهو المناظر لي، فضجيج هؤلاء لأي شيء هو، وأنا لم أنقطع، ولم أعجز عن الجواب، وإقامة الحجة بنص التنزيل كما طالبني، ولست أتكلم وفي هذا المجلس

أحد يتكلم غير بشر، إلا أن ينقطع بشر عن الحجة، فيعتزل ويتكلم غيره في مكانه، فصاح المأمون بمحمد بن الجهم وغيره، فأمسكوا، فقال لي المأمون: تكلم يا عبد العزيز، فليس يعارضك أحد غير بشر.

قال عبد العزيز: فقلت: قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: ٤٠] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة: ١١٧] فدل سبحانه بهذه الأخبار كلها وأشباه لها كثيرة على أن كلامه ليس كالأشياء، وأنه غير الأشياء، وأنه خارج عن الأشياء، وأنه إنما تكون الأشياء بقوله وأمره، ثم ذكر خلق الأشياء كلها، فلم يَدَع منها شيئاً إلا ذكره، وأخرج كلامه، وقوله وأمره من جملة الخلق؛ ليدلَّ على أن كلامه غير الأشياء، وخارج عن الأشياء المخلوقة، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤] فجمع في قوله هذا الخلق كله ثم قال: والأمر يعني الأمر الذي كان به هذا الخلق، ففرق سبحانه بين خلقه وأمره؛ فجعل الخلق خلقاً، والأمر أمراً، وجعل هذا غير هذا، وهذا غير هذا، فقال عز وجل: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[سورة القمر: ٥٠] يقول: إذا أردت شيئاً فإنما هو كلمح البصر، يقول له: كن كما أريد، فيكون مثل لمح البصر، وقال عز وجل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [سورة الروم: ٤] يعني من

قبل الخلق ومن بعد الخلق، ثم جمع عـز وجـل الأشياء المخلوقـة في أيـات كثيرة من كتابـه، فأخـبر عـن خلقهـا، وأنـه خلقهـا بقولـه وكلامـه، وأن كلامه وقوله غيرها وخارج عنها، ثم ذكـر جملـة مـن الآيـات منهـا قولـه (تعـالى): ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَـةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [سورة الحجر: ٨٥]....

قال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، قد أخبرنا الله عز وجل عـن خلـق السموات والأرض وما بينهما فلم يدع شيئاً من الخلق إلا ذكـره، وأخـبر عن خلقه، وأنه إنما خلقه بالحق، وأن الحق قولـه وكلامـه الـذي بـه خلـق الخلق كله، وأنه غير الخلق وخارج عن الخلق، فهذا نص التـنزيل على أن كلام الله غير الأشـياء المخلوقـة، وليـس هـو كالأشـياء، وإنمـا بـه تكـون الأشياء. **قال بشر**: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، قد ادعى أن الأشـياء إنما تكون بقوله، ثم جـاء بأشـياء متباينـات متفرقـات، فزعـم أن الله عـز وجل يخلق بها الأشياء فأكذب نفسه، ونقض قوله، ورجع عما ادعاه من حيث لا يدري، وأمير المؤمنين شاهد عليه، وهو الحاكم بيننا.

قال عبد العزيز: فأقبل عليَّ المأمون وقال: يـا عبـد العزيـز، قـد قـال بشر كلاماً قد قلته، تحتـاج أن تصحـح قولـك، و تنقـض بعضـه ببعـض، وجعل بشر يصيح ويقول: لو تركناه يتكلم لجاء بألف لون ممـا خلـق الله عز وجل بها الأشياء.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمـير المؤمنـين، أطـال الله بقـاك، ذهبـت الحجـج وانقطـع الكـلام، ورضـي بشـر وأصحابـه بـالضجيج والـترويج

بالباطل، وقطع المجلس وطلب الخلاص، ولا خلاص من الله عز وجل. قال: فصاح المأمون: يا بشر أقبل على صاحبك، واسمع منه ودع هذا الضجيج، وكان قد قعد منا مقعد الحاكم من الخصوم.

قال عبد العزيز: ثم أقبل المأمون عليَّ فقال: تكلَّم يا عبد العزيز، فقلت: يا بشر زعمت أني قد جئت بأشياء متباينات متفرقات، وادعيت أن الله عز وجل خلق بها الأشياء، فما قلت إلا ما قال الله عز وجل في كتابه وما جئت بشيء غير كلام الله، ولا قلت ولا أقول إن الله خلق الأشياء، ولا يخلقها إلا بكلامه، فقال بشر: يا أمير المؤمنين، أليس قد قال إنه خلق الأشياء بقوله، وبأمره، وبكلامه، وبالحق؟ فقال المأمون: بلى، قد قلت هذا يا عبد العزيز. **فقلت**: يا أمير المؤمنين، قد قلت هذا، وما قلته إلا على صحته ولا خرجت عن كتاب الله، ولا قلت إلا ما قال الله، ولا أخبرت إلا بما أخبر الله به مما يوافق بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، وكل ما ذكر الله عز وجل أنه خلق، ويخلق به الأشياء، فهو شيء واحد، وله أسماء متعددة وهو كلام الله، وهو قول الله، وهو أمر الله، وهو الحق، فقول الله هو كلامه، وكلامه هو الحق، والحق هو أمره، وأمره هو قوله، وقوله هو أمره، وأمره هو كلامه، وقوله هو الحق، وهي أسماء شتى لشيء واحد، وقد قلت: إن الله سمَّى كلامه نوراً وهدى وشفاء ورحمة وقرآناً وفرقاناً فهذا مثل ذلك، وذلك مثل هذا، وإنما أجرى الله عز وجل هذا على كلامه كما أجراه على نفسه؛ لأنه من ذاته، فسمى كلامه

بأسماء كثيرة، وهو شيء واحد، كما سمَّى نفسه بأسماء كثيرة وهو واحد، أحد صمد، فرد. وإنما ينكر بشر هذا ويستعظمه لقلة معرفته بلغة العرب. **فقال بشر:** يا أمير المؤمنين، قد أصَّل بيني وبينه كتاب الله (تعالى) وسنة نبيه ﷺ وزعم أنه لا يقبل إلا نص التنزيل، فما لنا وما لذكر لغة العرب وغيرها؟ لست أقبل منه إلا نص التنزيل بما قال إن كلام الله هو قوله، وهو أمره، وهو الحق. **فقال المأمون:** ذلك يلزمك يا عبد العزيز، لما عقدت على نفسك من الشرط.

قال عبد العزيز: فقلت: صدقت يا أمير المؤمنين، إن ذلك يلزمني، وعلي أن آتي به من نص التنزيل. قال: هاته. قلت: قال عز وجل وقد ذكر كلامه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٦] يعني حتى يسمع القرآن؛ لأنه لا يقدر أن يسمع كلام الله من الله، وإنما عنى القرآن، لا خلاف بين أهل العلم واللغة في ذلك، وقال عز وجل: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [سورة الفتح: ١٥] فسمَّى القرآن كلامه، وسمَّاه قوله، وأخبر أن قوله هو كلامه... وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [سورة البقرة: ٩١] فهذا خبر الله عز وجل عن القرآن أنه الحق. وذكر آيات كثيرة استدل بها على هذا المعنى. ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ

يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: ٤] فهذا إخبار الله عن قوله أنه الحق، وأن الحق قوله... ثم ذكر أن الحق كلامه وأن كلامه الحق، فقال: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [سورة يونس: ٣٣] فأخبر عن كلامه أنه الحق... ثم ذكر عز وجل أن القرآن أمره وهو كلامه فقال: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ [سورة الدخان: ١-٥] يعني القرآن، فأخبر الله عز وجل أن القرآن أمره، وأن أمره القرآن...

وهذا قوله وتعليمه لخلقه في كتابه أن القرآن كلامه، وأنه الحق، وأن الحق كلامه وأن الحق قوله، وأن القرآن أمره، وأن أمره القرآن، وأن هذا أسماء شتى لشيء واحد، وهو الكلام الذي به خلق الله الأشياء، وهو غير الأشياء، وخارج عن الأشياء، وغير داخل في الأشياء، ولا هو كالأشياء، وبه تكون الأشياء، وهو كلامه، وهو قوله، وهو أمره، وهو الحق، فهذا نص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير.

فقال المأمون: أحسنت، أحسنت يا عبد العزيز، **فقال بشر:** يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، إنه يحب أن يخطب ويهذي بما لا أعقله، ولا أسمعه، ولا ألتفت إليه، ولا أقبل من هذا شيئاً.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، من لا يعقل عن الله ما خاطب به نبيه ﷺ وما علمه لعباده المؤمنين في كتابه، ولا يعلم ما أراد الله بكلامه وقوله، فكيف يدعي العلم ويحتج للمقالات والمذاهب، ويدعو الناس إلى البدع والضلالات؟ **فقال بشر:** أنا وأنت في

هذا سواء، أنت تنتزع بآيات من القرآن لا تعلم تفسيرها ولا تأويلها، وأنا أرد ذلك وأدفعه، حتى تأتي بشيء أفهمه وأعقله.

قال عبد العزيز: فقلت يا أمير المؤمنين، قد سمعت كلام بشر وتسويته فيما بيني وبينه، ولقد فرق الله عز وجل فيما بيني وبينه، وأخبر أنا على غير السواء. **فقال المأمون:** وأين ذلك من كتاب الله عز وجل؟ قلت: قال الله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الرعد: ١٩] فأنا والله، يا أمير المؤمنين، أعلم أن الذي أنزل عليه ﷺ هو الحق وأؤمن به، وبشر يشهد على نفسه أنه لا يعلم ذلك ولا يعقله، ولا يقبله، ولا هو مما تقوم لي به عليه حجة، فلم يقل كما قال الله عز وجل ولا كما علّم نبيه ﷺ أن يقوله، ولا كما قال موسى عليه السلام، ولا كما قالت الملائكة، ولا كما قال المؤمنون، ولا كما قال أهل الكتاب. ولقد أخبر عن جهله، وأزال عنه التذكرة، وأخرجه عن جملة أولي الألباب، لكن أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، لما خصه الله به من الفضل والسؤدد، ورزقه من دقة الفهم، وكثرة العلم، والمعرفة باللغة، عقل عن الله عز وجل قوله، وعرف ما أراد به وما عنى به، فقبله، واستحسنه ممن انتزع به بين يديه، وأظهر قبوله والرضاء بقوله. **فقال بشر:** يا أمير المؤمنين، قد أقرَّ بين يديك أن القرآن شيء، فليكن عنده كيف شاء، فقد اتفقنا جميعاً على أنه شيء قال الله عز وجل بنص التنزيل: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٢] وهذه لفظة لم تدع شيئاً من الأشياء إلا أدخلته في

الخلق، ولا خرج عنها ما ينسب إلى الشيء؛ لأنها لفظة قد استوعبت الأشياء كلها، وأتت على كل شيء، مما ذكره الله، ومما لم يذكره، فصار القرآن مخلوقاً بنص التنزيل، بلا تأويل ولا تفسير.

قال عبد العزيز: فقلت يا أمير المؤمنين، عليَّ أن آتي بما يكسر قوله، ويدحض حجته، ويكذبه حتى يرجع عن قوله أو يقف أمير المؤمنين على كسر قوله، وكذبه وبطلان ما ادعاه. **فقال:** هات ما عندك يا عبد العزيز. **فقلت:** يا أمير المؤمنين، قال الله عز وجل: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [سورة الأحقاف: ٢٥] يعني الريح التي أرسلت على عاد، فهل أبقت الريح يا بشر، شيئاً لم تدمره؟ قال: لا، لم تبق شيئاً إلا دمَّرته، فقد دمَّرت كل شيء، كما أخبر الله عز وجل؛ لأنه لم يبق شيء إلا وقد دخل في هذه اللفظة. فقلت: قد والله أكذب الله من قال هذا، بقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٥] فأخبر عنهم أن مساكنهم كانت باقية بعد تدميرهم، ومساكنهم أشياء كثيرة. وقال عز وجل: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات: ٤٢] وقد أتت الريح على الأرض والجبال والمساكن والشجر، وغير ذلك فلم يصر شيء منها كالرميم. وقال عز وجل: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل: ٢٤] يعني بلقيس. فكان يجب بقولك يا بشر، أن لا يبقى شيء يقع عليه اسم الشيء إلا دخل في هذه اللفظة وأوتيته بلقيس، وقد بقي ملك سليمان، وهو مائة ألف ضعف مما أوتيته، لم يدخل في هذه اللفظة، فهذا كله مما يكسر قولك، ويبطل

مذهبك، ويدحض حجتك، ومثل هذا في القرآن كثير، ولكني أبدأ بما هو أشنع من ذلك، وأظهر فضيحةً لمذهبك وأدفع لبدعتك. قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء: ٦٦] وقال عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [سورة هود: ١٤] وقال عز وجل: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [سورة فاطر: ١١] فأخبرنا الله عز وجل في كتابه أن له علماً، أفتقر يا بشر أن لله علماً كما أخبرنا، أو تخالف التنزيل؟.

قال عبد العزيز: فحاد بشر عن جوابي، وأبى أن يصرح بالكفر، فيقول: ليس لله علم، فيكون قد رد نص التنزيل، فتتبين ضلالته ويشتهر كفره، وأبى أن يقول إن لله علماً، فأسأله عن علم الله: أهو داخل في الأشياء المخلوقة أم لا؟ وعلم ما أريد به، وما يلزمه في ذلك من كسر قوله، وإبطال مذهبه ودحض حجته، فاجتلب كلاماً لم أسأله عنه، فقال: معنى علمه أنه لا يجهل. فأقبلت على المأمون، **فقلت:** يا أمير المؤمنين، لا يكون الخبر عن المعنى قبل الإقرار بالشيء، وإنما يكون الإقرار بالشيء، ثم الخبر عن معناه، فليقر بشر أن لله علماً كما أخبرنا في كتابه، فإن سألته ما معنى العلم، وهذا مما لا أسأله عنه، فليخبرني أن الله لا يجهل، وقد حاد بشر يا أمير المؤمنين، عن جوابي.

فقال بشر: وهل تعرف الحيدة؟ قلت: نعم، إني لأعرف الحيدة في كتاب الله، وهي سبيل الكفار التي اتبعتها. ثم شرح عبد العزيز معنى الحيدة في كتاب الله وفي سنة المسلمين، وفي لغة العرب على ما مرَّ ذكره في الفصل الخاص بأحوال المناظرة. حتى إذا انتهى عبد العزيز من ذلك أقبل **المأمون** على بشر، فقال له: يأبى عليك عبد العزيز إلا أن تقر أن لله علماً فأجبه، ولا تحد عن جوابه. **فقال بشر**: قد أجبته أن معنى العلم أنه لا يجهل، وهذا جوابه، ولكنه يتعنت. **قال عبد العزيز** فقلت: يا أمير المؤمنين، صدق، إن الله (تعالى) لا يجهل، ولم تكن مسألتي إياه عن هذا، إنما سألته أن يقر بالعلم الذي أخبر الله (تعالى) عنه في كتابه، وأثبته لنفسه، ولم أسأله عن الجهل، فينفي الجهل عن الله (تعالى). فليقر أن لله علماً، وليقل بعد إقراره بالعلم: إن الله لا يجهل.

قال عبد العزيز: ثم التفتُ إلى بشر. فقلت: لا بد من أن تقول: إن لله علماً كما أخبرنا في كتابه، أو ترد أخبار الله عز وجل بنص التنزيل، أو يقف أمير المؤمنين على حيدتك عن جوابي. فجعل يقول: إن نفي الجهل عنه هو جوابه، وهو الذي عناه الله في كتابه، وهو والذي يطالبني به واحد، إلا أن اللفظين مختلفان.

قال عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين، إن نفي السوء لا تثبت به المِدْحة. **قال بشر**: وكيف ذلك؟ **قلت**: إن قولي هذه الأسطوانة لا تجهل ليس هو إثبات العلم لها.

قال عبد العزيز: ثم أقبلت على المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله (تعالى) لم يمدح في كتابه مَلَكاً، ولا نبياً ولا مؤمناً بنفي الجهل عنه،

ليدل على إثبات العلم له، وإنما مدحهم بالعلم، فقال عز وجل: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الانفطار: ١١-١٢] ولم يقل لا يجهلون. وقال لنبيه ﷺ : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٣] وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: ٢٨] ولم يقل: الذين لا يجهلون، فهذا قول الله (تعالى) ومِدْحته للملائكة وللنبي ﷺ وللمؤمنين. فمن أثبت العلم نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق جميعاً أن يثبتوا ما أثبت الله، وينفوا ما نفى الله، ويمسكوا عما أمسك الله، فما اختار بشر يا أمير المؤمنين، من حيث اختار الله لنفسه، ولا من حيث اختار لملائكته، ولا من حيث اختار لنبيه ﷺ ، ولا من حيث اختار لعباده المؤمنين، فمن أجهل ممن اختار لنفسه غير ما اختار الله لنفسه، ولملائكته وأنبيائه ولعباده المؤمنين.

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون: فإذا قال بشر: إن لله علماً، وأقر بذلك، فيكون ماذا؟ قلت: أسأله يا أمير المؤمنين عن علم الله: هل هو داخل في الأشياء المخلوقة حين احتج بقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الرعد: ١٦] وزعم أنه لم يبق شيء إلا وقد أتى عليه هذا الخبر. فإن قال: نعم داخل في الأشياء المخلوقة، فقد شبَّه الله عز وجل بخلقه الذين أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وكل من تقدم وجوده قبل علمه، فقد دخل عليه الجهل فيما بين وجوده إلى

حدوث علمه، وهذه صفة المخلوقين، وا لله أعظم وأجل من أن يوصف بذلك أو ينسب إليه. ومن قال ذلك فقد كفر وحلَّ دمه ووجب على أمير المؤمنين قتله، وإن قال: إن علم ا لله خارج عن جملة الأشياء، وغير داخل فيها كما أن قوله خارج عن الأشياء وغير داخل فيها، فقد رجع عن قوله وأكذب نفسه. **فقال المأمون:** أحسنت، أحسنت يا عبد العزيز، وإنما فرَّ بشر من أن يجيبك عن هذه المسألة لهذا.

ثم أقبل علي المأمون، وقال: يا عبد العزيز تقول: إن ا لله عالم؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: تقول: إنه سميع بصير؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: تقول: إن له سمعاً وبصراً كما قلت: إن له علماً؟ فقلت: لا أطيق هذا كذا، يا أمير المؤمنين. فقال: أفرق بين هذين؟ فأقبل بشر يقول: يا أمير المؤمنين، يا أفقه الناس، وأعلم الناس، يقول ا لله عز وجل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [سورة الأنبياء: ١٨].

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد قدمت إليك فيما احتججت به أن على الناس جميعاً أن يثبتوا ما أثبت ا لله، وينفوا ما نفى ا لله، ويمسكوا عما أمسك ا لله عنه، فأخبرنا عز وجل أن له علماً بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ [سورة هود: ١٤] فقلت إن له علماً كما قال، وأخبرنا أنه سميع بصير بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة غافر: ٢٠] ولم يخبرنا أن له سمعاً وبصراً، فقلت كما قال، وأمسكت عما أمسك عنه، فأقبل عليهم المأمون فقال: ما هو بمشبه، فلا تكذبوا عليه. **فقال بشر:** قد زعمت أن

لله علماً، فأي شيء هو علم الله، وما هو معنى علم الله؟ **فقلت له:** هذا مما تفرَّد الله بعلمه ومعرفته، وحجب عن الخلق جميعاً علمه، فلم يخبر به مَلَكاً مقرباً، ولا نبيّاً مرسلاً، ولا عَلِمَه أحد قبلي، ولا يَعْلَمه أحد بعدي؛ لأن علم الله أكبر وأوسع وأعظم من أنه يعلمه أحد من خلقه، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [سورة الجن: ٢٦-٢٧] وقال : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الأنعام: ٥٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة لقمان: ٢٧]، أتدري يا بشر ما معنى هذا؟ قال : وأي شيء هذا مما نحن فيه؟ **فقال المأمون:** قل أنت يا عبد العزيز، ما معناه. **قلت:** يا أمير المؤمنين، أطال بقاك، يقول: ولو أن ما في الأرض من جميع الشجر والخشب والقصب أقلام يكتب بها، والبحر مداد يمده من بعده سبعة أبحر، والخلائق كلهم يكتبون بهذه الأقلام من هذا البحر، ما نفدت كلمات الله. فمن يبلغ عقله، أو فهمه، أو فكره كنه عظمة الله وسعة علمه، وكثرة كلماته؟! وقال عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [سورة الكهف: ١٠٩] فمن يحد هذا أو يصفه أو يدعي علمه؟ وقد

عجزت الملائكة المقربون عن علم ذلك واعترفوا بالعجز، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: ٣٢] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: ٣٤] **فقال بشر**: لا بد من أن تقول أي شيء هو علم الله، أو يقف أمير المؤمنين أطال الله بقاه، على أنك قد حدت عن الجواب، فأكون أنا وأنت في الحيدة سواء.

قال عبد العزيز: فقلت له: إنك تأمرني بما نهاني الله عز وجل عنه، وحرَّم عليَّ القول به، وتأمرني بما أمرني به الشيطان، ولست أعصي الله عز وجل وأرتكب نهيه، ومحارمه وأطيع الشيطان، وأتبع أمره وأمرك، إذ كنتما قد أمرتماني بمعصية الله وارتكاب نهيه.

قال عبد العزيز: فاشتد تبسم أمير المؤمنين من كلامي، ثم قال: يا عبد العزيز أمرك بشر بما نهاك الله عنه، وحرم عليك القول به، وأمرك بما أمرك به الشيطان؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ومن أين لك ذلك؟ قلت: من كتاب الله وكلامه بنص التنزيل. قال: فهاته: قلت: قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[سورة الأعراف: ٣٣] وأمرهم الشيطان بضد ذلك، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ

تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩] فهذا تحريم الله ونهيه لنا أن نقول عليه ما لا نعلم، وهذا أمر الشيطان أن نقول على الله ما لا نعلم، وقد اتبع بشر يا أمير المؤمنين، سبيل الشيطان، ووافقه على قوله، وأمرني بما أمرني به من إنكار نهي الله عز وجل وتحريمه، حين قال لا بد من أن تقول أي شيء هو علم الله (تعالى) وقد أعلمته أني لا أعلمه ولا علمه أحد قبلي، ولا يعلمه أحد بعدي.

قال عبد العزيز: فكثر تبسم المأمون حتى غطّى فمه بيده، وأطرق ينكت بيده على السرير.

فقال لي بشر: لو ورد عليك اثنان، وقد تنازعا في علم الله، فحلف أحدهما بالطلاق أنَّ علم الله هو الله، وحلف الآخر بالطلاق أن علم الله غير الله، فقالا لك: أفتنا في أيماننا، فما كان جوابك لهما؟ **قلت:** الإمساك عنهما، وتركهما وجهلهما، وصرفهما بغير جواب، **فقال بشر:** يلزمك ويجب عليك، إذا كنت تدعي العلم أن تجيبهما عن مسألتهما، وأن تخرجهما من أيمانهما، وإلا فأنت وهم في الجهل سواء.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: أو يجب علي أن أجيب كل من سألني عن مسألة لا أجد لها في كتاب الله، ولا في سنة نبيه ﷺ ذكراً، ولا علماً، قد جهل السائل عنها، وحمق الحالف عليها؟ **قال بشر:** يجب عليك أن تجيبه عن مسألته، فإنه لا بد لكل مسألة من جواب. **فقلت له:** هذا جهل من قائله، ثم أقبلت على المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين، قد

سمعت ما قال بشر إنه يجب عليَّ أن أجيب كل من سألني عن مسألة، وأن أفتيه فيها، وأخرجه من يمينه بما لا أجده في كتاب الله، ولا سنة نبيه ﷺ، فلو ورد علي ثلاثة نفر قد تنازعوا في الكوكب الذي أخبر الله عز وجل أن إبراهيم عليه السلام رآه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[سورة الأنعام: ٧٦] فقال أحدهما: حلفت بالطلاق أنه المريخ، وقال الثاني: حلفت بالطلاق أنه المشتري، وقال الثالث: حلفت بالطلاق أنه الزهرة، فأفتنا في أيماننا، وأجبنا عن مسألتنا، أكان عليَّ أن أجيبهم عن مسألتهم، وأفتيهم في أيمانهم، وذلك مما لم يخبر الله (تعالى) به ولا رسوله. **فقال المأمون:** ما ذلك عليك بواجب، ولا لك بلازم.

ثم أخذ عبد العزيز يورد أمثلة من هذا القبيل، والمأمون يقرُّه بقوله: ليس عليك أجابتهم ولا فتياهم. **فقال عبد العزيز:** صدقت يا أمير المؤمنين، لا يجوز لي ولا لغيري أن يقضي بينهم أو يفتيهم، إلا أن يكون الله (تعالى) قد أخبر عن ذلك في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ. وإذا لم يجز هذا في خلق من خلق الله، فكيف يجوز الجواب عن علم الله وهو مما لا يوجد في كتاب ولا سنة، ولا أخبرنا الله به ولا رسوله، وقد أكذب الله بشراً على لسان أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، فيما ادعاه من وجوب الجواب علي في فتوى من جهل في مسألته، وحمق في يمينه. فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز. **فقال بشر:** واحدة بواحدة يا أمير المؤمنين، سألني عبد العزيز أن أقول: إن لله علماً، فلم أجبه، وسألته: ما

علم الله؟ فلم يجبني، فقد استوينا في الحيدة عن الجواب، ونخرج من هذه المسألة إلى غيرها، وندعها على غير حجة تثبت لأحدنا على صاحبه فيها.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، إن بشراً قد أفحم وانقطع عن الجواب، ودحضت حجته، وبقي بلا حجة يقيمها لهذا المذهب الذي كان يدعو الناس إليه، فلجأ إلى أن يسألني عن مسألة يحتج بها علي ليقول: سألني عبد العزيز عن مسألة فلم أجبه، وسألته عن مسألة فلم يجبني عنها، وقد قال ذلك يا أمير المؤمنين، فأنا وبشر على غير السواء في مسألتنا؛ لأني سألته عما أخبر الله به وشهد به لنفسه، وشهدت له به الملائكة بقوله عز وجل: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء: ١٦٦] فأخبرنا الله عن علمه، وشهد به لنفسه، وشهدت له به الملائكة، وتعبد الله نبيه ﷺ، وسائر الخلق بالإيمان به، بقوله: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [سورة الشورى: ١٥] فوجب على نبيه ﷺ وعلى الخلق جميعاً الإيمان بما أنزل الله في كتابه، وبشر يا أمير المؤمنين، يأبى أن يؤمن بذلك أو يقر به أو يصدق به، وسألني بشر عن مسألة ستر الله علمها عن ملائكته ورسله وأهل ولايته جميعاً، وعني وعن بشر، وعن سائر الخلق ممن مضى وممن هو آت إلى يوم القيامة، لم يعلمها أحد قبلنا، ولا يعلمها أحد بعدنا، فلم يكن لي أن أجيبه عن مسألته. وإنما يدخل النقص علي يا أمير المؤمنين، لو كان بشر يعلم ما سألني عنه، أو غيره من العلماء، وكنت أنا لا أعلمه، فأما إذا اجتمعنا

جميعاً أنا وبشر وسائر الخلق في جهل مسألة لا يحل لأحد أن يسأل عنها، ولا يحل لأحد أن يجيب عنها؛ لأن الله حرم ذلك، وحظره ونهى عنه.

قال عبد العزيز: فقال المأمون: أنتما في مسألتكما في غير السواء، وقد صح قولك في هذه المسألة، يا عبد العزيز، وبان ووضح، وظهرت حجتك على بشر فيها.

قال عبد العزيز: فرأيت بشراً قد حار وانقطع، وصح ما في يدي، واستبان الحق، ووضح لأمير المؤمنين، ولسائر من بحضرته. فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، أرجع إلى أول المسألة وأَدَعُ ذِكْرَ العلم، فأكسر قول بشر، وأفضح مذهبه، وأبطل قوله واحتجاجه؟ فقال لي المأمون: قد أصبت، يا عبد العزيز، بتركك الكلام فيما قطع المجلس من غير أن يرجع إليك عن مسألتك فيه جواب، وقد وقفنا من قولك على ما يلزم بشراً في هذه المسألة لو أجابك، فهات ما عندك، من غير هذا.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، ويجب على من كال بمكيال أن يوفي به. قال: ذلك يلزمه. فقلت: يا بشر، ألست تزعم أن قوله عز وجل: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الرعد: ١٦] لفظة لا يخرج عنها شيء؛ لأن كلمة كل تجمع الأشياء، فلا تدع شيئاً يخرج عنها، وكل شيء داخل فيها؟ قال بشر: هكذا قلت، وهكذا أقول وهكذا هو عند الخلق، ولست أرجع عنه بكثرة خطبك وهذيانك. فقلت: أمير المؤمنين شاهد عليك بهذا.

قال عبد العزيز: ثم قلت: يا بشر، قال الله عز وجل: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [سورة طه: ٤١] وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [سورة آل عمران: ٢٨] وقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢] وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤] وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الغيوب﴾ [سورة المائدة: ١١٦] فقد أخبرنا الله (تعالى) في مواطن كثيرة من كتابه أنَّ له نفساً، أفتُقِرُّ يا بشر أن لله (تعالى) نفساً كما أخبرنا عنها بهذه الأخبار كلها؟ قال: نعم.

قال عبد العزيز: فقلت له: قال الله (تبارك وتعالى): ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [سورة الأنبياء: ٣٥] أفتقول: إن نفس رب العالمين داخلة في هذه النفوس التي تذوق الموت؟ فصاح المأمون بأعلى صوته، وكان جهوري الصوت، معاذ الله، معاذ الله، **فقلت** ورفعت صوتي: إذن معاذ الله أن يكون كلام الله داخلاً في الأشياء المخلوقة، كما أن نفسه ليست بداخلة في الأنفس الميتة.

قال بشر: يا أمير المؤمنين، قد سألني، فليسمع كلامي وليَدَع الصياح والضجيج.

فقلت له: تكلم بما شئت. فقال: إن كانت نفس الله ضميراً أو توهماً فهي خارجة، وليست بداخلة في هذه النفوس، فقلت له: كم ألقي إليك أني أقول بالخبر، وأمسك عن علم ما سُتر عني؟ وإنما قلت: إن لله نفساً كما أخبرنا، وقد أقررت بذلك فلتكن عندك على أي معنى شئت،

وقل: أهي داخلة في هذه النفوس أم لا، ودع عنك كلام الخاطر والوسواس. فقال لي: أنت رجل متعنت، تجاب عن مسألتك فتطلب غيرها، وليس عندي جواب غير هذا، وانقطع.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد كسرتُ قوله في هذه المسألة بالقول الأول والقول الثاني في باب العلم، وكسرت قوله بقوله، ودحضت حجته، وبطل ما كان يدعو الناس إليه من بدعته، وبان لأمير المؤمنين قبح مذهبه، وفحش قوله، فأقبل علي المأمون وقال: يا عبد العزيز قد وضحت حجتك، وبان قولك وانكسر قول بشر، وتحتاج أن تشرح هذه الأخبار التي في القرآن ومعانيها، وما أراد الله عز وجل بها ليسمع من بحضرتنا، فقد مرَّ اليوم أشياء كثيرة يحتاج من سمعها إلى معرفتها وفهمها.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله شرف العرب وكرمهم بأن أنزل القرآن بلسانهم، ثم أخذ يذكر خصائص لغة العرب والتي نزل بها القرآن، وأساليبهم في الخطاب، وتصرفهم فيه بأنواع من الوجوه، التي لا يسع فهمها إلا من كان عربياً في لسانه وفهمه.

ثم قال عبد العزيز: فقلت يا أمير المؤمنين، إن بشراً خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وخالف إجماع أصحاب محمد ﷺ فقال لي المأمون: خالف كتاب الله (تعالى) وسنة رسوله وإجماع أصحاب محمد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأوقفك عليه الساعة. قال: قل. فقلت: إن اليهود ادعت تحريم أشياء لم تحرم عليها في التوراة، وزعموا أنها في التوراة

محرمة، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٣] فإذا أتوا بالتوراة فتليت، فلم يجدوا فيها ما ادعوا أنه محرم فيها عليهم، كان إمساك التوراة عن ذلك مكذباً لقولهم، مبطلاً لدعواهم، وكذلك أقول لبشر: اتل قرآناً بما قلتَ، وإلا فإن إمساك القرآن عما تدعيه مكذب لك، مبطل لدعواك، وكذلك ننظر في سنة الرسول، فإن كان معه سنة من سنن الرسول بما قال: صدقناه، وإلا فان إمساك السنة مكذب لقوله مبطل لدعواه، وهما الأصل الذي أصّلناه بيننا وأشهدنا أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، على أنفسنا به، وشرطنا إسقاط كل مالم نجده في كتاب الله عز وجل ولا في سنة رسوله ﷺ، وأما خلاف أصحاب محمد ﷺ ؛ فإن أصحاب محمد اختلفوا في الحلال والحرام، ومخارج الأحكام، فلم يخطّئ بعضهم بعضاً، فهم من أن يكفر بعضهم بعضاً أبعد، وبشر يا أمير المؤمنين، ادعى على الأمة كلمة تأولها بغير علم منه بمعناها، وبما أراد الله بها، ولا يجد لها في كتاب الله ما ينصها، ولا ما يدل على تأويلها، ثم زعم أن من خالفه عليها كافر، حلال الدم، فأباح دماء الأمة جميعاً على ذلك، فهو خارج من إجماع أصحاب محمد ﷺ .

فقال بشر: قد خطبت وتكلمت، وهذيت، وتركتك حتى تفرغ مما ادعيت من إبطال خلق القرآن بنص التنزيل، ومعي من كتاب الله آية لا يتهيأ لك معارضتها، ولا دفعها، ولا التشبيه فيها، ولا الخطب عليها، كما فعلت في غيرها، وإنما أخرتها ليكون انقضاء المجلس عليها، وسفك دمك بها.

قال عبد العزيز: فقلت لـه: هاتهـا، وأنـا أشـهد أمـير المؤمنـين علـى نفسي أني أول من يتبعك عليها، ويقول بها، ويرجع عن قولـه، ويُكـذّب نفسه، ويتوب إلى ا لله عز وجل إن كان معـك نـص التـنزيل كمـا قلـت، وكل من خالف نص التنزيل فهو كافر، وا لله لو اجتمعت الإنـس والجـن على أن يأتوا بمثل ما قلت لم يقدروا أن يأتوا به، ولو كان بعضهم لبعـض ظهـيراً. **قـال بشـر:** قـــال ا لله عـز وجــل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة الزخرف:٣].

قال عبد العزيز: فقلت له: لا أعلم أحداً من المؤمنين إلا وهو يؤمـن بهذا، ويقر به، ويقول: إن ا لله جعل القرآن عربياً ولا يخالف ذلك، فـأي شيء في هذا من الحجة لك، والدليل علـى خلقـه. **فقـال بشـر:** وهـل في الخلق أحد يشك في هذا، أو يخالف أن معنى جعلناه خلقناه؟.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، ذهــب نـص التـنزيل الـذي قال إنه يأتي به، ورجعنا إلى معناه وتأويله. **فقال بشر:** ما هذا تأويلاً ولا تفسيراً، ماهو إلا نص التنزيل.

قال عبد العزيز: فأقبلت على المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين، أطـال ا لله بقاك، إن القرآن نزل بلسانك ولسان قومك، وأنت أفهـم أهل الأرض بلغة العرب ومعاني كلامها، وبشر رجلٌ من أبناء الأعاجم يتـأول كتـاب ا لله (تعالى) على غير ما عناه ا لله، ويحرفـه عـن مواضعـه، ويبـدل معانيـه، ويقول ما تنكره العرب ولا تعرفه في كلامها، ولغاتها، وأنت أعلـم خلـق ا لله بلغة قومك، وإنما يُكفّر بشر الناس، ويبيح دمـاءهم، بتـأويل التـنزيل.

فجعل بشر يقول: ﴿وقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[سورة الإسراء: ٨١] تروغ يا عبد العزيز إلى الكلام والخطب، والاستعانة بأمير المؤمنين، أطال الله بقاه، ليقطع المجلس. قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨٩] ثم ضرب بشر بيده على فخذه وأقبل علي، فقال: أتيتك بما لا تقدر على دفعه، ولا على التشبيه فيه؛ لينقطع المجلس بثبات الحجة عليك، وإيجاب العقوبة لك، فإن يكن عندك شيء فتكلم به، وإلا فقد قطع الله مقالتك، وأدحض حجتك، وجعل يصيح: فرحناك في أول المجلس، وأطمعناك، حتى انبسطت في الكلام، وتوهمت أنك قد قدرت على ما أردت، فأين كلامك واحتجاجك، انقطع ذاك، وجاء ما يخرس اللسان، ويذهب بالعقل، ويحل الدم.

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون، فقال: يا عبد العزيز، مالك قد أمسكت؟ أجبه إن كان عندك جواب لمسألته. **فقلت**: ليس يدعني يا أمير المؤمنين، أكلمه من ضجيجه، وصياحه، فإن أمسك تكلمت، وأجبته، وكسرت قوله بإذن الله (تعالى)، وإن أراد أن يهذي ويصيح ويروج الكلام تركته، وكان أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، أعلى عيناً بما يراه، فصاح به المأمون: أمسك، واستمع الجواب منه عما سألت، فأمسك.

قال عبد العزيز: ثم قال لي المأمون: تكلم يا عبد العزيز بما تريد. فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، ما خفي عليك حرف واحد مما جرى اليوم في مجلسك، ولنعم الحاكم أنت، جزاك الله عن رعيتك أفضل الجزاء، وبشر يتأول يا أمير المؤمنين، الشيء على ما يخطر بباله بغير علم،

ولا حقيقة لقوله، فإن رأى أمير المؤمنين أن يتحفظ علينا ألفاظنا، وما يجري بيننا في هذه المسألة، ويشهد علينا بما نقول، ويطالب كل واحد منا صاحبه بإقامة الشاهد على ما يقول من الكتاب والسنة فعل، فقال: أنا أفعل ذلك منذ اليوم.

قال عبد العزيز: فأقبلت على بشر، فقلت: أخبرني عن "جعل" هل هذا حرف محكم لا يحتمل غير الخلق؟ فقال بشر: نعم هو حرف محكم لا يحتمل غير الخلق، وما بين "جعل" و"خلق" لا فرق عندي، ولا عند غيري من سائر الناس، ولا عند أحد من العرب، ولا من العجم، لا يعرف الناس إلا هذا، ولا يعقلون غير هذا في كلامهم ولغاتهم سواء عندهم قالوا "خلق" أو "جعل". فقلت لبشر: أخبرني عن نفسك، ودع العرب وسائر الناس، فأنا من الناس ومن الخلق، ومن العرب أخالفك على هذا، وكذلك سائر العرب تخالفك، فقال بشر: هذا باطل منك، ودعوى تدعيها على العرب، وغيرهم، وليس يخالفني على هذا أحد من خلق الله غيرك، خوفاً على نفسك مما هو نازل بك لا محالة.

قال عبد العزيز: فقلت له: أخبرني: إجماع الخلق كلهم بزعمك على أن "جعل" و"خلق" سواء وواحد، لا فرق بينهما في هذا الحرف وحده، أو في سائر ما في القرآن من الجعل؟ قال: بل في سائر ما في القرآن من ذلك، وفي سائر الكلام، والأخبار والأشعار.

قال عبد العزيز: فقلت: قد حفظ عليك أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، ما قلت وشهد به عليك. فقال بشر: أنا أعيد عليك هذا القول متى سألتني عنه، ولا أخالفه، ولا أرجع عنه.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: زعمت أن معنى: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة الزخرف: ٣] خلقناه قرآناً عربياً؟ قال:نعم، هكذا قلت، وهكذا أقول أبداً. فقلت له: أخبرني: أ الله عز وجل تفرد بخلق القرآن أم شاركه في خلقه أحد غيره؟ قال: بل الله خلقه، وتفرد بخلقه، و لم يشاركه في خلقه أحد.

قال عبد العزيز: فقلت له: أخبرني عمن قال: إن بعض ولد آدم خلقوا القرآن من دون الله، أمؤمن هو أم كافر؟ فقال بشر: بل هو كافر حلال الدم. فقلت: وأنا أقول أيضاً: إنه كافر حلال الدم، ثم قلت: فأخبرني عمن قال: إن التوراة خلقها اليهود من دون الله، أمؤمن هو أم كافر؟ فقال بشر: بل كافر حلال الدم. قلت: وأنا أقول كذلك، فأخبرني عمَّن قال: إن بني آدم خلقوا الله، وإن الله (تعالى) أخبر بذلك، أمؤمن هو أم كافر؟ قال: بل كافر حلال الدم. قلت: وأنا أقول أيضاً مثل ذلك، فأخبرني يا بشر، أليس الله عز وجل خلق الخلق كلهم أجمعين؟ قال بلى. قلت: فهل شاركه في خلقهم أحد؟ قال: لا. قلت: فمن قال: إن بعض بني آدم شاركوا الله في خلقه، أمؤمن هو أم كافر؟ قال: بل كافر حلال الدم. قلت: وأنا أقول أيضاً كذلك. قال بشر: قد قعدت تمتحني،

وتشغلني حتى يؤذن بالظهر، وينقطع المجلس رجاء أن تنصرف منه سالماً، وهذا ما لا يكون، فهل عندك جواب لمسألتي؟ وإلا فقد انقطع الكلام، أي شيء هذه الخرافات؟!

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، ليس ينصفني بشر، فأمره أن يجيبني عما أسأله عنه، فإن الذي بقي بقي أيسره، ثم أجيبه عن مسألته، وعن كلامه. فقال المأمون: أجبه عن كلامه وما يسألك. فقال بشر: الساعة يؤذن بالصلاة، وينقطع المجلس. فقال المأمون: يؤخر الأذان بالصلاة إلى آخر الوقت، وإن احتجتما أن تجلسا بعد الصلاة لتمام الكلام، جلست لكما حتى تفرغا.

قال عبد العزيز: ثم أقبل علي المأمون، فقال: سله يا عبد العزيز عما تريد، ولا تدع شيئاً مما تحتاج إليه إلا ذكرته، فإني متحفظ عليكما جميع ما يجري بينكما وشاهد به عليكما. فقلت: جزاك الله يا أمير المؤمنين عني خاصة، وعن رعيتك عامة، أفضل الجزاء، فلقد جلست منا اليوم مجلس الإمام العادل، وأحسنت إلي حين رأيتني جزعاً فسكنت روعي، وآنست وحشي، وبسطت لساني بحجتي، وتابعت الحق حين ظهر لك، ووافقته، ونصرت أهله، وشهدت لي بثبات الحجة، وذممت أهل الباطل، حتى زهق واضمحل، وبانت فضيحته، وشهدت على بطلانه، وأنصفت في مجلسك، وكان ذلك كله منك بتوفيق الله وتأييده إياك، فله الحمد والشكر على ما أبلاك، وأبلى رعيتك فيك، وجزاك أفضل ما يُجزى به أحد من الأئمة

عن رعيته. فقال لي المأمون: قد بالغت يا عبد العزيز، في القول والشكر، ولك الزيادة مما ابتدأناك به، فارجع إلى بشر، واسأله عما تريد.

قال عبد العزيز: فأقبلت على بشر، فقلت: أخبرني عمن زعم أن بعض بني آدم خلقوا الملائكة من دون الله، أمؤمن هو أم كافر؟ قال: بل كافر، حلال الدم. قلت: وأنا أقول أيضاً هكذا. قلت: فأخبرني عمن زعم أن بعض بني آدم خلقوا لله شركاء، أمؤمن هو أم كافر؟ قال: بل كافر حلال الدم. قلت: وأنا أقول أيضاً هكذا. قلت: فأخبرني عمن زعم أن بعض بني آدم خلقوا لله أنداداً، أمؤمن هو أم كافر؟ قال: بل كافر حلال الدم. فقلت: وأنا أقول أيضاً هكذا.

قال عبد العزيز: فأقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين، قد أقر بشر أنه كافر حلال الدم، وكل من قال بقوله، ووافقه على مذهبه. ثم ندمت على قولي، وعلمت أني قد أخطأت، فأطرق المأمون إطراق مغضب ونظر إليه بشر، فقال: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، يكفرنا ويحل دماءنا بحضرتك، وفي مجلسك، بلا حجة ظهرت وإنما سبب ذلك الكلام ليقول هذا.

قال عبد العزيز: فقلت له: شهد عليك أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، بما قلت، فقال المأمون: لقد أفحشت في القول، وأعظمته، واستشهدتني على ما لم أسمعه، ولم أشهد به على بشر، ولا على أحد ممن يقول بقوله.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، اسمع قولي، فإن كنت قد قلت حقاً، وانتزعت على كل حرف من كلامي بآية من كتاب الله، كان بشر قد أكفر نفسه ومن قال بمقالته، وأحلَّ دمه ودماءهم، وإلا فدمي حلال، وليأمر أمير المؤمنين بضرب عنقي الساعة، على رؤوس الأشهاد، وإن أثبت ما قلتُ ولفظتُ به بنص التنزيل في كل لفظة، وأقمت الشاهد على بشر من كتاب الله وسعني عدل أمير المؤمنين، قال: فقال لي: هات ما عندك ولا تطل الكلام بغير حجة.

قال عبد العزيز: فقلت: قال الله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [سورة النحل: ٩١] فزعم بشر يا أمير المؤمنين، أن معنى ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ وقد خلقتم الله عليكم كفيلاً، لا معنى لذلك عنده، وعند من قال بقوله غير هذا، ومن خالفه من سائر العرب والعجم يقولون غير هذا، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، وقد كذب في القول الأول وصدق في القول الثاني، فلم يرض أن يقول بنو آدم خلقوا الله، حتى زعم أن الله قال ذلك، وشهد لهم في كتابه، ومن قال هذا فهو كافر حلال الدم، بإجماع الأمة. وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٤] فزعم بشر أن معنى: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ ولا تخلقوا الله عرضة لأيمانكم، لا معنى له عنده ولا عند من قال بقوله غير هذا، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، وأمير المؤمنين يشهد عليه بهذا اللفظ، وقد كذب في قوله: إن معنى ﴿ولا تجعلوا﴾ ولا تخلقوا، وصدق في أن من

قال هذا كافر حلال الدم بقوله، وقولي، وقول الناس جميعاً، فقال المأمون: ما أقبح هذا وأشنعه، وأعظم القول به. فقلت: قال الله عز وجل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سورة النحل: ٥٧] فزعم بشر يا أمير المؤمنين، أن بني آدم يخلقون لله البنات، يخبر بذلك عن الله عز وجل وأنه قاله، وشهد به على نفسه، ثم قال: من قال بهذا فهو كافر حلال الدم، وقد صدق في قوله الآخر، وكذب في قوله الأول، ومن قال بهذا فهو كافر، حلال الدم بإجماع الأمة. قلت: وقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٠] فزعم بشر يا أمير المؤمنين، أن معنى ﴿وجعلوا﴾: وخلقوا، لا معنى له عنده وعند من قال بقوله غير هذا، فزعم عن الله أنه قال: وخلقوا له أنداداً. ثم قال: من قال هذا فهو كافر، وقد كَذَب بشر في قوله الأول، وصَدَق في قوله الآخر بإجماع الأمة. وقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[سورة الأنعام: ١٠٠] فزعم بشر أن معنى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾: وخلقوا له شركاء الجن، وأنه لا معنى له عنده، ولا عند من قال بقوله، أو خالفه، ولا عند سائر الناس إلا هذا، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، وقد كذب في قوله إن معنى ﴿وجعلوا﴾ وخلقوا، وصدق في قوله إن من قال هذا فهو كافر حلال الدم، بقوله وقول الناس جميعاً. وقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [سورة الرعد: ٣٣] فزعم بشر يا أمير المؤمنين، أن معنى: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾: وخلقوا لله شركاء، لا معنى له عنده، وعند من قال بقوله، ومن خالفه، ولا عند

العرب والعجم إلا هذا المعنى، وقال: إن الله عز وجل أخبر أنهم خلقوا لله شركاء، فكذب بشر يا أمير المؤمنين، وقال الباطل والزور، ولقد نفى الله (تعالى) ذلك، وأبطله، وأخبرنا أنه لا يعلم من هذا شيئاً، وأخبر أن من قال ذلك كافر ضال بقوله ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الرعد: ٣٣] وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [سورة الأعراف: ١٩٠] فزعم بشر يا أمير المؤمنين، أن معنى: ﴿جعلا له شركاء﴾: خلقوا له شركاء، لا معنى له عنده، وعند من قال بقوله وعند الناس جميعاً، غير هذا. ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، فكَذَب في الأول، وصدق في الآخر بإجماع الأمة. وقال عز وجل: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الرعد: ١٦] فزعم بشر أن معنى:﴿أم جعلوا﴾: أم خلقوا، لا معنى لذلك عنده، وعند من قال بقوله، وعند الناس جميعاً غير هذا. ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة، فكَذَب في قوله الأول، وصَدَق في الآخر. وقال الله عز وجل:﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [سورة الزخرف: ١٩] فزعم بشر أن معنى قوله: ﴿وجعلوا الملائكة﴾ وخلقوا الملائكة، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، فكذب في الأول، وصدق في الثاني. وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾ [سورة الأنعام: ٩١] فزعم بشر يا أمير المؤمنين، أن معنى تجعلونه تخلقونه، يعنى أن اليهود خلقوا التوراة، ومعنى

خلق التوراة: خلق كلام الله عز وجل، فزعم أن اليهود خلقوا كلام الله، وأنه لا معنى له عنده، وعند من قال بقوله، وعند سائر العرب والعجم غير ذلك. ثم قال: من قال بهذا فهو كافر حلال الدم، فكَذب في الأول، وصَدَق في الآخر. ثم قال الله عز وجل: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [سورة الحجر: ٩٠-٩١] فزعم بشر أن معنى قوله: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ الذين خلقوا القرآن عضين، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع.

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون، فقال: حسبك يا عبد العزيز، قد أقر بشر على نفسه بالكفر، وإحلال الدم، وأشهدني على نفسه بذلك، وقد صدقت في كل ما قلت، ولكنه قال ما قال وهو لا يعقل، ولا يعلم ما عليه في ذلك، وهذا شيء يلزمه في نفسه خاصة، ولا يلزم غيره ممن لا يقر بمثل ما أقر به ، ولا يحكم على نفسه بمثل ما حكم به بشر على نفسه.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، إنما خاطبت أمير المؤمنين بما قد حصل في يدي، وأقر به بشر، وأشهد أمير المؤمنين على نفسه به، وعلمت أن أمير المؤمنين قد حفظ عليه كلامه، ولولا ذلك ما اجترأت على ذلك. فقال المأمون: كنت تقصد بشراً وحده بالكلام والمخاطبة دون سائر الناس؟ قلت: لم يدعني، جعلت أسأله في خاصة نفسه فيقول: هذا قولي، وقول سائر الناس، وقول العرب، والعجم، فأجبته على حسب كلامه، وقد صدق أمير المؤمنين؛ هذا يلزم

من أقر به دون غيره، إلا من قال بمثل قوله، أو أقر بمثل ما أقــر بـه، وهـذا الذي عنيت بقولي الأول حين قلت: ومن يقول بقوله. فقال: أحسنت يـا عبد العزيز الانتزاع.

قال عبد العزيز: ثم أقبل علي المأمون، فقال: تكلم يا عبد العزيـز في بيان هذا، واذكر الجعل والخلق، وفرق بينهما، واشرح ذلك، ليقف عليـه من بحضرتنا ويعرفه، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، أطال الله بقـاك، ولكـن إن رأيت أن تأذن لي فأقول قبل البيان والشرح أشياء في هــذا المعنـى، ممـا أكسر بـه قـول بشـر، وأدحـض بـه حجتـه، وأفضـح مذهبـه، وأبطـل بـه اعتقاده، فقال: لا تطول المجلس. فقلت: يا أمـير المؤمنـين، إنمـا هـو شـيء أدرسه درساً. قال: قل ما تريـد، ولا تخـاطب بشـراً، أقبـل علـي، ودعـه. فقلت: قال الله عز وجـل لنبيـه ﷺ : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٢] وقال في موضع آخر لنبيه ﷺ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٩] فزعـم بشـر يـا أمـير المؤمنين، أن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ولا تخلق مع الله إلهاً آخر، فمـن أقبح قولاً ممن قال هذا وأفحش منه؟! وقد قـال الله لنبيـه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [سورة الإسراء: ٢٩] فزعم بشر يا أمير المؤمنين، أن الله قال لنبيه: ولا تخلق يدك. وزعم أن الله خلقه، وبعثه رسولاً، وليس له يد، ثم خاطبه بعد الرسالة، فقال: ولا تخلق يدك، والله قد خلقـك خلقـاً سـوياً، فما أقبح هذا القول، وما أشنعه من قائلـه. وقـال الله عـز وجـل في قصـة

موسى ﷺ وفرعون، وقول فرعون له: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٩] فزعم بشر أن فرعون قال لموسى وهو مبعوث إليه: لأخلقنك، فما أقبح هذا وأشنعه وأبين كسره؟! وقال الله عز وجل: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [سورة النور: ٦٣] فزعم بشر يا أمير المؤمنين، أن الله (تبارك وتعالى) قال لخلقه: لا تخلقوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً، ما أقبح هذا وأدحضه! وقال الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص: ٧] فزعم بشر أن الله يأمرها بعد ولادتها وإرضاعها أن تلقيه في اليم، ويعدها أن يرده إليها ويخلقه، وهذا ما لا يعقله الناس، كيف يخلقه وهو مخلوق؟ وقال الله عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة القصص: ٥] وبشر يزعم أن معنى ﴿ونجعلهم﴾: ونخلقهم، وهم مخلوقون مستضعفون في الأرض، هذا ما لا يعقله العرب والعجم. وقال الله عز وجل: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة ص: ٢٦] وإنما خاطبه بالخلافة بعد أن خلقه، فزعم بشر أنه قال لداود: إنا خلقناك في الأرض، وهذا ما لو خوطب به داود قبل خلقه ما عقله. وقال الله عز وجل مخبراً عن دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين قالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[سورة البقرة: ١٢٨] فأخبر أنهما دعوا ربهما وهما مخلوقان، وزعم بشر

أنهما دعوا ربهما أن يخلقهما مسلمين. وقال ا لله عز وجل مخبراً عن دعاء إبراهيم عليه السلام وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [سورة إبراهيم: ٣٥] وقد كانت مكة مخلوقة قبل آدم وقبل إبراهيم، فكيف يدعو إبراهيم بخلقها، هذا ما يعقله الناس. وقال ا لله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [سورة المائدة: ١٠٣] فأخبر أنه ما جعل ذلك كذلك، وزعم بشر أن ا لله ما خلق البحيرة، ولا السائبة، ولا الوصيلة، ولا الحام، وإنما خلقها الكفار من دون ا لله. ومن قال هذا فقد كفر با لله (تعالى).

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون، فقال: حسبك يا عبد العزيز، ثبتت حجتك في هذه المسألة كثباتها في المسألة الأولى، وانكسر قول بشر فيها، وبطلت دعواه، فارجع إلى بيان ما قد انتزعت به، واشرحه واذكر معانيه، وما أراد ا لله عز وجل به، وما هو من الجعل مخلوق، وما هو غير مخلوق، واذكر بيان الأعلام والشواهد على ما هو مخلوق، وما هو غير مخلوق، وما تتعامل به العرب في لغاتها، وما تفرق به بين الجعلين في كلامها ليسمع من في المجلس ذلك، ويقفوا على مذهب العرب في ذلك، ومعنى ما أراد ا لله عز وجل بقوله ذلك.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، إن "جعل" في كتاب ا لله يحتمل عند العرب معنيين: معنى "خلق"، ومعنى "صير"، ومعنى "صيَّر" غير "خلق". فلما كان "خلق" حرفاً محكماً لا يحتمل معنى غير الخلق، ولم يكن من صناعة العباد، لم يتعبد ا لله العباد به، فيقول لهم: اخلقوا أو لا

تخلقوا، إذ كان الخلق ليس من صناعة المخلوقين، وإنما كان من فعل الخالق. ولما كان جعل على معنى التصيير، لا على معنى الخلق، خاطب الله عز وجل به العباد بالأمر والنهي فقال: اجعلو أو لا تجعلوا. ولما كان "جعل" كلمة تحتمل معنيين معنى "خلق" ومعنى "صيَّر" غير "خلق"، لم يدع الله في ذلك اشتباهاً على خلقه، ولبساً على عباده، فيلحد الملحدون في ذلك، ويشبهون على خلقه كما فعل بشر وأصحابه حتى جعل عز وجل على كل كلمة علماً ودليلاً فرَّق به بين الجعل الذي يكون على معنى الخلق، والجعل الذي يكون على معنى التصيير؛ فأما الجعل الذي هو على معنى الخلق فإن الله جعله من القول المفصل، وأنزل القرآن له مفصلاً، وهو بيان لقوم يفقهون، والقول المفصل يستغني به السامع، إذا أُخبر به قبل أن توصل الكلمة بغيرها من الكلام، إذ كانت قائمة بذاتها دالة على معناها. فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [سورة الأنعام: ١] فسواء عند العرب قال: وجعل أو قال: وخلق؛ لأنها قد علمت أنه قد أراد بهذا الجعل الخلق؛ ولأنه أنزله من القول المفصل. وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [سورة النحل: ٧٢] فعقلت العرب عنه أن معنى هذا: وخلق لكم إذ كان قولاً مفصلاً. وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [سورة النحل: ٧٨] فعقلت العرب عنه أنه عنى بهذا الجعل الخلق، إذ كان من القول المفصل. وسواء عندها قال خلق، أو جعل؛ لأنها قد علمت ما أراد وما عنى. ومثل هذا في القرآن كثير جداً

يا أمير المؤمنين، فهذا وما كان على مثاله، من القول المفصل الذي يستغني المخاطب به والسامع له بكل كلمة عما بعدها.

وأما جعل الذي هو بمعنى التصيير الذي هو غير الخلق فإن ا لله (تعالى) أنزله من القول الموصَّل الذي لا يدري المخاطَب به ما أراد المخاطِب،حتى يصل الكلمة بكلمة بعدها، فيعلم ما أراد بها، وإن تركها مفصلة، و لم يصلها بغيرها من الكلام لم يعقلها السامع لها، و لم يفهما و لم يقف على ما عني بها، حتى يصلها بغيرها؛ فمن ذلك قول ا لله عز وجل: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [سورة ص: ٢٦] فلو قال: إنا جعلناك و لم يصلها بما بعدها، لم يعقل داود، ولا أحد ممن سمع هذا الخطاب ما أراد ا لله به، ولا ما عنى بقوله؛ لأنه خاطبه بهذا وهو مخلوق، فلما وصله بخليفة في الأرض، عقل داود، وكل من سمع هذا الخطاب ما أراد بقوله، وما عنى به. وكذلك حين قال عز وجل لأم موسى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص: ٧] فلو لم يصل جاعلوه بالمرسلين لم تعقل أم موسى ما خاطبها به، ولا ما عنى بقوله، إذ كان خلْقُ موسى عليه السلام قد تقدم ردَّهُ إليها، فلما وصل الكلمة بالمرسلين عقلت أم موسى ما خاطبها به. وكذلك قول ا لله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [سورة الأعراف: ١٤٣] وقد كان الجبل قبل أن يتجلى له مخلوقاً، فوصل جعله بدكاً، ولو لم يصله لم يعقل السامع له ما أراد ا لله عز وجل بقوله. وكذلك قوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾

[سورة البقرة: ١٢٨] وقد كانا قبل دعوتهما مخلوقين فوصل واجعلنا بمسلمين لك، ولو لم يصل الكلمة، فقال:ربنا واجعلنا، لم يعقل أحد ممن سمع ذلك ما أراد بدعوتهما، فلما وصلها بمسلمين علم كل من سمع ذلك ما أراد بدعوتهما. وكذلك قول إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [سورة البقرة: ١٢٦] فوصله بآمنا، ولو لم يصله ما عقل أحد ممن سمع ذلك ما عنى بدعوته، إذ كان بلد مكة مخلوقاً قبل ذلك، فلما وصله بآمناً عقل السامع لذلك ما أراد إبراهيم بدعوته. ومثل هذا في القرآن كثير جداً يا أمير المؤمنين، والذي تعرفه العرب وتتعامل به في لغاتها وخطابها، ومعاني كلامها، ومخارج ألفاظها هو الذي جرت به سنة الله عز وجل في كتابه، إذ كان إنما أُنزل بلسانها، واكْتِتِب على بيانها، فخاطبهم عز وجل بما عقلوه، وعرفوه ولم ينكروه، ولم يكونوا يعرفون سواه، وهو القول الموصَّل والمفصَّل، فأرجع أنا وبشر يا أمير المؤمنين، فيما اختلفنا فيه من قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة الزخرف: ٣] إلى سنة الله في كتابه في الجعلين جميعاً، وإلى سنة العرب أيضا مما تعرفه وتتعامل به، فإن كان من القول الموصَّل فهو كما قلت أنا، إذ أن معنى جعله قرآناً عربياً صيَّره عربياً، أي أنزله بلغة العرب ولسانها، ولم يصيِّره أعجمياً فينزله بلغة العجم، وإن كان من القول المفصَّل فهو كما قال بشر، ولن يجد ذلك أبداً، وإنما دخل الجهل على بشر ومن قال بقوله يا أمير المؤمنين، لأنهم ليسوا من العرب، ولا علم لهم بلغة العرب، ومعاني كلامها، فأوَّلوا

القرآن على لغة العجم التي لا تفقه ما تقول، وإنما تتكلم بالشيء كما يجري على ألسنتها، فكل كلامهم ينقض بعضه بعضاً، لا يتنقدون ذلك من أنفسهم، ولا يتنقده عليهم غيرهم لكثرته.

قال عبد العزيز: وسمعت الأصمعي عبد الملك بن قريب، وقد سأله رجل، فقال له: أتدغم الفاء في الياء؟ فتبسم الأصمعي، وقبض على يدي، وكان لي صديقاً، فقال لي: أما تسمع؟! ثم أقبل على السائل وهو متعجب من مسألته فقال له: تدغم الفاء في الياء في لغة إخواننا بني ساسان يقولون: كيصبحت، فيدغمون الفاء في الياء، وأما العرب فلا تعرف هذا.

قال عبد العزيز: فاشتد تبسُّم المأمون من قول الأصمعي، ووضع يده على فيه، فقلت: وهذا الذي يأتينا به بشر يا أمير المؤمنين، من لغة أصحابنا بني ساسان. **فقال بشر**: يا أمير المؤمنين، يذمنا ويكفرنا، ويقول: إنا نحرف القرآن عن مواضعه، وهو قد وضع من قدر القرآن وشأنه، وسماه بأنقص الأسماء ووصفه بأخس الصفات وأقلها، ولقد خالف بقوله كتاب الله وحرَّفه عن مواضعه؛ لأن الله عز وجل سمَّاه كتاباً عربياً، وسماه كريماً، وأخبر عنه أنه تام كامل بقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨] وسمَّاه عبد العزيز موصَّلاً، فخالف كتاب الله عز وجل وصفته وذم ما مدح الله؛ لأن الموصّل عند العرب والعجم وسائر الخلق دون التام الصحيح الكامل، إذ كان الموصّل عندهم جميعاً هو الملفّق،

الذي وُصِلَ بعضه ببعض، ولُفّـقَ بعضـه إلى بعـض، فـإذا أراد الرجـل مـن العرب وغـيرهم أن يضـع مـن قـدر الشـيء قـال هـو موصـل وليس هـو بصحيح، وقد سمى كتاب الله اسماً ناقصاً، وقال فيه إثمـاً وبهتانـاً عظيمـاً، ولو قلت أنا هذا، أو ما هو دونه لخطب، وتكلم واستغاث بأمير المؤمنين، وأخرجنا من الإسلام، وهو يقـول العظـائم، ويحيـل علـى العـرب، وأمـير المؤمنين، أطال الله بقاه، يحلم عنه بفضله، وهو يتقوى بحلمه علينا.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: وهذا أيضاً من جهلـك بمـا في كتـاب الله عز وجل تذمني، وتزعم أني سميت كتاب الله اسماً ناقصاً، وتغري بي أمير المؤمنين، وهو أعلم بما قلت وبما تكلمت مني ومنك، وما قلت إلا مـا قال الله عز وجل، وما نسبت إلى كتابه إلا ما نسـبه إليـه، وارتضـاه لـه، وهو عند العرب الفصحاء كلام جيد مرتضى، وأنت تزعم أن كـلام الله الذي هو ذاته مخلوق، تشبهه بكلام المخلوقـين مـن الشـعر، وقـول الـزور وغيره، وتُنكر علي أني سميته بما سمَّاه الله (تعـالى) بـه. فقـال: وأيـن سمَّـاه موصَّلاً، ومفصَّلاً؟ قلت: في كتابه من حيث لا تفهمـه ولا تعلمـه. قـال: فهاته.

قال عبد العزيز: فقلت: قال الله عز وجـل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة القصص: ٥١] فهـذه تسـمية الله لكلامـه، ووصفـه لـه بنـص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير، وهو الذي اختاره لنفسه ولكلامه، وارتضـاه له، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [سورة الرعد: ٢١] فامتدحهم بصلة

ما وصل، وأثنى عليهم في غير آية من كتابه، ووعدهم على ذلك أحسن عدة وهي الجنة، وقال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ٢٢-٢٤] فهذه مِدْحةُ الله، وهذا ثناء الله، وهذا جزاء الله لمن وصل ما وصل الله. ولقد ذم الله (تعالى) الذين قطعوا ما أمر الله بصلته، وذمهم ولعنهم وجعلهم من الخاسرين، فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ٢٥] وقال عز وجل في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧] فهذا ذم الله لمن قطع ما أمر الله به أن يوصل، وهذا وعيده لهم بالنار.

ثم ذكر عز وجل ما في القرآن من المفصل فقال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [سورة هود: ١] وقال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢] وقال: ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فصلت: ١-٣] وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩٨] فهذا قول الله وهذه أخبار الله، وهذه تسمية الله لكلامه، وهذه نسبته لقوله، وهذا اختياره لكتابه، وهذا ما ارتضاه ورضي به من قائله.

قال عبد العزيز: ثم أقبلت على المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين،يزعم بشر أني سميت كتاب الله اسماً ناقصاً، مذموماً، وأني ذهبت بقدره وسميته بما لم يُسمِّه به الله عز وجل، وأني أتيت بذلك إثماً عظيماً، يدعي عليَّ الدعاوى، وأنا حاضر معه، وإنما ينبغي به إذا تكلمت بشيء أن يطالبني بإقامة الحجة والدليل على كل لفظة ألفظ بها، فإن لم أفعل ذلك فليتكلم بما شاء، ولقد أكذبه الله (تعالى) في كتابه وذم قوله، وأبطله بما أنزل في كتابه من ذكر المفصَّل والموصَّل، وما قصد بشر يا أمير المؤمنين، بقوله هذا إلا أن يتنقص العرب كلها، ويذم كلامها ولغتها، وما تتعامل به في خطابها، إذ كانت تسمي كلام الله موصَّلاً ومفصَّلاً، وتسمِّي كلامها موصَّلاً ومفصَّلاً، وتختار هذه الأسماء لكلامها وترتضيها، وهي عندنا جميلة حسنة صحيحة المعنى، لا اختلاف بينهم في ذلك. **فقال بشر**: ما تعرف العرب من هذا شيئاً، وما أنت أعلم بلغة العرب مني، وكل شيء نسبته اليوم إلى العرب فهو مخالف لقولها ولغتها ومذهبها في كلامها.

قال عبد العزيز: فأقبلت على المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال بقاك، أنت بيت اللغة، وأعلم خلق الله بلغة العرب، وكلامها، وما تعرفه وتتعامل به في خطابها، وأنت الحاكم بيننا، فإن أكن قد تزيدت على العرب منذ اليوم في شيء حكيته عن العرب أو نسبته إليهم، أو عدلت عن سنتهم ومذهبهم في كلامهم وخطابهم، ومخارج ألفاظهم، فقد

استحققت العقوبة من جهتين: إحداهما: جرأتي على أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، وقولي بين يديه، وحكايتي عن قومه ما يعلم خلافه، مع علمي أنه أعلم خلق الله بذلك . الأخرى: كذبي على سائر العرب، وادعائي الباطل عليهم، وأمير المؤمنين يشهد علـي بكذبي وتزيدي وهو في حل وسعة من دمي، ومن كل ما يعاقبني به، إن كان قد وقف على ذلك مني، وإن يكن بشر يا أمير المؤمنين، قد تزيد في القول وادعى علي الباطل، كان أمير المؤمنين أعلى عيناً بالرد عليه، ومنعه من القول الزور والكذب.
فقال المأمون: ما قلت يا عبد العزيز، منذ اليوم إلا ما تقوله العرب، وما تعرفه وتتعامل به، وما خرجت عن مذهبها، ولو عدلت عن ذلك ما سوغت لك الكذب عليها.

قال عبد العزيز: فقلت: الله أكبر، الله أكبر، كذب بشر والله بشهادة أمير المؤمنين، أطال بقاه، عليه، أفلحت ورب الكعبة، أفلحت ورب الكعبة، وظهر أمر الله وهم كارهون. **فقال بشر:** أَوَعلى الخلق أن يتعلموا لغات العرب كلها؟ ما تعبدنا الله بهذا. كل إنسان يقول بلغته وعلى قدر معرفته، وما كلف الله الخلق فوق طاقتهم، ولا طالب أولاد العجم بلغات العرب.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: وكلف الله الخلق أن يتكلموا بما لا يعلمون؟! حيث ادعيت العلم وتكلمت في القرآن، وتأولت كتاب الله على غير ما عناه الله، ودعوت الخلق إلى اتباعك، وكفرت من خالفك وأبحت دمه، والله قد نهى الخلق جميعاً، فلم يحاش منهم نبياً مرسلاً، ولا

صِدِّيقاً ولا عبداً مؤمناً أن يقولوا ما لا يعلمون. قال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٦] وقال عز وجل لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة هود: ٤٦] فقال نوح معتذراً إلى ربه، معترفاً بخطيئته مستغفراً منها: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة هود: ٤٧] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [سورة آل عمران: ٧] فأخبر الله عز وجل أن من في قلبه زيغ يتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، فذمهم بهذا الخبر وذم فعلهم وطريقهم الذي سلكوه.

فقال بشر: اخطب حتى تشبع من الكلام، ثم أخاطبك.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، إن بشراً قد تحير في ضلالته، وعَمِيَ عن رشده، وبانت فضيحة قوله ومذهبه، وانقطع، فما يأتي بحجة.

فقال بشر: ما انقطعت، ولا تحيرت، ولا بانت فضيحة مذهبي، وإني لعلى بينة من أمري، وما دعوت الناس، ولا أدعوهم إلا إلى سبيل الرشاد، ولا أنا ولا هم إلا على سداد، وكل من خالفني فكافر حلال الدم.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، ما كان بقي على بشر غير هذا. قد قال كما قال فرعون، ولجأ إلى طريق فرعون فاتبعها، وإلى سبيله فسلكها، فتبسم المأمون حتى وضع يده على فيه، ثم قال: كيف قلت يا عبد العزيز؟ فأعدت عليه القول، فازداد في تبسمه، ثم قال: كيف قال بشر ما قال فرعون، ولجأ إلى سبيله؟ فقلت: لما قرأت على بشر القرآن، وأوضحت له السبيل والبرهان، ودللته على طريق النجاة، ونطقت بالحق الذي أنطقني الله به قال بشر: إني لعلى بينة من أمري، وما دعوت الناس إلا إلى سبيل الرشاد وكذلك قال فرعون حين أنطق الله من وفقه لقول الحق فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [سورة غافر: ٢٨-٢٩] فلما قال هذا المؤمن الحقَّ الذي أنطق الله به لسانه، وسدَّد به قوله، وسمعه فرعون وقومُه، قال فرعون لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [سورة غافر: ٢٩] وكذلك قال بشر يا أمير المؤمنين، حين سمعني أقول الحق الذي وفقني الله له، وأنطق به لساني، فقال: إني لعلى بينة من أمري، وما دعوت الناس إلا إلى سبيل الرشاد، فأجاب بمثل ما أجاب به فرعون عند سماع الحق، واتبع سبيله، وما عدل عنها؛ فبشر مرة يتبع سبيل الشيطان ويأمر بما أمر به الشيطان، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة

النساء: ٧٦] ومرة يتبع سبيل اليهود في تحريف القرآن عن مواضعه. وقد قال الله عز وجل: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [سورة النساء: ٤٦] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [سورة النساء: ٥٢] وقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٦١] ومثل هذا في القرآن كثير، ومرة يتبع سبيل الكفار في التسوية بين الله وخلقه في خلق الأشياء، ومرة يتبع عبدة الأصنام في الحيدة عن الجواب، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [سورة غافر: ٢٥] ومرة يتبع سبيل فرعون ويقول بمثل قوله، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [سورة غافر: ٣٧] وقال عز وجل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: ٨١] وقال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٨].

فقال بشر: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، إنما يتكلم ويخطب لينسي خصمه حجته، ويشغله بغيرها، ولولا بسط أمير المؤمنين إياه، لم يقدر أن يدير لسانه في فمه، ولكانت الحجة ظاهرة عليه. ثم أقبل بشر علي، فقال: لو خطبت إلى غد ما تركت مطالبتك بما قلت، فدع عنك الهذيان، وأقبل علي.

فرجع بشر مرة أخرى إلى مسألة الموصَّل والمفصَّل، فاستأذن عبد العزيز المأمون أن يرد عليه، ويزيد الأمر وضوحاً وظهوراً بالأدلة والأمثلة، التي استحسنها المأمون، فقال له: أحسنت أحسنت، وقد أبلغت فلا تحتاج

إلى زيادة، ثم أقبل على بشر قال: يا بشر هل عندك شيء تسأل عبد العزيز عنه، أو تحتج عليه به، فقد ظهرت حجته عليك، وصح قوله عندنا. قال بشر: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، هذا يريد نص التنزيل بكل شيء يتكلم به، أو يلفظ به وليس كل ما يتكلم به الناس، ويحتجون به يجدونه بنص التنزيل، وإنما يجدونه بالتأويل وهذا لا يقبل التأويل، ويبطل التفسير، حتى كأنه كان مشاهداً للتنزيل، وهذا مما لا أسوغه أنا للمناظرين، ولا أطلقه للمتكلمين، إذ كان الناس لا يجدون علم كل ما يحتاجون إليه ويتنازعون فيه من أمر دينهم في كتاب ربهم بنص التنزيل، ولو كان هذا كما يقول عبد العزيز لبطل التفسير كله، وبقي الناس في حيرة من دينهم، والناس جميعاً يوافقوني على قولي، ويخالفون عبد العزيز.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، كل ما يتكلم به الناس مما يحتاجون إليه من علم أديانهم، وما يختلفون ويتنازعون فيه فهو موجود في القرآن، وفي غيره من الكتب، لقوله (تعالى): ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿يا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٤-١٤٥] فأخبر الله عز وجل أنه ما فرَّط في الكتاب من شيء، يعني القرآن[1] وأخبر أنه كتب في الألواح لموسى من كل شيء،

---

(١) اختلف أهل التفسير في المراد بالكتاب في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ وهو الذي يقتضيه السياق، والثاني: أنه القرآن. انظر: تفسير القرطبي ٦/٤٢٠، وتفسير ابن كثير ٢/١٢٤-١٢٥.

فليس من شيء يحتاج الناس إليه، يا أمير المؤمنين، إلا وهو موجود في القرآن، عقله من عقله، وجهله من جهله.

قال عبد العزيز: فجثا محمد بن الجهم على ركبتيه، وقال: يا عبد العزيز، زعمت أن كل شيء يتكلم به الناس، ويحتاجون إلى معرفته موجود في كتاب الله بنص التنزيل، لا بتأويل ولا بتفسير، فأوجدنا أن هذا الحصير مخلوق أو غير مخلوق، من كتاب الله بنص التنزيل، ووضع يده على حصير مدني كان تحتنا مبسوطاً في الإيوان. فقلت: نعم علي أن أوجدك ذلك.

قال عبد العزيز: ثم أقبلت عليه فقلت له: أخبرني عن هذا الحصير، أليس هو من سعف النخل، وجلود الأنعام؟ قال: بلى، قلت له: فهل فيه شيء غير هذا؟ قال: لا. قلت: بل ها هنا شيء به صار حصيراً نجلس عليه، قال: فما هو؟ قلت: الإنسان الذي صنعه، وألفه، وأحكمه، قال: نعم.

قال عبد العزيز: فقلت: قال الله عز وجل وقد ذكر الأنعام: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾[سورة النحل: ٥] وأما السعف فإن الله ذكره، فقال: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [سورة الواقعة: ٧٢] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: ١٢] فقد كمل خلق الحصير بنص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير، فهل عندك مثل هذا في خلق القرآن تذكره أو تحتج به، وإلا فقد بطل ما تدعيه من خلقه، وصح ولم يزل صحيحاً أن

القرآن كلام الله غير مخلوق من كل جهة، فصاح المأمون بمحمد بن الجهم: مالك والكلام، خل بين الرجل وصاحبه حتى يكلمه، ثم أقبل على بشر: فقال: يا بشر، هل عندك شيء تناظر فيه عبد العزيز قبل أن نصرفه ونقوم، فقد طال المجلس وما صُلِّيت الظهر.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين، عندي أشياء كثيرة، إلا أنه يقول بنص التنزيل، وأنا أقول بالنظر والقياس، فليدع مطالبتي بنص التنزيل، وليناظرني بغيره، فإن ناظرني بالنظر والقياس، و لم يدع قوله ويرجع عنه، ويقول بقولي ويقر بخلق القرآن الساعة فدمي حلال. فقال المأمون لهذا مجلس غير هذا تتناظرون فيه.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاك، إن رأيت أن تأذن لي فأناظره كما سأل على جهة النظر والقياس وأدع مطالبته بالقرآن وبنص التنزيل ويكون أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، الشاهد علينا والمتحفظ لكلامنا، فإن أقام بشر علي الحجة كما زعم، وأقررت بشيء مما قال، أو رجعت عن شيء مما قلت فدمي حلال كما قال بشر، وإن ثبتت الحجة عليه من جهة القياس والنظر، كما ثبتت عليه من القرآن والسنة، وشهد عليه أمير المؤمنين بذلك، فقد حلَّ دمُهُ كما شرط على نفسه.

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون: أنا الشاهد عليكما والحاكم بينكما، فأوجزا واقتصرا، ولا تطيلا فيخرج وقت الصلاة.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: تسألني أو أسألك؟ فقال: سل أنت، وطمع في هو وأصحابه، وتوهموا أني إذا خرجت عن التنزيل لم أحسن أن أتكلم بشيء غيره.

قال عبد العزيز: فقلت له: يا بشر، تقول إن كلام الله مخلوق؟ فقال: أنا أقول إن القرآن مخلوق. فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها: أن تقول: إن الله عز وجل خلق القرآن في نفسه، أو خلقه في غيره، أو خلقه قائماً بذاته ونفسه، فقل ما عندك. قال بشر: إنه مخلوق، وإنه خلقه كما خلق الأشياء كلها.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، تركنا القرآن والسنة والأخبار عند هربه منها، وناظرناه بالقياس والكلام لمَّا ادعى وذكر أنه يقيم به الحجة علي، وأني أقر معه بخلق القرآن، فقد رجع بشر إلى الحيدة عن الجواب، وانقطع الكلام، فإن كان بشر يريد أن يناظرني فليجبني عما أسأله عنه، وإلا فأمير المؤمنين أعلى عيناً فيما يراه من صرفي وقطع المجلس، وإنما يريد بشر أن يقع معه من لا يفهم فيحيد عن دينه، ويحتج عليه بما لا يعقله، فتظهر حجته عليه، فيبيح بذلك دمه، قال: فأقبل عليه المأمون وقال له: أجب عبد العزيز عمَّا سألك، فقد ترك قوله ومذهبه وناظرك على قولك ومذهبك، وما ادعيت أنك تحسنه وتقيم الحجة به عليه. فقال بشر: قد أجبته، ولكنه يتعنت. فقال المأمون: يأبى عليك عبد العزيز إلا أن تقول واحدة من ثلاث، فقال: هذا أشد من مطالبته في المسألة بنص التنزيل، ما عندي غير ما أجبته به.

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون، فقال: يا عبد العزيز، تكلم أنت في شرح هذه المسألة وبيانها، ودع بشراً فقد انقطع عن الجواب من كل جهة.

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، سألته عن كلام الله: أمخلوق هو؟ فقال: نعم. فقلت له يا أمير المؤمنين، ما يلزمه في هذا القول، وهو واحدة من ثلاث لا بد منها: أن يقول إن الله خلق كلامه في نفسه، أو خلقه في غيره، أو خلقه قائماً بذاته؛ فإن قال: إن الله خلق كلامه في نفسه، فهذا محال لا يجد السبيل إلى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول؛ لأن الله (تبارك وتعالى) لا يكون مكاناً للحوادث، ولا يكون فيه شيء مخلوق، ولا يكون ناقصاً فيزيد فيه شيء إذا خلقه (تعالى الله عن ذلك وجلَّ وتعاظم). وإن قال: خلقه في غيره، يلزمه في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره فهو كلام الله، لا يَقْدِر أن يفرق بينهما، فيجعل الشعر كلام الله، ويجعل قول الزور كلاماً لله، ويجعل قول الكفر والفحش، وكل قول ذمه الله وذم قائله كلاماً لله عز وجل، وهذا محال، لا يجد السبيل إليه، ولا إلى القول به، لظهور الشناعة والفضيحة والكفر على قائله، تعالى الله عن ذلك، وإن قال: خلقه قائماً بنفسه وذاته، فهذا هو المحال الباطل الذي لا يجد إلى القول به سبيلاً في قياس ولا نظر ولا معقول؛ لأنه لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا القدرة إلا من قادر، ولارُئي ولا يُرى

كلام قط قائم بنفسه، متكلم بذاته، وهذا ما لا يعقل، ولا يعرف ولا يثبت في نظر، ولا قياس ولا غير ذلك. فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً، ثبت أنه صفة لله، وصفات الله عز وجل كلها غير مخلوقة، فبطل قول بشر يا أمير المؤمنين من جهة النظر والقياس، كما بطل من جهة القرآن والتنزيل. **فقال المأمون:** أحسنت يا عبد العزيز.

فقال بشر: سل عن غير هذه المسألة، فلعله أن يخرج بيننا شيء. فقلت: نعم، أنا أدع هذه المسألة وأسأل عن غيرها. فقال: سل. **قال عبد العزيز:** فقلت: يا بشر، أتقول: إن الله كان ولا شيء معه، وكان ولمّا يفعل شيئاً، ولمّا يخلق شيئاً؟ قال: نعم. فقلت له: بأي شيء حدثت الأشياء، بعد أن لم تكن؟ أهي أحدثت أنفسها، أم الله (تعالى) أحدثها؟ فقال: بل الله أحدثها. فقلت له: فبأي شيء أحدثها. قال: أحدثها بقدرته التي لم تزل. فقلت له: صدقت أنه أحدثها بقدرته التي لم تزل. أفلست تقول: إنه لم يزل قادراً؟ قال: بلى. قلت له: أفتقول: إنه لم يزل يفعل؟ قال: لا أقول هذا، قلت: فلا بد من أن يلزمك القول إنه خلق بالفعل الذي كان عن القدرة وليس الفعل هو القدرة؛ لأن القدرة صفة لله (تعالى) ولا يقال: الصفة هي الله، ولا هي غير الله. **فقال بشر:** ويلزمك أنت أيضاً أن تقول: إن الله لم يزل يفعل ويخلق، فإذا قلت ذلك فقد ثبت أن المخلوق لم يزل مع الله عز وجل.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: ليس لك أن تحكم علي، وتلزمني بما لا يلزمني، وتحكي عني ما لم أقل. فأنا لم أقل: إنه لم يزل الخالق يخلق،

والفاعل يفعل، فيلزمني ما قلت، وإنما قلت: لم يزل الفاعل سيفعل، ولم يزل الخالق سيخلق؛ لأن الفعل صفة الله (تعالى) يقدر عليه ولا يمنعه منه مانع. قال بشر: أنا أقول: إنه أحدث الأشياء بقدرته، فقل أنت ما شئت.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد أقر بشر أن الله كان ولا شيء معه، وأنه أحدث الأشياء بعد أن لم تكن شيئاً بقدرته، وقلت أنا: إنه أحدثها بأمره، وقوله، عن قدرته، فلن يخلو يا أمير المؤمنين، أن يكون أول خلق خلقه الله بقول قاله، أو بإرادة أرادها، أو بقدرة قدرها فأي ذلك كان فقد ثبت أن هاهنا إرادة، ومريداً، ومراداً، وقولاً، وقائلاً، ومقولاً له، وقدرة، وقادراً، ومقدوراً عليه، وذلك كله متقدم قبل الخلق، وما كان قبل الخلق متقدماً، فليس هو من الخلق في شيء، كسرتُ والله يا أمير المؤمنين، قول بشر، ودحضتُ حجته بإقراره بلسانه، كسرتُ قوله بالقرآن والسنة واللغة العربية والنظر والمعقول، ولم يبق إلا القياس وأنا أكسره بالقياس، إن شاء الله (تعالى).

قال عبد العزيز: وكان المأمون قد جلس منا مجلس الحاكم من الخصمين، فقال: هاته ياعبد العزيز، وأوجز. فقلت: يا أمير المؤمنين، لو كان لبشر غلامان وأنا لا أجد علمها من أحد من الناس، إلا من بشر، يقال لأحدهما: خالد، وللآخر: يزيد. وكان بشر غائباً عني فكتب إلي ثمانية عشر كتاباً يقول في كل كتاب منها: ادفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب، وكتب إلي أربعة وخمسين كتاباً يقول في كل كتاب منها ادفع إلى يزيد ولا يقول: غلامي هذا الكتاب، ثم كتب إلي كتاباً جمعهما فيه،

فقال: ادفع إلى خالد غلامي وإلى يزيد هذا الكتاب، ولم يقل يزيد غلامي، ثم قدم بشر من سفره فقال لي: ألست تعلم أن يزيد هذا غلامي؟ فقلت له: قد كتبت إلي أربعة وخمسين كتاباً تقول في كل كتاب منها: ادفع هذا الكتاب إلى يزيد ولم تقل غلامي، ولم أسمعك تقول: إنه أحد غلاميك، وأنا لا أجد علمه عند أحد غيرك، وكتبت إلي ثمانية عشر كتاباً تقول في كل واحد منها: ادفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب، فعلمت أنه غلامك، ثم كتبت إلي كتاباً جمعتهما فيه فقلت: ادفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب، وإلى يزيد ولم تقل: غلامي، فمن أين أعلم أن يزيد غلامك؟ وأنت لم تقل لي قبل هذا الوقت إنه غلامك، ولستُ أعلم خبرهما من غيرك. فقال بشر: فرطت فحلفت أنا أن بشراً فرط، وحلف بشر أني فرطت، حيث لم أعلم أن يزيد غلامه من كتبه، فأينا المفرط يا أمير المؤمنين؟ فقال المأمون: بشر المفرط. فقال بشر: وأي شيء هذا مما نحن فيه؟!

قال عبدالعزيز: فقلت: إن الله عز وجل أخبر في كتابه عن خلق الإنسان في ثمانية عشر موضعاً، ما ذكره في موضع منها إلا أخبر عن خلقه، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً من كتابه فلم يخبر عن خلقه في موضع منها، ولا أشار إليه بشيء من صفات الخلق، ثم جمع بين القرآن، والإنسان في موضع واحد، فأخبر عن خلق الإنسان ونفي الخلق عن القرآن فقال عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾[سورة الرحمن: ١-٣] ففرق بين القرآن والإنسان، فزعم بشر يا أمير المؤمنين، أن الله فرط في الكتاب، وكان يجب عليه أن يخبر عن خلق القرآن وقد قال (تعالى):

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨] فهذا كسر قول بشر بالقياس، والحمد لله رب العالمين.

فقال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز، ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم، فحملت بين يدي، وانصرفت من مجلسه على أجمل حال وأحسنها، قد أعز الله دين الإسلام وأعز أهله، وأذل الكفر وأهله، فلله الحمد والشكر على نعمه كلها، وعلى مننه، وتوفيقه، وتسديده.

مناظرة أخرى للمعتزلة في خلق القرآن:

كتب بشر المريسي إلى منصور بن عمار[(١)]: أخبرني، القرآن خالق أم مخلوق؟ قال : فكتب إليه: عافانا الله وإياك من كل فتنة، وجعلنا وإياك من أهل السنة والجماعة، فإنه إن يفعل فأعظم بها من نعمة، وإلا فهي الهلكة، وليست لأحد على الله بعد المرسلين حجة، نحن نرى أن الكلام في القرآن بدعة، تَشَارك فيها السائل والمجيب، وتعاطى السائل ما ليس له، وتكلف المجيب ما ليس عليه، وما أعرف خالقاً إلا الله، وما دون الله مخلوق، والقرآن كلام الله، فانته بنفسك والمختلفين معك إلى أسمائه التي سماه الله بها تكن من المهتدين، ولا تُسمِّ القرآن باسم من عندك فتكون من الضالين، جعلنا الله وإياك من الذين يخشونه بالغيب وهم من الساعة مشفقون[(٢)].

---

(١) هو : أبو السري، السلمي، الخراساني، كان عديم النظير في الموعظة والتذكير، وفاته في حدود المائتين. انظر : التاريخ الكبير للبخاري ٧/٣٥٠ تر : ١٥٠٩ ، والسير ٩/٩٣ ترجمة: ٣١ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ٧/٦٢ ، وسير أعلام النبلاء ٩/٩٧ . ولعلَّ هذا الكلام كان قبل أن يتوغل بشر في هذه البدعة، وإلا فرجوعه كان ميئوساً منه، لا سيما بعد أن أسنده السلطان.

وقال أبو يوسف لبشر: يا بشر، بلغني أنك تتكلم في القرآن، إن أقررت لله علماً خصمت، وإن جحدت العلم كفرت[١].

وذكر اللالكائي في شرح السنة[٢] أن رجلاً سأل أبا الهذيل العلاف المعتزلي البصري عن القرآن، فقال: مخلوق. فقال له: مخلوق يموت أو يخلد؟ قال: لا، بل يموت. قال: فمتى يموت القرآن؟ قال: إذا مات من يتلوه فهو موته. قال: فقد مات من يتلوه، وقد ذهبت الدنيا، وتصرمت، وقال الله عز وجل: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [سورة غافر: ١٦] فهذا القرآن وقد مات الناس؟! فقال: ما أدري، وبُهت.

وقال أحمد بن الحسن الترمذي (٢٤٠هـ تقريباً): قلت لأحمد بن حنبل: إن الناس قد وقعوا في أمر القرآن فكيف أقول؟ قال: أليس أنت مخلوق؟ قلت: نعم. قال: فكلامك منك مخلوق. قلت: نعم. قال: أوليس القرآن من كلام الله؟ قلت: نعم. قال: وكلام الله؟ قلت نعم. قال: فيكون من الله شيء مخلوق؟![٣].

مناظرة الأشعرية في كلام الله (تعالى):

قال أبو نصر السجزي (٤٤٤هـ) في كتابه الإبانة في الرد على الزائغين في مسألة القرآن[٤]: «خاطبني بعض الأشعرية يوماً في هذا الفصل

---

(١) انظر : تاريخ بغداد ٦١/٧-٦٢

(٢) ٢٢١/٢ برقم : ٣٦٣.

(٣) شرح السنة ٢٦٣/٢-٢٦٤ برقم : ٤٥١.

(٤) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٩٠/٢-٩٢. نقله من كتاب الإبانة للسجزي.

- يعني كلام الله - وقال: التجزؤ على القديم غير جائز. فقلت له: أتقر بأن الله أسمع موسى كلامه على الحقيقة بلا ترجمان؟ فقال: نعم. وهم يطلقون ذلك ويُموهون على من لم يَخْبر مذهبهم...

قال: فقلت لمخاطبي الأشعري: قد علمنا جميعاً أن حقيقة السماع لكلام الله منه على أصلكم محال[1] وليس هاهنا من تتقيه وتخشى تشنيعه، وإنما مذهبك أن الله يُفهم من شاء كلامه بلطيفة منه، حتى يصير عالماً متيقناً بأن الذي فهمه كلام الله، والذي أُريد أن أُلزمك وارد على الفهم وروده على السماع، فدع التموية، ودع المصانعة، ما تقول في موسى عليه السلام حيث كلمه الله؟ أفهم كلام الله مطلقاً أم مقيداً؟ فتلكأ قليلاً، ثم قال: ما تريد بهذا؟ فقلت: دع إرادتي وأجب بما عندك، فأبى، وقال: ما تريد بهذا؟ فقلت: أريد أنك إن قلت: إنه عليه السلام فهم كلام الله مطلقاً اقتضى أن لا يكون لله كلام من الأزل إلى الأبد إلا وقد فهمه موسى، وهذا يؤولُ إلى الكفر، فإن الله (تعالى) يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥] ولو جاز ذلك لصار من فهم كلام الله عالماً

(١) لأن سماع الخلق - على ما جبلوا عليه من البنية وأجروا عليه من العادة - لا يكون البتة إلا لما هو صوت، أو في معنى الصوت، وإذا لم يكن كذلك كان الواصل إلى معرفته بضرب من العلم والفهم وهما يقومان في وقت مقام السماع، لحصول العلم بهما كما يحصل بالسماع، وربما سمي ذلك سماعاً على التجوز لقربه من معناه، فأما حقيقة السماع لما يخالف الصوت فلا يتأتى للخلق في العرف الجاري. من كلام السجزي انظر: درء تعارض العقل والنقل ٢/٩٠.

بالغيب، وبما في نفس الله (تعالى)، وقد نفى الله (تعالى) ذلك بما أخبر به عن عيسى عليه السلام أنه يقول: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سورة المائدة: ١١٦] وإذا لم يجز إطلاقه وألجئتَ إلى أن تقول: أفهمه الله ما شاء من كلامه، ودخلت في التبعيض الذي هربت منه، وكفّرت من قال به، ويكون مخالفك أسعد منك؛ لأنه قال بما اقتضاه النص الوارد من قبل الله عز وجل، ومن قبل رسول الله ﷺ وأنت أبيت أن تقبل ذلك، وادعيت أن الواجب المصير إلى حكم العقل في هذا الباب، وقد ردك العقل إلى موافقة النص خاسئاً. فقال: هذا يحتاج إلى تأمل، وقَطَعَ الكلام .

مناظرة أخرى في كلام الله (تعالى):

وروى الذهبي[١] بسنده إلى أبي المعالي أسعد بن المنجا (٦٠٦هـ) قال: كنت يوماً عند الشيخ أبي البيان (٥٥١هـ) رحمه الله (تعالى)، فجاءه ابن تميم الذي يدعى الشيخ الأمين، فقال له الشيخ بعد كلام جرى بينهما: ويحك! الحنابلة إذا قيل لهم: ما الدليل على أن القرآن بحرف وصوت؟ قالوا: قال الله كذا، وقال رسوله كذا، وسرد الشيخ الآيات والأخبار، وأنتم إذا قيل لكم: ما الدليل على أن القرآن معنى قائم في النفس؟ قلتم: قال الأخطل (١١٠هـ):

(١) مختصر العلو ص : ٢٨٤-٢٨٥ برقم : ٣٤٩ وجوّد إسناده الألباني ص : ٢٨٥

إن الكلام لفي الفؤاد ....[1]

إيش هذا الأخطل؟! نصراني خبيث، بنيتم مذهبكم على بيت شعر من قوله وتركتم الكتاب والسنة.

قال الذهبي: قال أبو محمد الخشَّاب (٥٦٧هـ) نحوي العراق: فتشتُ شعر الأخطل المدون كثيراً فما وجدتُ هذا البيت[2].

مناظرة أبي محمد المقدسي للأشعرية:

هذه المناظرة وقعت للمقدسي (٦٢٠هـ) مع بعض الأشعرية، وقد أودعها رسالة لطيفة بعنوان: **حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة**[3] وقد ذكرها على سبيل الحكاية خوفاً ـ كما قال ـ من التزيد عليهم، وأنا أذكرها هنا مع شيء من الاختصار، وبعض التصرف.

ذكر المقدسي أن هذه السور والآيات ـ عند الأشعرية ـ ليست

---

(١) تمام البيت : .... وإنما جعل اللسان على الكلام دليلا

وذكر السجزي أن البيت هكذا:

إن البيان من الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

لكنهم غيروه إلى ما ذُكر آنفا.

ويُروى:

إن البيان لفي الفؤاد ...

وعلى كل حال فالبيت لا يوجد في ديوان الأخطل، وفي ثبوت نسبته إليه نظر.

وانظر ما ذكره محقق رسالة السجزي إلى أهل زبيد، هامش ص : ٨٣ .

(٢) مختصر العلو ص : ٢٨٥.

(٣) مطبوعة بتحقيق عبد الله بن يوسف الجديع.

بقرآن، وإنما هي عبارة عنه وحكاية، وأنها مخلوفة، وأن القرآن معنى قائم بنفس البارئ، وهو شيء واحد، لا يتجزأ ولا يتبعض، ولا يتعدد، ولا هو شيء ينزل ولا يتلى، ولا يسمع ولا يكتب، وأنه ليس في المصاحف إلا الورق والمداد.

واختلفوا في هذه السور التي هي القرآن: فقال بعضهم: إنها عبارة جبريل الطَّيِّلا هو الذي ألّفها بإلهام الله (تعالى) له ذلك. وزعم آخرون منهم أن الله (تعالى) خلقها في اللوح المحفوظ، فأخذها جبريل منه.

واحتجوا على كون هذه السور مخلوقة أنها تتعدد، ولا يتعدد إلا المخلوق، لكن هذا الكلام يبطل صفات الله (تعالى) حتى السبعة التي عندهم وهي: السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والحياة والكلام، ولا خلاف في أنها قديمة. وكذلك أسماء الله (تعالى) فإنها متعددة وهم يثبتونها. وقد قال الله (تعالى): ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[سورة الأعراف: ١٨٠].

وكذلك كلمات الله متعددة قال (تعالى): ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [سورة الكهف: ١٠٩].

وكذلك كتب الله: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن متعددة، وهي غير مخلوقة، فإن قالوا: هي مخلوقة، فهو قول المعتزلة الذين اتفقنا هم ونحن على ضلالهم، وأن قولهم كفر.

فمتى قالوا بخلق القرآن وغيره من كتب ا لله (تعالى) فقد قالوا بقول أقروا بكفر صاحبه، وإن قالوا: إنها غير مخلوقة، وهي متعددة، فقد بطل قولهم. وإن قالوا: هي شيء واحد غير متعددة فهذه هي المكابرة، ويجب على هذا أن تكون التوراة هي القرآن والإنجيل والزبور. ويجب عليه ــ أيضاً ـ أن يكون من حفظ آية من القرآن أو من غيره فقد حفظ كل كتب ا لله (تعالى). وأن النبي ﷺ لما أنزل عليه آية من القرآن فقد أنزل عليه جميعه وجميع التوراة والإنجيل والزبور. وهذا خزي على قائله ومكابرة لنفسه.

ويجب عليه ـ أيضاً ـ أن يكون الأمر هو النهي، والإثبات هو النفي، وقصة نوح هي قصة هود ولوط، وأحد الضدين هو الآخر. وهذا قول من لا يستحيي، ويشبه قول السوفسطائية.

وإن قالوا: إن كلام ا لله عز وجل هو هذه الكتب، وإن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن كلام ا لله (تعالى) القديم، لكن لم ينزل منه شيء على الأنبياء، ولاهو شيء يحفظ، ولا يتلى، ولا يسمع، وإنما أُنزل عبارته كذبهم القرآن والسنة وإجماع الأمة، فإنه لا خلاف بين المسلمين كلهم أن القرآن أنزل على محمد ﷺ وأن التوراة أنزلت على موسى والإنجيل على عيسى، والزبور على داود.

فإن قالوا: فكتاب ا لله غير القرآن، قلنا: خالفتم رب العالمين، وخرقتم إجماع المسلمين، وجئتم بما لم يأت به أحد من الملحدين، فإنه لا

خلاف بين المسلمين أن كتاب الله هو القرآن العظيم، المنزل على سيد المرسلين، بلسان عربي مبين.

فإن قالوا: إن هذه الحروف لا تخرج إلا من مخارج وأدوات، فلا يجوز إضافة ذلك إلى الله سبحانه.

فالجواب من عدة وجوه:

أحدها: ما الدليل على أن الحروف لا تكون إلا من مخارج وأدوات؟ فإن قالوا: لأننا لا نقدر على النطق بها إلا من مخارج وأدوات، فكذلك الله رب العالمين. قلنا: هذا قياس لله (تعالى) على خلقه، وتشبيه له بعباده، وإلحاق لصفاتهم بصفاته، وهذا من أقبح الكفر. وقد اتفقنا على أن الله (تعالى) لا يُشَبَّه بخلقه، وأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١].

الثاني: أن هذا باطل بسائر صفات الله (تعالى)؛ فإن العلم لا يكون في حقنا إلا بقلب، والسمع لا يكون إلا من الخراق، والبصر لا يكون إلا من حدقة، والله (تعالى) عالم، سميع بصير، ولا يوصف بذلك.

فإن نفيتم الكلام لافتقاره في زعمكم إلى المخارج والأدوات فيلزمكم نفي سائر الصفات، وإن أثبتم له الصفات ونفيتم عنه الأدوات لزمكم مثل ذلك في الكلام، وإلا فما الفرق بينهما؟!.

الثالث: أن الله (تعالى) أنطق بعض مخلوقاته بغير مخارج، فإنه (تعالى) قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [سورة يس: ٦٥]، وقال (تعالى): ﴿حَتَّى إِذَا

مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة فصلت: ٢٠-٢١]. وأخبر عن السماء والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١]. وأخبر النبي ﷺ أن حجراً كان يسلم عليه(١). وسبَّح الحصى في يديه(٢). فإذا كان قادراً على إنطاق الحجر ونحوه من غير مخارج، فلم لا يكون قادراً على التكلم إلا من المخارج؟!

فإن احتجوا بأن الحروف يدخلها التعاقب، فيسبق بعضها بعضاً، قيل لهم: إن هذا إنما يلزم في حق من يتكلم بالمخارج والأدوات، والله سبحانه لا يوصف بذلك، وعلى أن هذا يعود إلى تشبيه الله (تعالى) بعباده، فإنه لا يتصور في حقه إلا ما يتصور منهم، وهو باطل في نفسه(٣).

---

(١) انظر: صحيح مسلم ١٧٨٢/٤ كتاب الفضائل ـ باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه... ح: ٢٢٧٧، ومسند الإمام أحمد ٨٩/٥ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ٥٥/٢ ح: ٣٣٨،٣٣٩، وانظر: كشف الأستار عن زوائد البزار ١٣٥/٣-١٣٦ -باب تسبيح الحصى ح: ٢٤١٣ قال البزار : لا نعلمه يروى إلا عن سويد، عن أبي ذر وجبير بن نفير وزاد فيه كلاماً، ولا رواه عن سويد إلا الزهري، ولا عنه إلا صالح، وصالح لين الحديث، وقد حدَّث عنه جماعة من أهل العلم . وانظر : مجمع الزوائد ١٧٩/٥ وقال: إسناده صحيح، وانظر : أيضاً ٢٩٩/٨ من مجمع الزوائد، وقال رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف، وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٦٤/٦-٦٥. وانظر فتح الباري ٥٩٢/٦ في جملة الأحاديث التي فيها تسبيح الحصى.

(٣) لفظ التعاقب مجمل في اعتراضات أهل البدع، وهو وارد على معنيين: أحدهما حق، والثاني باطل، أما الحق: فمعناه أن الحروف يسبق بعضها بعضاً في نظم الكلام، فالسين عقب الباء، والميم عقب السين في كلمة (بسم) مثلاً، وهذا التعاقب وارد في كلام الله (تعالى) ، وهو ظاهر في القرآن، وليس فيه دليل على خلق الحروف في كلام الله؛ لأنه (تعالى) يتكلم بمشيئته، فهو يتكلم كلاماً بعد كلام. والثاني: أنه (تعالى) يتكلم على صفة تلكم المخلوق فيدخل في كلامه السكوت لانقطاع النفس وغير ذلك مما هو في صفة تلكم المخلوق، وهذا باطل لم يقل به أحد من أهل السنة. انظر : حاشية رسالة المقدسي(حكاية المناظرة في القرآن) ص : ٢٥ من كلام المحقق.

فإن قالوا: فما دليلكم على أن هذه السور المشتملة على الحروف قرآن؟ قلنا: كتاب الله (تعالى) وسنة نبيه ﷺ، وإجماع الأمة؛ أما الكتاب فنصوصه كثيرة، منها قوله (تعالى): ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٨] فأشار إلى حاضر، وتحداهم بالإتيان بمثله، ولا يجوز التحدي بما لا يُعلم ولا يُدرى ما هو.

وقال (تعالى): ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [سورة يونس: ١٥] وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [سورة الأنفال: ٣١] وقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزخرف: ٣١] فأخبر (تعالى) أنهم طلبوا منه الإتيان بغيره، أو تبديله، ومرة أنهم ادعوا القدرة على أن يقولوا مثله، ومرة قالوا: لولا أنزل على غيره، فُعلم يقيناً أنه هذا الموجود عندنا الذي هو سور وآيات، وحروف وكلمات.

وقال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [سورة الإسراء:٨٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [سورة الإسراء:٤١] وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الزمر: ٢٧-٢٨] وهذه إشارة إلى حاضر،

والذي صرفت فيه الأمثال إنما هو هذا القرآن العربي الذي يعرفه الناس قرآناً، وسمَّاه الله (تعالى) عربياً، وهذا إنما يوصف به النظم الذي هو حروف، دون ما لا يعرف ولا يدرى ما هو.

وقال النبي ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو حبل الله (تعالى) هو النور المبين، والشفاء الناقع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، لا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما أني لا أقول: " الم " حرف، ولكن في الألف عشر، وفي اللام عشر، وفي الميم عشر»[1].

والأمة مجمعة على أن هذا هو القرآن الذي لا تصح الصلاة إلا به.

ولما اختلف أهل الحق والمعتزلة، فقال أهل الحق: القرآن كلام الله غير مخلوق، وقالت المعتزلة: هو مخلوق، لم يكن اختلافهم في هذا الموجود دون ما في نفس البارئ مما لا يُدرى ماهو ولا نعرفه.

ولما أمر الله بترتيل القرآن بقوله سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[سورة المزمل: ٤] لم يفهم المسلمون إلا هذا الموجود.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/٤٨٢-٤٨٣ كتاب فضائل القرآن ح : ١٠٠٥٦ من حديث علي رضي الله عنه، وعبد الرزاق في المصنف ٣/٣٧٥-٣٧٦ ح : ٦٠١٧ من حديث ابن مسعود ، والحاكم في المستدرك ١/٥٥٥ كتاب فضائل القرآن وقال : حديث صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بقوله : إبراهيم بن مسلم ضعيف، والدارمي في سننه ٢/٤٣١ كتاب فضائل القرآن ـ باب فضل من قرأ القرآن .

ولما قال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [سورة المدثر: ٢٥] إنما أشار إلى هذا النظم فتوعده الله عز وجل، فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [سورة المدثر: ٢٦].

ولو لم يكن هذا النظم قرآناً، لوجب أن تبطل الصلاة به؛ لأن النبي ﷺ قال: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[1].

فعلى قولهم يكون القرآن الذي لا تصح الصلاة إلا به مبطلاً لها؛ لأنه ليس بقرآن، وإنما هو تصنيف جبريل، وهذه فضيحة لم يسبقوا إليها.

وهو هذا القرآن الذي أجمع عليه المسلمون، وكفر به الكافرون، وزعمت المعتزلة أنه مخلوق، وأقر الأشعري أنهم مخطئون، ثم عاد فقال: هو مخلوق وليس بقرآن، فزاد عليهم، حيث إن المعتزلة يقولون لهذا اللفظ العربي كلام الله، والأشعرية تقول: بل هو عبارة عنه.

ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن من جحد آية أو كلمة منه متفقاً عليها، أو حرفاً متفقاً عليه أنه كافر.

ولا خلاف بين المسلمين كلهم في أنهم يقولون: قال الله كذا، إذا أرادوا أن يخبروا عن آية أو يستشهدوا بكلمة من القرآن، ويقرون كلهم بأن هذا قول الله، وعند الأشعرية ليس هذا قول الله وإنما هو قول جبريل، فكان ينبغي لهم أن يقولوا: قال جبريل أو قال النبي ﷺ إذا حكوا آية.

---

(١) انظر: صحيح مسلم ١/٣٨١-٣٨٢ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب تحريم الكلام في الصلاة... ح: ٥٣٧، ومسند الإمام أحمد ٥/٤٤٧،٤٤٨.

وقال المقدسي: «ولقد حكيت عن الذي جرت المناظرة بيني وبينه بعض ما قاله، فنُقل إليه ذلك، فغضب وشقَّ عليه، وهو من أكبر ولاة البلد، وما أفصح لي بمقالته حتى خلوت معه، وقال: أريد أن أقول لك أقصى ما في نفسي، وتقول لي أقصى ما في نفسك، وصرح لي بمقالتهم على ما حكيناه عنهم، ولما ألزمته بعض الآيات الدالة على أن القرآن هو هذه السور قال: وأنا أقول: إن هذا قرآن، ولكن ليس هو القرآن القديم. قلت: ولنا قرآنان؟ قال: نعم، وأي شيء يكون إذا كان لنا قرآنان؟ ثم غضب لما حكيت عنه هذا القول.

وقال له بعض أصحابنا: أنتم ولاة الأمر وأرباب الدولة، فما الذي يمنعكم من إظهار مقالتكم لعامة الناس، ودعاء الناس إلى القول بها بينهم؟ فبهت، و لم يجب إليه».

فإن قالوا: فكيف قلتم: إن القرآن حروف، و لم يرد في كتاب ولا سنة، ولا عن أحد الأئمة؟ قلنا: قد ثبت أن القرآن هو هذه السور والآيات، ولا خلاف بين العقلاء كلهم: مسلمهم وكافرهم في أنها حروف. ولا يختلف عاقلان في أن الحمد خمسة أحرف. واتفق المسلمون كلهم على أن سورة الفاتحة سبع آيات، واختلفوا في أن ﴿بسم الله الرَّحمن الرحيم﴾ هل هي آية منها أم لا، واتفقوا كلهم على أنها كلمات وحروف.

وقد افتتح الله (تعالى) كثيراً من سور القرآن بالحروف المقطعة مثل: ﴿الم﴾ و﴿ الر﴾ ولا يجحد عاقل كونها حروفاً إلا على سبيل المكابرة. هذا أمر غير خاف على أحد، فلا حاجة إلى الدليل عليه.

فإن قالوا: لا يسوغ لكم أن تقولوا: لم ترد في كتاب ولا في سنة، وإن كان معناها صحيحاً ثابتاً. قلنا: هذا خطأ، فإنه لا خلاف في أنه يجوز أن يقال: إن القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وإن سورة البقرة مائتان وست وثمانون آية، وفي عد آية سور القرآن وأحزابه وأسباعه وأعشاره، ولم يرد لفظ ذلك في كتاب ولا سنة.

على أن لفظ الحرف قد جاءت به السنة، وأقوال الصحابة، وإجماع الأمة؛ فقال النبي ﷺ : «أنزل القرآن على سبعة أحرف»[1]. وقال أبوبكر وعمر رضي الله عنهما: «إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه»[2].

وقال الحسن البصري: قراء القرآن ثلاثة: ... فقوم حفظوا حروفه وضيعوا حدوده.

واتفق أهل الأمصار من أهل الحجاز والعراق والشام على عد حروف القرآن، فعدها كل أهل مصر، وقالوا: عددها كذا وكذا.

وقالوا أيضاً: قد قلتم: إن الله يتكلم بصوت، ولم يأت به كتاب ولا سنة. قلنا: بل قد ورد به الكتاب والسنة وإجماع أهل الحق.

---

(١) انظر : صحيح البخاري ٢٣/٩ كتاب فضائل القرآن ـ باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ح : ٤٩٩٢، وصحيح مسلم ٥٦٠/١ كتاب صلاة المسافرين ـ باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف... ح: ٨١٨.

(٢) أخرجه ابن الأنباري بلفظ مقارب في إيضاح الوقف والابتداء ٢٠/١ ح : ١٦

أما الكتاب فقول الله (تعالى): ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[سورة النساء: ١٦٤]، وقوله (تعالى): ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾[سورة البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾[سورة الشعراء: ١٠] ولا خلاف بيننا أن موسى سمع كلام الله من الله بغير واسطة، ولا يسمع إلا الصوت، فإن الصوت هو ما يتأتى سماعه.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يجمع الخلائق فيناديهم بصوت يسمع من بعد كما يسمع من قرب: أنا الملك أنا الديان»[1].

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء»[2]. قال أبو نصر السجزي رحمه الله: وهذا الخبر ليس في رواته إلا إمام مقبول، وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

فإن قالوا: فالصوت لا يكون إلا من هواء بين جرمين. قلنا: هذا من الهذيان الذي أجبنا عن مثله في الحرف، وقلنا: إن هذا قياس منهم لربنا تبارك وتعالى على خلقه، وتشبيه له بعباده، وحكم عليه بأنه لا تكون صفته إلا كصفات مخلوقاته، وهذا ضلال بعيد. ثم إنه يلزمهم مثل هذا في سائر الصفات على ما أسلفناه.

---

(١) رواه البخاري معلقاً في صحيحه ١٣/٤٥٣ كتاب التوحيد ـ باب قوله الله تعالى : ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له. . . ﴾ ، وفي كتاب الأدب المفرد ص : ٤٢٨-٤٢٩ باب المعانقة ح : ٩٧٠، والإمام أحمد في مسنده ٣/٤٩٥ .

(٢) انظر : صحيح البخاري ١٣/٤٥٢-٤٥٣ كتاب التوحيد ذكره في ترجمة الباب معلقاً، ووصله أبوداود في سننه ٥/١٠٥-١٠٦ كتاب السنة ـ باب في القرآن ح : ٤٧٣٨.

فإذا قال الأشعرية: القرآن مقروء متلو محفوظ مكتوب مسموع، والقرآن في نفس الباريء قائم به ليس هو سوراً ولا آيات، ولا حروفاً ولا كلمات. قيل لهم: فكيف يتصور إذاً قراءته وسماعه وكتابته؟

وإذا قالوا: إن موسى سمع كلام الله من الله لكن ليس بصوت، وإن القرآن مكتوب في المصاحف، لكن ليس فيها إلا الحبر والورق. قيل لهم: فإن كانت كما زعمتم فلم لا يمسها إلا المطهرون، وما رأينا المحدث يمنع من مس حبر ولا ورق، ولم تجب الكفارة على الحالف بالمصحف إذا حنث؟ لأنه على قولهم يكون قد حلف بمخلوق.

ومن قال: إنه ليس في المصحف إلا الحبر والورق، لزمه التسوية بين المصحف وبين ديوان ابن الحجاج؛ لأنه إذا لم يكن بين كل واحد منهما غير الحبر والورق فقد تساويا، فيجب تساويهما في الحكم.

فإن قالوا: إنما وجبت الكفارة على الحالف لاعتقاد العامة أن فيه كلام الله. قيل: هذه غفلة منكم، فإن هذا الحكم من لدن النبي ﷺ لم يتجدد الآن -يعني كون القرآن كلام الله بين دفتي المصحف-.

فإن أقروا أن عامة أهل عصر النبي ﷺ وصحابته كانوا يعتقدون أن فيه كلام الله (تعالى)، وأقرهم عليه النبي ﷺ وصوبهم فيه، فهو الحق الذي لا شك فيه ولا يحل خلافه.

وإن قالوا: إنهم كانوا يعتقدون ذلك، ولم يعلم بهم النبي ﷺ. قيل: كيف علم ذلك هؤلاء المبتدعة، بل كيف علموا من أحوال أصحاب النبي ﷺ ومن اعتقاداتهم ما يخفى على رسول الله ﷺ وهو بين أظهرهم، وعنه يأخذون وإليه يرجعون، وبه يقتدون وعنه يصدرون.

ثم هل كانوا مصيبين في اعتقادهم أو مخطئين؟ فإن كانوا مخطئين فقد اعتقدوا أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا ضُلالاً، ومَنْ بعدهم، وأنهم هم أصابوا بمخالفتهم.

وكيف يجوز أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ اتفقوا على اعتقاد الخطأ والضلال والباطل، وأخطأوا الحق، وتبعهم من بعدهم على ذلك، إلى أن جاء هؤلاء الجهال فعرفوا الصواب، وعرفوا خطأ من كان قبلهم؟!

ثم هذا إقرار بأن مقالتهم بدعة حادثة، خالفوا بها أصحاب الرسول ﷺ والتابعين بعدهم.

المناظرة في رؤية الله (تعالى)

رؤية الله (تعالى) عند أهل السنة ممكنة في الدنيا وإن لم تقع لأحد من الناس، أما رؤية النبي ﷺ ربه حين عرج به إلى السماء، فالصحيح أنه لم يره بعين رأسه، بل حال وبينه وبين ذلك حجاب النور، وقيل: رآه بقلبه لا بعين رأسه، وعلى فرض أنه رآه بعين رأسه، فتلك حالة خاصة أقرب إلى أحوال الآخرة منها إلى أحوال الدنيا، والمعتزلة يمنعون الرؤية بالأبصار في الدارين[1].

قال النقاش في تفسيره[2]: قيل لابن عباس: أليس الله قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٣] قال: أليس ترى السماء؟ قال: بلى. قال: أفكلها ترى؟. ففسر الإدراك في الآية بمعنى الإحاطة، لا بمعنى الرؤية.

---

(١) انظر : شرح الطحاوية ٢٠٧/١ وما بعدها .

(٢) ذكره في عيون المناظرات ص : ١٨٧ .

وقال سفيان بن عيينة في شأن بشر بن غياث المريسي، وإنكاره الرؤية: قاتل الله الدويبة، ألم تسمع إلى قوله (تعالى): ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: ١٥] فإذا احتجب عن الأولياء والأعداء، فأي فضل للأولياء على الأعداء[١].

وقال الربيع بن سليمان: حضرتُ محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقول في قول الله (تبارك وتعالى): ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: ١٥] ؟ قال الشافعي: فلما أن حجبوا هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أنهم يرونه في الرضا.

قال الربيع: قلت: يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم، وبه أدين الله، لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه لما عبد الله (تعالى)[٢].

وقال الشافعي أيضاً: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل[٣].

وروى اللالكائي عن زكريا بن يحيى بن حمدويه قال: سمعت رفيق نُعيم بن حماد يقول: لما صرنا إلى العراق، وحبس نعيم بن حماد، دخل عليه رجل في السجن من هؤلاء، فقال لنعيم: أليس الله قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٢/٨ .

(٢) شرح السنة ٥٠٦/٣ برقم : ٨٨٣ ، وانظر : طبقات الشافعية ـ السبكي ٨١/٢

(٣) تفسير ابن كثير ٤٥١/٤.

الْأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبصَارَ﴾[سورة الأنعام: ١٠٣]. فقال نعيم: بلى، ذاك في الدنيا. قال: وما دليلك؟ فقال نعيم: إن الله هو البقاء، وخلق الخلق للفناء، فلا يستطيعون أن ينظروا بأبصار الفناء إلى البقاء، فإذا جدد لهم خلق البقاء فنظروا بأبصار البقاء إلى البقاء[1].

مناظرة الإمام مالك الجهمية في رؤية الله تعالى:

قال القاضي عياض[2] في سيرة الإمام مالك: قال ابن نافع وأشهب ــ وأحدهما يزيد على الآخر ـ قلت: يا أبا عبد الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[سورة القيامة: ٢٢-٢٣] ينظرون إلى الله؟ قال: نعم، بأعينهم هاتين. فقلت له: فإن قوماً يقولون: لا يُنظر إلى الله، إن ناظرة بمعنى منتظرة إلى الثواب. قال: كذبوا، بل ينظر إلى الله، أما سمعت قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٣] أفترى موسى سأل ربه محالاً؟ فقال الله: ﴿لن تراني﴾ في الدنيا؛ لأنها دار فناء، ولا ينظر ما بقي بما يفنى، فإذا صاروا إلى دار البقاء، نظروا بما بقي إلى ما بقي. وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: ١٥].

---

(١) شرح السنة ٥٠٨/٣ برقم: ٨٩٠ .

(٢) ترتيب المدارك ١٧٢/١-١٧٣، وانظر: الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة ـ لابن عبد البر ص: ٣٦، وسير أعلام النبلاء ٩١/٨ .

مناظرة الإمام أحمد للجهمية في الرؤية:

قال أحمد رحمه الله: فقلنا لهم: لم أنكرتم أن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم فقالوا: لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى ربه؛ لأن المنظور إليه معلوم موصوف لا يُرى، إلا شيء يفعله. فقلنا لهم: أليس الله يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ٢٢-٢٣]؟ فقالوا: إن معنى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أنها تنتظر الثواب من ربها، وإنما ينظرون إلى فعله وقدرته، وتلوا آية من القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان: ٤٥].

فقالوا: إنه حين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ [سورة الفرقان: ٤٥] أنهم لم يروا ربهم، ولكن المعنى ألم تر إلى فعل ربك، فقلنا: إن فعل الله لم يزل العباد يرونه، وإنما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ٢٢-٢٣] فقالوا: إنما [تنتظر][١] الثواب من ربها.

فقلنا: إنها مع ما تنتظر الثواب هي ترى ربها. فقالوا: إن الله لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، وتلوا آية من المتشابه من قول الله (جل ثناؤه): ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٣] وقد كان النبي ﷺ يعرف معنى قول الله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ وقال: «إنكم سترون ربكم»[٢]. وقال لموسى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [سورة الأعراف: ١٤٣] و لم يقل: لن أرى،

---

(١) في الأصل [تنظر] ولعلّ الصواب ما أثبته.

(٢) انظر : صحيح البخاري ٤١٩/١٣ كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى: ﴿﴾ [سورة القيامة: ٢٣] ح: ٧٤٣٤، وصحيح مسلم ١٦٣/١ وما بعدها ـ كتاب الإيمان ــ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ح: ١٨٢ وما بعده .

فأيهما أولى أن نتبع النبي ﷺ حين قال: إنكم سترون ربكم. أو قول الجهمي حين قال: لا ترون ربكم. والأحاديث في أيدي أهل العلم عن النبي ﷺ أن أهل الجنة يرون ربهم لا يختلف فيها أهل العلم....

وإنا لنرجوا أن يكون الجهم وشيعته ممن لا ينظرون إلى ربهم ويحجبون عن الله؛ لأن الله قال للكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[سورة المطففين: ١٥] فإذا كان الكافر يحجب عن الله، والمؤمن يحجب عن الله، فما فضل المؤمن على الكافر؟![١].

مناظرة أخرى:

قال الحسين بن فهم: حدثني أبي قال: قال ابن أبي دؤاد للمعتصم: يا أمير المؤمنين، هذا يزعم - يعني أحمد بن حنبل- أن الله يرى في الآخرة، والعين لا تقع إلا على محدود، والله لا يحد، فقال: ما عندك ؟ قال: يا أمير المؤمنين عندي ما قاله رسول الله ﷺ . قال: وما هو؟ قال: حدثني غُنْدَر، حدثنا شعبة عن إسماعيل عن قيس عن جرير قال: "كنا مع النبي ﷺ في ليلة أربع عشرة، فنظر إلى البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا البدر، لا تضامون في رؤيته"[٢].

---

(١) انظر : الرد على الجهمية والزنادقة ـ أحمد بن حنبل ص : ١٢٧-١٢٩

(٢) انظر : صحيح البخاري ٥٢/٢ كتاب مواقيت الصلاة ـ باب فضل صلاة الفجر ح: ٥٧٣، و٤١٩/١٣ وما بعدها ـ كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة﴾ ح : ٧٤٣٤-٧٤٣٩ ، وصحيح مسلم ٤٣٩/١-٤٤٠ كتاب المساجد ـ باب فضل صلاتي الصبح والعصر ح : ٦٣٣ والذي يليه ، ومسند الإمام أحمد ٣٦٠/٤ .

فقال لابن أبي دؤاد: ما تقول؟ قال: أنظر في إسناد هذا الحديث، ثم انصرف. فوجَّه إلى علي بن المديني، وعلي ببغداد مُمْلِقٌ، ما يقدر على درهم، فأحضره، فما كلمه بشيء حتى وصله بعشرة آلاف درهم، وقال: هذه وصلك بها أمير المؤمنين، وأمر أن يدفع إليه جميع ما استحق من أرزاقه. وكان له رزق سنتين. ثم قال له: يا أبا الحسن حديث جرير بن عبد الله في الرؤية ما هو؟ قال: صحيح. قال: فهل عندك عنه شيء؟ قال: يعفيني القاضي من هذا. قال: هذه حاجة الدهر. ثم أمر له بثياب وطيب ومركب بسرجه ولجامه. ولم يزل حتى قال له: في هذا الإسناد من لا يُعْمل عليه، ولا على ما يرويه، وهو قيس بن أبي حازم إنما كان أعرابياً بوَّالاً على عقبيه. فقبَّل ابن أبي دؤاد عليَّاً واعتنقه. فلما كان الغد وحضروا قال ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين: يحتج في الرؤية بحديث جرير، وإنما رواه عنه قيس وهو أعرابي بوَّال على عقبيه؟ قال: فقال أحمد بعد ذلك: فحين أَطْلَعَ لي هذا، علمتُ أنه من عمل علي بن المديني، فكان هذا وأشباهه من أوكد الأمور في ضربه.

قال الذهبي: ثم قال الخطيب: «أما ما حكي عن علي في هذا الخبر من أنه لا يعمل على ما يرويه قيس، فهو باطل، قد نزه الله علياً عن قول ذلك؛ لأن أهل الأثر وفيهم علي، مجمعون على الاحتجاج برواية قيس وتصحيحها، إذ كان من كبراء تابعي أهل الكوفة، وليس في التابعين من أدرك العشرة، وروى عنهم غير قيس، مع روايته عن خلق من الصحابة.

إلى أن قال: فإن كان هذا محفوظاً عن ابن فهم، فأحسب أن ابن أبي دؤاد تكلم في قيس بما ذكر في الحديث، وعزا ذلك إلى ابن المديني. والله أعلم».

قال الذهبي: «قلت: إن صحت الحكاية فلعلَّ عليّاً قال في قيس ما عنده عن يحيى القطان، أنه قال: هو منكر الحديث، ثم سمى له أحاديث استنكرها، فلم يصنع شيئاً، بل هي ثابتة، فلا يُنكر له التفرد في سعة ما روى، من ذلك حديث كلاب الحوأب[1]، وقد كاد قيس أن يكون صحابياً، أسلم في حياة رسول الله ﷺ ثم هاجر إليه فما أدركه، بل قدم المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ بليال. وقد قال يحيى بن معين فيما نقله عنه معاوية بن صالح: كان قيس بن أبي حازم أوثق من الزهري.

نعم، ورؤية الله (تعالى) في الآخرة منقولة عن النبي ﷺ نقل تواتر، فنعوذ بالله من الهوى، ورد النص بالرأي»[2].

المناظرة في الإيمان

الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل واعتقاد، وهو يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وخالفهم في ذلك المرجئة

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥٢/٦، ٩٧ ، وابن حبان (موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان) ص : ٤٥٣-٤٥٤ كتاب الفتن ـ باب في وقعة الجمل ح : ١٨٣١ ، والحاكم في المستدرك ١٢٠/٣ ، وانظر فتح الباري ٤٥/١٣ . والحوأب من مياه العرب على طريق البصرة. انظر : معجم البلدان ٣٦٠/٢ رقم : ٣٩٧٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٢/١١-٥٤. وانظر القصة في تأريخ بغداد ٤٦٦/١١-٤٦٧ ترجمة: ٦٣٤٩.

بمختلف طوائفهم، حيث أخرجوا الأعمال عن مسمَّى الإيمان، وأنه لا يزيد ولا ينقص، بل الناس فيه سواء، قال ابن أبي مليكة: «لقد أتى علي برهة من الدهر، وما أراني أُدرك قوماً يقول أحدهم: إني مؤمن مستكمل الإيمان، ثم ما رضي حتى قال: إن على إيماني جبريل وميكائيل، ثم ما زال بهم الشيطان حتى قال أحدهم : إنه مؤمن وإن نكح أمه وأخته وابنته، ولقد أدركت كذا وكذا من أصحاب النبي ﷺ ما مات رجل منهم إلا وهو يخشى على نفسه النفاق»[1].

وفي المقابل قالت الخوارج والمعتزلة بدخول الأعمال في مسمى الإيمان وجعله شرطاً في صحته، ولهذا قال الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة، وتخليده في النار، وقالت المعتزلة إنه في منزلة بين المنزلتين، وإذا مات من غير توبة خلد في النار.

ومن المناظرات التي جرت بين أهل السنة والمرجئة:

قيل: إن سُنِّيّاً ناظر مرجئياً فقال السني: أُوتي النبي ﷺ بمرجئي فأمر بقتله فقال له المرجئ: وأين كان الإرجاء في عهد رسول الله ﷺ ؟! فقال له السني: فمن أين أتيتم به؟ أي فهو بدعة، فقال له المرجئ: فبماذا استجزت هذا الكلام؟ قال: بقصة: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[سورة الأنبياء: ٦٣] أي إن كانوا فاعلين على زعمهم فهذا فعل، لكنهم ليسوا بفاعلين فلم يفعل، فتحقق نفي اقتدارهم فبطلت آلهتهم، وكذلك إن كان الإرجاء ديناً وسنة

---

(١) شرح السنة ٥/٩٥٥ برقم : ١٧٣٣، والجملة الأخيرة رواها البخاري معلقة في صحيحه ١/١٠٩ كتاب الإيمان ـ باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله...

فكان في عهد رسول الله ﷺ، لكنه لم يكن حينئذ، فليس بدين ولا سنة[١].

المناظرة في دخول الأعمال في مسمّى الإيمان:

قال ابن حزم رحمه الله: نقول لهم: أخبرونا عن أهل النار المخلدين فيها الذين ماتوا على الكفر، أهم حين كونهم في النار عارفون بقلوبهم صحة التوحيد والنبوة الذي بجحدهم لكل ذلك أدخلوا النار؟ وهل هم حينئذ مقرون بذلك بألسنتهم أم لا؟ ولا بد من أحدهما.

فإن قالوا: هم عارفون بكل ذلك مقرون به بألسنتهم وقلوبهم. قلنا: إنهم مؤمنون أو غير مؤمنين؟ فإن قالوا: هم غير مؤمنين. قلنا: قد تركتم قولكم: إن الإيمان هو المعرفة بالقلب، أو الإقرار باللسان فقط، أو كلاهما فقط.

فإن قالوا: هذا حكم الآخرة. قلنا لهم: فإذا جوزتم نقل الأسماء عن موضعها في اللغة في الآخرة فمن أين منعتم من ذلك في الدنيا، ولم تجوزوه لله عز وجل فيها؟! وليس في الحماقة أكثر من هذا.

وإن قالوا: بل هم مؤمنون. قلنا لهم: فالنار إذن أعدت للمؤمنين، لا للكافرين وهي دار المؤمنين، وهذا خلاف القرآن والسنن وإجماع أهل الإسلام المتيقن.

وإن قالوا: بل هم غير عارفين التوحيد، ولا بصحة النبوة في حال كونهم في النار، أكذبتهم نصوص القرآن، وكذّبوا ربهم عز وجل في

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٩٤ .

إخباره أنهم عارفون بكل ذلك، هاتفون به بألسنتهم، راغبون في الرجعة والإقامة، نادمون على ما سلف منهم، وكذبوا نصوص المعقول وجاهروا بالمحال؛ إذ جعلوا مَنْ شاهد القيامة والجزاء غير عارف بصحة ذلك[١].

وذكر الملطي رحمه الله طريقة أخرى في مناظرتهم:

ينبغي أن يقول لهم: أخبرونا عن الإيمان ما هو؟ فإن قالوا: لا ندري. سقطت مواربة كلامهم، وصاروا بمنزلة من يقول الشيء على الجهل،والجاهل لا حجة له.

وإن قالوا: الإيمان هو الإقرار فقد صدقوا، يقال لهم: فالإقرار يكون باللسان أو بالقلب؟ فإن قالوا: باللسان فقط، يقال لهم: فالمنافقون الذين أقروا بألسنتهم، وأسرُّوا الشرك، أهو شيء صح لهم الإيمان إذا أقروا بألسنتهم، والإيمان عندكم الإقرار باللسان؟!.

فإن قالوا: هؤلاء أقروا بألسنتهم وأسرُّوا هذه فلم يصح إيمانهم، نقضوا قولهم؛ لأنهم قد اعترفوا أن القول باللسان لا يصح إلا مع إقرار بالقلب. وإن شك القلب ببعض إقرار اللسان، فيجب عليهم حينئذ أن يقولوا: الإيمان قول باللسان وإقرار بالقلب، والإقرار بالقلب عمل، بل هو أصل كل الأعمال التي بالجوارح؛ لأن الجوارح عن القلب تصدر، وإذا كان كذلك فقد وجب أن يقولوا: إن الإيمان قول وعمل، وينقضوا أصلهم أن الإيمان قول وعمل.

---

(١) انظر : الفصل ٣/٢٥١-٢٥٢.

وأيضاً إذا أقروا أن الإيمان قول باللسان وتصديق بالقلب لزمهم أن يقولوا وعمل بالجوارح، فإن أبوا أن يقولوا ذلك، رُدوا إلى الكلام الأول فبان جهلهم، وإن أجازوا ذلك تركوا قولهم وقالوا: الإيمان قول باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد وينقص، وهذا هو الحق الذي لا يجوز غيره[(١)].

ويقال لهم أيضاً: أخبرونا، أفترض الله على عباده فرائض فيها أمر ونهي، فإن قالوا: لا، جهلوا وكابروا. وإن قالوا: نعم، قيل لهم: فما تقولون فيمن أدى إلى الله ما أمر به وانتهى عما نهاه؟ أهو كمن عصاه في أمره ونهيه؟ فإن قالوا: هما سواء عند الله وعندنا، جعلوا المعصية كالطاعة، والطاعة كالمعصية، وهذا جهل وكفر ممن قاله. وإن قالوا: الطاعة غير المعصية، وليس من أطاع الله في أمره ونهيه كمن عصاه، تركوا قولهم وقالوا بالحق[(٢)].

وهذا من لوازم مذهب المرجئة: أنه لا فرق بين الطاعة والمعصية، ولا فرق بين المطيع والعاصي، والبر والفاجر، وهذا يقتضي تعطيل الشرائع والأديان لعدم جدواها، وهو ظاهر الفساد.

ثم قال الملطي رحمه الله: ويقال لهم: أخبرونا عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[سورة الجاثية: ٢١] وقوله (تعالى): ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

(١) انظر: التنبيه والرد ص:٤٤.

(٢) انظر: المرجع السابق ص:٤٥.

يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤] أهذا شيء قالـه على حقيقة القول أم على المجاز؟ فإن قالوا: على المجـاز جعلـوا إخبـار ا لله عـن وعده على المجاز، وهذا كفر ممن قاله؛ لأن أحداً لا يتيقن حينئذ بخبره، إذا لم يكن له حقيقة وصحة، وإن قالوا: على الحقيقـة يقـال لهـم: أخـبر ا لله عز وجل أنه لا يستوي عنده الولي والعدو[(١)].

وقال رحمه ا لله أيضاً: ويقال لهم أيضاً: أخبرونا عمن زنا وأتـى شـيئا من الكبائر أترون عليه التوبة أم لا؟ فإن قالوا. لا، بان جهلهم، وإن قالوا: نعم، قيل لهم : لأي شيء يتوب؟ فإن قالوا: يقبل ا لله توبته ويغفـر ذنبـه، تركوا قولهم وجعلوا لأهل المعاصي توبة وغفراناً مما اجترموا.

وإن قالوا: لا يحتاجون إلى غفران ولا توبة عليهم، خرجـوا مـن ديـن الإسلام وخالفوا الجماعة[(٢)].

وقال معقل بن عبيد ا لله العبسي (١٦٦هـ): قدم علينا سالم الأفطـس (١٣٢هـ) بالإرجـاء، فعرضـه، فنفـر منـه أصحابنـا نفـاراً شـديداً، وكـان أشدهم ميمون بن مهران، وعبد الكريم بن مـالك (١٢٧هــ)، فأمـا عبـد الكريم فإنه عـاهد ا لله لا يأويـه وإيـاه سـقف بيـت إلا في المسـجد، قـال معقل: فحججت فدخلت على عطاء بن أبي رباح في نفر مـن أصحـابي، قال: فإذا هو يقرأ سورة يوسف قال: فسمعته قرأ هذا الحـرف: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ [سورة يوسف: ١١٠] مخففة، قال: قلـت: إن لنـا

---

(١) انظر : التنبيه والرد ص : ٤٥.

(٢) انظر : المرجع السابق ص : ٤٥.

إليك حاجة، فاخل لنا، ففعل، فأخبرته أن قوماً قِبَلنا قد أحدثوا وتكلموا وقالوا: إن الصلاة والزكاة ليستا من الدين. قال: فقال: أو ليس يقول الله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [سورة البينة: ٥] فالصلاة والزكاة من الدين. قال:فقلت له: إنهم يقولون: ليس في الإيمان زيادة. قال: أو ليس قد قال الله فيما أنزله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣] فما هذا الإيمان الذي زادهم؟ قال: قلت: فإنهم قد انتحلوك، وبلغني أن ذراً دخل عليك وأصحابه، فعرضوا عليك قولهم فقبلته، وقلت هذا الأمر،فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو ما كان هذا ـ مرتين أو ثلاثاً ـ قال: ثم قدمت المدينة فجلست إلى نافع، فقلت له: يا أبا عبد الله، إن لي إليك حاجة، قال: أسر أم علانية؟ فقلت: لا بل سر. قال رب سر لا خير فيه، فقلت له: ليس من ذلك، فلما صلينا العصر قام، وأخذ بيدي وخرج من الخوخة ولم ينتظر القاص، فقال: ما حاجتك؟ قال: قلت: أخلني من هذا. قال: تنح يا عمرو. قال فذكرت له بدوّ قولهم، فقال: قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أضربهم بالسيف حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا [بحقه][1] وحسابهم على الله[2]. قال: قلت: إنهم يقولون: نحن نقر بأن الصلاة

---

(١) هكذا في السنة لعبد الله بن أحمد ، وفي كتاب شرح السنة للالكائي : [فيها] .

(٢) انظر: صحيح البخاري ٧٥/١ كتاب الإيمان ـ باب ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ ح: ٢٥، وصحيح مسلم ٥١/١-٥٣ كتاب الإيمان ـ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ...ح: ٢٠ وما بعده .

فريضة، ولا نصلي، وأن الخمر حرام ونشربها، وأن نكاح الأمهات حرام ونحن نفعل، قال: فنتر يده من يدي، وقال: من فعل هذا فهو كافر[(١)].

وروى ابن بطة بسنده إلى مبارك بن حسان السلمي قال: قلت لسالم الأفطس: رجل أطاع الله فلم يعصه، ورجل عصى الله فلم يطعه، فصار المطيع إلى الله، فأدخله الجنة، وصار العاصي إلى الله فأدخله النار، هل يتفاضلان في الإيمان؟ قال: لا. فذكرت ذلك لعطاء، فقال: سلهم: الإيمان طيب أو خبيث، فإن الله قال: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٧]. قال: فسألتهم فلم يجيبوني. فقال سالم: إنما الإيمان منطق، ليس معه عمل، فذكرت ذلك لعطاء. فقال سبحان الله أما تقرءون الآية التي في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[سورة البقرة: ١٧٧].

ثم وصف الله على هذا الاسم العمل فألزمه، فقال: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[سورة البقرة: ١٧٧].

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد ص: ١١٧-١١٨، وانظر: الإبانة ـ ابن بطة ٨٠٨/٢-٨١٠ رقم: ١١٠١، وشرح السنة ٩٥٣/٥-٩٥٤ رقم: ١٧٣٢ .

قال سلهم: هل دخل هذا العمل في هذا الاسم؟ فقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [سورة الإسراء: ١٩] فألزم الاسم العمل وألزم العمل الاسم[١].

وروى اللالكائي[٢] بسنده إلى موسى بن عمران قال: استأذن شريك على المهدي وعنده أبو يوسف القاضي وامتريا، فقال المهدي: الصلاة من الإيمان. وقال أبو يوسف: الصلاة ليست من الإيمان. واستأذن شريك فقال المهدي: قد جاء من يفصل بيننا. قال: فلما دخل سلم، قال: فرد عليه، فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في رجلين امتريا، فقال أحدهما: الصلاة من الإيمان، وقال الآخر: الصلاة من العمل. قال: أصاب الذي قال: الصلاة من الإيمان، وأخطأ الذي قال الصلاة من العمل، قال: فقال أبو يوسف: من أين قلت ذي؟! فقال: حدثني أبو إسحاق عن البراء بن عازب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣] قال: صلاتكم نحو بيت المقدس. قال: فألقمه حجراً.

المناظرة في زيادة الإيمان ونقصانه:

روى الذهبي[٣] في ترجمة مجاهد بن جبر رحمه الله أن ابنه عبد الوهاب قال: كنت عند أبي فجاء ولده يعقوب، فقال: يا أبتاه، إن لنا

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٨٩٧-٨٩٨ .

(٢) شرح السنة ٤/٨١٨ رقم : ١٥٠٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/٤٥٥ .

أصحاباً يزعمون أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد. فقال: يا بني ما هؤلاء بأصحابي، لا يجعل الله من هو منغمس في الخطايا كمن لا ذنب له.

وروى الذهبي[١] أيضاً عن ميمون بن مهران أنه قال: خاصمه رجل في الإرجاء، فبينما هما على ذلك إذ سمعا امرأة تغني، فقال ميمون: أين إيمان هذه من إيمان مريم بنت عمران؟! فانصرف الرجل و لم يرد عليه.

وقال الحميدي حدثنا يحيى بن سليم أن سعيد بن سالم (١٩٠هـ) قال لابن عجلان (١٤٨هـ): أرأيت إن أنا لم أرفع الأذى عن الطريق، أكون ناقص الإيمان؟ فقال: هذا مرجئ، من يعرف هذا؟ قال: فلما قمنا، عاتبته، فرد علي القول، فقلت: هل لك أن تقف فتقول: يا أهل الطواف إن طوافكم ليس من الإيمان، وأقول أنا: بل هو من الإيمان فننظر ما يصنعون، قال: تريد أن تُشهرني؟ قلت: فما تريد إلى قول إذا أظهرته شهرك؟[٢].

طريقة ابن حزم في المناظرة:

وقال ابن حزم رحمه الله: واحتجوا بأن قالوا: أخبرونا عمن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وبرئ من كل دين حاشا الإسلام، وصدَّق

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٧٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/٣٢٠ .

بكل ما جاء به النبي ﷺ واعتقد ذلك بقلبه، ومات إثر ذلك: أمؤمن هو أم لا؟

فإنَّ جوابنا: إنه مؤمن بلا شك عند الله عز وجل وعندنا. قالوا: فأخبرونا: أناقص الإيمان هو أم كامل الإيمان؟ قالوا: فإن قلتم إنه كامل الإيمان فهذا قولنا، وإن قلتم: إنه ناقص الإيمان سألناكم: ماذا نَقَصَه من الإيمان؟ وماذا معه من الإيمان؟

قال أبو محمد: فجوابنا ـ وبالله (تعالى) التوفيق ـ أنه مؤمن ناقص الإيمان بالإضافة إلى من له إيمان زائد بأعمال لم يعملها هذا، وكل واحد فهو ناقص الإيمان بالإضافة إلى من هو أفضل أعمالاً منه، حتى يبلغ الأمر إلى رسول الله ﷺ الذي لا أحد أتم إيماناً منه، بمعنى أحسن أعمالاً منه.

وأما قولهم: ما الذي نقصه من الإيمان؟ فإنه نقصه الأعمال التي عملها غيره، والتي ربنا عز وجل أعلم بمقاديرها[1].

طريقة الملطي في المناظرة:

قال الملطي رحمه الله: ويقال لهم في قولهم: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ماتقولون فيمن آمن وهو بالله عارف؟ ومن آمن وهو بالله وبدينه جاهل؟ فإن قالوا: هما سواء تجاهلوا، وإن قالوا: المؤمن العارف بالله

---

(١) انظر: الفصل ٣/٢٥٢.

وبدينه أفضل تركوا قولهم، وقالوا بالحق: إن الإيمان يزيد بالعمل والعلم وينقص بنقص العلم والعمل.

ويقال لهم: هل تجعلون بين أهل المعصية وأهل الطاعة فضلاً؟ فإن قالوا: لا فضل بينهم تجاهلوا، وإن قالوا: نعم. قيل لهم: ما الذي تجعلونه بينهم؟ فإن قالوا: لأهل الطاعة الوعد والثواب، ولأهل المعصية الوعيد والعقاب، تركوا قولهم الخبيث وقالوا بالحق. وإن قالوا: لا ندري تجاهلوا.

ويقال لهم: ما تقولون في قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٠] أليس عندكم من تصدق بدرهم فله عشر من الحسنات، ومن سرق درهماً فعليه وزر درهم واحد، فإذا قالوا: نعم، يقال لهم: فرجل سرق عشرة دراهم وتصدق منها بدرهم، أليس له تسع حسنات وعنده تسع الدراهم؟ فإن قالوا: لا تجزئه صدقة من سرقة لأن السرقة تحبط أجره، تركوا قولهم، وإن قالوا تجزئه زعموا أن من سرق عشرة دراهم وتصدق بدرهم منها فله تسع حسنات وعنده تسع الدراهم؛ لأن الحسنة بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها، وهذا ربح لا ربح بعده، مع أن على السارق لأموال الناس بسبب سرقته ذنوباً يعاقب عليها[1].

---

(١) انظر : التنبيه والرد ص:٤٦-٤٧.

المناظرة في الاستثناء في الإيمان

الاستثناء في الإيمان هو قول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، فالناس في ذلك على ثلاثة أقوال: طرفان ووسط. فمنهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار، وهذا أصح الأقوال.

وشرح ذلك أن المستثني إذا قصد الشك في أصل إيمانه مُنع منه، وإن قصد أنه مؤمن من المؤمنين الموصوفين في الكتاب والسنة فالاستثناء حينئذ جائز، وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة، ومن استثنى تعليقاً للأمر بمشيئة الله تعالى، لا شكاً في إيمانه[1].

المناظرة:

روى الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي في كتاب الإيمان[2] له بسنده عن الحارث بن عميرة الزبيدي قصة، وفيها: أن معاذ بن جبل أصيب بالطاعون فجاء الحارث يعوده. قال الحارث: وغشي على معاذ غشية، فأفاق معاذ والحارث يبكي، فقال معاذ: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على العلم الذي يدفن معك، فقال: إن كنت طالب العلم لا محالة، فاطلبه من عبد الله بن مسعود، ومن عويمر أبي الدرداء، ومن سلمان الفارسي، وإياك وزلة العالم، فقلت: وكيف لي - أصلحك الله- أن أعرفها؟ قال: للحق نور يعرف به. قال: فمات معاذ رحمة الله عليه، وخرج الحارث يريد عبد الله بن مسعود بالكوفة، فانتهى إلى بابه، فإذا

---

(١) انظر : شرح الطحاوية ٢/٤٩٤ وما بعدها .

(٢) كتاب الإيمان - ص : ٢٤-٢٥ برقم : ٧٦ بتحقيق الألباني وقال إسناد هذا الأثر إلى ابن مسعود ضعيف من أجل شهر بن حوشب،فإنه ضعيف لكثرة أوهامه ص : ٢٥ .

على الباب نفر من أصحاب عبد الله بن مسعود يتحدثون، فجرى بينهم الحديث، حتى قالوا: يا شامي أمؤمن أنت؟ فقال: نعم. قال: فقالوا: من أهل الجنة؟ قال: إن لي ذنوباً، وما أدري ما يصنع الله فيها، ولو أعلم أنها غفرت لي لأنبأتكم أني من أهل الجنة، قال: فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم عبد الله، فقالوا: ألا تعجب من أخينا هذا الشامي، يزعم أنه مؤمن ولا يزعم أنه من أهل الجنة. فقال عبد الله: لو قلت إحداهما لأتبعتها الأخرى، فقال الحارث: إنا لله وإنا إليه راجعون، صلّى الله على معاذ، قال : ويحك، ومن معاذ؟ قال: معاذ بن جبل. قال: وما ذاك؟ قال: إياك وزلة العالم، فأحلف بالله أنها منك لَزَلَّة يا ابن مسعود، وما الإيمان إلا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والميزان، ولنا ذنوب ما ندري ما يصنع الله فيها، فلو أنا نعلم أنها غفرت لقلنا: إنا من أهل الجنة. قال: فقال عبد الله: صدقت والله إن كانت مني لَزَلَّة، صدقت والله إن كانت مني لزلة.

المناظرة في تكفير مرتكب الكبيرة

مناظرة الخوارج في التكفير:

روى الإمام أحمد في مسنده[1] عن عياض بن عمرو القارئ قال: جاء عبد الله بن شداد (٨٢هـ) فدخل على عائشة ونحن جلوس، مرجعه

---

(١) ٦٦/٢-٦٨ برقم : ٦٥٦ قال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٢٨٠/٧-٢٨١ وصحح إسناده، وهو في مجمع الزوائد ٢٣٥/٦-٢٣٧ وقال : رواه أبو يعلى ورواته ثقات .

من العراق ليالي قُتِل علي، فقالت له: يا عبد الله بن شداد، هل أنت صادقي عما أسألك عنه؟ تحدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي؟ قال: وما لي لا أَصْدُقُك! قالت: فحدثني عن قصتهم، قال: فإن علياً لما كاتب معاوية وحَكَمَ الحكمان خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس، فنزلوا بأرض يقال لها: حَرُوراءُ من جانب الكوفة، وإنهم عتبوا عليه، فقالوا: انسلخت من قميص ألبسكه الله (تعالى) ، واسم سمَّاك الله(تعالى) به، ثم انطلقت فحكَّمت في دين الله، فلا حكم إلا لله (تعالى) ، فلما أن بلغ علياً ما عَتَبوا عليه وفارقوه عليه، فأمر مؤذناً فأذّن: أن لا يدخل على أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن، فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس، دعا بمصحف إمام عظيم، فوضعه بين يديه، فجعل يصكه بيده ويقول: أيها المصحف! حدث الناس! فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما تسأل عنه؟ إنما هو مداد في ورق! ونحن نتكلم بما روينا منه! فماذا تريد؟ قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا، بيني وبينهم كتاب الله، يقول الله (تعالى) في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [سورة النساء: ٣٥] فأمة محمد ﷺ أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل، ونقموا علي أنْ كاتبت معاوية: كَتَبَ علي بن أبي طالب، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشاً، فكتب رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: كيف نكتب؟ فقال: اكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ : فاكتب:

محمد رسول الله. فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك، فكتب: هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشاً، يقول الله (تعالى) في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١] فبعث إليهم عليٌّ عبد الله بن عباس، فخرجتُ معه، حتى إذا توسطنا عسكرهم قام ابن الكواء يخطب الناس، فقال: يا حملة القرآن إن هذا عبد الله بن عباس، فمن لم يكن يَعْرِفه فأنا أُعرِّفُه من كتاب الله ما يَعْرِفُهُ به، هذا ممن نزل فيه وفي قومه: ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[سورة الزخرف: ٥٨] فردُّوه إلى صاحبه، ولا تُواضعوه كتابَ الله، فقام خطباؤهم فقالوا: والله لنواضعنَّه كتاب الله، فإن جاء بحق نعرفه لنتبعنَّه، وإن جاء بباطل لنبكتنَّه بباطله، فواضعوا عبد الله الكتابَ ثلاثة أيام، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فيهم ابن الكواء، حتى أدخلهم على علي الكوفة، فبعث علي إلى بقيتهم، فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ ، بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً، أو تقطعوا سبيلاً، أو تظلموا ذمة، فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواءٍ، إن الله لا يحب الخائنين، فقالت له عائشة: يا ابن شداد، فقد قتلهم، فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدَّمَ واستحلوا أهل الذمة، فقالت: آللهِ؟ قال: آللهِ الذي لا إله إلا هو لقد كان. قالت: فما شيء بلغني عن أهل الذمة يتحدثونه، يقولون: ذو الثُّدَي وذو الثدي؟ قال: قد رأيته وقمت مع علي عليه في القتلى، فدعا الناس فقال: أتعرفون هذا؟ فما أكثر من جاء يقول: قد رأيته في مسجد بني

فلان يصلي، ورأيته في مسجد بني فلان يصلي، و لم يأتوا فيه بثبْت يُعرف إلا ذلك، قالت: فما قول علي حين قام عليه كما يزعم أهل العراق؟ قال: سمعته يقول: صدق الله ورسوله، قالت: هل سمعت منه أنه قال غير ذلك؟ قال: اللهم لا، قالت: أجل، صدق الله ورسوله، يرحم الله علياً، إنه كان من كلامه لا يرى شيئاً يعجبه إلا قال صدق الله ورسوله، فيذهب أهل العراق يكذبون عليه ويزيدون عليه في الحديث.

مناظرة عمرو بن عبيد:

روى ابن قتيبة[1] بسنده عن قريش بن أنس: قال: سمعت عمرو بن عبيد يقول: يؤتى بي يوم القيامة، فأقام بين يدي الله فيقول لي: لم قلت: إنّ القاتل في النار؟ فأقول: أنت قلته، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [سورة النساء: ٩٣] قلت له: وما في البيت أصغر مني - أرأيت إن قال لك قد قلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨] من أين علمت أني لا أشاء أن أغفر؟ قال: فما استطاع أن يرد علي شيئاً.

مناظرة أبي حنيفة للخوارج:

حكى أبو معاذ البلخي أن أبا حنيفة كان يقول: أهل الكوفة كلهم موالي؛ لأن الضحاك بن قيس (١٢٩هـ) الشيباني الحروري دخل الكوفة وأمر بقتل الرجال كلها، فخرج إليه أبوحنيفة في قميص ورداء، وقال:

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص:٨٣.

أريد أن أكلمك! قال: تكلم. قال: لم أمرت بقتل الرجال؟ قال: إنهم مرتدون. قال: أكان دينهم غير ماهم عليه فارتدوا حتى صاروا إلى ما هم عليه، أم كان هذا دينهم؟ قال: أعد ما قلت، فأعاد. فقال الضحاك: أخطأنا، فغمدوا سيوفهم، ونجا الناس(١).

وقال الإمام أبو الفضل الكرماني: لما دخل الخوارج الكوفة ورأيهم تكفير كل من أذنب وتكفير من لم يوافقهم - فقيل لهم: هذا ـ يعني أبا حنيفة ـ شيخ هؤلاء، فأخذوا الأمام وقالوا: تب من الكفر. فقال: أنا تائب من كفركم. فأخذوه فقال لهم: بعلم قلتم أم بظن؟ قالوا: بظن. قال: إن بعض الظن إثم، والإثم ذنب فتوبوا من الكفر. قالوا: تب أنت أيضاً من الكفر. قال: أنا تائب من كل كفر(٢).

إن الله (تعالى) قد يترك العقوبة تكرماً:

قال الأصمعي:(٣) جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال: يا أبا عمرو، ويخلف الله ما وعده؟ قال: لا. قال: أفرأيت من أوعده الله على عمل عقاباً، أيخلف الله وعده فيه؟ فقال أبو عمرو بن العلاء: من العجمة أتيت يا أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد، إن العرب لا

---

(١) عقود الجمان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان ـ لمحمد بن يوسف الصالحي ص:٢٨١.

(٢) عقود الجمان ص : ٢٨١.

(٣) الحجة ـ الأصبهاني ٧٣/٢ .

تعد عاراً ولا خلفاً أن تعد شراً ثم لا تفعله، ترى ذلك كرماً وفضلاً، وإنما الخلف أن تعد خيرا ثم لا تفعله، قال: فأوجدني هذا في كلام العرب؟ قال: نعم، أما سمعت إلى قول الأول:

ولا يُرهب ابن العم ما عشتُ صولتي ولا أنا أخشى صولة المتهدِّد

وإني وإن أوعدته ووعدته لمخلف ميعادي ومنجز موعدي

وفي رواية[1] أن أبا عمرو قال : إن الكريم إذا وعد وفى، وإذا توعَّد عفا، أما سمعت إلى قول الشاعر، فذكره... فقال له عمرو: شغلك يا أبا عمرو الإعراب عن معرفة الصواب.

قال أبو الشيخ، عبد الله بن محمد أبو محمد الأنصاري حافظ أصبهان: «حكي لي عن يحيى بن معاذ (٢٥٨هـ) قال: الوعد والوعيد حق، فالوعد حق العباد على الله، ضمن لهم إذا فعلوا كذا أن يعطيهم كذا، ومن أولى بالوفاء من الله. والوعيد حقه على العباد؛ قال: لا تفعلوا كذا فأعذبكم، ففعلوا، فإن شاء عفا، وإن شاء أخذ؛ لأنه حقه، وأولاهما بربنا تبارك وتعالى العفو والكرم إنه غفور رحيم.

ومما يدل على ذلك ويؤيده خبر كعب بن زهير حين أوعده رسول الله ﷺ، فحين جاءه تائباً عفا عنه، وكان في عفوه دليل أن إطلاقه القول كان باستثناء، وإن لم يكن ذلك مسموعاً منه؛ لأن ذلك لو لم يكن كذلك كان يؤدي إلى الكذب، وحاشا رسول الله ﷺ من ذلك. وفيه يقول كعب بن زهير:

---

(١) انظر: تاريخ العلماء النحويين ـ المفضل التنوخي ص : ١٤٤-١٤٥ .

أُنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فأُخبر أنه قد أوعد ثم رجا منه العفو، وفي ذلك دليل على أن ذلك لم يكن عند العرب خُلْفاً، إذ كان في باطنه استثناء. وكذلك سبيل آي الوعيد عندنا»[١].

المناظرة في لعن العصاة:

وجَّه عمر بن العزيز إلى بقية من الخوارج في ناحية الموصل عون بن عبد الله مناظراً لهم، فقال لهم: كنتم تطلبون من يعمل بعمل عمر بن الخطاب، فلما جاءكم كنتم أول من نفر عنه. قالوا: صدقت، لكنه لم يتبرأ من الذين كانوا قبله، و لم يلعنهم. قال: ما عهدكم بلعن هامان؟ قالوا: ما لعناه قط. قال لهم: أيسعكم أن تتركوا وزير فرعون المنفذ لأمره، الذي بنى له الصرح، ولا يسع عمر بن عبد العزيز أن يعمل بالحق، ولا يلعن أهل قبلته إن كانوا أخطأوا في شيء، أو عملوا فيه بغير الحق؟!فانقطعوا.

فلما بلغ عمر بن عبد العزيز ذلك سُرَّ به وقال له: ما أُحب أن أوجه إليهم غيرك رجلاً، ثم قال له: كيف فطنت لهامان و لم تذكر فرعون؟ قال: تخوفت إن ذكرت فرعون أن يقولوا: قد لعناه[٢].

---

(١) الحجة ـ الأصبهاني ٢/٧٤-٧٥ .

(٢) انظر : عيون المناظرات ص : ١٩٩-٢٠٠.

مناظرة الخوارج في التحكيم:

روى ابن أبي الوليد الطيالسي قال: قدم الضحاك الشاري ـ وهو من الخوارج ـ الكوفة فقال لأبي حنيفة: تب. فقال: مم أتوب؟! قال: من قولك بتجويز الحكمين. فقال له أبو حنيفة: تقتلني أو تناظرني؟ قال: أناظرك عليه. قال: فإن اختلفنا في شيء مما تناظرني عليه فمن يحكم بيني وبينك؟ قال: اجعل أنت من شئت. فقال أبوحنيفة لرجل من أصحاب الضحاك: اقعد فاحكم بيننا فيما اختلفنا فيه، ثم قال للضحاك: أترضى هذا بيني وبينك حاكماً؟ قال: نعم. قال أبوحينفة: فأنت قد جوزت التحكيم. فانقطع الضحاك[1].

المناظرة في القـــدر

أهل السنة والجماعة يؤمنون بقدر الله (تعالى)، ويقولون: هو سر الله (تعالى) في خلقه، لم يطلع على ذلك نبي مرسل ولا ملك مقرب، ومن لوازم ذلك أن الله (تعالى) خالق كل شيء، أفعال العباد وغيرها من المخلوقات، وعالم بكل شيء، وكل شيء عنده في كتاب، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، يعلم ما كان وما يكون وما سيكون.

وخالف أهلَ السنة في هذا الأمر طائفتان متقابلتان؛ هما القدرية والجبرية، الأولى نفت أن يكون الله خالقاً لأفعال العباد، بل هم الخالقون

(١) عقود الجمان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ـ لمحمد بن يوسف الصالحي ص: ٢٦٥ .

لأفعالهم، والثانية غلت في إثبات القدر حتى عطلت الأمر والنهي، وأحكام الشرع، وصار المطيع والعاصي سواءً، وجرت بين الطائفتين وبين أهل السنة المناظرات والمواقف التي ظهر فيها الحق، وقامت الحجة.

كلام القدرية بدعة محدثة:

ناظر سني قدرياً، فرفع السني نعله، وأظهر الاحتياط، فسأله القدري عن سبب ذلك، فقال: بلغني أن ناساً في عهد رسول الله ﷺ يقال لهم القدرية كان يسرقون نعال الصحابة، قال له القدري: ومتى كان القول بالقدر في عهد النبي ﷺ قال: فمن أين أتيتم به، فقطعه[١].

نفر من قدر الله إلى قدر الله:

روى البخاري في صحيحه[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج إلى الشام حتى إذا كان بسَرْغ لقيه أمراء الأجناد؛ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تُقْدِمَهُم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوهم فاستشارهم فسلكوا

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٩٤.

(٢) ١٠/١٧٩ كتاب الطب ـ باب ما يذكر في الطاعون ح : ٥٧٢٩ ، وانظر : صحيح مسلم ٤/١٧٤٠ كتاب السلام ـ باب الطاعون ... ح : ٢٢١٩ .

سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس أني مُصَبِّحٌ على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عُدْوتان إحداهما خصيبة والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟! قال: فجاء عبد الرحمن وكان متغيباً في بعض حاجته فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه. قال: فحمد الله عمر ثم انصرف».

قال صاحب عيون المناظرات بعد أن أورد هذه القصة: «فلما رأى أبو عبيدة هذا من قوله وتنظيره سلم، وعلم أنه الحق حتى أتى عبد الرحمن ابن عوف فشفاهم بالنص عن النبي ﷺ ووافق ما أراد عمر ﷺ، وكأن أبا عبيدة ﷺ إنما نزع للحديث: «إن ما أخطأك لم يكن ليصيبك»[1]

---

(١) انظر: سنن أبي داود ٧٥/٥ كتاب السنة ـ باب في القدر ح: ٤٦٩٩، وسنن الترمذي ٣١٨/٦ أبواب القدر ـ باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره ح: ٢١٤٥ وقال أبوعيسى: وهذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون وعبد الله بن ميمون منكر الحديث ، وسنن ابن ماجه ٣٠/١ كتاب المقدمة ـ باب في القدر ح: ٧٧، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١٩/١ ح : ٦٢ ، ومسند الإمام أحمد ٣١٧/٥ .

وهذا لا ينافي ما أراد عمر؛ لأن زوالهم عن الوباء هو الذي أصابهم، والوباء هو الذي أخطأهم، فتحصل من هذه المناظرة أن الاكتساب لا ينافي التوكل، وأن لا يحتج العبد بالقدر إلا بعد الاكتساب والاجتهاد»[١]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وناظر عمر أبا عبيدة فاستظهر عليه بالحجة فتبعه، ثم جاء عبد الرحمن بن عوف بالنص، فارتفع الإشكال»[٢].

التحذير من الخوض في القدر بالباطل:

روى أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ أن سائلاً سأله عن القدر؟ فقال: طريق دقيق لا تمش فيه. فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر. فقال: بحر عميق لا تخض فيه. فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر؟ فقال: سر خفي الله لا تفشه. فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر؟ فقال علي ﷺ يا سائل: إن الله (تعالى) خلقك كما شاء أو كما شئت؟ فقال: كما شاء. قال: إن الله (تعالى) يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما يشاء؟ فقال: كما يشاء. فقال: يا سائل، لك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته، أو دون مشيئته؟ فإن قلت: مع مشيئته ادعيت الشركة معه، وإن قلت: دون مشيئته استغنيت عن مشيئته، وإن قلت: فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته. ثم قال: ألست تسأل الله العافية؟ فقال: نعم. فقال:

---

(١) عيون المناظرات ص: ١٦٤.

(٢) فتح الباري ١٠/١٨٧ (بتصرف).

فعمّاذا تسأله العافية؟ أمن بلاء هو ابتلاك به، أو من بلاء غيره ابتلاك به؟ قال: من بلاء ابتلاني به. فقال: ألست تقول: لا حول ولا قوة إلا با لله العلي العظيم. قال: بلى. قال: تعرف تفسيرها؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، علمني مما علمك ا لله. فقال: تفسيره: إن العبد لا قدرة له على طاعة ا لله ولا على معصيته إلا با لله عز وجل. يا سائل، إن ا لله يسقم ويداوي، منه الداء ومنه الدواء، اعقل عن ا لله، فقال السائل: عقلت. فقال له: الآن صرت مسلماً، قوموا إلى أخيكم المسلم وخذوا بيده[(١)].

وقيل لعلي ﷺ: إن هاهنا رجلاً يتكلم في المشيئة. قال: وقال له: يا عبد ا لله، خلقك ا لله عز وجل لما شاء أو لما شئت؟ قال: بل لما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: إذا شاء. قال: فيميتك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شاء أو حيث شئت؟ قال: حيث شاء. قال: وا لله لو قلت غير هذا لضربت الذي فيه عيناك بالسيف. قال ثم تلا: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [سورة المدثر: ٥٦][(٢)].

ونحوه عن علي أنه مرَّ بنفر من أصحابه فقالوا له: يا أمير المؤمنين، إن هذا يقول إن أفعاله تكون بمشيئته. فقال له علي ﷺ: أخبرني: هل ملكك ا لله شيئاً فأنت تملكه أم لا؟ فقال: نعم، ملكني صلاتي وصيامي وحجي

---

(١) التبصير في الدين ص: ٨٧-٨٨ وانظر نحوه في كتاب الشريعة للآجري ص: ٢٠٢، والنيسابوري من أشهر مفسري خراسان توفي سنة ٤٠٦هـ وهو من شيوخ البيهقي.

(٢) شرح السنة ٧٠٧/٤-٧٠٨ برقم: ١٣١٠، وانظر: الحجة ٢٤/٢-٢٥ برقم: ٩

وجهادي وعتق رقيقي، وطلاق نسائي. فقال علي: أشيئاً مع الله تملكه أم شيئاً دون الله تملكه؟ قال: إني لا أسمع. فقال علي: إني لأتكلم بلسان عربي مبين، إن زعمت أنك تملكه مع الله فقد جعلت مع الله مالكاً، وإن زعمت أنك تملكه من دون الله، فقد جعلت من دون الله مالكاً. وفي رواية قال علي: وأيها قلت أخذت الذي فيه عيناك، فبهت وانقطع[١].

وفي هذه المعاني يقول الشافعي رحمه الله:[٢]

ما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

خلقتَ العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسن

على ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنتَ وذا لم تعن

فهذا سعيد وهذا شقي ... وهذا قبيح وهذا حسن

وروي أن علياً ﷺ مر بقدري وهو يتكلم في القدر فقال له: أبالله تقدر أم مع الله أم دون الله؟ فسكت الرجل و لم يعلم بما يجيب، فقال له رضي الله عنه: إن قلت: دون الله كفرت، وإن قلت: مع الله أشركت، وإن قلت: بالله أصبت. فقال الرجل: بالله أقدر. فقال له: لو قلت غيرها ضربت عنقك[٣].

---

(١) حز الغلاصم ص:١١٣-١١٤ وقال الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن بن الحباب: كل ذلك وردت عنه رضي الله عنه بالأسانيد الصحاح والأقوال الواضحة.

(٢) التبصير في الدين ص : ٨٨

(٣) انظر : عيون المناظرات ص : ١٧٦.

وروي[1] عنه ﷺ أن قائلاً قال له عند انصرافه من صفين: أرأيت مسيرنا إلى صفين أبقضاء وقدر؟ فقال علي ﷺ: وا لله ما علونا جبلاً، ولا هبطنا وادياً، ولا خطونا خطوة إلا بقضاء وقدر. فقال الشيخ: عند ا لله أحتسب عنائي إذن، مالي أجر! فقال له: يا شيخ فإن هذا قول أولياء الشيطان وخصماء الرحمن، قدرية هذه الأمة ومجوسها، إن ا لله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، لم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً. فضحك الشيخ ونهض مسروراً، ثم قال:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم القيامة من ذي العرش رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك عنا فيه إحسانا

المناظرة في معنى الظلم:

من عقيدة المسلم أن ا لله لا يظلم عباده شيئاً، قال (تعالى): ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[سورة فصلت: ٤٦]، فهدايته للمؤمن هي محض فضله ومنته، وإضلاله للكافر هو محض عدله وقسطه.

قال عطاء بن أبي رباح: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: يا أبا عباس، أرأيت من صدني عن الهدى، وأوردني الضلالة والردى، ألا تراه قد ظلمني؟!.

قال ابن عباس رضي ا لله عنهما: إن كان الهدى كان شيء لك عنده فمنعكاه فقد ظلمك، وإن كان هو له يؤتيه من يشاء فلم يظلمك، قم لا تجالسني[2].

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ١٧٧ .

(٢) شرح السنة ٤/٦٧٠-٦٧١ برقم : ١٢٢٧.

وروى مسلم في صحيحه[(١)] عن يحيى بن يعمر عن أبي الأسود الدِّئَلي قال: قال لي عِمْران بن الحُصَيْن: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قُضي عليهم، ومضى عليهم مِنْ قَدَر ما سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم. فقال: أفلا يكون ظلماً؟ قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، وقلت: كل شيء خَلْقُ الله، ومِلْك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فقال لي: يرحمكم الله، إني لم أُرِدْ بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما آتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: لا، بل شيء قضي عليهم، ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[سورة الشمس: ٧-٨].

وروي[(٢)] نحوه عن جعفر الصادق، وذلك أن قدرياً دخل عليه فقال له: يا ابن بنت رسول الله، تعالى الله عن الفحشاء، فقال له جعفر الصادق: يا أعرابي وجلَّ ربنا أن يكون في ملكه ما لا يشاء. فقال القدري: يا ابن بنت رسول الله، أيحب ربنا أن يعصى؟ قال: يا أعرابي،

---

(١) ٤/٢٠٤١-٢٠٤٢ كتاب القدر - باب كيفية الخلق الآدمي ... ح : ٢٦٥٠ .

(٢) انظر : حز الغلاصم لابن الحاج القفطي ص : ١٨ .

أفيعصى ربنا قهراً؟ قال: يا ابن بنت رسول الله، أرأيت إن صدني عن الهدى، فسلك بي طريق الردى، أحسن بي أم أساء؟ فقال جعفر الصادق: إن منعك شيئاً هو لك فقد ظلم وأساء، وإن منعك شيئاً هو له فإنه يختص برحمته من يشاء، فأُفحم القدري، وبُهت، ولم يجد جواباً.

وروي[1] أن رجلاً سأل ابن عباس رضي الله عنهما فقال له: أمراد الله من خلقه أن يطيعوه، أم يعصوه؟ فقال: أراد منهم ما كان منهم.

فلما سأل الرجل عن الإرادة الكونية أجابه ابن عباس رضي الله عنهما بهذا الجواب الفصل؛ لأن ما يقع في هذا الكون يدخل تحت إرادة الله ومشيئته العامة، ولا يمنع أن يكون بعض ما يقع مما لا يحبه الله (تعالى) ولا يرضاه شرعاً، وإن أراده كوناً وقدراً كالكفر والمعاصي.

وأخرج البيهقي[2] بسنده عن معمر قال: «بلغني أن عمرو بن العاص قال لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: وددتُ أني أجد من أخاصم إليه ربي، فقال أبو موسى: أنا. فقال عمرو : أيُقدِّر علي شيئاً ويعذبني ؟! فقال أبو موسى ﷺ: نعم، قال: لـمَ. قال: لأنه لا يظلمك. فقال: صدقت».

ويروى عن إياس بن معاوية المزني (١٢١هـ) قال: ما كلمتُ أحداً من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية، فإني قلت لهم: ما الظلم فيكم؟ فقال: أن يأخذ الإنسان ما ليس له. فقلت لهم: فإن الله على كل شيء

---

(١) عيون المناظرات ص : ١٨٦.

(٢) الاعتقاد ص : ١٤٩-١٥٠.

قدير، وفي رواية : فإن الله كل شيء[1]. وفي رواية قال إياس: ما كلمت أحداً بعقلي كله إلا صاحب القدر، قلت: ما الظلم في كلام العرب؟ قال: هو أن يأخذ الرجل ما ليس له، قلت: فإن الله له كل شيء[2]. قال ابن تيمية رحمه الله: «وهذا قول كثير من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم»[3].

القدرية بين الكفر والانقطاع:

قال أبو جعفر الخطمي: شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشيء بلغه في القدر، فقال: ويحك يا غيلان، ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: يُكذب علي يا أمير المؤمنين، ويقال علي ما لم أقل. قال: ما تقول في العلم؟ قال: نَفَذَ العلم. قال: فأنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت، ويحك يا غيلان، إنك إن أقررت بالعلم خصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تُقرَّ به فتخصم خير لك من أن تجحد فتكفر[4].

وقال الشافعي رحمه الله: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروا كفروا[5].

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد ص : ١٤٥ رقم : ٧٨٢ ، وانظر : شرح السنة ٦٩١/٤ رقم: ١٢٠٨، والشريعة ص :٢٢٠، والاعتقاد للبيهقي ص :١٥٠.

(٢) عيون الأخبار ١٤٣/٢.

(٣) منهاج السنة النبوية ٣٠٥/٢.

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد ص : ١٤٥-١٤٦ برقم : ٧٨٤ ، وانظر : شرح السنة ـ اللالكائي ٧١٣/٤-٧١٤ برقم : ١٣٢٥.

(٥) شرح الطحاوية ٣٥٤/٢ .

وقال حوثرة بن أشرس (٢٣٢هـ): سمعت سلاماً أبا المنذر غير مرة يقول: سلوهم عن العلم، هل علم أو لم يعلم؟ فإن قالوا: علم، فليس في أيديهم شيء، وإن قالوا: لم يعلم، فقد حلت دماؤهم[1].

مناظرة نفاة العلم السابق:

قال عبد العزيز الكناني في كتابه الحيدة[2]: وكان خلف ظهري وأنا في مجلس أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، أناظر بشراً المريسي على ما ذكرته في هذا الكتاب، رجل يعرف بالكلام والنظر، فجعل كلما سكت بشر وانقطع يحرضه ويحضه على الكلام، وإذا أردت أن أتكلم لا يزال يهذي خلفي ويقرب رأسه من أذني؛ ليسمعني ويدهشني ويقطعني بذلك عن حجتي، فشكوت ذلك إلى المأمون فصاح به وأبعده عني، فلما قلت لبشر: ما من شيء كان أو هو كائن مما يحتاج الناس إلى معرفته وعلمه إلا وقد ذكره الله (تعالى) في كتابه عقله من عقله وجهله من جهله، أخذ ذلك الرجل يضرب بيده على فخذه ويقول: سبحان الله! تزعم أن كل ما هو كائن مما يحتاج إليه قد ذكره الله (تعالى) في كتابه، ما أعظم هذا! وكيف يعلم ما هو كائن فيذكره؟!

قال عبد العزيز: فالتفت إليه فقلت له: أنت جهمي قدري، وأنت تهذي دائماً. ثم أقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أطال الله بقاك، إن هذا الذي شكوت إليك أذاه منذ اليوم هو جهمي قدري، قد

---

(١) الحجة ٢/٧٧-٧٨.

(٢) ص: ١٣٦-١٤٠.

جمع الأمر من جهتين: ينكر أن الله (تعالى) يعلم ما يكون قبل أن يكون. فقال المأمون: هذا قوله. فقلت: إن رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، أن يأذن لي حتى أكذبه وأكسر قوله وأدحض حجته، وأبطل مذهبه بنص التنزيل الساعة، فقال المأمون: لهذا وقت غير هذا، ومجلس غير هذا تتكلم معه، ومع غيره في القدر خاصة. قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، لست أطول، إنما أحتج عليه بآية واحدة. فقال المأمون: قل ما تريد.

قال عبد العزيز: فأقبلت عليه، فقلت له: أتنكر أن الله يعلم ما يكون قبل كونه؟ قال: نعم أنا أنكر هذا. فقلت: والله يا أمير المؤمنين، لقد علم الله ما لم يكن، وما لا يكون، وما لو كان كيف كان يكون. فصاح الرجل: سبحانه الله ما أجراك على الكذب، الحمد لله الذي أخذك بلسانك، فقال لي المأمون: أعد هذا الكلام يا عبد العزيز، فقلت له: نعم والله، لقد علم الله ما لم يكن وما لا يكون وما لو كان كيف يكون. فقال المأمون يا عبد العزيز، هذا شيء تقوله من نفسك، أم شيء تحكيه عن غيرك؟ فقلت: هذا شيء أخبرنا الله به في كتابه الذي أنزله على نبيه ﷺ . فقال لي المأمون: وأين ذلك في كتاب الله (تعالى)؟ قال عبد العزيز: فقلت: قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٢٧-٢٨] في قولهم هذا. وهذا ما لم يكن، وما لا يكون؛ لأنهم لا يردون، لا هم ولا غيرهم، فأخبر (تعالى) بعلمه السابق

فيهم أنْ لو ردوا ما كانوا فاعلين، ولن يُرَدوا أبداً، فهذا يا أمير المؤمنين، ما لم يكن، وما لا يكون، وما لو كان كيف يكون. فقال لي المأمون: أحسنت يا عبد العزيز، وما قلت في يومك شيئاً أحسن، ولا أدق من هذا. فقلت: قد أكذبت والله أهل هذه المقالة، وكسرت قولهم، ودحضت حجتهم، وأبطلت مذهبهم بنص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير.

الله هو الخالق لأفعال العباد:

تناظر سني وقدري في مسألة أفعال العباد، فقال القدري: أنا هو الخالق، والدليل أني أقطع هذه الثمرة إذا شئت، قالوا: فقطع ثمرة من شجرة، فقال له السني: ردها إلى موضعها كما كانت، فبهت القدري[1].

فالقادر على إبداع فصلها هو القادر على إبداع وصلها؛ لأن القادر على الشيء قادر على مثله وضده[2].

القدر الكوني يُنازع بالقدر الشرعي:

وهذه هي النكتة التي غفل عنها كثير من الخائضين في القدر بالباطل، وهي التفريق بين الرضا بالقضاء، و بين التسليم له إن كان مخالفاً لمراد الله الشرعي كالكفر والمعاصي، أو مراد الإنسان الطبعي كالجوع والمرض ونحو ذلك؛ ولهذا قال عبد القادر الجيلاني رحمه الله:.«كثير من الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لا من

(١) انظر : عيون المناظرات ص:٢١٦.

(٢) انظر : المرجع السابق ص : ٢١٧.

يكون موافقاً للقدر»[١]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن نقل هذا الكلام: «والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله»[٢].

يروى أن عمر بن الخطاب ﷺ جيء برجل قد سرق وأراد أن يقطع عمر يده، فاحتج الرجل بالقدر، فقال عمر: أنت سرقت بقضاء الله وقدره، ونحن نقطع يدك بقضاء والله وقدره[٣].

وشكا جماعة من الصالحين ضرر الأتراك إلى أميرهم، فقال الأمير: ألستم تقولون: إن هذا بقضاء الله؟ وكيف أدفع عنكم قضاء الله؟! قالوا له: صاحب القضاء قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١] فأفحموه[٤].

مناظرة أهل السنة لغيلان الدمشقي القدري

مناظرة داود بن أبي هند لغيلان :

عن سعيد بن عامر الضبعي قال: قال داود بن أبي هند (١٣٩هـ): أتيت الشام فلقيني غيلان، فقال: إني أريد أن أسألك عن مسألتين. قال: قلت: سلني عن خمسين مسألة، وأسألك عن مسألتين. قال: سل يا داود. قلت: أخبرني عن أفضل ما أعطي ابن آدم؟ قال: العقل. قلت: فأخبرني عن العقل ما هو؟ شيء ما مباح للناس، من شاء أخذه ومن شاء تركه، أو

---

(١) العبودية ص: ٥٢-٥٣ .

(٢) العبودية ص: ٥٣ .

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية ـ ابن تيمية ٣/٢٣٤ .

(٤) انظر: عيون المناظرات ص : ٢١٧.

هو مقسوم؟ قال: فمضى و لم يجبني[1].

مناظرة إياس بن معاوية له:

قال أبو يحيى محمد بن عبد الله المقري: سمعت أبي يقول: كان غيلان يشتهي أن يلقى إياساً، وكان إياس يشتهي أن يلتقي مع غيلان، فاجتمعا بمنى، فتكلما. فقال غيلان: أنت إياس. وقال إياس: أنت غيلان. فقال إياس: أسألك عن مسألة واحدة، وتسألني عن مائة مسألة. فقال له أصحابه: قد أنصفك. قال: فسلني. قال: أخبرني ما خير شيء ذكر الله في الإنسان؟ قال: العقل. قال: فمقسوم هو أم مباح؟ فسكت، فلم يجبه. فقال له أصحابه: أجبه. فقام و لم يجبه، فقال: ويلكم، أتدرون عن أي شيء سألني؟ إن قلت: مباح قال: فما بالك لا تأخذه كله، وإن قلت: مقسوم رجعت إلى قوله[2]. وهو الإقرار بأن الله (تعالى) قدر مقادير كل شيء، وخلقه على ما قدر.

مناظرة عمر بن عبد العزيز له:

قال أبو جعفر الخطمي: شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشيء بلغه في القدر، فقال له: ويحك يا غيلان، ما هذا الذي بلغني عنك؟! قال: يكذب علي يا أمير المؤمنين، ويقال علي ما لم أقل. قال: ما تقول في العلم؟ قال: نفذ العلم. قال: أنت مخصوم، اذهب الآن وقل ما

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٧٧/٦ .

(٢) الحجة ـ الأصبهاني ٧٨/٢-٧٩ .

شئت. ويحك يا غيلان، إنك إن أقررت بالعلم خصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحده فتكفر، قال: ثم قال له: تقرأ يس؟ فقال: نعم. فقال له: ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾. فقرأ: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[سورة يس: ٧] قال: قف، كيف ترى؟ قال: كأني لم أقرأ هذه الآية يا أمير المؤمنين. قال: زد. فقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾[سورة يس:٨-٩]. قال له عمر: قل: ﴿سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[سورة يس: ٩-١٠] قال: كيف ترى؟ قال: كأني لم أقرأ هذه الآيات قط، وإني أعاهد الله أن لا أتكلم في شيء مما كنت أتكلم فيه أبداً.

قال: اذهب، فلما ولى قال: اللهم إن كان كاذباً فيما قال فأذقه حر السلاح[١].

وفي رواية عند أبي بكر الآجري[٢] بسنده إلى عمرو بن مهاجر قال: بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول في القدر، فبعث إليه فحجبه أياماً، ثم أدخله عليه، فقال: غيلان، ما هذا الذي بلغني عنك؟

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد ص: ١٤٥-١٤٦ برقم: ٧٨٤، وشرح السنة ٤/٧١٣-٧١٥ برقم: ١٣٢٥.

(٢) الشريعة ص: ٢٢٨، وانظر: التنبيه والرد للملطي ص: ١٦٨، وحسّنه الشيخ مقبل الوادعي في كتاب الجامع الصحيح في القدر ص: ٥٠٥.

قال عمرو بن مهاجر: فأشرت إليه أن لا يقول شيئاً، قال: فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[سورة الإنسان: ١-٣] قال: اقرأ آخر السورة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[سورة الإنسان: ٣٠-٣١] ثم قال: ما تقول يا غيلان؟ قال: أقول قد كنت أعمى فبصرتني، وأصم فأسمعتني، وضالاً فهديتني. فقال عمر: اللهم إن كان عبدك غيلان صادقاً وإلا فاصلبه، فأمسك عن الكلام في القدر، فولاه عمر بن عبد العزيز دار الضرب بدمشق، فلما مات عمر ابن عبد العزيز رحمه الله ،وأفضت الخلافة إلى هشام تكلم في القدر، فبعث إليه هشام فقطع يده، فمر به رجل والذباب على يده، فقال له: يا غيلان، هذا قضاء وقدر؟ فقال: كذبت، لعمر الله ما هذا قضاء ولا قدر، فبعث إليه هشام فصلبه.

مناظرة هشام بن عبد الملك له:

قال أبو جعفر الخطمي في حكاية غيلان مع عمر بن عبد العزيز: فلم يتكلم زمن عمر، فلما كان يزيد بن عبد الملك كان رجلاً لا يهتم بهذا، ولا ينظر فيه. قال: فتكلم غيلان، فلما ولي هشام أرسل إليه، فقال له: أليس قد كنت عاهدت الله لعمر أن لا تتكلم في شيء من هذا أبدا؟ قال: أقلني، فوالله لا أعود. قال: لا أقالني الله إن أقلتك، هل تقرأ فاتحة الكتاب؟ قال: نعم. قال: اقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة الفاتحة: ٢] فقرأ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾[سورة الفاتحة: ٢-٥]. قال: قف، عَلامَ استعنته؟ على أمر بيده لا تستطيعه إلا به، أو على أمر في يدك ـ أو بيدك؟ اذهبا به فاقطعا يديه ورجليه، واضربا عنقه، واصلباه[1].

مناظرة الأوزاعي له :

وناظر الأوزاعي غيلان الدمشقي في مجلس أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك:

قال الوليد بن هشام: بلغ هشام بن عبد الملك أن رجلاً قد ظهر يقول بالقدر وقد أغوى خلقاً كثيراً، فبعث إليه هشام فأحضره. فقال: ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: وما هو؟ قال: تقول إن الله لم يقدر على خلق الشر؟ قال: بذلك أقول، فأحضر من شئت يحاجني فيه، فإن غلبته بالحجة والبيان علمتَ أني على الحق، وإن هو غلبني بالحجة فاضرب عنقي. قال: فبعث هشام إلى الأوزاعي فأحضره للمناظرة. فقال له الأوزاعي: إن شئتَ سألتك عن واحدة، وإن شئتَ عن ثلاث، وإن شئت عن أربع؟ فقال: سل عما بدا لك. قال الأوزاعي: أخبرني عن الله عز وجل: هل تعلم أنه قضى على ما نهى؟ قال: ليس عندي في هذا شيء. فقلت: يا أمير المؤمنين هذه واحدة. ثم قلت له: أخبرني: هل تعلم أن الله حال دون ما أمر؟ قال: هذه أشد من الأولى. فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه اثنتان، ثم قلت له: هل تعلم أن الله أعان على ما حرَّم؟ قال: هذه أشد

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد ص : ١٤٦، وشرح السنة ٤/٧١٥ برقم : ١٣٢٥ .

من الأولى والثانية. فقلت: يا أمير المؤمين، هذه ثلاث، قد حل بها ضرب عنقه. فأمر به هشام فضربت عنقه.

ثم قال للأوزاعي: يا أبا عمرو، فسِّر لنا هذه المسائل. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، سألته: هل تعلم أن الله قضى على ما نهى؟ نهى آدم عن أكل الشجرة ثم قضى عليه بأكلها.

وسألته: هل يعلم أن الله حال دون ما أمر؟ أمر إبليس بالسجود لآدم ثم حال بينه وبين السجود.

وسألته: هل يعلم أن الله أعان على ما حرم؟ حرم الميتة والدم، ثم أعاننا على أكله في وقت الاضطرار إليه.

قال هشام: والرابعة ما هي يا أبا عمرو؟ قال: كنت أقول: مشيئتك مع الله أم دون الله؟ فإن قال: مع الله، فقد اتخذ مع الله شريكاً، أو قال: دون الله، فقد انفرد بالربوبية، فأيهما أجابني فقد حل ضرب عنقه بها.

قال هشام: حياة الخلق وقوام الدين بالعلماء[1].

مناظرة ربيعة بن عبد الرحمن لغيلان:

قال غيلان لربيعة بن عبد الرحمن: أترى الله يريد أن يعصى؟ قال له ربيعة: أترى الله يُعصى قهراً؟ فكأنما ألقمه حجراً[2].

---

(١) شرح السنة ٧١٨/٤-٧١٩ برقم : ١٣٣٠ ، وانظر : حز الغلاصم ص : ١١٢-١١٣، ومحاسن المساعي في مناقب الأوزاعي ص : ١٠٤ وما بعدها .

(٢) عيون المناظرات ص : ٢٠٥.

مناظرة ميمون بن مهران لغيلان:

حكي أن غيلان الدمشقي وميمون بن مهران اجتمعا بين هشام بن عبد الملك، فأمر غيلان أن يتكلم مع ميمون، فقال غيلان لميمون: أنت الذي تزعم أن الله أراد أن يعصى؟ فقال له ميمون: أفكان ما لا يريده؟ ومن وقع في ملكه ما لا يريده فهو عاجز.

فسكت غيلان ولم يجد جواباً، فقال له: أجبه، فلم يجبه. فقال له هشام: لا أقالني الله إن لم أقتلك، فأمر فقطعت أربعه ثم صلب[١].

مناظرة أبي إسحاق الإسفرائيني مع القاضي عبد الجبار:

قال عبد الجبار في ابتداء جلوسه للمناظرة: سبحان من تنزه عن الفحشاء. فقال أبو إسحاق مجيباً: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار: أفيشاء ربنا أن يعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيعصى ربنا قهراً؟ فقال عبد الجبار: أفرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى أحسن إلي أم أساء؟ فقال أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء. فانقطع عبد الجبار[٢].

المناظرة في التكليف بما لا يطاق

التكليف بما لا يطاق من الألفاظ المجملة، التي يجب فيها التفصيل؛ فهو يفسر بأحد شيئين : الأول: بما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يُكلفه

(١) عيون المناظرات ص:٢٩٢-٢٩٣.

(٢) انظر: طبقات الشافعية ـ السبكي ٤/٢٦١-٢٦٢

الله أحداً. والثاني: يفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده، فهذا هو الذي وقع فيه التكليف، كما في أمر العباد بعضهم بعضاً؛ فإنهم يفرِّقون بين هذا وهذا، فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف، ويأمره إذا كان قاعداً أن يقوم، ويُعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة[1].

قال المبرد: عن أبي عثمان المازني قال: سئل علي بن موسى الرضا (٢٠٣هـ): أيكلف الله العباد ما لا يطيقون؟ قال: هو أعدل من ذلك قيل: فيستطيعون أن يفعلوا ما يريدون؟ قال: هم أعجز من ذلك[2].

وقال اللالكائي[3]: سمعت الحسين الإخباري يقول: قرأت في أخبار إبراهيم بن المهدي أنه حدَّث عن ذبية المدني ـ وكان استصحبه لما ولي دمشق ـ أنه كان سبب وروده العراق: أن المهدي أشخص من المدينة ثلاثين شيخاً ممن تكلم في القدر واشتهر به. قال: فكنت فيهم، فلما مثلنا بين يديه ضربهم بالسياط أجمعين وأخرني.

فلما قدمت قال : أراك صبياً، ألم يكن بالمدينة من هو أسنُّ منك تتم به العدة؟ قلت : جماعة يا أمير المؤمنين. فقال: إذن إنما قربت إليهم لأنك من مثلهم، ثم دعا بالسياط، فلما ضربت سوطاً، فقلت : يا أمير المؤمنين، نشدتك الله إلا أدنيتني إليك، أكلمك ولك رأيك.

---

(١) انظر : شرح الطحاوية ٦٣٩/٢ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٣٠١/٨-٣٠٢ ، ٤٦٩ وما بعدها

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٩١/١٩ .

(٣) شرح السنة ٧٢٠/٤-٧٢٣ رقم : ١٣٣٢ .

فقدمني فقلت: أنا رجل من أهل المدينة قطن أبي فيها، وهو من وادي القرى، وكان تاجراً ذا مال، فعلمني القرآن، ثم أمرني أن أغدو إلى حلقة ابن أبي ذئب، وأروح إلى ربيعة الرأي، فعنَّ لي شيخ لم أكن رأيته قط.

فقال لي: يا بني قد بلغت من العلم، وما أراك استبصرت في دينك. فقلت: وما ذاك يا عم؟ فقال: هل رأيت مقعداً قط؟ قلت: نعم. قال: فلو رأيت رجلاً كلفه صعود نخلة ما كنت تقول؟ قلت: جاهل. قال: فلو ضربه على قصوره عن صعودها؟ قلت: ظالم. فقال: يا بني هذا حلمك على إنسان، فكيف بالله سبحانه في عدله، أتقول: إنه يكلف عباده ما ليس في وسعهم، ثم يعاقبهم عليه مع قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[سورة البقرة: ٢٨٦].

قلت: فتعدني يا أمير المؤمنين بالمقعد؟ قال ذبية: فضحك المهدي أمير المؤمنين، ثم أمر فطرح ثيابي عليَّ، فلما لبستُ أدناني، ثم قال: أجبني وأنت آمن. لو أنك في سفر فرأيت عليلاً في برية فاستطعم رجلاً فلم يطعمه، وتركه ومضى، ما كنت قائلاً؟ قلت: ظالم. قال: فهل علمت أن أحداً من خلق الله كان في برية عليلاً عادماً للطعام والشراب؟ قلت: كثيراً. قال: فإن دعا ربه أن ينجيه، هل كان الله سبحانه قادراً على أن يطعمه ويسقيه؟ قلت: اللهم نعم. قال: فهل تقول إن دعا ربه أن يطعمه ويرويه فلم يجب دعاءه ومات: إن الله ظلمه؟ قلت: لا. قال: فكيف

تقول لمن أقعدك مثل هـذا ؟ قـال: لأن الأشـياء كلهـا لله تعـالى لا عليـه، والتجوير على من الأشياء عليه لا له يا ذبية.

إن الإيمان إذا سكن القلب قبـل الاحتجـاج لم يخرجـه الاحتجـاج، وإذا سكن الحجاج قبل الإيمان كان متنقلاً متى حاج من هـو أحـج منـه، فقلت : يا أمير المؤمنين، قد وا لله ثلج بحجاجك صدري، وأنا تائب، فأَمَر لي بجائزة وكسوة وخلى سبيلي.

حمال يقطع النظام في مسألة تكليف ما لا يطاق:

قال أبو عثمان المازني (٢٤٧هـ): كـان بمرو حمـال يحمـل القـت[١]، وكان يقول: ألا تجمع بيني وبين النظام، كلما مرَّ بي يقول هذا، فمـرَّ بـي يوماً والنظام عندي، فقلت للنظام: قد آذاني هذا مما يقول لي: اجمـع بيـني وبين النظام، فقلت له: هذا النظام. فطرح الكارة[٢]، ثم جـاء إلى النظـام، فقال: سل، فقال له النظـام: كلـف ا لله العبـاد مـا لا يطيقـون؟ فقـال لـه الحمال: كلفهم ما لا يطيقون إلا به. قال: فانقطع النظام ومضى الحمـال، فقال النظام: ما دريت وا لله أي شيء أرد عليه[٣].

المناظرة في الاستطاعة :

الذي عليه عامة أهل السنة والجماعة أن للعبد قدرة هي منـاط الأمـر والنهي، وهذه تكون قبل الفعل، لا معه، فهي من جهـة الصحـة والوسـع والتمكن وسلامة الآلات، وبهـا يتعلق الخطـاب. وأمـا القـدرة الـتي هـي

(١) القت : الرطب من علف الدواب . انظر : لسان العرب ٧١/٢ مادة قت .
(٢) الكارة : ما يحمل على الظهر من الثياب. انظر : لسان العرب ١٥/٥ مادة كور.
(٣) الحجة ـ الأصبهاني ٧٨/٢.

التوفيق والتي لا يجوز أن يوصف العبد بها، فهذه تكون مع الفعل، وهي ليست شرطاً في التكليف[١].

في فنون ابن عقيل قال عميد المُلْك: قدم أبو المعالي فكلّم أبا القاسم ابن برهان في العباد: هل لهم أفعال؟ فقال أبو المعالي: إن وجدت آية تقتضي ذا فالحجة لك. فتلا: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٣] ومدَّ بها صوته، وكرر: ﴿هم لها عاملون﴾ وقوله: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة التوبة: ٤٢] أي كانوا مستطيعين. فأخذ أبو المعالي يستروح إلى التأويل، فقال: والله إنك بارد، تتأول صريح كلام الله لتصحح بتأويلك كلام الأشعري، وأكله ابن برهان بالحجة، فبهت[٢].

الفرق بين الأمر الكوني والأمر الشرعي:

قال الأستاذ أبو الحجاج يوسف بن موسى الضرير (٥٢٠هـ) صاحب رسالة التنبيه والإرشاد: حضرني يوماً بعض أحبار اليهود فتكلم في التعديل والتجوير، وجاء بتخليط كثير، وكان مما أحاله وأنكره أن يكون الله (تعالى) يأمر بما لا يريد كونه. فقلت له: أليس قد أمر الخليل أن يذبح ابنه؟ فقال: بلى. فقلت: فهل أراد ذبحه؟ فقال: لا. فانقطع لوقته، وأمسك لحينه[٣].

وهذا من باب أن الله (تعالى) يأمر شرعاً ما لا يريده كوناً، ويريد كوناً ما ينهى عنه شرعاً.

---

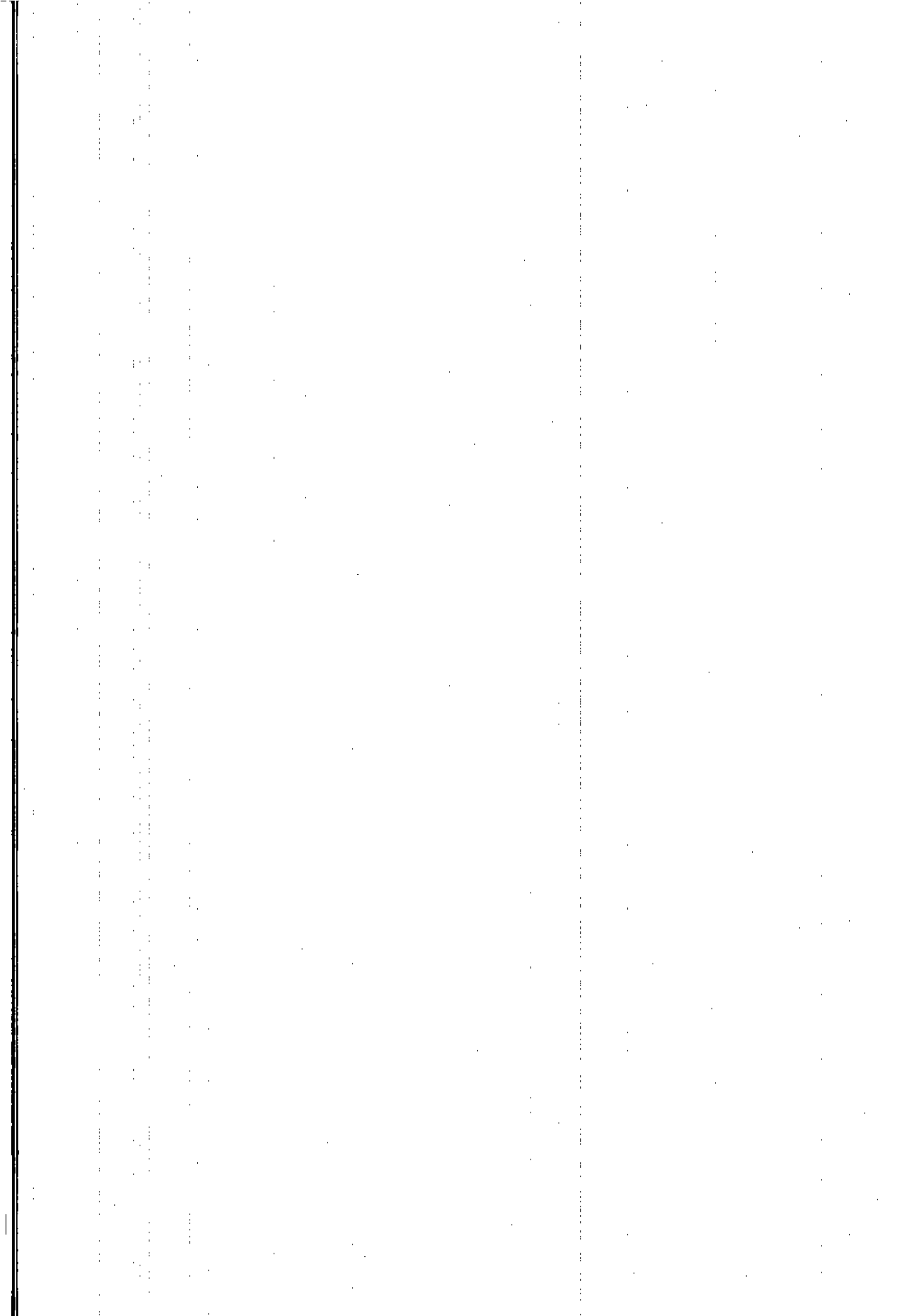
(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٦٣٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/٤٦٩.

(٣) انظر: عيون المناظرات ص: ٢٩٠-٢٩١.

الفصل الثاني

الجدل والمناظرة في باب النبوات



مناظرة البراهمة في إنكارهم النبوة:

البراهمة ينكرون النبوات والرسالات، وعمدتهم في دفعها أنه لما صحَّ أن الباري عز وجل حكيم كان بعث الرسل إلى من يعلم أنه لا يصدقه، بل يكذبه، عبثاً وسفهاً يتنزه الله عنه، فوجب نفي النبوة لأجل تنزيه الله (تعالى) عن العبث والسفه، وقالوا أيضاً إن كان الله تعالى إنما بعث الرسل إلى الناس ليخرجهم بهم من الضلال إلى الإيمان، فقد كان أولى به في حكمته، وأتم لمراده أن يضطر العقول إلى الإيمان به، قالوا : فبطل إرسال الرسل على هذا الوجه أيضاً[1].

وأيضاً ـ قالوا: الخلق مستغنون عن النبوات بما ركب الله فيهم من العقول والفهوم التي يميزون بها بين الأمر والنهي، والطاعة والمعصية، والحسن والقبيح، فليس في بعث الرسل مع ذلك حكمة، بل هو عبث يتنزه الله عنه، هكذا زعموا[2].

ويبين أبو محمد بن حزم رحمه الله طريقة مناظرة هؤلاء البراهمة، ودفع شبههم، فذكر أنه يقال لهم: إنكم اضطركم هذا الأصل الفاسد إلى موافقة المانية على أصولها في أن الحكيم لا يخلق من يعصيه، ولا من يكفر به، ويقتل أولياءه، وهم يقولون: إن الله (تعالى) خلق الخلق ليدلهم به على نفسه.

---

(١) انظر : الفصل ـ لابن حزم ١/١٣٧.

(٢) انظر : الموجز لأبي عمار الأباضي ١/٢٩٨-٢٩٩.

ويقال لهم: قد علمنا وعلمتم أن في الناس كثيراً يجحدون الربوبية والوحدانية، فقولوا: إنه ليس حكيماً من خلق دلائل لمن يدري أنه لا يستدل بها.

فإن قالوا: إنه قد استدل بها كثير، قيل لهم: وقد صدَّق الرسلَ أيضاً كثيرٌ.

فإن قالوا: إنه خلق الخلق كما شاء، قيل لهم: وكذلك بعث الرسل كما شاء، فبعثته (تعالى) الرسل هي بعض دلائله التي خلقها ليدل بها على المعرفة به، وعلى توحيده[(١)].

وطريقة أخرى في مناظرة القوم:

يقال لهم: لم أنكرتم بعث الرسل من الله (تعالى) إلى خلقه؟ فإن قالوا: لأنا وجدنا الخلق مستغنين عن كل علم، وعن كل أمر؛ لما يجدونه في عقولهم من المعرفة. فيقال لهم: ألستم تجدون تذكار العباد بعضهم لبعض، وتنبيه بعضهم بعضاً، وتعليمهم إياهم مما يزيد في علومهم وفي مخافتهم من الله، ومن مراعاتهم لطاعته وشكرهم على نعمائه؟

فإن زعموا أن ذلك مما لا يزيد في علوم العباد، ولا في مخافتهم من الله (تعالى) أبطلوا ما في عادة الخلق، وأحالوا ما توجبه العقول. فإن قالوا: بل قد يزيد ذلك في علوم العباد، وفي طاعتهم الله (تبارك وتعالى) ومراعاتهم لأمره، قيل لهم: فلم أنكرتم مع هذا أن يكون بعث الله عز

(١) انظر : الفصل ١/١٣٨.

وجل رسله إلى عباده على جهة التذكار لهم، والزيادة في الشرائع والنقصان منها على أقدار أزمانهم، ومصالح شؤونهم؟! وكيف قضيتم بأن بعث الرسل من الله (تعالى) لعباده ليس من الحكمة، وتحكمتم في ذلك؟! أو ليس تواتر رسل الله (تعالى) إلى خلقه وتجديد عهده إلى عباده على ألسنة رسله وتتابع وعظه، وتذكاره على أسماعهم مما يستدعي إلى طاعته ويندب إلى عبادته؟ وكيف يَدَعُ سبحانه الأمر المستدعي إلى طاعته، والزاجر عن معصيته إلى غيره من الأمر الذي زعمتم، من ترك بعث الرسل إليهم، حتى تحكمتم في ذلك وقضيتم بأنه جور وعبث غير حكمة؟![1].

ومما يدل على قوة ما ذكر أنه لو قدر وجود ملك أو سلطان قد خرج عليه بعض جنده في مخالفة أمره، فأرسل ذلك الملك إليهم رسولاً ليرجعوا عن مخالفة أمره ويرتدعوا عن معاندته، والخروج من طاعته، أليس هذا الوجه أولى بالحكمة والعدل والرفق والاستصلاح منه إذا هو باطشهم على غير إعذار منه إليهم، وأخذهم على غرة من غير إنذار منه لهم[2].

مناظرة اليهود في النسخ:

اليهود تقول: إن القول بنسخ الشرائع يلزم منه البداء على الله (تعالى) وهو فاسد باتفاق، فيلزم منه أنه لا ناسخ لشريعة موسى عليه السلام.

(١) انظر: الموجز لأبي عمار الأباضي ١/٢٩٩-٣٠٠.

(٢) انظر: المرجع السابق ١/٣٠٠.

والبداء هو استحداث عِلْمٍ لله (تعالى) لم يكن عالماً به قبل ذلك.

ذكر الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني مناظرة جرت له مع يهودي أورد سؤالاً يروم به إحالة النسخ، وهو قوله: إذا كان بالرجل علة من الحرارة كان على الطبيب أن يداويه بالبرودات ولا يجوز أن يسقيه شيئاً من الأدوية الحارة، فإن فعله كان فيه هلاكه. كذلك إذا كان الخلق على شريعة من الشرائع وكان صلاحهم في ذلك إبقاؤهم على تلك الشريعة، وكان تنقلهم عنها إفساداً لهم والله (تعالى) لا يفعله.

قال الأستاذ رحمه الله: فقلت له: هذا كما قلت إذا كان الطبيب ناقصاً في الطب، لم يجز إلا ما قلت، فأما إذا كان طبيباً يدعي الحذقة والزيادة على ما عند الأطباء، قال وقد عرفتم أن هذا المريض محرور ولا يصح عندكم إلا بالبرودات، وأنا أعالجه بالأدوية الحارة ويبرأ كما يبرأ بالبرودات كان له الفضل، ويجب الإعراض عن كل طبيب لا يساويه، فتحير السائل، وقطع الكلام.

قال الأستاذ رحمه الله: ثم انتدب بيهودي آخر للكلام، فقال: أنا أجوز النسخ من طريق العقول، وأمنعه من طريق الشريعة. وقال: روينا عن موسى عليه السلام: لا نسخ لشريعتي وهي لازمة لكم ما دامت السموات والأرض. كما روينا المعجزات وما جرى بينه وبين أعدائه، فإن لم يثبت ما رويناه في نسخ الشريعة، لم يثبت ما رويناه من المعجزات.

فقلت: أما ما رويتموه من المعجزات والمقالات فصحيح على ما رويتموه، مقبول منكم على ما ذكرتموه ولم يقع بينكم خلاف فيه، واجتمعتم على ذلك في كل الروايات، ولم يثبت لكم مثله في المنع من

النسخ بل اختلفتم فيه، فروى خلق كثير من بني إسرائيل جواز النسخ، وآمنوا بعيسى عليه السلام وكذبوكم فيما رويتم، وإذا وقع الخلاف بينكم سقطت الروايات ووجب طلب الدليل على الصحيح.

فقال: إن الذين آمنوا بعيسى وجوزوا النسخ طائفة قد ارتدوا عن دين موسى عليه السلام وأنكروا ما عرفوه.

فقلت له: ما دعواك عليهم أنهم ارتدوا إلا مثل دعواهم عليكم أنكم ارتددتم، فلا يقطع بقول واحد منكم على الاختلاف، ولا يصح إلا بدلالة أخرى، وقد ثبت ذلك بما سواه.

قال الأستاذ: فلم يزد عليه[1].

طريقة أخرى في مناظرتهم:

يقال لهم: هل أنتم ـ اليوم ـ على ملة موسى عليه السلام ؟ فإن قالوا: نعم. قلنا لهم: أليس في التوراة أن من مس عظماً، أو وطئ قبراً، أو حضر ميتاً عند موته فإنه يصير من النجاسة في حال لا مخرج له منها إلا برماد البقرة التي كان الإمام الهاروني يحرقها؟ فلا يمكنهم مخالفة ذلك؛ لأنه نصٌّ ما يتداولونه.

فنقول لهم: فهل أنتم اليوم على ذلك؟ فيقولون: لا نقدر عليه. فنقول لهم: فلم جعلتم أن من مس العظم، والقبر والميت فهو طاهر يصلح للصلاة وحمل المصحف، والذي في كتابكم بخلافه؟ أما إن قالوا: لأنا

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٦٥-٢٦٦.

عدمنا أسباب الطهارة وهي: رماد البقرة، والإمام المطهر المستغفر. قلنا: فهل ترون هذا الأمر مع عجزكم عن فعله مما تستغنون في الطهارة عنه أم لا؟ فإن قالوا: نعم قد نستغني عنه، فقد أقروا بالنسخ لتلك الفريضة، لحال اقتضاها هذا الزمان، وإن قالوا: لا نستغني في الطهارة عن ذلك الطهور، فقد أقروا بأنهم الأنجاس أبداً ما داموا لا يقدرون على سبب الطهارة...[١]

طريقة أخرى في مناظرتهم:

يقال لهم: هل كان قبل نزول التوراة شرع أم لا؟ فإن جحدوا كذبوا بما نطق به الجزء الثاني من السفر الأول من التوراة، إذ شرع الله (تعالى) على نوح عليه السلام القصاص في القتل، وهذا قوله: "سافك دم الإنسان فليحكم بسفك دمه؛ لأن الله (تعالى) خلق الآدمي بصورة شريفة".

وبما يشهد به الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة، إذ شرع الله على إبراهيم عليه السلام ختانة المولود في اليوم الثامن من ميلاده، وهذه وأمثالها شرائع؛ لأن الشرع لا يخرج عن كونه: أمراً أو نهياً من الله (تعالى) لعباده، سواء نزل على لسان رسول أو كتب في أسفار، أو ألواح أو غير ذلك، فإذا أقروا بأنْ قد كان شرع. قلنا لهم: ما تقولون في التوراة، هل أتت بزيادة على تلك الشرائع أم لا؟

---

(١) انظر : إفحام اليهود ـ السموءل ص: ٩٣-٩٤.

فإن لم تكن أتت بزيادة فقد صارت عبثاً، إذ لا زيادة فيها على ما تقدم، ولم تغن شيئاً، فلا يجوز أن تكون صادرة عن الله (تعالى)، فيلزمكم أن التوراة ليست من عند الله (تعالى) وذلك كفر على مذهبكم، وإن كانت التوراة أتت بزيادة، فهل في تلك الزيادة تحريم ما كان مباحاً أم لا؟ فإن أنكروا ذلك بطل قولهم من وجهين:

أحدهما: أن التوراة حرمت الأعمال الصناعية في يوم السبت بعد أن كان ذلك مباحاً، وهذا بعينه هو النسخ.

الثاني: أنه لا معنى للزيادة في الشرع إلا تحريم ما تقدمت إباحته، أو إباحة ما تقدم تحريمه.

فإن قالوا: إن الحكيم لا يحظر شيئاً ثم يبيحه؛ لأن ذلك إن جاز مثله كان كمن أمر بشيء وضده.

فالجواب: أن من أمر بشيء وضده في زمانين مختلفين غير مناقض بين أوامره، وإنما يكون كذلك لو كان الأمران في وقت واحد.

فإن قالوا: إن التوراة حظرت أموراً كانت مباحة من قبل ولم تأت بإباحة محظور. والنسخ المكروه: هو إباحة المحظور؛ لأن من أُبيح له شيء فامتنع عنه، وحظره على نفسه فليس بمخالف، وإنما المخالف: من مُنع من شيء فأتاه؛ لاستباحته المحظور.

فالجواب: أن من أحلَّ ما حظره الشرع في طبقة المحرم لما أحله الشرع، إذ كل منهما قد خالف المشروع... فإن جاز أن يأتي شرع

التوراة بتحريم ما كان إبراهيم ﷺ ومن تقدمه على استباحته، فجائز أن تأتي شريعة أخرى بتحليل ما كان في التوراة محظوراً.

وأيضاً ـ فلا تخلو المحظورات من أن يكون تحريمها مفترضاً في كل الأزمنة؛ لأن الله (تعالى) يكره ذلك المحظور لعينه، وإما أن لا يكرهه لعينه، بل ينهى عنه في بعض الأزمنة، فإن كان الله (تعالى) ينهى عن عمل الصناعات في يوم السبت لعين السبت، فينبغي أن يكون هذا التحريم على إبراهيم ونوح وآدم أيضاً، لأن عين السبت كانت موجودة أيضاً في زمانهم، وهي علة التحريم، وإن كان ذلك غير محرم على إبراهيم ومن تقدمه فليس النهي عنه لعينه؛ أعني: في جميع أوقات وجود عينه، وإذا لزمكم أن تحريم الأعمال الصناعية في يوم السبت ليس بمحرم في جميع وجود أوقات السبت، فليس بممتنع أن يُنْسخ هذا التحريم في زمان آخر، وإذ ظهر قائم بمعجزات الرسالة وأعلام النبوة في زمن آخر بعد فترة طويلة، فجائز أن يأتي بنسخ كثير من أحكام الشريعة، سواء حظر مباحاتها أو أباح محظوراتها...[1]

طريقة أخرى في مناظرة اليهود في النسخ:

يقال لهم: أخبرونا عن تحريم السبت، هل هو تحريم لغيره من الأيام؟ فإن قالوا: لا. قيل لهم: وكيف جوزتم أن يحرم في يوم ما يحل في غيره من الأيام، ولم تجوزوا أن يحرم في شهر وفي دهر ما يحل في غيره من الشهور

---

(١) انظر : إفحام اليهود للسموءل ص : ٨٦-٨٩ .

والدهور في شريعة واحدة، على لسان نبي واحد؟! وكيف إذا كان ذلك في شرائع شتى، على ألسنة أنبياء شتى؟ وهل أنكرتم علينا من تحريم شيء بعد تحليل، وتحليله بعد تحريم، إلا مثل هذا الذي قلتم في السبت دون غيره من الأيام سواء؟ وهذا مما لا يخفى على كل ذي لب.

ويقال لهم أيضاً: أوليس الله عز وجل قد خالف بين أحوال الناس وأحوال أزمانهم، فأحيا شيئاً مدة ثم أماته، وجعل شيئاً مواتاً مدة ثم أحياه، وجعل ليلاً ونهاراً، وشتاء وصيفاً، يكون واحد منهما في زمان ثم ينقضي، ويجيء مكانه خلافه، ويكون الإنسان فقيراً وقتاً، وغنياً وقتاً، وصحيحاً مرة، وسقيماً مرة، في أشباه ذلك من صنوف الأشياء التي خالف الله بها بين أحوال الناس، وقدّر كل شيء منها في زمان دون زمان، أفيجب بذلك أن يكون ما يوجد بهذا الاختلاف دليلاً على أن فاعله ذو بداوات، وأنه يحب شيئاً ثم يكرهه، وأنه يستحدث علماً لشيء لم يكن به عالماً؟ فإن قالوا: نعم ظهر جهلهم، ولزمهم مع ذلك أن لا ينكروا النسخ مع إجازة البداء فيه، وإن كان هذا كله لا يوجب البداء، ولا يدل على خلاف العلم، ولا على أن ذلك ليس من فعل حكيم، فما الفرق بين هذا وبين اختلاف الشرائع في أن لا يكون اختلافها دليلاً على البداء، أو على أنها ليست من فعل حليم؟!

هذا كله والتوراة التي في أيدي اليهود يقرأونها وهي تنطق بالنسخ وتفصح به، كالقول بأن الختان لم يكن مشروعاً ثم شرع بعد مولد

إسحاق، وأن الجمع بين الأختين كان حلالاً مطلقاً، وأن يعقوب جمع بين الأختين إلى أن حرم الله ذلك بحكم التوراة، وأن إسرائيل حرَّم على نفسه بعض المطعومات وقد كانت له حلالاً قبل ذلك، إلى غير ذلك مما شحنت به التوارة.

وقد يهرب بعضهم من هذا المضايقة والمحاصرة، فيقولون: لا نمنع من جواز وقوع النسخ في الشرائع عقلاً، ولكنا نأبى ذلك؛ لأن موسى عهد إلينا التمسك بالتوراة، وتحريم السبت دائماً، وأنه لا ناسخ لذلك كله.

فيقال لهم: من أين علمتم أن موسى عهد إليكم ذلك، فليس معهم إلا مجرد الدعوى التي يستطيعها كل مخالف لهم، فالنصارى يدعون أن عيسى عليه السلام أخبرهم بأن حكم التوراة منسوخ ببعثته ﷺ، وأهل الإسلام يقولون بأن حكم التوراة والإنجيل منسوخ ببعثة محمد ﷺ. فهل تنفصلون من النصارى، أو من أهل هذه الملة في دعواكم بفصل؟ فإن قالوا: الفصل بيننا وبينهم أنهم جامعونا على موسى و لم نجامعهم على عيسى، ولا على محمد عليهم السلام. قيل لهم: وعلى أنهم جامعوكم على موسى أنه رسول الله، لم يجامعوكم على ما ادعيتم عليه من القول بعدم النسخ مطلقاً، فكان إيمان المؤمنين بموسى وعيسى حجة قاطعة لأهل الطائفتين الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ فآمن أهل الإسلام بجميع الأنبياء والرسل، وفرَّق غيرهم من ملل الكفر بين أنبياء الله ورسله، فكانوا بذلك من الكافرين، قال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ

وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٠-١٥٢] فأسعد الطوائف بموسى وعيسى وإبرهيم هم أتباع محمد ﷺ.

فإن ادعوا أن النقل جاءهم بما يؤكد دعواهم الكاذبة، قيل لهم: ومتى اتصل لكم النقل بما ادعيتم من ذلك فيما بينكم وبين موسى عليه السلام مع ما لا تشكون فيه من غلبة بختنصر على بيت المقدس، وتحريق أسفار التوراة، وسائر ما في أيدي بني إسرائيل من كتب التوراة، ومن قتل جميع رجالهم. وسبي من سبى من صبيانهم، فكيف يصح مع هذا نقل ما نقل إليكم من ألفاظ التوراة، وغير التوراة حتى تتيقنوا أنه لا زيادة فيه ولا نقصان؟!

مع أن ألفاظ التوراة مشاهدة بأنها من تأليف لسان إنسان بعد موسى عليه السلام يخبر بما كان من أمر موت موسى عليه السلام وعهده إلى يوشع بن نون، وحزن بني إسرائيل عليه وبكائه عليه، فكيف يشكل على عاقل مع ذلك كله أن هذه التوراة ليست من كلام موسى، ولا مما أنزله الله على موسى بحرفه ولفظه، وقد يكون فيها بعض الحق لكنه مختلط بباطل كثير لا يتميز، أضف إلى ذلك ما بين نسخ التوراة من الاختلاف والتعارض ما يقطع أن يد التحريف قد طالتها، أو قلم الحاقدين قد عبث بها[1].

---

(١) انظر: كتاب الموجز لأبي عمار عبد الكافي الأباضي ٢/٣٣٣-٣٤٠.

مناظرة النصارى في النسخ:

ناظر مسلم طائفة من النصارى في مسألة النسخ، فادعت النصارى امتناع النسخ للشرائع والأحكام، فقال لهم المسلم: أتقرون أن أولاد آدم عليه السلام الذين خرجوا من ظهره كانوا يتزوجون أخواتهم؟ قالوا: نعم، وقصة قابيل وهابيل في ذلك شهيرة. قال: فما حكم إنجيلهم؟ قالوا: تحريم ذلك علينا. قال: هذا هو حقيقة النسخ من غير مزيد. فانقطعوا، وهم أشد إبعاداً عن القرابة في التزويج(١).

مناظرة اليهود في اختصاصهم با لله (تعالى):

فهم يزعمون أن ا لله (سبحانه وتعالى) يُحبهم دون جميع الناس، ويُحب طائفتهم وسلالتهم، وأن الأنبياء والصالحين لا يختارهم ا لله إلا منهم، وأن الجنة مقصورة عليهم، وقد أبطل ا لله (تعالى) هذا الزعم في مثل قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٤-٩٥]. وقوله (تعالى): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [سورة المائدة: ١٨] وقوله (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٩٩-٣٠٠.

عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة الجمعة: ٦-٧]. وقد مرَّ بيان معنى هذه الآيات في الموضع الخاص بالجدل في القرآن الكريم.

فيقال لهم: ما قولكم في أيوب النبي ﷺ ؟ أتقرون بنبوته؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: هل هو من بني إسرئيل؟ فيقولون: لا. فيقال لهم: ما تقولون في جمهور بني إسرائيل، أعني التسعة أسباط والنصف الذين أغواهم يربعام بن نباط الذي خرج على ولد سليمان بن داود عليهما السلام وصنع لهم الكبشين من الذهب وعكف على عبادتهما جماعة بني إسرائيل وأهل جميع ولاية دار ملكهم الملقبة يومئذ بشومرون إلى أن جرت الحرب بينهم وبين السبطين والنصف الذين كانوا مؤمنين مع ولد سليمان في بيت القدس، وقتل في معركة واحدة خمسائة ألف إنسان، فما تقولون في أولئك القتلى بأسرهم وفي التسعة أسباط والنصف، هل كان الله يحبهم لأنهم إسرائيليون؟ فيقولون: لا؛ لأنهم كفار. فيقال لهم: أليس عندكم في التوراة أنه لا فرق بين الدخيل في دينكم وبين الصريح النسب؟ فيقولون: بلى؛ لأن التوراة ناطقة بهذا: إن الأجنبي والصريح النسب منكم سواء عند الله.

فإذا اضطررناهم إلى الإقرار بأن الله لا يحب الضالين منهم، ويحب المؤمنين من غير طائفتهم، ويتخذ أنبياء وأولياء من غير سلالتهم، فقد نفوا ما ادعوه من اختصاص محبة الله (سبحانه وتعالى) بطائفتهم من بين المخلوقين[1].

---

(١) إفحام اليهود ـ السموءل ص : ١٢١-١٢٣.

مناظرة اليهود وإلزامهم الإيمان بمحمد ﷺ:

اتفق أن اجتمع للمناظرة بعض أهل العلم مع يهودي يزعم أنه من أهل النظر والدليل، فألزمه المسلم صحة نبوة محمد ﷺ بما ظهر على يديه من الخوارق المنقولة تواتراً، وإلا ألزمه الكفر بنبوة موسى عليه السلام إن هو كفر بنبوة محمد ﷺ إذ الطريق في الإثبات واحد[1] وتزيد معجزة نبينا محمد ﷺ بأنها أقرب وأكثر، ومشاهدة الآية العظمى وهي القرآن العظيم أبقاه الله (تعالى) معجزة دائمة على وجه الدهر إلى قيام الساعة.

فقال اليهودي: أنا أقر بصحة نبوته ورسالته لما وقع من هذه الدلائل، لكني أخصصها بالعرب فلا تلزمنا نحن.

فقال له المسلم: فالآن وجب عليك الدخول في الإسلام؛ لأنك أقررت بنبوته، والنبي لا يكون إلا صادقاً، وقد قال النبي ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»[2] ونطق كتابه بأنه بعث إلى الناس كافة[3]، ولا يمكنك إنكار هذا؛ لأن قتاله لكم، وسبي ذراريكم وأموالكم على الدخول في الدين منقول بالتواتر. فانقطع اليهودي[4].

---

(١) طرق إثبات النبوة لا تقتصر على المعجزة، بل المعجزة إحدى طرق إثبات النبوة، أي أن هناك طرقاً أخرى كثيرة ومتنوعة؛ منها: صدق الرسل، واتفاق أحوال الرسول ظاهراً وباطناً، وتبشير بعضهم ببعض، إلى غير ذلك من الطرق والأمارات التي تعرف بها صحة النبوة.

(٢) انظر: صحيح مسلم ١/٣٧٠-٣٧١ كتاب المساجد ح: ٥٢١، ومسند الإمام أحمد ٤/٤١٦، ٥/١٤٥، ١٤٨، ١٦٢.

(٣) من ذلك قوله تعالى: وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ... [سورة سبأ: ٢٨] وقوله: قل يـأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا... [سورة الأعراف: ١٥٨].

(٤) انظر: عيون المناظرات ص: ٢٩٨-٢٩٩.

قال صاحب عيون المناظرات[1] : «وهذه المناظرة قاطعة للعيساوية أتباع أبي عيسى الأصبهاني[2] من اليهود».

مناظرة اليهود في عموم الرسالة:

قال أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (٥٨٢هـ): «وقد ناظرني يوماً أحد أحبار اليهود وأهل الذكاء منهم في هذا، فقال: هذا كله صحيح[3] ، لا أجد اعتراضاً عليه، غير أنه قال: سأقيم لبني إسرائيل ولم يكن محمد إلا إلى العرب. فقلت له: ما على الأرض أحد يجهل أن محمداً قال: بعثت إلى الأبيض والأسود، والحر والعبد، والذكر والأنثى، وهذا كتابه ينطق أنه مبعوث إلى الخلق كافة، فلو أمكنك أن تقول: إنما ادعى أنه مبعوث إلى العرب خاصة لكانت لك حجة. فقال: لا يمكنني ولا غيري دفع ذلك، وبذلك أخبرنا أسلافنا من اليهود عنه أنه قال: بعثت إلى الخلق كافة، إلا فرقة من فرق اليهود يقال لها العيسوية، ولسنا على شيء مما هم عليه، ثم عطف على يهودي إلى جنبه وقال له: نحن قد جرى نشؤنا على اليهودية، وبالله ما أدري كيف نتخلص من هذا العربي، وإن أقل ما يجب علينا أن نأخذ به أنفسنا النهي عن ذكره بسوء»[4] .

وهذه المناظرة ذكرها ابن القيم في هداية الحيارى، لكن بأوسع مما تقدم، ولم يصرح باسم صاحبها، فلعله اطلع على نسخة أخرى من مقامع

(١) ص : ٢٩٩.

(٢) في كتاب الملل والنحل : أبوعيسى الأصفهاني.

(٣) وهو كون محمد ﷺ رسول الله.

(٤) مقامع الصلبان ـ الخزرجي ص : ١٢٠-١٢٢.

الصلبان، أو على كتاب آخر للخزرجي ذكرها فيه كاملة، ثم اختصرها في مقامع الصلبان[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله ـ بعد أن ذكر مناظرة جرت له مع بعض علماء اليهود، وسيأتي ذكره قريباً ـ[(٢)]: وقريب من هذه المناظرة ما جرى لبعض علماء المسلمين مع بعض اليهود ببلاد المغرب. قال له المسلم: في التوراة التي بأيديكم إلى اليوم أن الله قال لموسى: "إني أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبياً مثلك أجعل كلامي على فيه، فمن عصاه انتقمت منه" قال له اليهودي: ذلك يوشع بن نون. فقال المسلم: هذا محال من وجوه: أحدها: أنه قال عندك في آخره التوراة: "أنه لا يقوم في بني إسرائيل نبي مثل موسى". الثاني: أنه قال: "من إخوتهم" وإخوة بني إسرائيل إما العرب وإما الروم، فإن العرب بنو إسماعيل والروم بنو العيص، وهؤلاء إخوة بني إسرائيل، فأما الروم فلم يقم منهم نبي سوى أيوب، وكان قبل موسى، فلا يجوز أن يكون هو الذي بشرت به التوراة، فلم يبق إلا العرب وهم بنو إسماعيل وهم إخوة بني إسرائيل، وقد قال الله في التوراة حين ذكر إسماعيل جد العرب:"إنه يضع فسطاطه في وسط بلاد إخوته" وهم بنو إسرائيل، وهذه بشارة بنبوة ابنه محمد الذي نصب فسطاطه، وملك أمته في وسط بلاد بني إسرائيل وهي الشام التي هي مظهر ملكه كما تقدم من قوله: "وملكه بالشام".

---

(١) انظر : ما ذكره محقق مقامع الصلبان في هامش ص : ١٢٠-١٢١.

(٢) هداية الحيارى ص : ١٠٥-١٠٦.

فقال له اليهودي: فعندكم في القــرآن: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[سورة الأعـراف: ٨٥]، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[سـورة الأعـراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[سورة الأعراف: ٧٣] والعرب تقول: يا أخـا بـني تميـم، للواحـد منهـم، فهكذا قوله: " أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم".

قال المسلم: الفرق بين الموضعين ظاهر، فإنه مــن المحـال أن يقـال: إن بني إسرائيل إخوة بني إسرائيل، وبني تميم إخوة بني تميم، وبني هاشم إخوة بني هاشم، هذا ما لا يعقل في لغة أمة من الأمم، بخلاف قولك: زيد أخـو بني تميم، وهو أخو عاد، وصالح أخو ثمود أي واحد منهم، فهو أخوهم في النسب، ولو قيل عاد أخو عاد، وثمود أخو ثمود، ومدين أخو مدين لكـان نقصاً، وكان نظير قولك بنو إسـرائيل إخـوة بـني إسـرائيل، فاعتبـار أحـد الموضعين بالآخر خطأ صريح.

قال اليهودي: فقد أخبر أنه سيقيم هذا النبي لبني إسرائيل، ومحمد إنمـا أقيم للعرب و لم يقم لبني إسرائيل، فهـذا الاختصـاص يشـعر بأنـه مبعـوث إليهم لا إلى غيرهـم.

قال المسلم: هذا من دلائل صدقه، فإنه ادعى أنه رسول الله إلى أهــل الأرض كتابيهم وأميهم، ونــص الله في التـوراة علـى أنـه يقيمـه لهـم لئـلا يظنوا أنه مرسل إلى العرب خاصة. والشيء يخص بالذكر لحاجة المخاطب إلى ذكره؛ لئلا يتوهم السامع أنه غير مـراد بـاللفظ العـام ولا داخـل فيـه، وللتنبيه على أن ما عداه أولى بحكمه، ولغير ذلك مــن المقـاصد، فكـان في

تعيين بني إسرائيل بالذكر إزالة لوهم من توهم أنه مبعوث إلى العرب خاصة، وقد قال (تعالى): ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾[سورة القصص: ٤٦] وهؤلاء قومه و لم ينف ذلك أن يكون نذيراً لغيرهم، فلو أمكنك أن تذكر عنه أنه ادعى أنه رسول إلى العرب خاصة لكان حجة، فأما وقد نطق كتابه وعرف الخاص والعام بأنه ادعى أنه مرسل إلى بني إسرائيل وغيرهم فلا حجة لك.

قال اليهودي: إن أسلافنا من اليهود كلهم على أنه ادعى ذلك، ولكن العيسوية منا تزعم أنه نبي العرب خاصة ولسنا نقول بقولهم، ثم التفت إلى يهودي معه، فقال: نحن قد جرى شأننا على اليهودية، وتالله ما أدري كيف التخلص من هذا العربي، إلا أنه أقل ما يجب علينا أن نأخذ به أنفسنا النهي عن ذكره بسوء.

مناظرة ابن القيم لبعض علماء اليهود:

هذه المناظرة ذكرها ابن القيم رحمه الله في مواضع من كتبه[1]، فقال رحمه الله في كتابه: هداية الحيارى[2]: وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يُشير إليه اليهود بالعلم والرياسة، فقلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمداً ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة. فعجب من ذلك،

---

(١) مثل كتاب هداية الحيارى ص : ١٠٤، وكتاب : زاد المعاد ٣/٦٣٩-٦٤٢، وكتاب: التبيان في أقسام القرآن ١/٣٢٨-٣٣٣ .

(٢) ص : ١٠٤ .

وقال: مثلك يقول هذا الكلام؟! فقلت له: اسمع الآن تقريره: إذا قلتم: إن محمداً ملك ظالم قهر الناس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثاً وعشرين سنة يدَّعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا ونهاني عن كذا، وأوحى إلي كذا، ولم يكن من ذلك شيء، ويقول: إنه أباح لي سبي ذراري من كذبني وخالفني، ونساءهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم، ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم، فلا يخلو إما أن تقولوا: إن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا: إنه خفي عنه ولم يعلم به، فإن قلتم: لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل وكان مَنْ علم ذلك أعلم منه، وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه، فلا يخلو إما أن يكون قادراً على تغييره، والأخذ على يديه ومنعه من ذلك، أو لا؛ فإن لم يكن قادراً فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادراً وهو مع ذلك يُعِزُّه وينصره ويؤيده ويعليه، ويعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويمكنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلاً عن رب الأرض والسماء؛ فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته، وبتأييده، وبكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب.

فلما سمع ذلك قال: معاذ الله، أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر، بل هو نبي صادق من اتبعه أفلح وسعد. قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟ قال: إنما بعث إلى الأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه. قلت له: غلبت كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم من أهل الكتاب، وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به، فأمسك ولم يحر جواباً.

مناظرة أخرى:

لا يسع عاقلاً أن يكذب نبياً ذا دعوة شائعة وكلمة صادقة، ويصدق غيره؛ لأنه لم ير أحدهما، ولا شاهد معجزاته، فإذا اختص أحدهما بالتصديق، والآخر بالتكذيب، فقد تعين عليه الملام والازدراء عقلاً، ونضرب لذلك مثالاً: وهو أنا إذا سألنا يهودياً عن موسى ـ عليه السلام ـ وهل رآه وعاين معجزاته؟ فهو ـ بالضرورة ـ يقر بأنه لم يشاهد شيئاً من ذلك عياناً.

فنقول له: بماذا عرفت نبوة موسى وصدقه؟ فإن قال: إن التواتر قد حقق ذلك، وشهادات الأمم بصحته دليل ثابت في العقل، كما قد ثبت عقلاً وجود بلاد، وأنهار لم نشاهدها، وإنما تحققنا وجودها بتواتر الأنبياء والأخبار. قلنا: إن هذا التواتر موجود لمحمد وعيسى عليهما السلام كما هو موجود لموسى، فيلزمك التصديق بهما.

وإن قال اليهودي: إن شهادة أبي عندي بنبوة موسى هي سبب تصديقي بنبوته. قلنا: ولم كان أبوك عندك صادقاً في ذلك معصوماً عن الكذب، وأنت ترى الكفار - وهم عنده غير اليهود من المسلمين وغيرهم، وذلك من باب مجاراة الخصم - أيضاً يعلمهم آباؤهم ما هو كفر عندك؟ إما تعصباً من أحدهم لدينه وكراهية لمباينة طائفته، ومفارقة قومه وعشيرته. وإما لأن أباه وأشياخه نقلوه إليه، فتلقنه منهم معتقداً فيه الهداية والنجاة، فإذا كنت يا هذا قد ترى جميع المذاهب التي تكفرها قد أخذها أربابها عن آبائهم، كأخذك مذهبك عن أبيك، وكنت عالماً أنما هم عليه ضلال وجهل، فيلزمك أن تبحث عما أخذته عن أبيك، خوفاً من أن تكون هذه حالته. فإن قال: إن الذي أخذته عن أبي أصح مما أخذه الناس عن آبائهم، كان هذا تحكماً منه، وتشهياً، وتفريقاً بلا مفرق، وهي صفة ذميمة لا ينبغي لعاقل أن يتصف بها.

فلا تبقى لهم حجة بنبوة موسى إلا شهادة التواتر، وهذا التواتر موجود لعيسى ومحمد (عليهما الصلاة والسلام) كوجوده لموسى، وإذا كانوا قد آمنوا بموسى بشهادة التواتر بنبوته، فقد لزمهم التصديق بنبوة المسيح ومحمد عليهما السلام[(١)].

مناظرة أخرى:

قال بعض العلماء: قدم البصرةَ يهودي فناظر بها ناساً فقطعهم، فتقدم إليه شاب من المسلمين، فقال الشاب: فوجدت سبيله في المناظرة

---

(١) انظر : إفحام اليهود - السموءل ص : ٩١-٩٣ .

أن يقرر المناظرين على نبوة موسى عليه السلام فإذا أقروا جحد نبوة نبينا محمد ﷺ ويقول: نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نتفق على غيره فنقر به.

قال: فدنوت منه فقلت: ما تقول؟ فقال: أخبرني، أليس موسى نبياً؟ فقلت: إن الذي سألتني عنه ينقسم إلى قسمين: أحدهما: أني أُقر بنبوة موسى الذي أخبر بنبوته محمد ﷺ، وأمر باتباعه، وبشر به، فإن سألتني عنه فإني أُقر به، وإن سألتني عن موسى آخر لا يُقر بنبوة محمد عليه السلام، ولا بشَّر به، فلست أعرفه، ولا أُقر به. فانقطع اليهودي[1].

مناظرة مشابهة في قطع النصارى:

ذُكر أن نصرانياً ورد قرطبة وطلب المناظرة، فاتفق أن اجتمع به ابن الطلاع(٤٩٧هـ) ـ بعد حكاية طويلة ـ فقال له النصراني: ما تقول في عيسى؟ فقال له ابن الطلاع: لعلك تريد المبشر بمحمد ﷺ ؟ فانقطع النصراني.

لأنه رأى إن أنكر له هذا الوصف كذب إنجيله، وكفر بعيسى على الحقيقة؛ لأنه إنما أقر بعيسى آخر، وإن أقر لزمه الدخول في الإسلام، لما وجب عليه عند إيمانه بعيسى من الإيمان بما بشر به وإلا فليس بمؤمن[2].

مناظرة أخرى مشابهة :

قال محمد الشنقيطي رحمه الله: «ذكر بعض العلماء أن نصرانياً قال لعالم من علماء المسلمين: ناظرني في الإسلام والمسيحية أيهما أفضل؟

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٢٠ .

(٢) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٩٨ .

فقال العالم للنصراني: هلُمَّ إلى المناظرة في ذلك، فقال النصراني: المتفق عليه أحق بالاتباع أم المختلف فيه ؟ فقال العالم : المتفق عليه أحق بالاتباع من المختلف فيه ؟ فقال النصراني: إذن يلزمكم اتباع عيسى معنا، وترك اتباع محمد صلى الله عليهما وسلم ؛ لأننا نحن وأنتم نتفق على نبوة عيسى، ونخالفكم في نبوة محمد عليهما الصلاة والسلام، فقال المسلم: أنتم الذين تمتنعون من اتباع المتفق عليه؛ لأن المتفق عليه الذي هو عيسى قال لكم: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحمد﴾ [سورة الصف: ٦] فلو كنتم متبعين عيسى حقاً لاتبعتم محمداً ﷺ، فظهر أنكم أنتم الذين لم تتبعوا المتفق عليه ولا غيره، فانقطع النصراني»[(١)] .

مناظرة النصارى في بنوة عيسى عليه السلام:

يقال للنصارى: لم قلتم في المسيح: إنه ابن الله، أو إن فيه الروح اللاهوتي أو الطبيعة اللاهوتية؟.

فإن قالوا: قلنا ذلك بسبب ما يجري على يديه من إحياء الموتى، وإبراء المرضى، ما لا تحتمله طبيعة الإنسان ولا روح الإنسان. قيل لهم: فإن كنتم إنما قلتم ما قلتم من ذلك لهذه العلة، فينبغي لكم أن تقولوا في جميع مَنْ ظهر على يديه مثل هذه الأشياء بأن فيه من الروح اللاهوتي والطبيعة اللاهوتية، فهذا موسى عليه السلام تحدث على يديه العجائب العظيمة

(١) أضواء البيان ٢/١٠٨ .

والأمور الجليلة، فينبغي لكم أن تقولوا في موسى بمثل قولكم في المسيح[١].

مناظرة أخرى:

ذُكر أن المأمون جمع بين العتابي (٢٠٢هـ) وابن فروة النصراني، وقال لهما: تكلما وأوجزا. فقال العتابي لابن فروة: ما تقول في عيسى المسيح؟ قال: أقول: إنه من الله. قال: صدقت، ولكن من تقع على أربع جهات لا خامس لها، من كالبعض من الكل على سبيل التجزئ، أو كالولد من الوالد على سبيل التناسل، أو كالخل من الخمر على سبيل الاستحالة، أو كالصنعة من الصانع على سبيل الخلق من الخالق أم عندك شيء تذكره غير ذلك؟ قال ابن فروة: لا بد أن يكون أحد هذه الوجوه، فما أنت مجيي إن تقلدت مقالة منها؟ قال العتابي: إن قلت: على سبيل التجزئ كفرت، وإن قلت: على سبيل التناسل كفرت، وإن قلت: على سبيل الاستحالة كفرت، وإن قلت: على سبيل الفعل كالصنعة من الصانع، والمخلوق من الخالق فقد أصبت. قال ابن فروة: فما تركت لي قولاً أقوله. وانقطع[٢].

ذكر صاحب عيون المناظرات[٣] أن العتابي إنما ألزمه الكفر في الأوجه الثلاثة، ما عدا الفعل من الفاعل؛ لأن كل وجه منها يؤدي إلى الحدوث والافتقار.

---

(١) انظر: الموجز لأبي عمار الأباضي ١/٣٤٩-٣٥٠.

(٢) عيون المناظرات ص: ٢١٣.

(٣) ص: ٢١٣.

مناظرة النصارى في الصلب:

يعتقد النصارى أن المسيح صلب وقتل، فيقال لهم: إن هذا الصلب والقتل إما أن يكون ضلالاً وإما أن يكون هدى، ومحال أن يكون هدى؛ فإنكم تكفرون من فعل ذلك، وتضللونهم؛ ولأجل ذلك الفعل حاق الغضب، وحاقت اللعنة على اليهود ـ بزعكم ـ فلم يبق إلا أن يكون ضلالاً.

وإذا كان ذلك فقد لزمكم أن الله فعل الضلال؛ فإنكم قد صرحتم بأن الله إنما فعل ذلك لأجل خطيئة آدم، ولم يرد الله أن ينتقم من آدم، ولا من أحد من ولده. وإنما أراد أن ينتقم من إله مثله. فقد صرحتم ونصصتم أن الله أراد الضلال وفعله على أقبح ما سُمع، وأشنع ما به يُتحدث، ثم إنا لا ندري مما يكون التعجب أكثر؟ من ذهاب عقولكم، أو من جهلكم بكتبكم[1].

مناظرة أخرى في الصلب:

يقال للنصارى: أنتم مدحتم شريعتكم بأنها مبنية على العفو والصفح، ثم مع ذلك تأبون أن يكون الله (تعالى) قد عفا عن آدم حين أكل من الشجرة؛ حتى قالوا: إن جميع بني آدم كانوا مرتهنين بمعصية أبيهم حتى فداهم المسيح بنفسه، بل لم يتصور عندهم عفو الله حتى انتقم من إله مثله، تعالى الله وتقدس عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

---

(١) انظر : الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ـ القرطبي ص : ٤٥٥-٤٥٦.

فعلى هذا يقال لهم: لا يخلو العفو من أن يكون هو الأولى مطلقاً، أو الانتقام هو الأفضل، أو الحالة الثالثة. فإن كان العفو هو الأولى، فلمَ لم يعف الله (تعالى) عن آدم من غير أن يعاقبه وبَنِيه على ما زعمتم؟ وإن كان الانتقام هو الأولى، فلم لم ينتقم من آدم وبنيه مطلقاً؟

فلم يبق على هذا إلا أن الأولى: هو الحالة الثالثة، وهو: الانتقام في حال من يستحقه، والعفو في حال أخرى عن مستحق العقاب تفضلاً وتكرماً، حسب ما يريده البارئ (تعالى).

وعلى المنهاج السديد والأمر الرشيد جاءت شريعتنا، فهي كاملة متمَّمَة، والحمد لله. ثم إذا كان العفو هو الأولى والأفضل، وبه جاءت شريعتكم، فلأي معنى تتركون شريعتكم الأولى؟! فقد اعترفتم بألسنتكم، وتناقضتم بأفعالكم، وكم لكم منها وكم[١].

قال القرطبي (٦٧١هـ)رحمه الله[٢]: ولقد أحسن بعض عقلاء الشعراء في إفحام هؤلاء الأغبياء، فقال:

عجبي للمسيح بين النصارى ... وإلى أي والد نسبوه

أسلموه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعد قتله صلبوه

فإذا كان ما تقولون حقاً ... وصحيحاً فأين كان أبوه

حين حل ابنه رهين الأعادي ... أتراهم قد أرضوه أم أغضبوه

---

(١) انظر : الإعلام ـ القرطبي ص :٤٥٣-٤٥٤.

(٢) انظر : الإعلام ص: ٤١٩ والأبيات ـ أيضاً ـ في الأجوبة الفاخرة للقرافي ص: ٥٨-٥٩.

فلئن كان راضياً بأذاهم فاحمدوهم لأنهم عذبوه
وإذا كان ساخطاً فاتركوه واعبدوهم لأنهم غلبوه

مناظرة القاضي الباقلاني رحمه الله الروم في ديارهم:

بعث الملك فناخسرو بويه إلى ملك الروم برسالة حملها القاضي أبابكر الباقلاني، وكان في الرسالة: وإني قد بعثت إليك لسان أهل الأرض تعظيماً لك وتكرمة.

قال الباقلاني: فقال لي: ما معنى هذا الكلام؟ فقلت: إني رجل أتكلم على حدوث العالم وإثبات محدثه، وصفاته الواجبة له والمستحيلة عليه والجائزة في أحكامه، وأتكلم على الوحدانية، وأرد على البراهمة والمنانية والمجوس واليهود والنصارى، وأبين صحة ما أدعيه من ناحية العقل، وما يتعلق به من السمع والتوقيف، وأبين ذلك كله بالبرهان اللائح، وأرد على الاثنتين والسبعين فرقة وأنصر حقي.

فقال لي: يا مسلم، اقعد عندي وأقاسمك في مملكتي. قلت: كنت أفعل ذلك، غير أني محجور علي من جهة شرعي.

ثم ذكر الملك مسائل سأل عنها القاضي، ثم قال له: هل كان بينكم وبين القمر صداقة أو معرفة؟ كيف رأيتموه، ولم يره غيركم؟ يعني في انشقاقه آية للنبي ﷺ، فقال القاضي رحمه الله : فهل كانت بينكم وبين المائدة صداقة أو معرفة، واليهود حاضرة تحلف أنها لم تكن، فما كان جوابكم عن هذه فهو جوابنا عن القمر. فانقطع ما بيد ملك الروم فيما أورده من السؤال.

فدعا الملك للقاضي فلسفياً قد لبس الشعر حتى صار كالخنزير، فكلمه فقال له القاضي: ألست تزعم أن الأرض كرية؟ فقال: نعم. قال له القاضي: أفلا تنكر أن يُرى في هذا الإقليم ما لا يُرى في إقليم آخر، كالكسوف يُرى في موضع دون موضع، وكواكب السماء تُرى في موضع دون غيره، فلا تُنكر انشقاق القمر في إقليم دون غيره، فلما أقرَّ له بهذا قال له أصحابه: دعوناك لتردَّ عليه، لا لترد علينا وتنصره. فقال لهم: يجب أن ينصر الإنسان الحق[1].

وذكر ابن عساكر[2] أن طاغية الروم عرض يوماً للقاضي أبي بكر بحديث الإفك لقصد التوبيخ به، فقال: أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم، وما قيل فيها؟! قال له القاضي: هما اثنتان؛ قيل فيهما ما قيل، زوج نبينا، ومريم بنت عمران؛ فأما زوج نبينا فلم تلد، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها، وكلٌّ قد برأها الله مما رُميت به، فانقطع الطاغية ولم يحر جواباً.

مناظرة الفخر الرازي رحمه الله للنصارى :

هذه مناظرة[3] جرت بين الإمام الفخر الرازي ونصراني من أكابر

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٤٦-٢٤٨ ، وترتيب المدارك ٥٩٧/٤-٥٩٨ .

(٢) تبيين كذب المفتري ص : ٢١٩.

(٣) ذكرها الرازي في موضعين من تفسيره: أولهما في الجزء الثامن ص:٧٨، والثاني في الجزء الواحد والعشرين ص : ٢١٢، وطبعت مستقلة بتحقيق الدكتور عبد المجيد النجار . نشر دار الغرب الإسلامي. وهي مختصرة في عيون المناظرات ص : ٢٨٣-٢٨٧ .

علماء دين النصرانية يدعي التحقيق والتقرير لدينه، فذهب إليه الرازي، وجرت بينهما هذه المناظرة والتي انتهت بإسلام النصراني:

قال الرازي: فقال لي: ما الدليل على نبوة محمد؟

فقلت: كما نقل إلينا ظهور الخارق على يد موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام نقل إلينا ـ أيضاً ـ ظهور الخارق على يد محمد ﷺ. فإن رددنا التواتر أو قبلناه لكن قلنا: إن المعجزة لا تدل على الصدق، فحينئذ تبطل نبوة سائر الأنبياء. وإن اعترفنا بصحة التواتر، واعترفنا بدلالة المعجزة على الصدق، ثم إنهما حاصلان في حق محمد ﷺ، وجب الاعتراف قطعياً بنبوة محمد ﷺ ضرورة، لأنه عند الاستواء في الدليل لا بد من الاستواء في حصول المدلول.

فقال النصراني: إني لا أقول في عيسى إنه كان نبياً، بل أقول: إنه كان إلهاً. فقلت له: الكلام في النبوة لا بد وأن يكون مسبوقاً بمعرفة الإله، وهذا الذي تقوله باطل ويدل عليه وجوه:

الوجه الأول: أن الإله عبارة عن موجود واجب الوجود لذاته، بحيث لا يكون جسماً ولا متحيزاً ولا عرضاً[(١)]، وعيسى عبارة عن هذا الشخص البشري الجسماني الذي وجد بعد أن كان معدوماً، وقتل بعد

---

(١) تقدم بيان أن هذه الألفاظ لم ترد نصوص الكتاب والسنة بإثباتها ولا بنفيها، فهي من الألفاظ المجملة التي وردت في عبارات المتكلمين، والتي تحتمل حقاً وباطلاً، فالواجب ردها وعدم التكلم بها، واعتماد الألفاظ الشرعية بدلاً عنها، أو الاستفصال عن مراد المتكلم بها، فإن أراد بها حقاً قُبل، وإن أراد باطلاً رُدَّ .

أن كان حياً على قولكم، وكان طفلاً أولاً، ثـم صـار مترعرعـاً ثـم صـار شاباً، وكان يأكل ويشرب، ويُحدث وينام، وقد تقرر في بدايه العقول أن المحدَث لا يكون قديماً، والمحتاج لا يكون غنياً، والممكن لا يكـون واجبـاً، والمتغير لا يكون دائماً.

الوجه الثاني: في إبطال هذه المقالة أنكم تعترفون بأن اليهـود أخـذوه وصلبوه، وتركوه حياً على الخشبة، وقد مزقوا ضلعه، وأنه كان يحتـال في الهرب منهم، وفي الاختفاء عنهم، وحـين عـاملوه بتلـك المعـاملات أظهـر الجزع الشديد. فإن كان إلهاً أو كان الإله حـالاً فيـه، أو كـان جـزء مـن الإله حـالاً فيـه، فلـمَ لم يدفعهـم عـن نفسـه؟ و لم يهلكهـم بالكليـة؟ وأي حاجة به إلى إظهار الجزع منهم، والاختفـاء والفـرار عنهـم؟ وبـا لله إنـي لأتعجب جداً! إن العاقل كيف يليق بـه أن يقـول هـذا، ويعتقـد صحتـه، وتكاد أن تكون بديهة العقل شاهدة بفساده؟.

الوجه الثالث: وهو أنـه إمـا أن يقـال بـأن الإلـه هـو هـذا الشـخص الجسماني المشاهد، أو يقال: حل الإلـه بكليتـه فيـه، أو حـل بعـض الإلـه وجزء منه فيه، والأقسام الثلاثة باطلة:

أما الأول: فلأن إله العالم لو كان هو هذا الجسم، فحين قتله اليهـود كان ذلك قولاً بأن اليهود قتلوا إله العالم، فكيف بقي العالم بعد ذلك مـن غير إله؟! ثم إن أشد الناس ذلاً ودناءة اليهود، والإله الـذي تقتلـه اليهـود لإله في غاية العجز.

أما الثاني: وهو أن الإله بكليته حل في هذا الجسم فهو ـ أيضاً ـ باطل فاسد؛ لأن الإله إن لم يكن جسماً ولا عرضاً امتنع حلوله في الجسم، وإن كان جسماً فحينئذ يكون حلوله في جسم آخر عبارة عن اختلاف أجزائه بأجزاء ذلك الجسم، وذلك يوجب وقوع التفرق في أجزاء ذلك الإله، وإن كان عرضاً كان محتاجاً إلى المحل، فكان الإله محتاجاً إلى غيره، وكل ذلك سخف ومحض الكفر.

وأما الثالث: وهو أنه حل فيه بعض من أبعاض الإله، وجزء من أجزائه، فذلك ـ أيضاً ـ محال؛ لأن ذلك الجزء إن كان معتبراً في الإلهية فعند انفصاله عن الإله وجب أن لا يبقى الإله إلهاً، وإن لم يكن معتبراً في الإلهية لم يكن جزءاً من الإله، فثبت فساد هذه الأقسام، فكان قول النصارى باطلاً.

الوجه الرابع في بطلان قول ذلك النصراني: ما ثبت بالتواتر أن عيسى ﷺ كان عظيم الرغبة في العبادة والطاعة لله (تعالى)، ولو كان إلهاً لاستحال ذلك؛ لأن الإله لا يعبد نفسه. فهذه وجوه في غاية الجلاء والظهور، دالة على فساد قولهم.

ثم قلت للنصراني: وما الذي دلَّ على كونه إلهاً؟

فقال: الذي دلَّ عليه ظهور العجائب عليه من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وذلك لا يمكن حصوله إلا بقدرة الله (تعالى) .

فقلت له: ذلك منقوض بوجوه:

الوجه الأول: تسلم أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول أم لا؟ فإن لم تسلم لزمك من نفي العالم في الأزل نفي الصانع.[(١)] وإن سلمت أنه لا يلزمك من عدم الدليل عدم المدلول. فأقول: لو جوزت حلول الإله في بدن عيسى عليه السلام فكيف عرفت أن الإله ما حل في بدني وبدنك، وفي بدن كل حيوان ونبات وجماد؟

فقال: الفرق ظاهر، وذلك لأني إنما حكمت بذلك الحلول لأنه ظهرت تلك الأفعال العجيبة عليه، والأفعال العجيبة ما ظهرت على يدي ولا على يدك، فعلمنا أن ذلك الحلول ههنا مفقود.

فقلت له: تبين الآن أنك ما عرفت معنى قولي: لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، وذلك إذا كان ظهور تلك الخوارق دالاً على حلول الإله في بدن عيسى عليه السلام، فعدم الخوارق مني ومنك ليس فيه إلا أنه لم يوجد ذلك الدليل. فإذا بينا أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول ثبت أنه لا يلزم من عدم ظهور تلك الخوارق مني ومنك عدم الحلول في حقي وحقك، بل وفي حق الكلب والسنور والفأر. وإن مذهباً يؤدي إلى القول بتجويز حلول ذات الله (تعالى) في بدن الكلب والذباب لفي غاية الخسة والرذالة، ومحض الكفر والضلالة.

---

(١) باعتبار أن العالم دليل على وجود الصانع الخالق، فلما كان منتفياً قبل أن يُخلق، أي أن له أولاً وبداية، فيؤدي ذلك إلى انتفاء وجود الصانع، وذلك باعتبار التسليم بأن انتفاء الدليل يؤدي إلى انتفاء المدلول. انظر : هامش مناظرة في الرد على النصارى ص : ٢٦ .

الوجه الثاني: إن قلب العصا حية أبعد في العقل من إعادة الميت حياً؛ لأن المشاكلة بين بدن الحي وبدن الميت أكثر من المشاكلة بين الخشبة وبين بدن الثعبان. وإذ لم يوجب قلب العصا حية كون موسى إلهاً، ولا ابناً للإله، فأن لا يدل إحياء الموتى على الإلهية أولى.

فقال النصراني: أما الجواب عما ذكرته أولاً من قضية التواتر فهو كما قلت، لكن أين التواتر؟ وهل الكلام إلا فيه؟ فإنا لا نسلم أن المعجز ظاهر على يد محمد بالتواتر، بخلاف سائر الأنبياء: فإنه لما نقل إلينا ذلك عنهم بالتواتر أجمعنا نحن وأنتم عليه، ولا كذلك ما نقل عن محمد، فإنه لو كان بالتواتر لما وقع الخلاف فيه بين أحد من الأمم، كما لم يقع الخلاف بينهم في الأشياء المتواترة، وإنما أنتم تدعون أنه بالتواتر بمجرد التحكم لا غير، بل يشبه تواتركم ما تدعونه من انشقاق القمر نصفين، ولم يرو هذا الحديث إلا واحد منكم وهو ابن مسعود. وكيف يصح في العقل أن تظهر معجزة لأن تكون آية للعالمين ينظر إليها الجميع فيهتدون بسببها على يد الذي ظهرت عليه ولا يراها إلا واحد من الخلق وهو ابن مسعود. فمن هذا الشبه تواتركم في جميع ما تدعونه من المعجزات.

وكذلك فإنكم نقلتم عن محمد أنه لم يصر نبياً إلا بعد أربعين سنة، وما ظهر عليه شيء من المعجزات إلا بعد ذلك، فكيف كان ذلك محجوباً عنه طول هذه المدة وهو في علم الله (تعالى) على زعمكم أنه نبي وأفضل الأنبياء، ومع ذلك لم يزل من حين ولد إلى أن بلغ وإلى أن صار شاباً

وكهلاً وشيخاً تارة في الرعاية، وتارة في التجارة إلى أربعين سنة، فأي مانع منع الله (تعالى) عن أن ينبئه من حين كان طفلاً، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل من حين كان صغيراً، وتظهر على يديه المعجزات العظيمة الخارقة للعادة من حين كان صبياً؟ فلو كان السابق في علم الله (تعالى) أن محمداً نبي وأفضل الأنبياء لمنعه ذلك من أن يكون إلى أن صار له أربعون سنة مفلساً عن جميع ذلك، معطَّلاً عن ذلك كله، فارغاً عنه، خالياً منه. فهل زعمتم أن الله (تعالى) لم يعلم أن محمداً يصير نبياً، ثم علم بعد ذلك؟ وهذا عين الكفر، أو تزعمون أنه كان قد علم ذلك ولكنه منعه مانع من إبليس أو غيره، أو نفس محمد باشتغالها بالدنيا إلى الأربعين، فيكون الله (تعالى) حينئذ مقهوراً على ذلك؟ وهذا أيضاً محض الضلال، أو تزعمون أن الله (تعالى) ما أراد أن يجعله نبياً، ثم تجددت له الإرادة بعد الأربعين، فبدا له أن يقربه بعد البعد، وأن يشرفه بعد الهوان؟ واعتقاد هذا غاية الجهل تعالى الله أن تجدد له صفة، أو تحدث له إرادة.

أما الجواب عن قولك بأن عيسى ما كان إلهاً، وأنه عبارة عن هذا الشخص البشري الجسماني الذي كان يأكل ويشرب ويحدث فنقول مسلم، ونحن -أيضاً- نقول كذلك، ولا نعتقد إلا ذلك: من أن عيسى الذي تعتقده أيها المسلم بهذه الصفة ما كان إلهاً بل كان بشراً، فإنه من المحال أن يعتقد في الشخص البشري الجسماني الآكل الشارب المحدَث أنه إله مقدس عن جميع ذلك، وكيف نعتقد الجمع بين النفي والإثبات،

والحق والباطل، والنور والظلمة؟ هذا لا يعتقده عاقل. وإنما صانع العالم هو القديم الأزلي الذي لا يكيف ولا يمثل، ويظهر لعباده كيفي يشاء، وفي أي صورة شاء، ويجوز تسمية تلك بأي اسم شريف؛ لأن العلم حاصل بأن المسمى غير الاسم، والصورة غير المعنى، فهذا لا بأس به إذا اعتقده طائفة منا، فإنكم معترفون بأن منكم طائفة تعتقد أن الإله صورة وجسم وجالس على العرش، وعلى الله تاج من ذهب، وفي رجله نعلان من ذهب، بل رويتم ذلك كله أو بعضه عن نبيكم في كتاب الآجري وعبد القادر الكيلاني[1] وغيرهما من أئمتكم الذين تعتقدون أنهم من خير الأمة وأعلمهم. ونقلتم ـ أيضاً ـ عن ابن عباس أنه فسر المقام المحمود بجلوس محمد مع ربه على العرش.[2] ونقلتم ـ أيضاً ـ عن نبيكم أنه قال: إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا.[3] والنزول والصعود إنما يطلق على الأجسام، فنسبتم إلى نبيكم أنه اعتقد في إله العالم أنه جسم، وأنه في كل ليلة يفتقر في تقريبه عباده ولطفه بهم إلى أنه ينزل ويصعد. ونقلتم عنه ـ

---

(١) ليس واحد من هؤلاء مشبهاً ولا ممثلاً، لكنَّ أهل الكلام ينسبون ذلك إلى أهل الإثبات زوراً وبهتاناً .

(٢) المشهور في تفسير المقام المحمود أنه الشفاعة الكبرى في أهل الموقف، وقيل: المراد به أخذه ﷺ بحلقة باب الجنة، وقيل: هو إعطاؤه لواء الحمد، وقيل: جلوسه على العرش، وتفسيره بالشفاعة هو الأصح؛ لثبوته في الصحاح. انظر : تفسير القرطبي ١٠/٣٠٩-٣١٢ ، وفتح الباري ٨/٤٠٠ .

(٣) حديث النزول ثابت وصحيح. انظر : صحيح مسلم ١/٥٢١-٥٢٣ كتاب صلاة المسافرين ـ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل ... ح:٧٥٨ وما بعده.
ونزوله سبحانه كسائر صفاته، لا نعلم كيفيته، بل ينزل نزولاً يليق بجلاله سبحانه.
وانظر: كتاب شرح حديث النزول لشيخ الإسلام ابن تيمية.

أيضاً ـ أنه خلق آدم على صورته[(١)] ، وأنه مسح بيده على ثدي نبيكم فعلم علم الأولين والآخرين[(٢)] ، فأثبتم لله (تعالى) بذلك الجسم والصورة والأعضاء والجوارح والحركة والسكون، إلى غير ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والتجسيم، والموهمة [للتكييف][(٣)] والتمثيل.

ومنكم طائفة تعتقد أن الإله حل في الخمسة الأشباح، وهم صنف من الروافض، ومنكم ـ أيضاً ـ طائفة تعتقد أن الإله حل في علي. ومنكم طائفة تدعي المكاشفة والمشاهدة والأحوال الشريفة والأنفاس النفيسة، ومع ذلك تدعي ـ أيضاً ـ الاتحاد حتى نقل عن الحلاج (٣٠٩هـ) أنه كان يقول: "أنا من أهوى ومن أهوى أنا" وعن أبي يزيد (٢٦١ أو ٢٦٤هـ) أنه كان يقول: سبحاني ما أعظم شأني. وليس منا من اعتقد شيئاً من ذلك، بل طائفة منا تعتقد مثل ذلك في عيسى خاصة، وأما أنتم فقد يقوم

---

(١) حديث الصورة رواه البخاري في صحيحه ٣/١٢ كتاب الاستئذان ـ باب بدء السلام ح: ٦٢٢٧ ، ومسلم في صحيحه ٢٠١٧/٤ كتاب البر والصلة ـ باب النهي عن ضرب الوجه ح يلي :٢٦١٢ .

وهذا الحديث وإن احتمل وجوهاً من التفسير بإعادة الضمير إلى آدم، فهو على فرض إعادة الضمير إلى الله تعالى فمعناه أنه خلق آدم على صفاته من السمع والبصر والعلم، ولا يعني أن الصفة كالصفة، بل: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ . انظر : فتح الباري ٤/١١ .

(٢) يعني بذلك حديث اختصام الملأ الأعلى، وهو في مسند الإمام أحمد ١٦٢/٥ ح : ٣٤٨٤ ط. أحمد شاكر، وصحح إسناده أحمد شاكر.

وهذه الرؤية منامية كما في الحديث، ولا شك أن باب الرؤية المنامية أوسع من باب اليقظية .

(٣) في الأصل : [للتكليف] ولعل الصحيح ما أثبته.

رجل منكم من وراء المحراث ويدعي ذلك وأضعافه، بل تعتقدون فيه أنه كذلك وأعظم من ذلك، بل ومن أجلاف الكرد والعرب ورعاة الإبل وسَقَط الناس وجهالهم من قد تلتف عليه جماعة بمجرد حسن الظن، وبمجرد التعصب فيظهرون لذلك شأناً عظيماً، ويدعي ما ادعاه أبو يزيد والحلاج وأعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة. ثم إذا نقل حال ذلك النصاب إلى أئمتكم وعلمائكم أحسنوا الظن وقالوا: يسلم إليه حاله، فيفعلون ذلك تارة لجهلهم حيث أحسنوا الظن بمن يجب تكفيره، وتارة خوفاً من العامة إذا رأوهم عاكفين عليه، محبين له مع نسبتهم أولئك في الباطن إلى الدجاليه والحشوية وغير ذلك من الكفر والبدعة. وأما نحن فليس منا من ينطلي عليه ذلك ولا بعضه.

وأما الجواب عن صلب عيسى، فنحن لا نعتقد إلا صلب جسده الذي هو الصدف، لا اللب والجوهر الذي هو الروح، ونعتقد أن فعل الله (تعالى) به ذلك إشارة إلى خسة عالم الأجساد؛ تحريضاً على التجرد عنها بالعروج إلى عالم الأرواح زهداً في العالم الأدنى، ورغبة في العالم الأعلى؛ ولأن يقتدي الأدنى بالأعلى، فإذا رأى الأدنى أن الأعلى الذي له عند الله (تعالى) كل تلك المنزلة التي تجل عن الوصف قد ابتلي بذلك، وكان انتقاله من الدنيا على مثل هذا الحال، هان عليه كل ما يبتلى به من مصيبة، أو يحل به من آفة، وعمل على الزهد في الدنيا، والتجرد عن الخلق، والتوجه إلى الحق.

وأما الجواب عما ذكرته من أن الله (تعالى) لا يخلو: إما أن يكون حل كله في عيسى أو بعضه، فنحن لا نقول بذلك، بل ننكره ونكفر قائله، فإنا نقطع بأن الإله لا يتجزأ، ونقطع بأن الإله ما حل في عيسى. وإنما منا طائفة تدعي أنه لا يبعد أن تكون هذه الصورة العيسوية من الصور التي يتجلى فيها الرب (تعالى) لعباده، ويظهر فيها لخلقه سبحانه، وأنتم أيضاً من جملة من يعتقد ذلك، فإنكم رويتم عن محمد بأن الله (تعالى) يظهر لعباده يوم القيامة في صورة ينكرونها، فيقولون نعوذ بالله منك، ولكن نتمهل إلى أن يأتينا ربنا، ثم يظهر لهم في صورة يعرفونها، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعم[١]، وإذا لم يبعد ذلك في الآخرة فكيف يبعد أن يظهر كذلك لعباده في الدنيا في صورة عيسوية أو موسوية أو غير ذلك من الصور، فكيف لا يجوز ظهوره في الدنيا في صورة عيسوية قدسية معظمة روحانية مطهرة؟

ومع أن هذا الاعتقاد لا يعتقده إلا طائفة منا كما قدمنا ذكره، فأنتم قد رويتم عن محمد أنه هو الذي قال ذلك وأخبر به واعتقده في كتابه الذي لقبتموه بالصحيحين لقب البرودة، الصحيح لا يكون إلا واحداً، كما أن السقيم لا يكون إلا واحداً؛ لأنه ما بعد الصحة إلا السقم، والسقم شيء واحد فكذلك الصحة، كما أنه ما ثم إلا الحق والباطل،

(١) معنى الحديث من رواية البخاري في صحيحه ١١/٤٤٤-٤٤٥ كتاب الرقاق ـ باب الصراط جسر جهنم ح : ٦٥٧٣ .

والباطل شيء واحد فكذلك الحق. وكما أنه يقبح أن يقال: حقان وباطلان وسقمان، فكذلك القول في الصحيحين. والعجب أنكم انحصرتم في الاثنينية، ولم تتعدوا في العدد الذي ليس له واحد ولا حصر فتقولوا: ثلاثة صحاح، وأربعة صحاح، وخمسة صحاح، وإلى ما لا ينتهي، بل ارتبطتم على صحيحين اثنين، كأن لم يقبل العدد في شرعكم من الصحة [إلا] (١) اثنين، فحصركم في هذا العدد اليسير، ونفي ما لا حصر له لغيركم من الأمم.

وأما الجواب عن مؤاخذتنا في أن المسيح ابن الله، فهذا لسنا نعتقده حقيقة، بل على سبيل التفخيم والتعظيم، كما أنكم تقولون: إبراهيم خليل الله مع أنه يتعالى عن الخلة، وتقولون: محمد حبيب الله مع أنه يتعالى عن المحبة التي هي عبارة عن الميل والحظ والشهوة، وإنما تذكرون ذلك في معرض التعظيم والتفخيم، فكذلك ما نحن فيه مما تقوله النصارى في عيسى، لا أنه ابن حقيقة، وأنه لا يبعد أن يشرف الله (تعالى) عبداً من العبيد على سائر خلقه، فيكون محله في الشرف والقرب محل الولد من الوالد، لا أن يكون ولداً على الحقيقة، ولا ولداً في نفس الأمر. فهذا معنى ما تقوله بعض النصارى في عيسى إنه ابن الله كما تقولون كلكم في إبراهيم إنه خليل الله، وفي محمد إنه حبيب الله، مع تعاليه (تعالى) عن الخلة والمحبة.

---

(١) في الأصل [إلى] ولعل الصحيح ما أثبته .

ومع أنكم أخبرتم في كتابكم عن الله (تعالى) أنه قال في اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٣٠] وعن النصارى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[سورة التوبة: ٣٠] فإنه لم يقل ذلك من اليهود إلا رجل واحد، وعلى تقدير أن يقول ذلك طائفة منهم في ذلك الوقت أو في هذا الوقت، إلا أنه لا يلزم من قول واحد في وقت ما قول الجميع في جميع الأوقات. وكذلك القول في النصارى، فإنه إذا أخبر الله (تعالى) بأن النصارى قالوا: المسيح ابن الله، لا يدل ذلك على أن الجميع قالوا ذلك القول، ولا أن ذلك صدر منهم في سائر الأزمان، فإنه ما قال: وقالت النصارى كلهم أجمعون، كما قال في حق الملائكة: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[سورة الحجر: ٣٠] وإنما قال: وقالت النصارى: أي بعض منهم وفي وقت ما. ومع ذلك فإن ذلك البعض لم يقل إلا بتأويل، كما تأولتم الخليل والحبيب، فكذلك قالوا الابن، فأي أمر عظيم ترتب على ذلك حتى بالغتم في التشنيع على اليهود والنصارى، وناديتم عليهم على رؤوس الأشهاد بأن اليهود قالوا: عزير ابن الله، ولم يقل ذلك من اليهود إلا واحد، ومن النصارى إلا من عاند؟ فكيف يحل لكم أن تقولوا ذلك، وأن تشهدوا به، وتشغلوا به شرقاً وغرباً في جميع الآفاق؟ ثم إذا امتحنتم اليهود والنصارى في ذلك بالسؤال عنه ترونهم أبعد الناس عن اعتقاده وأدناهم إلى الإنكار له، مع الاعتراف لله (تعالى) بالتوحيد والتنزيه والتقديس ونفي التشبيه، لكن الله (تعالى) صادق فيما أخبر به من أن بعضاً منهم قال ذلك القول، وفي وقت ما،

وبتأويل ما، لكنكم أنتم أوهمتم الناس أن جميع اليهود والنصارى يقولون ذلك في كل الأوقات، وأنهم يعتقدون ذلك حقيقة، وذلك منكم فيهم عين الافتراء، ومحض البهتان والزور.

أما الجواب عن قضية الدليل والمدلول، فكما هو لازم علينا فهو أيضاً لازم عليكم، فإنه لو قيل: إن مسيلمة كان نبياً لعجزتم عن دفع هذا القائل على هذا التقدير؛ لأنكم إذا قلتم: فما الدليل على أنه كان نبياً؟ كان جوابه لكم: إن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول.

وأما الجواب عن قلب عصا موسى ثعباناً وأنه أعجب من إحياء عيسى الموتى فقد قلنا: نحن ما أظهرنا التعجب بمجرد ذلك من عيسى، بل ولأمور أخر لا تشبه إلا صنع الباري (تعالى) : من خلقه من الطين كهيئة الطير، وعلم الغيب، وظهور الحكمة والكتاب والتوراة والإنجيل على لسانه، وإبراء الأكمه الأبرص، وإحياء الميت على يديه، وإلى غير ذلك من أمور أخر لا تحصى، لا يشبه شيء منها فعل الخلق، بل هي فعل الخالق (تعالى) ، ولا شك أن هذا المجموع أعظم وأكبر وأكثر وأعجب من قلب العصا حية تسعى، فإن ذلك ربما يظهر مثله من السحرة والملبسين كما أظهر سحرة فرعون حتى خاف موسى خوفاً شديداً من ذلك، وأمرٌ يشارك فيه السحرةُ والمشعبذةُ من أين يُشبه أمراً يتفرد به صاحب القدرة ومن له الخلق والأمر؟! هذا آخر جوابك والله أعلم.

فقال الفخر الرازي رحمه الله: خذ الجواب عن ذلك:

أما قولك أولاً من أنك لا تسلم أن المعجز حصل لنبينا بالتواتر، فهل تشك في وجود هذا القرآن الذي هو بين أيدينا الآن؟ فأي تواتر أصدق وأظهر من شيء تراه بعينك؟

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به   في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فهل تشك في وجود هذا القرآن؟

فقال: لا أشك في وجوده. فقال: وهل تشك في أن ذلك من غير محمد ﷺ ؟ فقال: هذا أشك فيه؛ لاحتمال أن يكون ساعده الغير، فأُلِّف إلى أن صار بهذه المثابة.

فقال له الإمام: لو كان كذلك لادعى كل من أعانه على ذلك أنه نبي أيضاً، وأنه نزل عليه هذا الكتاب، فإنه من المحال أن يُظهر مثلَ هذا الكتاب غيرُه ويسكتون عن ذلك حتى يدعي واحد منهم الأمر الذي خص به غيره، وتقر تلك الجماعة بأن الأمر كذلك.

ثم قال: وهل تشك في العجز عن الإتيان بمثله؟

فقال النصراني: أما الإتيان بمثله من جميع الوجوه فهو الإتيان بعينه، فيكون هو هو، وذلك تحصيل الحاصل، وهو محال، وأما الإتيان به من بعض الوجوه: في الفصاحة مثلاً، وفي النظم والنثر، أو الإيجاز والاختصار، أو في كونه يهدي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، فالعلوم الشريفة تشاركه في ذلك فهي مثله، وهو مثلها من بعض الوجوه.

فقال له الإمام الرازي: ليس من الإتيان بمثله إلا أن يظهر كتاب شريف فيه علم الأولين والآخرين على لسان رجل أمي لم يتقدم له

اشتغال بعلم البتة، ويدعي أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين، ومن النبيين المرسلين، بأدلة باهرة، وحجج قاهرة، يبهر بأدلته جميع الملل والنحل، ويقهر بحججه جميع من خالف وبطل. فالمراد من الإتيان هو هذه المثلية لا ما ذكرته وذهبت إليه.

ثم قال: وأما قولك: ما المانع من نبوة محمد ﷺ في حال الصغر حتى بقي معطلاً عن النبوة ونشر الرسالة أربعين سنة؟ فالجواب: أن ظهور المملكة على من لم يكن ملكاً بل كان راعياً وحراثاً أو تاجراً أكثر عمره لأبلغ في إظهار القدرة ممن ورثها وراثة، أو أوتيها من أول عمره، ومبدأ زمانه، وأبلغ في التعجب من ذلك، فكيف وقد كان نبياً وآدم بين الماء والطين، وإنما لم تظهر نبوته للخلق إلا بعد الأربعين ومأخذ الحكمة في ذلك ما قدمنا ذكره.

ثم لا يلزم من تأخر ظهورها عليه أن لا يكون متصفاً بها وبما هو أعظم منها، ولا يلزم من أن من أوتي المملكة في الصغر يكون أعظم وأفضل ممن أوتي في الكبر، بل قد يكون الثاني أعظم وأفضل وأقدر من الأول، ما المانع من ذلك؟ فكذلك الحال في معنى النبوة والعلم والحكمة والعقل والمعرفة، فتقدم العطاء وتأخره لا يدل على الأفضلية، فلله الحكم في ذلك، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[سورة الأنبياء: ٢٣].

ثم قال له: وأما قولك بأنكم نقلتم عن نبيكم الأحاديث الموهمة للتشبيه والتجسيم كيت وكيت، فاعلم أولا أن الحاكم مثلاً إذا ثبت عنده

عدالة رجل، فإنه كلما شهد عنده بشيء وجب عليه قبوله إلا أن يشهد بما يخالف المعقول، ويقدح في الأصول، فإنه ما يقبله بل يسقطه على الشهادة، ومع أنه إذا قبله في تلك الشهادات التي كان يشهدها عنده، فإنه ما يبني قطعاً وبتاً في نفس الأمر لاحتمال أن يكون كاذباً في تلك الشهادة من حيث الباطن، وإنما له حكم الظاهر والله يتولى السرائر، فكذلك أئمة العلم من ثبت عندهم تزكيته قبلوا روايته عن النبي ﷺ لما لم يخالف العقول ويقدح في الأصول، فأخبار الصفات التي رووها إنما أثبتها الأئمة في كتبهم لما ثبت عندهم من عدالتهم، لا أنهم حكموا وقطعوا بصحتها في نفس الأمر بل قالوا: روي عن النبي ﷺ كيت وكيت؛ لا أنهم قالوا: قطعنا بأن النبي ﷺ قال ذلك، وعلى تقدير أن يقول ذلك، فإنهم ما قالوا: إنه اعتقد ذلك لاحتمال أن يكون النبي ﷺ حكى ذلك حكاية عن غيره لا أنه اعتقده اعتقاداً.

ومع ذلك فإن كل حديث يخالف المعقول، ويقدح في الأصول زيفوه وأسقطوا رواته، وكل حديث احتمل تأويلاً حسناً، ومحملاً واضحاً أثبتوه على حاله، وذلك لا يؤدي إلى قدح كما زعمت لا في الرواة ولا في الأئمة، ولا في النبوة ولا في الأمة، بل يدل على عظم معرفتهم وكمال علمهم وعقلهم حيث أدغل[1] أئمة الضلال كل حديث مضل، ومع ذلك لم يقبلوا منها حديثاً واحداً بل مهدوا معياراً ومحكاً واضحاً، ثم عرضوا

---

(١) أدغل : أدخل في الأمر ما يفسده . انظر : قاموس المحيط ص : ١٢٩١ .

عليه، فما كان حقاً حققوه وما كان زيغاً أسقطوه، وكل حديث احتمل تأويلاً حسناً ومحملاً صالحاً أثبتوه وتكلموا عليه شرحاً وبحثاً وتحقيقاً وتحريراً.(١)

وأما قولك بأنه لا يبعد ظهور الحق (تعالى) لعباده في صورة حسنة مقرونة بالصلاح والصفات الكاملة والأخلاق المرضية، فلو قلنا: لا يبعد ظهور الحق لنا في هذه الصورة، فلعل شخصاً يدعي الإلهية وتكون تلك الصلاحية تلبيساً علينا، فيكون إبليس ظهر في تلك الصورة، أو رسول

(١) ما تقدم من كلام الرازي مخالف لما عليه أهل العلم والإيمان، ومبني على الظنون والأوهام، فليس معه كتاب ناطق، أو عقل صادق، وقد رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية، وتلميذه ابن القيم في الصواعق المرسلة. والأحاديث الواردة في الصفات كثير منها صحيح، ويؤيدها القرآن الكريم، ولا مهرب من قبولها، بل الواجب الانقياد لها، والتسليم بها، وهي على ما يليق بربنا (جلَّ وعلا) من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل. وتؤيلها أو تكذيبها هو الذي سلّط على المسلمين أمثال هذا النصراني وغيره من الملاحدة والباطنية حتى أوقعوهم في أعظم الكفر والضلال.

ولا يجد المتكلم فرقاً صحيحاً، ولا ضابطاً سالماً عن المعارض بين ما أوجب تأويله وبين غيره من النصوص، بل كل ما يذكره من دواعي التأويل في نصوص الصفات أمكن غيره ممن هو شر منه أن يذكر مثل هذه الدواعي وأكثر وأقوى في تأويل غيرها من النصوص مما يثبته هذا المتكلم. فلا يبقى إلا التشهي والتحكم الذي هو لازم كل مبتدع وصاحب هوى.

فأي شيء يمنع المتفلسف أن يؤول نصوص المعاد وحشر الأجساد، وأي شيء يمنع الباطني أن يؤول نصوص الأحكام والحلال والحرام، مع تأويله لنصوص المعاد وحشر الأجساد. فما أسوأ أثر التأويل على الإسلام وأهله؟.

لإبليس، أو أحد نوابه ويجر ذلك إلى عبادة من دون الله (تعالى) وذلك عين الكفر. ونحن لا ينبغي لنا أن نجوز ظهور صورة مخلوق لئلا يؤدي إلى السفسطة والتلبيس، فكيف ينبغي لنا أن نجوز ظهور الحق (تعالى) في صورة خلقه، (تعالى) الله عن ذلك علواً كبيراً؟

وأما قولك بأن طائفة منكم مجسمة مشبهة حشوية سكنوا الزوايا وادعوا المشيخة من غير علم، وطائفة أخرى يقولون بالحلول والاتحاد، فمسلم، لكن ليسوا هم منا حقيقة، بل تدعي أنت أنهم منا، ونحن ندعي أنهم خارجون عنا، فلا يكون ذلك قدحاً فينا ولا طعناً علينا، كيف ونبينا عليه السلام يقول: من خاننا فليس منا[1]. وأي خيانة أعظم ممن لبس على المسلمين، وأكل الدنيا بالدين، وأظهر للناس أنه على طريقة الصديقين، وهو في الباطن حريص على صحبة الملوك والسلاطين؟

وأما قولك بأن تسمية عيسى ابن الله كتسميتنا إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله، وتشنيعنا عليكم وعلى اليهود بذلك، فالجواب عنه: أن الله (تعالى) أخبرنا عن اليهود بأنهم قالوا: عزير ابن الله، وأخبرنا عن النصارى بأنهم قالوا: المسيح ابن الله، ونحن فما زدنا ولا أنقصنا، وما قلنا: كل اليهود قالوا ذلك أو في كل الأوقات، ولا كل النصارى قالوا ذلك أو في كل الأوقات، بل قلنا كما قال الله (تعالى): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[سورة التوبة: ٣٠] و لم نتعرض إلى نبي آخر،

(١) لعله يقصد حديث : من غشنا فليس منا . رواه مسلم في صحيحه ٩٩/١ كتاب الإيمان - باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا ح : ١٠١، والإمام أحمد في مسنده ٥٠/٢ .

لا إلى كل ولا البعض، فأخبرنا كما أخبر (تعالى) عنهم. ونعلم بأن الله (تعالى) إذا أخبر أن اليهود والنصارى قالوا ذلك، لا يلزم أن يكون ذلك إخباراً عن الكل، ولا في كل وقت.

وأما حديث النبوة والخلة والمحبة، فالفرق ظاهر؛ لأن الله (تعالى) نزه نفسه عن الوالدية والولدية بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[سورة الإخلاص: ٣] ولم ينزه نفسه عن الخلة والمحبة، فإن سائر أنبيائه وأوليائه أخلاؤه وأحباؤه بمعنى التشريف والتعظيم. ولا يجوز أن يقال: إنهم أبناؤه وأولاده على معنى ذلك لالتباسه بالباطل، فإن نسبته إلى الوالدية لا يحتمل إلا الحقيقة، فإنه لا يقال: فلان ولد فلان وابنه إلا بمعنى أنه ولده حقيقة، وإنه لا يحل لذلك، بخلاف مقام الخلة والمحبة، فإنه يلزم من انفصال الولد عن دار الوالد بعد اتصاله به مع بقائه على الولدية، ولا يلزم من انفصال الخليل والحبيب عن الخليل والحبيب بعد اتصاله به مع بقائه على الخلة والمحبة؛ ولأن الولدية مشعرة بالجنسية، ولا كذلك الخلة والمحبة فهذا الفرق بين جواز تسمية المقرب بخليل الله وحبيب الله، وعدم جواز تسميته بابن الله وولد الله.

ثم قال له: وأما قولك: صلب جسد عيسى دون معناه، فهذا هذيان أيضاً؛ لأنه تحصيل الحاصل، وتحصيل الحاصل محال، فكان هذياناً، فإنه أبداً لا يصلب إلا الجسد، سواء كان كافراً أو مؤمناً، مطيعاً أو عاصياً أو شيطاناً، فإنه أبداً لا يصلب منه إلا الجسد، وأما الروح فحية باقية يذهب بها عالمها: إما إلى عليين أو إلى سجين، فأي مزية تبقى لعيسى على غيره فيما ذكرت وهولت؟

فإن قلت: الفرق ظاهر، فإن عيسى لما صلب بقي زماناً يتكلم كما كان قبل الصلب. قلنا: تلك معجزة كباقي المعجزات، فأي مزية له على غيره من الأنبياء المؤيدين بالمعجزات من جنس تلك المعجزة وغيرها، فإنه على تقدير أن يكون ما ذكرت صحيحاً كان ذلك معجزة: وأما نحن فنقطع بكذب ذلك، فإن الله (تعالى) أخبرنا في كتابه بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[سورة النساء: ١٥٧] أي التبس ذلك عليهم حتى ظنوه عيسى ولم يكن عيسى، بل إما شيطاناً أو إنساناً ألقي عليه شبه ما إضلالاً لهم.

وأما قضية الدليل والمدلول، فمسيلمة وإن لم تقم الدلالة على نبوته، لكن قامت الأدلة على كفره وكذبه، فالأدلة هنا حاصلة غير مفقودة، بخلاف ما نحن فيه، فإن هناك وإن لم يقم الدليل على أنا لسنا كذلك من مشاركتنا لعيسى في حلول الرب (تعالى) فينا، لكن لم يقم الدليل أيضاً على عكسه، فيبقى الأمر مشتركاً بيننا وبين عيسى عليه السلام على رغمكم.

وأما قضية ترجيح معجزات عيسى من كونها أفعالاً ربانية وآيات إلهية فهو كذلك، لكن ظهور مثل ذلك على يد العبد في معرض التشريف والتقريب هداية لقوم وإضلالاً لآخرين لا يلزم أن يكون الذي ظهر على يديه إلهاً، لما ذكرنا من جره إلى التلبيس والوقوع في الكفر. **فانقطع النصراني، وقال: غلبتني وأفحمتني.**

فقال الفخر الرازي: إذ اعترفت بذلك تعيَّن عليك الرجوع إلى ديني دين الإسلام، والاعتراف بأنه خير الأديان.

فقال: لا أفعل ذلك؛ لأني أعتقد أن في علماء ديني من يزيد عليك في العلم والحكمة والعقل والمعرفة، إذا ناظرته لم يغلب، بل ربما غلبك وأفحمك.

فقال له الفخر: وهذا الاعتقاد هو الذي يمنع أرباب سائر الأديان أن ينقادوا إلى الحق، وأن يعترفوا بالصواب، فإن ما منهم أحد إلا ويعتقد أن في علماء دينه من هو كذلك، فينصد عن الحق بسبب ذلك الاعتقاد الفاسد، وذلك محال، فإن من المحال التسلسل إلى غير النهاية، ومعتقدكم هذا يؤدي إلى التسلسل، وهو أن يعتقد الإنسان أن ما من شبهة إلا ولها جواب، وما من جواب إلا وله شبهة، وذلك محال لتسلسله إلى غير حد ومقطع ينتهي إليه، ومن ادعى غير ذلك فقد خرج عن العقل بالكلية، وإذا ثبت حده ومقطعه، وانتهى البحث إلى الحد والمقطع، فلا يبقى وراء ذلك إلا العناد ومحض المكابرة.

ثم قال له الفخر: أسألك عن ما تعتقده من دينك بعد أن لم تقبل ديني، ألا أخبرتني عن قاعدة أساس دينك، ومعتمد علمك وإيمانك ويقينك بعد الذي تقدم ذكره.

فقال النصراني: قاعدة ديننا مبنية على تكذيب محمد، والعمل على عداوته حتى لو وجد في عصرنا لقتلناه أنجس قتلة، ولو أظفرنا الله بملوك أمته وعلمائهم وأئمتهم لتقربنا إلى الله (تعالى) بذبحهم وسلخ جلودهم وجلود عبادهم وزهادهم وسائر صلحائهم. ولو وقع بأيدينا كل كتاب

لهم من الكتب التي يسمونها بالعلم والحكمة والمعرفة، وكتب التفسير والحديث، وصحف القرآن لمزقنا الجميع وألقيناها في سنادس البول والغائط. ونحن فمتى لم نعتقد أن فعل ذلك من أعظم العبادات وأفضل القربات، لم يصح لنا دين النصرانية ولا نتحقق بشيء منه، كل ذلك لتغالينا في ديننا، ولاعتقادنا صحته وسقم غيره، ولهذا نعمل صورة محمد على هيئة بدوي راع، ونعلم الأطفال من صغرهم عداوته والفرار منه، ونأمرهم بسبه وشتمه والتبصق في وجهه، وليس لنا شغل عقيب كل قربى يتقرب بها إلا الدعاء على المسلمين بالخذلان وتسليط العذاب العاجل والآجل عليهم، وسلب المملكة والسلطة منهم، وسلب القهر والقدرة والحكم والخلافة وسلب العز والجاه والأمر والعظمة. ومتى غُصبنا بالإسلام فلا يجوز لنا ذلك إلا بشرط أن نسعى في الباطن في هلاك المسلمين وسب دينهم ونبيهم.

فقال له الرازي رحمه الله: فعلى الذي يودكم وبال ما تفعلونه، وعلى الذي يؤاكلكم ويعاشركم بالصحبة والمودة مثل ذلك، بل وعلى الذي يلبسكم ثوب العز أعظم من ذلك، لأنه كمن أعان على قتل محمد ﷺ وتمزيق كتابه، وإهلاك أمته، وقد قال الله (تعالى) في حقه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ منهم﴾[سورة المائدة: ٥١] وقال (تعالى): ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[سورة الممتحنة: ١] فكل من ألبسهم ثوب العز، أو وادهم وأحبهم، أو قربهم وأدناهم، أو استعان

بهم في أموره، أو استغاث بهم في مهماته، فلا جرم يصير الله ورسوله عدواً له بأن يخذله ولو عند موته وفي قبره، وفي الآخرة يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه.

ثم قال الرازي رحمه الله: لولا الذمة ووصية النبي ﷺ إيانا بحفظ الذمة بيننا وبينكم لتقربت إلى الله (تعالى) في هذه الساعة بقتلك شر قتلة.

فقال النصراني: بقيت أسئلة أوردها عليك عن صاحبي هذا فإنه يهابك من إعظام، فإن أجبتني عنها علمت أنك على الحق. فقال له: قل ما بدا لك.

فقال له: قد ثبت أن عيسى في السماء وهو حي، وثبت أن محمداً في الأرض، بل ومدفون في بطنها، وميت في جملة الموتى، وثبت أنه يلقب بروح الله وبكلمته ولا كذلك محمد، وثبت أن عيسى خلق من غير نطفة بل بمحض القدرة من غير شيء من هذه الأجسام الدنيئة، وظهر في بطن امرأة مؤمنة صديقة عظيمة القدرة، ولا كذلك محمد، فإنه خلق من نطفة كافر، وخرج من بطن كافرة. وثبت أن عيسى ما اشتغل بشيء من حظوظ النفس كما اشتغل به محمد: من الاشتغال بشهوة الجماع، والتكثر من النساء، ومن الجماع، وغير ذلك من الشهوات، ولا كذلك عيسى فإنه ما التذ بشيء سوى العلم والحكمة والمعرفة والمحبة والشوق الهائم، والذكر الدائم، والتفكر اللازم تعظيماً لأمر الله، واستغراقاً في معرفته ﷻ، وفناء في محبته سبحانه، فصرف جميع الأوقات إلى ذلك فقط، لا إلى أكل وشرب، ولا إلى جماع وشهوة نفس.

ولأن عيسى رفع إلى السماء قبل أن يوجد محمد بستمائة سنة، فهو من ذلك الوقت إلى الآن وإلى أن تقوم الساعة في حضرة القدس ومقام الأنس، مع كونه متجرداً عن حظوظ النفس، وحيلان الطبع، وتدبير البدن، وعلائق الجسد، وعوائق الدنيا والخلق والشيطان والنفس، منزه عن جميع ذلك، مقدس عنه، ولا كذلك محمد فإنه عاش نحو ستين سنة: منها أربعون سنة كان فيها من جملة عوام الناس، وعشرون ميز عنهم فيها، وأين تلك العشرون سنة المشوبة بأشغال الدنيا والنفس، وتحصيل المنصب بالسيف وغيره بالنسبة إلى مدة عمر عيسى من حين ولد إلى أن رفع، وإلى اليوم، وإلى قيام الساعة؟! ألف وستمائة سنة ما شاب زمانه ذلك بشائبة من هذه الشوائب، إلا التأله التام والتجرد الكامل في الله وبالله.

ثم إنه قد ثبت بأن محمداً كان يدعو إلى الهداية بالسيف والعسف، فكل من دخل في طاعته آمنه على نفسه وأهله وماله، ومن أعرض عنه قتله وأخذ أهله وماله. والدعوة إلى الهداية لا تكون بهذه المثابة، فإن ذلك حال ملوك الدنيا وجبابرتها، لا حال ملوك الآخرة الذين هم الأنبياء والأولياء، والذين هم العلماء والحكماء الداعون إلى الله (تعالى) بالمعجزات القاهرة، والبراهين الباهرة من أدلة العلم والحكمة والحجج العقلية القاطعة، كما كان يدعو عيسى ومن قبله من الأنبياء والأصفياء من عهد آدم إلى ظهور عيسى.

ثم إنه قد ثبت أنكم رويتم عن محمد أحاديث كثيرة موهمة للتشبيه، فكيف يليق صدور مثلها من النبوة، وما بعث الأنبياء إلا لرفع التشبيه،

وإثبات التقديس والتنزيه، ثم ما كفى أنه قال ذلك حتى إنه لم يُشر إلى رفع إيهام التشبيه، وإثبات التقديس والتنزيه بقرينة يذكرها عقيب قوله ذلك، ثم ما كفى سكوته على ذلك حتى إن الصحابة أيضاً ما كان فيهم أحد عنده نظر ولا فهم وبصيرة فيسأله عن تفسير حديث من تلك الأحاديث، ليقع البحث في شرح ذلك، فتحصل الفائدة لهم ولمن بعدهم.

وعلى تقدير أن تحتجوا بأن الرواة أخطأوا في النقل عن محمد أو تعمدوا كذباً وافتراء، أليس القرآن مقطوعاً به عندكم؛ فكم فيه من الآيات الموهمة للتشبيه كقوله (تعالى): ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[سورة طه: ٥] حتى كررتم ذلك في كتابكم في مواضع شتى، وكذلك قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[سورة الفجر: ٢٢] وكذلك قوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [سورة الزمر: ٢٧] وكذلك:﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: ٧٥] وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾[سورة البقرة: ٢١٠] وكذلك: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾[سورة الأنعام: ١٥٨] وكذلك قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[سورة القصص: ٨٨] وهذا يقتضي على زعمكم أن كل شيء يهلك، وكذلك هو (تعالى) يهلك إلا وجهه فقط، وهذا عين الكذب والافتراء على الله (تعالى) ، فإن العرش والكرسي لا تهلك، وكذلك اللوح والقلم، وكذلك الجنة، وكذلك فعل الخير، وكذلك ذات البارئ (تعالى) وصفاته، فكيف تقولون: كل شيء هالك إلا وجهه، ما استثنيتم منه إلا الوجه فقط.

وكذلك ذكركم الحروف المقطعة في أوائل السور كقوله: الم، المص، الر، المر، كهيعص، طه، طسم، يس، حم، حم عسق، ص والقرآن، ن و[القلم][1]، ق والقرآن. كل هذه حروف على حدتها، والحرف على حدته ماذا فيه من المعنى حتى يذكر، وقد ثبت أن الكتب المنزلة ما نزلت إلا ليفهم معناها، وأي معنى يفهم من ذكر الحرف الواحد، إلا إذا كان الواضع قد وضع لكل معنى حرفاً بذاته، فمتى ذكر ذلك الحرف فهم ذلك المعنى، وأين الوضع هنا؟ هل سُمع في اللغة بأن كل حرف من هذه الحروف كان في قديم الزمان موضوعاً لمعنى كما وضع اسم الصلاة لهذه الأفعال المخصوصة، ووضع اسم الزكاة والصوم والحج لهذه الأمور المعلومة؟ ليس الأمر كذلك.

ثم ما كان في الصحابة أحد سأله عن معنى حرف من هذه الحروف، فإنه بعث إليهم، ولا يخاطبهم بشيء إلا ليفهموه، وما لا يفهمونه سألوا عنه، فكيف كان فيهم هذا الجمود العظيم والطبع الغليظ إلى هذا الحد، حتى إنهم لم يكن فيهم ولا شخص واحد عنده فهم ويقظة يسأله عن معنى حرف من هذه الحروف؟ ولا شيء عن آيات الصفات وأخبار الصفات الموهمة للتشبيه في أنه ما معنى ذلك، وما تفسيره؟ فكيف وقع العظيم بعدهم في مثل ذلك وأمثاله، وامتلأت الكتب من شرح ذلك وتفسيره وتأويله وحقائقه وأسراره، ولم يقع شيء من ذلك في عصرهم،

---

(١) في الأصل [القرآن] والصحيح ما أثبته.

فهل هو منعهم عن ذلك؟ وإذا كانوا هم بليدي الخاطر بالمرة حتى إذا لم يفهموا، لم يسألوا أيضاً، وظنوا أن الجهل با لله خير من العلم به، وكذلك الجهل بأسرار كتابه خير من العلم بها، هذا ومن أعظم الجهل الجهل بالجهل، ومتى ظنوا ذلك كانوا جهالاً، وكانوا جاهلين بجهلهم، فكيف صلحوا لصحبة النبوة وأمانة الرسالة؟

ثم إن محمداً قد عَلِمَ أنكم تفترقون بعده ثلاثاً وسبعين فرقة بسبب الأحاديث التي قالها، والآيات المتشابهة التي نقلها، فَلِمَ لم يرفع تلك الإيهامات التي أوقعت الأمة في الغلو حتى افترقوا وابتدعوا وشبهوا وغيروا وعطلوا وألحدوا وتزندقوا، وقد ثبت عندكم أنه ما أرسل إلا رحمة للعالمين، وأنه هدى ونور، ومن يكون بهذه المثابة كيف يلقي بين أمته كلاماً يقعون بسببه في ظلمة البدع، وفي تيه التشبيه والرفض، مع قدرته على أن يدعهم على بيضاء نقية لا يبقى بينهم خلاف ولا نزاع، ولا يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً كما هو حالكم فيما بينكم، وما منكم طائفة إلا وتكفر الأخرى، أو تبدعها أو تلعنها.

ثم إن خير فرقكم الفرقة الواحدة التي تزعمون أنها السنة والجماعة، ومع هذا قد افترقت أيضاً إلى فرق شتى، كل فرقة منها تطعن في الأخرى بل وتكفرها: فالأشعري يكفر الحنبلي، وينسبه إلى الحشو والتشبيه، وكذلك الحنبلي في حق الأشعري، هذا في الاعتقاد، وأما في المذهب: فالحنفي يطعن على إمامكم الشافعي، وينسبه إلى الغلط والخطأ العظيم في

أمور شتى، من جملتها أن يتزوج الرجل بابنته من الزنا.[(١)] وكذلك الشافعية تطعن في الحنفية وتنسبهم إلى الخطأ في أمور شتى من جملتها إباحة النبيذ والوضوء به[(٢)]، وجواز صلاة الرجل وعلى دبره من الغائط قدر الكف[(٣)]. وكذلك طعنكم على إمامكم مالك في أمور شتى، ومن جملتها إباحة أكل لحم الكلب[(٤)]، وكذلك طعنكم على إمامكم أحمد. وإذا كان الحال فيما بينكم كذلك وأنتم على زعمكم الفرقة الناجية فيكف حال الغير؟

ثم إن منكم طائفة اعتزلت أهل العلم والحكمة والفهم والمعرفة، وادعت أنها على الحق، وأنها هي الواصلة إلى ا لله (تعالى) ، وتنظر إلى العلماء بعين المقت والاحتقار، وبعين الازدراء والإهانة، ليس لهم علم وعمل إلا الغناء والرقص والدف والشبابة، مع الشحاتة من كل بر وفاجر، وأكل ما حضر، كأنهم ابتدعوا لأنفسهم شريعة بذاتها ما بعث بها نبي، ولا أنزل بها كتاب، فأي نبي بعث بغناء ورقص، أو أرسل بدف وشبابة؟ وأي كتاب نزل من السماء بذلك؟ فليس لهم في ذلك مستند سوى ميل العوام إليهم وتعصبهم لهم. ثم إن هؤلاء مع ما هم فيه من الجهل العظيم ينسبون أئمتهم إلى النقص والتقصير. وهذا منهم يقتضي

---

(١) انظر شرح هذه المسألة في : المهذب ـ لأبي إسحاق الشيرازي ٤٣/٢ .

(٢) انظر شرح هذه المسألة في : حاشية رد المحتار ١٨١/١ .

(٣) انظر شرح هذه المسألة في : تبيين الحقائق ٧٣/١ .

(٤) انظر شرح هذه المسألة في : مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ٢٣٦/٣ .

بأن الشريعة التي نقلتموها عن محمد غير الشريعة التي هم عليها. وأما أنتم فنسبتموهم إلى الجهل والزندقة، فكل منكم يقدح في الآخر، فهذا حال خياركم فكيف حال الأشرار؟

وبعد، فإن ما من ملة إلا وتقطع بأنها هي المحقة وغيرها المبطلة، فبأي شيء يتميز ذلك إذا كان الجميع مشتركين في الاستدلال بالأدلة القطعية؟ وعلى تقدير أن يُعلم ذلك بالمعجزة، فإذا ثبت أن السحر مشارك للمعجزة في التخييل فكيف يتميز المعجز من السحر؟

فقال الفخر الرازي رحمه الله: أما حديث رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وبقائه حياً إلى اليوم، وخلقه من غير نطفة، وتجرده عن علائق النفس، وانشغاله بحضرة القدس، وكونه روحاً وكلمة، فكل ذلك يدل على الأفضلية لا على الإلهية، وكون محمد ﷺ ليس كذلك فليس دليلاً على عدم النبوة، بل على المفضولية. وأنت يا نصراني، ما ذكرت ذلك في حق عيسى في معرض التفضيل بين عيسى ومحمد، بل في معرض إثبات الإلهية أو كونه ابن الإله، أو غير ذلك من صفات الإلهية، وفي معرض الدليل على عدم نبوة محمد ﷺ. ولما كان الدليل غير مطابق للمدلول فالسؤال لم يستحق الجواب، على أنا نجيبك تبرعاً لا وجوباً، فنقول:

أما قولك: إن عيسى عليه السلام رفع إلى السماء، وهو حي إلى الآن وإلى قيام الساعة، وكون محمد مدفوناً ميتاً في بطن الأرض، فذلك وإن كان دليلاً على أفضلية عيسى من وجه واحد، لكنه دليل على أفضلية نبينا

محمد ﷺ من وجوه متعددة، وذلك أن أفضليته إنما تعتبر بالنفع المتعدي لا بالنفع القاصر، فعيسى عليه السلام وإن كان في ذلك المحل الرفيع إلا أن نفعه قاصر على نفسه، ثم ما كفى ذلك حتى إن حالته تلك صارت سبباً لكفر النصارى حتى اتخذوه إلهاً. وأما حال نبينا ﷺ فإن موته ودفنه في الأرض ربما كفى أن يكون رحمة للعالمين لئلا يسلط على من أعرض عنه عذاب الاستئصال، كما سلط على الأمم الذين أعرضوا قبلنا، كلما كان مدفوناً بين أظهرنا، حتى إن زيارة قبره كل عام صارت دعوة منه بالنظر إلى من نظر إلى قبره، والتبرك لمن تبرك بحرمه وحضرته. فلا جرم أن ظهر ببركة ضريحه كل إمام في العلم وقدوة في العمل، كل منهم يصلح أن ينوب عن كل نبي مرسل وملك مقرب بالمجاهدة والعبادة في إصلاح الأمة بأنواع الهداية[1]، وأين ثمرة رفع عيسى إلى السماء في حق أمته إلى ثمرة دفن النبي في الأرض في حق أمته؟ انظر ما بين تلك التي كانت سبباً لكفر النصارى، وبين هذه الثمرة التي كانت سبباً لكمال هداية المسلمين المؤمنين الموحدين، وسبباً لعلم العلماء الراسخين، وسبباً لكمال صفات الصديقين المكاشفين المخاطبين المؤيدين بروح القدس.

ثم إن كان جسم محمد مدفوناً في الأرض فروحه في أعلى عليين، والاعتبار بالروح الذي هو الساكن لا الجسد الذي هو المسكن.

---

(١) ما تقدم من كلام الرازي من الغلو الذي نهى عنه النبي ﷺ وحذر أمته منه، وهو من فتنة عبادة القبور والتبرك بها، ولا شك أن النبي ﷺ أطيب الخلق وأفضلهم حياً وميتاً، وأن زيارة قبره ـ من غير شد الرحال ـ مشروعة، وهي قربة من القرب.

ثم إن عيسى وإن كان بعروجه إلى السماء قد تجرد عن علائق الدنيا، وحظوظ النفس، إلا أنه لم يتجرد أيضاً عن الجسد، فجسده معه في السماء. وأما نبينا ﷺ فإن عروجه إلى العالم الأعلى قد تجرد عن جميع الأشياء وعن جسده أيضاً، فأين تجرد عيسى من تجرد النبي ﷺ ؟ وأين سكنى سماء الدنيا من سكنى الفردوس الأعلى والحضرة الأسمى؟

وأما كون عيسى عليه السلام روح الله وكلمته فهو متروك الظاهر عقلاً؛ لأن من المحال أن يكون الجسد روحاً وكلمة، ولا شك أن عيسى كان جسداً. ومن المحال أن يكون الله (تعالى) مركباً من روح فتصير عيسى، والأجزاء الأخرى تصير منها أشياء أخرى، فيذهب الرب ويبقى المربوب رباً، وذلك محال، فكان القول بظاهر ذلك محالاً. وإذا ثبت أنه متروك الظاهر حمل على التأويل. وتأويل كون عيسى عليه السلام روح الله أنه إضافة تشريف، كما يقال: بيت الله، وناقة الله. فكونه روح الله أي روح شرَّفه الله (تعالى) ، أي روح أهل الله، وروح صفوة الله. وكذلك قوله: وكلمته، أي لاشتماله على معرفة الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، فكان كلمة الله لذلك، وكل الأنبياء يشاركونه في ذلك، في كونه روح الله، وفي كونه كلمة الله؛ لاشتمال جميعهم على المعنى الذي اشتمل عليه عيسى، أو بعضه، أو أكثر منه.

أما كونه خلق من غير نطفة، فليس الاعتبار بالأجساد بل بالمعاني، فأصل الكل آدم، وآدم خلق من تراب، فالجسد لَحَق المعنى، فقد يكون اللَّحَق كثيفاً والجوهر الذي فيه لطيفاً شريفاً، وقد يكون اللَّحَق شريفاً

ويكون فيه حجر ومدر، فالاعتبار إذاً بالروح والمعنى لا بالجسد والصورة، فما علينا حينئذ أن يكون جسده خلق من نطفة أو غير ذلك.

وأما أن عيسى لم يشتغل بشيء من لذات البطن والفرج ولا كذلك محمد ﷺ، فالجواب: أن من اشتغل بالأزواج على قصد أن ينفي عنه تهمة الربوبية ـ ولم تنتف عن عيسى بسبب تركه ذلك ـ فهو أعظم وأفضل ممن ترك الزوج وصار حفرة حتى وقع فيه سائر النصارى باتخاذه رباً وإلهاً وابن الإله.

وأما الجواب عن كون محمد ﷺ دعا الناس إلى الهدى بالسيف والقهر، فإنما كان ذلك عندما كانوا يجحدون المعجزات والأدلة الظاهرة الباهرة، ولا خلاف أن من عاند البرهان، لم يبق له إلا المقاتلة بالسيف والسنان.

وأما الجواب عن الأحاديث والآيات الموهمة للتشبيه، فاعلم أنه إذا ثبت عند كل عاقل مثلاً أن الجدار جماد لا حي، ثم يوصف بعد ذلك بالإرادة في قوله (تعالى): ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾[سورة الكهف: ٧٧] علم قطعاً بضرورة العقل أن وصفه بالإرادة إنما هو على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة. وكذلك إذا علم أن القرية جدران لا روح لها، وأن الله (تعالى) قال فيها: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[سورة يوسف: ٨٢] علم قطعاً أن سؤال القرية مجاز لا حقيقة، وإنما المراد: واسأل أهل القرية، فكذلك إذا علم أن البارئ (تعالى) منزه عن الجسمية والعرضية والحد والجهة والأعضاء والجوارح والحركة

والسكون، ومنزه عن الميل والحظ والنفور والرقة، ثم إنه وصف بعد ذلك بالمحبة والرضا والسخط والرحمة، أو بالحركة والجارحة علم قطعاً أن إطلاق ذلك عليه مجاز لا حقيقة، بل من باب التنبيه بالمثمر على الثمرة.

وأما كونه عليه السلام لم يشرح شيئاً من ذلك، ولا سأله عنه أحد من الصحابة فلأنه لما قال لهم مثلاً: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ [سورة الكهف: ٧٧] فلو قال لهم: اعلموا أن الجدار جماد لا إرادة له، لكان ذلك قبيحاً؛ لأنه معلوم بضرورة العقل. وكذلك لو سألوه أن هل للجدار إرادة أم لا؟ لكان أيضاً قبيحاً. فكذلك إذا ثبت أن إله العالم منزه عن الجوهرية والعرضية، ثم قال (تعالى): ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[سورة الزمر: ٦٧] علم قطعاً أن المراد به القوة والقدرة لا العضو ولا الجارحة، فإن القدرة والقوة ليست لليمين الذي هو الصورة والجسد، بل للمعنى الذي هو القوة والقدرة، فهل كان يليق به ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أن معنى يمينه إنما هو القدرة لا العضو والجارحة الذي هو الشكل والصورة. وقد علم ﷺ أنهم يعلمون ذلك ويتحققونه. وكذلك ما كان يليق بهم أن يقولوا له: ما معنى اليمين هنا، لأنه يصير كأنهم عدلوا من المفهوم والمعلوم عندهم فهمه وعلمه إلى السؤال عن الكيفية، والكيفية في ذات الإله محال، فكان السؤال عما لا ينبغي السؤال عنه بعد فهم ما ينبغي فهمه محالاً. وكذلك وصفه (تعالى) بالرحمة والرأفة والحنو والشفقة، كل ذلك يدل حقيقة عن الرقة الجنسية، وهو على الله

(تعالى) محال، وإنما المقصود التنبيه على ثمرة الرحمة، وثمرة الرأفة والشفقة، فعبر عن الثمرة بالمثمر تنبيهاً على الثمرة[1].

ثم إن النبي ﷺ إنما لزمه أن يبين للناس ما اختلفوا فيه، فبين لهم، لكن لم يلزمه أن يعصم الرواة عن الخطأ والنسيان، ولا لزمه أن يزيد في عمره إلى قيام الساعة حتى إنه كلما اختلفوا بعده في شيء قال لهم: ليس الأمر كذلك، ولا لزمه أن يذكر كل ما ذكره العلماء من أمته بعده إلى قيام الساعة: من تفسير كتاب الله (تعالى)، وشرح حديثه ﷺ، فإنه

---

(١) ما تقدم من كلام الرازي من الجواب عن النصوص الموهمة للتشبيه هو على مذهب المتكلمين، وهو من أئمتهم في ذلك، كما يظهر ذلك في سائر كتبه وكتبهم. أما النصوص فليست ـ ولله الحمد ـ موهمة للتشبيه كما يزعمون، حتى تحتاج إلى هذا التأويل والتحريف، الذي أخرجها عن معانيها التي وضعت لها، والتي يفهمها كل عربي القلب واللسان، وبسبب هذا المذهب التحريفي للنصوص والذي بدأ بتأويل بعض نصوص الصفات، وهي الصفات الاختيارية كما هو عند الأشاعرة، تسلّط عليهم وعلى الإسلام الفلاسفة والملاحدة الباطنيون، فوسّعوا في دائرة التأويل مستندين إلى الحجج والشبه ذاتها، حتى عطّلوا نصوص الأحكام، والحلال والحرام، واتسع الخرق على الراقع. والواجب التزام نصوص الكتاب والسنة، وفهمها على مقتضى فهم السلف الصالح الذين هم أعمق علماً، وأقل تكلفاً، وأرسخ قدماً.

فالأسماء والصفات ـ ومنها الصفات الاختيارية ـ ثابتة لله تعالى بمقتضى النصوص، من غير تشبيه ولا تكييف، ومن غير تعطيل ولا تحريف. فالتنزيه الحقيقي للرب تعالى هو إثبات ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من غير تقصير ولا تعدٍّ، لا الخوض في ذلك بالعقول المدخولة، والخواطر المسوخة. وفي هذا السلامة وأي سلامة، مع العلم والإحكام.

لو لزمه ذلك لفعله، ولما كان للعلماء بعده مزية في العلم على العامة، ولا ثواب في القيام به، ولكان كلام الله أحق بأن يشرح جميع ذلك، وما كان يبقى لأحد حاجة بالرسل، وكان الله قادراً على أن يهدي الجميع من غير إنزال أيضاً، بل وكان قادراً على أن يخلقهم في الجنة من غير كلفة ومشقة، لكن الحكمة الإلهية اقتضت خلق الأسباب والمسببات، والنبي ﷺ بلّغ وأوضح، وشرح وأفصح وما أبقى، وإنما الخلاف نشأ بسبب الخلل الواقع في الرواة عنه من بعده، فوقع الاختلاف، وكثر الخبط، وظهرت البدع بسبب ذلك.

ثم الذي أوردته علينا هو بعينه وارد عليكم: فإنه وإن وقعت البدع بيننا بسبب نقل الرواة، فقد شملكم الكفر المحض جميعاً بسبب تجرد عيسى كل ذلك التجرد، وبسبب عروجه إلى السماء وإقامته هناك، وبسبب ما ظهر على يديه من المعجزات التي تشبه فعل الخالق (تعالى) من إحياء الموتى، وخلق الطير من الطين في الحال والساعة، وبسبب النقل الفاسد من أئمتكم فيما أنزل الله (تعالى) على رسوله. وإذا كانت هذه الضلالات لا تنسب إلى عيسى، فكيف ينسب إلى نبينا خطأ بسبب الرواة؟

وأما الجواب عن الحروف المقطعة[1] فإنه يحتمل أن تكون الحكمة في ذكرها تهويلاً على الخلق ليبقى العقل والقلب دائماً مشتغلاً بالفكر في

(١) الحروف المقطعة التي في أوائل السور، وقع الخلاف فيها، ومداره على قولين: الأول: أنها مما استأثر الله بعلمه. والثاني: أنها مما يُعلم معناه، واختلف هؤلاء في تفسيرها على أقوال؛
=

ذلك والبحث عنه، ولئلا يذهب الوهم في ذلك إلى تقدير أمر عظيم إلا ويظن أن وراء ذلك ما هو أعظم منه: تارة فيما يتعلق بعظمته، وتارة فيما يتعلق بسعة ملكه وعظم عالمه، وتارة فيما يتعلق بوعده ووعيده، وتارة فيما يتعلق بجنته وناره.

وأما أن الصحابة لم يسألوا الرسول ﷺ عن شرحها ومعناها، فلأن مهابة الرسول وجلالته إلى غير غاية ونهاية، وقد علموا أن الله (تعالى) في كتابه سراً لا يطلع عليه إلا نبي مرسل أو ملك مقرب، وله في كل كتاب سر لا يطلع عليه إلا هو، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، فقالوا: يحتمل أن

= أهمها : أنها أسماء للسور، وقيل : إنها فواتح افتتح الله بها كتابه. وقيل : إنها حروف من حروف المعجم استغني بذكر بعضها في أوائل السور عن ذكر بواقيها.

وقد تكلم بعض العلماء في الحكمة من إيرادها في أوائل السور : فقالوا : ذكرت لتفتح أسماع المشركين إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن، حتى إذا أصغوا أسماعهم تلي عليهم المؤلّف منه.

وقيل : لإظهار عجز الخلق عن معارضة القرآن بمثله، فإنه وإن كان من جنس حروفهم التي يتخاطبون بها، لكنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله . وهذا اختيار طائفة من العلماء المحققين.

ومما يؤيد أن لهذه الحروف معاني أنه لم ينقل عن أحد المخاطَبين في عصر التنزيل؛ سواء من المسلمين أو من المشركين ـ وقد كانوا أحرص الناس على معارضة القرآن والطعن فيه ـ أنه سأل عن معنى هذه الحروف، أو اعترض بها ، مما يدل على أنها جارية على معهودهم في الخطاب، وأن معانيها مفهومة لديهم.

انظر : تفسير الطبري ٢٠٥/١ وما بعدها ط. شاكر ، وتفسير القرطبي ١٥٤/١ وما بعدها، وعمدة التفسير لابن كثير ٩٢/١-٩٣ .

يكون الرمز والإشارة بهذه الحروف المقطعة إلى أنها تلك الأسرار أو بعضها، ولأنهم لم يروا النبي ﷺ يتكلم في معناها ولم يذكر شرحها، بل يذكرها في معرض التلاوة فقط، فغلب على ظنهم أن الأمر هو ذلك، فلذلك سكتوا عنه.

وأما الجواب عن تكفير الأشعرية للحنابلة، والحنابلة للأشعرية، فليس ذلك تكفيراً حقيقة بل تبديعاً. فقصد الأشعري تنزيه الرب (تعالى) وتقديسه، والمبالغة في إجلاله وتعظيمه، والفرار من التشبيه. وقصد الحنابلة الفرار من الوقوع في البدع، وخوف الخروج عما كان عليه السلف الصالح.

وأما الجواب عن المطاعن في أئمة المذهب، فإن الإئمة إنما أفتوا بأن مقتضى ظاهر الآية والخبر في تلك المسائل ذلك، لا أنهم قطعوا بصحته في نفس الأمر. ثم وما المانع أن يكون ذلك حقاً في نفس الأمر؟[1]

وأما الطائفة التي اعتزلت عن العلماء، وادعت الفقر، واشتغلت بالغناء والرقص، والدف الشبابة، فالجواب أن أولئك ليسوا ممن يعتمد عليهم في الدين: لا في علم، ولا في بيان حكم، ولا في آية منزلة، ولا خبر مروي، ولا في تهذيب خلق، ولا في سلوك طريق، ولا في أصل من أصول الدين، ولا في فرع من فروع المسلمين. وإذا كان كذلك فأي التفات وأي اعتبار لهؤلاء آمنوا أو كفروا، أطاعوا أو عصوا؟

(١) الحق في نفس الأمر واحد، ولا يمنع أن يكون كل مجتهد مثاباً على اجتهاده وإن أخطأ، أو أنه مصيب في طروق سبل الاجتهاد، لا إصابة الحق، فالمصيب واحد والمثاب كثير.

وأما الجواب على أن محمداً ﷺ أقام في نبوته عشرين سنة مشوبة بأمور الدنيا، ولعيسى ألف ومائتا سنة حياً في صفاء الأنس، وخلاصة حضرة القدس، فساعة من ساعات محمد ﷺ التي كانت سبباً لهداية أمته خير وأفضل من ألف سنة ضل بها دين النصرانية.

وأما الجواب عن قولك: لم انحصرتم في الاثنينية حتى لقبتم كتابكم في الحديث بالصحيحين، فاعلم أن قولنا: هذا كتاب صحيح، لم نرد به الانحصار في الكتابين، فإن غيرهما من الكتب الصحيحة كثير، وإنما أطلق هذا الاسم على هذين الكتابين، فصار اسماً علماً عليهما، لا أنه ليس ثمة صحيح غيرهما.

وأما الجواب عن قولك: إنه ما من أمة من الأمم، ولا ملة من الملل إلا ويُدعى أنها هي المحقة وغيرها المبطلة بالأدلة القاطعة، والحجج الباهرة، وإذا كان كذلك، فبأي شيء نتبين رجحانكم على الغير؟ فاعلم أن إحدى الحِكم في إرسال الرسل هو أن يكون الرسول حَكَمًا بين خلق الله (تعالى) إذا ادَّعوا جميعهم ذلك، فتعرض أدلتهم على ذلك النبي الذي تميز عن جميعهم، ورجح على سائرهم بالعلم والعقل، فأي دليل يرجحه ذلك الشارع كان هو على الحق وغيره على الباطل. وإنما تعرف نبوة النبي بالحكم الذي جعله الله فينا وهو العقل، فتعرض معجزاته على الحكم، فمتى كان الذي أتى به معجزاً ولم يكن سحراً، علمنا أنه نبي مرسل لا شيطان رجيم، ولا كاهن، ولا شاعر.

وأما الجواب عن قولك: إنه إذا كانت المعجزة تشارك السحر في التخييل، فبأي شيء يفرق بين المعجز والسحر؟ فالجواب عنه أن إبطال السحر مما لم يعجز عنه العلماء وخواص الحكماء، ولا كذلك المعجز، فإنه يعجز عن إبطاله جميع الخلائق. فلما ظهر محمد ﷺ وأُظهر المعجز على يديه، ولم يكن في زمانه وإلى هذا الوقت من أبطل عليه معجزة واحدة، فضلاً عن ألف ألف معجزة، علمنا أن الذي ادعاه محمد ﷺ كان معجزاً ولم يكن سحراً، وكذلك غيره من الأنبياء.

هذا آخر الجواب والله أعلم، فآمن على يديه ذلك النصراني، وصار منه إماماً في العلم يقتدى به.

القرآن من عند الله (تعالى):

قال وحيد الدين خان يحكي واقعة رواها العالم الهندي الدكتور عناية الله المشرقي، حيث قال: «كان ذلك يوم أحد، من أيام سنة تسع وتسعمائة وألف وكانت تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز ـ الأستاذ بجامعة كمبردج ـ ذاهباً إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني: ماذا تريد مني؟ فقلت له: أمرين، يا سيدي، الأول هو: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر. فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور. فقلت له: وأما الأمر الآخر، فهو: ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في

العالم ـ مثلك ـ أن يتوجه إلى الكنيسة؟ وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي. وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت ليدي جيمس في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني. وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره. وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر ردي، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها، ومدارتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة. ثم بدأ يقول: يا عناية الله، عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: إنك لعظيم، أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلى الكنيسة؟

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو

سمحتم لي لقرأتها عليكم، فهز رأسه قائلاً: بكل سرور، فقرأت عليه الآية التالية:

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[سورة فاطر: ٢٧-٢٨].

فصرخ السير جيمس قائلاً: ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء؟ مدهش! وغريب وعجيب جداً!! إن الأمر الذي كشفتُ عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً: لقد كان محمداً أمياً، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر..مدهش..! وغريب، وعجيب جداً!![1]

المناظرة في عصمة الأئمة :

عصمة غير الأنبياء يقول بها الشيعة وبعض المتصوفة، وهي من مخازيهم التي خالفوا بها جماعة المسلمين.

قال الإمام تقي الدين أبو العز صاحب الأسرار العقلية: ومما قرع سمعي من مناظرة بعض المشائخ الذين أدركتهم أنه ناظر بعض الإمامية في

(١) الإسلام يتحدى ص: ١٥٢-١٥٣ وأحال المعرِّب القصة إلى مجلة النقوش الباكستانية العدد الخاص بالشخصيات الإسلامية ـ شخصية العلامة عناية الله المشرقي ص:١٢٠٨-٩.

إضافة الغواية إلى الله (تعالى)، فاستدل هذا الشيخ بقوله (تعالى) في قصة نوح ﷺ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[سورة هود: ٣٤] ففي هذه الآية إضافة الإغواء إلى الله (تعالى) . فلم يجد الإمامي جواباً، وعجز عن التأويل. فقال الإمامي الرافضي: أخطأ نوح ﷺ، فغضب الشيخ، وترك المجلس، وقال: لا نجلس في موضع يُخطَّأُ فيه على الأنبياء، فلقيه بعض أئمة عصره، وفريد دهره، فقال له: لقد أمكنتك معه فرصة فتركتها، هذا الرجل يقول بالإمام المعصوم، فإذا لم تثبت عصمة النبي من الخطأ فيما تصح نسبته إلى الله (تعالى) فبأي طريق تثبت عصمة الإمام الذي هو نائبه وخليفته[1] .

مناظرة أخرى في عصمة الإمام:

هذه طريقة أخرى يمكن أن يُقطع بها من يقول بعصمة الإمام، وهو أن يقال لهم: بم عرفتم وجوب عصمة الإمام؟ هل عرفتموها بقوله أم بدليل آخر؟

فإن قالوا: عرفناها بقوله. قيل لهم: قوله لا يكون حجة إلا بعد العلم بعصمته، وعصمته على قولكم لا تعرف إلا من قوله، فهذا محض الدور، وهو باطل.

وإن قالوا: عرفناها بدليل آخر. قلنا لهم: الدليل إما أن يكون شرعياً أو عقلياً. فإن قالوا: عرفناها بالدليل الشرعي. قلنا لهم: الشرع ـ على

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٨٧-٢٨٨.

قولكم ـ لا يعرف إلا من قول الإمام، وقوله لا يكون حجة إلا بعد معرفة عصمته، فهذا ساقط كسابقه.

وإن قالوا: عرفناها بالدليل العقلي. قلنا لهم: العقول لا اعتماد عليها عندكم. فإن قالوا: ما ألزمتمونا به في عصمة الإمام فهو لازم لكم في عصمة النبي. قلنا: كلا وحاشا فإنا عرفنا عصمة النبي بالعقل، وصدقه لظهور المعجز وغيره عليه، لا من قوله، وأنتم لا اعتماد لكم على العقول، ولا معجزة لإمامكم، فكان الإلزام متوجها عليكم وظهر الفرق بيننا[١].

مناظرة أخرى في عصمة الإمام :

مذهب التعليمية من الباطنية القول بأنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم، قائم بالحق، يرجع إليه في التعليم، وحل الإشكالات النقلية والعقلية، واتفقوا على أنه يساوي النبي في العصمة[٢].

وقد صوّر لنا أبو حامد الغزالي رحمه الله كيفية مناظرة هؤلاء التعليمية وإفحامهم بعد مقدمة جاء فيها: والحاصل أنه لا حاصل عند هؤلاء ـ يعني التعليمية ـ ولا طائل لكلامهم، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل، لما انتهت تلك البدعة ـ مع ضعفها ـ إلى هذه الدرجة، ولكن شدة التعصب، دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم، وإلى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به، فجاحدوهم في

(١) الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام ـ يحيى العلوي ص : ٦٤-٦٥

(٢) انظر : المرجع السابق ص : ٦٠ .

دعواهم: الحاجة إلى التعليم والمعلّم، ودعواهم أنه: لا يصلح كل معلّم، بل لا بد من معلّم معصوم، وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلّم، وضعف قول المنكرين في مقابلته، فاغتر بذلك جماعة، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق، وجهله بطريقه، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلّم، وأنه لا بد وأن يكون المعلّم معصوماً، ولكن معلمنا هو محمد ﷺ، فإذا قالوا : هو ميت. فنقول: فمعلمكم غائب، فإذا قالوا: معلمنا قد علّم الدعاة، وبثهم في البلاد، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا، أو أشكل عليهم مشكل. فنقول: ومعلمنا قد علّم الدعاة وبثهم في البلاد، وأكمل التعليم؛ إذ قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٣] وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلّم، كما لا يضر غيبته[(١)].

مناظرة الرافضة في غيبة الإمام :

قال كثير عزّة الرافضي[(٢)]:

---

(١) المنقذ من الضلال ص: ١١٠-١١١ .

(٢) الفرق بين الفرق ص :٤٢-٤٣، وانظر : عيون الأخبار ١٤٤/٢.

ألا قل للوصي فدتك نفسي ... أطلت بذلك الجبل المُقاما
أضرَّ بمعشرٍ والَوْك منا ... وسمَّوك الخليفة والإماما
وعادَوْا فيك أهل الأرض طُرًّا ... مقامُك عندهم ستين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ... ولا وارت له أرضٌ عظاما
لقد أمسى بمجرى شِعْب رضْوى ... تراجعه الملائكة الكلاما
وإن له لرزقاً كلَّ يوم ... وأشربة يُعلُّ بها الطعاما

فأجابه عبد القاهر البغدادي بقوله:[1]

لقد أفنيت عمرك بانتظارٍ ... لمن وارى الترابُ له عظاما
فليس بشِعْب رضواء إمامٌ ... تراجعه الملائكةُ الكلاما
ولا منْ عنده عسل وماء ... وأشربة يعل بها الطعاما
وقد ذاق ابن خولة طعمَ موتٍ ... كما قد ذاق والده الحِمَامَا
ولو خَلَدَ امرؤ لعلوِّ مجدٍ ... لعاش المصطفى أبداً وداما

مناظرة الباطنية في تأويل نصوص الشرع:

الباطنية عمدوا إلى إبطال الشرع بتحريف نصوصه وتغيير معانيه: فالصلاة عندهم: كشف الأسرار، والصيام: كتمها، والاحتلام: مشاهدة السر في غير محله، والغسل: تجديد المعاهدة، والطهور: التبرئ عن اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام. والكعبة: النبي، وبابها: علي، والطواف: هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة، والقيامة: قيام السامع الناسخ للشرع، والمغير للأمر، وهو محمد بن إسماعيل. والمعاد: عود كل شيء إلى

---

(١) الفرق بين الفرق ص :٤٣.

أصله. والنار: أغلال الشرع والتكاليف، والجنة: فكها والخلاص منها، إلى غير ذلك من الهذيان، والتهويس ودعوى الكذب والافتراء والبطلان[١].

فيقال لهؤلاء: ما طريقكم في هذه التأويلات الشنيعة والتحريفات السخيفة؟ فإما أن يقولوا: العقل، أو الوضع، أو السماع من لفظ الإمام المبلّغ للشرع عندهم.

فإن قالوا: عرفنا ذلك من جهة العقل، قيل لهم: هذا خطأ؛ لأن العقل -ضرورياً كان أو نظرياً- لا اعتماد عليه عندكم، إضافة إلى كونه بمعزل عن وضع هذه الألفاظ ودلالتها على معانيها.

فإن قالوا: عرفنا ذلك من جهة الوضع، قيل لهم: وهذا ـ أيضاً ـ باطل؛ لأن هذه الألفاظ لم توضع لما ذكرتموه، وإنما وضعت لمعانيها المفهومة في اللسان العربي، وليس ما زعمتموه من التحريفات مما يفهم منها في وضع اللسان، لا حقيقة ولا مجازاً، فإن قالوا: إنما سمعناه من جهة الإمام المعصوم . قيل لهم: وهذا فاسد من وجهين:

أما الأول: فلما تقدم من بطلان عصمة الأمام، وإذا بطل أن يكون معصوماً، فلعل ما قاله خطأ وضلال، فلا يمكن الاعتماد عليه.

وأما الثاني: فلفظ الإمام ليس بأشد تصريحاً من هذه الألفاظ التي حرفتموها، وقلتم لها بواطن، وهي رموز إلى الأسرار؛ فما يؤمنكم أن

---

(١) انظر : الإفحام لأفئدة الباطنية ـ العلوي ص:٧٢-٧٣ ، والاعتصام ـ للشاطبي ١/٢٥٢-٢٥٣

لفظ الإمام ـ أيضاً ـ له باطن، وهو رمز إلى أسرار لم تطلعوا عليها، ولا نؤمن لكم بما فهمتموه من ظاهر لفظه.

فإن زعموا أنه صرح بذلك المعنى، وقال: إنه نص فيه، لا رمز لي فيه. قلنا: لا نأمن أن يكون قوله: إنه نص فيه، لا رمز لي فيه، هو أيضاً رمز إلى سر لم تطعلوا عليه، ولا يزال يصرح بلفظ ونحن نقول: لسنا ممن يغتر بالظواهر، فلعل تحت مقالته رمزاً وسراً.

فإن أنكر الباطني قلنا له: إن تحت إنكارك أيضاً رمزاً لم يطلع عليه أحد، فإن حلف بالطلاق الثلاث: أني ما قصدت إلا الظاهر، وما لي رمز. قلنا له: تحت طلاقك أيضاً رمز وسر، وإنما أنت مضمر شيئاً، ومظهر خلافه. **وهذا يفحمهم ويقطع شجارهم.**

فإن قالوا: هذا يؤدي إلى حسم باب التفهيم بالكلام. قلنا: إن مذهبكم هذا هو الذي أدى إلى هذه الشناعة، فإن أكثر القرآن في وصف الجنة والنار، والحشر والنشر، وسائر الأمور الدينية، والتكاليف الشرعية، تضمنها ما هو ظاهر فيه، أو نص، ومع ذلك قلتم: بأنها ليست على ظاهرها، وإنما هي أسرار ورموز. فليت شعري: أي فرق بين تصريح صاحب الشريعة بهذه الأمور التي ذكرنا في أمور العبادات وفي أحوال المعاد، وبين قول إمامكم: إني ما أريد إلا الظاهر من كلامي، فإذا جاز في صاحب الشريعة أن يسمعنا الظاهر من القرآن والسنة وأن يكون مراده غير ظاهره، جاز في إمامكم المعصوم ـ بزعمكم ـ أن يكون مضمراً

خلاف ما يُظهر لكم، وضد ما تفهمون، ولو أكد لكم ذلك بالأيمان المغلظة، وهذا ما لا محيص لهم عنه[1].

مناظرة أخرى:

ويقال لهم: هب أنا سلمنا لكم هذه البواطن المموهة، والتأويلات المكذوبة، فأخبرونا عن حكمها في الشرع: هل يجب إخفاؤها عن الخلق، أو يجب إبداؤها لهم؟.

فإن قلتم: يجب إبداؤها إلى كل أحد. قلنا لهم: فلم كتمها صاحب الشريعة ولم يبدها للخلق، ولا أظهرها على أحد من أصحابه ولا لغيرهم، حتى درج العصر الأول ولم يسمعوا من حديثها همساً، فكيف استجاز كتمان هذا الدين خاصة، وهي عندكم من أجل علوم الشريعة، وأعظم مقاصدها وقد قال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[سورة المائدة: ٦٧]. وقال (تعالى) مبيناً أن الدين لا يحل كتمانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[سورة آل عمران: ١٨٧].

فإن قالوا: إنه يجب إخفاؤها. قلنا لهم: وما وجب إخفاؤه كيف حلَّ لهم إفشاؤه، فقد افتضحتم وخنتم بإفشاء سر الله الأعظم، وإبداء السر ممن اطلع عليه من أعظم الجنايات، فلولا أن صاحب الشريعة عرف سراً ومصلحة في إخفاء هذه البواطن لما أخفاها، فما دهاكم على إفشاء هذا

---

(١) انظر : الإفحام لأفئدة الباطنية ـ العلوي ص : ٧٤-٧٥ (بتصرف) .

السر، و لم خرقتم الحجاب، وهل هذا إلا خروج عن الدين، ومخالفة لصاحب الشريعة، وهدم لما أسسه، وهذا حشد عليهم.

فإن زعموا أن هذا السر لا يجوز إفشاؤه إلى عوام الخلق؛ ولهذا لم يفشه رسول الله ﷺ إليهم، ولكن من حق النبي أن يفشيه إلى خاصته الذي هو وصيه وخليفته، وقد أفشاه النبي ﷺ إلى علي دون غيره.

قلنا لهم: وعلي، هل أفشاه إلى الخاصة والعامة؟ فإن فعل خان وعصى وهو ـ عندكم ـ معصوم لا يجوز عليه العصيان.

فإن قالوا: بل أفشاه إلى خاصته وخليفته من بعده، وهكذا حتى انتهى إلى إمام الزمان. قيل لهم: إذا كان الأمر كذلك، فلم انتهى هذا السر إلى هؤلاء الجهال والعوام حتى تناطقوا به، وشُحنت به التصانيف، وتداولته الألسنة، فلا بد أن يقال: إن واحداً من الخلفاء عصى وأفشى السر إلى غير أهله، فانتشر، وهذا يبطل مذهبكم في عصمة الأئمة، ويلزمكم الاعتراف بوقوع المعاصي منهم.

فإن قالوا: الخليفة لا يذكره لأحد حتى يأخذ عليه العهد في كتمانه. قلنا: هذا الخليفة ذكره لخليفة آخر مثله فهو لا يحتاج إلى أخذ العهد؛ لأنه معصوم لا يفشي السر، وإن كان ذكره لغيره، فهذا منه خيانة؛ لأنه وضع السر في غير موضعه، وهذا يبطل القول بعصمته[1].

---

(١) انظر : كتاب الإفحام ـ العلوي ص : ٧٨-٧٩.

مناظرة الرافضة في الطعن على الخلفاء الراشدين

مناظـرة السَّفّاح لأحد الرافضة:

ووقف رجل بين يدي السفاح بالمصحف قد علقه في عنقه في أول خطبـة خطبها السـفاح. فقـال السـفاح: مـن تذكـر؟ فقـال الرجـل: أبوبكـر قـد ظلمك؟ قال: نعم في ميراث فاطمـة. قـال لـه: وعمـر؟ قـال: نعـم. قـال: وعثمان؟ قال: نعم. قال: وعلي؟ فسكت[1].

قال صاحب عيـون المنـاظرات[2]: «وهـذه المنـاظرة عجيبـة، انقطـع فيهـا الرافضي؛ لأن المنع لو كـان ظلمـاً لما أقـره علـي ﷺ حـين أفضـى الأمـر إليه».

ثم إن علياً ﷺ لو سكت عن هذا الأمـر وغـيره مـدة الخلفـاء الثلاثـة تقيةً، كما تزعم الرافضـة، فمـا بالـه يسـتديم السـكوت بعـد أن أفضـت الخلافة إليه، وارتفعت أسباب الخوف، ومراعاة الجانب، لم يكن ذلـك إلا لأن ما كان عليه الخلفاء الثلاثة هو نفس ما تركهم عليه نبيهم ﷺ، وهـو الحق الذي لا مرية فيـه، فبطـل بذلـك زعـم الرافضـة أن عليـاً كـان أحـق بالخلافة من الثلاثة، لكنه منع حقـه ظلمـاً وعدوانـاً، وسـكت هـو خوفـاً وتقية.

---

(١) انظر: عيون المناظرات ص: ٢٩٦.

(٢) ص: ٢٩٦.

مناظــرة المأمون لعلي بن موسى الرضى:

قال المأمون لعلي بـن موسـى الرِّضـى: بم تدَّعـون هـذا الأمـر؟ قـال: بقرابة علي من النبي ﷺ، وبقرابة فاطمة رضي الله عنها. فقــال المـأمون: إن لم يكن هاهنا شيء إلا القرابة، ففي خَلَف رسول الله ﷺ من أهل بيته من هو أقرب إليه من علي، ومـن هـو في القرابـة مثلـه، وإن كـان بقرابـة فاطمة من رسول الله، فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين، وليس لعلي في هذا الأمر حق وهما حيان، وإذا كان الأمر على ذلـك، فـإن علياً قـد ابتزهما جميعاً وهما حيان صحيحان، واستولى علي على مـا لا يجـب لـه، فما أحار علي بن موسى نطقاً.[1]

مناظرة أبي حنيفة لشيطان الطاق:

كـان أبوحنيفـة رحمـه الله جالسـاً في مسـجد الكوفـة فجـاء شـيطان الطاق (نحو ١٨٠هـ) الرافضي، فقال له: يـا أبـا حنيفـة مـن أشـد النـاس؟ فقال أبو حنيفة: أما على قولنا فأشـد النـاس علـي بـن أبـي طـالب، وأمـا عندكم فهو أبوبكر الصديق. فقـال شـيطان الطـاق: هـذا مقلـوب. فقـال أبوحنيفة: نحن نقول: أشد الناس علي؛ لأنه علم أن الحق لأبي بكر فسلمه له، وأنتم تقولون: كان الحق لعلي ولكن أخذه منه أبوبكر، ولم يكن لعلي قوة لاسترداده منه، فصار أبوبكر قاهراً إياه! فتحير الرافضي وخرج[2].

---

(١) عيون الأخبار ٢/١٤٠-١٤١.

(٢) عقود الجمان ص : ٢٧٧.

مناظرة ابن الحداد المالكي لأبي العباس الرافضي:

قال ابن الحداد: ودخلت يوماً على أبي العباس (٢٩٨هـ) ، فأجلسني معه في مكانه وهو يقول لرجل: أليس المتعلم محتاجاً إلى المعلم أبداً؟ فعرفت أنه يريد الطعن على الصديق في سؤاله عن فرض الجدة[(١)] ، فبدرتُ وقلت: المتعلم قد يكون أعلم من المعلم وأفقه وأفضل لقول النبي عليه السلام: «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ...»[(٢)] ثم معلم الصغار القرآن يكبر أحدهم ثم يصير أعلم من المعلم. قال: فاذكر من عام القرآن وخاصه شيئاً؟ قلت: قال (تعالى): ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾[سورة البقرة: ٢٢١] فاحتمل المراد بها العام، فقال (تعالى): ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[سورة المائدة: ٥] فعلمنا أن مراده بالآية الأولى خاص، أراد: ولا تنكحوا المشركات غير الكتابيات من قبلكم حتى يؤمن، قال: ومن هن

---

(١) رواه مالك في الموطأ ٥١٣/٢ كتاب الفرائض ـ باب ميراث الجدة ح : ٤ ، وأبو داود في سننه ٣١٦/٣-٣١٧ كتاب الفرائض ـ باب في الجدة ح : ٢٨٩٤ ، والترمذي في سننه ٢٨٠/٦-٢٨١ أبواب الفرائض ـ باب ما جاء في ميراث الجدة ح : ٢١٠١-٢١٠٢ ، وابن ماجه في سننه ٩٠٩/٢-٩١٠ كتاب الفرائض ـ باب ميراث الجدة ح : ٢٧٢٤ ، وصححه الحاكم ٣٣٨/٤ ، وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٨٢/٣ : وإسناده صحيح لثقة رجاله إلا أن صورته مرسل، فإن قبيصة لا يصح له سماع من الصديق، ولا يمكن شهوده للقصة، قاله ابن عبد البر بمعناه .

(٢) رواه الترمذي في سننه ٣٠٦/٧ أبواب العلم ـ باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ح: ٢٦٥٨ وحسنه، والإمام أحمد في مسنده ١٨٣/٥ ، وابن ماجة في سننه ٨٥/١ المقدمة ـ باب من بلغ علما ح : ٢٣١ وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٤٥/١ ح: ١٨٨ .

المحصنات؟ قلت: العفائف. قال: بل المتزوجات. قلت: الإحصان في اللغة: الإحراز، فمن أحرز شيئاً فقد أحصنه، والعتق يحصِّن المملوك؛ لأنه يحرُزُه عن أن يجري عليه ما على المماليك، والتزويج يحْصِن الفرج؛ لأنه أحرزه عن أن يكون مباحاً، والعفاف إحصان للفرج. قال: ما عندي الإحصان إلا التزويج. قلت له: منزل القرآن يأبى ذلك، قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[سورة التحريم: ١٢] أي أعفته وقال: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾[سورة النساء: ٢٥] وهن عندك قد يكن عفائف. قلت: سمَّاهُنَّ بمتقدم إحصانهن قبل زناهن، قال (تعالى): ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾[سورة النساء: ١٢] وقد انقطعت العصمة بالموت، يريد اللاتي كن أزواجكم، قال: يا شيخ أنت تلوذ. قلت: لست ألوذ، أنا المجيب لك، وأنت الذي تلوذ بمسألة أخرى، وصحتُ: ألا أحد يكتب ما أقولُ وتقولُ. قال: فوقى الله شرَّه. وقال: كأنك تقول: أنا أعلم الناس. قلت: أما بديني فنعم. قال: فما تحتاج إلى زيادة فيه؟ قلت: لا، قال: فأنت إذاً أعلم من موسى إذ يقول: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾[سورة الكهف: ٦٦] قال: هذا طعن على نبوة موسى، موسى ما كان محتاجاً إليه في دينه، كلا، إنما كان العلم الذي عند الخضر دنياوياً: سفينةً خرقها، وغلاماً قتله، وجداراً أقامه، وذلك كله لا يزيد في دين موسى، قال: فأنا أسالك. قلت: أوْرِد وعلي الإصدارُ بالحق بلا مثْنويَّة[1]، قال: ما تفسير الله؟ قلت: ذو الإلهية. قال: وما هي؟ قلت: الربوبية. قال: وما الربوبية؟ قلت: المالك الأشياء كلها. قال: فقريش في

(١) أي بلا استثناء.

جاهليتها كانت تعرف الله؟ قلت: لا. قال: فقد أخبر الله (تعالى) عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾[سورة الزمر: ٣] قلت: لما أشركوا معه غيره، قالوا، وإنما يَعْرِفُ الله من قال: إنه لا شريك له. وقال (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[سورة الكافرون: ١-٢] فلو كانوا يعبدونه ما قال: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ إلى أن قال: فقلت: المشركون عبدة الأصنام الذين بعث النبي ﷺ إليهم علياً ليقرأ عليهم سورة براءة، قال: وما الأصنام؟ قلت: الحجارة. قال: والحجارة أتعبد؟ قلت: نعم، والعزى كانت تعبد وهي شجرة، والشِّعرى كانت تعبد وهي نجم. قال: فالله يقول: ﴿أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ [سورة يونس: ٣٥] فكيف تقول: إنها الحجارة؟ والحجارة لا تهتدي إلا إذا هُديت؛ لأنها ليست من ذوات العقول. قلت: أخبرنا الله أن الجلود تنطق وليست بذوات عقول. قال: نسب إليها النطق مجازاً. قلت: منزل القرآن يأبى ذلك. فقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾[سورة يس: ٦٥] إلى أن قال: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[سورة فصلت: ٢١] وما الفرق بين جسمنا والحجارة؟ ولو لم يُعقّلنا لم نعقل، وكذا الحجارة إذا شاء أن تعقل عقلت[١].

مناظرة أبي علي ابن شاذان لأبي عبد الله ابن المعلّم الشيعي:

وذُكر أن أبا علي بن شاذان (٤٢٥هـ) كان من أهل العلم، إلا أنه لم يكن قرأ عربية، فناظر يوماً أبا عبد الله بن المعلم، وكان زعيم الإمامية وكان من أهل العربية، فوقعت بينهما المناظرة في أن النبي ﷺ، هل يورث

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٢١٠-٢١٤

أم لا ؟ فالإمامية تقول بالوراثة، وجمهور الأمة يمنعون ذلك. فقال ابن شاذان: لا يورث. فطالبه ابن المعلم بالدليل. فقال: قوله ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[١].

فقال ابن المعلم: ما ذكرت إنما هو صدقةً، نصب على الحال، فيقتضي ذلك أن ما تركه على وجه الصدقة لا يورث عنه، وما تركه على غير وجه الصدقة يورث عنه. فقال له ابن شاذان: أنا لا أعلم فرقاً بين النصب والرفع، ولا أحتاج هنا إلى ذلك، فإنه لا شك عندي وعند كل عاقل أن فاطمة رضي الله عنها كانت من أفصح العرب، وأعلمهم بالفرق بين النصب والرفع، وكذلك العباس وهو مستحق الميراث لو كان موروثاً، وعلي من أفصح قريش.

وقد طلبت فاطمة ميراث أبيها رضي الله عنها فأجابها أبوبكر رضي الله عنه بهذا اللفظ على وجه فهمت منه أنه لا ميراث لها، فانصرفت عن الطلب، وفهم ذلك العباس، وعلي وسائر الصحابة، فلم يعترض أحد بهذا الاعتراض، وكذلك أبوبكر المحتج به وهو من أفصح العرب لم يورد من هذا اللفظ إلا ما يقتضي المنع، ولو كان اللفظ لا يقتضي المنع لما أورده ولا تعلق به. فإما أن لا يكون النصب يقتضي ما قلته إن كانت الرواية

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٧/٣٣٥-٣٣٦ كتاب المغازي - باب حديث بني النضير... ح: ٤٠٣٣، ٤٠٣٤، ٤٠٣٦، ومسلم في صحيحه ٣/١٣٧٩-١٣٨٣ كتاب الجهاد - باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركناه فهو صدقة ح : ١٧٥٨-١٧٦٢ .

بالنصب، أو يقتضيه فلا بد أن تكون الرواية بالرفع، وادعاؤك النصب باطل. فأفحم ابن المعلم[١].

ويعلم بهذه المناظرة بطلان قول الروافض وقدحهم في الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم بسبب هذه النكتة[٢].

مناظرة أبي الحسن البخاري للشريف المرتضى:

جاء في ترجمة أبي علي الحسين بن الخضر بن محمد البخاري الحنفي الفشيديزجي (٤٢٤هـ) أن الشريف المرتَضَى الشيعي ناظره في خبر: " ما تركنا صدقة " فقال للمرتضى : إذا صيرتَ " ما " نافية خلا الحديث من فائدة، فكل أحد يدري أن الميت يرثه أقرباؤه، ولا تكون تركته صدقة، ولكن لما كان المصطفى بخلاف الأمة، بيَّن ذلك، وقال : " ما تركناه صدقة "[٣].

مناظرة أخرى:

سأل رافضي سنياً: ما تقول في حق الصحابة؟ فأجاب: أقول فيهم ما قال الله (تعالى) في كتابه، عنى به قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[سورة البينة: ٨] فقال الرافضي: إنهم بدلوا بعد النبي ﷺ . فقال السني: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[سورة الأحزاب: ٢٣] ونحن لا نقول بإله يخبر بشيء ولا يعلم أنه يتغير بعد ذلك[٤].

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٩٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/٤٢٥ .

(٤) الدين الخالص ـ محمد صديق خان ٣/٣٨١ .

مناظرة في التفضيل:

عن أبي صالح الفراء قال: قلت ليوسف بن أسباط: ما تقول في رجل قال: أنا أحب أبابكر وعمر رضي الله عنهما وأجد لعلي ﷺ من المحبة أكثر مما أجد لهما؟ فقال: هذا كذب. قلت: وكيف يكون كذباً والرجل يكون له أولاد، فربما كان للصغير أشد حباً من الكبير؟ فقال: تلك محبة في غير الله، ولو كانت لله كان تكون المحبة والتفضيل سواء. قلت: فأهجره؟ قال: نعم، فإن هجرتك له خير من كلامك[(١)] .

معناه أن من استحق التفضيل يستحق المحبة، فيكون له من المحبة بقدر ما له من التفضيل، وعليه فأفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي. وترتيبهم في الخلافة هو ترتيبهم في الفضل، واستحقاق المحبة سواء بسواء .

مناظرة ابن الحداد المالكي لأبي عبد الله الشيعي :

التقى أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الحداد (٣٠٢هـ) شيخ المالكية وصاحب سحنون أبا عبد الله الشيعي (٢٩٨هـ) فقال له: يا شيخ، بم كنت تقضي؟ فقال الشيعي: بالكتاب والسنة. قال فما السنة؟ قال : السنة السنة. قال ابن الحداد: فقلت للشيعي: المجلس مشترك أم خاص؟ قال: مشترك. فقلت: أصل السنة في كلام العرب: المثال. قال الشاعر:[(٢)]

(١) رسالة في الرد على الرافضة - لأبي حامد محمد المقدسي ص : ٣٩١ .

(٢) هو ذو الرمة، والبيت في ديوانه ٢٩/١ من قصيدته التي مطلعها:

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سَرِبُ

وقوله: سنة وجه: أي صورة وجه. غير مقرفة : أي ليست بهجينة، بل هي عتيقة كريمة. والندب: الأثر من الجراح.

تريك سنة وجهٍ غير مُقْرِفَةٍ ملساءَ ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ

أي صورة وجه ومثاله. والسنة محصورة في ثلاث: الائتمار بما أمر به النبي ﷺ والانتهاء عما نهى عنه، والائتساء بما فعل. فقال الشيعي: فإن اختلف عليك النقل، وجاءت السنة من طرق؟ قلت: أنظر إلى أصح الخبرين، كشهود عدول اختلفوا في شهادة. قال: فلو استووا في الثبات؟ قلت: يكون أحدهما ناسخاً للآخر. قال: فمن أين قلتم بالقياس؟ قلت: من كتاب الله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٩٥] فالصيد معلومة عينه، فالجزاء أمرنا أن نمثِّله بشيءٍ من النَّعم، ومثله في تثبيت القياس: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ منهم﴾[سورة النساء: ٨٣] والاستنباط غير منصوص. ثم عطف على موسى القطان فقال: أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله، تقول: اضربوه بالأردية وبالأيدي ثم بالجريد؟[1] فقلت أنا: إنما حُدَّ قياساً على حد القاذف؛ لأنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذي افترى[2]، فأوجب عليه ما يؤول إليه أمره. قال: أو لم يقل رسول الله ﷺ: «وأقضاكم علي...» فساق له موسى تمامه وهو : «وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ، وأرأفكم أبوبكر، وأشدكم في دين الله عمر»[3] قال:

---

(١) ثبت ذلك من حديث أنس عند البخاري ١٢/٦٥-٦٦ كتاب الحدود ـ باب الضرب بالجريد والنعال ح : ٦٧٧٥-٦٧٧٧ ، ٦٧٧٩ ، وصحيح مسلم ٣/١٣٣١ كتاب الحدود ـ باب حد الخمر ح يلي : ١٧٠٦.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٨٤٢ كتاب الأشربة ـ باب الحد في الخمر ح: ٢ ، والحاكم في مستدركه ٤/٣٧٥ وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) رواه الترمذي في سننه ٩/٣٤٤ أبواب المناقب ـ باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ ح : ٣٧٩٣ ، وباب مناقب معاذ وزيد وأبي بن كعب وأبي عبيدة ح : ٣٧٩٤ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث قتادة إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في سننه ١/٥٥ المقدمة ح : ١٥٤ وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/٣١ ح : ١٢٥، والحاكم في مستدركه ٣/٤٢٢ وصححه ووافقه الذهبي.

كيف يكون أشدهم وقد هرب بالراية يوم خيبر؟ قال موسى: ما سمعنا بهذا. فقلت: إنما تحيز إلى فئة فليس بفار.

وقال في: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[سورة التوبة: ٤٠] إنما نهاه النبي ﷺ عن حزنه؛ لأنه كان مسخوطاً. قلت: لم يكن قوله إلا تبشيراً بأنه آمِنٌ على رسول الله وعلى نفسه، فقال أين نظير ما قلت؟ قلت: قوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[سورة طه: ٤٦] فلم يكن خوفهما من فرعون خوفاً بسخط الله.

ثم قال: يا أهل البلدة: إنكم تبغضون علياً؟ قلت: على مُبْغِضِه لعنة الله. فقال: صلى الله عليه. قلت: نعم، ورفعت صوتي: صلى الله عليه وسلم؛ لأن الصلاة في خطاب العرب الرحمة والدعاء، قال: ألم يقل رسول الله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» قلت: نعم، إلا أنه قال: «إلا أنه لا نبي بعدي».[1] وهارون كان حجة في حياة موسى، وعلي لم يكن حجة في حياة النبي، وهارون كان شريكاً، أفكان علي شريكاً للنبي ﷺ في النبوة؟ وإنما أراد التقريب والوزارة والولاية. قال: أوليس هو أفضل؟ قلت: أليس الحق متفقاً عليه؟ قال: نعم. قلت: قد ملكتَ مدائنَ قبل مدينتنا، وهي أعظم مدينة، واستفاض عنك أنك لم تُكْره أحداً على مذهبك، فاسلك بنا مسلك غيرنا، ونهضنا[2].

---

(١) أخرجه البخاري ١١٢/٨ كتاب المغازي ـ باب غزوة تبوك ح: ٤١٦، ومسلم في صحيحه ١٨٧٠/٤ فضائل الصحابة ـ باب من فضائل علي بن أبي طالب ح: ٢٤٠٤ وما بعده.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠٨/١٤-٢١٠.

مناظـرة شعريـــة:

كان كثير عزة (١٠٧هـ) رافضياً على مذهب الكيسانية الذين ادعـوا حياة محمد بن الحنفية، ولم يصدقوا بموته[1]، قال كثير في قصيدة له:[2]

ألا إن الأئمة مـــن قريش ولاة الحق أربعة ســــواء
علي والثلاثة مـــن بنيـــه هم الأسباط ليس بهم خفـاء
فسبط سبط إيمان وبـــر وسبط غَيَّبتْه كربـــلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يَقْدُمُها اللـواء
تغيَّب لا يُرى فيهم زمـاناً برضوى عنده عسل ومـاء

فأجابه عبد القاهر البغدادي على أبياته هذه بقوله:[3]

ولاة الحق أربعـة ولـكن لثاني اثنين قد سبق العلاء
وفاروق الورى أضحى إماماً وذو النورين بَعْدُ له الولاء
علي بعدهم أضحى إمامـاً بترتيبي لهم نزل القضـاء
ومبغض من ذكرنـاه لعينٌ وفي نار الجحيم له الجـزاء
وأهل الرفض قوم كالنصارى حيارى مـا لحيرتهم دواء

وقال كثير أيضاً:[4]

برئت إلى الإله مـن ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا

---

(١) انظر : الفرق بين الفرق ص : ٤١.

(٢) الفرق بين الفرق ص : ٤١ ، وعيون الأخبار ٢/١٤٤-١٤٥

(٣) الفرق بين الفرق ص :٤٢.

(٤) الفرق بين الفرق ص :٤٢.

ومن عمر برئت ومن عتيـــق غداة دعا أميرَ المؤمنيــــا

وقد أجابه عبد القاهر البغدادي بقوله:[١]

برئت من الإله ببغض قـــوم بهم أحيا الإلــهُ المؤمنينـــا
وما ضر ابنَ أروى منك بغضٌ وبغضُ البرِّ دينُ الكافــرينا
أبوبكـــــر لنا حقاً إمـــــام على رغْم الروافض أجمعينا
وفاروق الورى عمـــر بحـــقٍ يقال لـــه أمير المؤمنيـــــا

مناظرة في الاحتجاج بالسنة:

روى البخاري في صحيحه[٢] عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: «لعن الله الواشمات والموتشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب: فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ومن هو في كتاب الله. فقالت: لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما وجدتُ فيه ماتقول. قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[سورة الحشر: ٧] قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه. قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه. قال: فاذهبي فانظري، فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً. فقال: لو كانت كذلك ما جامعتها».

(١) الفرق بين الفرق ص :٤٢.

(٢) ٦٣٠/٨ كتاب التفسير ــ باب: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه﴾ ح: ٤٨٨٦، ومسلم في صحيحه ١٦٧٨/٣ كتاب اللباس ـ باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة...ح: ٢١٢٥.

وروى ابن بطة[1] بسنده إلى حبيب بن أبي نضلة المالكي قال: لما بني هذا المسجد مسجد الجامع، قال: وعمران بن حصين جالس فذكروا عنده الساعة، فقال رجل من القوم: يا أبا نجيد، إنكم لتحدثوننا أحاديث ما نجد لها أصلاً في القرآن. قال: فغضب عمران بن حصين، وقال للرجل: قرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: فهل وجدت فيه صلاة المغرب ثلاثاً، وصلاة العشاء أربعاً والغداة ركعتين، والأولى أربعاً والعصر أربعاً؟ قال: فممن أخذتم هذا الشأن ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن نبي الله ﷺ وعنا أخذتموه، أو عن من أخذتم في كل أربعين درهماً درهم، وفي كذا وكذا شاة كذا وكذا، ومن كذا وكذا بعير كذا وكذا، أوجدتم هذا في القرآن؟ قال: لا. قال: فعمن أخذتم هذا؟ ألستم عنا أخذتموه؟ وأخذناه عن نبي الله ﷺ وأخذتموه عنا. قال: فهل وجدتم في القرآن: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[سورة الحج: ٢٩] وجدتم طوفوا سبعاً، واركعوا خلف المقام ركعتين، هل وجدتم هذا في القرآن، عمن أخذتموه؟ ألستم أخذتموه عنا، وأخذناه عن رسول الله ﷺ وأخذتموه عنا؟! قالوا: بلى. قال: فوجدتم في القرآن لا جَلَب ولا جَنَب ولا شغار[2] في الإسلام، أوجدتم هذا في القرآن؟ قالوا:

(١) الإبانة ١/٢٣٣-٢٣٥

(٢) الجلب : يكون في شيئين: أحدهما في الزكاة، وهو أن يقْدم العامل على أهل الزكاة فينزل موضعاً، ثم يرسل من يجلب إليه الأموال من أماكنها ليأخذ صدقتها، فنُهي عن ذلك، وأُمر أن تؤخذ صدقاتهم على مياههم وأماكنهم. الثاني : أن يكون في السباق، وهو أن يتْبع الرجلُ فرسه فيزجره، ويجلب عليه، ويصيح حاثاً له على الجري، فنُهي عن ذلك. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/٢٨١.

=

لا. قال عمران: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا جلب ولا جنب ولا شغار في الإسلام. قال: أوما سمعتم الله (تعالى) قال لأقوام في كتابه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[سورة المدثر: ٤٢-٤٤] حتى بلغ: ﴿شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[سورة المدثر: ٤٨] قال حبيب: أنا سمعت عمران يقول: الشفاعة نافعة دون من يسبحون.

وفي مستدرك الحاكم[(١)] عن الحسن أنه قال: بينما عمران بن حصين يحدث عن سنة نبينا ﷺ إذ قال له رجل: يا أبا نجيد، حدثنا بالقرآن، فقال له عمران: أنت وأصحابك يقرءون القرآن، أكنت محدثي عن الصلاة وما فيها وحدودها؟ أكنت محدثي عن الزكاة في الذهب والإبل والبقر، وأصناف المال؟ ولكن قد شهدتُ وغبتَ أنت، ثم قال: فرض علينا رسول الله ﷺ في الزكاة كذا وكذا، وقال الرجل: أحييتني أحياك الله، قال الحسن: فما مات ذلك الرجل حتى صار من فقهاء المسلمين.

وروى الحافظ الدار قطني بسنده إلى عباد بن العوام قال : قدم علينا شريك بن عبد الله، فقلنا له: يا أبا عبد الله، إن عندنا قوماً من المعتزلة،

= والجنب: يكون في السباق بأن يجْنُب فرساً إلى فرسه الذي يسابق عليه، فإذا فتر المركوب تحول إلى المجنوب. وفي الزكاة : بأن ينزل العامل بأقصى مواضع أصحاب الصدقة، ثم يأمر بالأموال أن تجنب إليه، أي تحضر. فنُهوا عن ذلك، وقيل فيه غير ذلك. انظر : المرجع السابق ٣٠٣/١.

والشغار: من أنكحة الجاهلية، وهو أن يقول الرجل للرجل زوجني أختك أو ابنتك، أو من تلي أمرها، حتى أزوجك أختي أو ابنتي أو من ألي أمرها، ولا يكون بينهما مهر، وقيل له شغار لارتفاع المهر بينهما، من شغر الكلب إذا رفع إحدى رجليه ليبول. انظر : المرجع السابق ٤٨٢/٢.

(١) ١٠٩/١-١١٠ كتاب العلم ، وانظر : جامع بيان العلم ٢٣٤/٢.

ينكرون هذه الأحاديث: إن الله عز وجل ينزل إلى سماء الدنيا[١] ، وإن أهل الجنة يرون ربهم[٢] فحدثني شريك بنحو من عشرة أحاديث في هذا، وقال: أما نحن فأخذنا ديننا عن أبناء التابعين عن أصحاب رسول الله ﷺ، فهم عمن أخذوا؟[٣] .

المناظرة في براءة القرآن من التناقض

مناظرة لأبي الهذيل العلاف:

أتى أبا الهذيل العلاف رجل فقال له : أشكل علي أشياء من القرآن فقصدت هذا البلد، فلم أجد عند أحد ممن سألته شفاء لما أردته، فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل: إن بغيتك عند هذا الرجل، فاتق الله وأفدني، فقال أبو الهذيل: فماذا أشكل عليك؟ قال: آيات من القرآن توهمني أنها متناقضة، وآيات توهمني أنها ملحونة. قال: فماذا أحب إليك؛ أن أجيبك بالجملة أو تسألني عن آية آية ؟ قال: بل تجيبني بالجملة. فقال أبو الهذيل: هل تعلم أن محمداً كان من أوسط العرب، غير مطعون عليه في لغته، وأنه كان عند قومه من أعقل العرب ، فلم يكن مطعوناً

(١) حديث النزول رواه أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد، انظر مثلاً: صحيح البخاري ٢٩/٣ كتاب التهجد ـ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل : ١١٤٥ .

(٢) أحاديث رؤية المؤمنين ربهم تعالى ثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد، انظر مثلا : صحيح مسلم ١٦٣/١ وما بعدها ـ كتاب الإيمان ـ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ... وباب معرفة طريق الرؤية ح : ١٨٠ وما يليه من أحاديث.

(٣) كتاب الصفات ـ الدار قطني ص : ٤٣ ، ورواه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة والبيهقي في الأسماء والصفات ص : ٤٥١ ، وانظر : سير أعلام النبلاء ٢٠٨/٨ .

عليه؟ فقال اللهم نعم. قال أبو الهذيل: فهل تعلم أن العرب كانوا أهل جدل؟ قال: اللهم نعم. قال: فهل اجتهدوا في تكذيبه؟ قال: اللهم نعم. قال: فهل تعلم أنهم عابوا عليه بالمناقضة أو باللحن؟ قال: لا. قال أبو الهذيل: فتدع قولهم مع علمهم باللغة وتأخذ بقول رجل من الأوساط. قال: فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قال: كفاني هذا. وانصرف، وتفقه في الدين[1].

مناظرة الإمام أحمد للزنادقة:

قالت الزنادقة في قوله (تعالى): ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[سورة المدثر: ٤٢-٤٣] وفي قوله (تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾[سورة الماعون: ٤] قالوا: إن الله قد ذم قوماً كانوا يصلون فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ وقال في قوم إنهم إنما دخلوا النار لأنهم لم يكونوا يصلون فشكوا في القرآن من أجل ذلك، وزعموا أنه متناقض.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «وأما قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ عنى بها المنافقين: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[سورة الماعون: ٥] حتى يذهب الوقت. ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[سورة الماعون: ٦] يقول: إذا رأوهم صلوا، وإذا لم يروهم لم يصلوا.

وأما قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[سورة المدثر: ٤٢-٤٣] يعني الموحدين المؤمنين، فهذا ما شكت فيه الزنادقة»[2].

---

(١) انظر : فرق وطبقات المعتزلة ص : ٥٦

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة ـ أحمد بن حنبل ص : ٨٩ .

وشكّت الزنادقة في ذكر خلق الإنسان في القرآن، حيث قال (تعالى): ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾[سورة فاطر: ١١] ثم قال: ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾[سورة الصافات: ١١] ثم قال: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾[سورة المؤمنون: ١٢] ثم قال: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[سورة الحجر: ٢٦] ثم قال: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾[سورة الرحمن: ١٤] فقالوا: هذا تلبيس ينقض بعضه بعضاً.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «نقول: هذا بدء خلق آدم، خلقه الله أول بدء من تراب، ثم من طينة حمراء وسوداء وبيضاء، ومن طينة طيبة وسبخة، فكذلك ذريته: طيب وخبيث، أسود وأحمر وأبيض، ثم بلَّ ذلك التراب فصار طيناً، فذلك قوله: ﴿من طين﴾ فلما لصق الطين بعضه ببعض، فصار طيناً لازباً، بمعنى لاصقاً، ثم قال: ﴿من سلالة من طين﴾. يقول: مثل الطين إذا عصر انسل من بين الأصابع، ثم نتن فصار حمأ مسنوناً فخلق من الحمأ، فلما جف صار صلصالاً كالفخار، يقول: صار له صلصلة كصلصلة الفخار، له دوي كدوي الفخار. فهذا بيان خلق آدم.

وأما قوله: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾[سورة السجدة: ٨] فهذا بدء خلق ذريته، من سلالة يعني النطفة إذا انسلت من الرجل. فذلك قوله: ﴿من مَّاء﴾ يعني النطفة: ﴿مهين﴾ يعني ضعيف. فهذا ما شكت فيه الزنادقة»[١].

مناظرة في الاستدلال بالمنامات:

الأدلة عند أهل السنة والجماعة تنحصر في الكتاب والسنة والإجماع والقياس وما يترتب على هذه من الاستصحاب والمصالح المرسلة والعرف

---

(١) الرد على الجهيمة والزنادقة ص: ٨٩-٩٠.

ونحو ذلك. أما الاستدلال بالمنامات على أمر شرعي، فلا يعرف إلا عند غلاة المتصوفة والمتشيعة ونحوهم من الباطنية وغيرهم؛ وذلك لأن المنامات ليست معصومة كرؤى الأنبياء، بل يداخلها تلبيس الشيطان، وحديث النفس؛ ولهذا لا بد من عرضها على الشرع لإجازتها.

يروى أن شريك بن عبد الله(١٧٧هـ) القاضي دخل على المهدي، فلما رآه قال: علي بالسيف والنطع. قال: و لم يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت في منامي كأنك تطأ بساطي وأنت معرض عني، فقصصتُ رؤياي على من عبرها، فقال لي: يظهر لك طاعة، ويضمر معصية.

فقال له شريك: والله، ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام، ولا أن معبرك بيوسف الصديق عليه السلام، فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين؟! فاستحيى المهدي، وقال: اخرج عني، ثم صرفه وأبعده[1].

المناظرة في المنهج

لأهل السنة والجماعة منهج متميز يعتمد على كتاب الله (تعالى) وسنة نبيه ﷺ وإجماع الأمة، ويستدلون أيضاً بالعقل الصريح، والفطرة السليمة. وهم وقّافون مع النص في الأمور التي لا مساغ للاجتهاد فيها؛ مثل مسائل الغيب، لا يدخلون في ذلك بأهوائهم، ولا يتكلفون العبارات المموهة، والتأويلات البعيدة.

فهذا المنهج السليم الموافق للنقل الصحيح والعقل الصريح هو الذي بفضله استطاع أهل السنة أن يقطعوا ألسنة المناوئين للإسلام وأهله، من الكفار والزنادقة والمبتدعة، و لم يتسلط أحد عليهم فيلزمهم بلوازم باطلة،

---

(١) الاعتصام ـ الشاطبي ١/٢٦١-٢٦٢ .

أو يحشرهم في مضايق حرجة، كما حدث ذلك للمبتدعة بعضهم مع بعض، وبعضهم مع الملاحدة والكفار. وقد وضح لنا ذلك فيما مرَّ من مناظرات ومجادلات، على نحو ما صنع عبد العزيز الكناني والإمام أحمد (رحمهما الله) .

وإليك بعض المواقف التي تؤكد ما تقدم بيانه:

قال زكريا الساجي: سمعت محمد بن إسماعيل، سمعت حسين بن علي الكرابيسي يقول: جاءت أم بشر المريسي إلى الشافعي، فقالت : يا أبا عبد الله، أرى بشراً يهابك ويحبك، وإذا ذُكرت عنده أجلَّك، فلو نهيته عن هذا الرأي الذي هو فيه، فقد عاداه الناس عليه، ويتكلم في شيء يواليه الناس عليه ويحبونه. فقال الشافعي لها : أفعل. فشهدتُ الشافعي، وقد دخل عليه بشر فقال الشافعي لبشر: أخبرني عما تدعو إليه، أكتاب ناطق، أم فرض مفترض، أم سنة قائمة، أم وجوب عن السلف البحث فيه والسؤال؟ فقال بشر: ليس فيه كتاب ناطق، ولا فرض مفترض، ولا سنة قائمة، ولا وجوب عن السلف البحث فيه، إلا أنه لا يسعنا خلافه، فقال الشافعي: أقررت على نفسك بالخطأ، فأين أنت عن الكلام في الفقه والأخبار، يواليك الناس وتترك هذا؟ قال: لنا نَهْمَة فيه، فلما خرج بشر. قال الشافعي: لا يفلح[1] .

وقال علي بن محمد بن أبان القاضي: حدثنا أبو يحيى زكريا الساجي حدثنا المزني قال: قلت إن كان أحد يخرج ما في ضميري وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي، فصرتُ إليه وهو في مسجد مصر،

---

(١) تاريخ بغداد ٥٩/٧ ، وانظر : سير أعلام النبلاء ٣١/١٠-٣٢ .

فلما جثوت بين يديه قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد، فعلمت أن أحداً لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟ فغضب ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم. قال هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون. أَبَلَغَكَ أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قلت: لا. قال: تدري كم نجماً في السماء؟ قلت: لا. قال: فكوكب منها: تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، ممَّ خلق؟ قلت: لا. قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟ ثم سألني عن مسألة في الوضوء فأخطأت فيها، ففرَّعها على أربعة أوجه، فلم أصب في شيء منه. فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه وتتكلف علم الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك فارجع إلى الله وإلى قوله (تعالى): ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[سورة البقرة: ١٦٣-١٦٤] فاستدِلَّ بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلفْ علمَ ما لم يبلغه عقلُك. قال: فتبتُ.(١)

ورواه الذهبي على نحو آخر عن المزني أنه قال : كنت أنظر في الكلام قبل أن يقدم الشافعي، فلما قدم أتيته فسألته عن مسألة من الكلام، فقال لي: تدري أين أنت؟ قلت: نعم في مسجد الفسطاط قال لي: أنت في تاران قال عثمان: وتاران موضع في بحر القلزم لا تكاد تسلم منه سفينة ـ ثم ألقى علي مسألة في الفقه، فأجبت فأدخل شيئاً أفسد جوابي فأجبت

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٣١-٣٢ .

بغير ذلك، فـأدخل شـيئاً أفسـد جوابـي، فجعلـت كلمـا أجبـت بشـيء، أفسده، ثم قال لي: هذا الفقه الـذي فيـه الكتـاب والسـنة وأقـاويل النـاس يدخله مثل هذا، فكيف الكلام في رب العـالمين، الـذي فيـه الزلـل كثـير؟ فتركت الكلام وأقبلت على الفقه[1].

ومرت معنا قصة الشيخ الأذرمي في مناظرته لابن أبي دؤاد، ومما جاء فيها: أن الواثق قال لابن أبي دؤاد: سله، فقال الشيخ: المسـألة لي، فـأْمُرْه أن يجيبني. فقال: سل، فـأقبل الشـيخ علـى ابـن أبـي دؤاد يسـأله، فقـال: خبِّرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه، أشيء دعـا إليـه رسـول الله ﷺ ؟ قال:لا. قال: فشيء دعا إليه أبوبكر الصديق ﷺ بعده؟ - ثـم ذكـر عمر وعثمان وعلياً، وفي كل مرة يقول ابن أبـي دؤاد : لا. قـال الشـيخ: فشيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا أبوبكـر ولا عمـر ولا عثمـان ولا علي رضي الله عنهم تدعو إليه أنت الناس؟ ليس يخلـو أن تقـول: علمـوه أو جهلوه. فإن قلت: علموه وسكتوا عنه، وسعنا وإياك من السكوت مـا وسع القوم. فإن قلت: جهلوه وعلمته أنت، فيا لكع ابن لكع يجهل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم شيئاً وتعلمه أنت وأصحابك. قال المهتدي: فرأيت أبـي وثـب قائمـاً ودخـل الحـيرى، وجعـل ثوبـه في فيـه، فضحك، ثم جعـل يقـول: صـدق، ليـس يخلـو مـن أن تقـول: علمـوه أو جهلوه، فإن قلت: علموه وسـكتوا عنـه وسـعنا مـن السـكوت مـا وسـع

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٢٥-٢٦ ، وانظر : مناقب الشافعي للبيهقي ١/٤٥٨.

القوم، وإن قلنا جهلوه وعلمته أنت، فيا لكع ابن لكع، يجهل النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم شيئاً تعلمه أنت وأصحابك؟ ثم قال: يا أحمد. فقلت: لبيك، فقال: لست أعنيك، إنما أعني ابن أبي دؤاد، فوثب إليه، فقال: أعط هذا الشيخ نفقته وأخرجه عن بلدنا».

قال ابن طاهر: حكى لي أصحابنا أن السلطان ألْب أرسلان (٤٦٥هـ) قدم هَرَاةَ ومعه وزيره نظام الملك (٤٨٥هـ)، فاجتمع إليه أئمة الحنفية وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري وهو أبو إسماعيل الهروي (٤٨١هـ)، ومطالبته بالمناظرة فاستدعاه الوزير، فلما حضر قال: إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك، فإن يكن الحق معك رجعوا إلى مذهبك، وإن يكن الحق معهم رجعت أو تسكت عنهم، فوثب الأنصاري وقال: أناظر على ما في كمي. قال: وما في كمك؟ قال: كتاب الله ـ وأشار إلى كمه اليمين ـ وسنة رسول الله ـ وأشار إلى كمه اليسار ـ وكان فيه الصحيحان. فنظر الوزير إليهم مستفهماً لهم، فلم يكن فيهم من ناظره من هذا الطريق.[1]

المناظرة في الاختلاف

الاختلاف في العقائد أعظم من الاختلاف في الأحكام:

قال يهودي لعلي ﷺ: ما نفضتم أيديكم من تراب دفن نبيكم حتى قلتم: منا أمير ومنكم أمير[2]. فقال له أمير المؤمنين: ما جفت أقدامكم من فلْق البحر حتى قلتم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[سورة الأعراف: ١٣٨] فانقطع

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٥١٠-٥١١ .

(٢) يعني قصة السقيفة، وقد تقدم تخريجها. وانظر: صحيح البخاري ٧/١٩-٢٠ كتاب فضائل الصحابة ـ باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلا ... ح : ٣٦٦٨ .

اليهودي، ولم يجد جواباً؛ لأن "منا أمير ومنكم أمير"، ليس فيه ما يهدم الدين، وإنما الطامة العظمى ما أتى به اليهود من الكفر ثم عبدوا العجل بإثر ذلك[١].

مناظـــرة أخــــرى:[٢]

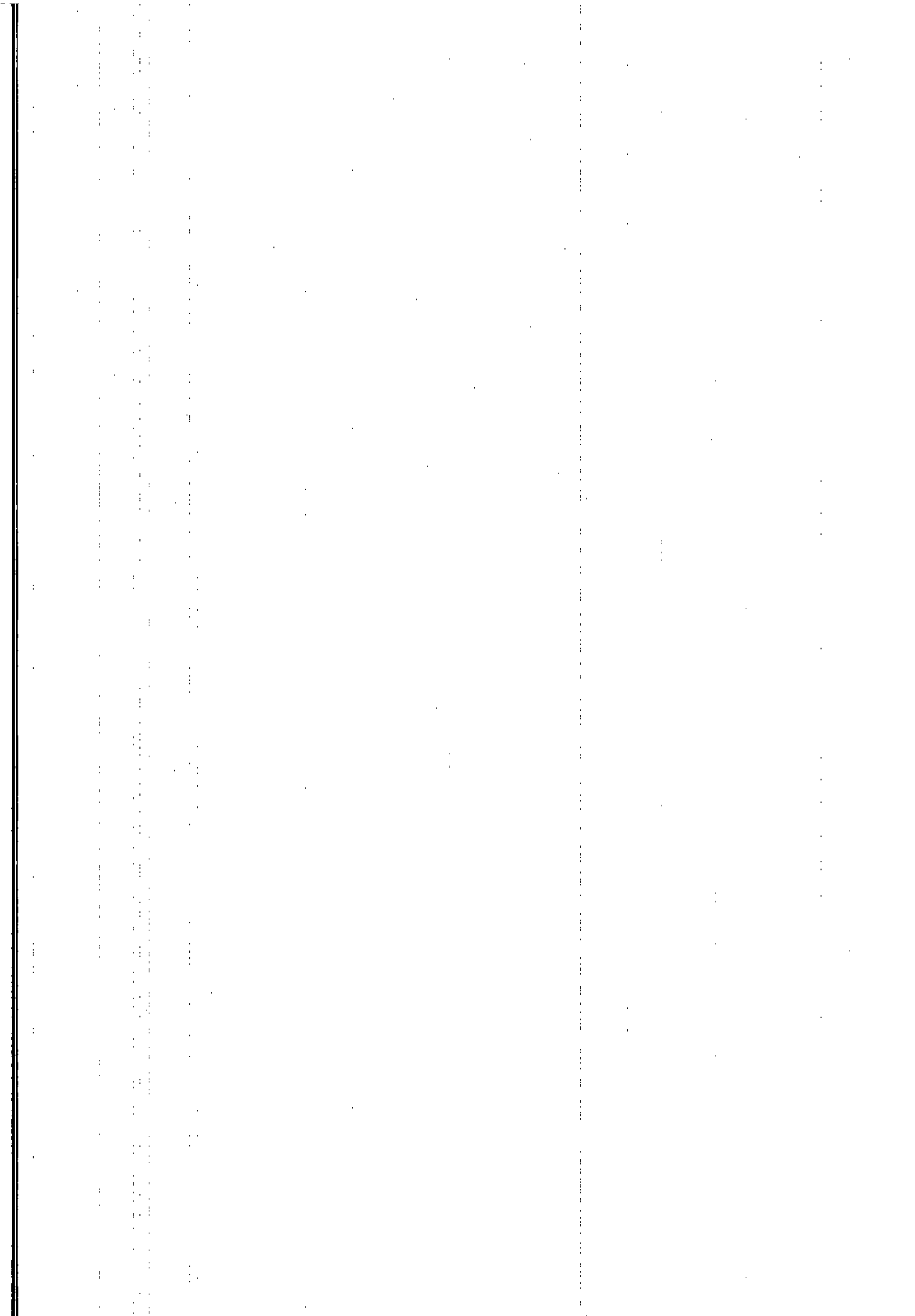
قال المأمون لمرتد إلى النصرانية: خبرنا عن الشيء الذي أوحشك من ديننا بعد أنسك به واستيحاشك مما كنت عليه، فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به، وإن أخطأ بك الشفاء ونبا عن دائك الدواء كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة، وإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة، وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة، وتعلم أنك لم تقصر في اجتهاد، ولم تفرط في الدخول من باب الحزم. قال المرتد: أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم. قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما: كالاختلاف في الأذان والتكبير في الجنائز، والتشهد، وصلاة الأعياد، وتكبير التشريق، ووجوه القراءات، ووجوه الفتيا، وهذا ليس باختلاف، إنما هو تخيُّر وسَعَة وتخفيف من المحنة، فمن أذّن مثنى وأقام مثنى لم يخطّئ من أذن مثنى وأقام فرادى، ولا يتعايرون بذلك، ولا يتعايبون، والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث مع اجتماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر،

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ١٦٧ .

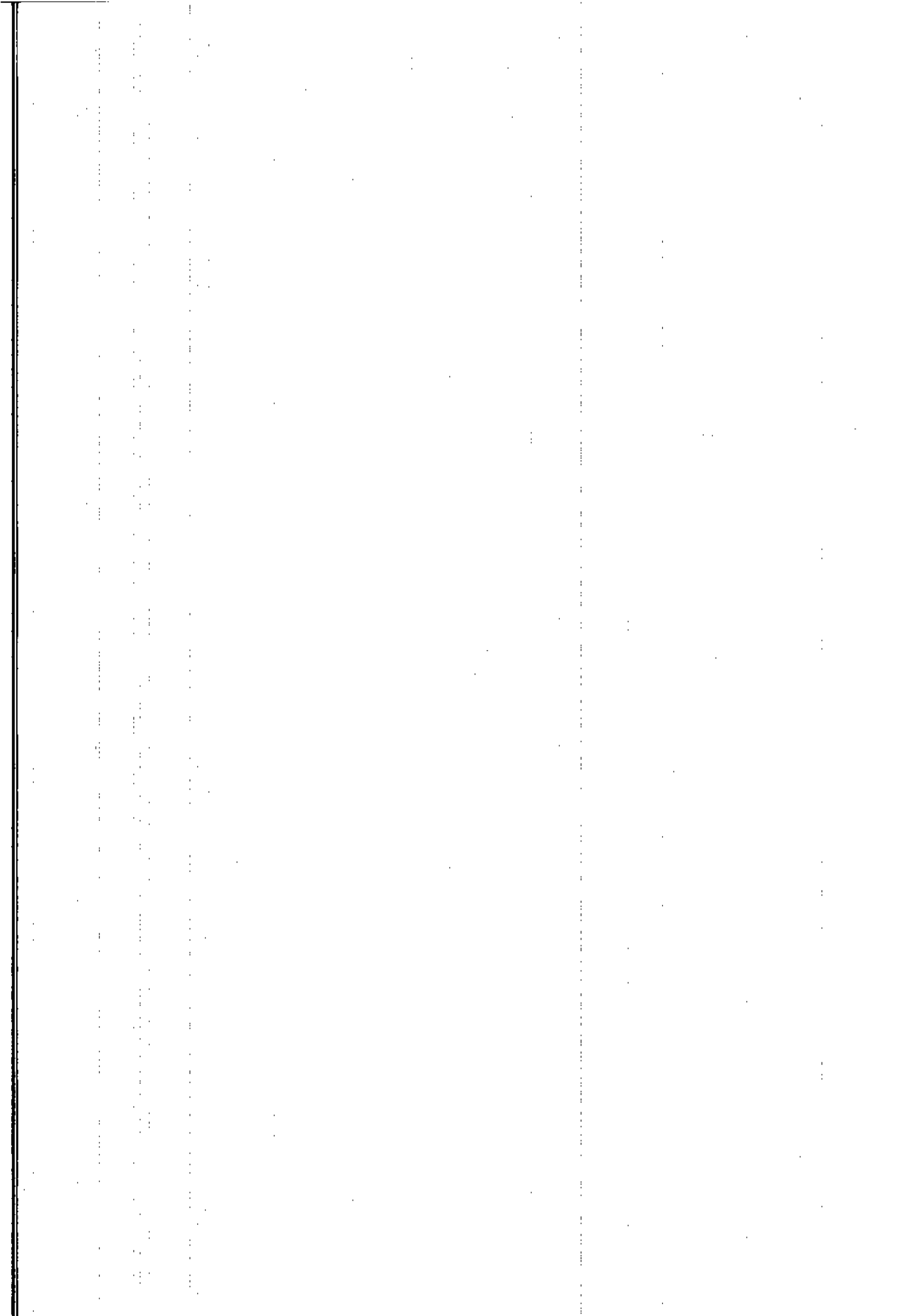
(٢) عيون الأخبار ٢/١٥٤-١٥٥.

فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت هذا الكتاب، فقد كـان ينبغـي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تنزيله، ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلاف في شـيء مـن التأويلات، وينبغي للك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسـله لا يحتـاج إلى تفسير لفعل، ولكنا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دفـع إلينـا علـى الكفايـة، ولم يكن تفاضل، وليس على هذا بنى الله الدنيا. قال المرتد: أشـهد أن لا إله إلا الله، وأن المسيح عبد، وأن محمداً صادق، وأنك أمير المؤمنين حقاً.



الفصل الثالث

الجدل والمناظرة في باب السمعيات



المناظرة في الملائكة:

قال سفيان بن عيينة في بعض مجالسه: بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال الله عز وجل للملائكة: إذا همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها واحدة فإن عملها فاكتبوها عشراً، وإذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها، فإن عملها فاكتبوها واحدة، فقال رجل: يا أبا محمد، الملكان يعلمان الغيب؟ فضج الناس، وجعل سفيان يسكتهم، فلما سكتوا، قال لهم: لا يعلمان الغيب، ولكن إذا هم العبد بحسنة فاح منه رائحة المسك، فيعلمان أنه قد هم بالحسنة، وإذا هم بالسيئة فاح منه رائحة النتن، فيعلمان أنه قد هم بالسيئة[1].

وهذا الجواب من سفيان رحمه الله محمول على أنه وقف فيه على خبر؛ لأنه مما لا يعلم إلا بالخبر الشرعي[2].

هل الملائكة عاقلة؟:

ذكر الشيخ محمد سلطان المعصومي الخجندي أنه اجتمع بالشيخ حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر في منزل رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن الحسن، وأخيه الشيخ عمر بن الحسن، والشيخ عبد الله بن الجاسر، والشيخ محمود شويل، والشيخ عبد الرحمن إمام

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ١٩٦ .

(٢) انظر : عيون المناظرات ص : ١٩٦ .

مسجد ابن عباس رضي الله عنهما في الطائف، والشيخ عبد العزيز بن الشيخ رئيس القضاة وغيرهم. فقال المعصومي: فقلت له: يا أخي الشيخ حامد، لماذا كتبت في مجلتك كلاماً مضراً بدين الإسلام، فقلتَ: إن الملائكة لا عقل لهم، وإن سجودهم لآدم سجود كوني لا تعبدي ولا اختياري، ففتحت بذلك للزنادقة والملحدين باب الطعن في دين الإسلام وفي الوحي والقرآن على مصراعيه، وقد كنتُ كتبتُ إليك بالبريد (مسجَّلا) تنبيهاً على هذه الغلطة.

فأنكر وصول كتابي إليه، وكذلك أنكر كتابته في المجلة أن الملائكة لا عقل لهم. فأحضر الشيخ في القرآن: إن الملائكة لهم عقول، فنحن لا نتجاوز ما في القرآن. فقلت له: هل نفى الله (تعالى) في القرآن عقل الملائكة؟ فكيف تجاوزت ما في القرآن؟ والحال أن الله (تعالى) يقول في صفة الملائكة وجبريل عليه السلام منهم: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ﴾[سورة النجم: ٥-٦] والمرة حصافة العقل ورصانته، فالملائكة رصناء العقول، وحصيفوا العقول. فلهذا قد جعلهم الله (تعالى) رسله إلى رسله من البشر لتبليغ وحيه وأمره. واتفق المشايخ الحاضرون على تصديق قولي. فقلت: يا أخي حامد، نحن نعلم أنك عالم فاضل، ولكن الجواد قد يكبو، والصارم قد ينبو، والرجوع إلى الحق من شأن أهل الإنصاف، فارجع إلى الحق وأصلح خطأك، فإن من أخلاق أهل الدين والعلم الرجوع إلى الحق وترك الخصام واللجاج.

فاعترف الأخ حامد بخطئه، ووعد بأنه سيصلحه بما ينشره في مجلته في أقرب فرصة حينما يرجع إلى مصر[١]. لكنه لم يفعل[٢].

ثم إن الشيخ محمود شويل المدني اجتمع بالشيخ محمد حامد الفقي في منزل رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن الحسن بعد تلك المناظرة بسنتين، وتناقش معه في هذه المسألة، ودعاه إلى الإنصاف والرجوع إلى الحق، فعاند الفقي وأصر على قوله، فحمل ذلك الشيخ شويل على تأليف رسالة سماها: القول الفصل في حقيقة سجود الملائكة واتصافهم بالعقل[٣].

مناظرة في الروح:

قال نصراني متفلسف لبعض المسلمين: ألستم تزعمون أن الروح إذا خرجت من الجسد يُصعد بها إلى عليين إن كانت سعيدة، أو يُنزل بها إلى سجين إن كانت شقية؟ قال: نعم. قال: فأنا أجعل شخصاً في إناء رصاص، وأفرغ عليه من الرصاص، فهذه الروح من أين تخرج إذا مات؟ قال له المسلم: إذا ناديته وهو في إناء الرصاص أيسمع صوتك؟ قال: نعم. قال: من أين وصل إليه صوتك؟ من هناك تخرج روحه. فانقطع النصراني[٤].

---

(١) تنبيه النبلاء من العلماء إلى قول حامد الفقي إن الملائكة غير العقلاء ـ محمد سلطان المعصومي الخجندي ص : ٢٨-٢٩.

(٢) انظر : المرجع السابق ص : ٢٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص : ٣٠. وطبعت مع رسالة المعصومي هذه.

(٤) انظر : عيون المناظرات ص: ٢١٨.

وهذا الجواب على سبيل الإلزام، وإلا فكيفية خروج الروح من الأمور التي اختص الله (تعالى) بعلمها، قال (تعالى): ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[سورة الإسراء: ٨٥].

مناظرة في إنكار المعاد:

مذهب جماهير النصارى ومن ينتسب إلى التدين منهم: أن الخلق لا بد أن يجتمعوا في القيامة، وأن عيسى محاسبهم، فينعم ويعذب، لكن ليس عذاباً بنيران وسلاسل وأغلال. وغير ذلك مما نعتقده نحن المسلمين، وليس نعيماً ـ أيضاً ـ بمأكول ومشروب، والتذاذ بنكاح.

فيقال لمنكر ذلك من النصارى ومن شابههم من الملاحدة: لا يخلو أن ما تنكره إما من جهة العقل، أو من جهة الشرع، فإن قالوا: من جهة العقل، قلنا له: كذبت وأخطأت، فإن العقل لا يدل على استحالة ذلك. بل يدل على جوازه، إذ ليس في ذلك إلا أن الذي خلقنا أول مرة، ومكننا أن نتنعم نعيماً محسوساً، ونتألم ألماً محسوساً قادر على أن يعيدنا بعد أن يفنينا كما بدأنا.

فإن الإعادة إنما هي خلق ثان، ومن قدر على الخلق الأول قدر على الخلق الثاني. وهذا معلوم بنفسه، فهو إذن فعل ممكن في نفسه، ليس من قبيل الممتنع، والله (تعالى) قادر على كل ممكن، فيجب وصفه بالقدرة على ذلك. فإن قالوا: إن كان في الجنة أكل وشراب ونكاح ولباس، فيلزم عليه أن يكون في الجنة غائط وبول وولادة وتمزيق الثياب وتخريقها. وكل ذلك محال أن يكون في الجنة.

قلنا لهم: هذا جهل، ولا يلزم شيء مما ذكرتم فيها. بل نقول: هناك أكل وشرب، وليس هنالك غائط ولا بول، وهذا غير منكر، إذ لا يلزم في كل طعام أن يكون له فضلة، ولو سلمنا أن تكون له فضلة لما لزم أن يكون فضلة مستقذرة، بل قد تكون فضلات كثيرة طيباً يتطيب به، وشراباً يشرب. مثل المسك؛ فإنه دم حيوان أو رجيعه، أو العسل؛ فإنه فضل حيوان معروف، وليس شيء من ذلك مستقذراً، بل هو مستطاب مستلذ، ولا يبعد أن تكون فضلات الجنة هكذا، بل هو هكذا. وقد جاء على لسان الصادق: أن أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون، إنما هو عرق يجري من أجسادهم مثل المسك[1].

وأما الحمل فلا يلزم شيء منه، إذ قد نجد من النساء: العواقر وهن اللواتي لا يلدن، فكذلك نساء أهل الجنة لا يلدن، ولا يحضن[2].

---

(١) انظر : صحيح مسلم ٤/٢١٨٠-٢١٨١ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ باب في صفات الجنة وأهلها ح : ٢٨٣٥ .

(٢) ذكر الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾[سورة البقرة: ٢٥] عن ابن عباس أنه قال: مطهرة من القذر والأذى، وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد. وذكر رواية الطبري بسنده عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: المطهرة: التي لا تحيض. ثم ذكر حديثاً رواه الحافظ ابن مردويه عن النبي ﷺ قال: من الحيض والغائط والنخامة والبزاق. وقال ابن كثير: هذا حديث غريب، وقد رواه الحاكم في مستدركه بسنده وقال صحيح على شرط الشيخين. قال ابن كثير : وهذا الذي ادعاه ـ أي الحاكم ـ فيه نظر، وذلك لتضعيف أبي حاتم البستي أحد رواته، ثم قال ابن كثير : والأظهر أن هذا من كلام قتادة . انظر: تفسير ابن كثير ١/٦١ .

وأما اللباس فلا يتمزق ولا يفنى، وفي لباس بني إسرائيل في المفاز دليل على بطلان ما يحيل هذا السائل، فالذي يُبقي الثياب إلى مدة قادر على أن يبقيها أبد الآبدين .

وهذه أمور لا ينكرها إلا كل غبي جاهل ليس له معقول حاصل، فإذا دلَّ العقل على جوازه، فينبغي أن يستدل على وقوع ذلك، ووجوده بكلام الصادقين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم يقال لمنكر ذلك شرعاً: لا يصح أن تستدل على إنكارك بشيء من كلام الأنبياء، إذ لا تجده، لا في التوراة ولا في الإنجيل فضلاً عن القرآن[1] .

مناظرة الجهمية في بقاء الجنة والنار:

قال الإمام أحمد رحمه الله: فزعموا أن الله هو قبل الخلق، فصدقوا. وقالوا: يكون الآخرَ بعد الخلق فلا يبقى شيء، ولا أرض ولا جنة ولا نار، ولا ثواب ولا عقاب، ولا عرش ولا كرسي. وزعموا أن شيئاً مع الله لا يكون، هو الآخر كما كان، فأضلوا بهذا بشراً كثيراً.

وقلنا: أخبرنا الله عن الجنة ودوام أهلها فيها، فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾[سورة التوبة: ٢١] فإذا قال جلَّ وجهه: ﴿مقيم﴾ وقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[سورة النساء: ٥٧] وقال: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾[سورة الرعد: ٣٥] فإذا قال الله: دائم لا ينقطع أبداً. وقال: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[سورة الحجر: ٤٨] وقال: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ

(١) انظر: الإعلام ـ القرطبي ص:٤٣٣-٤٣٤

هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[سورة غافر: ٣٩] وقال: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[سورة العنكبوت: ٦٤] وقال: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[سورة الكهف: ٣] وقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[سورة آل عمران: ١٠٧] وقال: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[سورة الواقعة: ٣٢-٣٣] ومثله في القرآن كثير.

وذكر أهل النار فقال: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾[سورة فاطر: ٣٦] وقال: ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾[سورة العنكبوت: ٢٣] وقال: ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾[سورة الأعراف: ٤٩] وقال: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[سورة الزخرف: ٧٧] وقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[سورة إبراهيم: ٢١] وقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾[سورة البينة: ٦] وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [سورة النساء: ٥٦] وقال: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[سورة السجدة: ٢٠] وقال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾[سورة الهمزة: ٨] ومثله في القرآن كثير.

وأما السماء والأرض فقد بادتا؛ لأن أهلها صاروا إلى الجنة والنار، وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب لأنه سقف الجنة وا لله عليه فلا يهلك ولا يبيد.

وأما قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[سورة القصص: ٨٨] وذلك أن ا لله أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[سورة الرحمن: ٢٦] قالت الملائكة: هلك أهل الأرض

وطمعوا في البقاء، فأنزل الله آية يخبر عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كل شيء﴾ من الحيوان ﴿هالك﴾ يعني ميت ﴿إلا وجهه﴾ أنه حي لا يموت، فأيقنوا عند ذلك بالموت [١].

مناظرة في طعام الناس في الموقف:

ذكر الذهبي [٢] عن عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال: حج الخليفة هشام فدخل الحرم متكئاً على يد سالم مولاه، ومحمد بن علي بن الحسين(الباقر) جالس، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا محمد بن علي، فقال: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم. قال: اذهب إليه فقل له: يقول لك أمير المؤمنين: ما الذي يأكل الناس ويشربون إلى أن يُفصل بينهم يوم القيامة؟ فقال له محمد: يحشر الناس على مثل قُرْصَة النقي [٣]، فيها الأنهار مفجرة. فرأى هشام أنه قد ظفر. فقال: الله أكبر، اذهب إليه فقل له: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ! ففعل. فقال: قل له: هم في النار أشغل، ولم يشغل أن قالوا: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[سورة الأعراف: ٥٠].

مناظرة في عذاب النار:

ذكر الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني رحمه الله مناظرة جرت له مع ملحد يدعي التقدم في علم الطبيعة، فأورد الملحد عليه سؤالاً تورده

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص:١٤٦-١٤٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/٤٠٥.

(٣) النقي : الخبز الحواري. انظر: النهاية لابن الأثير ٥/١١٢ .

الملاحدة في إنكارهم دوام العذاب في المعاد على ما يعتقده أهل التوحيد بالبرهان والتصديق لما جاء به المرسلون، وهو قولهم:

من زعم أنا لو بنينا داراً من حديد، وأوقدنا فيها أنواع الوقود ثم طرحنا فيها إنساناً ليبقى - مع غاية الحرارة والاحتراق - حياً، كان خارجاً عن المعقول، فكيف بمن يزعم أنه يبقى حياً على طول الدوام مع ما يناله من الآلام.

فقال له الأستاذ: إن أريتك ذلك في نفسك، رجعت عن سؤالك، أو دمت في ضلالك؟ قال: بل أرجع عنه.

ثم أورد الأستاذ رحمه الله ما حاصله أن الإنسان يبتلع من العروق واللحم الخشن ما لو طبخ هو ولحم معدة الإنسان في قدر لذاب لحم معدته قبل ما يبتلعه من ذلك، فما بال تلك العروق تذوب بنار معدته ولا تذوب معدته بتلك النار[1].

قال صاحب عيون المناظرات[2]: ويتنزل على ما قاله الأستاذ: ابتلاع النعامة للحديد، ثم تذيبه نار كبدها، وتلقيه على ما شوهد، فما بال تلك النار التي تذيب الحديد لا تذيب معدة النعامة[3].

---

(١) انظر: عيون المناظرات ص :٢٥٦-٢٥٧.

(٢) ص: ٢٥٧.

(٣) انظر خصائص النعامة في: حياة الحيوان الكبرى للدميري ٣٥٨/٢، وعجائب المخلوقات للقزويني ص: ٤٦٣، وموسوعة الحيوان ص: ١٥٥.

فأجاب الملحد بما حاصله: أن المعدة على تركيب خاص تدفع عن نفسها تلك الحرارة، وتبقى على الحياة وما ينالها من الآلام في بعض الأوقات.

فقال الأستاذ: فيلزمك أن تجوز بقاء أهل النار على تلك الحرارة المفرطة، والآلام الموجعة بضرب خاص من التركيب. فانقطع الملحد[١].

مناظرة الزنادقة في تبديل جلود أهل النار يوم القيامة:

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في قوله (تعالى): ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[سورة النساء: ٥٦] قالت الزنادقة: فما بال جلودهم التي عصت قد احترقت، وأبدلهم جلوداً غيرها؟ فلا نرى إلا أن الله يعذب جلوداً لم تذنب حين يقول: ﴿بدلناهم جلودا غيرها﴾ فشكوا في القرآن، وزعموا أنه متناقض.

فقلت: إن قول الله (تعالى): ﴿بدلناهم جلودا غيرها﴾ ليس يعني جلوداً غير جلودهم، وإنما بدلناهم جلوداً غيرها، تبديلها تجديدها؛ لأن جلودهم إذا نضجت جددها الله، وذلك لأن القرآن فيه خاص وعام، ووجوه كثيرة وخواطر يعلمها العلماء[٢].

---

(١) انظر: عيون المناظرات ص: ٢٥٧.

(٢) انظر : الرد على الجهمية ـ أحمد بن حنبل ص : ٨٦ .

المناظرة في كلام الناس يوم القيامة:

ومن تشكيك الزنادقة في القرآن الكريم قولهم في قوله (تعالى): ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [سورة المرسلات: ٣٥-٣٦] ثم قال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[سورة الزمر: ٣١] قالوا: كيف يكون هذا من الكلام المحكم؟! فزعموا أن هذا الكلام ينقض بعضه بعضاً، فشكوا في القرآن.

فيقال لهم: هذا أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون، فذلك قوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾[سورة السجدة: ١٢] فإذا أذن لهم في الكلام فتكلموا واختصموا، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[سورة الزمر: ٣١] عند الحساب وإعطاء المظالم، ثم يقال لهم بعد ذلك: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾[سورة ق: ٢٨]. فإن العذاب مع هذا القول كائن[1].

مناظرة الزنادقة في كلام أهل النار:

قالت الزنادقة في قوله (تعالى): ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[سورة الإسراء: ٩٧] وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾[سورة الأعراف: ٥] قالوا: كيف يكون هذا من الكلام المحكم؟ فشكوا في القرآن من أجل تلك.

---

(١) انظر : الرد على الجهمية ـ أحمد بن حنبل ص : ٨٦-٨٧ .

فتفسير ذلك: إنهم أول ما يدخلون النار يكلم بعضهم بعضاً، وينادون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[سورة الزخرف: ٧٧] ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[سورة إبراهيم: ٤٤] و : ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾[سورة المؤمنون: ١٠٦] فهم يتكلمون حتى قال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[سورة المؤمنون: ١٠٨] فصاروا عمياً وبكماً وصماً، وينقطع الكلام، ويبقى الزفير والشهيق، فهذا تفسير ما شكّت فيه الزنادقة من قول الله[١].

المناظرة في الشفاعة في عصاة الموحدين:

روى مسلم في صحيحه[٢] عن يزيد الفقير قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج[٣]، فخرجنا في عِصابة ذوي عدد نريد أن نحج، ثم نخرج على الناس[٤]، قال: فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبد الله يُحدِّث القوم - جالسٌ إلى سارية - عن رسول الله ﷺ، قال: فإذا هو قد ذكر الجهنّميين. قال : فقلت له: يا صاحبَ رسول الله، ما هذا الذي تُحدِّثون؟ والله يقول: ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾[سورة آل عمران: ١٩٢] و: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[سورة السجدة: ٢٠] فما هذا الذي تقولون؟! قال: فقال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: فهل سمعت بمقام

---

(١) انظر : الرد على الجهمية - أحمد بن حنبل ص : ٨٧-٨٨ .

(٢) ١/١٧٩-١٨٠ كتاب الإيمان - باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، يلي الحديث رقم:١٩١

(٣) وهو تكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار.

(٤) أي نُظهر مذهب الخوارج وندعو إليه.

محمد ﷺ - يعني الذي يبعثه فيه - قلت: نعم. قال: فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يُخرج الله به من يُخرج. قال: ثم نعت وضع الصراط ومرّ الناس عليه. قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك، قال: غير أنه قد زعم[1] أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، قال: يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم[2] قال: فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس[3] فرجعنا قلنا: ويحكم، أترون الشيخ[4] يكذب على رسول الله ﷺ ؟! فرجعنا، فلا والله ما خرج منا غير رجل واحد»[5].

وفي رواية[6] قال يزيد الفقير: قلت لجابر، يا أصحاب رسول الله إنكم تزعمون أن قوماً يخرجون من النار والله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾[سورة المائدة: ٣٧] وإنكم تجعلون العام خاصاً. قال: فاقرأ ما قبلها، فإذا هي في الكفار.

---

(١) أي قال.

(٢) جمع سمسم، والسمسم إذا تركت عيدانه في الشمس ليؤخذ حبها تراها دقاقاً سوداء كأنها محترقة، قاله ابن الأثير، ثم قال: وطالما تطلبت معنى هذه الكلمة وسألت عنها فلم أر فيها شافياً، وأجبت فيها بمقنع. قال: وما أشبه أن تكون هذه اللفظة محرفة، وربما كانت: كأنهم عيدان الساسم، وهو خشب أسود كالأبنوس. النهاية في غريب الحديث ٢/٤٠٠.

(٣) شبههم بالقراطيس، وهي جمع صحيفة، وذلك لشدة بياضهم.

(٤) يعني جابراً، وهو استفهام إنكار

(٥) أي أنهم رجعوا عن رأي الخوارج غير واحد منهم.

(٦) شرح السنة ٦/١٠٩٦، قال المحقق سنده ثقات إلى ابن أبي حاتم.

وفي مسند[1] الإمام أحمد عن طلق بن حبيب(قبل المائة) قال: كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبد الله فقرأت عليه كل آية ذكرها الله (تعالى) فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق، أتراك أقرأ لكتاب الله مني وأعلم بسنة رسول الله ﷺ، فاتضعت له، فقلت: لا والله، بل أنت أقرأ لكتاب الله مني، وأعلم بسنته مني. قال: فإن الذي قرأت أهلها هم المشركون، ولكن قوم أصابوا ذنوباً فعذبوا بها ثم أخرجوا، صُمَّتا ـ وأهوى بيديه إلى أذنيه ـ إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول يخرجون من النار، ونحن نقرأ ما تقرأ.

واستدلال جابر من عدة وجوه:

أحدهما: كونه أعلم بالكتاب والسنة من السائل؛ إذا أنه من أصحاب رسول الله ﷺ .

الثاني: كونه أعرف بمعاني النصوص للسبب المتقدم.

الثالث: تفسير النصوص بعضها ببعض، فالسنة تفسِّر القرآن وتبينه.

الرابع: دعاؤه على نفسه بالصمم فيه معنى المباهلة، وهذا من يقينه بما يقول وما يسمع.

وهذا الاستدلال من جابر ﷺ يؤكد حقيقة كبرى، وهي أن فهم الصحابة رضي الله عنهم لنصوص الكتاب والسنة يزيح الإشكالات، ويقطع الاحتمالات، وهو يقدم على كل رأي لا سيما إذا اجتمعوا، أو لم يكن لهم مخالف من بينهم، وقد فعل ذلك ابن عباس رضي الله عنه في

---

(١) ٣٣٠/٣ وانظر: شرح السنة ١٠٩٥/٦– ١٠٩٦ رقم: ٢٠٥٣–٢٠٥٤ .

مناظرته مع الخوارج حين قال لهم: جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله[١].

المناظرة في الوعيد:

كان عمرو بن عبيد يقول بالوعيد فقال له أبو عمرو بن العلاء: أنت يا أبا عثمان رجل فصيح اللسان ليس لك علم بمعاني كلام العرب، لا تعد العافي مخلفاً ثم أنشد:

وما يرهب المولى ولا الجار صولتي ولا أخشى من سورة المهدد
وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ويصدق موعدي[٢]

وقال سفيان بن عيينة : فقدم علينا عمرو بن عبيد ومعه رجل تابع له على هواه، قال: فدخل عمرو بن عبيد الحِجْر فصلّى فيه، وخرج صاحبه وقام على عمرو بن دينار وهو يحدث هذا ـ أي حديث يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة ـ عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ فرجع إلى عمرو بن عبيد فقال: يا ضال، أما كنت تخبر أنه لا يخرج أحد من النار؟! قال: بلى. قال: فهو ذا عمرو بن دينار يزعم أنه سمع جابر بن عبد الله يقول قال: رسول الله ﷺ : يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة. قال:

---

(١) جامع بيان العلم ٢/١٢٧ .

(٢) شرح السنة ٦/١٠٨١-١٠٨٢ رقم : ٢٠٣٠ ، وتقدم ذكر الاختلاف في ألفاظ هذين البيتين، ص: ٧٩٠

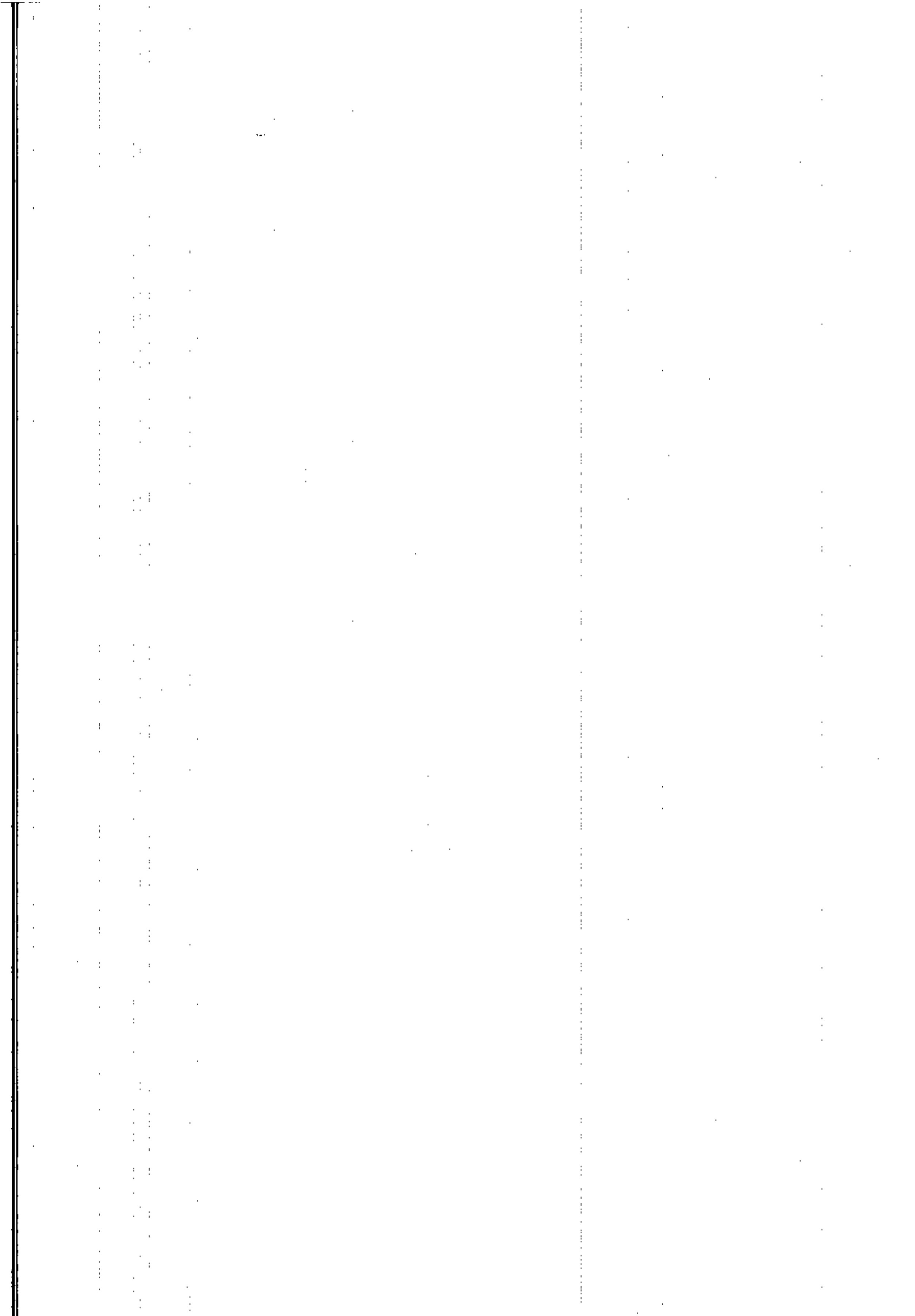
فقال عمرو بن عبيد: لهذا معنى لا تعرفه. قال: فقال الرجل: وأي معنى يكون لهذا. قال: وفك ثوبه من يديه وفارقه[١].

وذكر ابن قتيبة[٢] أن أبا عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد اجتمعا، فقال عمرو: إن الله وعد وعداً وأوعد إيعاداً، وإنه منجز وعده ووعيده. فقال له أبو عمرو: أنت أعجم! لا أقول إنك أعجم اللسان، ولكنك أعجم القلب! أما تعلم، ويحك، أن العرب تعد إنجاز الوعد مَكْرُمة، وترك إيقاع الوعيد مكرمة، ثم أنشده:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

(١) شرح السنة ١٠٩٣/٦ رقم: ٢٠٤٨، وانظر تأريخ بغداد ١٧٧/١٢.
(٢) عيون الأخبار ١٤٢/٢.

الخـــاتـمـة



الخاتمة

وفي خاتمة هذه الدراسة أُحب أن أسجل النقاط التالية، والتي تمحضت عنها أبواب الرسالة وفصولها :

١- أن الجدل والمناظرة من العبارات المترادفة، أي التي تكون بمعنى واحد، وإن كان بعض أهل العلم فرَّق بينهما؛ حيث جعلوا الجدل مذموماً بإطلاق، والمناظرة بخلافه، والصحيح ـ وهو الذي عليه العمل في هذه الدراسة ـ أنهما بمعنى واحد، وكلاهما قد يستعمل في الحق، وفي الباطل، وذلك بحسب مقصد كل من المتجادلين والمتناظرين، وما يدليان به من الحجج.

٢- المناظرة الصحيحة يكون الغرض منها تحقيق الحق، ودفع الشبه، وكسر الخصم المبطل بقصد نصرة الحق، وتمحيص الأدلة، وتحصيل ملكة ودربة تعين المرء على إقامة الحق عن طريق الجدل والمناظرة، إلى غير ذلك من الأغراض الفاضلة.

والمناظرة الفاسدة يكون الغرض منها دحض الحق، وإظهار الباطل على عادة الكفار والمعاندين، وكسر الخصم، وإفحامه بأي سبيل كان، وطلب الشهرة بتحدي العلماء ومعارضتهم، إلى غير ذلك من الأغراض الدنيئة .

٣- للجدل فوائد عالية، من أبرزها : تحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحقاق الحق، وإقامة الصواب، وكسر الباطل وأهله، وتثبيت

المؤمنين بإظهار علو الإسلام، وقوة حجته، وضعف حجج خصومه، والوصول إلى الحق بالطرق العلمية مجردة عن الأهواء، وتأييد صحيح المنقول بصريح المعقول.

٤- الجدل صناعة تكاد تكون فطرية، وظاهرة إنسانية عامة؛ لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات، بل هي موجودة في غير النوع البشري كالملائكة والجن، وإنما العلماء استخرجوا لهذه الصناعة قوانين، وضوابط، وأسماء، وألقاباً تعرف بها.

٥- المجتمعات الإسلامية كغيرها من المجتمعات كان ـ ولا يزال ـ لها نصيب من الجدل والمناظرات، وذلك لأسباب متنوعة ترجع في جملتها إلى ما يدسه أعداء الإسلام من المشركين، والمنافقين، واليهود، والنصارى وغيرهم من ملل الكفر والضلال والابتداع من الوساوس والشبه.

٦- كان الجدل السمة الغالبة على أهل الكلام، بل صار شعاراً لهم، وقد ذُكر في أسباب تسمية علم الكلام أنه إدارة الكلام بين أطراف النزاع، وذلك أسوة بالمنطق عند الفلاسفة. ومن أكبر المسائل التي جرى فيها الجدل : مسائل التوحيد، والصفات، والقدر .

٧- كان لأهل السنة في الجدل ـ على منهج الحق والصواب ـ القِدْح المعلّى، والحظ الأوفى، ولهم في جميع ميادين الجدال مواقف مشهورة،

ومساع محمودة مشكورة، حيث تصدوا لأهل الباطل من جميع الطوائف وفي كل الأزمنة بالحجة الواضحة، والدليل القاطع، مبينين صدق، ما لديهم وقوته، وزيف ما لدى خصومهم المبطلين، وأن الإسلام يملك من قوة الحجة، ووضوح البرهان ما لا قِبَل لأحد من أهل الباطل بكسره، أو التشكيك فيه.

٨- أن نصوص الكتاب والسنة التي فيها ذكر الجدل جاءت على ضربين: أحدهما : فيه الأمر بالجدال والحث عليه، والإخبار بأنه طريقة للأنبياء في تبليغ الدعوة والدفاع عنها. والثاني: فيه النهي عن الجدال والتحذير منه، والإخبار بأنه طريقة للكفار في دحض الحق وتقرير الباطل.

ونظر المحققون من أهل العلم إلى هذه النصوص مجتمعة؛ النصوص التي فيها الأمر بالجدال والحث عليه، والنصوص التي فيها النهي عنه والتحذير منه، فعلموا أنها كلها حق وصدق، ولا تعارض بينها بحمد الله، فعلموا يقيناً أن الجدال المأمور به غير الجدال المنهي عنه، فقالوا: الجدال نوعان: محمود ومذموم. وعلى ذلك تتنزل نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف وعلماء الأمة، ويزول ما قد يشتبه على بعض الناس من أقوال بعض السلف التي فيها النهي عن الجدال والتحذير منه، ويتبين مقصودهم بذلك على ما مرَّ بيانه.

٩- وعليه، فالمناظرة والمجادلة لأهل الكفر والضلال والابتداع من الأمور

الجائزة شرعاً، وقد تجب، إذا ظهرت مصلحته؛ مِنْ إسلام من يُرجى إسلامه، أو هداية مبتدع ضال، أو كسر مبطل متلدد، أو تثبيت موافق متردد .

١٠- للقرآن الكريم خصائص متميزة، وأساليب متنوعة في جدال الخصوم وقطعهم، إذ هو حجة الله التي لا تُغلب، ونوره الذي لا يُحجب، وهو الرسالة الخاتمة، والدعوة الباقية.

والقرآن ـ أيضاً ـ هو المرجع الصحيح في تدوين وحفظ مجادلات الأنبياء مع أممهم، ومجادلات أهل الإيمان مع خصومهم.

١١- والرسول ﷺ قد تأثر جداً بأسلوب القرآن الكريم في الجدل، وهذا شيء طبيعي، فقد كان خلقه القرآن؛ يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، ويتأدب بآدابه، ويلتزم بأحكامه في شأنه كله، ومن ذلك الدعوة والمجادلة ونحوهما؛ ولهذا اختلطت طريقته بطريقة القرآن وتأثرت بها.

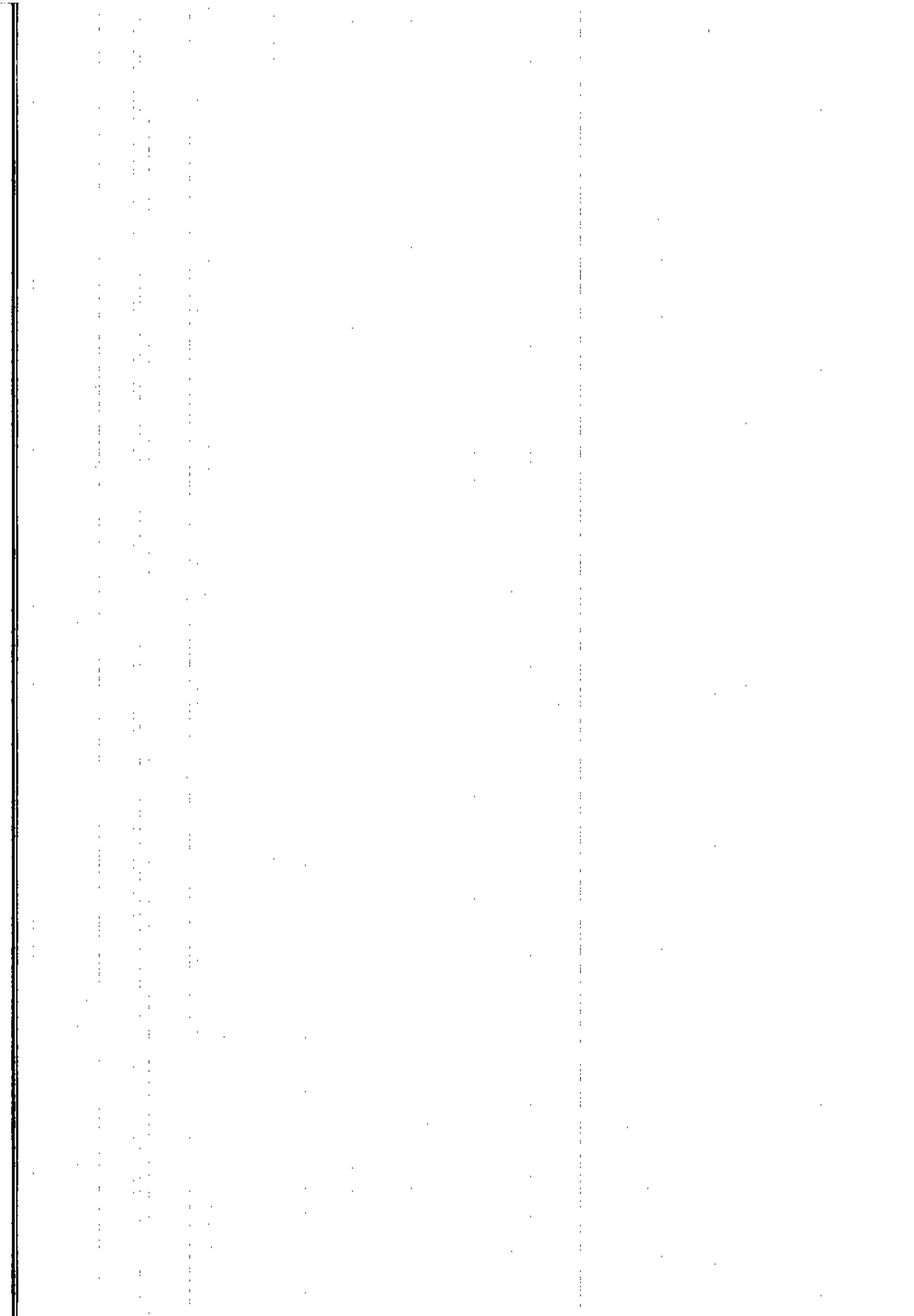
وكان لصحابته الكرام في الجدل ـ أيضاً ـ نصيب عظيم، وذلك بفضل متابعتهم، وصدق تأسيهم به ﷺ ، فهم أعلى الناس به شبهاً في العلم والنظر، والمناظرة، والجدل والمجادلة، وإقامة الحجة وإصابة الحق.

١٢- ولأجل أن تخرج المجادلة والمناظرة على منهج صحيح، وطريق سديد؛ تقل فيه الأخطاء، ويتميز الصحيح من الفاسد، كان لا بد من

وضع قواعد وآداب للمناظرة يحتكم إليها الخصوم، ويلتزمون بها، وإلا كانت المجادلة مجرد تصادم لا يوصل إلى صواب، ولا يحصل فيه مقنع.

١٣- والباب الأخير من الرسالة اشتمل على سرد ما وقفتُ عليه من مناظرات العلماء، والتي فيها نصر للإسلام وأهله، مصنفاً لها بحسب مسائل الاعتقاد، مع بيان مذهب أهل الحق في هذه المسألة أو تلك، الأمر الذي يبين قدرة علماء الإسلام - على مرِّ العصور، وكرِّ الدهور - على بيان الحق، ودفع ما يضاده من مختلف المذاهب والمشارب، فهم ترس الإسلام، والذائدون عن حياضه بكل غال ونفيس، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، مجادلين بالتي هي أحسن.

هذا ما تيسر ذكره في هذا الموضع، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



فهـــرس المصَادر وَالمـَراجع

١- آداب البحث والمناظرة ـ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ مكتبة ابن تيمية بالقاهرة ـ مكتبة العلم بجدة ـ (بدون تاريخ الطبعة ورقمها).

٢- آداب الحوار والمناظرة ـ المستشار علي جريشة ـ دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م ـ مصر .

٣- آداب الشافعي ومناقبه ـ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ـ خدمة/عبد الغني عبد الخالق ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ سوريا ـ (بدون تاريخ الطبعة).

٤- الإبانة عن أصول الديانة ـ أبو الحسن الأشعري ـ تحقيق/ د. فوقية حسين محمود ـ دار الأنصار ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ـ مصر .

٥- الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ـ أبو عبد الله بن محمد بن بطة العكبري ـ تحقيق/ رضا بن نعسان معطي ـ دار الراية للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م ـ الرياض .

٦- أبجد العلوم (الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم) ـ صديق بن حسن القنوجي ـ دار الكتب العلمية ـ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٨م ـ دمشق.

٧- أبحاث المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب (الترجمة ومدى تأثيرها في تحول الجدل الديني إلى اهتمام بالبحث العلمي والفلسفي) محمد عبد الرحمن مرحبا ـ معهد التراث العلمي العربي ـ ١٩٨٤م ـ سوريا (بدون رقم الطبعة) .

٨- ابن حزم ومنطق أرسطو (أعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية) ـ سالم يفوت ـ مطبعة النجاح الجديدة ـ جامعة محمد الخامس ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ـ الدار البيضاء ـ المغرب .

٩- الأجوبة الفاخرة - شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي المعروف بالقرافي - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م - بيروت .

١٠- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - علاء الدين علي بن بلبان الفارسي - خدمة/كمال الدين يوسف الحوت - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - بيروت.

١١- إحصاء العلوم - الفارابي - تحقيق/ د. عثمان أمين - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الثانية - ١٩٦٨م - مصر .

١٢- الإحكام في أصول الأحكام - أبو محمد علي بن حزم الظاهري - خدمة/ أحمد شاكر - مطبعة العاصمة - القاهرة (بدون رقم الطبعة وتاريخها) .

١٣- أحمد بن حنبل إمام أهل السنة - عبد الحليم الجندي - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مطابع الأهرام التجارية - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م - مصر (بدون رقم الطبعة).

١٤- إحياء علوم الدين - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٥- أخبار القضاة - وكيع محمد بن خلف بن حيان - عالم الكتب - بيروت (بدون تاريخ الطبعة ورقمها).

١٦- أخبار المدينة النبوية - أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ عبد الله الدويش) المجلد السادس - إشراف عبد العزيز المشيقح - دار العليان - القصيم (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٧- الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة - أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري - خدمة/ محمد زاهد الكوثري - مكتبة القدسي - مطبعة السعادة - ١٣٤٩هـ - مصر (بدون رقم الطبعة).

١٨- الاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ اختيار/ العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي ـ تحقيق/ محمد حامد الفقي ـ مطبعة السنة المحمدية ـ ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠هـ ـ مصر (بدون رقم الطبعة) .

١٩- أخلاق العلماء ـ الآجري ... انظر : من أخلاق العلماء .

٢٠- الأدب المفرد ـ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ـ خدمة/ محمد هشام البرهاني ـ وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة ـ المطبعة العصرية ومكتبتها ـ دولة الإمارات (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢١- الأربعين في أصول الدين ـ فخر الدين الرازي ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٥٣هـ ـ الهند .

٢٢- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ـ إمام الحرمين الجويني ـ تحقيق/ د. محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد ـ مكتبة الخانجي ـ مطبعة السعادة ـ ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٣- أساس التقديس في علم الكلام ـ فخر الدين الرازي ـ وبذيله الدرة الفاخرة في تحقيق مذهب الصوفية والمتكلمين والحكماء في وجود الله تعالى وصفاته ونظام العالم ـ لملا عبد الرحمن الجامي ـ مطبعة كردستان العلمية ـ مصر ـ ١٣٢٨هـ (بدون رقم الطبعة).

٢٤- أسباب النزول ـ أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ـ دار الكتب العلمية ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٢٥- استخراج الجدل من القرآن الكريم ـ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي ـ تحقيق/ د. زاهر بن عوّاض الألمعي ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ بيروت .

٢٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ أبو عمر يوسف بن عبد البر ـ تحقيق/ علي محمد البجاوي ـ مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٨- أسس المنطق الصوري ومشكلاته ـ د. محمد علي أبو ريان ـ ود. علي عبد المعطي محمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٦م ـ بيروت.

٢٩- الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان ـ دار البحوث العلمية ـ تعريب/ ظفر الإسلام خان ـ تحقيق/ د. عبد الصبور شاهين ـ نشر الشركة المتحدة للتوزيع ـ الطبعة السادسة ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ بيروت .

٣٠- الأسماء والصفات ـ أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ـ خدمة/ محمد زاهد الكوثري ـ مطبعة السعادة ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣١- إشارات المرام من عبارات الإمام ـ كمال الدين أحمد البياضي الحنفي ـ تحقيق/ يوسف عبد الرزاق ـ شركة ومكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م ـ مصر.

٣٢- الاشتقاق ـ أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ـ تحقيق/ عبد السلام محمد هارون ـ مكتبة الخانجي ـ مطبعة السنة المحمدية ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م ـ مصر.

٣٣- الإصابة في تمييز الصحابة ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ مطبعة السعادة ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٢٨هـ ـ مصر.

٣٤- أصول الحوار ـ إعداد/ الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م ـ المطابع العالمية ـ الرياض .

٣٥- أصول الدين (معالم أصول الدين) ـ فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي ـ خدمة/ طه عبد الرؤوف سعد ـ الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٦- الأصول والفروع ـ أبو محمد علي بن حزم الأندلسي ـ تحقيق/ محمد عاطف العراقي وآخرين ـ نشر دار النهضة العربية ـ مطبعة حسان ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٧م ـ القاهرة .

٣٧- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ـ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ـ المطابع الأهلية للأوفست ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ الرياض (بدون رقم الطبعة).

٣٨- الاعتصام ـ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مطبعة السعادة ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٩- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ـ فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي ـ ومعه المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين لطه عبد الرؤوف سعد و مصطفى الهواري ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ شركة الطباعة الفنية المتحدة ـ ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م القاهرة (بدون رقم الطبعة).

٤٠- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث ـ أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ خدمة/ أحمد عصام الكاتب ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ بيروت .

٤١- إعجاز القرآن ـ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق/ السيد أحمد صقر ـ دار المعارف ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٧٢م ـ مصر .

٤٢- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ـ الإمام القرطبي ـ تحقيق/ أحمد حجازي السقا ـ دار التراث العربي ـ تاريخ الإيداع ١٩٨٠م (بدون رقم الطبعة).

٤٣- أعلام العرب في العلوم والفنون ـ عبد الصاحب عمران الدجيلي ـ مطبعة النعمان ـ الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م ـ النجف .

٤٤- أعلام المغرب العربي ـ عبد الوهاب بن منصور ـ المطبعة الملكية بالرباط ـ ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ـ المغرب (بدون رقم الطبعة) .

٤٥- إعلام الموقعين عن رب العالمين ـ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ـ خدمة/ طه عبد الرؤوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤٦- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ـ ابن قيم الجوزية ـ تحقيق/ محمد حامد الفقي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٩م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٤٧- الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ الطبعة الأولى (بدون تاريخ الطبعة).

٤٨- الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام ـ يحيى بن حمزة العلوي ـ تحقيق/ فيصل بدير عون ـ منشأة المعارف ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤٩- إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي صلى الله عليه وسلم ـ السموأل بن يحيى المغربي ـ تحقيق/ د. محمد عبد الله الشرقاوي ـ مكتبة الزهراء ـ جامعة القاهرة ـ دار الجيل ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ـ بيروت .

٥٠- كتاب الأموال ـ أبو عبيد القاسم بن سلام ـ تحقيق/ د. محمد عمارة ـ دار الشروق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ـ بيروت.

٥١- إنباه الرواة على أنباه النحاة ـ أبو الحسن علي بن يوسف القفطي ـ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ الطبعة الأولى ـ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م ـ مصر.

٥٢- الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ـ أبو الحسين عبد الرحمن بن محمد الخياط تحقيق/ د. نيبرج ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٥٣- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم وذكر عيون من أخبارهم وأخبار أصحابهم للتعريف بجلالة أقدارهم ـ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري ـ مكتبة القدسي ـ مطبعة المعاهد ـ ١٣٥٠هـ ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٥٤- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ـ القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق/ محمد زاهد بن الحسن الكوثري ـ مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ـ مطبعة السنة المحمدية ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م ـ مصر .

٥٥- أوائل المقالات في المذاهب المختارات ـ أبو عبد الله محمد بن محمد النعمان العكبري الملقب بالشيخ المفيد ـ ويليه شرح عقائد الصدوق له ـ خدمة/ فضل الله الشهير بالزنجاني ـ المطبعة الحيدرية ـ الطبعة الثالثة ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م ـ النجف .

٥٦- الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل الأصولي الفقهي ـ أبو محمد يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي ـ تحقيق/ د. فهد بن محمد السدحان ـ مكتبة العبيكان ـ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ـ الرياض .

٥٧- إيضاح المبهم من معاني السلم في المنطق ـ الشيخ أحمد الدمنهوري ـ ويليه شرح العلامة الأخضري على سلمه المذكور ـ المطبعة الميمنية ـ ١٣٠٨هـ ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٥٨- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ إسماعيل باشا بن محمد أمين ـ مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي ـ الطبعة الثالثة ـ ١٣٧٨هـ ـ طهران.

٥٩- إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ - أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري - تحقيق/ محيي الدين عبد الحميد رمضان - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م - دمشق (بدون رقم الطبعة) .

٦٠- الإيمان - الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي (ضمن أربع رسائل) تحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني - المطبعة العمومية - دمشق (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٦١- أيها الولد - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي - تحقيق/ علي محيي الدين علي القرة داغي - دار الاعتصام - الطبعة الثانية - تاريخ الإيداع ١٩٨٣م - مصر.

٦٢- الباعث على إنكار البدع والحوادث - أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة - تحقيق/ عثمان أحمد عنبر - دار الهدى - مطبعة السعادة - الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - مصر.

٦٣- بدائع الفوائد - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - دار الكتاب العربي - إدارة الطباعة المنيرية - بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٦٤- البداية والنهاية - الحافظ أبو الفداء ابن كثير - مكتبة المعارف - الطبعة الأولى ١٩٦٦م - بيروت.

٦٥- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - محمد بن علي الشوكاني - مطبعة السعادة - الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ مصر .

٦٦- البرهان في علوم القرآن - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي - تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعرفة - الطبعة الثانية - بيروت (بدون تاريخ الطبعة).

٦٧- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس علمائها وأمرائها وشعرائها وذوي النباهة فيها ممن دخل إليها أو خرج عنها - أحمد بن يحيى بن أحمد الضبي - مطبعة روخس - ١٨٨٤هـ - مدينة مجريط (بدون رقم الطبعة).

٦٨- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ـ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة العصرية ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٦٩- بيان تأسيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية أو نقض تأسيس الجهمية ـ أبو العباس أحمد بن تيمية ـ تصحيح وتعليق/ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ـ مطبعة الحكومة ـ الطبعة الأولى ١٣٩١هـ ـ مكة المكرمة .

٧٠- تاج التراجم ـ أبو الفداء زين الدين قاسم بن قُطْلوبغا السودُوني ـ تحقيق/ محمد خير رمضان يوسف ـ دار القلم ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ـ دمشق.

٧١- تاريخ الأمم والملوك ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار سويدان ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٧٢- تاريخ بغداد ـ للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٧٣- تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري ـ منير الدين أحمد ـ دار المريخ ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ الرياض (بدون رقم الطبعة).

٧٤- تاريخ الجدل ـ محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربي ـ مطابع الدجوي ـ الطبعة الثانية ١٩٨٠م ـ القاهرة.

٧٥- تاريخ الجهمية والمعتزلة ـ جمال الدين القاسمي الدمشقي ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ بيروت .

٧٦- تاريخ دمشق ـ الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر ـ صورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ـ خدمة/ الشيخ محمد بن رزق الطرهوني ـ مكتبة الدار ـ ١٤٠٧هـ ـ المدنية المنورة.

٧٧- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم ــ القاضي أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري ــ تحقيق/ د. عبد الفتاح الحلو ــ إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ مطابع الهلال للأوفست ــ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ الرياض (بدون رقم الطبعة) .

٧٨- تاريخ الفكر الفلسفي (الفلسفة اليونانية) ـ د. محمد علي أبو ريان ـ الجزء الأول ـ دار المعرفة الجامعية ـ الطبعة الخامسة ١٩٨٠م ـ مصر .

٧٩- تاريخ الفكر الفلسفي ـ (أرسطو والمدارس المتأخرة) ـ د. محمد علي أبو ريان ــ الجزء الثاني ـ دار النهضة العربية ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٧٦م ـ بيروت .

٨٠- تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م ـ القاهرة .

٨١- التاريخ الكبير ـ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ــ المكتبة الإسلامية ــ تركيا (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٨٢- تأويل مختلف الحديث ـ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ــ خدمة/ محمد زهري النجار ـ دار الجيل ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٨٣- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ـ أبو المظفر الأسفراييني ـ تحقيق/ محمد زاهد الكوثري ـ مكتبة الخانجي ـ ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٨٤- التبيان في أقسام القرآن ـ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ـ خدمة/ محمد زهري النجار ـ نشر المؤسسة السعيدية بالرياض ـ مطابع الدجوي ـ تاريخ الإيداع ١٩٧٩م (بدون رقم الطبعة).

٨٥- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ـ فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي ــ دار المعرفة للطباعة والنشر ــ الطبعة الثانية ــ مصوَّر عن المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ـ ١٣١٣هـ مصر.

٨٦- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري - أبو القاسم علي بن محمد الحسن بن هبة الله بن عساكر - مطبعة التوفيق - ١٣٤٧هـ - دمشق (بدون رقم الطبعة).

٨٧- تجديد علم المنطق في شرح الخبيصي على التهذيب - عبد المتعال الصعيدي - المطبعة النموذجية - الطبعة الخامسة - مصر (بدون تاريخ الطبعة).

٨٨- تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري - مكتبة القدسي - مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٨٩- تحرير القواعد المنطقية - محمود بن محمد الرازي، على شرح الرسالة الشمسية لعمر بن علي القزويني المعروف بالكاتبي - مطبعة البابي الحلبي - الطبعة الثانية ١٣٧٦هـ - ١٩٤٨م مصر .

٩٠- تحريم النظر في كتب أهل الكلام - ابن قدامة المقدسي - تحقيق/ جورج المقدسي - شركة لوزاك - ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م - لندن (بدون رقم الطبعة).

٩١- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي - أبو العلي محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري - خدمة/ عبد الرحمن محمد عثمان - مطبعة الفجالة الجديدة - الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م - القاهرة .

٩٢- التحف في مذهب السلف - محمد بن علي الشوكاني - مطبوعات الجامعة الإسلامية - مطبعة المدني - جدة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٩٣- تذكرة الحفاظ - أبو عبد الله شمس الدين الذهبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٩٤- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك - القاضي عياض - تحقيق/ د. أحمد بكير محمود - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٩٥- ترجمة الإمام أحمد (من تاريخ الإسلام) - الحافظ الذهبي - تحقيق/ أحمد محمد شاكر - دار المعارف - ١٣٦٥هـ - مصر (بدون رقم الطبعة) .

٩٦- ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان - عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس - دار الهجرة للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية ١٤١١هـ - الرياض .

٩٧- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان - محمد بن إبراهيم الوزير اليمني الصنعاني - مطبعة المعاهد - ١٣٤٩هـ - مصر (بدون رقم الطبعة).

٩٨- تطور الجدل بعد هيجل (الكتاب الأول جدل الفكر) د. إمام عبد الفتاح إمام - دار التنوير للطباعة والنشر - الطبعة الأولى ١٩٨٤م - بيروت .

٩٩- التعريفات - أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني - الدار التونسية - ١٩٧١م - تونس (بدون رقم الطبعة).

١٠٠- تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث - كلاهما من وضع / أحمد مكي - مطبعة جمعية النشر والتأليف الأزهرية - الطبعة الأولى ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م - مصر.

١٠١- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل - محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي - تحقيق/ خالد العك ومروان سوار - دار المعرفة - الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - بيروت.

١٠٢- تفسير سورة الإخلاص - تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية - خدمة/ د. عبد العلي عبد الحميد حامد - الدار السلفية - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م - بومباي - الهند.

١٠٣- تفسير القرآن العظيم - الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير - دار الحديث - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - القاهرة .

١٠٤- التفسير الكبير - الإمام الفخر الرازي - دار الحديث العلمية - الطبعة الثانية - طهران (بدون تاريخ الطبعة).

١٠٥- التفكير المنطقي بين المنهج القديم والمنهج الحديث - د. عبد اللطيف محمد العبد - مكتبة الأنجلو المصرية - دار العلم للطباعة - تاريخ الإيداع ١٩٧٧م - القاهرة (بدون رقم الطبعة).

١٠٦- التقريب لحد المنطق والمدخل إليه ـ بالألفاظ العامة والأمثلة الفقهية ـ أبو محمد علي بن حزم ـ تحقيق/ د. إحسان عباس ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٠٧- التكملة لوفيات النقلة ـ زين الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ـ تحقيق/ د. بشار عواد معروف ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ بيروت.

١٠٨- تلبيس إبليس ـ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ـ تحقيق/ د. السيد الجميلي ـ الناشر الكتاب العربي ـ الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ـ بيروت.

١٠٩- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ـ الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ خدمة/ السيد عبد الله هاشم اليماني المدني بالمدينة المنورة ـ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م (بدون معلومات أخرى).

١١٠- تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري ـ أبو العباس أحمد بن تيمية ـ وبهامشه كتاب الرد على الأخنائي له ـ المطبعة السلفية ـ ١٣٤٦هـ ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

١١١- تلخيص كتاب الجدل ـ ابن رشد ـ تحقيق/ د. تشارلس بتروث ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٩م ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة).

١١٢- التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوراج والمعتزلة ـ أبو بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني ـ خدمة/ محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريدة ـ دار الفكر العربي ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة).

١١٣- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ـ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري ـ تحقيق/ مصطفى العلوي ومحمد البكري ـ المطبعة الملكية ـ ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م ـ الرباط (بدون رقم الطبعة).

١١٤- تنبيه النبلاء من العلماء إلى قول حامد الفقي إن الملائكة غير عقلاء ـ محمد سلطان المعصومي الخجندي ـ المطبعة السلفية ١٣٧٤هـ ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة).

١١٥- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ـ أبو الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي ـ تقديم وتعليق/ محمد زاهد الكوثري ـ مكتبة المتنبي ببغداد ـ ومكتبة المعارف ببيروت ـ ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م (بدون رقم الطبعة).

١١٦- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ـ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ـ تحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني ـ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الإرشاد ـ المطابع الأهلية للأوفست ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ الرياض.

١١٧- تهافت الفلاسفة ـ الإمام الغزالي ـ تحقيق/ د. سليمان دنيا ـ دار المعارف ـ الطبعة الرابعة ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١١٨- تهذيب التهذيب ـ الحافظ أحمد بن علي بن حجر ـ دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ مصورة عن طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد ـ الهند ـ ١٣٢٥هـ .

١١٩- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ـ جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي ـ مؤسسة الرسالة ـ تحقيق/ د. بشار عواد معروف ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ـ بيروت.

١٢٠- توشيح الديباج وحلية الابتهاج ـ بدر الدين القرافي ـ تحقيق/ أحمد الشتيوي ـ دار الغرب الإسلامي ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ بيروت.

١٢١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ مطبعة المدني ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

١٢٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ــ السعدي ــ طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الإرشاد ـ المطابع الأهلية للأوفست ـ ١٤١٠هـ ـ الرياض.

١٢٣- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ـ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ـ دار الفكر ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٢٤- جامع البيان في تفسير القرآن ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ دار المعرفة ــ الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ـ بيروت .

١٢٥- جامع الرسائل ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق/ د. محمد رشاد سالم ـ مطبعة المدني ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م ـ مصر .

١٢٦- الجامع الصحيح في القدر ـ أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي ــ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٢٧- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير الحافظ جلال الدين السيوطي ــ دار الطباعة العامرة ـ ١٢٨٦هـ ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

١٢٨- الجامع الصغير في أحاديث البشير ــ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ بيروت .

١٢٩- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون -الملقب بدستور العلماء ــ القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمدي فكري ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م (مصورة عن مطبعة دائرة المعارف النظامية ـ حيدر آباد دكن الهند).

١٣٠- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن رجب الحنبلي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ــ الطبعة الرابعة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م ـ مصر .

١٣١- الجامع لأحكام القرآن - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م - القاهرة (بدون رقم الطبعة).

١٣٢- الجامع لشعب الإيمان - أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي - تحقيق/ د. عبد العلي عبد الحميد حامد - الدار السلفية - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م - بومباي - الهند .

١٣٣- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية - ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي المعروف بابن البيطار - مكتبة المثنى - بغداد (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٣٤- الجرح والتعديل - أبو محمد عبد الرحمن بن الإمام أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م - بيروت (مصورة عن طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الدكن - الهند).

١٣٥- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية - تحقيق/ د. علي بن حسن بن ناصر وآخرين - دار العاصمة - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - الرياض.

١٣٦- الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية - محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد ابن أبي الوفاء القرشي الحنفي - تحقيق/ د. عبد الفتاح محمد الحلو - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م - دار العلوم - الرياض.

١٣٧- حاشية الجرجاني على تحرير القواعد المنطقية - محمود بن محمد الرازي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م - مصر .

١٣٨- حاشية رد المحتار - لمحمد أمين الشهير بابن عابدين ، على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان - شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م - مصر.

١٣٩- الحبائك في أخبار الملائك - الحافظ جلال الدين السيوطي - خدمة/ عبد الله الصديق - مطبعة دار التأليف - مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٤٠- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ـ أبو القاسم إسماعيل بن محمد ابن الفضل التميمي الأصبهاني ـ تحقيق/ محمد ربيع بن هادي عمير المدخلي ـ دار الراية ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م ـ الرياض .

١٤١- حزُّ الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر ـ شيت بن إبراهيم بن حيدرة المعروف بابن الحاج القفطي ـ تحقيق/ عبد الله البارودي ـ مؤسسة الكتب الثقافية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ـ بيروت.

١٤٢- حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة ـ أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن محمد المقدسي موفق الدين ابن قدامة ـ تحقيق/ عبد الله بن يوسف الجديع ـ مكتبة الرشد ـ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ـ الرياض .

١٤٣- حكمة الغرب ـ برتراند رسل ـ ترجمة د. فؤاد زكريا ـ عالم المعرفة ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ الكويت (بدون رقم الطبعة).

١٤٤- حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد ـ أبو عبد الكريم محمد سلطان المعصومي الخجندي الحنفي السلفي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٤٥- الحلة السيراء ـ لابن الأبار (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي) تحقيق/ د. حسين مؤنس ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ـ الطبعة الأولى ١٩٦٣م ـ القاهرة .

١٤٦- حلية الأولياء وطبقات الفقهاء ـ الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ـ الناشر دار الكتاب العربي ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ بيروت .

١٤٧- الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومنهاجه في الكتاب والسنة ـ خالد بن عبدالله القاسم ـ دار المسلم للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ الرياض .

١٤٨- حياة الحيوان الكبرى ـ الشيخ كمال الدين الدميري ـ بهامشه كتاب عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات لزكريا بن محمد بن محمود القزويني ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ توزيع دار الفكر ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٤٩- الحيدة ـ عبد العزيز بن يحيى الكناني ـ تحقيق/ د. جميل صليبا ـ مطبعة الترقي ـ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م ـ دمشق (بدون رقم الطبعة).

١٥٠- الخرشي على مختصر سيدي خليل ـ محمد الخرشي المالكي ـ دار صادر ـ بيروت (مصورة عن دار الطباعة الزهراء ببولاق مصر ١٣١٨هـ).

١٥١- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ـ عبد القادر بن عمر البغدادي ـ تحقيق/ عبد السلام هارون ـ الهيئة العامة للكتاب ـ مكتبة الخانجي ـ الطبعة الثانية ـ مصر (بدون تاريخ الطبعة).

١٥٢- خصائص القرآن الكريم ـ د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ـ مكتبة الحرمين ـ الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ـ الرياض .

١٥٣- الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب ـ جلال الدين عبد الرحمن الدين السيوطي ـ تحقيق/ د. محمد خليل هراس ـ دار الكتب الحديثة ـ مطبعة المدني ـ مصر.

١٥٤- خلاصة تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال ـ الحافظ صفي الدين أحمد ابن عبد الله الخزرجي الأنصاري ـ مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب ـ الطبعة الثانية ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م ـ بيروت .

١٥٥- خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل ـ الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ـ خدمة/ أبي محمد سالم بن أحمد بن عبد الهادي السلفي وأبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني الإبياني ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٥٦- دائرة المعارف ـ بطرس البستاني ـ مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان ١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٨م ـ طهران (بدون رقم الطبعة).

١٥٧- درء تعارض العقل والنقل ـ أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ــ تحقيق/ د. محمد رشاد سالم ـ طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ــ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ الرياض .

١٥٨- دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها ــ عبده الشمالي ــ دار صادر ـ الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ بيروت .

١٥٩- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ــ الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ــ تحقيق/ محمد سيد جاد الحق ـ دار الكتب الحديثة ـ مطبعة المدني ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٦٠- دلائل التوحيد ـ محمد جمال الدين القاسمي ـ جمعية النشر والتأليف الأزهرية ــ الطبعة الثانية ـ مصر (بدون تاريخ الطبعة).

١٦١- دلائل النبوة ـ أبو نعيم الأصبهاني ـ تحقيق/ محمد رواس قلعه جي ــ المكتبة العربية ـ الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م حلب .

١٦٢- دلائل النبوة ـ البيهقي ـ تحقيق/ عبد الرحمن محمد عثمان ـ دار النهضة للطباعة ـ الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م ـ مصر .

١٦٣- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ــ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ تحقيق/ د. عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ــ دار الريان للتراث ـ مصر ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ مصر .

١٦٤- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ـ برهان الدين إبراهيم بن علي ابن محمد بن فرحون اليعمري المالكي ـ دار الكتب العلمية ــ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٦٥- الدين الخالص ـ السيد محمد صديق خان القنوجي ـ مكتبة دار التراث ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٦٦- ديوان الأعمش ـ دار صادر ـ ١٩٦٦هـ ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

١٦٧- ديوان امرئ القيس - تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف ـ الطبعة الثانية ١٩٦٤م - مصر .

١٦٨- ديوان امرئ القيس - دار بيروت للطباعة والنشر - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م بيروت (بدون رقم الطبعة) .

١٦٩- ديوان جرير - دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

١٧٠- ديوان ذي الرمة (غيلان بن عقبة العدوي) - شرح أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي - رواية أبي العباس ثعلب - تحقيق/ د. عبد القدوس أبو صالح - مطبعة طربين - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م - دمشق (بدون رقم الطبعة) .

١٧١- ديوان الصنعاني - الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني ـ مطبعة المدني ـ الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - القاهرة .

١٧٢- ديوان عامر بن الطفيل - رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب - دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م (بدون رقم الطبعة).

١٧٣- ديوان النابغة الذبياني - تحقيق/ كرم البستاني - دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م - بيروت (بدون رقم الطبعة).

١٧٤- الذيل على طبقات الحنابلة ـ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت (بدون رقم الطباعة وتاريخها).

١٧٥- ربيع الفكر اليوناني - عبد الرحمن بدوي - وكالة المطبوعات - الكويت ـ دار القلم - الطبعة الخامسة ١٩٧٩م - بيروت .

١٧٦- رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد ـ تحقيق/ محمد حامد الفقي - مطبعة الأشرف ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ـ فيصل آباد ـ باكستان (بدون رقم الطبعة).

١٧٧- الرد على الجهمية ـ الإمام أحمد بن حنبل ـ تحقيق/ د. عبد الرحمن عميرة ـ دار اللواء ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ـ الرياض (بدون رقم الطبعة).

١٧٨- الرد على الجهمية ـ أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي ـ تحقيق/ زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ـ بيروت ـ دمشق.

١٧٩- الرد على المنطقيين ـ أبو العباس أحمد بن تيمية ـ إدارة ترجمان السنة ـ الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م ـ لاهور ـ باكستان .

١٨٠- الرسالة ـ الإمام محمد بن إدريس الشافعي ـ بتحقيق/ أحمد محمد شاكر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها) .

١٨١- الرسالة التدمرية (مجمل اعتقاد السلف) ـ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ـ طبعة جامعة الإمام محمد بن الإسلامية ـ كلية الشريعة ـ المطابع الأهلية للأوفست ـ ١٣٩٦هـ ـ الرياض (بدون رقم الطبعة).

١٨٢- رسالة في الرد على الرافضة ـ أبو حامد محمد المقدسي ـ تحقيق/ عبد الوهاب خليل الرحمن ـ الدار السلفية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ الهند .

١٨٣- رغبة الآمل من كتاب الكامل ـ سيد بن علي المرصفي ـ مكتبة دار البيان ـ الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م ـ بغداد .

١٨٤- رفع الملام عن الأئمة الأعلام ـ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ـ توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ـ الطبعة الخامسة ـ ١٣٦٩هـ ـ مكة المكرمة .

١٨٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٨٦- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي ـ خدمة/ طه عبد الرؤوف سعد ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ تاريخ الإيداع ١٩٧٢م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

١٨٧- رياض الصالحين - أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ـ تحقيق/ عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق ـ دار المأمون مكتبة المنار ـ الطبعة العاشرة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م - الأردن .

١٨٨- الرياض النضرة في مناقب العشرة المبشرين بالجنة ـ أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري - دار الندوة الجديدة - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - بيروت .

١٨٩- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم - أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولى (بدون تاريخ الطبعة).

١٩٠- زاد المسير في علم التفسير ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ـ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر - الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م - بيروت .

١٩١- زاد المعاد في هدي خير العباد - ابن قيم الجوزية ـ خدمة شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط - مكتبة المنار الكويت ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م بيروت .

١٩٢- سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام - محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني - خدمة/ فواز أحمد زمرلي وإبراهيم محمد الجمل ـ دار الكتاب العربي - الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - بيروت.

١٩٣- سلسلة الأحاديث الصحية وشيء من فقهها وفوائدها ـ محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٩٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ـ محمد ناصر الدين الألباني - المجلد الخامس - مكتبة المعارف ـ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ـ الرياض .

١٩٥- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر - السيد محمد خليل المرادي ـ مكتبة المثنى ببغداد - المطبعة الميرية العامرية ببولاق - ١٣٠١هـ - مصر (بدون رقم الطبعة).

١٩٦- السنة ـ الإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل ـ تحقيق/ أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ تيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

١٩٧- السنة ـ أبوبكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال ـ تحقيق/ د. عطية الزهراني ـ دار الراية للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م ـ الرياض .

١٩٨- سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه ـ تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ تاريخ الإيداع ١٩٧٢م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

١٩٩- سنن أبي داود ـ الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ـ ومعه كتاب معالم السنن للخطابي ـ خدمة عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ـ دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م ـ سوريا ـ لبنان .

٢٠٠- سنن الترمذي ـ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ـ تعليق/ عزت عبيد الدعاس ـ مطابع الفجر الحديثة ـ الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م ـ حمص .

٢٠١- سنن الدار قطني ـ علي بن عمر الدارقطني ـ وبذيله التعليق المغني على الدارقطني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة ـ عالم الكتب ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٠٢- سنن الدارمي ـ الإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي ـ بعناية/ محمد أحمد دهمان ـ دار إحياء السنة النبوية (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٠٣- السنن الكبرى ـ أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الطبعة الأولى ١٣٥٥هـ ـ حيدر آباد الدكن ـ الهند .

٢٠٤- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي ـ دار الحديث ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة).

٢٠٥- سؤال في حديث النزول وجوابه أو شرح حديث النزول - شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق/ محمد بن عبد الرحمن الخميس - دار العاصمة - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م - الرياض .

٢٠٦- سير أعلام النبلاء - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرين - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - بيروت .

٢٠٧- سيرة الإمام أحمد بن حنبل - أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل - تحقيق/ د. فؤاد عبد المنعم أحمد - مؤسسة شباب الجامعة - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٠٨- السيرة الحلبية - علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي - المكتبة الإسلامية - ١٣٢٠هـ - لبنان (بدون رقم الطبعة).

٢٠٩- السيرة النبوية - ابن هشام - مع شرح أبي ذر الخشني - تحقيق/ د. همام سعيد ومحمد أبو صعيليك - مكتبة المنار - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م - الأردن.

٢١٠- السيرة النبوية - أبو الفداء إسماعيل بن كثير - تحقيق/ مصطفى عبد الواحد - دار الفكر - الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - بيروت .

٢١١- السير والمغازي - محمد بن إسحاق المطلبي الشهير بابن إسحاق - تحقيق/ د. سهيل زكار - دار الفكر - الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - بيروت.

٢١٢- الشامل في أصول الدين - إمام الحرمين الجويني - تحقيق/ علي سامي النشار وآخرين - منشأة المعارف - مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢١٣- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية - محمد بن محمد مخلوف - دار الكتاب العربي - مصورة عن طبعة المطبعة السلفية ومكتبتها - الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ - مصر

٢١٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢١٥- شرح أشعار الهذليين ـ صنعة/ أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ـ تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج ـ مكتبة دار العروبة ـ مطبعة المدني ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢١٦- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم ـ أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ـ تحقيق/ د. أحمد سعد حمدان ـ دار طيبة للنشر والتوزيع ـ الرياض (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢١٧- شرح البيجوري على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد ـ إبراهيم البيجوري ـ الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة).

٢١٨- شرح التفتازاني على متن العقائد النسفية ـ وبهامشه حاشية المولى مصلح الدين مصطفى الكستلي ـ شركة صحافية مطبعة ـ ١٣٢٦هـ (بدون رقم الطبعة).

٢١٩- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ـ إعداد/ عبد الرحمن البرقوني ـ دار الأندلس للطباعة والنشر ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٢٢٠- شرح ديوان المتنبي ـ وضعه/ عبد الرحمن البرقوني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٢١- شرح السنة ـ الإمام البغوي ـ تحقيق/ شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش ـ دار بدر ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٢٢- شرح العقيدة الطحاوية ـ القاضي علي بن علي بن أبي العز الحنفي ـ تحقيق/ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ بيروت.

٢٢٣- شرح العلامة الأخضري على السلم في ذيل إيضاح المبهم من معاني السلم في المنطق للشيخ أحمد الدمنهوري - المطبعة الميمنية - ١٣٠٨هـ - مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٢٤- شرح منح الجليل على مختصر العلامة خليل - العلامة الشيخ محمد عليش - وبهامشه حاشيته المسماة تسهيل منح الجليل - المطبعة الكبرى ١٢٩٤هـ - مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٢٥- شرح المقاصد - مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني - تحقيق/ عبد الرحمن عميرة - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٢٦- شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - تحقيق/ الشيخ حسن تميم - دار مكتبة الحياة - ١٩٦٣م - بيروت (بدون رقم الطبعة).

٢٢٧- شرح الولدية في آداب البحث والمناظرة - عبد الوهاب بن حسين بن ولي الدين الآمدي - والمتن لمحمد المرعشي المعروف بساجقلي زاده - ومعه شرح للعلامة محمد بن حسين المعروف بملا عمر زاده - المطبعة الجمالية - ١٣٢٩هـ - مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٢٨- شرف أصحاب الحديث - أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي - تحقيق/ د. محمد سعيد خطيب أوغلي - دار إحياء السنة النبوية - ١٩٧١هـ (بدون رقم الطبعة وبلدها).

٢٢٩- الشريعة - الإمام أبوبكر محمد بن الحسن الآجري - تحقيق/ محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية - ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٣٠- الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - تحقيق/ د. مفيد قميحة - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - بيروت.

٢٣١- الشفاء (المنطق ـ الجدل) ابن سينا ـ تحقيق/ د. أحمد فؤاد الأهواني ـ الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة).

٢٣٢- الشفاء ـ القاضي عياض بن موسى اليحصبي ـ تحقيق/ محمد أمين قرة علي وآخرين ـ دار الوفاء للطباعة والنشر ـ دمشق (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٣٣- الصارم المسلول على شاتم الرسول ـ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ـ تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الكتب العلمية ـ ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨ ـ لبنان (بدون رقم الطبعة).

٢٣٤- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ـ إسماعيل بن حماد الجوهري ـ تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م بيروت .

٢٣٥- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ بيروت .

٢٣٦- صحيح سنن ابن ماجه ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتب التربية لدول الخليج ـ خدمة/ زهير الشاويش ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ الرياض.

٢٣٧- صحيح مسلم ـ الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري ـ تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي البابي وشركاه ـ الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م ـ مصر.

٢٣٨- صحيح مسلم بشرح النووي ـ دار الفكر ـ الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٨م ـ بيروت.

٢٣٩- الصفات ـ الحافظ علي بن عمر الدارقطني ـ تحقيق/ عبد الله الغنيمان ـ مكتبة الدار ـ الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ مصر .

٢٤٠- الصفدية ـ أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ تحقيق/ د. محمد رشاد سالم ـ مكتبة ابن تيمية ـ الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ـ القاهرة.

٢٤١- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية - تحقيق/ د. علي بن محمد الدخيل الله - دار العاصمة - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - الرياض .

٢٤٢- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام - جلال الدين السيوطي - وبذيله مختصر السيوطي لكتاب نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان لتقي الدين الدين ابن تيمية - تعليق/ علي سامي النشار - مطبعة السعادة - مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى - مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٤٣- الضعفاء الكبير - أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى بن حماد العقيلي المكي - تحقيق/ د. عبد المعطي أمين قلعجي - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م - بيروت.

٢٤٤- ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) - تحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م - بيروت .

٢٤٥- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني - دار العلم - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - بيروت - دمشق.

٢٤٦- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٤٧- طبقات الأولياء - سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن الملقن المصري - تحقيق/ نور الدين شريبة - مكتبة الخانجي - مطبعة دار التأليف - الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م مصر.

٢٤٨- طبقات الحفاظ - الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تحقيق/ علي محمد عمر - مكتبة وهبة - مطبعة الاستقلال الكبرى - الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م - مصر .

٢٤٩- طبقات الحنابلة - القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٥٠- طبقات الشافعية ـ تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري المعروف بابن الصلاح ـ هذبه ورتبه/ الإمام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي ـ تحقيق/ محيي الدين علي نجيب ـ دار البشائر الإسلامية ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ـ بيروت.

٢٥١- طبقات الشافعية ـ جمال الدين عبد الرحمن الأسنوي ـ تحقيق/ عبد الله الجبوري ـ دار العلوم للطباعة والنشر ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ الرياض (بدون رقم الطبعة).

٢٥٢- طبقات الشافعية ـ أبو بكر بن أبي قاضي شهبة الدمشقي ـ خدمة/ د. الحافظ عبد العليم خان ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ حيدر آباد الدكن الهند.

٢٥٣- طبقات الشافعية الكبرى ـ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ـ تحقيق/ محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ الطبعة الأولى ـ مصر (بدون تاريخ الطبعة).

٢٥٤- الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ دار صادر ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٥٥- طبقات المعتزلة ـ أحمد بن يحيى بن المرتضى ـ تحقيق/ سُوسنّة ديفلّد ـ فلزر ـ الناشر فرانز شتاينر فيسبادن ـ ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م ـ لبنان (بدون رقم الطبعة).

٢٥٦- طبقات المفسرين ـ محمد بن علي الداوودي ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ بيروت .

٢٥٧- طبقات النحويين واللغويين ـ أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي ـ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ ١٩٧٣م ـ مصر .

٢٥٨- طريق الهجرتين وباب السعادتين ـ ابن قيم الجوزية ـ خدمة/ محب الدين الخطيب ـ المطبعة السلفية ومكتبتها ـ الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ ـ القاهرة.

٢٥٩- العبر في خبر من غبر ـ الحافظ الذهبي ـ تحقيق/ د. صلاح الدين المنجد ـ دائرة المطبوعات والنشر ـ ١٩٦٠م ـ الكويت (بدون رقم الطبعة).

٢٦٠- العبودية ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ ـ بيروت.

٢٦١- العثمانية ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق/ عبد السلام محمد هارون ـ دار الكتاب العربي ـ ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٦٢- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ـ زكريا القزويني ـ تحقيق/ فاروق سعد ـ دار الآفاق الجديدة ـ الطبعة الثانية ١٩٧٧م ـ بيروت.

٢٦٣- العدة في أصول الفقه ـ القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادي ـ تحقيق/ أحمد بن علي سير المباركي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها) .

٢٦٤- العقد الفريد ـ عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ـ خدمة/ أحمد أمين وآخرين ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ـ القاهرة.

٢٦٥- عقود الجمان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ـ محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي ـ مطبعة المعارف الشرفية ـ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤ ـ الهند (بدون رقم الطبعة).

٢٦٦- عقيدة السلف وأصحاب الحديث ـ أبو عثمان إسماعيل عبد الرحمن بن إسماعيل الصابوني ـ تحقيق/ بدر البدر ـ الدار السلفية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ـ الكويت.

٢٦٧- عقيدة السلف وأصحاب الحديث ـ أبو عثمان إسماعيل الصابوني ـ تحقيق/ أبي عبد الله نبيل بن سابق السبكي ـ دار طيبة ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ الرياض.

٢٦٨- علماء ومفكرون عرفتهم ـ الجزء الثالث ـ محمد المجذوب ـ دار الاعتصام ـ مصر (بدون تاريخ الطبعة).

٢٦٩- علم البحث والمناظرة ـ طاش كبري زاده (ضمن : رسالتان : ١- طبقات المجتهدين لابن كمال باشا ٢- علم البحث والمناظرة لطاش زاده) تحقيق/ أبي عبد الرحمن بن عقيل ـ مطبعة الجبلاوي ـ ١٣٧٩هـ ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٧٠- العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها ـ الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ خدمة/ عبد الرؤوف علي يوسف ـ مطبعة جماعة أنصار السنة بعابدين ـ ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٧١- عمدة التفسير : عن الحافظ ابن كثير ـ اختصار وتحقيق/ أحمد شاكر ـ دار المعارف ـ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م ـ مصر (بدون رقم الطبعة) .

٢٧٢- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ـ بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٧٣- عيون الأخبار ـ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (مصورة عن طبعة دار الكتب) مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٧٤- عيون المناظرات ـ أبو علي عمر السكوني ـ تحقيق/ سعد غراب ـ منشورات الجامعة التونسية ـ ١٩٧٦هـ ـ تونس (بدون رقم الطبعة).

٢٧٥- العيون والمحاسن ـ أبو عبد الله محمد بن محمد النعمان الملقب بالمفيد (بدون معلومات أخرى).

٢٧٦- غاية النهاية في طبقات القراء ـ شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الجزري ـ عني بنشره/ ج. برجستراسر ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ـ بيروت.

٢٧٧- الغنية لطالبي طريق الحق عز وحل ـ عبد القادر الجيلاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ المطبعة المصرية ـ ١٢٨٨هـ ـ مصر.

٢٧٨- الغياثي (غياث الأمم في التياث الظلم) ــ أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ـ تحقيق/ د. عبد العظيم الذيب ــ الشؤون الدينية القطرية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ قطر.

٢٧٩- الغيث المسجم في شرح لامية العجم ـ الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ـ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ـ بيروت.

٢٨٠- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ـ الحافظ أحمد بن علي حجر العسقلاني ـ تحقيق/ الشيخ عبد العزيز بن باز ــ خدمة/ محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ــ المطبعة السلفية ومكتبتها ــ القاهرة ١٣٨٠هـ.

٢٨١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ـ محمد بن علي الشوكاني ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م ـ بيروت.

٢٨٢- الفتوى الحموية الكبرى ـ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ـ تقديم محمد عبد الرزاق حمزة ـ مطبعة المدني ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة).

٢٨٣- الفتوحات المكية ــ لابن عربي ــ دار صادر ــ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٨٤- فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ــ محمد صالح الزركان ــ دار الفكر ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٨٥- الفرق بين الفرق ـ عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي التميمي ــ تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد ــ دار المعرفة للطباعة والنشر ــ بيروت (بدون رقم الطباعة وتاريخها).

٢٨٦- الفرقان بين الحق والباطل ـ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ـ مكتبة عبد العزيز السلفية ـ مطبعة المدني ـ تاريخ الإيداع ١٩٨١م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٢٨٧- فرق وطبقات المعتزلة (المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل تأليف/ القاضي عبد الجبار الهمذاني جمعه أحمد بن يحيى بن المرتضى) تحقيق/ د. علي سامي النشار، وعصام الدين محمد علي ـ دار المطبوعات الجامعية ـ ١٩٧٢م (بدون رقم الطبعة وبلدها).

٢٨٨- الفروع ـ الشيخ شمس الدين المقدسي أبو عبد الله محمد بن مفلح ـ ويليه تصحيح الفروع لأبي الحسن علي بن سليمان المرداوي الصالحي ـ راجعه/ عبد الستار أحمد فراج ـ عالم الكتب بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ ـ بيروت.

٢٨٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم ـ تحقيق/ د. محمد إبراهيم نصر ، ود. عبد الرحمن عميرة ـ شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ـ الرياض .

٢٩٠- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ـ لثلاثة من العلماء : أبو القاسم البلخي ـ والقاضي عبد الجبار ـ والحاكم الجشمي ـ تحقيق/ فؤاد سيد ـ الدار التونسية ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٤م ـ تونس (بدون رقم الطبعة).

٢٩١- فقه السيرة ـ محمد الغزالي ـ دار الكتب الحديثة ـ الطبعة السابعة ١٩٧٦م ـ مصر.

٢٩٢- الفقيه والمتفقه ـ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ـ خدمة/ الشيخ إسماعيل الأنصاري ـ دار إحياء السنة النبوية ـ مصر ـ دار الكتب العلمية ـ ١٣٩٥هـ ـ بيروت ١٩٧٥م (بدون رقم الطبعة).

٢٩٣- الفسلفة الإغريقية ـ د. محمد غلاب ـ مطبعة البيت الأخضر ـ الطبعة الأولى ١٩٣٨م ـ القاهرة .

٢٩٤- الفلسفة اليونانية ـ شارل قرنر ـ ترجمة تيسير شيخ الأرض ـ منشورات دار الأنوار ـ الطبعة الأولى ١٩٦٨م ـ بيروت.

٢٩٥- الفلسفة اليونانية ـ د. كريم متى ـ مطبعة الإرشاد ـ ١٩٧١م ـ بغداد (بدون قم الطبعة).

٢٩٦- الفهرست للنديم ـ أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب المعروف بالوراق ـ تحقيق/ رضا -تجدد- (بدون معلومات أخرى).

٢٩٧- فوات الوفيات والذيل عليها ـ محمد بن شاكر الكتبي ـ تحقيق/ د. إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٢٩٨- الفوائد البهية في تراجم الحنفية ـ لأبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي ـ تصحيح/ محمد بدر الدين النعساني ـ مطبعة السعادة ـ الطبعة الأولى ١٣٢٤هـ ـ مصر .

٢٩٩- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ـ محمد بن علي الشوكاني ـ تحقيق/ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ـ مطبعة السنة المحمدية ـ الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م ـ مصر .

٣٠٠- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندق ـ أبو حامد الغزالي ـ تحقيق/ د. سليمان دنيا ـ دار إحياء الكتب العربية ـ الطبعة الأولى ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م ـ مصر .

٣٠١- في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة الخامسة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م ـ (بدون اسم المطبعة وبلدها).

٣٠٢- قاموس الغذاء والتداوي بالنبات (موسوعة غذائية صحية عامة) أحمد قدامة ـ دار النفائس ـ الطبعة الخامسة ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٩م ـ بيروت .

٣٠٣- القاموس المحيط ـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ـ تحقيق/ مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ـ بيروت.

٣٠٤- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ـ دار الجيل ـ بيروت ـ مكتبة المعارف ـ الرياض (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٠٥- قانون التأويل - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي - تحقيق/ محمد زاهد الكوثري - مكتب نشر الثقافة الإسلامية - الطبعة الأولى ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م (بدون اسم بلد الطبعة).

٣٠٦- القرآن العظيم : هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين - محمد صادق عرجون - مكتبة الكليات الأزهرية - دار الاتحاد العربي للطباعة - ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م - مصر (بدون رقم الطبعة).

٣٠٧- قصة الفلسفة اليونانية - أحمد أمين - زكي نجيب محمود - مطبعة دار الكتب المصرية - الطبعة الثانية - ١٩٣٥م - مصر .

٣٠٨- القواعد الحسان لتفسير القرآن - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - مكتبة المعارف - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - الرياض (بدون رقم الطبعة).

٣٠٩- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى - محمد صالح العثيمين - نشر مكتبة الكوثر الإسلامية - مطابع السفراء للأوفست - ١٤٠٦هـ - الرياض (بدون رقم الطبعة).

٣١٠- القواعد النورانية الفقهية - شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق/ محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية - الطبعة الأولى ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م - القاهرة .

٣١١- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية المعروفة بالقصيدة النونية - شمس الدين ابن قيم الجوزية - إدارة ترجمان السنة - مطبعة معارف لاهور - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م - باكستان.

٣١٢- الكافية في الجدل - إمام الحرمين الجويني - تحقيق/ د. فوقية حسين محمود - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م - القاهرة.

٣١٣- الكامل في التاريخ - أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير - دار صادر للطباعة والنشر - ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م - بيروت (بدون رقم الطبعة).

٣١٤- الكامل في ضعفاء الرجال - أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني ـ تحقيق/ لجنة من المختصين - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ـ بيروت (بدون رقم الطباعة).

٣١٥- الكامل في اللغة والأدب - أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد ـ مؤسسة المعارف - بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣١٦- كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة - الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي - تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م - بيروت .

٣١٧- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطني الرومي الحنفي ـ المعروف بحاجي خليفة ـ دار الفكر ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م - بيروت (بدون رقم الطبعة).

٣١٨- الكليات - أبو البقاء الحسيني الكفوي ـ المطبعة العامرة ـ ١٢٧٨هـ ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٣١٩- اللباب في تهذيب الأنساب - عز الدين بن الأثير الجزري - مكتبة المثنى - بغداد (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٢٠- لسان العرب - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي - دار صادر - بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٢١- لسان الميزان - الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - الطبعة الثانية ـ ١٩٧١م ـ ١٣٩٠هـ مصورة عن مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الهند - حيدر آباد ١٣٣٠هـ .

٣٢٢- الماتريدية دراسة وتقويماً - أحمد بن عوض الله الحربي ـ دار العاصمة للنشر والتوزيع - النشرة الأولى ١٤١٣هـ - الرياض .

٣٢٣- مباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ـ مكتبة المعارف ـ الطبعة الثامنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ الرياض .

٣٢٤- المبسوط ـ شمس الدين السرخسي ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٣٢٥- مجلة الأزهر ـ العدد السادس ـ تاريخ جمادى الآخرة ١٣٦٤هـ ، والعدد التاسع ـ تاريخ رمضان ١٣٦٤هـ .

٣٢٦- مجلة الهداية ـ العدد ١٠٠ ـ السنة التاسعة ـ جمادى الثانية ١٤٠٦هـ .

٣٢٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٧م ـ بيروت .

٣٢٨- مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ـ إعداد/ عبد الرحمن شرف الدين ـ مطبعة ق ـ ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م ـ بمباي ـ الهند (بدون رقم الطبعة).

٣٢٩- مجموعة الرسائل الكبرى ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦ ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٣٣٠- مجموعة الرسائل والمسائل ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ لجنة التراث العربي ـ تعليق/ السيد محمد رشيد رضا (بدون معلومات أخرى).

٣٣١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ جمع وترتيب/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ـ مكتبة المعارف ـ الرباط (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٣٢- مجموع المتون في مختلف الفنون ـ عني بنشره/ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ـ الشؤون الدينية ـ قطر ـ مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر ـ الدوحة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٣٣- محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي ـ زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب ـ خدمة/ الأمير شكيب أرسلان ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ ١٩٦٧م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٣٣٤- محاضرات في تاريخ العلوم ـ د. فؤاد سزكين ـ مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ الرياض (بدون رقم الطبعة).

٣٣٥- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ـ فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي ـ وبذيله تلخيص المحصل لنصير الدين الطوسي ـ خدمة/ طه عبد الرؤوف سعد ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٣٦- محنة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ـ تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسي ـ تحقيق/ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ هجر للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ـ مصر .

٣٣٧- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ـ محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ـ اختصره/ الشيخ محمد بن الموصلي ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٣٨- مختصر العلو للعلي الغفار ـ للحافظ الذهبي ـ اختصار وتعليق/ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ دمشق ـ بيروت .

٣٣٩- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ـ ابن قيم الجوزية ـ تحقيق/ دار الكتاب العربي ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٣٤٠- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ـ أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي عفيف الدين اليافعي اليمني المكي ـ الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف النظامية ـ حيدر آباد الدكن ـ الهند ـ ١٣٧٧هـ ـ مؤسسة الأعظمي ـ بيروت .

٣٤١- مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ـ دار الأندلس ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٤٢- المستدرك على الصحيحين - أبو عبد الله الحاكم النيسابوري - وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي - مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٤٣- المستصفى من علم الأصول - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي - المطبعة الأميرية ببولاق - الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ - مصر.

٣٤٤- المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر - محمود شكري الألوسي - تحقيق/ د. عبد الله الجبوري - دار العلوم للطباعة والنشر - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م (بدون اسم بلد الطبعة).

٣٤٥- مسند أبي داود الطيالسي - دار الكتاب اللبناني - دار التوفيق - الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف بالنظامية - الهند - حيدر آباد الدكن - ١٣٢١هـ .

٣٤٦- مسند أبي يعلى الموصلي - أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي - تحقيق/ إرشاد الحق الأثري - دار القبلة جدة - مؤسسة علوم القرآن - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - بيروت .

٣٤٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي - دار صادر - بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٤٨- المسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل - خدمة/ أحمد محمد شاكر - دار المعارف - ١٣٧١هـ - ١٩٥١م - مصر .

٣٤٩- المسند - الحافظ أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي - تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي - عالم الكتب بيروت - مكتبة المتنبي - القاهرة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٥٠- مشاهير علماء نجد وغيرهم - عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ - دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ - المملكة العربية السعودية.

٣٥١- مشكاة المصابيح - ولي الدين محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي - بتحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني - منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر - الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م - سوريا - لبنان.

٣٥٢- المصباح المنير في شرح غريب الشرح الكبير للرافعي - أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي - تصحيح/ مصطفى السقا - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٥٣- المصنف - أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني - تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي - من منشورات المجلس العلمي (بدون معلومات أخرى).

٣٥٤- المصنف في الأحاديث والآثار - الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة - تحقيق/ مختار أحمد الندوي - الدار السلفية - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - الهند.

٣٥٥- المطالب العالية عن العلم الإلهي - فخر الدين الرازي - تحقيق/ د. أحمد حجازي السقا - دار الكتاب العربي - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - بيروت.

٣٥٦- المعارف - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - تحقيق/ د. ثروت عكاشة - دار المعارف - الطبعة الثانية - مصر (بدون تاريخ الطبعة).

٣٥٧- معالم السنن - أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي - وهو شرح سنن الإمام أبي داود - المكتبة العلمية - الطبعة الثانية - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - بيروت.

٣٥٨- معترك الأقران في إعجاز القرآن - الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تحقيق/ علي محمد البجاوي - دار الفكر العربي - دار الثقافة العربية للطباعة - تاريخ الإيداع ١٩٦٩م - بيروت .

٣٥٩- المعتمد في أصول الدين - القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد الفراء الحنبلي - تحقيق/ د. وديع زيدان حداد - دار المشرق - ١٩٨٦م - بيروت (بدون رقم الطبعة).

٣٦٠- المعجزة الكبرى القرآن - محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - دار غريب للطباعة - القاهرة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٦١- معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ـ شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ـ عناية/ د. س. مرجليوث ـ مطبعة هندية بالموسكي ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٢٤م ـ مصر .

٣٦٢- معجم الأدباء ـ ياقوت الحموي ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ بيروت.

٣٦٣- معجم البلدان ـ أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ـ تحقيق/ فريد عبد العزيز الجندي ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ـ بيروت .

٣٦٤- المعجم الفسلفي ـ د. جميل صليبا ـ دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الأولى ١٩٧١م ـ بيروت .

٣٦٥- المعجم الفلسفي ـ مجمع اللغة العربية ـ الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة).

٣٦٦- المعجم الكبير ـ الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي ـ مطبعة الأمة ـ بغداد (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٦٧- معجم مقاييس اللغة ـ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ـ تحقيق/ عبد السلام محمد هارون ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م مصر.

٣٦٨- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية ـ عمر رضا كحالة ـ مكتبة المثنى ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٦٩- معرفة علوم الحديث ـ الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابوري ـ خدمة/ د. السيد معظم حسين ـ جمعية دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الهند ـ منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ـ الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .

٣٧٠- معيد النعم ومبيد النقم ـ تاج الدين عبد الوهاب السبكي ـ تحقيق/ محمد علي النجار وآخرين ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م ـ مصر .

٣٧١- المغازي ـ محمد بن عمر الواقدي ـ تحقيق/ د. مارسدن جونس ـ عالم الكتب ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ـ بيروت .

٣٧٢- المغني ـ موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ـ تحقيق/ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ود. عبد الفتاح الحلو ـ هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ـ الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ـ القاهرة .

٣٧٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ـ ابن قيم الجوزية ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٧٤- المفردات في غريب القرآن ـ أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني ـ المطبعة الميمنية ـ ١٣٢٤هـ ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٣٧٥- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ـ أحمد عمر بن إبراهيم القرطبي ـ مخطوطة ـ مركز الملك فيصل -تحت الرقم : ١٤٨٦٢ .

٣٧٦- المقابسات ـ أبو حيان التوحيدي ـ تحقيق/ حسن السندوبي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ المطبعة الرحمانية ـ الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م ـ مصر.

٣٧٧- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ـ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ـ تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م ـ القاهرة.

٣٧٨- مقامع الصلبان ـ أحمد بن عبد الصمد الخزرجي ـ تحقيق/ عبد المجيد الشرفي ـ الشركة التونسية لفنون الرسم ـ ١٩٧٥م ـ تونس (بدون رقم الطبعة).

٣٧٩- مقدمة ابن خلدون ـ دار الشعب (بدون معلومات أخرى) .

٣٨٠- المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ـ برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح ـ تحقيق/ د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ـ مكتبة الرشد ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ـ الرياض .

٣٨١- الملل والنحل ـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ـ تحقيق/ محمد سيد كيلاني ـ دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٣٨٢- من أخلاق العلماء ـ لمجهول، وهو من المعاصرين، كان قاضياً لدمياط بمصر ـ وفي مقدمته تلخيص كتاب الآجري: أخلاق العلماء ـ والكتاب بدون أي معلومات إلا أن منه نسخة في المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت التصنيف١٢١٨،١ أ م أ

٣٨٣- من أسرار البلاغة في القرآن الكريم ـ محمود السيد شيخون ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٣٨٤- مناظرات جرت في بلاد ما وراء النهر في الحكمة والخلاف وغيرهما بين الإمام فخر الدين الرازي وغيره ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الطبعة الأولى ١٣٥٥هـ ـ حيدر آباد ـ الهند.

٣٨٥- مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية ـ تقديم وتعليق/ عبد الرحمن دمشقية ـ دار طيبة للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ الرياض.

٣٨٦- مناظرة بين الإسلام والنصرانية لمناقشة العقيدة الدينية بين مجموعة من رجال الفكر من الديانتين الإسلامية والنصرانية ـ دار الوطن للنشر ـ دار أولي النهى ـ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الإرشاد ـ الرياض (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٨٧- مناظرة في الرد على النصارى ـ فخر الدين الرازي ـ تحقيق/ د. عبد المجيد النجار ـ دار الغرب الإسلامي ـ ١٩٨٦م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٣٨٨- المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمة الله الهندي والدكتور القسيس فندر ـ تحقيق/ د. محمد عبد القادر خليل ـ دار ابن تيمية للنشر والتوزيع والإعلام ـ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ الرياض.

٣٨٩- مناقب الإمام أحمد بن حنبل ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ـ تحقيق/ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ مكتبة الخانجي ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ مصر.

٣٩٠- مناقب الشافعي ـ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ تحقيق/ السيد أحمد صقر ـ مكتبة دار التراث ـ دار النصر للطباعة ـ الطبعة الأولى ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م ـ القاهرة .

٣٩١- مناهج الأدلة في عقائد الملة ـ ابن رشد ـ تحقيق/ د. محمود قاسم ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ مطبعة مخيمر ـ مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخية).

٣٩٢- مناهج البحث عند مفكري الإسلام ـ د. علي سامي النشار ـ دار المعارف ـ مطبعة المصري ـ الطبعة الثانية ١٩٦٥م ـ مصر .

٣٩٣- مناهج الجدل في القرآن الكريم ـ د. زاهر بن عواض الألمعي ـ مطابع الفرزدق التجارية ـ الرياض (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٩٤- مناهل العرفان في علوم القرآن ـ محمد عبد العظيم الزرقاني ـ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٣٩٥- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية ـ الطبعة الأولى ١٣٥٩هـ ـ حيدر آباد ـ الهند.

٣٩٦- المنجد في الأعلام ـ دار المشرق ـ الطبعة السادسة عشرة ١٩٨٨م ـ بيروت.

٣٩٧- منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود مذيلاً بالتعليق المحمود على منحة المعبود ـ أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي ـ المطبعة المنيرية بالإزهر ـ الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ ـ مصر .

٣٩٨- منشورات جامعة حلب ـ معهد التراث العلمي ـ أبحاث المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب ـ تحرير د. خالد ماغوط ـ محمد علي خياطة ـ ١٩٨٤م ـ حلب (بدون رقم الطبعة).

٣٩٩- منطق أرسطو ـ تحقيق/ عبد الرحمن بدوي ـ الجزء الثاني ـ الناشر مكتبة النهضة المصرية ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٩م ـ القاهرة (بدون رقم الطبعة).

٤٠٠- المنطق الحديث ومناهج البحث ـ د. محمود قاسم ـ دار المعارف ـ الطبعة الخامسة ١٩٦٧م ـ مصر .

٤٠١- المنطق الصوري والرياضي ـ عبد الرحمن بدوي ـ وكالة المطبوعات ـ الطبعة الخامسة ١٩٨١م ـ الكويت .

٤٠٢- المنطق المنظم في شرح الملوي على السلم ـ عبد المتعال الصعيدي ـ مطبعة السعادة ـ الطبعة الثانية ـ مصر (بدون تاريخ الطبعة).

٤٠٣- المنطق وطرائق العلم العامة ـ جميل صليبا وكامل عيّاد ـ مكتبة العلوم والآداب ـ مطبعة الكشاف ـ ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٤٠٤- المنطق والفكر الإنساني ـ د. عبد السلام محمد عبده ـ مطبعة لطفي ـ ١٩٧٩م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٤٠٥- المنقذ من الضلال ـ أبو حامد الغزالي ـ مطبعة ابن زيدون ـ الطبعة الثانية ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م ـ دمشق.

٤٠٦- منهاج السنة النبوية ـ أبو العباس أحمد ابن تيمية ـ تحقيق/ د. محمد رشاد سالم ـ طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ـ الرياض.

٤٠٧- منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه ـ أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي ـ مطبعة دار إحياء الكتب العربية ـ ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٤٠٨- المنهاج في ترتيب الحجاج ـ أبو الوليد الباجي ـ تحقيق/ عبد المجيد تركي ـ دار الغرب الإسلامي ـ الطبعة الثانية ١٩٨٧م ـ بيروت .

٤٠٩- المنهج الجدلي عند هيجل ـ إمام عبد الفتاح إمام دار المعارف ١٩٦٩م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٤١٠- المنية والأمل ـ القاضي عبد الجبار الهمذاني ـ تحقيق/ د. عصام الدين محمد علي ـ دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر ـ ١٩٨٥م ـ الإسكندرية (بدون رقم الطبعة).

٤١١- المهذب في فقه مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه ـ الموفق أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي ـ شركة مكتبة أحمد بن سعد بن بنهان ـ أندونيسيا. (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤١٢- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ـ الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ـ تحقيق/ محمد عبد الرزاق حمزة ـ المطبعة السلفية ومكتبتها (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤١٣- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ـ تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي ـ دار صادر ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤١٤- الموافقات في أصول الشريعة ـ أبو إسحاق الشاطبي ـ خدمة محمد عبد الله دراز -دار الفكر العربي ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤١٥- موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق/ محمد محيي الدين عبدالحميد، ومحمد حامد الفقي ـ مطبعة السنة المحمدية ـ الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م ـ مصر.

٤١٦- المواقف في علم الكلام ـ عبد الرحمن بن أحمد الإيجي ـ عالم الكتب ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤١٧- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ـ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المعروف بالحطاب ـ مكتبة النجاح ـ طرابلس ـ ليبيا ـ مطابع دار الكتاب العربي ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤١٨- الموجز ـ أبو عمار عبد الكافي الأباضي ـ آراء الخوارج الكلامية ـ خدمة/ د. عمار الطالبي ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م الجزائر (بدون رقم الطبعة).

٤١٩- موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية، المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون ـ الشيخ المولوي محمد أعلى بن علي التهانوي ـ خياط ـ بيروت (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤٢٠- موسوعة الحيوان ـ دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ـ دمشق (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤٢١- الموسوعة العربية الميسرة ـ إشراف/ محمد شفيق غربال ـ دار نهضة لبنان للطبع والنشر ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ بيروت (بدون رقم الطبعة).

٤٢٢- الموسوعة الفلسفية ـ د. عبد المنعم الحفني ـ دار ابن زيدون ـ مكتبة مدبولي ـ الطبعة الأولى ـ بيروت (بدون تاريخ الطبعة).

٤٢٣- الموطأ ـ مالك بن أنس ـ تصحيح/ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م ـ مصر (بدون رقم الطبعة).

٤٢٤- موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع ـ د. إبراهيم بن عامر الرحيلي ـ مكتبة الغرباء الأثرية ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ المدينة النبوية .

٤٢٥- مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ أعداد/ عبد العزيز الرومي وآخرين ـ طبعة جامعة الإمام محمد الإسلامية ـ الرياض (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤٢٦- ميزان الاعتدال في نقد الرجال - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - تحقيق/ علي محمد البجاوي - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤٢٧- النبأ العظيم - نظرات جديدة في القرآن - د. محمد عبد الله دراز - مطبعة السعادة - ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م - مصر (بدون رقم الطبعة).

٤٢٨- النبوات - تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤٢٩- النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والآلهية - أبو علي بن سينا - مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - الطبعة الثانية ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م - مصر.

٤٣٠- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - د. سامي علي النشار - دار المعارف - الطبعة الثالثة ١٩٦٥م - مصر.

٤٣١- النشر في القراءات العشر - أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري - خدمة علي محمد الضباع - مكتبة الرياض الحديثة (بدون رقم الطبعة وتاريخها).

٤٣٢- نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الماتريدية والأشعرية في العقائد مع ذكر أدلة الفريقين - العلامة عبد الرحيم بن علي الشهير بشيخ زاده - المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر - الطبعة الأولى ١٣١٧هـ - مصر.

٤٣٣- نفح الطيب من غصن الأندلس - الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م - بيروت (بدون رقم الطبعة).

٤٣٤- نقض المنطق - شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق/ الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة - والشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع - تصحيح/ محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية - الطبعة الأولى ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م - القاهرة .

٤٣٥- نهاية الإقدام في علم الكلام - عبد الكريم الشهرستاني - تصحيح/ الفرد جيوم (بدون معلومات أخرى).

٤٣٦- النهاية في غريب الحديث والأثر - أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير - تحقيق/ طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحي - المكتبة الإسلامية (بدون معلومات أخرى).

٤٣٧- نونية القحطاني - أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني - تصحيح/ محمد بن أحمد سيد أحمد - مكتبة السواري للتوزيع - الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨٩م - السعودية.

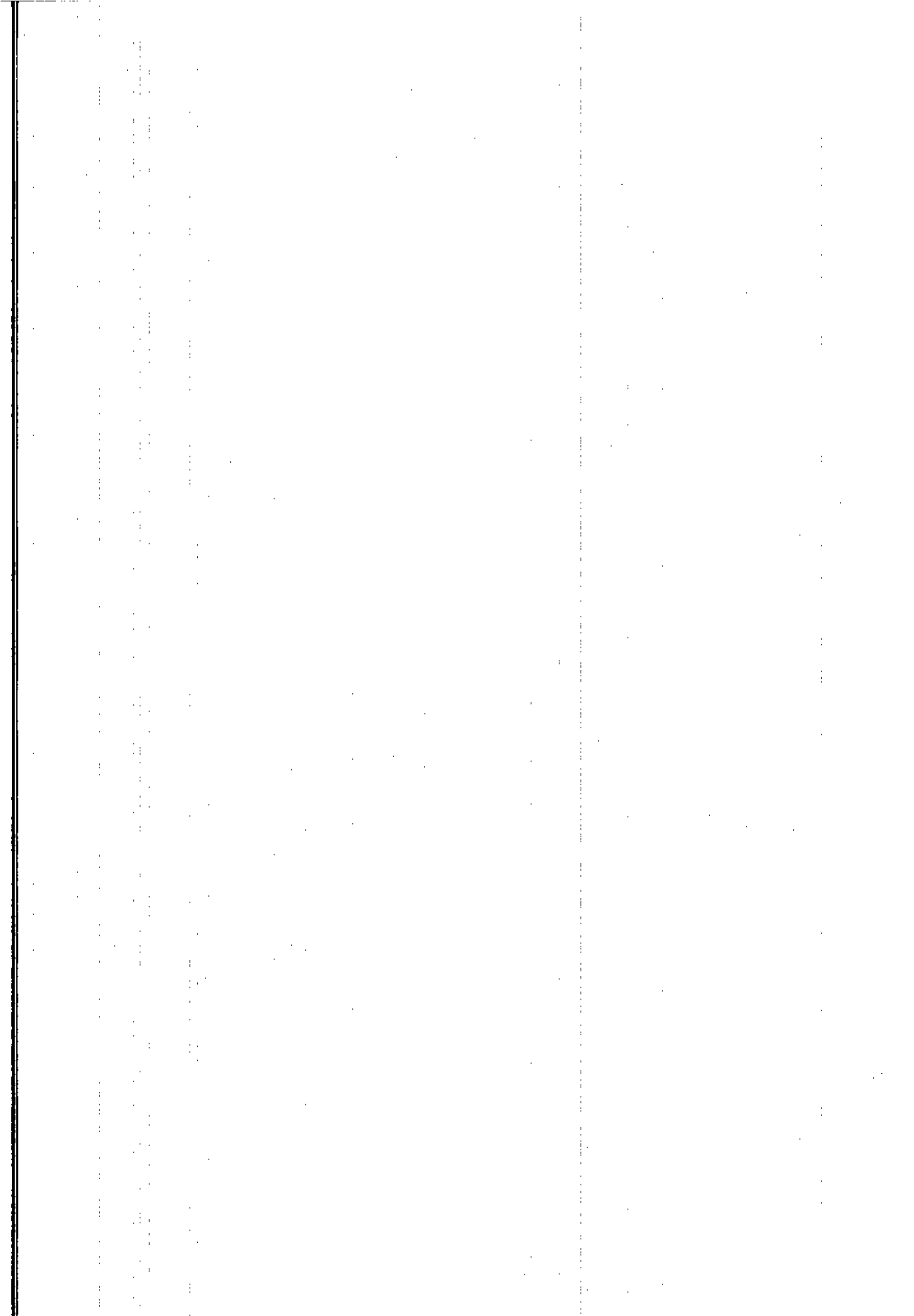
٤٣٨- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى - شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - بيروت.

٤٣٩- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - إسماعيل باشا البغدادي - وكالة المعارف - استانبول ١٩٥١م - أعادت طبعته مكتبة الإسلامية والجعفرية - الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.

٤٤٠- الوافي بالوفيات - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي - اعتناء/ س. ديدرينغ - دار النشر فرانز شتاينر - بفيسبادن ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م (بدون رقم الطبعة).

٤٤١- وفود الإسلام - لأبي تراب الظاهري - دار القبلة - الطبعة الأولى - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م - جدة .

٤٤٢- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان - تحقيق/ د. إحسان عباس - دار صادر - ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧م - بيروت (بدون رقم الطبعة).



فهرس الموضوعات